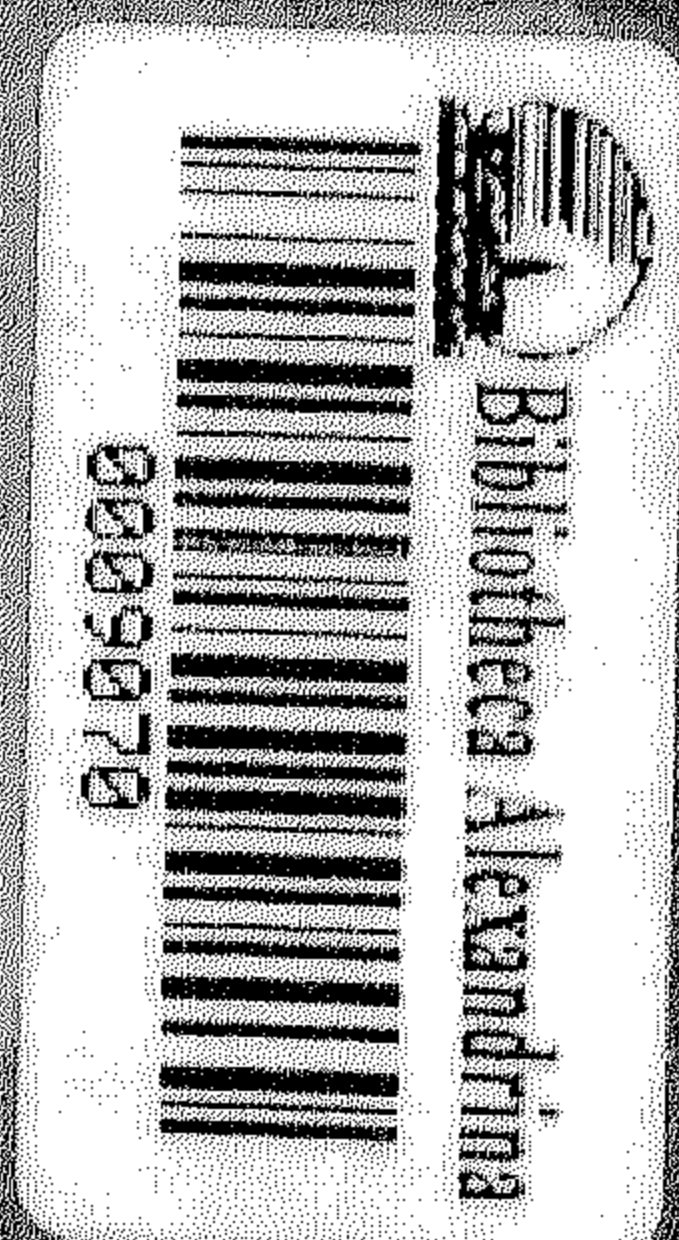


ثورة ايوبيه

سردار ايوبي
مصر
الملك فاروق الاول



احمد حمروش



ثورة ١٩٥٢ يوليو

الجزء الأول

- مصر والعسكريون
- مجتمع جمال عبد الناصر
- عبد الناصر والعرب

أحمد حمروش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

الاخراج الفني : عمر حمادي علي



مصر والعسكريون



الأهداء

الى ولدى علاء وهانى
وجيل مصر الجديد

مقدمة

كانت وفاة جمال عبد الناصر المفاجئة صدمة هزت مشاعر الأمة العربية ، فقد رحل الرجل الذي عاش زعيماً تلهب كلمته ومواقفه حماس الملايين ، وانقضت بموته مرحلة هامة من مراحل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . غاب القائد الذي يملك كل الأسرار والمعلومات . . . قبل أن تكتب قصة الثورة التي دبرها وقادها .

وشعرت بمسئولية كبيرة ، تدفعني إلى ضرورة البحث والدراسة لمحاولة تقديم ثورة ٢٣ يوليو ، التي شاركت فيها بقدر متواضع مع غيري من الزملاء العسكريين وضباط الجيش المصري .

لم تكن البداية سهلة . . . فإن شيئاً رسمياً لم يسجل عن تاريخ الحركة . . . وكل ما نشر لا يعدو أحاديث صحفية . . . والمعلومات عندي شخصية . . . وبعض الذين أسهموا في الحركة تقدم بهم العمر . . . والذكريات كادت تضيع .

المسئولية جسيمة . . . واكتشاف الحقيقة كاملة ضرورة لا شك فيها . . . ولم تأخذني الحيرة طويلاً .

بدأت بعقد اجتماعات وأحاديث شخصية مع الذين قاموا بالحركة من العسكريين . . . أعضاء مجلس قيادة الثورة ، والضباط الأحرار ، والذين وصلوا إلى مركز المسئولية .

ولم تقتصر الاجتماعات والأحاديث على العسكريين فقط . . . فقد قابلت بعض السياسيين القدامى الذين أضيروا من الثورة ، وبعض الذين شاركوا في السلطة .

عدد الذين قابلتهم تجاوز المائة . . . وفي نهاية الكتاب سجل بأسمائهم .

الدور الرئيسي للعسكريين ٠٠٠ ولكنه دور لا يبدأ يوم ٢٣ يوليو ٠٠٠
وانما يمتد قبل ذلك شهورا وسنين .

ليس هناك تاريخ محدد يمكن القول بأنه نقطة البداية ٠٠٠ فان نضال
العسكريين المصريين مترابط الحلقات ٠٠٠ يعود الى بداية القرن التاسع عشر
عندما جند الفلاح المصري لأول مرة بعد تاريخ طويل ، ليقوده ضباط من
الأتراك والشراكسة .

الباب الأول ٠٠٠ يقدم في ايجاز دور العسكريين المصريين ، ونضالهم
ضد سيطرة الأجانب ، وثورة أحمد عرابي ، وموقف الجيش المصري في عهد
الاحتلال البريطاني ٠٠٠

وجدت ذلك ضرورة حيوية حتى لا تكون ثورة يوليو مقطوعة الصلة
بالماضي ، فتيار النضال متدفق لا ينقطع ، والعسكريون في مصر لهم
تاريخ قبل أن يصلوا الى قمة السلطة ، ويحكموا مصر بثياب عسكرية أو
مدنية .

(مصر ٠٠٠ والعسكريون) اسم هذا الكتاب الذي يصدر في أربعة
أجزاء تنتهي بوفاة جمال عبد الناصر القائد الذي خرج من صفوف الجيش
ليقود الشعب ويحكم مصر .

الجزء الأول ٠٠٠ بين يديك ٠٠٠ يقدم - بعد العودة لدور العسكريين
في تاريخ مصر الحديث - قصة ثورة يوليو منذ بدأت فكرة في ضمير بعض
الضباط الوطنيين من مختلف الاتجاهات والمدارس الفكرية ، حتى انتهت
الى تدبير وتنظيم وحركة .

الوصول الى القمة كان دورا بسيطا من أدوار الثورة ، التي بدأت من
اليوم الأول تواجه مصر : الشعب والقضايا الوطنية والاجتماعية ٠٠٠
وتواجه أيضا الاحتلال البريطاني والصفوط الامبريالية .

الجزء الأول ينضم خلال مرحلة هامة من مراحل الثورة ، خاضت فيها
صراعات مختلفة ، انتهت الى عزل محمد نجيب ، وتولى مجلس قيادة
الثورة المسئولية وحده بعد تعيين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء .

فصل من فصول الثورة ، تعقبه فصول أخرى في الأجزاء التالية .
وقبل أن أترك الكتاب لك ٠٠٠ أحب أن أقول ان في عنقي ديننا من
الشكر لكل هؤلاء المعارف والزلاء والأصدقاء الذين تفضلوا بمنحوني بعض

وقتہم وقدموا لی فی سناء ما عندهم من معلومات وذاکریات ۰۰۰ کانت
السند الرئیسی فی ظهور هذا الكتاب ۰

وفی صدق أقول لا أعتقد أنى قد أحطت بكل شیء ۰۰۰ ولكنى
حاولت ۰۰۰ فلم أكتب الكلمة الأولى فی الكتاب الا بعد عام ونصف من
البحث والتدقیق والسؤال ۰

وأخیرا ۰۰۰ كلمة وفاء ۰۰۰ للرجل الذى قاد ثورة يوليو ۰۰۰
لجمال عبد الناصر ۰

احمد حمروش

الباب الأول

الفصل الأول :

محمد علي واليا ٠٠٠ وابو خليل قائدا للجنود

(محمد علي هو الشخص الوحيد الذي كان
في قدرته تحويل تركيا من العمامة الفاخرة
الى رأس حي حقيقي)

كارل ماركس

الفصل الثاني :

الاميرالاي احمد عرابي ٠٠ ثائرا وقائدا

(السلطة التي أتمتع بها الآن لم أقم
باغتصابها)

احمد عرابي

الفصل الثالث :

الجيش المصري تحت الاحتلال البريطاني

(من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابتنا وأنا
لا أود أن يدخل ضباط الجيش في حركتنا
السياسية)

مصطفى كامل

الفصل الأول

محمد علي واليا ٠٠٠ وأبو خليل قائدا للجنود

(محمد علي هو الشخص الوحيد الذي كان
في قدرته تحويل تركيا من العمامة الفاخرة
الى رأس نقي حقيقي)

كارل ماركس

الحديث عن العسكريين في مصر ليس حديثا عن طبقة ٠٠٠ فالجيش
المصري يتكون من مختلف طبقات الشعب ٠٠٠ عمالا وفلاحين ، وبورجوازية
صغيرة وكبيرة ٠٠٠ والى عهد قريب كان يضم الاقطاعيين أيضا ٠٠٠

والحديث عن العسكريين في مصر أيضا ، ينفرد بخاصية غريبة ٠٠٠
لأنه منذ اللحظة الأولى التي لبس فيها الفلاح المصري ملابس الجندية في
عهد محمد علي ، وانتظم في صفوف الجيش ، ثبت تناقض طبقي أخذ ينمو
بين الجنود وصغار الضباط أبناء الفلاحين المصريين ، وبين الإثراك
والشراكسة الذين تولوا مناصب القيادة العليا في الجيش ، حتى وصل
الصراع ذروته مع الثورة العربية .

ولم يخمد الصراع مع هزيمة الثورة العرابية واحتلال البريطانيين
لمصر ٠٠٠ ولكنه أخذ طابعا وطنيا بين المصريين في صفوف الجيش ، وبين
قوات الاحتلال البريطاني .

حركة الصراع ، ونمو التناقضات ، وتغير صورة النضال داخل الجيش المصرى لم تهدأ أو تتوقف منذ مطلع القرن التاسع عشر وهى تشكل صورة فريدة من صور نضال الشعب المصرى .

والمشير أن الجيش المصرى الحديث لا تمتد جذوره الى الماضى السحيق ، ولا يرتبط بصورة متصلة متجددة مع الجيش المصرى فى عهد الفراعنة هناك ثغرة زمنية طويلة فى تاريخ الجيش المصرى ، وفاصل عازل امتد مئات السنين بين آخر معاركه وبين العودة الى تجنيد المصريين .

خلال مئات السنين من حكم المماليك والعثمانيين لم يكن للمصريين دور فى الخدمة العسكرية ، كان حكام مصر يخشون أن يحمل الفلاحون السلاح وتنتظمهم صفوف الجيش .

الرفض المطلق لتجنيد المصريين يعطى مؤشرا هاما لتخوف الحكام غير المصريين من بعث الروح العسكرية فى الشعب ، أو السماح لأبنائه بحمل السلاح .

وأصبحت هذه هى القاعدة .

ورث حكام مصر الأتراك الذين غزوا مصر ١٥١٧ من السلاطين المماليك عادة تكوين حرس خاص لهم من المماليك الذين كانوا أرقاء مستوردين فى الغالب من الدول المحيطة بالبحر الأسود أجبروا على اعتناق الاسلام ودربوا خصيصا للخدمة العسكرية ، وكان الحكام الاترام يعينونهم فى مراكز الدولة الهامة ويهبونهم أرضا واسعة ثلثا الأرض المصرية كانت فى حوزة المماليك فى نهاية القرن الثامن عشر مما جعلهم فئة سائدة من الاقطاع فى مصر .

.. . . . وعندما اضمحلت الامبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر تنحور الاقتصاد وسرى الفساد فى أجهزة الدولة ، وانخفضت الثقافة ، وخرجت الأقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ولقد الجيش قدرته القتالية ، وانتهز على بك الكبير فرصة انبلاع الحرب بين تركيا وروسيا واعان استقلاله عام ١٧٦٩ ، وصار اسمه يذكر فى خطب الجوامع مقرونا بلقب « سلطان مصر و خاقان البحرين »

.. . . . وفى مواجهة ذلك كان الفلاح المصرى يتعرض لعذاب شديد من الضغط والشنخرة ونهب المخاضيل وكانت الهجرة من القرى ظاهرة منتشرة فى أرجاء الامبراطورية العثمانية ، وفى مصر خاصة وتكررت المجاعات ، وأجبر الإقطاعيين بآسمن (قانون نامة مصر) تجبر الملتزمين والمشايخ على عدم إبقاء قطعة أرض واحدة من الأرض غير مزروعة ، وإن تحولوا دون

هرب الفلاحين ، وأن يسعوا لاسكانهم فى القرى الخربة والخابية ، وفى حالة فرار الفلاح من أرضه يتحمل الشيخ التزاماته المادية .

من أجل هذه الحالة كان الفلاح يقف بعيدا عن الجيش ، لا يجنده الجكاجم الأتراك أو المماليك ، لما يمكن أن يحمله للجيش من روح العظمة والثورية .

وعندما غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨ كان يدرك هذه الحقيقة ، فشاء أن يتخذ منها ستارا يخفى أغراضه الاستعمارية ، وقال فى بيانته عن المماليك (فبماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شئ أحسن ما فيها من الجوارى الحسناء والخيل العتاق والمساكن المفرحة) .

كان المماليك يعتبرون جيشهم المدرب المحترف (جيشا لا يقهر) . ولكنه كجيش اقطاعى هزم فى أول معركة أمام جيش نابليون الذى عركته حروب الثورة الفرنسية . وكانت لنابليون فى ذلك نظرية غير عنها بقوله (لا شك أن مملوكين يتفوقان على ثلاثة من الفرنسيين ، وإن ١٠٠ مملوك يعادلون ١٠٠ فرنسي ، ٣٠٠ فرنسي يتفوقون عادة على ٣٠٠ مملوك . أما ١٠٠٠ فرنسي فيهزمون دائما ١٥٠٠ مملوك) (١) .

المقصود من ذلك هو أن التطور الحديث للجيش يستطيع الانتصار على المهارة والقدرة الفردية . وفى ذلك كتب فردريك انجلز فى كتابه (ضد دوهرنج) موضحا (كل ما يحتاج اليه نابليون هو قدر محدود من الخيالة ليظهر قوة ومفعول الضبط الذى تنطوى عليه الصفوف المتراصة والعمليات المخططة ، لكى تتحول قوة الضبط هذه الى تفوق حتى على حشود أكبر من الفرنسيان غير النظاميين الذين يملكون خيولا أجود أو يقصفون ببراعة أكبر فى الفروسية وفى المبارزة والذين لا يقلون عن غيرهم بسالة) .

ولم تكن المعركة بين نابليون والمماليك فقط ، وإنما دخلها الشعب المصرى رغم انه لم ينتظم فى صفوف الجيش . ولكنه اتخذ موقف المقاومة ضد القوات الأجنبية الغازية ، وجمعت التبرعات لشراء السلاح ، وأنشأهم سكان القاهرة اسهاما فعالا فى الدفاع عنها ، وغرق الألوف منهم فى النيل أثناء التراجع . بعد معركة امبابية الغربية - من الأهرام على الضفة الغربية للنيل ، والى انتصر فيها نابليون بعد أن سقط فى المعركة ٣٠٠٠ مملوك من مجموع ٦٠٠٠ وفر الباقون : البعض منهم الى الوجه القبلى مع مراد بك والبعض الى سوويا مع ابراهيم بك .

(٥) تاريخ الاقطار العربية الحديث - لوتسكى .

الشعب المصري لم يتردد في دخول المعركة دفاعا عن أرضه رغم عزل المماليك له عن الجيش ، واستمر في نضاله العسكري الذي كان يشبه (حرب العصابات) التي اشتعلت نتيجة أسلوب الإدارة الفرنسية في فرض اتاوات نقدية وعينية تجاوزت في بعض الأحيان ما كان يحصل عليه المماليك ، كما صادرت الأغذية والعلف .. وكانت هذه هي أول مجابهة لغزاة غير مسلمين بعد الحرب الصليبية .

اشتدت (حرب العصابات أو الانتصار) وخاصة في الدلتا بعد دخول الأتراك للحرب ، فهجم الفلاحون المصريون على السعاة العسكريين والدوريات ، وأربكوا خطوط الاتصال الفرنسية ، وقتلوا الضباط والموظفين وجباة الضرائب الفرنسيين ، فأرسل نابليون حملات تنكيل للدلتا ، وحرق ضباطة القرى المتمردة ، غير أن ذلك لم يخمد اللهب الذي امتد إلى القاهرة ، حتى أصبحت تشبه باريس خلال الأيام الأولى للثورة الفرنسية على تحذير القنصل الفرنسي في ذلك الحين (٢) .

و تحولت القاهرة إلى مدينة ثائرة ، انسحبت منها القوات الفرنسية ، وهرب نابليون نفسه إلى جزيرة من جزر النيل ، واحتشد ١٥ ألف تائر في الجامع الأزهر وأقاموا المتاريس والحواجز حول الطرق المؤدية له ، وسارع إلى القاهرة ٥ آلاف فلاح من القرى المجاورة ، وبضعة آلاف من بدو الصحراء الغربية (٣) .

وأرسل نابليون كتيبة ضد الفلاحين وأخرى ضد البدو ، وحشد قواته الأساسية بالقرب من القاهرة ، حيث وجه نيران مدافعه إلى المعتصمين في الجامع وما حوله ، فقتل الآلاف منهم ومن نجا قتلته جراب الجنود الفرنسيين ، ولم يتخذوا أجدا أسيرا .

ورغم طلب الثوار وقف القتال إلا أن نابليون لم يتوقف ، ونفذت خطته ببشاعة ، وفي ذلك كتب نابليون للجنرال مينو حاكم رشيد يقول له (لا يمكن إخضاع هؤلاء القوم إلا بالقسوة) .

ولم تكن هذه هي الانتفاضة الوحيدة لسكان القاهرة .. ثارت القاهرة مرة أخرى ضد كليبر في مارس ١٨٠٠ بعد عودة نابليون سيرا إلى فرنسا ، وأبادوا حامية فرنسية صغيرة كانت في المدينة ، وقاوموا حصارا امتد شهرا حتى ١٥ أبريل عندما دكت القوات الفرنسية بولاق وحولتها إلى رماد ، وقتلوا بالحراش عدة آلاف من الثوار .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

وتعرضت القاهرة لمذبحة ثالثة بعد اغتيال كليبر بيد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، واجتاحت الجنود الفرنسية شوارع القاهرة تقتل وتحرق بلا حساب .

كان المصريون يدافعون عن وطنهم خلال سنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث وهم يحملون السلاح بطريقة تلقائية . وقد استفادوا من ذلك خبرة كبيرة ، انعكست على الحركات الوطنية في المستقبل ، وساعدهم في ذلك ان الأسلحة كانت في بداية تطورها تضم السيف والخنجر والسهم الى جانب البندقية البدائية .

وأثبت المصري بعد مئات السنين من حكم المماليك والعثمانيين انه لم يفقد صفته كجندى محارب يتحمل قسوة المعارك في صبر وشجاعة . وفي ذلك يكمن سر ابعاده عن التجنيد وعزله عن صفوف الجيش وتعامل الحكام الأجانب معه في حذر .

وبعد مغادرة الفرنسيين مصر ، عقب توقيع معاهدة الصلح مع تركيا في ٩ أكتوبر ١٨٠١ تركوا دراسة شاملة لمصر في ٢٠ مجلد من كتاب « وصف مصر » تضم بحوثا لامعة في مختلف المجالات ، حلت بعض القضايا الحربية العملية مثل صنع البارود من الموارد الطبيعية المتاحة في مصر ، ووضع الخرائط الحربية ودراسة الطبوغرافيا ، وعلاج الأمراض التي تنتشر بين الجنود وذلك الى جانب دراسات وأبحاث أخرى في مختلف نواحي الحياة .

وكانت هذه الدراسات موضع تقدير ومتابعة في المستقبل . كما كانت المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية بداية الاهتمام بدخول المصريين الى ساحة العسكرية المنظمة . أي الانضمام للجيش .

خرج الفرنسيون من مصر ، وخلفوا بها أيضا قوات احتلال ثلاثية شاركت في هزيمتهم (٤٠ ألف تركي ، ٢٠ ألف انجليزى ، ٤ آلاف مملوك) ، وأعقب خروجهم ظهور تناقضات بين الأتراك الذين استقر رأي سلطانهم سليم الثالث على التخلص بصورة حاسمة من المماليك ، بينما ساندت انجلترا المماليك وعملت على إعادة ممتلكاتهم ومناصبهم في الدولة ، وهددت الباشا التركي بقصف القاهرة اذا لم يطلق سراح المماليك الذين كان قد أسرهم في حملة لابادتهم ، فاضطر الى اطلاق سراح ٢٥٠٠ مملوك استقبلتهم القيادة البريطانية بمراسم احتفال عسكرية .

ولم يستقر الانجليز طويلا في مصر ، خرجت آخر قواتهم في مارس ١٨٠٣ تطبيقا لشروط معاهدة صلح اميان التي وقعت بين انجلترا وفرنسا في ٢٧ مارس ١٨٠٢ ، واستصحبوا معهم قائد المماليك الموالي لهم محمد

الآلفى ٠٠ واستمرت الحرب بين الأتراك والمماليك ، حتى وصل الى مصر (محمد على) ضابطا فى القوة الألبانية التابعة للجيش التركى ، ثم سرعان ما عين قائدا لها .

عقد محمد على حلفا مع المماليك لضرب الباشوات الأتراك ، ولما بدا للمصريين أن المماليك على وشك استعادة سلطتهم وممتلكاتهم ومعاودة النهب من جديد ، قرروا الامتناع عن دفع الضرائب وقتل الجبابة ، وترأس الانتفاضة شيوخ الأزهر ، ودارت المعارك فى شوارع القاهرة ، وحوصر قصر عثمان البرديسى قائد المماليك فى ١٢ مارس ١٨٠٤ ففر من القاهرة . ولم يتردد محمد على ٠٠ انحاز للثوار بعدما أدرك قوة الحركة الشعبية ، وسارع الى الأزهر معلنا نفسه حاميا لحقوق الشعب المصرى ، ووجه كتابته الألبانية لمحاربة المماليك والاقطاعيين فى الوجه القبلى تحت قيادته خلال عامى ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ واختاره مجمع الشيوخ قائمقاما (أى نائبا لباشا مصر التركى) ٠٠ واختير خورشيد الحاكم التركى للاسكندرية باشا لمصر ٠٠ وهنا انتهى دور السيد عمر مكرم الرجل المثالى الذى سلم الحكم لمحمد على ثم انزوى فى بيته لمثاليته .

وتابع الأتراك أسلوبهم فى سلب جهد المصريين ٠٠ فقرر خورشيد جبابة الضرائب مقدما لمدة سنة كاملة ٠٠ ولكن الشعب المصرى الذى حارب الفرنسيين وطرد المماليك لم يقبل الخضوع للانكشارية حرس الباشا التركى ٠٠ واندلعت انتفاضة جديدة فى مايو ١٨٠٥ عمت القاهرة كلها ، ونادى مجمع الشيوخ بمحمد على حاكما على مصر ٠٠٠ واضطر السلطان سليم الثالث الذى تهتكت امبراطوريته بالانتفاضات التحررية الى الاعتراف بمحمد على واليا على مصر فى نفس العام ١٨٠٥ لانشغاله بانتفاضة وطنية تحررية فى صربيا ، وعدم استقرار الأوضاع فى بلغاريا واليونان .

وفى ذلك الوقت كانت الحرب قد استؤنفت بين انجلترا وفرنسا ، وامتدت الى الشرق ٠٠ واستطاع محمد على بمهارته أن يهزم محمد الآلفى (صنيعة الانجليز) ثم تخلص من عثمان البرديسى (الموالى للفرنسيين) .

وحاول الأسطول البريطانى أن يغزو استانبول لوقوف تركيا مع فرنسا ، ولكنه اتجه الى الاسكندرية وأنزل فيها ٥ آلاف محارب فى ١٧ مارس ١٨٠٧ تحت قيادة فريزر) .

وهنا اتجه محمد على لمقاومة القوة الغازية .

لم يعتمد على الانكشارية ٠٠ كانوا قد انتهوا ٠٠ ولم يعتمد على المماليك ٠٠٠ كانوا قد هزموا وتشتتوا ٠٠٠ ولم يعتمد على الألبانيين وحدهم فقد كانوا قلة لا تستطيع المواجهة .

ولكن محمد علي اعتمد على المصريين للمرة الأولى كقوة شعبية مسلحة .
خاض المصريون الحرب وسحقوا - في نهاية مارس ١٨٠٧ - وحدة
عسكرية انجليزية عددها ٢٠٠٠ في شوارع رشيد ، ثم سحقوا واحدة
أخرى أكبر منها وجهها القائد البريطاني لنجدة قواته . .

أسهم في معركة رشيد الفلاحون والبدو الى جانب العساكر الأجانب
..المحترفين . . . وانسحب الانجليز الى الاسكندرية ، ومن خلفهم محمد
علي . . واضطر القائد البريطاني الى طلب الصلح والانسحاب بعد حملة لم
تتجاوز مدتها ستة شهور .

دخل محمد علي الاسكندرية . . . وارتفعت شعبيته الى القمة . .
واعتبره المصريون بطلا وطنيا .

وقد تابع محمد علي خطوات نابليون ، الذي كان جيشه أو جيش
فرنسا الثورة هو بداية العسكرية العصرية الأوروبية . . وكان بداية
الانتقال من فرق الملوك والأمراء والباشوات ، أي الجيوش الاقطاعية ، الى
الجيوش القومية النظامية (البرجوازية) .

كان محمد علي قد اضطرته ظروف محاربة الانجليز الى مهادنة
المماليك الذين اعتبروه واليا عليهم ، ولكنهم احتفظوا بالسلطة في الوجه
القبلي وجعلوا منه وكرا لمؤامراتهم وتمرداتهم .

وبعد أن سحق محمد علي الانجليز صادر عام ١٨٠٨ أملاك الملتزمين
الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ، وفي عام ١٨٠٩ حرّمهم من نصف الفائض،
وفي عام ١٨١٢ وضع يده على جميع الأراضي التي كانت في حوزة المماليك،
وفي عام ١٨١٤ ألغى نظام الالتزامات نهائيا . وأصبح الفلاح يدفع الضرائب
لأول مرة الى الدولة مباشرة ، كما قضى على تبعية الفلاحين الشخصية
للملتزمين .

خلال هذه الفترة قام المماليك بانتفاضتين ضد محمد علي عامي
١٨٠٩ ، ١٨١٠ بعد تقلص نفوذهم وأخذ اقطاعياتهم ، الأمر الذي دفع
محمد علي الى ارتكاب مذبحه المماليك الذين حاصروهم في القلعة يوم أول
مارس ١٨١١ خلال عرض عسكري اشترك فيه ٥٠٠ مملوك بمناسبة ارسال
قواته الى الجزيرة العربية لمحاولة القضاء على الدولة الوهابية بناء على أوامر
الباب العالي .

المماليك الذين نجوا من المذبحة هربوا الى دنقلة وأقاموا حكما خاصا
بها حتي تم غزوهم عام ١٨٢٠ .

بعدما عزز محمد علي سلطنته في مصر ، قرر أن يتخطى حدودها
ساعيا وراء آماله وطموحه اللذين وصفهما فيما بعد الجنرال بواييه في
كتابه الى كيرمون - تونير وزير الحربية الفرنسى في أول ديسمبر ١٨٢٤
بقوله (ان محمد علي يشكل في الامبراطورية التركية حدثا غريبا لا يخاو
من العبقرية فله تفكير واسع صحيح وآراء جريئة في الاصلاح والتنظيم ،
وهو يعلم ان عقبات عصيبة تقوم في سبيل مشاريعه ، ولكنه كبير الأمل
في تخطيها جميعا) (٤) .

ولذا فانه عندما اقترح السلطان محمود الثانى عليه تجريد حملة
ضد الوهابيين في الجزيرة العربية سرعان ما استجاب لذلك ، وأرسل ابنه
طوسون - ١٦ سنة - على رأس حملة في سبتمبر ١٨١١ ، وأرسل معه
مستشارا سياسيا مصرية هو التاجر القاهري محمد المحروقي ٠٠٠ وكانت
الحملة موضع اهتمام التجار المصريين الذين تكبدوا خسائر فادحة من
توقف الحج وما يتصل به من تعامل تجارى فقدموا الأموال بسخاء لتجهيز
الحملة .

كان هدف محمد علي المباشر هو السيطرة على التجارة معتبرا الجزيرة
العربية مفتاحا لسوريا والعراق ، ناظرا الى الوهابيين نظرتهم الى خصوم
يصارعونه من أجل الاستحواز على الأقاليم العربية التابعة للامبراطورية
العثمانية ٠٠٠ وكان محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية يحلم بتحرير
عرب سوريا والعراق من النير التركي ، ولم يعترف بخلافة السلطان
التركي ، وكان يعتبر كافة العرب اخوة ويدعوهم الى الوحدة (٥) .

تعرضت الحملة التي استولت على مكة والطائف وجدة الى مصاعب
ومقاومة شديدة وقتل حوالى ٥ آلاف جندي من حوالى ١٠ آلاف جندي
شكلت منهم الحملة ، مما اضطر محمد علي الى أن يقود الجيش المصرى
شخصيا فذهب الى جدة مع امدادات جديدة في سبتمبر ١٨١٣ حيث أنزل
بالوهابيين هزائم ساحقة أباد فيها جيشا مكونا من ٣٠٠٠٠ شخص .

وعاد محمد علي الى مصر في مايو ١٩١٥ لتواصل الحملة الوهابية
مسيرتها بقيادة طوسون ثم ابراهيم ، حتى أدخل القسم الأكبر من الجزيرة
العربية ضمن الامبراطورية العثمانية ، وتحولت الحجاز الى اقليم مصرى
يعين محمد علي حكمه .

(٤) السياسة الدولية في الشرق العربى - الجزء الثانى - اميل خورى وعادل
اسماعيل .

(٥) تاريخ الاقطار العربية الحديث - لوتسكي .

وقد كانت الحملة الوهابية أولى حملات محمد علي خارج مصر نقطة تحول استراتيجية في تفكيره اذ قرر خلالها عدة قرارات هامة :

أولا - القيام باصلاحات عسكرية حديثة ، فالفي نظم الجيش القديمة واستعاض عنها بأنظمة أوروبية تتناسق مع تطور التسليح الذي تمخضت عنه الثورة الصناعية الأوروبية فبدأت تختفي الأسلحة التقليدية مثل السيوف والدروع وارتبطت العسكرية الحديثة بالصناعة الحديثة .

ثانيا - قرر - من أجل الوصول الى أفضل المستويات - الاستعانة بخبراء ومدربين عسكريين من النمسا وإيطاليا وروسيا وفرنسا بصفة خاصة .

ثالثا : اتخذ قرارا ثوريا بتجنيد الفلاحين المصريين في الجيش النظامي لأول مرة في تاريخ مصر الحديث ، مقتنعا بكفاءة وصبر المقاتل المصري التي لمسها في معركة رشيد ضد حملة فريزر وفي الانتفاضات الشعبية المتعددة ومقتنعا أيضا بأن ذلك تأمينا حقيقيا لحكمة المستقل عن الباب العالي ومقتنعا أخيرا بأن ذلك سوف يخلصه من أخطار المماليك أيضا وقد اتخذ محمد علي هذا القرار ضاربا عرض الحائط بنصيحة بعض الذين أحاطوا به وصوروا له أن في ذلك مخاطرة شديدة .

وجد محمد علي أن طموحه لبناء مصر الحديثة لابد أن يعتمد على عسكرية حديثة وهذه لابد أن تعتمد على أمرين :

١ - تجنيد أبناء مصر بعد الاستغناء تدريجيا عن الجنود والفرسان الأتراك والارناؤوط والمماليك ، وهم المرتزقة الذين لم يتعودوا تماما على انضباط الجيوش النظامية الحديثة .

٢ - بناء صناعة حديثة .

تمهيد الجيش :

وبدأ محمد علي تنفيذ خطته فأقام معسكرا تدريبيا في أسوان ، جند فيه الآلاف من المصريين والسودانيين تحت اشراف مدربين فرنسيين وإيطاليين كان أبرزهم الضابط الفرنسي « جوزيف انتلم سيف » الذي حضر مصر عام ١٨١٩ وعرف فيما بعد باسم « سليمان باشا الفرنساوي » بعد أن أسلم وتزوج وأنجب في مصر .

ولم يكن تجنيد الفلاحين في الجيش أمرا سهلا فقد أخذوا من التجنيد موقفا سلبيا بعد معاناة قرون طويلة من الاضطهاد والارهاب

والسخرة ، وحدثت بعض تمردات فى المنوفية والوجه القبلى وبليبس قمعها محمد على الذى لم يقابل هذا الموقف بالعنف ، وانما طلب من الشيخ العروسى شيخ الازهر أن يوضح الأمور للفلاحين عن طريق رجال الدين . . . وكتب محمد على رسالة يقول فيها للمستوليين عن التجنيد (انه لما لم يكن من عادة الفلاح أن يقبل هذا الوضع فلم يكن ثمة ما يجب ارغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه ، بل يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم اليه ، وذلك بتفهمهم تدريجيا أنه أمر منطوق على خير ، ولا تعتبر كمسائل السخرة) (٦) .

وقد أثبت الجنود المصريون تفوقهم وقوة احتمالهم ، وساندتهم محمد على وابراهيم فى مواجهة المتاعب التى تعرضوا لها من الضباط الأتراك أو مماليك محمد على . . . فقد أمر محمد على فعلا بجلد ناظر سلخانة تركى مائة جلدة لانه قال فى حفل استقبال أحد الآليات بدمياط (صار الفلاحون العمى عساكر) .

وبدأ الفلاح المصرى يتدرج فى رتب الجيش . . . بعد أن قام محمد على بفتح المدارس الحربية لاعداد الكوادر القيادية المصرية مثل مدرسة المشاة فى دمياط ، ومدرسة الخيالة فى الجيزة ، ومدرسة المدفعية فى طره بضواحي القاهرة ، ثم أنشئت أكاديمية الأركان العامة عام ١٨٢٦ . . . وترجمت الأنظمة العسكرية الداخلية الفرنسية الى العربية لتطبق فى الجيش المصرى الذى كان يسير على تنظيمات جيش نابليون تماما .

وهكذا حقق محمد على هدفه الأول . . . وهو تجنيد أبناء مصر . . . وسجل التاريخ حقيقة هامة ، وهى ظهور جيش من الفلاحين يعتبر بداية فى الحركة القومية الحديثة للأمة المصرية .

وعن الهدف الثانى وهو بناء صناعة حديثة تكون فى خدمة الجيش الحديث ، أنشأ محمد على مصانع لصب الحديد بلغ انتاجها ٢٠٠٠ طن من حديد الزهر سنويا ومصانع للبارود ، ومصانع للأقمشة والأشربة والحبال والزيوت والصابون وغيرها .

وبنى محمد على كذلك ترسانة الاسكندرية عام ١٨٢٩ بعد تحطيم جميع سفن الأسطول المصرى فى موقعة (نفارين) وفى يناير ١٨٣١ أنزلت الى البحر أول سفينة ذات مائة مدفع .

وظهرت (البروليتاريا الصناعية) لأول مرة فى مصر . . . الترسانة كان يعمل بها ٨٠٠٠ عامل ، ومجموع العمال فى مختلف المصانع وصل الى

(٦) ميلاد ثورة - محمد عودة .

٤٠٠٠٠ عامل ٠٠٠ وكان العمال يخضعون للنظام العسكرى ، يقسمون الى فصائل وسرايا وكثائب ويعيشون فى الثكنات ، يعملون فى المصانع نتيجة التجنيد الاجبارى .

كانت الصناعة مرتبطة ارتباطا وثيقا باحتياجات الجيش ٠٠٠ وكان العمال يحصلون على أجور زهيدة ، وتشير أرقام ميزانية ١٨٣٣ فعلا الى أن مصروفات الجيش بلغت ٢٨ مليون فرنك ، ونفقات محمد على الشخصية ٣ر٥ ملايين فرنك ، بينما دفع لنفقات المصانع وأجور العمال ٢٧٥ مليون فرنك لا أكثر .

وكما تقدمت الصناعة فى خدمة الجيش ، تقدمت الزراعة أيضا ، وتحسنت ظروف الفلاح نسبيا عن ذى قبل ٠٠٠ وأصبحت مصر مصدرة للقمح والأرز ، وأنشئت الترع والمصارف وبدى فى بناء « القناطر الخيرية أول سد يقام فى تاريخ مصر ٠٠ وزادت بذلك مساحة الأرض المزروعة من مليونى فدان عام ١٨٢١ الى ٣١ مليون فدان عام ١٨٣٣ .

وانتقل محمد على بمصر - التى كانت تعتبر شكليا احدى الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية - الى عصر جديد ٠٠٠ أصبحت فى الواقع دولة مستقلة ذات حكومة وجيش وقوانين ونظام ضرائب خاص بها ولا يربطها بالسلطان الا ضريبة سنوية يدفعها محمد على له وقيمتها ٣٪ من ميزانية الدولة .

وأعيد تنظيم جهاز الدولة ، وأنشئت الوزارات على النظام الأوروبى ٠٠٠ وتطلب تكوين الجيش وجهاز الدولة الجديد توافق كثير من المثقفين والمتعلمين ٠٠ فأرسل محمد على الذى بدأ يتعلم القراءة والكتابة وهو فى الخامسة والأربعين (٧) بعثات كثيرة الى أوروبا لدراسة العلوم الحربية والهندسية والطب واللغات والحقوق .

ولكن هذه الدراسات جميعا كانت تدور حول محور رئيسى هو الجيش والاهتمام به ٠٠٠ ومثال ذلك ان رفاعة رافع الطهطاوى بدأ حياته واعظا واماما فى احدى فرق الجيش المصرى عام ١٨٢٤ ثم أرسل فى بعثة الى باريس عاد منها عام ١٨٣١ ليعمل فى المدرسة التجهيزية للطب ثم مدرسة المدفعية فمدرسة الألسن .

لم يكن هناك حد فاصل بين المدارس المدنية ومدارس الجيش ٠٠ بل ان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى كان حاصلا على رتبة عسكرية منذ عمل

(٧) مقال، رفاعة رافع الطهطاوى فى ذكره المؤدية - محمود يوسف - الهلال - يوليو

اماما فى الجيش ٠٠٠ كان يوزباشى فى باريس ثم ترقى حتى وصل فى آخر حياته الى رتبة الاميرالاي (٨) .

هذا يوضح انه كما كان العمال يجندون للعمل فى المصانع كان بعض المثقفين يحصلون على الرتب العسكرية .

وقد زاد عدد الجيش المصرى حتى بلغ ١٨٠ ألف جندى نظامى ، ٤٠ ألف جندى غير نظامى عام ١٨٣٣ ووصل عدد البحارة المصريين الى ١٥ ألف بحار ٠٠ وهذا يعنى أن ربع مليون مصرى من ثلاثة ملايين كانوا مجندين فى الجيش .

ومع ذلك ظلت ترقية الجندى المصرى حتى آخر عهد محمد على لا تتجاوز رتب صفار الضباط ، بينما كان هناك عدد كبير من الضباط الأجانب فى رتب كبيرة ، وفى نفس العام (١٨٣٣) كان هناك أكثر من ٧٠ ضابطا إيطاليا و ٧٠ ضابطا فرنسيا ممن خدموا مع نابليون ولم يجدوا عملا يناسب مهنتهم بعد هزيمة الامبراطور ، و ١٢ ضابطا اسبانيا ، وعدد من الضباط البريطانيين ، وكان هؤلاء بمثابة الخبراء المكلفين بنقل مدنية أوروبا ونهضتها العسكرية الحديثة الى مصر .

وكان هؤلاء الضباط الأجانب يمثلون جانبا محدودا من ضباط الجيش المصرى ٠٠٠ الأغلبية كانوا من الأتراك ثم المماليك الذين دربوا على يد محمد على بعد أن فقد الآخرون شوكتهم بعد مذبحه المماليك .

وأغرى محمد على الضباط الأتراك والأجانب على الخدمة فى الجيش المصرى برفع مرتباتهم عن نظيرها فى الجيش التركى نفسه ٠٠٠ هذا بينما كان الجنود وصف الضباط المصريين يتناولون مرتبات أقل كثيرا من مرتبات جنود السلطان التركى كما يتضح فى الجدول الآتى :

| رتبة | الجيش المصرى | جيش السلطان | النسبة |
|-----------|--------------|-------------|-------------|
| عسكرى | ١٥ قرشا | ٢٠ قرشا | ٧٥ر ٠ الى ١ |
| باشجاویش | ٤٠ | ١٢٠ | ٣٣ر ٠ الى ١ |
| ملازم ثان | ٢٥٠ | ١٢٠ | ١٠ر ٢ الى ١ |
| يوزباشى | ٥٠٠ | ١٨٠ | ٨٠ر ٢ الى ١ |
| بكباشى | ٢٥٠٠ | ٤٠٠ | ٢٥ر ٦ الى ١ |
| أميرالاي | ٨٠٠٠ | ١٢٠٠ | ٧٦ر ٧ الى ١ |

(٨) المصدر السابق .

يتضح من هذا الجدول أن الأيرالاي في الجيش التركي كان يحصل على مرتب يعادل مرتب الجندي ٦٠ مرة بينما كان يحصل في الجيش المصري على مرتب يعادل مرتب الجندي ٥٢٣ مرة ، وذلك حرصا من محمد علي على الارتفاع بمستوى الجيش .

ولم تقتصر مكافأة الضباط في مصر على هذه المرتبات المرتفعة وإنما كانوا يمنحون أيضا وجبات طعام ودخانا ، والضباط العظام كانوا يمنحون قطعا من الأرض ٠٠ أما الخبراء الفرنسيون فقد أجزل محمد علي لهم العطاء وخصص لكبار الضباط منهم راتبا لا يقل عن ٣٦٠٠٠ فرنك في السنة عدا الهدايا والهبات في وقت لم يتجاوز فيه راتب المدرب الأوروبي ١٨٠٠ فرنك في السنة .

وكان محمد علي قد عاد بعد تحويل الأرض الملكية للدولة الى توزيع بعض منها لتصبح أرضا خاصة اعتبارا من أول ديسمبر ١٨٢٩ وهو التاريخ الذي بدأ يهب الأرض فيه الى أقاربه وحاشيته وبعض كبار الضباط .

نشأت من ذلك في صفوف الجيش فروق طبقية حادة بين الضباط والجنود ٠٠٠ أو بين الأجانب والمصريين ٠٠٠ وأصبح هناك نوع من الاقطاعية العسكرية التي لا تتناسب مع اتجاهات محمد علي التقدمية .

أدى ذلك الى بقاء الفلاح المصري أو الجندي المصري في موقعه عاجزا عن التعبير عن ارادة الجماهير التي نبت بينها ، خاضعا لتعليمات قادته وضباطه الذين لا تربطهم بمصر أكثر من رابطة المصلحة المادية .

ورغم ذلك اشترك المصريون في كل حملات محمد علي العسكرية وخاصة تحت قيادة ابراهيم باشا الذي كانت له قدرة خارقة على استثارة حماسة الجنود ، وكان لا يرضى أن تعمل أصغر رتبة في جيشه ما لا يطيق هو نفسه عمله ٠٠٠ وكان اسمه الشائع هو (أبو خليل) الذي كان يحمي الفلاحين من الجنود من التصرفات المهينة لبعض الضباط الأتراك أو المماليك .

ولابد لنا من جولة قد تطول قليلا في تاريخ حملات محمد علي العسكرية ، ولكنها ضرورية لانها تظهر الدور الذي لعبه الفلاح المصري في ملابس الجندي ، والمؤهلات التي توافرت لنضاله وتضحياته .

محمد علي وثورة اليونانيين التحررية :

أسهم العسكريون المصريون أبناء الفلاحين في حملات عديدة ، بدأت بحملة لاحتلال شرق السودان مستهدفة ضرب فلول المماليك الذين تجمعوا

في دنقلة ، وقد بدأ زحف الجيش المصرى البالغ تعدادة ٥ آلاف محارب تحت قيادة اسماعيل باشا أحد أبناء محمد على في أكتوبر ١٨٢٠ .

ولم يقابل الجيش المصرى مقاومة شديدة كما حدث في الجزيرة العربية ، اذ لم يكن لدى السودانيين أسلحة نارية ٠٠٠ حاربوا بالرمح والحرب والتروس ، بينما كان الجيش المصرى مسلحا بالمدفعية .

وانتهت الحملة بالاستيلاء على شرق السودان ٠٠٠ وأصبحت الخرطوم مركز الممتلكات المصرية ، وتحولت بسرعة الى مدينة تجارية كبيرة .

وقد زار محمد على السودان عام ١٨٣٨ حيث جهز بعثات للبحث عن الذهب في النيل الأبيض والأزرق ، وقسم السودان الى سبعة أقاليم عين محمد على عليها باشوات من حاشيته الأتراك .

كان المصريون قد دخلوا صفوف الجيش ٠٠٠ ولكنهم لم يكونوا قد فرضوا أنفسهم بما يسمح بتعيينهم حكومات أو حكاما للأقاليم المفتوحة . كان محمد على قد سيطر بحملته على السودان على مجرى النيل كله تقريبا واستقر سلطانه في مصر .

ولكن هذا لم يضع حدا لطموحه ٠٠٠ فإن قدرات مصر فجرت في نفسه كثيرا من الأهداف .

كان يأمل في تكوين دولة عربية مستقلة ٠٠٠

أخذ محمد على يجاهر بأن الشعوب العربية التي تكون مصدر قوة السلطان بالمال والرجال تعيش في الامبراطورية العثمانية حياة التابع البائس المستضعف ، وأقام ينادى بإسناد المناصب في الادارة والجيش الى العرب ليمارسوا حق السلطة كما يتحملون تكاليفها .

كانت مصر قد أصبحت أضيق من أن تتسع لأحلامه .

يؤكد الذين رافقوا ابراهيم باشا في حملته على سوريا فيما بعد بأنه سئل أثناء حصار عكا الى أى مدى ستصل فتوحاته فأجاب : .

(الى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس ويتفاهمون باللسان

العربي) (٩) .

وكان محمد على مصمما في قرارة نفسه في حال نجاح سياسته أن يدفع هذه الشعوب لمبايعته بالخلافة فيعزل الأتراك نهائيا عن العالم الاسلامي (١٠) .

(٩) السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الثاني : اميل خوري ونجاد اسماعيل .

(١٠) السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الثاني : اميل خوري ونجاد اسماعيل .

ولكن الظروف التي تعرضت لها الامبراطورية العثمانية غيرت قابلا من مسار خطة محمد علي ٠٠٠ فقد كان القرن التاسع عشر عصر القوميات في البلاد الأوروبية ، وقامت في أنحاء الامبراطورية عدة ثورات تحررية وانتفاضات شعبية ٠٠٠ ثورة الصرب ١٨١٥ والحركة الوهابية ١٨١٨ و اعلان العصيان في حلب ١٨١٩ ٠٠ وأخيرا ثورة اليونان ١٨٢١ ٠

واذا كان محمد علي قد استجاب لاقتراح السلطان بالقضاء على الوهابيين مرحبا بخروج جنوده من مصر ، فانه تعرض مرة أخرى لموقف جديد في مواجهة ثورة اليونانيين التحررية التي كانت تعطف عليها كافة الشعوب الأوروبية ٠

كان السلطان محمود الثاني قد تورط في مقاومة الثورة اليونانية التي استطاعت البرجوازية اليونانية - النامية بسرعة شديدة من التجارة البحرية - أن تجذب اليها الفلاحين الذين قاسوا من اضطهاد الاقطاعيين الأتراك ، وارتكب جنوده فظائع وحشية شديدة توترت لها أعصاب الجماهير الأوروبية ، وتطوع في جيش الثوار عدد من القادة العسكريين ورجال الفكر في أوروبا كالوزير سانتاروز الايطالي ، والساعر لورد بيرون ، ولورد ستانهوب والسير ادوارد تشرش البريطاني ، والجنرال روش ، والكولونيل فافبيه ، والكولونيل فيليب جوردان الفرنسيين (١١) ٠

ولم يجد السلطان محمود الثاني بدا من الاستعانة مرة أخرى بمحمد علي بناء على نصيحة مترنيخ الألماني ، وكان يستهدف بذلك أمرين كلاهما له فيه مصلحة ، الأول القضاء على الثورة اليونانية بسلاح محمد علي وما يؤديه ذلك الى خلاف بينه وبين الدول الغربية ٠٠ والثاني اضعاف محمد علي بسلاح اليونانيين ومن ورائهم الشعوب الغربية ٠

ودعا السلطان محمود محمد علي الى تركيا وأحاطه بكل مظاهر العطف والتكريم وأقطعته جزيرة كريت ثمنا لتدخله ، وفي ١٦ ديسمبر ١٨٢٤ صدر فرمان شاهاني بتعيينه قائدا عاما للقوات العثمانية في المورة ، فندب لذلك ابنه ابراهيم مع ٣٠ ألف جندي وأسطول مؤلف من ٥٦ سفينة حربية كبيرة ، و ٢٥٠ سفينة نقل ٠

ولكن لم يكن محمد علي جاهلا بنية السلطان ، ولكنه وجد فرصة لتحقيق أهدافه ٠٠٠ فان ضعف الباب العالي واشتعال ثورات التحرر في أرجاء الامبراطورية العثمانية يعطى محمد علي خير فرصة لتحقيق استقلال مصر ٠

(١١) (نفس المصدر) ٠

ولعل أصدق توضيح لخلفية فكر محمد علي ما ورد في خطاب صديقه
الجنرال بوايه كبير المدربين العسكريين الفرنسيين بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٢٥
مرسلا الى وزير حربية فرنسا :

(من واجبي أن أطلعك على حديث سري جرى لي مع الباشا أطلعني
فيه على حقائق أفكاره ومراميه وما هياه من مشاريع . ان محمد علي يشق
ثقة كاملة بعبقرية ابنه وصلابة عود جيشه ، ولا يشك مطلقا بأن حملته على
المورة ستكفل بفوز تام . وقد قال لي « ان الانتصارات التي سأحرزها في
هذا الجزء من الامبراطورية ستوسع مدى صيتي وتزيدني نفوذا .
والسلطان لم يبق له من وسائل القوة والبأس ما يمكنه من أن يحول دون
تنفيذ مشاريعي . ولقد أصبح النصر حليفي وبات اسمي ومجدي على كل
شفة ولسان في الامبراطورية . أنا من الترك ولهم . ولكني أيضا للتاريخ .
لقد أقلت الدولة من عثراتها ونهضت بها مما كانت فيه من خراب وذلك على
كره من الديوان الذي يأبى على غيره أن يكون عظيما ويريد أن تكون العظمة
وقفا عليه . وأنا مدرك أن الامبراطورية ماضية قدما الى هلاكها وأن يوما
سيأتي يستعصى على فيه أمر انقاذها ، فلا مغنم لي ولا فائدة في أن أغامر
بإمكاناتي ووسائل في سبيل أمر مستحيل ، ولكني سأقيم على أنقاضها
مملكة واسعة . وأنا أملك كل ما يلزم لتحقيق هذه الغاية . ولي من جيوشي
وعملائي المنتشرين في كل جانب ما يجعل كلمة واحدة مني كافية لفتح
حصون عكا وأبواب دمشق وبغداد . وشعب جبل لبنان سيحمل سلاحه
عند أول إشارة مني للاسهام في تحقيق أهدافي وتنفيذ ارادتي . ولا أطلب
من الزمن الا أن يكون حليفي لثلاث سنوات وهي مدة تكفيكم لتجهزوا
وتنظموا لي جيشا اضافيا من خمسين ألف مقاتل ومائة وخمسين مدفعا .
وعندئذ أصبح مستكملا أسباب العمل . وسأفيد من السنوات الثلاث
لنعزيز جيوشي في سنار وبلاد الحبشة والحجاز . وسأجد فيما تحت
حكمي من البلاد الآسيوية وشعوبها الكثيفة عددا لا يستهان به من العساكر .
وفي هذا الوقت يتم احتلال المورة وتنظيمها سلميا . وعندئذ أصبح بفضل
قوتي متحررا من كل هم خارجي فينطلق ابني الطاهر لتقرير المصير على
ضفاف دجلة والفرات اللذين أريدهما حدودا حصينة للأراضي التي أنوي
اقطاعه إياها والتي له من البأس والشجاعة وقوة العزيمة ما يضمن انتزاعها
وبسط سلطاني عليها) .

يظهر هذا الخطاب ان محمد علي لم يأخذ موقفا مبدئيا في مساندة
حركات التحرر القومي ، رغم أن محاولته الاستقلال بمصر كانت واحدة من

أهم هذه الحركات التي تفجرت في الامبراطورية العثمانية مع مطلع القرن التاسع عشر .

ولكن ظروفه الخاصة في مصر وظروف العصر الذي كانت تتناطح فيه الدول الاستعمارية الأوروبية دفعته الى الاقدام على مشاركة السلطان في محاربة الثورة اليونانية مما بذر تناقضا محدودا بينه وبين فرنسا التي ساندت الحركة التحررية في اليونان ، وفي ذلك يقول محمد علي للجنرال بواييه :

« انتم في أوروبا لكم من تربيتكم ودينكم وتقاليديكم ما يجعلكم تستفظعون ما هو واقع في بلاد اليونان فأكتب الى أصدقائك أني في الساعة التي يلقي فيها هذا الشعب المتمرد سلاحه ويعلن خضوعه سأجمع في كل البلاد التي أحكمها ، الأرقاء الذين أسرههم جنودى وأعيد عليهم ، ذكورا واناثا ، حريتهم وأرجعهم الى بلادهم . فانا أريد أن أكون ملكا على شعوب حرة لا على عبيد . ومتى تقدمت في تنفيذ مشاريعي فاني سأطبق قوانينكم في تنظيم الادارة وأقتفى خطى الشعوب المتحضرة في قارتكم السعيدة ، فكل ما يعمل عندهم ليس اعتباطيا بل مدروسا . وكل أنظمتكم موجودة لدى بنصها وترجمتها ولن يمضى وقت طويل قبل أن أجعلها مطبقة ونافذة في بلادى » .

« وأنا لا أشعر بخوف الا من بريطانيا لان باستطاعة أساطيلها أن تشل ارادتي وفعاليتي وتخرب ماليتي بحصار تضربه على سواحلى ، ولكن لى سياسة ، وسأسهر على ألا يكون فيها ما يفضب هذه الدولة . فاذا ساعدتنى الحظوظ ومكنتنى من كسب الوقت الكافى فاني سأخرج من هذه الظروف الصعبة وأنا على أطيب حال » (١٢) .

وكان وصول القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا انعطافا حادا فى طبيعة الحرب اذ توالى انتصارات الجيش المصرى ، فتم تدمير حصن ميسولوجى مركز مقاومة اليونانيين الرئيسى فى ٢٢ ابريل ١٨٢٦

وشاءت مصادفات القدر أيضا أن يستسلم الاكروبول وتحتل قوات ابراهيم أثينا يوم ٥ يونيو ١٨٢٧ وهو نفس التاريخ الذى هزمت فيه القوات المصرية أمام اسرائيل بعد ١٤٠ عاما .

أظهر الجندى المصرى قدرته على التحمل والتضحية بأسرع مما توقعه أكثر القادة العسكريين تفاؤلا .

(١٢) السياسة الدولية فى الشرق العربى ، الجزء الثانى - اميل خورى وعادل اسماعيل .

وقد جذبت انتصارات محمد علي أنظار الدول الغربية اليه باعتبارها خطرا يهدد أوروبا . . . ونصحه القائد الفرنسي بليار خلال مستشاره بواييه بقوله « غريب أن يستمر الباشا في عمله ويواصل ارسال عساكره وأمواله الى بلاد لا حظ له ببقائها تحت حكمه والتي أرادوا أن تكون مقبرة لقواه ومجده » . . . « ان سر عظمة محمد علي الحقيقية هي في أن يكون قويا جدا ومنيعا في داره أي في حدود ملكه ، وأمامه مجالات واسعة لامتداد سلطته . . أمامه سوريا وأفريقيا وآسيا ، ففي هذه البلاد ميادين تليق بمجده » . . ونصحه أيضا بأن يسارع لعقد معاهدة تعاون وصداقة مع اليونانيين اذا لقي من يحدثه في ذلك (١٣) .

ولكن محمد علي بقي مترددا في الانسحاب من المورة وترك جيوش السلطان تحت رحمة اليونانيين وعبر عن حقيقة تفكيره بما قاله لاجنرال بواييه .

ولما تخرج الموقف بعد سقوط أثينا عقدت انجلترا وفرنسا وروسيا معاهدة في لندن بعد شهر واحد من سقط الاكروبول - يوم ٦ يوليو ١٨٢٧ - وقررت فيها حل المسألة اليونانية بأن تصبح اليونان دولة مستقلة تحت اشراف السلطان ، أي فصلها مدنيا عن تركيا ، وتضمنت بنودا سرية في حالة رفض السلطان للمعاهدة تقضي باتخاذ اجراءات عملية لانهاء الحرب والاعتراف بالدولة اليونانية .

رفض السلطان المعاهدة ، وطلب من محمد علي تحريك أسطوله في اليونان فتحرك فعلا في شهر أغسطس ١٨٢٧ ، وفي نفارين يوم ٢٠ أكتوبر حدث تصادم بين بحارة سفينة عثمانية وملاحى احدى السفن البريطانية انتهى الى معركة طاحنة انتهت بتدمير الأسطولين العثماني والمصري تدميرا تاما . . ولم يكن ابراهيم وقتها في مكان المعركة ، بل كان في المورة .

وكانت معركة نفارين بداية حرب روسية تركية رفض محمد علي الاشتراك فيها وأظهر من الحكمة والتعقل ما جعله يقبل طلب الدول الكبرى الجلاء عن اليونان بعد أن تكبد خسائر فادحة بلغت ٣٠ ألف مقاتل وأسطولا كاملا .

وغادر ابراهيم باشا المورة والتعاسة ثقيل قلبه ، وأثناء تسليمه للقائد الفرنسي جنرال ميزون قال الأخير أن الغاية من قدومه ليست الا تكريس استقلال اليونان ، ورد عليه ابراهيم باشا ساخرا « اذا كان الأمر هكذا واذا صبح ان فرنسا حريصة على استقلال الشعوب فلماذا تستبعد

(١٣) السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الثاني - اميل خوري وعادل اسماعيل .

(١٤) السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الثاني - اميل خوري وعادل اسماعيل .

الاسبان وترسل اليهم الجيوش للقضاء على حركتهم التحررية .. ا يكون
الاسبان أقل حقا من اليونانيين بأن يكونوا أحرارا ؟ (١٤) .

وفي ٩ سبتمبر غادر ابراهيم باشا المورة مع فلول قواته بعد أن انتهى
التعاون العثماني المصري ، وانفرط أيضا عقد التحالف الثلاثي بين روسيا
وانجلترا وفرنسا ، خشية تسرب النفوذ الروسي ، ووعدت فرنسا محمد
على بمساعدته في بناء أسطول جديد .

من أجل دولة عربية مستقلة :

ولم تصب هزيمة نفارين محمد على باليأس . وإنما بعثت فيه نشاطا
جديدا في صراعه من أجل سوريا وفلسطين وتكوين الدولة العربية الكبيرة
التي كان شديد الطموح لتكوينها .

وفي ذلك كتب كارل ماركس (لقد فقد الباب العالي هيئته في عيون
رعيته نتيجة لحرب ١٨٢٨ - ١٩٢٩ الفاشلة ، وعندما تضعف السلطة العليا
- كما هو مألوف عادة في الامبراطوريات الشرقية - تستمر انتفاضات
الباشوات ومنذ أكتوبر ١٨٣١ نشب خلاف بين محمد على باشا مصر الذي
كان قد آزر الباب العالي أثناء الانتفاضة اليونانية (١٥) .

كانت العلاقة بين السلطان ومحمد على تزداد توترا يوما بعد يوم ..
رفض محمد على الاسهام مع تركيا في حربها مع روسيا ، ورفض المساهمة
في دفع التعويضات مع السلطان .

وكان مفروضا أن تؤول ثورة محمد على التحررية الى حرب فعلية
ضد السلطان عقب انتهاء حرب المورة ولكنها تأجلت مدة عامين بسبب الخطط
المصرية الفرنسية الرامية الى فتح شمال افريقيا والتي انتهت الى رفض
محمد على للمشاركة في هذا الفتح لان الاتفاق كان على حد قوله للمفاوضين
الفرنسيين « يعتبر تأمرا على الباب العالي مع دولة أجنبية » ، ويلقى
محمد على مزيدا من الضوء على أسباب رفضه فيقول أيضا « ليست مستعدا
للمجازفة بمرکزی وشعبیتی ، واذا قبلت الاتفاق فاني أخسر كل
ما أكسبتني اياه أعمالی وجهودی ، وأخسر معه شرفی فيحتقرني أبناء أمتي
وبنصرف الناس غني ، وثقوا أن قراري وما أقوله لكم الآن لا ينبع من
عاطفة دنيئة فانتهم تعرفونني وتعلمون انني متحرر من هذه الاعتبارات التي
بتقيد بها قومي وأن تفكيري يسمو فوقها ، ولكني أفعل وأقول هذا لاني
لست كبيرا الا بفضل عطف أمتي على وثقتها بي . قد تقولون ان مواطني

(١٥) تاريخ الاقطار العربية الحديث (لوتسكي) .

حمير وثيران • هذا حقيقة أعلمها • ولكن هؤلاء الثيران والحمير هم قوتي •
ان الاتفاق الذى تفرضونه على اذا قبلته كان قبولى حكما منى على نفسى
بالهلاك ولا أقول لكم هذا اعتباطا ولكن عن علم صحيح وبعد تفكير طويل •
والبدوى فى الصحراء أصدق علما بمرض بعيره من أكبر طبيب فى أوروبا •
وأنا لا أجزع من القيام بالحملة ، ولكنى لن أقوم بها الا منفردا وعلى أساس
الاتفاق الأول •

رفض محمد على أن يسهم فى حملة ضد السلطان مشتركا مع دولة
غربية ، وأصر على أن تكون حركته منفردة حتى لا توصم بغير حقيقتها
القومية والتحررية •• كما زاد ارتباطا وثقة بالشعب والجيش المصرى •

وعندما وصلت محاولة الاتفاق لغزو شمال افريقيا مع فرنسا الى
نهايتها ، بدأت فورا حركة محمد على للاستيلاء على فلسطين وسوريا من
أجل تكوين دولة عربية واحدة مستقلة مستندا الى أن جزيرة كريت ليست
كافية وحدها لتعويض النفقات والمصاريف التى تكلفها فى حملة المورة •

واستخدم محمد على نزاعا نشب بينه وبين عبد الله باشا والى عكا
الذى رفض إعادة ٦٠٠٠ جندى هارب الى صفوف الجيش المصرى ••• وكان
عدد من الجنود المصريين يعمد الى الهرب من العسكرية للمتاعب الشديدة
التي يتعرضون لها فى الحملات الخارجية ، ولشعورهم بأنهم يحاربون فى
معارك (لا ناقة لهم فيها ولا جمل) كما ان محمد على كان قد ضاعف عدد
المجندين لسد الثغرات التى فتحتها فى صفوف جيشه حروب الجبشة
وآسيا والمورة - على حد تعبيره ، وتجنيد عشرين ألفا من البحارة لتعزيز
أسطوله الجديد الذى أنشأه بالتعاون مع فرنسا بعد هزيمة نفارين وضم
ثلاث سفن ضخمة ذات ثلاثة طوابق ، وعشر بواخر ، وخمسة عشر طرادا ،
كما ان محمد على كان يتخذ أسلوبا عنيفا فى معاملة الهاربين من الجندية
اذا ظلوا فى مصر وهو فى ذلك يقول « ولا يخفى على أن عددا غير قليل من
عساكرى البرين والبحرين يفرون من الخدمة العسكرية ولذلك أمرت
بشنق كل رجل يأتى الى بيته جندى فار سواء أكان هذا الرجل شيخ
القرية أو القائمقام أو حاكم الاقليم » (١٦) •

ولذا استخدم محمد على رفض والى عكا إعادة الستة آلاف من الجنود
الهاربين ذريعة للهجوم على سوريا وفلسطين فى وقت كان الشعور فيه
معاديا للسلطان نتيجة لضيق الجماهير الشعبية من الضرائب التى أجبر
السلطان على فرضها للنفقات والغرامات الحربية •

(١٦) السياسة الدولية فى الشرق العربى ، الجزء الثانى - اميل خورى وعادل اسماعيل •

واستقبل المصريون كمنقذين ومحررين من نير السلطان ، لا من قبل سكان المناطق العربية فحسب ، بل من قبل سكان المناطق التركية الصرفة التابعة للامبراطورية (١٧) .

كانت حركة الجيش المصرى فى سوريا وفلسطين مختلفة تماما عن حركته فى بلاد اليونان ٠٠٠ انه يناصر الشعوب العربية ضد الظلم الواقع عليها من السلطان التركى بينما كان فى السابق يعادى حركة الشعب اليونانى التحررية .

بدأت الحملة تحت قيادة ابراهيم باشا فى ٤ نوفمبر ١٨٣١ وتساقطت المدن واحدة بعد الأخرى : غزة ويافا وحيفا ثم عكا بعد حصار طويل ، وأخيرا دمشق وحمص وحماة وحلب ٠٠٠ وأثناء ذلك وجد الجيش المصرى قوات الأتراك التى تمركزت قرب حمص ، وكبدها خسائر بلغت ٤٠٠٠ قتيل وجريح ٠٠٠ ودخل بلاد الأناضول حيث هزم الجيش التركى للمرة الثانية فى بيلان فى ٢٩ يوليو ١٨٣٢ وهرب قائده مع فلول قواته الى أطنه ٠٠٠ وواصل الجيش المصرى زحفه حتى التقى بحشد من القوات التركية بلغ ٦٠.٠٠٠ يواجهون ٣٠.٠٠٠ جندى مصرى فى مدينة قونية ، وكانت النتيجة انتصارا باهرا للجيش المصرى الذى أسر القائد محمد رشيد باشا الصدر الأعظم ، وفتح الطريق بعد ذلك الى الأستانة ووصل الى كوهيه .

وكتب ابراهيم باشا الى والده بعد المعركة بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٨٣٢ يقول :

« انى اعتقد ان مشكلاتنا يجب أن تسوى فى الأستانة لا فى غيرها من الأماكن . ففى الأستانة اذن يجب أن ندق أوتادنا لنملى ارادتنا ونحقق أهدافنا ٠٠ ويجب ألا ننسى أن الأتراك لم يعقدوا الصلح مع روسيا الا بعد أن وصلت جيوش القيصر الى أبواب الأستانة . لذلك يجب علينا أن نسرع بالتقدم الى بروسه على الأقل ونحتل البلاد الواقعة على ساحل بحر مرمره ونتخذها قواعد بحرية لتموين جيشنا . ومتى دخلناها يصبح سهلا علينا نشر الاشاعات التى تؤدى الى اسقاط السلطان . واذا عجزنا عن خلعه فائنا لن نعجز عن املاء شروط الصلح التى نريدها » (١٩) .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) تاريخ الأقطار العربية الحديثة ٠٠ (لوتسكى) .

(١٩) السياسة الدولية فى الشرق العربى .

ولكن محمد علي كان له رأى آخر صرح به لقنصل روسيا فى الاسكندرية بعد رؤيته لفزع الدول الكبرى من انتصاراته الخاطفة اذ قال له :

« اننى لا أسعى للجلوس على عرش السلطان رغم علمى بما يدور فى الآستانة واطلاعى على امكانات الباب العالى الحقيقية . ان باستطاعتى أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها أسطولى ولكنى لا أحب الاعتداء على حقوق أبنائه لانهم خلفاء النبى . وليس معنى هذا اننى أذهب جيوش السلطان . ان السلطان يتهمنى بالعصيان وينسى اننى استوليت على مصر بسيفى وان أحدا لا يستطيع أن يخرجنى منها الا بحد السيف . أنا تابع للسلطان ولكنى فى مصر بحق الفتح . واذا كتب لى البقاء فى الشام فسأظل تابعا له ودعامة لعرشه » .

وكان محمد علي أبعد نظرا اذ سرعان ما طلب السلطان محمود الثانى المعونة من روسيا فى ٣ فبراير ١٨٣٣ فدخل أسطولها مياه البوسفور فى ٢٠ فبراير وأنزل فيلقا عسكريا من ٢٠ ألف محارب ، وأسرعت بريطانيا وفرنسا خوفا من تغلغل النفوذ الروسى الى مصالحة محمد علي مع السلطان الأمر الذى تحقق فى كوتاهيه بتاريخ ٤ مايو ١٨٣٣ عندما أصدر السلطان فرمانا يثبت فيه حقوق محمد علي فى مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت وتعيينه حاكما عاما على فلسطين وسوريا ، بعد ان كان قد أصدر فى ٤ مايو ١٨٣٣ نطقا يعلن فيه خروج محمد علي عن الطاعة هو وابنه ابراهيم وعزله عن ولاية مصر . . .

ظل صلح كوتاهيه شفهيًا ورفض السلطان أن يسجل أحكامه فى معاهدة خطية مما جعله بمثابة تجسيد للمشكلة وليس حلا لها . . . هدنة وليست صلحا .

كان السلطان يريد الانتقام من محمد علي ، ولكنه كان عاجزا وحده عن أن يفعل شيئا ، فاتجه الى روسيا التى ساعدته على الاحتفاظ بعرشه ، وعقد معها معاهدة (هفكار اسكسى) فى ٨ يوليو ١٨٣٣ فور جلاء القوات الروسية عن الأرض التركية .

وأثارت هذه المعاهدة التى عقدت لمدة ثمانى سنوات ونصف وكانت احدى موادها السرية تشير الى تعهد الباب العالى باقفال الدردنيل بوجه كل أسطول أجنبى يرى الروس فيه ما يهدد سلامة ممتلكاتهم الواقعة على البحر الأسود مع فتح المضائق أمام الأساطيل الروسية فى سيرها الى البحر الأبيض المتوسط فى حال وقوع حرب بين روسيا واحدى الدول الأخرى .

أثارت هذه المعاهدة عاصفة في السياسة الدولية لأنها تمت تحت ضغط حقد السلطان علي محمد علي وفي ذلك قال لندوبي انجلترا وفرنسا بأن « الدولة العثمانية وعاصمتها لا قيمة لهما في نظره وانه مستعد للنزول عن عاصمته لمن يجيئه برأس محمد علي » (٢١) .

ماذا فعل محمد علي في الأرض التي احتلها الجيش المصري ؟

كتب بالمرستون عن محمد علي في عام ١٨٣٣ قائلا « ان هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الأقطار التي تتكلم بلغة الضاد » وأبلغ البارون بوالكمث الممثل الفرنسي لدى ابراهيم بأنه يرمى « الى بعث الوعي القومي العربي واحياء الأمة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب » (٢٢) . وسبق أن ذكرنا تصريحاً لابراهيم قال فيه ان فتوحاته ستصل « الى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس ويتفاهمون باللسان العربي » .

وهكذا كانت القومية العربية تلهب خيال محمد علي وتدفعه الى تجريد الامبراطورية العثمانية من سكانها العرب .

وبذل ابراهيم في سبيل ذلك الى جانب خطواته الحربية خطوات أخرى اجتماعية فقام بعدد من الاصلاحات مثل التي قام بها والده في مصر لتصفية العسف الاقطاعي وتغيير أسسه ، فحرم الابتزاز وأعفى الأرض البكر من الضرائب وسكن البدو في الأرض المناسبة .

زادت مساحة الأرض المنزرعة في سوريا خلال العامين الأولين من ٢٠٠٠ الى ٧٠٠٠ فدان في حوران واستطاع الفلاحون أن يتاجروا بمحاصيلهم بدلا من تخزينها خوفا من الباشوات الأتراك وكبار الاقطاعيين الذين أجبرهم ابراهيم على الخضوع للسلطة المركزية .

وأعاد ابراهيم تنظيم البلاد على أساس ست مديريات بنظام عصري مركزي ، كما أصلح نظم التعليم وأنشأ المدارس الابتدائية في كافة أنحاء سوريا ، والمدارس الثانوية في المدن الكبيرة ، وجعل كلوت باشا مشرفا عليها طالبا منه غرس الوعي القومي العربي في نفوس الطلاب وأنشأ ابراهيم أيضا أول دار للطباعة في لبنان (٢٣) .

وكان ابراهيم مثل والده محمد علي بعيدا عن التعصب الديني فحرر المسيحيين من القيود التي فرضها عليهم الباشوات والأتراك .

(٢١) السياسة الدولية في الشرق العربي .

(٢٢) تاريخ الاقطار العربية الحديث - لوتسكي .

(٢٣) السياسة الدولية .

ولكنه رغم كل ما قام به محمد علي وإبراهيم من إصلاحات في سوريا وفلسطين إلا أن تجمعا معارضا بدأ يتحد ضده من الاقطاعيين الذين قهر نفوذهم ومن الفلاحين الذين بدأ يطبق عليهم قوانين التجنيد فقامت عدة انتفاضات من الفلاحين ضد التجنيد في فلسطين وفي مناطق الدروز ، وتعرضت القوات المصرية وإبراهيم نفسه لأخطار شديدة ، تغلب عليها بعد مقاومة عنيفة .

وانتهز السلطان هذه الفرصة متذعرا بالاضطرابات ليعاود موقفه العدائي من محمد علي مستهدفا إبعاده عن سوريا لأنه على حد تعبيره « غير أهل للحكم وعاجز عن تأمين الأمن والراحة للاهلين » . ولكن الأمر كان يجاوز حدود قدراته لفقدان الباب العالي لهيبته وعجزه عن إرغام محمد علي عسكريا على الانسحاب .

ولكن تطورات السياسة الدولية ساعدت السلطان على اتخاذ موقف صريح ضد محمد علي ، فان فرنسا فشلت في انجاح المفاوضات بين السلطان ومحمد علي ، وانجلترا برزت في الميدان تستهدف تحطيم نفوذ فرنسا ووقف نمو النفوذ الروسي وانتصار محمد علي في وقت واحد .

كان محمد علي يخشى انجلترا . . . ولم تكن الحكومة البريطانية من جهتها مرتاحة الى نجاح محمد علي والتقدم الزراعي والصناعي والعسكري الذي أحرزه في مصر وبسطه لسيطرته على الجزيرة العربية وسوريا مما يجعل طريق الهند تحت رحمة رجل قوى منظم يقود قوة عسكرية هائلة .

ولعب بالمرستون وزير خارجية بريطانيا دورا خبيثا في تحقيق هذه الأهداف معتمدا على ضعف السلطان . . وقد وصف كارل ماركس هذا الرجل الداهية بقوله :

« أنه محافظ من رأسه الى أخمص قدميه ، ألبس السياسة البريطانية نسيجا من الكذب والنفاق فكان في هذا خير ممثل للمحافظين وأصح ناطق باسمهم . » وكان ماهرا في صبب الآراء والأفكار الاقطاعية في قالب كلامي ديموقراطي ، وفي إخفاء ما في صدره من أطماع تجارية رأسمالية وراء ستار الحرص على السلام والاستمساك الشديد بالقيم الروحية ، (٢٤) .

وكان محمد علي قد استدعى قنصل بريطانيا وفرنسا وأبلغهما انه قرر إعلان استقلاله تمشيا مع سياسته الإصلاحية وتطور بلاده ، وان بقاء

(٢٤) السياسة الدولية .

مصر وسوريا في حظيرة السلطان يتنافى والواقع السياسى والاجتماعى فى الشرق وكان قد سبق له حديث قاس مع القناصل سألهم فيه كيف تقبل دولهم استقلال الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وتابى على مصر أن تستقل قائلا لهم « خبرونى أيها القناصل عن التاريخ الذى قرأتم فيه أن رجلا كان له من القوة والشأن مثل ما لى فاستكفى بوضع التابع ولم يحطم الغير ليتحرر ويستقل » .

وكان بالمرستون يعتقد ان أى تصادم بين محمد على والسلطان سيكون فيه القضاء على الجيوش العثمانية قضاء تاما فيتدفق الروس الى الأستانة ودمشق ويصعب اخراجهم منها ، كما أن انتصار محمد على لابد أن يحمل انتعاشا للنفوذ الفرنسى ولذا عقد معاهدة تجارية مع تركيا عام ١٨٣٨ ، حولت بها الامبراطورية العثمانية الى مصدر تابع للدول الأجنبية يزودها بالمواد الأولية ، وألغت احتكار الخزينة الدولية لمختلف أنواع المواد الأولية .

ولكن السلطان محمود الثانى عندما شعر بمساندة الدول الأوروبية له (روسيا وانجلترا والنمسا وبروسيا) استعد للحرب بصورة مخومة وعبا جيشا من مائة ألف جندي .

الحملة السورية الثانية .:

عبرت القوات التركية الفرات فى ٢١ ابريل ١٩٣٩ . وهاجمت قوات محمد على ولكنها منيت بهزيمة شديدة فى ٢٤ يونيو قرب نصيبين رغم أن القوات العثمانية كانت تحت ادارة القائد الألماني المشهور (فون مولتكه) الذي أصبح فيما بعد القائد الأعلى للجيش البروسى فى عهد بسمارك .

أصبح الطريق مفتوحا للمرة الثانية أمام ابراهيم باشا الى الأستانة وتوفى السلطان محمود بعد ستة أيام من هذه الهزيمة . واعتلى العرش ابنه عبد المجيد وانضم الأسطول العثمانى كله بقيادة الأميرال أحمد فوئدى الى جانب محمد على .

ومع ذلك لم يتقدم ابراهيم باشا الى الأستانة واستجاب لرأى والده الذى أراد تفادى القيام بأى عمل استفزازى ضد الروس .

تردد محمد على فى فرض ارادته كما فعل بعد انتصاره فى المورة وكان عدد كبير من المفكرين الأوروبيين يرون أنه كان على محمد على أن يعلن استقلاله بالقوة أثناء حرب المورة فتضطر الدول الى معاملة مصر على قدم المساواة مع اليونان . وكان من أبرز هؤلاء المفكرين الأمير البروسى

بوكلر - موسكو وهو عالم أثري ، فكتب أن الدول الأوروبية ظنت وأعلنت أن واجب الشرف قضى عليها بخوض معركة نافارين دفاعا عن حرية اليونانيين واستقلالهم ، وواجب الشرف يقضى علينا نحن بأن نسألها لماذا لم تنظر الى استقلال بلاد الفراعنة بالعين التي نظرت بها الى الحرية اليونانية . ان علماء الآثار ورجال التاريخ والجغرافيا لا يفرقون بين حضارة البلدين وحق كل منهما في الاستقلال والحرية ، ولكن القوة العسكرية ليست بيدهم . ان راحة أوروبا وآسيا ومصلحة العلوم والفنون والحضارة أحق بالرعاية والاحترام من الغايات المادية . ولقد كان علي محمد علي أن يمضي الى هدفه غير متأثر أو متعثر بالاعتبارات الخارجية . وأخشى أن ينطبق عليه قول حكيمنا شيللر « ان الفرصة التي أعطاكها الدهر فرفضتها لن تعيدها لك الأبدية » .

وتحقق قول شيللر فعلا فضاعت الفرصة من محمد علي ووقعت الدول الأربع مذكرة الى تركيا تطالبها بعدم اتخاذ قرار نهائي وبدون مساعدتهم لها وان ترقب نتائج التعاون المشترك الذي اتخذ من قبلهم من أجل مصيرها (٢٥) .

وقامت في فرنسا معارضة قوية ضد الرأي الذي بدأ يسود بتسوية الأوضاع في الشرق على أساس إعادة سوريا الى السلطان دون تعويض محمد علي . وشنت الصحافة الفرنسية حملة شديدة على السياسة البريطانية التي استشعرت خطرها على مستقبل فرنسا في البحر المتوسط وهم يحتلون أهم المراكز الاستراتيجية في جبل طارق ومالطة وكورفو ويتحينون الفرصة للاستيلاء على الاسكندرية والسويس .

خطب الشاعر المعروف لامارتين في الجمعية الوطنية الفرنسية في أول يوليو خطابا كان له دوى عظيم في المحافل السياسية قال فيه :

« أجل ان الدولة التركية تميل الى الانهيار . وكبار الرجال والعناصر الفتية والقوية ينفخون روح الرجولة في الامبراطوريات الهرمة ويجددون لها شبابها . انظروا الى باشا مصر يبعث البلاد العربية فهل هو ابن سلطان . ان هو الا عبده متمرده . وهل في هذا ما يحط من شأنه أو من قيمته . هو الرجل الذي تتجسم فيه الشرعية الوحيدة في الشرق الناهض . وقد حقق المعجزات . هو رسول الحضارة الى الشرق وسيد مصر وبلاد العرب وسوريا . ولو انكم لم تحولوا دون زحفه بعد وصوله الى كوتاهيه لكان

الآن فى الآستانة رأس الامبراطورية يبعثها جديدة قائمة على أنقاض دولة بنى عثمان ، (٢٦) .

ومضى ما يقرب من عام كامل والدول الكبرى تتفاوض حول مصير تركيا ومصر ٠٠٠ مؤتمر للسفراء ينعقد بصفة مستمرة فى لندن ٠٠٠ وفرنسا تنجح فى مايو ١٨٤٠ فى عقد اتفاقية بين مصر وتركيا يمنح السلطان فيها محمد على حكما وراثيا فى مصر وسوريا ، ولكن الدول الكبرى تعمل على احباط هذه الاتفاقية .

وتنشط بريطانيا فى استفزاز قوة محمد على دون توريث قواتها التى كانت تعاني فى الصين مما أجبرها على اجلاء الرعايا البريطانيين من الأماكن التى كانت تحتلها فى ماكاو ، واضطرابات عدن وهجمات البدو على الحامية البريطانية فيها ، وتدهور الحالة الداخلية فى الهند .

أطلق البريطانيون الجواسيس والعملاء يشجعون اللبنانيين على الثورة ضد ابراهيم باشا والأمير بشير لزيادة الضرائب التى بلغت ثمانية ملايين وسبعمائة وخمسين ألف قرش عام ١٨٤٠ بعد أن كانت لا تزيد عن المليونين ونصف المليون قبل مجيء الجيش المصرى قبل ذلك بثمانى سنوات ، وصدر قانون الخدمة العسكرية الاجبارية على جميع اللبنانيين مسلمين ونصارى ، وكذلك استخدم الأمير بشير للسفيرة .

وعندما فشلت ثورة لبنان التى كانت ضعيفة التنظيم حاول البريطانيون خلق المتاعب لمحمد على بتحريض بحارة الأسطول العثمانى اللاجئ الى الاسكندرية على رفع راية العصيان والعودة الى الآستانة .

وساءت العلاقات بين محمد على والقنصل البريطانى هودجز الذى قال عند تقديم أوراق اعتماده بأن بريطانيا عازمة عزما أكيدا على مواصلة سياستها القائمة على سلامة الامبراطورية العثمانية ووحدةها مما يجعل شبهة اعلان الحرب على محمد على الذى انصرف الى تقوية دفاعه وتوسيع استعداداته العسكرية ، فبدأ بتشكيل فيالق جديدة ، وبناء تحصينات قوية على الشواطىء وفى داخل القطر ، وجمع الضرائب واستنفر الرجال . فأقلقست استعداداته قناصل الدول فى مصر وسوريا فكتب هودجز الى المرستون فى ٢٢ فبراير ١٨٤٠ ، ان الدول الأوروبية تخطىء خطأ فادحا اذ تعتقد أن محمد على زعيم عصابات من الأفارقة السود الذين لا معنى عندهم للقيادة ولا قيمة للنظام ، فهو فى الحقيقة رئيس لدولة غنية بالرجال والأموال وقائد لجيش مدرب على أحدث الطرق الأوروبية . وهو ينظر بعين

ملؤها الحذر الى تنكر أوروبا لنهضته وتجهمها له ويستعد للقاءها . وقد تلمست في نشاطه ، في كل نواحي هذا النشاط ، فكرة يقظة واردة منظمة كنت بعيدا كل البعد عن الاعتقاد بوجودهما عنده . ولكن بالمرستون كان مصمما على القضاء عليه فكتب الى هودجز يقول له بكل صراحة أن السول الأوروبية قد قررت استعمال القوة ضده اذا لم ينفذ قراراتها وأقام على موقفه من السلطان .

كان تفكير محمد علي سليما في استعداده لمواجهة بريطانيا بالقوة ، ولكن حيل بالمرستون لم تنضب فركز على النشاط الدبلوماسي ، ودفع عجلة المفاوضات بين السفراء في لندن حتى نجح في الحصول على توقيع النمسا وبروسيا وروسيا وتركيا على اتفاقية لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ وهي الاتفاقية التي قررت مصير محمد علي .

اعتبرت اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ نصرا كبيرا للدبلوماسية البريطانية، والتي وجهت الى محمد علي انذارا في ١٩ أغسطس بشروط الاتفاقية وهي :

- ١ - تسلم محمد علي بمقاليده مصر كملك وراثي .
- ٢ - الناطة ادارة فلسطين (ولاية عكا) به كملك عليها مدى الحياة .
- ٣ - اعادة جميع الممتلكات الأخرى الى السلطان .
- ٤ - في حالة عدم موافقة محمد علي على الشروط المقترحة خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها .
- ٥ - ان لم يوافق خلال عشرين يوما على هذه الشروط يفصل على عزله عندئذ بجهود الجلاء المشتركة .

رفض محمد علي الانذار ، وأعلن أنه ينوي أن يبقى بالسيف ما ربحه بالتنيف ، وبدأت الحرب بتزول قوات بحرية بريطانية وفرنسية مشتركة على شواطئ لبنان وانتهت بضغوط بيروت واللاذقية والاسكندرية وعكا وتهديد الأسطول البريطاني بضرب الاسكندرية .

واضطر محمد علي الى التوقيع على الاتفاقية يوم ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠ فحبت قووات المدافع البريطانية بعد أن اقتضت مساعدة فرنسا حليفة مصر على الإمداد بالأسلحة والتأييد المعنوي ، متحاشية دخول حرب أوروبية ضد روسيا وانجلترا في وقت واحد فتركت مصر وحدها في كفة الأقدار .

أصدر محمد علي مرسوما بالجلاء عن سوريا وفلسطين ، واضطر ابراهيم باشا للانسحاب في ظروف صعبة عبر السهول والصحاري الأردنية

فلم يصل من قواته التي بلغت ٦٠.٠٠٠ جندي مصر الا ٢٤.٠٠٠ وهلك
الباقون من العطش والجوع والبرد والمرض وهجمات العرب عليهم .

تمت تسوية الموقف في أول يونيو ١٨٤١ بإصدار مرسوم سلطاني
يحتفظ فيه محمد علي ضمن ممتلكاته الوراثية بمصر والسودان مع إعادة
جميع الأراضي الباقية ، وانقاص عدد الجيش ليصبح ١٨.٠٠٠ فقط مع
حرمان محمد علي من حق تعيين اللوات في جيشه أو بناء السفن الحربية ،
مع اعترافه بأنه تابع للسلطان ، يتعهد بدفع جزية كبيرة الى خزينته .

وهكذا تحالفت البرجوازية الأوروبية وخاصة الانجليزية لضرب مصر
التي حقق فيها محمد علي انجازات هائلة في ميدان الصناعة والزراعة
والثقافة والحرب الحديثة وضعفت تبعية مصر الشكلىة لتركيا لتقترب
وتقع في دائرة النفوذ البريطاني .

لم يكن محمد علي مثلما حاول لامارتين الشاعر الفرنسي أن يصف
صورة السيد في الشرق مظهرا للخلاف بينها وبين صورة السيد الذي يحكم
في الغرب عندما وقف خطيبا أمام الجمعية الوطنية الفرنسية قائلا :

« في الشرق لا وجود للنظم والأجهزة بمفهومها الصحيح ولا أثر
للتقاليد السياسية . ولا وجود فيه الا لسيد من ناحية ولعبيد من ناحية
أخرى . والرجل الكبير فيه ليس سوى شخصية أو حدث ، بل هو أشبه
بنجم يتلألأ لحظة في ظلمات البربرية . هو رجل يقوم بأعمال كبيرة يسخر
لها آلاف من الناس الذين يحكمهم ولكنه لا يغير شيئا في مستوى هذا
الشعب ولا يؤسس دولة وطيدة الأركان ، ولا يخلق أجهزة أو يضع قوانين،
فاذا غادر هذه الدنيا طوى عبقريته كما يطوى البدوى خيمته وتوارى معها
تاركا المكان خاليا كما كان قبل قيامه » .

لم يكن محمد علي مثل البدوى الذي يطوى خيمته ويصادر الأرض
بلا أثر فانه أقام في مصر نظاما اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا انتكس
بعد موته ولكنه لم يندثر .

كان محمد علي قد وضع أساسا سليما لاقامة بناء ينفرد به المصريون
ولا يخضعون فيه لسلطة قوة خارجية عنهم .

وضعت اتفاقية لندن نهاية لحكم عصرى متحضر امتد ما يقرب من ٤٠
عاما استطاع فيها أن يستنفذ جانبا من طاقات الشعب المصرى ، ويتيح
الفرصة لأبنائه في مجالات التعليم والثقافة والحرب أيضا .

وكتب كارل ماركس قائلا (ان محمد علي كان الشخص الوحيد الذي
كان في قدرته تحويل تركيا من العمامة المفتخرة الى رأس حى حقيقى) .

الفصل الثانى

الأميرالاي عرابى ثائرا وقائدا

(السلطة التى أتمتع بها الآن لم أقم باغتصابها
بل قلدنى إياها الشعب) •

أحمد عرابى

اثر الاستسلام على قدرة محمد على العقلية وهو فى الواحدة والسبعين
من عمره فتتنحى عن إدارة شئون الدولة لابنته إبراهيم باشا الذى أدارها
فى الأربعينيات حتى أصبح حاكم مصر الرسمى عام ١٨٤٨ إلا أنه توفى بعد
ثلاثة شهور فقط فى ١٠ نوفمبر ولحق به محمد على الذى مات عن ثمانين
عاما فى ٢٠ أغسطس ١٨٤٩ •

تولى عباس باشا الحكم فى ٢٤ ديسمبر ١٨٤٨ ومحمد على ما يزال
على قيد الحياة ...

وانحسرت خلال حكمه منجزات محمد على ، لأنه كان معاديا للتطور •
نفورا من الحضارة الأوروبية ، منجذبا الى السلطنة التركية ... فأغلق
المصانع والمدارس وهدم ما بنى من القناطر الخيرية ... وخضع لتعليمات
الانجليز خضوعا تاما • واستند فى حكمه الى كبار الاقطاعيين الذين تكونوا
فى عهد محمد على ، وأضاف عباس لهم مزيدا من الأرض ، وكان هو نفسه
أكبر مالك فى مصر •

منح عباس الانجليز امتياز مد السكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة والسويس لتسهيل تجارتهم مع الهند ٠٠٠ وأصبحت انجلترا هي السولة الأولى في التعامل التجارى مع مصر ٠٠ وفى أواخر الأربعينيات كان بيع الاستيراد منها وثلاث الصادرات اليها .

ووصل الانحسار الرجعى فى مصر الى صفوف الجيش أساسا فانقص عدده عما حدد له حتى هبط فى وقت ما الى ٥٠٠٠ جندى ، حوله كما كان فى عهد بكوات المماليك الى حرس خاص له ٠٠٠ ومع ذلك كانت نهايته القتل بواسطة حرسه والاعلان فى بيان رسمى صدر فى يوليو ١٨٥٤ بأنه مات بالسكتة القلبية .

ولم يكن سهلا على عباس أن يرجع بمصر التى تألفت باصلاحات محمد على الى الأنظمة التركية القديمة ٠٠٠

كانت مصر قد بعثت فيها القوى الانتاجية ، واتضحت العلاقات الرأسمالية وتكونت البرجوازية ، وارتبطت بالسوق العالمية .

وفى ١٤ يوليو ١٨٥٤ تولى الحكم سعيد باشا أحد أولاد محمد على الصغير وكان مختلفا فى طبيعته عن عباس باشا ٠٠٠ تميز بتفكير حر واعتبر نفسه مصريةً ألا أن ميوله كانت غربية ٠٠٠ منح صديقه فرديناند دى ليسبس امتياز شق قناة السويس بعد ثلاثة شهور فقط من حكم مصر .

كانت بعض شروط الامتياز شديدة الاجحاف بمصر التى تعهدت بتقديم أربعة أخماس العمال المطلوبين للحفر مجانا ، والذين بلغ عددهم بصفة مستمرة ما بين ٢٥ الى ٤٠ ألف فلاح ، عملوا فى سخرة مطلقة وتحت ظروف رهيبية القسوة ، فمات منهم خلال العمل ٢٠ ألفا ، شيدوا بحياتهم وبعروا زملائهم أضخم مشروع للبرجوازية الأوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الوقت حرم سعيد باشا نظام وتجارة واستيراد الرقيق ، وحرر العبيد الذين كانوا يعيشون فى مصر ٠٠٠ وأعطى للفلاح حق تملك الأرض ، وحرية زراعة وبيع المحصولات الزراعية بعد أن ألغى نظام الاحتكارات وقام بتصفية الجمارك الداخلية ٠٠ وقد كون هذا الوضع ظروفا ملائمة لتطور العلاقات الرأسمالية فى القرية حيث أتيح للتجار وأثرياء الفلاحين شراء الأرض مما نقل مساحات كبيرة الى المرابين والرأسماليين الأجانب .

وفى عهد سعيد أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة فى مصر .

وكان سعيد باشا مع ضعفه وتناقضاته يحب مصر حبا عميقا ، ويتحمس للمصريين ، وانعكس ذلك على الجيش أساسا ، فأعاد له صبغته الوطنية ، ونجح فى تغيير بعض القيود التى فرضت على الجيش عام ١٨٤١ فحصل فى عام ١٨٥٦ على موافقة من الباب العالى بزيادة الجيش المصرى من ١٨ ألفا الى ٣٠ ألف جندى ، وكان يقضى معظم وقته مع الجيش ، يقدم لجنوده جيد الطعام ، ويوفر لهم أفخم الملابس الزاهية ، ويشجع المصريين على دخول مدارس الجيش التى أعاد فتحها . . يقول عرابى فى مذكراته ان سعيدا أهدها تاريخ نابليون بالعربية طبع بيروت وهو بادى الغيظ لتمكن الفرنسيين من التغلب على البلاد المصرية .

وسن قاعدة جديدة تسمح بترقى صف الضباط والضباط المصريين الى رتب كبار الضباط . . . وكسر بذلك نهائيا الحاجز الذى كان يسد طريق وصول المصريين الى قيادة الجنود لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وفى نفس الوقت مهد الطريق لثورة حقيقية فى المجتمع المصرى .

وصل الى رتبة البكباشى - المقدم - فى عهده ضابطان مصريان ، هما أحمد عرابى وعبد العال حلمى . . ووصل الأقباط كذلك الى رتب الضباط لأول مرة .

وأحمد عرابى ولد عام ١٨٤١ ابنا لشيخ بلد قرية (هرية وزنة) بالشرقية ، تعلم القراءة والحساب على يد صراف قبلى ثم انتقل الى الأزهر ومنه الى الجيش ، حيث ساعده تعليمه وزيادة عدد الجيش على سرعة الترقى حتى أصبح ملازما عام ١٨٥٨ وبكباشى وياورا لسعيد عام ١٨٦٠ .

ولكن أحمد عرابى لم يواصل ترقياته السريعة فى عهد اسماعيل الذى اقتصر منذ تولى الحكم بعد سعيد عام ١٨٦٣ على ترقية الضباط الألبانيين والشراكسة الى المناصب القيادية ، وابعاد الضباط المصريين الى المناصب الثانوية ، مما أحدث خلافا فى صفوف الجيش بين العناصر الوطنية الديمقراطية من الضباط الذين كانوا يسمون أنفسهم (الفلاحين) والآخرين الذين لقبوا باسم (الشراكسة) وزادت حدة التناقضات بتوزيعه خمسمائة فدان لكل لواء ، ٢٠٠ فدان لكل أميرالاي ، ١٥٠ لكل قائمقام . . . ومعنى هذا حرمان المصريين من هذه الهبات .

ومع هذا لم يكن عهد الخديوى اسماعيل يمثل انحسارا فى تطور الجيش . . . العكس هو الصحيح .

أتاحت الفرمانات التى حصل عليها من الباب العالى فرصة كبيرة لتطوير الجيش والمجتمع أيضا .

وصل الجيش فى السبعينيات الى ثمانين ألفا ، وأرسل ١٥ فرقة عسكرية الى مولدافيا وكريت لمعاونة الجيش العثمانى فى القضاء على ثوراتها ، وكما حضر الضباط الفرنسيون بعد هزيمة نابليون للعمل فى الجيش المصرى ، حضر أيضا عدد من الضباط الأمريكين بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) .

وقد احتجت إنجلترا وفرنسا على ذلك ولكن اسماعيل قابلهما بالسخرية وعدم الاكتراث .

كان الخديوى اسماعيل يفضل الضباط الأمريكين لان الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت كانت بعيدة عن الأطماع الاستعمارية وخلال الفترة من ١٨٧٠ - ١٨٧٩ كان هناك ٥٤ ضابطا أمريكيا يخدمون فى الجيش المصرى ، أحدهم فى رتبة لواء واثنان فى رتبة أميرالاي ، ولكنهم سرحوا جميعا عام ١٨٧٩ كنتيجة للأزمة المالية الطاحنة ، ولم يبق الا اللواء ستون باشا الذى كان رئيسا لهيئة أركان الحرب من ١٨٧٠ الى ١٨٨٢ .

ولم يكن الضباط الأمريكيون يعينون فى قيادة الوحدات ، ولكنهم كانوا يتولون مناصب فى الرئاسات وفى الأسلحة المساعدة قام البعض منهم بأعداد خرائط حربية لمنابع النيل وغرب السودان وتشاد .

ونتيجة لزيادة عدد الجيش المصرى ، وصدر قرار بتعيين ضباطه من خريجي مدارس الجيش فقط ، زادت نسبة الضباط المصريين حتى أصبحوا الأغلبية التى ترأسها وتتحكم فيها الأقلية الشركسية كما انتشر التعليم فى الجيش بحيث لم يكن فيه سوى ٤٢ جنديا أميريا فقط (٢٧) .

أحمد عرابى الذى وصل الى رتبة البكباشى فى عهد سعيد أمضى ١٩ عاما بلا ترقية خلال حكم اسماعيل ، ولم يصل الى رتبة الأميرالاي الا بعد خروج اسماعيل فى صيف ١٨٧٩ .

وتألفت فى الجيش المصرى عام ١٨٧٦ أول (جمعية سرية) فى تاريخه الحديث برئاسة على الروبى للدفاع عن مصالح الضباط الوطنيين باسم (مصر الفتاة) وزاد نشاطها عقب انضمام أحمد عرابى لها بعد حرب الحبشة . التى اتهمه الأتراك خلالها ظلما بالرشوة ، عندما كان مأمور الحملة فى (مصوع) وأصبح عرابى بجرأته وفصاحته الرئيس الفعلى لهذه الجمعية عام ١٨٧٧ .

(٢٧) روزنشين - الثورة العرابية / صلاح ميسى .

واختبرت الأحداث قوة الضباط الوطنيين في مواجهة السلطة عندما تأخر صرف مرتبات الضباط ما يقرب من ١٥ شهرا ، ثم سرت اشاعة بنية رئيس الوزراء الأرمني نوبار باشا ووزير مالىته ريفرز ويلسون الذى عينته الحكومة البريطانية لتسوية الديون بتسريح ٢٥٠٠ ضابط مصرى ، وتخفيض رواتب الباقين الى النصف .

وقام الضباط المصريون بقيادة لطيف سليم ناظر المدرسة الحربية بأول مظاهرة فى التاريخ يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ وحاصروا نوبار وويلسون أمام وزارة المالية وانهالوا عليهما ضربا ، حتى حضر الخديوى شخصيا لانقاذهما ، غير انه لم يتخذ أى اجراء مضاد ، نظرا لعدم تحمسه لللائنين . . . ومع ذلك فقد قدم أحمد عرابى وعلى الروبى ومحمد النادى الى المحاكمة بتهمة تدبير التمرد واكتفى المجلس العسكرى بتوبيخهم رغم عدم اشتراكهم فى المظاهرة وهذا دليل على ان حركتهم كانت تحت الضوء . . . وقد دفع ذلك عرابى الى التفكير فى تكوين جمعية لخلق الخديوى اسماعيل الذى اقترض ٤٠٠.٠٠٠ ر. ٤٠٠.٠٠٠ جنيه من بيت روثشيلد لنفع المرتبات المتأخرة ، وأقال نوبار باشا فى ٩ مارس وعين ابنه رئيسا للوزراء .

وكانت هذه الحادثة بمثابة الاكتشاف الجديد ، لقوة ضباط الجيش الوطنيين الملقبين باسم (الفلاحين) ، اذ أدركوا امكانية خوضهم النضال ضد الظلمة الأوروبية ، واشتهرت بينهم أسماء عرابى وعلى الروبى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود فهمى وغيرهم من الضباط الوطنيين .

ولم تكن حركة الضباط منعزلة عن الجماهير . . بل كانت مرتبطة بها أشد الارتباط . . وكان أحمد عرابى يعتبر نفسه من أتباع جمال الدين الأفغانى الذى استقر فى مصر عام ١٨٧١ وأبعد عنها فى سبتمبر ١٨٧٩ ، كما برز بعض المعبرين عن أيديولوجية الحركة مثل الشيخ محمد عبده وأديب اسحق الكاتب والصحفى السورى الذى استوطن مصر عام ١٨٧٦ وعبد الله النديم وسليم نقاش وابراهيم اللقانى وغيرهم من المثقفين .

ولم يقف ارتباط حركة الضباط بالقوى السياسية عند هذا الحد بل وصلت اتجاهات المعارضة الى (مجلس شورى النواب) الذى كان مشكلا من أصحاب الأراضي ورجال الدين ، والذى تحولت جلسته الدورية فى يناير ١٨٧٩ الى ساحة لمهاجمة (الوزارة الأوروبية) والتي أصبح الهجوم عليها أساسا لكافة الاتجاهات الوطنية فى الجيش وخارج الجيش .

وفى هذه الفترة حدث تجمع العناصر -الشراكسة الأذكيا والبرجوازية الزراعية فيما عرف باسم (الحزب الوطنى) بقيادة محمد شريف باشا . . .

ورغم ان جمعية (مصر الفتاة) كانت تعتبر أكثر تقدما الا أنها تحالفت معه واندمجت فيه . . ولكن الحزب الوطنى فى تشكيله العام كان قاصرا عن الوعى بأبعاد التناقضات التى تعيش فى الجيش ومدى ما يمكن أن تؤدى اليه .

وبدأت تعقد الاجتماعات ضد (الوزارة الأوروبية) علانية ، وترسل العرائض للخديوى من المدنيين والعسكريين مطالبة بإقالتها . وثمة اختلاف فى عدد الموقعين على عريضة المطالب وعلى تصنيفهم ، يذكر مراسل التيمس ان هذه العريضة قد وقعها سبعون من العلماء على رأسهم شيخ الاسلام وبطريق الأقباط وحاخام اليهود بالنيابة عن طوائفهم ، وستون من الباشوات ومثلهم من البكوات وأربعون من الأعيان وكثير من ضباط الجيش . ومعنى هذا أن الموقعين على البيان هم ٣٢٠ غير ضباط الجيش . بينما يذكر الأستاذ الرافعى أن عدد الموقعين جميعا ٣٢٧ منهم ٦٠ من أعضاء مجلس الشورى و ٦٠ من العلماء والهيئات الدينية و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين والعاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط . ويقل العدد فى مصادر أخرى الى ٢٠٠ عضو فقط منهم ٦٢ من رجال الدين و ٤١ من كبار الملاك الزراعيين والتجار و ٦٠ من أعضاء مجلس الشورى و ٣٧ من الضباط (٢٨) .

وشرع مجلس النواب يعد خطة مالية خاصة بخلاف خطة ويلسون . . وقد ساعد المناخ السياسى على بلورة الاتجاهات السياسية فى الجيش كما ربط بين الضباط والمدنيين . . . وسارع فى خلق علاقة وثيقة بين المطالب المهنية والسياسية .

وجدت هذه الاتجاهات الوطنية صدى عند الخديوى اسماعيل الذى عقد اجتماعا يوم ٧ ابريل ١٨٧٩ فى قصر عابدين أعلن فيه أن الاستياء قد بلغ ذروته فى البلاد وان الأمة تطالب بتأليف وزارة مصرية خالصة وقال « انى اعتبر واجبى المقدس كرئيس دولة وكمصرى أن أراعى وجهة نظر بلادى وأن أحقق آمانى أمتى الشرعية بصورة تامة » .

وأعلن الخديوى اسماعيل عزل الوزارة الأوروبية وتأليف حكومة مصرية برئاسة شريف باشا وزير العدل وكان من كبار أصحاب الأملاك وذوى الأفكار الوطنية الحرة .

أثار موقف الخديوى اسماعيل ثائرة الدول الأوروبية فأخلت تصفه بأنه (طاغية شرقى) بعد أن كانت تثنى عليه باعتباره حاكما مثقفا تقدميا أثناء استدائته للقروض الخارجية .

(٢٨) الثورة العرابية - صلاح عيسى .

وقدم القنصل البريطاني انذارا باسم اللورد سالسبورى وزير الخارجية رفضه الخديوى اسماعيل وتبعه انذار آخر من حكومتى ألمانيا والنمسا ثم وصل انذار نهائى فى ١٩ يونيو ١٨٧٩ قدمته انجلترا وفرنسا تطلبان فيه التنازل عن العرش ، تحت تهديدهما بالالتجاء الى السلطان التركى وخلعه بالقوة .

رفع اسماعيل الموقف بنفسه للسلطان فكانت النتيجة وصول برقية من السلطان يوم ٢٥ يونيو بعزله وتعيين ابنه توفيق خديوى على مصر . . . ورحل اسماعيل وقد ودعته مظاهرة شعبية قدوت موقفه الاخير فى تأليف حكومة وطنية وانتهاج سياسة مستقلة .

وطويت صفحة الخديوى اسماعيل الذى يعتبر رائد التطور الرأسمالى فى مصر ، والذى حقق فى المجتمع انجازات كبيرة شملت الصناعة التى تقدمت فى مجالات النسيج والتسليح وصناعة السكر وبناء السفن التى وصلت بأسطول مصر التجارى الى مستوى تفوقت به على الأسطول الفرنسى من الناحية الفنية . . . كما أن نسبة البواخر الى السفن الشراعية كانت ٦٠٪ فى مصر ، ٢٥٪ فى انجلترا ، ١٥٪ فى فرنسا . . . وسبقت مصر فى مجال السكة الحديد عددا من الدول الرأسمالية المتطورة ففي عام ١٨٧٦ مثلا كان فى فرنسا ٣٧٥ كيلو متر سكة حديد لكل ألف كيلو متر مربع من الأرض بينما وصلت فى مصر الى ٥٥ كيلو متر .

وارتفع عدد المدارس فى عهد اسماعيل من ١٨٥ مدرسة الى ٤٦٨٥ كان يدوس بها خوالى مائة ألف تلميذ وأنشئت الأوبرا ودار الكتب والمتحف والجمعيات العلمية وانتشرت الصحافة المتطورة .

وكانت سياسته فى الجيش أيضا سببا فى وقوف الضباط المصريين الذى أدى الى وقوعه فريسة لديدون الدول الرأسمالية التى أطاحت بعرشه .

وكانت سياسته فى الجيش أيضا سببا فى وقوف الضباط المصريين منه موقف الجفاء ، اذ أدركوا انه لا يسانداهم مساندة صريحة ، وانما يستخدمهم لأغراضه . . . نبهه جعفر مظهر حاكم السودان الى ضرورة ارسال ضباط مصريين بدلا من الضباط الأجانب لاكتشاف مناطق خط الاستواء ، ولكنه أرسل صمويل بيكر ثم عين جوردون خلفا له فى حكومة خط الاستواء ، وأخيرا عينه حاكما عاما فى السودان ترضية لانجلترا وبناء على توصية البرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا .

وعقب مظاهرة فبراير ١٨٧٩ أصدر أمرا بنقل أحمد عرابى الى الإسكندرية مغضوبا عليه . . . مما جعل الضباط يجتمعون مرتين

ويفكرون فى عزل اسماعيل والتخلص من أسرة محمد على وإعلان الجمهورية
كما روى أحمد عرابى .

وكان المصدر الرئيسى الذى تشعبت منه هذه المظاهرة هزيمة الجيش
المصرى فى الحبشة عام ١٨٧٦ عندما أرسل الخديوى اسماعيل حملة مؤلفة
من ٢٠ ألف مقاتل تحت قيادة راتب باشا التركى والجنرال الأمريكى
لورنج وأركان حرب ٠٠٠ وحدثت خلافات فى القيادة العليا بين الاثنين
انتهت بهزيمة منكرة للجيش كلفت الدولة أكثر من مليون جنيه ، وبذرت
فى الشعب والجيش شعورا بالاستياء العام .

وكانت هذه الحملة هى الأخيرة فى سلسلة الحملات التى قام بها
الجيش المصرى خلال ثمانين عاما تقريبا خارج وادى النيل (مصر والسودان)
وتحققت فيها انتصارات كبيرة ، أثبت فيها الفلاح المصرى انه محارب
شجاع وصبور متى توافرت له القيادة القادرة .

وكان وصول المصريين الى مراكز القيادة فى الجيش ، وتوافر الأغلبية
العامية بين الضباط لهم ، وتوحيد الأفكار داخل الجيش وخارجه بين
العناصر الوطنية ، دافعا الى اتخاذ مواقف وطنية أكثر جرأة وصلابة ضد
الخديوى توفيق الذى بدأ حكمه بعد والده باتخاذ خطوات رجعية متهاونة
٠٠٠ رفض التوقيع على لائحة الدستور التى أعدها شريف باشا ، وأعاد
الرقابة المالية الثنائية ، ثم أقال وزارة شريف باشا واستبدله برياض باشا
الذى كان شديد الخضوع للمستولين البريطانيين ، فمارس المراقبون الأجانب
وأعضاء (لجنة دين الخديوى) وظائف الحكومة الفعلية فى البلاد .

وبدأ احتكاك الضباط بالخديوى يظهر فى صورة عملية بعد إلغاء فرمان
١٨٧٣ الذى حصل عليه اسماعيل ، فتقرر حرمان مصر من عقد قروض
خارجية الا بعد موافقة الباب العالى ، وخفض عدد الجيش المصرى مرة ثانية
ليكون ١٨ ألف شخص فقط . فأحيل عدد كبير من الضباط الى الاستبداع ،
ووقعوا فى ضيق مالى شديد .

عادت القسوة فى معاملة الفلاحين لسوء جشع المرابين الأجانب . .
وتأخر صرف مرتبات الضباط عدة مرات . . وتربع الشراكسة تماما فى
المراكز القيادية التى أبعد عنها الضباط المصريون .

وحدث الصدام الأول بين الجيش والحكومة عندما أعد عثمان رفقى
وزير الحربية فى وزارة رياض باشا مشروعا بقصر مدة التجنيد على أربع
سنوات فقط ، الأمر الذى يحرم ترقية الجنود الى ضباط ٠٠٠ أو بمعنى
أصح يحرم المصريين من ذلك . . . لأن الملة المقررة للخدمة لا تكفى لكم

يصل العسكري الساذج الخالى من المعارف العسكرية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا ، فلا بد أن ينحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير . وهى حجة واهية لان المدارس الحربية في ذلك الوقت كانت في مستوى عادى ، ولم تكن تقدم معارف عسكرية ذات قيمة فضلا عن أن دخول العناصر المصرية اليها لم يكن ميسورا . وكان الهدف الحقيقي من اصدار القانون هو حرمان المصريين حرمانا تاما من الوصول الى مراكز قيادية في الجيش .

وتقدم أحمد عرابى قائد الكتيبة الرابعة بالجيش وعلى فهمى قائد الكتيبة الاولى بعريضة الى رئيس الوزراء يطلبان فيها التحقيقات فى الترقيات الأخيرة ، وعزل عثمان رفقى وزير الحربية لانه فصل بعض الضباط دون تحقيق .

واجتمع مجلس الوزراء برئاسة الخديوى يوم ٣٠ يناير ١٨٨١ وأصدر قرارا باعتقال أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ومحاكمتهم لان عثمان رفقى اعتبرها (حركة فلاحين شيالين بالمقاطف) .

استدعى الضباط الثلاثة الى وزارة الحربية يوم أول فبراير ١٨٨١ حيث كان كل شئ معدا للتنكيل بهم المحاكمة الصورية والأحكام المسبقة ولكن قرار مجلس الوزراء لم يكن سرا بالنسبة لهم ، فاتخذوا حيلتهم وأبلغوا وحداتهم بأنهم اذا تأخروا عن العودة أكثر من ساعتين فعليهم التحرك مع آلاى مشاة آخر فى طره لانقاذهم .

وما أن بدأت تمثيلية المحاكمة حتى وصلت قوات المشاة المصرية الى الوزارة فطوقتها ، وهرب عثمان رفقى من الشباك ، واقتحم الجنود قاعة المحاكمة وحملوا قاداتهم على الأعنساقي ، وتوجهوا فى مظاهرة الى قصر الخديوى حيث طالبوا بعزل عثمان رفقى فورا ، واقرار حقوق متساوية فى الجيش .

وتلفت الخديوى حوله فلم يجد أحدا يسائسه ، فعزل وزير الحربية فورا وعين بدلا منه محمود سامى البارودى الذى كان شاعرا ووطنيا ديموقراطيا من الحزب الوطنى انجذب بعد ذلك الى جناح عرابى أكثر من جناح شريف باشا وصدر قرار خديوى بتشكيل لجنة خاصة للتحقيق فى ترقيات عثمان رفقى وعين فيها أحمد عرابى .

كانت هذه هى المظاهرة العسكرية الثانية بعد مظاهرة الضباط ضد نوبار باشا ولكنها كانت قاصرة أيضا على مطالب مهنية محدودة ، ولم

تتجاوز ذلك الى مطالب وطنية أخرى فلم يعترضوا على صلاحيات المراقبين الأجانب وتركوا رياض باشا في منصب رئاسة الوزراء .

يرجع ذلك الى السرعة التي تمت بها كرد فعل دون تدبير والى عدم اكتمال تنظيم الحزب الوطنى من المدنيين والعسكريين والاتفاق على برنامج واضح لهم .

وكانت هذه المظاهرة تعنى فقدان الخديوى لثقتة فى ضباط الجيش وتربصه بهم وتديبره الخطط للتنكيل بهم .

نظرة الخديوى توفيق للجيش كانت ترى فيه حاميا للطبقة السائدة ووظيفته محدودة فيما رسم له وقد عبر الخديوى عن ذلك فى خطاب ألقاه فى احتفال أقيم فى ١٢ فبراير ١٨٨١ عقب الهجوم على قصر النيل وحضره جميع الضباط الكبار فى الجيش ، وفى هذا الخطاب أعلن الخديوى أسفه لما حدث فى أول فبراير ، وعفوه عنه ، ثم أكد للضباط أنه « يلزمكم ألا تشتغلوا من الآن فصاعدا بشئ خارج عن حدود وظائفكم » ، ذلك أن « العسكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين الجهادية والسعى فى أداء واجباتهم العسكرية والامتنال لولى أمرهم » . وان أكمل الصفات العسكرية هى « الاستقامة والامتنال فى كل الأمور والأحوال » . وكرر رياض باشا - رئيس الوزراء اذ ذاك - هذه الأفكار ، فقد خاطب الضباط قائلا : « أنتم روح الضبط والربط وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة ، فاذا بدأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم ما لكم أن تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات التى شملتنا . فعليكم أن تكونوا دائما على قدم الاستعداد لتنفيذ أحكامه والمحافظة على أوامره ونواميسه العادلة » .

أما نظرة ضباط الجيش فقد تمثلت فى رد عرابى على خطاب رياض وتأكيد به بأنه وزملاءه « يريدون الإصلاح واقامة العدل على قاعدة الحرية والاخاء والمساواة » وفى حديثه مع بلفيت قال : « ان الجيش هو القوة الواقفة الآن بين مصر وحكامها الأتراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم اسماعيل فى أى وقت اذا لاحت لهم فرصة » ، ويقول « ان المراقبة الأوروبية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى أجل المراقبة » وقال « لقد كسب الجيش للمصريين حق التكلم فى مجلس النواب ، ونحن نؤيدهم - أى النواب - حتى لا يخذعوا ولا يضغط عليهم بالقوة ، ومتى عرف برلماننا كيف تنتهى مهمتنا نحن الجنود ، ونحن مصممون على خراسة الشعب المصرى وحمايته من الذين يحاولون اسكات صوته » وهو ما عبرت عنه المادة الرابعة من برنامج

الحزب الوطنى حيث أشارت الى مجلس النواب التركى الذى آكره على الصمت وقالت ان الوطنيين قد « فوضوا أمرهم الى أمراء الجهادية وطالبوا منهم أن يصمموا على طلبهم لعلمهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد ، وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو . وليس فى عزمهم ابقاء الحال على ما هو عليه ، بل متى تحصلت الأمة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة ، وان أمراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة متى فتح المجلس . فهم الآن بصفتهم حراس على الأمة التى لا سلاح لها » . ومن هذا التصور لدور الجيش كسلطة ثورية تحفظ « حقوق الأمة » انطلقت القوى الثورية لتحقيق مفهومها هذا عمليا .

وهكذا بدأ التناطح وظهر ذلك سريعا اذ لم تكذ تهادا الاضطرابات حتى عزل الخديوى توفيق محمود سامى البارودى ، وقرن ذلك باجتماع دعا اليه كبار الضباط وأبلغهم انه يضع ثقته كاملة فى رياض باشا رئيس الوزارة وأمر بزيادة مرتبات الضباط المصريين الذين أحيلا الى الاستبداد ، كما أصدر أمرا آخر يقضى بمعاملة جميع الضباط مستقبلا على قدم المساواة سواء أكانوا أتراكا أم شراكسة أو مصريين ، وحاول فى سنة ١٨٨١ أن يضم اليه القوات المربطة فى الاسكندرية ، وأن يتفاهم مع على فهمى ليضمه اليه هو وقوات حرس الخديوى وخدعه على فهمى وأكد له أنه معه تضليلا كما أصدر من جهة أخرى تعليمات بمنع اجتماعات الضباط فى المنازل أو الأحياء ولكن هذه الخطوات لم تضعف من تأهب كل فريق للآخر وحذره منه كان الضباط يواصلون اجتماعاتهم السرية وارتباطاتهم العلنية مع الوطنيين والمثقفين وكان الخديوى يعد خطته للتخلص من الاتجاهات المضادة له فى الجيش ، فأصدر أمرا يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ ينقل بعض الآليات الى الريف وكان ينبغى أن يرحل معها أحمد عرابى وعلى فهمى وعدد من الضباط الوطنيين .

وقرر القادة الوطنيون عدم الاستجابة للأمر اذ كانوا على ثقة من أن هذه كانت خطوة تمهيدية للتخلص منهم ، خاصة وأن بذور شك كانت قد بعثت فى صدورهم بوجود مؤامرة لاغتيالهم .

وتحرك الجيش المصرى فى مظاهراته الثالثة خلال فترة أقل من ثلاث سنوات فى نفس اليوم الذى تلقوا فيه الأوامر بتحريك القوات للريف وكان عددهم حوالى ٢٥٠٠ ضابط وجندى اصطفوا فى شكل مربع مفتوح مواجه لسراى عابدين بقيادة أحمد عرابى ، وعندما نزل الخديوى توفيق الى الساحة ومعه أوكلند كلفن المراقب المالى البريطانى ، بعد أن حاول عبثا استشارة وحدات موالية له تقدم له أحمد عرابى ممتطيا جواده ومقدما ثلاثة مطالب محددة هى :

- ١ - اقالة وزارة رياض باشا .
 - ٢ - اعلان الدستور وتشكيل مجلس نواب على النظام الاوروبى .
 - ٣ - زيادة عدد الجيش .
- وارتبك الخديوى ثم دار الحوار المشهور عندما قال له الخديوى :
- كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا .
- وقال عرابى قولته المعروفة :
- لقد خلقنا الله أحرارا ٠٠٠ واننا لا نستعبد بعد اليوم .
- وخاف الخديوى من لهجة الحديث وأشار عليه القنصل البريطانى الذى كان يقف الى جانبه بالعودة للسراى ، وتصدى هو وكلفن لمناقشة عرابى الذى وافقهما على تنفيذ المطلب الأول بتعيين شريف باشا رئيسا للوزراء وتأجيل الباقي لعرضه على الباب العالى فى تركيا .
- ومرة ثانية ٠٠٠ لم تصل الحركة العسكرية الى غايتها ، ولم تحقق أهدافها كاملة رغم تعبيرها عن ارادة الجماهير كما قال عرابى للقنصل البريطانى « ان طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم وأولادهم » .
- كان النصر مرة أخرى جزئيا ٠٠٠ لان المظاهرة الثالثة أيضا بعد مظاهرة ١٨٧٩ وأول فبراير ١٨٨١ كانت من رد الفعل الذى أجبر الضباط على تنفيذه دون تخطيط أو تدبير فى نفس اليوم ، حتى يكونوا فى الهجوم بدلا من الدفاع .
- وكانت العلاقة بين الضباط الثوريين أبناء الفلاحين ٠٠٠ وبين كبار الملاك الأرستقراطيين غير منسجمة بالقدر الذى يحقق لها الوحدة الشعبية الكاملة ٠٠٠ فعندما دعى شريف باشا لتولى الوزارة عارض فى أن تأتيه عن ترشيح الجيش المتمرّد .
- ولم يذعن شريف لرجاء مندوبى انجلترا وفرنسا ٠٠٠ وأراد أحمد عرابى أن يحصل على تأييد مجلس النواب وأعيان القاهرة فجمعه يوم ١٣ سبتمبر ، وعرض عليه نتيجة اتصالاته بشريف وموقف الأخير منها ، حيث كان يصر على انسحاب الآليات المتمردة الى المواقع التى يختارها لها فى حالة توليه رئاسة الوزارة .
- ولم يدرك أحمد عرابى فى هذه اللحظة عمق التناقضات الطبقية بين الفلاحين الذين كان يفخر بتمثيله لهم ، وبين الأعيان الذين كان يمثلهم

شريف ٠٠٠ كان كبار الملاك ينتابهم الخوف من اندفاع الحركة الشعبية ٠٠٠
كما أن العناصر المدنية تخشى تأليف حكومة عسكرية كاملة .

ولذا وقف المدنيون من الأعيان وغيرهم الى جانب شريف ، وتوسطوا
لديه بقبول الوزارة على أن يكون الجيش خاضعا لها ٠٠٠ وحدثت مساومة
قبل فيها عرابى نقل الآلات المتمردة من القاهرة ، وقبل شريف تولى الوزارة
مع تعيين محمود سامى البارودى وزيرا للحربية وتنفيذ القانون العسكرى
الذى تعتبر أهم مادة فيه زيادة الجيش الى ١٨ر٠٠٠ .

ورغم ذلك تعتبر انتفاضة ٩ سبتمبر ١٨٨١ نقطة انتقال فى تاريخ
الحركة الوطنية المصرية ، اذ ربطت لأول مرة بين الشعب والجيش فى
نضال مشترك ٠٠ ولم يعد عرابى زعيما لفريق من الضباط وانما أصبح
فى مركز الصدارة من الزعامة الشعبية ورئيسا فعليا للحزب الوطنى وأصبح
الجيش هو المنظمة الوحيدة التى تتطلع اليها الجماهير لتحقيق آمالها ٠٠
والدفاع عن حرياتها ٠٠٠ وتعزز من مركز الوطنيين فى مصر ووقعوا توكيلات
بانابة أحمد عرابى عن الأمة فى كل ما يتعلق بالسياسة الوطنية .

وانتهز شريف باشا الذى أسفر عن موقفه الطبقي المعادى لحركة
الجيش فرصة توليه الوزارة فأرسل الى الخديوى يطلب استمرار نظام
المراقبة الثنائية الأوروبية على الحكومة كما شرع فى ترحيل الآليات
المتمردة ، فانسحب فى أكتوبر ١٨٨١ آلاى عرابى الى أبو كبير وآلاى
عبد العال حلمى الى دمياط .

وكانت تحركات هذه القوات فرصة لقيام مظاهرات شعبية ضد
حكومة شريف ، واحتشد عشرات الآلاف من سكان القاهرة لتوديع عرابى
وجنوده والاحتجاج على نقلهم من القاهرة ٠٠ وقد زاد ذلك فى متانة النسيج
بين الشعب والجيش .

ولم تنجح هذه التحركات فى اضعاف المد الثورى اذ واصل جنود
حامية القاهرة مساندتهم لعرابى الذى رجع الى القاهرة بحجة توعك صحة
زوجته ، وبدأ يواجه الخديوى صراحة ويعارض اتجاهاته علانية .

وظهر عرابى بمظهر الرجل القوى الذى يهدد المصالح الأجنبية فى
مصر مما دفع فرنسا وانجلترا لتهيئة خطة مشتركة للعمل فى مصر ٠٠٠
وقرر شريف عندئذ عقد مجلس النواب لكى يحرم الجيش من دوره النضالى
مصرحا بأن مجلس النواب سيصبح هيئة يستند اليها الخديوى وحكومته
فى نضالهما ضد (الاستبداد العسكرى) .

ورفض شريف اقرار الدستور الذي أعده هو نفسه منذ سنتين ليظل المجلس محصورا في حدود سلطاته المحدودة ٠٠٠ وهكذا وقف عرابي والجيش مع دستور شريف ، واحتفظ شريف بقانون المجلس القديم .

وتألف المجلس فعلا في ديسمبر ١٨٨١ برئاسة محمد سلطان باشا ، واتخذ موقف التأييد من الخديوى ، ولكنه أصر على حقه في التصويت على الميزانية المصرية ٠٠٠ مما دفع حكومتى انجلترا وفرنسا الى تقديم مذكرة أثارت استياء عاما في مصر وجعلت المجلس يقرر أن حقه في التصويت على الميزانية لا يمكن أن يكون موضع نقاش مع الدول الأجنبية .

واستقال شريف الذي كان قد قبل المذكرة واقترح على المجلس اجراء مفاوضات مع انجلترا وفرنسا في ٥ فبراير ١٨٨٢ وتولت الحكم وزارة يرأسها محمود سامي البارودى وعين أحمد عرابي وزيرا للحربية ، وكان ذلك انتصارا للحركة الوطنية وانتصارا للجيش الذي وصل الى قمة المسئولية فيه جندى من الصفوف ، وهكذا نجحت ثورة الجنرالات التى عبرت عن حق المواطن المصرى فى تحقيق ذاته من السلطة الشرسية ومن أجل التغيير الاجتماعى .

وعبرت هذه الحكومة عن ذلك بعمل اجراءات هامة ٠٠ أصدر عرابي أوامره بترقية ٤٠٠ ضابط الى رئيس أعلى ، وترقية ١٥٠ صف ضابط الى رتب الضباط واحالة ٣٠٠ ضابط الى المعاش بحجة تجاوز السن القانونية وأغلبهم من الشراكسة والأتراك .

وقررت زيادة المراتبات أيضا :

| | | |
|--------------|----------|--------------|
| ملازم ثان من | ٣٥٠ قرشا | الى ٦٠٠ قرش |
| يوزباشى من | ٥٠٠ قرش | الى ٩٥٠ قرشا |
| بكباشى من | ٢٥٠٠ قرش | الى ٣٥٠٠ قرش |
| رتب أعلى | ٥٠٠٠ قرش | |

ونلاحظ النظرة الاجتماعية فى هذه الزيادات اذ علت نسبة الزيادة للرتب الصغيرة عنها للرتب الكبيرة ، وقلت الفروق الى حد كبير بين الرتب العليا والرتب الصغيرة فى الجيش بعد أن كانت النسبة بين الحد الأدنى والحد الأعلى فى فئة الضباط (ملازم الى فريق) هى ١ : ٣٧ فى القانون القديم ، قلت فى القانون الجديد الى ١ : ١٣ . أما النسب بين الحد الأدنى والحد الأعلى فى فئة صف الضباط (من أومباشى الى صول) فقد كانت فى القانون القديم ١ : ٤ زادت الى ١ : ٦ نتيجة لرفع الصول الى ما يوازى ٢٠٠٪ ، وهذا مع العلم بأنه بعد رتبة الصول مباشرة يحدث تقارب شديد

بين فئات المرتبات . أما رتبة النفر فقد زاد مرتبها الى ما يوازي ١٣٣٪ مما كانت عليه . وبشكل عام فان النسبة بين أدنى فئة وأعلى فئة (نفر - فريق) كانت في القانون القديم ١ : ٣٧٥ قلت ١ : ٢٦٦ ، وهو ما يمثل الى حد كبير تقدما لا بأس به في ظروف العصر .

وهكذا تبدل الحال وبعد ان كان الضباط المصريون يعيشون في خوف التشييت أو الاحالة الى الاستيلاء . . . فاذا بهم يشعرون بالأمن والاستقرار ويحصلون على زيادة في المرتبات سبق أن حصل عليها المدنيون .

ولم تتوقف الاجراءات عند حدود الجيش فقط . . . اذ ان الوزارة الجديدة أبطلت المراقبة الثنائية ، وأعدت (لا ئحة أساسية) لمجلس النواب تضمن له حقوقه ، وأعدت قانونا انتخابيا جديدا أكثر ديموقراطية ، كما أعدت عدة قوانين تقدمية تقضى بإلغاء السخرة وتأسيس البنك الزراعي واصلاح المحاكم المختلفة وتحريم استخدام جباة الضرائب للسياسة ، كما أعد مشروع أقره مجلس النواب يقضى بإنشاء مدرسة في كل قرية وتعميم التعليم لتخلو مصر من الأميين خلال عشر سنوات .

وقد أدت هذه المشروعات الاجتماعية المتتالية الى بعث يقظة شعبية أضعفت من سلطة المديرين المطلقة ، ودفعت بعض الفلاحين الى أخذ حقوقهم بالتهجم على أراضي كبار الملاك ، وأعلن أحد كبار الضباط أثناء زيارته للريف بأن الأرض يجب أن تكون لمن يفلحونها . . . وارتفع شعار (مصر للمصريين) كأحد شعارات الجيش وحرص زعماء الحركة العسكرية الثلاثة أن ينهوا أسماءهم بلقب (المصري) تمييزا لهم . . ونبتت فكرة الانفصال النهائي عن الخلافة . وظهور فكرة الجمهورية أو الدولة العربية .

وهنا بدأ أصحاب الأملاك يتلمسون خطرا يهددهم ، وتراجع بعض أعضاء مجلس النواب في موقفهم ، وقال سلطان باشا رئيس المجلس للقنصل الانجليزي أن استقالة شريف باشا تمت بضغط من العسكريين تحت زعامة أحمد عرابي .

وهكذا بدأ تجمع رجعي من الخديوى والضباط الشراكسة وبعض الاقطاعيين . . واكتشف عرابي مؤامرة لاعتقاله فحوكم ٤٨ ضابطا شركسيا من بينهم عثمان رفقي وأصدرت المحكمة في حقهم حكما معقولا اذ قررت تجريد ٤٠ من رتبهم العسكرية ونفيهم الى السودان ، ولكن الخديوى خفف قرار المحكمة في مايو ١٨٨٢ بإيعاز من القنصلين الفرنسي والانجليزي واكتفى بالابعاد عن القاهرة الى الريف بدلا من النفي .

وكان هذا الموقف من الخديوى تحديا للجيش ومفجرا لطاقت النضال فوقف أحمد عرابي أمام مجلس النواب مطالبا بإخلع الخديوى . ولكن

أعضاء المجلس لم يستجيبوا له . . . البعض كان عاطفا على الخديوى والبعض كان فى خشية الوقوع تحت حكم عسكرى .

وطلب الخديوى عقد المجلس بصورة غير قانونية ، مطالبا بحله ، وهنا استقال محمود سامى البارودى ، ورفض الوزراء الوطنيون الاستقالة حتى يصدر مجلس النواب قراره بذلك . . . ورفض كافة أعوان الخديوى تولى رئاسة الوزارة ما دام الوطنيون فى قيادة الجيش .

واضطر الخديوى أمام هذا الموقف الى استبقاء محمود سامى البارودى رئيسا للوزراء . . . ليدير مع انجلترا وفرنسا خطة أخرى قضت بحضور بعض قطع الأسطولين الانجليزى والفرنسى الى الاسكندرية يوم ٢٠ مايو ١٨٨٢ وبعد خمسة أيام طلبت الدولتان من الخديوى رسميا فى مذكرة ٢٥ مايو الشهيرة ابعاد أحمد عرابى عن مصر وابعاد على فهمى وعبد العال حلمى عن الجيش الى الريف واقالة محمود سامى البارودى .

قبل الخديوى هذه الطلبات وأعلن اقالة الوزارة بعد أن كانت قد قدمت استقالتها يوم ٢٦ مايو على أساس قبول الخديوى للمذكرة . . . وهنا تحركت قوات الجيش فأرسلت حامية الاسكندرية يوم ٢٧ مايو برقية للخديوى ترفض موافقتها على الانذار وتعطيه مهلة ١٢ ساعة للتفكير .

وقد حدد عرابى موقفه فى أنه لا يعتبر استقالة الوزارة انتهاء لوجود القوة الثورية وانحسارا لتأثيرها . وقد صرح بالضباط فى اجتماع عقد فى ٢٧ مايو بقشلاق عابدين « انه تنازل عن نظارة الجهادية ولم يتنازل عن رئاسة الحزب الوطنى » . وأكد ذلك فى خطاب أرسله تلغرافيا لجميع مراكز العسكرية قال فيه « اننى وإن كنت قد استعفيت من نظارة الجهادية لكن لم أستعف من رئاسة الحزب الوطنى » .

وعقد كبار ضباط الجيش والبوليس فى القاهرة اجتماعات متعددة لبحث الموقف على ضوء احتمالات التدخل الأوروبى . واجتمع كبارهم فى قشلاق عابدين حيث تعاهدوا على الدفاع عن الوطن . وحضر هذا الاجتماع الذى أقسم فيه المجتمعون على مصحف وسيف كل من عرابى وعبد العال وطلبة عصمت ويعقوب سامى وعلى الروبى وعلى فهمى ومحمد عبيد وعبد الغفار الزمر وحسن جاد وعلى يوسف ومحمود فهمى والبارودى . كما حضره عمر رحى وإبراهيم فوزى مأمور الفيلق . ويقال أيضا ان عبد الوهاب قومندان البوليس قد حضره . وقام الشيخ محمد عبده بتلقين الحاضرين يمينا من بين فقراته : « والله العظيم قاهر السماوات والأرض اننى أنا فلان لا أخون وطنى ولا أخون نفسى ولا أغش أحدا من أهل بلادى وأحافظ على عرضى وعلى دينى وعلى عرض أهالى بلادى ما دمت قادرا على

منعه ، واننى أحافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكننى ،
واذا حنثت فى يمينى أكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر وأن أكون
محروما من مزايا الانسانية والآداب » . وذكرت جهات الأمن أنه قد ذكر
فى اليمين أن « يكون الضباط يدا واحدة وعصبة واحدة ولا يسمعون أوامر
من أحد الا اذا اتفقوا عليها » .

واستبد الذعر بالخدوى فلجأ الى سلطان باشا الذى حاول اقناع
الوطنيين بالطاعة فى نفس اليوم ، ولكن ردهم كان المطالبة بخلع الخديوى
الذى أصبح تابعا للدول الأجنبية . وقال أحد قائممقامات الجيش على حسب
رواية كرومر بأن « الضباط يمزقون عرابى اربا اذا هو تخلى عنهم »
وكان هذا دليلا على ان جذور الحركة الوطنية قد ضربت بعمق فى صفوف
الجيش والشعب معا ، فقامت المظاهرات وعقدت الاجتماعات مطالبة بعزل
الخدوى وتثبيت عرابى والوزراء الوطنيين فى السلطة .

وارتبكت أفكار الخديوى فقرر إعادة عرابى ، وأصبح هو الوزير
الوحيد بلا وزارة . . ثم استنجد بالباب العالى الذى أرسل بعثة من
درويش باشا وشيخ السعيد قام الخديوى برشوهم بمبالغ مالية كبيرة ،
وطلبت البعثة من عرابى أن يذهب الى استانبول على وعد بأن ينال منصبا
كبيرا هناك .

وقضى عرابى قائلا (ان السلطة التى أتمتع بها الآن لم أقم باغتصابها
بل قلدنى اياها الشعب ويتوجب على أن أنزل على ارادته وأعطى أذنا صاغية
لشكاويه) .

وعقب فشل مهمة البعثة بدأ تنفيذ خطة جديدة صاحب فكرتها
المعتمد البريطانى مالبت وهى اثاره اصطدامات داخلية تكون سببا فى تدخل
خارجى مسلح .

ويوم ١١ يونيو ١٨٨٢ استأجر مالطى كان فى خدمة القنصل
الانجليزى بالاسكندرية حوزيا حمله الى احدى الحانات ، وعندما طالبه
بأجره حدثت بينهما مشادة أطلق فيها المالطى النار على الحوزى وظهر عدد
من الأجانب المشتبه فيهم فأطلقوا النار على الأهالى الهائجين . . . وفى توقيت
معلوم ظهر فريق من البدو كان الخديوى قد استأجرهم فشاع الاضطراب
فى الاسكندرية وقتل ١٤٠ مصريا و ٥٠ أوروبيا فى المدينة التى كان الأجانب
من المرابين والمضاربين والرأسماليين قد بدأوا يتدفقون عليها بعد بداية
الضائقة الاقتصادية الناجمة عن الديون .

ولكن عرابى استطاع السيطرة على الاضطرابات وإعادة الهدوء الى
المدينة وانكشف أمر المدبرين ، وفشلت خطة التدخل .

وشقت هذه الحادثة المجتمع الى شقين ... الخديوى وكبار الملاك
والأعيان فى جانب والقوى الوطنية من المدنيين والعسكريين فى جانب آخر .

وسار الخديوى الى الاسكندرية ومعه كبار الرجعيين والاقطاعيين مثل
نوبار باشا ورياض باشا وانضم اليهم أيضا شريف باشا وسلطان باشا ..
وهناك ألف الخديوى وزارة خاضعة فى الاسكندرية برئاسة راغب باشا ..
بينما كانت القاهرة تحت سيطرة الوطنيين .

رتبت خطة ثالثة للتدخل الأجنبى عندما قرر أحمد عرابى ترميم
الحصون الساحلية عقب زيارة الأسطولين الانجليزى والفرنسى للاسكندرية،
وأرسل الباب العالى يطلب وقف الترميمات ووجد الأميرال سيمور قائد
الأسطول البريطانى فى ذلك فرصة للتدخل فأرسل انذارا الى رئيس حامية
الاسكندرية يوم ٦ يوليو ١٨٨٢ مطالبا بوقف التحصينات ... وأجاب
عرابى بأنهم يقومون بالترميم فقط دون اقامة أى تحصينات جديدة .

ومع ذلك قدم سيمور انذارا آخر يوم ١٠ يوليو مطالبا بتسليم
التحصينات خلال ٢٤ ساعة ورفض عرابى ذلك وفضا باتا ... فأطلق
سيمور مدافع أسطوله يوم ١١ يوليو على الاسكندرية فحولها الى أنقاض ..
ومع ذلك ظل الخديوى وكبار الأعيان فى قصورهم بالضواحي بعد تحذير
سيمور لهم فى الوقت المناسب ، وأصدر عرابى أمرا بانسحاب الحامية
من المدينة المحترقة .. وغادرها معه آلاف السكان ... وبعد ٤ أيام احتل
الانجليز المدينة المهجورة ... وكان ذلك ايذانا بالحملة البريطانية على مصر
التي صوت مجلس العموم البريطانى على اعتماداتها يوم ٢٧ يوليو ١٨٨٢
تحت قيادة الجنرال ولسلى .

وطلب الخديوى من عرابى أن يوقف العمليات الحربية ضد الانجليز،
ولكن عرابى رفض تنفيذ الأمر مخاطبا الشعب بأن حربا قد بدأت بين
المصريين والبريطانيين المعتدين محذرا الخوة ... وأسرع الخديوى القابع
فى الاسكندرية تحت حماية الغزاة باصدار أمر بعزل عرابى من وزارة
الحربية يوم ٢٢ يوليو معلنا عصيانه .

وكان رد عرابى لجماهير الشعب يوم ٢٥ يوليو ١٨٨٢ بيانا قال فيه
« ان الخديوى قريب الى الانجليز وكل ما يقوله يعود عليهم بالفائدة ...
وهو يقوم بتضحية مصالح البلاد والشعب ... وأما فيما يتعلق بنا فنحن
لا نتخل عن الشعب ما دام لنا قلب ينبض » .

ونقل عرابى المعركة الى صفوف الشعب ... وتقدم آلاف المتطوعين
من الفلاحين وسكان المدن مقدمين تبرعاتهم التى ساعدت على التسليح .

واعتبرت هذه الحركة امتدادا لنضال الشعب المصرى المسلح ضد الحملة الفرنسية . ثم غزو الانجليز للاسكندرية ورشيد عام ١٨٠٧ ، ولكن تميز هذه المرة بوجود قادة مصريين وعساكر نظاميين من العمال والفلاحين .

وتشكل (مجلس الطوارئ) من العلماء والمشايخ والأعيان ، ولكن بعضهم كان مترددا بين الولاء للخديوى وبين الاندفاع مع التيار الوطنى ، وذهب بعضهم الى الخديوى فى الاسكندرية . . وتشكل أيضا (المجلس الحربى) من الضباط الوطنيين .

وأعدت خطة الدفاع عن الشمال اعدادا تاما أعجز الانجليز عن التقدم عند كفر الدوار . . وأعد رئيس أركان حرب الجيش محمود فهمى خطة أخرى للدفاع عن الشرق تقضى بتعطيل قناة السويس وسد ترعة الاسماعيليه ولكن فرديناند دى ليسبس فزع من هذه الخطة حرصا على أرباحه وتأمره مع الغزاة فتعهد لعرابى بأنه سوف لا يسمح للقوات الانجليزية بالنزول فى منطقة القناة . . وقبل عرابى منه هذا التعهد .

وكانت هذه غلطته الأولى حربيا وسياسيا .

ونزلت القوات البريطانية فى السويس يوم ٢ أغسطس ١٨٨٢ ثم قاموا بعملية انزال فى بور سعيد والاسماعيليه يوم ٢٠ أغسطس رغم وعود دى ليسبس وبدأوا بتنظيم القوات استعدادا للمعركة الحاسمة .

وحدثت موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ بهجوم بريطانى مفاجئ لاذ البدو بعده بالفرار ورموا عرابى بالحجارة .

وهرع عرابى الى القاهرة حيث عقد (مجلس الطوارئ) مصرا على مواصلة النضال ، مقترحا تشييد تحصينات حول العاصمة ، مقترحا اغراق الوادى حول القاهرة ، وأيده فى ذلك عبد العال حلمى وعبد الله النديم ومحمود سامى البارودى ، ولكن كبار الملاك والأعيان صوتوا من أجل الاستسلام وخضع عرابى لهذا القرار . . . رغم وجود قوات الجيش المصرى سليمة فى الشمال .

وكانت هذه هى غلطة عرابى الثانية والأخيرة . . . فقد استسلم للبريطانيين على مشارف القاهرة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، نتيجة لخيانة شبوخ البدو وأعيان القاهرة .

وهكذا طويت صفحة مضيئة من صفحات نضال الشعب المصرى ، بعد أن تكالبت عليه بريطانيا كما تكالبت الدول العظمى على محمد على من قبل ٤٢ عاما فقط .

ولكن هناك فرقا فى الحالتين ..

محمد على لم يكن مصريا صميما - قال ابنه ابراهيم « غيرتنا شمس مصر وصهرتنا » - ولم يعتمد الا على الأرستقراطية والبرجوازية التى كانت موجودة أو خلقها بهباته من الأرض للمماليك والالبانيين .. كما لم يطور النظم والمجالس التى كونها نابليون .. ولم ينقل من ديموقراطية أوروبا وفكرها السياسى مثلما نقل علومها وصناعاتها .. كما أن غزواته أثارت ضده شعوب الدول المقهورة ومهدت ضده مؤامرات الدول الاستعمارية الكبرى التى وجدت فيه خطرا نابعا من الشرق .

أما أحمد عرابى فكان مصريا صميما .. أقرب الزعماء فى تاريخ مصر الحديث الى قلوب الفلاحين وأول قائد لجيش كامل من المصريين ... وأول ثائر تتجمع حوله الجماهير من العساكر والمدنيين بما استثاره فيها من همة وحماسة ... وهو فى حركته كان يستلهم أفكار الثورة الفرنسية الديموقراطية ، ويحاول أن ينسج بين الشعب والجيش .. وإن كان قد فاته ادراك التناقضات الاجتماعية العميقة التى ظهرت فى المجتمع مع ظهور البرجوازية المصرية .. والتى خلفت لحركته أعداء طبقيين يرون خطرا كبيرا فى اطلاق ارادة الفلاحين والبرجوازية الوطنية الصغيرة والبروليتاريا الناشئة ... كما انه لم تتوافر لأحمد عرابى النظرة العلمية الشاملة التى تجعله يحسن تصنيف الأصدقاء والأعداء فخدعه دى ليسبس وخضع لأصوات أعيان القاهرة .

وثورة عرابى لم تحصر فى دائرة التناقضات القائمة بين الضباط المصريين والشراكسة ولكنها امتدت الى رحاب الشعب فكانت انعكاسا لما هو قائم فى المجتمع من فروق طبقية وقهر اجتماعى بين الفلاحين والاقطاعيين وأغلبهم من الأجانب والمرايين والشراكسة .

وهزيمة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ أدت الى نتائج وخيمة للحركة الشعبية وللقوى الوطنية فى الجيش .

الفصل الثالث

الجيش المصرى ٠٠ تحت الاحتلال البريطانى

(من الحكمة ألا تمكن العدو من رقابنا
وأنا لا أود أن يدخل ضباط الجيش
فى حركتنا السياسية) ٠٠
مصطفى كامل

أصدر الخديوى توفيق يوم ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ مرسوما من جملة
واحدة (تسريع الجيش المصرى) ٠٠ وعاد الخديوى الى القاهرة فى حماية
القوات البريطانية ليتابع اصدار قراراته بتجريد جميع الضباط من رتبة
يوزباشى فما دون الذين اشتركوا فى الثورة العرابية من رتبهم وحرمانهم من
المعاش ، وتقديم أعداد كبيرة من الرتب الكبيرة للمحاكمة ، بعد اعتقال
٣٠٠٠ شخص ، وفرض المحتلون تعويضات على الشعب المصرى قيمتها
٩ ملايين جنيه استرلينى .

واختار الخديوى توفيق (السير فلانتين بيكر) لتنظيم جيش مصرى
جديد ٠٠ وعين (السير ايفلين وود) قائد جيش الاحتلال ليكون قائدا عاما
للجيش المصرى الذى تقرر أن يهبط عدده ليكون ٦٠٠٠ جندى .
وتبع ذلك خطوات أخرى اذ أغلقت كل المدارس الحربية عدا واحدة ،
وأغلقت ترسانات الأسلحة والمدسة البحرية ، وعطلت الترسانة البحرية ،
وبيعت السفن الحربية .

وفي بداية عام ١٨٨٣ كان هناك ٢٥ ضابطا بريطانيا يتولون المناصب القيادية في الجيش المصري ، أما صغار الضباط فكانوا يختارون من الأسر الموالية للانجليز والخديوى .

وفي ديسمبر ١٨٨٢ حوكم عرابى وصدر الحكم باعدامه هو وأنصاره ، ولكن دوفرين سفير انجلترا في تركيا الذى كان قد حضر للتنكيل بالمشتركين في الدفاع عن الاستقلال الوطنى قرر استبدال الاعدام بنفيه هو وسبعة من زملائه نفيا مؤبدا الى سيلان . مدركا ان اعدام أحمد عرابى يمكن أن يؤدي الى انتفاضة شعبية أخرى .

ودخل العسكريون المصريون فى مرحلة جديدة ، لم تعد لهم فيها القيادة وأدخل الاحتلال نظام (البديل النقدي) عام ١٨٨٦ ليصبح التجنيد فى الجيش قاصرا على الفقراء ، ويعفى منه أبناء الضباط ورجال الدين وموظفو الحكومة وطلبة المعاهد الدينية مما أدى الى زيادة الفارق الطبقي بين الجنود والضباط ، كما عمل على قتل روح الجندية فى جماهير الشعب . وكان الجيش المصرى عند وقوع الاحتلال موزعا بين مصر والسودان وكانت ثورة المهدي مشتعلة هناك ، وناور الاحتلال البريطانى أولا بعدم امداد الجيش فى السودان بأية امدادات ثم تعيين ضابط بريطانى هو الجنرال هكس ليقود الجيش هناك خلفا لعبد القادر باشا حلمى وذلك بناء على طلب من رئيس الوزراء شريف باشا .

وأخيرا انتهز الاحتلال فرصة اشتعال الثورة المهدية ليتخلص من الجنود والضباط المصريين الذين اشتركوا فى الثورة العرابية ، فأقاموا معسكرا للتدريب فى القناطر الخيرية جمعوا فيه بقايا جيش عرابى المنحل . وأرسلوا ٥٠٠٠ جندي الى الخرطوم وارتفع العدد عندما وصل هكس باشا يوم ٧ مارس ١٨٨٣ ليصبح حوالى ١٣٠٠٠ جندي .

ولكن الجنود الذين أرسلوا الى السودان كانت فى قلوبهم مرارة شديدة لشعورهم بأن بلادهم محتلة ، ولاحساسهم بأنهم انما يرسلون الى هناك للتخلص منهم ، وذلك كما ورد فى تقرير كتبه كولونيل ستيوارت الذى أرسلته الحكومة البريطانية الى السودان لتقديم تقرير عن الحالة .

وقد وقعت الكارثة التى رسمها الاحتلال عندما خرج الجنرال هكس (باشا) يوم ٨ سبتمبر فى حملته التعيسية لمهاجمة كردفان فلما وصل الى غابة شيكان فوجئ بالدراويز يحاصرونه من كل جانب بينما كان جنوده قد أنهكهم التعب والجوع والعطش وأبىد الجيش الذى تجاوز عدده ١٠٠٠٠ جندي عن آخره ولم ينج منه سوى ضابطين برتبة الملازم وثلاثمائة جندي معظمهم من الجرحى .

نمت هذه الكارثة بذور الريبة في موقف الحكومة البريطانية التي نادت
أولا بعدم التدخل التي ساندت الجنرال هكس باشا في اعداد خملته على
كردفان رغم تحذير الكولونيل ستيوارت من خطرهما في تقرير رسمي .

واكتملت ابعاد هذه الخطة بعد مصرع آلاف من جنود الجيش المصرى
عندما نصحت الحكومة البريطانية مصر باخلاء السودان .
ورفض شريف باشا .

وهنا أرسل اللورد جرانفيل وزير المستعمرات برقية في يناير ١٨٨٤
تفيد بأن من لا يريد اتباع نصائح الاحتلال فعليه أن يتخلى عن منصبه
واستقال شريف باشا في ٧ يناير ١٨٨٤ قائلا (اذا تركنا السودان
فالسودان لن يتركنا) .

وجاءت وزارة نوبار باشا يوم ١٠ يناير خاضعة للاحتلال البريطانى
ساجدة لأوامره مصدرة تعليماتها باخلاء السودان وترحيل الموظفين وسحب
الحاميات المصرية التي بلغت ٢٥٠٠ جندي وصدر مرسوم في ١٥ يناير
بالحاق ادارة السودان بوزارة الحربية بدلا من رئاسة الوزراء .

كان المستهدف هو افناء الجيش المصرى أولا ثم انسحاب مصر من
السودان ثانيا .

ولذا لم تقف الكارثة عند حدود معركة (شيكان) فقط ، وانما امتدت
لتشمل تدبيرا بريطانيا قضى باعلانهم استقلال السودان عن مصر في مقابل
تعيين غوردون حاكما عاما للسودان .

ووصل غوردون يوم ١٨ فبراير ١٨٨٤ الى الخرطوم ، وأعلن استقلال
السودان وعين المهدي سلطانا على مديرية كردفان ، محتفظا لنفسه بمنصب
الحاكم العام ، ، وقام بإلغاء جميع الضرائب المتأخرة ، وأعلن العفو عن
المسجونين الذين تأخروا عن دفعها ٠٠٠ الا أن المهديين اكتشفوا هذه المناورة
البريطانية ، ولم يكن في نيتهم تقديم السودان للسلطة الانجليزية .

وعندما فشلت هذه الخديعة تقرر تكليف غوردون بتدبير عملية
انسحاب المصريين مدنيين وعسكريين من السودان ، ولكن دون أن تصله
أية قوات لتأمين عملية الانسحاب ٠٠٠ الجنرال ولسلي وهو الجنرال الذي
فتح مصر وقاد جيشا من ٧٠٠٠ جندي ولم يصل الى الخرطوم .

وفي ذلك قال غوردون (لقد عينت لاخلاء السودان وليس للهرب من
الخرطوم) وترك الحاميات الأخرى في جميع المواقع تواجه مصيرها ٠٠٠
واعتبر التخلي عن هذه الحاميات عارا لا يمحي .

ثورة يوليو ج ١ - ٥١

وفي ٢٣ يناير ١٨٨٥ توقفت الخرطوم المحاصرة عن المقاومة ، واحتلتها
الثوار المهديون وقتل غوردون والانجليز الذين كانوا معه أثناء اقتحام
المدينة .

وتركت الحاميات الأخرى تواجه مصيرها قبل سقوط الخرطوم
وبعدها .

وكان من نتيجة موقف الحكومة البريطانية أن أيد أكثر من ٣٣٠٠٠
جندي مصري من حاميات المدن السودانية المختلفة وأثناء سقوط الخرطوم
وكسلا وسنار خلال عامي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ .

تفشت الخطة الاستعمارية لإبادة الجيش المصري في مصر والسودان
لضرب الحركة الوطنية التي تولدت فيه ، ووقف نموها . وكان انتصار
ثورة المهدي عام ١٨٨٥ قد طوى صفحة الجيش المصري في السودان الى
حين . وبدأ الاستعمار البريطاني مناورات له لتحويل الاحتلال المؤقت الى
احتلال دائم عن طريق المماطلة ، حتى عقدت في ٨ ابريل ١٩٠٤ اتفاقية بين
فرنسا وانجلترا ، انطوت على نص يقضي بأن الحكومة البريطانية ليس في
نيتها تغيير الوضع السياسي في مصر مما يطلق يدها في مصر ويد فرنسا
في مراكش .

وقبل هذه المعاهدة وخلال ثمانينيات القرن الثامن عشر ، وبعد الضربة
الشديدة التي وجهت للقضاء على الجيش المصري واعتقال ٣٠٠٠٠ مصري
بعد قمع الثورة العربية غابت الحركة الوطنية المنظمة ، وقششت كوادور
الوطنيين أو مارسوا نشاطا سريا .

ولكن لم تكد تسعينيات القرن تهل حتى نشط مثقفو البرجوازية
الوطنية المصرية بعد وفاة الخديوي توفيق وتعيين ابنه عباس حلمي الثاني
الذي حكم مصر في يناير ١٨٩٢ وهو في الثامنة عشرة من عمره وبرز في
هذه الفترة الشيخ محمد عبده الذي سعى الى تطوير الشريعة الاسلاميه
بما يتناسب مع العصر ، وناضل ضد قترك السكان العرب في الامبراطورية
العثمانية داعيا الى بعث اللغة العربية الفصحى ، وعبد الرحمن الكواكبي
(١٨٤٩ - ١٩٠٣) المولود في حلب والذي هاجم الاستبداد في كتبه ودافع
عن الفقراء والبؤساء واستنكر التعصب الديني ودعا الى تكوين دولة عربية
واحدة ، واضعا الوطن فوق الدين والوطنية فوق الخلافات الدينية . . .
ومصطفى كامل الذي كون حلقة من الشباب وهو ما زال تلميذا ، وطالب
بابتعاد الانجليز عن مصر ، ففتحت له الأبواب في فرنسا .

وكان مثقفو البرجوازية المصرية لا يؤمنون بإمكانية الحركة المثقفة
الجهامرية في هذه المرحلة ، تأثرا منهم بنكسة الاحتلال ، ولذا وجهوا

اهتمامهم فى الحصول على التحرر الوطنى الى محاولة استغلال التناقضات بين الدول الامبريالية وخاصة انجلترا وفرنسا . . واتجه مصطفى كامل أيضا الى اعتبار التثقيف والدعاية وسيلة أخرى من وسائل التحرر الوطنى. وذلك بعد أن أجهده السعى وراء المتناقضات .

ولكن الخديوى عباس الثانى له وجهة نظر فى الجيش عبر عنها بقوله « انه الأداة الوحيدة القادرة على ضمان الحريات الوطنية » . ولذا فقد ربط نفسه به وأظهر اهتماما شديدا باصلاحه . . . كان يلبس الملابس العسكرية ويزور الوحدات ويحضر التدريب والمناورات ويرعى حالة الجنود والضباط مما جعل قوات الجيش تتعلق به على عكس والده .

وانتهز الخديوى فرصة سفر كرومر الى انجلترا وعين محمد ماهر باشا وكيلا لنظارة (وزارة) الحربية ، واعتبر هذا الاجراء بداية المتاعب ، فقد أخذ ماهر باشا يحدد سلطة كتشنر سردار الجيش ، ورافق الخديوى فى زيارة تفتيشية مع كتشنر عند حدود مصر الجنوبية ، حيث أكثر الخديوى من انتقاد العيوب وخاصة التى لمسها فى تصرفات الضباط البريطانيين قائلا للجنرال كتشنر عقب استعراض فى وادى حلقة « انه من العار - فى رايه - أن يكون الجيش المصرى على هذه الدرجة من عدم الكفاءة » .

وقدم كتشنر استقالته وأرسل الى كرومر بما حدث فأصر على أن ينقل الخديوى محمد ماهر باشا من (نظارة) الحربية ، تحت التهديد بوضع الجيش المصرى تحت سلطة الحكومة البريطانية رأسا . . وقد خضع الخديوى عباس للانذار ووجه الى السردار خطبا تشر فى الجريدة الرسمية يبدى فيه الرضى عن حالة الجيش ، ويسجل للضباط البريطانيين خدماتهم فيه . . وبعد أيام نقل محمد ماهر باشا محافظا الى بور سعيد .

كان هذا الموقف نقطة تحول فى تاريخ الجيش . . . فبعد أن كان الخديوى تولى يأتى يأخذ موقفا معاديا من رجاله ويلقى بنفسه فى أحضان الانجليز . . . اذا بالخديوى عباس يحاول أن يأخذ موقفا معاديا من الانجليز ويلقى بنفسه فى أحضان الجيش .

ولكن خضوع الخديوى لانذار كرومر أضعف من نبت الحركة الوطنية فى الجيش التى انتعشت بالأمل . . . ولكنها لم تدبل تماما . . . تكونت فى صفوف الضباط جمعية سرية اسمها (جمعية المودة السرية) من الضباط الموالين للخديوى لتزويده بالأنباء والأخبار .

واتخذ البريطانيون موقفا أكثر تشددا في تعيينات الضباط المصريين وترقياتهم ، وبدأوا بتعيين ادوارد زهراب باشا وكيلا للحريية وكان ولاؤه للانجليز كما يقول ملنر (أمر لا يحتمل المناقشة) .
وهنا خلقت الظروف موقفا وضع الجيش المصرى أمام مسئولية جديدة .

كانت خطة الاستعمار البريطانى لآبادة الجيش المصرى وإبعاده عن السودان قد تحققت . . . وأراد الاستعمار بذلك أن يكسب السودان صفة الدولة التى لا يستعمرها أحد فى افريقيا لمدة سنوات مما يبعد صلته عن مصر ، ويضعف العلاقات الشعبية الوثيقة بينهما . . . ثم يهجم الاستعمار البريطانى عليه من الجنوب . . . من كينيا وأوغندا ليحتله بقواته ويصبح مستعمرة بريطانية كاملة لا صلة لها بمصر .

كان الاستعمار البريطانى يريد أن يقيم (عازلا زمنيا) به مصر والسودان .

ولكن عاملا هاما لم يكن قد دخل فى حسابات الخطة البريطانية انقض عليها ، فغيرها تغييرا كاملا .

اعادة تكوين الجيش المصرى :

تسابقت الدول الاستعمارية على اقتطاع أطراف السودان والتوغل فى أرضه على حساب حكومة الخليفة عبد الله التعايشى الضعيفة . وكانت فرنسا تزحف على افريقيا من الغرب ولما كان السودان بعد عام ١٨٨٥ يعتبر دولة مستقلة فانها قررت أن تحتله وزحفت عليه بعثة وإرشان حتى وصلت حدوده عام ١٨٩٨ .

وحدث سبب مباشر عند هزيمة الايطاليين فى موقعة عدوة أول مارس ١٨٩٦ على أيدي الأحباش ، وتهديد الدراويش السودانيين لكسلا التى كان الايطاليون قد أدخلوها بصفة مؤقتة عام ١٨٩٤ . . . وطلب الحكومة الإيطالية من الحكومة البريطانية أن يهاجم الجيش المصرى الدراويش فى دنقلة للتخفيف من الضغط عليهم .

ولم يجد الاستعمار البريطانى أمام هذه الظروف المتغيرة من سبيل إلا اعادة تكوين جيش مصرى لدخول السودان .

واتخذت الحكومة البريطانية قرارها فى ١٢ مارس ١٨٩٦ باسترجاع دنقلة ، وكان فى هذا نقطة تحول عن سياسة انشاء جيش مصرى صغير للأعمال البوليسية ، الى انشاء جيش محارب قادر على خوض المعارك .

لم يكن قد مضى على حل الجيش المصرى فى مصر الا ١٤ عاما ٠٠ ولم يكن قد مضى على الابداء المتعمدة للجيش المصرى فى السودان الا ١١ عاما ٠٠٠ وبدأ تكوين جيش مصرى جديد ٠

وكان الاستعمار البريطانى يعتمد فى ضمان بقائه بمصر على وجود جيش الاحتلال ؛ وقيادة الضباط البريطانيين للجيش المصرى الجديد ٠ وزاد عدد الجيش المصرى حتى بلغ ١٨٠٠٠ جندي عند بدء حملة دنقلة وبدأت عملية استرداد السودان تحت قيادة كتشنر سردار الجيش المصرى ٠

كان هجوم البريطانيين على السودان من كينيا وأوغندا متعذرا فى هذا الوقت الضيق لطروف طبيعية ٠٠٠ كما أن دخول السودان بالجيش المصرى كان يعطى للغزو سنداً قانونياً أمام فرنسا التى كانت قواتها قد احتلت (فاشودة) غرب السودان ٠

دخل كتشنر (أم درمان) عاصمة المهديين فى سبتمبر ١٨٩٨ مستخدماً الرشاشات كسلاح جديد ، فأصيب جيش المهدي بخسارة فادحة بلغت ٢٠ ألفاً واندحر الجيش الى كردفان ٠ وعن هذه المعركة قال الكولونيل مساعد كتشنر « كانت تحركات المهديين دائماً الى الأمام تحت وابل رصاصنا ليلاقوا الموت المحتم وجها لوجه ٠ وبعد المعركة التى سجلنا فيها انتصارنا كانت جثث قتلاهم بثيابها البيضاء تغطى ساحة القتال كما تغطيها الثلوج » ولم يقتف أثر المهديين ولكنه اتجه الى (فاشودة) حيث التقت القوات البريطانية وجها لوجه مع القوات الفرنسية ، وحدثت أزمة (فاشودة العالمية) المعروفة والتى قال لينين عنها « كانت انجلترا على شفا الحرب مع فرنسا » وانتهى الأمر بينهما الى توقيع اتفاق ٨ ابريل ١٩٠٤ تتعهد فيه فرنسا بعدم معارضة النفوذ البريطانى فى مصر أو تحديد موعد لجلاء قواتها عنه ٠ كما تعترف بريطانيا بسيادة فرنسا على المغرب ٠

ولكن عندما لم يحدث اذ حسمت المشكلة على أساس توازن القوى وبعد مفاوضات طويلة أمرت الحكومة الفرنسية (مارشان) بالتراجع يوم ٤ نوفمبر ١٨٩٨ عن (فاشودة) ، ووقعت فى مارس ١٨٩٩ اتفاقية انجليزية فرنسية لتوزيع مناطق النفوذ فى افريقيا ٠

وتم استرداد السودان فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ بعد حرب امتدت أكثر من ثلاث سنوات خاضها الجيش المصرى ٠

وبعد استرداد السودان واجه الاستعمار البريطانى مرة أخرى مشكلة وجود جيش مصرى ، بدأت تنتشر فى صفوفه أفكار الحركة الوطنية التى

كانت قد انتعشت في صفوف الجماهير وبين المثقفين في التسعينيات من القرن التاسع عشر .

ولم تجدد الحكومة البريطانية مبررا يدفعها الى الغاء الجيش المصري مرة أخرى . . كما فعلت في بداية الاحتلال . . . ولكنها أبقت معظم الجيش الذي بلغ في مطلع القرن العشرين عددا يتراوح بين ٢٠ ألفا ، ٢٥ ألفا في السودان لعدة أسباب أهمها :

١ - إبعاد الجيش المصري الذي استرد ثقته بنفسه عن قاعدته الجماهيرية - على حد تعبير كرومر .

٢ - إطلاق الأمر لجيش الاحتلال في مصر دون منازع .

٣ - تثبيت الأمن بالسودان .

٤ - وجود الجيش المصري في السودان أعفى الحكومة البريطانية كذلك من تواجد جيش كبير للاحتلال . وقد احتلت وحداتهم مواقع استراتيجية هامة مثل القلعة والعباسية وقصر النيل بالقاهرة . ومصطفى باشا ورأس التين بالاسكندرية .

وكان استرداد السودان وتوقيع اتفاقية ١٨٩٩ للحكم الثنائي المصري البريطاني وهي الاتفاقية التي وقعها بطرس غالي عن مصر ولورد كرومر عن بريطانيا ، والتي جاء في مقدمتها أن الأسباب التي دعت الى الحكم الثنائي هي أن مصر حكمت السودان حكما سيئا مما أدى الى ضياعه (وموافقة) الحكومة المصرية على السماح لانجلترا بإدارة السودان لقاء المعونة التي قدمتها الى مصر في السودان .

ولا شك أن هذه الاتفاقية التي فرضت على مصر ، كانت (اتفاقية اذعان) أطلق عليها الناس اسم (الاتفاقية المشنومة) .

أصبح الحاكم العام البريطاني هو السلطة العليا في السودان تتجمع في يده جميع السلطات المدنية والعسكرية والتنفيذية والتشريعية ، وبدأت الحكومة البريطانية ترسم سياسة جديدة نحو الجيش المصري .

قررت تجريد الضباط والجنود المصريين والسودانيين في السودان من الأسلحة والذخيرة بواسطة الجنرال مكسويل نائب الحاكم العام . . . وكان أن تمردت بعض الوحدات ، فسجن الضباط المتهمون بالتحريض وحوكموا ثم طرد منهم سبعة من خدمة الجيش وأحيل واحد الى المعاش وآخر للاستيداع .

وأراد كرومر أن يستغل هذا الحادث لاهانة الخديوى وتحقيره أمام المتعاطفين معه فى الجيش ، فطلب منه احضار المحكوم عليهم وتوبيخهم ، ليضعه فى موقف حرج سواء بالرفض أو القبول وقد قبل الخديوى ذلك ، وأحضر المحكوم عليهم ووبخهم وأعلن تأييده للسردار ونجت باشا .

وقررت الحكومة البريطانية أيضا انقاص الوحدات المصرية البحتة فى الجيش وزيادة الوحدات السودانية ، وألفوا (أورطين) كتيبتى مشاة ، وسرحوا المدفعية ، وخفض عدد (الأورطة) الكتيبة المصرية الى ٦٠٠ جندي بدلا من ٨٠٠ جندي للكتيبة السودانية ، ونقص عدد الضباط المصريين فى الوحدات السودانية الى العشر .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل شنت الجيش المصرى فى السودان الى حاميات صغيرة مبعثرة فى المدن البعيدة ، بينما تمركزت الحامية البريطانية فى الخرطوم .

وهكذا ضم الجيش المصرى بعد أن أدى واجبه فى استرداد السودان وأخذ الاحتلال البريطانى يكلف وحداته بواجبات تعميرية مدنية .

ولما كان هناك نقص شديد فى الصناع المهرة بالسودان فقد استصدر اللورد كتشنر أمرا خديويا يقضى بتجديد أبناء القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك موقوفا منذ بدء الاحتلال منعا لتسرب الأفكار الحضارية فى المدن الى صفوف الجيش ، وهكذا تضاعف عدد الصناع فى السودان عدة مرات .

وقام الجيش المصرى بدور حضارى فى السودان أنشأ طرق السكك الحديدية فى ظروف بالغة القسوة والصعوبة قال اللورد كرومر انهم مدوا ٣٢٥ ميلا من خطوط السكة الحديد خلال ١٤ شهرا وقال أحد الضباط المصريين (انه توجد تحت كل شبر منها جثة جندي مصرى) .

وكثير من منشآت السودان فى المدن المختلفة بنيت بواسطة الوحدات المصرية حتى أصبح ذلك طابعا للجيش ، وهدفا يقصد به صرفه عن التدريب والتماسك وعندما فكر الرئيس السابق اللواء محمد نجيب فى دخول المدرسة الحربية ، قال له ابراهيم عرابى بن أحمد عرابى وكان مقيما فى السودان ، وهو يحاول أن يثنيه عن عزمه (يابنى ان الضابط فى بلد محتل ليس سوى مقاول عمال أو رئيس فعلة ولا يتعدى عمله الحفر والردم) .

وكان كلام ابراهيم عرابى صحيحا الى حد ما فقط روى لى محمد نجيب ان أول عمل كلف به عقب تخرجه كان تمهيد بعض الطرق فى السودان .

بعد أن استقرت الأحوال نوعاً ما صدر قانون القرعة العسكرية - التجنيد - عام ١٩٠٢ بعد أن تلاشت الحاجة لأي قوات مصرية من وجهة نظر المصالح البريطانية ، ولذا فقد تضمن إعفاء كل العناصر ذات الفعالية أو التأثير في الاتجاهات الوطنية لمكافحة الاستعمار ، حتى تظل بعيدة عن الجيش .

أعفى أبناء العمد والمشايخ وموظفي الحكومة والعلماء وطلبة الأزهر وطلبة الجامعة وأبناء وإخوة ضباط الجيش .

انخفض بذلك مستوى المجندين ومستوى الجيش بالتالي .

استمر العمل بهذا القانون حتى ١٩٤٧ أي ٤٥ عاماً متصلة .

وخلال السنوات الأولى للحكم الثنائي في السودان قامت عدة انتفاضات شعبية لم يذكر السير (الدون جورست) الحاكم العام شيئاً عن دور الجيش المصري في قمعها ، مشيراً فقط إلى القوات البريطانية والسودانية وإذا صبح ذلك فإنه يشير إلى خشية الاحتلال من تحريك الجيش المصري حركة عسكرية في مواجهة انتفاضة شعبية خشية حدوث التحام بينهما ، وخاصة أن ضباط الجيش كانوا ما زالوا يتذكرون انتفاضة عرابي ، ويقرأون سرا كلمات الزعماء والمثقفين في مصر مثل محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومصطفى كامل وغيرهم .

وكان الاتجاه السائد في الرأي العام المصري هو الاستفادة من التناقضات الدولية ، والنضال ضد قوات الاحتلال البريطانية باعتبار مصر تحت السيادة الشرعية التركية .

وقد تعرض الجيش المصري عام ١٩٠٦ لموقف شديد الحرج عندما أرادت الحكومة العثمانية أن تمتد خط سكة حديد الحجاز من معان إلى العقبة ثم إلى قناة السويس ، وما يستتبعه ذلك من ضرورة اقتطاع جزء من سيناء .

وعندما وجدت قوات الاحتلال أن ذلك يهدد قواتها البحرية في البحر الأحمر أرسلت قوة مصرية صغيرة يقودها مصري هو الأميرالاي سعد رفعت لاحتلال بلدة « كابا » التي تقع على بعد ٨ أميال برا من قلعة العقبة ، ولكنها عندما وصلت وجدت أن القوات التركية قد احتلتها ، وأصبح الموقف يهدد بمواجهة عسكرية بين القوتين .

كان موقف الجيش المصري غريباً في هذه الأزمة التي تتنازع فيها الأرض المصرية دولتان أجنبيتان هما تركيا صاحبة السيادة الشرعية وإنجلترا صاحبة قوات الاحتلال .

ولكن الرأى العام المصرى انجذب الى السلطان الذى كان اسمه يذكر
فى خطب الجمعة بالمساجد ويدعى له بالنصر . . . وناقشت الصحف صراحة
احتمال تمرد الجيش المصرى وانضمامه للقوات العثمانية باعتبارها قوات
اسلامية لا يجوز معاداتها .

ووجدت قوات الاحتلال البريطانى انها فى مازق يهددها بتمرد الجيش
فسارعت بزيادة الحامية البريطانية واستدعت قوات هندية للدفاع عن
قناة السويس ، ونشرت الصحف البريطانية مقالات تثير بها الشك فى ولاء
ضباط وجنود الجيش المصرى ، ونشرت جريدة (ديلى اكسپريس) تصف
الضباط الشبان بانهم مصدر خطر لصلتهم بالضباط الاكبر سنا أو المتقاعدين
وانهم جميعا يعتبرون خطرا فى حالة القلق القائمة فى ذلك الوقت .

وكان فى حديث الصحيفة البريطانية اشارة غير مباشرة الى ان قوات
الاحتلال كانت تختار صفار الضباط من ذوى الولاء لقبول الاحتلال دون
معارضة .

وأصبح مؤكدا أن قوات الاحتلال لم تعد تثق فى ولاء الجيش المصرى ،
كما انها فطنت الى أن الرأى العام المصرى يلعب على التناقض القائم بينهم
وبين الدولة العثمانية . . . فكانت النتيجة هى زيادة الحامية البريطانية ،
ووقوع حادثة دنشواى بعد شهر واحد من أزمة (طابا) التى انتهت بتفادى
القتال .

ورافق هذه الحادثة نشاط عربى فى تركيا ، اذ كونت الجالية العربية
فى القسطنطينية منظمة عربية جماهيرية فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨ باسم
(الاخاء العربى العثمانى) رأسها ضابط سابق لأركان حرب التركى اسمه
صادق باشا العظم مرتبطا بجمعية (تركيا الفتاة) .

ولكن انتخابات البرلمان التركى فى ذلك العام وبرنامج جمعية
(تركيا الفتاة) الذى نشر فى أواخر هذا العام ، قد أنزل ضربة حاسمة
بالأوهام التى كونها القوميون العرب حول تركيا الفتاة .

كان تعداد الأتراك ٧٥ مليون وتعداد العرب ١٠٥ مليون من مجموع
٢٢ مليون نسمة هم مجموع سكان الامبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت .

وتكونت جمعية سرية أخرى عام ١٩١١ باسم (الجمعية العربية
الفتاة) فى باريس لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الحركة الوطنية العربية ،
حيث أعدت برنامجا يقوم على أساس الاستقلال العربى ومحاولة توحيد
الحركات العربية المختلفة .

... وفى نفس العام قامت الحرب الايطالية العثمانية (١٩١١ - ١٩١٤)
حيث بدأت ايطاليا يوم ٣٠ سبتمبر ١٩١١ كستولى على الساحل الليبى

فاحتلت طرابلس ودرنة وطبرق وبنغازي . . وفكرت الدولة العثمانية في مروء جيشها عبر الأراضي المصرية بعد محاصرة الأسطول الإيطالي لسواحل ليبيا ، كما فكرت أيضا في الاستعانة بالجيش المصري في الحرب الى جانب الجيش العثماني .

وقد أيد الرأي العام المصري هذا الاتجاه وطالبت العناصر الوطنية أن يمر الجيش العثماني دون استئذان الخارجية البريطانية ، ولكن بريطانيا أسرعت بإعلان خياد مصر في الحرب تجنباً لاحتمال اشتباكها مع إيطاليا . . . ولم تحاول الدولة العثمانية من جهتها إرسال قوات عبر مصر ، وعندما اتصل بعض الوطنيين المصريين باللورد كيتشنر مطالبين بإرسال قوات مصرية لمساعدة الجيش العثماني ، أجاب بأن ذلك يعني زيادة قوات الاحتلال . . . وعندما طلب بعض الضباط التطوع وافقهم على شرط أن يجدوا أنفسهم في الاستبعاد بعد العودة . . . وعندما طلب أولاد علي من الأعراب التطوع وافق بشرط إلغاء النص الذي يعفيهم من التجنيد .

ولكن ذلك لم يمنع بعض المصريين من التطوع على نفقتهم الخاصة . . . وكان علي رأس هؤلاء عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية فيما بعد ، وصالح حرب الذي رأس جمعية الشبان المسلمين بعد ذلك وتولى منصب الوزارة في إحدى وزارات علي ماهر . . . وعزيز المصري الذي اشترك في العمليات الحربية وعين قائدا لمنطقة بنغازي وغيرهم كثير من المتطوعين .

وبنات الأسلحة تتدفق عبر الصحراء الغربية الى ليبيا ، الأمر الذي جعل قوات الاحتلال البريطانية تستبدل مأموري الحدود المصريين بمأموريين من البريطانيين . .

وهكذا منعت قوات الاحتلال الجيش المصري من المساهمة في هذه الحرب التي كان يدفعه اليها اتجاه الرأي العام المصري .

وفي ذلك قال يوسف نجيب الضابط في الجيش المصري والذي مات ودفن في السودان لولده محمد نجيب وهو يختار له مهنة المحاماة قبل وفاته (ان الجيش قوة اضافية تتلقى أوامرها من الانجليز) .

ولم يكن الجيش المصري يتلقى أوامره من قوات الاحتلال التي يقوده حسباتها البريطانيون فقط ولكن قواعد جسدته كانت تطبق عليه . . . ألوائح السودان الجديدة أصبحت تتلقى أوامرها بالانجليزية . . وبعض الفرق التدريبية كانت تقتصر على الضباط السودانيين والعرب دون المصريين مثل مدافع الماكينة في مركز التدريب بملاكال ، وذلك حسب رواية اللواء محمد نجيب الذي تخرج في المدرسة الحربية ، وعين مثل والده في الكتيبة ١٧٠٠٠٠ بالاسودان أيضا .

وأوقف الاحتلال البريطاني الترقية إلى رتب الضباط بين ضباط الصف ، وأغلق بذلك الباب أمام الفلاحين والفقراء وحال بينهم وبين الوصول إلى المراتب القيادية كما حدث مع أحمد عرابي ٠٠٠ وبدأت الفروق الطبقية تظهر بطريقة حادة في صفوف الجيش ٠٠٠ الضباط كانوا يختارون إما من أبناء الضباط وإما من أبناء العائلات الكبيرة الفاشلة في التعليم دون التقيد بشهادة مدرسية حتى صدر قانون ١٩٢٨ الذي يقصر دخول المدرسة الحربية على خريجي المدارس الثانوية ٠٠٠ أما الجنود فكانوا من أفقر عائلات مصر .

وعادت من جديد حدود الترقية إلى الرتب العليا ٠٠٠ المصريون لا يرقون أكثر من رتبة الأميرالاي ، والسودانيون لا يتجاوزون رتبة الصاغ ، بينما البريطانيون يبدأون من رتبة اليوزباشي إلى أعلى رتب الجيش .

وحدث خلال هذه الفترة انحسار حقيقي في حالة الجيش ٠٠٠ تدريباً وتسليحاً وعدداً ٠٠ وارتباطاً بالحركة الوطنية . أيضاً فقد كان البريطانيون يختارون الضباط خلال ثقب اختيار ضيقة ، ويحاولون أن يجتذبوهم إلى نموذج الحياة البريطانية وتقاليدها مما يعزلهم تدريجياً عن مجتمعهم .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وكانت تركيا ما زالت في مرحلة الحياد ، ضغطت الحكومة البريطانية على الحكومة المصرية لمنع اتخاذها قراراً بالحياد وأصدرت قراراً في ٥ أغسطس ١٩١٤ يقضي بمنع التعامل مع ألمانيا ورعاياها ومنع السفن المصرية من الوقوف في أي ثغر ألماني ٠٠٠ ولما نشبت الحرب بين إنجلترا وتركيا فرضت الحماية البريطانية على مصر وأسقطت السيادة العثمانية يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

وفي اليوم التالي مباشرة أي ١٩ ديسمبر خلع الإنجليز الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان في القسطنطينية في ذلك الوقت ، وعينوا الأمير حسين كامل منعمين عليه بلقب السلطان .

واقترنت هذه الإجراءات بإعلان الأحكام العرفية في ٢ نوفمبر ١٩١٤ وأصبحت السلطة العليا في يد الجنرال مكسويل قائد القوات الإنجليزية في مصر ، واعتقل آلاف الوطنيين من المثقفين البرجوازيين ، وعطلت الصحف الوطنية ووضع الباقي تحت رقابة شديدة .

ولم يعتمد الإنجليز في حربهم ضد الأتراك على قوات الجيش المصري اعتماداً كاملاً ، بل كلفوا وحدات قليلة منه بالاشتراك في خطة الدفاع عن قناة السويس ٠٠٠ وحسب ما كتبه الليفتنانت كولونيل كيرزي ، كان يوجد في مصر في أواخر عام ١٩١٤ ما يقرب من ٢٢ ألفاً من القوات المصرية والسودانية ، بينما كان يوجد ٧٠ ألفاً من القوات الهندية والاسترالية

والنيوزيلندية والبريطانية ثم زادت هذه القوات مع استمرار الحرب حتى وصلت ٢٧٥ ألف جندي .

ولم يدفع الانجليز بكل قواتهم الى المعركة . . . احتفظوا بحامية كبيرة في القاهرة والاسكندرية خوفا من الانتفاضات الشعبية .

وكانت معاداة البريطانيين هي العامل المحرك للقوى الوطنية في ذلك الوقت ، وخاصة بعد دخول الحرب ضد الأتراك . . . وان كانت قد بذرت ونمت فكرة الاستقلال والتحرك الوطني بعيدا عن الدولتين .

وفي الصحراء الغربية كانت القوات المصرية تحت قيادة كولونيل بريطاني (سيسل سنو) بينما كان القائد المصري هو اليوزباشي محمد صالح حرب - باشا فيما بعد - والذي انتهز فرصة انسحاب (سنو) من السلوم الى مرسي مطروح بعد نشوب القتال مع السنوسيين وعدم اهتمامه بمصير قوات الحدود المصرية في سيندي براني وبقي ، فانضم صالح حرب ونمعه حوالي ٨ ضباط وأكثر من ١٢٠ جنديا الى السنوسيين ضد البريطانيين .

ومع ذلك فقد اشتركت وحدات مصرية صغيرة لمساعدة حركة القوات البريطانية في الصحراء الغربية بعد ذلك .

الاشتراك الرئيسي للجيش المصري في الحرب العالمية الأولى كان في السودان ضد السلطان علي دينار في دارفور بعد أن نبذ ولاءه لحكومة السودان في ١٠ فبراير ١٩١٦ تحت تأثير الأتراك والسنوسيين ، وذلك بعد أن كانت قد اعترفت به حكومة السودان سلطانا على دارفور عام ١٩٠٠ بعد استخلافه لها من يد دراويش المهدي .

كانت الحملة تحت قيادة ضابط بريطاني اللفتننت كولونيل (كيل) ولكن الضباط والجنود للمحاربين كانوا من المصريين والسودانيين . . . وقد انتهت الحملة بانتصار الجيش المصري ودخول (الفاشر) عاصمة دارفور في مايو ١٩١٦ ، وقتل السلطان في إحدى المعارك غرب دارفور في نوفمبر ١٩١٦ ، مما دفع الملك جورج الخامس الى ارسال برقية تهنئة عند احتلال الجيش المصري للفاشر ، وإشادة الحاكم العام للسودان أثناء احتفاله بعيد الهجرة (١٢٣٥ - ١٩١٦) في نادي الضباط المصريين قائلا : انه يذكر بمزيد الفخر والاعجاب الخدمة العظيمة التي قام بها الجيش المصري وضباطه البواسل في دارفور فانها ستبقى مسطورة بأحرف من ذهب في تاريخ الجيش .

واضح أن الاشتراك المسلح للجيش المصري كان محدودا ومقتضرا على عمليات صغيرة أو قوات مساعدة . . . ولم يجادل البريطانيون أن يجندوا

وحدات كبيرة تدخل المراكز الحربية ، كما هو الحال بالنسبة للقوات الهندية مثلا ، وذلك لادراكهم ان ذلك قد يصبح مكن خطر عليهم لان الروح الوطنية في الشعب كانت ملتهبة لا تخمد .

خرجت قوات الاحتياط التي استدعيت للخدمة يوم ٢٩ يناير ١٩١٦ من ثكنات عين شمس وسارت في مظاهرة جماعية حتى سراي عابدين وهم يهتفون ضد الظلم الذي تعرضوا له لاستدعائهم عقب مدة خدمة الزامية امتدت ست سنين .

ولما لم يجدوا اذنا صاغية خرجوا في مظاهرة في اليوم التالي ، حيث قصدت لهم قوات البوليس ، وفرقتهم بعد ان تساقط عدد من الجرحى .

واستبدلت الحكومة البريطانية سير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني ، الذي لم يسنق له الخدمة في مصر بالسير يجنلد وينجت حاكم عام السودان الذي كانت له صلات متعددة مع عدد من قيادات الجيش المصري . وقد ابقى السير وينجت لنفسه الاشراف على الجيش المصري وحكومة السودان وعين سير لي ستاك نائباً للسردار ونائباً للحاكم العام للسودان حتي عين سردارا وحاكما عاما في ٩ مايو ١٩١٥ .

وقد ابتكر وينجت اسلوبا جديدا لاستغلال القوة البشرية المصرية وقدرتها على الصبر والتحمل ، والتضحية فشكّلوا ما سمي (فيلق العميل المصري) . وكانوا يحشدون فيه العيال والفلاحين للقيام بالأعمال العسكرية الشاقة مثل جفر الخنادق والآبار واقامة الاستحكامات ومسد السكة الحديد وانايب المياه عبر الصحراء ونقل الأثقال وتطهير القاذورات وكان ذلك غالبا ما يتم في ظروف المعركة تحت نيران العدو مما يعرض افراد الفباقي لأخطار جسيمة . الأمر الذي جعل الناس يهربون من القرى ويختفون من محال اقامتهم حتي لا تلحقهم يد (التطوع) لهذا الفلق ، والذي أنشئ في البداية على أساس (التطوع) شكليا ثم لما نفر الناس منه نفورا شديدا ، وعجزت السلطة البريطانية عن اغراء الناس بالاعلان عن الاعفاء من الخدمة العسكرية لكل من يقضى سنة واحدة في خشم اضافي (أي جيوش الحلفاء) - تحول التجنيد له الى اجبار عام . ١٩١٧ .

كان الحشد لسائق العمل يتم ثلاث أو أربع مرات في العام وكل مرة يخشد فيها حوالي ١٣٥ ألف شخص يبقون مدة ستة شهور وحاوز مجموع من دخل هذه الفياق رقم المليون وبلغ عدد الضحايا ٣٠ ألفا . لا قوا حتفهم على حدود مصر أو في فرنسا والدردنيل وفلسطين حيث امتد نطاق حملتهم

وهكذا جند البريطانيون مئات الآلاف من المصريين وحشدوهم في أعمال خشنة صعبة تحت ظروف شديدة الخطر والقسوة ٠٠٠ ولكن بدلا من أن يضعوا في أيديهم السلاح وضعوا الفؤوس والمعاول وأدوات الحفر والبنايا .

كان (فيلق العمل المصرى) جيشا غير مسلح يتعرض لخطر الممارك وليس في يده ما يدافع به عن نفسه .

وخلال سنوات الحرب كانت اقتصاديات مصر قد تأثرت ، فارتفعت أسعار القطن من ١٤ ربيلا عام ١٩١٣ الى ٣٨ ربيلا عام ١٩١٧ وأثرى كثير من التجار والمضاربين والوسطاء ، وأدت الحرب وقطع الصناعات التجارية الى تطوير الصناعة المحلية ، وتنشيط رأس المال المصرى وخلق مئات من المشاريع اليدوية والصناعية ٠٠٠ وزاد عدد العمال حتى بلغ حوالى نصف المليون عام ١٩١٧ .

ومع ذلك لم يتحرر رأس المال المصرى المتطور من وصاية السلطات الاستعمارية ، فقد أودع في الخزينة البريطانية الرصيد الذهبى للبنك الأهلى المصرى ، وانتزعت سلطات الاحتلال العملة الذهبية والفضية واستبدلتها بأوراق نقدية عام ١٩١٦ ، وزادت كمية هذه الأوراق المتداولة حتى حدث تضخم نقدي أودى الى ارتفاع الأسعار كمقارنة مع أسعار ١٩١٤ فوصلت ٢١١٪ عام ١٩١٨ ، ٣١٢٪ عام ١٩٢٠ وخاصة للمواد الأساسية مما أزهق الفلاحين والفقراء ، الذين صادرت سلطات الاحتلال حبوبهم دون ثمن مجز ، الأمر الذى أدى الى شعور كامل بالسخط ضاعفه نظام السخرة والعمل الاجبارى .

وقد أدت مشاعر السخط العفوية ، الى نمو سريع فى الاتجاهات القومية وخاصة فى صفوف المثقفين والبرجوازية الصغيرة الذين التفوا حول الحزب الوطنى ٠٠٠ بينما جنحت البرجوازية الكبيرة الى التعاون مع الاحتلال بعد أن تضاعفت أرباحها .

ولكن ظروف الحرب والارهاب أوقفت نمو الحركة الوطنية ودفعت بأقسام منها الى الأعمال الارهابية ٠٠٠ تمت محاولتان لاغتيال السلطان حسين كامل فى ابريل ويونيو ١٩١٥ ومحاولة ثالثة لاغتيال رئيس الوزراء حسين رشدى باشا فى سبتمبر ١٩١٥ .

ولم تثمر المحاولات الارهابية الا مزيدا من ضغط قوات الاحتلال ٠٠٠ ومزيدا من انطواء الوطنيين على أنفسهم .

وضعفت جماهيرية الحزب الوطنى التى كانت قد بلغت القمة بتأثير مصطفى كامل ، ويذكر أن ٣٢ ضابطا من حامية سنواكن أرسلوا برقية الى

مصطفى كامل عندما قلتم عريضته المشهورة الى البرلمان الفرنسي قالوا له فيها « ان قلمك الحق أمضى من سيوفنا ، وحججك القوية أمضى من رصاصنا » وكان أخوه علي فهمي كامل أحد ضباط الحامية .

ولم يدر في خاطر مصطفى كامل أن يكون غرابيا آخر . فقد كانت حركته بعيدة عن الارتباط بالجيش بعدا كبيرا ، ولذا فقد أرسل لهم ردا قال فيه « من الحكمة ألا تمكن العدو من زقابتنا . وأنا لا أود أن يدخل ضباط الجيش في حركتنا السياسية دخولا ظاهرا لأن هذا يضر بالمسألة ضررا بليغا حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم » .

هكذا كان مصطفى كامل حريصا على عدم إثارة شبهة اتصاله بقوات الجيش علنا ، وما أظن ان القادة الوطنيين الذين برزوا بعد أحمد عرابي كانوا راغبين في الظهور بهذا المظهر تحت سيطرة قوات الاحتلال البريطاني خشية من ناعية وحلوا من ناحية أخرى ورغبة في عدم تكرار مأساة الثورة العرابية ، وخاصة ان قوات الجيش كانت تشتت وتفتن تبعا لمخططات امبريالية .

على فهمي كامل شقيق مصطفى كامل لم يطل به المقام في الجيش ، وخاصة بعد نشاطه مع ضباط حامية سواكن اذ حوكم وعزل من رتبته ووقف بجانبه بعض الضباط من جانب الوفاء ولكنهم كانوا أعجز من أن يتحركوا حركة اعتراضية ايجابية وقد مضى بعد ذلك على فهمي كامل في خضم الحياة السياسية حتى أصبح وكيلا للحزب الوطني .

وما أن انتهت الحرب ، حتى بادر الشعب المصري يعبر عن ارادته وفي يوم الهدنة ١١ نوفمبر ١٩١٨ تقدم سعد زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية التي توقف عملها مع اشتعال الحرب وعضوا الجمعية على شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك بطلب مقابلة سير ويجنالك وينجت المندوب السامي البريطاني فتحدد لهما يوم ١٣ نوفمبر للمقابلة وهو اليوم الذي ظلت تحتفل به مصر عيدا للجهد تعطل فيه الحكومة حتى قيام حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ومنذ هذا التاريخ تشكل (الوفد المصري) برئاسة سعد زغلول بناء على عرائض وقعتها الجماهير في مختلف المديريات تفوضهم « في أن يسعروا بالطرق السلمية المشروعة جيشا وجنودا سنيلا للبعث في استقلال مصر استقلالاً تاما » .

وحينما فكر سعد زغلول ورفاقه فى السفر الى الخارج لعرض قضية مصر على المسئولين فى الحكومة البريطانية ، رفض الجيش البريطانى السماح لهم بالسفر ، وكان هو جهة الاختصاص فى سفر كافة المواطنين .

وانفجرت ثورة ١٩١٩ تحت ضغوط اصرار البريطانيين على فرض الحماية على مصر ، وحالة الارهاب التى امتدت سنوات الحرب ، والمعاملة الخسنة والسخرة للمصريين من جانب قوات الاحتلال وارتفاع الاسعار وما صاحبها من ضائقة اقتصادية ، والتطلع الى الاستقلال التام (مصر للمصريين) بعد المبادئ التى اعلنها (ويلسن) رئيس الولايات المتحدة الامريكية .

واشتعلت الثورة بين مختلف الفئات ... بدأت بالطلبة ثم العمال والفلاحين واضراب الطوائف وتظاهر السيدات ، وأخيرا اضراب الموظفين . ولم يكن للجيش سردار ايجابى فى أحداث ١٩١٩ ، كما كان فى ثورة عرابى .

الأعوام التى انقضت بين الثورتين نفذت فيها قوات الاحتلال مخططات يقضى بفصل الجيش عن الحركة الوطنية ، وتولية نوعية خاصة من الضباط ذات جذور اجتماعية وفكرية تجعلها فى موقع بعيد عن مرآة الثورة .

كان الضباط يدخلون المدرسة الحربية بتعليم محدود لا يتجاوز الابتدائية يمرون خلال مجهر استعماري خاص يفحص أصولهم الطبقية ، وهم كانوا غالبا اما أبناء ضباط معروفين ، واما أبناء أسر اقطاعية ثرية فشلوا وعجزوا عن مواصلة التعليم .

وقد أدى توقف النمو الفكرى والثقافى للضباط الى خلق هوة واسعة بينهم وبين المثقفين الذين انجذبوا الى حضارة الغرب ونقلوا الافكار العصرية مبشرين بمجتمع جديد .

أحمد عرابى وضباط الجيش الوطنيين كانوا أقرب ما يكونون الى مثقفى عصرهم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وأديب اسحق وعبد الله النديم ويعقوب صنوع (أبو نضارة) وسليم نقاش وغيرهم .

أما ضباط الجيش عام ١٩١٩ فكانوا أبعد ما يكونون عن مثقفى ذلك العهد ... محمد فريد ولطفى السيد وطه حسين .

خطب لورد كيرزون الوزير البريطانى يوم ٢٤ مارس ١٩١٩ والثورة فى قمة التهابها يثنى على « موظفى الحكومة ورجال البوليس والجيش المصرى » ويشيد بحسن سلوكهم أثناء الاضطرابات فى الوقت الذى أعلن فيه أن الحكومة البريطانية لا تنوى العدول عن الحماية .

وكان رد فعل هذا الخطاب عند الموظفين لقيامهم باضراب طويل شامل بدأ في ٢ ابريل وانتهى بسقوط وزارة حسين رشدي باشا رغم الافراج عن سعد زغلول يوم ٦ ابريل وسفر الوفد بعد ذلك بخمسة أيام الى مالطة ومنها الى باريس ٠٠٠ وذلك لشعورهم بالحرَج لما انطوى عليه الخطاب من اتهامهم بالانحياز الى صف الاحتلال والحماية والتنكر للحركة الوطنية .

أما ضباط الجيش فلم يتحركوا حركة ثورية ٠٠٠ ليس لانهم قد تنكروا لوطنيتهم ٠٠٠ فان مواقفهم تدل على عكس ذلك ٠٠٠ فقد ذهب حشد منهم بملابسه الرسمية الى بيت الأمة عقب نفى سعد زغلول ، وحملوا صورته أمام مصورى الصحف ، دون أن يعباوا بأثر ذلك عليهم ، وكان من بينهم اللواء محمد نجيب وهو ما زال فى رتبة الملازم .

والفلاحون والعمال الذين يشكلون الطبقة التى يجند منها الجنود قاموا بأعمال ثورية باهرة خلال الثورة ٠٠٠ كانت الأقاليم تلتهب بالمظاهرات وقطع المواصلات والسكك الحديدية الى الدرجة التى أفزعت قوات الاحتلال من حراس الغفر للسكة الحديد فاستبدلوهم بجنود بريطانيين .

رفض الجنود أبناء العمال والفلاحين اطاعة الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين ، كما حدث فى المنيا عندما أصدر لهم البكباشى شاهين أمرا بذلك ٠٠٠ فأطلق هو الرصاص على المتظاهرين وقتل ثمانية منهم .

وبعض ضباط الجيش اندمجوا فى خدمة قوات الاحتلال ونفذوا الأوامر بلا تردد حتى اشتهر بعضهم بالقسوة فى معاملة الجماهير مثل البكباشى شاهين . ومحمد حيدر الذى أصبح قائدا عاما للقوات المسلحة فيما بعد .

والبعض منهم كان متعاطفا مع الثورة ٠٠٠ بل مساهما فيها ٠٠٠ مثل عبد الرحمن فهمى الذى كان أحد أعمدة التنظيم والتنفيذ والعمل السرى فى الثورة ٠٠٠ وهو ضابط سابق من ضباط الجيش المصرى اشترك فى الحملة المصرية بقيادة كتشنر لاعادة فتح السودان ، ثم عين ياورا لوزير الحربية عام ١٨٩٦ ثم انتقل بعد ذلك الى سلك البوليس والادارة .

كانت القيادات العليا وقيادات الكتائب كلها للضباط البريطانيين . الذين رصدوا عيونا لهم تسجل كل كلمة نائرة أو حركة معادية ٠٠٠ كما ان قوات الاحتلال تضاعفت خلال سنوات الحرب فى الوقت الذى جمد فيه الجيش المصرى ، واستقرت نسبة عالية من وحداته فى السودان .

قال لى محمد نجيب انه كانت هناك (جمعية سرية للضباط الوطنيين) فى السودان لا يعرف الضابط منها الا من ضمه اليها ٠٠٠ وعندما حضرت لجنة ملتر كلفت الجمعية محمد نجيب بالوقوف أمام نادى الضباط بالخرطوم

ثورة يوليو ج ١ - ٨١.

خلف منضدة صغيرة عليها صورة البرقية التي قرر الضباط ارسالها للاحتجاج على لجنة ملتر ، والقول بأنه لا يجوز التفاوض الا مع الوفد المصرى برئاسة سعد باشا زغلول ، حتى يوقع الضباط عليها تضامنا مع الشعب المصرى .

ويقول محمد نجيب ان احدا لم يتخلف عن التوقيع ولكنه فوجئ باعتقاله فى اليوم التالى واغلاق نادى الضباط بأمر السردار وعرف فى المعتقل بعض أعضاء الجمعية لأول مرة وكان منهم اليوزباشى أحمد الصاوى الذى أصبح وكيلا لوزارة الحربية عام ١٩٣٨ واليوزباشى محمود هاشم الذى أصبح مديرا لسلاح الحدود واليوزباشى عبد الوهاب البهنساوى الذى عين فيما بعد قائدا لقسم القاهرة واليوزباشى أحمد عطية والملازم أول طبيب سليمان أباطة والطبيب البيطرى اليوزباشى سليمان عزت .

واحتجز الضباط فى المعتقل حتى أفرج عنهم بعد أسبوع تحت ضغط الضباط من زملائهم الذين ثاروا لاعتقالهم ولاغلاق النادى الذى فتح بعد أربعة أيام من اغلاقه .

كانت قوات الاحتلال تقبل مرغمة مثل هذه التحركات المحدودة ولكنها لم تكن تسمح أبدا بما يتجاوز هذه الحدود .

وقد استطاعت ثورة ١٩١٩ أن تحقق نتائج ايجابية محدودة ، اذ صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعلنت فيه انجلترا انهاء الحماية البريطانية على مصر وأعلن استقلالها يوم ١٥ مارس وبذا انتهت مرحلة طويلة من عدم الاستقرار والتشتت السياسى فى وضع مصر التى كانت تعتبر لفترة طويلة (ولاية عثمانية تحت الحكم البريطانى) .

ولكن الاستقلال الذى ظلت مصر تحتفل به يوم ١٥ مارس وتعطل فيه المصالح كان استقلالا شكليا اذ احتفظت الحكومة البريطانية بتولى الأمور التالية بصورة مطلقة :

- ١ - تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .
- ٢ - الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .
- ٣ - حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .
- ٤ - السودان .

واستطاعت ثورة ١٩١٩ أيضا أن تجبر الاستعمار والسراى على وضع دستور ١٩٢٣ الذى تشبث به الشعب ووجد فى تطبيقه تعبيرا عن

ارادته رغم انه كان ناقصا من الوجهة الديمقراطية اذ كان يعطى للملك حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده واصدار مراسيم فى غيبته .

ومع ذلك فان القوى المعادية لانطلاق ثورة ١٩١٩ الى اهدافها بادرت قبل ان تاتى وزارة الثورة الاولى الى اصدار (قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات فى الطرق العمومية وقانون الاحكام العرفية اللذين اصدرتهما وزارة يحيى ابراهيم فى مايو ١٩٢٣ ٠٠٠) كما عينت سفنكس باشا البريطانى مفتشا عاما للجيش .

عقب ذلك ظهرت فى السودان حركة وطنية بين الضباط المصريين والسودانيين ، وكان أبرز قادتها الملازم أول على عبد اللطيف من الكتيبة التاسعة للمشاة والذى نشر منشورا فى مايو ١٩٢٢ بعنوان (مطالب الأمة السودانية) يطلب فيه استقلال السودان وضمه الى مصر .٠٠ فقبض عليه وحوكم بتهم... اثارة الشغب والاضطراب وفصل من الجيش وسجن لمدة عام .٠٠ ولكنه بعد خروجه من السجن كون جمعية (اللواء الأبيض) فى اجتماع عام لم يحضره مصريون ، واختاروا للجمعية علما أبيض رسمت عليه خريطة النيل وفى ركن منها العلم المصرى الأخضر وقد كتبت على أرضيته البيضاء (الى الامام) ، وكانت لهذه الأحداث انعكاسات فى (البرلمان المصرى) .

ووصلت المظاهرات فى السودان الى ذروتها يوم ٩ أغسطس ١٩٢٤ عندما تظاهر طلبة الكلية الحربية بزيهم العسكرى وهم يحملون البنادق، واتجهوا الى منزل على عبد اللطيف وهتفوا بسقوط الانجليز والحاكم العام ، الأمر الذى أدى الى محاكمة على عبد اللطيف وسجنه ثلاث سنوات أخرى .

واجتمعت حكومة سعد زغلول فى ١٥ أغسطس لدى الحكومة البريطانية بخطاب تقول فيه انها تتبجح بمزيد من الحزن والأسف الحوادث التى تتوالى فى السودان ، والتى اعتبرتها نتيجة طبيعية لأسلوب الموظفين البريطانيين .

ولكن الحكومة البريطانية ردت بأنها اتخذت العدة لتعزيز الحماية البريطانية ، وأجازت لحكومة السودان أن تبعد فى الحال أى وحدة من وحدات الجيش المصرى يظهر منها عدم الولاء .

وخلال هذه الفترة التى بدأت فيها ارهاصات ثورة داخل الجيش وخارجه فى السودان قتل السردار العام سى رلى ستاك يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ فى أحد شوارع الزمالك بالقاهرة . وانتهزت انجلترا الفرصة وقدمت انذارا للحكومة المصرية عن طريق اللورد اللبى الذى توجه الى سعد

زغلول برئاسة الوزارة في موكب من ٦٠٠ فارس بريطاني مطالباً بسحب الجيش المصري من السودان ، وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصري الى قوة سودانية تكون خاضعة ومراعية للحكومة السودانية وحدها على أن تصدر الحكومة المصرية بيانا بذلك خلال ٢٤ ساعة .

رفض سعد باشا زغلول الانذار وقدم استقالته يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ بعد عشرة شهور فقط من توليه الحكم .

وأسرعت الحكومة البريطانية لتنفيذ مخططاتها بمحاصرة القوات البريطانية للقوات المصرية في الخرطوم ٠٠٠ ورفضت الكتيبة الثالثة السفر الا بأمر وزير الحربية المصري .

وثارت أيضا الكتيبة ١١ السودانية وحاولت الاتحاد مع الجيش المصري في الخرطوم بحرى فتعرضت لها قوة بريطانية ونشب قتال لم ينته الا عند منتصف الليل بعد أن نفذت الذخيرة وقتل قائدها الشهيد عبد الفضل المظ .

وأعدمت قوات الاحتلال ثلاثة شهداء هم الضباط حسن فضل الخولى وسليمان محمد ٠٠٠ وثابت عبد الرحيم ٠٠٠ وكان رابعهم على البنا الذى نجا من الاعدام وعمل في مصر حتى أصبح كبيرا للياوران بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٣ .

وفصل الاستعمار ١٧ ضابطا رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحاكم العام وفروا الى مصر كما حضر اليها عدد من طلبة المدرسة الحربية الذين سجنوا بسجن كوبر بخرطوم بحرى ٠٠ وقد عمل هؤلاء جميعا فى الجيش أو البوليس المصري .

وهكذا حقق الاحتلال البريطاني خطته بفصل السودان عن مصر وسحب الجيش المصري من هناك كما حدث عام ١٨٨٥ .

وأدت انتكاسة انتفاضة ١٩٢٤ الى انحسار موجة العمل السياسى داخل صفوف الجيش وذابت الجمعيات السرية أمام المحاكمات والضغوط الارهابية .

ومع ذلك ظلت جذوة الوطنية مشتعلة فى صدور بعض الضباط ، ورغم انتهاء التنظيمات الخاصة بهم ، وحدثت بعض تصرفات فردية تدل على ذلك مثل ذهاب محمد نجيب متخفيا الى منزل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد فى عام ١٩٢٩ عقب حل الملك فؤاد للبرلمان ومنع مجلس النواب من الانعقاد ، لوجود أغلبية وفدية ساحقة ليبلغه استعداد الجيش لمقاومة الاجراءات غير الدستورية التى يرتكبها الملك .

حضر هذه المقابلة مصادفة مكرم عبيد باشا سكرتير الوفد ومحمود فهمى النقراشى أحد أعضائه . . . ولكن مصطفى النحاس قال لمحمد نجيب إنه يؤثر أن يكون الجيش بعيدا عن السياسة وأن تكون الأمة مصدر السلطات . . . ولو أنه يتمنى أن يكون ولاء الضباط للوطن والشعب أكثر مما هو لشخص الملك .

وإذا تفاضينا عن فردية هذا الحدث فإنه يستبين لنا أن الوفد المعبر عن إرادة الشعب كان لا يستجيب لدعوة ضباط الجيش للتحرك . . . تقديرا منه لخطورة الصدام مع قوات الاحتلال أولا في وقت لم تنضج فيه الظروف لذلك بعد . . . كما أن خضوع الجيش سنوات طويلة لسيطرة قوات الاحتلال كما يبعث الحذر في جدية التعاون . . . إذ كان معروفا أن اليد العليا في تحريك الجيش هي لقوات الاحتلال ، وقائد الجيش وكبار قادته كانوا من البريطانيين منذ عام ١٨٨٢ .

عندما فكر البرلمان المصرى عام ١٩٢٨ فى زيادة وحدات الجيش المصرى وتحسين أسلحته ومهامه وترقية التعليم فى المدرسة الحربية ليصبح الدخول لها بالثانوية العامة (اليكالوريا) والحد من سلطة المفتش العام البريطانى احتجت إنجلترا وأرسلت ٣ بوارج من أسطولها الى الاسكندرية فاضطرت الحكومة المصرية الى التراجع ومد خدمة سلفنكس باشا المفتش العام للجيش ومنحه رتبة الفريق وتعيين ضباط انجليز جنودا بالجيش .

وهكذا كان الفارق الفكرى والثقافى يزداد اتساعا بين الجيش والقوى السياسية أو بين قادة الأحزاب الذين تخرجوا فى الجامعات وحصل البعض منهم على شهادات عالية فى الخارج . . وبين ضباط الجيش الذين كانوا حتى صدور قانون عام ١٩٢٨ القاضى بقصر دخول المدرسة الحربية على خريجي المدارس الثانوية يتخرجون وهم لا يحملون أكثر من الشهادة الابتدائية .

الضباط المتطلعون الى الحياة هم الذين كانوا يواصلون دراستهم لتأكيد شخصيتهم وصقل مواهبهم كما فعل محمد نجيب مثلا عندما درس أثناء خدمته فى الجيش حتى حصل على الشهادة الثانوية وليسانس الحقوق ودبلومين بعد ذلك .

واستمرت حالة الجيش على هذا المنوال . . . بعيدا منذ استرداد السودان عام ١٨٩٩ عن خوض أية معارك حربية ، يتعرض للنقصان وليس للزيادة ، يزداد خضوعه لقوات الاحتلال والسراى ومظهر ذلك تدخل الجيش فى الانتخابات بالأقاليم وخاصة فى الانتخابات التى أجراها اسماعيل صدقى

بعد إلغاء دستور ١٩٢٣، وعمل دستور جديد، ضد إرادة الشعب عام
١٩٣٠

نشرت مجلة روز اليوسف في عددها أول يوليو ١٩٣٠ أن زيارة
النحاس باشا إلى الزقازيق قُرت بسلام، فأحيل قائد قوة الجيش الصاغ
محمد أمين إلى الاستبداد دون تحقيق .

ونشرت أيضا خبر تعيين اللواء عبد العظيم باشا على قائد الحصار
البرلمان وكان قبل ذلك قائدا لقوة المنصورة حيث جرت اضطرابات شديدة
سقط فيها بعض الجرحى، ثم عين لحراسة النادي السعدي وقد صرح بأنه
يكون سعيدا يوم يفرغ رصاص مسدسه في رأس مصطفى النحاس باشا .

وهكذا كانت حالة العسكريين في مصر، عندما عقلت معاهدة ١٩٣٦
... لم يكن الجيش قوة سياسية ولم يكن خاضعا لقيادة وطنية ... وكان
الاستعمار يسعى جاهدا لتغطية دوره الحربي التاريخي، ونضاله مع جماهير
الشعب، تحت ستار من النسيان .

وكانت معاهدة ١٩٣٦ بذلك نقطة تحول في تاريخ مصر الحديث ..
ونقطة تغير في واقع العسكريين المصريين وفي تفكيرهم .

الباب الثانى

● الجيش والحركة السياسية فى مصر قبل الثورة

الفصل الرابع نضال الشعب ٠٠٠ وموقف الجيش ٠٠ بعد
معاهدة ١٩٣٦

(لن نطلق الرصاص على مظاهرات الطلبة
والعمال)

قسم بعض ضباط الجيش اثناء وزارة
اسماعيل صدقى
عام ١٩٤٦

الفصل الخامس حرب فلسطين

(اننى متفائل ونحن نعرف قوة اليهود ،
وانا أحب اطمئنتك الى ان الانجليز هم
الذين شجعونى على ذلك)

محمود فهمى النقراشى لوفاد سراج الدين
فى مجلس الشيوخ يوم ٢٢ مايو ١٩٤٨

الفصل السادس الضباط الاحرار

(الشعب والجيش يقفان اليوم بالمرصاد لكل
حركة ترجع بنا الى الوراء ٠٠٠ ان الشعب
والجيش سيحطمان أى محاولة لضرب
الحركة الوطنية ٠٠٠ لقد أيدنا الحكومة
الوفدية فى خطواتها التى اتخذتها بالغاء
المعاهدة الاستعمارية)

منشور للضباط الاحرار

الفصل الرابع

نضال الشعب وموقف الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦

(لن نطلق الرصاص على مظاهرات الطلبة
والعمال) .

قضى بعض ضباط الجيش
أثناء وزارة اسماعيل صدقي عام ١٩٤٦

الضموء الذى عانى منه الجيش المصرى ، والعزلة عن المجتمع التى
فرضت عليه ، والخضوع المطلق لسلطات الاجتلال والسراى ، تغيرت مع
عقد معاهدة ١٩٣٦ الى حد كبير ، ولم يعد الجيش محدودا بعدد ١٥٠٠٠
جندي فقط .

وقد عقدت معاهدة ١٩٣٦ فى ظروف كان الاجتلال البريطانى يجاىبه
فيها موقفا لم يتعرض له من قبل . . تناقضات الامبريالية العالمية تشتد
وتقترب من حرب عالمية . . . ايطاليا تغزو الحبشة وتنتصر عليها
والامبراطور هيلاسلاسى يهاجر الى انجلترا . . والنازية تصل الى الحكم فى
المانيا . . الحركة الوطنية تشتعل من جديد ضد دستور صدقي . . وتضم
المظاهرات مصر ، ويسقط عدد من الشهداء .

ووصف النحاس باشا هذه المعاهدة بأنها (وثيقة الشرف والاستقلال)
ولكنها لم تكن كذلك . . . فقد كان فى بنودها سلبيات وايجابيات . .

أمنت المعاهدة نوعاً من التحالف المشترك مثل الذي تم بين بريطانيا والعراق عقب انتهاء الانتداب في أكتوبر ١٩٣٢ ، وبينما اعترفت المعاهدة بسيادة مصر على أراضيها وحرية التصرف في الشئون الداخلية إلا أنها نصت على ضرورة التزام مصر بعدم انتهاج سياسة خارجية تتناقض مع التحالف ، كما نصت على وضع مميز للسفير البريطاني يتقدم به سائر الدبلوماسيين الأجانب .

واحتفظت بريطانيا بقواعد بحرية في مصر ، مع حقها في استخدام التسهيلات لقواتها التي تنسحب إلى منطقة قناة السويس بعد ٨ سنوات ، وقد اعترفت بريطانيا بسيادة مصر على القناة ، كما اعترفت مصر بأن القناة وسيلة دولية للمواصلات ، وأنها وسيلة مواصلات حيوية بين الأطراف المختلفة للامبراطورية البريطانية ، وأن من حق بريطانيا أن تبقى قواتها في منطقة القناة إلى الوقت الذي تصبح فيه مصر قادرة عسكرياً على حماية القناة ، كما أن للجيش البريطاني حق العودة في حالة الحرب أو خطر الحرب .

وأعطيت المعاهدة بريطانيا حق المطالبة بفرض الطوارئ وإعلان الأحكام العرفية في حالة قيام الحرب .

وقال منتقبي ايدن أمام مجلس العموم البريطاني يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٣٦ إن السبب الذي دعا الحكومة إنجلترا إلى التنازل عن احتلال القاهرة والاسكندرية والاقتصار على منطقة قناة السويس ، هو أن قوات إنجلترا أصبحت ميكانيكية تستطيع الحركة في سهولة على الطرق المعبدة ، ولذا نصت المعاهدة في ملاحقها على أن تقوم الحكومة المصرية ببناء ثكنات القوات البريطانية في الأماكن التي تحددها ، مع إنشاء شبكة طرق بمواصفات خاصة عرفت باسم (طرق المعاهدة) بين القاهرة والاسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية والسويس وغيرها .

والطريف أن المعاهدة قد أعطت للقوات الجوية المصرية حق الطيران في أجواء بريطانيا ، لأنها أعطت للقوات الجوية البريطانية حق الطيران في الأجواء المصرية كلها .

معاهدة ١٩٣٦ لم تحقق أهداف ثورة ١٩١٩ .

ومع ذلك لم تكن المعاهدة قيوداً كلها . . . كانت هناك إيجابيات حققت جانباً من أهداف الجماهير .

ألغيت الامتيازات والمحاكم المختلطة ، وأصبحت مصر عضواً في عصبة الأمم في مايو ١٩٣٧ . واقترب الاستقلال الشكلي الذي ورد في تصريح فبراير . ليكون أكثر واقعية رغم بقاء نفوذ وسلطة قوات الاحتلال .

وعادت القوات المصرية الى السودان بعد سحبها عام ١٩٢٤ ،
واستقبلتها الجماهير هناك بترحيب كبير .
وحددت المعاهدة مدة عشرين عاما لبقاء القوات البريطانية في مصر .
واقترن ذلك حسب نص المعاهدة بقدرة مصر على حماية القناة .
وكان ذلك خافزا على تطوير الجيش المصرى واثقاذه من جنوده وعزلته
وتشكل مجلس الدفاع الاعلى ، وعين اللواء محمود شكري باشا قائدا
للجيش المصرى بعد سفنكس باشا الذى خرج من قوة الجيش المصرى هو
وجميع الضباط البريطانيين .

وكانت المعاهدة قد نصت أيضا على أن تقوم بريطانيا بتدريب الجيش
المصرى وتزويده بالسلاح . . . وتشكلت البعثة البريطانية من ضباط
بريطانيين انتشروا فى مختلف أسلحة الجيش ، وكان لهم نفوذ كبير فى
التوجيه والتدريب . . بعض هؤلاء الضباط كانوا صنف ضباط فى الجيش
البريطانى وحصلوا على الترقية عند الالتحاق بالجيش المصرى ولم يعينوا
فى رتبة أقل من يوزباشى . . . واتخذت البعثة البريطانية مقرا لها مبنى
فى كوبرى القبة مجاورا للمستشفى العسكرى العام .

وبدأ مجلس الدفاع الاعلى برسم سياسة جديدة لزيادة الجيش . . .
فتحت أبواب المدرسة الحربية التى تحولت الى كلية بعد المعاهدة
لدفعات وصلت الى عدة مئات وخاصة عند اقتراب الحرب العالمية الثانية
بعد أن كانت الدفعة لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين طالبا .

فتح أبواب الكلية الحربية لهذا العدد الكبير نسبيا فى وقت كانت
المدارس الثانوية فيه محدودة ولا توجد الا جامعة القاهرة وحدها ، ضيق
من امكانية تحديد نوعية معينة من المقبولين ، وجعل عناصر جديدة من
الطبقة الوسطى النامية تنسرب الى صفوف الجيش ، رغم وجود لجنة
تكشف على المتقدمين (كشف هيئة) تفرز فيه أصولهم العائلية
والاجتماعية .

ولكن المقبولين عموما كانوا فى حدود القادرين على دفع مصروفات
الكلية التى كانت ستين جنيها فى العام وهو مبلغ كبير اذا قدر بمتوسط
الدخل العام ومرتب خريج الجامعة الذى لم يكن يتجاوز ثمانية جنيهات
فى الشهر عدلت فيما بعد لتصبح ١٢ جنيها . ولكن قدرة الدولة على
استيعاب الخريجين بهذا المرتب كانت محدودة ، الأمر الذى خلق بطالة
بين المتعلمين أو اضطرارهم للعمل بمرتبات أقل . . . وأغرى فى نفس
الوقت عددا كبيرا من حملة الثانوية العامة على الالتحاق بالكلية الحربية
لضمان الوظيفة والمرتب الكبير نسبيا .

واعاد المجلس الاعلى للدفاع خطة لتطوير الجيش وتسليحه عام ١٩٣٨ فى حدود مبلغ ٢٠٠ مليون دولار ، ولكن ذلك لم يتحقق لأن شروط المعاهدة كانت تنص على ضرورة التسليح من بريطانيا فى وقت كانت تحتاج هى فيه لكل قطعة سلاح لما كان يبدو فى الأفق من اخطار حرب عالمية ثانية لم تلبث أن اندلعت عام ١٩٣٩ واستغرقت جهد بريطانيا مما ترك الجيش المصرى دون تسليح يتناسب مع الرغبة فى الوصول به الى مستوى معقول بعد عشرات السنين من الضمور .

ولم تكذ وزارة الوفد التى آتت بها الانتخابات تبدأ تنفيذ سياستها حتى اقيمت فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧ وكان الملك فاروق قد تولى سلطاته الدستورية فى ٢٩ يوليو من ذلك العام وهو فى الثامنة عشرة من عمره . وهكذا أعصف الملك بإرادة الشعب وبروح الدستور وعين محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين رئيسا للوزراء وتولت الحكم وزارات أحزاب الأقلية ، وكان قد انضم إليها حزب جديد هو الحزب السبعينى الذى انشق على الوفد وتشكل برئاسة أحمد ماهر باشا . ومعه محمود فهمى النقراشى باشا ، ولعب دورا كبيرا فى خدمة الرأسماليين المصريين ، فأصبح أحمد ماهر رئيسا لمصانع نسيج القاهرة بعد أن كان من تقاليد أعضاء الوفد عدم تولى مناصب الإدارة فى الشركات .

ولم ينجب الجيش دورا سافرا فى تزييف ارادة الشعب أثناء الانتخابات التى أعقبت اقالة الحكومة الوفدية ، لأن الوفد رغم كل شيء كان يمثل القوة السياسية الشعبية القادرة على نيل أغلبية الأصوات ومقاعد البرلمان فى انتخابات ديمقراطية حرة .

وزعت وحدات الجيش على الأقاليم ووضعت تحت تصرف رجال الإدارة يستعينون بها وقت الحاجة كما حدث فى سمندوط مثلا وهى بلد مصطفى النحاس باشا التى رشخ نفسه فيها ، عندما فتحوا الكوبرى لتعطيل المرور وانتقال الناخبين .

يروى اللواء صلاح الحديدي قائد المخابرات الحربية فيما بعد ان العمدة دعا الضباط من رتبة البكباشى فما فوق الى مأدبة عشاء ليلة الانتخابات تأييدا للمرشح المضاد للنحاس وكان اسمه على النزلاوى . . . وفى الصباح عندما ظهر التدخل سافرا أبلغ المرشحون النيابة التى قامت باستجواب الضباط . . . ولم يتردد صغار الضباط فى القول بأنه حدث تدخل فعلا لمصلحة المرشحين المعادين للوفد . . . ولكن التحقيق لم ينته مع ذلك الى قرار .

وخرج الوفد من الحكم بعد ان أدى الدور الذى رسمه الاحتلال له فى

تكوين جبهه وطنية تقرر معاهدة تتيح حدا أدنى من الاستقرار في ظروف اقتراب خطر حرب عالمية ٠٠٠ وأثبت ذلك أن معاهدة ١٩٣٦ لم تحقق المضمون الحقيقي للاستقلال الوطنى ، ولم ترسخ القواعد الديمقراطية في المجتمع .

وكان إبعاد الوفد عن الحكم ٠٠٠ إبعادا له عن النفوذ الى الجيش أيضا ٠٠٠ حيث كان الدخول الى الكلية الحربية يتم خلال لجنة تشكل من بعض كبار القادة الخاضعين خضوعا كاملا لنفوذ السراى مما لم يتيح للوفد فرصة تسريب عناصر كثيرة من أبناء أنصاره الموالين له في العاصمة والاقاليم الى صفوف الجيش ، علاوة على بث روح من الجفاء بين الجيش والوفد باعتباره تنظيما يضم جماهير الشارع التي تتنافر في حركتها مع النظام والانضباط الذى يسود الجيش ، والذي كان كبار الضباط الذين دخلوا الجيش من ثقب الاحتلال يتشبهون به باعتباره المظهر الوحيد لقدرتهم وسلطاتهم .

وكان الركود الذى أصاب الجيش خلال السنوات الماضية قد انعكس عليه ، عزله عن الجماهير وعن الحركة الوطنية ٠٠٠ وخاصة في مناصب القيادة العليا ، بينما كان صفار الضباط المتخرجين فى الكلية الحربية ، والمتدربين اليها فى دفعات متتالية بلغت ثلاث دفعات فى كل من أعوام ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ يحمل البعض منهم الى الكلية أفكار الطلبة الذين تظاهر معهم من أجل عودة دستور ١٩٢٣ ، وسقوط الاستعمار .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ بادر على ماهر الذى كان قد تولى الوزارة بعد اقالة محمد محمود باشا فى شهر أغسطس الى اعلان الأحكام العرفية تنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦ ، والتي قضت بتوقيص عقوبات شديدة لا على كل من يرتكب الجرائم الضارة بأمن الدولة فقط ، وانما على كل من يرتكب أضرارا ببلد حليف أو شريك لمصر فى العمل ضد عدو مشترك ٠٠٠ وكان الغرض هو حماية انجلترا حماية كاملة .

والغريب أن على ماهر الذى تولى الوزارة بعد رئاسته للديوان الملكى لم يكن له حزب ولا عضو واحد فى البرلمان .

كان العيب بالدستور واقالة حكومة الوفد فاتحة لمزيد من العيب ومزيد من الاقالات ٠٠٠ حتى على ماهر نفسه لم ينج منها عندما تلكأت وزارته فى موقفها ازاء رعايا ايطاليا التى أعلنت الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ فاجبر على الاستقالة فى ٢٨ يونيو وخلفه حسن باشا صبرى على رأس وزارة من الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى الذى اشترك فى الحكم لأول مرة لأنه كان يرفض دائما الاشتراك فى الحكم قبل اتمام الجلاء .

الجيش والحرب العالمية الثانية

لم تعلن مصر الحرب على المحور ، ولم يدخل الجيش المصرى فى اطار جيوش الحلفاء ، ولم تستعن به بريطانيا فى عمليات حربية خارج حدود مصر ، كما استعانت بجيوش الهند والسودان وليبيا وغيرها من الدول الافريقية .

بلغ عدد الجنود السودانيين فى صفوف الحلفاء ما يقارب سبعين ألف جندى ، اشترك منهم حوالى ستين ألفا فى معارك ليبيا والصحراء الغربية . . .

ومع ذلك كان الجيش المصرى رغم تواضعه عددا وعدة محل اهتمام القوات البريطانية التى حاولت فى البداية ان تحتويه وتستعين به فى عملياتها الحربية ، ثم تراجعت عن ذلك لما لمست من خطورة تحريك الجيش فى ظروف لا يحتمل فيها الشعب أى ارتياح لقوات الاحتلال .

ورفض عزيز المصرى رئيس أركان حرب الجيش فى ذلك الوقت اشتراك المقاتلات المصرية فى خطة الدفاع البريطانية بدعوى أن مصر لم تعلن الحرب على ألمانيا ، كما رفض تحريك قوات مصرية الى سيوة ضمن خطة الدفاع عن الصحراء الغربية .

وكان الجنرال سير هنرى ميتلاند ويلسون قد عثر أثناء فحص الأوراق الايطالية التى وجدها فى مقر رئاسة القوات على الخطة الدفاعية البريطانية عن الصحراء الغربية وهى الخطة التى كان قد أرسلها الى عزيز المصرى منذ شهور .

وطلب الانجليز اخراج عزيز المصرى وأذعن على ماهر لهم فمنحه أجازة لأجل غير مسمى .

ويقول قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد ان الطيارين المصريين قد اشتركوا بعد ذلك فى خطة الدفاع عن القاهرة مع أسراب الطائرات البريطانية ، من مطار حلوان ، وخاصة بعد ان دمرت الغارات الألمانية ٢٠ مقاتلة بريطانية . . . ولكن ذلك لم يستمر سوى شهور معدودة تغيرت بعدها الظروف ، وانعدمت ثقة البريطانيين فى امكانية التعاون مع الجيش المصرى .

وكان خروج عزيز المصرى من الجيش بداية لاتصالات سرية قام بها مع عدد من الضباط الذين وجدوا فى الاتصال بالألمان فرصة لتحرير مصر من القوات البريطانية دون تقدير سليم لابعاد الفكر النازى القائم اساسا على التعصب والتفرقة العنصرية .

وقد بدأت محاولات الاتصال بالألمان في مجال سلاح الطيران حيث
امكانية الحركة متوافرة ٠٠٠ وكانت قد تكونت عام ١٩٣٩ مجموعة من
قادة الاسراب والطيارين عبد اللطيف البغدادي وحسن ابراهيم وحسين
ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف ووجيه اباطة واحمد سعودى
وحسن عزت وانضم لهم فيما بعد ضابط الاشارة أنور السادات .

وكان محور تفكير هذه الجماعة هو ضرورة خلق دور للشعب المضرى
في المعركة الدائرة على أرضه بين الحلفاء من جهة والقوات الفاشية والنازية
من جهة أخرى .

وكانت هذه المجموعة منبهة بالنعاية والنظم النازية ، تتطلع الى
الانتصارات الأولى لألمانيا وترى خلالها النتيجة الوحيدة المحتملة للحرب
العالمية الثانية .

وعندما تقدم رومل في هجومه السريع نحو الاسكندرية قررت هذه
المجموعة ارسال قائد السرب أحمد سعودى مندوباً عنهم الى رومل لشرح
وجهة نظرهم في التعاون ضد بريطانيا ٠٠٠ وأعدوا له حقيبة من المستندات
بها مفجر يفجرها عند الخطر ٠٠٠ وكلف حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة
الثورة فيما بعد بحمل الحقيبة الى سعودى حتى الطائرة بعد اختفائه في
أحد الخنادق ، كما كلف وجيله اباطة باعداد خط سير الرحلة .

لم يصل أحمد سعودى الى الألمان ، سقطت طائرته واذاعت الاذاعة
الألمانية خبر اسقاط طائرة قتال بريطانية اقتربت من مرسى مطروح ٠٠٠
وحوكم حسن ابراهيم باعتباره ضابطاً مناوياً وتأخرت أقدميته ليصبح آخر
دفعته ونقل الى المهمات .

ولم تتوقف محاولة الاتصال بالألمان بعد اختفاء طائرة سعودى ٠٠٠
سلك نفس السبيل الصول الطيار محمد رضوان الذى كان وجيله اباطة قد
استعان به في وضع الخطة . ووصل رضوان فعلاً الى القوات الألمانية حيث
تعاون معها تعاوناً كاملاً الى ان اعتقل في برلين عندما دخل الحلفاء
وحوكم بمجلس عسكري بعد انتهاء الحرب وحكم عليه بالسجن ١٥ عاماً ،
٨٠٠٠ جنيه غرامة حتى أفرج عنه بعد الثورة ، وعمل بعد ذلك في ادارة
الشئون العامة للقوات المسلحة .

ولم تكن هذه هي المحاولات الوحيدة للاتصال بالألمان ٠٠٠ عزيز
المصرى أيضاً قام بهذه المحاولة عقب اشتعال ثورة رشيد عالي الكيلانى
في العراق ، وكان عزيز المصرى على اتصال بالألمان ، الذين أعدوا معه خطة
للهرب بهبوط طائرة ألمانية في منطقة (جبل رزه) على طريق الواحات
البحرية .

وكان مفروضاً أن يقود قائد الجناح عبد المنعم عبد الرؤوف سيارة عزيز المصرى الى المنطقة المحددة ليستقل الطائرة ولكن الحظ لعب دوره وتمطلت السيارة قرب منطقة الاهرام . . . وفشلت خطة الهرب .

ولكن عزيز المصرى لم يقنع بذلك . . . أصر على الهرب مرة أخرى بطائرة مصرية كان يقودها له حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف .

ولكن الطائرة لم تحقق هدفها لأن الميكانيكى أخطأ فقفل مفتاح الزيت بدلاً من فتحه . . ولم تكد تحلق الطائرة حتى هبطت فى قليب فى احدى الحدائق . . . ولجأ عزيز المصرى الى مأمور المركز الذى كان تلميذا له فى كلية البوليس فأعطاه عربته دون أن يعرف سر رحلته الفاشلة ، أوصلته الى ميدان الأوبرا ثم لجأوا الى مدرس فى امبابه كان عضواً بجماعة مصر الفتاة .

وكان هذا المدرس مراقباً من البوليس بحثاً عن أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة الذى كان هارباً وقتها فى طنطا كدرويش من دراويش السيد البدوى . . . واعتقل عزيز المصرى وحسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف لمدة تزيد عن عام ونصف الى أن أفرجت عنهم وزارة الوفد فى مارس ١٩٤٢ واعادتهم للجيش مع نقل حسين ذو الفقار الى السودان وعبد المنعم عبد الرؤوف الى المهمات ، حيث لم يعد بعدها للطيران أبداً . . وكان قد نقل مع اعتقالهم ٢٣ ضابطاً من الطيران الى أسلحة الجيش المختلفة .

وانتهى عمل مجموعة الطيران مع فشل رحلة عزيز المصرى وانتهت صلاتهم التى لم تكن تنظيمية بالمعنى المعروف للتنظيم ، وانما كانت تضمهم رابطة صداقة ووحدة هدف وطنى .

وكان هناك اتصال آخر بالألمان وضباط الجيش المصرى عن طريق أنور السادات وحسن عزت اللذين قدم لهما عبد الغنى سعيد اثنين من رجال المخابرات الألمانية هما (هانز ابلى) الذى تزوجت والدته الألمانية من مستشار مصرى (صالح جعفر) فى ألمانيا ، ثم حضرت الى مصر ومعها ابنتها الألمانية الصغير ، وأراد الزوج المصرى أن يوفر لابن زوجته حياة مطمئنة فأعطاه لقب أسرته وعرف باسم (حسين جعفر) ، ولكنه انصرف عن حياة المجتمع المصرى وهاجر الى وطنه ألمانيا ليعود بعد ذلك عميلاً لمخابراتها هو وزميل آخر اسمه (ساندى) .

وقد انتهى اتصال أنور السادات وحسن عزت بهما الى اعتقال الجميع فى أغسطس ١٩٤٢ بعد افتضاح أمر الجواسيس الألمان الذين أقاموا فى عوامة مع الراقصة حكمت فهمى .

وجرت محاولة لمحاكمة أنور السادات وحسن عزت أمام مجلس عسكري يضم بعض الضباط الانجليز بتهمة التجسس ، ولكن محمد نجيب مساعد نائب أحكام الجيش في ذلك الوقت اعترض على تكييف التهمة ، وانتهى الأمر بطردهم من الجيش في ٨ أكتوبر ١٩٤٢ ثم اعتقالهم حتى نهاية الحرب .

وكان الضباط المصريون قد أخذوا موقف المقاومة عندما ظهرت بوادر تنفيذ الخطة البريطانية لنزع سلاح الجيش المصري اذا حاول مقاومة البريطانيين ٠٠٠ وقد ظهر ذلك في محاولة سحب الدبابات المصرية بدعوى شرائها بعد معركة (دنكرك) ورفض ضباط الوحدات المصرية تسليم أسلحتها كما حدث في حامية منقباد ، وفي الصحراء الغربية حيث رفضت الوحدات المصرية تسليم أسلحتها للقوات البريطانية التي ستحتل مواقعها وعادوا بها الى القاهرة كاملة .

وكانت الصحراء الغربية في ذلك الوقت هي المنفى الذي ينقل اليه الضباط الذين تظهر عليهم أية ميول سياسية ٠٠٠ نقل اليها أنور السادات بعد الاشتباه في تحركاته ، وتشكلت هناك مجموعة كان فيها مجدى حسنين أحد الضباط الأحرار ومؤسس مديرية التحرير فيما بعد ، وكان هدف هذه المجموعة تدمير مهمات ومعدات الجيش الانجليزى ٠٠٠ وقاموا في سبيل ذلك بالاتصال مع ضباط الفرقة الرابعة الهندية لاثارتهم ضد القوات البريطانية ، وقد حوكم أربعة من الهنود فعلا في (فوكة) ونفذ فيهم حكم الإعدام لأنهم رفضوا الخروج للحرب .

ومن مصادفات هذه الفترة أن قافلة عسكرية مصرية من ٦٨ عربية كانت متجهة الى سيوه تحمل تموينا لها وللتأكد مما اذا كانت محرة أو سقطت في يد القوات النازية ٠٠ وعند العودة عثر مجدى حسنين قائد هذه القافلة على ٦ عربات مهجورة للفرنسيين الأحرار وكان بها ٦ صناديق قنابل يدوية (٧٢ قنبلة) حملها الى الطيار حسن عزت . وكانت هذه هي القنابل التي استخدمت في الأعمال الارهابية بالقاهرة فيما بعد انتهاء الحرب العالمية .

زاد الشعور المناهض لبريطانيا مع استمرار الحرب ، وفشلت أحزاب الأقلية في قيادة الدولة ، حتى بلغت أزمة التمويل حدا أشباع القلق والسخط ، وأطلق المظاهرات في شوارع القاهرة ، وأجبر بريطانيا على الاقتناع بضرورة رفع الحظر الذي فرضته على السراى ضد حكم الوفد .

كان الاستعمار البريطانى على حذر شديد من قيام ثورة شعبية في مصر ضد صفوفه الخلفية ، ولذا فانه عندما ظهر في الأفق خطر الهجوم النازى رأوا أن يعيدوا الوفد الى الحكم ضمانا لسيطرته على الشعب في

هذه المرحلة الحاسمة ، وخاصة بعد أن كان الملك وبعض المحيطين به على استعداد كامل للتعاون مع الغزاة الفاشيين والنازيين .

ولما تلقى الملك فاروق فى الاستجابة لارادة الحكومة البريطانية لاستمراره الحكم فى ظل حكومات ضعيفة تابعة ، ولأمله فى ان يتغير مسار الحرب لصالح المحور ، قدم السفير البريطانى انذارا للملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد ان كانت وزارة حسين سرى قد استقالت يوم ٢ فبراير وحاول رئيس الديوان أحمد حسنين المراوغة لتشكيل وزارة قومية رغم مقابلة السفير له يوم ٣ فبراير ، وطلبه أن يعهد الى النحاس بتشكيل الوزارة ، وهو تدخل كان يعتبر حتى هذه اللحظة طبيعيا فى مجال السياسة المصرية . . . ولكن مراوغة الملك استمرت حتى يوم ٤ فبراير فقدم السفير انذارا هذا نصه (اذا لم اعلم قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان الملك فاروق يجب ان يتحمل تبعات ما يحدث) . . . ولما لم تتم استجابة فورية لذلك حاصرت الدبابات قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء ، ودخل السفير وقائد القوات البريطانية وأمامهم ثمانية ضباط يحملون المسدسات ، ودخل السفير على الملك فى مكتبه وكان بجواره أحمد حسنين فخيره بين التنازل أو تشكيل وزارة وفدية فقبل الحل الثانى فورا (٢٩) .

أدت مظاهرة السفير العسكرية ، ودعايات أحزاب الأقلية الى الاساءة للوفد ، وأصبح ٤ فبراير مطعنا يطعنه منه كل معاد له أو كل من لم يكتشف حقيقة دور السراى المتعاونة مع السلطة الأجنبية فى الجذور ، أو الذين جرفتهم الوطنية الى قبول الأفكار الفاشية دون بحث أو تمحيص .

ولذا ترك حادث ٤ فبراير فى الجيش تأثيرات بعيدة المدى . . . قدم اللواء محمد نجيب استقالته ، ولكن الياور عبد الله النجوى السودانى الأصل أقنعه بسحبها ، واجتمع ضباط سلاح الطيران وقرروا تسجيل أسمائهم فى سجل التشريفات ، وذهب عبد اللطيف البغدادى وعبد الحميد الدغيدى الى أحمد حسنين رئيس الديوان ليحصلوا منه على تقييم لموقف مصطفى النحاس (حتى اذا كان خائنا يقتل) على حد تعبيرهم ، ولكن أحمد حسنين أبلغهم انه سيرفع الأمر الى مولاه ليتصرف بحكمته ، وأوقف مجدى حسنين حفلا فى نادى الضباط بالاسكندرية أقيم بمناسبة عيد ميلاد الملك فاروق فى ١١ فبراير أى بعد الحادث بأسبوع وكانت تشترك فيه الراقصة ببا عز الدين والمطرب جلال حرب ، وقام البكباشى محمد كامل الرحمانى بحركة نشطة فى الجيش تأييدا للملك وانتهت بتشكيل مجموعة متعاطفة معه كنت واحدا من أعضائها هدفها منع البريطانيين عند انسحابهم

أمام الألمان من تدمير المنشآت المصرية مثل الكبارى والجسور وانتهى به الأمر الى اعتقاله هو والقائم مقام فؤاد صادق الذى أصبح قائدا للقوات المصرية المقاتلة فى حرب فلسطين بعد ذلك .

لم تكن هذه هى حوادث الاعتراض والاحتجاج الوحيدة ، فقد كان معظم ضباط الجيش قد تأثروا بهذا الحادث من الوجهة الوطنية وأثر ذلك على اتجاهاتهم السياسية وأبعدهم عن الوفد وقد تأثرت حقيقة عندما قال لى كمال الدين حسين عضو مجلس الشورى فيما بعد قراءته لمذكرات كليرن ووثائق الخارجية البريطانية من اكتشافته ان النحاس كان بريئا فى ٤ فبراير

البراءة بعد ٣٠ عاما تصبح كلمة فى التاريخ ولكن ادراك حقيقتها فى حينها كان كفيلا بتغيير كثير من الأمور .

وانتهز الملك هذه الفرصة ، فأكثر من زيارته لنادى الضباط بالزمالك وكانت هذه الفترة هى بداية ظهور حركات سرية بين ضباط الجيش بعد ركود طويل أعقب حادث السودان عام ١٩٢٤ وسحب الجيش المصرى من السودان .

وقد بلغت الاثارة بين الضباط حدا جعل ضابطا فى مصلحة خفر السواحل اسمه شبانة يلقى حذاه على رئيس الوزراء مصطفى النحاس عند خروجه من مسجد الرفاعى بعد الصلاة فيصيب عربة عبد الحميد عبد الحق أحد الوزراء الوفديين ، وتطوع عدد من الضباط للشهادة معه رغم عدم وجودهم فى مكان الحادث كان منهم اليوزباشى عز الدين ذو الفقار المخرج السينمائى فيما بعد والملازم مجدى حسنين .

وحتى هذه اللحظة كان المحرك الرئيسى لاتجاهات الضباط هو الأمل فى انتصار الألمان وهزيمة البريطانيين ولذا كانت هزيمة رومل فى معركة العلمين أمام الفيلد مارشال مونتجومرى نقطة تحول هامة فى تفكير الضباط الذين استبدت ببعضهم الحيرة وهو يرقب الهزائم المتتالية تلحق بالجيوش النازية التى صورتها الدعاية فى صورة القوات التى لا تقهر .

ولم يكن الضباط يتحركون وحدهم فى عزلة أو فى فراغ كانت لهم صلات بالقوى السياسية خارج الجيش .

ومع ذلك لم تحل ارهاصات العمل السياسى والوطنى داخل الجيش المصرى بينه وبين تنفيذ واجبات محددة ضمن خطة الدفاع البريطانية كان أبرزها ولا شك دور المدفعية المضادة للطائرات والأنوار الكاشفة فى القاهرة والاسكندرية ومنطقة القنال ، رغم أن دخول سيناء كان محظورا الا بتصريح حتى لضباط الجيش ، وكانت السلطة فيها لقوات الاحتلال والمعاقل البريطانى .

قال تشرشل (ان مصر قامت بدور مشرف مهم له قيمته لا فى دفاعها عن نفسها فحسب ولكن فى الصراع العالمى) وقال الجنرال أوكنلك قائد القوات البريطانية « ان المساعدة التى قدمها لنا الجيش المصرى عظيمة فقد حرس المرافق الداخلية ، وتولى أعمال المراقبة ، والأنوار الكاشفة والبطاريات المضادة للطائرات وخفف بذلك الضغط على قواتنا الى حد كبير » .

وعندما انفرجت أزمة العلمين سمحت القوات البريطانية لعدد من الضباط المصريين بالحصول على فرق تدريبية فى مدارس الجيش البريطانى بالشرق الأوسط بفلسطين مثل مدرسة المدفعية المضادة للطائرات فى حيفا ومدرسة مدفعية السواحل فى عكا ومدرسة المشاة فى صرند وغيرهما .

وفى هذه المرحلة كانت حكومة الوفد تواصل مسارها ، بعد ان انجذب مكرم عبيد سكرتير الوفد الى السراى ونشر فى الأهرام مقالا يقول فيه عقب مقابلته للملك يوم ١٣ مارس ١٩٤٢ « لم البث طويلا حتى أدركت ان ملكنا الشاب قد ملك زمام الأمور بفضل ما أوتى من رجولة مبكرة وخبرة متنوعة نادرة قلما أتاحت للملك من الملوك فكان يتنقل من موضوع الى آخر ومن نصيح الى نصيح فى عطف ووداعة وصراحة أخاذة ونفاذة » وشكل حزب (الكتلة الوفدية) التى أصبحت حزبا من أحزاب الأقلية المنفرطة أساسا من مسيحة الوفد ، وتعرض الوفد خلال هذه الفترة الى حملات شديدة ضد سياسة المحسوبية والاستثناءات التى انتهجها لخدمة أنصاره بعد أن أقصى عن الحكم أكثر من خمس سنوات .

ولكن الوزارة الوفدية استطاعت خلال حكمها أن تقدم انجازات ذات تأثير اجتماعى هام مثل اصدار قانون مجانية التعليم الابتدائى ، وانشاء جامعة الاسكندرية ، وديوان المحاسبة ، واستخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات ودفاترها ، وصدار قانون استقلال القضاء ، وخفض الضريبة المربوطة على صغار المزارعين ، ووضع مشروع المجموعات الصحية ، وصدار قانون عقد العمل الفردى ونقابات العمال .

وبعدما أدت وزارة الوفد دورها فى تهدئة الجماهير تخطى الاستعمار عنها وأسرع الملك يصدر قرارا باقالتها يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، بعد ان وقعت بروتوكول الاسكندرية الخاص بانشاء جامعة الدول العربية فى اليوم السابق مباشرة . . . وكانما انتظر منها ان تختتم دورها بتكوين الجامعة التى بارك انطونى ايدن انشاءها .

وكان خطاب الاقالة مهينا مثل خطاب الاقالة السابق اذ قال فيه الملك وهو يقيل وزارة الأغلبية الشعبية انه يقيل الوزارة بدافع الحرص على

إن تحكم البلاد « وزارة ديموقراطية تعمل للوطن » وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا » وهكذا انتصرت حاشية السراى على ارادة الأغلبية الشعبية .

ملك الثورى فى مصر

وأعقب اقالة الوزارة الوفدية عودة أحزاب الأقلية الى الحكم ومعها الحزب الجديد (الكتلة الوفدية) فى وزارة برئاسة أحمد ماهر رئيس حزب السعديين الذى حل البرلمان لاجراء انتخابات جديدة لم يشترك فيها الوفد ، واجتمع البرلمان الجديد فى ١٨ يناير ١٩٤٥ ولكن لم تمض الا أيام حتى اغتيل أحمد ماهر يوم ٢٤ فبراير اعتراضا على اعلانه اشتراك مصر فى الحرب اغتاله المحامى محمود العيسوى الذى كان يعمل محاميا فى مكتب الكاتب المؤرخ عضو الحزب الوطنى عبد الرحمن الرافعى .

وتألفت بعد ذلك وزارة محمود فهمى النقراشى .

كان انتهاء الحرب وانهاء الرقابة على الصحف فى ٩ يونيو ، والغاء الأحكام العرفية فى ١٤ أكتوبر بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال الوطنى ضد الاستعمار .

وتحت ضغط الشعور الشعبى العام الذى الهبته الصحافة الوفدية وخاصة بعد المذكرة التى أرسلها مصطفى النحاس الى السفير البريطانى يطالب فيها بالجلاء الكامل عن مصر ووحدة مصر والسودان ، أرسل محمود فهمى النقراشى مذكرة الى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ يطالب فيها بسحب القوات البريطانية وقت السلم ، مشيرا الى ان علاقات مصر وبريطانيا ستكون مستمرة على أساس من التحالف .

ومع ذلك جاء رد الحكومة البريطانية بعد شهر كامل ، ليقول ان المبادئ الأساسية التى قامت عليها معاهدة ١٩٣٦ سليمة فى جوهرها « وان سياسة حكومة جلالة الملك هى ان تدعم بروح من الصراحة والود التعاون الوثيق الذى حققته مصر ومجموعة الأمم البريطانية والامبراطورية فى اثناء الحرب » .

وكان لهذا الرد الذى ربط بين مصر ومجموعة الأمم البريطانية لأول مرة رد فعل شعبى مضاد ، تحركت معه جماهير الطلبة ، فأصدرت اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، واتحاد خريجي الجامعة بيانات احتجاج ... وتقرر عقد مؤتمرات عامة فى المعاهد والجامعة لمناقشة الحالة .

وعقد مؤتمر فى الجامعة يوم السبت ٩ فبراير ١٩٤٦ ضم بضعة آلاف تحركوا بعده فى مظاهرة كبيرة نحو قصر عابدين تحت شعار (لا مفاوضة الا بعد الجلاء) .

وعندما وصلت المظاهرة في طريقها الى كوبرى عباس وجدته مفتوحا . فآصر الطلبة على عبوره وحاصره البوليس وانهاال عليهم ضربا فى قسوة شديدة ، ثم أطلقت بعض طلقات الرصاص مما دفع بعدد من الطلبة الى القاء أنفسهم فى النيل ، وعرفت هذه الحادثة يومئذ باسم (مذبحة كوبرى عباس) ، التي قدر عدد المصابين فيها بستين طالبا واعتقل ١٥٠ متظاهرا . وعمت المظاهرات انحاء مصر احتجاجا على المذبحة وامتلات الصحف بببائات الاحتجاج وصادرت الحكومة بعض الصحف التي نشرت صور المظاهرات يوم ١١ فبراير (عيد ميلاد الملك فاروق) وحطم الطلبة ترتيبات الحكومة التي اقامتها احتفالا بالعيد وداسوا صور الملك بالاقدام واشعلوا فيها النار وهاثفوا ضد الاستعمار والسراى ، وخرجت فى اليوم التالى ١٢ فبراير جنازة صامته واقام طلبة الازهر صلاة الغائب .

ولم تجد الوزارة امامها بعد عجزها الفاضح عن مجابهة الانجليز بعد حديث متكرر عن (الصمت) و (الوقت المناسب) ، وبعد قسوتها فى مجابهة مظاهرات الطلبة ، وامام تصاعد المقاومة الشعبية حيث لم تعد المظاهرات قاصرة على الطلبة بل امتدت الى طوائف الشعب الأخرى - لم تجد الوزارة الا أن تقدم استقالتها يوم ١٥ فبراير ، ليتولى الوزارة بعد ذاك اسماعيل صدقى رئيس حزب الشعب السابق الرجل الذي كان قد شكل دستور ١٩٣٠ وعضو مجلس إدارة شركة قناة السويس ، ورئيس اتحاد الصناعات

وقد مهد اسماعيل صدقى لوفارته بحديث كان قبل نشره فى الأهرام يوم ٧ فبراير يدعو فيه الى المفاوضات بدلا من المباحثات التمهيدية مع السفير البريطانى وهى الخطة التى كانت وزارة النقراشى قد انتهجتها ، وهو فى مقاله يعتبر بريطانيا صديقا وحليفا ويعلن ان الرغبة فى التحالف معهم لا تحتاج الى تدليل .

وسهل الانجليز ايضا مهمة اسماعيل صدقى بسحب لورد كيلرن السفير البريطانى الذى يرتبط اسمه بحادث ٤ فبراير وعينوا بدلا منه سير رونالد كامبل . . .

وقد بدأ صدقى وزارته بأسلوب ناعم . . . أقنع السجديين الأحرار بخطر عودة الوفد فضمن تأييد البرلمان له . . وصرح بفيام المظاهرات لايام محدودة . . وصرح للطلبة باستعداده ورغبته فى التعاون مع مصطفى النحاس ، ولكن النحاس باشا صرح بأنه لا يقبل أى نوع من أنواع التعاون الا على أساس انتخابات برلمانية جديدة وهو الأمر الذى يعنى انتهاء التحالف القائم بين أحزاب الأقلية التى ارتضت الاشتراك فى الوزارة على حزب الكتلة الوفدية .

ولم يتوقف المظاهرات الشعبية لوعيها بطبيعة وتاريخ اسماعيل صدقي ، وتشككها وحذرهما من تصريحاته عن التحالف مع بريطانيا ، وأصدرت لجنة الطلبة التنفيذية بيانا قالت فيه ان الأسباب التي دعت الى الجهاد ما زالت قائمة ٠٠٠ وفي ١٨ فبراير تجمع بميدان عابدين نحو ٤٠ ألف متظاهر ، كما تجمع نحو ١٥ ألفا بفناء الجمعة بالجيزة .

وخلال هذه الأيام العائرة بالنضال التقى مندوبو الطلبة والعمال وانبثقت (اللجنة الوطنية للعمال والطلبة) لتؤدي دورا تاريخيا بداته باعلانها ان نقابات العمال وطلبة الجامعات والأزهر والمعاهد العليا والمدارس الخصوصية والثانوية قررت ان يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم الجلاء ويوم الاضراب العام لجميع هيئات الشعب وطوائفه ، ونادت أيضا بتعطيل المرافق العامة ووسائل النقل والمحلات العامة والتجارية .

ووصلت المظاهرات قمة النجاح وتعطلت الحياة العامة في القاهرة ، وعقد مؤتمر شعبي في ميدان الأوبرا قرر مقاطعة المفاوضات والغاء معاهدة ١٩٣٦ والغاء اتفاقية ١٨٩٩ وعرض القضية على مجلس الأمن ، ثم تحركت المظاهرات الى ميدان قصر النيل (التحرير بعد ذلك) حيث ظهرت عربات بريطانية مسلحة اخترقت الجموع وذهبنهم فلقى المتظاهرون الحجارة على الشكناث ، فردت القوات البريطانية بإطلاق الرصاص من خلف الأسوار ٠٠٠ وتساقط عدد من الشهداء قتلوا بعشرين شهيدا وثارت ثائرة الجماهير فانقضوا على بعض المحلات الأجنبية ومعسكر للجند الإفريقيين خلف المحكمة المختلطة ونادى الطيران البريطانى واعتدوا عليهم واستمرت المظاهرات تطوف شوارع القاهرة وتلوح بالناديل المخضبة بدماء القتلى أمام قصر عابدين حتى منتصف الليل .

ولم تقتصر المظاهرات على القاهرة وحدها ٠٠٠ انتشرت في مختلف المدن ، ولم تنفع بيانات صدقي في التفرقة بين الطلبة والعمال ، وتقرر يوم ٤ مارس يوما للحداد العام على أرواح الشهداء ، فأضربت الصحف عن الصدور ، وأغلقت المصانع والمدارس ، وفي الاسكندرية تحركت مظاهرة شعبية ضخمة من محرم بك الى محطة الرمل ، وحاول بعض المتظاهرين انزال علم بريطانى يرتفع على فندق يقيم فيه بعض رجال البحرية البريطانية فأطلق عليهم جنود البوليس الحربي البريطانى الرصاص من كشك في ميدان محطة الرمل ٠٠٠ وحدث صدام انتهى الى قتل ٢٨ متظاهرا ، ٢ من الجنود البريطانيين وجرح ٣٤٢ .

وكانت الحكومة البريطانية رغم تأييدها لاسماعيل صدقي قد أخذت عليه تهاونه في قمع المظاهرات الأمر الذى يمهّد لقيام ثورة شعبية تهدد قوات الاحتلال ، فأرسلت بيان احتجاج للملك مباشرة ، وقبل صدقي

الاحتجاج دون ان يعلن ذلك ، ولكن وزير الدومنيون البريطاني أعلن الخبر في مجلس اللوردات وطيرته وكالة رويتر للصحف المصرية مما أوقع صدقي في دائرة الحرج ، وكشف تماما عن دوره المخادع عندما أصدر قرارا بمنع المظاهرات .

وسرعان ما ألف في ٧ مارس ١٩٤٦ وفدا رسميا للمفاوضة مع الانجليز يضم الى جانبه محمد شريف صبرى وعلى ماهر ومحمد حسين هيكل وعبد الفتاح يحيى وحسين سرى ومحمود فهمى النقراشى وأحمد لطفى السيد وعلى الشمسى ومكرم عبيد وحافظ عفيفى وإبراهيم عبد الهادى ، وهى مجموعة من الأسماء المعروفة فى السياسة المصرية ، يؤمن معظمهم بأن التحالف مع بريطانيا أمر تقتضيه الضرورة والمصلحة . . . أما الوفد فقد أبى الاشتراك فى هذه الهيئة مادام لا يملك رئاستها أو الأغلبية فيها .

وكان رفض الوفد للاشتراك فى وفد المفاوضات دافعا الى تساؤلات ظهرت فى الصحافة البريطانية تشكك فى سلامة تمثيل هيئة المفاوضات للواقع المصرى . . . وأدى هذا الموقف الى تدهور سريع فى علاقات صدقي مع الوفد تمثل فى مصادرة الحكومة لصحف الوفد ومحاصرة الجنود لدورها ، وأوضح ذلك صبرى أبو علم زعيم المعارضة الوفدية بمجلس الشيوخ فى ٩ مارس ، وأصدر صدقي بيانا فى ٢ ابريل هدد فيه الوفد بعنف واتهمه بأنه يضع العراقيل أمام المفاوضات ، ويدفع الطلبة والعمال الى الاضراب والتظاهر .

وعندما اطمانت الحكومة البريطانية الى موقفه المتشدد شكلت حكومة العمال البريطانية وفدا للمفاوضة برئاسة بيفن وزير الخارجية ولورد ستاتسجيت وزير الطيران ، وأصدرت فى ٧ مايو بيانا حددت فيه سياستها على أساس سحب كافة قواتها من مصر على أسس ثلاثة هى :

أولا : توطيد التحالف مع مصر على أساس المساواة بين امتين تجمع بينهما مصالح مشتركة .

ثانيا : أن يتقرر بالمفاوضات تحديد مراحل الجلاء والمواعيد التى يتم فيها .

ثالثا : الاتفاق على ما يتخذ بين الحكومتين من التدابير لتحقيق التعاون فى حالة الحرب أو خطر حرب وشيكة الوقوع .

وقد قوبل هذا البيان بهجوم متعدد الأطراف . . . حمل تشرشل على البيان فى مجلس العموم من ناحية ان القواعد العسكرية فى برقة وفلسطين لن تكون كافية لحماية قناة السويس ، وقال ايذن ان عدم تمثيل الوفد

فى وفد المفاوضات يجعل العرض البريطانى بالجلء عرضا مقدما بغير ضمان
استيفاء الثمن من مصر

وفى يوم صدور البيان نقلت وكالة رويتر عن الدوائر الرسمية
القول بأن الجلء لا ينتظر ان يتم بالسرعة التى تم بها عن سوريا ولبنان
وذلك بسبب ضخامة حجم القوات البريطانية أولا وبسبب ما يحتاجه
الجيش المصرى من استعدادات تؤهله لحمل التبعات ثانيا .

هذا ما حدث فى بريطانيا . . . اما فى مصر فقد اهاجت فكرة
التحالف شعور المصريين وخرجت المظاهرات الى الشوارع . وفى ١١ مايو
اصطدم البوليس بمظاهرة خرجت من الأزهر وجرح فيها ثلاثون متظاهرا
وعشرة من رجال البوليس ، وأصدر الوفد والحزب الوطنى بيانا هاجموا
فيها البيان البريطانى .

واستمرت المفاوضات حتى قبل الجانب المصرى فكرة تكوين (لجنة
الدفاع المشترك) من عسكريين مصريين وبريطانيين ، وما ان عرفت موافقة
الحكومة على انشاء هذه اللجنة حتى تحركت المنظمات الشعبية تعقد
المؤتمرات وترتب المظاهرات ، وأصدرت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة
بيانا حددوا فيه يوم ١١ يوليو ١٩٤٦ (ذكرى ضرب الانجليز للاسكندرية
عام ١٨٨٢) يوما للحداد العام وبداية الجهاد الوطنى .

وهنا أسفر صدقى عن وجهه الحقيقى وقام فى اليوم السابق على
الاضراب باعتقال حوالى مائتين من الكتاب والصحفيين وزعماء اللجنة
الوطنية ونقابات العمال والطلبة ، وأغلق كثيرا من دور النشر والجمعيات
الجديدة ذات الطابع التقدمى مثل دار الأبحاث العلمية ولجنة نشر الثقافة
الحديثة ودار القرن العشرين والجامعة الشعبية الأهلية واتحاد خريجي
الجامعة وجامعة أم درمان ومؤتمر نقابات عمال القطر المصرى ونادى الشرقية
ورابطة بعثات الجامعة والمعاهد ، كما أغلق نهائيا صحف الفجر الجوية والجمعة
وأم درمان والعراق واليراع والضير والوفد المصرى وصادر لعدة أيام
جرائد المصرى والكتلة ومصر الفتاة ، ومنع الاحتفال بيوم ١١ يوليو .

وأطلق على هذه الحملة (قضية المبادئ الهدامة) والصق بالمعتقلين
تهمة الشيوعية ، وكان منهم سلامة موسى والدكتور محمد مندور ومحمد
زكى عبد القادر وغيرهم ، ورغم الغضب تصريح جريدة (الوفد المصرى)
فان معارضة الوفد لهذه الاجراءات لم تكن قوية بالدرجة الكافية ، وضحق
الوفد بجريده مطالبه بصدور جريدة أخرى بدلا منها (صوت الأمة) .

وبقدرنا قوبلت حملة صدقى باشا بالارتياح فى الدوائر الاستعمارية
ودوائر السراى والرجعية المصرية ، بقدر ما قوبلت بالرفض من جانب

المثقفين والعمال والطلبة ، فمما لبث ان اضرب عمال شركة الغزل الأجلية
بالاسكندرية يوم ١٥ يوليو ، والقيت خمس قنابل يوم ١٧ يوليو على أحد
الأندية البريطانية .

وكانت هذه الحملة نقطة تحول في أسلوب السلطة التنفيذية اذ جعلت
تهمة (الشيوعية) سيفا مصلتا على رقاب كل الوطنيين الذين يقفون موقف
المعارضة لربط مصر بمجلة الاستعمار .

وحاول صدقي جاهدا ان يصل الى عقد اتفاقية مع الانجليز بعد
حملته الصليبية ، وسافر فعلا الى لندن في ١٥ أكتوبر بعد ان كان قد قدم
استقالته في ٢٨ سبتمبر وكلف الملك خاله شريف صبرى بتشكيل
وزارة تضم الوفد اليها ولكنه عجز عن تحقيق ذلك لرفض الوفد وأصراره
على اجراء انتخابات جديدة ، وأدى ذلك الى ذهاب مصطفى النحاس لتوقيع
اسمه في سجل التشريفات بمناسبة عيد الأضحى لأول مرة بعد اقالته .

وقع صدقي اتفاقية بالحروف الأولى مع بيفن ، وعاد يعلن ان الوحدة
بين مصر والسودان قد تقرر نهائيا ، ولكن رئيس الوزراء البريطاني
مستر اتلي كذب هذا التصريح مما أضعف من موقف صدقي ، الذي كان
يعانى في الداخل معارضة شديدة ، وخاصة من جانب الطلبة الذين عقدوا
مؤتمرا يوم سفره الى لندن حضره ممثلو الطلبة الوفديين والحزب والوطنى
والتنظيمات الماركسية والكتلة ورابطة الطلبة المصريين وقرروا الغاء معاهدة
١٩٣٦ وقطع المفاوضات فوزا والالتجاء الى مجلس الأمن ، وكان صدقي
قد أجل الدراسة الى ١٧ نوفمبر .

وما تكادت الجامعة تفتح أبوابها حتى بدأت المظاهرات ، دون توقف ،
تزداد انتشارا وقوة في مختلف المدارس والمعاهد والكليات ، وتصطدم
بالبوليس يوميا ويتسبب قط الجرحى من المتظاهرين ، وخطب مصطفى
النحاس في ذكرى عيد الجهاد (١٣ نوفمبر) مهاجما مشروع صدقي بيفن
ومحاولة فرض بريطانيها معاهدة التحالف على مصر متهما صدقي بأنه
المسئول عما يراق في الشوارع من دماء .

وتحت هذا الضغط الشعبى أصدر سبعة من أعضاء وفد المفاوضات
بيانا أعلنوا فيه معارضتهم للمشروع الذي انتهى اليه صدقي مما أجبره
على حل وفد المفاوضات في ١٦ نوفمبر . . . وتعمد الانجليز احراجه أيضا
بعد أن وجدوا انه لم يستطع التعبير عن ارادة الشعب المصرى ، فجعلوا
الحاكم العام للسودان يصدر تصريحات تتنافى مع بيانات اسماعيل صدقي .

رفشلت دعاية الصحفي مصطفى أمين لمشروع صدقي في مقالاته
التي كتبها في مجلة آخر ساعة تحت عنوان (أوقعها والفها) واضطرت

صدقى لتقديم استقالته يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٦ تحت ضغط النضال
الشعبى العام والموقف الموحد للجماهير - والعنظيمات السياسية - والمهنية .
وهكذا انتصرت الإرادة الشعبية ، وسقط مشروع صدقى بينفن .
وسقط حكم صدقى بعد عشرة شهور فقط .

وعاد محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزراء يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٦ .
وتعتبر الفترة التى مضت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة
النازى حتى سقوط مشروع صدقى بينفن من أكثر فترات النشاط السياسى
خصبا وتوهجا وتأثيرا فى المجتمع .

ولم يكن الجيش خلال هذه الفترة بعيدا عن الأحداث ... ولم تكن
هزيمة النازى التى حطمت أحلام كثير من الضباط هى كلمة (النهاية)
فى نضالهم .

تحول النشاط عند مجموعات الضباط التى أسبقتها هزيمة النازى
فى حيرة شديدة الى البحث عن موقع جديد يواصلون منه نضالهم الوطنى .
وكان الجيش خلال الفترة التى عمت فيها المظاهرات مصرى يؤدى دورا
بوليسيا ... لم تسحب اليه وزارة محمود فهمى النقراشى الأول ، ولكن
سحبته له وزارة اسماعيل صدقى التى أعلنت نظام الطوارئ ، وجشبت
قوات الجيش فى مناطق مختلفة ... حديقية الأورمان المجاورة لجامعة
القاهرة ، وفى منطقة شبرا الخيمة وفى المجلة الكبرى والإسكندرية وغيرها .
وطبق نظام الطوارئ ... كان الجندى يحصل على علاوة طوارئ
عشرة قروش يوميا فى الوقت الذى كان مرتبه الشهرى فيه ٤٥ قرشا ،
ويحصل الضابط من الرتب الصغيرة على أربعين قرشا يوميا بينما مرتب
الملازم ١٢ جنيه شهريا ، وترتفع هذه القيمة حتى تصل الى جنيهين فى
اليوم لرتبة اللواء .

كان خروج الجيش علنا لمقاومة المظاهرات ، واجتماع الضباط
والجنود قريبا من مناطق تجمع الطلبة والعمال دافعا لهم على مناقشة الموقف
السياسى ومحاولة التعرف على أبعاده ، وخاصة بعد حرص كثير من الطلبة
على الاجتماع بالضباط فى زيارات ودية أثناء وجودهم فى حديقة الأورمان .

واستقر رأى صغار الضباط من مختلف الاتجاهات السياسية
أخوانا أو شيوعيين أو غير منتسبين لتنظيمات سياسية فى عدد من الوحدات
على عدم إطلاق النار مطلقا على مظاهرات الطلبة أو العمال مهما كانت
الظروف .

حرص اسماعيل صدقي على استخدام الجيش كوسيلته الرئيسية للارهاب والتهديد لم يكن مسائرا للتطور الذي أحدثته معاهدة ١٩٣٦ في صفوف الجيش ٠٠٠ اذ لم يعد الجيش محدود العدد أو خاضعا تمام الخضوع لنوعية خاصة من الضباط تمتد من أعلى الرتب الى أصغرها ، وبالتالي لم يعد أداة طيعة في يد السلطة كما كان في عهد وزارة صدقي في بداية الثلاثينيات عندما استخدمه لتزييف الانتخابات .

تطورات كثيرة كانت قد حدثت في مصر وفي الجيش لم يدركها ذكاء اسماعيل صدقي المعروف ٠٠٠ وظهر رفض ضباط الجيش لأداء هذه المهمة البوليسية التي أوكلت اليهم - الى جانب التقارب وتوجيه آرائهم - في صورة منشورات كثيرة وزعت خلال هذه الفترة من الضباط المنضمين للاخوان ، أو التنظيمات اليسارية .

وتولد شعور طبقي ناشئ وغير منظور عند صغار ضباط الجيش وعند عدد من صف الضباط الواعين ٠٠٠ بأنهم يعملون في خدمة طبقة اقطاعية لا ينتمون اليها ٠٠٠ ومن هنا كان اقتناعهم بالألا يكونوا أدوات تطلق النار على جماهير الطلبة والعمال .

ورغم هذا الموقف فان الضباط لم ينجذبوا الى الوفد العدو المعارض لأحزاب الأقلية ، والذي لم يطلق خلال تاريخه رصاصة واحدة على المتظاهرين ، والذي كانت صحفه في ذلك الوقت تلتهب بمقالات الاثارة بأقلام الدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمي وغيرهما من شباب الوفد .

يرجع ذلك أساسا الى الاسباب الآتية :

أولا : كانت فرص الوفد في التسلل الى صفوف الجيش عن طريق دفع مؤيديه الى صفوفه محدودة جدا لقلة الوقت الذي بقى الوفد فيه متوليا الحكم مقارنة بحكم أحزاب الأقلية .

ثانيا : تشبث القيادة الوفدية دائما بمبدأ فصل السلطات وإبعاد الجيش عن السياسة وحرصهم على تنفيذ ذلك لادراكهم ان الجيش كان في هذه المرحلة يتحرك بأوامر السراى الخاضعة لنفوذ الاستعمار البريطاني ، وهي العدو التقليدي للوفد ٠٠ ولذا لم تكن هناك صلات أو محاولة عقد صلات بين الوفد ورجال الجيش .

ثالثا : كانت الدعاية المضادة التي صاحبت حادث ٤ فبراير قوية الى الدرجة التي أثرت فعلا في سمعة الوفد داخل صفوف الجيش ، وأظهرته بمظهر الحزب المتعاون مع البريطانيين في وقت كان فيه الارتباط بالنازيين هو الصورة البراقة للوطنية .

رابعاً : ظهور تنظيمات سياسية جديدة ذات اتجاهات فكرية واجتماعية مختلفة (مصر الفتاة - الاخوان المسلمين - الحزب الوطني الجديد - التنظيمات الشيوعية) قادتها أقرب من ناحية السنن والتكوين الاجتماعى لصغار ضباط الجيش . . . وحركتها التنظيمية أكثر انضباطاً من الوفد الذى كان يعتمد على رصيده زعامته وجماهيرية أهدافه وقدراته المالية ، وبالتالي كانوا أكثر جاذبية للضباط الذين اعتادوا الانضباط والضبط والربط - على حد التعبير العسكرى - فى حياتهم اليومية .

خامساً : كان تكوين القيادة الوفدية متناغماً الى حد بعيد مع طبيعة الجماهير المؤيدة له . . . فمعظم القيادة كانت من الاقطاعيين ، ومعظم الجماهير كانت من العمال والفلاحين والمنقذين . . . ولذا فإن الضباط لم يجدوا فى تكوين القيادة الوفدية ما يجذبهم اليها باعتبارهم أبناء للطبقة الوسطى ، تولدت فى صفوفهم أفكار وطنية وثورية ، أكسبتها الروح العسكرية طابعاً حاداً يميل الى التغيير السريع .

انجذب الضباط بعد هزيمة النازى وفى مواجهة الموقف الذى انسحبوا اليه لمواجهة جماهير الشعب بطلقات الرصاص الى أحزاب وتنظيمات أخرى .

تعددت الاتجاهات . . . وتنوعت قوى الجذب المختلفة .

ويمكن بلورة الاتجاهات داخل الجيش فى ذلك الوقت فى ثلاثة اتجاهات رئيسية :

١ - اتجاه جذبه الارهاب واغتيال جنود الاحتلال وامتد حتى وصل الى بعض السياسيين المصريين .

٢ - الاخوان المسلمون كقوة سياسية جديدة تظهر على المسرح مصحوبة بدعاية هائلة وتأييد صريح من حكومة اسماعيل صدقى .

٣ - التنظيمات اليسارية التى كانت تنمو فى سرية مطلقة مستفيدة من المد الشورى ، ووضوح موقف الدول والقوى الاشتراكية فى تأييد قضيتنا .

أما بقية القوى والأحزاب السياسية فإن فرصتها للعمل والنشاط داخل الجيش كانت محدودة . . بل معدومة تقريباً .

ومصر الفتاة لم تتح لها الحرب العالمية الثانية فرصة النشاط مع الضباط وخاصة الذين تأثروا بمبادئها خلال الدراسة الثانوية ، لأنها كانت مطاردة من السلطات لاتجاهاتها الفاشية فى هذه المرحلة .

أما أحزاب الاقلية فإن قدراتها كانت أضعف من التأثير على شباب الضباط لاتجاهاتها الرجعية المحافظة .

وهكذا انفردت هذه الاتجاهات الثلاثة لتتجه داخل صفوف الجيش .

أولا - الارهاب :

كان الاتجاه الارهابي أقدم في وجوده من الحركة الشعبية التي انطلقت عام ١٩٤٦ ، وهو يمتد بجذوره الى أفكار (الحزب الوطني) الذي بدأ أعضاؤه يعتنقون الفكر الارهابي خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، بعد أن طغى الوغد عليهم بجماهيريته وشعبيته .

كان ضباط الطيران فعلا على اتصال ببعض الذين ناضلوا ضد البريطانيين في جماعة (عصابة اليد السوداء) خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها مثل عبد العزيز علي الذي أصبح وزيرا في وزارة محمد نجيب وكان عضوا في الحزب الوطني .

وكان أعضاء الحزب الوطني يعقبون الاغتيال وسيلة من وسائل النضال ، ومحمود العيسوي الذي قتل أحمد ماهر كان محاميا تحت التمرين في مكتب عبد الرحمن الرافعي الذي اعتقل هو وفتحي رضوان عقب حادث الاغتيال ثم أفرج عنهما بعد أن ثبت عدم وجود صلة لهما بعملية الاغتيال نفسها .

وحدث التقاء بين بعض الضباط وبين شباب من أعضاء الحزب الوطني ، كونوا مجموعة للاغتيالات . . . وكانت المحاولة الاولى اغتيال مصطفى النحاس الذي اجتمع عليه رأيهم لما تركه حادث ٤ فبراير في نفوسهم ، وقد قام بهذه العملية التي لم تنجح أنور السادات ، وحسين توفيق الذي اغتال أمين عثمان بعد ذلك ، وسعد كامل ابن أخت فتحي رضوان وعضو اللجنة التنفيذية العليا للحزب الوطني الجديد فيما بعد ، ومحمد كامل السفير بعد ثورة ١٩٥٢ .

وتشكلت داخل الجيش مجموعة أخرى اتصلت بسعد كامل وضممت الضباط مصطفى كامل صدقي وحسن فهمي عبد المجيد وعبد الرؤوف نور الدين ، وألقوا قنبلتين على منزل عبد الفتاح عمرو سفيرنا في لندن بالدقي ، وقنبلة أخرى على الاتحاد المصري الانجليزى مكان نادي ضباط القوات المسلحة بالزمالك الآن ، وقنابل دخان على دار أخبار اليوم .

وقامت المجموعة التي فشلت في محاولة اغتيال النحاس بإثسنت باغتيال أمين عثمان بعد ذلك . ولكنها اعتقلت وحوكمت وحكم على القاتل

حسين توفيق بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان والده وكيلا لوزارة
المواصلات .

وأمكن لهذه المجموعة تهريب حسين توفيق واختفاؤه فترة طويلة .

ولم يكن هذا النشاط خارج حدود الجيش . . بل تبلورت في الداخل
حركة مضادة لرئيس أركان حربها الجيش اللواء إبراهيم عطا الله الذي
ابتعدت قيادته للجيش عن كل معاني الجدية والتطور . . . ذهب مع بعثة
من كبار الضباط لزيارة الولايات المتحدة وبعد عدة أسابيع عاد ليصدر
قرارا وحيدا يقضى بأن نلبس كل الرتب عدا رتبة اللواء بنطلونات قصيرة
أثناء التواجد بالمعسكرات الأمر الذي أثار الضحك على بعضهم لكروشهم
البارزة . . . ونفاقا للسراى أصدر قرارا بأن يلبس ضباط الجيش ربطات
عنق سوداء يوم ٢٨ ابريل ذكرى وفاة الملك فؤاد ، ولكن عددا ملحوظا من
صغار الضباط رفضوا تنفيذ الأمر . . كما أنه أوحى لضباط سلاح
المدفعية بأن يجمعوا نقودا لشراء (عضء الماريشالية) لتقدم هدية للملك
فاروق عند زيارته للسلاح ، وقد رفض أيضا عدد من الضباط ان يسهموا
في ذلك . . . وكانت زيارة فاروق لميس المدفعية بالملاحظة هي زيارته الأولى
والأخيرة ، اذ أثارت مشاعر الضباط لما خونه من بذخ في الطعام والترفيه
. . . اذ أقاموا مسرحا خارجيا استضافوا فيه فرقة الريحاني واحدى فرق
الباليه الأجنبية التى حضرت من الطائرة الى المدفعية مباشرة قبل ان تظهر
فى كباريه الأوبرج ، وأعدوا بيست للرقص لم يشارك فيه الا عدد محدود
من زوجات الضباط اللاتى قبلن الحضور . . . ففقد رفض أغلبية الضباط
احضار زوجاتهم فى حفلة يحضرها الملك . . . ويذكر خلال هذه الليلة ان
الصاغ عبد المنعم رياض - الفريق الشهيد بعد عدوان ١٩٦٧ - كان ناعلا
طربوشه ، فاقرب منه كبير التشرىفاتية وأبأغه بأن ذلك ممنوع فى حضرة
الملك ، وحدثت بينهما مناقشة انتهت الى استدعائه فى اليوم التالى للسراى
وتصفية الأمر بعد ما لمسوه من غضب الضباط واحتجاجهم على هذا الاستلوب
فى مخاطبة أحد المدنيين لضابط مرموق .

وقررت مجموعة من الضباط اغتيال ابراهيم عطا الله ، وأصدرت
منشورات أعدها مصطفى كمال صدقى الذى كان ضابطا للمخابرات فى
مكتب ادارته ، الأمر الذى كشف مجموعته وأدى الى اعتقاله مع ٢٣ ضابطا
وصولا من بينهم البكباشى رشاد مهنا واليوزباشية عبد الرؤوف نور الدين
وحسن فهمى عبد المجيد وممدوح جبه والبكباشى أحمد يوسف حبيب
والصاغ عثمان نوري واليوزباشية عاطف سعد ومحمد أحمد حسين والملازم
عبد القادر طه وأحمد فؤاد .

• وسبب اعتقال أفراد هذه الجماعة هو تبليغ أحد ضبولات إدارة المخابرات (جمال الدين جلال) الذى استعانوا به فى عملية تهريب سلاح للفلسطينيين عن طريق بور سعيد ، وذلك بعد اتصبالهم بالحاج أمين الحسينى فى القاهرة •

ولم ينته اعتقال هذه المجموعة الى محاكمة عسكرية ، وإنما انتهى الأمر الى الافراج عنهم . وعودتهم الى أعمالهم ، واعفاء ابراهيم عطا الله من منصبه وتعيين اللواء عثمان المهدي بدلا منه ، كما عين محمد حيدر وزيرا للحربية •

• وكان هذا التعيين مفاجأة للجيش اذ المعروف ان محمد حيدر ضابط من السجون ، وكان له تاريخ مشهور أثناء ثورة ١٩١٩ . فى ضرب المتظاهرين ، وقد استاء من ذلك عدد ملحوظ من الضباط اذ وجدوا فى ذلك امتهانا لهم ، واتهاما بعدم كفاءة أحد منهم لقيادة الجيش •

• وكان تعيين محمد حيدر ربيب السراى وياور الملك خطوة لمزيد من السيطرة على الجيش ، التقت فى خطوة أخرى تمثلت فى احتواء عدد - وليس كل - الضباط الذين اعتقلوا فى حادث ابراهيم عطا الله وتشكيل تنظيم خاص لهم للدفاع عن الملك والسراى عرف باسم (الحرس الحديدى) •

ولم يكن هذا التنظيم خاضعا للحرس الملكى أو للجيش ، وإنما كان تنظيما سرىا خاصا يرتبط بالسراى عن طريق يوسف رشيد الطيب البحرى وياور الملك ويضم من الجيش أحمد يوسف حبيب ومصطفى يوسف كمال صدقى وسيد جاد وعبد الرؤوف نور الدين وخالد فوزى وحسن فهمى عبد المجيد •

وينفى خالد فوزى انه كانت له صلة بالحرس الحديدى . . ولاشك أنه كان الوحيد بين هؤلاء الذى انضم الى تنظيم الضباط الأحرار ، وكان له دور ايجابى معهم فى التحضير لحركة الجيش •

وقد بدأ (الحرس الحديدى) فور تكوينه يمارس عملياته الارهابية أطلق عبد الرؤوف نور الدين الرصاص ومعه أنور السادات على مصطفى النحاس يوم ٥ ابريل ١٩٤٨ من عربة من عربات القصر الملكى أخضرها اليوزباشى عبد الله صادق من مطافى القصر كان يقودها حسن فهمى عبد المجيد فأخطأه رغم قرب المسافة ثم شرع مصطفى كمال صدقى وعبد الرؤوف نور الدين فى نسف منزله بسيارة حملت كمية كبيرة من المفرقات يوم ٢٥ ابريل • وكان ذلك نتيجة موقف النحاس باشا المتشدد فى المسألة الوطنية ، ورفضه لكافة محاولات التقرب من الوفد على غير أساس اجراء انتخابات جديدة . . .

واستمر هذا التنظيم يواصل عملياته الارهابية السرية ، ويتعرف على أخبار الضباط ليبلغها للسراى ويحاول ان يحيط الملك بهالة مضللة تقنع الناس بأنه يمكن تحقيق الإصلاح عن طريقه .
وكان يساند هذا (الحرس الحديدي) محمد حيدر وزير الحربية واسماعيل شيرين مدير ادارة شئون فلسطين وزوج الأميرة فوزية .

وهكذا انتهى الارهاب الذى اندفع اليه بعض الضباط ومعهم عدد من المثقفين بعد هزيمة النازية لاغتيال جنود الاحتلال الى أن أصبح أداة في يد السراى للتخلص من أعدائها وأعداء الاستعمار فى نفس الوقت .

لم يستطع الارهاب أن يفرض نفسه داخل الجيش بعد أن وصل نشاط الحركة السياسية فى المجتمع الى ذروته وانعكس ذلك داخل الجيش أيضا وعندما تنمو الأفكار يذبل الارهاب ومع ذلك فان آثار الارهاب والاغتيال لم تنته تماما ، ولكنها حوصرت فى دائرة الحرس الحديدي والضباط المواليين للسراى .

ومع ذلك فانه فى لحظات اليأس من الموقف والرغبة الجارفة فى التغيير ، وضعف الثقة فى التنظيم كان الفكر الارهابى عند الضباط الوطنيين يعاود الظهور ، بل ويتحرك للتنفيذ أحيانا . . . ولكنه لم يستطع أن يفرض نفسه سيدا للموقف كما سيأتى تفصيلا فيما بعد .

ثانيا - الاخوان المسلمون :

صلة الضباط بالاخوان تعود الى الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تظهر كتيار رئيسى فى مجال الحركة السياسية بالجيش الا بعد انتهاء الحرب .

ولم تكن اتصالات الاخوان المسلمين مقتصرة على فرد أو أفراد محدودين والما كانت منتشرة مع أكبر عدد متاح لهم من الضباط .
ونظرة تاريخية الى حركة الجماعة قد تفيد .

تحول النشاط عند مجموعات الضباط التى أسقطتها هزيمة النازى فى حيرة شديدة الى البحث عن موقع جديد يواصلون منه نضالهم الوطنى .
طوال حكم الوفد خلال فترة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ لم تتجاوز الجماعة حدود دعوتها الدينية ، ولم تظهر على المسرح السياسى بصورة سافرة الا بعد خروج الوفد عندما أصدرت مجلتها النذير السياسية عام ١٩٣٨ وقال أحمد حسين رئيس مصر الفتاة أنباء مرافعته فى قضية اغتيال محمود فهمى النقراشى بعد ذلك عام ١٩٤٩ ان حسن البنا وقادة الاخوان

كانوا قد اعتقلوا في بداية الحرب العالمية ، الى ان حضر حامد جودة الوزير السعدى وقابل حسن البنا منفردا ثم تم الافراج عنه بعدها بأيام ... وقال كذلك ان عبد الرحمن عمار مدير الأمن العام كان عضوا في الجماعة .

وكان حسن البنا مرشد الاخوان ذا شخصية نافذة يجيد الخطابة ويحيط نفسه بهالة من الغموض تتيح له حسب لائحة الجماعة زعامة فردية مطلقة لا منازع له فيها .

يقول أنور السادات في كتابه (أسرار الثورة المصرية) ان حسن البنا كان حريصا على ان يظل هـ بينهما سرا خافيا (حتى على كبار الاخوان أنفسهم) .

وعقب اقالة الحكومة الوفدية في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ نشط (الاخوان المسلمون) نشاطا شديدا وصرخت لهم وزارة محمود فهمى النقراشي بعقد الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية في أواخر عام ١٩٤٥ بينما حرمتها على كافة الهيئات الأخرى .

وكان حسن البنا طموحا يبغي الاتصال بالملك ليخلق بين الاخوان والسراى نوعا من التعاون الوثيق .. ولجأ في ذلك الى أنور السادات يوسف - حسب روايته - ليطرق باب صديقه الدكتور يوسف رشاد ليمهد له مقابلة مع الملك .

وقد وجد عدد ملحوظ من الضباط في هذه الجماعة مركز جاذبية لهم يختلف عن الأحزاب السياسية التي تعتمد على التنظيمات الجماهيرية المفتوحة ، حيث انه كان لهم تنظيم هرمى يقف المرشد على قمته ، ولهم تنظيم عسكري خاص لا يخلط بين المدنيين والعسكريين كان يساعد المرشد في الاشراف عليه ضابط مصرى سابق كان قد هاجر الى ألمانيا ثم عاد منها هو الصاغ محمود لبيب الذى اتصل بمعظم الضباط الذين جندوا في الجماعة ، هذا الى جانب تنظيم الجهاز السرى الذى كان يصل اليه الموثوق فيهم وكان تحت اشراف عبد الرحمن السندى .

وفي الأيام الأخيرة لوزارة الوفد عام ١٩٤٤ استدعى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية حسن البنا ، وأبلغه بأن الوزارة لاتسمح بخروج جواله الاخوان لاستقباله على المحطات أو القيام بطواير استعراضية له ... وكان فؤاد سراج الدين قد زار المركز العام للاخوان خلال الحرب عندما كانت جمعية معانة مثل الشبان المسلمين يحرسون على الظهور في مظهر دينى - وكانت شعب الاخوان قد بلغت ما يزيد عن ٥٠٠ شعبه تقوم بمشروعات اجتماعية تحصل بها على اعانات من الدولة .

واستدعى مصطفى النحاس حسن البنا أثناء الحرب العالمية لمقابلته
فى مينا هاوس حيث أقام فترة وحذره من الانغماس فى العمل السياسى
وطلب منه الا يتجاوز حدود دعوته الدينية .

ولكن اقالة حكومة الوفد كانت نقطة بدء لتحرك الاخوان المسلمين
ليس ضده فقط . . . ولكن ضد كافة التنظيمات الشيوعية والديموقراطية
والاتجاهات الاشتراكية .

ووصلت ذروة المساندة لجماعة الاخوان المسلمين عندما تولى اسماعيل
صدقى الوزارة بعد مذبحه كوبرى عباس ، ووجد فى الوفد كتلة صلبة
لا تلين فى عدائها التقليدى التاريخى له منذ مطلع الثلاثينيات . . هرع
اسماعيل صدقى عقب توليه الوزارة الى زيارة مركز الارشاد لجماعة
الاخوان المسلمين فى الحمية الجديدة ، ونسق سياسته معهم ، حتى
أصبحوا من مروجى الدعاية له والمدافعين عن سياسته .

عندما كانت الجامعة فى عنفوان اشتعالها الوطنى وقف مصطفى مؤمن
زعيم الاخوان فى الجامعة يعلق على وعود اسماعيل صدقى المعسولة بآية
من القرآن « وأذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان
رسولا نبيا » .

وعندما شكلت (اللجنة التنفيذية العامة للطلبة) شكل الاخوان
(لجنة الطلبة التنفيذية العليا) وعندما تكونت اللجنة الوطنية للعمال
والطلبة (التى قادت مظاهرات ٢١ فبراير ، أسرع الاخوان الى تشكيل
(اللجنة القومية) وفيها ممثلون أيضا لمصر الفتاة والحزب الوطنى وحزب
الفلاح الاشتراكي وجبهة مصر . . والتنظيمات الأخرى من التنظيمات
الشكلية التى تعتبر لافتات بلا جماهير . وقد ساندت الحكومة هذه اللجنة
واتفق على ان يكون محمد حسن العشماوى وزير المعارف ممثلا للحكومة
فى هذه اللجنة .

ومع ذلك لم يستمر الاخوان طويلا فى عضوية (اللجنة القومية) التى
شكلت فى مركز الاخوان ، بل أعلنوا عقب يوم ٤ مارس ١٩٤٦ - يوم
الحداد العام - انهم يعتبرون أن اللجنة قد شكلت لظهار شعور الأمة ،
وأن مهمتها تعتبر قد انتهت بذلك . . . ولكن بقية أعضاء اللجنة أصروا على
بقائها حتى تتحقق المطالب الوطنية بالجلاد والوحدة .

ورغم هذه المواقف السياسية الناشزة من الاخوان المسلمين فان
اتصالهم بالضباط كان عريضا ومنتشرا لم يقتصر على أفراد محدودين . . .
ضباط الطيران كانوا على اتصال بهم . . . وأنور السادات كان على صلة
شخصية بحسن البنا الذى كان أول من أتاح له فرصة التعرف بعزیز

المصري كما ورد في كتابه (أسرار الثورة المصرية) ٠٠٠ وقد لعب عبد المنعم عبد الرؤوف قائد السرب الذي حاول الهرب مع عزيز المصري دورا نشيطا في هذا المجال استمر الى ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠٠٠ وخالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد قال انه كان عضوا في الاخوان ومجموعته التي وصلت الى مستوى الانضمام للجهاز السرى العسكرى لهم كانت تضم البكباشى جمال عبد الناصر والصاغ كمال الدين حسين ٠٠٠ ولم يكن الانضمام لهذا الجهاز السرى مفتوحا الا للخلائع موضع الثقة ٠٠٠ وكانوا يقسمون يمين الاخلاص للدعوة فى غرفة مظلمة خالية بمنزل عتيق فى حي الصليبية ويد الضباط على مصحف ومسند معا .

الظاهرة التي تستلفت النظر هى قيام هذه المجموعة المنظمة للاخوان بعقد جلسات لتحضير الأرواح ٠٠٠ يقول ثروت عكاشة وزير الثقافة فيما بعد أن مجموعة كانت تضمه هو وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين كانت تعقد جلسات لتحضير الأرواح كل أسبوع بحضور الشيخ عبد الرحيم القناوى ، ويقول مجدى حسنين ان مجموعة أخرى كانت تضمه أيضا مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر واللواء طبيب حسين رياض كانت تحضر الأرواح مع وسيط آخر هو الدكتور عزت خيرى الذى أصبح عميدا لكلية علوم جامعة القاهرة .

هكذا كانت الاخوان تضم أعدادا من الضباط ينتظمون فى جماعات تنتشر بينهم الأفكار الآتية :

١ - معاداة الحزبية بأشكالها القائمة على اختلاف اتجاهاتها وأفكارها الاجتماعية ، مما رسب فى نفوسهم روحا معادية للديموقراطية ٠٠٠ وكان الاخوان يعتمدون على شعار (الرسول زعيمنا) بمعنى الرفض الكامل للزعامات الشعبية القائمة .

٢ - التمسك بالغيبيات التي تنشر الضباب الفكرى وتحول دون انطلاق الرؤية الى آفاق جديدة كما يتضح من تركيزهم على عقد جلسات لتحضير الأرواح يحضرها الضباط .

٣ - الانضباط التام للتنظيم والخضوع المطلق لشخصية المرشد الذى كان يقف وحده بصلاحيات مطلقة على قمة التنظيم الشعبى والعسكرى السرى معا .

٤ - تبنى مفاهيم عنصرية خاطئة لا تربط بالواقع بل تحرف الأنظار عما يدور فى المجتمع مثل قول المرشد « ان الدور عليكم فى قيادة الأمم وسيادة الشعوب ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، وهى ترديد بصورة أخرى لبعض الأفكار النازية العنصرية .

وكانت فرصة تجنيد الضباط لجماعة الاخوان متاحة أكثر من غيرها
... فالارهاب يحتاج الى جرأة وشجاعة وسرية وتعرض الذات للخطر ...
كما أن التجنيد للتنظيمات اليسارية كان يتم في سرية مطلقة في وقت
كانت كلمة (الاشتراكية) وحدها تكفى لالقاء الشبهات على الناطق بها ،
وفتح أبواب المعتقلات له في أول فرصة مناسبة .

ومنع تدفق الضباط على تنظيم الاخوان وكثرة عدد الذين ارتبطوا
به ، فان كثيرا منهم لم يجدوا في الاخوان ما يرضى نزعاتهم الوطنية
الاجابية ، ولم يجدوا اجابة وافية مقنعة على أسئلتهم واستفساراتهم ،
كما سيتضح في مسار الحركة السياسية بعد ذلك .
ثالثا - التنظيمات اليسارية :

التنظيمات اليسارية لم تعاود نشاطها في مصر بعد ضرب الحزب
الشيوعي المصري عام ١٩٢٤ ، وحل تنظيماته ومطاردة وسجن أعضائه
الا خلال الحرب العالمية الثانية بعد الانفراجة السياسية التي صاحبت
تحالف الاتحاد السوفييتي مع بريطانيا والولايات المتحدة في حربهم
المشتركة ضد محور النازية والفاشية .

وتشكلت عدة تنظيمات جديدة ...

(اسكرا) وهي كلمة روسية تعنى (الشرارة) بالعربية وكانت
واجهتها العلنية دار الأبحاث العلمية .

(طليعة العمال) هي تنظيم سرى أصدر مجلة (الفجر الجديد)
وعمل في أوساط الطلبة والعمال .. كانت له داران للنشر هما دار
القرن العشرين ولجنة نشر الثقافة الحديثة ... وكانوا على صلة وثيقة
بالشباب الوفدي ..

(الحركة المصرية للتححرر الوطني) كانت أكثر الحركات الشيوعية
ارتباطا بالواقع وانتشارا بين التجمعات الجماهيرية ، وكانت لها صحيفة
(أم درمان) العلنية .

وقد حدث الدمج عام ١٩٤٧ بين (اسكرا) والحركة المصرية للتححرر
الوطني في تنظيم سرى باسم (الحركة الديمقراطية للتححرر الوطني)
أو حصدتو .

وكانت الأفكار اليسارية التي حرصت هذه التنظيمات على نشرها
في صفوف العمال والطلبة والمثقفين ، قد بدأت تمثل مركزا جاذبية ملحوظة
حتى لعدد من الضباط الذين بهرتهم الأفكار والتنظيمات النازية في المرحلة
السابقة لهزيمة المحور ..

اتصل عبد اللطيف بغدادى ومجموعة الطيران ضمن اتصالاتهم المتعددة مع (جمعية الرياضة وأوقات الفراغ) التى أسسها جسنى العراقى أحد الأعضاء السابقين فى الحزب الشيوعى المصرى القديم ، ولكنهم لم يستقروا بها لأنها لم تشبع رغبتهم فى العمل والحركة .

كما حدث اتصال بين هذه المجموعة وبين ميكانيكية الطيران الذين بدأ انتشار الأفكار الماركسية فى الجيش بينهم . . . ولكن لم يحدث اندماج تنظيمى نتيجة فزوق الرتبة والاتجاهات الطبقية والميول الفكرية المتنافرة بين الضباط وصف الضباط .

كانت الصلة قد بدأت بين (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) وبين صف الضباط المتخرجين من مدرسة ميكانيكا الطيران ، والتى كانت قد فتحت أبوابها كمدرسة جديدة بعد المعاهدة عام ١٩٣٧ ودخلها فى الدفعة الأولى ٩٠ طالبا حاصلين على شهادات الكفاءة أو البكالوريا أو الفنون والصناعات نظام الخمس سنوات .

تم اجتذاب الطلبة والخريجين خلال مطالب اقتصادية بدأت بالمطالبة بأن تتاح فرصة الترقى لرتبة طيار من ضباط الصف ، وقد عارض ذلك معارضة شديدة الطيارون القدامى . . . ولكن تحقق ذلك بالنسبة للدفعة الخامسة مما آثار خريجي الدفع السابقة مطالبين بمساواتهم بنظام الدفعة الخامسة التى كانت دراستها تمتد خمس سنين ، مع المطالبة بتغيير اللباس .

كان قادة هذا النشاط من المنضمين سرا الى الحركة المصرية للتحرر الوطنى وبدأوا حركتهم بعمل برنامج يحقق المطالب الوطنية والاقتصادية ، وكونوا تنظيما سريا من ٤٢ شخصا بحيث يمثل كل سرب أو قسم اثنان من المندوبين ، وتكونت لجنة تنفيذية عليا من ١١ شخصا كان النفوذ الرئيسى فيها للشيوعيين .

ولم يقتصر نشاط هذه المجموعة على سلاح الطيران وإنما امتد أيضا الى ميكانيكية سلاح الصيانة ثم الطيران المدنى . . . وعندما تحققت مطالب ميكانيكية سلاح الطيران فيما يتعلق باللباس والمساواة ، ارتفعت معنويات زملائهم فى سلاح الصيانة ، وتحرك ٦٠٠٠ طالب وخريج منهم متوجهين الى قصر عابدين . . . ولكنهم صرفوهم على وعد بتحقيق مطالبهم ، ثم اعتقلوا بعضهم .

وانتشر هذا النشاط حتى وصل الى خريجي مدرسة الكتاب العسكريين والموسيقين . . . ووجدت الأفكار اليسارية مجالا للانتشار بعد

هزيمة رومل في العلمين وظهور الاتحاد السوفييتي كقوة حربية وسياسية هائلة .

والملاحظ أن نشاط الاخوان كان مركزا على ضغار الضباط ، ونشاط الشيوعيين كان مركزا على الميكانيكية وضباط الصف ولم يكونوا قد وصلوا بعد في هذه المرحلة الى صفوف الضباط ، كما أن السراي كانت تواصل اعتمادها على كبار الضباط الذين خدمت عندهم طاقة الحماسة الوطنية وارتضوا التبعية للسراي والاستعمار . . .

وكان موازيا لهذه الحركات في صفوف الجيش المصري ، حركات أخرى في صفوف الجيش اليوناني المعسكر في مصر . . . وكانت اليونان تحت دكتاتورية الجنرال ميتكساس منذ عام ١٩٣٦ ، ولذا كان الحزب الشيوعي اليوناني هو الذي يتولى قيادة الكفاح السري المسلح في اليونان . . . وتشكلت جبهة التحرير الوطني (أيام FAM) في خريف ١٩٤١ ، وتشكل جيش التحرير الشعبي (ايلاس) في ربيع ١٩٤٢ .

وكانت اليونان بالنسبة للحلفاء نعمة من النعاج السوداء لديكتاتوريتها السابقة ، ولكن الملك ورئيس وزرائه في المنفى ايمانويل تسودوروس أعلنوا أن اليونان حكومة ديمقراطية تحكمها ملكية دستورية .

ومع ذلك ظلت (أيام وايلاس) تهاجمان الملك باعتباره عدوا للشعب اليوناني ، وممثلا لعصبة فاشية ، وامتلات جدران الشوارع في القاهرة والاسكندرية بكتابات يونانية وعربية تعلن شعارات المنظمين ، وأخذت إحدى المجلات اليونانية هذا الاتجاه الذي عارضته القوات البريطانية في مصر لما استشعرته فيه من خطر ، وخاصة بعد ان حدثت اتصالات سياسية بين القوى اليسارية الناشئة في مصر « الحركة المصرية للتحرير الوطني » والقوى اليسارية اليونانية في مصر .

وفي الوقت الذي كان البريطانيون يقدمون فيه أقصى مساعدة لأيام وايلاس في اليونان ، بدأوا هجوما على فروعها في مصر . . . وحدثت في مصر عدة تمردات في صفوف الجيش اليوناني .

حدث تمرد في معسكرهم بمينا هاوس واحتل الكولونيل نيكولامندس مقر قيادتهم في شارع قصر العيني . . . وتمرد اللواء الذي كان معدا للحرركة في ايطاليا ، وأعلنت خمس مراكب بحرية ولاها للجمهورية ، وكذا بعض وحدات الطيران . . .

وتمرد البحارة التجاريون لمدة ثلاثة أسابيع في الاسكندرية . . . ولكن القوات البريطانية استطاعت قمع هذه التمردات ومحاكمة المسئولين

عنها ٠٠٠ وكانت الحرب الأهلية قد ظهرت بوادرها في اليونان عندما أصدر تشرشل يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٤٣ قرارا بتجهيز ٥٠٠٠ عسكري بريطاني لتولية الملك جورج على عرشه .

وكان اليساريون في صفوف الجيش المصري على صلة بهذه الحركات يقدمون لها المساعدة ويتخذون منها مادة للاثارة والهجوم على البريطانيين دون أن يتورطوا في تأييد النازيين .

وخلال هذه الحركات السرية النشطة داخل الجيش ، التفتت التنظيمات السرية عددا من الضباط في الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة . وكنّت أول ضابط مصري تتاح له فرصة الانضمام لهذه التنظيمات ، والعمل في مجموعة واحدة مع صف ضباط الطيران وغيرهم ، وانفتح بذلك مجال لتجنيد عدد من الضباط ليصبحوا ماركسيين .

وكان التجنيد للتنظيمات اليسارية داخل الجيش عملا شديدا الصعوبة بالغ التعقيد معرضا في ذاته لأخطار العصف به من القوى الرجعية المتربصة بأي نشاط تقدمي وخاصة في صفوف الجيش .

ومع ذلك فإن حيرة الضباط الوطنيين بعد هزيمة النازية ، وعجز الاخوان المسلمين عن ارضاء نفوسهم بالاجابة الوافية على أسئلتهم واستفساراتهم ، وحركة المد الثوري التي انطلقت في الجامعات وتمثلت في حركة المظاهرات والاضرابات المتزايدة ، وادانة الارهاب من أصحاب الضمائر الوطنية والأفكار السليمة ، الى جانب السمعة الطيبة التي احرزتها الحركات المسلحة السوفيتية خلال الحرب والتأييد الواضح المعلن من جانب الدول الاشتراكية لقضيتنا في هيئة الأمم وخارجها ٠٠٠ مع توافر التصور الفكري الواضح لمشاكل المجتمع ووجود اجابة وافية عميقة على تساؤلات الضباط ، الى جانب الثقافة الملحوظة التي يتميز بها اليساريون الذين يعتمدون في حركتهم على عقولهم وأفكارهم ٠٠٠ دون الاعتماد على العضلات أو الغيبيات .

كل هذه العوامل مجتمعة كانت تجعل من التجنيد للتنظيمات اليسارية أمرا ممكنا رغم خطورة ذلك في صفوف الجيش ، الا انه لا يمكن مقارنة نسبة التجنيد لهذه التنظيمات بنسبة التجنيد للاخوان المسلمين مثلا .

الأمر عند الاخوان لم يكن يحتاج الى تغيير الأفكار والمعتقدات القديمة ، والقسم على مصحف ومسند كان كافيا لضم العضو الجديد ٠٠٠ أما في التنظيمات اليسارية فإن الأمر كان يحتاج الى مباراة فكرية تهتز فيها الأفكار القديمة الثابتة لتشرق الأفكار الجديدة النامية ٠٠٠

والانضمام للاخوان لم يكن يعرض الضابط لخطر الارهاب البوليسى ،
بينما الانضمام للتنظيمات السرية اليسارية كان يضع الضابط فى مركز
خطر شديد لا يملك سلاحا لحماية نفسه به الا السرية والأمان .

وخلال هذه الفترة أمكن خلق نواة من صف الضباط والضباط
اليساريين فى صفوف الجيش ، يصدرن منشورات تلاحق الأحداث
وتفسرها وتنقد ما فيها من أخطاء وكانت تصدر بتوقيع (رجال
الجيش) .

ولم يحدث أن تعرضت هذه التنظيمات لكشف السلطة لها ، ومحاولة
العصف بها الا فى سلاح الطيران عندما اشتدت موجة المطالبات الاقتصادية
وما كشفتها من اتجاهات سياسية أدت الى نفى ٤٠ صف ضابط الى سيوة .

وكانت الأحداث السياسية قد بدأت اتجاها جديدا مؤثرا كانت
له انعكاسات هامة أيضا فى صفوف القوى العاملة داخل الجيش .

استتقال اسماعيل صدقى وتولى محمود فهمى النقراشى رئاسة
الوزارة بعد توقف المفاوضات .

واستغلت الحكومة قرار البريطانيين بالانسحاب الى منطقة القناة
لتهدئة الخواطر ومنع الاحتكاك مع المصريين ، فأقامت احتفالات لرفع العلم
المصرى على القلعة وثكنات قصر النيل وغيرها ، ولكن المظاهرات والاضرابات
لم تتوقف للكشف عن طريقة (الجلاء الجزئى) والضغط على الحكومة لالغاء
معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ واللجوء الى مجلس الأمن .

وقدمت الحكومة عريضة المسائل المصرية الى مجلس الأمن يوم ١٣
يوليو بعد ثمانية شهور من توليها الحكم وبعد يوم واحد من فض الدورة
البرلمانية تفاديا لمواجهة المعارضة ،

وسافر النقراشى الى نيويورك يوم ٢٢ يوليو ١٩٤٧ وعرض القضية
المصرية بطريقة عبرت عنها صحيفة التايمز البريطانية « النقراشى يسير
سفينة بشرع المعارضة » وركزت الدعاية على قوله « أيها القراصنة أخرجوا
من بلادنا » .

أيد مصر فى مجلس الأمن ثلاثة مندوبين ، المندوب السورى فارس
الخورى والمندوب السوفييتى اندريه جروميكو والمندوب البولندى أوسكار
لانج ، ووقفت فرنسا ضد مصر خوفا من اشتعال الحركة الوطنية فى شمال
أفريقيا ضد فرنسا ، بينما وقفت الحكومة الأمريكية موقفا عبرت عنه
صحيفة نيويورك تايمز بقولها انها « ليست مستعدة لتأييد مطالب مصر

أو جلاء الانجليز عنها ولا الى التصويت ضدها وإن مصلحتها تأجيل البت
فى النزاع » .

وقد كشف عرض القضية المصرية على مجلس الأمن حقيقة اتجاهات
الدول الكبرى بطريقة عملية . . . ارتفعت أصوات فى مصر تطالب بصدقة
الاتحاد السوفيتى الذى وقف معنا ، ومثال ذلك مصر الفتاة التى غيرت
موقفها بعد ان كان أحمد حسين قد سافر الى الولايات المتحدة فى بداية
١٩٤٧ والقى تصريحات تؤيد السياسة الأمريكية وتؤيد مبدأ ترومان : الذى
كان يقضى بالتدخل فى شئون ايران واليونان وتركيا ، وهى الدول المجاورة
للاتحاد السوفيتى .

وارسل برقية الى ترومان من ألف كلمة يهنئه فيها بقرار مساعدة
تركيا واليونان ، ويرحب فيها باهتمامه بالشرق الأوسط ويقول له « ان
السياسة الأمريكية لمقاومة الشيوعية يجب أن تشمل مصر وهى لا تطلب
مالا بل تطلب الحرية فانها اذا حصلت على استقلالها ووحدتها مع السودان
ستكون سدا منيعا ضد الشيوعية » .

ولكن موقف مجلس الأمن كان تجربة بددت أوام أحمد حسين فى
صدقة الولايات المتحدة لمصر مما جعله يخفف حملته ضد الدول الشيوعية
ويذهب بنفسه الى السفارة السوفيتية والبولندية ضمن الوفود التى
توافدت عليهما للشكر . . . وكذلك حافظ رمضان زعيم الحزب الوطنى
المعروف بمواقفه المحافظة أصدر بيانا يطلب فيه ان توثق مصر علاقاتها مع
الدول التى ساندتنا فى مجلس الأمن .

وكان محمود فهمى النقراشى قد طلب من الولايات المتحدة وهو
بنيويورك أن تمنحه قرضا ومساعدات اقتصادية فلم تجبه ، وطلب اليها
أن تمد الجيش المصرى بخبراء عسكريين فكان الجواب أنه ليست لديهم
خطة حول هذا الموضوع .

وأمام غموض الموقف السياسى انفجرت المظاهرات الشعبية فى ٢٢
أغسطس ونادى الوفد بالحياة ، وظهرت الدعوة الى الكفاح المسلح برفع
شعار (الجلاء بالدماء) وزادت اضرابات العمل زيادة ملحوظة من سبتمبر
١٩٤٧ ، وصلت الى ذروتها عندما أضرب عمال شركة الغزل والنسيج
بالمحلة الكبرى البالغ عددهم ٢٦٠٠٠ عامل واطلق البوليس عليهم الرصاص
فقتل أربعة عمال وأصاب ٢٠٠ وشببت بعض الحرائق قدرت الصحف
خسائرها بنحو ٢٠٠٠٠ جنيه .

واستدعى الجيش للتدخل فحاصرت قواته المصنع ورابطت عرباته المصفحة بجوار المرافق العامة ، ولكنه كما حدث عام ١٩٤٦ لم يشتبك مع العمال باطلاق الرصاص ٠٠٠ أو لم يطلب منه الدخول فى هذا الاختبار ٠

وفى ٢٦ سبتمبر أضرب عمال الشركة الأهلية للغزل بالإسكندرية واعتصموا بمصنعى الشركة ، وأرسلت اليهم قوات من الجيش أيضا ، وأعلنت حالة الطوارئ فى الإسكندرية ٠

وأضرب عمال شبرا الخيمة تضامنا مع زملائهم وخرجوا فى مظاهرة كبيرة منعتها قوات البوليس من دخول القاهرة ٠

توالى حركات الاضراب حتى أصبحت أبرز ظواهر هذا العام وبداية عام ١٩٤٨ فقد أضرب مدرسو التعليم الحر ، وموظفو التلغراف وامتنع نظار ومعاونو السكة الحديد عن العمل ، وأضرب المدرسون عن تصحيح أوراق الامتحانات ، وأضرب خريجو المدارس الثانوية الصناعية فى مسابك السكة الحديد ببولاق وورش أبو زعبل ، والمرضون بالقصر العينى حيث قتل سليم زكى حاكمدار العاصمة ٠

وتعددت اضرابات الطوائف وتضاعفت موجتها حتى وصلت الى غايتها عندما أضرب رجال البوليس أنفسهم مطالبين بمساواة العسكريين منهم برجال الجيش ومساواة الاداريين منهم برجال القضاء ، وقدموا بذلك عدة مذكرات لم يحصلوا منها على جواب فاجتمعوا بناديتهم فى حديقة الأزبكية يوم ١٣ أكتوبر ١٩٤٧ وقرروا الامتناع عن العمل يوم ١٥ أكتوبر حتى تجاب مطالبهم وقرروا تسجيل أسمائهم فى قصر عابدين حتى لا يتهمون بالتمرد السياسى ٠

وفى صباح ذلك اليوم أعلنت الحكومة حالة الطوارئ كمحاولة منها لمنع الاضراب ولكن ضباط القاهرة تركوا مكاتبهم وغادروا أقسام البوليس واجتمع ٥٠٠ منهم بالنادى ووصلتهم برقيات تأييد من ١٧٧٢ ضابطا بالأقاليم ٠٠٠ وقرر ضباط الإسكندرية النوم فى ناديتهم ٠

وبعد مقابلة الملك لعدد من مندوبى الضباط عدل الضباط عن الاضراب ، ولكن الحكومة شتت قاداتهم ونقلتهم الى الأقاليم وأحالت بعضهم الى الاستيداع ٠

ولم يؤثر ذلك استمرار حركة ضباط البوليس اذ اجتمعوا بناديتهم فى مارس ١٩٤٨ وقرروا أن يكون ١٥ ابريل موعدا لنهاية مدة الانتظار لاجابة مطالبهم مع المطالبة بإعادة المنقولين والمحالين الى الاستيداع ٠

وفي اليوم المحدد للإضراب احتشد ضباط البوليس في ناديم
يحاصروهم ضباط الجيش الذي كان مجلس الوزراء قد قرر أن يحتلوا أقسام
البوليس ويقوموا بحفظ النظام .

تضامن الصولات والكولستبلات وعساكر البوليس مع ضباطهم ،
وعندما حاول رجال الحرس الجمركي في الاسكندرية الخروج في شبه
مظاهرة اصطدمت بهم قوات الجيش وقتل ثلاثة منهم واصيب ٢٧ .

وخلت صدام آخر اطلق فيه الجيش الرصاص على المظاهرات التي
خرجت في الاسكندرية تضم العمال والطلبة وجنود البوليس وقد رفع
بعضهم ارفع الخبز فوق بنادقهم ، وعندما امتلأ بهم ميدان المنشية اطلق
الجيش عليهم الرصاص ، وجاء رد الفعل في صورة حرائق صغيرة بقسمي
الجمرك والميناء واحترقت ١٥ عربة ترام وبعض المحال ودور السينما وقتل
٢٧ شخصا منهم ٧ من جنود البوليس . . .

واصدرت الحكومة قرارا بمنع التجول في الاسكندرية من الساعة
مساء ، وسافر النقراشي الى الاسكندرية بعد أن اتخذ مجلس الوزراء قرارا
بفصل كل من لا يعود الى عمله في اليوم التالي مع تقديم المحرضين الى
المحاكمة العسكرية ومنع النشر عن أخبار هذا اليوم وصودرت الصحف .

وكان هذا الاضراب في صورته التي تم بها تعبيراً عن التفسخ الذي
وصلت اليه الحالة ، وعجز الحكومة عن مجابهة الأمور .

وكانت الطلقات التي خرجت من بنادق الجيش ضد جنود البوليس
أو مظاهرات الشعب دليلاً على أن الخطر قد وصل فعلاً الى حد تهديد النظام
نفسه اجتماعياً وسياسياً .

ولم يكن الجيش نفسه بعيداً عن التأثير بهذه الحركات السياسية -
مشروع صدقي بيفن - فشل القضية في مجلس الأمن - عجز الحكومة عن
مجاابه الموقف - تصاعد الاضرابات والمظاهرات .

وكان أمراً خطيراً أن يصل انفعال الجيش بحركات الجماهير الى
الذروة ، لأنه يعنى في مضمونه احتمال انفجار ثورة شعبية لا تخمدتها قوة
مسلحة خاضعة للسلطة الحاكمة .

كانت هذه الفترة من امجد فترات نضال الشعب المصري في حركة
سياسية واجتماعية مشتركة . . وفي تناسق ناشئ بين الشعب والجيش .

ولم يكن منتظرا أن تصاب السلطة الحاكمة ومن ورائها الاستعمار
بشلل مفاجئ. . . . بل كان أمرا منتظرا وطبيعيا أن يحدث تدبير ما يجهض
هذه الانتفاضات الشعبية ، ينهى رد فعلها في صفوف الوطنيين بالجيش .

وكانت قضية فلسطين .

الفصل الخامس

حرب فلسطين ١٩٤٨

(اننى متفائل ونحن نعرف قوة اليهود ، وأنا
احب اطمئنتك الى أن الانجليز هم الذين
شجعوني على ذلك)
محمود فهمى النقراشى لوفاد سراج الدين
فى مجلس الشيوخ يوم ١٢ مايو ١٩٤٨

طلب ترومان رئيس الولايات المتحدة من الحكومة البريطانية فى
أكتوبر ١٩٤٥ فتح أبواب فلسطين فى الحال لدخول مائة ألف مهاجر يهودى
... وقد أذعنت الحكومة البريطانية لذلك نتيجة أزمته الاقتصادية
واعتمادها على الولايات المتحدة لإعادة بناء ما خلفته الحرب العالمية الثانية ،
ولكنها رأت اشراك الأمريكين معها فى تنفيذ سياسة التوسع فى تهجير
اليهود وذلك حتى لا تتحمل وحدها مسئولية ذلك أمام جماهير الأمة
العربية ، فى الوقت الذى ستفيد منه الولايات المتحدة حيث زاد نفوذ اليهود
الأمريكين داخل الحركة الصهيونية حسب ما ورد فى مذكرات وايزمان .

وكان من أهم جوانب هجوم تشرشل زعيم حزب المحافظين البريطانى
على سياسة بيفن فى تصريحه بالجلالة عن مصر سنة ١٩٤٦ أن هذا الجلاء

يقضى بالبقاء فى فلسطين الأمر الذى يبعد امكانيات الاتفاق بين بريطانيا وأمريكا ، ومع فشل مشروع صدقي بيفن فى أواخر ١٩٤٧ وضع أن اتفاقا قد تم على أن تترك فلسطين للولايات المتحدة من خلال تمكين الصهيونية فيها على أن يستمر بقاء الانجليز فى مصر .

وفى خريف ١٩٤٧ أعلنت بريطانيا عزمها على إنهاء الانتداب عن فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ وعرضت الأمر على الأمم المتحدة التى أصدرت قرارها بتقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .

وقد صدر هذا القرار فى وقت كانت الحركة الوطنية فيه ملتهبة فى مصر ، واضرابات الطوائف ومظاهرات الطلبة والعمال تتزايد ، وحركات الارهاب ضد البريطانيين وعملاتهم تتجسد .

وكانت قضية فلسطين تشغل بال رأى العام المصرى ، ولكنها كانت تاتى بالتأكيد بعد قضية الجلاء والوحدة مع السودان والديمقراطية .

ولكن بعض التنظيمات السياسية مثل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة دفعت بهذه القضية الى المقدمة وجعلت منها موضوعا رئيسى ودعت الى الكفاح المسلح ضد الصهيونية ، ونظرت الى فلسطين كمجال لحرب مقدسة وطنية ودينية . . . وأخذت جماهير هذه التنظيمات تتظاهر وتعتدى على بعض اليهود المقيمين فى مصر . . . وارتفعت دعوة التطوع للقتال وسافر أحمد حسين رئيس مصر الفتاة الى سوريا ، وألف الاخوان المسلمون كتائب الجهاد .

وكان حسين البنا قد وجد فى قضية فلسطين فرصة لمضاعفة نشاط جماعته خارج مصر ، فاكسب تأييد أمين الحسينى مفتى فلسطين ، واتصل بحكام البلاد العربية وملوكها ، وشجعه على ذلك أمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام .

وعندما رفضت وزارة النقراشي السماح لهم بادخال افواج المتطوعين الى صحراء النقب تسلبوا عبر سيناء وانضم البعض منهم للجامعة العربية التى شكلت منهم ثلاث كتائب ، وقد بدأ قتالهم الفعلي فى فبراير ١٩٤٨ فى وقت كانت الاضرابات والمظاهرات الوطنية فى مصر من أجل الجلاء قد بلغت الذروة .

أما سياسة الوفد فكانت حسب تصريح لمصطفى النحاس الى جريدة الأيام السورية تؤيد ان تكون فلسطين لأهلها مسلمين أو نصارى أو يهودا ولكنه لا يقبل أن تكون وطننا قوميا للصهيونية . . وقال انه أعلن ذلك فى بروتوكول الاسكندرية الذى صدر عام ١٩٤٤ بإنشاء الجامعة العربية . . .

وقد عارض الوفد بوضوح تقسيم فلسطين ولكنه لم يدع الى الكفاح المسلح
أو انشاء الكتائب أو دخول الجيش المصرى للحرب واكتفى بأسلوبه التقليدى
فى النضال الجماهيرى .

أما الحركات الماركسية وهى (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى)
(طليعة العمال والفلاحين) فقد اتخذت موقف العداء للصهيونية ودعت الى
مقاومتها وكشف ارتباطها بالاستعمار الأمريكى ، وشجعت اليهود المعادين
للسيونية الذين انتظمتم (رابطة الاسرائيليين لمكافحة الصهيونية)
و (الحركة المضادة للصهيونية) والتي نادى بالقضاء على الحركة الصهيونية
والوقوف ضد هجرة اليهود من مصر وتأكيد ارتباطهم بمصالح الشعب
المصرى وكفاحه الوطنى .

وعندما صدر قرار التقسيم عارضته (طليعة العمال والفلاحين)
وأيدته (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) مبررة ذلك بقولها « اننا
لا نريد أن ننزع فلسطين من العرب ونعطيها لليهود بل ننزعها من الاستعمار
ونعطيها للعرب واليهود ، ولا نوافق على التقسيم الا مضطرين كأساس
لاستقلال فلسطين ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر فى
الدولتين العربية واليهودية » .

وقد عارضت (حدتو) الدعوة الموجهة لدخول حرب دينية موضحة
انه لن يفيد منها سوى المستعمر منادية كما جاء فى مجلتها الجماهير
(لنوجه السلاح الى الاستعمار فى فايد وقنال السويس والسودان فلن
يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو) وجاء فى بيان للحركة
الديمقراطية للتحرر الوطنى « ان الضمان الوحيد لوحدة فلسطين هو العمل
على ايجاد جو من اللفة والثقة المتبادلة بين الجماهير الكادحة العربية
واليهودية ، وانه اذا كان قد اتخذ قرار التقسيم فان طريق توحيد الدولتين
هو طرد الاستعمار » وعلق البيان على موقف الحكومات العربية قائلا انها
تهدف الى « وقف تيار الحركات الوطنية الصاعدة وتحويل حربنا المقدسة
ضد الاستعمار الى حرب عنصرية دينية تدعم مركز الاستعمار وانه يرمى
الى صرف أنظار الجماهير الكادحة عن الكفاح فى سبيل مستوى معيشتها
الى أمر خارجى ينسبها هذا الكفاح » . ولكن هذا الموقف لم يجد استجابة
لدى الجماهير أمام تيار الدعاية الذى شنته تنظيمات الاخوان المسلمين
ومصر الفتاة وساندتهم فيه الجامعة العربية ، وموقف الوفد المتحفظ من
القضية وخاصة بعد اقرار الأمم المتحدة لمشروع التقسيم .

وكان تيار التطوع يزداد تدفقا . . . كتائب الجامعة العربية تسلمت
الى فلسطين تحت قيادة القائم مقام أحمد عبد العزيز ومعه كمال الدين حسين

عضو مجلس الثورة فيما بعد وعدد من الضباط كانوا جميعا من المنتمين الى الاخوان المسلمين .

وقد كان جمال عبد الناصر رأى فى التطوع أوضحه لوجيه خليل أحد الضباط الوطنيين الذين سعوا الى العمل التنظيمى خلال الحرب العالمية ثم استشهد فى فلسطين اذ طلب منه تأجيل ذلك حتى يدرس الأمر على مستوى الدولة كلها .

وأما مجموعة الطيران فقد اتصلت بفوزى القاوقجى قائد جيش التحرير السورى عن طريق عبد اللطيف بغدادى الذى أبدى استعداداه للتعاون معه بعد أن رفضت الحكومة المصرية تطوع الطيارين عن طريق الهرب الى سوريا بطائرات مقاتلة . . . ولم يكن فى سوريا وقتئذ سلاح للطيران ، ولا مطار سرى يصلح للهبوط .

وقال فوزى القاوقجى انه سوف يحتاج لهم فى المعركة الفاصلة . وسافر حسن ابراهيم عضو مجلس الثورة فيما بعد وزكريا سليمان وهو فنى تسليح حيث قابلا وزير الدفاع السورى وانضى مطار سرى شرق دمشق بستين كيلو . . . وانتدب القاوقجى شابا كان قد تدرب فى المانيا ليكون ضابط اتصال مع الطيارين المصريين ، ولقد حضر الى مصر مع جهاز لاسلكى وشفرة خاصة .

وطال انتظار الطيارين المصريين طويلا فلم يتصل بهم فوزى القاوقجى حتى قامت الحرب فعلا ، بعد ان جندوا ١٥ طائرة سبتمبر صالحة للقتال .

• وكانت فكرة التطوع تجده لها انصارا كثيرين فى الجيش من بينهم محمد نجيب الذى آمن بأن الوسيلة المثلى للقتال فى فلسطين لا تكون الا باستخدام حرب العصابات . . . وفى هذه الفترة اصدرت كتابا كان الاول من نوعه فى العربية عن (حرب العصابات) .

ولم يكن لجوء النقراشى للقوة المسلحة ودخول الحرب أمرا واردا حتى يوم ١٦ مايو ١٩٤٨ عندما تغير رأيه فجأة (بين عشية وضحاها) على حسب تعبير الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ فى كتابه (مذكرات فى السياسة المصرية) وطلب فى ١٢ مايو عقد البرلمان فى جلسة سريعة لطلب دخول القوات المسلحة أرض فلسطين .

كان هذا التغيير المفاجئ فى موقف النقراشى مثيرا للانتباه والدهشة . . . وقد سأله فؤاد سراج الدين زعيم المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ عما اذا كان قد قدر موقف الانجليز ووعده بلفور وعن احتمالات طعنهم لجيشنا من الخلف . . . فكان جواب النقراشى له « اننى متفائل ونحن

نعرف قوة اليهود تماما ، وأنا أحب أطمئنتك الى أن الانجليز أيضا هم الذين شجعوني على ذلك » .

واعتزكس. أيضا اسماعيل صدقي على دخول الجيش لأنه غير مستعد من الناحية العسكرية ولكن النقراشي أكد انها نزهة للجيش .

ولم يكن الملك أقل تخمسا للقتال من غيره . . . بل انه بادر بتحريك الجيش قبل موافقة البرلمان عن طريق اعطاء الأوامر لمحمد حيدر وزير الدفاع دون علم رئيس الوزراء . . . وأدى الملك في اليوم السابق لعرض الأمر على البرلمان بحديث الى مراسل اليونانيتدبرس تجاوز به حدود اختصاصاته الدستورية وقال أنه سيمد العرب بكل مساعدة عسكرية ومالية واقتصادية وانه لن يقبل قيام دولة صهيونية على حدود مصر ولذا فلا بد من استعمال القوة .

اتخذ القرار في لهفة وعجلة ودون دراسة متروية في وقت كان الجيش المصري فيه مازال يعاني من نقص التسليح فلم تكن بريطانيا قد أمدته بالأسلحة التي طلبها بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ، وكانت بريطانيا قد امتنعت عن تصدير الأسلحة اللازمة نتيجة الوضع الدولي واندلاع الحرب العالمية الثانية ولم تستأنف المفاوضات حول هذا الموضوع الا عام ١٩٤٦ حيث قطعت مرة أخرى بسبب الموقف الداخلي .

كان الجيش المصري حتى هذه الفترة بعيدا عن تنظيم المعركة . . . فلم يكن قد عرف نظام التشكيلات بعد . أي كان أسلحة منفصلة لا تنسيق فيها ولا تجميع للقتال . . . وكان التدريب قاصرا ومتخلفا عن مناورات المعركة .

ولم تكن طواير الجيش تشهد الا في المخل والجنازات . . . وكانت هذه الحقيقة يدركها كل ضباط الجيش ، ولكن الدعاية الجارفة أشعلت الحماس للقتال ، وجعلت رجال الجيش يقبلون على المعركة في البداية بروح معنوية عالية .

حدث في سلاح الطيران ان جمع اللواء شعراوي قائد السلاح ميكانيكية السلاح الجوي ليمهد لهم دخول الحرب . . . وتساءل بعضهم عما اذا كانت المناقشة حرة فلما أجاب بالإيجاب ، وقال له بعض الحاضرين ان سلاح الطيران تحت يد رجال البعثة البريطانية بطريقة عملية وانه لن تتوافر للمصريين حرية الحركة ، كما أن هناك تناقضا بين وجود القوات المصرية في سيناء ومن خلفهم القوات البريطانية . . . ووجد هذا الرأي موافقة شبه جماعية . . .

ولكن ذلك لم يحمل دون دخول الجيش أرض فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ .

وكان فى هذا الموقف انقاذ لنظام الحكم الذى كان يجابه المشاكل الآتية : -

١ - القضية الوطنية معلقة بعد فشل المفاوضات وفشل اللجوء لمجلس الأمن والسياسة الاستعمارية تعمل على فصل السودان ، والجماهير لا تغفل لحظة عن مطالبها الجماعية .

٢ - التهاب الموقف الداخلى بالمظاهرات واضرابات الطوائف والهيئات المهنية والعمالية فى مطالبة جماعية بتحسين الأوضاع الاجتماعية ، وصلت الى ذروتها باضراب رجال البوليس .

٣ - ضيق الشعب بحكم احزاب الأقلية التى تمثل ارادته مطلقا .

٤ - استحكام الغلاء الى حد جعل الحياة شديدة الصعوبة بالنسبة للأغلبية الساحقة من الناس .

هذه هى الحالة التى كانت تسود مصر قبل حرب فلسطين مباشرة ، وهى مليئة بعوامل التفجر التى تهدد قواعد النظام الذى كان يستند الى ملكية فاحت رائحة تصرفات رجالها الى الحد الذى أضعف تماما من مركز الملك ، واحزاب الأقلية عاجزة عن مجابهة المستعمرين ، الأمر الذى كان يحمل بذور ثورة شعبية .

وهكذا وجلت حكومة النقراشى فى دخول الحزب انقاذا لها مما عجزت عن مجابهته ، ووجد فيها الملك والاستعمار طوق نجاة يتعلقان به لانقاذهما من غضب المجتمع المتزايد يوما بعد يوم .

وصحب دخول المعركة عدة اجراءات أنهت فترة المد الثورى التى بدأت مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استصدرت الحكومة فى ١٣ مايو قرارا يخولها حق اعلان الأحكام العرفية وبدأت عمليات الاعتقال فى ١٦ مايو لعدد كبير من المناضلين اليساريين واليهود المصريين بلغ عدة مئات فى معسكر هاكستب . وفرضت الرقابة على الصحف ، وقيدت الاجتماعات العامة ، وضربت الحريات الشعبية .

وهكذا تراجعت المسألة الوطنية والصراع الاجتماعى . . . وبرزت هستيريا النعاية الحزبية . .

وبدأت قوات الجيش المصرى معاركها الأولى فوق أرض فلسطين . . . بعد فترة لم يشترك فيها الجيش فى حرب منذ عاد من السودان عام ١٨٩٩ .

• خمسون عاما والجيش تحت الاحتلال البريطاني بلا قتال •

كان الجيش المصري غير مهيا للقتال تسليحا أو تدريبا ٠٠٠ ولم يكن قد قام بمناورات قتال ضد وحدات عصابات متحركة •

قانون التجنيد الذي صدر عام ١٩٠٢ لم يتغير الا عام ١٩٤٧ بعد عشر سنوات من معاهدة ١٩٣٦ وقبل عام واحد من حرب فلسطين •

كان القانون الجديد خطوة الى الامام نحو تطوير الجيش المصري ••
اذ الغي البدل النقدي وخفض مدة الخدمة العسكرية الالزامية من خمس الى ثلاث سنوات ، وسنة واحدة لذوى المؤهلات ، وسمح بتأجيل تجنيد الطلبة حتى سن ٢٧ •

كان غريبا أن يتأخر صدور هذا القانون بعد معاهدة ٣٦ عشر سنين يظل الجيش خلالها تحت ظروف شديدة التخلف مما أدى بالتالى الى دخوله حرب فلسطين وهو غير مهيا من ناحية المهارة والقدرة الفنية على القتال الحديث •

ومع ذلك صور له القادة المعركة وكأنها أمر يسير لن يحتاج لتضحيات أو جهد كبير ••• قال اللواء عثمان المهدي رئيس أركان حرب الجيش في ذلك الوقت لاجتماع من الضباط (أنتم ذاهبون الى فسحة) •

• ولم تكن الدولة قد عبات نفسها للحرب ••• بل لم تكن هناك ادارة للتعبة ••• أول كتيبة دخلت أرض فلسطين كانت تحملها عربات أوتوبيس أحضرها أحد المقاولين •

وبعد الهدنة الأولى التي فرضت يوم ١١ يونيو ١٩٤٨ قدم فؤاد سراج الدين استجوابا للنقراشي باشا في جلسة سرية بمجلس الشيوخ قال له فيه انه قد تبين منذ اليوم الخامس للقتال أن الحكومة تستولى على وسائل النقل المدنية لحساب الجيش •

• ولم تكن هناك قيادة مشتركة للجيش العربية السبعة التي دخلت أرض فلسطين : جيوش مصر وشرق الأردن ولبنان وسوريا والعراق والسعودية وفلسطين والسودان •• وقال النقراشي في الجلسة السرية أيضا إن نوري السعيد قد عرض عليه تكوين قيادة مشتركة ، ولكنه رفض لأنه « لا يستطيع أن يتحمل متاعبهم ، ولا يود أن يضع رقبتهم في أيديهم » •

وجهات نظر مختلفة للقضية الفلسطينية

: غاد القتال فتجدد مرة أخرى يوم ٩ يوليو حيث توقف مرة ثانية يوم ١٨ يوليو .

وكانت قيادة اللواء أحمد المواوى للقوات المصرية محل شكوى كثير من الضباط ، وخاصة محمد نجيب الذى جرح فى هذه الحرب ثلاث مرات وحدثت بينه وبين المواوى مشادة انتهت الى نقله مديرا لمدرسة الضباط العظام بالقاهرة ، حتى عين اللواء أحمد فؤاد صادق بدلا من المواوى .

وقد تغير الموقف قليلا بعد تعيين اللواء أحمد فؤاد صادق لانه كان يجيد الخطابة وأحاط نفسه بعناصر محبوبة من الجيش ٠٠٠ أعاد محمد نجيب الى ميدان القتال قائدا للواء الضارب ، وعين البكباشى محمد كامل الرحمانى الذى قاد حملة الاحتجاج على حادث ٤ فبراير واعتقل نتيجة ذلك ، اركان حرب له .

وقد فكر الضباط الذين كان قد فاض بهم من تصرفات كبار الضباط فى تعيين اللواء أحمد فؤاد صادق رئيسا لأركان حرب الجيش بطريقة مسرحية خلال حفل توديعه بعد انتهاء الحرب ، ولكنه عندما أحس بذلك خرج من القاعة بعد خطبته مباشرة ، وقبل أن يلقي الضابط المكلف بإعلان هذا الخبر كلمته .

والحقيقة أن أحمد فؤاد صادق كان على صلة ببعضو الحرس الحديدي مصطفى كمال صدقى الذى كان يهيم له الأمر ليكون رئيسا لأركان الحرب فعلا بإرادة الملك والسراى ، وليس بإرادة الضباط الوطنيين .

ومنذ هذه اللحظة تبين لصغار الضباط أن اللواء أحمد فؤاد صادق ليس أهلا لتحمل مسئولية ثورية ، وقد اعترف هو بذلك فى خطاب كتبه الى محمد نجيب بعد الثورة قائلا له : انه كان أشجع منه يوم قبل المهمة التى كلفه بها الضباط الأحرار .

وقد حفلت حرب فلسطين ببطولات نادرة للضباط والجنود المصريين ، الذين حاربوا ببسالة فى ظروف شديدة الصعوبة ، واستشهد منهم ٩٧ من خيرة الضباط .

ولم تستمر الهدنة الثانية أكثر من شهرين وتجدد القتال بهجوم صهيونى فى أكتوبر انتهى الى حصار الفالوجا فى ١٦ أكتوبر واستمرت محاصرة لمدة ١٣٠ يوما حتى بدأت مفاوضات رودس ووقعت بها اتفاقية الهدنة يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ بعد ان توقف القتال يوم ٧ يناير .

كان أحد قادة الفالوجا قد أعد خطة لفك الحصار عنها مع التضحية بنسبة كبيرة من حاميتها ، ولكن جمال عبد الناصر أحد ضباط حرب الحامية المحاصرة عارض ذلك حتى تكون القوة المصرية بالفالوجا عامل ضغط سياسى للمفاوض المصرى فى رودس . . . وهذا يوضح بصيرته السياسية النافذة المبكرة .

وضعت اتفاقية الهدنة بسحب القوات المصرية من الفالوجا ، وتبادل الأسرى خلال عشرة أيام ، ومنع الفريقين من القيام بأى حركات عسكرية أو زيادة للذخائر أو المهمات الحربية ، وعدم انشاء مطارات فى فلسطين .

والمقارنة بين بنود اتفاقية الهدنة التى أقرت الأوضاع القائمة وأعطت الفرصة لإسرائيل بالاستيلاء على صحراء النقب والوصول الى ايلات وبين قرار الأمم المتحدة الخاص بالتقسيم يوضح أن العرب قد فقدوا فرصة إقامة دولة عربية مستندة الى قرار الأمم المتحدة وفقدوا جانباً كبيراً من الأرض التى كان قد منحها لهم قرار التقسيم .

صحيح ان التقسيم كان قد منح اليهود ٥٠٪ تقريبا من مساحة فلسطين بينما حجم الممتلكات اليهودية الفعلية لم يكن يتجاوز ٧٪ من هذه المساحة . . . ولكنه صحيح أيضا ان العرب فى القسم العربى كانوا أغلبية كبيرة (٦٨٣ ألف عربى و ٨٠ ألف يهودى) وانهم فى القسم اليهودى كانوا ٥٨٤ ألف مقابل ٥٨٣ ألف يهودى (دراسة الكاتب الفلسطينى خيرى حماد)، وان فرصة النضال لتكوين دولة موحدة فى ظل السلام ، كانت أكبر من فرصة فرضها بالقتال .

كانت الدلائل توحى بذلك بعد ان تحولت الهاجاناه الى الهجوم بعد رفض العرب قرار التقسيم . وفى الواقع كانت أعمال المقاومة العربية تقتصر فى ذلك الوقت على قطع بعض الطرق أساسا ومحاولة حصار المناطق اليهودية لاحتياط الأهداف التوسعية المتبقية ، فخلال الشهور التى انتقلت قرار التقسيم والى أن تدخلت جيوش الدول العربية فى منتصف مايو ١٩٤٨ لم تهجر أو تدمر أى مستعمرة يهودية ، بينما اقتحمت القوات الصهيونية الكثير من القرى العربية « التى تبعد أميالا كثيرة عن المستعمرات اليهودية بحجة مهاجمة العصابات العربية » .

ويمكن القول ان الفترة ما بين أول ومنتصف مايو ١٩٤٨ تعتبر من أخطر مراحل المخطط الصهيوني وأعظمها أثرا رغم كونها لم تزد عن ستة أسابيع ، فقبل هذه الفترة كان العرب يسيطرون على معظم أراضي فلسطين الا أنه خلال هذه الفترة كانت قوات الهاجاناه قد استولت على مدن طبرية وحيفا (عدا الميناء لوجود قوات بريطانية) وصفد ويافا والأحياء الهامة من القدس كما حاصرت عكا واستولت على الجليل الغربي والشرقي (علما بأن الجليل الغربي بما فيه مدينة عكا وكذلك مدينة يافا كانت خارج نطاق السولة اليهودية) وتولت العصابات الارهابية (الارجون وشترن) أعمال الارهاب والعنف الرامية الى اجبار السكان المدنيين على ترك مدنهم وقراهم فهاجمت القرى الآمنة وارتكبت مجازر وحشية ضد العرب دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال ومن أكثرها بشاعة مذبحه دير ياسين التي جرت يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ وانتهت بقتل أكثر من ٢٥٠ عربيا ٠٠٠ وقد بلغ عدد القرى العربية التي تعرضت للهجوم حوالي مائة قرية عربية .

هكذا التقى رفض العرب لمشروع التقسيم ونقص قدراتهم العسكرية مع المخطط الصهيوني التوسعي القائم على استخدام القوة ، وانتهى الأمر باعلان بن جوريون لدولة اسرائيل مساء ١٤ مايو ١٩٤٨ واعترفت حكومة الولايات المتحدة بها بعد دقائق من اعلانها ووجه ترومان السعوة لحاييم وايزمان رئيس دولة اسرائيل في اليوم التالي لتعيينه مباشرة .

وقد ساعد على تثبيت دعائم اسرائيل رغم دخول الجيوش العربية ساحة القتال وعرض القضية أمام مجلس الأمن ، الظروف التي سبق شرحها لحالة الجيوش العربية ، واستفادة الصهاينة من الهدنة الأولى لاعادة تنظيم وحشد قواتهم واستيراد الأسلحة الثقيلة كالدافع والدبابات واستخدام الطائرات لأول مرة ، مع أن قرار الهدنة كان يحظر استيراد الأسلحة .

وخلال الهدنة وصل الكونت فولك برنادوت مبعوثا لهيئة الأمم المتحدة واعده مشروعا يدعو فيه الى توحيد فلسطين وشرق الأردن في وحدة مكونة من جزأين أحدهما عربي والآخر يهودي مع تخصيص النقب كله أو معظمه للقسم العربي والجليل كله أو معظمه للقسم اليهودي ، أما القدس فتبقى ضمن القسم العربي مع توفير حكم ذاتي للجالية اليهودية فيها ٠٠٠ وكانت نتيجة تفكيره في هذا المشروع اغتيال الصهاينة له يوم ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ وتعيين رالف بانس بدلا منه .

وعندما استؤنف القتال في ٩ يوليو تمكنت اسرائيل من متابعة هجومها ضد مناطق سبق تخصيصها للدولة العربية والسيطرة على ١٤

مدينة و ٢٠٠ قرية عربية ، واستمر القتال عشرة أيام بدأ خلالها الموقف العسكري العربي يتعرض للاهتزاز خاصة بعد إخلاء الجيش الأردني لمدينتي اللد والرملة واستيلاء الصهيونيين عليهما ٠٠٠ وكان الجنرال جلوب البريطاني هو قائد قوات شرق الأردن .

ورغم اغتيال برنادوت فإن مشروعه عرض على هيئة الأمم المتحدة في أواخر سبتمبر وقبلته بريطانيا وأمريكا ولكن رفضه كل من العرب والصهيونيين ٠٠٠ : العرب رغم وضوح دقة موقفهم وبوادى هزيمتهم والصهيونيين بحجة (تسهيل الدفاع عن حدود إسرائيل) .

ولم يحافظ الاسرائيليون على الهدنة الثانية واستمروا يضيفون مزيدا من الأرض حتى تجدد القتال في أكتوبر وسقطت بئر سبع في ٢١ أكتوبر ليتوقف القتال بعد ذلك يوم ٢٢ ، وتدخل الأمور في دائرة المفاوضات التي انتهت بالهدنة .

وبينما كان الوفد الأردني يجري محادثات في رودس اصدر جلوب أوامره بسحب القوات الأردنية من مناطق رأس النقب وأم شرش على خليج العقبة ، حيث احتلتها القوات الاسرائيلية وأقيم ميناء إيلات .

ترتب على الهزيمة رد فعل قوى خارج الجيش وداخل الجيش ٠٠٠ وكانت الحرب قد استغلت اسوأ استغلال وامتلأت المعتقلات والسجون بعدد كبير ، وتوقفت قسرا رحلة المقاومة الثورية ضد الاستعمار والنضال الشعبي ضد الظلم الاجتماعي .

وكانت جماعة الإخوان المسلمين قد انتهزت فرصة حرب فلسطين لتقوية جهازها السري المسلح وامتداده بالأسلحة والذخيرة في الوقت الذي اسهم فيه بعض اعضائها بالقتال في فلسطين واستشهدوا هناك في أرضها .

وانتهزت الجماعة فرصة حرب فلسطين فقامت بعمليات إرهابية القت فيها القنابل والمتفجرات على المحال الكبيرة التي يحتلها اليهود في مصر كاريكو وشيكوريل في يوليو ١٩٤٨ وبنزايون وجاتينيسو في أغسطس وشركة الاعلانات الشرقية في نوفمبر ٠٠٠ وكان قد سبق لهم اغتيال أحمد الخازندار رئيس محكمة جنايات مصر في مارس ١٩٤٨ ، واغتالوا أيضا سليم زكي حاكم دار بوليس القاهرة في ٤ ديسمبر بقنبلة ألقيت عليه أمام كلية الطب ، وكان هذا مما دفع الحكومة الى حل جماعة الإخوان .

وردت على ذلك جماعة الإخوان باغتيال رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا يوم ٢٨ ديسمبر في بهو وزارة الداخلية ، ومحاولة نسف دار محكمة الاستئناف في ١٣ يناير ١٩٤٩ .

وهنا تصاعدت موجة العنف من جانب الحكومة عقب تولى ابراهيم عبد الهادى رئاسة الوزارة ، وبدأت عمليات الارهاب والتعذيب تطفو فوق سطح الحياة المصرية ٠٠٠ واغتيل الشيخ حسن البنا مرشد الاخوان بتدبير من الحكومة والسراى يوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ .

واعتقل فى موجة الاعتقالات عدد من ضباط الجيش ، وكان قاتل النقراشى عبد المجيد أحمد حسن شقيقا لأحمد ضباط سلاح المدفعية ٠٠٠ واستدعى ابراهيم عبد الهادى البكباشى جمال عبد الناصر لمقابلته ، وحضر المقابلة اللواء عثمان المهدي رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، حيث حذره من أى نشاط أو ارتباط بالاخوان المسلمين .

وخلال فترة حرب فلسطين وما بعدها كانت صلة الاخوان التنظيمية بضباط الجيش قد ضعفت نتيجة عدة عوامل منها حركة الوحدات الى فلسطين وما يصحبها من تنقلات تضعف الاتصالات أو انصراف البعض عن تنظيم الاخوان لما لصق به من تهمة الارهاب ، كما ان عددا من الضباط كانت عقولهم قد بدأت تتفتح على أفكار جديدة ويطلب اجابات لتساؤلات يعجز الاخوان عن الاجابة عليها ، كما أن القتال فى المعركة فتح عيون الضباط على حقائق الحياة وجعلهم يرفضون الخضوع المطلق للتبعيات . ومثال ذلك عندما طلب الشيخ سيد سابق القائد الروحي للاخوان من المتطوعين ان يهجموا متراصين مستندا فى ذلك الى آية قرآنية ، وقد ناقشه فى ذلك ورفض الموافقة على رأيه بعض ضباط المدفعية .

وقد نمت هذه التناقضات فى نفوس الضباط الى الدرجة التى طلبوا فيها مسئولاً كبيراً من الاخوان يجيب لهم على هذا السؤال (ماذا ستعملون فى البلد لو انتصرنا ؟) وكان الجواب غامضاً على عادة الاخوان ، خالياً من البرنامج المقنع المدروس .

ولم تضعف صلة الاخوان التنظيمية بالضباط فقط ، ولكن ضعفت أيضاً صلة الضباط بالتنظيمات اليسارية لعوامل أخرى الى جانب حركة القوات المفاجئة وما أثرت به على استقرار التنظيم ٠٠٠ منها أن عدداً من الضباط لم يقتنع بموقف التأييد لمشروع التقسيم وجرفته حماسة الشعور التيمم الهبتها الدعاية المكثفة للقتال ، كما أن فتح المعتقلات واحتجاز المثات من الشيوعيين قد أضعف الصلة التنظيمية للحركة بصفة عامة . الأمر الذى أدى الى كتابة المنشورات بخط اليد وبورق الكربون . (كنت أقوم بذلك مع البكباشى يوسف صديق فى منزله بثكنات العباسية) .

وأدت حرب فلسطين ومواجهة الخطر المشترك وادراك ما يحيط بالجيش والمجتمع من فساد ورشوة وانحلال الى خلق رابطة فكرية مشتركة

بين عدد من الضباط ذوي الميول الوطنية النابعة من اتجاهات سياسية مختلفة ٠٠٠ وتركزت النقمة على الملك واشتد السخط على حاشيته وعلى احزاب الاقلية أيضا التي صادرت الحريات وانتهزت فرصة حرب فلسطين وحوادث ارباب الاخوان لترد عليها بارهاب مماثل لم تشهده مصر من فترة بعيدة .

كان العنف قد أصبح طابعا للمرحلة ٠٠٠ الاخوان بما يملكون من ترسانة سرية للسلاح وايدولوجية ارهابية ، والدولة بما تملكه من أجهزة مسخرة في خدمتها مهما كانت الوسائل والغايات ٠٠٠ وقام الاميرالاي محمود عد المجيد بتدبير معظم الاغتيالات التي كانت تستهدف تصفية العناصر المضادة مثل حسن البنا وعبد القادر طه .

وعندما وقعت الهندنة وتكشفت هزيمة الجيش بدأ النظام يدخل مرحلة اختناق جديدة تجسدت في العوامل الآتية :

أولا : جابهت وزارة السعديين فشلا جديدا هو هزيمة الجيش يضاف الى فشلها السابق في حل المشكلة الوطنية عن طريق الجلاء والوحدة مع السودان وعجزها عن حل مشاكل الطوائف الثائرة .

ثانيا : جاءت الهزيمة طعنة قاسية للجامعة العربية التي قامت تحقيقا للاستراتيجية البريطانية ووضح تماما شكلية دورها بالاجراءات التي اتخذها شرق الأردن ، وأدت الى استيلاء اسرائيل على مناطق كبيرة من الدولة العربية الواردة في التقسيم ، وانتهت الى قيام المملكة الأردنية الهاشمية تحت قيادة الملك عبد الله المعروف بتبعيته للاستعمار البريطاني .

ثالثا : كان انتهاء الحرب الى الهزيمة يفرض على الحكومة انهاء الأحكام العرفية والافراج عن المعتقلين ، واطلاق حرية الصحافة ، الأمر الذي قوى الجبهة المعادية لحكومة الأقليات والسراي .

رابعا : سرعان ما طفت الى السطح من جديد المشكلة الوطنية واصرار الشعب على جلاء القوات البريطانية الأمر الذي أدى الى نمو سريع للحركة الثورية التي طال كبتهها تحت ضغط الارهاب والأحكام العرفية .

لم يجد الملك أمامه من سبيل الا التضحية بحكومة ابراهيم عبد الهادي فأرسل اليه محمد حيدر وزير الحربية بعد منتصف الليل يأمره بتقديم استقالته قبل يوم ٢٥ يوليو ، دون ان يقابله ، بطريقة وصفها الدكتور هيكل باشا بأنها كانت غير كريمة ، وهللت صحافة أخبار اليوم التي طالما ساندت ابراهيم عبد الهادي بأنها هدية الملك الى شعبه في العيد ٠٠٠

والحقيقة أن الملك قد أجبر على ذلك إجباراً بعد أن كان موعد الانتخابات قد اقترب ، وانتصار الوفد فيها مؤكد ... وبعد أن كان ارهاب حكم السعديين وأحزاب الأقلية قد بلغ الذروة دون قدرة على حل المشاكل المتراكمة ...

وكانت ظروف الهزيمة تفرض على الاستعمار البريطاني تغييراً استراتيجياً في المنطقة بعد أن ظهرت إسرائيل إلى الوجود ، وبدأت حياتها في تعاون وثيق مع الولايات المتحدة الأمريكية ، بينما الاستعمار البريطاني يواجه في مصر أزمة شديدة .

ونشرت صحيفة الايكونوميست قبل اسبوع واحد من اجبار ابراهيم عبد الهادي على الاستقالة مقالا تعلن فيه افلاس السياسة البريطانية المعتمدة على الجامعة العربية وتقول « ان السياسة المستقبلية الوحيدة يجب ان تعتمد على التعاون الأنجلو أمريكي وان تكون نقطة البدء في الشرق الأوسط هي التفاهم الوثيق بين الدولتين » .

كان تغير وزارة ابراهيم عبد الهادي ضرورة تقتضيها الظروف السابقة التي استهدف الاستعمار بها محاولة الخروج من عنق الزجاجة بتكوين حلف عسكري أنجلو أمريكي في المنطقة يحفظ له قبضته وسيطرته .

وعين حسين سرى باشا في يوليو ١٩٤٩ رئيساً لوزارة ائتلافية تضم أربعة وزراء لكل من الوفد وحزب السعديين والأحرار الدستوريين ووزيرين من الحزب الوطني (جناح حافظ رمضان) وأربعة من المستقلين ... وكان حسين سرى معروفاً بميله للسياسة البريطانية التي رفعتة من موظف إلى أحد كبار (السياسة المستقلين) الذين يلجأ اليهم عندما تتأزم الأمور وتتطلب وجهاً مرضياً عنه من الجميع .

وكان ذلك أول اشتراك للوفد في حكومة ائتلافية بعد أزمته مع الأحرار الدستوريين في وزارة ١٩٢٧ عندما تأمروا ضده بعد وفاة سعد زغلول .

ولم يطل عمر الوزارة الائتلافية كثيراً إذ استقال حسين سرى بعد الانتهاء من تقسيم الدوائر الانتخابية تبعاً للتعداد الأخير للسكان ، ومحاولة أحزاب الأقلية تقسيم الدوائر للأحزاب ورفض الوفد ذلك رفضاً باتاً ... وتشكلت وزارة محايدة أخرى برئاسة حسين سرى في ٣ نوفمبر ١٩٤٩ لتشرف على اجراء الانتخابات .

وحدثت خلال هذه الوزارة عدة أحداث هامة ٠٠٠ اذ أجرى وزير التموين محمد على راتب تحقيقات تناولت سبعة من وزراء الحكومة السعدية وانكشفت كثير من الفضائح التي كانت تدور خلف ستار ٠

وكان الافراج عن بعض المعتقلين ، ومحاكمة قاتل النقراشى ومحاولة اغتيال حامد جودة التي ترفع فيها محمود سليمان غنام وعزيز فهمى وتخفيف الأحكام العرفية والرقابة على الصحف ، تمهيدا للانتخابات - فرصة فريدة كشفت أيضا أهوال التعذيب التي تعرض لها المعتقلون فى فترة حكم ابراهيم عبد الهادى سواء فى معتقل هاكستيب أو الطور ٠٠٠ واستنكر الأحرار الدستوريون ذلك ونفوا أن تكون لهم مسئولية إلا عن الوزارة التي يشغلونها ٠٠٠

وتمزقت بصورة نهائية ثياب أحزاب الأقلية وانكشفت عورة سيئاتهم الأمر الذى جعل فرصتهم للنجاح فى الانتخابات محدودة جدا ٠

وأجريت الانتخابات فى ٣ يناير ١٩٥٠ وكانت النتيجة انتصارا واضحا للوفد اذ حصل على ٢٢٨ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس النواب البالغ عددها ٣١٩ ، وأطلقت صحيفة المصرى على هذا اليوم (يوم ثورة الشعب) ٠

وكانت نتيجة الانتخابات مفاجئة للملك أيضا ، فأسرع الى منزل حسين سرى ليلا وقرر تعيينه رئيسا للديوان الملكى حتى يمكنه التفاهم مع الوفد من جهة ويحاول تنفيذ الاستراتيجية الأنجلو أمريكية من جهة أخرى ٠

كانت نقطة الخلاف الأولى بين الملك والوفد أثناء تشكيل الوزارة عندما طلب استمرار بقاء محمد حيدر فى منصبه وزيرا للحربية ، وكان قد احتفظ بموقعه فى وزارات محمود فهمى النقراشى وابراهيم عبد الهادى وحسين سرى ، ليكون عوناً للملك فى مجلس الوزراء ، وأداة للسيطرة الكاملة على الجيش ، وهو الذى حرك الجيش الى حرب فلسطين دون انتظار تعليمات رئيس الوزراء ٠

ولكن النحاس رفض ذلك رفضا باتا وأصر على تعيين وزير وفدى هو مصطفى نصرت ، وتم الاتفاق على انشاء منصب جديد يعين فيه محمد حيدر وهو منصب (قائد عام القوات المسلحة) ٠٠٠ وبهذا لم يعد للوزير الفدى نفوذ يذكر على الجيش وانقطعت صلة الوزارة الوفدية تقريبا بسياسة الجيش وترقيات الضباط وتعييناتهم وتنقلاتهم واستمرت السلطة العليا فى الجيش للسراى ولندوبها محمد حيدر ٠

وكان قبول الوزارة الوفدية لهذا الحل الوسط تنازلا منها عن حقوقها الدستورية التي تمسكت بها منذ عام ١٩٣٧ عندما طالبت بأن يكون لها الاشراف على تعيين موظفى القصر نفسه ، وكان ذلك أحد أسباب اقالتها

كانت سياسة الحكومة الوفدية تميل الى احتواء الملك بدلا من التصادم معه منذ اللحظة الأولى . . وخاصة انه رغم التأييد الشعبى الجارف والأغلبية الساحقة فى الانتخابات فان اقالة الحكومات الوفدية أصبحت طابعا متكررا . وابتعادها عن الحكم سنوات طويلة كان يضعف نفوذها فى الأجهزة التنفيذية ، مع ان الوفد فى المعارضة كان دائما أشد أثرا وأكثر جاذبية منه داخل الحكم .

لم تكن سياسة الوفد تصعيد الخلاف مع الملك الى درجة التنازح حتى لا يقفز الملك خارج اطار دستور ١٩٢٣ ويفرض حكما ديمقراطيا تستفيد منه القوى الأجنبية المتربصة وكان ذلك أمرا طبيعيا من حزب ملكى دستورى لجأ اليه النظام عندما دخل فى أزمة الاختناق .

ولكن انتصار الوفد فى انتخابات ١٩٥٠ لم يكن انتصارا له كحزب بقدر ما كان انتصارا لارادة الشعب ضد السراى وأحزاب الأقلية ، وتعبيرا عن الموجة الشعبية الجديدة المؤيدة للوفد ، المطالبة فى نفس الوقت بأهداف اجتماعية أكثر عمقا وشمولا .

ومع ذلك فان تشكيل الوزارة لم يأت معبرا عن الاتجاهات اليسارية التى بدأت تنمو داخل الوفد . . . بل استنتت خطة جديدة هى الاستعانة بالكفاءات والطاقات العلمية لمواجهة مطالب الجماهير الاجتماعية . . كان فى الوزارة خمسة يحملون لقب (دكتور) لأول مرة فى تاريخ الوزارات المصرية .

الفصل السادس

الضباط الأحرار

كان الجيش فى عام ١٩٤٩ جريحا ومطعوناً من أثر الهزيمة . . .
عندما انتهت الحرب وزعت قوات القتال فى الجبهة على المناطق العسكرية
المختلفة ، وضعت الصلات التنظيمية تبعاً لذلك بين الجيش من جهة
والأخوان المسلمين والتنظيمات اليسارية من جهة أخرى .

وضعف تيار العمل السياسى فى شعبه الرئيسية الثلاث التى تحدثنا
عنها (الإرهاب - الإخوان المسلمين - الشيوعيين) .

كان الإرهاب الذى تركز فى يد (الحرس الحديدى) تقريبا ، قد
عجز عن إيجاد دوافع جديدة للاغتيال . . . وخاصة ان حادث ٤ فبراير
كان قد ضعف أثره بعد نجاح وزارة الوفد فى الانتخابات نجاحا كبيرا
معبرا عن تأييد شعبى جارف .

وهكذا توقفت حركة (الحرس الحديدى) .

أما الإخوان المسلمون فكانوا قد تعرضوا لحملة إرهاب حكومى شديدة
بعد اغتيال النقراشى باشا ، أبعدت الضباط عن الاتصال بهم . . . وان
كان تنظيمهم قد استمر محتفظا بكيانه تحت قيادة قائد الجناح عبد المنعم
عبد الرؤوف . وعاد البكباشى محمد أنور السادات الى صفوف الجيش
من جديد ضابطا فى سلاح الإشارة .

واستطاع قسم الجيش فى (الحركة الديمقراطية للتححر الوطنى -
حدثو) أن ينجو سليما من إرهاب الحكومة لشدة الاهتمام بالأمن باعتباره

السلاح الوحيد الذى يحمى قسم الجيش فى وقت كان فيه معظم أعضاء القيادة قد ضمتهم أسوار المعتقلات ٠٠٠ وكان المسئول السياسى لهذا القسم هو كاتب هذه السطور ومسئوله الثقفى أحمد فؤاد وكيل النيابة فى ذلك الوقت ، ورئيس مجلس ادارة بنك مصر فيما بعد .

ولكن ضعف تيار العمل السياسى بالجيش فى شعبه الرئيسية الثلاث لم يدفع حركة الضباط الى الجمود ، ولم يمزق أحلامهم أو يبعثر جهودهم ٠٠٠ بل العكس هو الصحيح .

كان هناك فى كل سلاح ضباط لحقتهم يد السياسة ولم يكن ممكنا لهم أن يتخلصوا منها وخاصة بعد هزيمة حرب فلسطين .

وفى هذه الفترة كان جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين قد تركا الاخوان مع عدد ملحوظ من الضباط .

وكانت طبيعة الأمور تفرض على الضباط أن يتجمعوا ويتبادلوا الراى فى وحداتهم وأسلحتهم .

كان هناك ضباط وطنيون باتجاهات فكرية مختلفة ، بعيدا عن أية صلات تنظيمية متناسقة .

كان هؤلاء الضباط يمثلون نواة خرجت من حرب فلسطين وهى غير مرتبطة بتنظيم موحد ٠٠٠ ولم يكن لهم حديث الا ما تركته الهزيمة فى نفوسهم من مأساة .

وكان ابتعادهم عن التنظيمات السياسية القائمة (عدا التنظيمات اليسارية) دافعا لهم على البحث عن أرض مشتركة للقاء بعيدا عن التعصب والتحجر الفكرى .

وقد لعب البكباشى جمال عبد الناصر شخصيا دورا رئيسيا بارزا فى تجميع الضباط من مختلف الاتجاهات السياسية . بدأ هذا الدور قبل حرب فلسطين بطريقة محدودة .

ومع انفراج الضغط الارهابى بتولى الوزارة الوفدية مسئولية الحكم فى ١٢ فبراير ١٩٥٠ ، وتجمع الوحدات فى القاهرة بعد تشتيتها عقب الحرب فى منقباد والقنال والاسكندرية وغيرها ، نبت التفكير فى تكوين تنظيم من الضباط المهتمين بأمور السياسة .

وجمع جمال عبد الناصر اللجنة التأسيسية التى كان يتصل بها فى أواخر ١٩٤٩ خلال حكم وزارة حسين سرى ، وكانت مشكلة من خمسة فقط هم جمال عبد الناصر وحسن إبراهيم وخالد محيى الدين وكمال

الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف . . . وهم ذوو ميول سياسية مختلفة مع انهم بدأوا جميعا في ساحة الاخوان المسلمين .

ولم يكن قد اطلق على هذه اللجنة اسم (الضباط الأحرار) بعد ، كما انه لم يكتمل الشكل التنظيمي الا مع مطلع عام ١٩٥٠ عندما زاد عدد اللجنة التأسيسية بانضمام صلاح سالم وعبد اللطيف بغدادى وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وجمال سالم الذى دخل عليهم الاجتماع فجأة أثناء وجودهم فى منزل شقيقه صلاح سالم ، وتم فى هذا الوقت انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجنة التنفيذية .

وكانت صلة جمال عبد الناصر قد بدأت بمحمد نجيب أثناء حرب فلسطين من خلال عبد الحكيم عامر ، الذى قال لجمال عبد الناصر انه قد وجد كنزا فى محمد نجيب لجرأته وشجاعته ووعيه بأن أزمة الهزيمة فى القاهرة وليست فى العريش .

وعندما بدأ العمل بين الضباط يأخذ شكلا تنظيميا نبت اسم (الضباط الأحرار) ليكون توقيع أول منشور لهم يصدر فى فبراير عام ١٩٥٠ .

وهنا كان تنظيم الضباط الأحرار قد بدأ يأخذ شكلا منفصلا عن القوى السياسية خارج الجيش . . . أى أنه لم يعد تنظيما تابعا للاخوان أو الشيوعيين أو الوفديين أو السراى . . . ولكن بعض أعضائه فى اللجنة التأسيسية لم يقطعوا صلاتهم التنظيمية القديمة ، ولم يغيروا أفكارهم مدفة واحدة . . . وانما أصبح انتماءهم الى مجموعة واحدة يشكل جبهة وطنية متحدة .

كان كمال الدين حسين ما زال على صلة طيبة غير تنظيمية بالاخوان المسلمين ، وكان خالد محيى الدين على صلة بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ، بعد أن كان قد انضم الى منظمة « اسكرا » عام ١٩٤٧ . وكان أنور السادات على صلة ببعض رجال السراى . . . كما كان جمال عبد الناصر الذى انتخبوه رئيسا لهم فى بداية ١٩٥٠ شديد النشاط كثير الاتصالات بمختلف القوى السياسية من مختلف الاتجاهات .

ولم يكن محمد نجيب يحضر اجتماعات التنظيم أثناء تكوينه لأنه كان محل رقابة سلطات الأمن المسئولة باعتباره نجما محبوبا من ضباط الجيش . . . ولأنه كان فى رتبة كبيرة (اميرالاي) بينما كان أكبر الضباط فى ذلك الوقت يحمل رتبة (بكباشى) ، والاتصال يبدو مرييا ومثيرا أيضا . . . ولذا تم الاتفاق بينه وبينهم على أن تكون الصلة به فردية وليست تنظيمية .

وتوالى صدور منشورات (الضباط الأحرار) . . . المنشور الأول .
كتبه جمال عبد الناصر وخالد محيي الدين وقام بطبعه مدني اسمه (شوقي
عزيز) . ثم نقلت ماكينه الجستور من منزله الى منزل عبد الرحمن عنان أحد
ضباط سلاح الطيران ثم منزل حمدي عبيد أحد ضباط المشاة ووزير
الادارة المحلية فيما بعد ، وأخيرا استقر أمر طباعة المنشورات وتوزيعها
بأجهزة الحركة الديموقراطية للتححر الوطني (حدتو) وذلك في مرحلة
تالية بعد حريق القاهرة . . . وكانت معظم المنشورات تكتب بأقلام
الضباط اليساريين ومنهم خالد محيي الدين والقاضي أحمد فؤاد وكاتب
هذه السطور ، والبعض كتب به جمال عبد الناصر .

وكان استمرار صدور المنشورات ، بتوقيع (الضباط الأحرار) اعلانا
عن بداية مرحلة جديدة بعد فترة امتدت خلال السنوات من ١٩٤٦ حتى
١٩٤٩ عندما كانت تصدر للجيش منشورات من تنظيم الضباط الإخوان
وتنظيم الشيوعيين بتوقيع (رجال الجيش) ومنشورات مجهولة كانت
تنسب للحرس الحديدي .

منذ صدرت منشورات (الضباط الأحرار) توقفت القوى السياسية
عن إصدار منشورات خاصة بها ، وكان هذا اعلانا عن نوع من الوحدة
التنظيمية .

وكانت المنشورات تصل الى الضباط عن طريق عناوينهم المنزلية أو
في الوحدات بالبريد . . . وأحيانا كانت توزع باليد داخل المعسكرات
بطريقة سرية .

وكانت هناك ظاهرة غريبة يمكن القول بأنها قد بدأت مع فترة المه
الثوري عام ١٩٤٦ ، وهي حرية الحديث والمناقشة بين الضباط في
تجمعاتهم اليومية سواء في عربات الجيش الكبيرة التي تحمل الضباط
من منازلهم الى المعسكرات أو في الميس أو نادي الضباط .

وكانت هذه الأحاديث والمناقشات الضريجة تتابع الأحداث الجارية
وتعمقها بالتحليل من وجهات نظر مختلفة ، كانت تاتقى في النهاية على
فساد الحكم والملك ورجال الحاشية .

ولكن هذا التيار الوطني العام في المناقشة لم يكشف عن سرية
التنظيم الذي كان يتضاعف في سرعة شديدة ، ذلك ان الضباط بعد
هزيمة فلسطين كانوا يشكلون أرضا صالحة لبذر الأفكار الثورية المضادة
لنظام الحكم والملك شخصيا .

وعندما بدأ تساؤل الضباط عن البرنامج الذى يرتبطون به . . .
أعلنت الأهداف الستة وصدرت فى منشور . . . أعدها أحمد فؤاد ونخالد
مخني الدين . . . ووافق عليها جمال عبد الناصر .

أصبح اسم (الضباط الأحرار) يتردد فى الجيش همسا أحيانا
وعلانية أحيانا أخرى كما ان القوى السياسية المختلفة وبعض الصحفيين
أخذوا علما به . . . حتى المخابرات الحربية والبوليس السياسى كانا
يعلمان بوجود هذا التنظيم الوليد .

ولكن أجهزة الأمن سواء فى الجيش أو الداخلية كانت محدودة العدد
والعدة . . . كان ضباط المخابرات الحربية ١٥ ضابطا جند بعضهم فى
الضباط الأحرار أو كانوا على صلة هامشية بهم مثل عبد المنعم النجار
مدير المعلومات الذى أصبح سفيرا فى باريس والعراق بعد الثورة ومساعد
سعد توفيق واسماعيل فريد الذى أصبح سكرتيرا عسكريا لمحمد نجيب
ثم محافظا للدقهلية فيما بعد .

وكان ضباط القسم المخصوص بالداخلية لا يتجاوزون ٢٤ ضابطا ،
ولكن لم يكن يدخل فى اختصاصهم العمل داخل الجيش الا عن طريق
المخابرات الحربية .

وكانت قبضة أجهزة الأمن لينة ، وقدرتها على النفاذ الى أسرار الجيش
محدودة ، لأنهم لم يكونوا قد استخدموا بعد نظام العمالة لرجال الجيش ،
وشراء ضباط البعض بمبالغ ومكافآت متنوعة .

يقول عبد المنعم النجار ان وزارة الداخلية قد اتصلت بالمخابرات
الحربية للتحصول على معلومات عن الضباط الأحرار وانهم حاولوا الكشف
عن عناصرتهم وخططهم دون استخدام (وسائل قذرة) . . . ويقول أيضا
ان كلا من المخابرات الأمريكية والانجليزية كان لها خلايا خاصة بها ضد
النشاط الشيوعى بالذات . . . وقد أكد هذه الحقيقة المأجور ساتسوم
المستول فى البوليس السياسى المصرى ثم ضابط أمن السفارة البريطانية
بالقاهرة بعد خروج الضباط الانجليز جميعا من البوليس المصرى فى كتابه
(تجسس على الجواسيس Ispied spies)

ومع ذلك لم يعتقل أى ضابط من الضباط الأحرار . . فى الوقت
الذى كانوا فيه يزدادون عددا ووعيا .

ولم يكن فى سياسة الوزارة الوفدية ما يثير الضباط الأحرار
ضدها . . . ولم يكن عداء الاخوان التقليدى للوقد ذا تأثير فى اتجاهات
الضباط الأحرار . . . بل ان جمال عبد الناصر كان ذا ميول وفدية.

واضحة . . . أمضى ساعات طويلة في منزلى بالاسكندرية قبل ٢٣ يوليو يدافع عن الوفد في مناقشة حضرها من الضباط الأحرار (البكباشى صلاح مصطفى الملحق العسكرى فى عمان الذى استشهد بطرد متفجر وصله من اسرائيل والبكباشى عبد الحليم الأعسر أركان حرب منطقة الاسكندرية فيما بعد) .

وقد بدأت الوزارة الوفدية عملها بإقرار الحريات العامة ، فألغت الرقابة على الصحف ورفعت الأحكام العرفية بعد تردد فى مايو ١٩٥٠ وسمحت بالمظاهرات داخل الجامعة حيث مزقت صورة الملك وديست بالاقدام . . .

والى جانب استقرار الحريات على أسس معقولة ، واصلت الحكومة الوفدية سياستها الاجتماعية ، فأقرت مجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥٠ بعد ان كانت قد أقرت مجانية التعليم الابتدائى عام ١٩٤٢ ، وضاعفت جميع الضرائب بما فيها الضرائب العقارية الى ١٠٠٪ ، وأعدت مشروعا لتعميم مياه الشرب فى القرى خلال خمس سنوات ، ودفعت وزارة التموين فروق أسعار بعض السلع لتكون فى مستوى محدودى الدخل ، وعمل كادر جديد للموظفين لمصلحة الصغار منهم .

الأساس الثالث الذى بنى الوفد سياسته عليه كان اجلاء الانجليز عن قاعدة قناة السويس قبل الموعد المحدد فى معاهدة ١٩٣٦ وهو عام ١٩٥٦ ، وتأكيد الوحدة بين مصر والسودان ، وقد بدأت المحادثات فى ١-ابريل ١٩٥٠ وكان يتولاها وزير الخارجية محمد صلاح الدين وابراهيم فرج ، وحضر الفيلد ماريشال وليم سليم رئيس أركان حرب الامبراطورية البريطانية وعقد ثلاثة اجتماعات مع الجانب المصرى برئاسة مصطفى النحاس يومى ٥ ، ٦ يونيو ١٩٥٠ ، وقد أوضح له النحاس انه « لا يمكن ان يركن لعودة جديدة أو يقبل نظريات مستحدثة ترمى الى بقاء قوات أجنبية فى مصر تحت أى اسم وبأية صيغة » ، وذلك ردا على قول سليم بأن النحاس يستطيع بمركزه الشعبى ان يقنع الناس بأن « الجيش المشترك والوجود الأجنبى » مبدأ جديد لا ينطوى على الاحتلال . . . وكذلك أصر النحاس على ضرورة جلاء القوات البريطانية واقترح أن تنتقل الى فلسطين ليسهل عودتها الى مصر فى حالة قيام حرب فعلية ، كما طالب النحاس ان تمتد بريطانيا مصر بالطائرات مشيرا الى اهتمام مصر بتقوية جيشها ليدافع وحده عن منطقة القناة .

استمرت المفاوضات دون أى تقدم من جانب البريطانيين الذين لم يتراجعوا عن موقفهم خطوة واحدة . وبعد وفاة بيفن وتولى موريسون وزارة الخارجية البريطانية القى خطابا استفز شعور المصريين لما فيه من قول

قاطع بعدم الجلاء ، مع مهاجمة الحكومة المصرية لمنعها مرور البضائع الاسرائيلية فى قناة السويس وخليج العقبة ، ورد عليه محمد صلاح الدين ببيان عنيف أنهى به المحادثات أمام البرلمان يوم ١٦ أغسطس ١٩٥١ وخاصة ان الحكومة الوفدية كانت قد تحملت بداية موجة هجوم ضد موقفها من قضية المحادثات .

وهكذا يمكن تلخيص سياسة الوزارة الوفدية فى اتجاهات رئيسية ثلاثة : تأكيد الحريات العامة ، وقرار نوع من العدالة الاجتماعية ، ومواجهة الاستعمار لتحقيق الجلاء ووحدة مصر والسودان .

ولم يكن فى هذه الاتجاهات الوطنية ما يثير الضباط أو يجنح بهم الى تيار المعارضة رغم ان الوفد لم يكن له فى الجيش أية شعبية نظرا للظروف التاريخية التى أبعدت الوفد عن جهاز الجيش ، وعن السيطرة على ادخال الطلبة للكنية الحربية ، والاساءة التى لحقت به بعد حادث ٤ فبراير ، والتنافر الطبيعى الذى جعل من تأثيره الجماهيرى مطعنا له عند ضباط الجيش الذين لا تستقيم حياتهم الا على أساس من الانضباط والنظام .

ولذا تبلورت اتجاهات الضباط الأحرار كما ظهر فى منشوراتهم خلال حكم الوزارة الوفدية فى فضح مفاصد القيادات العليا فى الجيش ، والمطالبة بتحقيق الأهداف الوطنية .

وكانت مأساة حرب فلسطين قد عادت تطل على المجتمع بعد رغب الرقابة على الصحف ، وظهور عدة مقالات عن صفقات الأسلحة التى تمت خلال الحرب بوساطة بعض المقربين من السراى ، ومتابعة فى ذلك استقالة محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة ، والاستجواب الذى قدمه مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ عن أسباب هذه الاستقالة .

ورغم ان محمود محمد محمود كان حريصا على الصمت الا انه أفضى لمصطفى مرعى بأسباب استقالته ، وكان ذلك لأنه سجل فى تقرير الديوان بعض الملاحظات على مسلك وزارة الحربية فى موضوع الأسلحة المشتراة أثناء حرب فلسطين ، بالإضافة الى حصول كريم ثابت المستشار الصحفى للملك على مبلغ ٨٠٠٠ جنيه من ميزانية مستشفى المواساة تحت باب (دعاية) ، وعندما أرسل التقرير الى المطبعة الأميرية ردت له البروفات .

وانتهزت الصحافة فرصة نظر الاستجواب فى آخر مايو ورفع الأحكام العرفية فشنت حملة على ما أسمته (الأسلحة الفاسدة) بدأت فى روزاليوسف يوم ٦ يونيو بمقال لاحسان عبد القدوس ومقالات لعللى سلام فى مجلة المصور . ووجد بعض الضباط الذين لمسوا بأنفسهم فساد

عمليات الشراء والسمسة، الفرصة المناسبة للاتصال بالرأى العام عن طريق الصحافة .

البكباشى عبد المنعم أمين الذى كان مدرسا فى مدرسة المدفعية المضادة للطائرات ، وأصبح عضوا فى مجلس قيادة الثورة فيما بعد ، سافر فى بعثة لشراء أسلحة مضادة للطائرات ، بعد أن ألقت إحدى الطائرات الاسرائيلية ٣ قنابل على القاهرة كشفت نقص وسائل الدفاع الجوى . . . كان معه البكباشى حسين محفوظ ندا مدرس مدفعية الميدان ، وهناك اكتشفوا انحرافات من لجنة الشراء التى اشترت قنابل يدوية بمبلغ ثلاثة أرباع المليون ٧ واشترت أيضا مدافع ماكينة هوتشكس من التى استخدمت فى حملة السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٩) .

وأهملتهم اللجنة على حد قولهم كخبراء واعتمدت على السماسرة المهرين . . . ولجأ عبد المنعم أمين الى مصطفى مرعى بما عنده من بيانات بعد تقديمه الاستجواب ، ولكن مصطفى مرعى تشكك فى اتصاله به قائلا له أنهم هندوه بالقتل ، وهو لا يعرف ان كان عميلا مدسوسا عليه .

ولم يكن عبد المنعم أمين هو الوحيد الذى لجأ الى مصطفى مرعى . . . ولكن عبد اللطيف البغدادي اتصل به أيضا هو وحسن إبراهيم وضباط الطيران محمد شوكت ومصطفى مرتجى ، وعندما قالوا له انهم معجبون بموقفه ، وانهم على استعداد لتنفيذ ما يستقر رأيهم عليه حتى ولو وصل الأمر الى حد قتل الملك . . . وهنا جفل مصطفى مرعى من هذا الحديث الخطير الذى ليست له مقدمات من الثقة ، وأثر ان يتحفظ معهم كما تحفظ مع عبد المنعم أمين ، وسافر الى أوروبا .

هكذا كان الضباط غير المنتمين فى حيرة من أمرهم ، تركز غضبهم على السراي وما ارتكبه رجالها من آثام ، ولكنهم لم يجدوا الطريق السليم الذى يسلكونه . . . حتى ان أحدهم وهو الضابط محسن عبد الخالق الذى تولى إدارة دار التحرير للطبع والنشر بعد الثورة لجأ الى أمينة السعيد الصحفية ورئيسة تحرير (حواء) والتى اعتادت تحرير باب تحت عنوان (اسألونى) .

كان الضباط فى مرحلة نشاط شديد للاتصال بالعناصر المعبرة عما تطويه صدورهم ، وخاصة ان كثيرا منهم لم يكن قد انضوى واستقر فى (الضباط الأحرار) ، ولم يكونوا قد شعروا بعد بحرارة الانتماء الى تنظيم مقنع لهم ، بعد ان كانوا قد تجاوزوا مرحلة الخضوع المطلق لتنظيم الإخوان المسلمين أساسا .

ولذا كان النشر عن قضية الأسلحة الفاسدة مركز جاذبية شديدة
لهم فانهالت منهم البيانات والوثائق والمعلومات على الصحفيين الذين تصدوا
للكتاب في هذا الموضوع الذي ألهب مشاعر الرأي العام ، ووجد فيه
الضباط مشجبا يعلقون عليه هزيمة حرب فلسطين . ويردون به الكرامة
لضباط الجيش .

ولم تجد الحكومة الوفدية بدا من تبليغ النائب العام للتحقيق رغم
ان هذا يحدث تصادما مؤكدا بينها وبين الملك لأن الذين مستهم البيانات
كانوا من رجال الحاشية مثل أنطون بولي وادمون صهلان ومحمد حلمي
حسين ووصلت الاتهامات الى محاصرة محمد حيدر قائد عام القوات
المسلحة باعتباره مسئولاً ومتسترا على العملية من بدايتها عندما كان
وزيرا للحربية ، مما اضطره الى الاستقالة ، هو والفريق عثمان المهدي
رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، بناء على طلب النائب العام إبعادهما عن
مناصبهما الحالية .

بدأ النائب العام محمد عزمي التحقيقات بجراة واضحة ، بعد ان
وصله أمر كتابي من وزير العدل عبد الفتاح الطويل يطلب منه القبض
على أي شخص سواء في الحكومة أو السراى للتحقيق معه ، ولذا أصدر
أمرًا باعتقال ادمون صهلان الذي هرب الى سراى عابدين ، ولما اتصل
حسن يوسف بوزير الداخلية الذي كان موجودا في بلطيم لم يوافق فؤاد
سراج الدين على حمايته وأصر على تنفيذ أمر النائب العام ، فقام صهلان
بتسليم نفسه .

ولكن النائب العام لم يواصل حملته حتى نهايتها ، بل استجاب
لأغراء السراى فأخرج عن المعتقلين ، وحفظ التحقيق بالنسبة لرجال
الحاشية ، ورفع الحظر عن عودة محمد حيدر وعثمان المهدي الى مناصبيهما .

وهاجمت الحكومة موقف النائب العام ، وخيرته بين الاستقالة أو
النقل الى منصب آخر ، فوافق على النقل ، وعين رئيسا لإدارة قضايا
الحكومة وأعلن الملك عن استيائه من موقف الحكومة عندما قرر منع
جميع الوزراء نياشين أعلى عدا وزير العدل ، ورفض الوزراء قبول النياشين
تضامنا مع زميلهم .

وأبرزت هذه الحادثة التناقض بين الملك وبين ضباط الجيش ،
وعمقت في نفوسهم الشعور بقدرة السراى على وضع الأمور في طريق
مسدود ولذا كانت قضية الأسلحة الفاسدة من أول القضايا التي
اهتمت الثورة بتحقيقها وتقديمها للمحاكمة .

بعد ان استغرقت القضية ٩٠٠٠ صفحة فى محاضر التحقيق ، ٢٣٠٠ صفحة فى جلسات المحكمة ، ١٣٠٠ صفحة أمام قاضى الاحالة فانها انتهت بحكم بسيط هو ١٠٠ جنية غرامة لكل من القائمقام عبد الغفار عثمان والبكباشى حسن منصور وبراءة بقية المتهمين .

وهكذا كانت قضية الأسلحة الفاسدة ، قضية دعاية أكثر منها قضية مخالفة للقانون . . . وقضية اثارة أكثر منها قضية اختلاس وسرقة . . والأقلام التى انجذبت اليها صورتها على أساس انها قضية رئيسية فى هزيمة الجيش ، متجاوزة بذلك قضايا أخرى أكثر أهمية منها وأكثر نفاذاً فى التأثير على قدرة الجيش على القتال . . . قضايا تمس صلب النظام الحاكم وقدرته على تعبئة طاقات الجماهير بما فيها القوات المسلحة .

لم تكن الأسلحة الفاسدة هى السبب فى هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين . . . ولكنها كانت بقعة سوداء ضمن بقع كثيرة لطخت وجه النظام وأساءت الى قدرة الجيش ، وأثارت خلال فترة النشر والتحقيق مشاعر الجماهير ضد الملك ورجال الحاشية ، لأنهم ربطوا بين السرقات وهزيمة الجيش واعتقال الوطنيين الأحرار .

الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطانى

كان الموقف السياسى يتدهور ، وهيبة النظام تتآكل ، وحماقات الملك فى نفس الوقت تتضاعف وتتسم بعدم المبالاة أو سلامة التقدير . . . والتهبت الصحف بمقالات نقدية عنيفة تفضح التصرفات الشخصية للملك ورجال الحاشية بعبارات مستهترة ، ولم يفلح قانون حماية أخبار القصر فى وقف هذه الحملة التى ظهرت فى عدة صحف منها الاشتراكية (مجلة حزب مصر الفتاة) واللواء الجديد (مجلة حزب الوطن الجديد) والجمهور المصرى (مجلة اثارة كان يملكها أبو الخير نجيب) والكاتب (مجلة أنصار السلام) والملايين (مجلة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى - حدتو) وروز اليوسف التى بادرت بالسبق فى شن الهجوم فيما أطلقت عليه اسم الأسلحة الفاسدة .

وكان محمد صلاح الدين قد صرح فى مجلس النواب بأن الدورة لن تفض قبل أن يدلى بحديث للمجلس عن نتيجة المفاوضات ، ولذا فان المجلس لم يكن ينعقد ، ولكن الدورة لم تنفض .

وكانت الحكومة الوفدية قد أعلنت فى خطاب العرش لهذه الدورة التى لم تفض تهديدها بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ اذا لم تسفر المباحثات عن نتيجة .

وعندما القى محمد صلاح الدين بيانه أمام مجلس النواب يوم ٢٦ أغسطس حمل حملة عنيفة على الاستعمار البريطاني والسياسة الانجليزية في فلسطين التي انتهت بإنشاء إسرائيل ، وأشار الى أن الحكومة ما زالت عند وعدما بإلغاء المعاهدة كما أعلنه رئيسها مصطفى النحاس في خطاب العرش .

والتقطت الجماهير خطاب وزير الخارجية ليكون نقطة انطلاق لها في حركتها التي كانت تتصاعد يوما بعد يوم حتى يوم ٢٦ أغسطس - تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، فقررت التنظيمات السياسية المتظاهر ، وخرجت القاهرة عن (بكرة أبيها) على حد تعبير جريدة المصري ، وخرج نحو ١٥ ألف متظاهر من عمال الورش الاميرية والسكك الحديدية وورش أبو زعبل ... وحدث تصادم بين البوليس والمتظاهرين فأصيب البعض من الطرفين ، واستمرت المظاهرات تموج في القاهرة حتى المساء .

وقد لعبت التنظيمات الوطنية واليسارية دورا بارزا في تحريك الجماهير وقيادتها خلال هذه الفترة كما سيأتي ذكره فيما بعد .

ووجدت الحكومة الوفدية انها تفقد كثيرا من رصيدها الشعبي أمام موجة الحماس التي تجتاح الشعب ... ووجدت أيضا أنها قد أصبحت محاصرة بوعدما الذي قطعت على نفسها بإلغاء المعاهدة .

واستقر الرأي على اصدار قانون بإلغاء المعاهدة ، واصدار تشريعات بتعديل موقف السودان ، وكلف بذلك الدكتور وجيد رافت المستشار الملكي لرئيس الوزراء .

توقع الوفد الخروج من الحكم بعد اعداد هذه التشريعات ، ولكن الملك الذي استشار نجيب الهلالي قرر التوقيع لأن نجيب قال له ان الموقف لا يحتمل عزم التوقيع ... وعدم التوقيع سيكون له اثر سيئ عند الشعب .

وجمع فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد الهيئة الوفدية البرلمانية في البهو الفرعوني الساعة الرابعة والنصف حيث أخذ يخاطبهم في تنظيمات خاصة بالوفد لضمان تجمعهم لهذه اللحظة التاريخية الحاسمة .

ووصل النحاس باشا من الاسكندرية في نفس اليوم ، والجماهير تستقبله بهتاف يكاد يكون واحدا (ألغ المعاهدة يا نحاس) .

ووقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب ليعلن كلمته التاريخية " من أجل مصر أبرمت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر اطالبكم اليوم بالغاءها " .

وذلك فى يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ وهو نفس اليوم الذى أقال فيه الملك
الوزارة الوفدية بخطابه المهن فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ .

فوجى البريطانىون بالصورة التى ألغيت بها المعاهدة ، فقد توقعوا
ان يكون الالغاء شكليا وليس بهذه الصورة الدستورية .

وحضر السفير البريطانى يحتج لدى فؤاد سراج الدين الذى قال له
ان عندكم قواعد أخرى مثل عدن وقبرص ومالطة ، ولكن السفير البريطانى
قال له انه لا يوجد فى أى قاعدة منها المزايا التى تتوافر فى قاعدة
السويس ، وعندما سأله سراج الدين عن هذه المزايا ، قال السفير
البريطانى ان قاعدة السويس تتميز بالآتى :

١ - توافر الأيدى العاملة الرخيصة .

٢ - وسائل النقل متوافرة لها من طائرات وبحر وسكة حديد .

٣ - الحياة الاجتماعية فى مدن القناة ، وهى مسألة جوهرية
للقوات المسلحة .

والتقط فؤاد سراج الدين هذه الكلمات لتبدأ منها سياسة الحكومة
الوفدية بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى مواجهتها للاستعمار البريطانى .

وكان الغاء المعاهدة اعلانا ببند الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال
البريطانية فى منطقة القناة ، وحافزا لتجمع القوى الاستعمارية والرجعية
فى محاولة للإطاحة بالحكومة الوفدية التى استردت كامل شعبيتها وأزالت
كثيرا من التناقضات بينها وبين القوى الوطنية الديمقراطية التى فرضت
نفسها على الساحة الشعبية .

وبعد خمسة أيام من الغاء المعاهدة تقدم سفراء انجلترا والولايات
المتحدة وفرنسا وتركيا يطلبون مقابلة مشتركة مع وزير الخارجية ، ولكن
الوزير حدد لهم مواعيد متتالية قدموا له فيها مذكرة واحدة تطالب
بإستبدال الغاء المعاهدة بعقد اتفاقية دفاع مشترك . . . ولكن مجلس
الوزراء قرر رفض المذكرة وأعلن ذلك فؤاد سراج الدين فى اليوم التالى
مباشرة أمام مجلس النواب بعد سؤال من حامد العلايلى مراقب حزب
الأحرار الدستوريين عن سر مقابلة السفراء الأربعة لوزير الخارجية .

وفى نفس اليوم كانت ٣ ناقلات جنود بريطانية وصلت الى بورسعيد
تحمل امدادات لتنفيذ خطة بريطانية جديدة تقضى باحتلال كافة مرافق
مدن القناة ووضع اليد على جميع وسائل عبور القناة ، وبذا تصبح قوات
الجيش فى غزة وسيناء تحت سيطرة قوات الاحتلال .

وتحركت التنظيمات السياسية تعد نفسها للكفاح المسلح .

الوفد ممثلا في الحكومة أصدر تشريعا بسجن كل عامل مصري يعمل في القاعدة البريطانية ، مع اذكاء الروح الوطنية في الاذاعة مما أدى الى تحقيق بطالة كاملة لعدد من العمال المصريين كان يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ عامل ، وأصدرت الحكومة في نفس الوقت تعليمات لوزير الشئون الاجتماعية بصرف مرتبات العمال كاملة وتهيئة العمل المناسب لهم خارج منطقة القناة ، وفي أيام قليلة تجمعت أكثر من ١٧ باخرة بريطانية في القتال بغير تفريغ لشحناتها .

وصدر قرار وزاري يمنع السكك الحديدية من نقل أى مهمات أو مواد الى القاعدة البريطانية . . . وكذا منع النقل البرى والنهرى .

وصدر تشريع بمعاقبة كل من يتعاون مع القوات البريطانية بالسجن .

وتوقفت الحياة الاجتماعية للجنود في مدن القناة نتيجة لنشاط الفدائيين حتى اعتبرت المدن خارج الحدود للقوات البريطانية .

ويقول فؤاد سراج الدين ان عددا كبيرا من ضباط البوليس في ملابسهم المدنية قد شاركوا في عمليات القتال وحرب العصابات ضد الجنود البريطانيين في القاعدة . . . ويقول أيضا انه قد أبطل كافة المزايا التى ذكرها له سير رالف ستيفنسون السفير البريطانى وهو يعدد له مزايا قاعدة السويس عن غيرها من القواعد الأخرى في قبرص ومالطة ووعدن .

وعندما تطور القتال في منطقة القناة بدأت الحكومة تشتري السلاح للفدائيين من الصعيد . . . كما قابل فؤاد سراج الدين سفراء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى وطلب منهم شراء أسلحة للبوليس . . . ولكن هذه المقابلات التى تعتبر بداية الاتصال بالدول الاشتراكية في موضوع شراء السلاح لم تسفر عن نتيجة ايجابية ، ويعمل فؤاد سراج الدين ذلك بأنهم لم يكونوا قد قرروا بعد مواجهة الغرب بطريقة استفزازية في المنطقة .

وكانت الحكومة الوفدية تتصل بالسفير الأمريكى جيفرسون كأفرى عند مواجهتها بعض المصاعب ، فعندما منع الانجليز تدفق المازوت من السويس الى القاهرة الأمر الذى يؤدى الى توقف المجرى والمصانع والمخابز واللوارى ، اتصل فؤاد سراج الدين بالسفير الأمريكى وحذره من خطر الهجوم على الأجانب اذا نفذ المخزون من المازوت وهو لا يكفى لأكثر من

سنة أيام ٠٠٠ وبعد اتصالات بين الحكومة الأمريكية والبريطانية عدلت القوات البريطانية عن منع المازوت عن القاهرة .

وكانت الحكومة الوفدية الى جانب اعطائها الأوامر لقوات البوليس بمهاجمة قوات الاحتلال البريطاني فى القناة ، تعقد حملات مع بعض القوى الفدائية غير الحكومية ٠٠٠ فعندما قدم الصحفى المعروف فكرى أباطة رئيس تحرير المصور قريبه قائد الجناح وجيه أباطة الى فؤاد سراج الدين قامت بينهما صلة استمرت طوال معركة القناة كان يحصل فيها وجيه على مساعدات من الحكومة .

وتمت فى هذه الفترة مقابلة اخرى بين فؤاد سراج الدين وأحمد أنور أحد الضباط الأحرار وقائد البوليس الحربى بعد الثورة ٠٠٠

وافق جمال عبد الناصر على المقابلة محذرا أحمد أنور من الارتباط بشئ لوجود زملاء يجب الرجوع اليهم ، كما حذره أيضا من محاولة فؤاد سراج الدين معرفة معلومات عن (الضباط الأحرار) .

يقول أحمد أنور ان فؤاد سراج الدين حاول أن يعرف منه اسم قائد التنظيم فى سؤال عابر عمن يصلح رئيسا لأركان حرب الجيش ، فقال له : محمود سيف اليزل ، كما يقول انه قد بارك حركة الضباط دون أن يورط نفسه فيها ، وانه حمل له ذلك فيما بعد جميلا لأنه كان يستطيع الاضرار به بعد المقابلة .

ويقول فؤاد سراج الدين ان أحمد أنور قد عرض عليه وقوف الجيش مع الحكومة الوفدية اذا أقالها الملك ، وانه قد علق على ذلك بقوله ان الملك لا يعتمد على الجيش ، ومع ذلك فقد اتفق بعد هذه المقابلة مع مصطفى النحاس على أن يقترح مصطفى نصرت وزير الحربية عزل محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة ، وفعلا ذهب مصطفى نصرت للسرائى وطالب بتغيير حيدر ولم يصل الرد حتى اقالة الوزارة ٠٠٠ وتصادف ان احتفل الجيش فى نادى الضباط بعيد ميلاد الملك (١١ فبراير ١٩٥٢) فى حفل تغنى فيه أم كلثوم ، وأناب الملك محمد حيدر فى آخر لحظة حتى يفاجئ الوزارة بذلك ، واستقبله الضباط بعاصفة من التصفيق بينما استقبلوا كلمة وزير الحربية بتصفيق فاتر .

عمق هذا الاستقبال شعور الوفد بانصراف الضباط عنه ، وبأنهم القوة التى يستند اليها الملك ، رغم وجود حركة بين الضباط الوطنيين .

وظلت الحكومة الوفدية تواصل كفاحها ضد القوات البريطانية فى القناة بواسطة البوليس أساسا ٠٠٠ بينما تأمر قوات البوليس بضرب

المظاهرات فى شوارع القاهرة ٠٠٠ وأدى هذا التناقض الى وجود نوع من الانفصام فى طبيعة عمل قوات البوليس فى هذه المرحلة الحرجة التى تواجه فيها الحكومة الوفدية عدواً أجنبياً فى القناة ، وتواجه مظاهرات تشب ضدها فى القاهرة ، تتهما بالتقصير أحياناً ، وتطالب بالسلاح أحياناً أخرى .

ولم يكن الضباط بعيدين عن معركة الكفاح المسلح فى القنال ٠٠٠ كما ان اتصالهم بالوفد لم يكن هو الاتصال الوحيد .

ولم يكن الوفد هو القوة السياسية الوحيدة المؤثرة فى تحريك الجماهير للكفاح المسلح ٠٠٠ بل ان تنظيمات سياسية ناشئة استطاعت أن تلعب دوراً بارزاً فى هذه الفترة التى عمرت بالحرية والديموقراطية .

وحدث تغير آخر فى ترتيب القوى داخل الجيش ٠٠٠ بعد ان كانت الشعب الثلاث للعمل السياسى هى (الارهاب - والاخوان المسلمين والشيوعيين) ، حدث تحول مواكب للحركة الجماهيرية .

ضاع الاتجاه الارهابى فى تيار الكفاح الشعبى المسلح ، وذبلت قدرة (الحرس الحديدى) على الاغتيال بعد تفجر طاقات الشعب والثورة ، وأصبحت حيويته بالجمود .

وحدث تبدل فى موقف الاخوان المسلمين جعل ارتباط الضباط بهم يضعف عما كان قبل وأثناء حرب فلسطين ٠٠٠ وكانت الصلة بين (الضباط الأحرار) وتنظيم الاخوان قد استثمرت قائمة على أسس غير عدائية وغير تنظيمية أيضاً .

وكان الاخوان المسلمون قد تعرضوا لهزة شديدة بعد اغتيال المرشد الشيخ حسن البنا ، ولبتت داخل الجماعة خلافات وصراعات على تولي الزعامة من بعده وخاصة أن نظامها الأساسى كان يركز كل السلطات فى يد المرشد العام ، وليس لمكتب الارشاد أو الهيئة التأسيسية إلا وجود استشارى بجانبه طوال فترة توليه المسئولية التى تمتد حتى آخر يوم فى حياته دون تحديد لفترة زمنية معينة .

ولذا كان اختيار المرشد يعتبر موضوعاً حاسماً فى صراع الخلفاء . ولم يفز الشخص الذى يفرض نفسه ويدين له الباقون بالولاء ٠٠٠ فكان ان اجتمع رأيهم على تعيين شخص ضعيف . لكنى يبدأ كل منهم محاولته فى السيطرة على الجماعة خلاله .

واتفق رأى على تعيين حسن الهضيبي مرشداً عاماً ، وهو مستشار عمل بالفضاء ٢٧ عاماً واتصل بالشيخ البنا عام ١٩٤٢ ولكنه لم يكن

عضوا بمكتب الارشاد ولا بالجمعية التأسيسية المكونة من ١٥٠ عضوا ،
ولم يكن عضوا بارزا معروفا للاخوان كما أنه كان قد أتم الستين من
عمره قى عام ١٩٥٠ .

واتخذ الملك موقف التأيد من انتخاب المستشار حسن الهضيبي
رشدا عاما ، بل قيل انه كان العامل الأول فى انتخابه لأنه كان متزوجا
من شقيقة ناظر الخاصة الملكية مراد حسن ، وقد نشرت مجلة اللواء
الجديد ان مزارحى باشا محامى الخاصة الملكية كان له دور فى تحسين
العلاقات بين الملك والاعوان ، ليستميلهم الى جانبه فى مرحلة اتخاذ موقف
العداء من الوفد .

ولم يمض شهر على انتخاب الهضيبي حتى ذهب فى احدى عربات
القصور الملكية مع بعض زعماء الجماعة لمقابلة الملك ، الذى ذكرهم بوعده
بحسن البنا لكريم ثابت عام ١٩٤٨ باتخاذ خطة معاداة الشيوعية اذا ألغى
الملك قرار حل الجماعة . . . وقد تكررت زيارة المرشد للملك عدة مرات صرح
بعد احداها بأنها (زيارة نبيلة لملك نبيل) .

وكانت جماعة الاعوان المسلمين قد خرجت من حرب فلسطين ومن
فترة الاعتقالات ، وقد مال ميزان قوتها ، وضعفت قبضتها على الضباط
الذين نظمته فى صفوفها خلال السنوات السابقة . . .

ولذا لم تسهم جماعة الاعوان المسلمين خلال فترة الحكومة الوفدية
فى أى عمل ايجابي ضد الملك أو الاستعمار . . . بل انه عندما عين الملك
بحافظ عفيفى رئيسا للديوان ، وسارت المظاهرات تهتف ضد الملك وحافظ
عفيفى ، كتبت مجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح عشاوى عضو مكتب
الإرشاد هجوما على رئيس الديوان الجديد . . . وأبرقت وكالات الأنباء
بهذا الموقف الجديد للجماعة من الملك . . . ولكن عبد الحكيم عابدين
سكرتير الجماعة سرعان ما اذاع بيانا هذا نصه : « يقرر المركز العام
للاخوان المسلمين ان مجلة الدعوة لا تصدر عنه ولا تنطق بلسانه ولا تمثل
سياسته وانها صحيفة شخصية تعبر عن آراء صاحبها ولا تثقيد دعوة
الاعوان المسلمين بما ينشر فيها » .

وتخلفت الجماعة عن بقية القوى والتنظيمات السياسية التى حاولت
أن تجذبها فى اتجاه ثورى ، أو تؤيد اتجاه صالح عشاوى ضد اتجاه
الهضيبي المتحفظ والحريص على عدم حدوث احتكاك بينه وبين السراى
باعتبارها مركز السلطة فى مصر . . . رغم انه كانت تتوافر لهم الأسلحة
فى جهازهم السرى .

واقصر نشاط الاعوان خلال هذه الفترة على الدعوة الى التربية
الاسلامية وكأنما هى تناقض الثورة ضد الاستعمار ، وفى حديث للهضيبي

مع مجلة الجمهور المصري يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥١ أى عقب إلغاء المعاهدة بأسبوع واحد قال « هل تظن أن أعمال العنف تخرج الانجليز من البلاد ، ان واجب الحكومة اليوم هو أن تفعل ما يفعله الاخوان المسلمون من تربية الشعب واعداده فذلك هو الطريق لاجراج الانجليز » . ثم نفى الهضيبي ما أشيع من ان الجماعة طلبت من الحكومة تدريب ١٦ ألف شخص ونفى أن في نية الجماعة التوجه بهذا الطلب .

وكان الهضيبي يردد « اذا كانت الحكومة تريد تسليح الشعب فعليها أولا أن تسلحه بالأخلاق فتغلق تلك المواخير السااهرة طوال الليل ودور اللعب التي تفسد الأخلاق » .

وخطب الهضيبي في شباب الاخوان قائلا لهم « اذهبوا فاعكفوا على تلاوة القرآن الكريم » ، ورد عليه خالد محمد خالد متهما اياه بالابتعاد عن الدين الذي يفضل الكفاح على العبادة حسبا اثر عن رسول الله وقال « وجد الوطن في التاريخ قبلما يوجد الدين وكل ولاء للدين لا يسبقه ولاء للوطن فهو ولاء ذاتي ليس من روح الله ، والوطن عماد الدين وسناده » ثم خاطب الاخوان قائلا « اطلقوا سراح الطاقة المحتكرة » وكتبت روز اليوسف تقول انه يجب على الاخوان التحرك في المعركة والا فقدتم مصر .

لم يسرع الضباط المنضمون للاخوان المسلمين لمعركة القنطرة ، كما اسرعوا للتطوع في حرب فلسطين وبدأت منطقة القنطرة خالية من أية حركة ايجابية لهم .

وبذلك تخلى الاخوان المسلمون عن أداء دور بارز في الكفاح المسلح ، وآثروا مهادنة الملك ، وترقب نتائج تورط الوفد في مواجهة الاستعمار واحتفظوا بأسلحتهم في المخازن ليوم قريب .

ونتيجة لهذا الموقف المتهاون انصرف الضباط الذين انضموا للجماعة عدا قلة محدودة جدا . وكانت هذه الفترة هي نقطة النهاية في ارتباط الضباط بالاخوان المسلمين .

أما التنظيمات الشيوعية فقد أسهمت أيضا في معركة الكفاح المسلح في القنطرة ، ولكن بقدرات بدأت محدودة ثم نمت مع تطور القتال .

وصدرت في هذه الفترة طبعة ثانية من كتابي (حرب العصابات) ، ودرست قيادة حدثو الموقف فوجدت أنه لا يجوز أن تضيق حلقة الكفاح لتصبح محصورة في الفدائيين وحدهم ، وانما يجب ان يتسع نطاق المعركة ليشمل الفلاحين في القرى المنتشرة بالمنطقة ، وكثير منهم مسلح

يطبقته ، كما انه تم البحث في انشاء تنظيمات سياسية لتوعية الجماهير
وقيادتها في القرى ، وجرت اتصالات كثيرة لخلق قيادة موحدة لكافة
الكتائب والتنظيمات المقاتلة حتى يزداد تأثيرها وتتوحد أهدافها ، وتكون
قوة لجهة تخلق في جو المعركة .

وكانت معركة (القرين) تجسيدا لهذه الأهداف التي رسمتها
(حدثو) فلم تكن معركة فدائيين فقط ، وانما كانت معركة فلاحين
أساسا ، فقد خرجت القرية كلها ، وتسلق الفلاحون النخيل ، وصوبوا
أهدافهم ضد دبابات الانجليز التي تراجعت ، وعجزت عن اختلال القرين .

وكانت مشكلة التنظيمات الشيوعية هي نقص السلاح عكس الاخوان
المسلمين الذين لهم السلاح ولم تتوافر ارادة القتال . . .

كنا نحصل لهم على السلاح من داخل الجيش . . . كان يحضره لنا
جمال عبد الناصر من مجدى حسنين في سلاح خدمة الجيش بشكنات
العباسية ، وكنت أحمله مع الصاغ عثمان فوزى سفير مصر في هولندا
بعد الثورة الى المقاتلين في منطقة القناة .

وكان جمال عبد الناصر يعرف حقيقة الدور الذى نقوم به ويوافق
عليه ، بعد ان كانت صلته قد توطدت بمندوبى قسم الجيش فى (حدثو)
للعمل فى تنظيم الضباط الأحرار وهما القاضي أحمد فؤاد واليوزباشى
خالد محيى الدين .

وقد استشهد فى القتال عباس الأسير الطالب بكلية تجارة
الاسكندرية ، وعضو لجنة أنصار السلام بالمدينة . . . وتحولت الجنازة
الى مظاهرة شعبية كبيرة ، نظمنا اشتراك ضباط الجيش فيها رغم اتصال
بعض ضباط القسم السياسى بنا ومحاولتهم أن يثنونا عن ذلك . . .
وسار ضباط الجيش فى صفوف منتظمة ومن خلفهم الجماهير تهتف ،
وأمامهم طالب يحمل تمثالا كبيرا لحمامة السلام البيضاء . . . وكان عدد
ملحوظ من الضباط وصف الضباط قد وقعوا بيان ميثاق ستوكهولم .

كان عدد الأنصار يتزايد ، ومضمون المعركة يتعمق . . . ويلتقى
صوت طلقات الرصاص مع رنين الكلمات المطبوعة على صفحات المجلات
الوطنية .

ولم تكن التنظيمات والقوة السياسية وحدها فى المعركة . . . كان
هناك بعض ضباط الجيش أيضا .

كان تنظيم (الضباط الأحرار) قد بدأ يتبلور وتتجدد معاملة ويزداد عدد المنضمين اليه يوما بعد يوم وكانت المنشورات هي الوسيلة الأولى لاثارة الضباط وتوجيههم .

كانت المنشورات خالية من الهجوم على الوفد أو الحكومة القائمة . . . لما كانت تقوم به من أعمال هي أقصى ما في طاقتها . . . وكان كتاب هذه المنشورات من أعضاء قسم الجيش (حدثو) وهم يدركون ان الهجوم على الوزارة الوفدية لاخراجها واسقاطها يلتقي تماما مع رغبة الاستعمار والملك والعناصر الرجعية خارج السلطة وداخلها .

ولكن المنشورات كانت تعلن « ان الجيش هو جيش الأمة وليس جيش فرد من الأفراد ، والأمة هي التي تنفق عليه ودافعو الضرائب من أبناء الشعب هم الذين يدفعون مرتبات هؤلاء الجنود ، وهم الذين يسلحونهم فمهمتهم الأولى أن يكونوا في خدمة الشعب لا في خدمة أي انسان آخر » . . . وكانت تهاجم الأموال التي تنفق على زفاف الملك « اليكم يا من تجمعون المال من عرق الشعب لتنفقوه في غير صالح الشعب . . . اليكم يا من تسوقون البلاد الى هاوية سحيقة لتصلوا بالبلاد الى مآربكم الخاصة . . . اليكم كلمتنا هذه لتكون نذيرا لكم لعلكم تثوبون الى رشدكم وترجعون عن غيكم . . . وانتم أيها الضباط اليكم هذا العرض الموجز لما يحدث اليوم من مهازل ، فكونوا متيقظين دائما لما يدير لجيشكم وبلادكم ، ولا تنهائونا في حقوقكم قيد أنملة » . . . وكانت تعلن موقفها السياسي كما يأتي : « الشعب والجيش يقفان اليوم بالمرصاد لكل حركة ترجع بنا الى الوراء . . . ان الشعب والجيش سيحطمان أية محاولة لضرب الحركة الوطنية . . . لقد أيدنا الحكومة في خطواتها الوطنية التي اتخذتها بالغاء المعاهدة الاستعمارية » (١) .

وكان جمال عبد الناصر الرئيس المنتخب لتنظيم الضباط الأحرار حريصا على اشتعال حركة الكفاح المسلح في القنال . . . يسهل اعداد التنظيمات المختلفة بالسلاح والذخيرة اذا طلبت وكما كان يعطيني السلاح لمتطوعي (حدثو) كان يعطي السلاح والذخيرة لعبد القادر عودة وحسن عسماوي ، كما كلف كمال رفعت أحد الضباط الأحرار المرتبطين في البداية بالتنظيمات اليسارية والوزير وعضو مجلس الرئاسة بعد الثورة ، وحسن التهامي ضابط المخابرات وعضو الضباط الأحرار ثم الوزير بعد الثورة بالاشراف على معسكر تدريب الندائيين في صحراء الفيوم ، ليرسلوا بعد ذلك الى كتائب وجيه أباطة عضو الضباط الأحرار ، والمتصل بفؤاد سراج الدين وزير الداخلية .

(١) حرب التحرير الوطنية - كمال رفعت .

... واشترك بعض الضباط الأحرار - اشتراكا فعليا في معركة القنال .
تؤيد لنا أنور السادات الذي أعادته الوزارة الوفدية الى صفوف الجيش
بعد فصله واعتقاله عقب ضبطه متصلا بالجواسيس الألمان في القاهرة
يرى قصة (التيتل) وهو اللغم البحري الكبير الذي تقرر إغلاق القناة
به واشترك في العملية تخطيطا وتنفيذا جمال عبد الناصر وأنور السادات
وصلاح هدايت الضابط المتخرج بعد ذلك في كلية العلوم ووزير البحث
العلمي بعد الثورة وحسن التهامي وضابط خفر السواحل عبد الستار
عرفة ... ولكن العملية لم تنجح لأخطاء غير مقصودة في البداية ثم أخطاء
فنية في النهاية .

لم يكن (الضباط الأحرار) يشكلون وحدات مقاتلة ، ولكنهم كانوا
يتصلون بالفدائيين يدربونهم ويغدون معهم الخطط ، ويشتركون أحيانا
في بعض العمليات .

ولكن وحدات الجيش العادية في منطقة القناة ظلت بعيدة تماما عن
أحداث المعركة ، تخضع لتعليمات قادتها التقليديين الذين يتلقون أوامره
من محمد حيدر رجل السراي وقائد عام القوات المسلحة .

وكان غريبا ان تسهم قوات البوليس بالعبء الأكبر في معركة الكفاح
المسلح بالقناة ، الى جانب الفدائيين والأهالي الذين بدأوا ينضمون الى
حرب العصابات .. بينما قوات الجيش تمارس حياتها الطبيعية دون
اغتناء على قوات الاحتلال ، ودون تحرش من قوات الاحتلال .

ولولا نشاط بعض (الضباط الأحرار) وروحهم النضالية لعد الأمر
باجتيا على التناقض الشديد . وأظهر الجيش في مظهر القوة المستكينة
لتعليمات السراي المتعاونة مع الاستعمار .

... أرسل ضباط العريش ورفح الى رئيس الوزراء ووزير الحربية
ورئيس أركان حرب برقية قالوا فيها « ان مصر العزيزة أولى بدمائنا من
فلسطين ، واذا لم تصدر الينا الأوامر بالتحرك الى القناة فسنصرف على
مستوليتنا » وقد حضر مفتش عام الجيش بعد البرقية للتحقيق ولكنه
لم يصدر أى اتهامات ولم تحدث مساءلة .

وقد أهاجت هذه الحالة مشاعر الضباط ، وجذبتهم الى أحداث البلد
السياسية ، وسهلت فرصة التجنيد لتنظيم (الضباط الأحرار) ، وشامت
الظروف أن يدخلوا تجربة عملية لاختبار قوتهم .

وكانت هذه التجربة هي انتخابات نادي الضباط ، وهي في العادة
كانت تمر هادئة ودون اهتمام كبير من جانب الضباط ... ولكنها أقيمت
هذه المرة في ظروف مشحونة بالقلق والتوتر .

(الضباط الأحرار) يعيشون أزمة الوطن دون أن تنطلق طاقتهم في خربة مثل بقية المواطنين يلمنون فساد السراى وتعاونهم مع الاستعمار ولا يجدون وسيلة للتعبير الا فى المنشورات .

وقد تحدد موعد الانتخابات بعد اسبوع واحد من هدم البريطانيين لقرية كفر أحمد عبده ، وهياج وثورة الراى العام المضرى .

وقرر اللواء محمد نجيب ان يدخل الانتخابات رئيسا للنادى ، وكانت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار قد اختارته لما انصف به من شجاعة وإمانة وبساطة خلقت له بين الضباط شعبية ملحوظة .

وتعتبر انتخابات نادى الضباط هى بداية المواجهة العلنية الصريحة بين الملك وبين (الضباط الأحرار) .

وعندما رشح محمد نجيب نفسه رئيسا للنادى لم يكن ذلك مما يريح الملك ، فقد سبق ان نقله منذ شهور من سلاح الحدود الى سلاح المشاة ، ردا على رغبته فى نقل الاميرالاي حسين سرى عامر وكيل الحدود المقرب من السراى والذي تولى قيادة السلاح بعده ، لما انحاط به من شبهات سلوكية .

أراد الملك أن يفرض حسين سرى عامر على مجلس ادارة النادى ، وأصدر أمره بتأجيل اجتماع الجمعية المحدد له يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، ولكن الضباط اجتمعوا وقرروا أن تجرى الانتخابات يوم ٣ يناير ١٩٥٢ . وفى اليوم المحدد رفضوا اعتبار سلاح الحدود من أسلحة الجيش التى يمثل مندوبوها فى مجلس ادارة النادى باعتباره سلاحا يضم ضباطا منتدبين من مختلف الأسلحة .

وكان فى هذا الاجراء صفة شديدة لارادة الملك . . وتمت الانتخابات فعلا وحصل محمد نجيب على أغلبية ساحقة (عدة مئات من الأصوات) بينما حصل المرشحون الآخرون لمنصب الرئاسة وهم اللواء حافظ بكري مدير المدفعية ، واللواء ابراهيم الأرنؤوطى مدير المهمات واللواء سيد محمد مدير الصيانة على ٥٨ صوتا فقط .

لم ينجح محمد نجيب وحده . . ولكن نجح معه أيضا مرشحو تنظيم الضباط الأحرار الذين شكلوا أغلبية المجلس وكان منهم زكريا محيى الدين وحسن ابراهيم وابراهيم عاطف ورشاد مهنا الذى عين سكرتيرا لمجلس ادارة النادى .

وكان هذا دليلا على تأثير ونفوذ تنظيم (الضباط الأحرار) بين ضباط الجيش كما كان دليلا أيضا على شعبية محمد نجيب .

ولم يكذب تبجى عدة أيام على الانتخابات حتى قام جمال عبد الناصر
ومعه حسين إبراهيم وكمال رفعت وحسن التهامي بمحاولة اغتيال حسين
سرى عامر أمام منزله يوم ٨ يناير ١٩٥٢ .

وهكذا أطلقت فكرة الاغتيالات برأسها من جديد . . . ولكن سرعان
ما تبين لجمال عبد الناصر بعد تجربته الأولى ان الاغتيالات لن تحقق
الهدف لأنها حتى لو نجحت فإن فساد النظام سوف يبقى ، كما عبر عن
ذلك في كتابه (فلسفة الثورة) . . . وهكذا لم يكذب يطل الارهاب برأسه
من جديد حتى عاد وأخفى .

وصرح رئيس شعبة الاخوان بالسويس بأنه « ليس للاخوان أى
تشاطات فى حركة المقاومة » ، وأثار هذا التصريح جدلاً بين بعض قادة
الاخوان مثل الشيخ محمد الغزالي الذى عارض هذا التصريح ، وسيد
قطب الذى قال ان مسئولية التعبير عن رأى الإخوان ملقاة على عاتق
المؤيد العام وليس على سواه . . . وعقب حسن الهضيبى على هذا الجدل
منتقداً كثرة الحديث عن موقف الإخوان ومتسائلاً « كان شباب مصر
كله قد نهر الى محاربة الانجليز فى القنال ولم يتخلف الا الإخوان
المسلمون » .

وكتب كمال رفعت فى كتابه (حرب التحرير الوطنية) أن أحد
الفدائيين عندما ذهب الى الشيخ فرغلى مسئول الإخوان فى الاسماعيلية
يسأله عن موقف الإخوان من احتلال الانجليز للمدينة فقال « نحن لسنا
على استعداد لتحمل تهور النحاس ولا يمكن أن نضحي بأولادنا من أجل
الوفد . . . الوفد عملها وعليه ان يتحمل نتائجها . . . وما حدث فى الأيام
الماضية كلام فارغ وقد راحت الناس ولا أحد يدرى بها . . . كما أن
الانجليز لا يمكن أن يخرجوا بالاتفاق مع الوفد وحده ، فهو حالياً لا يخيف
الانجليز لأنهم يعلمون ان هناك قوة ثانية فى البلد هى الإخوان ، فإذا
لم يقتنع الوفد بقوتنا فلن تفلح أى محاولة له ، وعلينا أن نترك الوفد
يفرق وحده وينتهى » .

ويقول كمال رفعت انه كان لدى الإخوان أسلحة كثيرة مخبأة لم
تستخدم فى القتال ضد الانجليز .

ومع ذلك لم يغيب الإخوان المسلمون عن معركة القنال غياباً تاماً ،
فان بعض أعضاء الجماعة من الشباب لم يطق الدخول فى جدل حزبي
والمعركة مع الاستعمار تدور فى القنال فاشترك البعض منهم ، وتشكلت
منهم عدة مجموعات ، واستشهد منهم بعض طلبة جامعة القاهرة
(فؤاد سابقاً) عمر شاهين وأحمد المنسى وغيرهما .

ولكن هذه الحركات المحدودة لم تكن تعبر تماما عن امكانيات وقدرات الاخوان المسلمين التي اندفعت الى معركة فلسطين بحماسة أشد .

تطور الكفاح الشعبى المسلح تطورا ملحوظا فى منطقة القناة ، وبدأت كتائب التحرير الشعبية تعالج نقط الضعف فيها ، وزاد اقبال (الضباط الأحرار) على المشاركة الصادقة فيها ، وتصاعدت العمليات حتى أصبحت خسائر القوات المحتلة مصدر قلق شديد للقيادة البريطانية . . . نشرت جريدة التيمز يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٥١ تقول « ان أعصاب الجنود الانجليز قد أصبحت شديدة التوتر ، وانهم (أى الجنود) يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية ، فقدت كل قيمة عسكرية لها نتيجة للشعور الوطنى المعادى » . . . كما علقت نفس الجريدة على تصريح للشيخ ابراهيم حمروش شيخ الأزهر يحل فيه دماء الجنود البريطانيين ، وكتبت فى صفحتها الأولى تحذر من أبعاد هذا الجهاد الدينى . . . وعندما نسف الفدائيون قطارا كاملا محملا بالجنود والأسلحة والذخيرة يوم ١٢ يناير كتبت النيوز كرونيكل تقول « علق الضباط الانجليز على هذه المعركة بأنها أعنف من أية معركة خاضوها أيام الانتداب البريطانى فى فلسطين » . . . وكتبت نيوستيتسمان « يبدو واضحا أن حرب العصابات قد أصبحت مسألة مقررة عند الفدائيين فى مصر . . . أن مستقبل المصالح البريطانىة قد أصبح الآن مظلما . . . فاما جلاء منجبل عن مصر . . . وأما اشتباك عسكرى وفترة طويلة من المعارك فى ظل الأحكام العسكرية . » .

ووصل الى القاهرة نجيب الراوى موفدا من نورى السعيد رئيس وزراء العراق حيث قابل فؤاد سراج الدين فى مكتبه وقال له ان الانجليز قد أفلسوا تماما ، وهم يطلبون حلا يحفظ ماء الوجه . . . واستطرد قائلا بأنهم مستعدون للموافقة على كل شئ على شرط ايقاف أعمال الكفاح المسلح فى القناة . . . وقال له فؤاد سراج الدين ان الموقف قد وصل الى الحد الذى لا يجرؤ فيه مصرى على اعلان ذلك ، وأنه على الانجليز أن يقرروا الجلاء ، وعلينا تأمين ظهرهم أثناء الرحيل .

وفى هذه الفترة كانت خطة تخلص الملك من الحكومة الوفدية تتحرك فى نشاط . . . قال لى أحد كبار ضباط البوليس السياسى فى ذلك الوقت ، ان تعليمات قد وصلت لهم خلال هذه الفترة بأنه قد تقرر التخلص من الحكومة الوفدية ، وأن عليهم أن يهيئوا أنفسهم لذلك . . . ويقول أيضا أن قوات بوليس القصور كانت عندها ملفات هى صورة طبق الأصل من ملفات البوليس السياسى الذى كان يرسل لهم كل الأخبار وكافة التقارير .

وعند محاكمة كريم ثابت أمام محكمة الغدر ، واستدعاء حافظ عفيفي كشاهد اثبات قال « ان الملك أبلغه أنه يريد التخلص من حكومة الوفد فقلت له أن المعركة دائرة مع الانجليز ولا يمكن اخراجها الآن ، وأنه لابد من حدوث شيء هام لاخراجها .. ولم يملك المستشار نفسه عن التعليق قائلا « وأظن يا باشا وجدتكم في حريق القاهرة الحاجة المهمة » .

وكانت الحكومة الوفدية تواجه انفصاما في سلوكها .. تمتد قوات البوليس وكتائب التحرير بالذخيرة والسلاح وتطلب منهم مقاومة الانجليز ، بينما هي تضطر الى مقاومة المظاهرات في القاهرة والاسكندرية بالرصاص أحيانا .

وكانت المظاهرات عقب الغاء المعاهدة ظاهرة شملت معظم المدن المصرية ، وأفرغت ما في صدور الجماهير من رغبة في القتال والمطالبة بالسلاح .. وكانت القوات البريطانية قد قتلت ٧ متظاهرين وجرحت ٤٠ في الاسماعيلية وقتلت ٥ وأصيب الكثيرون في بور سعيد ثم وضعت منطقة القنال تحت حكم عسكري مباشر تجاهل السلطة المصرية .. وفي ١٧ : ١٨ نوفمبر أطلق الانجليز النار على ثكنات البوليس في الاسماعيلية فرد هؤلاء وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وشيعت جنازة الشهداء المضربين في احتفال خرجت له المدينة كلها ، وفي اليوم التالي طلب الانجليز الى محافظ القنال سحب قوات البوليس المصري من الحي الأفرنجي بالاسماعيلية وسحب جنود بلوكات النظام وعدم ظهور الضباط المصريين بهذا الحي بأسلحتهم فقبل الجانب المصري هذه المطالب ، وفي ٣ ديسمبر أطلق الانجليز النار على بعض قوات البوليس في السويس واستشهد ٢٨ مصرياً منهم ٧ من رجال البوليس وقتل من الانجليز ٢٢ ، وتجدد الاشتباك في اليوم التالي وسقط ١٥ شهيدا .

وفي ٨ ديسمبر طلب الانجليز اخلاء حي (كفر أحمد عبده) بدعوى تحصن القذائيين به واجتمع مجلس الوزراء وقرر رفض الطلب ، فحشد الانجليز آلاف الجنود ودبابات ومصفحات لم يكن ممكنا لقوة بوليس لا يزيد عددها عن ٤٠٠ أن تقاوم فانسحبت وهدم الانجليز كفر أحمد عبده .. وردت الحكومة على ذلك باستدعاء عبد الفتاح عمرو السفير المصري بلندن فعينه الملك مستشارا له للسياسة الخارجية ، وهو المعروف بميوله الانجليزية ، واستولت على نادي الجزيرة الذي أنشأه البريطانيون فور احتلالهم مصر عام ١٨٨٢ وقضوا عضويته على العائلات البريطانية ولا يدخله المصريون الا بعد المرور على مجهر بريطاني دقيق ، وأباحوا للشعب حمل السلاح .

كانت هذه الأحداث المتكررة تهيئ مشاعر الشعب في مصر فتتطلق المظاهرات ويحدث من بعض أفرادها اعتداء على الممتلكات .. وأدرك بعض الثوريين ان ذلك يمكن أن يكون ثغرة يتسرب منها المستعمرون ، فكتب سلامة موسى في صوت الأمة (٢٥ أكتوبر ١٩٥١) يذكر بأن ما حدث من فساد للنظام أمر يخيف الأجانب وان بعض الشعارات كانت سيئة مما يعطى للأعداء فرصة الاندساس فيها لافسادها .. وخاطب النحاس باشا الشعب طالبا منه الهدوء .

وأصدر رؤساء تحرير الصحف بيانا يطالب بالعدول عن المظاهرات حتى لا يستغلها الانجليز ، وقد وقع البيان معظم رؤساء التحرير بما فيهم رؤساء تحرير (الكاتب) و (الاشتراكية) ورفض أبو الخير نجيب رئيس تحرير مجلة (الجمهور المصري) التوقيع لأن مجلته كانت من مجلات الاثارة غير الواعية .

ولكن استشهاد المكافحين في القنال جعل وقف المظاهرات أمرا صعبا . مما اضطر الحكومة عقب اعلان ٢٣ أكتوبر يوما للحداد الى اصدار بيان بأن عناصر غير بريئة اندست في المظاهرات ، وقررت منع المظاهرات منعاً باتاً مع التهديد باستخدام العنف .

.. ومع ذلك لم تتوقف المظاهرات تماما .. ولم تستخدم الحكومة العنف تماما حتى يوم ١٤ نوفمبر حيث صرحت الحكومة بخروج أكبر مظاهرة شهدتها مصر تحت شعار (الصمت . الحداد . النظام) ، وسار في طليعتها مصطفى النحاس وبجواره على ماهر ورجال الحكومة ، وشيخ الأزهر والبطريرك والحاخام ورجال الدين والقضاء والجامعة والمهنيون وبعض العسكريين كما اشتركت وفود من الدول العربية والسودان .. وكانت كتائب التحرير تحرس المظاهرة فلم يحدث حادث واحد ، في الوقت الذي قدر فيه عدد المتظاهرين بمليون متظاهر عدا المتفرجين على الأرصفة ، حتى انها وقد بدأت من ميدان الاسماعيليه (التحرير) لم يعرف لها أول من آخر ، وعم الصمت المظاهرة الكبيرة ، وتساقت على المتظاهرين المنشورات الثورية وارتفعت لافتات قدرت بعشرة آلاف لافتة كتب عليها (يسقط الدفاع المشترك) (الوساطة الأمريكية خدعة) (يسقط الاستعمار) (الموت للخونة) .. الى غير ذلك من الشعارات الثورية .

ولم تكن هذه المظاهرة التاريخية هي خاتمة المظاهرات .. فقد كانت حوادث القنال تجد انعكاسا وردود فعل سريعة في القاهرة لا تجد لها وسيلة للتعبير الا التظاهر رغم حظر ذلك ، حيث كانت المظاهرات تخرج بصفة تلقائية شعبية دون قيادة منظمة قادرة .

وزادت حدة المظاهرات فى أواخر ديسمبر وأحرق المتظاهرون بعض عربات الترام ، ورجموا البوليس بالحجارة مما أدى الى تعطيل الدراسة فى الجامعات ، وتجمع الطلبة رغم ذلك فى مظاهرات كانت تزداد عنفاً وشدة طوال شهر يناير .

وبدت ظاهرة جديدة أيضاً هى هجوم بعض الشبان على الملاحى والحانات كما حدث من تحطيم ملهين بالقاهرة يوم ١٥ يناير ، وانفجار دارين للسينما يوم ١٩ يناير . . . وهو اتجاه يتنافر مع المظاهرات الشعبية ، ويشير دون دليل الى فكر الاخوان المسلمين الذين كانوا يرددون دائماً الحديث عن الملاحى والحانات ، ولا يخوضون مباشرة فى قضية الكفاح المسلح . . . مما يكون قد دفع بعض العناصر لهذا اللون من التدمير .

ومن الاستفزازات البريطانية التى كانت تفتعل فى القناة رداً على نشاط الفدائيين . . . ومن ردود الفعل المنبثقة فى شكل مظاهرات فى القاهرة والأقاليم . . . رسم الاستعمار البريطانى والملك وقوات البوليس السياسى خططهم المشتركة للاطاحة بالحكومة الوفدية :

وصلت الاستفزازات البريطانية الذروة ليلة الجمعة ٢٥ يناير عندما حاصر آلاف الجنود البريطانيين ومعهم المصفحات والدبابات مبنى محافظة الاسماعيلية وأرسل الجنرال اكسهايم القائد البريطانى بالمنطقة انذاراً لقوات البوليس المصرى بمحافظة الاسماعيلية بتسليم أسلحتها والخروج من المحافظة والثكنات والرحيل عن منطقة القناة كلها .

وجد القسائد المصرى نفسه أمام احتمالين كلاهما صعب ، تسليم السلاح أو المقاومة مع فارق العدد والعدة وأراد أن يستطلع رأى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فأرسل ضابطاً صغيراً قفز من فوق السور ليتصل به بعد ان كان الانجليز قد قطعوا أسلاك التليفون عن المحافظة .

تمت المكالمة فى الثانية بعد منتصف الليل وكان فؤاد سراج الدين نائماً وعندما استيقظ وجد نفسه مضطراً لاعطاء قرار : فسأل الضابط بالايجاب عما اذا كانوا مستعدين للمقاومة حتى آخر طلقة ولما أجاب الضابط بالايجاب أعطى فؤاد سراج الدين قراره بالمقاومة ، ثم وضع السماعة وهو يبكى .

وكان عدد جنود بلوكات النظام فى الاسماعيلية ألف جندي مع كل منهم ألف طلقة . . . وبدأت المعركة باطلاق قذائف المدفعية والدبابات على مبنى المحافظة ، وقاوم البوليس المصرى مقاومة باسلة وأطلق مليون طلقة رصاص ، وانتهت المعركة بمقتل ٧٠ عسكرياً مصرياً ، ٤٠ عسكرياً بريطانياً .

ودخل الجنرال اكسهايم مبنى المحافظة وصافح قائد القوة المصرية قائلاً له « أهنتك وأهنت جنودك على الروح التي قاتلوا بها ، ولذا فلن أعاملكم كآسرى حرب ، ولن تخرجوا من هنا رافعي الأيدي » .

ودخل جنود بلوكات نظام الاسماعيلية في عربات السكة الحديد الى القاهرة ، وعندما أذيعت الأخبار كانت لها ضجة عالمية .. وظهرت ضحف انجلترا يوم ٢٦ يناير وقد كتبت (انها تخجل لأن الجيش البريطاني يحارب البوليس المصرى) .

وتحركت في القاهرة منذ الصباح الباكر دوامة من المظاهرات لا تهدأ ولا تتوقف .

اتصلت السفارة البريطانية في الثانية بعد منتصف ليلة ٢٥ - ٢٦ يناير بقوات البوليس تطلب حماية طائرة بريطانية هبطت في مطار القاهرة .. وموظفو المطار ممتنعون عن تقديم أى خدمات لها ولم ينزلوا الركاب وهددوا بحرق الطائرة بمن فيها .. وبعد اتصالات طويلة لم يعثروا على اللواء امام ابراهيم رئيس مكتب الأجانب ، فتحرك الى المطار بعض ضباط القلم السياسى . وبقوا هناك حتى السادسة والنصف صباحا .

وفي طريق العودة بلغهم ان عساكر بلوكات النظام قد خرجوا في مظاهرة ، فغيروا خط سيرهم لتفاديها ، وذهبوا الى منازلهم للنوم حتى الحادية عشرة صباحا .

وكان جنود بلوكات النظام في ثكنات العباسية قد خرجوا بأسلحتهم في السادسة صباحا في مظاهرة صاخبة احتجاجا على ما أصاب زملائهم في الاسماعيلية ، واتجهوا الى جامعة فؤاد بالجيزة حيث اختلطوا بالطلبة المتظاهرين ، وتحركت الحشود المشتركة تنادى بحمل السلاح والسفر لمحاربة الانجليز ، وتهتف أمام قصر عابدين بسقوط الملك .

وتجمع المتظاهرون في مبنى رئاسة الوزراء حيث خرج عبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية يخطب فيهم ، وهم يهتفون بالمقاطعة الكاملة للانجليز وارسال القوات المسلحة للقناة ، واطرام معاهدة للصدقة مع الاتحاد السوفييتى ، وتجاوزت بمطالبها قدرة عبد الفتاح حسن على احتوائها وقد أوقف وزير الداخلية حكمدار القاهرة لأنه لم يمنع المظاهرات .

وكانت مظاهرة أخرى تسير امام كازينو أوبرا حوالى الحادية عشرة والنصف صباحا حيث استفزها بعض ما شاهدته في شرفته فأحرقت الكازينو .

وهنا بلغ الأمر فؤاد سراج الدين الذى أصدر أوامره بفض المظاهرات بشدة ، وكان لدى الحكماء اللواء مراد الخولى أوامر كتابية باطلاق الرصاص ولكنه لم ينفذها . . وأبلغ امام ابراهيم مروسنيه بأن الوزير قد أصدر أوامره بعدم التعرض للمظاهرات رغم صحة ذلك ومعروف ان امام ابراهيم كان أحد كبار المسئولين فى القسم السياسى الذى لا يدين بالولاء الأول لوزير الداخلية وانما يدين بالولاء أساسا لسلطات السراى التى كانت لها دائما صلات مشبوهة علنية وسرية بالسفارة البريطانية .

وانتقلت مظاهرات هذا اليوم بعد ذلك الى مرحلة جديدة مشبوهة هى حرق سينما ريفولى ثم سينما مترو ثم نادى (الترف كلوب) البريطانى الذى اشتعل بمن فيه ، وتلاحقت الحرائق فى المتاجر الكبيرة والفنادق حتى شملت ٣٠٠ متجر وفندق شبرد ومترو بولوتيان ، وعشرات من الحانات والبارات ومعارض السيارات وبنك باركليز البريطانى وغيرها مما حوّل وسنط القاهرة الى شعلة من الديران .

ومع بداية هذه المرحلة المثيرة كان ٦٠٠ من ضباط الجيش والبوليس يتوافدون بالملثات على سراى عابدين لحضور مأدبة غداء ابتهاجا بمولده (حضرة صاحب السمو الملكى الأمير أحمد فؤاد ولى العهد) والذى كان قد ولد يوم ١٦ يناير وأصدر مجلس الوزراء قرارا بتعطيل المصالح (ابتهاجا) بمولده يوم ١٧ يناير ، وقرر منح كل مواليد هذا اليوم عشرة جنيهات (لتكتمل البهجة) ، واجتمع البرلمان فى جلسة خاصة للاحتفال بالمناسبة (السعيدة) ، وذهبوا جميعا الى قصر عابدين لقيد أسمائهم فى سجل التشريفات .

وفى مناسبة مرور اسبوع على ميلاد ولى العهد استعرض الملك قوات الجيش من شرفة عابدين وقال « فى هذا اليوم أهدى الى الجيش أعز شئ عندي وهو ابني » . . وأصدر حركة ترقية كبيرة فى الجيش ، وألقت طائرات الهليكوبتر اكياس الحلوى على سكان القاهرة الذين كانت أفكارهم مع المكافحين فى القناة .

القاهرة تحترق وضباط الجيش والبوليس على مأدبة الملك يتناولون الغداء الشهى ويحتفلون بميلاد ولى العهد ، ووزير الداخلية يحاول الاتصال بحيدر باشا تليفونيا ليصدر أوامره بنزول قوات الجيش ، ولكن حيدر باشا لا يغادر مقعده على المائدة ويرسل له وحيد شوقي مدير خفر السواحل يحدثه مما دفع فؤاد سراج الدين الى مغادرة مكتبه بوزارة الداخلية والذهاب بنفسه الى قصر عابدين ، بعد ادراكه أن الحرائق خطة مدبرة ، ومع ذلك ظل ينتظر حتى الساعة الثالثة الا ربع مساء حتى حضر له حيدر وحافظ عفيفى ثم ذهبا معا لمقابلة الملك وعادا فأبلغاه موافقة (جلالته) على نزول

ضباط الجيش . . . وقد نصحهم عثمان المهدي قبل نزولهم بغزى الشوارع المؤدجة بالمظاهرات حتى الخامسة مساء لم تتحرك قوات الجيش ، وعندما وصلت بعد ذلك الى حديقة الأزبكية أخذت موقفا سلبيا من الذين يحرقون القاهرة بدعوى انه لا توجد عندهم أوامر كتابية بإطلاق الرصاص . . .

ومع القروب كان كل شيء قد انتهى . . . احترقت القاهرة وباتت فيها عصابات اللصوص والمخربين تسرق وتنهب .

واجتمع مجلس الوزراء ليلة ٢٦ يناير بعد ان كانت قد توقفت كل أعمال العنف ، وانطفأت معظم الحرائق ولم يقدم النحاس استقالته للملك كما جاء فى بعض المصادر .

يقول فؤاد سراج الدين انه كان هناك احتمال قائم بتكرار أعمال العنف يوم ٢٧ يناير وخاصة بعد ثبوت ان الحرائق لم تكن تتم بطريقة مرتجلة . . . وانما كانت تتم بوسائل خديثة كما ظهر فى جريق شبرد اذ كانت هناك جماعات تفتح غازات معينة ثم تشعلها .

ويشير كمال رفعت فى كتابه (حرب التحرير الوطنية) الى هذه الحقيقة عندما يقول ان هناك فرقا منظمة من محترفى الحرق والتخريب انقضت على قلب العاصمة فى سيارات الجيب ، تحمل أحدث أساليب الحرق والتدمير واشدها فاعلية . . . وكانوا يقومون بمهبتهم بأعصاب ياردة دون أن يبدو عنهم شعار أو تصدر كلمة أو إشارة . . . كان عملهم ميرويسا وخريطتهم مرسومة . . . الأماكن التى يقصدونها محددة سلفا تتقدم مجموعة لاقتحام الأبواب اما بنفسها بقنبلة عند أسفلها أو عمل فجوة بمواقد الاستيلين ، وتسرح الى الداخل مجموعة ثانية تقذف فى جوف المبنى بالمواد الناسفة والحارقة وتندفع خارجة بعد ثوان معدودة ، وفى لمح البصر يكون المبنى كله شعلة من النار .

ويستطرد فؤاد سراج الدين فيقول انهم لم يجدوا امامهم من سبيل الا فرض الأحكام العرفية لسرعة اعتقال بعض الشبان المعروف عنهم التهور واجراء التفتيش للبحث عن المواد التى استخدمت . . . فكرت الحكومة الوفدية فى الآثار التى يمكن أن تترتب على فرض الأحكام العرفية وفكروا أيضا فى أمر الاقالة المائل امامهم .

وكان حافظ عفيفى قد سأل فؤاد سراج الدين فى مكتبه بقصر عابدين وهو ينتظر حيدر عما اذا كانت الحكومة الوفدية قد قررت قطع العلاقات السياسية مع بريطانيا ، لأن السفير البريطانى أبلغه بوجود معلومات تشير الى ذلك ، وان هذا يعتبر بمثابة إعلان حرب بين الدولتين ، يمكن أن تدخل القوات البريطانية بعده القاهرة . . .

وعندها قال سراج الدين أنهم لو حضروا الى القاهرة لانقض عليهم الشعب. . . ولكن حافظ عفيفى قال ان الأمر خطير لأنهم عندئذ قد يأخذون الملك أسير حرب وبهذه الطريقة يفرضون شروطهم على مصر .

ويقول فؤاد سراج الدين انه أيقن بعد هذه المحادثة أن عمر الحكومة الوفدية قد انتهى ، لأنه طالما وصل الحديث الى احتمال أسر الملك فان الأمر لأبد أن يؤدي للاطاحة بالحكومة الوفدية .

وقد جاء فى مذكرات ايدن بعد ذلك انهم فكروا فعلا فى دخول القاهرة عندما أزعج الكفاح المسلح قوات الاحتلال ، ولكن القائد البريطانى أبلغه أن قواته لا تستطيع ان تؤدي هذه المهمة .

كانت الاقالة ماثلة أمام الوزارة الوفدية وهى تناقش ليلة ٢٦ يناير موضوع فرض الأحكام العرفية ، وكانوا يدركون أيضا أن هذه الأحكام ربما تجعلهم أول من يكتوى بنارها . . . ومع ذلك « لم يكن أمامنا مفر - صيانة للأمة واحتياطا للمستقبل - من فرض الأحكام العرفية » على حد تعبير فؤاد سراج الدين .

التبرير غير مقنع ، ومفاجأة الحريق جعلت الوفد يجنح الى طبيعة غير طبيعته ، لأن قبضته على السلطة ضعفت ، واقتناع الناس بقوته قد تأثر من الأحداث ومن الحريق .

عين النحاس باشا حاكما عسكريا فى نفس الليلة ، وأوقفت الدراسة فى الجامعة والمعاهد والمدارس الى أجل غير مسمى ، بدأت حملة اعتقالات شملت بعض الثوريين ، وأغلق مبنى الحزب الاشتراكى ، وصدر قرار بمنع التجول فى مدينة القاهرة والجيزة من السادسة مساء الى السادسة صباحا عين عبد الفتاح حسن رقبيا عاما على الصحف . وعين المحافظون والمديرون حكاما عسكريين فى مناطقهم وصدر أمر عسكرى بمنع التجمهر واعتبار كل تجمع مؤلف من خمسة أشخاص أو أكثر مهددا للسلم والنظام العام ويعاقب من يشترك فيه بالحبس سنتين أو بالسجن خمس سنوات ان كان حاملا سلاحا .

ولكن هذه الاجراءات العنيفة ، ولبس ثياب الحاكم العسكرى لم تنقذ حكومة الوفد من مصيرها المخوم فقد أصدر الملك أمرا باقالتها بعد أقل من ٢٤ ساعة فى مساء يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ .

وتحديد مرتكبى جريمة حريق القاهرة ، يأتى من تحديد الذين استفادوا من هذه الجريمة .

كأنت قوات الاجتلال البريطاني تعاني معاناة شديدة من الكفاح المسلح حتى كاد الأمر يصل بهم الى خافة اليأس ، وجاء حريق القاهرة بالأحكام العرفية التي قضت على الحركة الثورية الصاعدة ، ومنعت نشاط الفدائيين وأخذت الجلوة المشتعلة في نفوس الشعب .

ويقول كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطني) ان المخاطر البريطانية أعلنت معسكرا في (كسبريت) كان معزولا تماما عن العالم الخارجي ، وكان يضم مجموعة من عمالة المجرمين والمفاهرين عمالة المخابرات والتجسس ، ويشير الى انهم كانوا العناصر المدربة التي اعتمد عليها البريطانيون في تدبير الحريق ، كما حدث بعد ذلك في حريق طهران الذي صاحب اسقاط حكومة مصدق عام ١٩٥٣ .

وكانت قبضة الملك على السلطة قد ضعفت ، واهينت كرامته وهتف بسقوطه في المظاهرات . واتخذت الحكومة الوفدية قرارات واجراءات دستورية لم يفلح في مقاومتها الا بالتآمر والتنسيق مع الاستعمار عن طريق تعيين حافظ عفيفي رئيسا للديوان ، والذي قالت جريدة التايمز يوم تعيينه « أنه أول شعاع ضوء يبدد ظلام الجو الشامل في مصر » .

ولذا فان اقامة مأدبة غداء تضم ٦٠٠ ضابط من قيادات الجيش والبوليس في اليوم الموعد المحدد لبدء الحريق ، وابقاء الملك لهم شبه محتجزين في السراي أمام موائد الطعام الى ما بعد الثالثة مساء ، وبعد أن كانت الحرائق قد التهمت معظم شوارع وسط القاهرة ، وهو أمر لا يمكن ان يرتفع فوق الشبهات ، وخاصة انه نفذ في اليوم التالي مباشرة لأكبر الأعمال استفزازا لشعور المصريين وهو معركة الاسماعيلية يوم ٢٥ يناير ، مما يدل على وجود تنسيق مشترك محكم .

وكان اختيار اليوم مدروسا في الخطة الملكية الانجليزية المشتركة بعناية فائقة ، فان كان مفروضا في هذا اليوم أن تفي الحكومة الوفدية بوعدها في قطع العلاقات نهائيا مع انجلترا ، وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي . . كما ان أخبار اليوم نشرت لمراسلها البريطاني (ايار) صباح يوم الحريق برقية بأن لندن تتوقع اشتراك الجيش المصري في معركة القنال وذلك بعد البرقيات التي ارسلها بعض ضباط الجيش يطلبون فيها المساهمة في الكفاح المسلح . . كما ان يوم ٢٦ يناير كان اليوم السابق لعقد أول مؤتمر لاتحاد عام نقابات العمال المصريين بنصریح من الحكومة الوفدية .

فوقد اسهم البوليس السياسى فى تغطية المؤامرة بدورهم المنظم عن طريق غيابة بعض قياداته أو اتخاذهم من المظاهرات موقفا سلبيا، أو ادعائهم بأن الوزير قد أمر بعدم الترخن لها ٢٠ وهم الذين سبق أن ناقشوا سرا طريقة التخلص من الحكومة الوفدية حسب رواية اللواء صادق خلاوة ٢١ .

هكذا تمت فصول الخطة الملكية الانجليزية المشتركة ٢٢ . واحترقت القاهرة ، وانتكست الحركة الثورية التحررية للشعب المصرى ٢٣ . ودخلت الحياة السياسية فى مصر مرحلة جديدة ٢٤ .

الباب الثالث

● الجيش فى السلطة

الفصل السابع حركة ٢٣ يوليو

(انى اؤكد للشعب المصرى ان الجيش
اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى
ظل الدستور مجردا من أية غاية) .

محمد نجيب فى البيان الأول للثورة:

الفصل الثامن الواقع الاجتماعى والطبقى للضباط الأحرار

(لم يكن بين قادة الجيش ضابط واحد من
اسرة اقتطاعية كبيرة ٠٠٠ ولم يكن بين
الضباط الأحرار أى باشا أو بك)

حقيقة تاريخية:

الفصل التاسع سقوط الملك

(انتم سبقتونى فى الى عملتوه ٠٠ الى
عملتوه دلوقتى كنت أنا راح أعمله)

الملك فاروق لمحمد نجيب

وهو يودعه فى رحلته الأخيرة من مصر
بعد عزله يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢

الفصل العاشر الضباط فى السلطة ٠٠ لأول مرة

(ليس من الدقة القول بأن الجيش يملأ
الفراغ ٠٠٠ ومن الأفضل القول بأنه يفتح
طريقا محجوزا بالقوة)

روستو

الفصل السابع

حركة ٢٣ يوليو

(انى اؤكد للشعب المصرى ان الجيش اليوم
كله أصبح يعمل لصالح الوطن فى ظل
الدستور مجردا من أية غاية)

محمد نجيب

من البيان الأول للثورة

احترقت القاهرة ، وأقيمت حكومة الوفد ، وبقيت الأحكام العرفية
التي اعلنتها .

وكان لحريق القاهرة أثر شديد على الضباط الأحرار . . البعض
جمحت به حماسته الى حد المطالبة بضرورة الحركة الفورية مثل عبد اللطيف
البغدادى الذى كان يتبنى دائما رأى المطالب بالاندفاع لأعمال تنفيذية
سريعة ، والذي وجد فى الحريق ما يثبت وجهة نظره من ان البلد كانت
معرضة للدمار والقوضى وان نزول الجيش كان كفيلا باعطاء الضباط
الأحرار فرصة فريدة لتغيير شامل فى بساطة شديدة . . وفى غمرة الدفاع
عن موقفه قال عبد اللطيف البغدادى انه جاهز فى منزله عندما يقررون
الحركة فقد سئم تكرار الاجتماعات والحديث .

ثورة يوليو ج ١ - ١٧٧

ويقول عبد اللطيف البغدادي ان عدم تكامل تنظيم الضباط الاحرار كان هو السبب في عجزهم عن الحركة فور الحريق .

والبعض دفعه الحادث الجسيم الى التفكير في الهدف الحقيقي لهذا التجمع من الضباط .. حتى هذه اللحظة لم يكن التنظيم قد أخذ شكلا هرميا متعدد المستويات منضبط السرية ، ولم تكن له لائحة أو برنامج ، كما أن بعض المجموعات لم تكن تواظب على دفع الاشتراكات ، ولم يكن نظام الخلايا قد استقر على أسس ثابتة وخاصة في سلاح الطيران .

واذن أصبح من الواجبات الملحة أن يستقر التنظيم على أساس برنامج ولائحة .. اللائحة لم يتسع الوقت لكتابتها .. والبرنامج كتبه أحمد فؤاد وخالد محيي الدين وتمثل في الأهداف الستة للثورة (القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين - القضاء على الاقطاع - القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم - اقامة عدالة اجتماعية - اقامة جيش وطني قوي - اقامة حياة ديمقراطية سليمة) .

كان الضباط الاحرار يعتمدون على منشوراتهم التي لم تتوقف والتي تبادل مسئولية طبعتها وتوزيعها عدد منهم عبد الرحمن عنان وحمدى عبيد وزير الادارة المحلية فيما بعد ، وخالد محيي الدين .. وأخيرا استقرت بعد حريق القاهرة لتكون من مسئولية (الحركة الديمقراطية للتححر الوطنى) . وفى هذا تفسير للأفكار والآراء التي حفلت بها المنشورات والتي كانت تعكس اتجاهها أكثر تقسيمية - الاتجاه الحقيقي لمجموعة الضباط الاحرار .

ظهر بعد حريق القاهرة منشور يقول :

أيها الضباط ..

« ان الخونة المصريين يعتمدون عليكم وعلى جيشكم لتنفيذ أهدافهم وهم يظنونكم اداة طيعة فى ايديهم للبطش بالشعب وارغامه على قبول ما يكره .. فليفهم هؤلاء الخونة ان مهمة الجيش هى الحصول على استقلال البلاد وصيانتة .. وان وجود الجيش فى شوارع القاهرة انما هو لاجباط قرارات الخونة التي تهدف الى التدمير والتخريب .. ولكننا لانقبل ضرب الشعب .. ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية .. ولن نقبض على الوطنيين المخلصين .. يجب ان يفهم الجميع اننا مع الشعب الآن ، ومع الشعب دائما ولن نستجيب الا لنداء الوطن » .

وفى منشور آخر صدر فى فترة وزارة أحمد نجيب الهمالى الاولى كتب ما يأتى :

• توالى مؤامرات الاستعمار الانجلو أمريكى فى الفترة الأخيرة فى مصر لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية ولصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار فى القنال الى مشاكل داخلية فى القاهرة فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات والغاء المعاهدة ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعى الاستعمارى وتكوين الكتائب الوطنية ، واشتدت جذوة الوطنية فى البلاد حتى كادت أن تصل مصر الى حقوقها الكاملة ، دبر الاستعمار وأذنا به انقلاب ٢٦ يناير ١٩٥٢ (حريق القاهرة) وجاءت حكومة على ماهر وبدأت المفاوضات من جديد ، وكان الاستعمار والخونة المصريون يأملون كثيرا من على ماهر التسليم تسليما كاملا بمطالبهم بقبول واستعمال الأحكام العرفية للتنكيل تنكيلا واسعا بالشعب • ولكن خاب رجاؤهم ولم يجبه على ماهر الى مطالبهم ، فكان لابد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية السابقة ، وتحويل الحركة الى الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة بالبلاد بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار • وهكذا وصل الهلالى الى الحكم بعد تدبير سابق •• وقد جاء الهلالى وأعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وان مهمتها الرئيسية هى التطهير وقد تناسى ان الفساد الأكبر مصدره الاستعمار وانه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلى الا اذا قضى على أسبابه ومصدره •• أن من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ •• ولكن يجب ألا نتجه الى ذلك الا بعد القضاء على الاستعمار •

• أبرزت المنشورات السابقة اتجاهات وطنية تقدمية تتعارض تماما مع التخطيط الأمريكى للسياسة المصرية •• بل وربطت بين الاستعمارين البريطانى والأمريكى فى محاولتهما القضاء على الحركة الوطنية وصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح •

وخلال هذه الفترة تبين أن حريق القاهرة لم يحرق الوفد وحده وانما أحرق معه قواعد النظام الذى فقد قدرته على الاستقرار •

كان نجيب الهلالى ينفرد بالحكم وحده بعد أن عطل الدستور ومنع الصحف من النشر عن الانتخابات ، وحاصر البرلمان بقوات البوليس بعد قرار حل مجلس النواب خشية اجتماعه عنوة ، وصادر مجلات الملايين (التنظيمات الشيوعية) والكاتب (أنصار السلام) واللواء الجديدة (الحزب الوطنى الجديد) واعتقل قادة هذه التنظيمات كما اعتقل فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد •

أما الإخوان المسلمون فقد عادوا للنشاط مرة أخرى •• أيدوا على ماهر عندما تولى الوزارة ، وأيسوا من بعده نجيب الهلالى لان وزارته • من رجال

غير حزينين عرفوا بسلامة القصد وبعد النظر واتصفوا بالجرأة والاقدام ،
كما نشرت مجلة (الدعوة) ٠٠ وقابل الهلالي الهضبي ولم يعتقل واحد
من الإخوان المسلمين .

ولكن الأفكار التي حوتها هذه المنشورات لم ترسب في أعماق
الضباط ولم يحتشدوا حولها ، ذلك أنه لم تكن هناك جهود مبذولة لتثقيف
الضباط ومناقشة المنشورات معهم والايحاء لهم بقراءة كتب معينة ٠٠ ولم
يكن ذلك الأمر ملحا لان أحدا لم يكن يتصور ان الظروف سوف تدفع
الضباط الأحرار الى حركة مفاجئة .

قال لى صلاح سالم انه لم يقرأ منشور الأهداف الستة ولم يناقش
هذا الموضوع أو يتعرف عليه الا بعد نجاح الثورة .

وقال جمال عبد الناصر للصحفي البريطاني دافيد مرجان في حديث
نشر بصحيفة الصانداي تايمز البريطانية في يونيو ١٩٦٢ انه كان في نيته
القيام بالثورة في عام ١٩٥٥ ، مما يوحي بأن الفرصة كانت ممتدة لمحاولة
توحيد الضباط حول القضايا الفكرية الرئيسية ، وإثارة اهتمامهم لتعميق
مفهوماتهم السياسية والثقافية .

وخلال فترة ما بعد الحريق كان محمد رياض أحد الضباط الأحرار
وقائد الحرس الخاص لمحمد نجيب فيما بعد قد اعتقل بتهمة الاشتراك في
حريق القاهرة ، وكان على صلة شبة تنظيمية بأحمد حسين رئيس الحزب
الاشتراكي ٠٠ وصدر قرار بوضعه في السجن أثناء التحقيق ، ولكن محمد
نجيب الذي كان يعرفه منذ حرب فلسطين توجه محتجا الى مكتب محمد
حيدر وزير الحربية ، ولم يخرج من عنده الا بعد أن نقل محمد رياض الى
الحجز في ميس الضباط ، كما تقضى بذلك قوانين الجيش .

وكان لتوالي ظهور منشورات (الضباط الأحرار) وارتفاع أصواتهم
الهامسة أثر على تحركات الملك ، وليس على تصرفاته ٠٠ وضاعف الحراسة
على نفسه ، وكان خلال سهراته ومبازله سواء في نادي السيارات أو ملاهى
الليل يحيط نفسه بضباط من الحرس في ملابس مدنية يمضون الليل
ساهرين ثم يحصلون على اجازة لمدة يومين ، وكان يقوم بهذه المهمة اعدد من
الضباط لمعت أسماؤهم فيما بعد (سعد متولى كبير الياوران بعد الثورة ،
ومحمد صادق وزير الحربية بعد ١٥ مايو ١٩٧١ ، وسعد الشاذلى رئيس
اركان حرس الجيش ، وحسين عرفة قائد المباحث الجنائية التابعة للشرطة
العسكرية) .

وكانت النعمة على الملك قد بلغت ذروتها وأصبح التركيز على نقده قاسما مشتركا في أحاديث الضباط .. وتسلب بذلك الضوء على محمد نجيب أساسا باعتباره أكثر الضباط شهرة وشعبية منذ حرب فلسطين .

زاره روما اللواء أحمد فؤاد صادق في مكتبه وروى له همسا أنه كان في منزل الدكتور يوسف رشاد وإذا به بعد اتصال تليفوني يعود له قائلا بأنه (سوف يقبض على اللواء محمد نجيب لاتهامه بتزعم حركة ثورية داخل الجيش) ولما نفى له اللواء أحمد فؤاد صادق احتمال ذلك - على حسب روايته ، قال له يوسف رشاد (ان المسألة خطيرة لانها تتعلق بحياة ملك) (١) .

وأدت هذه المعلومات الى اتخاذ الضباط الأحرار جانب الحيلة ، وخاصة بعد ان كانوا قد شكلوا لجانا قيادية للقاهرة ومنطقة العريش حيث تتجمع القوى الرئيسية للجيش .. شكلت لجنة القاهرة من جمال عبد الناصر وخالد محيي الدين وحسين الشافعي وزكريا محيي الدين ومجدي حسنين وأمين شاكر .. وشكلت لجنة العريش من يوسف صديق وعبد الحكيم عامر . وصالح سالم وجمال سالم (٢) .

وتصرف رشاد مهنا في هذه الفترة تصرفا أثار استياء زملائه ، وهو طلبه مغادرة القاهرة والانتقال الى العريش دون استشارة احد .. مما أدى الى توجه محمد نجيب الى مكتب حيدر محتجا على نقله باعتباره سكرتيرا منتخبا لمجلس ادارة نادي الضباط ولكنة فوجيء بأن النقل قد تم بناء على رغبته .. وذهب نجيب الى رشاد في منزله وسمعه يبرر طلبه للنقل برغبته في الابتعاد عن القاهرة في الوقت الذي يلاحقهم فيه غضب الملك .

وكان رشاد مهنا قد التقى باللواء حسين سري عامر مدير الحدود بعد محاولة اغتياله وتمت بينهما مصالحة شخصية .

وعندما وصل رشاد مهنا الى العريش كانت التعليمات عند البكباشي يوسف صديق مسئول المنطقة هي معاملته باحترام مع ابعاده عن التنظيم وعدم ربطه بحركته .

وخلال هذه الفترة أيضا قررت اللجنة القيادية للضباط الأحرار فصل (عبد المنعم عبد الرؤوف) من عضويتها لالتزامه وارتباطه بتنظيم الإخوان المسلمين ومحاولاته المتعددة مع عدد كبير من زملائه لنقل ولائهم لتنظيم الإخوان بدلا من تنظيم الضباط الأحرار .. في وقت كانت فيه موجة المد

(١) كلمتي للتاريخ .

(٢) رواية خالد محيي الدين .

السياسى للاخوان قد انحسرت ، وانكشفت اتجاهاتهم المتهادنة مع الاستعمار
والسراى .

ومع ذلك لم تتوقف اتصالات الضباط الأحرار بالقوى والتنظيمات
السياسية المصرية من اليسار (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) والى
اليمن (الإخوان المسلمين) . وكان أبرز العناصر نشاطا ودأبا على هذه
الاتصالات (جمال عبد الناصر) الذى كان قد أعيد انتخابه رئيسا للجمعية
التأسيسية للضباط الأحرار بناء على طلبه ، عقب محاولته اغتيال حسين
سرى عامر والنقد الذى وجه له من زملائه أعضاء اللجنة التأسيسية وخاصة
عبد اللطيف البغدادى ، لعدم قيام الجيش بحركة فورية بعد حريق القاهرة
.. وحصل جمال عبد الناصر على أصوات زملائه عند صوته هو فقد اعطاه
لحسن ابراهيم - كما ذكر لى عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم -
وكان ذلك تعبيرا منه عن الرغبة فى ترك موقعه ، واصرار زملائه على بقائه
وكان اختياره لحسين ابراهيم لانه اشترك معه فى محاولة اغتيال حسين
سرى عامر .

اتصالات خارجية

ولم يقتصر اتصال الضباط الأحرار بالقوى والتنظيمات السياسية
المصرية فقط ، ولكنه امتد ليشمل أيضا مندوبى وزارة الخارجية والمخابرات
المركزية الأمريكية الذين استشارتهم منشورات الضباط الأحرار ، وانتصارهم
فى انتخابات نادى الضباط ، فبدلوا غاية جهدهم للتعرف عليهم ، واكتشاف
آرائهم ومحاولة اجتذابهم .

وكانت حلقة الاتصال مع ضابط فى المخابرات المصرية طبيعة عمله
تسمح له بالاتصال بالملحقين العسكريين الأجانب ، بينما هو مرتبط
بالضباط الأحرار وبجمال عبد الناصر شخصيا .

ولم تتسع حلقة الاتصال بين المسئولين الأمريكيين وبين الضباط
الأحرار رغم اعتمادهم على الصحفي المقرب منهم محمد حسين هيكل رئيس
تحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت ورئيس تحرير الأهرام فيما بعد ، لانه لم
يكن قد تعرف بجمال عبد الناصر أو غيره من قادة تشكيل الضباط الأحرار
حتى ذلك الوقت أو اكتسب ثقتهم .

وكان حريق القاهرة حافزا لنشاط الأمريكيين فى المنطقة فقد أرسل
دين اتشيسون وزير الخارجية مندوبا عنه استعاره من وكالة المخابرات
المركزية هو كيرميت روزفلت لدراسة الأحوال فى مصر .

وكيرميت روزفلت هو حفيد الرئيس الأمريكى الأسبق تيودور روزفلت الذى زار مصر أثناء ولايته رئاسة الجمهورية (من عام ١٩١٦ الى ١٩١٩ وأثار الشعور العام ضده عندما خطب فى الجامعة المصرية متحدثا الاستعمار البريطانى لائما المصريين على تنكرهم لفضائله ومزاياه ، وأرسل له محمد فريد زعيم الحزب الوطنى برقية احتجاج ، وخرجت المظاهرات التى شهدتها القاهرة لأول مرة بعد اخماد الثورة العربية ، تهتف بسقوطه وحياة الاستقلال .

بعد ان ظهرت اسرائيل ، وتمت هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين ، وتسرب النفوذ الأمريكى للمنطقة ، لم تقف الولايات المتحدة موقفا محايدا من نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى ، فقله أعلن دين اتشيسون وزير الخارجية الأمريكية عندما الغى مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ « ان مصر لم تعط الالتزامات الدولية احترامها اللائق » ووجه اللوم لالغاء المعاهدة .

ونشرت مجلة التايم فى أكتوبر ١٩٥١ مقالا جاء فيه « أن الموقف فى مصر أشبه ما يكون بالموقف فى اليونان سنة ١٩٤٧ ، حين اضطرت انجلترا نظرا لضعفها الى سحب قواتها من اليونان ، فحلت أمريكا محلها ، واستأنفت القيام بدورها حتى لا تترك فراغا يتسرب منه النفوذ السوفييتى . » وأمريكا أعدت عدتها للموقف منذ زمن بعيد حتى لا تفاجأ كما فوجئت فى ايران ووضعت مشروع الشرق الأوسط ، .

وبدأ الصراع الخفى بين بريطانيا وأمريكا . . ونجحت المخابرات المركزية فى تدبير انقلاب حسنى الزعيم فى سوريا ، وهو أول محاولة لنقل أسلوب الحكم المفضل لدى الامبريالية الأمريكية والذى مارسه لزمان طويل فى أمريكا اللاتينية . . وهو حكم العسكريين الذين يقمعون الثورات والقتال الداخلى ، ويعملون مباشرة لحساب الشركات والاحتكارات الأمريكية .

وابتدأ الصراع الانجلو أمريكى بانقلاب دبرته بريطانيا ، هو انقلاب اللواء سامى الحناوى ، وردت عليه الولايات المتحدة بانقلاب ثالث بقيادة اللواء أديب الشيشكل .

وركزت الولايات المتحدة اهتمامها بعد ذلك على مصر ، فعينت جيفرسون كافرى سفيرا لها بالقاهرة ، وهو من أشهر مدبرى الانقلابات فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ويضم سجله سلسلة طويلة منها تقارب الثلاثين فى أمريكا الجنوبية والوسطى (كما ذكر محمد عودة فى كتابه « ميلاد ثورة ») .

وكان كافرى أول سفير أمريكى فى فرنسا بعد التحرير ٠٠ فى فترة ازيج فيها ديجول عن الحكم وطرد الشيوعيون من الائتلاف الوزارى ، وجذب الاشتراكيون للولايات المتحدة ، وأصبحت فرنسا قاعدة لمشروع مارشال ثم لحلف الأطلسي .

ولكن كافرى جوبه فى مصر بحركة شعبية متصاعدة ، اضعفت من فرص القدرة على أحداث انقلاب مشابه لما حدث فى سوريا ، وقد أسرع هو وسفراء انجلترا وفرنسا وتركيا لتقديم مذكرتهم المشتركة الى محمد صلاح الدين وزير الخارجية المصرى التى تدعو الى اقامة دفاع مشترك فور الغاء المعاهدة ٠٠ وهى المذكرة التى أعلن مجلس الوزراء المصرى رفضها أمام البرلمان ٠٠

ولذا كان حريق القاهرة فرصة مواتية انعشت آمال الامبريالية الأمريكية فى التسرب الى مصر ، ووضع قبضتها على مركز الحركة السياسية فيها ٠٠ أعلن دين اتشيسون وزير الخارجية الأمريكى ، فى ٣١ يناير قوله « ان قيادة الشرق الأوسط ليست اقتراحا يمكن قبوله أو رفضه ما زالت تقر بريطانيا على عدم اعترافها بالغاء مصر لمعاهدة ١٩٣٦ » ، ويقول تشرشل وترومان فى بلاغ مشترك « ان أفضل وسيلة لازالة التوتر الراهن فى مصر هى قبول قيادة الشرق الأوسط » .

ولم يكن رجال المخابرات المركزية كيزميت روزفلت مندوب وزارة الخارجية الأمريكية ورئيس بعثتها الى مصر بعد حريق القاهرة ، غريبا على المجتمع المصرى ، فقد عمل فى مصر خلال الحرب ، وتوطدت صلته بالملك فاروق ، ووقف الى جانبه خلال أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وأعد له مقابلة مع الرئيس فرانكلين روزفلت خلال زيارته لمصر عام ١٩٤٥ .

ولم يبدأ كيرمت روزفلت مهمته الجديدة من فراغ ٠٠ فالن السياسة الأمريكية كانت لها نقط ارتكاز أقامتها خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ كانت الوزارة الوفدية قد وافقت على مشروع (النقطة الرابعة) الأمريكى الذى يتيح للولايات المتحدة التغلغل باسم المعونات الاقتصادية والخبرة الفنية لها ، وتعرضت بسببه الى هجمات عنيفة ظهرت فى الصحف خلال عام ١٩٥١ ، ووصلت الى حد مهاجمة الطليعة الوفدية له فى بيان نشرته (الاشتراكية) يوم ٢٢ يونيو ١٩٥١ تتهم فيه أمريكا بأنها سبب الاستعمار البريطانى فى مصر .

وكان جيفوسون كافرى نشيطا فى مقابلاته وعلاقاته ٠٠ فقد نشرت الصحف - مجلة الجمهور المصرى عدد ٢٢ يناير ١٩٥١ - ان هناك مشروعا

لانشاء مكتب امريكى انجليزى مصرى لمقاومة الشيوعية ، ردا على المظاهرات المعادية التى تهتف بسقوط الاستعمار الانجلو امريكى ، وان مكتب الصحافة الأمريكى يعمل على كسب بعض كبار الصحفيين ويطالب بمبالغ كبيرة لزيادة نشاطه .

وكان مصطفى أمين صاحب دار أخبار اليوم قد أصدر كتابا باسم (أمريكا الضاحكة) فيه دعاية للمجتمع الأمريكى ، يمكن مقارنته بكتاب (الانجليز فى بلادهم) الذى أصدره حافظ عفيفى .

وكانت السفارة الأمريكية قد نشطت فى الاتصال بعدد كبير من السياسيين المصريين فى محاولة لاجتذابهم الى صفها . . . كان حافظ رمضان لا يخفى صلتة بالأمريكيين ، ويقول فتحي رضوان ان حافظ رمضان كان يتفضل بمستر. ايزلاند مستشار السفارة الأمريكية ، بأمل الضغط على البريطانيين كما صرح عبد الرحمن أمين الجامعة العربية بقوله : « اننا على استعداد للتألف مع أمريكا » .

ويقول مصطفى مرعى ان الأمريكين قد اتصلوا به ثلاث مرات للتعاون معهم على أسس رفضها ، قال لهم أنه ضد الملك وليس ضد النظام . . . وأنه مع الديمقراطية وضد الحكم الفردى . . . ورفض اقتراحا خاصا بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى ، وابلغهم انه يفضل تطوير قانون عضو الشيوخ محمد خطاب بحيث يضطر كل من يملك أكثر من ٣٠٠ فدان الى بيعها .

ويدل اتصال الأمريكين بمصطفى مرعى على أنهم كانوا يهددون لنوع جديد من الحكم كان يرفضه لتنافره مع الديمقراطية ، ولتشجيعه للإصلاح الزراعى بطرق غير دستورية . . . وهذا يفسر سياستهم التمهيدية لقبول انقلاب يتفادى أخطار الانتفاضات الشعبية بتحقيق بعض إنجازات اجتماعية شكلية مع تثبيت قبضة السلطة الخاضعة للامبريالية الأمريكية ، المهددة للديموقراطية الشعبية .

وكان أحمد حسين وزير الشؤون الاجتماعية فى وزارة الوفد والذى استقال منها فى صيف ١٩٥١ هو أحد أصفاء السياسة الأمريكية . . . يدعوا لسياسة اصلاح اجتماعى تتفادى خطر الثورة . . . وقد اقترح على (على ماهر) أن يطلب الى الملك - مكافحة للشيوعية وتصفية للسخط الشعبى - اعلان تنازله عن أملاكه - أو عن نصفها للشعب مثلما فعل شاه ايران فينمنا بعد أثناء معركة البترول كمقدمة لضرب الحركة الشعبية هناك . . . كما انه اغتذر عن عدم الاشتراك فى وزارة على ماهر عندما عارض فى رفع شعار (التطهير قبل التحرير) .

كان أحمد حسين يؤدي دورا نشطا بين الساسة المستغلين بدعوى محاربة الفساد ، وقد اتصل بعد خروجه من الوزارة الوفدية بنجيب الهلالى واتفقا على أسس التخطيط والعمل بعد التخلص من الوفد .

كان أحمد حسين يهدف مع المبعوثين الأمريكين الذين تركزوا فى القاهرة الى تنظيم ثوب الحكم الملوث ، ورتق ثقوب النظام المتفسخ عن طريق فصل بعض رجال الحاشية ، وتشكيل وزارة لايتدخل الملك فى اختيار اعضائها ، على أن يصدر الانجليز اعلانا بالجلالة من طرف واحد ، ثم يجرى تطهير الأحزاب بعد ذلك .

وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة لمساندة النظام ، ووقع الاختيار على نجيب الهلالى الوفدى السابق ، ذى المواقف السابقة الشجاعة فى مواجهة الملك ، المشهور بنزاهته وصراحته ... ولكنه أمام تكليفه بتشكيل الوزارة تغاضى عن المبادئ المتفق عليها ، وقبل وزراء الملك « مرتضى المراغى وزكى عبد المتعال » ولم يتعرض لرجال الحاشية بسوء .. واكتفى بالحديث عن (التطهير قبل التحرير) مما دفع أحمد حسين الى الاعتذار عن عدم الاشتراك فى وزارة كان هو شخصيا أحد المخططين لتكوينها ، وأحد وسائل الاتصال بين رئيسها وبين الأمريكين خلال عام ١٩٥١ .

ولم تنجح وزارة نجيب الهلالى فى تنفيذ المخطط الأمريكى .. لأن الملك ظل سائرا فى عبثه ، مطمئنا الى سطوته بعد اقامة الحكومة الوفدية ، معتمدا على حسن صلاته بالانجليز والأمريكين معا .

ولكن كبرميت روزفلت كان قد كون من دواسته لمصر رأيا آخر .. وجد ان الملك أعجز من أن يؤدي دورا ايجابيا فى اصلاح النظام : لم يكن الملك من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم فقد كان الملك فاقدا القدرة على تركيز أفكاره ، وكم من جلسة ابدى فيها تفهما عميقا لما يدور فى مملكته ، ووافق على اتخاذ بعض الاجراءات الأساسية فى خطة روزفلت ، ولكنه فى اليوم التالى يختفى عن الانظار مفضلا ممارسة هوايته فى العزبة والجنس وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه فى اليوم السابق ، ولا يخرج فى الأسبوع التالى من اتخاذ اجراء ينسف خطة روزفلت برمتها ، وقد أمضى روزفلت فى القاهرة الشهرين الأولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط (الثورة السلمية) وذلك بأن دفعا رجلى الحكم القويين مرتضى المراغى وزكى عبد المتعال لخلق أزمة وزارية ، بينما أوعز الملك الى البوليس السرى لجمع الأدلة والوثائق ضدهما ليثبت حين تحين الفرصة - انهما عميلان للمخابرات المركزية الأمريكية ، ثم قام الملك بتكليف نجيب الهلالى ذى الشهرة الواسعة والسمعة الجيدة بتولى مهام

رياسة الوزراء ، ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية ، مما جعل الهلالي برفض تسلم الوزارة حتى اتصل به روزفلت سرا وأسر له بأنه إذا لم يتسلم رئاسة الوزارة ، ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاستدين ، ويكون رائدا للثورة السلمية فإن الثورة لن تبقى سلمية أبدا .

وهكذا يفسر مايلز كوبلند في كتابه (لعبة الأمم) موقع وحركة مرتضى المراهي وزكي عبد المتعال . . ويلقى الضوء على حقيقة الدور الذي كان مفروضا ان يؤديه نجيب الهلالي ويكشف محاولة التمسك بثورة سلمية تحاشيا لثورة غير سلمية .

ويحاول مايلز كوبلند في كتابه (لعبة الأمم) الايحاء بأن جمال عبد الناصر كان على اتصال بكيرميت روزفلت عندما ذكر « وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة انه مع ضباطه لن ينسوا ذلك الاذلال الذي لاقوه على أيدي الاسرائيليين عام ١٩٤٨ ، الا أن نقيمتهم ستنصب بالدرجة الأولى على كبارضباط الجيش المصري ثم بقية حكام العرب والبريطانيين ، وأخيرا على الاسرائيليين » .

وكان ذلك في معرض حديثه عن اهتمام الأمريكيين بتوضيح موقف المصريين من قضيتين هامتين أولاهما اسرائيل وثانيتهما القومية العربية . . ويبدو حديث جمال عبد الناصر كأنما وجهه لروزفلت قبل ٢٣ يوليو ، إذ ان كبارضباط الجيش جميعا غدا قلة محدودة جدا منهم قد عزلوا وأحيلوا الى التقاعد فور نجاح حركة الجيش .

ولكنه لا يوجد دليل واحد على أن جمال عبد الناصر قد اتصل شخصيا بكيرميت روزفلت قبل الحركة . . ولو أن اتصالات بعض زملائه بالأمريكيين قد جعلته يطلب من خالد محيي الدين عدم استخدام عبارة (الاستعمار الانجلو أمريكي) في منشورات الضباط الأحرار ، والاكتفاء بذكر الاستعمار البريطاني ، وكان ذلك في شهر مارس ١٩٥٢ ، وذلك للتأييد الذي لمسه هؤلاء الزملاء من المسئولين الأمريكيين في المنطقة .

والمقطوع به أن الأمريكيين قد وجدوا في النشاط السري لحركة الضباط الأحرار ما يحقق لهم أهدافهم في المنطقة ، ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن يكونوا مسيطرين عليه .

وعندما عاد كيرميت روزفلت الى واشنطن في مايو ١٩٥٢ بعد اقامة امتدت ثلاثة أشهر قدم تقريرا الى وزير الخارجية الأمريكية دين اتشيسون حسب رواية مايلز كوبلند في كتابه (لعبة الأمم) تتضمن النقاط الآتية :

١ - لم تعد الثورة الشعبية التي كان يسعى اليها كل من الاخوان المسلمين والشيوعيين - وتخشاها وزارة الخارجية الأمريكية - واردة في الحساب .

٢ - لم يعد هناك أى أمل في ابعاد الجيش عن القيام بالانقلاب قريب واثناؤه عن عزمه على إستلام السلطة ، رغم كل التحفظات التي كان يبديها واضعو مخططاتنا في واشنطن من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى في سوريا على أيدي العسكريين .

٣ - ان قادة الانقلاب المحتمل ، يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه كثير من المراقبين الدبلوماسيين وتجعل منهم وهم في السلطة طرفا لنا ومرنا في أية مفاوضات نخوضها معهم كما انها تزيد من فرصتهم في النجاح .

٤ - يجب أن توافق الحكومة الأمريكية على اقضاء الملك فاروق ، وربما النظام الملكي نهائيا في مصر ، ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات للدبلوماسيين بارسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال أمام السفير كافرى ل اظهار قلقه المصطنع على سلامة الملك فاروق .

واذا صح ان كيرميت روزفلت قد وصل الى هذه النتائج فان هذا لا يعنى ارتباط تنظيم (الضباط الاحرار) بالمستولين الأمريكيين ارتباطا عضويا ، ولا يدل على ان حركتهم تتم بتوافق وتنسيق مع الاتجاهات الأمريكية ، وانما يدل على اتساع دائرة معرفتهم ، وخبرتهم السياسية في دول تتعرض لآزمات وطنية وحركة جيوشها في مواجهة هذه الآزمات .

التحضير للانقلاب :

دليل ذلك أن (الضباط الاحرار) لم تكن لهم خطة عمل ٠٠ ولم يحددوا تصورا لحركتهم ، ولم يقرروا أسلوب انقضاضهم الى ما قبل ٢٣ يوليو بأيام قليلة .

كانت الاتجاهات متضاربة ، والرغبات مشتتة ، والحلول المقترحة متعددة .

وظهر ذلك واضحا بعد أن أصدر الملك قرارا بحل مجلس الادارة المنتخب لنادى الضباط وتعيين مجلس مؤقت برئاسة اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة وشقيق اللواء محمد نجيب ، وعضوية يوسف العجرودى ، وجلال صبرى ، ومصطفى كمال عبد الرازق ، ومحمد حسنى وعلى صبرى ضابط مخابرات الطيران ونائب رئيس الجمهورية فيما بعد .

وكان هذا القرار الذي صدر في ١٧ يوليو صدمة جعلت (الضباط الأحرار) يهرعون الى التفكير في تنفيذ شيء ما . . دون أن يستبينوا حقيقة هذا الشيء . . ودون أن يعدوا لكل أمر عدته .

وتأرجحت الآراء . .

يقول محمد نجيب انه ظهرت أمام الضباط ثلاثة طرق مفتوحة :

الأول : ارسال برقيات احتجاج من الضباط للملك .

الثاني : احتلال النادي بالقوات المسلحة .

الثالث : تجميع كبار الضباط واعتقالهم وفرض شروط الضباط على الملك .

ولم تكن هذه الحلول هي التي فرضت نفسها فقط على تفكير الضباط . . برزت مرة أخرى فكرة الاغتيالات بطريقة ملحة . . وساندت مجموعة الطيران فكرة اغتيال قادة الأحزاب ورجال السراي وبعض رجال السياسة . . وسرت الفكرة الى مجموعات أخرى تجند للاغتيال ، وتشكلت مجموعة لذلك فعلا من كمال رفعت وعباس رضوان وزير الداخلية فيما بعد واسماعيل فريد محافظ الدقهلية السابق ومحمد البلتاجي محافظ الجيزة السابق وعبد الحليم عبد العال الملحق العسكري في واشنطن فيما بعد ، كانت تنتظر أوامرها من عبد الحكيم عامر . . ولكن هذه الأوامر لم تصدر ولم تطلق رصاصة واحدة للاغتيال .

وكانت فكرة الاغتيالات تراود الضباط دائما ، فهي أقرب اسلوب يتفق مع منطقهم وطبيعتهم . . وساعد على ظهورها مرة أخرى في هذه المرحلة - بعد ان ذوت وتراجعت في فترة الكفاح الشعبي المسلح ضد الانجليز في القناة ، وتجمع الارهابيين في تنظيم (الحرس الحديدي) التابع للسراي ، وعدم وجود ظروف تؤهل لهم خلق اعداء تتجسم فيهم فكرة الاغتيال - ساعد على ظهورها اغتيال ملازم الصيانة الفني (عبد القادر طه) في مايو ١٩٥٢ الذي كان عضوا في الحرس الحديدي ثم كفر به وبدأ اتصالاته مع القوى الوطنية واليسارية . . ونشرت الصحف وقتها اتهاما الى اللواء حسين عامر الذي بادر الى اعداد تكذيب له في جريدة (الأهرام) ولكنه تراجع عن نشره في آخر لحظة حتى لا يكون في هذا التكذيب توجيه لاتهام للسراي في وقت كان يتطلع فيه الى منصب الوزارة .

هكذا كانت فكرة الاغتيالات تطرح نفسها دائما ..

ولكن الظروف كانت تتغير بسرعة شديدة .. والمناطحة أصبحت متوقعة بين السراى والضباط الأحرار فى أية لحظة .

السراى فى مركز السلطة وتملك القدرة على اعتقال المشتبه فيهم من الضباط .. والضباط الأحرار يشعرون باقتراب الخطر منهم دون أن يكون عندهم تصور كامل أو خطة معدة لحركتهم .

وكان حسين سرى قد اقترح عند تشكيل وزارته يوم ٢ يوليو ١٩٥٢ بعد استقالة نجيب الهلالي تعيين محمد نجيب وزيرا للحربية ولكن الملك رفض ذلك رفضا باتا .. وغضب أيضا على محمد حيدر الذى لم يجد سبيلا الا حل مجلس ادارة النادى ترضية للملك ونقل محمد نجيب من قيادة سلاح المشاة ليكون قائدا للمنطقة الجنوبية فى منقباد بأسىوط .

وفكر محمد نجيب فى الاستقالة .. بل وكتبها فعلا .. ولكن موقف بعض الزملاء منه دفعه الى التراجع عنها وسحبها قبل وصولها .. فقد قال له يوسف صديق (اذهب الى منقباد وسنعيدك الى القاهرة بالدبابات) واقتنع محمد نجيب ، وقرر أن يواجه المقاومة مع زملائه من موقعه فى أى مكان ..

وفى هذه المرحلة أيضا كانت صيحة المنبادة بالحاكم (العاقل المستبدم) قد علت وترددت ووصلت الى الأذنة .. سواء فى الخارج الداخلى ..

نشر الكاتب الأمريكى ستیورات السٹوب مقالا فى صحيفة (شيكاغو صن تايمز) يقول فيه « اذا كانت بريطانيا قد استطاعت فيما مضى ان تحافظ على سيادتها على مصر بخلق الباشوات وجعلهم أصحاب النفوذ ، وبرشوتهم بعد ذلك ليكونوا أداة تسهيل مصالح بريطانيا الاستعمارية فإن هذه الطريقة لم تعد عملية ولا مجدية اليوم ، ان الشعب الفقير قد أخذ يستيقظ ويشعر بالضيق الفاحش اللاحق به » ثم أنهى مقاله بقوله « ان الحديث عن انعاش الديمقراطية فى بلد كمصر يعيش فيه أغلبية الشعب عيشة أحط من عيشة الحيوانات ، هو لغو فارغ ، ان مصر لا تحتاج الى ديموقراطية بل تحتاج الى رجل فرد ، الى رجل ككمال اتاتورك ليقوم بالاصلاحات الضرورية اللازمة للبلاد ، لكن مشكلة مصر كيفية العثور على الديكتاتور ، فليس بين رجالها من لديه المؤهلات اللازمة للديكتاتور » .

كتب احسان عبد القدوس مقالا بعنوان (ان مصر فى حاجة الى ديكتاتور .. فهل هو على ماهر ؟) تحمس فيه للدفاع عنه وقال أنه معروف

غنه انه يعتد برأيه الى حد لا يسمح معه للوزراء بالتفكير ثم قال : ومصر تقبل معه أن يعتد برأيه الى حد أن يصبح ديكتاتورا للشعب لا على الشعب ، ديكتاتورا للحرية لا على الحرية ، ديكتاتورا يدفعها الى الأمام ولا يشدها الى الوراء ، .

وفي نفس الوقت تقريبا ظهرت عدة مقالات كتبها جوزيف السوب (من نادى الجزيرة بالقاهرة) قال فيها أن فاروق قد فقد أهليته ، وأن الوفد حزب لا يمكن الاعتماد عليه ، وأن الأمل الوحيد في الجيش . . . وقد أثارت هذه المقالات التي نشرت في أمريكا اهتمام المبعوثين المصريين هناك ، ودفعت الدكتور ابراهيم سعد الدين عضو الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي ومستول معهد ، الدراسات الاشتراكية فيما بعد الى كتابة مقال للمجلة (الكاتب) دون توقيع ، تحدث فيه عن احتمال وقوع انقلاب عسكري .

وكانت صحف دار أخبار اليوم هي المنبر الذي تنطلق منه الدعاية للسياسة الأمريكية ، فهي تمدح السراي والملك ، وتهاجم الوفد وتحاول التشهير به ، ثم تنقلب الى غمز السراي عندما تتبلور السياسة الأمريكية وتفقد الثقة في قدرة الملك على الإصلاح . وقد أوضح موسى صبرى ذلك في كتابه ملك وأربع وزارات ، اتخذت موقفا معاديا للشيوعية في وضوح وقوة ونادت بالإصلاح ، وكان منطقها في محاربة الانجليز ، خذ منهم ما تستطيع ثم حارب من جديد ، ولعل صحافة أخبار اليوم كانت تمثل حيرة الشباب في البحث عن بطل ، وعبرت في كثير من مقالاتها وتحقيقاتها عن هذا الأمل الذي تجمع حوله الناس .

وفي غمرة البحث الأمريكي وراء خفايا الحياة السياسية في مصر ، ومحاولة معرفة (البطل) الذي تحدثت عنه صحف (أخبار اليوم) ، وقف جهاز اكتشافهم الحساس عند ظاهرة ، لم تكن وقتها ذات أثر كبير في حياة الجماهير اليومية ، ولكنها اظهرت بادرة مثيرة في أخطر جهاز منظم في مصر . . . وهي انتخابات نادى ضباط الجيش التي دفعت اسم محمد نجيب الى الضوء .

وفي يوم ١٨ يوليو فوجئ محمد نجيب بحضور مدير مكتب محمد هاشم وزير الدولة وزوج بنت حسين سري بعد الغروب طالبا منه الذهاب معه لمقابلة محمد هاشم وزير الداخلية .

وذهب محمد نجيب الى شقة محمد هاشم في الزمالك حيث انتظره الى ما بعد منتصف الليل لأنه كان في اجتماع مجلس الوزراء ودار بينهما

حوار عن أسباب التذمر في صفوف الجيش ارجع نجيب فيه السبب الى ان البلد تحكم حكما بعيدا عن الديمقراطية غير معبر عن ارادة الشعب .

ويقول نجيب أن محمد هاشم أدار الحديث فجأة ليسأله عما اذا كان تعيينه وزيرا للحربية يعتبر أمرا كافيا لازالة أسباب التذمر وخلق حالة من الرضى بين الضباط .

كان الاقتراح مفاجئا ، ولكن نجيب رفضه مباشرة متعللا بأنه سبق أن عرضت عليه وكالة الوزارة ورفضها وانه يفضل ان يظل فى موقعه بالجيش ويقول نجيب ان رفضه انبعث فى الحقيقة من شعوره بأنهم يقومون بمناورة لابعاده عن الجيش .

وخلال الحديث الذى امتد الى الثانية بعد منتصف الليل ابلغه محمد هاشم بطريقة عابرة ان هناك اسما ١٢ ضابطا عرفت السراى انهم يحركون (الضباط الأحرار) ولكن نجيب ابدى عدم اكتراث بهذه الواقعة مؤكدا له بأن هناك شعورا عاما وجارفا فى صفوف الجيش ضد كثير من تصرفات رجال السراى .

ونام محمد نجيب نوما قلقا مضطربا يستعجل الصباح ليبلغ اللجنة القيادية للضباط الأحرار ، وفوجئ قبل خروجه من المنزل بحضور الصاغ السابق جلال ندا المحرر العسكرى لدار أخبار اليوم ، ومحمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة يتحريان منه عما تم فى مقابلته مع محمد هاشم .

واندهش محمد نجيب لسرعة معرفتهما بالخبر ، ولكن تبين فيما بعد أن مصطفى أمين كان قريبا جدا من محمد هاشم وانه التقى به قبيل وبعد مقابلة محمد نجيب له ، وان ارسال ندا وهيكل كان من باب التعرف على وجهة نظر الضباط الأحرار .

ولم تقف المفاجأة عند هذا الحد . . فلم تكده تمضى لحظات حتى وصل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر والتزما الصمت حتى لا يدور الحديث مع نجيب أمام الآخرين . . وهنا طلب هيكل تعريفه بالضابطين ، وكان هذا هو اللقاء الأول بين جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل .

انفرد نجيب بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، واسر لهما بتفاصيل المقابلة ، وركز على تلميح محمد هاشم له بمعرفة السراى لاسماء عدد من الضباط ، واحتمال اتخاذ اجراء مضاد لهم فى اية لحظة .

وفى هذا اليوم بالتحديد تقرر القيام بحركة عسكرية . . ولكن الصورة التى تتم بها كانت مازالت مهتزة وغير واضحة ، تتأرجح بين الاغتيالات وبين الاعتقالات .

واتصل حسن ابراهيم بعبد اللطيف البغدادي يبلغه انباء قرارهم بالتحرك وكان في ذلك استجابة لموقفه الذي جعله يبتعد منتظرا بعد حريق القاهرة .

واجتمعت اللجنة القيادية للضباط يوم ١٩ يوليو ١٩٥٢ وناقشت الحلول المقترحة فور المقابلة مع نجيب الذي لم يحضر الاجتماع لانه كان اكثر الضباط عرضة للرقابة وتسليط الضوء عليه .

وتراجعت فكرة الاغتيالات بعد وضوح صعوبة تنفيذها بصورة جماعية واحتمال القيام بحملة اعتقالات واسعة بعد تنفيذ الاغتيالات ، الى جانب احتمال تعرضها للفشل وتعرض القائمين بها للخطر . ووافقت المجموعة كلها على ذلك .

ونبتت فكرة الانقلاب ، واخذت تنمو مع المناقشة ، بدأت بالتفكير في الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة دون الاذاعة أو غيرها . ثم تطورت حتى أصبحت حركة واسعة وانقلابا عسكريا حقيقيا .

وكلف زكريا محيي الدين بوضع خطة الانقلاب رغم انه لم يكن قد أصبح عضوا في اللجنة القيادية للضباط الأحرار ، ولكنه كان زميلا لجمال عبد الناصر وكمال الدين حسين في التدريس بكلية أركان الحرب .

واستمرت اجتماعات قادة الضباط الأحرار بعد ذلك نشطة ومتلاحقة ومتواصلة بصورة أبعدت النوم عن عيونهم يومين كاملين .

وتم اعداد الخطة .

وبقي تحديد الموعد باليوم والساعة .

ليلة ٢٣ يوليو :

كان تحديد موعد الحركة يخضع للظروف المتجددة ، فلم يكن الضباط الأحرار وحدهم هم الذين يملكون تحديده باليوم والساعة . كانت النية هي القيام بحركة عسكرية عام ١٩٥٥ كما قال جمال عبد الناصر للصحفي البريطاني دافيد دين مورجان مراسل السانداي تايمز في شهر يوليو ١٩٦٢ ولكن حريق القاهرة أصبح قوة ضاغطة تدفع للحركة ، واستقر الرأي في البداية على أن يتم ذلك في شهر نوفمبر ١٩٥٢ حيث يقضى الدستور بضرورة اجتماع البرلمان في هذا الشهر ، فاذا حدثت مخالفة دستورية أو تزيف في الانتخابات فإن حركة الجيش عندئذ تكون لحماية الدستور . ومضت الامور في هذا السبيل ، حتى أصدر الملك قراره بحل مجلس ادارة نادي

ثورة يوليو ج ١ - ١٩٢

الضباط ، وكان هذا في ذاته مؤشرا له دلالة بان الصدام حتمي ، وان التأجيل لن يكون في مصلحة الحركة . . . وحددت اللجنة القيادية يوم ٥ أغسطس موعدا للحركة لسببين هما استكمال حضور كتيبة مدافع الماكينة الأولى لتزيد القوة الضاربة للضباط الأحرار ، وحتى يكون الضباط قد استلموا مرتباتهم . ولكن معلومات محمد نجيب عقب مقابلته لمحمد هاشم ولقائه مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر جعلت التأخير حتى ٥ أغسطس أمرا لا مبرر له حذرا من مبادرة الملك لضربة تصيب الحركة بالشلل . . . وسأعده على تبكير الموعد ليتم خلال ٤٨ ساعة حديث تلاه ثروت عكاشة عن صهره أحمد أبو الفتوح رئيس تحرير (المصري) يبلغه فيه من الاسكندرية بأن أنباء تتردد عن اعتقالات لعدد من الضباط ، وتعيين حسين سرى عامر وزيرا للحربية .

تقرر يوم ١٩ يوليو ان تتم الحركة ليلة ٢١ ، ٢٢ يوليو ، وكان الوقت محدودا جدا لوضع الخطة ودراسة كافة الاحتمالات وحشد كل الضباط الأحرار والتأكد من سلامة تقدير الموقف وضمان حركة المناطق الخارجية عدا القاهرة وأهمها الاسكندرية والقنال والعريش .

ورغم ضيق الوقت لم يكن هناك من سبيل للتراجع ولم يعد هناك مفر من الاقدام . . . واصبحت القضية هي قضية الاتصالات وتحضير الضباط للعمل الانقلابي ، بعد ان صرف النظر عن الاغتيالات وتبين تحت ضغط عامل السرعة ان التنفيذ في الموعد المحدد (ليلة ٢١ ، ٢٢ يوليو) هو أمر شديد الصعوبة لتعذر تجهيز كافة الترتيبات والانتهاء من كل الاتصالات ، وتقرر تأجيل الموعد يوما واحدا لتكون الحركة (٢٢ ، ٢٣ يوليو ١٩٥٢) . . . وقد أثر هذا التأجيل في نفسية بعض الضباط الذي كانوا قد تهيأوا تماما للعمل وابلغوا قيادتهم بأنه اذا حدث تأخير جديد ، فسيتصرفون منفردين .

قرأ زكريا محيي الدين الخطة في الاجتماع الأخير الذي عقد يوم ٢٢ يوليو بمنزل خالد محيي الدين ، ويبدى عبد اللطيف بغدادى ملاحظة شكلية اذ يقول ان جمال عبد الناصر قد انتحى به جانبا هو وحسن ابراهيم حيث قال لهما انه كان مفروضا ان يقرأ الخطة ، وان المسألة ليست مسألة (اقدامية) باعتبار زكريا محيي الدين أقدم منه رتبة . . . بينما كان جمال عبد الناصر هو رئيس الضباط الأحرار انتخابا ولم يكن ذلك محل خلاف .

ورغم التأجيل يوما فان سرعة اعداد الخطة والتحديد المفاجيء للموعد احدث عدة مفارقات . . . أنور السادات غادر رفح يوم ٢٢ يوليو ولم يتصور ان الحركة ستتم هذه الليلة ، فذهب مع أسرته الى دار صيفية للمسيما . ولم ينضم لزملائه من الضباط الأحرار الا بعد عودته من السيما وقرأته

ورقة تركها له جمال عبد الناصر ، وعندما وصل كانت قيادة الجيش قد سقطت في يد الضباط الأحرار فعلا .

ومنطقة العريش لم تعرف بتفاصيل الحركة موعدا أو مسئولية .. وكذا منطقة القنال فهما لم يعرفا الا من محادثة تليفونية تمت في الثانية بعد منتصف الليل وفيها أبلغ القائمقام أحمد شوقي الصاغ توفيق عبد الفتاح بنجاح العملية ، وطلب منه جمال عبد الناصر تبليغ الصاغ صلاح سالم في رفح لتعذر الاتصال به تليفونيا .. ولم ينجح توفيق عبد الفتاح في ذلك الا مع أول ضوء يوم ٢٣ يوليو .

وحدث ذلك أيضا مع حامية السويس حيث كان الصاغ لطفى واكد يعرف التفاصيل والموعده ولكن نجاح العملية لم يعرف الا بعد اتصال أنور السادات باليوزباشى أحمد طعيمة .

أما منطقة الاسكندرية فقد حضر لى عز العرب عبد الناصر وشوقي عبد الناصر شقيقا جمال عبد الناصر يوم ٢١ يوليو ليبلغانى بالتوجه الى مصر لمقابلته دون توضيح الأسباب .

والتقيت بجمال عبد الناصر أمام منزله بالقاهرة حوالى الخامسة والنصف مساء يوم ٢٢ يوليو وترك عربته السوداء الصغيرة على مقربة من المكان الذى وقفت انتظره فيه ، بعد ان اعتذرت عن عدم الانتظار بالمنزل لشعور ريفى بالخرج من دخول منزل فى غيبة صاحبة .. وكان فى العربة الصاغ كمال الدين حسين والقائمقام أحمد شوقي والساغ صلاح نصر .

وفوجئت تماما عندما ابلغنى جمال عبد الناصر بأن الجيش يتحرك الليلة لفرض مطالبه على الملك ، فاذا لم يستجب لها فسينظر فى أمره .. وكان سر المفاجأة هو التوقيت الفورى ، الى جانب طبيعة الدور الذى سيقوم به الجيش .

كان تفكيرى مرتبطا بتفكير زملائى فى الحركة الديمقراطية للتحرك الوطنى ، الذى لم يقدروا للجيش دورا فوق دور الشعب ، ولم يتوقعوا أن الجيش سوف يتحرك وحده والناس نيام فى منازلهم ، بل كانوا ينظرون الى الجيش كفصيحة من فصائل الشعب تتحرك فى توافق وتنسيق وتوقيت مشترك مع الفصائل الشعبية الأخرى المثلة فى الأحزاب والاتحادات والنقابات .. لم يدر فى خلد احد ان نتعاون من أجل انقلاب عسكرى .

واستفشرت من جمال عبد الناصر عن طبيعة الدور الذى يمكن ان تقوم به قوات الاسكندرية فكان الجواب هو تأمين منطقة والسطيرة عليها

حدود تحريك للقوات أو حدوث تناقضات بين حامية الاسكندرية وفيها الملك والحرس الملكى والوزارة وبين حامية القاهرة .

كان توجيهها عاما أكثر منه توجيها للتنفيذ . . متروكا لمبادرة الضباط الأحرار فى الاسكندرية ، ولطبيعة الموقف الذى يمكن ان نجابهه .

وشعرت بالمسئولية الثقيلة التى القيت على كتفى ووجدت من واجبى ان اشرك فيها زملائى ، فأسرعت الى أحمد فؤاد وكان منزله قريبا وابلغته بحديثى مع جمال عبد الناصر ولم يكن الموقف قد اتسع للقائهما فلم يكن يعرف شيئا عن موعد الثورة . . وذهبنا معا حيث قابلنا خالد محيى الدين ولم نتردد فى ضرورة المشاركة بعد ان دارت العجلة وأصبح وقفها مستحيلا .

وذهبت الى يوسف صديق وكان زميلا أيضا فى (حدثو) وفوجئت بالدماء تنزف من صدره ، وقد أخذ حقنة فى الرابعة مساء لمنع النزيف ، وهو فى معنوية عالية يهيب نفسه لواجب الليلة . . وغادرت القاهرة بعد ان ابلغت سيد سليمان رفاعى أو (بدر) سكرتير (حدثو) بموعد الحركة المفاجئة ، فوصلت الاسكندرية مع منتصف الليل .

ولم يكن بدر وأحمد فؤاد هما المدينان الوحيدان اللذان عرفا بتحريك الجيش قبل مواعده . . كان جمال عبد الناصر قد ابلغ حسن عشاوى عضو مكتب الارشاد بالاخوان المسلمين كما ثبت من حديث له فيما بعد ، كما ذهب جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين يوم ٢٢ يوليو لا بلاغ صالح أبو رقيق عضو مكتب الارشاد أيضا واتفقا معه على ان يسهم بعض الاخوان فى مساندة حركة الجيش بعد انتصارها فى الصباح . . وأبلغ أحمد أنور شبراخى فى كلية الشريعة اسمه محمد الاودن كان يتبارك به ليدعو لنجاح الثورة . . فظل قائما يصلى طول الليل - حسب رواية أحمد أنور - حتى أذبح البيان الأول للثورة .

أخطأ غير متوقعة :

ولا شك أن اتصالات قد حصلت بين بعض الضباط والمدنيين قبل التحرك ولكن فى حدود معينة ، لاتتجاوز دائرة الاقارب أو الأصدقاء .

ولكن التسرب لموعد الثورة وحركتها جاء من ملازم أول حسن محمود صالح الذى أبلغ زملاءه فى المدفعية أنه عندما ذهب الى المنزل لتغيير ملابسه فهتمت والدته انه مقدم على عمل ما فى هذه الليلة ، فأبلغت أخاه أواء نجوى متقاعد صالح محمود صالح الذى أبلغ بدوره حيدر باشا تليفونيا بان الضباط ينوون عمل شيء فى البلد .

عرف ضباط المدفعية بذلك في الساعة مساء يوم ٢٢ يوليو .
فأعادوا الضابط الى والدته ليقتنعها بأنه ليس هناك شيء جدي .

ولكن الخبر كان قد وصل الى السراى فعلا ، وأصبحت الحركة مهددة
بالفشل والتوقف قبل أن تبدأ .

ولم تكن هذه هي الثغرة الوحيد . . . حدثت ثغرة أخرى قبل الحركة .
بساعات في سلاح الفرسان عندما اتصل أحد الضباط (ممدوح شوقي)
بضابط آخر ليس عضوا في التنظيم (يوزباشى فؤاد كرامة) الذى ابلغ ذلك
الى اللواء أحمد طلعت حكمدار العاصمة ، الذى أسرع بإبلاغ القصر ، حيث
استدعى اللواء حسين فريد الى عابدين ومنها توجه الى القيادة .

كان واضحا ان العجلة والسرعة هما الطابع السائد للحركة ، وان
الروح الاندفاعية هي المسيطرة وان السباق مع الزمن كان يدفع الى الاهتمام
بالوصول مع عدم الوقوف عند كثير من الفرعيات .

ويقول عبد اللطيف بغدادى أنهم فى أثناء المناقشة الأخيرة للخطة
توقعوا النجاح بنسبة ١٠٪ والفشل بنسبة ٩٠٪ ، ولكن لم يكن هناك مفر
من الاقدام .

واعطيت الخطة اسما كوديا هو (نصر) وتحدد منتصف الليل
(ساعة الصفر) .

وبدا تنفيذ الواجبات فى حدود القوى المتاحة .

وقبل ان تتحرك أى قوة من موقعها . . وقبل الخطوة الاولى فى تنفيذ
الخطة كان اللواء حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش قد استدعى
قادة الأسلحة والمناطق الحرة ، عدا اللواء محمد نجيب مدير المشاة ،
وقتنذ لخشيته منهم واعتقادهم انه العنصر الرئيسى المحرك للضباط الغاضبين
. . الى مؤتمر فى العاشرة مساء بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة بكوبرى
القبّة .

وقد تناسق عدم استدعاء محمد نجيب الى المؤتمر مع خطة الضباط
الأحرار التى كانت تقضى ببقائه فى المنزل على أهبة الاستعداد ، دون أية
حركة قد تثير الشبهات ضده ، الى ان تنجح الخطة فيستدعى لتولى
القيادة .

ولكن محمد نجيب علم من شقيقه على نجيب قائد قسم القاهرة بطبيعة
وهو عند المؤتمر ، فأسرع بتبليغ ذلك شخصيا الى عبد الحكيم عامر ونصححه
بأن يتم اعتقال القادة المؤتمرين أثناء خروجهم حقنا للدماء .

كان الوقت متأخرا لا يسمح بتبليغ الضباط تغييرا فى الخطة ، كما ان وقف التنفيذ لم يكن واردا مهما كانت الأخطار .

• واتصل عبد الحكيم عامر بجمال عبد الناصر وخرج الاثنان معا فى عربة جمال الصغيرة يراقبان حركة القوات . فلم يكن الاثنان مرتبطين بوحدة عامل فى القاهرة . . عبد الحكيم عامر كان فى العريش وجمال عبد الناصر كان مدرسا فى كلية أركان الحرب .

ومعظم ضباط اللجنة القيادية للضباط الأحرار لم يكونوا مرتبطين بوحدة متحركة فى هذه الليلة عدا خالد محيي الدين الذى تحرك فى اطار خطة السوارى ، وكمال الدين حسين الذى تحرك فى اطار خطة المدفعية رغم انه كان مدرسا فى كلية أركان الحرب . . صلاح سالم كان فى العريش وأنور السادات كان قد وصل للقاهرة فى نفس اليوم كما ذكرت . . وضباط الطيران عبد اللطيف البغدادى وجمال سالم وحسن ابراهيم لم يكن فى الخطة تحركهم الا بعد ضوء الصباح عندما يصبح للطائرات فرصة التحرك .

كانت لحظات حرجة . . مؤتمر للقادة فى كوبرى القبة . . والضباط الأحرار يتسللون لولاياتهم يجهزون أسلحتهم .

سباق خفى مع الزمن . . القادة لا يعرفون ماذا يدور فى وحداتهم . . والضباط الأحرار لا يعرف معظمهم حقيقة المؤتمر ولا ماذا استقر أمر المجتمعين عليه .

سقوط القيادة العامة :

• وحدث خطأ بسيط . . ولكنه كان عظيم الأثر .

تصور البكباشى يوسف صديق ! . . ساعة الصفر هى ٢٣٠٠ أى الحادية عشرة مساء وليست منتصف الليل .

كان يوسف صديق قائدا ثانيا لكتيبة مدافع الماكينة الأولى . . وسال مع مقدمة كتيبته الى القاهرة منقولا من العريش يوم ١٣ يوليو . . وكان عدم وصول بقية الكتيبة سببا فى التفكير السابق لتأجيل الحركة الى ٥ أغسطس .

لم يخف يوسف صديق الموقف على ضباطه وجنوده ، خطب فيهم قبل التحرك وقال لهم انهم سيفخرون بما سينجزون فى هذه الليلة .

• وتحركت القوة التي وصلت مصر من الكتيبة (سرية الرئاسة وسرية أخرى) من معسكر (هاكستيب) أبعد معسكرات ضواحي القاهرة (خلف مطار القاهرة الدولي) • دون أن تدري شيئا عما يدور في قيادة الجيش •

كان يوسف صديق راكبا عربة جيب في مقدمة طابور عربات الكتيبة المليئة بالجنود • وفي الطريق فوجيء باللواء عبد الرحمن مكى قائد الفرقة يقترب من المعسكر ، فاعتقله ، وعند أوائل مصر الجديدة اعتقل أيضا الاميرالاي عبد الرؤوف عابدين قائد ثانی الفرقة ، الذي كان يسرع بدوره للسيطرة على معسكرات هاكستيب • وركب الاثنان في عربتهما والمدافع موجهة عليهما من العربات الأخرى ، والعلم يرفرف على مقدمة العربة •

ولم تقف الاعتقالات عند هذا الحد فقد فوجيء بجنوده يلتفون حول اثنين تبين انهما جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر • وكانا وحسب رواية يوسف صديق - في ملابس مدنية •

كان اعتراضهما للقول المتحرك واقتراهما منه سببا في إثارة شبهات الجنود ، ولما استفسر منهما يوسف صديق عن سر وجودهما في هذا المكان ابلفاه بالمواقف في رئاسة الجيش • وهنا أعد يوسف صديق فجأة خطة جديدة تقضى بهماجمة الرئاسة •

كانت قوات يوسف هي الوحيدة التي تتحرك في شوارع القاهرة ، وهي الوحيدة التي تتحرك في جراحة نحو مركز رئاسة الجيش •

وكانت الخطة التي اعدها يوسف صديق للاقتحام بسيطة • • فصيلة تقطع الطريق عند مستشفى الجيش أمام كوبري القبة ، وفصيلة أخرى تقطع الطريق عند كوبري السيوف أمام سلاح خففة الجيش ، وبقيّة القوة تقتحم بلا احتياطي •

وأثناء نزول الجنود من عرباتهم ظهر الاميرالاي أحمد سيف اليزل خليفة ، فكان ثالث المعتقلين ، وترك سائقه فقط حرسا عليهم وعنده أوامر بإطلاق النار •

واقترح يوسف صديق وجنوده مبنى القيادة وفتشوا الدور الأرضي وكان خاليا ، وعند ارادوا الصعود الى الطابق الأعلى اعترض طريقهم شاويش حذر يوسف صديق ولكنه أصر على موقفه ، فأطلق عليه يوسف طلقة إصابته في رجله شفى منها فيما بعد •

وعندما حاول فتح غرفة القيادة وجد خلف بابها مقاومة • • فأطلق جنوده الرصاص على الباب ثم اقتحموا الغرفة • • وهناك كان يقف اللواء

حسين فريد رئيس أركان حرب الجيش واللواء حمدي هيبه وضابط آخر
يرفع منديلا أبيض .

كان حسين فريد رابط الجاش شجاعا .

وقال له يوسف :

— لقد طلبت مقابلتك من مدة ، ويوسفنى أن تكون هذه هى مناسبة
اللقاء .

وطلب منهم ان يتحركوا حيث سلمهم لليوزباشى عبد المجيد شديد
أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى فيما بعد ليذهب بهم الى معسكر الاعتقال
المعد حسب الخطة فى مبنى الكلية .

وفى هذه اللحظة وصل ضابط ومعه ٥٠ جنديا كل منهم يحمل ١٠٠
طلقة حضروا بناء على استدعاء من رئاسة الجيش ، فضمهم يوسف الى قواته
بعد أن عين عليهم قائدا من ضباطه .

واخيرا جلس يستنشق انفاسه مع بعض ضباطه فى مكتب رئيس هيئة
أركان حرب الجيش .

كانت قيادة الجيش قد سقطت . . وكان بعض كبار الضباط قد
اعتقلوا . . وكان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يرقبان الموقف من
موقع مجاور تماما للقيادة هو المكان الذى أقيم فيه المسجد الذى استقر فيه
جثمانه بعد وفاته .

ولم يكن جلوس يوسف صديق على مقعد رئيس أركان حرب الجيش
يعنى أن الحركة قد انتصرت أو أن الخطة قد نفذت . . ولكنه كان يعنى
فقط أن أخطر مركز للسلطة قد سقط . وأنه لم يعد هناك — فى القاهرة —
مركز يستطيع أن يعطى أوامر مضادة لحركة قوات الضباط الأحرار .

كانت جراءة يوسف صديق وبسالته عاملا مرجحا لقوات الحركة . .
وكان كبار ضباط الجيش الذين غادروا القيادة عقب مؤتمرهم قد بدأوا
يتساقطون فى أيدي القوات الثائرة .

قوات المدفعية فى الماطة اعتقلوا اللواء على نجيب قائد المنطقة المركزية
كما اعتقل اللواء حافظ بكرى قائد المدفعية والبكباشى عبد الفتاح كاظم
أركان حرب السلاح . . اعتقلهم كمال الدين حسين ووضعهم يوزباشى
محمد أبو الفضل الجيزاوى أركان حرب مدفعية الميدان فى مكتبه تحت
الحراسة .

وبعد منتصف الليل اتصل من الاسكندرية الفريق محمد حيدر .
يطلب اللواء حافظ بكرى ، وكان قد سبق له الاتصال برئاسة الجيش فلم
يتلق جوابا مطمئنا . . ورد عليه اليوزباشى الجيزاوى بقليل صوت اللواء
حافظ بكرى ودار بينهما الحديث التالى بعد سؤال حيدر عن الحالة :

ـ أنا حافظ بكرى يا معالى الباشا . . وقد ارسيت استسعى قادة
الوحدات واحنا مسيطرين تمام على الموقف .

وقال حيدر وصوته يتهلل :

ـ أنا متشكر على الهمة دى يا حافظ وأنا جابلخ مولانا ، وخليك على
اتصال بينا .

وفى الواحدة بعد منتصف الليل اتصل حيدر للمرة الثانية يطلب
افادة عن الموقف ، فطمأنه أبو الفضل قائلا ان قادة الوحدات والضباط
قد وصلوا فقال له حيدر :

ـ أنا سامع ان فيه دوشة عند القيادة .

وقال أبو الفضل :

ـ المعلومات عندنا وسارسيل قوة لضرب هذا التجمع

ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى اتصل حيدر مرة ثالثة والقلق
يتضح فى صوته وأبو الفضل يجيب :

ـ أرسلنا قوات للعباسية واحنا مسيطرين على الموقف فى الماطة
والعباسية وسنقبض على الضباط المتجمعين أمام القيادة .

وفى الثانية بعد منتصف الليل اتصل حيدر للمرة الرابعة ووضح
من صوته انه فى حالة نفسية سيئة وهو يقول :

ـ هنا معلومات وصلتنا بان بعض الضباط قد استولوا على القيادة
فعلا . . فما هى الحقيقة ؟

وحاول أبو الفضل يطمئنه قائلا :

ـ ان هذه المعلومات ليست صحيحة وان قواتنا فعلا هى المسيطرة
على الموقف .

ولكن الشك كان قد دخل قلب حيدر الذى قال :

ـ ائت باين عليك ممش حافظ بكرى . . وصوتك متغير . .

— لا يا أفندم أنا حافظ بكري ، وتغير الصوت من التليفون •

— اديني أماره •

— أماره إيه يا معالي الباشا •

— اديني أماره بخصوص العيد •

وقال أبو الفضل :

— هو بعد العيد يتفتل الكحك •

وصدم حيدر بالرد فقال :

— مش عيب يا بني كده •

وجسم أبو الفضل الموقف قائلا :

— مصلحة البلد فوق كل اعتبار .. وأرجو أن تتركنا لكي نكمل

عملنا •

ولم يكن محمد حيدر هو الوحيد الذي اتصل بالمدفعية ، ولكن قائد البوليس الحربي خاطبه أيضا ، باعتباره (حافظ بكري) وطلب منه قوة مسلحة لأن هناك وحدات تهاجم القيادة في كوبري القبة •

وعندما سأل محمد أبو الفضل الجيزاوي عما إذا كانت القوة يجب أن تكون معها الأخيرة قال قائد البوليس الحربي :

— طبعا يا أفندم لازم نضرب في المليون ونمنع الفتنة دي •

وقال له أبو الفضل وقد فاض به :

— انت بكريه اللي حتنضرب بالرصاص في ميدان عابدين •

واتصل بالمدفعية أيضا ، قائد ثان السلاح من منزله ، ومدير العمليات الاميرالي سيد طه القائد السابق لقوات القالوجا •

كانت هذه المكالمات تدور أمام القادة المعتقلين ، ولم يملك على نجيب نفسه من الابتهاج عندما انتقله كمال حسين قال له : (انني أعتقلك ، بأمر اللواء محمد نجيب) فطلب من (أبو الفضل الجيزاوي) أن يقدم لهم (قهوة وشاي وكازوزة) هذا بينما ظهرت الكتابة واضسحة على وجه حافظ بكري •

نفذت المدفعية بالمأظة المطلوب منها في الحطة وهو وضع قوات على مدخل المنطقة العسكرية للتحكم في الداخلين اليها ، وقد قاد هذه القوات

كمال الدين حسين واليوزباشى خالد فوزى واليوزباشى أحمد كامل رئيس
المخابرات العامة فيما بعد واليوزباشى على فوزى يونس المحافظ فيما بعد .
استقر الموقف فى الماطة تحت قيادة الضباط الأحرار فى المدفعية .

أما فى سلاح الفرسان المواجه تماما للقيادة فقد استعد تحت قيادة
ثلاثة من ضباطه هم البكباشى حسين الشافعى والصاغ خالد مخيمى الدين
والبكباشى ثروت عكاشة . . . وكان به أكبر حشد من الضباط الذين كان
معظمهم مستعدا للتحرك فعلا من الليلة السابقة ، ولم يغادروا المعسكرات .
وخرجت المدرعات والعربات المصفحة من السلاح بعد أن اعتقدوا فائدة
الفرقة المدرعة الاميرالاي حسن حشمت ، وبعد ان كانت القيادة قد أصبحت
معقلا للضباط الأحرار فعلا .

كانت مسئولية خالد محيى الدين قيادة المدرعات والمصفحات التى
ترابط عند مدخل مصر الجديدة (سينما زوكسى) ، وكانت هناك وحدات
أخرى أشرف حسين الشافعى وثروت عكاشة على توزيعها الى مطار الماطة
ومدخل العباسية ومحاصرة سلاح الحدود . . . وقد تم التوزيع على ضوء
البطاريات حيث كان النور قد انقطع مصادفة .

يقول ثروت عكاشة انه كان يسترجع فى هذه الفترة كلمات
جمال عبد الناصر له بألا مجال للعواطف فى هذه الحركة فهى ليست
نزهاء للسينما وقد تكون هناك دماء ، واذا هدأت الثورة فعليك ان تقتل .

وأثناء انشغال السوارى باستعداد قواته وصل زكريا محيى الدين
فمنعه الحرس من الدخول لولا تصرّحه بكلمة السر (نصر) وطلب من
السوارى ان يرسلوا بعض المصفحات الى الكتيبة ١٣ مشاة لرفع روحها
المعنوية . . .

وبدأت المدرعات والمصفحات تتحرك الى مواقعها بعد منتصف الليل
. . . لم تجد فى الطريق مقاومة ، ولم تطبق رصاصات واحدة . . . كان
الاطمئنان يعمر قلوب الضباط وهم يشهدون أنوار القيادة مضياء ،
ويعرفون ان زملاء لهم من الضباط الأحرار قد احتلوها وأصبحت
قاعدة لهم .

كما تحركت الكتيبة ١٣ مشاة لحماية مدخل العباسية من ناحية كلية
البوليس ، واحتلت رئاسة الحدود ، وكانت تعمل تحت قيادة القائمقام
أحمد شوقي أكبر المشتركين فى الحركة رتبة بعد اللواء منحه نجيب ،
وكان أركان حرب الكتيبة هو الصاغ صلاح نصر رئيس المخابرات العامة
فيما بعد .

وقام سلاح خدمة الجيش تحت قيادة الصاغ مجدى حسنين بتعبئة عرباته بالنزيرين وارسالها للوحدات المتحركة ، كما منع خروج عربات الضباط من معسكر العباسية حيث كانت تبيت .

وكان بعض ضباط مركز تدريب اللواء الثامن مشاة يعملون كقوة احتياطية تحت قيادة حمدي عبيد . . كما كان شمس بدران وزير الحربية فيما بعد ضابطا بلواء أساس المشاة وقوته من المجندين الجدد الذين لا يجيدون حمل السلاح ، وقد تولى هو مسئوليته ولكن لم يكن عليهم واجبات هامة فى هذه الليلة .

خروج قوات الكتيبة الاولى مدافع ماكنية من معسكر هاكستب لم يكن الخروج الوحيد . . كانت هناك المدفعية المضادة للدبابات التى صادفت بعض المتاعب عندما حرك ضابط عظيم المحطة (الصاغ المعتز بدين الله الكامل) قوات البوليس الحربى لاحتلال كشك التفتيش عند الباب الرئيسى لمنع الخروج ، عقب مكالمة تليفونية كانت قد تمت بينه وبين اللواء حسنين فريد قبل اعتقاله .

ولكن مجموعة ضباط المدفعية الذين تحركوا تحت قيادة اليوزباشى فتح الله رفعت واليوزباشى كمال لطفى واليوزباشى محسن عبد الخالق واليوزباشى أحمد شهاب أطلقوا النيران فى الهواء واعتقلوا جنود البوليس الحربى ، واقتحمت جرارة أحد المدافع البوابة المغلقة فحطمتها ، وانطلقت قوات المدفعية فى الطريق الذى سبق ان سلكته قوات يوسف صديق قبل ساعتين .

وبقيت فى المعسكر بعض قوات المشاة تحت قيادة الصاغ عبد القادر مهنا واليوزباشى فؤاد المهداوى وعندما وجدت أن المدفعية قد خرجت ، بدأ تحركهم بعد أن اعتقلوا ضابط عظيم الفرقة (الصاغ المعتز) .

وهكذا أصبحت المنطقة العسكرية من العباسية الى الماطة وهاكستب تحت سيطرة وحدات الضباط الأحرار والساعة تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ، وقيادة قسم القاهرة احتلها أحمد أنور قائد البوليس الحربى فيما بعد .

وبقى فى الحطة واجبان هامن . . احتلال الاذاعة واعتقال بعض كبار الضباط الذين لم يحضروا المؤتمر لأنهم ليسوا قادة للأسلحة أو التشكيلات .

واحتلال الاذاعة ذو شعبتين . . . المبني فى شوارع الشرفين بوسط القاهرة ومحطات الارسال فى أبى زعبل .

وتولى مسئولية احتلال المبنى اليوزباشى أحمد المصرى من السوارى
ومعه سيارات مدرعة فوصلها حوالى الساعة الرابعة والرابع صباحا حيث
كانت تحيط بها قوات من البوليس ، استطاع أحمد المصرى أن يقنعهم بأنه
موفد من السراى ، وان أحمد طلعت حكمدار العاصمة الذى أصدر لهم
الأوامر قد سافر الى الاسكندرية لمقابلة الملك ٠٠٠ وتم احتلال الاذاعة
وتعيين نقط حراسة فى المنطقة المحيطة بها فى الساعة الخامسة والنصف
صباحا .

أما محطات الارسل فى أبى زعبل فقد اتجه اليها تروب سيارات
مدرعة تحت قيادة مجدى حسنين فى تمام الساعة الثالثة ٠٠٠ ولكن مجدى
أسرع وحده بعربته الى هناك لبطء سرعة تروب السيارات ووجد المحطة
مضادة ومغلقة وبها شابان أحدهما كان (الجارحى القشلاق) فتجاوبا معه
على الفور ، ولكن النور قطع فجأة عن منطقة أبى عبل بأوامر شخصية من
كريم ثابت ٠٠٠ وأسرع الى محطة النور بعد أن ترك السائق حارسا عليهم
وهدد العاملين فيها بالمسدس .

عادت الكهرباء ، ووصل تروب السيارات ومعه المهندس جمال غلام
أحد ضباط قسم الجيش فى (حدتو) وعبد الفتاح على أحمد محافظ
الدقهلية فيما بعد .

ووصل أنور السادات الى مبنى الاذاعة فى الساعة الا ربعا صباحا
ليجد كل شىء معدا لاذاعة البيان الأول للثورة الذى كان قد كتب فى
مجلس القيادة .

أما الاعتقالات فقد قامت بها مجموعة من الضباط ٠٠ كمال رفعت .
ومحمد البلتاجى وآمال المرصفى الذين اعتقلوا اللواء سعد الدين صبور
واللواء الطيار حقى هارون الذى كسرت ثروته لمقاومته .

وتعددت بعد ذلك حركات الاعتقال وامتدت الى بعض المدنيين مثل
عبد الرحمن عمار مدير الأمن العام وكامل القاويش وقد اشترك فى هذه
العملية أنور السادات ومحمد أحمد رياض .

خلال هذه الليلة التاريخية كانت الخطة تقضى بأن يبقى محمد نجيب
فى منزله حتى تتم التحركات العسكرية ثم يذهب الى رئاسة أركان الحرب
لتولى القيادة ٠٠٠ وكان عنصرا هاما من عناصر نجاح الخطة أن تبعد يد
الاعتقال عن محمد نجيب والا يثير الشبهات بحركته حتى لا تفقد الحركة
الوجه الذى سيمثلها فى مواجهة الملك والاستعمار وكل أخطار المرحلة .

وأما محمد نجيب الليلة ساهرا في منزله ، كلما مضى الوقت اشتد به القلق ورغبة في معرفة نتائج العملية ، وكان يسكن وقنها في الزيتون. بعيدا عن سماع أو معرفة ما يدور حوله .

وعند منتصف الليل اتصلت زوجة شقيقه على نجيب تسأل عنه لأنه ليس من عادته التأخير دون إبلاغها . . . ولم يكن محمد نجيب قد حدث أخاه عن الحركة خشية أن يتعارض ذلك مع واجبه ، باعتباره قائد قسم القاهرة والمستول عن الأمن والنظام بها .

وبعد دقائق طلب على شقيقه وكانما ليستوثق من وجوده بالمنزل . . ثم أبلغه أن معلومات وصلته من البوليس تفيد بأن قوات من الجيش تتحرك نحو عابدين . . وشجعه محمد نجيب على الذهاب الى عابدين للتأكد من صحة ذلك ، وكان غرضه أن تكسب قوات الضباط الأحرار فرصة للحركة. لأنه كان يعلم أن عابدين كان خارج مجال النشاط هذه الليلة .

ولم تكد تمضي بضعة دقائق أخرى حتى تلقى مكالمة تليفونية من مرتضى المراغى وزير الداخلية وفريد زعلوك وزير الدولة من الاسكندرية وهما يقولان له : « ان بعض أولادك قائمون باضطراب في كوبرى القبة ورجاؤنا أن تمنعهم حرصا على مصلحة الوطن » وأنكر نجيب معرفته بحدوث شيء ما وبعثت هذه المكالمة في نفسه الرغبة في مخالفة الخطة والتحرك فورا . . . ولكن قلقه لم يطل فإن القيادة العامة للقوات المسلحة اتصلت به (البكباشى جمال حماد) وأبلغه المرحلة الأولى وأنهم سيرسلون له ثلاث عربات مصفحة . . . ولكنه أبلغهم انه سيحضر بعربته الخاصة . . . ومع ذلك توجه اليه جمال حماد بعرباته المصفحة .

وكان جمال عبد الناصر قد كلف البكباشى جمال حماد بالذهاب له في عربة رئيس أركان حرب الجيش ، فى الوقت الذى كان قد تحرك فيه محمد نجيب بعربته الصغيرة الى كوبرى القبة ، حيث قابله بعض الضباط الأحرار وركب عربة جيب دخل بها مركز قيادة الجيش .

واكتملت مظاهر الحركة . . . وصل القائد الجديد الى مركز قيادته . . . واحتلت الوحدات مراكزها التى تحاصر بها المنطقة العسكرية وتعزلها تماما عن القاهرة . . . وأصبحت الاذاعة بشطريها تحت سيطرة الحركة . . . والاعتقالات تتم حسب الخطة المرسومة .

حققت الخطة أهدافها فى القاهرة .

وبدأت القيادة العامة تتصل بالمناطق الخارجية فى القنال والعريش لإبلاغ الضباط بانتصار الحركة . . . ولم يتيسر الاتصال بصلاح سالم فى منطقة رفح الا مع الصباح .

ولم تكن التعليمات للمناطق الخارجية تقضى بأكثر من محاولة عزل القيادات الكبيرة والسيطرة على الوحدات دون تحريكها
ولم تضع الخطة حولا لاية مواقف اعتراضية مفاجئة من القوات البريطانية فى القنال وعندما تسأل يوزباشى أحمد عبد الله طعيمة عن ذلك من السويس ، كان الجواب بأن ذلك متروك لطبيعة الموقف وللمبادرة الشخصية .

كان ضيق الوقت والاسراع فى وضع الخطة سببا فى عدم دراسة كل التفاصيل ووضع الاجابات الحاسمة على كافة التساؤلات
أما فى الاسكندرية فقد وصلت اليها قرب منتصف الليل خاطلا تعليمات جمال عبد الناصر التى تلقيتها منه مغرب نفس اليوم ٢٢ يوليو ، وأسرعت فى محاولة الاتصال بالضباط الأحرار . فوجدت ان بعضهم كان فى اجازة الصيف السنوية ، والبعض مررت عليه فى منزله وذهبنا الى المعسكر (رئاسة الألاى الثانى أنوار كاشفة) فى (سوتر) بعد منتصف الليل .

كان الموقف فى الاسكندرية مختلفا تماما عن القاهرة الملك هناك والحرس الملكى والقائد العام للقوات المسلحة والوزارة الجديدة التى أقسمت اليمين منذ ساعات برئاسة نجيب الهلالي أى إن فرصة السيطرة لها على المدينة كانت أكثر يسرا من القاهرة ، وخاصة لأن قوات الجيش التى كان بها عدد من الضباط الأحرار كانت أقل نسبيا من القوات الخاصة لسيطرة الملك والخالية تماما منهم مثل السلاح البحرى والحرس الملكى وخفر السواحل .

وأرسلت اشارة الى قادة الوحدات بالذهاب الى وحداتهم وعندما حضروا لم نسلك أسلوب القاهرة فى اعتقالهم ، لانه التعليمات كانت تقضى بمحاولة السيطرة وتأمين المنطقة وعدم تفجير تناقضات بين الاسكندرية والقاهرة . وظل الموقف معلقا الضباط الأحرار ينشطون فى الاتصال بزملائهم واستدعائهم للوحدات ، والقادة فى مكاتبهم عاجزون عن التصرف ، للغموض الذى يحيط بهم .

وكان الفصل فى تحديد الموقف هو البيان الأول للحركة الذى أذيع على الشعب باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ، وقرأه بصوته البكباشى السادات :

(اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين)

(وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره أما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ونولي أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب) .

(أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراخهم في الوقت المناسب ، وإنى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجردا من أية غاية) .

(وانتهز هذه الفرصة وأطلب من الشعب الا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر وإن أى عمل من هذا القبيل يقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم للجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس) .

(وإنى أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم والله ولى التوفيق) .

عقب إذاعة هذا البيان وضحت الصورة في القاهرة والاسكندرية وكل المناطق . . . وبدأت ظاهرة فريدة هي اقبال الضباط وصف الضباط والجنود جميعاً على تأييد الحركة والانضمام للضباط الأحرار حتى انه لم يظهر موقف معاد للحركة في أى مكان .

وكان الجيش مع الصباح قد خلا تماماً من الرتب الكبيرة (قائمقام أو عقيد فما فوق) فقد حظز عليهم الذهاب لوحدااتهم وطلب منهم العودة الى منازلهم حتى يستبين الأمر .

ومع الصباح تحرك ضباط الطيران الى المطارات ، وتم اعتقال أعضاء السرب الملكى (قائم سرب مهندس عبيد الحميد محمود وقائد جناح عادل حافظ ومدكور أبو العز وحسن صالح وعبد المجيد نعمان) .

كان قائد الجناح مدكور أبو العز ضابطاً شديداً الالتزام يرفض تنفيذ الأوامر الا من رئيسه المباشر الياسر حسن عاكف ، الأمر الذى أدى الى صدور الأوامر باعتقاله مع زملائه رغم صلته الطيبة بالضباط الأحرار في الطيران - صلة شخصية غير تنظيمية - . . . وكان عبد المجيد نعمان أيضاً من الضباط المنتمين لقسم الجيش فى (حديثو) ولم يرتبط بالضباط الأحرار حتى لاكتشف سريره فى موقع حساس كالسرب الملكى طالما استخدمت رحلاته فى أداء مهمات سياسية سرية .

واحتجز ضباط المدفعية المحاصرون لمصر الجديدة قائد الجناح على صبرى وهو فى طريقه الى القيادة حيث استدعى لتبليغ السفارة الأمريكية عن طريق مساعد الملحق الجوى الأمريكى الذى كانت تربطه به صلة صداقة خاصة ، حيث كان يعمل ضابطا فى مخابرات الطيران ٠٠ ولم يسمحوا له بالمرور الا بعد الاتصال بالقيادة .

ويبدو ان الوقت بين تبليغ السفارة الأمريكية واذاعة البيان كان قصيرا حتى أن مايلز كوبلند مؤلف (لعبة الأمم) يقول ان الحكومة الأمريكية لم تعلم بوقوع الانقلاب الا من الصحف الصادرة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
وقام البكباشى عبد المنعم أمين بإبلاغ القائم بأعمال السفارة البريطانية .

وكان نجيب الهلالي رئيس الوزراء قد اتصل بمحمد نجيب يطلب منه الحضور للاسكندرية فاعتذر له عن عدم استطاعته مغادرة القاهرة ووصل مرتضى المراغى بالطائرة ليقابله فى القاهرة وكان موفدا من السراى مباشرة . وعندما طلب محمد نجيب من المراغى الحضور الى مبنى القيادة العامة تردد المراغى ووصلته أنباء اعتزام الوزارة تقديم استقالتها فعاد الى الاسكندرية .

ولم يجد نجيب الهلالي مفرا من تقديم استقالته قبل ان يمضى عليه فى الحكم يومان .

الفصل الثامن

الواقع الاجتماعي والطبقي للضباط الأحرار

(لم يكن بين قادة الجيش ضابط واحد من
أسرة اقطاعية كبيرة)

حقيقة تاريخية

نجحت حركة ٢٣ يوليو ، وأصبحت مصر على واقع جديد .. ضباط
الجيش خرجوا من نطاق عملهم التقليدي ، تمردوا على قادتهم ، وثبوا الى
السلطة في الجيش .. لم يعد في العاصمة لواء مطلق السراح ينعم بحريته
الا محمد نجيب والباقيون ضمهم معتقل الكلية الحربية حتى شقيقه علي ..
وكافة الرتب العليا من قائمقام أي عقيد فما فوق ، منعوا من الذهاب الى
وحداتهم ، وتركوا حتى يستبين الأمر .. ولم يبق الى جوار اللواء محمد
نجيب الا القائمقام أحمد شوقي قائد الكتيبة ١٣ والذي انضم للضباط
الأحرار في الأيام القليلة السابقة للحركة .

الصف الأول من الجيش أصبح في رتبة البكباشي أو المقدم ..
والذين عادوا للعمل بعد ذلك في القوات المسلحة برتب أعلى من هذه
الرتبة ، عادوا وهم يدركون أن تغييرا عنيفا قد حدث ، وأن الأقدمية
المطلقة لم تعد هي أساس السلطة .

اهتزت قواعد التنظيم في الجيش ٠٠ وخرج من الخدمة كل الذين يحملون رتبة فريق أو لواء وكل الذين يحملون رتبة الأدميرال أو العميد (عدا اثنين هما محمد إبراهيم الذي عين رئيساً لأركان الحرب ، وعبد الحميد نعمت الذي عين وكيلاً لوزارة الحربية) .

أصبح واضحاً أن جيلاً جديداً قد وثب إلى السلطة ، وإذا استثنينا محمد نجيب الذي كان في الثانية والخمسين من عمره ، فإننا نجد أن جمال عبد الناصر الرئيس المنتخب للجنة القيادية للضباط الأحرار لم يكن قد أكمل بعد عامه الخامس والثلاثين .

ثغرة الفرق في العمر ، ووثوب جيل جديد إلى السلطة ، يظهران أن حركة ٢٣ يوليو كانت منذ لحظتها الأولى تعبيراً عن شيء جديد في مصر .

شيء جديد لا يقتصر على "حندود الجيش فقط" ، أو على فارق العمر وحده ٠٠ وإنما يمتد أيضاً خارج الجيش وإلى أبعاد أعمق مما يشير إليه فارق السنين .

والضباط الأحرار الذين تحركوا في هذه الليلة التاريخية كانوا يمثلون واقعاً اجتماعياً خاصاً إلى جانب أنهم كانوا يعبرون عن ارادة جيل معين ، كما أن قيادتهم كانت تمثل نوعية خاصة من الضباط .

واختلفت حركة ٢٣ يوليو عن انقلابات العراق وسوريا من عدة وجوه ٠٠ عندما قام بكر صدقي بأول انقلاب عسكري في العالم العربي سنة ١٩٣٦ كان في رتبة الأدميرال ويعمل رئيساً لأركان حرب الجيش العراقي بالنيابة ، وكذلك حسنى الزعيم كان رئيساً لأركان حرب الجيش السوري عندما قام بانقلابه عام ١٩٤٩ ، وكان سامي الحناوى وأديب الشيشكلي قادة الانقلابات التالية في رتبة الأدميرال برئاسة الجيش .

أما حركة ٢٣ يوليو فقد تمت فعلاً بجهد ضباط من رتب صغيرة لا تتجاوز رتبة البكباشي ٠٠ حتى محمد نجيب لم يكن كمدير ل سلاح المشاة في موقع يسهل له فيه تحريك قوات الجيش إذ أنه منصب إشرافي وتدريبى أكثر منه منصباً تنفيذياً .

لم يكن انقلاب جنرالات ٠٠ وإنما كانت حركة صغار الضباط .

كان محمد نجيب استثناء بين زملاء رتبته ، معظمهم استكان لواقع الحياة وارتضى حالة المجتمع والجيش كما هي عليه ، وأصبح رغم ارادته أداة من أدوات الملك للسيطرة على الجيش وبالتالى على الشعب . هذه الفئة من الضباط الكبار في الرتبة الذين ناضلوا ضد الاستعمار البريطانى منذ لحظته الأولى والذين شرد وفصل الكثيرون منهم على مدى سنوات

طويلة انتهت بنكسة ١٩٢٤ كانوا قد أصبحوا يمثلون بواقعهم وبتفكيرهم وبمصالحهم عائقا كبيرا ضد الانطلاق الى اصلاح ثورى وجذرى فى الجيش .
أو المجتمع .

وبعض الذين أخذهم الغضب عقب حادث ٤ فبراير مثل اللواء أحمد فؤاد صادق الدين تعرض مع زميله محمد كامل الرحمانى للفصل والاعتقال عادوا الى الهدوء ومساندة النظام بعد الافراج والعودة الى الجيش . . . ووصل أحمد فؤاد صادق الى منصب قائد القوات المحاربة فى فلسطين وعين الرحمانى أركان حرب له . . . ومع ذلك عندما حاول الضباط الأحرار أن يتلمسوا موقفه وجدوا أنه أقرب فى حركته الى الانجذاب نحو (الحرس الحديدى) منه الى (الضباط الأحرار) .

وهكذا كان محمد نجيب شخصية استثنائية بين زملاء رتبته جنود نضاله القديم لم تخدم فى قلبه ، وشجاعته ظهرت أروع ما تكون فى حرب فلسطين وما بعدها من اتخاذ موقف المجابهة الصريحة مع قيادات الجيش الخاضعة لنفوذ السراى .

والضباط الذين قادوا حركة الضباط كانوا يشكلون نوعية خاصة .
ثلاثة منهم حصلوا على ترقية استثنائية فى حرب فلسطين هم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وصلاح سالم .

وثلاثة حصلوا خلال الحرب على نجمة فؤاد وهم جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي وذكريا محيى الدين .

وثلاثة كانوا مدرسين ليلة الحركة فى كلية أركان الحرب هم جمال عبد الناصر وذكريا محيى الدين وكمال الدين حسين .

واثنان تخرجوا فى الجامعة هما محمد نجيب الذى حصل على ليسانس الحقوق وحصل بعد ذلك على دبلومين فى القانون الخاص والقانون العام الى جانب تخرجه فى كلية أركان الحرب ، وخالد محيى الدين الذى تخرج فى كلية التجارة .

هذه الشريحة تظهر انهم من أكثر الضباط ثقافة ، وانهم لم يكونوا من الخاملين . . . بل أن شخصياتهم ومراكزهم كانت مصادر الجاذبية لتجمع الضباط الأحرار حولهم .

ومع ذلك يصعب القول بأنهم فى مجموعهم أو فى الأغلبية من قياداتهم كانوا من المثقفين . . . لأن طبيعة الضباط وتعليمهم وعزلتهم عن المجتمع تجعل منهم فئة خاصة تتعامل مع الحياة بالاسلوب الذى اعتادته

فى الجىش والذى يغلق دائرة التفكير غالباً فى حدود اعطاء الأوامر وتنفيذها .

وما ورد فى منشورات الضباط الأحرار لا يعكس المستوى الفكرى لهم ولا يعطى مقياساً صحيحاً لدرجة وعيهم . . بل هو تعبير عن أفكار عدد محدود منهم .

ولاشك أن قصر الفترة الزمنية لتشكيل تنظيم (الضباط الأحرار) والتى لم تتجاوز الثلاثة أعوام بكل ما صاحبها من ظروف التجنيد واستكمال شكل التنظيم ، كانت سبباً رئيسياً فى عدم خلق وحدة فكرية ووعى ثقافى مشترك لهؤلاء الضباط القادمين من مدارس فكرية مختلفة وتنظيمات سياسية متباينة .

كانت الأفكار الوطنية العامة والنقمة على الاستعمار هى الدافع الرئيسى لتحريك الضباط ، ولكن تفاصيل الأمور كانت متباينة فى عقولهم وصورة المستقبل غير واضحة أمامهم .

وتجاوباً مع طبيعة الضباط فى تقبل الحركة البدنية التنفيذية عن الحركة الفعلية الذهنية ، تحركوا ليلة ٢٣ يولييه ، ولكن أغلبيتهم العظمى لم تكن تدرك ، أو تحاول بذل الجهد فى معرفة ما يحمله الغد .

كان (الضباط الأحرار) فى حركتهم دعاة تغيير وإصلاح . . لم يكونوا مثل جنرالات باكستان أو جنرالات السودان فيما بعد . الذين استولوا على السلطة دون أن يكون فى أحلامهم تغيير شكل المجتمع أو القيام بإصلاحات جذرية ، بل انهم كانوا استمراراً لنظام الحكم القائم بملابس عسكرية بدلا من الملابس المدنية .

كان الواقع الطبقي والاجتماعي للضباط الأحرار مختلفاً عن الواقع الطبقي والاجتماعي للسلطة التنفيذية .

لم يكن بين الضباط الأحرار ابن من أبناء الأسر الاقطاعية أو ابن لكبار الرأسماليين . . كانت هذه الأسر تتعالى على الجيش ولا تدخل أبنائها فيه . . فلم يكن هناك فى الجيش ضابط من أسرة البدرائى عاشور أو شعراوى أو سلطان أو ملوم أو الطرزى . . حتى زكى شقيق فؤاد سراج الدين دخل الكلية الحربية عام ١٩٤٢ وخرج هارباً بعد عام واحد . . حتى كبار الضباط الذين وصلوا الى مراكز عالية لم يدخلوا أبناءهم الجيش . . الاميرالاي محمود ماهر (١٨٥٤ - ١٩٠٩) هو والد على ماهر وأحمد ماهر . . وسردار الجيش المصرى (١٨٦٤ - ١٨٧٩) كان من عائلة راتب التى لم يدخل أولادها الجيش . . وفى كتاب (تاريخ المملكة الزراعية فى مصر

الحديثة) ان ١٠٠ عائلة اقطاعية فى النصف الأول من القرن العشرين
٣٠ منهم ممثلون فى البرلمان نوابا وشيوخا وأحيانا بأكثر من عضوين ،
١٨ منهم عينوا وزراء ولكن لا ضابط واحد .

ولم يكن فى الجيش أحد من أبناء الأسرة المالكة كما كانت العادة من
قبل .٠٠ تعين الأمير اسماعيل داود قائدا لسلاح الفرسان فى الفترة من
عام ١٩٤٢ الى ١٩٤٤ ، وكان تعيينه تعبيرا عن نزوة خاصة ، أساء اليها
سلوكه الشخصى المتسم بالشذوذ . كما عين الملك زوج شقيقته الأميرة
فوزية الأميرالاي اسماعيل شيرين مديرا لإدارة فلسطين دون ان يكون
متخرجاً فى الكلية الحربية ، ثم عينه وزيرا للحربية فى وزارة نجيب الهلالي
الآخيرة .

لم يكن الجيش المصرى فى ذلك الوقت مثل الجيوش الأوروبية
الاستعمارية ، التى يشكل الضباط فيها طبقة متميزة تتوارث حمل السلاح
جيلا بعد جيل ، وينتمى الى طبقة النبلاء من بقايا الاقطاع الأوروبى .٠٠ ومن
المعروف ان الجيش الألماني كان يعتمد بصفة خاصة على الضباط (اليونكر)
من البارونات الاقطاعيين البروسيين ، والذين تتحلل أسماؤهم بكلمة
(فون) التى تنسبهم الى أرض معينة كان لأجدادهم عليها سلطان اقطاعى
... وفى فرنسا أعرق الديموقراطيات البرجوازية يعين فى قمة جيشها
القادة الذين يحملون المرادف الفرنسى لكلمة (فون) وهو (دى) ديجول،
دى لانتر ، دى كاستر فائده قاعدة ديان بيان فو الذى كان يفخر بأنه
جنرال ابن جنرال حتى القرن السابع عشر .

يعمل الضباط عادة فى تلك الجيوش على غرس روح الطاعة العمياء
وازدراء الحركات الشعبية واستنكار العمل السياسى والاعجاب بالقادة
الرجعيين والشوفينية المتطرفة والاستمتاع بالبطش بشعوب المستعمرات .
كان الموقف فى مصر مختلفا .٠٠ عدم نضج الاقطاع أو نظام النبالة
الطبقي ، وإبتعاد أبناء هذه الأسر مع أبناء الأسرة المالكة وأبناء الأسر
الرأسمالية الكبيرة عن الحاق أبنائهم بالكلية الحربية كان عاملا من عوامل
خلخلة نفوذها وضعف سيطرتها على القوات المسلحة التى تحمى نظامها
وطبقتها . وقد أدى ذلك الى محاولة اكتشاف رتب كبيرة من القيادات
تؤدى دورها فى خدمة الطبقة الحاكمة باخلاص دون ان ترتبط معها
بمصالح ذاتية خاصة .٠٠ فلم يكن بين قادة الجيش اقطاعى واحد حتى
ولا الفريق محمد حيدر ، الذى كان رغم ولائه الشديد للملك وعدائه
الشديد أيضا للحركة الشعبية فى بدء حياته العسكرية ، لم يكن يجارى
النظام فى حماس ولم يكن يبادر لتنفيذ ما يحمى النظام من وجهة نظره .٠٠

وعن طريقه مثلا تسربت الى الوفد خلال عبد الفتاح حسن أسرار الجلسة التي حضرها هو وحافظ عفيفي والياس اندراوس والملك ، وتقرر فيها اقالة الوفد وذلك ليلة ٢٦ يناير ١٩٥٢ . ولم يكن نشاط الضباط الأحرار بعيدا عن حاسة الشم عنده . . ولكنه أثر الصمت والسكون .

لم يكن بين كبار ضباط الجيش المصرى رغم خضوعهم وتبعيتهم للنظام الملكى من يعتبر مدافعا فى حماس عن الاقطاع أو من ترتعن مصلحته الذاتية بمصلحة الاقطاعيين . .

وهكذا لم تكن الطبقة الاقطاعية أو الرأسمالية الكبيرة تسيطر بذاتها على القوات المسلحة . . وانما كانت تسيطر بأبناء الطبقة الوسطى ، الذين لم يطل بهم الصبر .

كان الضباط الأحرار من الطبقة المتوسطة الذين يتأرجحون بين أبناء الموظفين صغارا أو كبارا وبين بعض أثرياء الفلاحين أصحاب الملكيات الصغيرة .

وفى بحث قمت به مع كافة الضباط الذين تحركوا ليلة ٢٣ يوليو تبين ان أحدا منهم لم يكن والده قد حصل على رتبة (باشا) أو (بك) ، كما أن أحدا منهم لم يكن يملك والده ليلة الثورة ما يزيد عن خمسين فدانا . . كما ان أصولهم لم تكن تنحدر من عائلات عسكرية ، أى توارث الأبناء فيها مهنة الآباء ، اذا استثنينا محمد نجيب الذى كان والده وخاله وجده جميعا ضباطا فى الجيش خدموا فى السودان ودفنوا هناك . . وكان ذلك أمرا طبيعيا فى فترة دخول نجيب للمدرسة الحربية التى لم تكن تشترط شهادة معينة ، ولذا كان الضباط يدفعون أبناءهم اليها ، كما كانت بعض الأسر الكبيرة تلحق الأبناء العاجزين عن مواصلة التعليم بها ليصبحوا ضباطا . . وقد اشتهرت بعض العائلات بوفرة عدد الضباط من أبنائها مثل عائلة الشاهد وفهمى وشكرى .

كان الضباط الأحرار بحكم واقعهم الاجتماعى من الطبقة البرجوازية المتوسطة عدا قلة منهم كانت من أبناء فقراء هذه الطبقة . . أبناء صغار الموظفين الذى تثقل أعباء الحياة كاهلهم ويضطرون الى الاستدانة لدفع مصروفات أبنائهم فى الكلية الحربية التى كانت تصل فى مجموعها الى ٨٠ جنيها فى وقت كان مرتب خريج الجامعة ١٢ جنيها شهريا .

هذه الحقيقة توضح ان الذين تحركوا ليلة ٢٣ يوليو كانوا من أبناء الطبقة الوسطى ، ولم يكونوا من أبناء الطبقات الكادحة (عمالا أو فلاحين) . . كانوا تعبيرا عن شريحة طبقية معينة من المجتمع ، ولم يكونوا تعبيرا عن الأغلبية الساحقة للمجتمع .

وهناك ظاهرة ملحوظة أيضا وهي قلة عدد أبناء رجال الدين في الضباط الأحرار لقد كان رجال الدين يفضلون ان يتبع اولادهم خطاهم .
أو ينطلقون الى الحياة المدنية غير العسكرية .

كما يلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك ضباط أقباط بين الضباط الأحرار سوى ضابط واحد ، وذلك لأن نسبة الضباط الأقباط داخل الجيش كانت محدودة ، كما أن جذور الضباط الأحرار كانت تمتد في غالبيتها الى الاخوان المسلمين .

لم يكن هناك في ليلة ٢٣ يوليو من يحمل رتبة لواء سوى مسيحي واحد ، كما انه لم يكن هناك من يحمل رتبة أميرالاي الا مسيحيين .

ولا يعنى هذا أن الجيش المصرى كان يعانى من الطائفية كما كانت الجيوش تعانى في سوريا ولبنان مثلا . . ولكنه يوضح واقعا مختلفا عما كان في المجتمع اذا كانت كل وزارة تضم وزيرين قبطيين ، كما ان ثورة ١٩١٩ كانت قد نجحت في ازالة التفرقة الدينية التى حاول الاستعمار ان يندوها بين الشعب ليمزق وحدته الوطنية .

كان حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين قد طالب بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بحجز نسبة من طلبة الكلية الحربية لخريجي الأزهر حتى يضمن بذور الأفكار الدينية داخل الجيش ، ولكن الحكومات المتعاقبة لم تأخذ هذا الطلب مأخذ الجد ، لأنها لم تكن تفرق بين مسلم تخرج في الأزهر أو تخرج في المدرسة الثانوية ، كما أن افتقاد خريجي الأزهر لمعرفة اللغات الأجنبية كان أمرا يعرقل قدرتهم على متابعة الحياة العسكرية الحديثة .

ولم يدر في خلد أحد لحظة واحدة ان حركة ٢٣ يوليو كانت حركة دينية اسلامية ، ولم يقف الأقباط منها موقفا متحفظا . . بل اتضح منذ اللحظة الاولى ان هذه الحركة كانت بدافع وطنى اصلاحي ، منبثقة من واقع جديد مختلف تماما عن واقع الأحزاب الحاكمة وقتئذ ، والتي كانت قياداتها اما من الاقطاعيين أو كبار الرأسماليين .

كان واقع الضباط الأحرار الطبقي والاجتماعى أقرب الى قيادات الأحزاب الوطنية الناشئة (الحزب الاشتراكي - الحزب الوطنى الجديد - الاخوان المسلمين - أنصار السلام - الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى - الحركات الماركسية) الذين كانوا في معظمهم من الطبقة الوسطى رغم تنافر نظرتهم الاجتماعية ، واختلاف أهداف نضالهم الطبقي منه الى قيادات الأحزاب المتبادلة للحكم (الوفد - الحزب السعدى - حزب الأحرار الدستوريين - حزب الكتلة - الساسة المستقلين) .

ومع ذلك كانت هناك فروق واضحة في نظرة الضباط وفي نظرة السياسيين المدنيين للأمور . كان الضباط الأحرار رغم ادراكهم للمأساة التي يعيش فيها الشعب ، وللفساد الذي يهترىء المجتمع بسببه ، يعيشون حياة بعيدة عن الجماهير الى حد ما .

مهنة الضابط كانت تفرض عليه نوعا من العزلة تشل في ملابسه الخاصة وفي القوانين واللوائح التي يتعامل بها مع الجنود .

واذا قلنا مهنة فانما نعني الخبرة والمسئولية والتعاون في بناء المجتمع . فالضابط حتى القرن التاسع عشر لم يكن يشكل مهنة من المهن المعروفة كالطب والهندسة والمحاماة ، ولكنه كان يمارس عملا يستطيع الانسان العادي أن يؤديه ربما بفارق في المهارة ولكن دون عجز في الأداء ، وهو الاشباك من فوق صهوة جواد .

ولكن مع استهلال القرن التاسع عشر وحروب نابليون بدأ عمل الضباط يتحول الى مهنة ، لأنه أصبح مع تطور العلم فنا خاصا يحتاج الى علم ودراسة وخبرة . ولم يعد كالماليك الذين سادوا ساحة القتال في مصر منذ منتصف القرن التاسع حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر بتدريب بسيط يتحولون بعده الى فرسان مقاتلين .

عمل الضابط اذن أصبح مهنة ولكنها تختلف عن بقية المهن لما يحيط بها من ظروف وملابسات خاصة .

والضباط قبل ليلة ٢٣ يوليو كانوا يعيشون بفارق اجتماعي حاد بينهم وبين الجنود . كان الجندي يتناول مرتبا شهريا قدره ٥٤ قرشا فقط زيد بعد ذلك ليصبح ٦٩ قرشا ، كما انه كان يتناول معظم وجباته من العدس . واللحم أربع مرات في الاسبوع فقط . والامية كانت سائدة بين الجنود فنظام البدل النقدي كان يتيح فرصة التهرب من الخدمة العسكرية للجميع عدا فقراء الفلاحين .

ولم يكن ممكنا لصف الضباط والجنود ان يترقوا الى رتب الضباط ، كانت القوانين تسمح لهم تحت ظروف خاصة ان يصلوا الى رتبة (صول) فقط .

وكان الضباط يدركون الظروف البائسة التي يعيش فيها الجنود . البعض منهم كان يحلم بتغيير هذه الظروف ، باعتبارها انعكاسا لحالة المجتمع .

وهكذا يمكن القول بأن الضباط لم يكونوا في عزلة كاملة عن واقع مجتمعهم رغم حياتهم المنعزلة . كما انه لا يمكن القول بأنهم كانوا

مرتبطين بمجتمعهم ارتباطا عضويا كاملا رغم صلاتهم بالقوى والتنظيمات السياسية المختلفة .

تنظيم (الضباط الأحرار) تحرك ليلة ٢٣ يوليو منفردا دون اتصال وثيق بالجماهير أو بالتنظيمات والأحزاب السياسية الوطنية والتقدمية ، معتمدا على السرية التي أحاط نفسه بها ، متخذاً الطابع الانقلابي المفاجيء ، واثقا في نفس الوقت من احتضان الشعب لحركتهم بعد ان فاض به كيل الغضب من تصرفات الاستعمار والسراى .

ولا تدل حركة (الضباط الأحرار) فى هذه الليلة التاريخية على انهم أكثر الفئات الوطنية ثورية وتقدمية . . كما أنها ليست دليلا على أن تنظيم (الضباط الأحرار) كان هو الطليعة الوحيدة فى مصر . . ولكن هذه الحركة تظهر حقيقة دور الجيوش فى الدول النامية وتثبت ان الضباط يشكلون أكثر أقسام المثقفين الوطنيين تنظيما ، وقدرة على فرض ارادتهم بقوة السلاح .

ولكنه تبين منذ اللحظة الأولى لنجاح حركة ٢٣ يوليو ان هذا القسم المحدود من المثقفين الوطنيين الذين كانوا يشكلون فى وقتها فئة محدودة أيضا ، لا يستطيع وحده ان يقرر بصورة مستقلة تماما النهج السياسى لمصر التى عاشت حياة سياسية خصبة عامرة بالثورات والانتفاضات والاضرابات ، مليئة بالأحزاب والتنظيمات السياسية .

الفصل التاسع

سقوط الملك

(أنتم سبقتوني في اللى عملتوه .. اللى عملتوه دلوقتى كنت أنا راح أعمله)

الملك فاروق أحمد نجيب

وهو يودعه في رحلته الأخيرة من مصر
بعد عزله يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

متاع منحدودة في ظلام ليلة حولت (الضباط الأحرار) من شبان
يلتهب الغضب في صدورهم الى مسئولين عن سياسة مصر دون أن
يستعدوا لذلك بدراسة عميقة أو تخطيط واضح .

وعلى قدر ما دفعتهم الظروف والأحداث وخشية تحريك الملك ضدهم
.. على قدر ما كان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير والتأمل .. وخاصة
أنهم كما ذكرنا لم يكونوا قد اجتمعوا على وحدة فكر ، أو منهج أو برنامج
سياسي تفصيلي .

كان انتصار الحركة مفاجئا لأكثرهم تضاؤلا .. تهاوت قلاع الملك
وسقط أعوانه من كبار الضباط دون مقاومة .. واشتعل الحماس بين
رجال الجيش مع شروق شمس ٢٣ يوليو . واحتشد الجميع لتأييد الحركة .

كاد يتلاشى الخط المميز بين الضباط الأحرار الذين تحملوا مسئولية الإعداد والتنظيم والتنفيذ ، وبين زملائهم الذين لم تتح الظروف لهم فرصة الانضمام لتنظيم (الضباط الأحرار) .

كانت الفرحة تغمر الجميع داخل الجيش وخارج الجيش .. والتف الشعب حول أجهزة الاذاعة يسمعون البيان الأول ويفسرون ما شاء لهم التفسير .

تمت الحركة فى سرية بعيدا عن الجماهير .
وكان السؤال الأول الذى تردد فى قاعة اجتماعات مبنى القيادة العامة بعد أن استقبلوا يوسف صديق وقوفا وهم يصفقون باعتباره الضابط الشجاع الذى اقتحم هذا المكان وأتاح لهم فرصة الاجتماع فيه هو :

ماذا نعمل ؟

لم يكن هناك من شيء معد فى الخطة سوى تقديم عدة مطالب للملك ، ثم يكون التصرف بعد ذلك تبعا لرد الفعل ، ولحركة الملك .

وعندما اتصل نجيب الهلالى بمحمد نجيب تليفونيا من الاسكندرية. أبلغه بأن مطالب الجيش تنحصر فى الآتى :

١ - تكليف على ماهر بتشكيل الوزارة .

٢ - تعيين محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة .

٣ - إبعاد كريم ثابت والياس أندراوس ومحمد حسن وحلمى حسين وانطون بوللى ويوسف رشاد من حاشية الملك .

كانت هذه الطلبات بمثابة جس نبض لموقف الملك ، والتعرف عما إذا كان فى مركز ضعف أو قوة .. يستند الى قوات الاحتلال أو لا يستند اليها .

ولم يكن معقولا ان يطلب الجيش تعيين على ماهر رئيسا للوزراء دون استشارته والتفاوض معه ولذا تحرك محمد نجيب وأنور السادات الى منزل على ماهر بالجيزة حيث عرضا عليه تولي رئاسة الوزراء .

وافق على ماهر واشترط ان يصدر له أمر التكليف من الملك صاحب السلطة الشرعية .. ووافق نجيب فلم يكن قد حدد حتى هذه اللحظة موقفا نهائيا من الملك .

وأبلغ على ماهر الملك بمقابلة نجيب له ، ورغبتهم فى تكليفه بالوزارة .

كان الخبر قد وصل الى الملك أيضا عن طريق مصطفى صادق صادق ضابط الطيران السابق ، وعم الملكة ناريمان ، الذي أسرع الى القيادة في الساعة العاشرة صباحا يستفسر عن حقيقة ما يدور ، فقابلته محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأبلغاه بالمطالب السابقة .

ويقول مصطفى صادق ان المطالب تركزت حول قضيتين أساسيتين . . . حكم الأغلبية وتطهير الحاشية . . . ويقول أيضا انه عندما طلب صدور بيان يعلن فيه الجيش الولاء للملك ، قال عبد الناصر له ان البيان يتضمن الولاء للدستور وهو ما يعنى الولاء للنظام الملكى .
كان فى ذلك محاولة لتحويل النظر عن أهداف الحركة .

واتصل على ماهر محمد نجيب فى الثانية والنصف بعد ظهر ٢٣ يوليو ليبلغه بأن الملك قد كلفه بتشكيل الوزارة ، ويطلب منه زيارته . . . وذهب اليه نجيب وأنور السادات فوجدا انه يحاول التعرف منهما على أبعاد حركة الجيش ولكن نجيب موه عليه وأبلغه ان الأمور لا تتعلق بالمطالب السابقة . ويقول محمد نجيب ان على ماهر كان مشرقا وشديد الحيوية فى هذه الجلسة .

والتقى محمد نجيب على ماهر للمرة الثالثة فى الصباح الباكر ليوم ٢٤ يوليو قبل سفره الى الاسكندرية لمقابلة الملك ، حيث تمت المقابلة عصر ذلك اليوم وصرح بعدها على ماهر بأن الملك قد قبل (كل) مطالب الجيش وانه وقع مرسوما بتعيين محمد نجيب قائدا عاما برتبة (الفريق) . . . وهو تحصيل حاصل لأن البيان الأول أذيع بصفته قائدا عاما ، ولكن برتبته (اللواء) .

وكان اختيار على ماهر رئيسا للوزراء قد تم تحت دافع انه مستقل عن الأحزاب فلا تبدو الحركة حزبية منذ لحظتها الأولى ، كما انه اسم مقبول لدى الملك فلا يعترض عليه ويحدث تناقض يفرض ظروفًا قد تخلق صعوبات غير منتظرة ، هذا الى ان على ماهر لم يكن ذا سمعة سيئة بل ان موقف وزارته بعد حريق القاهرة كان يفضل موقف وزارة نجيب الهلالي فقد خرجت من الحكم نتيجة خلاف واضح مع السفير البريطانى .

ذهب على ماهر الى الاسكندرية وهو يتصور فى نفسه صورة المنقذ التى هيات له الظروف فرصة رد اعتباره أمام رجال القصر الذين أحاطوا بالملك . . . فشكل وزارته من أغلبية أعضاء وزارته السابقة التى استقالت فى فبراير ، وتولى هو شخصيا وزارتي الداخلية والحربية .
وتكليف على ماهر بتشكيل الوزارة لم يضع حدا لحركة الضباط ولم يوقف عجلة اندفاعها . . .

النشاط الشديد الذي بدأ قبل الحركة بيومين وظهر في صورة اتصالات ومناقشات لا تنقطع في الليل أو النهار ظل مستمرا لا يهدأ ... وخيرة الضباط ورغبتهم في المعرفة تركزت على سؤال أعضاء مجلس القيادة الذين استقروا في مبنى القيادة بكوبري القبة ، بعد ان وصل صلاح سالم وجمال سالم من الجيش .

كانت كلية أركان الحرب هي أكبر مكان لتجمع الضباط إذ كانت تفقد فيها الدورة الثانية عشرة . . وفي صباح ٢٣ يوليو حضر الجميع ، ولم يتغيب أحد إلا جمال غيبه الناصر وذكريا محيي الدين وكفالة الدين حسين من المدرسين ، وعباس رضوان واسماعيل فريد من الطلبة . . هؤلاء فقط هم الذين اشتركوا في حركة ٢٣ يوليو ، أما بقية الطلبة وكان عددهم ٦٣ ضابطا فلم يشتركوا في الحركة ومنهم أسماء لمعت فيما بعد مثل عبد القادر جاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والاعلام ، ومحمد فوزي وزير الحربية ، وعبد المجيد أبو النور أمين عام الاتحاد الاشتراكي . . وزع أفراد هذه الدفعة من الضباط الذين لم يكملوا دورتهم ، ولم تكن قد حددت بعد وحداتهم فمدة الدراسة كانت عاما كاملا . على الأجهزة والمصالح الحكومية أو في الجيش تبعاً للرغبات الطارئة ، والمعرفة الشخصية .

ومثال الدفعة ١٢ في كلية أركان الحرب يظهر نسبة عدد الضباط الأحرار المحنودة ، كما يفتح بداية لتوزيع الضباط في غير الأماكن التي هيأتها لهم الدراسة التي كانت تعتبر بمثابة (الماجستير في العلوم العسكرية) مثل تعيين الضباط مصطفى لطفى وأحمد عبد السلام كفاي وعبد العزيز صادق لإنشاء مكتب إشرافي في وزارة الداخلية .

وظل مجلس القيادة في شبه اجتماع مستمر يناقش الموقف بعد اذعان الملك لمطالب الجيش ، وتقرر في اجتماع استغرق ليلة ٢٣/٢٤ يوليو عزل الملك على ان يظل الأمر سرا حتى بالنسبة لعل ماهر نفسه .

ولما كان الملك في الاسكندرية فقد أخذت الانظار تتجه اليها وخاصة بعد ان استتب الأمن في القاهرة ، وحوصر قصر عابدين ، وتم اعتقال كبار ضباط الجيش ، والقلم السياسي ، ومدير الأمن العام .

لم تكد تهدأ أنفاس الضباط الأحرار في القاهرة حتى كان الأمر قد استقر على ارسال وحدات الى الاسكندرية تمهيدا لعزل الملك ، بناء على خطة كلف ذكريا محيي الدين بوضعها كما وضع من قبل خطبة تحريك القوات ليلة ٢٣/٢٢ يوليو .

لم يكن تحريك القوات الى الاسكندرية مجرد مظاهرة عسكرية ولكنه كان ضرورة تقتضيها ظروف الحيلة والحذر من تصرفات الملك ، الذي كان مجرد وجوده يمثل خطرا حتى اللحظة الأخيرة ، فالبحرية مثلا كانت خاضعة له خضوعا كاملا ولم تسهم بأى دور فى الحركة . . . وقوات الجيش هناك كانت محدودة .

الملك لم يكن يائسا . . . كان يبحث عن طريق للخروج من هذا المأزق . . . كانت كلماته التى حملها مرتضى المراغى الى محمد نجيب تحمل تلميحا باحتمال تدخل القوات البريطانية فى الموقف كما حدث فى أيام أحمد عرابى .

واستدعى الملك جيفرسون كافرى سفير أمريكا لمقابلته فى سراى المنتزة يوم ٢٣ يوليو ، وطلب منه فاروق ان يطلب من حكومته اقناع الحكومة البريطانية بحاجة الملك الشديدة لتدخل قواتها .

ويقول ايدن فى مذكراته انه كان قد أوضح للسفارة البريطانية بالقاهرة ان القوات البريطانية لايجوز ان تتدخل لابقاء فاروق على العرش . ولذا فان السفارة لم ترد على السفير الأمريكى كافرى ردا مشجعا بعد اتصالات عاجلة تمت بين لندن وواشنطن كما يقول انطونى ناتنج فى كتابه (ناصر) .

ومع ذلك فانه بعد ليلة ٢٣ يوليو تجرأت بعض القوات الى طريق مصر - السويس للدفاع عن القاهرة فى حالة حدوث أى تحرك بريطانى . . . وكلفت القوات المصرية فى منطقة القناة بمراقبة تحركات القوات البريطانية والابلاغ عنها .

لم تثمر جهود الملك فى استجلاب تدخل بريطانى أو أمريكى لحماية عرشه .

وكانت تعليمات جمال عبد الناصر لى باعتبارى ممثلا للضباط الأحرار فى الاسكندرية تقضى بالسيطرة على المنطقة فى هدوء دون عمليات استفزازية قد تفجر الموقف وتخلق تناقضا لا مبرر له بين الموقف فى القاهرة والموقف فى الاسكندرية .

وكان محمد حيدر قد دعا الى مؤتمر فى مبنى القيادة بمصطفى باشا صباح ٢٣ يوليو حضره قادة الوحدات بالاسكندرية ، وأبلغهم ان ما يدور فى القاهرة هو عملية محدودة ، وألقى عليهم مسئولية قيادة وحداتهم .

ولكن الضباط الأحرار بتعاون وثيق مع كافة الضباط الذين فجبر البيان الأول ، كل طاقاتهم الوطنية وكل أحلامهم الثورية كانوا قد سيطروا

على الوحدات ، وعقدنا مؤتمرا لشباب الضباط فى رئاسة الاى الثانى المضاد للطائرات ظهر نفس اليوم ، واخترنا البكباشى عاطف نصار ليكون قائدا للمنطقة والصاغ عبد الحكيم الأعسر ليكون أركان حرب لها .

واستقر الوضع فى الاسكندرية أيضا بعد ان نصحنا كبار الضباط بالذهاب الى منازلهم فاستجابوا دون معارضة وبعد أن أوقفنا محاولات للاثارة فى البحرية وخفر السواحل عن طريق الاستعداد بالمدفعية والاتصالات الشخصية ..

وقد اتصل بى اللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر عصر ذلك اليوم فأبلغتهم بهدوء الحالة واستقرار منطقة الاسكندرية .. وأبلغنى الاثنان باحتمال هروب حسين سرى عامر عبر الصحراء الغربية الى ليبيا وضرورة ملاحقته .

كان على ماهر فند وصل الى الاسكندرية يوم ٢٤ يوليو واقسمت وزارته اليمين القانونية ، واستدعى اليه سليمان حافظ مستشار رئاسة مجلس الوزراء المنتدب من مجلس الدولة ليعده له التشريعات المطلوبة بناء على طلبات محمد نجيب .

ومع ذلك كان على ماهر فى حيرة من أمره لا يعرف أبعاد حركة الجيش ويشعر أن شيئا ما لا يدرك حقيقته يدبر فى الخفاء .. ولما علم من سليمان حافظ ان فتحى رضوان يعتبر صديقا لأنور السادات وانه معتقل فى هاكستيب والحكومة لم تفرج عنه رغم حكم مجلس الدولة ، أصدر قرارا فوريا بالافراج عنه هو ويوسف حلمى وسعيد كامل (ابن شقيقته) واستدعاه الى الاسكندرية فورا على متن طائرة حربية .

كان الثلاثة من أعضاء الحزب الوطنى الذى كان ينتمى اليه سليمان حافظ أيضا .. ولم يستطع فتحى رضوان أن يشبع رغبة على ماهر فى معرفة تحركات ضباط الجيش لأنهم لم يفصحوا عن ارادتهم لأحد ، حتى وصل محمد نجيب الى الاسكندرية بالطائرة ومعه يوسف صديق وجمال سالم وأنور السادات وحسين الشافعى وزكريا محيى الدين صباح ٢٥ يوليو .

كان مفروضا حسب الخطة أن يتم عزل الملك فى نفس اليوم ، ولكنه كما حدث تأجيل لحركة الجيش ليلة واحدة ، تقرر تأجيل العزل يوما واحدا أيضا ، بناء على طلب زكريا محيى الدين واضح الخطة الذى وجد ان الجنود فى حاجة الى الراحة لأن بعضهم لم ينم منذ ليلة ٢٢/٢٣ يوليو ، والطابور المدرع كانت تنقصه بعض التجهيزات الادارية .

كان محمد نجيب على موعد مع علي ماهر لتبليغه بالانذار ، ولكنه غير رأيه وأبدى له بعض ملاحظات شكلية على التشريعات التي كان سليمان حافظ قد أعدها . . . والتقى محمد نجيب مع سليمان حافظ وتبين انهما كانا أعضاء في إحدى المحاكم العسكرية العليا خلال الحرب العالمية الثانية .

بقى يوم على عزل الملك . . . والاسكندرية في حالة ابتهاج شديد تلاحق مواكب الضباط بالهتاف ، وتفسر حركتهم تفسيرات شتى . . . كان الجيش مازال يدبر خطته في سرية بعيدا عن الجماهير .

وآثار جمال سالم اشكالا استغرقت مناقشته عدة ساعات . . . قال أن مجلس القيادة قرر عزل فاروق ولكنه لم يقرر شيئا عن مصيره .

وكان جمال سالم أكثر الموجودين حماسة لاعدام فاروق أو محاكمته ، مستندا في ذلك الى أخطائه التي ارتكبها والضحايا الذين سقطوا نتيجة لها . . . وتأثر بحماس جمال سالم كل من عبد المنعم أمين وذكريا محيي الدين فوافقا على الاعدام ، بينما وقف ضد هذا الرأي كل من محمد نجيب وأنور السادات ويوسف صديق وحسين الشافعي . . . واستقر رأي الحاضرين وقد بلغت الساعة الثانية بعد منتصف ليلة ٢٦/٢٥ يوليو أن يسافر جمال سالم بالطائرة إلى القاهرة ويعود حاملا رأي زملائهم هناك . . . جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وعبد اللطيف البغدادى وكمال حسين وحسن ابراهيم وصالح سالم .

يلاحظ ان جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة بقوا في القاهرة لم يغادروها للاسكندرية سوى أنور السادات وجمال سالم فقط .

هل يعدم الملك أم يحاكم ويسجن أم يطرد فقط ؟

سؤال لم تكن الاجابة قد اكتملت عليه حتى اليوم الذي تقرر فيه تقديم الانذار . . . أو بمعنى أصح اليوم التالي لليوم المحدد لتقديم الانذار لولا تأجيل الخطة . . . وهذا يدل على أن تلاحق الأحداث ، كان في غير حسابان الضباط الأحرار . . . وان ضغط الوقت لم يسمح لهم بالتفكير الهادئ والتخطيط المتزن .

كانت كل مشكلة تحل في وقتها . . . وكل أزمة تعالج في لحظتها . . . سافر جمال سالم بالطائرة حرصا على عدم الاتصال تليفونيا بأعضاء مجلس القيادة بالقاهرة تأكيدا للأمان . . . وعاد في الصباح الباكر يحمل الرأي المرجح وهو (يترك فاروق حيا ويحكم عليه التاريخ) .

النوم منذ الحركة لا يتم الا لحظات خاطفة . . . في المكاتب وبملابس العمل . . . وفي التاسعة صباحا كان محمد نجيب يتجه الى رئاسة مجلس

الوزراء فى بولكى لتسليم الانذار الى على ماهر حتى يستطيع الملك أن يتدبر أمره فى الساعات الباقية .

وكان الملك قد غادر قصر المنتزة الى قصر رأس التين فى اليوم السابق مع الملكة والأميرات .^{١٠} وكانت قوات الجيش التى وصلت من القاهرة قد حاصرت قصرى رأس التين والمنتزة .^{١١} وحدث اشتباك محدود بين قوات الحرس الملكى والقوات المحاصرة لرأس التين ، اتصل بعده الملك بالمستر جيفرسون كافرى سفير الولايات المتحدة ، وعلى ماهر الذى هرع لمقابلة الملك .

وعندما وصل محمد نجيب أبلغه سليمان حافظ ان مستر (سباركس) مستشار السفارة الأمريكية قد حضر منذ مدة وأنه فى حالة اضطراب وانفعال شديدتين ويقول انه موفد من مستر كافرى للتحرى عن حقيقة إطلاق الرصاص على قصر رأس التين ، ومدى ما يترتب على ذلك من أضرار قد تسبب الى مصلحة البلاد .

وهذا محمد نجيب مستر سباركس قائلا له ان هذه القوات قد وزعت فى الاسكندرية كاجراء روتينى لحماية الأمن ، وأنه قد أصدر أوامره بوقف الضرب الذى بدأ على أساس تصور خاطئ من الحرس الملكى بأن هذه القوات تريد ان تقتحم القصر .

وانصرف مستر سباركس وقد خف اضطرابه وبدأت حدة انفعاله .

وكان الملك فى هذه اللحظة قد جمع انطوان بولى ، كافاتسى (مدرّب الكلاب) وجارو (الحلاق) والقائمقام حلمى حسين (السائق) ومحمد حسن (الشماسرجى) والاميرالاي محمد أبو النصر مدير مشاة الحرس - والياور على مقلد والياور الجوى حسن عاكف ، وطلب منهم صد الهجوم عن القصر بتوجيه نيران الهجانة ومدافع الماكينة على الدبابات الرابضة خارج الاسوار .

وبدأت الطلقات المتبادلة ، ثم أمر الملك بوقف الضرب عندما أبلغ ان مدفعا كبيرا مصوباً فوهته على صالة القصر .

وغادر على ماهر القصر بعد ان عاد الهدوء .

ولكن على ماهر فوجئ فى بولكى بتقديم انذار الجيش للملك بضرورة توقيع وثيقة التنازل عن العرش قبل الثانية عشرة ظهرا ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة مساء .^{١٢} وارتجفت شفتا على ماهر وهو يسمع حديث محمد نجيب وشعب وجهه ولكنه تجهلده وقال (زى ما تشوفوا) ثم غادر

بولكنى الى القصر مرة ثانية فى نفس الصباح بعد أن قرأ كلمات الانذار التى تقول :

من الفريق أركان الحرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجائه الى جلالة الملك فاروق الأول :

انه نظرا لما لاقتة البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفرادة لايطمئن على حياته أو ماله أو كرامته - ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشسون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثناء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فائرى من أثرى وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتيكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على ان يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ يوليو ١٩٥٢ والرابع من ذى القعدة ١٣٧١) ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يحمل جلالتيكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج) .

توقيع : فريق (أركان حرب) محمد نجيب

عاد محمد نجيب الى ثكنات مصطفى كامل .

وأبلغ على ماهر الملك شفاهة بانذار الجيش لقسوة بعض كلماته مشفوعا برأيه ونصيحته فى النزول عن العرش لابنه أحمد فؤاد الثانى استيفاء للعرش فى ذريته . . ولكن الملك قال أنه ليس جباناً وأن عنده قوات موالية أكثر مما عند الثائرين . . ولكن على ماهر أوضح له مخاطر تعريض مصر لحرب أهلية لا يعلم مداها الا الله . . واقتنع الملك دون نقاش طويل ، وعندما سأله على ماهر اذا كان يفضل السفر جوا . أجاب بأنه يفضل السفر بحرا على الباخرة (المحروسة) وهى يخته الخاص مشروطا الآتى :

١ - ان يستصحب معه زوجته ناريمان وابنه الطفل أحمد فؤاد وسائر أولاده .

٢ - ان يودع على الصورة التى تليق بملك نزل عن العرش باختياره .

٣ - ان تشترك الحكومة فى وداعه ممثلة برئيسها وكذلك القوات المسلحة ممثلة بقائدها محمد نجيب .

٤ - ان يمكن من مقابلة السفير الأمريكى جيفرسون كافرى قبل سفره .

٥ - ان تقوم قطع الاسطول المصرى بحراسة الباخرة التى سيستقلها حتى وصوله الى ايطاليا .

عاد على ماهر الى بولكى يحمل الموافقة ومعها هذه الطلبات . . وبدأ تسليم رجال الحاشية المطلوبين الى القوات المحاصرة للقصر . . استلم عبد المنعم أمين قائد القوة ، حلمى حسين ومحمد حسن وأنطون بولكى .

وأعد الدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة وثيقة التنازل فى صيغة أمر ملكى يستلهم ديباجته من الدستور . . ووافق محمد نجيب الذى اجتمع مرة ثانية مع على ماهر وجمال سالم وأنور السادات فى بولكى حوالى الحادية عشرة صباحا .

حدث تعديل وحيد على الصياغة اقترحه جمال سالم ووافق عليه الدكتور السنهورى وهو اضافة عبارة تفيد بأن النزول عن العرش كان (استجابة لرغبة الأمة) .

وكلف على ماهر المستشار سليمان حافظ بحمل الوثيقة الى الملك لتوقيعها قبل الثانية عشرة حسب الانذار الموجه له .

ويقول سليمان حافظ أن الملك أقبل عليه وهو عارى الرأس فى حلة القائد الأعلى للقوات البحرية يسير بخطى سريعة تأخذ بخناق سعة عصبية متواصلة ، وقرأ الوثيقة على مهل ثم تساءل عما اذا كان ممكنا اضافة بعد عبارة (بناء على ارادة الأمة) كلمة (واراقتنا) وقال له سليمان حافظ أن صياغة الوثيقة فى صورة أمر ملكى ينطوى على هذا المعنى . وقال الملك (فما الضرر اذن من اضافتها) وقال سليمان حافظ (اننا لم ننته من صياغة الوثيقة على صورتها الا بصعوبة لا تسمح بادخال أى تعديل) فقال الملك (اذن كانت هناك وثيقة أخرى) فلما أجاب سليمان حافظ بالاجاب طلب الملك الاطلاع عليها فقال له أنه لم يطلع عليها وهى ليست معه . . . فقال الملك (لعلك لا تريد ذكر شيء عنها لما قد يكون فيها من معانى تجرح شعورى) .

• وقع الملك الوثيقة وهو فى حالة انفعال شديد ، ثم وجد أن توقيعها ليس منضبطا فوقها مرة ثانية فى أعلى الكلمات التى تعلن تنازله عن العرش فى كلمات موجزة تقول :

• أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ .

• نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان .

لما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المضاعف التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ونزولا على إرادة الشعب .

قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرا بهذا الى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس الوزراء للعمل بمقتضاه .

صدر بقصر رأس التين فى ٤ ذى القعدة ١٣٧١ (٢٦ يوليو ١٩٥٢)

حمل سليمان حافظ وثيقة التنازل الى على ماهر فى رئاسة الوزراء ثم ذهب الى محمد نجيب وزملائه فى ثكنات مصطفى كامل ليعرض عليهم رغبة الملك فى أخذ انطوان بوللى معه فى رحلته الأخيرة ، ولكن أعضاء مجلس القيادة رفضوا التراجع عن مطالبهم لتحقيق مستهدف يمس نزاهة الحكم ، كما رفضوا طلب الملك أن تصحب (المحروسة) بعض قطع الأسطول المصرى حتى تصل الى إيطاليا . . . وقد طلب الملك من جيفرسون كافرى فيما بعد حراسة بعض قطع الأسطول الأمريكى له أثناء رحلته .

كان محمد نجيب معتزما أن يكون فى وداع الملك على مرسى رأس التين . . . ولكن المظاهرات التى اعترضت طريقه فى شوارع الاسكندرية وخطا السائق فى معرفة الباب الصحيح جعله يصل متأخرا أربع دقائق عن رحيل الملك فى تمام السادسة .

كان فى وداع الملك على المرسى على ماهر وجيفرسون كافرى وزوجا شقيقتيه اسماعيل شيرين ومحمد على رفوف وبعض ضباط الحرس والجميع فى وجوم شديد . . . وكان الملك ينظر الى ساعته بين لحظة وأخرى حتى أعلنت السادسة فقرر الرحيل ، وهنا عزفت الموسيقى السلام الملكى : ثم أنزل العلم الملكى . وطواه ضابط من ضباط الحرس سلمه الى على ماهر الذى سلمه بدوره الى الملك ، وأطلقت المدفعية ٢١ طلقة . . . وأدى حرس الشرف التحية العسكرية . . . وصافح الملك مودعيه بينما خدم القصر والمودعون يجهشون بالبكاء .

وعندما وصل محمد نجيب كانت آثار الدموع مازالت تلمع فى عيني على ماهر ، وأصر نجيب على توديع الملك فركب لثنا ليلحق بالمحروسة ومعه

القائم مقام أحمد شوقي وقائد الجناح جمال سالم والبكباشي حسين الشافعي واليوزباشي اسماعيل فريد .

وصعد محمد نجيب الى المحرسة ومعه زملاؤه ، ثم أدى التحية العسكرية للملك المعزول وتصافحا باليد . . ومضت فترة سكون يقول عنها محمد نجيب (الملك يتوقع أن أتحدث والقدرة على التعبير ضاعت من رهبة الموقف) .

وأخيرا انطلق نجيب يتحدث قائلا :

اننى أريد أن أقول لك شيئا . . عندما اقتحمت الدبابات البريطانية قصرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ كنت أنا الضابط الوحيد الذى قدم استقالته احتجاجا على هذا الاعتداء الشنيع على استقلال البلاد . فعلت هذا باسم الجيش كله وعبرت به عن شعور هؤلاء الضباط الذين قاموا بالحركة اليوم . . وفى هذا ما يدل على مبلغ ما كان من ولائنا نحن رجال الحركة لك . . أما الآن فقد تطورت الأحوال وانقلبنا نحن حماة الى ثوار عليك نتيجة أعمالك وتصرفات من حولك .

ووفجىء فاروق بهذا الحديث فقال :

على كل حال اننى أتمنى للجيش كل الخير . . وانى أوصيك خيرا بالجيش المصرى فهو جيش آبائى وأجدادى . . ان مأموريته شاقة وصعبة .

وقال له نجيب :

أنى أعرف أن الكولونيل سيف سليمان بأشا الفرنساوى هو الذى بدأ تكوين الجيش المصرى .

وكان فاروق قد لاحظ أن جمال سالم يحمل عصاه وهو فى حضرة فتوقف عن الحديث وأشار له قائلا :

أرم عصاك .

وحاول جمال سالم أن يعترض ولكن محمد نجيب نهره عن ذلك فألقى عصاه ووقف وقفة فيها شيء من اللامبالاة .

وقال الملك وهو يصافحهم مودعا بعد أن أدوا له التحية العسكرية :

أنتم سبقتونى فى الى عملتوه . . الى عملتوه دلوقتى كنت أنا راح أعمله .

وطلب الملك تأجيل رحيل المحرسة نصف ساعة حتى تحضر بقية حقائبه ووافق نجيب بلا تردد . وخرج وفى ذهنه كلمات الملك .

كان سباقا مع الزمن بين الملك وبين الضباط الأحرار .
لو كانت الحركة قد تأخرت أياما ربما كان بعضهم قد أصبح خلف
قضبان السجون ، والملك فى حياته اللاهية .
ولكن أحداث التاريخ شاءت أن يخرج الملك معزولا من مصر ، وأن
يصبح محمد نجيب قائدا لحركة الجيش .
وكانت عملية اخراج الملك قد تمت فى سرية تامة عن الجماهير التى
لم تسمع شيئا مؤكدا عنها الا فى السادسة والنصف عندما أذيع بيان
تاريخى بصوت محمد نجيب يعلن فيه خروج الملك ، ويطلب من المواطنين
الذين غمرهم الفرح أن يلتزموا الهدوء .
ويقول محمد نجيب أن صدره قد استراح بإذاعة هذا البيان لأنه
كان حريصا على أن يفهم كل مصرى أن المشاركة فى الحركة لم تكن لكسب
شخصى مادى وإنما كانت لتحرير الوطن والمواطنين . . وأراد أن يضرب
المثل بنفسه عندما عينه قائدا عاما للقوات المسلحة يوم ٢٤ يوليو ، وقناعته
برتبته الحالية . رتبة اللواء .
هكذا سقط الملك فاروق ، وغادر مصر . وطويت صفحة حكمه فى
دون تردد .
وبعد ساعة ونصف أى فى الثامنة مساء أذاع محمد نجيب بيانا آخر
أعلن فيه على الشعب تنازله عن رتبة (الفريق) التى كان قد منحها له
الملك فاروق .

الفصل العاشر

الضباط فى السلطة ٠٠ لأول مرة

لم يكن سقوط الملك اعلانا عن سقوط الملكية .
ولم يكن خروج فاروق هو نهاية الحكم الملكى من الوجهة الدستورية
كانت أول مشكلة تواجهها قيادة الجيش ٠٠ هى قضية الوصاية على
العرش .

المادة ٥١ من دستور ١٩٢٣ كانت تنص على ألا يتولى أوصياء العرش
عملهم الا بعد أن يقرأوا اليمين أمام مجلس النواب والشيوخ مجتمعين
تماما كما يؤدي الملك اليمين قبل مباشرة سلطته الدستورية ٠٠ وللملك
حسب أحكام الأمر الملكى رقم ٢٣ عام ٢٢ اختيار هؤلاء الأوصياء على أن
يقر المجلسان اختياره .

وتنص المادة ٥٢ من الدستور على انه عند وفاة الملك يجتمع البرلمان
بحكم القانون خلال عشرة أيام من الوفاة ، فان كان المجلس منحلا وكان
الموعد المعين لاجتماع المجلس الجديد بعد انتخاب أعضائه يجاوز اليوم
العاشر وجب دعوة المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه .

أما المادة ٥٥ فتتص على أن يتولى مجلس الوزراء - بصفة مؤقتة -
سلطات الملك الدستورية حتى يؤدي أوصياء العرش اليمين أمام البرلمان .

كان مفروضا ان يدعى البرلمان الوفدى المنحل للانعقاد طبقا للدستور
وطبقا لفتوى قدمها عدد من رجال القانون الوفدين لرئيس الوزراء على
ماهر وأرسلوا صورة منها الى محمد نجيب . ومعروف ان على ماهر كان

قد رفض حل مجلس النواب الوفدى خلال رئاسته الوزارة بعد حريق القاهرة .

ولكن على ماهر الذي أصبح مجلسه جامعا للسلطة التشريعية وسلطة الملك الدستورية الى جانب السلطة التنفيذية يعلن بعد اجتماع مجلس الوزراء بأن قيام برلمان نظيف على أساس سليم يحتاج الى تمهيد يستغرق سنوات ٠٠ وعلق السنهورى الذى استدعى هو وسليمان حافظ لحضور اجتماع المجلس بأن ذلك رأى يعنى اتجاه على ماهر الى حكم البلاد بغير برلمان مستندا الى سلطة الجيش .

ورغم ان سليمان حافظ والسنهورى كانا يستهدفان اقامة حكم برلمانى بأسلوب جديد فى الانتخابات يحرم الوفد من أغلبيته المطلقة التى كان يتمتع بها رغم عدم حصوله على أكثر من ٤٠٪ من أصوات الناخبين - على حد قوله - الا ان سليمان حافظ كان حريصا أشد الحرص على عدم دعوة البرلمان الوفدى المنحل ، مناضلا من أجل ذلك بكل الطرق الممكنة وذلك لخلاف سياسى عميق بينه كرجل من رجال الحزب الوطنى وبين الوفد كحزب جماهيرى .

ولجأ سليمان حافظ الى فكرة عرضها عليه الدكتور حسن بغدادى عميد كلية الحقوق بالاسكندرية فى ذلك الوقت ، تقضى بتعديل الأمر الملكى رقم ٢٣ لعام ١٩٢٢ تعديلا يكفل انشاء الوصاية المؤقتة وينظمها وهو تعديل يتيسر لمجلس الوزراء اقراره بحكم توليه السلطة التشريعية فى غيبة البرلمان عملا بالمادة ٤١ من الدستور .

وافق الدكتور عبد الرازق السنهورى على ذلك رأى أيضا ، وهو الوزير السعدى السابق . وعرض الأمر على مجلس القيادة فاتفق رأى على تفويض الأمر الى قسم الرأى مجتمعاً بمجلس الدولة ، الذى أصدر قراراً بإجماع الأصوات عدا صوت الدكتور وحيد رافت بأنه لا يجوز دعوة مجلس النواب المنحل للعمل فى حالة نزول الملك عن العرش بل يجب المبادرة الى اجراء الانتخابات لمجلس النواب الجديد ودعوته للاجتماع فى الميعاد الدستورى لتعيين أوصياء العرش فاذا رأت الحكومة أن الضرورة العملية تتطلب لاجراء الانتخابات وقتا غير قصير لا ينبغى لمجلس الوزراء أن يستمر خلاله فى مباشرة سلطات الملك ، أمكن ايجاد نظام وصاية مؤقتة تنتقل اليها هذه السلطات من مجلس الوزراء الى أن تتولاها لجنة الوصاية الدائمة .

وتشكل مجلس الوصاية المؤقت من الأمير محمد عبد المنعم رئيسا وعضوية بهى الدين بركات باشا والقائمقام رشاد مهنا الذى عين وزيرا

للمواصلات لمدة يوم واحد حتى يكون تعيينه في مجلس الوصاية
دستوريا .

واعتبر سليمان حافظ هذا الموقف انتصارا له فقال في مذكراته
التي كتبها وأودعها عند صديقه الدكتور مصطفى مرعي الذي تفضل
باطلاعي عليها بالحرف الواحد (باء الوفد بالخيبة وبؤت مع السنيهوري
بالفوز بما كنا نبغيه من على ماهر) .

وانتقل مكتب سليمان حافظ منذ ذلك الوقت الى رئاسة مجلس
الوزراء .

وصدرت عدة تشريعات براءة من ناحية الشكل . . اذ ألغيت بدعة
تصنيف الوزارة بالاسكندرية ، وخفضت السيارات الحكومية . وألغيت
الألقاب والرتب المدنية .

ولكن هذه التشريعات وحدها لم تكن كافية لمواكبة اندفاع مجلس
القيادة الذي كان يواصل اجتماعاته ليل نهار ، يتصل أعضاؤه بمعارفهم
من مختلف الاتجاهات السياسية ، يتأثرون بأحاديثهم ويسعون الى تنفيذ
بعض اقتراحاتهم .

وكان علي ماهر يعتبر نفسه رجل الساعة ، يحافظ بكل ما في جهده
وطاقته على استمرار الأوضاع على ما هي عليه ، ليظل في مركز السلطة
ولكن التناقضات كانت قد بدأت تنبت بينه وبين مجلس القيادة الذي
كان يتحمل عبء المسؤولية الفعلية في مصر بعد خروج الملك .

كان مجلس القيادة المشكل من تسعة أفراد هم : جمال عبد الناصر
وعبد الحكيم عامر وجمال سالم وصالح سالم وعبد اللطيف البغدادي
وحسن ابراهيم وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين وأنور السادات
قد قرر في ١٥ أغسطس ضم خمسة من الذين أسهموا بقدر كبير في
نجاح الحركة وهم محمد نجيب ويوسف صديق وزكريا محيي الدين
وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين .

تقررت هذه الزيادة بعد تقديم جمال عبد الناصر استقالته لأنه كان
راغبا في سلوك أسلوب ديموقراطي بينما طلب جمال سالم اختزال عدد
أعضاء المجلس الى خمسة أعضاء فقط ، وتكليف الباقين بالعودة الى
مواقعهم في الجيش .

أدت هذه الزيادة الى اجتذاب عدد كبير من الضباط للمجلس . .
وأصبح له مندوبون من الضباط في مختلف الوزارات ، مما خلق في كثير
من الأحوال ازدواجية وحساسية ، وخلق عند الضباط رغبة الخروج من

أطار النظام العسكرى والانطلاق بملابسهم الرسمية الى مواقع العمل المدنية ، واشتهر باصطلاح (مندوب القيادة) الذى كان يتحرك به هؤلاء الضباط ليصدروا تعليماتهم وتوجيهاتهم فى مواقف كثيرة متعددة .

بدأ الانضباط العسكرى يفقد طابعه القديم ، وأخذت اتصالات الضباط تمتد خارج حدود الجيش . . ولم يعد الأمر قاصراً على الضباط الأحرار وحدهم ، وإنما أتيحت الفرصة أيضاً لعدد آخر من الضباط الذين تميزوا بالمهارة فى التقرب والقدرة على التلون .

وكان صعباً على مجلس القيادة فى مرحلته الأولى وخلال دوامة الاجتماعات والاتصالات أن يقيم تنظيمًا أو يصدر تعليمات تمنع الضباط من الاندفاع الى هذا المجال الجديد .

وهذا نمت الازدواجية وظهرت الحساسية بين الوزارة ومجلس القيادة .

... كان على ماهر قد زار مرسى مطروح فترة العيد واتصل به محافظ الصحراء الغربية (بكباشى حسنى الدمنهورى) وآثار معه عدة قضايا ، منها . . اعطاء تراخيص اقامة للمصريين فى الصحراء الغربية وهو نظام افتعلته قوات الاحتلال بالنسبة لكل مناطق الحدود المصرية . . وأصدر على ماهر قراراً بإلغاء تصاريح الدخول والاقامة للمصريين فى جزء من بلادهم وآثاراً معه أيضاً قضية اعطاء (تراخيص تموين) للمصريين المقيمين فى الصحراء الغربية فوافق عليها أيضاً .

وعقد على ماهر اجتماعاً موسعاً مع الضباط أثرت فيه قضية فصل الضباط من الجيش بعد الثورة . . وقال عبد الجليل العمرى (وزير المالية) الذى كان مرافقاً له فى هذه الزيارة ان خروج عدد كبير من الضباط سوف يثقل كاهل الميزانية بمعاشات كبيرة .

وتطرق الحديث بعد ذلك الى موضوع اصلاح الزراعى ، فأبدى على ماهر رأيه فى أن يكون الحد الأقصى ٥٠٠ فدان ، ان لم يوافق على فرض ضرائب تصاعدية .

ولم يقتصر اجتماع على ماهر بالضباط على مرسى مطروح . . بل عقد اجتماعاً ثانياً مع ضباط الاسكندرية فى ناديهم بالشاطبي . . وأثيرت هذه القضايا مرة أخرى .

مثل هذا الاتصالات بين على ماهر والضباط ، الى جانب آرائه المعارضة للاصلاح الزراعى الذى تبني فكرته جمال مبارك بعد ان صقلت.

خلال عدة لقاءات تمت بينه وبين أحمد فؤاد ودكتور راشد البراوى أدت إلى تناقض أخذ يزداد حتى وصل نهايته .

وكان الاتفاق قد تم بين مجلس القيادة وعلى ماهر على ان تتم الانتخابات فى شهر فبراير تنفيذاً لرأى مجلس الدولة الذى شكل به مجلس الوضاية المؤقت ، وطلبوا منه أن يذيع ذلك توضيحاً للشعب . ولكن على ماهر اذاع البيان دون تحديد شهر فبراير ، بل قال ان الانتخابات ستتم فى أقرب فرصة .

أما عدم تحديد الموعد نائرة ضباط القيادة ، وأذاعوا بياناً يتناقض مع بيان على ماهر ويحدد فبراير موعداً للانتخابات . . الأمر الذى نقل مشكلة الخلاف من كواليس السياسة الى ساحة الجماهير .

كان على ماهر يستهدف من عدم تحديد موعد الانتخابات اعطاء نفسه فرصة أطول للسيطرة على الحكم بطريقة غير دستورية .

والواقع ان رجعة الى تاريخ على ماهر الذى بدأ حياته عضواً فى لجنة الثلاثين لاعداد دستور ١٩٢٣ ، توضح لنا انه اتخذ طوال حياته السياسية مواقف تعادى روح الدستور وتتناقض معه .

اشترك على ماهر فى وزارات أحمد زيور ومحمد محمود واسماعيل صدقى وهى الوزارات الانقلابية التى أهدرت سلطة الأمة واعتدت على الدستور وعطلته ثم ألغته ، والتى كانت حرباً على الحريات والحرمات والكرامات ، كما كانت وسيلة لدعم سلطات الملك ونظريته القائمة على أنه يملك ويحكم .

وعندما عين على ماهر رئيساً للديوان الملكى بعد تولي فاروق سلطته الدستورية كان استهلال عهده اقالة وزارة مصطفى النحاس عام ١٩٣٧ ، رغم ما فى ذلك من اعتداء على روح الدستور . . ثم تولي رئاسة الوزراء بعد انتخابات مزيفة دون ان يستند الى حزب أو تنظيم سياسى عام ١٩٣٨ .

كانت موافقة على ماهر على انشاء مجلس النواب الوفدى بعد حريق القاهرة من أجل بقاء وزارته فى الحكم بعد حصوله على تأييد الوفد والمجلس . . ولكنه عندما تلمس فرصة الحكم بعيداً عن الدستور ، بعيداً عن البرلمان . . تنكر لموقفه القديم وعارض فى دعوة مجلس النواب المنحل . بل وعارض فى تحديد موعد الانتخابات الجديدة .

وعقب اذاعة بيان مجلس القيادة بعد بيان على ماهر فكر فى الاستقالة ولكنه تراجع عن ذلك .

وبعد أزمة الاتصال بالضباط ومعارضة الاصلاح الزراعى .. والخلاف
حول موعد الانتخابات مما يمس دستورية الحكم .. ظهر خلاف ثالث
حول تعديل الوزارة .

كان على ماهر قد اتفق مع محمد نجيب على أسس تعديل وزارته
التي شكلت فى سرعة شديدة عقب تكليفه بذلك من معظم عناصر وزارته
التي أقالها الملك ، وكأنما ليظهر أمامه فى مظهر المنتصر .. ثم فوجئ
محمد نجيب بمراسيم التعديل الوزارى وقد صدرت على غير ما اتفقوا
عليه ، اذ حصل على ماهر على توقيع رشاد مهنا ، معتقدا انه يمثل سلطة
الجيش .

ويقول محمد نجيب « يبدو أن على ماهر فى هذه الفترة كان تحت
ضغوط شديدة من بعض رجال الأحزاب والسياسيين القدامى لتعطيل
قانون الاصلاح الزراعى .. ومن أصدقائه الوزراء الذين اتفقنا معه على
إخراجهم ثم شعر أمامهم بالاحراج ... وكان طموحا فى نفس الوقت
لاستمرار الوزارة دون انتخابات محددة الموعد لا يعرف نتيجتها » .

ظهر منذ وقت مبكر فى حركة ٢٣ يوليو ان مركز القوة والسلطة
قد انتقل الى مجلس القيادة ، وانهم ما كانوا ليطبقوا حكما يتعارض مع
ارادتهم أو يعرقل مشاريعهم .

وسلك مجلس القيادة سلوكا يستظهر به قوته ليس أمام على ماهر
وانما أمام كافة السياسيين .. اذ أصدر قرارا باعتقال ٦٤ سياسيا يوم
٧ سبتمبر دون الرجوع الى رئيس الوزراء ... وأعلن جمال عبد الناصر
الخبر فى اجتماع لمجلس القيادة كان يحضره الدكتور عبد الرازق
السنهورى وسليمان حافظ .

وتحدد بهذا القرار مصير وزارة على ماهر .

وبدا البحث عن اسم رئيس الوزراء الجديد .

ولكن على صبرى همس فى أذن جمال سالم وكان حاضرا لهذا
الاجتماع باعتباره سكرتيرا لمجموعة الطيران ... وقال جمال سالم انه
يجل السنهورى ويعرف قدرته ويعترف بجدارته ويشق فى اخلاصه
للحركة كما بدا واضحا فى تأييده لقانون الاصلاح الزراعى ولكنه يستسيغ
الصراحة والاخلاص فى عرض السبب الذى يجعله مرغما على العدول عن
ترشيحه .

وكان السبب كما قاله جمال سالم هو ان الأمريكان سوف يعترضون
على الترشيح لأن بعض الصحف الغربية نسبت اليه فى أواخر عهد الملك

السابق وأثناء حكم الوفد أن له ميولا يسارية . . انه رغم يقينه ببطلان هذه التهم ، الا أن مصلحة الحركة - وقد أخذت بعض الصحف في الخارج تنهما بالشيوعية - يقتضى تفادى كل ما من شأنه أن يستغله الأعداء .

ويقول، خالد محيي الدين ان الأمريكيين كانوا قد أبلغوا على صبرى بذلك عندما شعروا باقتراب السنهورى من مجلس القيادة ورجوع الأعضاء اليه فى كافة مشاكلهم الدستورية .

وأجاب الدكتور السنهورى فى ثقة هادئة بأنه يقر وجهة نظر جمال سالم بعد ان قال ان الذريعة التى استندت اليها صحافة الغرب فى اتهمه بالشيوعية ترجع الى انه وقع وزملاء له من مستشارى محكمة القضاء الادارى بمجلس الدولة نداء للسلام هو ما عرف فى ذلك الوقت باسم (نداء ستوكهلم) ومضمون النداء لا يعدو أن يكون دعوة لاقرار السلام العالمى ومقاومة أسباب الحروب .

وانهى الدكتور السنهورى كلامه طالبا الانتقال للحديث عن مرشح آخر .

وانتهى الأمر الى الاقتراح بتعيين محمد نجيب رئيسا للوزراء وسليمان حافظ نائبا لرئيس الوزراء .

حدث ما توقع المجلس واستقال على ماهر ، ولكنهم طلبوا منه أن يحتفظ بموقعه رئيسا لوفد مصر فى اجتماعات الجامعة العربية ، وفى وفد مفاوضة الأحزاب السودانية .

خرج آخر رئيس وزراء مدنى بعد فترة حكم امتدت ٤٧ يوما فقط .
سقط الحكم المدنى فى مصر شكلا وموضوعا باستقالة على ماهر . . .
بعد ان سقط الملك من قبل .

كان موقف السياسيين الذين أحاطوا بمجلس القيادة فى هذه الفترة هو أحد الأسباب الرئيسية التى أنهت هذا الحكم .

الاخوان المسلمون وجدوا فرصتهم الفريدة لتحقيق أطماعهم فى القضاء على الوفد بدعوى القضاء على الحزبية والتحزب . . . ووثقوا أن شجرة الانقلاب تنمو فى ساحتهم . . .

موقف على ماهر من رغبته فى الانفراد بالحكم على غير أسس دستورية أهبط القيم التى كان يمكن أن تكون سندا للارادة الشعبية . . . كما أن

ثورة يوليو ج ١ - ٢٤١

تشكيله للوزارة من عناصر ليس لها احترام وتقدير شعبى أضعف من مركز الوزارة عموما أمام الجماهير ، وجعل كل الأمور متعلقة بشخصه .

فتوى سليمان حافظ وقسم الرأى بمجلس الدولة التى حالت دون دعوة مجلس النواب المنحل للموافقة على الأوصياء كانت ظاهرة بارزة فى محاربة الوفد واستخراج تشريعات لا تتمشى مع روح الدستور ولا مع الرؤية السياسية السليمة .

كل هذه الاتجاهات التى أحاطت بمجلس القيادة منذ البداية خلقت شعور استهانة بالدستور ، وأظهر انه يمكن الالتفاف حوله . . . كما انها تجاوب مع ما فى صدور الضباط عامة من الرغبة فى التعبير السريع الحاسم الذى يتناسب مع ايقاع الحياة العسكرية فى الجيش .

سقطت واجهة الحكم المدنية . . وتولى اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة منصب رئيس الوزراء .

لم يصل الضباط الى السلطة دفعة واحدة . . . ولم يتحول مجلس القيادة فجأة من ضباط الى وزراء . . . عين محمد نجيب رئيسا للوزراء فكان أول رجل عسكرى يتولى رئاسة الوزارة فى تاريخ مصر الحديث بعد محمود سامى البارودى وأحمد عرابى . . ولكن أحدا من الضباط لم يشترك فى الوزارة .

تم تشكيل الوزارة فى يوم واحد ٧ سبتمبر ١٩٥٢ . . . ولم يكن نجيب يعرف معظم الذين اتصل بهم . . . قام بهذه المهمة سليمان حافظ وفتحى رضوان الذى كان قد اجتمع بأعضاء مجلس القيادة بناء على دعوة وجهت اليه ، وكان محور حديثه معهم هجوما على وزارة على ماهر وبعض شخصياتها الهزيلة .

عرضت الوزارة على محمود محمد محمود وحامد سليمان غالى وعبد الجليل العمرى وابراهيم بيومى مذكور فاعتذروا فورا .

واذا كان هناك نقد يمكن أن يوجه لوزارة على ماهر ومستوى تشكيلها وضعف أفرادها فان هذا النقد يمكن أن يوجه مضاعفا الى وزارة محمد نجيب الأولى التى ضمت سايما حافظ نائبا لرئيس الوزراء وستة وزراء من الحزب الوطنى ووزيرين من الاخوان المسلمين والباقيين من المستقلين .

وكان غريبا ان تشكل وزارة محمد نجيب الأولى معتمدة على الحزب الوطنى الجديد اعتمادا شبه كامل ، رغم انه لم تكن هناك صلة ما قد عقدت قبل الثورة بين أى ضابط من الضباط الأحرار وأعضاء الحزب

الوطني الجديد اذا استثنينا عبد العزيز علي الذي عين وزيرا للشئون البلدية وكان موظفا في الدرجة الثالثة وله تاريخ في جمعية اليد السوداء النابعة من الحزب الوطني القديم وكانت له صلة بعبد اللطيف البغدادي ومجموعة الطيران .

ولكن مجلس القيادة كان حريصا على عدم صبغ وزارته الاولى بصبغة حزبية سافرة ، كما انه كان حريصا على عدم ظهور الحركة بمظهر انها امتداد لنشاط الاخوان المسلمين . ولذا ضاقت دائرة الاختيار حيث ان كافة المستقلين المعزوفين كانت لهم انتماءات أو صلات مع الأحزاب المختلفة ، والبعض منهم رفض الاشتراك .

ولم ينظر مجلس القيادة الى الحزب الوطني الجديد باعتباره حزبا من الأحزاب التي تحرض الحركة على عدم الارتباط بها لأنه لم يشارك في أية حكومة سابقة قبل ٢٣ يوليو ، كما انه لم يكن للحزب الوطني أي أنصار أو نفوذ سياسي بالقدر الذي يخيف نظاما جديدا ، كما ان المبادئ التي نادى بها الحزب الوطني وظهرت على صفحات (اللواء الجديد) كانت - متناسقة مع المبادئ الستة للضباط الأحرار .

كان معظم الوزراء أسماء جديدة على سمع الجماهير . . ليس لأحد منهم (الا قلة محدودة) تاريخ وشهرة سياسية معروفة ، كما ان تجربتهم في الحكم جميعا كانت جديدة ، فلم يسبق لأحد منهم أن تولى الوزارة عدا الدكتور عبد الجليل العمري الذي كان وزيرا للمالية والاقتصاد في وزارة علي ماهر . . ويلاحظ أن هذا المرسوم كان أول مرسوم يصدر دون أن يقترن الاسم باللقب بعد أن الغيت الألقاب بل ان أحدا منهم لم يكن يحمل رتبة البيكوية سوى سليمان حافظ وعبد الجليل العمري .

وتم اختيار وزيرى الاخوان بعد خلاف فى رأى . . كان قد تم اتصال مع حسن الهضيبي لترشيح وزيرين ، فاقترح الشيخ أحمد حسن الباقورى عضو مكتب الارشاد وأحد اثنين أما أحمد حسنى وكيل محكمة النقض أو محمد كمال الديب محافظ الاسكندرية . . . وتم الاتصال فورا بالباقورى وحسنى .

وبينما هم فى انتظار حضورهما اذا بحسن العشماوى ومنير الدلة يحضران موفدين من حسن الهضيبي باعتبارهما مرشحين للاخوان ويقابلان جمال عبد الناصر الذى عرض أمر ترشيحهما على سليمان حافظ الذى اعترض لصغر سنهما ولأنه اتصل فعلا بالشيخ الباقورى وأحمد حسنى .

واتصل جمال عبد الناصر بحسن الهضيبى الذى أبلغه أن الترشيح الأول كان ترشيحا شخصيا منه ، وانه عندما عرض الأمر على مكتب الارشاد قرر ترشيح العشماوى والدلة أو عدم الاشتراك فى الوزارة .
ومع ذلك تم تشكيل الوزارة واضطر الشيخ الباقورى الى الاستقالة من مكتب الارشاد ازاء الموقف الذى اتخذته جماعة الاخوان المسلمين .

اقترن تشكيل الوزارة فى أذهان الجماهير بحركة اعتقال السياسيين . . . ووضع ذلك حدا لهجوم الصحافة على وزارة على ماهر ، وكان أحمد أبو الفتوح رئيس تحرير المصرى قد كتب مقالا نشر يوم ٧ سبتمبر ١٩٥٢ تحت عنوان (الى أين ؟) قال فيه « ان فرحتى لعزل الملك كانت كل أسبابها مستمدة من ان فى زواله تمكينا للحياة الدستورية واسترداد الشعب حقوقه ، لا لمجرد كونه سيئ الخلق أو مرتشيا أو ناهبا » . . . وفى هذا المقال حذر من تولى الجيش السلطة ، وقال ان سلسلة الأخطاء قد بدأت بافتاء قسم الرأى بمجلس الدولة فى موضوع مجلس الوصاية المؤقت . . . ثم تساءل فى النهاية قائلا « أين أنت أيها الدستور ؟ » .

كانت حركة الاعتقال التى صاحبت تشكيل الوزارة قد تفرعت حتى وصلت الى مختلف الاتجاهات السياسية . . اعتقل نجيب الهاللى وفؤاد سراج الدين وابراهيم عبد الهادى وحافظ عفيفى وكريم ثابت وادجار جلال ومحمد صبيح والبير مزراحى وغيرهم .

كان الهدف من هذه الاعتقالات - على حد تعبير محمد نجيب - هو « تهدئة الجو السياسى الذى ثار فى الأيام الأخيرة لوزارة على ماهر ولكن النتيجة كانت عكس ما توقعنا اذ بدرت الشكوك بين الأحزاب السياسية وبين حركة الجيش . . . ولم يكن هناك مفر من المضى فى الطريق الى غايته » .

وكانت عملية الاعتقال الجماعى غير المبرر ، لها مظهر الاعتقالات التى قام بها البريطانيون عند بدء اشتعال ثورة ١٩١٩ . . . كما أنها كانت موجهة الى مختلف القوى والتنظيمات السياسية ، وليست مركزة على اتجاه واحد . . . الأمر الذى جعل الجيش فى جانب وكافة القوى السياسية فى جانب آخر .

القوة السياسية الوحيدة التى لم تمسها حركة الاعتقالات كانت الاخوان المسلمين . . . تماما كما حدث فى وزارة نجيب الهاللى .

كانت عودة الجيش الى الاعتقالات بعد أقل من خمسين يوما من حركة الافراج التى صاحبت الحركة ، والتى شملت كل المعتقلين حتى الشيوعيين

الذين أفرج عنهم جميعا عدا ١٧ معتقلا ظلوا كخميرة تكبر وتجدد ثبعا للظروف دليلا على أن تغييرا هاما فى طبيعة الموقف السياسى قد ظهر فى مصر .

أخذ الجيش يظهر كقوة سياسية لا تستند الى جذور تاريخية أو تنظيمات حزبية وانما تعتمد على الأثر الهائل لعزل الملك ، واصدار قانون الاصلاح الزراعى بعد يومين من وزارة نجيب - ٩ سبتمبر - والذي وجه طعنة شديدة الى الاقطاع والاقطاعيين .

واعتمدت حركة الجيش أيضا على الشعبية التى اكتسبها محمد نجيب بين الجماهير لبساطته الشديدة وابتسامته الدائمة وحيويته المتجددة كانت له جاذبية واضحة .

وقد وجدت جماهير الشعب التى تجاوزت أحلامها وآمالها قدرة النظام الملكى بأحزابه المختلفة ، فى حركة الجيش فرصة للانطلاق نحو مستقبل أفضل . . ولذا كان هذا التأييد الجارف الذى قوبلت به منذ لحظتها الأولى .

وأدركت الأحزاب السياسية ان انطلاق هذه الحركة التى يقودها المثقفون أبناء الطبقة الوسطى فى الجيش ، وخاصة بعد وصول نظامهم السابق الى طريق مسدود ، سوف يضعف قبضتهم ويبدد سلطتهم ، وينهى مستقبلهم السياسى ، ولذا فانهم تخوفوا منها منذ اللحظة الأولى ، وهرع بعضهم الى لقاء قادتها ، وتسجيل أسمائهم فى سجلاتها ، ومحاولة الارتباط بها والتعرف على قادتها .

وكانت الحركة قد تمت ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين فى أجازة صيف بسويسرا . . وصلوا جنيف يوم ٢٤ يوليو بعد رحلة بالباخرة ، وفور وصولهما اتصل بهما بعض أعضاء الوفد طالبين منهما العودة . . . وعاد النحاس وسراج الدين بالطائرة وكانت هذه أول مرة يركب فيها النحاس طائرة فى حياته . . تحركت الطائرة من جنيف عصر ٢٦ يوليو قبل أن يعلموا بعزل الملك ، وقد عرفوا ذلك من الطيار الذى أبلغهم به فور سماعه فى الاذاعة .

وصلت الطائرة القاهرة بعد منتصف ليلة ٢٦/٢٧ يوليو وكان فى استقبالهم بالمطار أحمد أبو الفتوح رئيس تحرير المصرى ، والذي كان له معرفة وثيقة برجال القيادة ، وأبلغهم انهم يجب أن يذهبوا لتهنئة رجال النورة ، وهم مستيقظون طوال الليل فى انتظارهم .

وافق النحاس بعد استشارة فؤاد سراج الدين ، ولكنهما عندما وصلا الى القيادة فى الثانية بعد منتصف الليل وكانت فى صمت مطبق

وليس فيها بادرة تشير الى انتظارهم لزيارة أحد ٠٠٠ وانتظر النحاس وسراج الدين فى غرفة صغيرة بالدور الأرضى ريثما صعد أبو الفتح الى أعلى حيث تأخر أربعين دقيقة صعدا بعدها حيث وجدا محمد نجيب فى مكتبه وحوله ضباط القيادة .

رحب محمد نجيب بمصطفى النحاس واحتضنه ، ولكن تحية الضباط لهما كانت باردة وجافة ٠٠٠ وظل الجميع واقفين حتى انتهت الزيارة .
كان هذا هو اللقاء الأول والآخر بين مصطفى النحاس وأعضاء مجلس القيادة ٠٠٠ بينما تعددت اللقاءات مع فؤاد سراج الدين بعد ذلك .

كان مصطفى النحاس مقبلا بقلبه على الثورة ، سعيدا بعزل الملك الذى طالما أقال وزارته ، معتقدا ان الحركة قد تمت فى اطار الدستور وانها لن تلبث أن تعيد البرلمان المنحل لتعيين مجلس الوصاية ، ثم تجرى انتخابات جديدة يضمن الوفد فيها أغلبيته المعتادة .

ولكن معظم ضباط مجلس القيادة لم يكونوا من العاطفين على الوفد أو المرتبطين به فكريا اذا استثنينا جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ويوسف صديق ، الذين لم يكونوا متحمسين للوفد ، ولكنهم فى نفس الوقت لم يكونوا فى موقف العداء منه .

كان جفاف المقابلة نابعا من ادراك ضباط القيادة ان الوفد يمثل الخطر الحقيقى على سلطتهم الوليدة ، ونابعا أيضا من تأثير بعضهم بموقف الاخوان المسلمين المعادى للوفد .

كما أن التكوين الطبقي لضباط القيادة كان متنافرا كما ذكرنا مع تكوين قيادات الأحزاب التقليدية التى تولت الحكم ، قريبا الى حد ما من قيادة الأحزاب الناشئة التى تتطلع الى الحكم .

كان وصول الجيش الى الحكم بطبيعة تكوين قياداته مؤشرا الى انطلاق روح وطنية ، وحركة اجتماعية جديدة .

ولم تكن حركة ٢٣ يوليو محصورة فى حدود مطالب اقتصادية أو مهنية خاصة بالجيش ٠٠٠ بل كانت دائرتها أوسع من حدوده ، فامتدت لتشمل المجتمع بكل ما يدور فيه من أحداث وقضايا .

ولعل هذا هو ما دفع الكاتب اجارون كوهيمه الى القول عن حركة ٢٣ يوليو « فى حين ان الحكام التقليديين عاجزون على الاستمرار فى السلطة والطبقة الوسطى أضعف من أن تمسك بها ، والعمال لم ينضجوا بعد لتحقيق هذا الهدف ، لا توجد قوة غير العسكريين قادرة على ملء هذا الفراغ » .

ويعقب روستو على ذلك باعطاء تعريف أكثر تحديدا فيقول « ليس من الدقة القول بأن الجيش يملأ الفراغ ، ومن الأفضل القول بأنه يفتح طريقا محجوزا بالقوة » .

ويقول بيير أزوى بعد ان يوضح ان قوى كثيرة حاولت الاستيلاء على الحكم فى العراق وسوريا ومصر ، ولكنها فشلت فى حين نجح الجيش ... يقول « لا يعنى ذلك انه لا توجد قوى أخرى غير الجيش ، فهذه القوى توجد بالتأكيد ، ولكنها لا تملك القوة التى يملكها الجيش » .

تمت الخطوة الأولى لاستيلاء الجيش على السلطة نتيجة ظروف متعددة :

أولا : تمت حركة يوليو فى توقيت مناسب سليم كان الشعب قد وصل فيه الى ذروة النعمة على الملك ورجال الحاشية ، وحكومات الأقلية التى عطلت الدستور عمليا ، واستندت الى ارهاب الأحكام العرفية ... ولذا جاء استقبال الجماهير للحركة معبرا عن التأييد الكامل ، مشجعا الضباط الأحرار على مواصلة السير فى الطريق .

ثانيا : أحزاب الأقلية كانت لافتات تضم فريقا من الاقطاعيين وكبار الرأسمالين بعيدا عن ساحة الشعب ، ولذا فانها مع ظهور الحركة لم تعد أحزابا منظمة ، وانما تحولت الى شخصيات يسلك كل منها سبيلا خاصا يدافع به عن نفسه وعن مصالحه ، ولو على حساب الآخرين .. وهذه الانهيارات كشفت للضباط مدى التفسخ والتمزق الذى كانت تعاني منه هذه الأحزاب ، وسقطت بعض الأسماء الكبيرة بتصرفات صغيرة .

ثالثا : احتفظ الوفد بوحدته ولم يحدث له مثل ما حدث فى أحزاب الأقلية ، ومع ذلك ظل موقفه صريحا وغير واضح ... يؤيد الحرية ، فيشجعها على الاستمرار ، ويرقب الاعتداء على روح الدستور ولا يشن حملة شعبية حول ذلك ... ولعله كان حذرا لعدم قدرته السير فى اتجاه مضاد للتيار الشعبى المتدفق المؤيد للحركة والذى كان يضم بالتأكيد جماهير الوفد الممثلة فى القوى العاملة التى طال بها الحرمان ... ولذا لم تشعر الحركة بجدية المعارضة ، أو صلابة الموقف المسئول .

رابعا : كان نجاح حركة ٢٣ يوليو هو فرصة الاخوان المسلمين الفريدة للسيطرة على الحكم والسلطة ، فقادتها ليسوا غرباء عن تنظيمهم ، بل انهم نشأوا واستمر اتصال بعضهم به ، وواصل البعض الآخر علاقته الطيبة بهم .. والاخوان يعتبرون انهم شاركوا فى نجاح الحركة عندما كلفوا بعض أعضائهم المسلحين بحراسة دور العبادة وبعض المرافق العامة وأرسلوا فريقا منهم الى طريق مصر - السويس واستنفروا قواتهم فى

منطقة القنال صباح ٢٣ يوليو بعد مقابلة جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين عسماوى وصالح أبو رقيق قبل يومين من الحركة .

وشجع موقف الاخوان المؤيد - وهم ثانى التنظيمات السياسية انضباطا وجماهيرية ضباط الجيش على الاستمرار فى مسيرتهم . . وذلك قبل أن تظهر التناقضات بينهم وبين الجيش فى محاولة التنازع على مركز السلطة .

خامسا : وقفت الحركة الديموقراطية للتححر الوطنى - أكثر القوى التقدمية تأثيرا - موقف التأييد لحركة ٢٣ يوليو منذ اللحظة الاولى ، وكان ذلك أمرا طبيعيا فالمنشورات كانت تطبع عندهم ، ومعظمها يكتب بأيدي الضباط المنضمين اليها ، والمعتقلون الشيوعيون أفرج عن معظمهم . . . وشجع هذا الموقف أيضا ضباط الحركة على الاقتناع بأنهم لا يجابهون معارضة من أى اتجاه .

سادسا : القوى الوطنية التقدمية التى أسهمت بدور بارز فى معركة الكفاح المسلح بالقناة وقفت مع الحركة منذ لحظتها الاولى . . . أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى وجد فيها طوق النجاة من الاتهام الذى استهدف التخلص منه لحرق القاهرة . وأنصار السلام : أفرج عن يوسف حلمى وسعد كمل لحظة الافراج عن فتحى رضوان . . والحزب الوطنى الجديد اقترب من ضباط الحركة اقترابا شديدا بحيث أصبحوا يشكلون الأغلبية فى أول وزارة يتولاها رجل عسكرى .

سابعا : كان تعاوننا الحركة منذ البداية مع على ماهر الرجل الذى عاش حياته مرتبطا بالقوى التى تهدر الدستور وتلغيه . . وسليمان حافظ الرجل القانونى البعيد عن السياسة والذى ارتبط فى آرائه بالحزب الوطنى فأتخذ موقفا جامحا ضد الوفد واستخرج من الدستور تشريعات تتناقض مع روحه لاقامة سد عال أمام عودة الوفد أو اقترابه من الحركة .

كان لذلك أثر بالغ فى عقلية الضباط التى لم تكن قد شكلت بعد على أصول سياسية سليمة . . . وكانوا فى مرحلتهم الاولى أكثر ما يكونون تأثرا بالمحيطين بهم ، قبل أن تصقل آراؤهم الشخصية . وثبتت مصالحهم الذاتية والطبقية ، وكان وقوعهم بين على ماهر من جهة وسليمان حافظ من جهة أخرى دافعا لهم على السير فى طريق السلطة مع الاستعانة بالدستور والقوى الشعبية .

ثامنا : كان احتجاج أعضاء مجلس القيادة وإخفاء أسمائهم ومنع الدعاية لهم وبروز اسم محمد نجيب فقط بشخصيته الجذابة ، مثيرا

للحديث عن نكران الذات والعمل بعيدا عن الأضواء ، وباعثا على اقتناع الجماهير بأن الحركة قد قامت على أسس سليمة ، الأمر الذي أحاط الضباط بتأييد جارف في الأيام الأولى للحركة .

كل هذه العوامل دفعت الضباط الى أخذ الخطوة الأولى على طريق السلطة .. وهي دليل على ان القوة السياسية القائمة خارج الجيش لم تكن ضعيفة أو متهالكة ... ولكنها كانت مشتتة بين التأييد المطلق أو التحفظ في المعارضة حتى لا تسير ضد التيار الشعبي .. وان ارادة الجيش قد تبلورت في الاستيلاء على السلطة يوما بعد يوم ، كلما ضعفت شخصيات وأحزاب المعارضة أمام الاجراءات التي اتخذت والدعاية المكتسبة التي صاحبت الحركة .

ويمكن تلخيص ذلك في القول بأن الجيش كان يملك القوة التي تستطيع أن تحسم له الأمر في شق طريقه ، وانه لم يواجه معارضة شعبية تجبره على الابتعاد عن هذا الطريق ... كما ان انطلاق الجيش للعمل خارج حدود طبيعته التي خلق لها ، تشبه تماما أسطورة خروج المارد من (القمقم) وصعوبة عودته اليه .

كانت الخطوة الأولى نحو السلطة هي تعيين قائد مجلس القيادة رئيسا للوزراء ... وتبعتها خطوات أخرى .

الباب الرابع

● سنوات الصدام

الفصل الحادى عشر

القضاء على الاقطاع

(سقط حق الملكية المقدس فى مصر لأول مرة
بعد سبعة آلاف سنة من تاريخ مصر المكتوب
ولصالح الفلاحين) .

الفصل الثانى عشر

الغاء الدستور وحل الأحزاب

(أصبح لزاما أن نغير الأوضاع التى كادت
تودى بالبلاد والتى كان يسندها ذلك
الدستور الملىء بالثغرات ٠٠٠ وهانذا أعلن
باسم الشعب سقوط الدستور ٠٠٠ دستور
١٩٢٣) .

محمد نجيب

١٠ ديسمبر ١٩٥٢

الفصل الثالث عشر

اعتقال الشيوعيين

(أنا برى ٠٠٠ أريد إعادة محاكمتى) .

العامل مصطفى خميس

قبل الاعدام

الفصل الرابع عشر

حل الاخوان المسلمين

(أنا على ثقة من أن الغرب سيقتنع بمزايا
الاخوان المسلمين وسيكف عن اعتبارهم
شيئا مفرزا كما حاول البعض أن يصورهم)

حسن الهضيبى

المرشد العام للاخوان المسلمين

(ان حسن الهضيبي كان حريصا على حسن
العلاقات معنا) .

انطوني ايلدن
في مذكراته

الفصل الخامس عشر صدام الضباط .

(كان ١٥ يناير ١٩٥٣ نقطة تحول في تاريخ
وتقاليد الجيش المصري . . اذ دخل الضباط
برتبهم وملابسهم العسكرية معتقلين الى سجن
الأجانب) .

الفصل السادس عشر الصدام الأخير

الفصل الحادى عشر

سنوات الصدام

القضاء على الاقطاع

(سقط حق الملكية المقدسة فى مصر لأول مرة
بعد سبعة آلاف سنة من تاريخ مصر المكتوب)

كان تعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء ووزيرا للحربية وقائدا
عاما للقوات المسلحة دليلا على أن حركة ٢٣ يوليو قد بدأت الاستيلاء على
السلطة الفعلية ، قبل أن ينقضى عليها أكثر من شهر ونصف تقريبا .
واعتمدت الحركة فى توطيد مركزها على الشعبية الجارفة التى حازتها
بعد عزل الملك فاروق ، وفضح مفاصد النظام المنهار ومبازله ، وتطلع
الجماهير الى حكم جديد يرفع عنها قبضة الاستغلال ويحقق آمالها فى مجتمع
نظيف .

ولم تعتمد الحركة على التأييد الذى صاحب مولدها فقط ، ولكنها
بادرت بتنفيذ مشروعات جديدة ، جعلت منها أساسا لانطلاقها ، ومركز
جاذبية لها .

ولم تصيغ الوزارة الجديدة وقتا لاعداد هذه المشروعات ولكنها كانت
جاهزة ومعدة فى الملفات .. بل ان بعضها كان مصدرا للخلاف مع على ماهر

وهو ما ظهر فى قانون الاصلاح الزراعى الذى أصدرته الوزارة الجديدة فور تعيينها يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ .

هذا المشروع وغيره من المشروعات التى سنتحدث عنها كانت تحمل التأييد للحركة فى نفس اللحظة التى سببت فيها الصدام الفعلى مع قوى اجتماعية وسياسية مختلفة .

ويمكن القول بأن الحركة قد دخلت بهذا المشروع (سنوات الصدام) وكان هذا ضرورة وحتمية تاريخية ، يفرضها وثوب الطبقة الوسطى الى مقاعد الحكم .

والاصلاح الزراعى لم يكن أمرا جديدا فى واقع الحياة المصرية . . . بل ان أصواتا ارتفعت تطالب بتحديد الملكية على صفحات الصحف وداخل قاعة البرلمان فى فترة حكم فاروق .

مررت غالى نشر كتيباً قدم به مشروعا عن الاصلاح الزراعى يتضمن تحديد الملكية بمائتى فدان بعد أن تستولى الحكومة على ما يزيد عن هذا الحد من الملكيات القائمة .

وصادق سعد أحد كتاب مجلة (الفجر الجديد) الماركسية أصدر كتيباً عام ١٩٤٥ باسم (مشكلة الفلاح) عرض فيه حالة الفلاحين فى مصر من وجهة النظر الماركسية وحدد ثلاثة مطالب للاصلاح الزراعى هى :

١ - تحديد الملكية الزراعية وتوزيع ما يزيد عن خمسين فدان على الفلاحين الفقراء . .

٢ - تشجيع زيادة الانتاج عند هؤلاء الفلاحين عن طريق تشجيع الجمعيات التعاونية الانتاجية .

٣ - حماية الطبقة الفلاحية باصدار التشريع الفلاحى .

وتقدم محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ وعضو الهيئة السعدية بمشروع لتحديد الملكية بحد أقصى خمسين فداناً على أن يتم دون تأميم أو مصادرة وإنما يتم على مدى الأجيال بتفتيت الوراثة وعدم السماح بزيادة الملكية . . .

كان هذا المشروع قد أثار انتباهى فكتبت رسالة الى محمد خطاب الذى رد على فوراً بدعوتى الى منزله فى شارع الطلبات بجاردن سيتى لمناقشة المشروع . . ثم دعانى أيضاً لحضور جلسة مجلس الشيوخ التى عقدت لمناقشته يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٥ وفوجئت هناك بضراوة هجوم

أعضاء المجلس على محمد خطاب واتهامهم لمشروعه بأنه (بولشفية)
يجب بترها .

أحيل المشروع الى لجان لدراسته ولكنه بقي معلقا حتى خرج محمد
خطاب من مجلس الشيوخ فرفض النقراشي تعيينه مرة أخرى في المجلس ،
ولما رشح نفسه عام ١٩٤٧ في عابدين أسقطته الحكومة . . . وكان محمد
خطاب قد حاضر بنفسه في (دار الأبحاث العلمية) بعد ان لمس بنفسه
عفن الرجعية والاقطاعية .

وكان رأى الوفد في مشروع تحديد الملكية الذي عبر عنه محمد
صبرى أبو علم سكرتيه العام وزعيم المعارضة في مجلس الشيوخ هو
قوله « ان مواجهة الظروف الاجتماعية هي التي حدث بمقدم المشروع الى
تقديمه وفي الحق انه بذل جهدا مشكورا في دراسة صوغه واعداده وقد
اطلعت على بعض محاضر اللجنة وفهمت أنه قد أعد له كثيرا من الوثائق
وكثيرا مما يبرره » .

هذا الموقف المتعاطف مع المشروع لم يستمر طويلا ، فانه بعد هجمة
صدقى باشا على الوطنيين عام ١٩٤٦ وتوجيه تهمة الشيوعية لعدد كبير
من المفكرين والأدباء والصحفيين وتعطيل عدد من الصحف والمجلات منها
(الوفد المصرى) وقف صبرى أبو علم ينفى تهمة الشيوعية عن الوفد ،
ويدلل على ذلك بأنه كان قد اتفق مع محمد حسنين هيكل رئيس مجلس
الشيوخ على تحويل مشروع محمد خطاب الى لجنة يدخل بعدها في متاهات
لا تنتهى . . . وقد تم ذلك فعلا حتى خرج محمد خطاب نفسه من مجلس
الشيوخ ومن الهيئة السعدية أيضا .

ورغم ان محمد خطاب لم يدع في المشروع الى المصادرة أو التأميم
وأنما دعا الى الحد من تضخم الملكية الزراعية ووقف نموها الاقطاعى في
حدود احترام الدستور الذى كانت تنص المادة التاسعة منه على « ان الملكية
حرمة فلا ينزع من أحد ملكية الا بسبب المنفعة في الأحوال المبينة في
القانون وبالكيفية المنصوص عنها فيها » وبشرط تعويضه تعويضا عادلا ،
فان المعارضة له كانت عنيفة وحاسمة من جانب الاقطاعيين والحكومة الذى
وجدوا في الحديث عن تحديد الملكية صدمة شديدة لهم .

ولم يكن مشروع محمد خطاب هو نهاية الحديث عن اصلاح الزراعى
قبل ٢٣ يوليو داخل البرلمان . . . النائب ابراهيم شكرى عضو حزب
مصر الفتاة (أو الاشتراكي) فيما بعد قدم مشروعا لمجلس النواب مطالبا
بتحديد الملكية بخمسين فدانا وذلك تجاوبا مع برنامج الحزب الذى صدر
عام ١٩٤٩ .

ولكن المشروع لم ير النور أيضا .

كان موقف الاقطاعيين من هذه المشروعات فى غاية الضراوة والشراسة وفى مقدمتهم الملك فاروق الذى ورث عن والده فؤاد ١٥ ألف فدان زادهها الى ٤٨ ألف فدان وسيطر على نحو ٢٥٠٠٠ فدان من اراضى الأوقاف ، اغتصب الكثير منها من وزارة الأوقاف « وقف اسماعيل والوادي والمنتزه وقولة وحفظة الألفية » .

هذا رغم أن الطبقة الاقطاعية لم تكن ضاربة الجذور فى أعماق التاريخ المصرى . . ولم تكن لها تقاليد العائلات الاقطاعية الأوروبية التى ما زالت قائمة حتى الآن فى اسبانيا مثلا .

تاريخ الاقطاع فى مصر يعود الى ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما أعاد محمد على توزيع الأراضى الاميرية على أقاربه وكبار الأعيان والموظفين وضباط الوحدات الكردية والجركسية والتركية وزع خلال مدة قصيرة مئات الألوف من الأفدنة مع من كان يقطنها من الفلاحين ، ومن ثم صار ملاك هذه الأرض يدفعون ضريبة العشر منذ عام ١٨٥٤ أى منذ أقل من مائة عام فقط . . . وهكذا بعدما حرم محمد على الأشراف الاقطاعيين القدماء من ممتلكاتهم ونقودهم وبعد ان صفى طبقة الملتزمين أنشأ على انقاضهم طبقة جديدة من النبلاء الاقطاعيين الذين أصبحوا سند الأسرة الحاكمة الجديدة .

كان الخديوى اسماعيل مثلا يملك يوم توليه الحكم ١٥ ألف فدان . وأصبح بعد ١٧ سنة يملك ٥٩٠ ألف فدان استولت عليها الحكومة بعد عزله . . وكان الملك فؤاد يملك عند توليه الحكم عام ١٩١٧ ثمانمائة فدان بلغت يوم وفاته عام ١٩٣٦ حوالى ٢٨ ألف فدان .

وهكذا اتسعت هذه الطبقة وزادت سيطرتها على الأرض حتى ان ٢٧ مالكا من أسرة محمد على كانوا يمتلكون حوالى ١٤٣ ألف فدان خلاف اراضى الأوقاف . . . أما الملك والأسرة والأوقاف والأصهار فكانوا يملكون عام ١٩٣٩ حوالى نصف مليون فدان ، وكان ١٣٠٠٠ مالك يملكون حوالى مليونين ونصف مليون فدان من اجمالى الأرض الزراعية البالغة ستة ملايين فدان .

ويوضح الاحصاء التالى صورة لما كان عليه توزيع الأرض فى مصر قبل عام ١٩٥٢ .

| فئات الملكية | جملة الأطيان بالفدان | عدد الملاك |
|---------------------|----------------------|------------|
| فدان وأقل | ٧٨٠ر٢٤٦ | ١٩٨١ر٣٣٩ |
| من فدان الى عشرة | ١ر٨٥٥ر٠٥٤ | ٦٩٨ر٨٧٩ |
| من عشرة الى خمسين | ١ر٢٩١ر٣٥٥ | ٦٨ر٥٥٨ |
| من خمسين الى مائتين | ٨٨١ر٥١٤ | ٩ر٧٧٠ |
| من مائتين الى ألف | ٧٠٧ر٥٦٥ | ١ر٩٢٧ |
| فوق ألف فدان | ٤٤٦ر٩٩٨ | ١٨٨ |
| الجملة | ٥ر٩٦٢ر٦٦٢ | ٢ر٧٦٠ر٦٦١ |

ومن هذه الاحصائيات تتضح صورة الهرم المقلوب للملكية الزراعية ، ومظهر الاقطاع المتكاثف في مصر .

وكانت هذه الطبقة التي استند الاستعمار على زعمائها في فرض سيطرته على مصر قد ثبتت في نفوس الفلاحين ان ملكيتهم تعتبر حقاً ربانياً لا يجوز الاعتداء عليه ، وقد تبني هذه العقيدة وروج لها أيضاً الاخوان المسلمون الذين لم يطالبوا مطلقاً بتحديد الملكية وانما طالبوا على لسان مرشدكم حسن الهضيبي المشرف على أطيان الملك عندما سأل منسوب صحيفة (شيكاغوريل نيوز) في ابريل ١٩٥٢ عن الاصلاح المطلوب بالنسبة للفلاحين فقال « يجب الا يسمح للملاك الأراضى بأن يؤجروا أراضيهم للفلاحين نظير مبالغ ثابتة بحيث اذا طرأ ما يؤثر في المحصول وقع الفلاحون في الدين ، يجب أن يقوم ايجار الأرض على أساس نصيب غلتها وبهذا يحصل المستأجرون على الأقل على جزء من مجهودهم » .

هكذا كانت نظرة الاخوان المسلمين للقضية الاجتماعية والمشكلة الزراعية قاصرة ومؤيدة لكبار الملاك ... اذ انه في الوقت الذي أدلى فيه حسن الهضيبي بهذا الحديث كانت شكاوى الفلاحين قد ارتفعت من نظام المزارعة الذي ينهب عرق الفلاحين .

لم يتحدث الاخوان المسلمون مطلقاً عن (تحديد الملكية) بل ان موقفهم من استمرار الوضع كما هو عليه كان صريحاً بلا لبس ... رغم ما حدث في المجتمع من انتفاضات قام بها الفلاحون احتجاجاً على أسلوب الاقطاعيين غير الانساني .

في يونيو عام ١٩٥١ اشتكى الفلاحون في (كفور نجم) حيث كان الأمير محمد على ولى العهد يمتلك ٧٠٠٠ فدان من ارتفاع الايجارات دون جدوى ، فعبروا عن احتجاجهم بحرق المحاصيل وماكينات الري والسواقي ... ورد البوليس على ذلك بحملة ادهائية اقتحم فيها بيوت الفلاحين واعتقل منهم خمسة ثم دبر مقتل زعيمهم (عناني أحمد عواد) فور خروجه من المعتقل .

وفى (بهوت) احدى قرى عائلة البدر اوى اقتحم رجال العائلة بيوت الفلاحين يستولون على متاعهم سدادا للايجار وضربوا من وكلهم الفلاحون. دفاعا عن مطالبهم ، فتجمع أهل القرية حول قصر البدر اوى صاحبين قتل المالك أحدهم فثارت ثائرتهم وظلوا يحصبون القصر بالحجارة وأشعلوا النار فى أجران القمح فلما أسرع عميد العائلة (سيد البدر اوى) الى بهوت قادما من مقره الأساسى فى (درين) القى الفلاحون عليه الحجارة فقدم نحو ٥٠٠ جندي حاصروا القرية وأعملوا الضرب فى الفلاحين وزجوا بخمسين منهم فى السجن .

وفى قرية (أبو الغيط) كانت الأوقاف تؤجر أرضها الى صغار الفلاحين ثم قررت أن تطرد ٥٠٠ منهم من الأرض لتؤجرهم جملة الى صهر وزير التموين ، فنشبت معركة بين الفلاحين والبوليس قتل فيها ١٢ فلاحا .

وفى (ميت فضالة) أضرب الفلاحون عن جمع القطن لما وجدوا أن المطلوب منهم سداده يفوق ثمن المحصول ذاته فقبض على تسعة منهم عذبوا فى السجن ومنع عنهم الطعام والشراب . فتجمع الفلاحون فى القرية صاحبين . فلما أطلق أحد الضباط النار عليهم هجموا على التفتيش. فاحتل البلدة ٧٠٠ جندي وأعتقل الكثير من الفلاحين .

تعددت انتفاضات الفلاحين وزاد معدلها خلال عام ١٩٥١ وبدأت الأرض تهتز تحت أقدام الاقطاعيين وكان الخطر من انطلاق قوة جماهير الفلاحين موضع خشية السلطة فى مصر والاستعمار أيضا .

بل ان الولايات المتحدة كانت ترقب هذه الانتفاضات التى وصلت (الفلاح المصرى) فى حذر شديد ، لأنها رأت فيها ارهاصات ثورة شعبية جامعة يمكن أن تنتهى الى تغييرات اجتماعية جذرية . تتناقض فتتعارض فى واقعها مع أهداف الاستعمار والامبريالية العالمية .

ولذا كانت فكرة (اصلاح الزراعى) واردة فى أحاديث المسئولين الأمريكين الذين تدفقوا على مصر بعد حريق القاهرة .

كانوا يطلبون (اصلاحات) اجتماعية تمنع اشتعال (ثورة) شعبية ...

وانبرى الدكتور أحمد حسين أحد المقتنعين بهذه السياسة والشديد القرب من الأمريكين يدعو الى اصلاحات الاجتماعية ، ويشكل (جمعية الفلاح) ، ويطلب من على ماهر أن يدعو الملك الى التنازل عن نصف أرضه للشعب .

طالب أحمد حنين الدولة بالتدخل لوضع حد أدنى لأجور العمال ..

وقد خدع هذا الاتجاه البراق الجديد بعض الصحفيين فكتب احسان عبد القدوس فى روز اليوسف خلال شهر مايو ١٩٥٢ يشيد بالدكتور أحمد حسين ويدعوه الى تحويل (جمعية الفلاح) الى حزب ولكن الدكتور أحمد حسين فضل الا يحول جمعياته الى حزب حتى لا تصطدم بالأحزاب الأخرى وحتى يتاح للموظفين والمثقفين والاداريين فرصة الانضمام اليها . .

هذا فى الوقت الذى اكتشف فيه اليساريون ان مثل هذه الجمعية انما تستهدف اطلاق البخار من المرجل الشعبى حتى لا ينفجر فى وجه الاستعمار فاطلقوا عليها اسم (جمعية الفلاح الأمريكانى) وذلك لما أحاط بالدكتور أحمد حسين من سمعة تربط بينه وبين المسئولين الأمريكين المتدققين على مصر .

ووضح من اتصالات الأمريكين برجال السياسة المصرية ان الاصلاح الزراعى كان أحد العروض التى يقترحونها كما روى مصطفى مرعى عندما اتصلوا به قبل ٢٣ يوليو ، ورفض الموافقة على فكرتهم فى تحديد الملكية عن أى طريق يتعارض مع الدستور . واقترح تطويرا لمشروع محمد خطاب .

وعندما تحركت قوات الجيش ليلة ٢٣ يوليو كانت تحمل (القضاء على الاقطاع) هدفا من أهدافها ولكنها لم تكن قد أعدت لذلك مشروعا أو خطة متكاملة . . . ولم تكن فكرة القضاء على الاقطاع نابعة من فكر أمريكى .

الفكرة الأولى نبتت فى الاجتماعات الأولى لمجلس الثورة ، واستدعى من أجل ذلك الدكتور راشد البراوى الأستاذ بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، والذى كان معروفا للضباط بكتبه التى كتبها عن الشرق الأوسط . والذى كان مادة من مواد امتحان القبول فى كلية أركان الحرب حيث كان يقضى أجازته فى الاسكندرية . . . وقد قابلته فى مكتبه الصغير بجريدة (الزمان) ثم حضر معى الى القاهرة واستقبله كمال الدين حسين فى المحطة ، وذهب به مباشرة الى اجتماع لمجلس القيادة حضره أحمد فؤاد أيضا ، وفى هذا الاجتماع أوكل الى جمال سالم مسئولية متابعة مشروع الاصلاح الزراعى مع الدكتور البراوى وأحمد فؤاد .

ولم تكن فكرة المشروع محل موافقة جماعية من جميع ضباط مجلس القيادة . . . محمد نجيب اعترض عليه فى البداية لأنه يعتمد الى تأميم الأرض ومصادرتها وهو ما يتنافى - فى رأيه - مع روح الدستور الذى أعلنت الحركة قيامها فى ظله . . . كما انه كان ميالا الى فرض ضريبة نساعدية لا تجبر الدولة على خلق أجهزة ادارية معقدة لتنفيذ المشروع .

ولكن اتساع المناقشة أوضح له ان قانون الاصلاح الزراعى لا يستهدف ضرب الاقطاع بزيادة اعبائه المادية فقط ، وانما يستهدف تحرير الفلاح الذى يعيش فوق الارض تابعا لصاحبها الأمر الذى يخلق قوة سياسية للاقطاعيين بنفوذهم على الفلاحين .

وهنا وافق محمد نجيب على مشروع الاصلاح الزراعى بلا تردد . وعرض جمال سالم صيغة المشروع التى أعدها مع البراوى وأحمد فؤاد على الدكتور عبد الرازق السنهورى وسليمان حافظ الذى قال فى مذكراته ان السنهورى قد رحب بالفكرة « فقد كانت له نزعة واضحة الى الاشتراكية وضع فى ظلها مشروع تنقيح القانون المدنى فجاء اشتراكى الطابع » .

وشكل السنهورى لجنة رأسها وعكفت تعمل بضعة أيام ليلا ونهارا حتى أنجزت مشروع القانون وعرضه مجلس القيادة على على ماهر الذى أبدى موافقته عليه من ناحية المبدأ . ولكنه لم يعرضه على مجلس الوزراء لما قوبل به القانون من نقد ومعارضة الاقطاعيين من مختلف الاتجاهات .

وتأرجحت فكرة على ماهر بين الضريبة التصاعدية وبين تطبيق القانون وعقد لذلك مؤتمرا موسعا برئاسة مجلس الوزراء حضره محمد نجيب وجمال سالم وصالح سالم وعبد الجليل العمرى وعبد الرازق السنهورى وعضوا مجلس الوصاية بهى الدين بركات ورشاد مهنا وسليمان حافظ وراشد البراوى .

وانقسمت الآراء حول المشروع وقف فى جانب الضريبة التصاعدية عضو مجلس الوصاية فقط ثم أعلن رشاد مهنا اذعانه لقرار الأغلبية وعند مناقشة الحد الأعلى للملكية كان هناك اتجاه عند على ماهر لرفعه الى خمسمائة فدان ولكن الاحصاءات أثبتت انهم لا يزيدون عن ٨٠٠ مالك الى جانب اتساع الرقعة ، بينما يبلغ عدد الذين يملكون أكثر من ٢٠٠ فدان حوالى ٢١٦٠ مالك .

كان مفروضا بعد هذا المؤتمر أن يصدر المشروع ولكن على ماهر انحاز الى جانب الاقطاعيين الذين حاولوا تشكيل رابطة لهم ثم حاصروه بآرائهم وانتقاداتهم ، فعمد الى التمهل والمراوغة وكانت النتيجة حسم قضية خروجه من الوزارة .

وكان اسراع محمد نجيب فى اصدار القانون تعبيرا صريحا عن ارادة الجيش وأسلوبه فى معالجة الأمور وقد ذكرنا ان أبناء الأسر الاقطاعية لم يكن لهم مكان فى صفوف ضباط الجيش .

ويذكر في هذه المناسبة ما أعلنه أحد ضباط الثورة العراقية من أن الأرض سوف تكون ملكا لمن يفلحها . . . وان هذا الاتجاه قد أحدث نفورا عند كبار الملاك أوردته لورد كرومر في مذكراته على لسان السير كوكس عندما أبلغه « أن الاضطراب وعدم الاستقرار في المديرية دفعا الأعيان وغيرهم من ذوي الأملاك الى التحلل من التحالف الذي تسرعوا في عقده مع الحزب العسكري والى محاولة التخلص من سيطرة هذا الحزب » . وهكذا حدث أيضا بعد سبعين عاما . . فقد هن صدور القانون طبقة الاقطاعيين ، رغم انه لم يصدر كما ورد في مشروع البراوى وأحمد فؤاد . . . اذ أصر عبد الجليل العمرى على زيادة الحد الأقصى للملكية ١٠٠ فدان تخصص للأبناء مع حق المالك فى التصرف بالبيع . وكان ذلك شرطا لدخوله وزارة محمد نجيب .

قدر القانون ثمن الفدان من الأرض المستولى عليها بعشرة أضعاف القيمة الإيجارية . . . وقدرت القيمة الإيجارية بسبعة أمثال الضريبة المفروضة على الفدان .

وأجاز القانون للمالك خلال خمس سنوات أن يتصرف بنقل ملكية ما لم تستول عليه الحكومة من أطيانه الزائدة على مائتى فدان الى صفار الزراع الذين تكون حرفتهم الزراعة ولا يزيد ما يملكه كل منهم على عشرة أفدنة .

ويعتبر القانون بذلك متواضعا اذا قورن بما طبق على دول الديمقراطية الشعبية أو فى بعض الدول الرأسمالية مثل اليابان . عقب الحرب العالمية الثانية اذ لم تزد جملة ما صودر من الأرض عن ٦٠٪ فقط بينما بلغ الحد الأقصى للملكية ٥٧ فدان فى اليابان وخمسين فداناً فى عدد من الدول .

ومع ذلك فقد بدأ الصدام بين الطبقة الوسطى ممثلة فى الجيش وطبقة الاقطاعيين عند بدء تنفيذ القانون كما حدث فى الأسبوع الأول من اعلانه بمدينة أخميم عندما تصدى النائب السابق عدلى للوم لممثلى الحكومة رافضا تسليم أرضه .

وجاء رد الجيش سريعا متناسبا مع طبيعته اذ شكل مجلس عسكري لمحاكمة عدلى للوم ابن الأسرة الاقطاعية الكبيرة فى الفيوم المدينة التى حاول المقاومة فيها . . . وصدر الحكم عليه بالسجن المؤبد .

رأس المجلس العسكري حسين الشافعى وكان الأعضاء البكباشية عبد المحسن أبو النور وحسن فكرى الحسينى والصاغ أحمد عبد الله طعيمة واليوزباشى فتح الله رفعت والمدعى العام الصاغ عبده مراد .

١٠ السرعة في مجابهة الصدام في موقعه ومحاكمة عدلى الموم اوقفت
محاولات أخرى كان يمكن أن تحدث في مناطق الاقطاع .

وتراجع أفراد الطبقة الاقطاعية المسيطرة على قيادات أحزاب الاقلية
ورجال الرأى ، وبعض أعضاء الوفد ٠٠٠ وآثروا السلامة بتسليم الأرضى .
كانت الطبقة الاقطاعية قد اهتزت وأصبحت أعجز من أن تقاوم هذا
الملك الثورى المتبعث من صفوف الجيش .

ولذا لم يكن الصدام عنيفا ذا صوت مسموع ٠٠٠ بل انهم فضلوا
الانحناء للعاصفة حتى تتاح لهم فرصة أخرى يقتربون فيها من مركز
السلطة .

ولو كان هذا القانون قد صدر في بلد آخر لما كان له تأثير مثلما
حدث في مصر ، وذلك لارتفاع نسبة الفلاحين بين السكان كما يتضح
في المقارنة التالية :

| النسبة | نسبة الفلاحين الى السكان |
|---------|--------------------------|
| انجلترا | ٣٠٣ |
| أمريكا | ١٢٠٥ |
| المكسيك | ٦٠٠٨ |
| فرنسا | ٢٧٠٥ |
| مصر | ٦٥٠٤ |
| باكستان | ٧٩٠٥ |
| الهند | ٧٣٠٩ |
| تركيا | ٨٥٠٧ |

١١ الأغلبية العظمى من السكان في مصر تطلعت اذن الى مشروع الاصلاح
الزراعى ووجدت فيه طوقا للنجاة مما يعانون منه .

سقط حق الملكية المقدسة في مصر لأول مرة بعد سبعة آلاف سنة
من تاريخ مصر المكتوب .

ولم يجرؤ صوت واحد على الارتفاع معارضا هذه الخطوة التى هزت
الوانح الاجتماعى للمجتمع وأظهرت أن هناك مقدسات يمكن أن تتحطم
لمصلحة أفراد الشعب .

كانت الحركات الشيوعية والأحزاب الوطنية التى لم تصل مقاعد
الحكم قبل ٢٣ يوليو (الاشتراكي والوطن الجديد) أشد التنظيمات

السياسية حماسا للمشروع . . . أما الاخوان المسلمون فلم يسمع لهم بعد صدوره رأى معارض ولا رأى مؤيد .

أما الوفد فقد صاحب اعلان موقفه موجة من الضباب والدعاية المضادة ، ومعروف ان الوفد كان قد قرر مبدأ الضريبة التصاعدية ، وضاعف فى وزارته عام ١٩٥٠ جميع الضرائب بما فيها الضرائب العقارية لتزيد ١٠٠٪ ووصل فى ضرائب الشركات الى ٩٠٪ فى الفئات العالية .

وكان الاعلان عن قانون الاصلاح الزراعى مفاجأة لأعضائه الذين ينتسب عدد منهم الى الطبقة الاقطاعية . فبدأوا يتلمسون الحوار مع رئيس الوزراء على ماهر ومع ضباط القيادة للتعرف على أبعاد القانون .

وكان فؤاد سراج الدين قد طلب تحديد موعد مع محمد نجيب عقب عودته من أوروبا . ولكن أحد أقاربه اليوزباشى عيسى سراج الدين (السفير فيما بعد) دعاه الى منزله فى الزيتون لمقابلة جمال عبد الناصر وجمال سالم وصلاح سالم وحضر أحمد أبو الفتوح جانبا من الاجتماع الذى امتد من الخامسة مساء حتى الواحدة بعد منتصف الليل .

دار الحوار فى هذه الجلسة حول تحديد الملكية وحاول فؤاد سراج الدين اقناعهم بفكرة الضريبة التصاعدية . ولكن الاجتماع انفض دون الوصول الى رأى موحد وعلى ان يلتقوا مرة ثانية بعد أسبوع .

وفى اليوم المحدد للاجتماع الثانى ، وفؤاد سراج الدين فى طريقه من الاسكندرية للقاهرة قرأ خبرا نشره مصطفى أمين فى ملحق (آخر لحظة) التابع للمجلة (آخر ساعة) وفيه يقول ان فؤاد سراج الدين قد صرح بأنه وضع ضباط القيادة فى جيبه وتوقع فؤاد بعد قراءته للخبر الغاء الاجتماع وقد كان . . فقد اتصل به أحمد أبو الفتوح ليبلغه ذلك .

ولم يشأ ان يترك موقفه من قانون الاصلاح الزراعى غامضا فأدلى فؤاد سراج الدين بتصريح لجريدة المصرى يوم ٦ سبتمبر ١٩٥٢ قبل تولى نجيب الوزارة وقبل اعتقاله بأيام قال فيه بالتحديد :

(ان الوفد وافق على مبدأ تحديد الملكية الزراعية من حيث المبدأ وله ملاحظات وتعديلات على المشروع الذى نشر وقد سبق ان أبلغنا تلك الملاحظات الى الجهات المسئولة فى أسرع وقت) .

ثم استطرد مصرحا :

(اننا نوافق على المبدأ الذى هو صميم المشروع أما ملاحظتنا فهى مقصورة على التفاصيل فقط دون الجوهر) .

وتأكد موقف الوفد بعد ذلك عندما أصدر برنامجه الجديد يوم ٢١ سبتمبر ١٩٥٢ وفؤاد سراج الدين فى المعتقل يقول فيه (الموافقة على مشروع تحديد الملكية باعتباره يهدف للعدالة الاجتماعية ويقرب بين الطبقات) .

هكذا كان موقف الوفد موافقة على المبدأ ومناقشة للتفاصيل ثم قبولا للمشروع بعد صدوره ولكن صحافة الاثارة (أخبار اليوم) التى حاربت الوفد فى عهد الملك ظلت تحاربه بعد الحركة بأسلوب الأخبار المثيرة لمشاعر الضباط لتخلق هوة عازلة بينهم وبين الوفد ، الحزب الذى ينتمى اليه معظم أبناء الطبقة الوسطى ، التى انبثق منها الضباط الأحرار .

هكذا انتهى الصدام الأول لحركة الضباط الأحرار مع الطبقة الاقطاعية فى مصر ، وصدر قانون الاصلاح الزراعى الذى حدد الملكية دون دماء . . . فقد كان الموقف ناضجا لذلك تمام النضوج والجاهزية مهياة لاستقبال القانون بترحيب شديد .

وكسبت حركة الضباط الأحرار نصيدا كبيرا بهذه الخطوة الاجتماعية الهامة التى حددت موقفهم من قضية التطور الاجتماعى فى مصر وأكسبتهم تأييدا جماهيريا واسعا ، تفرغت معه الحركة للدخول فى صدامات جديدة فقد كانت هذه هى فاتحة (سنوات الصدام) .

الفصل الثانى عشر

الغاء الدستور وحل الأحزاب

على قدر ما كان الصدام الأول سهلا ومؤثرا بالايجاب فى الحركة السياسية والاجتماعية بمصر . . على قدر ما كان الصدام الثانى صعبا ومتعدد الجبهات وذا تأثير معقد فى محصلته النهائية .

أدى الصدام الأول الى توجيه ضربة شديدة للطبقة الاقطاعية وانهيار الأسس الاقتصادية التى كانت تستند اليها . . . أما الصدام الثانى فقد بدأ مبكرا مع الأحزاب والتنظيمات السياسية وتم على مراحل زمنية مختلفة انتهت الى الصدام مع الإخوان المسلمين .

وضح من خطوات الحركة الأولى أنها لا تستند الى قوة حزبية أو سياسية معينة وانها حركة خاصة منبعثة من صفوف الجيش ذات طابع مستقل ولها صلات متعددة مع عدد من التنظيمات السياسية المتباينة الاتجاهات .

اعتقد الناس وكثير من قادة الأحزاب مما جاء فى البيان الأول للحركة من القول باسم محمد نجيب « وانى أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم كله أصبح لصالح الوطن فى ظل الدستور مجردا من أية غاية » .

ولكن البيانات التى صدرت بعد ذلك أظهرت ان تدخل الجيش كانت له بداية وليست له نهاية .

صدر بيان من القيادة العامة يوم ٣١ يوليو ١٩٥٢ جاء فيه :
« والجيش وقد كان أول الهيئات العاملة على تطهير صفوفه وتسليم قيادته
لأيد أمينة صالحة نزيهة يرى أن يقوم الجميع بهذا العمل كل فى صفوفه
على أن يكون التطهير كاملاً يتناول الأداة الحكومية والأحزاب والهيئات
دون أى تأخير أو تسويق » ثم يقول البيان « كما يرى الجيش أن تعلن
الأحزاب والهيئات المسؤولة للشعب برنامجاً واضح المعالم حتى يكون
الشعب على بينة من أمره » .

وهكذا أطل شعار (التطهير) مرة أخرى بعد أن تبناه نجيب الهلالي
عقب حريق القاهرة . . . وجاء هذا البيان المبكر صدمة لقادة الأحزاب الذين
هرعوا الى مجلس القيادة فى الأيام الأولى يؤدون التحية ويعلنون الولاء . . .
وأصابهم لفظ (التطهير) بهزة شديدة ، أعطت لحركة الجيش فرصة
التسرب الى صفوفهم ، واغراء العناصر الضعيفة أو المترددة بينهم ، وتمزيق
وحدة أحزابهم .

ورغم أن البيان كان يعنى فى مضمونه الاعتراف بوجود الأحزاب
والتمسك بالدستور ، إلا أنه كان فى الواقع يجعل من تطهيرها شرطاً
لبوجودها . . . مما يجعلها معتمدة فى بقائها على إرادة حركة الجيش .

وبدت الحركة حريصة على اجراء تطهير الحكومة والأحزاب تمهيداً
للانتخابات التى حددت موعدها فى فبراير ١٩٥٣ ، وأصدرت بذلك بياناً
فى ١١ أغسطس وهو البيان الذى تناقض مع بيان على ماهر الذى أذيع فى
تفسن اليوم ولم يحدد موعداً لاجراء الانتخابات . . . وقد جاء فى بيان
القيادة العامة ما يلى : « تم الاتفاق مع رئيس الحكومة من قبل على أن
تجرى الانتخابات فى شهر فبراير لاعطاء فرصة كافية للحكومة لتطهير
أداتها . والأحزاب لتطهير صفوفها تطهيراً كاملاً شاملاً حتى تنعم البلاد فى
ظل الدستور بحكم نيابى سليم » .

هكذا أظهرت حركة الجيش أنها حريصة على الدستور والانتخابات
ولكنها احتفظت فى يدها بمفتاح الموقف هو (التطهير) .

ولم تستجب الأحزاب لهذه الدعوة لحساسية تطبيقها ، وعدم ارتفاع
كثير من قادتها عن المستوى الذى يمكن أن تصلهم فيه يد التطهير . . .
ولذا بادر سليمان حافظ بأعداد مشروع قانون لتنظيم الأحزاب السياسية
عارضه الدكتور عبد الرازق السنهورى من جهة المبدأ معارضة شديدة
فى بداية الأمر بدعوى أن العرف الدستورى لتنظيم الأحزاب ترك الأمر
لها .

ولكنه أمام الحاج سليمان حافظ واقناعه لضباط مجلس القيادة .
أقر المشروع على شرط ألا تتدخل الإدارة إلا عند الاقتضاء لتحقيق أغراض
القانون ، وأن يكون تدخلها تحت رقابة مباشرة من القضاء الإداري بمجلس
الدولة .

وما أن تولى محمد نجيب رئاسة الوزراء حتى صدر قانون تنظيم
الأحزاب ونص على أن المقصود بالحزب السياسي كل حزب أو جمعية أو
جماعة منظمة تشتغل بالشئون السياسية للدولة الداخلية منها أو الخارجية
لتحقيق أهداف معينة عن طريق يتصل بالحكم .

وقضى القانون بأن من يرغب في تكوين حزب سياسي عليه أن يحيط
بذلك وزير الداخلية بخطاب موصى عليه بعلم الوصول . . . ولوزير
الداخلية حق الاعتراض على تكوين الحزب خلال شهر من تاريخ إخطاره ،
وفي حالة الاعتراض يعرض الأمر على محكمة القضاء الإداري لتفصل في
جلسة تحدد بعد أسبوعين من وقت تقديم الاعتراض . . . كما ألزم القانون
الأحزاب بإيداع أموالها في البنوك ، كما نص على أن تعيد الأحزاب القائمة
تكوينها وفقاً لأحكامه .

وكان صدور القانون بمثابة خطوة نحو محاصرة الأحزاب وإخضاعها
لمسلطة الجيش الممثلة في وزير الداخلية . . . كما أنه كان بداية لصدام
بين القوى السياسية المختلفة وحركة الجيش .

وقد سحب صدور القانون حملة اعتقالات السياسيين التي تمت في
اليوم السابق على تشكيل محمد نجيب لوزارته التي أصدرت القانون في
اليوم التالي لأدائها اليمين أمام مجلس الوصاية .

لم يكن لهذا القانون نظير في الدول الديمقراطية . . . وإن كان
فتحى رضوان قد صرح للصحف في معرض الدفاع عنه بأن له نظيراً في
العراق وألمانيا الغربية . . . وهما دولتان لم يكونا في ذلك الوقت نموذجاً
للميمقراطية لخضوعهما بعد الحرب العالمية الثانية لنفوذ الإمبريالية
العالمية الحريصة على عدم ظهور أحزاب معادية لها .

العسكريون يزحفون على الحكم ، والأحزاب يأخذها القانون على
غرة ، فيصيبها بالدوار وتعجز عن حسن التصرف أو اختيار الطريق . . .
وتنشط العناصر المفسامة والانتهازية في كل حزب ، وتبدأ الصراعات
الداخلية .

كانت الدعوة إلى التطهير فحاً وقعت فيه الأحزاب ، فظهرت التظلمات
الفردية أسوأ ما في شخصياتها القيادية .

وخلال هذه الفترة انهارت أسماء كثيرة كانت تلمع فى سماء الحياة السياسية قبل ثورة ٢٣ يوليو وبادر بعضها الى الاتصال برجال الجيش بصورة جعلت جمال عبد الناصر يعبر عنها فيما بعد فى كتاب (فلسفة الثورة) بقوله « كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر » .

التنافس يعلن على صفحات الجرائد بين ابراهيم عبد الهادى وحامد جودة لرئاسة حزب الهيئة السعدية . . . ثم ينشط سامح موسى شوكت التونى ويعلنان فصل الاثنين من الحزب السعدى .

والوفد أيضا يقع فى الفخ فيصدر قرارا بفصل عدد من أعضاء الهيئة الوفدية الذين أحاطت بهم الشبهات دون تحقيق وكان أبرزهم محمود عبد اللطيف الذى كان وزيرا للشئون الاجتماعية وكأنه يتجاوب بذلك مع دعوة التطهير .

ولكن صدور القانون وضع الأمور فى وضعها الصحيح . . . اعتبرت الأحزاب منحلة ، ولا يمكن لها العودة الى ساحة العمل السياسى الا من باب الجيش . . .

وكانت المعركة الرئيسية حول الوفد .

ولم يكن موقف الوفد حازما فى هذه القضية الدستورية . . . اذ صرح مصطفى النحاس بأنهم سيبعدون المعتقلين عن تنظيمات الوفد الجديد . . . وأرسل فؤاد سراج الدين من المعتقل استقالته من الوفد ومن مجلس الشيوخ قال فيها للنحاس « اننى أستقيل اخلاصا للوفد ولشخصكم » .

وتنفيذا لقانون الأحزاب أصدر الوفد برنامجا فى ٢١ سبتمبر ١٩٥٢ باعتباره « هيئة سياسية ديمقراطية اشتراكية لتحقيق الاستقلال والوحدة ورفض جميع صور الدفاع المشترك » ونص البرنامج على ما يأتى :

التمسك بعروبة فلسطين .

دعم مجموعة الدول الافريقية والآسيوية وتأييد سياستها فى الدفاع عن قضايا الحرية .

اقرار حد أدنى للأجور عموما ، وللعمال الزراعيين خصوصا .

صدور قانون معاقبة الوزراء .

صدور قانون التأمين الاجتماعى للعمال وتعميمه .

استصدار قانون تأمين صحى للعمال وأفراد أسرهم .

- تجديد القرية المصرية خلال عشرين عاما .
- حد أدنى للأجور (العامل الزراعى) .

الانتهاء من تعميم المياه الصالحة للشرب خلال خمس سنوات طبقا لمشروع وزارة الوفد الذى أقرته عام ١٩٥١ .

- جعل التعليم الدينى اجباريا .
- تحريم الخمر والميسر .

الموافقة على مشروع تحديد الملكية باعتباره يهدف للعدالة الاجتماعية .
ويقرب بين الطبقات .

يلاحظ ان البرنامج كان يضع خطوطا استراتيجية عريضة للسياسة الداخلية والخارجية تعتبر فى حينها ذات طبيعة متقدمة تتجاوب مع مشاعر الجماهير قبل الحركة وبعدها ولذا هاجمت بعض الصحف البريطانية الوفد واتهمت مصطفى النحاس بالتطرف .

ويلاحظ أيضا ان هذا هو أول برنامج مكتوب للوفد الذى كان يبنى سياسته على أساس بيانات مؤتمراته الوطنية التى عقدت سنوات ١٩٢٨ - ٣٥ - ٤٣ وعلى ما يرد فى خطب عيد الجهاد الوطنى « ١٤ نوفمبر » .

ورغم صدور هذا البرنامج الوطنى التقدمى للوفد فان سليمان حافظ أصر على ملاحقة مصطفى النحاس ومحاولة إبعاده عن موقعه وفى ذلك قال للدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية السابق وهو يحاول الاستفسار منه عن موقفه من الوفد ورئاسة مصطفى النحاس له « ان لدى الوزارة أسبابا خطيرة للاعتراض عليه أمام مجلس الدولة » .

وعندما شاع هذا الموقف المضاد لمصطفى النحاس بادر بإصدار البيان التالى :

« اننى أعد نفسى دائما ملكا للشعب وقد كانت ثقتى فى الشعب وثقته فى شخصى طوال حياتى السياسية عونى على الشدائد وظهيرى فى العيش ، وسأظل ما بقى من عمري ملكا لهذا الشعب الوفى ولن تستطيع قوة أن تنحىنى عن هذه المكانة بعد الله جلّت قدرته الا الشعب دون سواه والله ولى التوفيق » .

أصر أعضاء الوفد على الا يتكون الا برئاسة مصطفى النحاس ولعبت جريدة (المصرى) دورا بارزا فى الدفاع عنه وكتب أحمد أبو الفتح سلسلة مقالات طويلة دفاعية عن مصطفى النحاس معتبرا أن محاولة هدمه هى محاولة لتحطيم كفاح الشعب ضد الاستعمار .

ووصلت معارضة القانون الى الذروة عندما صدر البيان التالى يوم

١٧ سبتمبر .

« نظرا لما صح فى يقين الوفد المصرى من أن المقصود هو محاربة الوفد ومحاولة هدمه والتخلص منه قرر الوفد المصرى باجماع الآراء بجلسته المنعقدة يوم السبت ٢٧ سبتمبر ١٩٥٢ الا يقدم الى وزير الداخلية اخطارا باعادة تكوينه » .

توقيعات : مصطفى النحاس - عبد السلام فهمى جمعة - على زكى العربى - عبد الفتاح الطويل - أحمد حمزه - محمد محمد الوكيل .

وزراء سابقون : ابراهيم فرج - عبد المجيد عبد الحق - محمد صلاح الدين - عبد الجواد حسن .

كان هذا هو أقصى ما وصل اليه الوفد فى نضاله ضد قانون تنظيم الأحزاب . . . ولكنه موقف لم يستمر طويلا لعدة أسباب :

أولا : كان مصطفى النحاس قد تجاوز السبعين من عمره ولم يعد فى توهجه القديم وقدرته على النضال التى عرف بها يوم كان يجذب حكامار البوليس من فوق حصانه وينام على أرصفة المحطات .

ثانيا : أحاط بمصطفى النحاس بعض عناصر التوفيق التى افقدت الوفد الصلابه الضرورية . . . وكان من أكثرهم تأثيرا عليه فى هذه المرحلة عبد السلام فهمى جمعة والدكتور طه حسين .

ثالثا : تجرد الوفد وعدم وصول العناصر الشابه الى القيادة . . . وكان معظم أعضائه فى ذلك الوقت من الباشاوات الذين قد تجاوزوا الخامسة والستين وهم سيد بهنسى ومحمد المغازى وفهمى حنا وعبد السلام جمعه وعبد الفتاح الطويل وعلى زكى العربى وعثمان محرم ومحمد سليمان الوكيل وأحمد حمزة . . ولم يكن هناك أقل من هذه السن الا محمود سليمان غنام وفؤاد سراج الدين الذى كان فى هذه الفترة خلف قضبان السجون .

وقد شعر النحاس بهذه الحقيقة فور اعتقال فؤاد سراج الدين فضم الى الوفد محمد صلاح الدين وابراهيم فرج الذى عين سكرتيرا مؤقتا لحين الافراج عن سراج الدين الذى لم تقبل استقالته .

رابعا : عدم توافر الانضباط الحزبى الكامل فى صفوف الوفد الذى اعتاد منذ تكوينه على أن يضم الجماهير من مختلف الاتجاهات فى شكل جبهة ، وعندما يحرم من فرصة الاتصال العلنى مع الجماهير فإنه يعجز عن الاتصال بها وتحريكها بوسائله التنظيمية .

خامسة : الدعاية المركزة ضد الأحزاب عموماً والوفد خاصة والتي أسهمت فيها بقدر كبير صحافة أخبار اليوم ، مما جعل كثيراً من الناس تتطلع الى الحكم الجديد لينقذهم من المظالم التي عاشوا فيها .

كان رأى النحاس « ان الجيش يشبه (وابور الزلط) لا شيء يقف أمامه الا ما هو أقوى منه ... وهذه القوة هي قوة شعب مؤمن بالديمقراطية والدستور » .

وقد اهتم هذا الايمان كثيراً في عهد الملك من كثرة انتهاكات الدستور التي ارتكبها وأسهمت فيها أحزاب الأقلية والعناصر المستقلة من أمثال أحمد زيور واسماعيل صدقي وعلى ماهر ... ولذا افتقد الوفد القوة اللازمة لمجابهة تصرفات حركة الجيش .

وبدأت مرحلة التراجع ... واستدعى مصطفى النحاس رئيس تحرير المصرى أحمد أبو الفتوح وأملى عليه مقالا نشره يوم ٦ أكتوبر أبدى فيه حرصه على ضرورة وجود الوفد مهما كان الأمر يتعلق بشخصه ... وجمع أعضاء الوفد ليسلمهم أمانته .
وصدر بعد ذلك بيان يقول :

« رعاية لما أبداه الرئيس الجليل مصطفى النحاس وأصرّ عليه من أن الحالة أصبحت لا تمكنه من مباشرة أعباء الرئاسة الفعلية ومقتضياتها بعدما احتل الكثير فى سبيل الدفاع عن القضية الوطنية فى الثلاثين سنة الماضية فان الوفد المصرى اد ينزل مضطرا ازاء اصراره على رغبته واذ يقرر جعله رئيس شرف له مدى حياته الطويلة المباركة ان شاء الله يستلهم منه التوجيه ويشهد من اخلاصه اخلاصا ومن قوته ووطنيته وصلابته فى الحق سراجا منيرا ، ويقرر انه سيمضى فى مستقبل أيامه على نهجه الواضح وطريقه المستقيم وخطته القوية التى رسمها لتحرير الوادى معتبرا اياه ركنه الركين وحصنه الحصين ومرجعه فى الملهمات » .

توقيعات : عبد السلام فهمى جمعة - على زكى العرابى - عبد الفتاح الطويل - محمد محمد الوكيل - أحمد حمزة .

هز هذا البيان عواطف جانب كبير من الجماهير ، شعرت ان رجلا ارتبطت به مسيرتها سنوات طويلة كان مثالا للوطنية والنزاهة ، ينتزع منها رغم ارادتها فذهبت المظاهرات تطوف بمنزله وتهتف « لا وفد بدونك يا نحاس » .

وكتب أحمد أبو الفتوح فى المصرى يقول « الشعب الذى يحبك يقول - عاش النحاس زعيم الشعب » وأما أنا فأقول « لن يكون هناك وفد الا برئاسة مصطفى النحاس » .

ونشر النحاس بعد ذلك بيومين بياناً بمناسبة ذكرى إلغاء معاهدة ١٩٣٦ في ٨ أكتوبر قال فيه « جاءت حركة الجيش التحررية صورة حية رائدة لصحوة الشعب وقدرته على استبداد المستبدين وطفيان المستهترين العابثين فدارت عليهم الدوائر وباء عهدهم وتطلعت البلاد الى عهد جديد من العدالة المطلقة والحرية الشاملة » .

ولكن هذه الكلمات لم تجد صدى عند مجلس القيادة ، ولم يتحقق أى نوع من اللقاء الفكرى أو العاطفى بينهم وبين الوفد . . . رغم ان محمد نجيب كانت له صلات مع الوفد ، وجمال عبد الناصر كثيراً ما دافع عن مسلك الوفد فى وزارته الأخيرة ، ويوسف صديق وخالد محيى الدين كانا متعاطفين معه . . . الا أن اغراء السلطة وعدم وجود موانع قوية تحول دون الوصول اليها الى جانب الدور التخريبي الذى قام به سليمان حافظ لهدم الوفد ، والذى قاومه جمال عبد الناصر وبعض الزملاء فى مراحله الأولى مقاومة بدأت ملحوظة ثم أخذت تفتت أمام تراجع الوفد وعدم صلابته وعجزه عن تحريك جماهيره .

كل هذا حدد الموقف تماماً . . . وانتهى الأمر الى اعتراض وزير الداخلية يوم ٨ نوفمبر على رئاسة مصطفى النحاس الشرفية للوفد وكذلك اعترض على اسم عبد الفتاح الطويل كمؤسس .

وكان وزير الداخلية قد تلقى اخطارات تكوين ١٦ هيئة وحزبا (هيئة الوفد والايخوان المسلمين وأحزاب السعدى والأحرار الدستوريين والعمال - والعمال والفلاحين - والاشتراكي والوطني والفلاح الاشتراكي والكتلة الوفدية والديمقراطي وحزب الله وثلاثة أحزاب نسائية هي بنت النيل والنسائي والنسائي الوطني) .

واعترض سليمان حافظ الى جانب اعتراضه على مصطفى النحاس وعبد الفتاح الطويل على الدسوقي أباطة فى حزب الأحرار الدستوريين كما اعترض على كل من الحزب الديموقراطى والحزب الجمهورى لأنهما كانا يناديان بتطبيق النظام الجمهورى .

عرضت هذه الاعتراضات على مجلس الدولة فى نهاية شهر نوفمبر ١٩٥٢ واتخذ بعضها شكل مظاهرة داخل المحكمة عندما احتشد ٥٠ محاميا من الاسكندرية يترافعون عن عبد الفتاح الطويل .

وضح من طبيعة اعتراضات وزير الداخلية سليمان حافظ الممثل لسلطة الجيش انها قامت على أسس شخصية أو على أساس خروجها على النظام الملكى .

لم تفرق حركة الجيش بين طبيعة الأحزاب ... ولم تعترض على الواقع الطبقي لبعضها ، أو على انتماء بعض قادتها للطبقة الاقطاعية المضروبة .

ولم تفرق أيضا بين الدور الوطني والنضالي الذي قامت به الأحزاب لمقاومة الاستعمار والاحتلال البريطاني .

وكذلك لم تفرق بين الأحزاب التي تبادلت الحكم في عهد الملك ... والأحزاب الناشئة التي كانت قيادتها من أبناء البرجوازية الصغيرة أساسا والتي قامت بدور المعارضة العنيفة لنظام ما قبل ٢٣ يوليو .

سرت الاعتراضات بين كافة الأحزاب ... وجعلت الأحزاب المناضلة ضد الاستعمار تقف مع الأحزاب المتهاونة في صف واحد ... ولم تفرق بين اتجاهات الأحزاب الرجعية والتقدمية وتمثيلها الطبقي .

الفضيلة الوحيدة لقانون تنظيم الأحزاب كانت البرامج المكتوبة والمعلنة لهذه الأحزاب والتي عبرت عن طبيعة دورها في المجتمع فالحزب السعدي مثلاً نادى في برنامجه بالعمل على « تحويل رؤوس الأموال المصرية الراكدة الى ميدان الاستغلال الصناعي والتجاري والاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية في حدود تتفق مع مصالح البلاد » ... وهكذا وجدت الجماهير الفرصة سانحة أمامها لاختيار الحزب الذي يعبر برنامجه عن أهدافها .

واتخذت حركة الجيش أسلوبا لم يكن يتناسب مع خطواتها الزاحفة نحو مركز السلطة ... إذ لم تعلن عن تنظيمات حزبية لها ونفى محمد نجيب رغبة الجيش في ذلك .

ولذا كانت المنافسة على أسس حزبية أمرا غير مضمون العاقبة إذا كانت الرغبة هي استمرار الحركة في مسارها ... ذلك ان الضباط الأحرار كانوا ما زالوا أفرادا غير معروفين ... ومجلس القيادة لم يعلن تشكيكه أو تاريخ حياة أعضائه وليس لأحدهم ماض يجعل الجماهير تلتف حوله ومحمد نجيب رغم شجاعته وشخصيته الجذابة البسيطة لا يعيش في ضمير الشعب المصري قائدا عظيما مثل نابليون أو بيتان أو دينجول ... فهو في النهاية قائد غير منتصر في حرب فلسطين ، لا يملك أمجادا حربية أو وطنية .

وبدأ الأمر يتضح يوما بعد يوم ... طريق الديمقراطية الليبرالية لا يمكن أن تسلكه حركة جيش لأنها لا تضمن الانتصار أو الاستمرار فيه .

وأخذ سليمان حافظ يصدر تشريعات تمهد للحركة سلطة مطلقة ،
اذ أعطى حق اقالة الموظفين عن غير الطريق التأديبي وحرمان القضاة
والمعزولين من معاشهم أو مكافآتهم . واحدة جرائم الاصلاح الزراعى
للمحاكمة العسكرية ، مع رفع عقوبة الاشاعات .

وكانت الحركة قد بدأت ممارسة تطبيق شعار (التطهير) عن طريق
تكوين لجان شكلت بمقتضى قوانين خاصة من نوعين . . . أولهما ادارى
ذو صيغة قضائية على رأسها قاض وفى عضويتها أحد رجال النيابة
العامة لفحص حالات موظفى الدولة وفصل من يستاهل الفصل منهم . . .
أما الثانية فكانت لجانا قضائية يرأسها مستشار وعضوية اثنين من
كبر رجال القضاء فى الأعمال الحكومية واحالة المسئولين عنها الى المحاكم
الجنائية أو الادارية حسب الأحوال .

وآثار سليمان حافظ مشكلة ان اللجان الاولى تمضى بسهولة فى
عملها أما اللجان الثانية فكانت تصطدم بأن كثيرا من الوزراء السابقين
كانت تقع عليهم المسئولية الجنائية أو السياسية . . . وهؤلاء لا يمكن
الوصول اليهم لأن الدستور يحميهم من القضاء العادى وجعل لهم محكمة
خاصة لا ترفع أمامها الدعوى الا بقرار من مجلس النواب .

وهكذا كان التطهير يصل الى صغار الموظفين بينما يعجز عن الوصول
الى الوزراء .

ولم يجد سليمان حافظ حلا الا فى الغاء الدستور الذى يستند اليه
هؤلاء فى تهربهم من المحاكمة ووافق ذلك ظهور عدة مقالات فى الصحف
تهاجم دستور ١٩٢٣ ، والقى على ماهر محضرة يوم ١٤ نوفمبر قال فيها
انه يرجو « ان نواجه حياتنا السياسية بدستور يتجنب تخلف دستور
١٩٢٣ عن مسيرة الديمقراطية الحرة فى تطورها » .

ويقول محمد نجيب ان بعض أعضاء المجلس قد قاوموا هذا الاتجاه
ولكن مقاومتهم ضعفت أمام الحاح سليمان حافظ وشهوته الجامحة فى
الوصول الى محاكمة بعض الوزراء ، وتوافق نغم هذا الطلب مع رغبة بعض
أعضاء المجلس الذين كانوا يهدفون الى تولى السلطة وحدهم .

ويقول سليمان حافظ فى مذكراته « وانعكس صدى الضجة العنيفة
التي أثارها الوفد على مجلس القيسادة فقام خلاف شديد بينى وبين
جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويوسف صديق أصرت فيه
على تنفيذ قانون الأحزاب تنفيذا تعدل فيه الصرامة النصفة ، وصممت
أذننى عن سماع أى كلام آخر فى هذا الموضوع ، ومن الحق ان أذكر ان
محمد نجيب وجمال سالم وصالح سالم وكذلك أنور السادات - ان لم
تخنى ذاكرتى - كانوا فى هذا الخلاف من جانبى » .

قال جمال عبد الناصر لأحمد فؤاد فى هذه الفترة وهو يحدثه عن أهمية الديمقراطية « يظهر ان احنا لازم نعمل انقلاب تانى علشان الديمقراطية » .

ثم يقول سليمان حافظ ان محمد نجيب وجمال عبد الناصر قد قاما بزيارة مصطفى النحاس زيارة مجاملة أيام اشتداد المعركة « بينى وبين الأحزاب عامة والوفد بصفة خاصة » ثم « حاول نجيب ان يبرر لى هذا التصرف بقوله ان هذه الزيارة لم تكن الا محاولة لكسر محور تالف بين الوفد والشيوعية فلم اقتنع بهذا العذر » .

هكذا كان سليمان حافظ بما ورد على لسانه محركا عنيفا ضد الأحزاب والدستور .

وأخذ الحديث عن الدستور والديموقراطية يخفت ويتلاشى .. وصدرت التعليمات بنزع لافتة كنت قد أصدرتها مع مجلة التحرير بريشة الفنان حسن فؤاد ولصقت على جدران المباني فى أنحاء مصر ... وهى تمثل جنديا خلفه قبة البرلمان وتحتها عبارة (نحن نحمل الدستور) ... وكانت جريدة المصرى قد نشرتها فى صفحتها الأولى يوم ١٤ سبتمبر ولكنها نزعَت فى منتصف نوفمبر .

ونزع الدستور نفسه فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ .

سقط دستور ١٩٢٣ للمرة الأخيرة بعد ان عطل من أول نوفمبر ١٩٢٤ حتى عام ١٩٢٦ ثم فى يونيو ١٩٢٨ على يد وزارة (اليد الحديدية) التى رأسها محمد محمود حتى أواخر ١٩٢٩ عندما تكونت وزارة عدلى يكن المحايدة لاجراء انتخابات جديدة ... وأخيرا الغى عام ١٩٣٠ واستبدل بدستور اسماعيل صدقى حتى عاد بنضال الشعب وتضحياته عام ١٩٣٥ ، باقـلة الحكومة الوفدية بعد ذلك وفرض أحزاب الأقلية أكثر من مرة .

سقط دستور ١٩٢٣ الذى كان رغم ما فيه من صلاحيات للملك تعطل أثره الا انه كان ضمانا وركيزة لحرية الجماهير السياسية ... سقط الدستور ببيان أعلنه محمد نجيب فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يقول فيه « أصبح لزاما أن نغير الأوضاع التى كادت تودى بالبلاد والتى كان يسندها ذلك الدستور الملىء بالثغرات » ... ثم قال « وهأنذا أعلن باسم الشعب سقوط الدستور . دستور ١٩٢٣ » ... وأعلن البيان أن الحكومة هى التى تتولى السلطات فى فترة الانتقال .

هكذا سقط دستور ١٩٢٣ الذى كان مليئا بالثغرات فعلا ، ومع ذلك لم يحتمل النظام الملكى تطبيقه فعصف به أكثر من مرة .

وكان الدستور في خدمة الطبقة الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة أساسا اذ اشترطت المادة ٧٨ منه أن يدفع المرشح للبرلمان تأميناً قدره ١٥٠ جنيهاً وهو مبلغ في ذلك الوقت لا يسهل حصول البرجوازية الصغيرة أو الطبقة العاملة والفلاحين عليه كما أنه أسبغ حقوقاً وامتيازات واسعة للملكية مثل حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده ، واشترط في أعضاء مجلس الشيوخ أن يكونوا من طبقة في مستوى كبار الموظفين أو الملاك الذين يؤدون ضريبة لا تقل عن مائة وخمسين جنيهاً في العام ، ومن لا يقل دخلهم السنوي عن ألف وخمسمائة جنيه من المشتغلين بالأعمال المالية أو التجارية أو الصناعية أو المهن الحرة .

كان وضخاً تماماً ان دستور ١٩٢٣ لم يعد يتناسب مع الطبقة المتوسطة التي وثبتت إلى السلطة ولم يكن منطقياً أن تترك دستورا يحرمها من فرصة تأكيد وجودها وتحقيق أهدافها .

الغى دستور ١٩٢٣ وكان طبيعياً ان تسقط من بعده أشياء كثيرة ترثت على وجوده فتقرر تأجيل الانتخابات التي كانت الحركة قد قررت موعدها في شهر فبراير في بيانها المعروف وصرح جمال عبد الناصر لأحمد أبو الفتوح يوم ٩ فبراير بأن تأجيل الانتخابات عن الموعد المحدد لها إنما هو - لاجلاء الانجليز .

ولم تخدم أصوات الاحتجاج على قانون تنظيم الأحزاب حتى بعد إلغاء الدستور فظل أحمد أبو الفتوح يهاجمه على صفحات المصري في مقالات عديدة واحتشد الطلبة في الجامعة حيث فاز مرشح الجبهة المتحدة أي جبهة الأحزاب والقوى السياسية الوطنية والتقدمية (أحمد الخطيب) على مرشح الإخوان المسلمين (حسن دوح) وكان هذا تعبيراً عن معارضة الشباب للخطوات الزاحفة لمحاصرة الديمقراطية .

وتزافع في قضية الوفد أمام مجلس الدولة الدكتور وحيد رافت وإبراهيم فرج ومحمود سليمان غنام وأحمد عبد الهادي وكانوا قد أعدوا مذكرة بعدم دستورية قانون تنظيم الأحزاب ومناقضاته للديمقراطية وتأجيل نظر القضية .

وكان مجلس الدولة حتى هذه اللحظة يعتبر سبباً للحريات والديمقراطية فقد رفع ٢٥ من المعتقلين السياسيين قضية أمام مجلس الدولة لبطالان قرار الاعتقال ، وكان الرد هو حبسهم أفرادياً وعدم السماح لهم بالأكل من الخارج .

وتحت هذا الضغط تنازل الكثيرون وأصر على الاستمرار في القضية فؤاد زبراج الدين ومحمود سليمان غنام وحامد نجودة وعدد محدود من السياسيين .

وفوجئ سراج الدين بدخول الصحفي مصطفى أمين الى غرفته
بالمعتقل حاملا رسالة من أعضاء مجلس القيادة تقول انهم على استعداد
للافراج عنه اذا تنازل عن القضية . . . ولكن فؤاد سراج الدين رفض
فكرة التنازل قائلا انهم اذا أفرجوا عنه سقطت القضية تلقائيا وانه لا يساوم
على حريته .

وكان غريبا ان يتحول مصطفى أمين الى مندوب لرجال القيادة وهو
الذي اعتقل في الأيام الأولى للحركة . . . وبقي فؤاد سراج الدين في
المعتقل حتى أفرج عنه قبل الجلسة أمام مجلس الدولة بلبلة واحدة .

ويظهر هذا أن مجلس الدولة كان يمثل مركز مقاومة يلجأ اليه كل
من يقع عليه الظلم .

وتشكلت في ١٣ يناير ١٩٥٣ لجنة لوضع مشروع دستور جديد
(يتفق وأهداف الثورة) من خمسين عضوا ، تولى رئاستها على ماهر ،
وضمنت ثلاثة من أعضاء لجنة دستور ١٩٢٣ وهم على ماهر ومحمد علي
عليه وعلي المنزلاوي وأربعة من الوفديين واثنين من السعديين واثنين من
الدستوريين واثنين من الكتلة وثلاثة من الحزب الوطني وثلاثة من الحزب
الوطني الجديد وثلاثة من رؤساء القضاة (رئيس محكمة النقض ورئيس
مجلس الدولة ورئيس المحكمة العليا الشرعية) . وثلاثة من رجال الجيش
والبوليس والمتقاعدين والباقي من المستقلين .

الأغلبية كانت من حملة وتب الباشوية والبكوية الملغاة ، أصحاب
الاسماء القديمة المعروفة ، أبناء البرجوازية الكبيرة ، ورئيسها كان أحد
الذين أسهموا في امتهان دستور ١٩٢٣ وتغليب سلطة الملك على ارادة
الشعب بما هو معروف في تاريخه السابق .

وما كادت تداع أسماء أعضاء لجنة الدستور ، حتى أذيع بعدها
إبارة أيام يوم ١٧ يناير ١٩٥٣ بعد منتصف الليل بيان من القائد العام
للقوات المسلحة يعلن فيه « حل جميع الأحزاب السياسية ومصادرة جميع
أموالها لصالح الشعب بدلا من أن تنفق في بذر بذور الفتنة والشقاق » . . .
وأعلن فيه أيضا قيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات « حتى نتمكن من
اقامة حكم ديموقراطي دستوري سليم » وكشفت الحركة عن أنيابها وقالت
في نفس البيان « ومنذ اليوم لن أسمح بأي عبث أو أضرار بمصالح
الوطن وسأضرب بمنتهى الشدة على كل من يقف في طريق أهدافنا التي
صنعتها ألامم الطويلة » .

وهكذا وصنل الصدام غايته ، والهي الدستور ١٩٢٣ ، وحلت
الأحزاب السياسية ، ولم يعد في طريق حركة الضباط الأحرار تنظيمات

سياسية قانونية ، بعد ان تضمن مرسوم حل الأحزاب نصا يقضى بانهاء قانون تنظيم الأحزاب وسقوط الفضايا المعروضة أمام مجلس الدولة .

وفي ١٨ يناير صدر مرسوم بقانون بحماية التدابير التي يتخذها القائد العام للقوات المسلحة (رئيس حركة الجيش) يقصد حماية الحركة والنظام القائم عليها باعتبارها من أعمال السيادة وذلك لمدة سنة من ذلك التاريخ بعد ان كانت المدة ستة شهور طبقا لمرسوم صدر في ١٣ نوفمبر ١٩٥٢ .

كانت هذه الاجراءات وما صاحبها من اعتقالات جديدة (٤٨ شيوعيا ١٤٤ حزبيا ، ٣٩ متصلا بجهات أجنبية) هي رد الفعل لما حدث من مظاهرات الطلبة المعادية ... ونشاط بقايا الأحزاب وجماهيرها من أجل البقاء ... وبدء التناقضات في صفوف الجيش ومجلس القيادة كما سيأتي تفصيلا فيما بعد .

كانت فترة منتصف يناير ١٩٥٣ مليئة بالأحداث والصدمات التي حددت موقف الحركة من قضية الأحزاب والسلطة ... وجعلت مجلس القيادة يعلن عن نفسه لأول مرة تحت اسم (مجلس قيادة الثورة) .

أثبتت الأحداث أن حركة الضباط الأحرار لم تجنح إلى التعاون مع الأحزاب أو محاولة احتوائها وإنما أخذت تحاصرها بإجراءات متتالية لأنها وجدت فيها عنصرا منوئا لها في النفوذ والسلطة ... وقد كان التصادم شديدا مع أقواها تأثيرا في الجماهير . وأشدّها تمسكا بالديمقراطية . وأكثرها خطرا عليها وهو الوفد .

واحتفظت الحركة حتى صدور قانون حل الأحزاب بعلاقات طيبة مع الإخوان المسلمين الذين لم تكن تهمهم كثيرا قضية الأحزاب والديمقراطية بقدر ما كانوا يخططون لورثة الحركة أو احتوائها .

كان تركيز السلطة في يد (مجلس قيادة الثورة) اعلانا عن قيام نظام يستند إلى الديكتاتورية العسكرية ، ولا يجيد التخفي في ثياب الديمقراطية .

صرح صلاح سالم لجريدة المصري بعد ذلك بقوله « قبل ان تعود الحياة البرلمانية يجب ان نستأصل جميع أسباب الفساد من الأمة ، ... وكان استئصال الفساد يمكن ان يتم بعملية جراحية مثل استئصال اللوزة أو المرارة !

طبيعة الأمور فى هذه المرحلة أدت الى هذه النتيجة للعوامل الآتية :

أولاً : خروج الجيش عن نطاق واجباته المحددة المعروفة وظهوره فى مظهر قوة سياسية منظمة لها أهداف تخرج عن اطار القوات المسلحة ، أمر يصعب التراجع عنه دون ضغط ظروف شديدة .

ثانياً - القوى السياسية التى جابهت حركة الجيش كانت اضعف من وقف مسيرتها نحو السلطة لاحقاد أحزاب الاقلية على الطبقة الاقطاعية التى وجهت لها ضربة شديدة ، ولأن قيادة الوفد كانت غير قادرة على تحريك الجماهير فى اتجاه ديمقراطى سليم .

ثالثاً - كسبت الحركة العسكرية تأييد جانب كبير من الجماهير بما أقدمت عليه من عزل الملك واصدار قانون الاصلاح الزراعى وتخفيض ايجار الأرض الزراعية والغاء الرتب المدنية ، وغير ذلك من القوانين التى تجاوبت مع مشاعر الشعب .

رابعاً - الاعتقالات التى اقترنت بتشكيل وزارة محمد نجيب وصندوق قانون حل الأحزاب السياسية ، وبعثت نوعاً من الفزع والتردد بين القيادات السياسية القائمة وجنحت بمعظمها الى الصمت والسلبية .

هذه العوامل فى مجموعها أدت الى انهاء طبيعة النظام القديم ، وتولية الجيش أو (مجلس قيادة الثورة) شئون السلطة . . . ولا يستقيم القول بأن النية كانت مبيتة منذ اللحظة الأولى على اقامة الديكتاتورية العسكرية . . . فان نقص التخطيط والظروف المواتية هى التى مهدت الطريق كما انه لا يصح القول أيضاً بأن حركة الجيش كانت حريصة على الديمقراطية فانه رغم بعض الأصوات التى دافعت عنها داخل المجلس وفى صفوف الجيش الا أن اغراء السلطة وضعف المقاومة كان حرياً بأن ينتهى الى هذه النتيجة .

اوضحنا ان حركة الجيش منذ لحظتها الأولى فى ليلة ٢٣ يوليو لم تكن تتحرك بخطة واحدة معلومة ، أو استراتيجية متكاملة بطريقة تكتيكية ماهرة ، يصعب معها التنبؤ - فى لحظتها - عن الاتجاه الاستراتيجى لها . . . فانه من اصرار على اذاعة بيان بموعد الانتخابات فى فبراير ضد بيان على ماهر الى تراجع كامل عن الانتخابات وتأجيلها لاجل غير مسمى . . . ومن حرص على اعلان التمسك بالدستور الى الغاء الدستور نفسه . . . ومن بيان يظهر قبول مبدأ وجود الأحزاب الى مرسوم يحل الأحزاب وينهى دورها نهائياً . . . ومن حديث عن ضمان الحريات الى اعتقالات للمسياسيين من اتجاهات مختلفة ثم افرج واعادة اعتقال تبعاً للموقف .

انتهت هذه المواقف التكتيكية الى السفور عن سلطة الجيش
وعادت الرقابة على الصحف وفتحت المعتقلات .

وقام محمد نجيب واعضاء مجلس القيادة بجولة فى الاقاليم ، استقبلوا فيها استقبالا حارا ، وتدافعت الجماهير والفلاحون ترحب بهم . . . وكان فى هذه المظاهرة ما يدفعهم الى التصور بأن ارادة الشعب قد تجسدت فيهم ، وان هذا هو التعبير الديموقراطى الاصيل عن رأى الجماهير .

ولم يتجاوز هذا التصور حدود ولا يتهم على الناس . . . فلم يفكروا فى اشراك الشعب فى مسئولية الحكم وانما قرروا أن ينفردوا وحدهم بهذه المسئولية معتمدين على مظاهر التأييد المحيطة بهم فقط . . . دون سعى الى خلق نظام يكفل المشاركة والرقابة الشعبية واستمرار الروح الثورية .

واعتمد مجلس قيادة الثورة انه قادر على ملء الفراغ السياسى الناتج عن حل الأحزاب ووقف نشاطها بتكوين (هيئة التحرير) التى أعلن تكوينها يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ بمناسبة مرور ستة شهور على الحركة وسط مهرجانات صاخبة حافلة ، وافتتح مقرها فى ثكنات الحرس الملكى (سابقا) بميدان عابدين يوم ٦ فبراير .

أعلن محمد نجيب ميلاد الهيئة بعد أن هاجم الأحزاب هجوما عنيفا مفيدا أنها وراء كل تأخر وتناز وفرقة ، وأقسم خلفه الحاضرون قسما يقول « اللهم انك تحب الأقوياء . . وتكره المستضعفين . . وتنشر رحمتك على الذين يؤثرون الموت العزيز فى سبيل الحرية . . على الحياة الذليلة . . فى مجال الاستعباد اللهم وانك القريب . . ترى وتسمع وانا لنقسم بذاتك العلية . . على أن نعمل ما وسعنا العمل لارساء قواعد الحياة المقبلة لوطننا المصرى على اصول محررة من العبودية منزهة عن الهوى . موصولة بالحق والعدل ، وأن نبذل فى سبيل ذلك ما تقتضيه مصلحة أمتنا وبيتغيه شرف بلادنا ، وأن يكون شعارنا دائما الاتحاد والنظام والعمل . . اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين » .

هذا القسم الانشائى المجرد كان وجده صلة الجماهير بهيئة التحرير عند مولدها فى وقت ضمت جذران السجنون فيه قادة الأحزاب السياسية والتنظيمات الشيوعية . . . ولم يكن مطلق السراح سوى الاخوان المسلمين ، تماما كما كانوا فى فترة حكم نجيب الهملالى بعد حريق القاهرة .

وقام بالاشراف على هيئة التحرير ابراهيم الطحاوى وأحمد عبد الله طعيمة وهما ضابطان بعينان عن لغتوك العمل السياسى .

كان التصور أن تملأ هيئة التحرير الفراغ السياسى فى مصر ، ولكنها لم تستطع ان تظم الى صفوفها أحداً من الذين مارسوا العمل السياسى من قبل عدا قلة محدودة. . . . كما ان قبضة الجيش فيها كانت واضحة ، وتبين انه على قدر ما هزت حركة الجيش قواعد النظام المنهار على قدر ما وقفت حائلا دون اندفاع الطبقات العاملة نحو أحداث تغييرات جذرية أو ديموقراطية فى المجتمع .

وأثبتت حركة الجيش بذلك انها نبتت فعلا من الطبقة الوسطى (البرجوازية الصغيرة) وانهما عملت على خدمة طبقتها وترسيخ قواعدها .
وبقدر ما استغلت الطبقة الاقطاعية الطبقة الوسطى فى خدمتها
بقدر ما بدأت الطبقة الوسطى تستغل مظاهر التأييد من الطبقة العاملة والفلاحين فى تثبيت أقدامها .

لم يكن هناك شك فى ان مصر قد أصبحت تحكم بعد منتصف يناير بمجموعة عسكرية صرفة دون ان يجروا أحدا على اطلاق لفظ (الديكتاتورية) عليها فقد اعيدت الرقابة على الصحف وفتحت المعتقلات وتعددت عمليات الفصل بلا محاكمة .

ويذكر ان الزعيم الأمريكى المضلل فى بداية الثلاثينيات من هذا القرن (هيولونج) قال عندما سئل من الصحفيين اذا كان يعتقد أن الفاشية يمكن ان تصل الى الولايات المتحدة فأجاب قائلا : « بالتأكيد ولكننا سنطلق عليها لفظ (المضاد للفاشية) » .

وقال جمال عبد الناصر بعد ذلك فى الميثاق عام ١٩٦٢ « ان سيادة الاقطاع المتحالف مع رأس المال المستغل على اقتصاديات الوطن كانت لابد ان تمكن لهما طبيعيا وحتميا من السيطرة على العمل السياسى فيه »
« ان الديموقراطية على هذا الأساس لم تكن الا ديكتاتورية الرجعية
ان فقدان الحرية الاجتماعية لجمهور الشعب سلب كل قيمة لشكل الحرية السياسية التى كانت قد تفضلت بها عليها الرجعية المتحكمة حتى لقد صدر دستور ١٩٢٣ منحة من الملك منه وتفضلا » .

ولكن حركة الجيش فى هذه (المرحلة الزمنية) لم تلغ نهائيا (ديكتاتورية الرجعية) لتقيم بدلا منها (الديموقراطية الشعبية)
وانما استبدلتها (بالديكتاتورية العسكرية) الممثلة لمصالح الطبقة الوسطى .

وهكذا تكون عادة طبيعة الانقلابات العسكرية فأيوب خان فى باكستان اطلق على نظام حكمه (الديموقراطية الأساسية) وخطب فى القاهرة

بعد ذلك أثناء زيارته لها قائلا : « الشرط الأساسي للتقدم هو الاستقرار السياسي . ونحن مثلكم استعرنا النظام الغربى ولكنه لم يمش عندنا » .

والواقع أن حركة الضباط الأحرار فى مصر لم تدخل تجربة الانتخابات البرلمانية ، ولم تواصل أسلوب الحياة السياسية قبل الثورة فهى لم تشأ أن تدخل فى منافسة انتخابية وهى لا تملك مقدرات النجاح .

لم تفعل الحركة مثلما فعلت الثورة الفرنسية بعد الغاء الاقطاع ووضع دستور جديد ، حيث اجريت الانتخابات بعده ذلك مباشرة رغم انه كان قد مر على فرنسا ١٧٥ عاما دون برلمان .

وفى ١٠ فبراير ١٩٥٣ صدر دستور مؤقت حكمت به مصر خلال فترة الانتقال صدر من سبع مواد مبادئ عامة وأربع مواد للسيادة العليا فقط وهو يقضى بأن تكون أعمال السيادة العليا لمجلس قيادة الثورة الذى يكون له حق التعيين وعزل الوزراء على أن يتولى مجلس الوزراء السلطة التشريعية والتنفيذية معا ، وأن يتألف من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء مؤتمر ينظر فى السياسة العامة للدولة وما يتصل بها من موضوعات ويناقش ما يرى مناقشته من تصرفات كل وزير فى وزارته .

وفى اليوم التالى مباشرة احتفلت الحركة بتشجيع رفات مصطفى كامل الى قبره الجديد فى القلعة فى ذكرى وفاته الخامسة والأربعين حيث توفى فى ١١ فبراير ١٩٠٨ .

وفى اليوم التالى أيضا ١٢ فبراير ذهب محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادى وأنور السادات الى ضريح حسن البنا فى الذكرى الرابعة لوفاته .

ثم توجه محمد نجيب بعد ذلك لزيارة ضريح سعد زغلول حيث قرأ الفاتحة عليه .

تمت هذه الزيارات بقصد اشعار الجماهير ان حركة الجيش لاتعادى زعماء الأحزاب المنتمين لها وإنما تعادى تصرفات خلفائهم من بعدهم

ورغم قرار حل الأحزاب فإن اليأس لم يبدد أمل الجماهير ، أو يدفعها الى الصمت والسكوت الكامل تركزت الأنظار على لجنة الخمسين لاعداد الدستور التى كان يرأسها على ماهر ، لعلها تنتهى من دستور يعيد الأمل فى قيام حياة برلمانية ، للنظام القديم ولكن اللجنة ظلت تعمل فى ببطء شديد دفع أحمد أبو الفتوح الى مهاجمة على ماهر فى جريدة المصرى بمقال تحت عنوان : « الدستور يارئيس اللجنة) يطالب فيه بتحديد موعده لانتهاء العمل » بدلا من الانتظار سنوات والتشاؤم فى الاجتماعات .

ويطالب أيضا بأن يكون هناك (أسبوع للدستور) تشبها بموضة كانت قد ظهرت للاحتفال بأسابيع مختلفة مثل أسبوع الأمن وأسبوع النظافة وأسبوع الدواجن وأسبوع مشوهى الحرب ٠٠٠ الخ .

وكانت جريدة المصرى تلعب دورا بارزا فى الدفاع عن الدستور والديموقراطية ٠٠٠ وحدث شجار بين أحمد أبو الفتوح الذى كتب بعد ذلك مقالا بعنوان (نعم ٠٠٠ الدستور) ، ورد عليه صلاح سالم فى نفس العدد بعد أن عطل نشر مقالته حتى يرد عليه بمقال آخر عنوانه (الشاكون والمتباكون) ٠٠٠ واعتكف بعدها أحمد أبو الفتوح عن الكتابة وسافر إلى الاسكندرية .

وبدأت محكمة الغدر عملها يوم ٢٥ مايو ١٩٥٣ ووجهت اتهاماتها الأولى إلى كريم ثابت وعثمان محرم والدكتور أحمد النقيب ومحمد حسن واسرة الوكيل وأحمد شعير ٠٠٠ ومنهم وزراء ما كانت يد القانون لتصل اليهم الا بعد الغاء الدستور .

وكان اسم مصطفى النحاس قد اختفى نهائيا قبل ذلك بثلاثة أيام من صفحات الجرائد الوفدية التى اعتادت أن تنشر مقابلاته وتحركاته .

وفجأة أعلنت الصحف ان اللجنة الحماسية المنبثقة عن لجنة الدستور والمشكلة من الدكتور عبد الرازق السنهورى ومكرم عبيد وعبد الرحمن الرافعى والسيد صبرى وعثمان خليل عثمان لبحث نظام الحكم قد استقر رأيها بالاجماع على أن يكون نظام الحكم جمهوريا على أن يتقرر ذلك عن طريق استفتاء شعبى .

وفى يوم ١٧ يونيو ١٩٥٣ أدلى جمال عبد الناصر بحديث الى جريدة الأهرام قال فيه « أن الجمهورية آتية لا ريب فيها » وأكد « أن اصلح نظام حزبى يجب ان يقوم فى مصر الحديثة هو النظام الذى يقوم على أساس ديمقراطى صحيح » كما تساءل « لماذا نفكر فى قيام حزب واحد أو فى قيام الحكم المطلق ، وقد تحولت الدول التى طبقتة الى تطبيق النظام الديموقراطى الصحيح وتعدد الأحزاب ٠٠ ولم لا نفسح المجال أمام كل مبدأ تعتنقه جماعة صالحة ويستهدف خدمة الوطن فى أن يعيش ويعمل فى حرية لخدمة المجموع » .

وفى نفس الحديث قال جمال عبد الناصر « ان هيئة التحرير ليست حزبا سياسيا ولم تنشأ لتكوين حزب سياسى يجر المغام على الاعضاء أو يستهدف شهوة الحكم والسلطان أما السبب فى تأسيسها فيرجع الى الرغبة فى ايجاد أداة لتنظيم قوى الشعب » .

وفي اليوم التالي مباشرة ألغى النظام الملكي في مصر وخلع الملك أحمد
فؤاد الثاني وانتهى حكم أسرة محمد علي بعد مائة وخمسين عاماً تقريباً
وأعلنت الجمهورية يوم ١٨ يونيو ١٩٥٣ وكان محمد نجيب أول رئيس
لجمهورية مصر .

كانت ظواهر الأمور تدل على أن الساحة قد خلت فعلاً للجيش
وسلطته ممثلاً في (مجلس قيادة الثورة) وخاصة بعد إعلان الجمهورية
واشتراك بعض أعضاء المجلس في الوزارة ، واختفاء صوت الأحزاب ،
وتشتت تنظيماتهم ، ومصادرة نشاطهم ولكن واقع الأمر كان غير ذلك
فإن الصدام مع الأحزاب أو جماهيرها لم يكن قد وصل غايته وسلطة
(مجلس قيادة الثورة) لم تعد وحدها المسيطرة على كل شيء .

كانت عوامل الصدام مازالت قائمة ، تمتد وتنحسر ، وتنشط وتحمل
ولكنها كانت دائماً تترقب الفرص المواتية .

لم يكن الصدام مع الأحزاب والغاء الديمقراطية أمراً سهلاً لانتهاء
منه في معركة واحدة ، أو بقرار مكتوب ، مثلما حدث في معركة الإصلاح
الزراعي ، لأنه كان في إبعاده تنازعا على السلطة ليس بين الطبقة الاقطاعية
المضروبة ، وبين الطبقة الوسطى النامية وإنما كان نزاعاً في حدود
الطبقة الواحدة والخلاف كان على الأسلوب .

لم ينته الصدام بإعلان إلغاء الدستور أو حل الأحزاب ، أو إعلان
الجمهورية ، أو تشكيل هيئة التحرير ولكنه اتخذ أشكالاً أخرى
مغايرة .

وكانت الأخبار والشائعات التي تملأ المجتمع هي المظهر الذي يشير
أعصاب مجلس القيادة ويؤرق ليلهم ويمنحهم المبرر في نفس الوقت
لاتخاذ اجراءات أشبه قسوة

« ظهرت على صفحات الصحف مثل هذه النداءات في براويز خاصة ،
« الشائعات الكاذبة المغرضة آفة خلقية لها ما للآفات الجسيمانية من
نتائج اذ تنتشر شيئاً فشيئاً فتصيب بالعدوى كافة أعضاء المجتمع » .
من واجب كل مواطن ان يجارب الاشاعات واجره في ذلك اجر المجاهد
في سبيل الله » .

ولكن يبدو أن أحداً لم يستجيب لهذه النداءات ، فقد قال جمال عبد
الناصر في تصريح له « من سوء الحظ أو حسن الحظ أن ثورتنا كانت ثورة

بيضاء » وقال صلاح سالم « اننا مستعدون ان نرى أصحاب هذه الرؤوس
السماء تسيل انهارا » .

وجاء قرار تشكيل محكمة الثورة في منتصف سبتمبر ١٩٥٣ بخطاب
القاه محمد نجيب في مؤتمر شعبي بنيدان الجمهورية بمثابة رد فعل حاد
لاضطراب المجتمع ، وقد تشكلت المحكمة برئاسة قائد الجناح عبد اللطيف
البغدادى وعضوية البكباشى أنور السادات وقائد الأسراب حسن ابراهيم .

وصحب اعلان التشكيل حملة اعتقالات شملت ابراهيم عبد الهادى
وشقيقه اسماعيل المليجى وابراهيم فرج ومحمود سليمان غنام والنبيل
السابق عباس حليم والدكتور أحمد النقيب وكريم ثابت وكامل القاويش
وسعد الدين السنباطى وممدوح رياض .

وحددت اقامة مصطفى النحاس وزوجته زينب الوكيل وحافظ
عفيفى .

وقد شكلت المحكمة دون معرفة لقواعدها أو تخديده لاهدافها
واقترح صلاح سالم عقدها في ميدان التحرير ، بعد أن أعلن في خطبة عامة
ان هناك وثيقة تدين بعض السياسيين باتصالاتهم بجهات اجنبية .

بدأت محكمة الثورة عملها بمحاكمة ابراهيم عبد الهادى بتهمة الاتصال
عام ١٩٥٣ بجهات اجنبية تهدف الى الاضرار بالنظام ومصلحة البلد العليا ،
كما أنه عمل في سنة ١٩٤٨ على الزج بجيش مصر في معركة فلسطين قبل
أن يتخذ الجيش أهبيه لخوض غمارها وأشاع حكم الارهاب أثناء رئاسته
للوزارة ، وهياً لاعدائه الأسباب التى يسرت لهم قتل الشيخ حسين البنا .
كان الحديث عن فلسطين بهذا المضمون شيئاً جديداً .

وانتهت المحاكمة الاولى بصدور الحكم بالإعدام فى أول أكتوبر ١٩٥٣
ثم تخيفه الى المؤبد ومصادرة كل مازاد من ممتلكاته وأمواله عما ورثه شرعاً
وأفرج عنه صحياً فى فبراير ١٩٥٤ .

حاكمت محكمة الثورة ٣٤ شخصاً بعضهم من السياسيين والبعض
من المتهمين بالتجسس والاتصال بجهات اجنبية أو ترديد الشائعات .

حوكم ستة من الوفديين هم ابراهيم فرج ومحمود سليمان غنام
وفؤاد سراج الدين وزينب الوكيل ومحمود أبو الفتح وحسين أبو الفتح
وثلاثة من رجال السراى هم كريم ثابت وأحمد النقيب ومحمد حلمى حسين
والنائب العام السابق كامل القاويش وسعدى واحد هو ابراهيم عبد الهادى

ودستورى واحد أحمد عبد الغفار ، وضابطان هما قائمقام عبد الغفار عثمان وأميرالاي أحمد شوقي ، ١٣ جاسوسا و ٣ من مروجى الشائعات • واثنان للتستر على الاتصال بجهات أجنبية •

أصدرت المحكمة ستة أحكام بالاعدام ، نفذ منها أربعة على الجواسيس ، وعدل اثنان الى المؤبد ااحدهما على إبراهيم عبد الهادى ومتهم آخر بتقديم تقارير وتبليغات لجهات أجنبية اسمه أحمد على عوض ، كما صدرت أربعة أحكام بالبراءة فقط •

محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقياء الأحزاب والتبذيلات السياسية ، فقد حوكم من الوفد كل الأعضاء الذين لم يبلغوا الخامسة والستين من العمر ، وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين هى أطول محاكمة اذ استمرت ٤٥ جلسة طرحت فيها مختلف القضايا وجاء فى قرار المحكمة ما يأتى : « المحكمة تعيب وتأسف على موقف الحكومة الوفدية المرتجل من معركة التحرير بالقنال وعدم الاستعداد لها ، وهكذا تحول الموقف الذى يستحق الفخر فى تاريخ الوفد •• الى موقف يجلب له العيب والأسف ••• ووجهت الطعنة فى غير موضعها فمبارك التحرير والنضال الشعبى لا يشترط ان تستكمل تماما فى بدايتها •• بل هى تنمو وتزداد صلابة مع كفاح الشعب المسلح ، وهو ما حدث فعلا قبل حريق القاهرة • وما تكرر أيضا بصورة أخرى بعد ٢٣ يوليو حتى توقيع اتفاقية الجلاء •

وكانت محكمة الثورة تنعقد خلف باب رفعت عليه هذه الآية .(واقتلوهم حيث تقتضوهم) .وتعقد جلسات سرية لا يحضرها إلا اعضاءها والمتهم وزكريا محيى الدين رئيس مكتب الادعاء الذى كان مشكلا من الضباط الحقوقيين محمد التابعى وإبراهيم سامى وسيد جاد ووكلاء النائب العام مصطفى الهلباوى وعبد الرحمن صالح وأحمد موافى وعلى نور الدين •

المتهمون كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ، ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجأة وفى الجلسة السرية التى حوكم فيها إبراهيم فرج فوجى بتهمة الاتصال بجهات أجنبية ، وأخيرا تبين ان المقصود هو مقابله مع مصطفى النحاس لنهرو أثناء زيارته لمصر عقب اعلان الجمهورية بخمسة أيام •

وكان نهرو قد أرسل رسالة حملها السفير الهندى يطلب مقابلة مصطفى النحاس ضمن زيارته لمصر ، ولما حاول النحاس الاعتذار عن عدم المقابلة منعاً للخرج ، ابلغه السفير بأنه اذا لم تتم الزيارة فان نهرو لن يحضر الى مصر •

وكان النحاس قد التقى بنهرو قبل ذلك مرات ٠٠٠ ولذا كان نهرو حريصا على ان يظهر في مظهر الوفاء للزعيم الذي احتل مركزه عن طريق الديمقراطية التي يؤمن بها نهرو ايمانا راسخا والتي كانت موضع حديث دائم بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة في كل مناسبة يلتقى بهم فيها .

قال نهرو في هذه المقابلة التي تمت في منزل النحاس انه لا ينسى علاقته بوالده (موليتال) وانه يعتبر الحركة الوطنية في الهند ابنة الحركة الوطنية في مصر التي قادها الوفد ٠٠ وقال له النحاس انه سعيد لانه عاش حتى اليوم الذي أعلنت فيه الجمهورية بمصر ، وصارحه بأنه يكره الحكم العسكري ويرى من واجبه مقاومته حتى يعود الدستور والديموقراطية والحرية .

وعندما انتهت جلسات محكمة الثورة التي بدأت في أول أكتوبر ١٩٥٣ وانتهت في ابريل ١٩٥٤ كان معظم قيادات الوفد قد أصبحوا خلف قضبان السجون .

ويذكر أن أفرادا من أسرة سراج الدين ذهبوا الى جميع أعضاء مجلس الثورة لاقتناعهم ببراءة فؤاد ، وقد التقوا بكلمات مجاملة أو اعتذار عن عدم المقابلة ، علما جمال عبد الناصر الذي صارحهم بأنه لا بد من الحكم عليه ، وانه لا بد من التصديق على الحكم ٠٠٠ قائلا لهم ان فؤاد سراج الدين كرجل سياسى يعرف لماذا حكم عليه ٠٠٠ ومنى سيخرج .

وكان هناك سببان أحدهما خارجي وهو عودة الأحزاب في سوريا بعد الاطاحة بحكم العقيد أديب الشيشكلي وسبب داخلي هو استعداد رجال الثورة للقضاء على الاخوان المسلمين كما صارحهم بذلك .

كانت الأحزاب في سوريا قد توقفت نشاطها أربعة أعوام منذ عام ١٩٤٩ ولكنها عادت للتشكيل فورا بعد القضاء على ديكتاتورية الشيشكلي . وهو الأمر الذي كان يؤرق رجال الثورة بصفة عامة ، وجمال عبد الناصر بصفة خاصة ٠٠٠ لانهم كانوا يدركون ان مجرد وجودها يشكل خطرا على سلطتهم في لحظة زمنية معينة تحت ضغط ظروف مواتية .

وهكذا بعد ان كانت تجربة سوريا تبعث الحذر من تكرار الانقلابات العسكرية ٠٠٠ أصبحت تبعث الحذر أيضا من عودة الأحزاب السياسية .

وعندما انتهت محكمة الثورة من عملها ، وألقت بعدد من زعماء الوفد والأحزاب السياسية داخل السجون ، وفتحت أبواب المعتقلات وحظرت أى نوع من النشاط السياسى خارج هيئة التحرير ، بدأ الأمر كما لو أن الصدام مع الأحزاب قد وصل غايته .

ولكنه تبين رغم ذلك ان الحياة مازالت تنبض فى جسد الأحزاب ، وانها استفاقت لتعاود الحياة مرة أخرى فى بداية ١٩٥٤ كما سيأتى تفصيلا فيما بعد .

الفصل الثالث عشر

اعتقال الشيوعيين

(أنا برىء ومظلوم : اريد اعادة محاكمتى)

العامل مصطفى خميس

قبل لحظة الاعدام

عندما تحسرت قوات الجيش ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان معسكر
الاعتقال فى هاكنستيب يضم مئات من الشيوعيين ، ولم تنعم بعضهم بالحرية
الا بعد تصفية المعتقلات فى عهد حكومة الوفدة عام ١٩٥٠ ، بعد ان كانت قد
اقيمت بمناسبة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ فى عهد حكومة منمودة فهمى
النقراشى .

ومنذ حملة اسماعيل صدقى ١٩٤٦ ، والشيوعيون يتعرضون فى مصر
للاعتقال كلما تهيأت للسلطة الحاكمة ظروف مواتية . . . حتى انه يمكن
القول بان فترات الحرية لهم كانت الاستثناء وليست القاعدة .

ولذا كانت حركة الجيش محل تأييد من الحركة الديمقراطية
للتحرر الوطنى (جدد) وهى التنظيم الشيوعى الرئيسى فى هذه الفترة ،
وعندما ابلغت قيادتها ليلة ٢٢/٢٣ يوليو بان قوات الجيش ستتحرك بعد
ساعات لضرب النظام القائم ، وفرض شروطها على الملك ، اعلنت منشورا

ثورة يوليو ج ١ - ٢٨٩

يؤيد حركة الجيش باعتبارها حركة وطنية ، ووزع المنشور في ساعات الصباح الأولى يوم ٢٣ يوليو وكان أول تأييد للحركة من أية قوة سياسية ، الى جانب موقف الاخوان المسلمين المساند للحركة ، والذي دفع عناصرها لحراسة المعابد والمرافق الحيوية ، في الوقت الذي كان فيه منشور (حدثو) يوزع في شوارع القاهرة .

وكان طبيعيا من (حدثو) ان تبادر الى التأييد ، لان منشورات الضباط الأحرار كانت تطبع في جهاز طباعتها السري بعد حريق القاهرة ، وتوزع أيضا بواسطة اجهزتها ٠٠٠ وبعض أعضائها كانوا يؤدون دورا بارزا في حركة الضباط الأحرار ٠٠٠ كانت لجنة قسم الجيش بها تضم أحمد فؤاد مستولا للدعاية ومن كاتب هذه السطور مستولا للسياسة ، وقد استطاع أحمد فؤاد أن يخلق علاقة طيبة مع جمال عبد الناصر الذي تعرف عليه عن طريق خالد محيي الدين الذي كان عضوا في تنظيم قسم الجيش هو ويوسف صديق وعدد آخر من الضباط الأحرار .

ولم تتخذ اللجنة التأسيسية لحركة الضباط الأحرار موقفا من خالد محيي الدين مثل الموقف الذي اتخذته من عبد المنعم عبد الرؤوف الذي فصلته لارتباطه بالاخوان ومحاولته ضم الضباط اليهم بدلا من الضباط الأحرار ٠٠٠ وذلك لأن تنظيم قسم الجيش في حدثو كان حريصا على توفير مواصفات خاصة في الضباط الذين ينتمون اليه ، ولذا فان أعضائه كانوا يجندون الضباط أولا لتنظيم (الضباط الأحرار) ويعتبرون خلال هذه الفترة في مرحلة الترشيح حتى اذا استكملوا مواصفات الدخول للتنظيم فكرا ووعيا ، عرض عليهم الانضمام لقسم الجيش .

لذا فان اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار لم تجد تناقضا بينها وبين الضباط الشيوعيين ٠٠٠ ولم تثبت حالة واحدة كان يجند فيها أحد الضباط وخاصة (الأحرار) لتنظيم (حدثو) مباشرة .

وخلال فترة ما قبل ٢٣ يوليو ، وعندما اشتعلت الروح الثورية مع كفاح الشعب المسلح ضد الانجليز في منطقة القناة ، اعتبر قسم الجيش في (حدثو) ان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بالذات من العناصر الوطنية المخلصة والمتطورة والتي يمكن مصارحتها بدخول التنظيم يوما ما .

ولكن قيام الحركة التي فترة الترشيح والنظرة المرتقبة ٠٠ وبدأت الحركة السياسية بين قطبين مختلفين ٠٠٠ ولا يصدق قول أحمد أبو الفتح في كتابه بأن جمال عبد الناصر كان منضمّا لتنظيم (حدثو) تحت اسم حرگى (مورييس) .

ومع ذلك كان من قرارات الحركة الأولى الافراج عن المعتقلين الشيوعيين ، وقد تم الافراج عنهم جميعا على التوالى عدا ١٧ شخصا تحجرت نية الافراج عنهم ، وبقوا كخميرة لمعتقلين جدد .

وسرعان ما حدث خلاف فى رأى ، عندما تفجرت قضية كفر الدوار عقب مظاهرة احتجاج قام بها عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع البالغ عددهم نحو عشرة آلاف عامل يوم ١٢ ، ١٣ أغسطس للمطالبة ببعض الحقوق العمالية ، وتعرض البوليس لهم ثم حدث اشتباك أدى الى اشتعال بعض الحرائق ، والاستنجاد بقوات الجيش التى تصادمت مع العمال أيضا ، وانتهى الأمر بمصرع ثلاثة جنود وثلاثة عمال وجرح ٢٨ شخصا . . .

تصرفت حركة الجيش ازاء هذا الموقف برعونة شديدة تحت وهم ان هذه المظاهرات هى بداية أعمال مضادة ضد الجيش ، وتشكل مجلس عسكري برئاسة عبد المنعم أمين عضو مجلس القيادة فى ذلك الوقت ، ويقول انه قد تطوع لرئاسة المجلس واقترح عقده فى موقع الحادث . وقد تشكل من حسن ابراهيم عضو المجلس والبكباشى محمد عبد العظيم شحاته والبكباشى أحمد وحيد الدين حلمى والصاغ محمد بدوى الخولى واليوزباشى فتح الله رفعت واليوزباشى جمال القاضى . .

كانت المحاكمة سافرة العدوان على حقوق المتهمين ، فلم تفتح لهم فرصة الاعتماد على المحامين الى الدرجة التى دفعت عبد المنعم أمين الى مطالبة الصحفي موسى صبرى الذى كان يمثل جريدة الأخبار ، للدفاع عن العامل محمد مصطفى خميس باعتباره حاصلا على شهادة الحقوق .

ويقول عبد المنعم أمين ان مصطفى خميس قد ترافع عن نفسه مرافعة عظيمة لمدة نصف ساعة ولكنهم استندوا مع ذلك الحكم عليه بالاعدام هو ومحمد حسن البقرى ، وصدرت احكام بالسجن على بقية المتهمين الذين كان من بينهم صبرى فى الثامنة عشرة من عمره .

أهاج أسلوب المحاكمة مشاعر الجماهير فى مصر والمخارج ، ووضع (حدتو) التنظيم الشيوعى الممثل للقوى العاملة فى وضع شديد الحرج ، فانه رغم ان مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى لم يكونا أعضاء فى الحركة الديمقراطية ، الا ان الدفاع عنهما اعتبر واجبا مقدسا على كل تنظيم أو شخص شيوعى أو تقدمى .

وقد تسرع مصطفى النحاس فأصدر بيانا يستنكر فيه حوادث الشعب ويدعوا العمال الى الانتاج المثمر ، وكذلك أصدر (الحزب الوطنى) بيانا بنفس المعنى . . . وكان هذا الموقف ، دليلا على معاداة الأحزاب وحركة

الجيش معا للطبقة العاملة والتخوف من حركتها . . . وبينما أثبت التحقيق كما أشارت جريدة (الأهرام) إلى أن البوليس قد أطلق النار قبل الشعب مما استفز العمال ، وأنه بذلك ينهار ركن هام في الجريمة . . . فان ذلك لم يغير من الأمر شيئا .

وصيحة مصطفى خميس التي اطلقها قبل اعدامه : أنا برى ومظلوم ، أريد إعادة محاكمتي . . . ان محامى لم يطلب شهودا وكان هناك اثنان قد شهدا : أنا مائى ، قد ضاعت وتبدلت فى الهواء . . . وتؤكد هذه الصنيعة قسوة المجلس العسكرى فى معاملة المتهمين وحرمانهم من حق أساسى من حقوق الانسان هو توكيل المحامين .

ومع ذلك يقول عبد المنعم أمين أن حكم المجلس العسكرى لم يكن بالاجماع مما يتعارض مع قانون الأحكام العسكرية . . . كما أن تصديق مجلس قيادة الثورة لم يكن بالاجماع أيضا ، فقد اعترض على الحكم بالاعدام ولم يوافق عليه كل من جمال عبد الناصر ويوسف طديق وخالد محيى الدين فقط ، كما أن محمد نجيب كان مترددا فى التصديق على الحكم واستدعى اليه مصطفى خميس فى مكتبه لمحاولة مساعدته اذا قدم له معلومات مفيدة ، ويقول محمد نجيب أن مصطفى خميس كان رجلا شجاعا ، لم يعترف على أحد ولم يوجه اتهاما ظالما ، لأنه حقيقة لم يكن مدفوعا من أحد ، ولم يرتكب جرما يستحق عليه الاعدام .

وقد آثرت محاكمة كفر الدوار عاصفة شديدة من النقد على المستوى العالمى فان تصرفات المجلس العسكرى واسلوبه كانت محل ادانة كل القوى التقدمية واليسارية والمنظمات العمالية ورجال المحاماة ، فى مختلف أنحاء العالم . . . وادى هذا الى تصوين حركة الجيش أمام العالم بأنها حركة رجعية فاشية .

ووصفت بأنها « مجموعة من الضباط الرجعيين تربطهم صلة مباشرة وقوية بالولايات المتحدة » .

وقد أدى هذا الموقف الى وضع الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى (حدتو) فى موقف المدافع عن قضية خاسرة . . . فان النظرة الى حركة الجيش كانت على أساس أنها حركة وطنية تجميل تبشير بحرب وطنى وتغيير اجتماعى .

كتب (بالم دات) عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى البريطانى تقريرا هاجم فيه حركة الجيش وقامت (حدتو) والحركة السودانية للتحرر

الوطني وهي رقيقة نضال (حدتو) في السودان ، بالرد عليه ، مما جعله يتراجع عن موقفه حتى حدثت أحداث جديدة في مطلع عام ١٩٥٣ .

وكان (بالمبروتولياشي) سكرتير الحزب الشيوعي الايطالي أكثر وعياً وتقديراً لظروف مصر من غيره فقد قال لحزبه « علينا أن نضع في اعتبارنا ونحن ندرس حركة الجنرال نجيب رأى قادة حركة السلام في مصر » .

وهكذا كانت قضية كفر الدوار صدمة في العلاقة بين حركة الجيش والحركة الديمقراطية ولكنها لم تنته الى قطيعة ، ولم تؤد الى تغيير جذري في تقدير الموقف ١٠٠٠ ولم تدفع الى رفع شعار العداء ١٠٠٠ .

وصدرت بعد ذلك مجلة (التحرير) يوم ١٦ سبتمبر وهي التي أشرفت على اصداؤها وزاومت تحريرها مع مجموعة من الزملاء الصحفيين أصحاب الاتجاهات الوطنية الديمقراطية ومنهم عبد المنعم الصاوي مدير تحريرها والذي كان محرراً بجريدة (المصري) وحسن فؤاد وعبد الرحمن الشوقاوي وصالح حافظ وفتحي غانم ويوسف ادريس وزهدي وغيرهم .

كانت التحرير التي وصل توزيعها الى ارقام قياسية (١٠ ألف نسخة) تعتبر واجهة تقدمية لحركة الجيش ، ليس في موادها ما يمكن ان يعتبر دعوة متطرفة ، ولكن صفحاتها تدعو في وضوح للتحرير الوطني وتأكيد مبادئ الديمقراطية ، ومهاجمة الاقطاع والاستعمار والرجعية .

وتعرضت المجلة لنقد شديد من جانب بعض أعضاء مجلس القيادة ، وخاصة الذين كانت تربطهم صلات طيبة بالسفارتين الانجليزية والأمريكية مثل عبد المنعم أمين ، وانتهى هذا النقد الى اتخاذ اجراء بتعيين الصاغ ثروت عكاشة رئيساً للتحرير بدلا مني ١٠٠٠ وقد علمت بذلك من مطالعة الجرائد في الصباح ١٠٠٠ وقد أصبح ذلك اسلوبا طبيعيا لنتزع الموظفين من اماكنهم وتعيينه بديل لهم دون ابلاغ أو مناقشة .

وحرصا على سلامة العلاقات وعدم تدهورها طلبت من كافة الزملاء ان يبقوا في أماكنهم ويتعاونوا مع رئيس التحرير الجديد الذي كان قد حضر معه قائمة بفصل معظم المحررين باعتبارهم (شيوعيين) الأمر الذي اعترض عليه عبد المنعم الصاوي لأن ذلك كان يعني انهيارا للمجلة الناجحة وقد ارتضى جمال عبد الناصر بقاءهم بعد مقابلة مع عبد المنعم الصاوي أوضح له فيها أن المجلة تسير على هدى منشورات المضباط الأحرار

وبعد أن روى لي عبد المنعم الصاوي هذه الواقعة قال لي الدكتور ثروت عكاشة ما يأتي

« أشهد لوجه الحق ان هذه الواقعة ليس لها أساس من الصحة وإن الرئيس الراحل لم يزودنى بأية قائمة لا بأسماء المحررين الشيوعيين ولا بغيرهم لفصلهم من مجلة التحرير كما لم أتقدم بأية قوائم . وإذا لم تكن هناك قائمة أصلا أو نية لاستبعاد بعض المحررين فمن باب أولى ألا يكون هناك مجال للسيد عبد المنعم الصاوى الذى كان يعمل مديرا للتحرير بأن يتدخل فى مثل هذا الأمر الموهوم فقد ظل المحررون الشيوعيون يكتبون المقالات موقعين بأسمائهم باستثناء واحد فقط لظروف خاصة لحمايته وبرضائه الشخصى » .

كما أراد الدكتور ثروت عكاشة تأكيد هذه الحقيقة فاستكتب خاله محيى الدين هذه الكلمة :

« انى كنت حاضرا عندما كلف جمال عبد الناصر ثروت عكاشة بتولى مسئولية مجلة التحرير ولم يقدم جمال عبد الناصر قائمة لثروت عكاشة بأسماء محررين شيوعيين يجب فصلهم ولكن ما أذكره هو أن جمال عبد الناصر طلب اليك ، أى لثروت عكاشة ، الحذر من سيطرة شيوعية كاملة على مجلة التحرير وأن تكون عينك مفتوحة ل هذه الغرض وأنت مسئول أمامه عن سياسة المجلة . والدليل على ذلك أنه لم يحدث فصل لأى محرر يسارى أو شيوعى أو غير ذلك طوال مدة رئاستك لمجلة التحرير . هذا حسبما أذكره ولا أعتقد أن جمال عبد الناصر قد قابل عبد المنعم الصاوى بهذا الصدد كما ورد برسالتك نقلا عن الكتاب . لأن عبد الناصر لم يذكر لى أنه قابل عبد المنعم الصاوى » .

وسواء صحت رواية ثروت عكاشة أو عبد المنعم الصاوى فإن الحقيقة الثابتة أن أحدا من المحررين لم يفصل من عمله ، كما أنى بعد ان اعتقلت وأفرج عني طلب منى جمال عبد الناصر ضرورة العودة للكتابة فى المجلة التى اسهمت فى تأسيسها ورأست تحريرها فاستجبت لذلك حرصا على عدم اتخاذ موقف انعزالى ورغبة فى مواصلة التعاون مع زملاء اعتز بهم . . ولكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة .

وانخلت حركة الجيش موقفا صريحا من الشيوعية عندما أصدرت وزارة محمد نجيب فى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٥٢ قرارا بالعرفو الشامل عن المحكوم عليهم بالجرائم السياسية التى وقعت فى الفترة من توقيع معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ الى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أو المتهمين بقضايا سياسية خلال المدة ، وأعلن فتحى رضوان فى تصريح صحفى أن القضايا الشيوعية تدخل ضمن القرار ، ولكن القانون الذى عفا عن ٩٤٣ شخصا استثنى الشيوعية باعتبارها موجهة ضد النظام الاقتصادى والاجتماعى للدولة .

وقد رفع الشيوعيون المحكوم عليهم قضايا أمام مجلس الدولة للتظلم من هذه التفرقة ، ولكنها لم تنظر بعدما اعتبرت القوانين من أعمال السيادة التي لا يجوز مراجعتها طبقا للدستور المؤقت الذي اذيع فيما بعد .

وأظهرت حركة الجيش موقف العداء من الشيوعية مرة أخرى عندما خطب يوسف صديق في بنى سويف أثناء جولة في الأقاليم صحبه فيها عبد العزيز حلى وزير الشئون البلدية وفتحى رضوان وزير الارشاد القومى ، وقال ان الحركة (لاشرقية ولا غربية) . . . لم تدع الاذاعة تسجيل الخطبة واحتج بعض أعضاء المجلس على إعلان هذا الموقف الذى أثار رجال السفارة الأمريكية وبعث في نفوسهم الضيق - على حد قولهم .

كان الحياد مرفوضا في هذه الفترة من جانب الغرب ، وتعرض يوسف صديق بعد ذلك لمضايقات من زملائه أعضاء المجلس ، وخاصة بعد اعتراضه على رفع سعر السجائر ، وعدم مناقشة المجلس لتشكيل وزارة محمد نجيب وعدم تدوين محاضر الجلسات ، وعزى عن رئاسة تحرير مجلة (التحرير) وسلوك بعض الأعضاء بطريقة مسيئة للجميع .

كانت التناقضات تلمو بينهم وبين يوسف صديق يوما بعد يوم ، وكان يختلف سلوكه عن زميله في التنظيم خالد محيى الدين . . . فكان يوسف أكثر صراحة وانفعالا ، وكان خالد أكثر هدوءا ومرونة .

كانت استراتيجيية (الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى) التي ينتمى لها الاثنان هي الحرص على التعاون مع حركة الجيش ، وتنمية العوامل الايجابية فيها ، والعمل على ذبول التناقضات المفتعلة . . . بل ان مجلة الكاتب أعلنت عن ظهور (حزب التحرر الوطنى) برئاسة كامل البندارى الذى حل الدكتور ابراهيم رشاد مكانه في رئاسة مجلس السلام وضمت اللجنة الرئيسية للحزب حفى محمود ويوسف حلى وخالد محمد خالد وزكى مراد وكمال عبد الحلوم وأحمد الرفاعى والعاملين أحمد طه ومحمد على عامر والسيدة سيزا نبراوى . . . ولكن الحزب لم يقدم طلبا لوزير الداخلية لأن قانون الغاء الأحزاب قد لحقه قبل ان يعلن عن وجوده بطريقة شعبية كانت تستهدف عقد مؤتمر عام يضم مندوبين من كافة أنحاء مصر ويعلن برنامج الحزب أثناء انعقاد المؤتمر لتتم مناقشته والتصديق عليه .

ولكن حركة اعتقال الضباط يوم ١٥ يناير ١٩٥٣ كانت حدا فاصلا بين مرحلتين . . . فقد صدر الأمر باعتقالى ضمن مجموعة ضباط المدفعية ورشاد منها رغم عدم صلتى بهم ، بل وتناقض أفكارى الشديد مع أفكارهم

... وكنت الوحيد من قسم الجيش في (حدثو) الذي صدر الأمر باعتقاله لانهم كانوا حتى هذه اللحظة غير معروفين اذا استثنينا يوسف صديق وخالد محيي الدين .

ولم تقف الاعتقالات عند حد الضباط فقط ، ولكنها امتدت الى السياسيين وبدأ اعتقال الشيوعيين يوم ١٦ يناير ، ولكن اعتقالى كان انذارا لهم فلم يسقط أحد أعضاء المكتب السياسى للحركة والذي كان مكونا من ميكائيل الطيران السابق سيد سليمان رفاعى والشاعر كمال عبد الحليم والعامل محمد شطا والمحامين زكى مراد وأحمد الرفاعى والسودانى عبد الخالق جنية .

نشرت الصحف أنه تم اعتقال ١٠١ بينهم ٤٨ شيوعيا .

واصدت (حدثو) منشورا يهاجم اعتقالى وكتب كمال عبد الحليم فصيدة في مجلة (الكفاح) تحية لى داخل السجن .

كانت حركة الاعتقال نقطة تحول خطيرة ، وخاصة انها ارتبطت بمصادرة الجرائد والمجلات اليسارية مثل الكاتب والملايين والميدان والواجب (صحيفة الهلال) وصوت الطالب والمعارضة التى كان يصدرها فتحى الرملى .

أصر يوسف صديق على الاستقالة معلنا ان ضميره لا يسمح له بالبقاء وسط مجلس يصدر قرارات باعتقال زملاء يعتبرهم شرفاء لا يستحقون مثل هذه المعاملة ... وحاول أحمد فؤاد اقناعه بالبقاء ولكنه أصر على موقفه دون تردد .

وبعادت الأحزاب الشيوعية والمنظمات الديموقراطية العالمية تهاجم حركة الجيش باعتبارها حركة رجعية فاشية تعتقل الوطنيين وتحل الأحزاب السياسية وتعاوى الديموقراطية .

وفى الداخل كان الدفاع عن حركة الجيش مع هذه الاجراءات أمرا شديدا الصعوبة وليس له صدى عند الجماهير الواعية .

وبدأت (حدثو) تفقد جانبا من أنصارها الذين وجدوا فى موقفها الصبور المتهاون مع حركة الجيش ، ما يمكن اعتباره خطأ وانحرافا ... وبدأوا ينتقلون الى تنظيم آخر هو (الحزب الشيوعى المصرى) الذى تشكل فى يناير ١٩٥٠ من جانب حدثو (مصطفى طيبة وصلاح هاشم) ومجموعة أخرى كانت ضد عدم تكوين (حدثو) لحزب شيوعى يمثلها (جلال كشك وعبد الرحمن شاكر) والدكتوران اسماعيل ضبرى عبد الله وفؤاد مرسى اللذان كانا يدرسان فى فرنسا .

المطارق التي انهالت على رأس حدتو لعدم ادانتها لحركة الجيش
بالفاشية ، دفعت كثيرا من أعضائها الى الخروج منها والانضمام الى
(الحزب الشيوعي المصري) الذي كان يعلن انها حركة رجعية فاشية منسقا
نغمته في ذلك مع بعض الأحزاب والمنظمات الديمقراطية العالمية .

وخلال فترة اعتقال التي امتدت خمسين يوما دون تحقيق الا أسئلة
عابرة من زكريا محيي الدين يوم الافراج عنه ، اتخذ أحمد فؤاد موقفا
جديدا هو الانتقال من (حدتو) الى (الحزب) لأمور لم يتحقق من صحتها
وإدى تغيير موقفه الى هبوط النشاط في قسم الجيش وتحول العمل
النضالي فيه الى مناقشات تدور حول مواضيع تنظيمية خاصة تدجج
الموقف السياسي العام .

أدى انتقال أحمد فؤاد الى عزله عن قسم الجيش ، ثم خروجه عن
الحزب وتركيزه على العمل في المناصب التي تولاهها بعد ذلك .

وكانت هذه بداية التفكك في الصلافة التنظيمية لقسم الجيش
التي بدأت مع مطلع الأربعينيات واستمرت حتى ذلك الوقت في سرية
كاملة وقدره على العمل لا تتوقف . . . وكانت النتيجة بعد ذلك هي صدور
قرار اللجنة المركزية بحل قسم الجيش تفاديا لما يمكن ان تجلبه الخلافات
من متاعب على الحركة كلها . . . وتوجيه اتهامات للمسؤولين قد تكون
جسرا لاعداء بعض قادة الحركة الشيوعية باعتبارهم يتدخلون في شئون
الجيش .

وكانت الشهور التالية لبداية حركة الاعتقالات مجالا لصراعات متعددة
بين حركة الجيش والشيوعيين عموما من جهة . . . وبين الخطين السياسي
والمعارضين لحدتو والحزب من جهة أخرى .

لم تفرق الاعتقالات بين أعضاء (حدتو) وأعضاء (الحزب) . . . فقد
اعتقل بعض أعضاء المكتب السياسي لحدتو في شهر ابريل ١٩٥٣ ، واكتمل
اعتقالهم في نوفمبر ١٩٥٣ . . . وكانت (حدتو) خلال هذه الفترة قد
استطاعت تهريب ٧ معتقلين من معتقل روض الفرج ، كما هربت أحمد طه
شقيق عبد القادر طه من معتقل بنى سويف .

وعندما ضاقت الحلقة على الشيوعيين خارج الجيش ، ضاقت عليهم
داخل الجيش أيضا . . . تضاعفت الرقابة الى الحد الذي جعل اتصالا
بأى من الزملاء مصدر خطر له ، وقرر مجلس القيادة نفي يوسف صديق
خارج مصر ، فسافر في ابريل ١٩٥٣ الى سويسرا ثم لبنان ، ولما طلب
العودة أرسلوا له زوجته وأولاده ، ولكنه قرر العودة سرا . . وعاد فعلا

فى أغسطس ١٩٥٣ وأرسل لمحمد نجيب برقية من بنى سويف يعلن فيها وصوله الى مصر .

صدر قرار بتجديده اقامة يوسف صديق فى بلده .

وتشكلت محكمة عسكرية عليا برئاسة القائمقام أحمد شوقي قائد قسم القاهرة للنظر فى قضيتين شيوعيتين فى شهر يوليو ١٩٥٣ .

وقد طلب الدفاع استدعاء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وصالح سالم وأنور السادات لسماع أقوالهم ولكنهم لم يحضروا .

لم يتوقف الشيوعيون خلال هذه الفترة عن المطالبة بالديموقراطية وعودة الحياة البرلمانية ولم يجدوا فى ذلك أى تناقض مع الماركسية وبدأوا سعيهم الحثيث لتكوين جبهة وطنية ديمقراطية تضم الوفديين والشيوعيين والايوان المسلمين والاشتراكيين (الحزب الاشتراكي - مصر الفتاة) وأنصار السلام وغيرهم من الهيئات والتنظيمات .

بدأت هذه المحاولات مع تصاعد حملة الاعتقالات ، وكان التحضير لها يتم بطريقة سرية وقد فرض الوفد ومصطفى النحاس شخصيا النائب الوفدى حنفى الشريف ، ومثل (حدتو) المحاميان أحمد رفاعى وزكى مراد ، ومثل الاشتراكيين إبراهيم شكري ، ومثل أنصار السلام يوسف حلمى وسعد كامل ، ومثل الاخوان الدكتور خميس حميدة وعبد الحفيظ الصيفى .

أعدت (الجبهة الوطنية الديموقراطية) التى كانت لا تزال بعده فى مرحلة التشكيل برنامجا اشتراكيا ديمقراطيا وافق عليه الجميع ، عدا مندوبى الاخوان المسلمين الذين انسحبوا من اجتماعات الجبهة وتنكروا لها بل ووقفوا موقف المخاصمة لها فى انتخابات طلبة الجامعة .

كانت خطوات تشكيل الجبهة تمضى فى طريقها رغم ضربات البوليس واعتقاله لبعض أفرادها . . وهنا يجدر بنا القول بأن هذا النشاط العريض للتنظيمات الشيوعية كان يتم بأفراد لا يتجاوزهم أكبرهم الخامسة والثلاثين فقد كانت الحركات الشيوعية هى دفعة الجيل الجديد .

ويقول رودنسون فى كتاب (مصر منذ الثورة) :

« قد يبدو غريبا عند البعض ممن يعتقدون أن الديمقراطية والماركسية لا تتفقان كالأمرىكين أن يروا المصريين الماركسيين يدافعون بحماسة خلال هذه الفترة عن كل من النظام البرلماني والعودة الى الحياة الدستورية وهو ما لعب دورا تاريخيا هاما . »

ولكن هذا الدفاع كان منزها عن المكيافيلية بل انه لم يكشف بالضرورة عن منافسته مع الجماعات السياسية الأخرى ، واني لعل يقين من هذه النتائج اذ كنت انا نفسى موجودا فى القاهرة خلال هذه الفترة وعلى اتصال وثيق ومشاركة عقلية للجماعات الماركسية ، .

وحاولت حركة الجيش ان تواصل لعبتها السياسية فى التسرب داخل صفوف الشيوعيين كما فعلت ذلك مع الاخوان المسلمين أيضا . . . فكلفت بذلك حسين عرفة رئيس المباحث الجنائية العسكرية بالبوليس الحربى ، الذى أمكن له الاتصال ببعض العناصر الشيوعية ، ثم لعب بعد ذلك دورا شبه علنى باعتباره مفوضا من السلطة للتفاهم معهم وتسهيل اجراءاتهم ، وهو يمارس دور المخابرات فى نفس الوقت .

وقد لعب حسين عرفة دورا نشطا فى التسرب لصفوف الشيوعيين امتد عدة سنوات ، ولكنه مع ذلك لم يكن ذا تأثير كبير فى تمزيق التنظيم ، لما وجده من صلابة الأعضاء ورفضهم التنازل لمبادئهم .

ويضرب مثلا لذلك موقفا لسعد كامل الذى اعتقلته السلطات فأرسل برقية غاضبة هو ويوسف حلمى لجمال عبد الناصر ، وكان يوسف حلمى على اتصال بجمال عبد الناصر منذ بداية الثورة ، يحاول التوفيق بينه وبين الوفد والقوى الشعبية والديموقراطية الأخرى . . . وبعد تقدير موقف جنديده داخل السجن ، أرسل الاثنان برقية تحمل رأيهما الحقيقى الذى لاتناقض رئيسى فيه بينهما وبين جمال عبد الناصر ، فأفرج عنهما وهرب بعدها يوسف حلمى الى الخارج .

وكانت الثورة قد قدمت (قضية الجبهة الوطنية الديموقراطية) للمحكمة ، وهى القضية التى تجمعت خيوطها بعد اكتمال اعتقال المكتب السياسى لحدتو ، والنائب الوفدى حنفى الشريف واليوزباشى مصطفى كمال صدقى والفنانة تحية كاريوخا وغيرهم . . . وطلب حسين عرفة من سعد كامل ان يذهب الى المحكمة معارضا رأى زملائه مدافعا عن جمال عبد الناصر كما ورد فى برقيته ولكنه رفض تماما باعتبار ان ذلك يعتبر موثقا سياسيا له ، وكانت النتيجة تقديمه هو الآخر للمحكمة والحكم عليه هو وزوجته كما سيتضح من تفاصيل هذه القضية فى فصل قادم .

ويدلل حسين عرفة على ذلك بقوله أيضا انه اعتقل عاملا يوزع منشورات شيوعية ولكنه رفض الاعتراف وعندما أخذه الى الجبل وأطرق أربع رصاصات للأوهاب قال له العامل فى بساطة (لا انت جئتلتنى . . . ولا أنا حاعترف) . . .

وقد لعبت المخابرات المركزية دورا كبيرا في افساد العلاقة بين التنظيمات الشيوعية المعبرة عن آمال الفلاحين والطبقة العاملة وبين حركة الجيش التي فرضت نفسها بقوة السلاح ممثلة للطبقة الوسطى .

كان ممكنا أن يحدث نوع من التحالف بين حركة الجيش والحركات الشيوعية لولا ضغط عدة عوامل منها :

١ - الخشية من وجود قوة تنازع حركة الجيش في سلطتها .

٢ - العداء التقليدى السافر بين الاخوان المسلمين المتحالفين مع حركة الجيش وبين الفكرة الشيوعية .

٣ - تدخل المخابرات الأجنبية للايقاع بين القوى الوطنية حاملة شعار (العداء للشيوعية) .

٤ - تأثر معظم الضباط بالدعايات المضادة للشيوعية التي استهلكت الدولارات من الدول الامبريالية .

٥ - عدم وصول التنظيمات الشيوعية في غمرها القصير الى الدرجة المؤثرة التي تحشد أغلبية الجماهير حولها ، علاوة على ما عانتها من انقسامات أثرت على حركتها ونفوذها بين الجماهير وبالتالي تقدير حركة الجيش لها .

٦ - قال جمال عبد الناصر لبعض قادة (جبهة) أثناء الاتصال بهم في الشهور الأولى من الثورة وعقب زيارته للأقاليم ، انه كان يراقب في نقطة شديدة هتافات الجماهير ليتعرف على انتماءاتها السياسية وانه لاحظ وجود تأثير شيوعي في بعض المناطق العمالية مثل المحلة الكبرى والاسكندرية وشبرا الخيمة والمنصورة . . . ولكنه لم يلاحظ تأثيرا قويا للشيوعيين في المناطق الأخرى ، كما لاحظ للاخوان المسلمين .

وصل التضاد بين حركة الجيش والحركات الشيوعية غايته مع نهاية عام ١٩٥٣ عقب اعتقال معظم القيادات وجانب كبير من أعضاء التنظيم .

ولكن هذا لم يصب التنظيمات الشيوعية بالسكتة القلبية كما حدث مع بعض الأحزاب التي فقدت قدرتها تماما بعد قانون حل الأحزاب . . . ولم تصب منهوطة شديدا كما حدث مع الوفد الذى أثنى قانون الاصلاح الزراعى على جانب كبير من قياداته وتاهت جماهير بلا قيادة . . .

على قدر ما كان الصدام عنيفا ، كانت المقاومة ٠٠٠ وعلى قدر
ما فتحت أبواب السجن للمناضلين الشيوعيين ، على قدر ما تجددت
التنظيمات بأعضاء جدد .

ولذا لم يصل التصادم الى نقطة سكون ، بل ان الشيوعيين ظلوا
موجودين رغم كل شيء ٠٠٠ وكان لهم دور متجدد كما سيتضح تفصيلا
فيما بعد .

الفصل الرابع عشر

حل الاخوان المسلمين

(أنا علي ثقة من أن الغرب سيقتنع بمزايا
الاخوان المسلمين وسيكف عن اعتبارهم
شبيحا مفرعا كما حاول البعض أن يصورهم)

حسن الهضيبي

المُرشد العام للاخوان المسلمين

(أن حسن الهضيبي كان حريصا على حسن
العلاقات معنا)

انطوني ايلن

علاقة الاخوان المسلمين بحركة الجيش بدأت وثيقة ، واستمرت فترة
طويلة ثم انتهت نهاية دموية مريعة .

ذهب جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين لتبليغ حسن عشاوي
وصالح أبو رقيق عضوي مكتب الارشاد بموعد الحركة ، وفي صباح
٢٣ يوليو كان عدد من الاخوان المسلمين يحرس المنشآت وأماكن العبادة .

صلة الضباط الأحرار بالاخوان المسلمين كانت وثيقة ، عدد كبير
منهم انتمى للجماعة في مرحلة من مراحل حياته كما سبق ذكره ٠٠٠ ولكن

تنظيم (الضباط الأحرار) رفض أن يكون تابعا لحزب أو قوة سياسية ،
وأنه ان يكون حركة وطنية مستقلة تملك السلاح مع أهدافها الخاصة ...
ولذا قررت اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار فصل عبد المنعم
عبد الرؤوف منها في بداية ١٩٥٢ ، لأنه كان يحاول تجنيد الضباط
للاخوان ... وليس لتنظيم الضباط الأحرار .

وعندما انتصرت الحركة ، اعتقد الإخوان أن في ذلك انتصارا لهم ،
وكانوا في ذلك الوقت أحرارا خارج المعتقلات على عكس بقية الأحزاب
والقوى الوطنية التي ضربت بعد حريق القاهرة مثل الحزب الاشتراكي
والحزب الوطني وأنصار السلام والتنظيمات الشيوعية .

واختلط صوت الإخوان بصوت الجماهير المؤيدة لحركة الجيش في
الأسابيع الأولى ... ولم تكن هناك فرصة ليعلو صوتها فوق صوت
الآخرين ... فان الإفراج عن المعتقلين ، ونداء المحافظة على الدستور
والديموقراطية ، دفع الأحزاب جميعا الى النشاط ... ولم تكن جماعة
الإخوان المسلمين مركز جاذبية شديدة للوطنيين بعد أن كشفت الأيام
كثيرا من مواقفها المتهاونة المترددة مع الرأي ، وأظهرت تصريحات مرشدها
العام حسن الهضيبي أن لها اتجاهات خاصة متباينة مع اتجاهات
الجماهير .

كان الإخوان المسلمون قد أيدوا على ماهر ، ثم أيدوا نجيب الهلالي
لأن وزارته من رجال حزيين عرفوا بسلامة القصد وبعد النظر واتصفوا
بالجراة والأقدام ... كما أن موقفهم من المسألة الوطنية كان يتضح من
حديث للهضيبي قال فيه بعدم قبول الإخوان المفاوضة في مبدأ الجلاء ،
وانما تجرى المفاوضة في كيفية تنفيذ الجلاء ، وعلى أساس ان اشتراك مصر
في أي دفاع إقليمي يجب الا يكون شرطا للجلاء والوحدة ... وهو ما كان
يعتقه نجيب الهلالي من صدور بيان بريطانيا من جانب واحد بالجلاء
والوحدة ، ثم تجرى المفاوضات في طريقة التنفيذ .

وكان هذا الموقف يتعارض تماما مع ارادة الشعب المصري التي
أجمعت على رفض الارتباط بالأجلاف أو موافقة الدفاع الإقليمي ...

ومع ذلك فكرت حركة الجيش في تعيين وزيرين من الإخوان المسلمين
في وزارة محمد نجيب ... ورشح الهضيبي الشيخ أحمد حسن الباقوري
وأحمد حسني وكيل وزارة العدل ومحمد كمال الدين محافظ الاسكندرية ،
وبعد أن تم الاتفاق بين الأول والثاني فعلا ، أبلغ جمال عبد الناصر
سليمان حافظ الذي أسسهم بقدر كبير في تشكيل الوزارة أن حسن
العشماوي ومدير الدلة قد حضرا موفدين من المرشيد العام ليبلغاه ان

اختيار الاخوان المسلمين قد وقع عليهما ليمثلاهم في الوزارة ٠٠٠ وأن الترشيح الأول كان شخصيا من الهضيبي وليس من مكتب الارشاد .

كان الاعتذار للباقوري وأحمد حسني بعد تبليغهما صعبا ٠٠٠ كما ان رأى سليمان حافظ في عسماوى والدلة كان انهما شباب أكثر مما ينبغي ٠٠٠ ولذا فانه كان هناك احتمالان أما اشراكهما في الوزارة وأما قبول قرار مكتب الارشاد لعدم الاشتراك ، وقد استقر رأى على الأمر الثانى .

وكان هذا هو الصدام المكتوم الأول ٠٠٠ فقد شعر الاخوان ان الحركة لاتستجيب لارادة الجماعة ، وشعرت الحركة بموقف الجماعة السلبي ٠٠٠ ولكن هذا لم يغير من طبيعة التعاون ولم يضعف الصلة .

فصل الشيخ الباقرى من مكتب الارشاد بعد توليه وزارة الأوقاف ٠٠٠ وهو كان يأمل بالتأكيد أن يجمع بين عضوية المكتب والوزارة معا . . . وادى هذا الموقف الى ظهور بعض تناقضات فى صفوف الجماعة ٠٠٠ وهى تناقضات بدأت قبل ٢٣ يوليو ، عقب اغتيال حسن البنا ، وصراع زملائه للوصول الى منصب المرشد ، تم الاتفاق على حسن الهضيبي وهو بعيد عن تنظيمات الجماعة ، ولم يكن له فيها دور رئيسى ، وانما ارتضته كل الأطراف المتنافسة ، لانتهاز فرصة السيطرة عليه وبالتالي على الجماعة .

واستمرت العلاقة طيبة بين الحركة والجماعة ، وخاصة بعد الافراج بعفو خاص فى ١١ أكتوبر ١٩٥٢ عن قتلة المستشار أحمد الخازندار رئيس محكمة جنايات القاهرة الذى كان قد حكم بالادانة فى بعض جرائم للاخوان المسلمين ، ومحمود فهمى النقراشى الذى كان قد أصدر قرارا بحل الجماعة بعد حرب فلسطين ، وعن المحكوم عليهم فى قضية قنابل مدرسة الخديوية ٠٠٠ وقد توجه المفرج عنهم من السجن الى مركز الارشاد فورا ، حيث استقبلوا بحفاوة شديدة من أعضاء الجماعة .

ثم صدر بعد ذلك بأيام مرسوم بالعفو الشامل عن الجرائم السياسية التى وقعت فى المدة من توقيع معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ الى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أو المتهمين فى قضايا سياسية ولم تزل قضاياهم أمام المحاكم ٠٠٠ وقد بلغ عددهم ٩٣٤ شخصا ، هم الذين استثنى منهم المحكوم عليهم فى قضايا شيوعية باعتبارها جريمة اقتصادية كما سبق ذكره ، وكان من بينهم عدد كبير من الاخوان .

وعندما صدر قانون تنظيم الأحزاب بادرت جماعة الاخوان المسلمين بتقديم طلب بتوقيع حسن أحمد المليجى والدكتور محمد خميس حميده وفهمى أبو غدير ، يطلبون حق تشكيل الجماعة ببيان جاء فيه « الاخوان

المسلمون جنس الله حينما يتناولون أمر هذا الدين فهم لا يستهدفون
الا ما استهدفه الاسلام ، ولا يتوسلون في بلوغ هذه الاهداف الا بالوسائل
التي يقرها الاسلام » .

ولكن الطلب لم يأخذ مجراه مع بقية الأحزاب ، وانما اتصل جمال
عبد الناصر بوزير الداخلية سليمان حافظ وقال له « ان الجماعة كانت
من أكبر أعوان الحركة قبل قيامها وانها ساهمت بنصيب كبير فيها
وما زالت تقدم لها العون المستمر » وطلب منه ايجاد مخرج للجماعة .

وفي مكتب وزير الداخلية التقى جمال عبد الناصر وحسن الهضيبي
وتم الاتفاق على ادخال تعديل في اخطار التأسيس يبعد الجماعة عن مجال
الأحزاب .

ويؤكد ذلك استمرار العلاقة الطيبة بين الحركة والجماعة أثناء
الصدام مع الأحزاب ، فقد كانت الجماعة دائما ضد الأحزاب والحزبية ،
لان ذلك كان يعنى في نهايته خلو الساحة لهم وحدهم .

ولكن بعض تصرفات الحركة وقراراتها لم تجد قبولا أو حماسا عند
الاخوان المسلمين ، فقد مر قانون الاصلاح الزراعي دون كلمة تأييد واضحة
منهم ، واستقبلوا اقالة رشاد مهنا بفتور شديد فقد كان قريبا منهم ،
وراهنوا عليه أحيانا بأنه سيكون الجواد الفائز .

كما ان بعض تصريحات وتصرفات الاخوان المسلمين لم تجد ترحيبا
من جانب مجلس قيادة الثورة ... مثال ذلك تصريح المرشد العام
حسن الهضيبي لادوارد بولاك محرر الاسوشيتد برس يوم ٥ يوليو ١٩٥٣
الذي قال فيه :

« اعتقد أن العالم العربي سيربح كثيرا اذا حاول أن يحسن فهم
مبادئنا بدراستها بروح العدل البعيدة عن التعصب ، وأنا على ثقة من أن
الغرب سيقتنع بمزايا الاخوان المسلمين وسيكف عن اعتبارهم شبيحا مفرعا
كما حاول البعض أن يصورهم . وأنا أثق في أن الغرب سيجد أن الاخوان
المسلمين عامل كفء في سبيل تقدم الانسانية والرخاء والسلام بين مختلف
الشعوب » .

كانت هذه التصريحات بمثابة غزل للدولة الغربية لم ترض عنه
الحركة في وقت كانت المفاوضات فيه قد تعثرت مع الجانب البريطاني
ثم انقطعت .

وقد كتب أنطوني ايدن في مذكراته بعد ذلك يقول « ان الهضيبي
كان حريصا على حسن العلاقات معنا » .

ومن جهة أخرى كان وجود الإخوان المسلمين فى المظاهرات التى تحتشد لمقابلة محمد نجيب أو أعضاء المجلس ، أمرا يصددهم ويشعرهم بأنهم مازالوا كتلة نشطة بين الجماهير تعبر عن نفسها بهتافها المعروف (الله أكبر والله الحمد) .

كان هذا الأمر يثيرهم كثيرا . . . أن الجماهير لم تتحول تماما الى جانب الثورة . . . ولذا أعدوا شعارا آخر بهيئة التحرير يهتفون به أثناء مظاهرات الاستقبال وفى الاجتماعات الشعبية وهو (الله أكبر والعزة لمصر) . كانت حربا مستترة غير معلنة . . . لا الإخوان المسلمون يصارحون بالعداء جهارا ولا مجلس قيادة الثورة يهاجم الإخوان .

ولم تكن هناك فرصة الا ممارسة اللعبة المعروفة وهى التسرب الى صفوف الإخوان المسلمين ومحاولة تعميق التناقضات الموجودة بينهم ، وتفجيرهم من الداخل . . . وقد أسهم فى ذلك من جانب الحركة الشيخ أحمد حسن الباقورى بالتعاون مع ابراهيم الطحاوى سكرتير هيئة التحرير .

وكانت هناك بداية انقسام فى الإخوان المسلمين حول قضيتين أساسيتين :

أولا : التعاون مع حركة الجيش .

كانت هناك فئة تؤيد ذلك يتزعمها حسن العشماوى ومنير الدله ويقف حسن الهضيبي منها موقف عدم المعارضة .

وفئة ترفض ذلك ويتزعمها سعد الوائلى ويوسف طلعت وعبد القادر عودة والشيخ محمد فرغلى وابراهيم الطيب .

ثانيا : بقاء النظام والجهاز السرى .

كان هناك رأى ينادى باستمرار النظام السرى باعتباره قد انشأ أساسا لحماية الجماعة أو تحقيق أهدافها وأنهم أحوج ما يكونون اليه فى ظل نظام عسكري يستطيع أن يبطش فى أية لحظة .

ورأى آخر ينادى بإلغاء النظام السرى ، لأن النظام العسكري القائم سوف يستفزه وجود جهاز سرى فيستدرجه ذلك الى التعجيل بضرب الإخوان .

وكان جمال عبد الناصر قد استطاع أن يجذب اليه عبد الرحمن السندي رئيس الجهاز السرى والذي كان على خلاف مع حسن الهضيبي والشيخ سيد سابق منشئ الجهاز السرى .

وقد أدى ذلك الى حدوث انقسام فى تنظيم الجهاز وشكلت له قيادة جديدة كان على رأسها الذين عارضوا التعاون مع حركة الجيش وهم ابراهيم الطيب (محامى) ويوسف طلعت (نجار) والشيخ محمد فرغلى ، ومحمد فايز (موظف) الذى انفجر فيه طرد من حلاوة المولد النبوى ، وأدى ذلك الى زيادة حدة الصراع بين الجناحين .

وقد نجح هذا الجناح فى اجتذاب عدد من ضباط الجيش كانوا ينتمون الى الاخوان المسلمين كما بدأوا فى تنظيم عدد من ضباط البوليس وهكذا استمرت اللعبة بعد أن أصبحت حركات التسرب متبادلة .

ولم تقف اتصالات الاخوان فى حدود الضباط المنتمين اليهم ، ولكنهم حاولوا الاتصال أيضا بمحمد نجيب ، مدرّكين أن هناك تناقضا قد بدأ يظهر بينه وبين زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة .

لم يتم اللقاء مع محمد نجيب شخصيا وانما تم مع قائد حرسه الخاص اليوزباشى محمد رياض الذى قابل حسن عشناوى ومدير الدلة عدة مرات فى ديسمبر ١٩٥٣ .

كانت مطالب الاخوان تدور حول :

١ - تعيين رشاد مهنا قائدا عاما للقوات المسلحة وكان رشاد وقتها ينفذ عقوبة السجن المؤبد بعد محاكمته عقب اعتقاله فى ١٥ يناير ١٩٥٢ .

٢ - عدم تأييد الحكم الديموقراطى .

٣ - عدم تأييد عودة الأحزاب والاصرار على حلها .

٤ - عودة الضباط الى الثكنات .

٥ - تشكيل وزارة يرضى عنها الاخوان .

وعندما تبلورت اتصالات محمد رياض مع الاخوان فى هذه المطالب عرض الأمر على محمد نجيب ، فرفض الحديث فى ذلك شكلا وموضوعا . رفض فكرة الاتصال السرى بالاخوان مطلقا ، ولذا فهو لم يقابل أحدا منهم .

ورفض مطالبهم من الوهلة الاولى ، لأنه أدرك انهم يريدون حكما ديمقراطيا يستبدلون فيه شخص الديكتاتور ، ويقاومون عودة الديموقراطية والحياة البرلمانية ، وتوقفت الاتصالات بين محمد نجيب والاخوان فى وقت كانت تتجمع فيه مهنحبة الخلاف وغينوم التوترة التى

تجمعت رغم ما قامت به الثورة من تقديم أشرس أعدائهم إبراهيم عبد الهادي في أول قضية أمام محكمة الثورة وصدور الحكم عليه بالإعدام ثم تخفيفه إلى السجن المؤبد . . . ورغم تصفية الأحزاب تصفية رسمية وسجن زعمائها بأحكام محكمة الثورة .

بل يبدو أن الإخوان المسلمين قد وجدوا ذلك فرصة مناسبة للانقضاض على السلطة في وقت أصبحت فيه الساحة السياسية خالية من كل القوى السياسية الاقوتهم .

أصبح الصدام بين حركة الجيش وجماعة الإخوان حتميا . . . تغذيه تخوفات مجلس الثورة من موقف الجبهة المناوئة لهم في الإخوان ، وما يرتبط بها من تنظيم وجهاز سرى مسلح . . . ويغذيه أيضا تناقضات الإخوان الداخلية التي بلغت حد الانفصال والمواجهة .

لم ينجح في اذابة الخلاف ، أو تحاشي عوامل الصدام المقابلات الدورية التي كان يقوم بها عدد من زعماء الإخوان مثل عبد القادر عودة وكامل الشريف (الذي هرب من مصر وأصبح سفيراً للاردن في باكستان) ، مع جمال عبد الناصر وعدد من زملائه أعضاء المجلس .

وتفجر الموقف في ساحة الجامعة يوم ١٢ يناير ١٩٥٤ عند الا-تقال بذكرى شهداء معركة القناة ، وحضور الطلبة الإخوان ومعهم الارهابي الايراني (نواب صفوى) زعيم جماعة (فدائيات اسلام) والذي كانت صحف أخبار اليوم قد هلمت له وأحاطته بدعاية ضخمة . . . وحدث اشتباك بينهم وبين الطالبة الآخريين انتهى إلى اصابة بعض الطلبة . واستخدم الإخوان يومها أسلحة نارية إلى جانب العصي ، مما أحدث جواً بالغاً من العنف والتوتر .

وجد مجلس الثورة نفسه مواجهاً بموقف يحتاج إلى حزم حتى لا تفلت الأمور من قبضتهم ، فقد كان الخلاف داخل المجلس مع محمد نجيب قد أصبح في الشوارع حديث المجتمع ، وظهور العنف داخل الجامعة كفيل بنقله إلى خارجها .

وأصدر مجلس قيادة الثورة يوم ١٤ يناير ١٩٥٤ قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين بعد سنتين كاملتين بالتحديد من حل الأحزاب السياسية .

.. لم يوافق محمد نجيب على قرار حل الإخوان ويقول في ذلك :

« رفضت الموافقة على حل جماعة الإخوان المسلمين عندما عرض الأمر على مجلس القيادة . . . لم أرفض الحل لأنني كنت متشايماً للإخوان ، فقد

سبق أن رفضت اعتبارهم خارجين على قانون الأحزاب ... كان رفضي
لحل الإخوان المسلمين مبنيا على أساس مبدئي ... وليس على أساس
موقف ذاتي » .

ولكن عدم موافقة محمد نجيب لم تؤثر في صدور قرار الحل ، فقد
كان هو الصوت الوحيد المعارض رغم انه لم يكن يسعى لخلق جبهة مع
الإخوان لأنه لم يكن على صلة بهم .

ولكن هذا الموقف أثبت في صدور زملائه الخشية أن يكون هناك
تدبير ما بين محمد نجيب والإخوان ومع ذلك آثروا مواجهة الموقف
في صلابة .

وصدر بيان من المجلس يوجه الى الإخوان المسلمين الاتهامات الآتية :

١ - التقاعس في تأييد المرشد العام للحركة الا بعد خروج الملك .

٢ - عدم تأييد قانون الاصلاح الزراعي والمطالبة برفع الحد الأقصى
للملكية (في حالة التطبيق - الى ٥٠٠ فدان) .

٣ - محاولة فرض وصاية على الحركة بعد حل الأحزاب السياسية .

٤ - اتخاذ موقف المعارضة من (هيئة التحرير) .

٥ - بدء التسرب الى ضباط الجيش وضباط البوليس وتشكيل
وحدات تحت اشراف المرشد مباشرة .

٦ - تشكيل جهاز سرى جديد بعد حل الجهاز السرى الذى كان
يشرف عليه (عبد الرحمن السندى) منذ أيام حسن البنا ... والمعروف
أن السندى كان على صلة بجمال عبد الناصر) .

٧ - حدوث اتصال عن طريق الدكتور محمد سالم الموظف في
شركة النقل والهندسة بين مستر ايفانز المستشار الشرقى للسفارة
البريطانية في مايو ١٩٥٣ مع منير الدلة وصالح أبو رقيق ثم مع
حسن الهضيبي بعد ذلك ... واعتراض جمال عبد الناصر وقتها على
حدوث مثل هذه الاتصالات .

٨ - زيارة حسن العشماوى يوم الأحد ١٠ يناير ١٩٥٤ - أى قبل
قرار الحل بأيام - لمستر كريزويل الوزير البريطانى المفوض ثم عودته في
نفس اليوم لزيارة أخرى امتدت من الرابعة الى الحادية عشرة مساء .

كانت هذه الاتهامات الرئيسية في البيان الذى اعتبر كلمة النهاية
في علاقة حركة الجيش وجماعة الإخوان ... والذى اقترفه صدوره باعتقال
حسن الهضيبي و ٤٥٠ عضوا بالجماعة في القاهرة والأقاليم .

اعتقد الناس جميعا أن صدور البيان وما صحبه من اعتقالات سوف يكون نهاية مثيرة لصلة حركة الجيش بالاخوان . . . فلم يعد هناك شيء يمكن ان يضاف الى تهمة الاتصالات بجهات اجنبية وتدير أجهزة سرية .

كانت الرؤوس قد تناطحت فعلا ، ولكنها لم تستمر في تناطحها ، لأن خطرا مشتركا كان يهددها معا . . . فمجلس قيادة الثورة كان يفقد أنصاره خارج حدود عضويتهم مثلهم في ذلك مثل كافة الأحزاب الفاشية التي تعتمد على آراء ومبادئ عنصرية أوروبية ، كما أن حوادثهم الارهابية السابقة ، وممالة الثورة لهم بالافراج عن القتلة من أعضاء جماعتهم كانت موضع استنكار فئات كثيرة من الشعب .

اكتشف الطرفان أن وقوع المصادمة كان في وقت مبكر وغير مناسب للطرفين . . . ولكن مجلس قيادة الثورة لم يتراجع فورا ، بل أعلنت وزارة الداخلية أنها ستفرج عن كل معتقل لا توجه له تهمة معينة ، وفعلا بدأت الصحف تعلن عن أعداد الذين يفرج عنهم كل يوم . . .

وحرص جمال عبد الناصر الا يقطع الحبل نهائيا معهم ، فقام بعد قرار الحل بزيارة قبر حسن البنا في الذكرى الخامسة لاستشهاده (١٢ فبراير ١٩٥٤) مع صلاح سالم وأحمد حسن الباقوري ، وخطب قائلا : « أشهد الله انى أعمل - وكنت أعمل - لتنفيذ هذه المبادئ وافنى فيها وأجاهد في سبيلها » .

وظلت محاولة اجتذاب جماهير الاخوان عن طريق الجناح المتعاون مع الثورة مستمرة .

كان الصدام مع الاخوان قد تفجر ، ولكنه لم يطع بكل شيء . . . فقد فرضت الأحداث فيما بعد على الحركة والجماعة أن يلتقيا من جديد . . . حتى ينفجر الموقف مرة ثانية في (الصدام الأخير) الذي بدأ في فبراير ١٩٥٤ كما سيأتى ذكره تفصيلا فيما بعد .

وهكذا شملت (سنوات الصدام) صداما مع الاقطاع والأحزاب السياسية والشيوعية والاخوان المسلمين .

ولكن كان هناك صدام آخر ، أكبر خطرا ، وأشد تأثيرا .

الفصل الخامس عشر

صدام الضباط

(كان ١٥ يناير ١٩٥٣ نقطة تحول في تاريخ وتقاليد الجيش المصري . . . إذ دخل الضباط برتبهم وملايسهم العسكرية معتقلين إلى سجن الأجانب)

لم يكن الصدام قاصرا على الطبقة الاقطاعية والطبقة الوسطى . . . ولم يكن فقط بين المدنيين والعسكريين . . . ولكنه كان أيضا في صفوف العسكريين . . . ولم يبدأ متأخرا . . . وإنما بدأ مع اللحظات الأولى للثورة .

كان التخلص من ضباط الرتب الكبيرة لواء وأميرالاي تعبيرا عن صراع الأجيال . . . كما أن تطهير صفوف الجيش من بعض ضباط الرتب الصغيرة كان يتخذ طابعا أخلاقيا أكثر منه سياسيا . . . فالذين فصلوا من الجيش مع أيام الثورة الأولى من الرتب الصغيرة كانت بلاجقهم أو تلاحق بصرفاتهم وأسرهم شبهات متداولة . . . ولم يكن أحد منهم من أبناء الأسر الاقطاعية أو البرجوازية الكبيرة كما سبق أن أوضحنا .

تجاوز عدد الذين فصلوا في المشهور الثلاثة الأولى أكثر من ٥٠٠ ضابط ، وكان تحديد أسمائهم يتم عن طريق المداولة بين أعضاء التنظيم

(الضباط الأحرار) الذى ظل قائما ومتماسكا يعقد الاجتماعات فى مختلف الاسلحة والمناطق ، ولكن بدرجات متفاوتة .

كانت زحمة العمل اليومى وكثرة المسؤوليات الملقاة على عاتق أعضاء مجلس القيادة ، وتكليف بعض أعضاء الصف الثانى بواجبات خارج الوحدات أو خارج الجيش عاملا من عوامل ضعف الحركة التنظيمية بعد ٢٣ يوليو ، الى جانب تدافع عدد كبير من خارج تنظيم (الضباط الأحرار) للعمل والمشاركة والحرص على القول بأن الحركة للجميع ، وتصريح بعض أعضاء مجلس القيادة بأن الضباط (أحرار) فى محاولة لكسب تأييد الجميع .

نشأت التناقضات فى صفوف الضباط وفى اجتماعات أعضاء مجلس القيادة كنتيجة لاجراءات المجلس ورد فعل لقراراته واتجاهاته .

كانت البداية سامية ٠٠٠ الكل يتحرك فى حماس وإخلاص للقضاء على العفن الذى استقر فى السراى ، ولتحرير مصر من جنود الاحتلال ٠٠ رحب الضباط جميعا - الا أفرادا محدودين - بخروج الملك الذى أقسموا له بيمين الطاعة والولاء ، وعاش بعضهم يتصورونه مخلدا .

عندما وجد فاروق مطالب الضباط أمامه فى اليوم الأول قبلها ، عين محمد نجيب قائدا عاما برتبة فريق ومرتب وزير ٠٠٠ وما ان ودعه محمد نجيب يوم ٢٦ يوليو حتى أذاع بنفسه بعد ساعتين فقط من خروج الملك بيانا تنازل فيه عن رتبة الفريق (قائما برتبة اللواء مراعاة لحالة الدولة المالية) على حد قوله - وكان ذلك تعبيرا عن روح التضحية التى يقول محمد نجيب انه كان حريصا على اظهارها « حتى يفهم كل مصرى أن المشاركة فى الحركة لم تكن لكسب شخصى مادي وانما كانت لتحرير الوطن والمواطن » .

ولكن المثل الذى ضربه محمد نجيب لم يحتذ تماما ٠٠٠ وبدأ بعض الضباط يقدمون على تصرفات شخصية مثيرة ، وخاصة الذين كلفوا بأعمال خارج الجيش تحت اسم (مندوب القيادة) ٠٠٠ والذين انتشروا فى مختلف الوزارات والمصالح ٠٠٠ من التموين الى المواصلات ٠٠٠ ومن الاشراف على (قطار الرحمة) الى السيطرة على (وزارة الداخلية) .

وكان أول خروج للضباط من صفوف الجيش ، هو تعيين رشاد مهنا وزيارا للمواصلات ثم عضوا فى مجلس الوصاية ٠٠٠ واختيار ١٨ ضابطا من حملة رتبة اللواء والعميد لتعيينهم فى مناصب مدنية ، وكان منهم سفيران هما على نجيب الذى عين فى لبنان ومحمد سيف الدين الذى عين فى الاردن .

الباب الذى فتح لتعيين الضباط فى مناصب مدنية والذى بدأ فى مجالات خاصة محدودة لم يغلّق من يومها ٠٠٠ وتدفع منه العشرات والمئات كما سيأتى ذكره تفصيلا فى حينه .

وكان تعيين محمد نجيب رئيسا للوزارة بداية لتوزيع أعضاء مجلس الثورة أنفسهم ليكونوا مشرفين على الوزارات أى يشكلون ما يمكن التعبير عنه باسم (وزارة الظل) وعندما استغرقتهم مهمات أخرى أوكلوا أعمالهم الاشرافية الى ضباط من معارفهم الذين يثقون فيهم الأمر الذى أحاط كل ضابط من ضباط القيادة بشبكة خاصة من الضباط تتحرك فى مجال معين، وتتصرف تبعا لسلوك أعضائها الخاص ، دون توافر فرصة لرقابة دقيقة .

ولما كانت الحركة قد تمت بحافز التغيير أساسا دون التعرض لتفصيلات ما بعد التغيير ، ودون تخطيط لحركة المستقبل ٠٠ وارتباط الضباط الفكرى ببعضهم البعض لم يكن يتجاوز حدود ما ورد فى منشورات الضباط الأحرار - إذا كان قد قرئ ثم هضم - والأهداف الستة التى تمثل آمالا طموحا دون طرح السبيل للوصول الى تحقيقها ٠٠٠ فان الآراء بدأت تتنافر وخاصة عقب كل قرار يصدر من مجلس القيادة .

اعترض رشاد مهنا مثلا على قانون الاصلاح الزراعى ، ولم يوافق عليه الا خضوعا لرأى أغلبية المؤتمر المحدود الذى دعا اليه على ماهر ٠٠ ولكنه فى اتصالاته وآرائه كان يمثل جانبا خاصا منفردا غير مرتبط بمجلس القيادة ٠٠٠ وقد فوجئ محمد نجيب عندما قام بزيارته فى مكتبه بقصر عابدين هو وسليمان حافظ لتنهئته بمولود جديد ، بشكوى عارمة يقذفها فى وجهه رشاد مهنا وهو يخطط المكتب بيده قائلا : انه لا يقبل أن يهمل مجلس الوزراء ارسال جدول أعماله الى الأوصياء قبل عقد الجلسة ، وهو عرف جرت الأمور عليه فى عهد الملك ٠٠٠ وقال له نجيب ان هذا العرف يتعارض مع الدستور ، وأنه يكفى أن مشروعات القوانين والمراسيم تصل الى القصر لتوقيعها من الأوصياء بعد اقرارها من مجلس الوزراء .

ولكن رشاد مهنا لم يقتنع بهذا المنطق ، وانتقلت الجلسة الى مكتب بهى الدين بركات حيث كان الأمير محمد عبد المنعم موجودا أيضا ٠٠٠ وفتح الحديث حول جدول الأعمال مرة أخرى كما أثير موضوع الاتصال بالوفود السودانية التى كانت تزور القاهرة ، وقال بهى الدين بركات ان هناك مفاوضات تجري وهو لا يعرف عنها شيئا .

وتم الاتفاق على اجتماع ثان يعقد بعد أيام ٠٠٠ ولكن الثقة كانت قد فقدت بين أعضاء المجلس ورشاد مهنا الذى كان منتميا الى حزب (شباب

محمد) وهو حزب يقف على يمين الإخوان المسلمين ، كما ان محمد نجيب كان مازال يحتفظ في قلبه بأثر لموقف رشاد عندما طلب نقل نفسه من القاهرة الى العريش تجنباً لمواجهة محتملة من جانب السراى ، وكان رشاد بعيداً عن تنظيم الضباط الأحرار وخاصة بعد اتصاله بحسين سرى عامر للتصالح .

وكان رشاد مهنا خلال فترة عمله وصياً على العرش يعطى لنفسه نفوذاً أكثر مما تحتمله مسئولية المنصب ، ويتصل مباشرة بالاجهزة التنفيذية والصحافة لابتداء رأيه في كثير من المواضيع الأمر الذى كان يتعارض فى أحيان كثيرة مع اتجاهات المجلس .

ووصل الأمر غايته عندما قرر مجلس القيادة بالاجماع اعفاء رشاد مهنا من منصبه وتحديد اقامته وعندما وصل الخبر الى بهى الدين بركات قدم استقالته وغادر القاهرة الى عزبته فى (بساتين بركات) .

لم ينزع مجلس القيادة رشاد مهنا من موقعه فى سكون ... وانما آثار ضده عاصفة من الاتهامات لتحسين موقفهم ضد أى عمل مضاد من جانب الضباط .

ولم يكن الموقف هادئاً داخل مجلس القيادة ... كانت بعض قرارات المجلس تلقى معارضة شديدة من جانب يوسف صديق الذى انبرى لمعارضة قانون تنظيم الأحزاب واعتقال السياسيين ومحاولة ضرب الوفد على غير أساس ديموقراطى ... وقد وقف الى جانبه فى المراحل الاولى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيى الدين .

وكان جمال عبد الناصر قد اعتكف فى منزله وأعلن انه لن يشارك فى اجتماعات المجلس اذا كان الأعضاء سوف يتنكرون للديموقراطية . ولكن وحدة يوسف صديق وجمال عبد الناصر لم تستمر طويلاً ، فقد تراجع جمال عبد الناصر عن موقفه أمام الحاح وتفسيرات سليمان حافظ ، واكتشافه أن الوفد ليس فى الصلابة التى تحول دون ضربه ، وتبينه أن الطريق للانفراد بالسلطة ليس شديداً الوعورة والتعقيد .

ولكن يوسف صديق الذى كان يعبر عن رأى الشيوعيين ظل متمسكاً بالديموقراطية والحياة البرلمانية ، رغم انه لم ينجح فى تحقيق رأيه بدعوة مجلس النواب المنحل لتعيين مجلس الوضاية ولا فى منع صدور قانون تنظيم الأحزاب ولا فى منع إعدام خميس والبقرى عمال كفر الدوار فقد كان المؤيدون له أقلية ... وكانت قرارات المجلس تصدر بالأغلبية ...

وظهر بين الضباط وخاصة في سلاح المدفعية اتجاه يدعو الى أن يكون تمثيل الضباط في مجلس القيادة بالانتخاب وتحمس جميع أعضاء المجلس ضد هذا الاتجاه ، الا يوسف صديق .

كان السبب الكامن وراء هذا الطلب هو ما أثير من ملاحظات حول تصرفات شخصية لبعض أعضاء المجلس ، الذين عرف عن واحد منهم انه أقام علاقات شخصية مع الأميرة السابقة فائزة وقدم لها نظير ذلك تسهيلات كبيرة ، والذين اشتهرت زوجة واحد منهم بقوة شخصيتها وأحاديثها عن أعضاء المجلس في السهرات وخاصة في نادي السيارات .

وتصادف أن الاثنین كانا من ضباط المدفعية .

ولذا عقد جانب من ضباط المدفعية اجتماعا مع أعضاء مجلس القيادة ناقشوا فيه هذا الرأي بصراحة مطلقة ولكنهم اعتقلوا يوم ١٥ يناير ١٩٥٣ بدعوى انهم يدبرون مؤامرة لاغتيال أعضاء مجلس قيادة الثورة . وذلك بعد طبعهم لمنشور خاص .

كان هذا الاعتقال هو أول صدام مباشر بين ضباط الجيش ، وكان دخول الضباط برتبهم وملابسهم العسكرية سبباً للأجانب هي أول سابقة في تاريخ الجيش المصري ، تحت القيادة المصرية ، اذ كانت القوانين تنص على حجز الضباط حجزاً شديداً أى تحت الحراسة في ميس إحدى الوحدات ، وليس في غرفة السجن حتى تنتهي المحاكمة .

وكان مجلس القيادة قد حذر منذ أيامه الأولى من تكرار ما حدث في سوريا من سلسلة انقلابات متعاقبة . . . فبادر الى اعتقال ٣٥ ضابطاً من ضباط المدفعية ، وانتهز هذه الفرصة لإصدار قرارات جامحة تظهره في مظهر القوة ، وتقوى قبضته على السلطات ، فكان قرار حل الأحزاب في ١٧ يناير وتشكيل مجلس قيادة الثورة .

اختار مجلس القيادة جانب الصدام المباشر مع ما يحويه ذلك من احتمالات الخطر .

ولم يكن الضباط المعتقلون جميعاً من اتجاه سياسى أو فكرى واحد . . . فقد اعتقل رشاد مهنا واعتقلت أنا أيضاً ، ولم يكن المعتقلون جميعاً من سلاح المدفعية ولكن قلة محدودة منهم كانت من المشاة وبعض المدنيين (محمود رشيد ودكتور عبد العزيز الشال وصبرى الحكيم) .

ولم يقل يوسف صديق مبدأ اعتقال الضباط بعد معارضته الشديدة لاعتقال السياسيين . . . وقرر الاستقالة من مجلس القيادة معلناً ان ضميره لايمكن أن يستريح وهو عضو في مجلس يصدر قرارات تخالف أفكاره

وعقيدته ٠٠٠ ولا يستقيم الأمر بأن قرارات المجلس تصدر بالأغلبية فان المجلس فى ذاته لا يمثل الشعب ، ولا يمثل الجيش أيضا .

أصر يوسف صديق على الاستقالة ، وزاد اصراره بعد عودة الرقابة على الصحف وصدر قانون حل الأحزاب ٠٠٠ ولم يتراجع عنهما رغم ما بذله معه أحمد فؤاد من محاولة اقناعه بأنه ينهى دوره السياسى باختيار الاستقالة من المجلس ٠٠٠ ولكن يوسف وجد أن ضميره سوف يكون مثقلا بما لا يقبله . ولم يعلن المجلس استقالته ، ولكنهم أخبروه على السفر الى سويسرا فى مارس ١٩٥٣ .

وكان المجلس قد تخلص من عبد المنعم أمين الذى غرقت سمعته فى فيض من الأقاويل والشائعات ، فقرر ارساله الى لندن - دون تحقيق - للبحث فى امكانيات التفاوض مع بريطانيا حيث كان الدكتور محمود فوزى سفيرا لنا هناك ، ثم عين سفيرا فى بلجيكا بعد ذلك .

ولم تمض حركة اعتقال ضباط المدفعية فى سكون او بلا اثر ٠٠٠ فقد تجهر ضباط المدفعية عندما بلغتهم أنباء الاعتقالات واجتمع ٤٠٠ ضابط فى ميس المدفعية معانين أنهم سيعتصمون حتى يتم الافراج عن زملائهم ٠٠٠ وطلب جمال عبد الناصر من اللواء محمد حسين مدير المدفعية أن ينصح الضباط بالانصراف والتمسك بالسلوك العسكرى ٠٠٠ وعندما جاوبه بمعارضة الضباط وقف محمد أبو الفضل الجيزاوى أحد الضباط الأحرار وأخرج طبنجته وقال صائحا انه سيضرب كل من يعمل ضد الثورة ٠٠٠ وبعد جدل صاخب اتفق الرأى على أن يكون هناك مجلس تحقيق ومجلس عسكرى يشكلان من ضباط المدفعية ٠٠٠ وأكد جمال عبد الناصر للمجتمعين موافقته على ذلك ٠٠٠ ولكن بعد أن انفض الاجتماع اتخذ مجلس القيادة سبيله الخاص فى التحقيق والمحاكمة بنفسه .

ولم يقف أثر الاعتقالات فى حدود سلاح المدفعية فقط ، ولكنه امتد الى أسلحة أخرى فقد توجه البكباشى حسنى الدمنهورى أحد ضباط اللواء الرابع المشاة لمقابلة اللواء محمد ابراهيم رئيس أركان الجيش وسؤاله عن سبب اعتقال الضباط ، فكان جوابه سلبيا وأبلغه أنه لا يعرف شيئا عن ذلك ، فأخذ يواصل اتصالاته ببعض ضباط سلاح الفرسان ومحاولة اثارتهم للافراج عن زملائهم ضباط المدفعية ٠٠٠ ولكنه فوجئ باعتقاله فى منزله يوم ١٧ يناير .

وبدأت التحقيق معه لجنة مشكلة برياسة عبد اللطيف البهدادى وعضوية عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وذكريا محيى الدين وكان يحرسه ثلاثة هم كمال رفعت وحسن التهامى ومحمد أبو نار ٠٠٠ وخلال التحقيق

وجه اليه صلاح سالم السباب وتبادلا الاتهامات والكلمات البذيئة وقام ضباط الحرس بضربه ضربا شديدا واستمر تعذيبه من الفجر حتى الرابعة مساء دون طعام أو شراب ٠٠٠ وفى منتصف الليل استدعى الى مبنى مجلس القيادة حيث وقف فى السادسة صباحا أمام محكمة يرأسها جمال عبد الناصر وبها كل أعضاء المجلس عدا يوسف صديق وعبد المنعم أمين وأنور السادات وعندما حاول صلاح سالم سب المتهم نهزمه جمال عبد الناصر .

استمرت المحاكمة حتى التاسعة صباحا ٠٠٠ وفى صباح اليوم التالى ١٩ يناير ١٩٥٢ تلى عليه الحكم بالاعدام فى غرفة مأمور سجن الأجانب ثم نقل الى السجن الحربى مقيد اليدين والرجلين بالحديد وهو بملابسه الرسمية .

وظهرت مانشيتات الصحف الرئيسية يوم ٢٠ يناير وهى تعلن (اعدام البكباشى حسنى المنهورى) وكانت هذه هى آخر صحف تطلع عليها فى سجن الأجانب ونحن فى حبس انفرادى ٠٠٠ ومن الغريب أنه كان يجاورنى فى الغرفة البكباشى رشاد مهنا الذى كنت معه فى رأى على طرفى نقيض ، رغم تقديرى لسلوكه وتصرفاته الشخصية .

وكان هذا هو أول حكم بالاعدام يصدر على ضباط فى الجيش المصرى بتهمة أخرى غير الخيانة العظمى ٠٠٠ وقد رفض محمد نجيب التصديق على الحكم رغم الحاح زملائه عليه وتحذيرهم له من خطر الانقلابات العسكرية ، ولكنه أصر على موقفه قائلا :

« اننى لا أريد ان أمضى فى طريق مفروش بدماء الزملاء من الضباط » .

وكان تعذيب حسنى المنهورى قد بلغ محمد نجيب عن طريق قائد حرسه الذى لمح أثناء التحقيق والضرب ينهال عليه والدماء تسيل منه .

وكان هذا التعذيب هو بداية التصرفات الهمجية الوحشية من جانب ضباط القيادة ضد زملائهم فى السلاح ومن بعدهم معظم المعتقلين السياسيين .

كان اعتقال ضباط المدفعية والتحقيق معهم ومحاكمتهم بواسطة أعضاء المجلس هو كلمة النهاية فى وجود تنظيم (الضباط الأحرار) ٠٠٠ فانه بعد نجاح الحركة ليلة ٢٣ يوليو استمرت بعض الاجتماعات التنظيمية بقوة الدفع الذاتى ، ولكنها تباعدت وتهملت ثم توقفت ، لأن أعضاء مجلس القيادة وجدوا فى (الضباط الأحرار) تنظيما يمكن أن يشتركهم ، ويضع تصرفاتهم تحت مجهر النقد والمحاسبة .

ولذا فإنهم سرعان ما استبدلوا التنظيم القديم رغم عدم انضباطه في الاجتماعات وعدم مراعاته للقواعد التنظيمية الحزبية ، بتنظيمات خاصة أخرى تعتمد على الضباط المحيطين بهم القريبين منهم المكونين للشلل الخاصة ، الذين تسرب اليهم عدد لم يكونوا من الأحرار أصلا ، وانما أظهروا براعة في مخاطبة الفرائز الشخصية لأعضاء مجلس القيادة .

ووضع في مراكز القيادة نوعان من الضباط . . أما أهل الثقة الكاملة المرتبطون بأعضاء القيادة ارتباطا شخصيا وثيقا وأما الضباط الذين لا رأى لهم ولا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة . . ولا ينفي هذا وجود بعض استثناءات .

كانت نهاية تنظيم (الضباط الأحرار) القديم ، وبداية تشكيل (التنظيم الخاص) الجديد ، تحولا في نوعية الضباط الداخلين في ميدان السياسة . . لأنه مهما قيل عن طبيعة الضباط ، فلا شك ان (الضباط الأحرار) كانوا يمثلون أكثر الضباط ثقافة واهتماما بالمشاكل العامة وشجاعة في مواجهة الخطر ، واستعدادا لتحمل التضحية .

منحيع أن أغلبية (الضباط الأحرار) احتفظوا بأماكنهم والبعض منهم عين في مراكز هامة وحيوية خارج الجيش أو داخله ، ولكن ذلك كله كان يتم . . . ليس عن طريق ارادة التنظيم وروتيه ، وانما عن طريق العلاقات الشخصية .

كانت شخصية الضباط الأحرار تستند قبل الحركة من ارتباطهم بالتنظيم واستعدادهم للنضال والتضحية . . . ولكنها أصبحت بعد ذلك تستند من رضا القيادات عليهم واستعدادهم للخضوع والمسايرة .

ولكن كثيرا منهم رفض أن تطبق عليهم هذه القاعدة العامة ، واتخذوا مواقف بأسئلة شجاعة تبينوا فيها آراء ليس مهما ان تكون خطأ أو صوابا ، ولكن المهم انها كانت آراء خاصة وليست تابعة .

ولما كان اعتقال ضباط المدفعية قد اعتبر عاملا حاسما في وضع نهاية لتنظيم (الضباط الأحرار) . . . فقد بدأ الضباط المعارضون الرافضون يبحثون عن اسلوب جديد للعمل ، ويتلمسون ساحة جديدة للتنظيم .

توقفت اجتماعات الضباط الأحرار لتمسكهم بحرية المناقشة والديموقراطية . . . وقال بعض المخلصين منهم ان ذلك سوف يفتح بابا للأوامر .

وصدرت الأوامر بنقل بعض ضباط سلاح الفرسان خارج السلاح عندما اعترضوا على اعتقال مجموعة ضباط المدفعية .

ويلاحظ في هذه الفترة ان أعضاء مجلس القيادة لم يتخذوا موقفاً
موحداً من هؤلاء الضباط .. عبد الحكيم عامر نصح أجدهم (توفيق عبده
اسماعيل) أثناء التحقيق منفرداً قائلاً له (أوعى تضعف أحسن يدبوك)
.. وخالد محيي الدين كان ينتهز الفرص لينصحهم بذكر ما يمكن أن
يؤخذ عليهم .

وبينما كان زكريا محيي الدين يحرص على دقة التحقيق ... كان
عبد الحكيم عامر يطلب الإفراج عنهم ويظهر روحاً إنسانية طيبة .
لم يعتقل أحد ويحاكم من سلاح الفرسان ... وتمت محاكمة ضباط
المدفعية بواسطة أعضاء مجلس الثورة مجتمعين عنداً محمد نجيب .
وصدرت عليهم الأحكام بمدد تتراوح من المؤبد الى عام واحد .
وأفرج عنى بلا اتهام أو تحقيق الا كلمات محدودة بعد خمسين يوماً
من الحبس الانفرادى .

كانت ظاهرة التحقيق والمحاكمة بأعضاء من مجلس القيادة تستلقت
النظر لأنها عبرت عن خشية خروج التحقيق الى دائرة واسعة من الضباط
فيخرج الأمر من أيديهم ولا يتم التحقيق وفق هواهم ، ولا تصدر الأحكام
طبقاً لأرادتهم ... ولذا مثلوا دور الاتهام والحكم في وقت واحد .

وكانت الآراء في مجلس القيادة أمام هذه القضية تتأرجح بين ما نادى
به جمال سالم من محاكمة صورية واعدامهم فوراً ... واعتراض
محمد نجيب على أن يكون الخصم هو الحكم .. واقترح عبد الحكيم عامر
بالأ يصدر حكم الاعدام الا بموافقة جماعية ، وان يكون حكم السجن هو
أخف عدد مقترح من السنين يحصل على أغلبية ... وتوترت المناقشة
واعترض خالد محيي الدين على السرعة واقترح عليهم النوم حتى الصباح
لمواصلة المناقشة في جو هادئ .

نام الجميع على الأرض في هذه الليلة ، وهمس خالد لجمال عبد الناصر
قائلاً انه غير موافق على أحكام الاعدام ولا على المحاكمة بهذه الصورة ،
ووافق جمال عبد الناصر مؤيداً « أنا معك » .. فاستمر في المعارضة .

وفي الصباح انجلت المناقشة عن تشكيل المحكمة من مجلس الثورة
عنداً محمد نجيب وان يكون حكم الاعدام بالاجماع والسجن يتقرر بأخف
الأحكام كما اقترح عبد الحكيم عامر .

كان التناقض الرئيسي بين الضباط خلال هذه المرحلة نابعا من
شعور أغليبيتهم بانفراد مجلس القيادة بالسلطة وبأن الكلمات يجب أن
تموت على شفاهم حتى لا يتعرضوا للخطر .

لم يكن هناك تجمع خلف موقف سياسي أو اجتماعي معين ،
مما يمكن رصده في صورة تكتلات واضحة . . . فلم تكن هناك مواقف
معارضة لقانون تنظيم الاحزاب واعتقال السياسيين واعادة الرقابة والغاء
الدستور . الا في صفوف تنظيم الجيش للحركة الديموقراطية للتحرير
الوطني . . . اما فيما عدا ذلك فلم تكن هناك افكار معارضة قد نضجت
أو تبلورت بعد .

ولكن الامر لم يكن كذلك داخل مجلس القيادة ، حيث كانت تناقش
كافة مشروعات القوانين وتدرس كل الاجراءات قبل صدورها .

وحمل خالد محيي الدين لواء المعارضة بعد استقالة يوسف صديق .
ورفضه الاستمرار عضوا في المجلس . . . وقد تجسست معارضته في عدة
مواقف منها قانون الافراج عن المسجونين السياسيين الذي أعلنه سليمان
حافظ واستثنى الشيوعيين باعتبار الشيوعية (جريمة اقتصادية) .

وعندما عرض مشروع قانون العمال اعترض عليه خالد اعتراضا
شديدا لأنه كان يلغى حق الاضراب ويبيح الفصل ، وكان متحمسا لذلك
عبد المنعم امين الذي كان موكولا اليه الاشراف على وزارة الشؤون
الاجتماعية بما فيها العمال ، وهو الذي تطوع لرئاسة المجلس العسكري
لمحاكمة خميس والبقرى في كفر الدوار .

وكان من أهم الحجج التي استند اليها أعضاء المجلس هي ان
راس المال الأجنبي يحتاج الى نسوع من الضغط على العمال ، لضمان
الاستقرار والاستثمار معا .

ولم يجد خالد محيي الدين في ضميره ما يسمح له بالبقاء في عضوية
المجلس مع صدور هذا القانون المتخلف ، فذهب الى مكتبه في سلاح
الفرسان ليكتب استقالته . . . وكان ذلك في اليوم الذي صدرت فيه
الاحكام ضد رشاد مهنا وضباط المدفعية . . . ودخل عليه في مكتبه
جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ودارت بينهم مناقشة انتهت الى
اقتراح جمال عبد الناصر عبر عنه بقوله :

— طيب لو رجعنا القانون وبدأنا نعيد النظر فيه تسحب استقالتك؟

ووافق خالد ، وأعيدت مناقشة القانون أمام مجلس قيادة الثورة
الذي لم يقبل سوى منع الفصل التعسفي للنشاط النقابي مع تأجيل
الموضوع حتى يصدر الدستور الجديد .

وفوجيء خالد يوما بأن بيانات قد وصلت مجلس القيادة تفيد بأن
ضباط سلاح الفرسان ثائرون . . . وكان خالد مقيما بينهم ويناقش معهم.

بعض ما يدور داخل المجلس . . . وقرر المجلس (فصل خالد محيي الدين) ، ولكن ثروت عكاشة أبلغهم انه لا يضمن السلاح بعد فصل خالد . . . وهذا قرر المجلس التراجع عن قراره مع الزام خالد بوقف الاتصال مع أحمد فؤاد ، صلتته في ذلك الوقت مع الحركة الشيوعية . . . ومع عقد اجتماعات المضباط الأحرار أو غيرهم .

كانت التناقضات داخل المجلس تصل أحيانا الى حافة الصدام . . . وتميز بين الاتجاهات وتقرب بين أصحاب الآراء المتشابهة .

وفي معظم الاجتماعات كان محمد نجيب يلحظ ان الموضوعات التي تعرض على المجلس يكون قد سبق مناقشتها بينهم قبل الاجتماع ، وتكون الأغلبية جاهزة . . كما انه بدأ يلحظ ان اجتماعات قد بدأت تعقد دون حضوره .

وتسرب الى نفسه شعور بأن فارق السن قد بدأ يلعب دورا بينه وبينهم . . . دون أن يلحظ أن هناك تناقضات ومصادمات تظهر بينهم . ولذا فانه عندما بلغه يوما أن ضباط سلاح الفرسان وفي مقدمتهم خالد محيي الدين و ثروت عكاشة غير راضين عن أسلوب العمل داخل مجلس القيادة ، وتصرفات جمال عبد الناصر الذي بدأ ينفرد بنفوذه ويشكل قوة خاصة داخل المجلس . . وقال له المصدر الذي أبلغه ان خالد و ثروت مستعدان لتأييده في مواقفه داخل المجلس وخارجه ، أحس وقتها أن فخا ينصب له وانه على وشك الوقوع في شرك ، وذلك كما يقول في كتابه (كلمتي . . . للتاريخ) انه منذ اللحظة الاولى لم يطلب تأييد أحد منهم ولم يحاول تشكيل شلة من بينهم ، وخشى ان تورط في الموافقة أن يكون ذلك دافعا لمزيد من الاثارة والتمزق .

وقد دفعه هذا الاعتقاد الى الحذر . . . بل الحذر الشديد . . . مما دفعه الى ارتكاب خطأ . . . بل خطأ جسيم . . اذ انه روى قصة الاتصال به كاملة داخل المجلس وكانت صدمته شديدة عندما تبين انه لم يكن هناك اتفاق مدبر بينهم للابقاع به في شرك ، وان صراخه قد وضعت خالد و ثروت في حرج شديد .

أثار نجيب هذا الموضوع بحسن نية أو سذاجة ، كشف عن حقيقة كامنة وهي ان الخلافات داخل المجلس لم تعد تتحرك بطريقة فردية ، وانما بدأت تأخذ طابعا آخر ، وتسلك سبيلا جديدا .

وكان جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة يمارس عمله داخل المجلس وخارجه بتركيز شديد يعطى لياه وزمهاره للاتصال بالضباط والسياسيين

ومناقشة المشاكل العامة والاستعداد لجلسات مجلس القيادة حتى ينتج رأي .

وكانت براعته في اجتذاب بعض زملائه لجانبه والحصول بهم على الأغلبية التي يريدونها ، أمرا لا يتوافر لأحد من زملائه ، الذين كثيرا ما كانت تفرقهم بعض المشاكل أو الاهتمامات الخاصة ، والذين لم يحدد أحد منهم طريقه أو رأيه الخاص وإنما كان يندفع مع المجموعة في حماس شديد ، تاركا التفكير لغيره .

كان جمال عبد الناصر أرصن زملائه شخصية ، وأقلهم كلاما ، وأحسنهم استماعا ، وأقدرهم على حل المشاكل بمهارة تكتيكية ملحوظة .

وتميز خلال هذه الفترة بمرونة فرضتها طبيعة الأحداث فهو لم يجمد عند رأيه الخاص بالديموقراطية والأحزاب مثلا ، وإنما اختار طريق انفراد المجلس بالسلطة عندما وجده ممهدا ومحل استجابة أكبر من زملائه . . . ولم يتشبث برأيه الذي أعلنه لضباط المدفعية من أن التحقيق مع زملائهم سوف يكون عن طريق ضباط من المدفعية يحاكمونهم أيضا ، وذلك عندما وجد في هذه الخطوة ما يمكن أن يعرض كيان المجلس للخطر . . . وهو يعيد قانون العمال ليناقشه المجلس ثانية عندما اعتقد أن استقالة خالد محيي الدين يمكن أن تحدث شيئا في صفوف الجيش إذا تمت في وقت واحد مع صدور الأحكام على رشاد مهنا وضباط المدفعية . . . ويقابل حديث محمد نجيب عن خالد وثروت بالصمت دون تفجيده في وقت غير مناسب .

وكما كان جمال عبد الناصر هو مركز حركة الضباط الأحرار ، وأكثرهم اتصالا بالضباط والقوى السياسية المختلفة قبل ٢٣ يوليو . . . فإنه ظل أكثرهم اتصالا بمختلف الضباط أيضا بعد الحركة ، مدركا أن قوته تأتي من صلته الوثيقة بزملائه في مختلف الأسلحة .

ولكن استمرار هذه الاتصالات كان يشكل عبئا شديدا عليه في وقت تضخمت فيه المسؤوليات وتعددت الواجبات ، وتجاوزت مرحلة تكوين تنظيم إلى مرحلة المسؤوليات الكاملة عن مصر . . . وكانت أحداث المدفعية وردود فعلها قد ضاعفت حذره من خطر انفجارات القوات المسلحة ، وفي ذهنه دائما ما حدث في سوريا والعراق ، حيث ضاع بكر صدقي وحسن الزعيم وسامي الحناوي بانقلابات تمت على يد بعض رؤوسهم .

واستقر رأيه على تعيين الصاغ عبد الحكيم عامر زميله وصديق عمره وأقرب زملائه لقلبه وأكثرهم إخلاصا ووفاء له ، حيث كانا يسكنان معا في شقة واحدة قبل الزواج ، قائدا عاما للقوات المسلحة بدلا من محمد نجيب

الذى وصلت شعبيته الى درجة الخطورة على زملائه ، والذي كان حريصا على صلته بالجيش فقام بمئات الزيارات للوحدات منذ ٢٣ يوليو .

كانت الفكرة خطيرة وجريئة معا . . . فان ترقية صاغ الى رتبة لواء هو امر يتناقض تماما مع انضباط القوات المسلحة ، ويتنافر مع طبيعة الضباط الذين تمثل الاقدمية عندهم شيئا مقدسا .

وكان الاعلان عن هذه الفكرة بطريقة مجردة حريا بان يقابل بالرفض والمعارضة من جانب محمد نجيب الذى عاش حياته جنديا يعتز بجنديته . . . ورأى جمال عبد الناصر ان يربط هذه الخطوة الجريئة بخطوات أخرى تكون أكثر جاذبية لاهتمام الناس ، وتضعف من صلابة المقاومة عند محمد نجيب وزملائه فى مجلس القيادة .

ومن هنا كان الربط بين ترقية عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة وبين اعلان الجمهورية وتعيين محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر .

ولكن محمد نجيب لم يوافق . . . اعترض ورفض . . . وقال انه قاوم تعيين محمد حيدر قائدا عاما للقوات المسلحة لأنه كان بعيدا عن صفوف الجيش . . . وهو يقاوم تعيين عبد الحكيم عامر قائدا للجيش لأنه ليس مهيا لذلك .

ولم يياس جمال عبد الناصر من تحقيق فكرته . . . كرر عرض الموضوع على المجلس أكثر من مرة ، وتعرض مجسداً لنجيب لتهجم بعض أعضاء المجلس ، ولكنه ظل يقاوم ثلاثة أسابيع كاملة ، حتى أذعن .

فكر محمد نجيب فى الاستقالة ، ولكنه لم يقدم عليها . . . وهو يقول فى ذلك « أعترف أن هذا كان خطئى الكبير الذى وقعت فيه ، فقد شعرت بعد قليل اننى أصبحت فى مركز أقل قوة بعد ان تركت قيادة الجيش » . وقال لي زكريا محيى الدين ان قوتهم كأفراد يشكلون سلطة المجلس قد انتهت بتعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة .

أعلنت الجمهورية يوم ١٨ يونيه ١٩٥٣ وعين محمد نجيب رئيسا للجمهورية مع احتفاله بمنصب رئيس الوزراء وتخليه عن منصبى وزير الحربية وقائد عام القوات المسلحة . . . ودخل مجلس الوزراء عدد من البارزين فى مجلس القيادة ، حتى لا يثير تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما الحسد والضيق فى نفوسهم . . . فعين جمال عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ، وصلاح سالم وزيرا للإرشاد ، وعبد اللطيف البغدادي وزيرا للحربية .

وكان أول قرار جمهوري وقعه محمد نجيب قرار تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة بعد ترقيته الى رتبة اللواء .

قوبل هذا التعيين بمعارضة مكتومة ، ولكن دون تعبير ايجابي . فلم يستقل من المثات من أصحاب الرتب الاقدم الذين قفز فوقهم عبد الحكيم عامر اللواء حسين محمود قائد السلاح الجوي .

كان وصول عبد الحكيم عامر الى مركز القيادة العامة للقوات المسلحة نقطة تحول هامة في سيطرة أعضاء مجلس القيادة على الجيش بصورة عامة ، وسيطرة جمال عبد الناصر على أعضاء مجلس القيادة بصفة خاصة .

كان تعيين عبد الحكيم عامر هو نهاية اتصال أعضاء مجلس القيادة بالضباط زملائهم في مختلف الأسلحة وقد استقر الأمر على ذلك بدعوى الحرص على الانضباط العسكري ، بينما هو في حقيقته قد انتهى الى عزلة هذه المجموعة من ضباط الجيش ، فلم يعودوا بقادرين على تحريك قواتهم السابقة الى مناقشة أمورهم بصفة قانونية .

وقد أصبحت اليد العليا في السيطرة على القوات المسلحة هي يد جمال عبد الناصر الذي كان يثق ثقة شديدة في صديقه عبد الحكيم عامر ، والذي كانت صفاته الشخصية تجذب الضباط اليه لروحه المرحه وطيبته وإنسانيته ، رغم انه لم يكن يملك مواصفات قائد القوات المسلحة الذي يحتاج الى يقظة وعلم وخبرة وشخصية متماسكة .

وقد أدى هذا التعيين الى وضع خط فاصل بين ضباط الجيش وضباط القيادة ، كما وضع نهاية للانضباط الذي تفرضه الأقدمية ، ذلك أن الرتب الكبيرة كانت تشعر دائما انها تحت مراقبة ونفوذ بعض الضباط الأصغر رتبة والأكثر قدرة على الاتصال بالقائد الجديد وحاشيته .

وبلغ الأمر حدا جعل شمس بدران وهو ضابط برتبة الصاغ يتسلط على مفسير القوات المسلحة ، ويمتنع أفراد الرتب الكبيرة ، فتضطر الى تحيته ، لأنه كان مديرا لمكتب القائد العام عبد الحكيم عامر .

انتهى تماما عهد الجيش النظامي التقليدي ، ولم يبدأ عهد الجيش الوطني الثوري وإنما بدأ عهد الجيش الذي يتم الاشراف عليه بصلات شخصية خفية .

والم يتم التغيير دفعة واحدة ، وإنما تم خلال مراحل من المصادمات . . . أدت الى نقل بعض الضباط للعمل خارج الجيش ، وإلى دخول البعض منهم الى السجن ، كما سيأتي تفصيله فيما بعد .

وقد جعل هذا التغيير بذور الخلاف بين محمد نجيب وأعضاء المجلس تنمو في سرعة شديدة . . .

وبينما كان محمد نجيب هو الذي أعلن عن تشكيل محكمة الثورة في خطاب عام بميدان الجمهورية إلا أنه فوجئ بظهور اسم مصطفى النحاس في قائمة المعتقلين حيث حددت إقامته ، وكان محمد نجيب قد اعترض على ذلك ، لاعتقاده بأن النحاس قد أدى لمصر خدمات جليلة ، ولا يجوز تحديد إقامته وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، وشطب اسمه من الكشف فعلا ، ولكنه فوجئ بإضافة اسمه عن طريق التزوير .

وعندما صدر حكم بإعدام إبراهيم عبد الهادي ، صرح محمد نجيب للندويي الصحفي بمعارضته للإعدام ، حتى لا يعدم دون علمه . . . وقال لبعض أعضاء المجلس أنه يفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقه دون أن يصدق على حكم الإعدام . . . ثم سافر إلى الإسكندرية منتويا عدم العودة احتجاجا على هذا (الانزلاق الخطير) في رأيه . وبعد يومين أمضاهما في استراحة ثكنات مصطفى كامل حضر له جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وذكريا محيي الدين وأبلغوه أنه يمكن استبدال حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة .

الوحيد الذي وقف معه في المجلس ضد حكم الإعدام كان خساند محيي الدين .

وهكذا أصبحت المضادفات داخل مجلس القيادة أعلى صوتا ، محمد نجيب في جانب ومعظم الأعضاء في جانب آخر . . . أقربهم إليه أصبح خالد محيي الدين الذي صاحبه في رحلة لزيارة النسوبة ، حيث التقت أفكارهما معا على أهمية الديمقراطية باعتبارها الحل الوحيد الذي يعطي للشعب حقه ويضمن التعبير على إرادته ، ويعيد الجيش إلى واجبه الأصلي داخل الثكنات .

كانت رحلة التوبة هي بداية اللقاء الفكري بين محمد نجيب وخالد محيي الدين . . . ولكنه لقاء لم يتجاوز الحدود الفكرية إلى آفاق تنظيمية ، فالأثنان معا كانا ضد فكرة تكرار الانقلابات العسكرية ، وكانا حريصين حرصا شديدا على عودة الجيش إلى طبيعته ، وتحاشي الانفجاسات والصدامات الدموية .

ولم يقف دخول الضباط إلى الوزارة عند الحد الثلاثة الذين دخلوا مع إعلان الجمهورية فقد أجبر نجيب على إدخال ذكريا محيي الدين ووزيرا للدخالية وجمال سالم وزيرا للمواصلات في ٥ أكتوبر ١٩٥٣ بناء على قرار

مجلس قيادة الثورة اتخذ في غيبته مع تفرغ جمال عبد الناصر لمنصب نائب رئيس الوزراء .

وكان التوتر بين محمد نجيب وجمال سالم في الذروة ، الأمر الذي دفع جمال سالم الى ارتكاب مخالفة دستورية لم تحدث في تاريخ مصر ، اذ رفض هو وزكريا محيي الدين أداء اليمين القانونية أمام محمد نجيب . .

وعندما وصل الخلاف بين محمد نجيب وأعضاء المجلس الى حد تبادل الاتهامات ثبت اقتراح من أحد أعضاء مجلس القيادة بتدبير عملية اغتيال لمحمد نجيب ، ولكن عبد اللطيف البغدادي عارض هذا الاقتراح في حسم شديد قائلا : (ان الثورة ستضيع اذا نفذ ذلك) .

ولم يكن محمد نجيب خصما عتيدا . . . فهو رغم صراحته وشجاعته وبسالته في حرب فلسطين كان لين الجانب في معاملته مع زملائه ، ينظر اليهم كأبنائه أو أخوته الصغار ، لا يسلك أسلوبهم في محاولة تجميع الضباط وتنظيمهم . معتمدا على سحر شخصيته وجماهيريته في الجيش وخارجه .

ولكن هذا الموقف المتهاون من جانب محمد نجيب قد دفع الى تمادي أعضاء المجلس في مهاجمته والاساءة اليه بالشائعات . . . وتبدلت الحال تماما بعد ان كان جمال عبد الناصر يرحب به في بلدته بنى مر أفساء زيارته لها في مارس ١٩٥٣ قائلا « باسم أبناء هذا الاقليم أرحب بك من كل قلبى وأعلن باسم جميع الفلاحين اننا آمننا بك فقد حررتنا من الفزع والخوف وآمنا بك مصلحا لمصر ونذيرا لأعدائها » ، وعبد الحكيم عامر بقوله في قرية اسطال « ها هو بلدى يبايعك وها هم أولاد رجاله أمامك أقوياء أشداء يعاهدونك على السير معك وثقين بك ومؤمنين » . . .

وبعد أن قال صلاح سالم في المحلة الكبرى يوم ٢٢ يونية « يقول البعض أنه كان يجب انتخاب رئيس الجمهورية انتخابا شعبيا وأعتقد وكلكم تعتقدون أن محمد نجيب قد نجح في أكثر من انتخاب ولقد سار في كل ركن من أركان هذه الدولة والتف حوله ملايين من البشر » .

هذه أمثلة محدودة مما قاله أعضاء المجلس عن محمد نجيب ، ولكن الأمور بينهم تدهورت بسرعة الى درجة التفكير في اغتياله ، وإحراجه باتخاذ القرارات في غيابه ، والاساءة اليه بين حين وآخر .

ولم يكن محمد نجيب وحده قادرا على مواجهة هذه الموجة العنيفة من الكراهية التي بدأت تثور ضده وتحاصره ، فهو بطبيعته كان مفتوحا على الجميع ، لا يدبر شيئا في الخفاء ويرفض الانزلاق الى المؤامرات . . .

وكان حظه سيئاً مع زملائه في المجلس ، كلما تحدث مع واحد منهم بصدر مفتوح أسرع بنقل حديثه الى جمال عبد الناصر فأظهره بمظهر الصداوة والتربص .

كانت الظروف تندفع دفعا الى نقطة الصدام بين محمد نجيب وأعضاء المجلس وتوافرت عوامل أخرى جعلت لهذا الصدام فرقة شديدة داخل الجيش وبين الجماهير .

وهو ما نتحدث عنه فيما يلي عن الأزمة التي كانت بمثابة (الصدام الأخير) .

الفصل السادس عشر

الصدام الأخير

لم يكن الصدام الأخير مع فئة واحدة من الفئات السابقة ، ولكنه كان معها كلها مجتمعة .

لم تكن الخطوات الادارية أو السياسية التي اتخذت قد انتهت . حياة الاقطاع أو الأحزاب أو الشيوعية أو الإخوان ... ولم تكن قد جوبت ضباط الجيش إلى فئة من المطيعين المستسلمين .

كانت كل هذه الفئات قد انحنت للعاصفة ، تنتظر الفرصة المناسبة للمطعن مرة أخرى ... بدأ فبراير ١٩٥٤ وحركة الجيش مثل المريض الذي بدأت تظهر عليه عوارض أمراض مختلفة كانت جراثيمها كامنة تتحين الفرصة المناسبة لحالة ضعف عام في الجسم .

كان أخطر ما تعاني منه حركة الجيش ، التناقض الداخلي بين الضباط ، وتوتر الموقف بين محمد نجيب وأعضاء المجلس ... في وقت امتلات فيه السجون بزعماء الأحزاب والشوعيين والإخوان المسلمين .

كانت جهات الصدام قد تعددت ، وأصبح التركيز على واحد منها أمرا متعذرا .

وانفجر الموقف عندما وجد نجيب أن استمراره رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس قيادة الثورة أصبح أمرا مستحيلا بعد أن وصلت الأمور إلى حالة يصعب علاجها ولا يملك وحده - على حد تعبيره - القدرة على الفصل فيها .

قرر محمد نجيب الاستقالة ... بعد صبر طويل على تحمل معاملة زملائه له ، وهو يبرر ذلك بحرصه على عدم سقوط حركة الجيش فريسة للديكتاتورية ، وتصوره ان وجوده يمكن ان يحقق الديمقراطية .

ولا يمكن اغفاء محمد نجيب من المشاركة الايجابية في كل ما اتخذته حركة الجيش من قرارات ضد الحرية والديموقراطية ... هو الذي وقع قرارات الاعتقال واعداد خميس والبقرى واصدر قوانين الغاء الدستور وحل الأحزاب وتشكيل محكمة الثورة .

ولكنه مع ذلك كان حاجزا ضد جموح أعضاء المجلس الذين أصروا على اعدام البكباشي حسن المنهوري وعارض هو ... وأعلنوا حكم الاعدام على ابراهيم عبد الهادي ورفض التصديق ... واعترض على عمليات الضرب والارهاب التي تعرض لها الضباط يوم دخلوا السجن بملابسهم ورتبهم العسكرية .

قدم محمد نجيب استقالته في كلمات محدودة ... أرسلها الى كمال الدين حسين باعتباره سكرتير مجلس قيادة الثورة الذي كان يسجل قراراته .

ولم تكن الاستقالة تعني انسحابا هادئا من الحياة العامة ... ولكنها كانت تعني في مضمونها انتهاء لأعمال مجلس قيادة الثورة وإقالة لأعضائه ... فقد ارتبطت الجماهير البسيطة بشخصية محمد نجيب التي امتلكت الشارع ووجد الكثيرون فيها حلقة انقاذ لهم من طوفان ديكتاتورية عسكرية تقترب عنه الأفق .

والواقع انها قدمت بعد احتمال محمد نجيب لكثير من العبث والتصرفات الصغيرة ... كانت الرقابة تحذف ما يدلى به من تصريحات ... والإذاعة لا تذيع كلماته الا اذا كانت على الهواء ... والمباحث العسكرية تطبع منشورات تشكك في موقفه ... والشائعات تدبر ضده في الجيش وخارجه .

كل الأجهزة الحساسة لم تكن في قبضة محمد نجيب ... قيادة الجيش والداخلية ووزارة الارشاد وهيئة التحرير ... جميعا كانت في ايدي أعضاء المجلس ... ومعظم الذين احاطوا به من الضباط كانوا مزروعين حوله يبلغون أخباره وتحركاته .

لم يعتمد محمد نجيب الا على شعبيته ... لم يرتبط بتنظيم داخل الجيش ... ولم يعقد اتفاقيات خاصة مع القوى والأحزاب السياسية

المختلفة . . . ولم يكن له نداء معروف سوى الديمقراطية وعودة الجيش إلى
«الثكنات وهو ما قاله صراحة أمام الضباط في ناديهم في ديسمبر ١٩٥٣» .

ولذا كانت الاستقالة بمثابة الاختبار لقوة محمد نجيب في مواجهة
«المجلس . . . وامتحانا لإرادة الشعب» .

ما إن ذهب محمد نجيب إلى منزله بعد تقديم الاستقالة حتى فوجئ
بأن التليفون لم يعد صالحا للعمل .

وظهرت الجرائد في صباح ٢٥ فبراير تحمل هذه المانشيتات :

اجتماع هام مفاجئ لمجلس الثورة .

تعيين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء .

قبول استقالة محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها .

منصب رئيس الجمهورية يظل شاغرا حتى تعود الحياة النيابية إلى
«البلاد» .

وكان مجلس قيادة الثورة قد أعلن هذه الأخبار ضمن بيان وزعه على
«الصحف في الرابعة صباحا» . . . ولم تكن قرارات المجلس بالاجماع فقد
اعترض عبد اللطيف البغدادي وخالد محيي الدين على قبول الاستقالة ،
وأعلن خالد أنه سيقدم استقالته بعد أسبوع .

وجاء في البيان ما يفيد بأن محمد نجيب تحرك إلى مقر القيادة ليلة
٢٣ يوليو بعد مكالمة مرتضى المراغي ، وأنه لم يضم إلى مجلس القيادة
«الأيام ١٥ أغسطس ، وإن جمال عبد الناصر قد تنازل له عن رئاسة مجلس
القيادة لمدة عام واحد رغم أنه كان منتخبا ، وأن محمد نجيب يطالب
بسلطات أوسع وبحق النقض لقرارات المجلس» .

وكان إعلان الاستقالة صدمة للجماهير التي لا تعرف ما يدور في
كواليس السياسة والتي ارتبطت بمحمد نجيب واحبته منذ اليوم الأول
للثورة . . . ولم تجد كلمات البيان صدى عند الجماهير لأنها رأت محمد
نجيب يتصدر الحركة منذ لحظتها الأولى ويوقع بيانها الأول ، ويعرض
نفسه لاحتمالات الانقضاء على الحركة من جانب الملك أو القوات
«البريطانية» .

وعقب استمرار (مجلس قيادة الثورة) على هذا الرأي وتوزيع البيان
على الصحف قام عبد المحسن أبو النور قائد الحرس الجمهوري بعمل خدعة

للقائده الحرس عند منزل محمد نجيب ابعده بها عن المنزل واستبدل القوات
التي كانت تحرس المنزل ونزع أسلحتها .

أصبح محمد نجيب معتقلا في منزله ونشرت الصحف في اليوم
التالي نبأ استقالة أديب الشيشكلي ديكتاتور سوريا ومغادرته لها وتولى
هاشم الاتاسي رئاسة الجمهورية .
كان توافقا غريبا في التوقيت .

وفي اليوم التالي صدرت الصحف تحمل بيانات من مجلس قيادة
الثورة وتصريحات من صلاح سالم وزير الارشاد .

البيانات تقول ان محمد نجيب طلب عسك مقابلة السفراء الأجانب
مطلقا وكان هذا صحيحا لأنه وجد في ذلك اعتداء على مسئولية وزير
الخارجية - حسب روايته - .

وتصريحات صلاح سالم كانت مثيرة حيث قال ان محمد نجيب
قد توعدده أمام الصحفيين لأنه منع نشر تصريح له وأنه سلم نفسه
للسجن الحربي هربا من متاعب محمد نجيب التي خلقها له في الاذاعة .
حتى ذهب له حسين ذو الفقار صبرى وعدد من الضباط أخرجوه من هناك .

وصدر بيان ثالث لشعب السودان جاء فيه « الثورة ليست ثورة
نجيب ولا ثورة جمال أو صلاح . . . العلاقة المقدسة تربط بين شعبينا
الخالدين ، وما الحاكون الا أدوات موقوتة زائلة » .

لم تترك هذه البيانات والتصريحات أثرا في نفوس الناس وبدأت
سلسلة من ردود الفعل في مختلف المواقع داخل الجيش وفي الشارع
. . . . في القاهرة والأقاليم وفي مصر والسودان .

أقوى ردود الفعل وأسرعها كان في سلاح الفرسان ، حيث كانت
الأفكار الديمقراطية تجد مجالا خصبا للنمو ، كنتيجة لوجود خالد محيي
الدين ضابطا لمخابرات السلاح ، وثروت عكاشة أركان حرب السلاح وهو
المعروف بصلة النسب التي تربطه بأحمد أبو الفتوح رئيس تحرير (المصري) .
خلال الفترة السابقة لم تخمد تطلعات أفراد السلاح للديموقراطية.
ورفع قبضة مجلس القيادة القوية عن الجيش

وإثناء نظر مجلس القيادة في استمرار مشروع (النقطة الرابعة) ،
الأمريكي ، اشترى ضباط الفرسان عشر نسخ من كتاب (النقطة الرابعة)
تأليف الكاتب الصحفي أحمد بهاء الدين ، واتصل به بعضهم لمقابلة خالد.

محيى الدين وثروت عكاشة حيث فهم من المقابلة أن مشروعاً معرضاً على القيادة وأن ضباط الفرسان يريدون أن يشكلوا مجموعة ضغط عن طريق مناظرة ينتصر فيها رفض المشروع .

وعندما اختلف ثروت عكاشة مع صلاح سالم بعد نشره مقالاً فى مجلة التحرير بمناسبة مرور عام على الثورة لم يذكر فيه شيئاً عن صلاح سالم ، وإذاعة الأخير لبيان قال فيه أن مجلة التحرير لا تعبر عن الثورة . . . قرر مجلس القيادة وضع مجلة (التحرير) تحت الرقابة شأنها شأن سائر المجلات ولكن ثروت عكاشة رفض تنفيذ القرار وقدم استقالته بعد إجراء عنيف تمثل فى ذهابه الى دار الهلال حيث كانت تطبع المجلة ، وطمس الرصاص وسحب المقالات . . . الأمر الذى أدى الى صدورهما من دار أخبار اليوم بواسطة الاشراف المباشر لأنور السادات بمعاونة مصطفى بهجت بدوى مدير ادارة المجلة . . .

وكادت استقالة ثروت تؤدى الى حركة من جانب ضباط الفرسان لولا وجود خالد محيى الدين وقبول ثروت العمل ملحقاً عسكرياً فى باريس دون خلاف . . . ولكنها كانت إضافة لعوامل الرفض فى نفوس ضباط الفرسان .

كان اليوم التالى لإعلان استقالة محمد نجيب يوم الجمعة . . . ومع ذلك فقد دعا ضباط سلاح الفرسان الى اجتماع عام لم يحضره خالد محيى الدين ولا ثروت عكاشة الذى قد عين ملحقاً عسكرياً فى باريس . . . وحضر حسين الشافعى فطالبه الضباط بعودة محمد نجيب والحياة الديمقراطية ولما عجز عن اقناعهم ، حضر جمال عبد الناصر .

الظاهرة الواضحة فى هذا الاجتماع الذى بدأ فى الساعة مساء كانت تدفق الضباط عليه وظهور نغمة نقد من الضباط العاديين للضباط الأحرار لانهم تركوا الامور تتردى الى هذا الحد .

ووصل جمال عبد الناصر الى ثكنات السوارى فى الساعة والنصف مساء ، وهو الوقت الذى تعود فيه الدبابات المكلفة بحراسة شرق القاهرة الى المعسكر لتفادرها فى الصباح . . . وقد تصور جمال وهو يسمع صواتها دون تعليق انها تتحرك لعمل انقلاب عسكري .

عرض جمال عبد الناصر فى هذا الاجتماع خطوات الثورة وما قامت بتحقيقه . . . ولكنه فوجئ بنقد قاس من الضباط موجه الى تصرفات مجلس القيادة السياسية وتصرفات بعض أعضائه الشخصية .

كانت هناك عدة محاور للمناقشة :

- ١ - الشكل الديموقراطي للتعبير عن ارادة الشعب المصرى .
 - ٢ - المدى الذى يتدخل به الجيش فى شئون الحياة اليومية ، وموعد عودته للشكنات لاداء دوره الطبيعى فى خدمة الوطن .
 - ٣ - تأثير عزل محمد نجيب على اتفاقية السودان ، وكان ابن محمد نور الدين الزعيم السودانى والضابط بالسلاح قد أعلن أن الشعب السودانى عاطفى وان عزل محمد نجيب سيؤدى الى انتصار حزب الأمة .
- وكان هناك أيضا هجوم شديد بالأمثلة على تصرفات بعض أعضاء المجلس فى النواحي المادية والشخصية والنسائية .
- وتحول الهجوم الى عاصفة شديدة لم يستطع جمال عبد الناصر مجابتهها الا بقوله (أنا شخصيا لا مثالب عندى) وصور اسلوب حياته الخاصة . . واستمر الاجتماع حتى الثالثة بعد منتصف الليل ، حيث طلب جمال عبد الناصر العودة للمجلس لاستتشارته والحضور مرة أخرى .
- وكان خالد محيى الدين قد وصل الى مبنى القيادة بعد عودته من حفلة السواريه فى احدى دور السينما واستدعائهم له . . ويقول انه وجد وجوها جامدة أحس فى تضاريسها بالكراهية ولم يكن قد بلغه بعد ما دار فى سلالته .
- وروى لهم جمال عبد الناصر قصة اجتماع السوارى ، وأشار الى صوت الدبابات قائلا انها كانت تتحرك أثناء الاجتماع . . . ودارت مناقشة قصيرة للخروج من المأزق ومجابهة الموقف .
- حسمها جمال عبد الناصر باقتراحات محددة هى تولى خالد محيى الدين رئاسة الحكومة والعمل بسرعة على عودة الحياة الدستورية ، وذلك لفقدانهم الثقة فى محمد نجيب وعدم رغبتهم فى التعاون معه .
- واعترض خالد على هذا الاقتراح قائلا انه لا يقبل البقاء وحده . . . ولكن جمال عبد الناصر قال ان البلد تريد محمد نجيب ونحن لا نستطيع مقاومة التيار . . وتمت موافقة المجلس على الاقتراح بعد تحذير كمال الدين حسين لخالد من عدم تحويل البلد الى شيوعية ، وبعد قبول عبد الحكيم عامر للبقاء مع خالد محيى الدين لفترة محدودة يستقيل بعدها أيضا .
- وذهب جمال عبد الناصر مع خالد محيى الدين الى الضباط المجتمعين فى السوارى ، والذين لم يغمض لهم جفن طوال الليلة . . . وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا تقريبا .

وأعلن جمال عبد الناصر ان المجلس وافق على ما يأتي :

- ١ - حل مجلس قيادة الثورة .
- ٢ - عودة محمد نجيب رئيسا لجمهورية برلمانية .
- ٣ - يشكل خالد محيي الدين حكومة انتقال لمدة ستة شهور .
- ٤ - تجرى الحكومة انتخابات لجمعية تأسيسية لتضع دستورا دائما .

٥ - يعود أعضاء مجلس قيادة الثورة الى وحداتهم .

ضجت القاعدة بتصفيق شديد ، وضاعت محاولات الكلام في ضجة الموافقة وخرج جمال عبد الناصر من سلاح الفرسان مع خالد محيي الدين .

وتوجه خالد محيي الدين مع اليوزباشى شمس بدران وضابط آخر الى منزل محمد نجيب لابلغه بقرار مجلس قيادة الثورة وقد رحب محمد نجيب بالقرار ترحيبا شديدا وكانت علاقته بخالد قد أصبحت علاقة وثيقة على خلاف علاقته ببقية أعضاء المجلس .

وعندما عاد خالد محيي الدين الى القيادة كانت معالم الصورة تتغير تدريجيا ، فان ضباط الصف الثانى المحيطين بمجلس القيادة رفضوا الاستجابة لقرار مجلس قيادة الثورة وعودة الضباط الى الثكنات ، فحملوا السلاح وتملكتهم حالة هستيرية ، وتصرفوا تصرفات فردية . . . وحاول بعضهم الاعتداء على خالد محيي الدين فمنعهم عبد الحكيم عامر وجمال سالم .

ورفض هؤلاء الضباط تسليم بيان مجلس القيادة الى مندوب الاذاعة الذى حضر فى السابعة والنصف صباحا .

كان يحمل لواء المعارضة للقرارات البكباشى أحمد أنور قائد البوليس الحربى والصاغ مجدى حسنين وقائد الجناح وجيه أباطة واليوزباشية كمال رفعت وحسن التهامى ومحمد أبو الفضل الجيزاوى والصاغ سعد زايد وغيرهم من الضباط الذين خرجوا عن حدود الانضباط وبدأوا يهاجمون أعضاء المجلس الذين اتخذوا هذا القرار .

وفى مكتب عبد الحكيم عامر ارتفعت ضجة النقاش وتبين خطر الصدام المسلح ووقف عامر فوق مكتبه شاهرا سلاحه مهددا بالانتحار اذا حدث قتال بين أسلحة الجيش ووحداته .

ومع ذلك لم يرتدع ضباط الصف الثاني ، وتحركوا تلقائيا لتنفيذ رغباتهم دون تنسيق . . . بعض ضباط المدفعية أحضروا المدفعية المضادة للدبابات وحاصروا سلاح الفرسان من جهة الشارع ، وجنود إحدى كتائب مدافع الماكينة وجهت مدافعها نحو اسلاك السلاح من داخل ثكنات العباسية وحول البوليس الحربي مسار عربات واتوبيسات سلاح الفرسان ، واعتقلوا من بها من الضباط . . وأخرج على صبري ووجيه أباطة الطائرات لتحلق فوق سلاح الفرسان .

فوجيء ضباط الفرسان بهذه التغييرات المفاجئة وحاول البعض منهم تفادي صدام دموي مسلح فذهبوا لمناقشة أعضاء القيادة ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك فقد اعتقلوا ومنعوا من العودة .

ولم تقف التصرفات الذاتية لضباط الصف الثاني عند هذه الحدود . . . بل ان اليوزباشية كمال رفعت وداود عويس اتجها الى منزل محمد نجيب دون أوامر لاعتقاله ولما اعترضهم الحرس اتصلوا بصلاح نصر قائد كتيبة الحرس الجديد فأذن لهما بالدخول .

كان الوقت فجرا ومحمد نجيب في فراشه عندما دخلوا عليه وطلبوا منه أن يلبس للخروج معهما . . . واعترض نجيب قائلا ان صلاح سالم أبلغه تليفونيا بقرارات المجلس وان خاله محيي الدين قد زاره شخصيا منذ حوالي الساعة . . . وطلب الاتصال تليفونيا بأحدهما ولكن كمال رفعت رفض ذلك .

وأخرج محمد نجيب من داره برغما وهو يتسائل عما إذا كان معتقلا ، وعن الوجهة التي يقصدونها . . . ولكنه لم يتلق جوابا شافيا .

وتحركت العربة الملاكى الخاصة الى ميس المدفعية بالمظلة وكان اليوم شديد البرودة ، فطلب محمد نجيب الجلوس في الشمس ولكنهم اصرروا على استبقائه في إحدى الغرف حتى لا يشاهده الجنود .

وترك كمال رفعت محمد نجيب في ميس المدفعية مع أركان حرب السلاح الصاغ أبو اليسر الأنصاري وعاد الى مبنى القيادة ليبلغ عبد الحكيم عامر الذي ثار عليه وانبه هو وصالح نصر قائد كتيبة الحرس . . . وأرسل اليوزباشي حسن التهامي للأفراج عن محمد نجيب وأعادته الى منزله .

وفي طريق العودة لم تستطع العربة الجيب العسكرية ان تسلك طريقا جانبيا مهجورا وغير معبد . واعتقد محمد نجيب انهم سيطلقون عليه الرصاص من ثبات ضرب النار التي يمر بها هذا الطريق . . وقال لحسن التهامي أنه لا يهاب الموت ولكن دمه سوف يظل لعنة عليهم .

ووصل محمد نجيب الى منزله سالماً بعد يوم عصفت بنفسه التوقعات.
المختلفة ، وكسرت فيه قواعد الاجترام لرئيس الجمهورية وتمزقت نهائيا
وحلة الضباط الأحرار .

ولم يكن رد الفعل الوحيد لاستقالة محمد نجيب قاصرا على ما حدث.
فى سلاح الفرسان ٠٠٠ ولكنه كان موقفا ضمن عدة مواقف أخرى .

ضباط المنطقة الشمالية فى الاسكندرية عارضوا استقالة محمد نجيب
فور اعلانها ، وكانوا قد عبروا عن رأيهم فى ضرورة ابقاء محمد نجيب رئيسا
للجمهورية وعدم التهجم عليه فى اجتماع عقده حسن ابراهيم معهم فى نادى
الضباط موقفا من مجلس القيادة ، وحاول فيه الاساءة الى محمد نجيب
بأحاديث شخصية اعترض عليها أحد ضباط الفرسان (اليوزباشى أمال
المرصفى) عضو تنظيم قسم الجيش فى حدثو سابقا ، وايده جميع الحاضرين
بالتصفيق .

كان مجلس القيادة قد أوفد البكباشى صلاح الدين مصطفى الملحق
العسكرى الذى استشهد فى عمان بعد ذلك للتعرف على رأى ضباط
الاسكندرية ٠٠٠ وقد صارحناء وقتها بأننا لا يمكن ان نقف ضد الحرية
والديمقراطية التى ينادى بها محمد نجيب والتى خرجنا من أجلها ليلة ٢٣
يوليو .

كان موقف أغلبية ضباط الاسكندرية حاسما وواضحا فى تأييد
محمد نجيب .

وتجاوزت ردود الفعل حدود الجيش

عميت المظاهرات بشوارع الخرطوم وبعض مدن السودان نهيب
(لا وحدة بلا نجيب) وكان محمد نجيب قد أصبح رمزا للوحدة عند
السودانيين فمدة خدمته الطويلة هناك ، ودفن والده وخاله الضابطين
بالجيش فى السودان ، وعلاقته الوثيقة ومعرفته بكثير من الزعماء والبسطاء
هناك جعلت منه شخصية شعبية محبوبة فى السودان كما فى مصر .

وخرجت المظاهرات أيضا فى القاهرة تهتف بحياة محمد نجيب منذ
الصباح الباكر .

وفى الوقت الذى احاطت فيه قوات الجيش بسلاح الفرسان وتم
اعتقال عدد كبير من ضباطه بلغ الأربعين ٠٠٠ وبدأ الأمر كما لو ان مجلس
الثورة قد انتصر تماما ، عقد اجتماع فى ظهر ذلك اليوم اقترح فيه صلاح
سالم وجمال سالم وحسن ابراهيم وكمال حسين وأنور السادات اخراج

خالد محيي الدين من المجلس واعتقاله . . . وطالب البعض بتحديد اقامته
في مرسى مطروح بينما طلب عبد الحكيم عامر تسفيره للخارج .

الوحيد الذي عارض اتخاذ اجراء ضد خالد محيي الدين كان
عبد اللطيف البغدادي الذي قال ان خالد لم يخف آراءه عنا وكان معروفا
ان له آراء مختلفة وقد طلب ان يستقيل وقد رفضنا .

وحسم جمال عبد الناصر المناقشة بقوله ان القضية ليست قضية
خالد محيي الدين ولكنها قضية محمد نجيب ، فاذا تقرررت عودة محمد نجيب
فلا بد من عودة خالد أيضا .

وبدأت مناقشة موضوع محمد نجيب . . . وكان قد تقرر تشكيل
محكمة من جمال سالم والبكباشي أحمد أنور والصاغ أحمد عبد الله لمحاكمة
ضباط الفرسان المعتقلين والذين نقلوا الى مقر البوليس الحربى فى محطة
مصر .

وأثناء الاجتماع اتصل أحد ضباط الفرسان (يوزباشى محمود
حجازى) بعبد الحكيم وأبلغه أنه اذا لم يفرج عن كل الضباط المعتقلين
فان الدبابات المحاصرة ستوجه نيرانها على مبنى القيادة . . . وليحدث بعد
ذلك ما يحدث .

وكانت المظاهرات تزداد انتشارا فى شوارع القاهرة وتهتف (لا ثورة
بلا نجيب . . . الى السجن يا جمال . . . الى السجن يا صلاح) . . .
ومناقشات مجلس القيادة فى مصر محمد نجيب مستمرة لا تنقطع .

وعند الثالثة بعد الظهر كان الارهاق قد استبد بجميع أعضاء المجلس
بعد ليلة مرهقة حافلة بالأحداث ، فقرروا رفع الجلسة للنوم أربع ساعات
. . . وطلب منهم جمال عبد الناصر تفويضا بالتصرف اذا ساءت الأمور خلال
هذه الساعات ، فوافقوا على ذلك . . . وكان هو الوحيد الذى بقى فى مقر
القيادة بعد أن ذهب الجميع لخطف وقت للراحة . . . وكانوا خلال هذه
الفترة لا ينامون فى منازلهم .

وما هى الا برهة قصيرة حتى كانت الأخبار تتلاحق على مجلس قيادة
الثورة . . . وكالات الأنباء تحمل أخبار مظاهرات السودان . . . البكباشي
صلاح مصطفى يصل من الاسكندرية حاملا موقف ضباطها تأييدا لنجيب
. . . وأخيرا عودة صلاح سالم وقد صدمه منظر المظاهرات تملأ الشوارع
أمام قصر عابدين وهو فى طريقه الى منزله .

وقال صلاح سالم لجمال عبد الناصر الذى كان يجلس وحيدا فى

الغرفة ٠٠٠ « أما ان ينزل الجيش لتفريق المظاهرات وأما أن يلتهب الموقف » .

ولم يجب جمال عبد الناصر . . الذى جلس فى صمت وقد وضع رأسه بين يديه .

وتابع صلاح حديثه « أعتقد انه لا بد من عودة نجيب » .

وظل جمال عبد الناصر صامتا لا يجيب .

وقال صلاح سالم « سأبلغ الخبر للإذاعة » .

واستمر صمت جمال عبد الناصر .

وكرر صلاح عبارته فى الحاح .

ولم ينطق جمال عبد الناصر . . . ظل محتفظا بصمته وأفكاره .

ولم يجد صلاح سالم بدا من تبليغ الإذاعة بخبر عودة محمد نجيب .

وفوجئ أعضاء المجلس فى منازلهم ببيان تذييعه الإذاعة فى السادسة من مساء ٢٧ فبراير ١٩٥٤ يقول « حفظا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك » .

وصحب هذا البيان بيان آخر تكررت إذاعته « تعلن قيادة الثورة ان أى إخلال بالأمن فى أنحاء البلاد سيقابل بكل شدة وعنف » .

عاد محمد نجيب رئيسا للجمهورية .

التمزق الذى حدث فى صفوف الجيش . . والتأييد الشعبى الجارف فى مصر والسودان . . وعجز مجلس القيادة عن اتخاذ قرار أمام تتابع الأحداث . . كالتى هى العوامل التى أعادت محمد نجيب ، وأبقت خالد محيى الدين عضوا فى مجلس قيادة الثورة .

عاد محمد نجيب عودة المنتصر .

ونشرت صحف الصباح ٢٨ فبراير بيانا على لسانه قال فيه :

« أرى من واجبى أن أبين لآخوانى وأبنائى المصريين والعرب اننى استقلت من منصبى بمحض ارادتى مقتنعا بأن مجلس الثورة هو الهيئة التى تركزت فيها غاياتنا العليا ، ورسمت أهداف الثورة السابقة التى ترمى الى رفعة الوطن واستقلاله ، وما أقدمت على هذه الاستقالة الا لكى أتيح

لاخوانى أعضاء المجلس الفرصة للعمل على تحقيق هذه المبادئ والعمل على طرد العدو الغاصب الذى مازال يحتل جزءا من أرضنا الطاهرة وانى لاهيب بالمصريين المخلصين والعاملين ان يتحدوا صفا واحدا خلف اخوانهم واخوانى أعضاء مجلس قيادة الثورة ، يعملون معهم جاهدين لتحقيق الأهداف السابقة .

لم تكن عودة محمد نجيب هزيمة لطرف من الأطراف ، وانتصارا للطرف الآخر . . . ولكنها كانت توفيقا فرضته الظروف الحساسة المتوازنة ، وبداية رحلة جديدة من المواجهة الصريحة والمستترة .

التناقضات القديمة تراكمت وكادت تتحول الى صدام مسلح بين قوات الجيش ، لولا الحرص الشديد على تجنب اراقة الدماء .

وبدا محمد نجيب يومه الأول بعد العودة بالذهاب الى قصر عابدين حيث تدفقت المظاهرات رغم بيان المجلس الذى تكررت اذاعته عدة مرات . . . وحديث اصطدام بينها وبين البوليس أدى الى اصابة ١٣ متظاهرا . حمل المتظاهرون قمصانهم الملوثة بالدماء يلوحون بها الى محمد نجيب الذى خرج يخطب فيهم من شرفة قصر عابدين وعندها لمس نجيب هياج الجماهير وارتفاع هتافات الاحتجاج ضده . الاعتداء عليهم . استدعى اليه فى الشرفة عبد القادر عودة أحد زعماء الاخوان المسلمين ليهدى من ثائرة المتظاهرين ، وخطب فيهم قائلاً انه لم يقبل العتسول عن الاستقالة الا من أجل الحرية والديموقراطية والانتخابات البرلمانية .

وابلغ محمد نجيب النائب العام للتحقيق فى حادث الاعتداء على المتظاهرين .

وفى اليوم التالى . . . أول مارس ١٩٥٤ ظهرت الصحف وفيها أخبار القبض على ١١٨ شخصا بينهم عبد القادر عودة وأحمد حسين ، كما تقرر إيقاف الدراسة فى الجامعات الثلاث الى نهاية الأسبوع ، حيث كانت المظاهرات قد اجتاحتها أيضا .

وسافر محمد نجيب فى نفس اليوم الى السودان لحضور افتتاح البرلمان السودانى بناء على ارتباط سابق . . . مع صلاح سالم وأحمد حسن الباقورى .

كان موعد السفر غير مناسب اطلاقا فالأمور لم تهدأ بعد فى مصر ، وكثير من المشاكل كانت تحتاج الى حل ومواجهة .

• وكانت هناك فى الخرطوم مفاجأة شديدة •

جماهير حزب الأمة احتشدت فى المطار والشوارع المؤدية اليه تعلن
ارادة الانتصار بعد انتصار الحزب الوطنى الاتحادى فى الانتخابات وتعيين
اسماعيل الأزهري رئيسا. لوزارة السودان هاتفة (لا مصرى ولا بريطانى ...
السودان للسودانى) •

ورغم ان الصديق المهدي كان فى استقبال محمد نجيب فى المطار ،
الا ان المظاهرات أخذت شكلا معاديا ، واصطدام الجماهير بالبوليس أفسد
مظهر الاحتفال بافتتاح البرلمان السودانى وحاصر المدعوين فى أماكنهم ...
وكان محمد نجيب فى القصر الجمهورى يحاول الاتصال عيشا بالسيد
عبد الرحمن المهدي ، واجتمع بالسفراء العرب لمناقشة طبيعة المظاهرات
فاجمعوا على ان استفزازات البوليس قد (شوهت الموقف وحولته الى
مجزرة) •

وغادر الخرطوم مع الفجر محمد نجيب وزملاؤه ، كئيبا غادروها أيضا
سلوين لويده الوزير البريطانى ولم يفتتح البرلمان السودانى •• وقد حكمت
المحكمة العليا التى كان يرأسها قاض بريطانى بعد ذلك باعدام عوض صالح
رئيس تحرير جريدة الأمة ومدير قاعة عبد الرحمن المهدي وبالبلية المؤبد
على الصحفي على فرج بالجريدة ، وأربع سنوات على عبد الله عبد الرحمن
نقله الله سكرتير عام منظمات الانصار •• وقد خففت محكمة الاستئناف
بعد ذلك حكم الاعدام الى المؤبد ، وحكم المؤبد الى عشر سنوات •

• وبعد عودة محمد نجيب استمرت حركات الاعتقال •• فتم يوم ٣
مارس اعتقال ٤٥ من الأخوان ، ٢٠ من الحزب الاشتراكى ، ٥ وفدين ،
٤ شيوخين •• وصدر قرار باستمرار إغلاق الجامعة لمدة اسبوع آخر •

كان هذا دليلا على أن عودة محمد نجيب لم تكن استقرارا للوضع ،
ولكنها كانت فرصة لالتقاط الانفاس للتباطح من جديد •

طالب محمد نجيب باطلاق سراح المعتقلين ، وتحقيق النيابة مع
المستولين عن جرحى المظاهرات •• وصرح فى مؤتمر صحفى حضره عدد
كبير من مندوبى وكالات الأنباء والصحفيين الأجانب الذين توافدوا على مصر
بعد الأحداث الأخيرة « اننى لا أرى أن أكون رئيسا للجمهورية فى بلد
غير ديموقراطى وغير برلمانى •• وانه سيفرج عن المعتقلين جميعا » •

وعقد مجلس قيادة الثورة اجتماعا لم يحضره محمد نجيب ولا خالد
محيى الدين الذى كان قد سافر الى وادى النطرون بناء على نصيحة

ذكريا محيي الدين لبيتعد عن القوات المسلحة التي اعتبرت حركة سلاح
الفرسان بمثابة شرح عميق فيها .

وجده المجلس ان الصدام المباشر ليس في صالحه ، وان جميع القوى
السياسية متربصة به رغم اعتقال زعمائها . . . واقترح جمال عبد الناصر
ان ينفس من الضغط المتراكم بقرارات تتيح لهم البقاء فترة في هدوء .
وصدرت قرارات ٥ مارس التي أعلنها جمال عبد الناصر في بيان
جاء فيه :

قرر مجلس قيادة الثورة اتخاذ الاجراءات فورا لعقد جمعية تأسيسية
منتخبة بطريقة الاقتراع العام المباشر على ان تجتمع خلال يوليو ١٩٥٤
ويكون لها مهمتان :

١ - مناقشة مشروع الدستور الجديد واقراره .

٢ - القيام بمهمة البرلمان الى الوقت الذي يتم فيه عقد البرلمان الجديد.
وفقا لاحكام الدستور الذي ستقره الجمعية التأسيسية .

وقرر المجلس أيضا إلغاء الرقابة على الصحف . . . والغاء الاحكام
العرفية قبل اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية . . . على ان يكون لمجلس
الثورة سلطة السيادة لحين اجتماعها . . . كما ان تنظيم الاحزاب سيكون
متوقفا على الدستور الجديد . . .

وصرح جمال عبد الناصر بأنه ينوى الافراج عن المعتقلين أما الذين
لم يحاكموا بعد فلن يقدموا للمحاكمة . . . وقال « سأنسى الاساءة التي
لحقت بي وسأنظر للجميع على اختلاف ألوانهم باعتبارهم مواطنين يعملون
جميعا لصالح الوطن . . . كما اننى سأنسى كل ما أصابنى ، وسأنظر في
بناء مصر على أسس ديموقراطية صحيحة » .

سادت مصر روح جديد . . . وعقب الجو بنسيم الحرية . . . وعادت
الحيوية الى الصحف بعد رفع الرقابة . . . ولكن اليقين باستقرار
الديموقراطية لم يكن واردا . . . فان مركز السلطة والنفوذ كان في يد
مجلس قيادة الثورة . . .

وظهرت عدة مقالات متباينة الآراء في الصحف . . . الدكتور وحيد
رأفت يدافع عن الديموقراطية في المصرى . . . وأنور السادات يكتب في
الجمهورية قائلا « ثم كان ما أعلن بالأمس . . . وما أعلن بالأمس ان هو
الا خيوط ملحمة كبرى بدأت منذ شهور طويلة وكان لابد ان تصل الى القمة
في يوم من الأيام . . . قصة أرادها الانتهازيون والموتورون قوضى ودماء » .

ويشأ الله ان يريدنا على لسان رفاق الثورة حرية فى القول برفع الرقابة
عن الصحف وحرية للشعب فى أن يختار فيعلن عن موعد انعقاد الجمعية
التأسيسية بالانتخاب الحر المباشر » .

وجمال عبد الناصر يصرح للصحفيين : « هذه القرارات اتخذها
مجلس الثورة من أجل مصلحة الوطن العليا » .

ولكن قرارات ٥ مارس لم تكن النهاية فى قضية الخلاف بين محمد
نجيب ونخاله وبين أعضاء مجلس القيادة . . فقد بدأ كل فريق يتحرك ضد
الآخر بأساليب مختلفة .

اعتمد محمد نجيب على شعبيته وعودته منتصرا فطلب أن يعود
رئيسا للوزراء بعد أن كان جمال عبد الناصر قد تولى هذا المنصب واستمر
فيه حتى ٧ مارس الى أن عاد محمد نجيب فى اليوم التالى رئيسا لكل من
الجمهورية ومجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة . . . وأخذ يوالى
تصريحاته قائلا : « ان كل ما يقال من اننا نبغى الاستمرار فى حكم عسكري
ما هو الا هراء وفساد وازعاج » . . . وابلغ الصحف عن خطاب وصله من
حسن الهضيبي من داخل المعتقل يطلب منه الرجوع عن حل الاخوان
والافراج عن المعتقلين . . .

وخطاب آخر وصله من نقيب المحامين عمر عمر . لدفع الاعتداء الجسيم
الذى وقع على المحامين أحمد حسين وعبد القادر عودة وعمر التلمساني ،
والدعوة لجمعية عمومية تطلب عودة الحياة النيابية وعمل ميثاق وطني .

واستمر محمد نجيب على أسلوبه . . . لا يقيم صلات تنظيمية مع
الضباط الموالين له ، لا يخطط معهم حركة ما فى المستقبل . . . ولا يربط
نفسه بحزب أو قوة سياسية معينة اعتمادا منه على تأييد (كل) الجماهير .

هذا بينما اعتمد مجلس قيادة الثورة على أسلوب آخر ، هو الاعتماد
على القوات المسلحة التى كان قادة وحداتها قد عينوا بأمر عبد الحكيم عامر
. . . وحاولوا تضيق شقة الخلاف فافرجوا عن ضباط المدفعية الذين
حوكموا فى بداية عام ١٩٥٣ ، وأقام عبد الحكيم عامر مأدبة عشاء فى نادى
الضباط حضرها ١٣٥٠ ضابطا وخطب فيها محمد نجيب وأعضاء المجلس
فى محاولة لترطيب الجو وتهذيبه .

لم تكن هناك قوة سياسية يستطيع أن يعتمد عليها أعضاء مجلس
القيادة بعد أن حلت جميعا ووضع قاداتها فى السجن . . . الا هيئة التحرير .

وكانت هيئة التحرير قد قامت في نشاطها على أساس الدعاية لجمال
عبد الناصر . . . وليس لمحمد نجيب .

كان الموقف يندفع اندفاعا نحو انتخابات الجمعية التأسيسية .

كتب سليمان حافظ في مذكراته يقول « كان يتعين علينا ان نحسب
حساب الوفد في الانتخابات المقبلة بحكم انه اكبر الأحزاب القديمة وأكثرها
نظاما ومن ثم كنت وجمال عبد الناصر متفقين على الا نكتفى بتقليد اظافره ،
بأن نجرده من العناصر الطيبة التي كانت منتمة اليه لتنتظمها جبهتنا بل
يجب أن يأتلف تحت علمها جميع خصومه من رجال الأحزاب الآخرين
والمستقلين ونظرا لضيق الوقت رأينا ان نسلك اليهم طريق زعمائهم ومن
أجل هذا نشطت للاتصال بهؤلاء الزعماء وعملت على رفع الحجب عن
بعضهم » .

وطلب جمال عبد الناصر من ابراهيم الطحاوي سكرتير مساعد هيئة
التحرير الاتصال بالسياسيين الثمانين الذين سبق له الاتصال بهم عند
تكوين الهيئة وأيدوا استعدادهم الكامل للتعاون معهم وكان من بينهم
الدكتور محمد صلاح الدين عضو الهيئة الوفدية ووزير الخارجية السابق ،
وفكري أباطة واللواء محمد فتوح النائب الوفدي وغيرهم ، وذلك لأن خطة
المجلس كانت الاستقالة والتقدم للانتخابات كحزب من الأحزاب .

وفعلا ابراهيم الطحاوي بأن السياسيين قد تراجعوا عن موقفهم
السابق ، وعادوا إلى أحزابهم القديمة ، بما فيهم الدكتور محمد صلاح الدين
الذي كان مرشحا ليكون سكرتيرا عاما لهيئة التحرير .

وانتهزت بعض الصحف فرصة رفع الرقابة عن الصحف فتمادت
في الهجوم على العسكريين . . . مثل مجلة (الجمهور المصري) التي هاجمت
البوليس الحزبي وأحمد أنور هجوما قد يكون بعض ما ورد فيه صدقا ولكنه
كان مستفزا أو مشيرا ، ودافعا لتسبب المجلس وضباط الصف ، الثاني
بالسياسة خوفا مما يمكن أن يحدث لهم اذا تغيرت الأمور وبدأوا يخضعون
للتحقيق والنصب ، وكشف ما ارتكبه بعضهم من أخطاء وانحرافات قدم تصل
بهم إلى دائرة العقاب أيضا . . .

وانتشرت النكتة التي تروى قصة رجل كان يجلس مع زوجته في
القطار فعاكسها ضابط يجلس بجانبها فلما اشتكت لزوجها صفعه على
وجهه . وفوجيء الركاب برجل يهرع من آخر العربدة ويصفع الضابط أيضا
ولما سأله الناس عن سبب ذلك ، قال (الله . . . هيه مش الثورة خلصت) .

بعض القوى اندفعت كالشور الهائج فى حلبة المصارعة دون أن ترى
السهم فى يد الفارس الذى يركب الحصان وهو يتحين الفرصة ليرشقها
فى رقبة الواحد بعد الآخر .

كانت الحلقة تضيق حول مجلس القيادة . . . التناقضات بين الضباط
ما زالت قائمة . . . البعض الذى لم يستفد يطالب بالعودة للثكنات ،
والمستفيئون من رجال الصف الثانى وبعض المقتنعين بفساد القديم عن
يقين يصرون على استمرار الثورة . . . والقوى السياسية كلها معادية ومن
خلفها جماهيرها . . . وهيئة التحرير بعد تخطى السياسيين عنها اضعف
من ان تحقق شيئا .

وفى يوم ١٩ مارس انفجرت أربع قنابل فى اتحاد متفرقة من القاهرة .
وفى صباح ٢٠ مارس كان اجتماع المؤتمر المشترك ، واثرت قضية
الانفجارات طلب جمال سالم وكرزيا محيى الدين اتخاذ اجراءات صارمة
للمضرب على أيدي هؤلاء المخربين .

وقال محمد نجيب فى تلميح بانه لا يوجد صاحب مصلحة فى
التخريب الا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب نحو الديمقراطية .

كان محمد نجيب يريد أن يثبت دعائم الديمقراطية عن أحد طرفيين
. . . أولها عودة الأحزاب قبل انتخابات الجمعية التأسيسية . . . ولانيهما
اجراء استفتاء شعبى عام على النظام الجمهورى وتعيينه رئيسا للجمهورية
لأنه عين رئيسا دون استفتاء شعبى عام . . .

ولكن سليمان حافظ الذى كان يعادى الحزبية خوفا من قوة الوفد
افتى بمعارضة هذا الاتجاه وأعد مع الدكتور عبد الجليل العمرى وزير
المالية فى ذلك الوقت مشروعات لعبور الفترة الباقية على الانتخابات لتتلخص
فى تشكيل وزارة مدنية تتولى السلطات التنفيذية والتشريعية ، وإن يقتصر
اختصاص مجلس الثورة على تعيين وعزل رئيس مجلس الوزراء والوزراء
بموافقة رئيسهم وتبلى المجلس عما عدا ذلك من أعمال السيادة . . . ونص
المشروع على إلغاء الأحكام العرفية قبل ذكرى إعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو
١٩٥٤ وإلى أن يتم ذلك يفرج عن جميع المعتقلين الذين لم توجه لهم تهمة
«عينة تباشير النياحة تحقيقها» .

لم ير هذا المشروع النور ولم يحدث أى تغيير لتدافع الأحداث . . .
فقد وصل الملك سعود الى مصر فى زيارة رسمية يوم ٢٠ مارس . . . وظهرت
تصريحات لجمال عبد الناصر الى وكالة (انسا) الايطالية يبدى راية فيها
عن الاخوان فيقول « سيكونون أحرارا فى تشكيل حزب اسلامى أو هيئة

اسلامية » وعن الشيوعيين يقول « كلما بدا ان من الممكن الاتفاق مع لندن. قام الشيوعيون - وعددهم ليس كبيرا ولو انهم منظمون تنظيما جيدا يزاولون نشاطهم تحت ستار المطالب الوطنية وقاموا بحملة تهدف للحيلولة دون الوصول الى اتفاق » ومحمد نجيب يواصل تصريحاته عن الديمقراطية فيقول « لن نتراجع عما استهدفناه من عودة الحياة النيابية ... ولماذا نخاف منها وما ثرنا الا لاعادتها خالية من الشوائب » كما أكد انه ليس في نيته تكوين حزب ...

وظهر الوفد مرة أخرى عندما أدلى برأيه في الموقف الحاضر وهو يتلخص في « التمسك بالنظام الجمهوري والاصلاح الزراعي والمطالبة بعودة الحياة النيابية فورا حتى تستقر الأوضاع » ويعود على ماهر ليصرح بقوله « ان مصر لا تستطيع الوقوف موقف الحياد ويجب ان تنضم للمغرب » .

وحدثت خلال هذه الفترة اتصالات بين الوفد ورجال الثورة خلال محمد صلاح الدين الذي كان مرشحا لأن يكون سكرتيرا لهيئة التحرير وبين ابراهيم الطحاوي يقترح فيها الوفد على رجال الثورة ان ينضموا اليه وان يكون جمال عبد الناصر سكرتيرا عاما للوفد .

لكن جمال عبد الناصر رفض الاقتراح .

ونشرت المصري رسالة لعضو مجلس قيادة الثورة السابق يوسف صديق يقول فيها رأيه في الموقف ويقترح قيام وزارة ائتلافية من الوفد والاعوان والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة الدكتور وحيد وأفت لاجراء انتخابات للبرلمان الجديد ... وكانت هذه المرة الأولى التي يطرح فيها علنا اشتراك الشيوعيين في الحكم ضمن جبهة وطنية ديمقراطية .

كان يوسف صديق قد هرب من تحديد الإقامة في بنى سويف .

وتميزت هذه الفترة بحيوية شديدة في اعلان الراى ... محمود عبد المنعم مراد يتافع بصراحة عن حكم الشعب في جريدة (المصري) .. وجلال الدين الحمامصي يحذر من الانتخاب في جريدة (الأخبار) .

وأصبح الموقف مهتزاً تحت أقسام مجلس قيادة الثورة ، ووهنت قبضته على الحكم والسلطة ، وأصبح استمرار الحالة على ما هي عليه ضرباً من المستحيل ، وكان لابد من شيء ينهى فترة القلق والتوتر وعدم الاستقرار .

واجتمع أعضاء مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس بحضور محمد نجيب وخاله محيي الدين حيث دارت مناقشات عاصفة ، بدأت باقتراح من عبد اللطيف البغدادي بإلغاء قرارات ٥ مارس وتمسك خالد محيي الدين

بها مع مطالبته بتشكيل جديد للديموقراطية يحرم النواب الذين صوتوا تأييدا لاي قوانين مقيدة للحريات والذين رفضوا دفع ضريبة الأتليان ورؤساء الأحزاب ، والذين طبقت عليهم قوانين الإصلاح الزراعى - من حق الترشيح للجمعية التأسيسية .

وانصرفت المناقشة الى وضع الأمور على طرفى نقيض .

أما الغاء قرارات ٥ مارس .

وأما رفع كافة القيود عن عودة الأحزاب والافراج عن كل المعتقلين .

وبعد مناقشة استمرت خمس ساعات انتهى الأمر الى اصدار ما عرف بقرارات ٢٥ مارس والتي كتبها كمال الدين حسين بخط يده رغم عدم ايمانه أو اقتناعه بها . . مما يدل على انها كانت محاولة لصرف الأمور الى وجهة أخرى وهي :

١ - يسمح بقيام الأحزاب .

٢ - مجلس قيادة الثورة لا يؤلف حزبا .

٣ - لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هناك تأثير على الانتخابات .

٤ - تنتخب الجمعية التأسيسية انتخابا مباشرا دون تعيين أى فرد ويكون لها السيادة والسيطرة الكاملة ، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة والانتخابات حرة .

٥ - حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لمثل الأمة .

٦ - تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها .

لم تكن هذه القرارات هي ما يجيش فى صدور أعضاء مجلس القيادة، ولا هي ما يتطلع اليه محمد نجيب أو خالد محيى الدين . . . ولكنها كانت عملا من أعمال الاثارة المبنية على التخلي فجأة عن كل السلطات والصلاحيات والاشارة الى انتهاء الثورة بما يمثل النكسة لأمال الجماهير ، ويقترب بالأمور من حافة الهاوية .

كانت خطة الجنوح للنقيض واضحة فى مناقشات المجلس ، عندما قال أحدهم باننا اذا أعدنا الأحزاب نستعيد الحزب الشيوعى كنوع من

التهديد... وعقب ثاب بأن الافراج عن المعتقلين سيشمل مصطفى النحاس وأحمد حسين وحسن الهضيبي وكل زعماء الأحزاب .

كان انتقاليهم المفاجيء من النقيض يدل على وجود تدبير ما... فلا يعقل أن يوافقوا موافقة غير مشروطة على عودة الأحزاب والافراج عن كل المعتقلين .

هذا الاتجاه من التفكير صحيح... ولكنه صحيح أيضا ان المجلس لم يكن في موقف القدرة على (الاختيار) بقدر ما كان قريبا من اليأس ، يسلك لهدفه في الاستمرار أى سبيل .

صرح صلاح سالم بأن الهدف من اعسادة الحزب الشيوعي اثاره الأمريكيتين .

وقال خالد محيي الدين ان الصحفى الفرنسى ممثل مجلة (توفيل اوبزرفاتور) قال له أن جمال سيكسب المعركة مع محمد نجيب ، وانه عرف ذلك بحكم صلاته بالسفارات الأمريكية والبريطانية... وان مجلس القيادة قد أعطى اشارة للأمريكيين بأنهم سيوافقون على المعاهدة وادخال تركيا في حالة العودة للقناة .

لما أن أعلنت القرارات حتى بدأ اخراج المعتقلين... أول الذين خرجوا كان الاخوان المسلمين ومرشدتهم العام حسن الهضيبي الذى توجه جمال عبد الناصر لزيارته بمنزله فى منتصف الليل فور الافراج عنه كما نشرت جريدة المصرى يوم ٢٥ مارس وقد كان هذا الاجتماع حاسما فى تغيير موقف الأخوان المسلمين ، فقد استأنفوا نشاطهم وعقدوا أول اجتماع بعد الافراج عنهم ، وصرح حسن الهضيبي قائلا : « ان الجماعة قائمة وانها اقوى مما كانت » وذلك قبل صدور قرار الغاء جلها... .

وحرص محمد نجيب على التأكيد من الافراج عن كبار المعتقلين فاتصل بهم فى منازلهم فلم يجد أحدا قد افرج عنه الا حسن الهضيبي وعبد القادر عودة ، أما مصطفى النحاس وأحمد حسين فلم يفرج عنهما .

وقد التقطت جريدة (الأخبار) تسجيلا دفعت به المباحث اليها عن اتصال محمد نجيب بمصطفى النحاس لسؤاله عن رفع تهديد الإقامة والاستفسار عن صحة زوجته ، ونشرت ذلك بالبنط العريض ، لتعمق الوهم بأن هناك اتصالات خفية بين محمد نجيب والنحاس ، والأمر الذى يثير ضباط الجيش ويبعدهم عنه .

أثبت عدم الافراج عن مصطفى النحاس وأحمد حسين ، ومحاولة إثارة الضباط ضد محمد نجيب أن النية لم تكن خالصة لتنفيذ قرارات

٢٥ مارس ، رغم اعتقاد بعض أعضاء المجلس الذين لم تكن لهم اتصالات خفية ان الأمور قد انتهت الى ذلك .

ذهب حسين الشناقي الى هيئة التحرير وابلغ ابراهيم الطحاوي ان المجلس قرر الانسحاب والعودة للثكنات ٠٠٠ ثم تدبير ثورة أخرى .

اعترض الطحاوي على هذا التفكير معلنا ان الانسحاب معناه دخول الضباط للسجن وأعلن انه سيقاوم قرار المجلس ٠٠٠ وهكذا كان تفكير ضباط الصف الثاني الذين سبق ان أوقفوا تعيين خالد محيي الدين رئيسا للوزراء ، واعتقلوا محمد نجيب ، وانقذوا المجلس من حركة ضباط سلاح الفرسان .

وبدا الصدام يأخذ شكلا حادا ٠٠٠ نقابة الصحفيين تطلب الغاء الأحكام العرفية فورا وتشكيل وزارة قومية ، ونقابة المحامين تعلن الاضراب ٠٠٠ والصحف تنشر ان مصطفى النحاس ورشاد مهنا وأحمد حسين لم يفرج عنهم ٠٠٠ والقائمقام أحمد شوقي قاله الكتيبة ١٣ مشاة التي قامت بدور كبير ليلة ٢٣ يوليو والذي حددت اقامته يوم ٨ مارس أرسل خطابا نشرته الصحف يعلن فيه نفس المطالب ٠٠٠ وهيئات التدريس وطلبة الجامعات يطالبون بعودة الحياة النيابية .

وفي الجانب المقابل كان (الصاوي أحمد الصاوي) سكرتير اتحاد عمال النقل قد اتصل بابراهيم الطحاوي متخوفا من انشكاس مكشيب العمال في منع الفصل التعسفي ، ويذبح الأثنان خطة لأعتصام متزايد لعمال النقل ينتهي باضراب عام ٠٠٠ وضباط البوليس يعلنون « ان العودة الى الحياة النيابية مع وجود الاحتلال خدعة استعمارية » ، وفي قيادة الحرس الوطني ومنظمات الشباب ينقلان قواتهما للقاهرة .

وكان موقف الاخوان المسلمين في هذه الفترة يمكن ان يعتبر عاملا ترجيح لاحد الجانبين ٠٠٠ وقد اتصل محمد رياض قائده لحرس محمد نجيب ببعض قادة الاخوان دون استشارته فجاء الرد بانهم لم يتدبروا أمرهم بعد ، وانهم يفضلون الانتظار والهدوء حتى يتم الافراج عن كافة المعتقلين .

وصدر لهم تصريح في صحف صباح ٢٧ مارس يقول : « فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية أملنا الا يعود الفساد أدراجة مرة أخرى فاننا لن نسكت على هذا الفساد بل نؤيد بقوة حرية الشعب الكاملة ولن نطلب تأليف أحزاب سياسية بسبب بسيط هو اننا ندعو المصريين جميعا لأن يسدروا ورائنا ويقتفوا أثرنا في قضية الاسلام » .

ونشر في الجمهورية في نفس الوقت خبر جاء فيه انه « تقرر إعادة

جماعة الاخوان المسلمين وان كل اثر لقرار حل الجماعة الصادر فى يناير الماضى قد زال .»

هكذا اختارت جماعة الاخوان المسلمين الوقوف مع مجلس قيادة الثورة . والتخلى عن تأييد الديمقراطية وعودة الحياة النيابية . . . وهو موقف نابع من رفضهم القديم والمستمر للحياة البرلمانية وخاصة فى هذه الفترة التى عادت فيها تباشير الحياة الى القوى والأحزاب السياسية ، وبعد ان كانوا القوة السياسية الوحيدة المصرح لها بالعمل والنشاط .

تم الاتفاق على ان يجنحوا للسلبية فى هذه الأيام الحرجة ، وان يبتعدوا عن الاشتراك فى أى مظاهرة معادية للمجلس .

وهكذا بينما لعبت جماهير الاخوان المسلمين دورا حاسما فى العودة لمحمد نجيب بعد استقالته فان قيادتها لعبت دورا انتهازيا فى قضية عودة الحياة النيابية .

وأخذت كفة مجلس القيادة ترجع ساعة بعد أخرى . . . ومفاتيح السلطة تحرك الاجهزة التابعة لها . . . وهيئة التحرير التى بنيت على أساس تأييد جمال عبد الناصر وليس محمد نجيب ، احتضنت الحركة العمالية وأبناء اتحاد الصعيده الذين وصلوا الى شل حركة الاتوبيس والترام والتاكسى والقطارات ثم نزلوا بعد ذلك الى الشارع فى مظاهرات كان يحركها الطحاوى وطعيمة بعربات ركبت فيها الميكروفونات .

وكانت جريدة المصرى قد صدرت بمناشيت كبير يوم ٢٨ مارس يقول : (مؤامرات ضد الشعب) .

وقال خالد محيى الدين عندما سئل عن المظاهرات « عساهم ألا يكونوا قد هتفوا بسقوط الحرية والبرلمان والحياة النيابية » .

ولكنهم هتفوا فعلا بسقوط الحرية يوم ٢٨ مارس . . . وكان محمد رياض قائد الحرس الخاص لمحمد نجيب قد دخل عليه فى حجرة نومه بعد منتصف ليلة ٢٧/٢٨ وأبلغه عن الخطة المدبرة لاشعال المظاهرات يوم ٢٨ والتى اشتركت فيها قوات الحرس الوطنى ومنظمات الشباب وهيئة التحرير وعمال النقل ومديرية التحرير والذين وضعت العربات اللورى تحت تصرفهم .

وأعلن مؤتمر نقابات العمل الدعوة لاضراب عام اعتبارا من ٢٩ مارس حتى يستجيب لهم المجلس بالعدول عن قراراته .

أصل محمد نجيب بوزير الداخلية زكريا محيي الدين وحذره من خروج المظاهرات ، واستدعى اللواء الباجوري وكيل الداخلية الى منزله وطلب منه فض المظاهرات بالقوة فطلب منه الباجوري توقيع أمر كتابي بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، فرفض محمد نجيب وقال : « اقطع يدي ولا أوقع أمرا بإطلاق الرصاص على أبناء الشعب » .

وحاول بعض الضباط الملتفين حول محمد نجيب ان يدفعوه لاعلان تشكيل وزارة جديدة مدنية يرأسها وحيد رافت ، وأن يتخذوا اجراء ضد أعضاء المجلس ، ولكنه تردد وآثر ان يؤجل ذلك الى ما بعد عودته من الاسكندرية بعد زيارته لها مع الملك سعود .

ولكن الوقت كان متأخرا فان المظاهرات المدبرة قابلته في المحطات تهتف ٠٠٠ (لا أحزاب ٠٠٠ ولا برلمان) ورفض محمد نجيب الانسياق وراء غرائزه حتى لا يحدث صدام مسلح أو حرب أهلية ٠٠٠ وذهب الى الملك سعود مساء يوم ٢٨ حيث عقد اجتماع بينه وبين الملك والدكتور عبد الرازق السنهوري وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد الرحمن عزام وحسن بغدادى ٠٠٠ بدأ بعد منتصف الليل ، وعرض نجيب فيه ان يستقيل ولكن جمال عبد الناصر لم يكن يريد أن تصل الأمور الى هذا الحد قبل تصفية شعبية محمد نجيب وما يمثله من أفكار تصفية كاملة .

استمر الاجتماع حتى فجر يوم ٢٩ مارس وسلم فيه محمد نجيب للمجلس بعد ان خذلتة الجماهير ولم تنصره كما حدث عنه استقالته ، وبعد ان قرر عدم اللجوء الى ما يثير صداما مسلحا .

وسافر الملك سعود ، وسقط محمد نجيب في المطار مغشيا عليه لبقى بعد ذلك مريضا في منزله لمدة ثلاثة أسابيع تصدر عنه نشرة طبية يوقعها الدكتوران رجب عبد السلام وأنور المفتى ، حتى لا تشاع أخبار تثير الجماهير من جديد في وقت يدرك فيه ان مظاهرات اليومين الأخيرين كانت مدبرة ومفتعلة ويصعب لها الاستمرار .

وفي الساعة السادسة والنصف من نفس اليوم أذاع صلاح سالم القرارات الآتية :

١ - أرجاء تنفيذ قرارات ٥ ، ٢٥ مارس حتى نهاية فترة الانتقال .

٢ - يشكل فوراً مجلس وطنى استثنائى يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة ويحدد تكوينه واختصاصه بقانون .

وبعد اذاعة هذه القرارات مباشرة توجه جمال عبد الناصر وصلاح سالم وكمال الدين حسين لزيارة اتحاد نقابات النقل المشترك حيث خطب

ثورة يوليو ج ١ - ٣٥٣

الصاوى أحمد الصاوى وأعضاء المجلس ٠٠٠ ونزلت القوات المسلحة الى الشوارع لحفظ الأمن .

ولكن الدور الذى لعبه الصاوى أحمد الصاوى لم يشفع له ، فقد اعتدى عليه أحمد أنور بعد ذلك بالضرب فى مطار القاهرة أمام المودعين أثناء سفر عبد الناصر لباندونج ، وانتهى دوره بعد ان اعتصرت فائدته .

انتهى أخطر صدام تعرض له مجلس قيادة الثورة ٠٠٠ محمد نجيب مريض فى منزله وقوات الجيش الموالية فى الشوارع ، ومظاهرات العمال فرضت نفسها على الموقف والاخوان المسلمون فى تجنبهم الحذر لكل ما حدث .

ولكن الموقف مع ذلك لم يكن قد استقر تماما ٠٠٠ كانت هناك (جيوب للمقاومة) نشرت جريدة الأخبار خبرا عن اجتماع مفاجئ للجمعية العمومية لمجلس الدولة بما يوحى احتمال اتخاذ قرارات ضد مجلس الثورة ، وكان موقف الدكتور عبد الرازق السنهورى أثناء اجتماعهم مع الملك سعود واضحا فى معاداته لأساليب العنف وافتعال المظاهرات .

واستدعى أحمد أنور مدير البوليس الحربى حسين عرفة مدير المباحث الجنائية العسكرية وطلب منه منع عقد هذا الاجتماع بالحسنى أو العنف مع تحذيره من وفاة أى شخص .

ويروى حسين عرفة القصة لى فيقول انه ذهب الى المجلس فى ملايس مدنية محاولا اقناع السنهورى برفض الاجتماع تحاشيا للمظاهرات العمالية « هى فى أصلها جنود من البوليس الحربى يلبسون ثيابا مدنية مع بعض أعضاء هيئة التحرير » ٠٠٠ ولما رفض السنهورى مقابلاته أرسل مندوبا من البوليس للطحاوى وطعيمة فوصلت المظاهرات الى سرور المجلس تهتف (الموت للخونة) ٠٠٠ وكانت الأبواب مغلقة بالحديد .

واتصل السنهورى بأمن الجيزة وطلب مندوبين من المتظاهرين وانتهز حسين عرفة الفرصة ففتح الأبواب واندفع الناس الى السنهورى وأعضاء الجمعية العمومية وانهالوا عليهم ضربا ٠٠ حتى أمر حسين عرفة باخراجهم من المجلس ، بعد ان أطلق رصاصتين فى السقف ليبدو كما لو كان مدافعا فعلا عن حياة المستشارين .

وكتب المستشارون بيانا لا يؤيد الثورة ، قراه أحدهم فاعتدوا عليه وتصايحوا (تحيا الثورة تسقط الرجعية) ٠٠٠ وبدأ الموقف يشتعل بتعليمات حسين عرفة من جديد ٠٠٠ الى أن اضطروا لكتابة بيان نشرته الصحف فى اليوم التالى وجاء فيه :

يعلن المجلس على لسان رئيسه انه لم يتخذ أى قرار بشأن ما أذيع اليوم بجريدة الأخبار من انه ستجتمع الجمعية العمومية لأمر هام ويقرر أن قرارات الجمعية كانت منصبه على حركة ترقية الموظفين ٠٠٠ ومجلس الدولة يعلن تأييده لمجلس قيادة الثورة) .

ولما تسلم حسين عرفة البيان مثل دور المغمى عليه من جهد مقاومة المظاهرات الى ان حضر صلاح سالم وتسلم البيان وخرج ليعلنه فى الاذاعة .

نقل الدكتور عبد الرازق السنهورى الى المستشفى ورفض مقابلة جمال عبد الناصر عندما قام بزيارته ، لأنه حسبما ورد فى مذكرات سليمان حافظ قد اتصل به قبل وقوع الاعتداء عليه بساعة طالبا منع المظاهرات المتجهة للمجلس ، كما ان الدكتور حسن بغدادى اتصل به من مكتب جمال عبد الناصر يستفسر عن سبب الاجتماع فقال له انه اجتماع عادى لترقيات العاملين بالمجلس .

ومع ذلك توجه جمال عبد الناصر الى مجلس الدولة واجتمع بالموكلين واستنكر الاعتداء على السنهورى .

كان الاعتداء على مجلس الدولة والدكتور السنهورى نهاية لقدسية القضاء ، واطلاقا لقوى العنف .

وعندما تسربت أخبار ما حدث فى مجلس الدولة ، خفتت أصوات المعارضة وعاد الخوف والحذر يسيطر على خطوات الناس ٠٠٠ وكان مفروضا ان يعقد اجتماع فى نقابة الصحفيين ، عصر ذلك اليوم ، ولكن أحدا لم يحضر الاجتماع .

واصل أعضاء مجلس القيادة هجومتهم ٠٠٠ تقرر يوم ٣٠ مارس التحقيق مع حسين أبو الفتوح رئيس تحرير (المصرى) وهى الجريدة التى ناضلت ببسالة من أجل الديمقراطية والحياة البرلمانية وقرار الدستور ، والتى تعرضت خلال أيام الصدام الأخيرة الى مظاهرات مدبرة حاولت الاعتداء عليها .

وهاجم جمال عبد الناصر على زكى العرابى والدكتور محمد صلاح الدين لانهما ذهبا يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢ الى قصر عابدين ٠٠٠ ثم اتجها يوم ٢٧ يوليو الى ثكنات مصطفى باشا يعلنان أنهما قد طلقا السياسة .

وشمل الهجوم أيضا محمد كامل البندارى الذى أطلق عليه جمال عبد الناصر لقب (الباشا الأصفر) لانه يسكن فى عمارة الشمس بجاردن سیتی .

وكلمما شعر أعضاء المجلس ان أقدامهم تزداد ثباتا واصلوا الاجراءات
التي تعزز مواقعهم .

أصدر المجلس يوم ٥ ابريل قرارا يتضمن الآتى :

١ - محاسبة المسئولين عن الفساد فى العهود الماضية وطرق
إبعادهم من العمل فى محيط السياسة وحرمان عدد منهم من حقوقه
السياسية .

٢ - تطهير الصحافة .

٣ - منح سلطات للمسئولين فى الجامعات لضمان انتظام
الدراسة فيها .

٤ - البت فى اصدار قانون لحماية الثورة والاسس التى يقوم
عليها المجلس الوطنى .

٥ - مشروعات هامة لمصلحة مختلف طبقات الشعب وتنشيط
الاقتصاد القومى والقضاء على الفساد .

٦ - اختيار عناصر صالحة فى مجالس البلديات وحل مشكلة
المواصلات بالقاهرة .

وقد ترجم هذا القرار بعد ذلك الى اجراءات تنفيذية اذ صدر قرار
يوم ١٤ ابريل يحرم من حق تولى الوظائف العامة ومن كافة الحقوق
السياسية وتولى مجالس ادارة النقابات والهيئات لمدة عشر سنوات كل
من سبق أن تولى الوزارة فى الفترة من ٦ فبراير ١٩٤٢ الى ٢٣ يوليو
١٩٥٢ أى فى السنوات العشر السابقة على قيام الثورة ، وكان منتميا
للوفد أو حزب الأحرار الدستوريين أو الحزب السعدى أما من لم يكن
فلا يحرم الا بقرار من مجلس قيادة الثورة . . . ويلاحظ أن (الكتلة
الوفدية) هى الحزب الوحيد الذى استثنى مع أن القرار قد طبق على مكرم
عبيد باعتباره وزيرا وفديا سابقا .

طبق هذا القرار على ٢٢ وزيرا وفديا ، ٨ وزراء سعديين ، ٨ وزراء
دستوريين . . . وطبق ضمنا على ستة من أعضاء لجنة الخمسين لاعداد
الدستور وهم على زكى العرابى ومحمد صلاح الدين وعبد السلام فهمى
جمعة ومكرم ومحمود غالب والدكتور عبد الرازق السنهورى الذى نزع
بهذا القرار من منصبه فى رئاسة مجلس الدولة أيضا .

وصدر قرار ثان بأن تدخل الجامعة على مراحل . . . سنة بعد أخرى
. . . تفاديا للاضرابات أيضا .

ثم قرر مجلس قيادة الثورة في اليوم نفسه حل مجلس نقابة الصحافة بدعوى أن سبعة من أعضاء المجلس البالغ عددهم اثني عشر قد تقاضوا مصروفات سرية وشكل لجنة تحل محل مجلس النقابة من فكري أباطة ووكيل وزارة الارشاد ومحام عام والمدير العام لحسابات الحكومة .

وصدر كشف بأسماء الذين تقاضوا مصروفات سرية وهم :

حسين أبو الفتح - مصطفى القشاشي - أبو الخير نجيب - احسان عبد القدوس - فاطمة اليوسف - قاسم أمين زوج فاطمة (روز اليوسف) - مرسى الشافعي - البرت مزراحي - محمد رخا - ابراهيم عبده - حسنى خليفة - ادجار جلاد - كريم ثابت - عبد الرحمن الخميسي - عبد الشافي القشاشي - عبد الرحمن زايد - أحمد عصفور - محمد خالد - كامل الشناوى - نعمة الله غانم .

| | | |
|---------------------------|-----------|-------|
| وحصلت روز اليوسف على مبلغ | ١٩٢٨١ ر | جنيها |
| والجمهور المصرى | ٢٨٠٨٠٠٠ ر | جنيه |
| الأساس | ٤٨٠٠٠ ر | جنيه |
| الصباح | ٧٢٢٢ ر | جنيه |
| الحوادث | ٤٥٠٠ ر | جنيه |
| السودان | ٢٥٢٥٠ ر | جنيه |
| البلاغ | ٧٩٠٠ ر | جنيه |
| صوت الأمة | ٢٩٠٠ ر | جنيه |
| النساء | ٢٢٠٠ ر | جنيه |
| السياسة | ١٥٩٠٠ ر | جنيه |
| الدستور | ٩٩٠٠ ر | جنيه |
| بلادى | ٣٠ ر | جنيه |
| التسيرة والصراحة | ١٠٠٠ ر | جنيه |
| والزمان | ١٢٥٠٠ ر | جنيه |

ووصلت الأمور غايتها عندما عيّن جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء وشكل وزارته الأولى في ١٧ ابريل ١٩٥٤ ، فخرج منها عبد الجليل العمرى وحلمى بهجت بدوى وعلى الجريتلى وعباس عمار ووليم سليم حنا وحسن بغدادى . . . ودخلها حسين الشافعي وزيرا للحربية وحسن ابراهيم وزيرا لشئون رئاسة الجمهورية .

وبذا وصل عدد الضباط في مجلس الوزراء الى ثمانية من أعضاء مجلس القيادة ولم يبق خارج الوزارة سوى عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة وأنور السادات رئيس مجلس ادارة دار التحرير .

ويعتبر وصول جمال عبد الناصر الى منصب رئيس الوزراء بداية رسمية للتحويل في مسار الثورة ، ونهاية علنية للصراع بين محمد نجيب وأعضاء المجلس .

وخلال الايام التي اتخذت فيها هذه الاجراءات لم يكن الموقف في القوات المسلحة هادئا تمام الهدوء رغم وضوح انتصار مجلس القيادة ، وانسحاب محمد نجيب مريضا أو مرغما على مرضه .

كان خالد محيي الدين يصاحب محمد نجيب والملك سعود في زيارتهما للاسكندرية . . . وكان بقية أعضاء المجلس قد اعتذروا عن عدم الذهاب مع توديعهم للملك في محطة مصر ، لأنهم كانوا يدبرون موضوع المظاهرات ويريدون أن يكونوا قريبين من مركز التدبير في القاهرة .

عندما عاد محمد نجيب الى مصر لم يعد معه خالد محيي الدين . . . بل اختفى في الاسكندرية عدة أيام كنت على اتصال دائم به خلالها . . . وأرسل جمال عبد الناصر رسولا هو عبد الحليم الأعسر يطلب عودة خالد ، وكذلك تحدث معي عبد الحكيم عامر طالبا مني أن أطمئنه ويطلب العودة .

وعندما عاد خالد محيي الدين قدم استقالته فقبلها جمال عبد الناصر فورا وسأله عن مشروعاته ولم يكن خالد قد فكر في ذلك بعد .

وواصل جمال عبد الناصر حديثه قائلا في صراحة :

« لا . . فعاد هنا مفيش . . لأن الناس حثتكم عليك . . وأنا بين موقفين أمن البلد أو صداقتك . . لذا تخرج في بعثة مجلس الانتاج ثم تعين سفيراً » .

هكذا انتهت صلة خالد محيي الدين بمجلس قيادة الثورة في أوائل ابريل ١٩٥٤ ، ولم يستقبل بعض ضباط سلاح الفرسان هذا الاجراء بالرضا الكامل أو الصمت الحكيم . . . بدأ يتكون داخل السلاح رأى عام حول حوادث الشهور الثلاثة الماضية ، كما بدأت اتصالات سرية بين ضباط من مختلف الأسلحة .

يقابل ذلك اجراء حركة تنقلات في قيادة السلاح ، اعادة بعض الضباط الذين خرجوا منه ليلة ٢٣ يوليو ، كما يعين عبد العزيز مصطفى قائدا بعد تعيين حسين الشافعي وزيرا للحربية .

وهنا نبنت بين بعض الضباط الأحرار الذين خشوا ان تزحف اليهم موجة التنقلات ، والذين كانوا ضد كثير من الاجراءات التي اتخذت . . . فكرة (اجراء انقلاب عسكري بهدف تغيير مجلس الثورة واحياء نظام

ديموقراطى فى مصر على أساس الاتفاق الذى تم مع ضباط السلاح فى
نهاية فبراير ١٩٥٤) .

كانت عيون المخابرات والمباحث فى غاية اليقظة ، ويقول حسين عرفه
انهم جندوا مرشدين من ضباط الصف والعساكر ، وباعة جريلة الاخوان
المسلمين ، وتنكروا أمام السلاح فى زى باعة بطاطا .

ومع ذلك لم تكن الصورة كاملة . . . فقد تمت الاجتماعات فى سرية
تامة حتى صباح يوم ٢٤ ابريل الذى كان محددا للتحرك لاتمام الانقلاب فى
الواحدة بعد منتصف الليل . . . وأعدت خطة مشابهة لحركة ٢٣ يوليو
١٩٥٢ مع احتمال تصادم مسلح مع بعض قوات الجيش .

وكان ضباط الفرسان قد استطاعوا تجنيد ضابط فى البوليس
الحربى اسمه عفت عبد الحليم فاجاه أحمد أنور بشكوكه حوله ، فاعترف
الضابط بكل ما يعرفه على أن يكون (شاهد ملك) .

كان مفروضا ان يكون موعد اللقاء للتحرك فى الساعة مساء ، وفى
نفس الساعة تمت اعتقالات واسعة للضباط الذين حضروا اجتماع فبراير
لضباط سلاح الفرسان مع جمال عبد الناصر وكانوا حتى ذلك الوقت فى
القاهرة .

وبدأ التحقيق تحت اشراف زكريا محيي الدين بلجنة مشكلة من
اللواء محمد فؤاد الدجوى (مشاة) وعبد المنعم رياض (مدفعية)
وجمال رياض (مشاة) . وشكلت بعد ذلك محكمة خاصة برئاسة اللواء
محمد حسين مدير المدفعية وأصدرت أحكامها فى شهر يونيو على ١٦ ضابطا
أخذ قائدهم اليوزباشى أحمد المصرى (١٥ سنة) والصاغ حسنى الصاوى
واليوزباشى عزت الالفى (١٠ سنوات) واليوزباشى فاروق الأنصارى
(٣ سنوات) وفؤاد العرابى سنة واحدة .

ويلاحظ أن الرتب التى استعدت للانقلاب كانت أصغر من رتب
أعضاء مجلس القيادة وان عددا منهم كان منتميا فى السابق لتنظيم
الضباط الأحرار ، وان محاولة الانقلاب تمت تحت الشعارات الديموقراطية
التي ارتفعت فى السلاح منذ شهر فبراير .

كانت محاكمة مجموعة (أحمد المصرى) عاملا من عوامل التفكك فى
محاولة تجميع تنظيمات ضباط خاصة مستقلة . . ولكن تنظيمات الضباط
المتصلة بالقوى السياسية المختلفة كانت مازالت قائمة .

وفى أوائل مارس تم اعتقال اللواء جوى بالمعاش عبد المنعم
عبد الرؤوف ومعه البكباشى أبو المكارم عبد الحى والصاغان حسين حموده

وخليل نور الدين ومحمد فؤاد جاسر وسعد الدين صبرى ، وهم جميعا من الاخوان المسلمين .

وواصل مجلس قيادة الثورة محاكماته للضباط المعارضين له ، فقدم القائمقام أحمد شوقي قائد قسم القاهرة السابق الى المحكمة التى أعيد عقد جلساتها بعد أن كانت قد توقفت عقب محاكمة فؤاد سراج الدين ، وصدر عليه الحكم بالسجن لعشر سنوات ٠٠٠ وفى دورة محكمة الثورة الثانية حوكت السيدة زينب الوكيل والصحفيون : محمود أبو الفتح وقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات وكان متغيبا فى الخارج ، وحسين أبو الفتح (١٥ سنة مع ايقاف التنفيذ) وأبو الخير نجيب (١٥ سنة أشغال شاقة مع التجريد من شرف المواطن) .

وفى ٣١ مايو تم اعتقال ٢٥٢ شيوعيا .

وتبع ذلك محاكمة اليوزباشى مصطفى كمال صدقى ضمن قضية سياسية هامة هى (قضية الجبهة الوطنية الديمقراطية) والتى انتهى اليها مصطفى بعد أن كتب تقريرا مفصلا عن علاقته بالحرس الحديدى ، وابتعاده عنه بعد مقتل صديقه عبد القادر طه ، الذى كان قد غير اتجاهه واتصل بالتنظيمات الشيوعية أيضا .

بدأت المحاكمة يوم ٢٤ يوليو بعد الافراج عن عدد من المعتقلين هم : حنفى الشريف النائب الوفدى والفنانة تحية كارىوكا ٠٠ وصدرت الأحكام بالأشغال الشاقة عشر سنوات على محمد شطا ودكتور شريف حتاتة وحليم طوسون ، وثمانى سنوات أشغال شاقة على زكى مراد ومحمد خليل قاسم والبير أربيه ، والسجن خمس سنوات على أحمد طه ومحسن محمد حسن وعبد اللطيف جمال ، وسعد كامل وزوجته ، وزوجة الشاعر كمال عبد الحليم ٠٠٠ وهؤلاء جميعا من قيادات الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ٠٠٠ أما مصطفى كمال صدقى فقد حكم عليه بالسجن خمس سنوات ، وبالسجن ثلاث سنوات على ابراهيم حسين وسيد البكار وهما وفديان وبالسجن سنتين على بكر سيف النصر وهو وفدى أيضا .

ووقعت فى يد المباحث الجنائية العسكرية للبوليس الحربى فى صيف ١٩٥٤ معلومات عن تنظيم خاص لضباط الصف فى سلاح الفرسان ، كان يطبع منشورات بطريقة بدائية (على البالوطة) تتحدث عن ضرورة مقاومة الضغط الهابط من مجلس قيادة الثورة ، وضرورة ترقية الصف ضباط الى رتبة ضابط ٠٠ ويقول حسين عرفة أن عمليات التعذيب قد بدأت مع اعتقال هؤلاء الصف ضباط ، اذ أن الضرب كان اسلوبا متداولاً فى الجيش يهين به الضباط كرامة الجنود رغم انه ممنوع قانونا .

وقد أمكن التوصل خلال هذا التنظيم الى معرفة الجهاز السرى
للاخوان المسلمين داخل الجيش ، رغم ان التنظيم المعتقل لم يكن كل أفراد
من الاخوان .

ولم تتردد المباحث الجنائية العسكرية فى اعتقال هذا التنظيم دون
تهمة أو وجود ما يدين وبلغ عدد أفراد ١٧ صف ضابط وعددا من ضباط
الطيران ٠٠٠ وقد وضعوا فى الاعتقال بسجن الأجانب بينما حوكم ١٤
صف ضابط من صف ضباط تنظيم سلاح العرسان .

كان اعتقال الجهاز السرى أو جانب منه داخل الجيش أمرا مثيرا
للتناقض من جديد بين الاخوان المسلمين وحركة الجيش التى قامت
بتصفية كافة التنظيمات والشخصيات المعارضة لها تصفية ادارية .

لم يستطع الاخوان المطالبة بالافراج عن أعضاء تنظيم داخل الجيش
حتى لا يعترفوا بوجوده ولم تستطع حركة الجيش اثاره القضية أو محاكمة
المعتقلين لأنه لم يكن هناك ما يدينهم ٠٠٠ كانت هناك حالة هدنة قائمة
بين الجيش والاخوان .

ولم يفتن الاخوان المسلمون الى أن اتفاهم مع حركة الجيش عقب
الافراج عنهم واعادة تنظيم جماعتهم هو أمر لا يمكن أن يدوم لتنازع
السلطة ٠٠٠ كما أن حركة الجيش لم تكن لتسمح بوجود تنظيم قوى آخر ،
وخاصة وهى تعرف انه جهاز سرى مسلح ، وانه تنظيم متسرب فى
الجيش .

وبدأت حركات التصادم تعود من جديد ٠٠٠ وكانت نقطة الخلاف
المعلنة هى اتفاقية الجلاء التى تم توقيعها يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤ بالأحرف
الأولى ، وقعها عن الجانب المصرى جمال عبد الناصر وعن الجانب البريطانى
أنطونى هيد وزير الحربية البريطانى .

حدثت فى أواخر أغسطس اشتباكات كانت بين البوليس والاخوان
عندما وقف حسن دوح بعد صلاة الجمعة يحرض الناس على مقاومة الثورة
ويدعوهم الى العنف .

وتبلورت معارضة الاخوان للثورة فى موقف الرفض الذى وقفته
كافة القوى السياسية ضد ما ورد فى اتفاقية الجلاء من حق عودة القوات
البريطانية الى مصر فى حالة وقوع هجوم مسلح على أى بلد يكون طرفا
فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو تركيا .

وعندما تم التوقيع النهائى على الاتفاقية يوم ١٩ أكتوبر لم تستقبلها
الجمهير استقبالا طيبا وانتهز بعض الاخوان المسلمين فرصة الشعور

المعارض لتدبير اغتيال جمال عبد الناصر أثناء القاء خطابه بالاسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر احتفالا بتوقيع الاتفاقية في ميدان المنشية بالاسكندرية .

كانت تقارير البوليس الحربى تدل على ان الشعور المعادى يسود الاسكندرية ٠٠٠ وتختلف الأقوال فى جو سرادق الاحتفال بينما يقول ابراهيم الطحاوى سكرتير عام مساعد هيئة التحرير ان رجال الجيش الوطنى - تحت قيادة اللواء عبد الفتاح فؤاد - الذين حضروا الى السرادق كانوا يهتفون هتافات خاصة بهم لا يذكرون فيها اسم جمال عبد الناصر . . يقول حسين عرفة أن جماهير الاسكندرية التى احتلت السرادق تعالى هتافها ضد الظلم ومن أجل الحرية .

وبينما يقول ابراهيم الطحاوى ان رجال الحرس الوطنى قد افتسلوا ضجيجاً متعمداً فى السرادق عندما حضر الوفد السودانى معتقدين أنه موكب عبد الناصر . . يقول حسين عرفة انهم أدخلوا السرادق من الجماهير فى الخامسة بعد الظهر .

ويتفق الطحاوى وعرفة على أن أغلبية الموجودين فى السرادق كانوا ١٠٠٠ من عمال مديرية التحرير الموالين للثورة موالاة تامة ، والذين تسرب بينهم محمود عبد اللطيف أحد أعضاء الجهاز السرى للاخوان المسلمين .

وقد أدت اجراءات اخلاء السرادق واعادة ملئه الى تأخير حضور عبد الناصر وزملائه بعض الوقت . . وما أن بدأ خطبته حتى أطلقت من مسدس محمود عبد اللطيف ٩ طلقات وكان يجلس فى الصفوف الأمامية على بعد ١٥ متراً من منصة الخطباء والضيوف .

أصيب ميرغنى حمزة وزير السودان والمحامى أحمد بدر الذى كان يقف بجانب جمال عبد الناصر الذى لم تصبهِ الطلقات . . والذى أصر على متابعة خطبته بعدما حدث فى السرادق من هرج مردداً قوله « ايها الرجال ، فليبق كل فى مكانه . . حياتى لكم ، دى فداء لمصر ، أتكلم اليكم بعون الله ، بعد أن حاول المعرضون أن يعتدوا على ، ان حياة جمال عبد الناصر ملك لكم ، عشت لكم وسأعيش حتى أموت عاملاً من أجلكم ومكانى فى سبيلكم » .

ولكن الخطبة لم تكتمل

وكان حادث الاعتداء نقطة تحول هامة فى مشاعر الشعب الذى كان يرفض ارهاب الاخوان المسلمين قبل ٢٣ يوليو ، والذى يرفض بطبيعته

المسألة مثل هذا الأسلوب الدموي ، ويستنكر أن تكون طلقات الرصاص هي لغة التفاهم والاقتناع .

واعتقل بعض الضباط الموجودين في السرايق محمود عبد اللطيف ، الذى أطلق الرصاص واعتدوا عليه بالضرب الشديد ، ولكن أحمد أنور تحفظ عليه فى غرفة بجوار مكتبه طوال فترة التحقيق ولم يلبس ملابس السجن .

كان محمود عبد اللطيف العامل البسيط الذى يسكن إمبابة مقتنعا بما أقدم عليه متأثرا بما أوحى به اليه محام اخوانى اسمه هندأوى دوير من أن اتفاقية الجلاء ليست فى مستوى ما يطلبه الشعب بعد نضاله الطويل ، وانها تكلف مصر أعباء طائلة ، وتضعها تحت رحمة الانجليز فى المستقبل .

حولت طلقات الرصاص مشاعر الجماهير نحو جمال عبد الناصر ، الذى قام بجولة فى الشوارع قابلته فيها الجماهير بحماس طبعى . . . وخطب صلاح سالم ليلتها فى نقابة المحامين بالاسكندرية فتأثر بعضهم حتى البكاء .

وفى نفس الليلة صدرت الأوامر باعتقال الاخوان المسلمين ، وبدأت أكبر حملة اعتقال شهدتها مصر . . . حتى وصل الأمر الى حد اعطاء المعتقلين بطاقات يسجلون فيها أسماءهم وعناوينهم لتدون فى كشوف سليمة .

وشكل مجلس قيادة الثورة فى أول نوفمبر ١٩٥٤ محكمة خاصة باسم (محكمة الشعب) برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعى . . . فكانت رابع نوع من المحاكم تشكله الثورة ، بعد المجالس العسكرية ومحكمة الغدر ومحكمة الثورة .

وقد شكلت ثلاث دوائر فرعية من محكمة الشعب الأولى برئاسة اللواء صلاح حتاتة والثانية برئاسة قائد الجناح عبد الرحمن عنان والثالثة برئاسة القائمقام حسين محفوظ ندا .

بلغ عدد الذين حكمت عليهم محاكم الشعب ٨٦٧ ، وعدد الذين حكمت عليهم المحاكم العسكرية ٢٥٤ شخصا . . . وصدر الحكم بإعدام محمود عبد اللطيف ويوسف طلعت وهندأوى دوير وإبراهيم الطيب وعبد القادر عودة ومحمد فرغلى ونفذ الحكم فعلا . . . كما صدر حكم إعدام حسن الهضيبي ثم خفف الحكم الى الأشغال الشاقة المؤبدية ، ثم حكم على سبعة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدية .

كان محمد نجيب مازال حتى لحظة محاولة الاعتداء على حياة جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بلا سلطات عملية تقريبا يقوم بمعظم واجباته ويحضر مقابلاته حسن ابراهيم وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية .

وعندما وجد محمد نجيب فى اتفاقية الجلاء بعض ما يستحق النقد كتب مذكرة الى مجلس قيادة الثورة . . . ثم فوجئ بها مطبوعة يوزعها الاخوان المسلمون .

وعقب الاعتداء على جمال عبد الناصر أرسل اليه برقية ومندوبا للاستفسار عن صحته ، ولكن الصحف والاذاعة لم تشر الى ذلك فذهب محمد نجيب الى عبد الناصر فى منزله مستفسرا عن سبب عدم الاشارة الى ذلك فى الصحف ، مستنكرا أن يكون وراء ذلك محاولة افهام الناس برضائه عن هذا الاعتداء الارهابى . . . ولم يسمع محمد نجيب جوابا مرضيا .

وفى يوم ١٤ نوفمبر توجه محمد نجيب الى مكتبه فوجد عددا من ضباط البوليس الحربى أمام قصر عابدين ، ولما اتصل بجمال عبد الناصر مستفسرا عما وراء ذلك . . . حضر اليه بعد فترة قصيرة عبد الحكيم عامر وحسن ابراهيم ليبلغاه أن مجلس قيادة الثورة قد قرر اعفائه من منصبه .

وذهب الاثنان معه الى حيث حددت اقامته فى فيلا صغيرة كانت تملكها السيدة زينب الوكيل بضاحية المرج شمال القاهرة وعادا وحدهما ليصدر فى نفس اليوم قرار باعفائه من جميع المناصب التى كان يشغلها كما تقرر ان يبقى منصب رئاسة الجمهورية شاغرا وان يستمر مجلس قيادة الثورة فى تولى كافة سلطاته بقيادة جمال عبد الناصر .

هكذا وصل الصدام الأخير مع مجلس قيادة الثورة الى نهايته .

عزل محمد نجيب من رئاسة الجمهورية .

حلت الأحزاب السياسية ووضع قاداتها فى السجون .

أغلقت صحيفة المصرى التى لعبت دورا كبيرا فى أزمة مارس .

حلت جماعة الاخوان المسلمين وأعدم قاداتها ووضع الألوف من أعضائها فى المعتقلات والسجون .

فشلت محاولات الانقلاب العسكرى وانتهت التنظيمات العسكرية المستقلة ، أو التابعة للقوى السياسية الخارجية داخل الجيش .

حلت نقابات الصحفيين والمحامين ، وعينت لها لجان مؤقتة موالية
لمجلس قيادة الثورة (١) .

كان واضحا منذ اللحظة الأولى ان الانتصار كان أكثر انجذابا لجانب
أعضاء المجلس للأسباب الآتية :

أولا : لم تتوافر لمحمد نجيب شخصية الزعيم المؤثر فى أفكار
الجماهير ، واقتصرت جاذبيته على سماحته وبساطته وهى أمور لا تكفى
وحدها لتوجيه الحركة السياسية .

ثانيا : لم يلجأ محمد نجيب الى تكوين تنظيم موال له فى الجيش
كما فعل جمال عبد الناصر وزملاؤه . كما أن صلاته كانت معدومة بالقوى
السياسية المختلفة ، على عكس جمال عبد الناصر الذى تعددت صلاته
وتوحدت أهدافه أو تنافرت مع هذه القوى تبعا للظروف القائمة .

ثالثا : ضعف الوفد والأحزاب السياسية الأخرى وعدم قدرتها على
تحريك الجماهير تبعا لتوجيهاتها لغياب عنصر التنظيم الحزبى الملتزم
وإعتمادها فقط على التنظيمات القديمة المؤثرة فى الجماهير بطريقة
شخصية فقط .

رابعا : عدم وصول القوى الشيوعية واليسارية الى الدرجة المطلوبة
من النضج والانتشار الكفيل بحشد الجماهير حولها ، علاوة على معاناتها
من الانقسامات والاعتقالات .

خامسا : العجز عن تكوين الجبهة الوطنية الديمقراطية نتيجة لتردد
الوفد ورفض الإخوان المسلمين وعدم وضوح الخط السياسى
لمحمد نجيب .

سادسا : ترجيح كثير من الفئات للخط الوطنى الذى تبنته الحركة
فى بدايتها على خطواتها المعادية للديمقراطية والتى لم تصل الى الجماهير
البسيطة فى حياتها اليومية .

سابعا : انتهازية الإخوان المسلمين ووقوعهم فى شرك مساندة
(مجلس قيادة الثورة) فى أخرج وقت تصادمت فيه القوتان .

(١) وكان مجلس نقابة المحامين مشكلا من عبد الرحمن الرافعى رئيسا وصليب سامى
وكيلا وزهير جرائة أمينا للصندوق ومحمود الحناوى سكرتيرا وعلى بدوى ومحمود لهنى
جندية وعمر عمر ومحمد مصطفى القلمى وعازر جبران وأحمد زكى الحشيتى ويواكيم غبريال
وتوفيق ومنصور فريد وأحمد بدر وعبد العزيز الشوربجى وصلاح عبد الحافظ وعادل علوبة
أعضاء . . وعين فكرى أباطة رئيسا لمجلس نقابة الصحفيين .

ثامنا : عدم تعاطف الشعب مع الاخوان في محنتهم لتصرفاتهم الارهابية السابقة وتخليهم عن النضال من أجل الحرية والديمقراطية ومعاداتهم المستمرة للأحزاب السياسية .

تاسعا : عدم توافر الظروف المواتية لتجميع العناصر الوطنية الديموقراطية داخل الجيش وتأييد بعضهم لمجلس القيادة حيث لم يجد منبرا آخر أكثر جاذبية له .

عاشرا : غيبة الحركة الجماهيرية المؤثرة التي كان يمكن ان تشكل قوة ضاغطة على أعضاء المجلس فلم يكن هناك اتحاد لنقابات العمال ولم تكن هناك تنظيمات فلاحية ، كما أنه لم يكن هناك تنسيق بين النقابات المهنية .

كل هذه الأسباب وغيرها جعلت انتصار (مجلس قيادة الثورة) باعتباره المعبر عن حركة الجيش أكثر رجحانا . . . وخاصة بعد أن انفردت الحركة بالقوى المختلفة تطيح بها واحدة بعد الأخرى ، دون ادراك بأن هذه المطرقة الهاوية لن تتوقف الا اذا تحولت كل التنظيمات الحية الى جثث هامدة أو مغشى عليها .

ومنذ ان عزل محمد نجيب واختفت التنظيمات السياسية واحتشدت السجون والمعتقلات السياسية من مختلف الاتجاهات . . . أصبحت حركة الجيش هي المسيطرة .

وانتصر الجانب المسلح من الطبقة المتوسطة بعد ان وجه ضربة قاضية للاقطاع ، وضربات شديدة لابناء طبقته من المدنيين .

وانتهت سنوات التصادم بانتصار كامل للعسكريين .

وبدأت مواجهتهم لمشاكل المجتمع تحدد خط سيرهم في المستقبل القريب والبعيد .

مجتمع جمال عبد الناصر

الى والدى علاء وهسانى

وجيل مصر الجديد

مقدمة

كان الأمر عندى مشكلة ...

عندما بدأت جلسات الحديث والمناقشة مع المسئولين عن النظام في مصر من أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار والسياسيين ، تبين أن قصة ثورة يوليو أكبر من أن يضمها كتاب واحد .

وتبينت أيضا أن الحديث عن مصر والعسكريين لا ينتهى بوصولهم الى قمة السلطة ... ولكنه يبدأ .

واكتشفت ان سنوات الصدام التى انتهت كما ورد فى الجزء الأول بالقضاء على الأحزاب القديمة واعتقال الشيوعيين وحل الإخوان المسلمين ، وضرب المحاولات الانقلابية داخل الجيش ، وعزل محمد نجيب ... لا تظهر الدور الذى قام به العسكريون فى بناء المجتمع ... ولكنها تؤجله بل وتخفيه .

ووجدت نفسى قد بدأت مرحلة لا يمكن التراجع عنها أو التردد فيها ...

وواصلت المسيرة باحثا ... ومحاولا تسليط الضوء على قضايا ... قد لا تكون جديدة ... ولكنها فى زحمة الأحداث تبدو فرعية ... وهى رئيسية .

وفى هذا الجزء الثانى (مجتمع جمال عبد الناصر) أقدم هذه المحاولة .

لماذا ... مجتمع جمال عبد الناصر ؟

متابعة حركة السلطة العسكرية الجديدة فى مصر يكشف انه بعد ان تغلب مجلس قيادة الثورة على أعدائه وخصومه ، بدأ الدور الذى يلعبه جمال عبد الناصر - القائد المنتخب للضباط الأحرار - يصبح أكثر بروزا

وتميزا... فهو بين زملائه القائله المفوض... وعند الجماهير القائد الجديد الذى يخلف محمد نجيب صاحب الشخصية البسيطة ، بعد محاكمات الاخوان المسلمين التى وقف فيها بعض زعمائهم على المشنقة ونفذ فيهم الاعدام .

كانت مسئولية الانفراد بالسلطة ، والتوجه لحل المشاكل ، وكسب ثقة الجماهير... هى العوامل التى تثقل كاهل القيادة الجديد .

ولكن سرعان ما تبين ان قيادة وطنية ثائرة ، قد وجدت امامها فرصة متاحة للانطلاق .

وكانت الفترة التى اخترت لها اسم (سنوات الصعود) .

القيادة الجديدة تصعد خلف جمال عبد الناصر فى سرعة خارقة الى قمة عالية... .

توالت المواقف الوطنية التى وحدت ارادة القيادة وارادة الجماهير... . والتى جعلت من جمال عبد الناصر زعيما شعبيا تلتف حوله الامة العربية على امتداد الوطن الكبير فى المدن والقرى الصغيرة ونجوع الصحراء البعيدة .

وبعد تحرير مصر والسودان ، والانتصار فى معركة الاحلاف العسكرية ، وتأميم القناة ، وانسحاب قوات العدوان الثلاثى ، بدأ تشكيل المجتمع الجديد .

اين يقف العسكريون من هذا المجتمع ؟

وما هو دور الجيش فى هذه المرحلة ؟

اسئلة تحتاج الى بحث فى أرجاء المجتمع وفى حشايا الجيش... . وفى موقفه من الطبقات المتصارعة .

كان زحف العسكريين نحو السلطة يتم فى دأب وهدوء... . حتى كادت تصبح معظم المراكز القيادية ، والمواقع الحساسة فى ايديهم ، بعد أن استبدلوا ثيابهم العسكرية بثياب مدنية .

هرم متماسك من العسكريين تكون فى قمة السلطة... . وشخصية الزعيم تزداد ارتفاعا وتألقا .

ولكن الساحة ظلت خالية من التنظيمات السياسية والنقابية ذات التعبير الصحيح عن ارادة الجماهير .

وبدأ تشكيل المجتمع الجديد بالارادة الذاتية للزعيم ، وبالوسائل
التجريبية التي جعلت التكتيك يسبق الاستراتيجية .

غابت الايديولوجية كما غابت التنظيمات السياسية الحقيقية .

الجيش يدعم سلطته كقوة سياسية . . . ولكن موقفه الطبقي غير
محدد .

الحيرة تمزق الباحث . . . كما تغلب على تصرفات الحاكم .

والاختيار صعب . . . فتحدد الطريق وسط دوامة الأحداث المحلية
والعالمية . . . أمر شاق وعسير .

واخيرا

يتحدد الطريق . . . وتسجل الأفكار . . . ويبعث الميثاق - أول
وثيقة مكتوبة للثورة - دليلا للعمل . . . نحو تشكيل مجتمع جديد . . .
مجتمع جمال عبد الناصر .

الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة . . . شعار النظام ومضمون
الميثاق .

هل تحققت الاشتراكية ؟

هل مضى التطبيق في طريقه السليم ؟

أسئلة كثيرة نفوس فيها في مجتمع عبد الناصر . . . لنصل الى
الحقيقة .

ولا بد من كلمة شكر وتقدير لكافة الذين تفضلوا بمنحوني من
وقتهم ساعات وساعات ولم يترددوا في اعلان آرائهم ومواقفهم . . . عندما
علموا ان الكلمات لن تضيع وتبتد في الهواء . . . ولكنها سوف تسجل
لتكون تاريخا لمصر . . . ولثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

احمد حمروش

الباب الأول

١ سنوات الصدود

الفصل الأول

تحرير مصر ٠٠ والسودان

خسرج جنود الاحتلال البريطاني من
السودان قبل مصر ٠٠ وعلمنا خرجوا من
مصر بعدها بشهور قال جمال عبد الناصر
(والآن يبقى علينا اعادة بناء بلدنا) .

ما ان نجحت حركة ٢٣ يوليو في وصول الضباط الى السلطة وتحمل
مسئولية الحكم حتى فرضت القضية الوطنية نفسها ، واصبح على الحكام
الجدد أن يجدوا حلا لها بعد ان تعثرت طويلا في طريق المفاوضات ٠٠٠ وبعد
ان كانت سوريا ولبنان قد جلت عنهما القوات البريطانية والفرنسية فعلا
عام ١٩٤٦ .

والقضية الوطنية في ذلك الوقت لم تكن تعنى تحرير مصر وحدها
ونجلاء القوات البريطانية عن ارضها فقط ، ولكنها كانت تشمل قضية
السودان أيضا .

والسودان هو الصخرة التي تحطمت عليها معظم المفاوضات المصرية
البريطانية وخاصة التي قامت بها الحكومات الوفدية ٠٠٠ يقول فؤاد سراج
الدين (ان فكرة الاستفتاء كانت مستبعدة ومرفوضة ، لانه لا يمكن اقرار
استفتاء لاسيوط مثلا) ٠٠٠ هذا يعنى ان الأساس في النظرة المصرية
كان وحدة عضوية شاملة لمصر والسودان .

ويقول فؤاد سراج الدين أيضا ان محمد صلاح الدين وزير الخارجية فاجأهم قبل سفره الى باريس في يناير ١٩٥٢ لحضور اجتماعات عصبة الأمم بأنه يريد القاء قنبلة يتحدى بها البريطانيين على أساس قبول الاستفتاء اذا خرج الموظفون البريطانيون من هناك ولكن الحكومة لم توافق لمخالفة ذلك لسياسة الوفد ، وخشيتهم من التدرج لقبول - مبدأ الاستفتاء ، وما قد يصحب ذلك من تعثر الضمانات المطلوبة لاستفتاء حر سليم .

تراجع محمد صلاح الدين عن رأيه ، ولكن الوزارة فوجئت بخطابه يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ يكرر فيه ما سبق ان قاله واجتمع مجلس الوزراء فوراً لمناقشة خطاب صلاح الدين وانبرى بعض الوزراء لمهاجمته وفي طليعتهم الدكتور طه حسين ، الذي تحدث عن (الخيانة الوطنية العظمى) التي ارتكبتها وزير الخارجية وكلف مصطفى النحاس استنشاء على أول طائرة ولكنه وصل يوم ٢٧ يناير بعد اقالة الحكومة الوفدية .

مبدأ الاستفتاء الذي قبله محمد صلاح الدين بضمان خروج الموظفين البريطانيين قبل اجرائه ، كان محور اهتمام الضباط عقب وصولهم للسلطة .

كان ثلاثة من مجلس قيادة الثورة لهم صلات خاصة بالسودان . . . محمد نجيب ولد في الخرطوم ووالده وخاله خدما هناك في الجيش المصري ودفنا هناك وصلاح سالم ولد في سنكات إحدى مدن السودان الجبلية التي تستخدم كصيف وأنور السادات من أم سودانية .

ولكن ذلك لم يكن يعنى ارتباط الثلاثة بالسودان . . . محمد نجيب هو الوحيد الذي كان له صلات شخصية بعدد كبير من السودانيين لخدمته هناك في مطلع حياته ، وإعداد له لكتيب خاص عن السودان أما أنور السادات فقد شغلته اهتماماته بقضية مصر عن تجديده صلاته بالسودان وصلاح سالم كان بعيدا تماما عن مشكلة السودان .

يقول صلاح سالم في كتاب الدكتور محمد المعتصم (صلاح سالم) (لم اقرأ في حياتي قبل ٢٣ يوليو عن السودان سوى القدر اليسير لم اقرأ سوى كتابين - أحدهما إستخفى عنوانه عن الصيد والمغامرات في غابات جنون السودان لعطا أثناسيوس أحد المؤرخين المصريين والآخر لتشرشل بعنوان (حرب النهر) ولم يكن لي صديق سوداني واحد يحدثني واتحدث معه في شئون بلاده وأهله لم أسمع شيئا عن السودان الا من والدي الذي أمضى زهرة شبابه وحياته في ربوع هذا القطر .

وفرضت قضية السودان بنفسها على مجلس القيادة بأسرع ما توقعوا ففي الأيام الأولى للحركة كانت مسئولية الجيش موزعة على ثلاثة هم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وصالح سالم وتلقى الأخير مكالمة تليفونية من البكباشي عبد الفتاح حسن الياور المصري للتحاكم العام في الخرطوم يبلغه فيه أن بعض الجنود السودانيين الذين جندوا بعد حريق القاهرة ثم سرحوا وأرسلوا للسودان قد تظاهروا ضد مصر لانهم لم يحصلوا على مكافأة ترك خدمة . ورغم أن القانون لا يسمح بصرف هذه المكافأة فإن صالح سالم أصدر قراره بصرفها باعتبارها قد كلف بمسئولية قوات الجيش في السودان .

وقد توافدت وفود الأحزاب السودانية على مصر للتعرف بقيادة الحركة من ضباط الجيش ، وكان محمد نجيب معروفا لأغلبهم ، وكان صالح سالم مؤيدا للاتصال بهم بعد أن كلفه المجلس بالاشراف على شئون السودان في الوقت الذي وزعت فيه مسئولية الوزارات المختلفة على أعضاء المجلس خلال شهر أغسطس ١٩٥٢ .

وكانت نقطة البدء هي توجيه الدعوة لممثلي كافة الأحزاب السودانية للحضور الى القاهرة لمناقشة الموقف والاتفاق على رأى موحد وخاصة ان السودانيين كانوا لا يعتبرون أنفسهم غرباء عن سياسة مصر نشر محمد أحمد محجوب قطب حزب الأمة مقالا اعتبر فيه رأى سليمان حافظ في تنحية النحاس مخالفا للقانون وحضرت وفود الأحزاب السودانية المؤيدة للاتحاد مع مصر والمعارضة له أيضا حضر السيد عبد الرحمن المهدي . واعتذر عن عدم الحضور السيد على الميرغني لمرضه .

وبدأت المفاوضات مع مندوبي الأحزاب بوفد مصرى شكل برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء ومعه على ماهر وعبد الرازق السنهورى وصالح سالم وحسين ذو الفقار صبرى .

وناقشت الوفود خلال المفاوضات موقف بريطانيا ، حيث أعلن الحاكم العام في أوائل ١٩٥٢ مشروع دستور للحكم الذاتى للسودان منتهزا فرصة إلغاء وزارة مصطفى النحاس لمعاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان عام ١٨٩٩ .

وهذا ما دفع محمد صالح الدين الى اتخاذ موقفه السابق وهو ما دفع وفد المفاوضات المصرى أيضا الى مجابهة هذا الموقف بأسلوب جديد .

وأصبح تعبير (تقرير المصير) متداولا بين المصريين والسودانيين أيضا ، بعد أن كان سلاحا يشهره البريطانيون لعزل مصر عن السودان .

التنظيمات الوحيدة التي أيدت (حق تقرير المصير) للسودان قبل حركة ٢٣ يوليو ، كانت التنظيمات الشيوعية التي ورد ضمن برنامجها المنشور في ١٧ ابريل ١٩٥١ بمجلة روز اليوسف (حرية الشعب السوداني وحق تقرير مصيره بنفسه وتأييد كفاحه من أجل التحرير الكامل وجلاء جميع القوات الاستعمارية البريطانية والمصرية من أرضيه) .

ولم تستمر المفاوضات التي بدأت في نوفمبر ١٩٥٢ مع الأحزاب السودانية طويلا ، فقد توصلوا الى اتفاق يقبل به الجميع نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير وتوصلوا أيضا الى توحيد الأحزاب السودانية عدا حزب الأمة عن طريق تفويض لجنة ثلاثية من الدرديري أحمد اسماعيل وخضر حمد وميرغني حمزة لوضع ميثاق تأليف حزب واحد .

وافق الجميع ووقعوا تحت هذه العبارة (اقبل قيام الحزب الواحد بأى وضع يرتضيه الثلاثة) ووقع على هذا التفويض كل من محمد نور الدين وحامد توفيق ودرديري أحمد اسماعيل ودرديري محمد عثمان والطيب محمد خير واسماعيل الأزهرى وخضر حمد ومبارك زروق وخضر عمر وعلى الشيخ بشير وميرغني حمزة ويحيى الفضلى ، ووقع معهم محمد نجيب وصالح سالم وحسين ذو الفقار صبرى .

وهكذا انبثق عن هذه اللجنة تكوين (الحزب الوطنى الاتحادى) مع اختيار اسماعيل الأزهرى رئيسا ومحمد نور الدين نائبا له . . . ونص دستور الحزب على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير .

وهكذا أمكن للمصريين مواجهة البريطانيين بأسلوبهم مع ضمان توحيد الأحزاب السودانية فى حزب واحد برأى موحد هو (الاتحاد مع مصر) . . . ومع ضمان موافقة حزب الأمة على نتيجة الاستفتاء ايا كانت . . . وهذا مما يفسح الطريق للاتحاد مع مصر حيث كان حزب الأمة يمثل الأقلية فى رأى مجلس القيادة .

وبعد ما وصلت المفاوضات مع الأحزاب السودانية الى هذه النتيجة فى ٢٨ أكتوبر ، تشعب النشاط السياسى الى شعبتين . . . سافر صالح سالم الى السودان فى نوفمبر ، وأرسل محمد نجيب مذكرة الى البريطانيين اقترح فيها الآتى :

١ - تمكين السودانين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل .

٢ - تهيئة الجو الحراً المحايد الذى لا يهدد من توافره لتقرير المصير .

وكان هذا التغير الجذري في ايدولوجية المفاوض المصري مفاجأة تامة للحكومة البريطانية التي لم تجد بدا من الموافقة .

بدأت المباحثات في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ وتشكل الوفد المصري برئاسة محمد نجيب وعضوية صلاح سالم وحسين ذو الفقار صبرى والدكتور محمود فوزى والدكتور حامد سلطان وعلى زين العابدين ، وكان الوفد البريطاني مكونا من سير رالف ستيفنسون ومستر كوزويل الوزير المفاوض ومستر باورز السكرتير الأول بالسفارة .

وكانت هذه أول تجربة يخوضها الضباط المصريون في مباحثات سياسية هامة ، يتعرضون فيها الى دبلوماسية تخالف طبيعتهم ، ويجابهون مواقف تحتاج منهم الى دراسة واطلاع . . خاصة وان بعضهم كان يجابه مشكلة غريبة عليه تماما مثل صلاح سالم حسب روايته .

الخلافات التي حدثت أثناء المباحثات أمكن التغلب عليها بحيوية الشباب فقد سافر صلاح سالم مرة ثانية الى السودان حيث اجتمع مع ممثلى الأحزاب السودانية - الأمة والوطن الاتحادى والجمهورى الاشتراكى فى ١٠ يناير ١٩٥٣ واتفقوا على توقيع وثيقة تؤيد وجهة نظر المفاوض المصرى فيما يتعلق بموضوعات جنوب السودان واختصاصات الحاكم العام وسودنة الوظائف وجلاء الجيوش الأجنبية . . . وان تكون هذه الوثيقة هى أساس دستور الحكم الذاتى ، والا فان الأحزاب تقاطع الانتخابات .

وعندما وضعت هذه الوثيقة أمام المفاوضين البريطانيين سدت عليهم سبل المناورة ، ووصلوا الى توقيع اتفاقية السودان فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ . . . هكذا لم تستمر المفاوضات الا فترة تقل عن ثلاثة شهور وانتهت مشكلة السودان بأمل كبير فى الاتحاد مع مصر .

وهكذا كانت الصخرة التي تحطمت عليها معظم المفاوضات المصرية هى أول المشاكل التي أمكن لضباط الجيش أن يصلوا فيها الى حل ارتضته الأطراف الثلاثة . . . وكان ذلك راجعا الى المرونة التي تبناها المفاوض المصرى ، بعد الرفض المطلق لمبدأ (الاستفتاء وتقرير المصير) . . واعتبار حق مصر فى السودان حقا مقدسا لا يقبل الجدل .

ولا شك ان موقف حركة الجيش كان سليما تماما فى وجهة النظر التي تقبل الاستفتاء فى حق تقرير المصير وترفض اكراه شعب السودان على قبول أمر لم يختره بارادته الحرة . . . وكان لمحمد نجيب دور فى تبني هذه الفكرة واقناع زملائه بها لصلاته الوثيقة بالسودان .

وقد اتفقت محمد نجيب ورالف ستيفنسون ونصت على تحديد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات يتم فيها تصفية الادارة الثنائية (الانجلو

مصرية) ٠٠٠ ويكون للحاكم العام أثناء فترة الانتقال السلطة الدستورية العليا وفقا لقانون الحكم الذاتى تعاونه لجنة خماسية مؤلفة من عضوين سودانيين ومصرى وبريطانى وباكستانى ٠٠٠ مثل مصر فيها حسين ذو الفقار صبرى ٠٠ (وتقرر أيضا تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على أساس :

(أ) ارتباط السودان بمصر على أية صورة .

(ب) أو الاستقلال التام أى الانفصال عن مصر .

وان تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور اصدار قرار البرلمان السودانى رغبته فى الشروع فى اتخاذ التدابير لتقرير المصير .

كما شكلت لجنة لسودنة الوظائف خلال فترة الانتقال .

وكان توقيع الاتفاقية انتصارا لشعب السودان ٠٠٠ وأملًا لشعب مصر فى اتحاد ديموقراطى مع البلد الشقيق .

يقول أنطونى ايدن فى مذكراته أعرب بعض أعضاء مجلس العموم عن شكوكهم فى أهمية هذا الاتفاق وكنت أخشى لو لم يصدق البرلمان على الاتفاق ان يلقى السودانيون اللوم علينا ويتهموننا بعرقلة الجهود المبذولة لاجراء الانتخابات فى بلادهم تمهيدا لتمتعهم بحق تقرير المصير وبديهي ان مصر كانت ستغتنى الفرصة فتضاعف من حملتها علينا ، لهذا جاهدت فى شرح الاتفاق ومزاياه لأعضاء المجلس الى أن تمكنت من اقناعهم بسلامته ، وكنت فى الواقع أرى أن أستقيل لو لم يؤيد المجلس الاتفاق ويأخذ بوجهة نظرى) .

وفى سبيل ذلك قرر مجلس القيادة ايفاد صلاح سالم فى زيارة الى جنوب السودان حيث كان محرما على أبناء الشمال من السودانيىن الذهاب الى الجنوب الا بتصريح خاص ، كما حرم على الجنوبيين الخروج الا باذن خاص أيضا ٠٠٠ ولكن صلاح سالم كسر هذه القاعدة ولم يحصل على اذن بالدخول ٠٠٠ ويقول يوزباشى محمد أبو نار مدير مكتبه لشئون السودان فى ذلك الوقت أن الأمريكىين قد ساعدوا فى دخول البعثة المصرية الى الجنوب عن طريق اتصالات مستر كاترى السفير الأمريكى ومستر صوينى ضابط اتصال السفارة وكان اهتمام أمريكا بالسودان مؤيدا محاولتها انشاء مكتب هناك كما نشرت المصرى فى ٦ أكتوبر ١٩٥٢ وتمت الزيارة فى شهر أغسطس وهو خريف السودان وموسم الأمطار هناك .

كانت رحلة صلاح سالم الى الجنوب ناجحة تماما . . . فقد زار المديرية الاستوائية . ولبي دعوة المحافظ البريطاني الى العشاء حيث كانت زوجة المحافظ على خدمتهم بنفسها . . . ولكن هذا لم يمنع « صلاحا » من اجراء مناقشة حادة مع المحافظ حول اسلوبه فى معاملة الناس . . . وكان لهذه المناقشة تأثير سحرى على الجماهير التى كانت تنظر للمحافظ كمعبود لا يجرؤ أحد على معارضته ، حيث كانت له سلطة العقاب وطرده المفتشين البريطانيين أنفسهم .

وهكذا اهتزت صورة المعبود وتدفقت العرائض على صلاح سالم تحمل شكاوى وآلام الناس هناك . . . وازدادت الزيارة نجاحا عندما زار صلاح سالم منطقة قبائل الدنكا واستقبلوه برقصة الحرب ، فشاركهم فيها عاريا ، ونشرت الصحف البريطانية صورته مطلقة عليه اسم (الصاغ الراقص) .

وخلال هذه الفترة اعتمد صلاح سالم على المساعدات والهبات المالية يقدمها الى الزعماء السياسيين ليضمهم الى جانب مصر . . . وقد أثرت شائعات كثيرة حول مجموع المبالغ التى صرفت هناك ، ولكن محمد أبو نار يؤكد انها لم تتجاوز نصف مليون جنيه .

وحدثت عدة مساجلات بين ايدن وصلاح سالم . . . قال ايدن فى مجلس العموم فى أكتوبر ١٩٥٣ ان صلاح سالم يذهب الى السودان لاقتناع السودانين بتقسيم مقاعد البرلمان ، ولكنه لم ينجح - على حسب تعبير ايدن .

ولم يتردد صلاح سالم فى مهاجمة ايدن علنا ، مؤكدا هزيمة السياسة البريطانية فى السودان ، كاشفا أن وزير الخارجية سلوين لويد كان يزور الخرطوم وقت وجود صلاح سالم هناك فى محاولة لمنع مرشح الحزب الوطنى الاتحادى الدرديرى محمد عثمان من دخول لجنة الحاكم العام ولكنه فشل . . . كما استدعى لجنة من الجنوب لتدلى برأى مناصر للاتجاهات البريطانية هناك ، ولكنها لم تنجح فى تحويل التيار المؤيد لمصر هناك .

وأجريت أول انتخابات فى ظل الاتفاقية .

وفاز الوطنى الاتحادى بأغلبية ساحقة ، وتولى اسماعيل الأزهري رئاسته أول وزارة سودانية يوم ٩ يناير ١٩٥٤ .

وهكذا يمكن القول ان حيوية صلاح سالم واسلوبه الذى يتفق مع طبيعة تكوينه كضابط قد حقق نجاحا لا بأس به كان يمهّد الطريق فعلا لوحدة وادى النيل .

الحزب الوطنى الاتحادى الذى يملك الاغلبية مشكل من أعضاء مرتبطين فى نضالهم الطويل بالشعب المصرى ، ووحدتهم كانت على أساس الاتحاد مع مصر ، ولكن الأمور لم تمض فى طريقها الطبيعى .

لم يسلك مجلس القيادة اسلوبا حكيما فى التعامل مع السودانيين . . . ولم يواجه زعماءهم بوجه واحد . . . وانما ترك صلاح سالم يتصرف على الأمر وحده بطريقته الخاصة ، دون مناقشة جماعية مشتركة ، وبغير حرص على الاستفادة من علاقة محمد نجيب الطيبة بكافة الزعماء السياسيين .

كانت ظروف العمل فى مجلس القيادة لا تسمح كثيرا بالمناقشة الهادئة أو المتابعة الدؤوبة ، فقد كان انتقال أعضائه من أعمال محدودة معروفة لهم جيدا فى صفوف الجيش ، الى مسئوليات متعددة متشعبة معظمها مجهول لهم فى بحر السياسة والادارة المصرية ، هو أمر يحتاج منذ البداية الى تنظيم علمى هادى وتخصص تنظيمى سليم .

تدفق الأعمال على مجلس القيادة فرض ظروفها ينفردها فيها البعض بمسئوليات تحتاج الى التشاور . . . وظهور التناقضات بين محمد نجيب وأعضاء المجلس عكس ذلك على اتصالاتهم الخارجية ومظهرهم أمام الجماهير . . . وخاصة فى السودان .

ولذا فإن الأمور لم تمض فى طريقها الطبيعى . . . وتصرف صلاح سالم فى معاملاته مع بعض زعماء السودان بأسلوب الضباط وليس بأسلوب السياسيين ، كما ان تجمع بعض ضباط الصف الثانى الذين كونوا شللا خاصة لكل عضو من أعضاء المجلس حال بينهما وبين الرؤية الكاملة . . . وسياسة توزيع الأموال على السياسيين كانت فى أغلبها مفسدة .

وعندما زار عبد الحكيم عامر وصلاح سالم السودان فى يناير ١٩٥٤ بعد أيام من تولي الأزهرى رئاسة الوزراء كان الاستقبال لهما طيبا . وصرح الأزهرى قبائلا (ان الاتفاقية سوف توضع موضع التنفيذ نصا وروحا) .

وقام الاثنان بزيارة كافة مناطق السودان ، زيارة احتج عليها سلوين لويد وزير الخارجية البريطانى .

ولكن الزيارة فى مظهرها العلنى لم تكن معبرة تعبيرا صادقا عن همسات بدأت تتردد عن خلافات فى مجلس القيادة ، يبدو أن صلاح سالم قد خاض فيها بصراحته المعهودة ، فانعكس ذلك خشية وترددا بين بعض الزعماء السودانيين .

كانت مصر قادرة حتى هذه اللحظة تحت قيادة محمد نجيب وبمجلس قيادة موحد أن تستوعب كل الآراء الوطنية في السودان لاقامة اتحاد على أساس ديمقراطي لمصلحة الشعبين . . . ولكن ظهور الخلافات فتح ثغرة مناسبة لاعداء الاتحاد مع مصر ينفذون منها .

والاتحاد بين الدول لا ينجح اذا تم على أساس فوقى بين الحكام وبعضهم وانما ينجح اذا تم على أساس جماهيرى تدعمه تنظيمات واعية قوية ، وكان لمصلحة البلدين فعلا . .

كان ظهور الخلافات بين محمد نجيب وأعضاء المجلس بداية لانتكاسات واضحة في تنفيذ الاتفاقية . . . وقد وصلت المشكلة الى الذروة عندما فوجئت الجماهير السودانية باستقالة محمد نجيب في فبراير ١٩٥٤ .

وكان لهذه الاستقالة وقع عميق في نفوس السودانيين الذين تطلعوا الى الاتحاد مع مصر في وجود محمد نجيب - نصف السوداني - والذين أدانوا أسلوب التناقضات الحادة بين أعضاء المجلس واعتبروا موقفهم من نجيب متسما بعدم الوفاء ، مما عكس عليهم هذه الصفة ، وخلق في نفوس السودانيين حذرا من الاتحاد مع أعضاء المجلس ، فقامت المظاهرات تهتف لنجيب في شوارع المدن السودانية .

وقد سافر الى القاهرة فور اعلان الاستقالة وفد سوداني في محاولة لرأب الصدع ولكن نجيبا كان قد عاد الى موقعه تحت ضغط المظاهرات في الشوارع وسافر بعد ذلك فورا الى السودان مع صلاح سالم يوم اول مارس ١٩٥٦ للمشاركة في احتفالات السودان بافتتاح اول برلمان ولكن مظاهرات حاشدة أطلقها حزب الأمة حاصرت المطار تهتف (لا مصرى ولا بريطاني . . . السودان للسوداني) وحادثت اشتباكات دموية قتل فيها ٣٣ قتيلا وجرح ١٠٧ وعاد نجيب فجر اليوم التالى مع صلاح والمقابلة تشكل طعنة لا شك ، فيها ثم سرعان ما تفجر الموقف ضد نجيب مرة أخرى في شهر مارس كما سبق شرحه وانزوى نجيب في مكانه رئيسا للجمهورية بلا سلطة . حتى عين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء وصاحب سلطة مطلقة .

وانتهزت القوى المعادية للاتحاد مع مصر هذه الفرصة ، وعبرت عن نفسها تعبيرا صريحا . . .

ولم يكن ذلك أمرا شاذًا . . . فان وضع أى مواطن أمام اختيارين فقط هما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، يدفعه الى اختيار الاستقلال الا اذا كان مطمئنا تمام الاطمئنان الى فوائد الاتحاد ومنفعته له وثقته في

قيادته وخاصة ان هذا الاختيار يتم بعد مرحلة طويلة من الاستعمار لم ينعم فيها الشعب السوداني بحريته ويمارس فيها حكم نفسه بنفسه .

وهكذا وجد الأزهرى لنفسه فرصة التحول عن رأيه مدعيا انه كان يقصد بالاتحاد (اتحاد أقاليم وقبائل السودان) ، واتخذ عدة اجراءات أسفرت عن موقفه تماما .

١ - رفض هدية من الأسلحة الحديثة عرضتها مصر فى أوائل عام ١٩٥٤ .

٢ - رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب فى مصر على نفقتها وأصر على تدريبهم فى بريطانيا .

٣ - أوقف الصحف الاتحادية وسحب ترخيص بعضها .

٤ - لم يوافق على رصد مصر لمبلغ ٧٥٠ ألف جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية فى أرجاء السودان .

وسافر اسماعيل الأزهرى الى لندن يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٤ حيث استقبلته الملكة اليزابيث ، وأقام له تشرشل حفل غداء ، وعقد اجتماعا مع لجنة الشئون الخارجية لحزب المحافظين كما نشرت صحيفة الأهرام يوم ٨ ، ٩ نوفمبر .

وعقب عودته من لندن ، أعلنت اقالة محمد نجيب وتحديد لقامته يوم ١٤ نوفمبر وأشارت الصحف الى احتمال محاكمته لارتباطه بالاخوان المسلمين .

وأسرع من جديد الى القاهرة وفد سودانى فى محاولة لانقاذ نجيب من المحاكمة مشكل من نجل السيد على الميرغنى واسماعيل الأزهرى ومحمد نور الدين وعلى عبد الرحمن ويحيى الفضلى وإبراهيم المفتى . واستقبل الوفد جمال عبد الناصر وصلاح سالم وتم الاتفاق بينهما على اصدار هذا البيان الذى نشر فى الأهرام يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ وجاء فيه :

(أطلع وفد الحزب الوطنى الاتحادى على دقائق الأمور ، وكان متتبعا لسير الحوادث التى قادت الى الظروف الراهنة فى مصر ، وهو مقتنع تماما بأن اجراء تنحية اللواء محمد نجيب عن منصبه ، كان اجراء لا مفر منه ، روعيت فيه مصلحة البلاد العليا أولا وأخيرا فى تلك المرحلة التى ما كانت لتتحقق للبلاد لو سارت الأمور على ما كانت عليه ، ولقد تلاقت وجهات النظر مع الحسيب النسيب السيد على الميرغنى ووفد الحزب الوطنى الاتحادى والمستولين فى مصر على قفل هذا الموضوع نهائيا بعدم تقديم اللواء محمد نجيب للمحاكمة حتى لا تعطى الفرصة لاعداء البلاد الذين يتربصون للنيل من وحدة الصفوف وتدمير أهداف البلاد) .

قفل هذا البيان موضوع محاكمة محمد نجيب . . . وقفل أيضا فرصة الاتحاد مع مصر ، نتيجة عدة عوامل أساسية نتجت عن تصرفات مجلس القيادة وهي اقالة محمد نجيب ، وقسوة محاكمات الاخوان المسلمين الذين كانوا يفرخون في أحضان حزب الأمة ، واعتقال الشيوعيين الذين كان لهم نفوذ كبير في السودان خاصة بين المثقفين والعمال . . . هذا الى جانب نشاط الانجليز والأمريكان في محاولة احتواء اسماعيل الأزهرى ومبارك زروق .

وعندما سافر اسماعيل الأزهرى الى مؤتمر باندونج . . لم يقف مع الدول المتحررة ، ولكنه اتخذ موقفا التقى فيه مع اتجاهات بعض الدول الرجعية مثل العراق التى كانت تهيم نفسها لدخول حلف بغداد . . . كما انه كان قد ألف لجنة من أعضاء الحزب الوطنى الاتحادى قررت التخلي عن مسألة الاتحاد مع مصر ، ووافقت الهيئة العامة للحزب على ذلك .

وأخذت بذور التناقض تنمو بين الأزهرى ومجلس القيادة ممثلا في صلاح سالم والذي كان قد فقد بعض شعبيته هناك لموقفه الحاد من محمد نجيب ، ولكنه دخل في تناطحه مع الأزهرى الى أبعد مدى ، فقد أثار ضده فريقا من الحزب الوطنى الاتحادى بزعامة محمد نور الدين نائب رئيس الحزب ، وأثار ضده الجنوبيين أيضا كقوة ضغط . . .

طلعت المعركة الى السطح . . . وخطب اسماعيل الأزهرى في الجماهير يقول (ان لحم أكتافى من مصر ، وقد دخلتها منتعلا حذاء كاوتش . . . ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون في مصر ؟ وتصرخ الجماهير بصوت عال (لا . . . لا) .

واستخدم صلاح سالم في معركته ضد الأزهرى كل الأسلحة المتاحة له الى جانب انشقاق الحزب واثارة الجنوبيين . . . فقد قرر التحالف مع الشيوعيين أيضا في معركته ضد الأزهرى التى تبلورت الى موقفين واضحين . . . اما الاتحاد مع مصر . . . واما الاستقلال الذى أصبح الأزهرى ينادى به علنا .

اتصل صلاح سالم بالشيوعيين السودانيين لما لاحظهم من تأثيرهم السياسى في محاربة الوضع القائم كله . . واتصل في هذه المرحلة بالشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعى السودانى والشفيع أحمد الشيخ سكرتير عام اتحاد العمال وعضو المكتب السياسى للحزب .

وعندما علم صلاح سالم أن الحزب الشيوعى السودانى هو نواة انفصلت من الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) وعملت لفترة

تحت اسم الحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) ، قرر أن يتصل بالشيوعيين المصريين ليساعدوا في اقناع زملائهم في السودان وكان ذلك يوم أول سبتمبر ١٩٥٥ .

ولكن الشيوعيين المصريين كانوا معتقلين والبعض منهم قدم الى المحاكمة وصدرت ضده أحكام بالسجن . . ومع ذلك لم يتردد صلاح سالم في استدعاء الدكتور يوسف ادريس وكان معتقلا في سجن القناطر ، والكاتب ابراهيم عبد الحليم ، والكاتب فتحى خليل والفنان زهدى وكانوا معتقلين في سجن أبى زعبل .

وصل الأربعة الى قصر عابدين - حيث كانت مكاتب وزارة الارشاد فى الوقت - بشباب ممزقة وأجسام هزيلة بعد معاملة بوليسية قاسية . أعقبت اضرابا عن الطعام استمر ١٨ يوما من أجل مطالب انسانية خالصة .

دخل الأربعة على صلاح سالم فى مكتبه ، فاستقبلهم استقبالا حارا وأبدى استنكاره لمظهرهم ، واتصل تليفونيا - حسب رواية فتحى خليل - بذكرى محى الدين وزير الداخلية طالبا منه وقف المعاملة الشاذة للمعتقلين فى سجن أبو زعبل .

وقدم لهم صلاح سالم تحليلا سياسيا استمر ثلاث ساعات ركز فيه على النقاط الآتية :

١ - المفهوم العام لقيادة الثورة وتصور خط سيرها مع تحفظ بعض العناصر على الاتحاد السوفييتى بتأثير دعاية الغرب .

٢ - ارجع غموض موقف الثورة من الشيوعيين الى خشية البعض من اتهام الحركة بأنها شيوعية .

٣ - أبرز نقاط الخلاف مع الولايات المتحدة وخاصة رفضها امداد مصر بالسلاح .

وخلص صلاح سالم من ذلك الى أن هناك تغييرا فى الخط السياسى للثورة يتلخص فى :

أولا . . . فى السياسة الخارجية . استقرار الثورة على توثيق العلاقة مع الاتحاد السوفييتى والصين والدول الاشتراكية .

ثانيا . . . فى قضية الديمقراطية . وضع دستور جديد واعداد انتخابات عامة وتشكيل برلمان .

وأكد لهم صلاح سالم أن هذين الاتجاهين سوف ينطلقان بأقصى قوتيهما في منتصف عام ١٩٥٦ ولعله كان يقصد بذلك تحديد موعد جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال .

وفاجأهم صلاح سالم بخبر لم يكن قد أعلن بعد وسرا لم يعرفه أحد . . . وهو تعاقد مصر مع الاتحاد السوفييتي على توريد صفقة سلاح كما وعدهم بالافراج عن جميع الشيوعيين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٦ .

وعرض موقفه بعد ذلك في قضية السودان ، ونقد نفسه نقدا ذاتيا لاضطراره الى السير بأسلوب حكام ما قبل الثورة للزعماء وتردى الحال بعد ذلك حتى في صفوف حزب الوطني الاتحادي ، ومع اسماعيل الأزهري . خاصة .

ثم انتقل الى الحديث عن (الحزب الشيوعي السوداني) . . . وقال اننا تجنبناه لموقفنا من الشيوعية في مصر وانه كان في التأييد والمعارضة حزبا مبدئيا شريفا وانه على حد تعبيره (حزب حقيقي وجاد وغير ملوث) . وقال لهم صلاح سالم انه عندما اتصل بالشهيد عبد الخالق والشفيع وعرض عليهما مساعدات في حدود العمل الوطني مثل اقامة السرايدات أو الامداد ببعض الأموال ، رفضوا في شدة .

وقال صلاح سالم انه تدور في صفوف الحزب مناقشة حول الموقف في مصر ويتأرجح الرأي بين التأييد والمعارضة ، وموقف الحكومة المصرية من الشيوعيين المصريين يلعب دورا كبيرا في ترجيح جانب على آخر وانه لو تحول الموقف داخل قيادة الحزب الى التأييد فان هذا قد يخرج الموقف في السودان من دائرة اليأس ولم يخف صلاح سالم مرارته ويأسه نتيجة تغير موقف الأزهري .

وصارحهم بأنه استأذن مجلس القيادة في الاتصال بهم فوافقوا ، رانه يطلب منهم اذا اقتنعوا بصدق تحليله السياسي ، فانهم عندئذ يصبحون مطالبين بالسفر الى السودان لاقتناع قيادة الحزب هناك بتأييد القاهرة وخط الاتحاد مع مصر .

وتداول الأربعة على جانب ووجدوا انه لابد من شيئين . . . الاستيثاق من حديث صلاح سالم ، والاتصال بزملائهم الهاربين خارج المعتقل واتفق صلاح معهم على الخروج لفترة محدودة مدتها أسبوع يعودون بعدها الى مكتبه .

واكن الأربعة لم يعودوا الى مكتب صلاح سالم . . . لأن الصحف نشرت في اليوم الخاص للمقابلة خبر استقالته واعتكافه في منزله .

ولم تكن استقالة صلاح سالم مفاجأة للقرييين من مجلس القيادة ،
فان سياسة صلاح سالم فى السودان كانت موضع خلافات ومناقشات
داخل المجلس ، وخاصة بعد حريق اشتعل فى الجنوب بتدبير من
الاستعمار ، ومطالبة صلاح سالم بأن تطلق يده فى العمل بصورة كاملة .

وقد حدث نوع من التحقيق مع صلاح سالم فى تدهور العلاقة بين
مصر والسودان فى مارس ١٩٥٥ ، ولكن صلاحا كان عنيفا فى مناقشاته ،
وسفه آراء بعض الذين اشتركوا فى المناقشة من غير علم كاف ، وانهى
حديثه بتقديم استقالته ولكن المجلس لم يقبل الاستقالة .

وسافر صلاح سالم ضمن الوفد المصرى الى باندونج ، والخلاف
يثقل صدره ، ومعاملة جمال عبد الناصر له يتسرب اليها البرود

وكان صلاح سالم فى وقت من الاوقات وبقوة اندفاعه وحيويته ،
وبموقفه كوزير للارشاد، وبقدرته على تلوين الحديث ، يتطلع الى رئاسة
جمهورية الاتحاد ولم يكن ينظر الى جمال عبد الناصر كمنافس له
وانما كان يخشى منافسة نجيب فى الاستفتاء .

ولكن هذه التطلعات سواء كانت حقيقية أو غير حقيقية ، تلاشت
وذبلت بعد اقالة محمد نجيب وبدأ صلاح سالم نفسه يتعرض لهجمات
زملائه ، بل وبعض ضباط الصف الثانى ، وهو الذى كان عنيفا فى هجومه
على محمد نجيب .

وبدأ مجلس القيادة يحاصر صلاح سالم وخاصة بعد اتصاله
بالشيوعيين المصريين زكريا محيى الدين قال ان الفريق الذى يعتمد
عليه صلاح سالم ليس هو القوة الأساسية فى السودان .

وجمال عبد الناصر انتقد سياسة التعامل مع الزعماء السودانيين
باسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية .

وحسين ذو الفقار صبرى اضطر الى مسaire حزب الأمة لينقذ ما يمكن
انقاذه .

ووصل الخلاف الى ذروته عندما تصادم صلاح سالم مع جمال
عبد الناصر ولم يستطع صلاح أن يجتذب زملاءه الى صفه ، لانفراده
بالعمل طوال الفترة الماضية وسخريته من بعضهم وتفوق جمال عبد الناصر
فى قدرته على اقناع زملائه برأيه .

وقدم صلاح سالم استقالته للمرة الثانية فى سبتمبر ١٩٥٥ متصورا
انها لن تقبل مثل استقالته السابقة ، ولكن المجلس قبلها فورا ، وكان
شقيقه جمال سالم وقتها فى زيارة خارج مصر .

وطويت صفحة صلاح سالم أيضا في تاريخ علاقات مصر والسودان،
بعد أن طويت صفحة محمد نجيب ... وتولى زكريا محيي الدين مسئولية
السودان ... ونقل محمد أبونار الى وزارة الخارجية حيث عمل مديرا
للادارة الافريقية لشئون السودان .

وأصبح واضحا بعد خلع صلاح سالم من موقعه ان الموقف السياسى
بين القاهرة الخرطوم قد فقد كثيرا من نشاطه ، وانه دخل مرحلة جديدة
تبدد منها الامل فى انتهاء فترة الانتقال الى ظهور الاتحاد بين دولتى وادى
النيل الغربيتين .

وبعد أن أخذت اجراءات السودنة مداها ، وأوشكت ثلاث سنوات
الاتفاق على النهاية ، أبلغت الحكومة السودانية برئاسة أزهري حكومتى
مصر وبريطانيا برغبة الجمعية التأسيسية وطالبت بسحب جيش الاحتلال
لاجراء الاستفتاء (فى جوهر محايد) .

وسحبت مصر وبريطانيا جيوشهما ، وتركت مصر كل الأسلحة
الثقيلة التى كانت تخص جيشها فى السودان وتم الجلاء فعلا فى
نوفمبر ١٩٥٥ .

ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الأمر لا يحتاج الى استفتاء
بشأن شكل الحكم بعد اتفاق كل الأطراف الحاكمة على معارضة الاتحاد
... وأعلنت قيام الجمهورية السودانية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وتشكيل
مجلس قيادة لرئاسة الدولة .

ولم يجد مجلس قيادة الثورة فى مصر فرصة للمطالبة باتمام
الاستفتاء ... وأعلن استقلال السودان رسميا فى أول يناير ١٩٥٦ ،
وذهب صلاح سالم الى هناك مدعوا كشخص عادى ، ورفض أزهري اقتراحا
بقبوله أول سفير مصرى هناك .

وهكذا تحرر السودان بفضل اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، وكما كانت
السودان أول دولة عربية افريقية تستقل فى القرن التاسع عشر بعد ثورة
المهدى ، فانها كانت أيضا أول دولة عربية افريقية تجلو عنها قوات
الاحتلال أيضا .

وأصبح السودان مستقلا وغير مرتبط بمعاهدات أو أحلاف عسكرية
ولا توجد أية قواعد أجنبية ...
تم ذلك قبل مصر ذاتها ...

بل ان جلاء القوات البريطانية عن مصر كان مشروطا بشروط معينة ،
وتم بعد جلاء القوات الأجنبية عن السودان بستة شهور كاملة .

وكان جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال هو القضية الرئيسية
التي تحمل العسكريون مسئوليتها يوم وثبوا الى السلطة .

وكان نضال الشعب المصرى قد وصل الى مرحلة الكفاح المسلح فى
القناة مما هدد الوجود الاستعمارى فى المنطقة الى ان توقف بحريق
القاهرة .

وكما كان الوفد حريصا على اجلاء القوات البريطانية قبل انتهاء
معاهدة ١٩٣٦ التى تمتد عشرين عاما ٠٠٠ ولما كان حريصا أيضا على عدم
ربط مصر بأحلاف عسكرية .

كما كان الوفد ٠٠٠ كانت حركة الجيش أيضا وتصريحات أعضاء
مجلس قيادة الثورة كانت تشير الى هذا الاتجاه ٠٠٠ أوضح التصريحات
وأكثرهما جرأة كانت تصريحات جمال عبد الناصر ٠٠٠ قال فى شبين الكوم
فى يناير ١٩٥٣ (الجلاء عن القنال أو القتال حتى الموت) ونشرت صحيفة
الأنبار يوم ١١ يناير ١٩٥٤ عنوانا رئيسيا فى صفحتها الأولى تحت عنوان
(أخطر تصريح لجمال عبد الناصر) قال فيه (لن تستطيع الدول الغربية
أن تخذلنا بوعودها المعسولة اذا ما نشب صراع عالمى مسلح ثالث ونحن
بعد غير معترف بحقوقنا المشروعة فى الاستقلال التام) .

وقال محمد نجيب يرد على تشرشل عندما صرح بأنه يريد رؤية
اسرائيل أقوى دولة فى شرق البحر الأبيض المتوسط (ان معاهدة
١٩٣٦ الملغاة فرضت على مصر تحت ضغط قوات الاحتلال) .

ولكن حركة الجيش لم تواصل الكفاح المسلح مباشرة ٠٠٠ أثرت ان
تمضى فى طريق المفاوضات ، مستهدفة النجاح السريع كما حدث فى
اتفاقية السودان .

وتشكل الوفد المصرى للمباحثات برئاسة محمد نجيب وعضوية
جمال عبد الناصر وصلاح سالم والدكتور محمد فوزى والدكتور حامد
سلطان والدكتور على حسن زين العابدين .

وظهر منذ اللحظة الأولى فى المباحثات التى بدأت جلستها الأولى يوم
٢٧ ابريل ١٩٥٣ أن الموقف يختلف عن مباحثات السودان التى حوصرت
فيها الجانب البريطانى باتفاق الأحزاب السودانية على رأى موحد .
والتقاء وجهات نظر المصريين والسودانيين ٠٠٠

كان الجانب البريطاني يستهدف ربط مصر بحلف دفاعي للشرق الأوسط ، كما كان يستهدف بقاء قناة السويس قاعدة لقواته وعملياته العسكرية في المستقبل .

وكانت هذه الاتجاهات مرفوضة تماما من الجانب المصري ولم تعد السودان هي الصخرة التي تتحطم عليها المفاوضات ، ولكن أصبحت الأحلاف ومواثيق الدفاع المشترك هي الخطر الذي حاول العسكريون تحاشيه .

وظهرت سلامة الموقف الوطني للمفاوضين المصريين بتصريحاتهم المتعددة المتلاحقة .

محمد نجيب قال لعضو البرلمان البريطاني ريتشارد كووتمان (قل لا يدن ان صبر مصر أوشك أن ينفد وأن فرصة الوصول الى اتفاق مشرف لن تظل سائحة الى الأبد) .

وواصل جمال عبد الناصر خطبه الداعية الى الجلاء غير المشروط ، مهددا بعودة الكفاح المسلح .

ولم تستمر المفاوضات أكثر من أيام فتوقفت في ٦ مايو ونشرت الصحف قائمة أن مشكلة الخبراء البريطانيين هي سبب توقف المفاوضات ، وأصدر محمد نجيب رسالة للشعب يوم ١٩ مايو قال فيها ان قطع المباحثات كان نتيجة (محاولة البريطانيين العبث بالمبدأ الذي جعلناه أساسا لاندخول في هذه المباحثات وهو جلاء جنود الاحتلال عن أرضنا جلاء كاملا دون قيد أو شرط) .

ولم تكذ تقطع المفاوضات حتى توتر الموقف ونصحت بريطانيا رعاياها بالرحيل عن البلاد في شهر مايو ٥٣ في محاولة للضغط على مصر . ولم تجد حركة الجيش سبيلا الا العودة الى الكفاح المسلح ولكن بأسلوب آخر ، فقد ظهر تصريح في الصحف يوم ١٧ مايو يقول (ان كل شيء في المعركة السابقة كان يجري ارتجالا ولم يكن هناك شخص مسئول ، أما اليوم فكل شيء موضوع تبعا للخطة المرسومة) .

ولم يكن هذا التصريح موفقا اذ انه لم يكن هناك مبرر لنفاق تناقض مفتعل بين حركة الكفاح المسلح للشعب في مراحلها المختلفة بل كان الواجب اظهار الأمر كانه حلقات في سلسلة متصلة ولكن حركة الجيش في ذلك الوقت كانت حريصة على سلب الفضائل من الأحزاب عامة والوفد خاصة حتى ولو كانت مفخرته الكبرى وهي سماحه بانطلاق طاقات الشعب في كفاح مسلح مساند من الحكومة ضد القوات البريطانية في القناة .

ويقول كمال رفعت الذى كان يعمل ضابطا فى المخابرات ومستولا
عن الكفاح المسلح بالقناة فى ذلك الوقت (ما ان أعلن جمال عبد الناصر
بيان توقف المفاوضات حتى تحركنا للعمل) .

وشهد شهرا مايو ويونيو ١٩٥٣ تحركا واسع النطاق للقذائيين . . .
وقال جمال عبد الناصر فى رده على خروج الأسر البريطانية (ان الذين
لا نريدهم فى بلادنا هم جنود الاحتلال الانجليز وحدهم دون غيرهم . . .
أما الرعايا البريطانيون المدنيون من أفراد الجالية البريطانية فهم فى
حماية مصر) .

وفى ١٤ يونيو قال أيضا (اننا نكون جيشا كبيرا يضم ٢٢ مليونا
من المصريين وهو جيش قادر على اخراج المستعمر من البلاد ، ولن نعتمد
على فئة قليلة ، ولكننا نعتمد على المواطنين جميعا . . . اننا نوزع السلاح
فى جميع أنحاء البلاد) .

ولكن طبيعة الكفاح المسلح عام ١٩٥٣ ، كانت تختلف عن طبيعته
عام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ . . . تحول الكفاح المسلح بعد حركة الجيش الى عمل
تنظيمى منضبط فى يد ضباط المخابرات المصريين الذين انبثوا فى مدن
القنال . . . وكان فى مقدمتهم كمال رفعت وعبد الفتاح أبو الفضل وفؤاد
هلال وعمر لطفى وغيرهم .

وكان جميعنا يعمل تحت قيادة زكريا محيى الدين الذى كان حتى
ذلك الوقت مشرفا على كافة أجهزة الأمن (وزارة الداخلية - المخابرات
العامة - المخابرات الحربية) . . . والذى قسم منطقة القنطرة الى قطاعات
عين لكل قطاع منها ضابطا مسؤولا وكان يعقد لهم اجتماعات دورية
لتسيق وتوجيه الخطط .

وكان لهذا الأسلوب الجديد فى الكفاح المسلح سببيات
وايجابيات . . . فقد كان تركيزه فى يد الضباط يعطيه طبيعة عسكرية
قادرة على التدريب والتوجيه وضرب المناطق المؤثرة . . . ولأنهم
منتمون الى المخابرات فقد كان التصنيف السياسى للناس عندهم ذا أهمية
تصل الى المرتبة الأولى ، مما عزل عن المعركة كثيرا من العناصر السياسية
القادرة على توعية الجماهير وتعبئتها .

كانت المعركة تتحرك فى خطوط مرسومة ، وتحقق عمليات ناجحة .
ولكنها لم تلتقط حرارة الجماهير أو تتحرك فى أحضانها ولم تعمل على
بعث تربية قومية .

لم يكن مصرحا لكل واحد أن يحمل سلاحه ويختار كتيبته وقيادته ،
ويضحى بحياته فى صفوف التنظيم الذى يؤمن به . . . ولكنه كان ضروريا

أن يرتبط بالمخابرات ليحصل على جواز المرور الى التضحية والكفاح المسلح .

وكان كثير من الشباب والعناصر السياسية يرفض الارتباط بالمخابرات ويخشى اسمها فهي كفيلة بالاساءة اليه ، في وقت كانت يدها فيها مطلقة في اعتقال الزعماء السياسيين وأفراد التنظيمات الشيوعية .

وهكذا اختفت أعلام كتائب الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين التي ارتفعت عام ١٩٥١ وجذبت اليها أعدادا متزايدة من المناضلين ٠٠٠ ولم يعد هناك سوى علم واحد وهو علم المخابرات وقيادة واحدة هي قيادة الضباط .

أما الاخوان المسلمون فانهم لم يسهموا في الكفاح المسلح ضد الانجليز رغم انهم كانوا القوة السياسية الوحيدة المصرح لها بالعمل علنا ٠٠٠ وأثروا أن يتكلموا على أنفسهم ، تماما كما فعلت قيادتهم أثناء حكم الوفد عندما قال حسن الهضيبي انهم لا يعتبرون الكفاح المسلح هو الأسلوب السليم للنضال واعترض على جموح بعض شبابهم الذين اشتركوا في معارك القتال ٠٠٠ كما قال الشيخ فرغلي مسئول الاخوان في الاسماعيلية لكمال رفعت مما ورد في كتابه (حرب التحرير الوطنية) :

— احنا معندناش استعداد لتحمل تهور الناس ولا يمكن نضحي بأولادنا عنشان خاطر الوفد ٠٠٠ الوفد عملها والوفد يتحمل نتائجها والى حصل اليومين الى فاتوا كانوا كلام فارغ .

وهكذا كانت سياسة الاخوان أيضا بعد الثورة ٠٠٠ لم يسهموا في حركة الكفاح المسلح ، في الوقت الذي عجزت فيه القوات الشعبية الأخرى عن المساهمة لوجود قاداتها في المعتقلات والسجون .

واقصر الكفاح على المتعاونين مع ضباط مخابرات الثورة .

اقترن نشاط الكفاح المسلح بالموقف السياسي وارتبط به ارتباطا وثيقا ٠٠٠ كلما تقدمت المحادثات هدأت منطقة القناة ، وكلما تعثرت انفجرت الأحداث في المنطقة .

ولذا كان شهرا مايو ويونيو ١٩٥٣ من الأشهر الساخنة بعد توقف المفاوضات واستمر تصاعد الكفاح المسلح حتى بلغ ذروته عندما اختفى الشاويش البريطاني ديجدن من السلاح الجوي يوم ٧ يوليو ، وأرسلت القيادة البريطانية انذارا الى مصر فيه تهديد باتخاذ اجراءات عنيفة بالاسماعيلية وتحددت الساعة التاسعة من صباح ١٣ يوليو لتنفيذ ذلك .

رفض مجلس قيادة الثورة الانذار .

ورفض محمد نجيب مقابلة مستر هانكي الوزير المعوض البريطاني .

ونوقش موضوع اختفاء الشاويش البريطاني في مجلس اللوردات .

وقال لي صلاح سالم انهم رحلوا الشاويش البريطاني الى باريس

حيث ظهر هناك ، واستوقفت المباحثات نتيجة ذلك في ٣١ يوليو ١٩٥٣ .

ويشير كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطنية) الى ازدياد

الحوادث التي تمت خلال فترة توقف المفاوضات ، ويشير أيضا الى انه

بعد عودة المباحثات لم تتوقف الأحداث ، بل ان السفارة البريطانية قدمت

احتجاجا في نوفمبر ١٩٥٣ على زيادة عدد الحوادث في المنطقة .

وقد أمكن خلال هذه الفترة اعتقال عدد من الجواسيس الذين كانوا

في خدمة القوات البريطانية ، وحكمتهم محكمة الثورة وأصدرت على

بعضهم الحكم بالاعدام مثل محمود صبرى على المعروف بكنج صبرى ،

والفريد عوض ميخائيل ، محمد عزت محمد ، وبولس مكسيموس وأصدرت

الحكم على البعض بالاشغال الشاقة .

وخلال فترة انقطاع المفاوضات كان جون فرستر دالاس قد حضر

لزيارة مصر يوم ١١ مايو ١٩٥٣ في محاولة لعقد صلح بين العرب واسرائيل

ودعم سياسته في تطويق الاتحاد السوفييتي بأحلاف عسكرية .

قدم دالاس الى محمد نجيب هدية ايزنهاور عبارة عن مسدس

بلا ذخيرة أثبتت الأحداث فيما بعد انه السلاح الوحيد الذي قدمته أمريكا

الى مصر بينما أرسل محمد نجيب الى ايزنهاور تمثالا من الذهب

لاله الحكمة عند قدماء المصريين .

وقد صرح دالاس عند وصوله قائلا (ضرورة بناء قاعدة القنصاة

لاستخدامها في حالة الحرب دفاعا عن العالم الحر) .

ولم تقابل تصريحات دالاس بأى تأييد من جانب الشعب ولا من

جانب ضباط مجلس القيادة الذين التزموا بسياسة عدم الارتباط بأحلاف

عسكرية .

وكتب أحمد أبو الفتح في جريدة المصرى يوم ١١ مايو مخاطبا دالاس

مظهرا تناقضات موقف أمريكا التي تؤيد اسرائيل التي تصرح بقيام حزب

شيوعي فيها ، بينما مصر تعتقل الشيوعيين ومع ذلك تصر أمريكا على

مساندة انبجائرا ضدها .

ولم تكن صورة الولايات المتحدة عند المصريين كما حاول أن يرسمها محمد حسنين هيكل في كتاب (عبد الناصر والعالم) بقوله (كانت الولايات المتحدة تحيط بها كل معاني النجاح والفتنة ، براقة متسدية على الفشل الذريع الذى منى به الاستعماريون القدامى ، وكان الذئس متجاوبين مع فكرة قيام الأمريكيين بدور رئيسى فى الشرق الأوسط ومستعدين لقبولها) .

لم يكن هذا التصور صحيحا . . . فان كافة القوى الوطنية كانت ضد السماح للأمريكيين بأداء دور سياسى بديل لدور انجلترا ، ظهر ذلك فى سياسة الوفد وأحزاب مصر الفتاة والوطن الجديد والتنظيمات الشيوعية والجمهورية ، فقد كشفت أمريكا الستار عن موقفها أثناء عرض النقراشى لقضية مصر على مجلس الأمن .

واذا استثنينا السراى التى كانت على علاقة طيبة بالأمريكيين والاخوان المسلمين الذين حرصوا على اثبات حسن نيتهم للأمريكيين ، وبعض رجال أحزاب الأقلية فان أحدا من المثقفين أو السياسيين المصريين الوطنيين لم يكن ينظر الى أمريكا بنظرة محمد حسنين هيكل ، أو نظرة مصطفى أمين فى كتابه (أمريكا الضاحكة) أو نظرة حافظ عفيفى مؤلف (الانجليز فى بلادهم) الذى كتب مقالا فى الأهرام يوم ٢٥ أغسطس ١٩٥١ قال فيه (لا مانع مطلقا من أن نعقد مع بريطانيا ومع غيرها من دول المعسكر الغربى معاهدة تحقق أهدافنا وتضمن لنا ولها معونة عسكرية متبادلة عند الحاجة . . . وأرى أن محالفة ثلاثية تحقق هذه الأغراض مع انجلترا وأمريكا وهى خير ما أطمع فى الوصول اليه وأتمناه لبلادى) . . . وكان أجره على ذلك تعيينه رئيسا للديوان الملكى .

والضباط أيضا لم يكونوا أقل التزاما بإرادة الشعب من السياسيين الوطنيين قبل الثورة . . . ولم يكونوا أكثر اقترابا من أمريكا الا بالقدر الذى تساندتهم به فى الضغط على بريطانيا .

ووضح من زيارة دالاس ان احتمال ضغطه على بريطانيا سراب لا يجوز التعلق به وكن نجيب وجمال عبد الناصر صريحين معه تماما فى عدم الاستجابة لرغبته فى الارتباط بأحلاف غربية خوفا من الشيوعية .

وفى ذلك قال جمال عبد الناصر ، كما روى محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) :

(ان الاتحاد السوفيتى يبعد عنا ٥ آلاف ميل ولم نقم قط مشاكل معه كما أنه لم يهاجمنا أبدا ولم يحتل أرضنا اطلاقا ولم يكن له قط قاعدة

فى مصر بينما لا تزال بريطانيا فى مصر تمارس احتلالا استعماريا منذ سبعين عاما) .

وزاد موقف أمريكا وضوحا عندما استجابت الى قرار بريطانيا بحظر توريد الأسلحة لمصر وفى ذلك يقول أنطونى ناتج فى كتابه (ناصر) معلقا على نتائج زيارة دالاس قائلا :

(ان الانعكاس المير لحديث الأمريكين عن مساعدة شعوب الدول النامية لم يكن أكثر من أفيون لتخديرها) .

ولذا فان خطاب ايزنهاور الذى أرسله الى محمد نجيب يؤكد فيه عزم أمريكا على تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة الى مصر اذا وصلت الى اتفاق مع بريطانيا كما ذكر ناتج فى كتابه ناصر - غير ذى صدى عند أعضاء مجلس القيادة .

والحقيقة أن أمريكا لعبت دور الوسيط فى المباحثات ٠٠٠ حاولت اقناع بريطانيا بجلاء قواتها وحاولت اقناع مصر بالارتباط بحلف دفاعى غربى .

ولكنها وجدت من الضغوط اصرارا على عدم التورط فى أحلاف دفاعية . ولذا فانه عندما عقد مؤتمر لأقطاب الغرب فى جزيرة برمودا بالمحيط الأطلنطى فى ديسمبر ٥٣ وحضر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وأنطونى ايدن وزير الخارجية وجوزيف لانييل رئيس وزراء فرنسا واجتمعوا هناك بالرئيس ايزنهاور ودالاس وزير الخارجية ، ونوقش موضوع تنسيق جهود الدول الاستعمارية الثلاث ، اتفق رأيهم جميعا على عدم الاستجابة لرأى مصر ، وممالة بريطانيا فى موقفها المتشدد .

أخذت المفاوضات أسلوبها التقليدى فى الماطلة ٠٠٠ وانعكس ذلك على الشعب نقدا لأسلوب العسكريين فى معالجة المشكلة بأسلوب السياسيين .

لم يكن الكفاح المسلح فى القناة مشتتلا كما كان عام ١٩٥١ بدرجة مقنعة للجماهير ، وبدأت روح المعارضة تتحول من همسات الى مظاهرات قام بها الطلبة ، وعاد مجلس القيادة الى اعتقال عدد كبير من السياسيين وتقديمهم الى محكمة الثورة ، فى الوقت الذى حوكم فيه الجواسيس .

وبعد انتهاء المحاكمات وخلالها لم تتوقف حوادث الكفاح المسلح فى القناة ، وصرح سلوين لويده وزير خارجية بريطانيا أمام مجلس العموم فى يناير ١٩٥٤ بعد تولى ايدن رئاسة الوزارة عقب تخلى تشرشل عن الحكم قائلا (ان من المستحيل الوصول الى اتفاق مع مصر ما دامت هذه الحوادث مستمرة) .

وفى يوم ٢٠ يناير ١٩٥٤ أطلق الانجليز الرصاص على سيارة جيش
مصرية تحمل ١٧ جنديا من سلاح الطيران ، أصيب أربعة منهم وقتل
واحد ٠٠٠ وكان هذا هو أول حادث من نوعه ٠٠٠ صدام بين القوات
المسلحة وبعضها .

ورد المصريون على ذلك فورا ، وتصاعد القتال فى المنطقة ٠٠٠ ولكنه
ظل منعزلا عن الجماهير ٠٠٠ بل ظل منعزلا حتى عن ضباط الجيش
أنفسهم ٠٠٠ ولم يتأثر بالخلاف بين محمد نجيب وأعضاء مجلس قيادة
الثورة ٠٠٠

وعندما تخلص مجلس القيادة من محمد نجيب وتولى جمال
عبد الناصر رئاسة الوزارة فى ١٧ ابريل ١٩٥٤ تفرغ لحل مشكلة الجلاء
بعد ان وصلت الأمور الى حد تهديد شعبية مجلس القيادة بعد ان لم
تفلح العمليات العسكرية فى القناة فى تليين عناد البريطانيين .

واتخذ جمال عبد الناصر عدة خطوات ايجابية بناء على تقدير موقف
شخصى .

قرر من ناحية المبدأ قبول عودة القوات البريطانية الى منطقة القناة
اذا هوجمت تركيا ، وهو أمر كان مرفوضا قبل ذلك من الجانب المصرى
٠٠٠ وقرر أيضا بعد شهر واحد من توليه الوزارة دعوة البريطانيين الى
عودة المباحثات مع وقف النشاط الفدائى بعد ان كان قد وصل الذروة
كما ذكر أنطونى ناتنج .

واستؤنفت المباحثات فى يوليو ، بعد أن كان جمال عبد الناصر قد
أعلن فى ١٨ يونيو ان مفاوضات تجرى بين مصر وأندونيسيا ويوغسلافيا
بشان عقد المؤتمر الآسيوى والأفريقى ، وبعد ان أضرب العمال المصريون
فى ٢٣ يونيو عن الذهاب الى معسكرات القناة ، وعقب قولته المعروفة
فى شبين الكوم (على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل) .

وفى ٢٥ يونيو انتقلت قيادة القوات البريطانية فى منطقة قناة
السويس الى قبرص ، وأعلنت السفارة بيانا قالت فيه (ان انتقال قيادة
القوات الى قبرص لا يعنى أى تحويل فى موقف بريطانيا من المفاوضات) .

تشكل وفد المفاوضات المصرى بعد ابعاد نجيب برئاسة جمال
عبد الناصر وعضوية عبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى
وصلاح سالم ودكتور محمود فوزى ومن الجانب البريطانى السفير
البريطانى سير رالف ستيفنسون وميجر بنسون قائد القوات البريطانية
ومستر رالف مورى الوزير المفوض فى السفارة ، وحضر وزير الحرية
البريطانية أنطونى هيد فى المراحل الأخيرة .

لم تستغرق المفاوضات وقتا طويلا . بدأت في ١١ يوليو وانتهت في ٢٧ يوليو ، حيث وقعت الاتفاقية بالأحرف الأولى في دار رئاسة مجلس الوزراء ورفعها عن مصر جمال عبد الناصر وعن بريطانيا مستر أنطواني هيد .

قصر مدة المفاوضات بعد استئنافها ، وسرعة الاتفاق والتوقيع بالأحرف الأولى أمر مثير للتساؤل ، وهو دليل على أن نقاط الخلاف قد سويت قبل الجلسات ، وإن قبول جمال عبد الناصر عودة القوات البريطانية في حالة مهاجمة تركيا ، كان حرصا منه على إنهاء المفاوضات للسيطرة على الموقف الداخلي بعد تصادم الثورة مع كل القوى السياسية عدا الإخوان المسلمين الذين كانوا يتربصون ويتحينون الوقت المناسب للانقضاض .

تأكد بعد ذلك أن هذه السرعة في توقيع الاتفاق كان نتيجة وساطة أمريكية ، كما ذكر لي زكريا محيي الدين استهدفت حل المشكلة بين البريطانيين والمصريين لخلق جو مناسب لربط مصر بسياسة جديدة في المنطقة .

ويبدو أن جمال عبد الناصر كان يتطلع إلى جلاء القوات البريطانية باعتباره هدفا رئيسيا ، يدبر بعده من الخطط ما يحمي الاستقلال الوطني واعتبر أن الاتفاقية لا تزيد عن كونها (حبر على ورق) يستطيع أن يفعل بعد توقيعها ما يشاء عقب جلاء جنود الاحتلال ، وهو لم يعتبر إدراج تركيا بمثابة ارتباط تحالف مع بريطانيا .

خاطب جمال عبد الناصر الشعب يوم ٢٢ يوليو قائلا (اننا نعيش الآن لحظة مجيدة في تاريخ وطننا ونقف على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلي) .

ولكن هذا لم يكن رأى فئات كثيرة من الجماهير اعتبرت اتفاقية الجلاء أقل من طموحها وأكثر تراجعاً من ارادتها فهي تعنى في مضمونها تحالفا مع البريطانيين قبله الوفد عام ١٩٣٦ ثم رفضه رفضا باتا بعد الناء المعاهدة .

نصت الاتفاقية على انسحاب القوات البريطانية خلال عشرين شهرا من التوقيع النهائي ، وانتهت معاهدة ١٩٣٦ وكافة ارتباطاتها ، واعتبرت قناة السويس جزءا من مصر تكفل حرية الملاحة فيه اتفاقية الاستانة في ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ .

ونصت الاتفاقية أيضا على بقاء أجزاء من القاعدة صالحة ومعدة للاستخدام تعود اليها القوات البريطانية اذا ما هوجمت دولة من دول معاهدة الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية أو تركيا أيضا . . . وفي حالة التهديد بالهجوم يجرى التشاور فورا بين مصر وبريطانيا .

وبين توقيع الاتفاقية بالحروف الأولى وتوقيعها النهائي تبيلورت المعارضة للاتفاقية عموما ولجمال عبد الناصر بصفة خاصة . . . وظهرت بوادر ذلك في صورة نسف كوبرى أبو سلطان بمنطقة القنال في ٢ أغسطس ١٩٥٤ عن غير طريق ضباط المخابرات المسئولين عن الكفاح المسلح .

ويقول كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطنية) ان (أصابع الاتهام أشارت الى الذين لا يريدون جلاء القوات الأجنبية عن بلادنا . . . أشارت الى فئة لم تطلق أبدا رصاصة على الانجليز منذ الناء معاهدة ١٩٣٦) .

ويدون كمال رفعت فقرة من تقرير المخابرات البريطانية يقول من الأمور ذات المغزى ان المنطقة الواقعة شمال أبى سلطان مشهورة بأنها قلعة حصينة للاخوان المسلمين ، وترد أنباء عن مسنودعات أسلحة في تلك المنطقة من مصادر موثوق بها من حين الى آخر .

اذا صح ذلك فان هذا يعنى سرعة تحرك الاخوان المسلمين من جديد ضد جمال عبد الناصر ، راكبين في ذلك موجة الرفض الشعبى لاتفاقية الجلاء ، منتهزين فرصة الهجوم العام على جمال عبد الناصر وشخصيته التى صورت في هذه الفترة بمظهر القوة في معاملة محمد نجيب والزعماء السياسيين والشبوعيين . . . وأسى اليها بقبول اتفاقية الجلاء . . . وفي ذلك يقول جان لاكوتير في كتابه (عبد الناصر) (لم يبد البكباشى أكثر انعزالا بنظر الشعب المصرى كما بدا في اليوم الذى حمل فيه الى الشعب اتفاقية الجلاء) .

وخطب جمال عبد الناصر يوم ٢١ أغسطس مهاجما الاخوان المسلمين مرددا اتصال الهضيبي بمستر ايفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وهو ما ورد في بيان مجلس القيادة عند حل جماعة الاخوان المسلمين في يناير ١٩٥٤ .

وتم توقيع الاتفاقية يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ وقعها عن مصر جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي وصلاح سالم ومحمود فوزى وعن انجلترا أنطونى ناتنج وزير الدولة البريطانى وسير رالف سنتيفنسون وميجر جنرال منسون كبير المفاوضين العسكريين .

ويروى ناتنج في كتابه واقعة طريفة حدثت وقت التوقيع عندما احتفظ ناتنج بقلم جمال عبد الناصر الذي استعاره منه للتوقيع فقال له جمال مداعبا (أظن انكم اخذتم منى في هذه الاتفاقية فهل تسمح باعادة قلمي ا) .

وكاد توقيع هذه الاتفاقية يودي بحياة جمال عبد الناصر .

لم يكده يمضى اسبوع واحد على توقيع الاتفاقية حتى اعتدى محمود عبد اللطيف عضو الجهاز السرى لجماعة الاخوان المسلمين على جمال عبد الناصر باطلاق الرصاص عليه اثناء خطاب له في ميدان المنشية بالاسكندرية وبدأت بعد ذلك حملة اعتقالات واسعة ومحاكمات عنيفة ضد الاخوان المسلمين .

وكانت بريطانيا قد رفعت حظر تصدير السلاح الى مصر في شهر أغسطس بعد ان كانت قد فرضته في عهد وزارة الوفد عام ١٩٥١ عقب اشتعال الكفاح المسلح في القناة .

وكان الهدوء قد عاد الى منطقة القناة في ظاهر ولكن ضباط المخابرات المصريين ظلوا يكلفون بأعمال تتصل بالقاعدة البريطانية والحصول على معلومات عنها .

واسمرت الجلاء عن المعسكرات البريطانية واحدا بعد الآخر حتى تم جلاء البريطانيين عن آخر معقل كانوا يحتلونه في بورسعيد وهو مبنى البحرية الذى تسلمه الجيش المصرى يوم ١٣ يونيو ١٩٥٦ .

يقول فتحى رضوان ان جمال عبد الناصر دخل عليه فى ذلك اليوم وسأله عن موعد حادث دنشواى فقال له فتحى انه حدث يوم ١٣ يونيو ١٩٥٦ أى من نصف قرن بالضبط وأبلغه جمال أن الانجليز قد تم انسحابهم سرا فى هذا اليوم .

واقترح فتحى رضوان أن يخرجوا الى الجماهير ويشاركوها الفرح بالغناء والرقص فى هذا اليوم البهيج .

ولكن جمال عبد الناصر ابتسم فى هدوء قائلا له (روح انت غن وارقص لوحدهك) .

(قال له ذلك كما لو كانت النتيجة التى وصلوا اليها طبيعية . وليست نقطة نهاية وانما نقطة بدء) .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، الذكرى الثالثة لاعلان الجمهورية فى مصر . رفع جمال عبد الناصر العلم على مبنى البحرية فى بورسعيد . واعتبر هذا التاريخ منذ ذلك الوقت عيد الجلاء .

تحررت مصر والسودان من الوجود الاستعماري قبل أن تمضي أربع سنوات على قيام حركة ٢٣ يوليو .

ويقول جان لاکوتير انه يوم توقيع الاتفاقية كان وجه جمال عبد الناصر يشوبه العبوس وعندما سأله قائلا :

— والآن ؟

رد جمال عبد الناصر قائلا :

— والآن يبقى علينا إعادة بناء بلدنا .

وقال عبد الحكيم عامر عندما سئل عن توقعاته لتعزيز الجيش .

— لن نشترى دبابات ، بل سنشتري جرارات فهي أكثر فائدة لنا .

خرج الاحتلال البريطاني من مصر بعد ٧٤ عاما .

دخل بعد ان قهر ثورة قادها عسكريون .

وخرج بعد أن قهرته ثورة قادها عسكريون أيضا .

الفصل الثانى

مع الحياد ... ضد الأحلاف

(ان انتصار مصر فى معركة الأحلاف
انتصار للهند أيضا) .

جواهر لال نهرو
أثناء زيارة القاهرة فى فبراير ١٩٥٥

لم يكن توقيع اتفاقية الجلاء نهاية للصراع مع الاستعمار البريطانى
... ولكنه كان بداية لمرحلة جديدة : حاولت فيها بريطانيا بعد ان عجزت
هى والولايات المتحدة عن اقناع الحكام العسكريين الجدد فى مصر
بالارتباط بحلفها الدفاعى للشرق الأوسط ، أن تضم دولا عربية أخرى
الى هذا الحلف .

كان أقصى ما أمكن فرضه على اتفاقية الجلاء هو النص على عودة
القوات البريطانية الى منطقة القناة فى حالة الاعتداء على تركيا المرتبطة
بحلف الأطلسى الذى تشكل عام ١٩٤٩ وقد قبل جمال عبد الناصر هذا
النص تفاديا لأزمات داخلية ، ومحاولة لتهدة الاستعمار حتى لا يلعب
على التناقضات الداخلية التى كانت قائمة ، الى جانب رغبته فى عقد اتفاق
ينهى قضية جلاء قوات الاحتلال ، ليتفرغ الى مشاكل بناء المجتمع الجديد .

ولكن الشبهة التي أحاطت بالاتفاقية باعتبارها نوعا من التحالف عرضت حياة جمال عبد الناصر للخطر وجعلته يقول لا يدن أثناء زيارته لمصر في فبراير ١٩٥٥ انه تكبد الكثير بسبب هذه الاتفاقية الى حد التعرض لاطلاق النار عليه كما ذكر محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .

في صباح اليوم التالي لاطلاق النار على جمال عبد الناصر ذهب اليه بعض ضباط الجيش في استراحة ستانلي وهي منزل صغير من دور واحد له حديقة خضراء منبسطة تشرف على البحر ، وكان هناك عبد الحكيم عامر يقول للضباط في صراحة بسيطة انه لا يعرف شيئا عما تحققه الثورة وان جمال هو الذى خطط ونفذ وهو الذى يعرف خطوات المستقبل وعندما دخلنا الى جمال عبد الناصر في غرفة جلوس صغيرة كان وجهه شاحبا فلم يكن قد نام الا قليلا واستيقظ مبكرا لمقابلة الزائرين وقال وعيناه تلمع (الاخوان المسلمين عاملين وطنيين . . كانوا في معركة القناة) ثم استطرد يشرح للعدد القليل من الضباط الحاضرين مفهومه لاتفاقية الجلاء ، واستبعاده الكامل لحدوث معركة تسمح للقوات البريطانية بالعودة .

كان تنفيذ الاتفاقية يمضى في طريقه المرسوم بلا تعقيدات من الجانبين . . . القوات البريطانية تواصل انسحابها من المعسكرات واحدا بعد الآخر . . والحكومة البريطانية رفعت الحظر عن توريد السلاح الى مصر في أغسطس ١٩٥٤ .

والحكومة الأمريكية أيضا قدمت لمصر ٤٠ مليون دولار كمساعدة في شهر نوفمبر ١٩٥٤ . . أى بعد شهر واحد من توقيع الاتفاقية . . . وكان قد حضر الى مصر ضابطان أمريكيان موفدان من البنتاجون لتزويد مصر بالسلاح الذى تحتاجه للأمن الداخلى وقد بذل هذان الضابطان جهدهما لاقتناع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بأن العدو الحقيقى للعرب هو الشيوعية العالمية وان هذا كاف لتحريك حوافز العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو السوفييتى وأجاب عبد الناصر على ذلك بالتفريق بين خطر التغلغل الشيوعى الذى هو مسألة أمن لكل بلد على انفراد وبين خطر الغزو العسكرى السوفييتى الذى لا تشعر به مصر التى تواجه عدوين هما بريطانيا واسرائيل .

وقد دهش مندوبا البنتاجون لموقف جمال عبد الناصر وردا على احتمال تشكيل عبد الناصر لجبهة من العرب ترفض الارتباط بأحلاف الغرب العسكرية بقولهما (لقد تأخر كثيرا فلقد كسبنا لجانبنا كلا من

العراق ولبنان والأردن وتركيا وإيران والباكستان كما ذكر مايلز كوبلند في كتابه « لعبة الأمم » .

ومع ذلك لم تفقد الحكومة الأمريكية الأمل في ربط مصر بحلف دفاعي يبقى قناة السويس قاعدة صالحة . . . ولذا أعلنت عن تقديم مساعدة الأربعين مليوناً لمصر في نوفمبر ١٩٥٤ ، وأعطت تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء معدات حربية .

وبدأت وزارة الحربية المصرية تعد قوائم بالأسلحة المطلوبة وتراجعها وتعد لها في مراسلات متبادلة مع المسئولين في وزارة الدفاع الأمريكية . . . ولكن ظلت المشكلة معلقة عدة شهور باعتبارها (تحت الدراسة) . . . ولكن الواقع انه كانت هناك خشية من استخدام جمال عبد الناصر لهذه الأسلحة ضد إسرائيل .

وعلى قدر ما طالت مفاوضات التسليح ، على قدر ما انتهت في سرعة عملية تقديم ٣ مليون دولار منحة شخصية من المخابرات المركزية الى رئيس الدولة . . . وهي قصة أثارت اهتمام الكثيرين لما أحاط بها من جدل .

بدأت القصة باقتراح من عميل المخابرات المركزية الأمريكية مايلز كوبلند والتي كشف أسرارها في كتابه (لعبة الأمم) عندما قال انه لولا نشره لها لظلت خمسة آلاف عام تحير الباب علماء الآثار كما تحيرها أهرامات مصر . . . ذلك انها انتهت الى بناء برج القاهرة في الجزيرة المواجهة للنيل والمطل على أفخم فنادق العاصمة وأكبر نواديها .

يحدد مايلز كوبلند تاريخ اعطاء المبلغ لضابط المخابرات حسن التهامي الذي أخذه وأحصاه في منزله بالمعادي ووجده ناقصاً عشرة دولارات في شهر نوفمبر ١٩٥٤ أى نفس الشهر الذي حصلت فيه مصر على الأربعين مليوناً كمعونة اقتصادية .

وينفى هذا التحديد ما نشره محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) من القول بأن هذا المبلغ قد سلم الى اللواء محمد نجيب (وان جمال عبد الناصر عندما علم بذلك استشاط غضباً وطلب تفسيراً من محمد نجيب الذي كان آنذاك رئيساً للوزراء . . . وأصر نجيب على انه فهم انه ليس للمخابرات الأمريكية علاقة بذلك المبلغ وانه مرسل من الرئيس أيزنهاور الذي خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المفيدة بالميزانية من أجل الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية) . . . وهما طلب عبد الناصر على حد قول هيكل - ايداع المال في خزانة ادارة المخابرات وأمر بعدم صرف أى شيء الا باذن مجلس قيادة الثورة .

ينبغي تحديد تاريخ تسليم المبلغ ذلك لسبب بسيط هو أن محمد نجيب لم يكن رئيسا للوزراء في هذه الفترة بل كان رئيسا للجمهورية بلا عجل حتى ١٤ نوفمبر ثم معتقلا في المرج بعد ذلك وكان حسن ابراهيم وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية يحضر كافة مقابلاته ويراقب كل تصرفاته ... مما يبعد تماما فكرة عدم معرفة جمال عبد الناصر بوقوع مثل هذا الحادث .

هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى فإن الأمريكيين ما كانوا يعطوا مثل هذا المبلغ لمحمد نجيب وهو رجل معزول عن الحياة العامة تدفقت عليه الهجمات عقب اطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر وربطت بينه وبين الاخوان المسلمين وكان على وشك أن يحاكم معهم .

هذا اذا أردنا استبعاد رأى مايلز كوبلند كما ورد في كتابه .

وعندما قرأ محمد نجيب ما نشره هيكل في كتابه رفع عليه قضية امام محكمة الجيزة واضطر هيكل للاعتذار على صفحات الأهرام . وأثبت محمد نجيب امام المحكمة قوله بأن الواقعة موضوع الادعاء غير صحيحة على الاطلاق ... وصمت هيكل مؤثرا الانسحاب من خطأ أساء به الى سمعة الرجل .

ومثل هذه المبالغ كانت تدفع عادة لبعض رؤساء الدول ... البعض تقبلها في سكون ، والبعض يرفضها في صخب كما فعل رئيس وزراء سنغافورة عندما أعلن انها محاولة لرشوته ، والبعض لا يأخذها لنفسه وانما يستخدمها لخدمة مجتمعه كما فعل جمال عبد الناصر عندما شيد بها برج القاهرة ليكون مركزا للاتصالات اللاسلكية السرية مع سفارات مصر في الخارج .

هكذا كان موقف حكومة الولايات المتحدة مع جمال عبد الناصر بعد توقيع اتفاقية الجلاء ... أمل في ربطه بالأحلاف العسكرية ، وحوار متصل حول ذلك ، واغراء بالمساعدات المالية وتقديم تسهيلات شكلية للتسليح وتوطيد للعلاقات الشخصية معه ببعض العناصر الأمريكية القادرة على اجتذاب عاطفته .

وفي هذا السبيل استبدلت الحكومة الأمريكية جيفرسون كافري بهنري بايرون الذي قدم أوراق اعتماده في ٨ مارس ١٩٥٥ وكان قبل ذلك وكيلا لوزارة الخارجية درس حضارة مصر القديمة وهو ضابط سابق برتبة عميد ، عمره ٣٩ عاما يستطيع أن يكون أكثر تفهما لزملائه من الضباط المصريين الذين يجمعهم عمر واحد ومهنة واحدة .

ولكن كل هذه الظروف لم تضعف من اصرار جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة على اتخاذ موقف الحياد ومعاداة الأحلاف العسكرية .

الرهائنات التي أطلقت على جمال عبد الناصر في ميدان المنشية رغم انها عمل من أعمال الارهاب المقيوت والمدان ، الا انها كانت صوتا من أصوات الاحتجاج على شبهة التحالف التي وردت في اتفاقية الجلاء . . . ولذا لم يكن جمال عبد الناصر مستعدا للتورط في تحالفات عسكرية .

ليس هذا فقط . . . بل ان جمال عبد الناصر بدأ معركة ضد الدول العربية التي أخذت تنجذب الى مغناطيس الأحلاف الغربية . . . وكان هذا جديدا في السياسة المصرية . . . فمصر قبل الثورة كانت ترفض الأحلاف ولكنها لا تهاجم الدول العربية التي تروج الدعاية لها .

بل ان موضوع الأحلاف كان مجالا لوجهات نظر مختلفة داخل مصر . . . اسماعيل صدقي وقع بالأحرف الأولى مع اتورين بيفان وزير خارجية بريطانيا على مشروع معاهدة تقضى بالتحالف مع بريطانيا ، وكان يصحبه في المفاوضات وزير خارجيته ابراهيم عبد الهادي رئيس الحزب السعدي فيما بعد ، وروج مصطفى أمين لذلك بمقال كتبه في آخر ساعة تحت عنوان (أوقعها والعنها) .

ومحمود فهمى النقراشي خطب في واشنطن مهاجما الشيوعية والنظام السوفيتي متحدثا عن وجوب ثقة الغرب في مصر الديمقراطية وكراهيتها للشيوعية ، موافقا على مبدأ الأمن الجماعي وهو شعار الأحلاف العسكرية الذي رفعه الاستعمار وقتها .

وعبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية صرح في شهر يناير ١٩٥٢ بأنه على استعداد للتحالف مع أمريكا .

أما الوفد فقد أعلن رأيه صراحة في رفض استمرار التحالف ، واقترح مصطفى النحاس أثناء مفاوضاته مع المارشال سليم ان تنتقل القوات البريطانية عند القناة الى فلسطين بما يمكنها في حالة الحرب من العودة خلال اسبوع .

كان الوفد يطلب الجلاء أولا ثم النظر في موضوع التحالف بعد ذلك . . . أما الاستعمار فكان يصر على توقيع التحالف أولا قبل اتمام الجلاء . . . ولذا ألغيت المعاهدة وبدأ الكفاح المسلح (أما الأحزاب التقدمية فقد اتخذت موقف الرفض والمعارضة لفكرة الأحلاف العسكرية) .

وتغير الموقف بعد حركة ٢٣ يوليو . . . اذ أخذت القيادة العسكرية

ليس على رفض التحالف فقط ، بل على مقاومة الأحلاف التي ترتبط بها الدول العربية مع الاستعمار .

ودخلت الثورة بذلك معركة ضارية ضد الأحلاف العسكرية .

لم تستجب لأغواء ايزنهاور بامداد مصر بما تحتاجه من أسلحة اذا ارتبطت بحلف دفاعي مع الغرب . . . كان هذا الاغواء أقل تأثيرا على العسكريين منه على المدنيين الذين ارتفعت بعض أصواتهم تطلب التحالف ، مثل على ماهر الذي صرح في جريدة الأخبار يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤ بان اشتداد الأزمة بين محمد نجيب وأعضاء المجلس بقوله (ان مصر لا تستطيع الوقوف موقف الحيناد ويجب ان تنضم للغرب) . . . وكأنما يناجي بكلماته قادة الغرب ليمدوا له ولأمثاله يد المساعدة ، أو لينظروا له بعين العطف من جديد .

ولم تتحول نظرة العسكريين عن موقفهم المبدئي في رفض الأحلاف ولو تدفق السلاح . . . وكانت حكومة الولايات المتحدة قد عقدت اتفاقيات امداد بالسلاح لكل من العراق وباكستان عام ١٩٥٤ كمقدمة لحلف بغداد .

كما تشكل حلف جنوب شرق آسيا في مانيلا عاصمة الفلبين في ٨ سبتمبر ١٩٥٤ وبدأ عمله في ١٩ فبراير ١٩٥٥ بالدول الآسيوية باكستان والفلبين وتايلند وبعض الدول البعيدة عن المنطقة المرتبطة بحلف الأطلسي وهي أمريكا وانجلترا وفرنسا .

ولكن كل ذلك لم يضعف من مقاومة مصر . . . بل زادها اشتعالا وجعلها طليعة الدول العربية في هذا المضمار .

وعندما قام ايدن بزيارته الوحيدة لمصر في ٢٦ فبراير ١٩٥٥ لم تترك الزيارة أثرا في موقف جمال عبد الناصر الذي شرح له موقفه كما سبق ان شرحه لدالاس وعندما تساءل ايدن عن سر الهجوم على أفراد الأسرة الهاشمية ونوري السعيد في العراق لرغبتهم في الانضمام لحلف بغداد قال له جمال عبد الناصر انه لا يهاجم هؤلاء الناس شخصا ولكنه يعتقد أن فكرة حلف بغداد تؤدي الى تجزئة العالم العربي ، وانقسامه الى عزل مصر .

ويقول ناتنج في كتابه (ناصر) ان زيارة ايدن ومناقشاته قد غيرت من الجو النفسي الذي حرص ناتنج على تحقيقه بعد توقيع اتفاقية الجلاء آملا في تعاون مثمر بين الدولتين في المستقبل .

وكان مجلس قيادة الثورة قد أوفد صلاح سالم الى العراق في

صيف ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء بالحروف الأولى للتعرف على حقيقة
أخبار اقتراب العراق من الأحلاف العسكرية .

وكان الهدف من الزيارة إعادة الحرازة الى العلاقات الباردة بين مصر
والعراق ومحاولة كسب ثقة نوري السعيد الذي انتهى مشروعه القديم
(الهلال الخصيب) الذي يضم العراق وشرق الأردن وسوريا في دولة
بواحدة بعد تكوين الجامعة العربية في الأربعينيات .

ذهب صلاح صالح الى سرسك مصيف الأسرة المالكة في شمال
العراق ، وكان جو اللقاء مرحا ، أصر فيه نوري السعيد على مصاحبة
صلاح سالم الى عرس كودي قبل أي مباحثات رسمية .

وفي المباحثات حرص صلاح سالم على كبت عواطفه المتفجرة
والتحدث بهدوء شديد عن أمل مصر وتطلعها في الا يرتبط العراق بأي
حلف أجنبي حتى تجلو القوات البريطانية تماما عن مصر وتجلو كافة
القوات الأجنبية عن بقية البلاد العربية ، وذلك حتى لا ينفذ الاستعمار
الى صفوف الدول العربية فيمزق وحدتها .

ولما أشار نوري السعيد الى أن الشيوعية تهدد العراق وأنه يحتاج
إلى مساعدة لمقاومة هذا التهديد ، قال له صلاح سالم ان الارتباط بأحلاف
أجنبية هو الذي يدفع العناصر الوطنية الى اعتناق الشيوعية .

ولما كان نور السعيد لم يحدد بعد موقفا نهائيا في مقترحات بريطانيا
للارتباط بحلف معها فإنه بعد ان أبدى لصلاح سالم تخوفاته من موقع
العراق الجغرافي وقربه من الاتحاد السوفييتي ارجأ معه دراسة الموضوع
... ولكنه وهو السياسي العتيق خدع صلاح سالم في كلمات البيان
المشترك الذي صدر بعد الزيارة .

كما ان صلاح سالم أجاب في مؤتمر صحفي أثناء الزيارة ردا على
سؤال خبيث عن موقف مصر من رغبة الوحدة في بعض الدول العربية
بقوله انه اذا كان هناك شعبان أو أكثر يريدان الوحدة فان مصر لا تمنع
في ذلك ... وقد ترجم هذا الرد على انه موافقة على مشروع الهلال
الخصيب الذي تنطوي فيه سوريا تحت جناح العراق .

وقد كان لهذه الرحلة تأثير شديد على جمال عبد الناصر ، لعدم
موافقته على آراء صلاح سالم ، فأبلغ السفير العراقي ان ما ورد في البيان
خاصا باستشارة مصر والعراق لبريطانيا والولايات المتحدة من أجل
تقوية الجامعة العربية هو أمر يتنافى مع استقلال الدولتين .

. وأسرع نوري السعيد الى القاهرة ليجابه جمال عبد الناصر بقوله :
انه لا يستطيع الاعتماد على الدول العربية وحدها للدفاع عن العراق .
وانه يعتبر ميثاق الضمان الجماعي العربي حبرا على ورق وانه يعتقد .
ان بريطانيا وحدها هي التي تستطيع ان تساعد في ذلك .

وكان نوري السعيد قد زار مصر قبل ذلك عام ١٩٥٣ والتقى بمحمد
نجيب وجمال عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة ، وحمل معه مشروعاً
يقضى باتحاد الدول العربية المتقاربة على هذا الاساس (السودان ومصر
وليبيا) ثم (العراق وسوريا والأردن) ثم (تونس والجزائر والمغرب) .
وأخيراً (السعودية واليمن والخليج) ولكن نوري السعيد لم يجد
صدراً مفتوحاً لمناقشة مشروعه فقد قال له محمد نجيب انه لا يريد أن
يقفز لتحقيق مشروعات تبدو خيالية قبل أن يتم الجلاء عن مصر .

. وحاول أن يفتح نوري السعيد ملف هذا الموضوع مرة ثانية ، ولكن
جمال عبد الناصر أبلغه انه لا يمكن التفكير في وحدة الدول العربية مع
بعضها الا اذا تحررت تماما من الاستعمار وجلت عنها قوات الاحتلال .

ووضح تماما ان هناك تصادماً لابد وأن يحدث بين القاهرة وبغداد
. . . . اذاعة صوت العرب تدعو كافة المواطنين العرب الى اتباع نموذج
القاهرة والتحرر من القوات الأجنبية كما فعلت مصر بعد عامين فقط من
ثورة ٢٣ يوليو وعواطف الجماهير على امتداد الوطن العربي تلتهب
مع هذه الاذاعات المثيرة

. واتبع نوري السعيد أسلوباً جديداً في مقاومة هذا الهجوم الاعلامي
عندهما أعلن وزير خارجيته موسى شهبندر ، في مؤتمر صحفي أثناء اجتماع
لوزراء الخارجية العرب في القاهرة بأن العراق لن ينضم لحلف مع تركيا
والباكستان وانما سيستبدل ذلك بعقد اتفاقية مع بريطانيا تشابه اتفاقية
مصر معها على أن يسمح بعودة القوات البريطانية الى العراق اذا هوجمت
ايران أو تعرضت لخطر الغزو .

وأكد نوري السعيد أقوال وزير خارجيته أمام البرلمان العراقي يوم
أول يناير ٥٥ ولكن محاولته لوقف الهجوم على العراق لم تستمر فقد
هبط بغداد بعد خمسة أيام فقط من خطبته عدنان مندريس رئيس وزراء
تركيا مع وفد كبير ، أمضى أسبوعاً في العراق وانتهى الأمر الى صدور
بيان يوم ١٢ يناير ١٩٥٥ يفيد بأن اتفاقاً قد تم بين الدولتين على توقيع
حلف دفاعي مشترك في أقرب وقت ممكن ، وانهما يتطلعان الى انضمام
الدول الأخرى التي تفكر بمثل أسلوبهما) .

وكان هذا الاعلان صدمة حقيقية لجمال عبد الناصر ، اذ تأكد ارتباط العراق بحلف الأطلنطي عن طريق تركيا التي كانت أول دولة من دول الشرق الأوسط ترتبط بهذا الحلف ليس هذا فقط بل ان الدولتين تسعيان لضم دول عربية أخرى .

وانقضت معركة الأحلاف الى رحلة جديدة شددت فيها مصر الهجوم على الاحلاف اعلاميا وسياسيا .

ودعت القاهرة وزراء خارجية العراق وسوريا ولبنان والسعودية والأردن واليمن وليبيا للاجتماع يوم ٢٢ يناير ١٩٥٥ لمحاصرة نوري السعيد الذي حاول اغراء العرب بأن تركيا سوف تساعدكم ضد اسرائيل بناء على تصريحات أدلى بها عدنان مندريس .

ولكن الاجتماع لم يحقق الغرض المطلوب فارس الخوري وزير خارجية سوريا كان يمالئ العراق ولا يتخذ موقف المعارضة وسامى الصلح كان متجاوبا مع سياسة كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان المعروف بتبعيته للغرب والذي زاره عدنان مندريس في طريق عودته من العراق وتوفيق أبو الهدى كان يتحرك في حدود سياسة الأسرة الهاشمية التي تحكم البلدين . والخضوع لنفوذ جلوب باشا .

وبدا الأمر كما قاله مندوبا البنتاجون عقب مقابليتهما لجمال عبد الناصر من أن الولايات المتحدة قد كسبت الى جانبها كلا من العراق ولبنان والأردن .

وقال فاضل الجمالي وزير خارجية العراق صراحة انه طالما ان العراق لا يريد التعاون مع الشيوعية فان الغرب لن يمدحهم بالسلاح - لزرقه عيونهم - انما لوصلهم معه الى اتفاق ، ودعا وزراء خارجية الدول المجتمعين الى التفاهم مع الغرب .

ولكن جمال عبد الناصر لم يتردد أمام هذه المواقف غير المشجعة . . بل زاد حملة دعائية ضد الأحلاف وضد نوري السعيد وشمعون وفارس الخوري باعتبارهم عملاء للغرب .

واستقبل جمال عبد الناصر في القاهرة خلال شهر فبراير ١٩٥٥ ثلاثة من كبار السياسيين في العالم ، تتنافر أفكارهم في موضوع الأحلاف العسكرية أنطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا والذي حاول عبثا خلال لقاء بارد مع جمال عبد الناصر ان يوقف حملات الدعاية ضد نوري السعيد والأسرة الهاشمية وتم أيضا اللقاء الأول بين تيتو وجمال على اليخت غالب في قناة السويس أثناء عودة تيتو من الهند ، وكان هذا أول لقاء

بين جمال عبد الناصر وزعيم شيوعي ، أصبح فيما بعد صديقا شخصيا له وزار القاهرة للمرة الثانية بغد الثورة تهرؤ الذى كان يستعد لحشد الدول الأفروآسيوية لحضور مؤتمر باندونج والذى أمضى معظم وقته مع القادة العسكريين لمصر فى زيارته السابقة يحدثهم عن الديمقراطية والتخطيط والحياد الإيجابى ، والذى سبق له ان خطب فى نقابة الصحفيين المصريين يوم ٢٠ مايو ١٩٥٣ قائلا انه (لا يرى ضرورة لقيام أحلاف عسكرية) والذى قال فى زيارته هذه عقب لقائه الثانى مع عبد الناصر (ان انتصار مصر فى معركة الأحلاف انتصار للهند أيضا) .

وكانت بداية احتكاك جمال عبد الناصر بهؤلاء الزعماء العالميين الذين تمرسوا على السياسة خلال نضال طويل وفى مواقع بعيدة بأساليب مختلفة فرصة فريدة له للتعرف على أحوال العالم السياسية من القائمين بأدوار رئيسية فيها ومشجعا له على اتخاذ موقف أكثر صلابة فى مواجهة دعاة الأحلاف العرب كما كانت هذه اللقاءات تمهيدا لاطلاق طاقات جمال عبد الناصر فى ميدان السياسة الخارجية ، بعد ان كانت كل أفكاره مركزة على الموقف الداخلى وحده حتى ذلك الوقت .

زاد جمال عبد الناصر بعد هذه الاجتماعات اصرارا على خوض المعركة ضد الأحلاف بكل ما يملكه من وسائل .

ولكن العراق لم يتراجع عن انزلاقه للارتباط بالأحلاف فوقع مع تركيا وثيقة جلف عراقى تركى مشترك كانت هى خميرة حلف بغداد الذى انضمت اليه بريطانيا بعد مؤتمر باندونج فى شهر ابريل ١٩٥٥ ومعها ايران وباكستان بعد ان أنهت معاهدتها المعقودة مع العراق عام ١٩٣٠ .

وهكذا ارتبطت أول دولة عربية بأحلاف الغرب العسكرية .

واسنمرت المعركة قائمة بل زادت شدة وقد حدث تغير فى سوريا وخرج فارس الخورى من الوزارة وعين بدلا منه خالد العظم وزير للخارجية فى وزارة يرأسها صبرى العسلى فسافر صلاح سالم الى دمشق فى مارس ١٩٥٥ حيث وقع ميثاقا للتعاون العسكرى والسياسى والاجتماعى مع سوريا وهدف الزعيم شوكت شقير رئيس الأركان العامة للجيش السوري بحياة الجيش العربى الموحد .

وانتقل صلاح سالم مع خالد العظم وزير خارجية سوريا ووزير الدفاع بالنيابة الى الأردن ثم السعودية لعرض نتيجة الاتفاق المشترك بين مصر وسوريا والذى نص على الآتى :

أولاً : عدم الانضمام الى الحلف التركي العراقي .

ثانياً : اقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادى عربى مشترك .

ثالثاً : انشاء قيادة مشتركة دائمة لها مقر رئيسى وتشرف على تدريب القوات العسكرية تضعها كل دولة تحت تصرف تلك الدول .

رابعاً : الاتصال بالحكومات العربية لعقد مؤتمر من الدول المدافعة .

وقد صدر بيان سعودى سورى مصرى وقعه الأمير فيصل رئيس مجلس الوزراء السعودى وخالد العظم وصالح سالم يفيد بأن الملك سعود يوافق موافقة كاملة على ما ورد فى البيان المصرى السورى ويتطلع الى عقد مؤتمر .

وكانت السعودية فى نزاع شديد مع بريطانيا حول أحقيتها فى واحة البورى التى كانت تحت السيطرة البريطانية .

ولم تترك الدول العربية العراق ينضم الى تركيا دون محاولة لإرجاعه فقد سافر خالد العظم الى العراق يوم ١٤ مارس ولكن فاضل الجمالى صرح بأن العراق لن يرجع عن تحالفه مع تركيا ، وقال الملك سعود (العراق اخوتنا وأبناؤنا والعراق يستطيع الانضمام للميثاق الجديد لينبذ حلفه مع تركيا) ولكن موقف العراق لم يتغير . . . بل ان حكومته منحت محمود أبو الفتح رئيس تحرير المصرى الذى أغلقته الثورة يوم ١٠ مارس الجنسية العراقية واعطته جواز سفر عراقى .

وانضمت اليمن بعد أيام الى الميثاق الجديد بلا تحفظ وأعلن الامام أحمد انه مع الدول الثلاث مصر والسعودية وسوريا .

وحاولت تركيا أن تهدد سوريا وتضغط عليها وأغلقت الحدود بين البلدين ، فترة زاد فيها التوتر . . . وأيد الاتحاد السوفىيتى سوريا معتبرا أن تصرفات تركيا موجهة ضده .

وخلال هذه الفترة كان جمال عبد الناصر يستعد للسفر الى باندونج لحضور مؤتمر الدول الآسيوية والافريقية الذى نبتت فكرة عقده فى مؤتمر كولومبو عاصمة سيلان فى مايو ١٩٥٤ والذى حضره ممثلو خمس دول هى الهند وباكستان وسيلان واندونيسيا وبورما .

تقرر عقد المؤتمر بدعوة من أندونيسيا فى مدينة باندونج عاصمة جاوا الغربية وهى مدينة مشهورة بجمال طبيعتها وتبعد عن العاصمة جاكرتا ١٢٠ ميلا .

ودعيت الى المؤتمر الدول المعترف دوليا باستقلالها فى القارتين
الكبيرتين مما أسبغ عليه صفة رسمية ٠٠٠ وتقرر دعوة الصين الشعبية
وعلم توجيه الدعوة الى فورموزا ، واستبعدت كوريا الشمالية والجنوبية
معا للخلاف المستحكم بينهما ، كما استبعد اسرائيل أيضا لعدم قبول
الدول العربية حضور المؤتمر اذا دعيت اليه ، كما استبعدت دولة اتحاد
جنوب أفريقيا لعنصريتها وعدائها للشعب الأفريقى الأصيل .

حاولت الدول الاستعمارية مقاومة عقد هذا المؤتمر وشنت الصحافة
الغربية عليه موجات من النقد الشديد وحاولت منع الدول الخاضعة لها
من الذهاب ، ولكن تيار المد التحررى فى هذه الفترة كان جارفا ٠٠٠
وكانت الدول حديثة الاستقلال تسعى الى التعاون والترابط وهى تخرج
من قيود الاحتلال الى عالم جديد .

وقد حاولت قوى كثيرة تعطيل سفر جمال عبد الناصر ومنعه من
الظهور فى هذا المؤتمر وكتب محمد حسنين هيكل قائلا : أنه غير متحمس
للذهاب الى باندونج .

ولكن جمال عبد الناصر كان قد اشتعل حماسا بمقابلات نهرو وتيتو
وفتح عينيه على ميدان جديد كانت طبيعته تعشقه ، ولم يتردد لحظة
فى الذهاب على رأس وفد مشكل من صلاح سالم وزير الارشاد ومحمود
فوزى وزير الخارجية وقائد الجناح على صبرى الذى عين مديرا لمكتب
جمال عبد الناصر والشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف .

الدول التى حضرت المؤتمر ٢٩ دولة تمثل أكثر من نصف سكان
العالم ومن الدول العربية تسع هى مصر وسوريا ولبنان والسودان
والعراق والأردن والسعودية وليبيا واليمن .

غادر جمال عبد الناصر مصر يوم ٨ ابريل وزار باكستان فى طريقه
الى الهند التى أمضى بها عدة أيام رافقه فيها نهرو واتاح له فرصة
الخطابة فى جمع حاشد يبلغ نصف مليون والقى خطابا أيضا أمام برلمان
الهند ٠٠٠ وكان جمال عبد الناصر هو وصلاح سالم يرتديان حلتهمما
العسكرية ، فكانا الوحيدين بين قادة الدول من العسكريين .

لم تكن موجة الانقلابات العسكرية قد اجتاحت بعد الدول النامية
الحديثة الاستقلال ٠٠٠ حتى سوريا التى عرفت الانقلابات العسكرية عام
١٩٤٩ بانقلاب حسنى الزعيم كان يرأس جمهوريتها فى ذلك الوقت مدنى
هو هاشم الأتاسى بعد أربعة انقلابات متتالية وأحد عشر تغييرا وزاريا .

وكانت هذه هي رحلة جمال عبد الناصر الأولى خارج مصر ٠٠٠ ظهر فيها كنجم بارز يمثل دولة ذات حضارة عريقة ولها دور قيادي في الدول العربية التي كانت تشكل ثلث أعضاء المؤتمر تقريباً ٠٠٠ وقد احاطه نهرو وسوكارنو وشو ان لاي واونو رئيس وزراء بورما بكل تقدير .

يقول جان لاكوتير في كتابه (عبد الناصر) اثناء المؤتمر كان استقبال الجماهير لعبد الناصر - بفضل ترتيبات سوكارنو أشد حماسة من استقبالات القاهرة والاسكندرية ، كان ظهوره على منصة الخطابة أو في الأروقة أو الشوارع يقابل بمظاهرات حارة جداً فهو وشو ان لاي كانا رجل الساعة ، مع العلم أنه عند وصوله كما يستبد به القلق والخوف من اثار العراقيين والأتراك عليه) .

كانت الرحلة الأولى لجمال عبد الناصر خارج مصر رحلة غير عادية ٠٠٠ وطريقة استقباله فيها كانت كفيلة بالتأثير العميق على شخصيته وأفكاره ورؤيته الشاملة للعالم .

التناقضات التي كانت قائمة بينه وبين العراق لم تجد فرصة للظهور ، فقد نجح جمال عبد الناصر في الحصول على قرار من المؤتمر يقول انه (بالنظر الى التوتر القائم في الشرق الأوسط بسبب الموقف في فلسطين وخطر ذلك التوتر على السلم العالمي يؤيد المؤتمر حقوق شعب فلسطين العربي ويدعو الى تطبيق قرارات الأمم المتحدة وتحقيق التسوية السلمية لمشكلة فلسطين) .

وكان ذلك انتصاراً للحق العربي ، ودافعاً لظهور الدول العربية بمظهر التضامن ، في وقت لم تتوقف فيه اسرائيل عن مهاجمة قطاع غزة منذ غارتها الكبيرة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حتى أيام انعقاد المؤتمر .

اعاد مؤتمر بانلونج ثقة الدول المتحررة بنفسها ، ودعم سياسة الحياد بين المعسكرين في وقت كان يعتبر فيه دالاس كلمة (عدم الانحياز) كلمة قذرة كما قال حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .

كانت أيام انعقاد المؤتمر من ١٨ الى ٢٤ ابريل ١٩٥٥ من أهم أيام التاريخ اذ حدث تحول عميق في سياسة كثير من الدول ومنها مصر .

وينعكس ذلك على ما يرويه مايلز كوبلند في كتابه (لعبة الأمم) في باب (ناصر واتحاد المحايدين الايجابيين) اذ يقول ان الروس قد غيروا وجهة نظرهم تجاه ناصر عندما وجدوا احتمال أن يصبح عاملاً رئيسياً في الحرب ضد الامبريالية الغربية عدوهم اللدود في الدول الافريقية والاسيوية ٠٠٠ بينما أبدى الأمريكيون عليه تحفظات عديدة .

وكان غريبا أن تصدر جريدة (الأخبار) الموالية للأمريكيين خلال بعض أيام المؤتمر بمانشيتات مثيرة لعلامات الاستفهام .

يوم وصول جمال عبد الناصر الى باندونج يوم ١٨ ابريل صدرت الأخبار بمانشيت أحمر رئيسي يقول (سيئة بلا رأس في قطار الاسكندرية) .

وفي اليوم الذي كان جمال عبد الناصر يخطب فيه في برلمان الهند كان المانشيت الرئيسي الأحمر لنفس الجريدة (براءة ٦ متهمين في قضية قتل شبرا) ومانشيتات فرعية بنفس المقياس تقول (عبد الناصر خطب في البرلمان الهندي) وتقول أيضا (براءة زوج فاطمة أخت القتل ورجوات زوجة ابنه) .

ومحمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة ومنسوبة الأخبار في ذلك الوقت كتب أثناء انعقاد المؤتمر تحقيقا في الأخبار يوم ٢٥ مارس ١٩٥٥ بعنوان () (تعال معي الى باندونج) يسخر فيه من أندونيسيا ويقول (ان باندونج التي فيها هذا المؤتمر ليست بلدة اندونيسية . . . هي قطعة من هولندا نسيها الاستعمار على أرض جزيرة جاوة عندما جمع حقايبه ورحل عن اندونيسيا) . ويحاول ان يصور اندونيسيا وكأنها تخدع الزائرين بقوله (في كل مكان ذهبت اليه لمحت آثار الطلاء على الأرض) ويقول أيضا بعد حديثه عن إحدى المدارس (مطلوب من كل زائر ان يفهم مدارس اندونيسيا هكذا) ثم يقول (بائعات الهوى يزينن بطاقات هل انهن طالبات في الجامعة) .

لا كلمة واحدة عن المؤتمر . . .

بل ان محمد حسنين هيكل يكتب أيضا في تحقيق ثان يوم ٢٧ مارس ١٩٥٥ (وليس ينبغي ماذا قرر المؤتمر ولا كيف كان اتجاه المناقشات فيه تلك كلها مسائل ثانوية) .

هكذا أسفرت بعض الصحف المصرية عن موقفها من مشاركة جمال عبد الناصر في هذا المؤتمر الذي غير مسار التاريخ بما اتخذه من قرارات اعتبرت دستورا للعلاقات بين الدول ، وكانت تطبيقا لمبادئ التعايش السلمي ، الذي احتل مكانا رئيسيا من أعمال المؤتمر ، ورأس جمال عبد الناصر لجنته .

نصت قرارات المؤتمر على رفض الاحلاف كما ورد في المادة السادسة (الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأي دولة من الدول الكبرى) .

وعاد جمال عبد الناصر بعد زيارة أفغانستان في طريق العودة .

وعلى قدر ما لقي من استقبالات حافلة في كل دولة زارها على قدر ما كانت هناك محاولة لعدم استقباله في القاهرة استقبالا شعبيا يناسب نجاح المؤتمر .

كان جمال سالم خلال زيارة عبد الناصر قد عين رئيسا بالنيابة . . وعندما اجتمع عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وكمال رفعت وأحمد لطفى وآكد مديرا مكتب جمال عبد الناصر في ذلك الوقت للبحث في اعداد استقبال شعبى ، ولما عرض الأمر على جمال سالم لم يوافق على ذلك ، وطلب أن يكون الاستقبال عاديا ، ولكنهم رفضوا رأيه ونفذوا اجراءات الاستقبال وحدهم مما جعله مفاجئا له عند وصوله الى المطار .

ولم تكن محاولة منع الاستقبال الشعبى من جانب جمال سالم وحده . . . ولكن هنرى بايرون السفير الأمريكى اقنص السفراء الغربيين بعدم مقابلة جمال عبد الناصر فى المطار بحجة اعتقاده ان استقبال عبد الناصر يجب ان يبقى مظاهرة أسيوية أفريقية فقط كما روى كوبلند .

كان موظفو السفارة الأمريكية يطلقون على مؤتمر باندونج (لعبة المحتالين من سكان المدن السود) .

وصل جمال عبد الناصر القاهرة يوم ٢ مايو حيث استقبل استقبالا شعبيا حافلا وصفه جان لاكوتير فى كتابه (عبد الناصر) بقوله (هبت موجة حارة على الرجل وعلى الجماهير ففى ميدان التحرير حيث اقيمت أقواس النصر تحمل اسماء عبد الناصر ونهرو وشو ان لاي فشاهدنا سيارة (جيب) تخترق الجماهير ويقف فيها ناصر مبتسما ابتسامة عريضة تفرج لأول مرة عن انكماش وجهه الصلب بينما يجرى وراءه الشعب الذى طالما واكب فى الماضى النحاس باشا أو محمد نجيب فماذا جرى الآن ؟) .

ويجيب لاكوتير بقوله (ذلك أن العهد قد ولج طريقا جديدة فقبل سفر البكباشى الى آسيا بأسبوع ولم يكن قد تأكد بعد أنه سيذهب بنفسه) اعتقل رجال المباحث عشرات الشيوعيين وزجهم فى غياهب السجون ، ولكن عندما قرر ناصر السفر الى اندونيسيا تلقى برقية من المعتقلين تقول (عاش المناضل فى المعركة ضد الامبريالية) .

وكتب محمد حسنين هيكل متراجعا عن موقفه المعارض لسفر جمال عبد الناصر الى المؤتمر قائلا فى صحيفة الأخبار (ان الاستقبال الكبير الذى لقيه جمال عبد الناصر بعد عودته أمس الى أرض الوطن بعد مؤتمر

باندونج المثير ، وبعد الرحلة السريعة فوق بلاد الشرق الأقصى أثبت لي مرة أخرى خطأ كنت قد وقعت معه واعترف بأنني لم أكن متحمسا لسفر جمال عبد الناصر ولا لاشتراكه بنفسه في مؤتمر باندونج) .

وكنيت قد طلبت مقابلة جمال عبد الناصر عندما علمت باتخاذ قرار السفر بعد فترة طويلة ، امتنعت فيها عن ممارسة أى نشاط سياسى نتيجة للمراقبة الشديدة ، وعزلى فى قويسنا بالجيش المربط لفترة طويلة بعد أزمة مارس ١٩٥٤ فكنت الوحيد من خريجنى كلية أركان الحرب الذين يعملون فى هذا الجيش الذى كان مكلفا بحراسة المنشآت من جنود الاحتياط .

ذهبت اليه فى دار رئاسة مجلس الوزراء ، فاستقبلنى مع البكباشى عبد الحكيم الاعسر زميل مجموعتى للضباط الأحرار بالاسكندرية فور علمه بوجودنا .

وعندما دخلنا كان متهلل الوجه وبادرنى بقوله :

ـ أخيرا . . . رجعت ورضيت تيجى لنا .

وقلت له صادقا :

ـ الشعب كله معاك فى خطواتك . . . وأنا واحد من الناس .

وجلسنا معه لأول مرة بعد سنوات . . . كان مرحا منشرح الصدر تحدث عن معركته ضد الاحلاف بشقة متناهية .

وعندما عاد من باندونج أرسل له محيى الدين خطابا قال له فيه ان شقة الخلاف بينهما تضيق ، وفى نوفمبر ١٩٥٥ أرسل عبد الناصر اليه رسولا قال له انه يستطيع العودة لمصر ، فعاد فى ٤ ديسمبر ١٩٥٥ وقابل جمال عبد الناصر لأول مرة أيضا منذ سفره للخارج فى ابريل ١٩٥٤ .

كان موقف جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونج فى مقاومة الاحلاف وتأكيد الاستقلال الوطنى أقوى منه قبل المؤتمر وأشد تأثيرا .

نهرو حضر الى مصر فى زيارة انتهت الى بيان مشترك صدر فى ١٢ يوليو ١٩٥٥ تضمن نصا على ان الاشتراك فى ميثاق واحلاف عسكرية مع الدول الكبرى يخلق جوا يؤدى الى الحرب ولا يخدم قضية السلام . . . وكان ذلك أول بيان رسمى يؤكد فى مضمونه الكامل كافة مبادئ باندونج .

هجمات القاهرة على حلف وحكومة بغداد هزت أعصاب الحكام هناك . . بل دفعت سلوين لويده الذى عين وزيرا لخارجية بريطانيا الى

إبلاغ السفير المصري في أغسطس ١٩٥٥ بأن بريطانيا ستكف عن بذل المزيد من الجهود لضم الدول العربية إلى حلف بغداد إذا أوقفت مصر دعايتها ضده . . . وقد سر عبد الناصر لذلك كثيرا .

ولكن المعركة مع ذلك لم تتوقف . . . فقد تلقت السياسة البريطانية ضربة شديدة عندما وصل الجنرال سير جيرالد تمبلر إلى عمان في ديسمبر ١٩٥٥ ليبحث مع المسئولين هناك أمر دخول الأردن حلف بغداد ، وقابله الشعب العربي في الأردن بثورة شديدة بددت الأمل في ضم الأردن إلى حلف بغداد .

ولم ينته أثر زيارة تمبرر بمفادته عمان ، فان الأمة العربية التهبت جميعها بمعادة الاحلاف ، وحضر سلووين لويده إلى القاهرة ليؤكد لجمال عبد الناصر ما سبق ان قاله للسفير المصري في لندن من رغبته في وقف حملات الدعاية ضد حلف بغداد ، على ان تجمد بريطانيا مساعيها لتوسيع الحلف ، وحاول سلووين لويده التقليل من مهمة تمبلر قائلا انها تمت تحت ضغط الأتراك والعراقيين .

وتصادف أثناء تناول الاثنین طعام العشاء حسب رواية محمد حسنين هيكل ان تلقى السفير البريطاني برقية تفيد أن الملك حسين قد طرد الجنرال جلوب وطلب منه مغادرة الأردن في نفس الليلة . . . ولكنه لم يبلغ سلووين لويده بها وهما في طريقهما إلى السفارة . . . واعتبر وزير الخارجية البريطاني أن عبد الناصر كان يعلم بذلك وانه سخر منه بعدم إبلاغه .

ولكن تبين أن جمال عبد الناصر لم يعرف بالخبر الا في صباح اليوم التالي ، واعتبر انه اجراء ذكي من البريطانيين لانه يفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين . . . ولكن سلووين لويده اعتبره أمرا يقود إلى مصير غير معلوم .

حقيقة ان جمال عبد الناصر لم يكن يعلم بالخبر وقت لقائه مع سلووين لويده . . . ولكنها حقيقة أيضا انه كان قد أرسل كمال رفعت وأحمد لطفى وأكد مديري مكتبه إلى الأردن لاثارة الجماهير هناك ضد الاحلاف وضد زيارة تمبلر ودراسة أسلوب مهاجمة اسرائيل من الداخل ردا على هجماتها المتصلة على قطاع غزة بعد غارتها الشهيرة في ٢٨ فبراير .

كان الاثنان يعملان باسماء مستعارة . . . ويقول الاثنان ان الشعب الأردني قد قام بثورة ضد تمبلر بدافع ذاتي دون تدخل من جانبهما إطلاقا . . .

وقد روى جمال عبد الناصر قصة ارساله لجمال رفعت ولطفى واكد الى الاردن في مجلس الوزراء . . . وذلك قدليا على الدور الذي تقوم به مصر عقب اقالة جلوب .

وكان جمال ولطفى قد اتصلا ببعض الضباط الاردنيين الذين تأثروا بأفكار العسكريين المصريين ، والذين لم تصل قدرتهم في ذلك الوقت الى حد الثورة على الملك ، فقاموا بدلا من ذلك بالضغط عليه لاقالة جلوب حتى يستعيد شعبيته التي فقدتها خلال زيارة تمبلر .

كان اسم جمال عبد الناصر في ذلك الوقت يتصاعد عاليا ، ويكتسب ملايين الأنصار في الدول العربية . . . وقد اكتشف سلوين لويده ذلك بنفسه عندما جوبه بعد مغادرته مصر بمظاهرات عنيفة في البحرين تهتف (ناصر . . . ناصر) .

أصبح واضحا مع نهاية عام ١٩٥٥ ان الاستعمار قد فقد قدرته على دعم احلافه العسكرية في الوطن العربي ، وبعد أن كان مفروضا ان تصبح العراق مقدمة للدول العربية الأخرى المنظمة المنظمة اذا بها تصبح الدولة العربية الوحيدة المعزولة في شبك الاحلاف العسكرية .

كان البريطانيون ينظرون الى قاعدة قناة السويس باعتبارها القاعدة الوحيدة المناسبة استراتيجيا لتكون مقرا للقيادة البريطانية في الشرق الأوسط الممتدة من مالطة الى باكستان ومن تركيا الى كينيا .

كانت القاعدة نتاجا لجهد الحرب العالمية الثانية بكل ما توفر منها من مصانع وورش ومحلات ومدن للحياة والترفيه ، ويصعب على القيادة البريطانية ان تستبدلها بأخرى ، أو تقيم قاعدة بمواصفاتها اذا تهيأ مكان استراتيجي ملائم .

وكذا فانه عندما وصلت الأمور عند بريطانيا الى مرحلة اليأس من ضم مصر الى الاحلاف العسكرية ، أثر ذلك على حلف بغداد فلم يتحول الى تنظيم عسكري مثل حلف الأطلسي ولم تتكون له قيادة عسكرية مشتركة . . . ولم تتوفر له قاعدة رئيسية مثل قاعدة قناة السويس .

ومنذ ان دخل جمال عبد الناصر نسادى رؤساء الدول المؤثرة في السياسة الدولية بعد باندونج استخدم تعبيرات جديدة لم تكن في قاموسه قبل ذلك . . . استخدم كلمة الاشتراكية كمرادف للعدالة الاجتماعية . . . وأعلن أول يونيو ١٩٥٦ تأكيدا لمبدأ الحياد الايجابي بقوله (ان سياسة مصر لا شرقية ولا غربية بل مصرية صميعة تعمل لمصر وللوطن العربي

الأكبر) ٠٠٠ وهى الألفاظ نفسها التى اعترض على يوسف صديق لانه نادى بها فى خطاب بمدينة بنى سويف عام ١٥٩٢ لأن السفارة الأمريكية احتجت عليها .

تغير كبير حدث فى سياسة مصر بعد توقيع اتفاقية الجلاء وعقد مؤتمر باندونج .

تغير أكد وعمق معانى الحياد ٠٠٠ ومعاداة الأحلاف العسكرية ٠٠٠ مما جعلها مرادفة للاستقلال الوطنى الذى عاش الشعب يناضل من أجله عشرات السنين .

ويستطيع جمال عبد الناصر ان يفخر بقيادته لهذه المعركة الوطنية التى ناضل فيها ضد الامبريالية العالمية معتمدا على جماهير الأمة العربية ٠٠٠

كانت أياما خالدة ، صقلت فيها شخصيته ولمع اسمه ، واحتشد حوله الملايين فى نضاله مع الحياد ٠٠٠ وضد الأحلاف ٠٠٠ تأكيدا للاستقلال الوطنى .

الفصل الثالث

السوفييت في المنطقة

(صالحة الأسلحة المصرية السوفييتية أخطر
اجراء منذ قيام حزب فيتنام)

جون فوستر دالاس

وزير خارجية الولايات المتحدة

(ان هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا
قيود ولا شرط لا تعتبر فتحاً للنفوذ الروسي،
ولا للنفوذ الأجنبي، ولكنها تعتبر قضاء على
النفوذ الطويل الذي تحكمه فينا وسيطر
علينا)

جمال عبد الناصر

لم يدخل السوفييت الى المنطقة غزاة ٠٠٠ ولم يتقدم عليهم خلف
التجارة كما فعلت انجلترا في الصين ٠٠٠ ولم ينتصر تنظيم ماركسي في
احدى الدول ٠٠٠ ولكن دخولهم كان دعوة وطنية من العسكريين .

وكان الاعتقاد السائد عند العسكريين وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر
ان الحياد ومقاومة الاحلاف العسكرية تماما مثل الاستقلال الوطنى معركة

لا يتم الانتصار فيها الا بتحقيق هدفين ٠٠٠ أولهما جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، والثاني تسليح الجيش المصرى تسليحا حديثا يتناسب مع تطور العصر .

وبدا النضال من أجل تأكيد الحياد الايجابى ورفض الأحلاف يأخذ طابعا جديدا بعد توقيع اتفاقية الجلاء ٠٠٠ طابعا يختلف عن مجرد التصريحات المعلنة فى فترة المفاوضات أو الكفاح المسلح بالقناة ، اذا اتخذ شكلا أكثر ايجابية وحرصا على ارتباط مصر بالدول العربية وعزل العراق وإبطال دورها فى اغراء اية دولة عربية أخرى .

كان تحقيق الجلاء حافزا حقيقيا على تقديم نموذج للدول العربية ، ابرزت فيه مصر امكانية تحقيق دولة الارتباط بحلف من الأحلاف .

اما الهدف الثانى وهو تسليح الجيش ٠٠٠ فكان قضية العسكريين الكبرى ٠٠٠ وذلك مفهوم يحكم طبيعتهم وتكوينهم وارتباطهم المهنى . وحرصهم على تكوين جيش وطنى كما ورد فى اهدافهم الستة .

وبدأ الاهتمام بتسليح الجيش مبكرا ٠٠٠ مع الأيام الأولى للثورة ٠٠ صرح محمد نجيب فى شهر أغسطس ١٩٥٢ (لا بد ان نحصل على أسلحة حديثة من دولة ما واذا كنت لا تستطيع ان أحدد من من الدول سيمدها بالأسلحة فى حالة امتناع أمريكا والديموقراطيات الغربية عن مساعدتنا فمن البديهي فى هذه الحالة اننا نسلجأ الى غيرها) .

وضرح محمد نجيب أيضا للصحف فى شهر نوفمبر بقوله (ان النداء الذى وجهناه الى انجلترا للحصول على أسلحة حدث طبقا لسياسة الحكومة المصرية التى تريد تعزيز الجيش المصرى تدريجيا والتوسع فى قواته وتعزيز مركز مصر الاستراتيجى أيضا .

وكل ضابط فى الجيش المصرى كان يدرك ان الأسلحة متخلفة ولا تتناسب مع التطور الحديث الذى حققته الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية من بعدها .

ومنذ عام ١٩٣٦ والحكومة المصرية تسعى لتسليح الجيش من انجلترا بناء على مواد المعاهدة ولكن السلاح دائما كان مثل السراب .

برنامج تطور الجيش لكى يكون قادرا على الدفاع عن قناة السويس لم ينفذ لتوتر الموقف العالمى فى سنوات ما قبل الحرب حتى عام ١٩٣٩ بدتوى احتياج انجلترا لكل قطعة سلاح ٠٠٠ ثم عطلت الحرب نفسها ايه مبادئات جديدة لتسليح الجيش ، خاصة وأن بريطانيا لم تعتمد على الجيش المصرى كقوة محاربة فى صفوف الحلفاء كما اعتمدت على جيوش الهند

والسودان وليبيا وغانا وغيرها ، وذلك لاذراكها ان في صفوفه بذور حركة وطنية ... وبالتالي فانها لم تقدم له تسليحا جديدا .

ولم تتوفر فرصة مناسبة للحديث عن تسليح الجيش حتى في مفاوضات صدقي - ليفن ١٩٤٦ التي فشلت . وبعقبها حرب فلسطين . ففرضت بريطانيا حظرا جديدا لم يرفع الا عام ١٩٥٠ .

وكان محمود فهمي النقراشي قد طلب خبراء عسكريين من أمريكا وأثناء وجوده هناك لعرض القضية على مجلس الأمن ، ولكن وكيل وزارة الخارجية الأمريكية أفاد بأنه (ليس لديهم خطة في هذا الأمر حتى الآن) . توصلت وزارة الوفد الى موافقة الحكومة البريطانية على وضع مصر في قائمة المشتريين للأسلحة الثقيلة مثل الطائرات النفاثة ودبابات سننورين ... وأسرعت فوقعت عقدا مع الحكومة البريطانية لشراء ٨٠ دبابة مستورين فدفعت ٨٠٪ من ثمنها عند توقيع العقد ... ولكن تعثر المفاوضات ثم توقفها دفع الحكومة البريطانية الى ابلاغ الحكومة المصرية بأن طلبات حلف الأطلنطي ودول الكومنولث سوف تؤخر استبقائها في الحصول على الدبابات المتعاقد عليها .

ثم استجابت حكومة العمال بعد ذلك للضغط الواقعة عليها ، فأجلت توريد السلاح الى أجل غير مسمى .

هذا الحظر على توريد السلاح لم يمنع حكومة الوفد ... البحث عن سبيل للحصول عليه وخلال فترة الكفاح المسلح ١٩٥١ كان فؤاد سراج الدين وزير الداخلية يشتري الأسلحة من الصعيد حسب روايته - ويخزنها في بديروم منزله ثم يرسلها الى الفدائيين الذين كان يشرف عليهم .

ويقول فؤاد سراج الدين أنه اتصل بسفراء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي في محاولة للحصول على أسلحة بدعوى انها للبوليس ، ولكنهم - على حد قوله - كانوا حريصين على عدم حدوث استفزاز للغرب ، خاصة وان تبادل التمثيل الديبلوماسي مع الاتحاد السوفيتي لم يتم الا في وزارة الوفد الأولى عام ١٩٤٢ .

ولم يكن الوفد وحده هو الذي يحاول ذلك ... صحيفته الاشتراكية دعت صراحة بعد الغاء المعاهدة الى عقد مفاوضات سريعة مع دول أوروبا الشرقية لامتداد مصر وجيشها بالسلاح بعد ان اخفقت في شرائه من السويد والدول الخاضعة للنفوذ الأمريكي .

وكانت قد ظهرت في مصر نبرة تدعو الى التعاون مع الاتحاد السوفيتي بعد موقفه الواضح الصريح في تأييد قضيتنا بهجس الأمن .

وقام عمال الميناء فى بور سعيد يوم ٨ يناير ١٩٥٢ بربط الأسطول
السوفييتى وتمويله وتحمية بحارته رغم اضرابهم عن العمل .

وكان هناك اتجاه اجمعت عليه كل القوى الوطنية لعقد معاهدة صداقة
مع الاتحاد السوفييتى خلال فترة الكفاح المسلح فى القناة فى بداية عام
١٩٥٢ ، ولكن احترقت هذه الدعوة مع حريق القاهرة ، ولم تعد تتردد.
هذه حتى قامت حركة الجيش .

ولم يبدأ العسكريون فى مصر من حيث وصل الشعب فى قمة كفاحه
عام ١٩٥١ ، ولكنهم طالبوا البريطانيين ومن بعدهم الأمريكين بتسليح
الجيش ، تماما كما حاول الولد من قبل .

ولم يكن متصورا أن يكون هناك رفض كامل ومماثلة شديدة لهذا
الطلب المشروع من عسكريين وصلوا الى السلطة وتفرض عليهم طبيعتهم.
وظروفهم أن يسلحوا جيشهم بما ينفى عنه صفة الضعف ، ويعيد اليه ثقته
بعد هزيمة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

ولكن الثمن كان باهظا . . . ضرورة الارتباط بحلف دفاعى . . .
وكان هذا أمرا مرفوضا تماما .

أبلغت حكومة المحافظين محمد نجيب بهذا الشرط التصفى بصفته
قائدا عاما للقوات المسلحة ، وكان الحظر على توريد السلاح ما زال
مستمرا فقد اشتعل الكفاح المسلح فى القناة .

ولجأ مجلس القيادة الى أمريكا يطلب منها السلاح . . . وكانت المفاجأة
أن مصر وأمريكا مرتبطتان بعقد تسليح سرى مع حكومة على ماهر التى
تولت الحكم بعد حريق القاهرة (فبراير عام ١٩٥٢) بمبلغ خمسة ملايين
دولار .

وعندما اطلع العسكريون على قائمة الأسلحة وجدوا انها من
النوع الذى يصلح للبوليس أكثر مما يصلح للجيش . . . فلم تكن فيها
دبابات طائرات أو مدفعية .

وقد ناقش السفير الأمريكى كافرى رغبات أعضاء مجلس القيادة
فى أول عشاء اجتمعوا معه فيه بمنزل البكباشى عبد المنعم أمين المثل على
النيل قريبا من كوبرى الجيزة .

وقد وصل الى القاهرة بعد ذلك فى ٥ نوفمبر ١٩٥٢ مستر وليام
فoster وكيل وزارة الدفاع الأمريكية ، الذى اجتمع مع جمال عبد الناصر

• وعبد الحكيم عامر وعبد المنعم أمين صاحب الصلات الطبية بالسفارتين الأمريكية والبريطانية •

وانتهت زيارة وكيل وزارة الدفاع الأمريكية الى الاتفاق على قائمة أسلحة مناسبة للجيش قيمتها مائة مليون دولار واقترح فورستر ايفاد بعثة الى أمريكا لتسهيل شحنها ومقابلة المسئولين هناك •

وسافر فعلا قائد الجناح على صبرى والقائمقام حسن الفكلوى الى أمريكا حيث أمضيا هناك عدة أشهر يتنقلان بين مكاتب البنتاجون ومكتب السفير والملحق العسكرى المصرى دون الوصول الى نتيجة عملية ، رغم ما أحاط بهذه البعثة من تفاؤل شامل ، وما غذته عناصر الدعاية من أن الأمور تتحرك بصورة طبيعية •

وعاد الى مصر وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس ليقدم تقريراً الى محمد نجيب وجمال عبد الناصر بأن الرئيس الأمريكى الجديد دوايت أيزنهاور قد استجاب لرجاء تشرشل الذى ألح عليه فى فرض الحظر على تسليح مصر كما تفعل بريطانيا حتى لا توجه نيران الأسلحة الى الجنود البريطانيين فى قناة السويس ، وذلك بحكم زمالتهما القديمة ، وسيادة أيزنهاور العسكرية لجنود الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية •

وتوافقت اللهجة الأمريكية تماماً مع اللهجة البريطانية ، واقتصرن توريد السلاح بشرط الانضمام الى الاحلاف العسكرية ... وتبدد التفاؤل الذى غمر العسكريين باحتمال وصول أسلحة جديدة للقوات المسلحة •

ومع ذلك لم يفرق العسكريون فى بحر اليأس ، واحتفظوا بصلات طبية مع المسئولين الأمريكيين وسافرت الدفعة الثالثة عشرة من خريجي كلية أركان الحرب ٦٠ ضابطاً التى دخلت بعد ٢٣ يوليو ، والتى كنت ضابطاً من أفرادها الى الولايات المتحدة بدعوة من وزارة الحرب الأمريكية فى شهر سبتمبر ١٩٥٣ •

وكانت المفاجأة أننا بعد ان قطعنا مئات الأميال وجدنا برنامجاً هزىلاً يتضمن مشاهدة عرض موسيقى لفرقة من فرق الجيش فى ملعب كرة ، وثار ضباط الدفعة واحتجوا لدى الملحق العسكرى القائمقام عبد الحميد غالب والسفير أحمد حسين على مغزى هذا الاستقبال المهين ، وتغير البرنامج فعلاً فى أيامه الأخيرة ليحوى زيارة بعض الوحدات ومشاهدة أنواع جديدة من الأسلحة ... ولكن الزيارة لم تحقق نتيجة أيضاً •

ولم تمتنع الحكومة المصرية عن ايفاد بعض ضباطها الى الولايات المتحدة للحصول على فرق عسكرية يستخدمون فيها أسلحة وتكنيكات

لا تطبق في مصر ٠٠٠ كما أرسلت أيضا عدة بعثات تدريبية في أعمال البوليس والمخابرات مثل الصاغ حسين عرفة رئيس المباحث الجنائية العسكرية بالبوليس الحربى الذى حصل على فرقة فى معسكر كامب كوردون بولاية جورجيا ٠٠٠ وهذا مثل وحيد لعشرات من الفرق .

ظاهرة أرسل الضباط الى أمريكا توضح انه كان هناك أمل فى تحسن العلاقات ، ورفع الحظر عن توريد السلاح ٠٠٠ ولكن الأمر مضى على عكس ذلك تماما .

ولم يقف مجلس القيادة موقفا جامدا فى مواجهة الرفض والمماطلة الأمريكية ٠٠٠ خاصة وأنه كانت هناك بعض المظاهر المحدودة للاهتمام بدول الكتلة الشرقية .

حرص محمد نجيب وجمال عبد الناصر على زيارة المفوضية السوفيتية بالقاهرة فى عيد الثورة الاشتراكية الخامس والثلاثين يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٢ رغم ان المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعى الذى عقد فى أكتوبر ١٩٥٢ لم يشر الى حركة الجيش المصرى بأى شئ انتظارا لاستكمال الدراسة عن اتجاهاتها وأهدافها .

وتقرر سفر أول بعثة للدول الاشتراكية برئاسة حسن رجب وكيل وزارة الحربية لشئون المصانع وعضوية أحمد فؤاد واليوزباشى صلاح هدايت وزير البحث العلمى الذى تخرج فى كلية العلوم بعد أن أصبح ضابطا وحسن ناجى رئيس مؤسسة الغزل والنسيج فيما بعد وبعض تجار القطاع الخاص .

وكانت هذه البعثة واحدة من عدة بعثات تقرر ارسالها الى الدول العربية ودول أوروبا الغربية .

ونشرت جريدة المصرى أخبار هذه البعثات يوم ١١ أغسطس ١٩٥٣ بمانشيت أحمر رئيسى يقول (الكتلة الشرقية يمكن أن تسد حاجات مصر من الأسلحة) .

وكان هذا المانشيت الرئيسى الى جانب أنه من نوع الضغط على الأمريكين والبريطانيين فى محاولة الحصول على الأسلحة ، كان بداية تفكير جريء فى هذا الاتجاه ٠٠٠ فقد طلب حسن رجب مشرفة رأى الحكومة التشييكوسلوفاكية فى توريد الأسلحة . فكان الرد بعد دراسة هو (نحن بلد نحب السلام ولا نعطى أحدا السلاح) .

وعندما أرسل ايزنهاور خطابا يعلن فيه استعداد أمريكا لتسليح مصر وذلك أثناء زيارة انطونى هيد وزير الحربية البريطانى للقاهرة اذا تم.

الاتفاق مع بريطانيا التي كانت تصر على الارتباط بحلف دفاعي - كما كتب أنطوني فاتنيج - تأكدت الحقيقة بأن الموقف قد أصبح يدور في حلقة مفرغة .

وخلال لقاء لمحمد نجيب مع السفير السوفييتي بنيامين سولود في ديسمبر ١٩٥٣ تطرق الحوار الى مسألة مصر للغرب ، ثم تساءل محمد نجيب عن احتمالات تسليم الاتحاد السوفييتي لمصر

وكان هذا هو أول حديث رسمي يدور بين مسئول مصري ومسئول سوفييتي حول هذا الموضوع .

ولكن لم يكن الحديث الوحيد . . . كان ضيق حلقة الحصار حول توريد السلاح يدفع المسئولين الى عمل تجسسات مختلفة .

السفير المصري في موسكو عزيز المصري استفسر من السوفييت ايضا عن احتمالات تسليمهم لمصر بمبادرته الخاصة خلال عام ١٩٥٤ ولكنه لم يقدم لهم طلبات أو يتابع الموضوع بطريقة رسمية كما روى لي الدكتور مراد غالب مستشار السفارة في ذلك الوقت . وأحمد لطفى وأكد مدير مكتب جمال عبد الناصر اتصل أيضا بمستشار السفارة السوفييتية بالقاهرة في وقت متأخر بعد توقيع اتفاقية الجلاء لمناقشة موقفهم من سفراء عبد الناصر الى باندونج وتطرق الحديث الى موضوع الأسلحة دون ربطه بوثائق رسمية أو خطابات متبادلة .

كان جمال عبد الناصر حريصا على طرق باب هذا الاحتمال ، فكلف حسين عرفة مدير المباحث الجنائية بالبوليس العربي والذي كان مكلفا بالاتصال بالشيوعيين والتسرب الى صفوفهم وتسهيل بعض الأمور لهم اكتسابا لثقتهم . . . وفي هذه الفترة تعرف ببعض التقدميين مثل محمد كامل البنداري وعبد الرحمن الشرقاوي والدكتور محمد انيس ، وحضر معهم مؤتمر الدفاع عن شعوب الشرق الأوسط ومؤتمر السلام في برلين عام ١٩٥٥ . . . وطلب حسين عرفة من البنداري أن يتصل بالسفير السوفييتي باعتباره صديقا له منذ كان سفيرا في موسكو ليسأله عن إمكانية تقديم السلاح لمصر ، وجاء الرد السوفييتي بأن تقديم السلاح لمصر والجنود البريطانيون يحتلون القناة سيكون معناه في النهاية تسليم السلاح للبريطانيين .

وقام حسين فهمي رئيس تحرير الجمهورية والصحفي المقرب من جمال عبد الناصر باتصال آخر بالسفير السوفييتي سولود في وقت متأخر

بعد ذلك ، وجاءت الموافقة على تقديم الأسلحة من ناحية المبدأ ولما أبلغ
حسين فهمي الموافقة لعبد الناصر كان الصمت هو الجواب .

وأعطى صلاح سالم تصريحاً للصحف في فبراير ١٩٥٤ قال فيه (ان
مصر قد عرضت كل مشروعاتها على الدول المختلفة ومنها روسيا وانه توجد
اتصالات في هذا الخصوص وهناك احتمال أكيد ان تقدم روسيا على اقامة
بعض المشروعات لو حصل اتفاق نهائي على التفاصيل واحب ان اضيف
ان مصلحة مصر سيكون لها دائما الكلمة الصلب) (١) .

وكان مجلس الانتاج القومي الذي شكل برئاسة حسين فهمي قد
تلقى بناء على دراسته واتصالات البعثة التي زارت الدول الاشتراكية
عروضا لاقامة مصانع في مصر .

وعندما عرض أحمد فؤاد وصلاح هداية اتفاقيات البعثة على جمال
عبد الناصر في حضور جمال سالم ثار الأخير ثورة شديدة ، معترضا على
هذا الاتجاه وقال جمال عبد الناصر في هدوء لأحمد فؤاد تبقى تحكي
الكلام ده لي ييجوا يحكموا بعدنا) وذلك لأن الوقت كان في قمة
التوتر لازمة أعضاء المجلس مع محمد نجيب في مارس ١٩٥٤ .

ولم تسفر هذه التصريحات أو الاتصالات عن شيء الا زيارة سولود
الى محمد نجيب بمنزله في يناير ١٩٥٤ وأبلغه ان الاتحاد السوفييتي قد
وافق من ناحية المبدأ على بيع السلاح لمصر ويقول محمد نجيب انه
أرسل كتابا بذلك الى عبد الحكيم عامر بصفته قائدا عاما للقوات المسلحة
يطلب منه كشفاً بالأسلحة المطلوبة ، وانتهت صلبته بهذا الموضوع
فقد كانت هذه الفترة من أشق الفترات في علاقة محمد نجيب ببقية أعضاء
قيادة الثورة ، وهي التي انتهت الى أزمة مارس ١٩٥٤ ثم اعطاء نجيب
صفة شكلية كرئيس للجمهورية حتى تم عزله في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ .

اذا صحت هذه الرواية فهي لا تعني أكثر من اندفاع نجيب في مطالبته
للسلاح من السوفييت في وقت كان جمال عبد الناصر يعتقد فيه ان الوقت
لم يكن ملائما بعد لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة التي تعني احتمال حدوث
صدام مع انجلترا وأمريكا في وقت لم تكن فيه اتفاقية الجلاء قد وقعت
بعد بين انطوني هيد وزير الحربية وجمال عبد الناصر .

وعقب توقيع اتفاقية الجلاء بالحروف الأولى في يوليو ١٩٥٤ رفعت
بريطانيا الحظر عن توريد السلاح الى مصر في شهر أغسطس ١٩٥٤ ،

(١) جريدة المصري ١٤ فبراير ١٩٥٤ .

وكان هذا يشير بأن مصر سوف تحصل على احتياجاتها من الأسلحة دون
صدام مع الدول الاستعمارية .

أرسلت بعثة عسكرية الى أمريكا في شهر سبتمبر ١٩٥٤ برئاسة
اللواء محمد إبراهيم رئيس أركان حرب الجيش ، وعضوية الأميرالاي
مصطفى يوسف مدير التدريب والقائمقام عبد المحسن كامل مرتجى مدير
مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، والبكباشي صبرى كمال أركان حرب
المدرعات . . . ولكنها لم تحقق مثل بعثة على صبرى السابقة اية نتائج .

كان موقف الرفض والمماطلة ما زال مستمرا ، خاصة وأن موقف
جمال عبد الناصر من معركة الحياض ومعاداة الاحلاف قد أصبح أكثر
وضوحا وتأثيرا في المنطقة .

. . . وحدث في ذلك الوقت حادث كانت له ابعاد الآثار في سياسة مصر
خلال هذه المرحلة وما بعدها . . . وهو اعتداء إسرائيل على قطاع غزة
والاغارة على معسكر للجيش المصري وقتل ٣٨ جنديا مصرى يوم ٢٨ فبراير
١٩٥٥ .

تم هذا الحادث في وقت لم تكن فيه العلاقات المصرية الاسرائيلية في
حالة من التوتر الشديد ، بل كانت هناك فرص للتفاهم لم تقبلها المؤسسة
العسكرية في إسرائيل كما سيأتى توضيحه في فصول قادمة .

ووجه جمال عبد الناصر ان موقف الجيش المصرى يحتاج الى علاج
سريع ، فالأسلحة قديمة متخلفة ورغم ربيع إنجلترا للحظر المفروض على
مصر فإنها لم تورد سوى ٣٢ ذبابة سنتورين من الذبابات الثمانية التى تم
التعاقد عليها ودفع ثمنها في عهد حكومة الوفد . . . وتبين ان رفض أمريكا
لتوريد السلاح لم يكن من أجل اجبار مصر على دخول الاحلاف فقط ، وإنما
كان من أجل إسرائيل أيضا . . . فهي رغم انها لم تكن تصدر لها السلاح
حتى ذلك الوقت ، فإنها لم تكن توافق على ترجيح كفة الدول العربية على
إسرائيل .

وحاولت مصر كسر هذه القيود . . . فأرسلت بعثات الى الدول
الأوروبية لشراء السلاح . . . واتضح ان فرنسا تشترط عدم مساعدة ثوار
الجزائر وانها تورد السلاح لإسرائيل ، وانها تعاقدت معها على توريد
طائرات المستير النفائة على ان يتم التسليم في منتصف عام ١٩٥٦ . . .
وتعاقدت إسرائيل أيضا مع كندا للحصول على الطائرات الأمريكية سابر .
أما البعثات العسكرية المصرية التى ذهبت الى سويسرا والسويد

وايطاليا واسبانيا فانها لم تستطع الحصول على أسلحة ثقيلة متطورة لأن
انتاج هذه البلاد محدود .

وعرضت على جمال عبد الناصر في هذا الوقت وثيقة سرية للغاية
حصل عليها أحد ضباط المخابرات المصرية كانت قد طبعت من ١٢ نسخة
فقط وهي تنص على النقاط الآتية بعد مقدمة عن تطور العلاقة بين إنجلترا
واسرائيل .

١ - اتفاقية الجلاء لن تحول دون عودة القوات البريطانية لاحتلال
قاعدة القناة مرة ثانية .

٢ - ان بريطانيا لن تمد مصر بالسلاح الا اذا ارتبطت معها بحلف
عسكري .

٣ - وجود تعاون وثيق وتأييد كامل لسياسة اسرائيل وهجومها
على قطاع غزة وتطلب الوثيقة من القيادة البريطانية في الشرق الأوسط
نجنيد بعض المصريين للتعاون معها في حالة العودة .

وسافر جمال عبد الناصر وصلاح سالم الى باندونج وهما يحملان
هموم الغارة الاسرائيلية على غزة ، والحصار المضروب على مصر لمنع حصولها
على السلاح . . . الى جانب الاصرار على مقاومة التسرب الغربي داخل
الوطن العربي عن طريق جذب بعض دوله الى الاحلاف العسكرية .

وكان مؤتمر باندونج نقطة تحول رئيسية في مسار السياسة المصرية
. . . صقلت شخصية عبد الناصر ، واكتسب في المؤتمر شعبية احاطت
اسمه بهالة من التقدير كقائد وطني ، وزادت معتقداته في أهمية الحياد
ورفض الاحلاف صلابه .

ليس هذا فقط بل اتاحت له الظروف أيضا فرصة فريدة لنقل
موضوع الحصول على السلاح الى مرحلة أكثر ايجابية انتهت الى كسر
الاحتكار الذي فرضته الامبريالية العالمية .

قال لي صلاح سالم ان الفيلا التي اقام بها كانت قريبة من سكن
شوان لاي رئيس وزراء الصين الذي شاركه عبد الناصر في دائرة الضوء
والاهتمام داخل المؤتمر وخارجه على نطاق عالمي . . . وفي احدى الزيارات
المتبادلة ، صارحه سالم بحاجة مصر الى السلاح لمقاومة تهديدات اسرائيل
وبناء جيش وطني قادر على تثبيت مبادئ الحياد الايجابي وسأله عما اذا
كان يمكن للصين ان تقدم له حاجته من السلاح .

• واعتذر شوان لاي قائلا ان الصين تستورد سلاحيها من الاتحاد السوفييتي وأليه اذا وافق صلاح فسيبذل جهنمه للاتصال بالسوفييت وهمزة وأيهم في موضوع تزويد السلاح لمصر ٠٠٠. ووافق صلاح فورا •

وقابل جمال عبد الناصر السير رالف ستيفنسون السفير البريطاني وأطلعه على الوثيقة بعد ان طمس نمرتها ، ونفى له السفير علمه بها ٠٠٠ ولكن الجنرال (هل) قائد القوات طلب من اللواء عامة نقل ضابطك بمخابرات منطقة القناة الى القاهرة حتى لا يؤثر ذلك على تنفيذ الاتفاقية. ولكن طلبه رفض في لحظتها باعتباره تسجيلا في شئون مصر الداخلية •

بدأ الشك يساور عبد الناصر في تواطؤ انجليترا واسرائيلين معا على ضياع اثر اتفاقية الجلاء وثبوت التعاون بينهما وخاصة بعد تصريح تشرشل الذي قال فيه انه يود ان يرى اسرائيل اقوى دولة في المنطقة •

وكانت غارة غزة قد أثبتت أن هناك نقصا في ذخيرة الجيش المصري • وأصدرت ادارة المخابرات توجيهاتها الى ضباطها في منطقة القناة بمحاولة الاستيلاء على ذخائر كانت تنقص مدفعيتنا المضبادة للطائرات والمضادة للدبابات من مخازن القاعدة وذلك بعد محاولة شرائها من الجيش البريطاني ورفض قاداته الموافقة على ذلك •

وقد أمكن فعلا سرقة عدد من القطارات والدبابات المحملة بالذخيرة من (أبو سلطان) سلمت لمدير مكتب السفير للتسليم •

والشيء المقطوع به ان صلاح سالم لا بد وانه أبلغ جمال عبد الناصر بحديثه مع شوان لاي ٠٠٠ وانتهى المؤتمر والطلب معلق بلا جواب •

وبعد العودة لمصر وفي شهر مايو ١٩٥٥ اتصل دانيال سبولود السفير السوفييتي بصلاح سالم وأبلغه موافقة الاتحاد السوفييتي على تزويد ما تشاء مصر من أسلحة ، وأبدى له استعداد السوفييت أيضا للمساهمة في المشروعات الصناعية التي يحتاجها تطوير المجتمع •

أبلغ صلاح سالم جمال عبد الناصر بحديث السفير السوفييتي ، ويقول ان صلاته بعد ذلك انتهت بهذا الموضوع ، فقد حمل مسئولية الاتصال بعد ذلك على صبرني مدير مكتب جمال عبد الناصر •

ومع وجود هذا العرض المفتوح من جانب السوفييت والذي تم الاتفاق عليه مع جمال عبد الناصر فان التعاقد لم يوقع عليه أو ينفذ ٠٠٠ فقد كان جمال عبد الناصر شديد الحذر في اتخاذ هذه الخطوة التي تعنى صداما مباشرا مع الأمريكيين والبريطانيين الذين ما زالت بعض قواتهم في منطقة القناة لم ترحل بعد •

واستخدم جمال عبد الناصر اتفاقه مع السوفييت كقوة ضغط على الغرب في محاولة أخيرة لاجبارهم على توريده السلاح . . . اتصل جمال عبد الناصر بسفيرى أمريكا وبريطانيا وأبلغهما أنباء الصلقة وحذرهما من اضطراره لقبولها ، اذا لم تصله أسلحة من الدولتين .

واقبل شهر يونيو دون أن يتلقى جمال عبد الناصر ردا عليه من السفيرين . . . في الوقت الذى كان يستعجل فيه السفير السوفييتى موقف مصر لا بلاغ موسكو . . .

ولم يجد جمال عبد الناصر بدا من عرض الأمر على مجلس قيادة الثورة خشية تراجع السوفييت عن موقفهم بعد مضي عدة أسابيع دون تعاقد . . . واقترح السفير السوفييتى سولود فى شهر يونيو دعوة شبي洛夫 رئيس تحرير البرافدا والنجم الصاعد فى سماء السياسة السوفييتية لحضور احتفالات عيد الثورة الثالث فى القاهرة .

وجهت الدعوة الى شبي洛夫 الذى حضر الى القاهرة ، حاملا معه تفويضا انتهى الى مشروع اتفاق يقدم به الاتحاد السوفييتى أسلحة لمصر قيمتها ٨٠ مليون جنيه وتشمل طائرات نفائة من طراز ميج المقاتلة ، وقاذفة القنابل اليوشن ، ودبابات ستالين الشهيرة على أن يتم الدفع بالقطن المصرى خلال ١٢ عاما واتفاقيات الدفع بالقطن كانت ترفضها أمريكا لتوفر القطن عندها .

وتم الاتفاق على أن يكون التعاقد بين الحكومة المصرية والحكومة التشيكوسلوفاكية ، وقد رأى جمال عبد الناصر أن ذلك قد يقلل من حجم المشكلة أمام الغرب ، خاصة وأن تشيكوسلوفاكيا كان قد سبق لها امداد اسرائيل بالأسلحة أثناء حرب فلسطين ثم توقفت بعد عدة شهور ، عودة لسياسة ستالين التى كانت تقضى بعدم تقديم أى مساعدة عسكرية او اقتصادية لاي دولة غير شيوعية .

كان مشروع الاتفاق تغييرا حقيقيا فى سياسة الاتحاد السوفييتى بالمنطقة ، لما لمسه فى الثورة المصرية من معاداة للاستعمار والأحلاف العسكرية وارتباط بالقوى التحررية فى باندونج .

وكان الاتحاد السوفييتى قد قطع علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل فى فبراير ١٩٥٣ عقب القاء قنبلة على مفوضيته فى تل أبيب .

وكانت مصر أول دولة غير شيوعية تتلقى أسلحة من الاتحاد السوفييتى ، على أساس السياسة الجديدة التى تقضى بمساعدة قوى التحرر الوطنى دون شروط أو التزامات ، ودون تحديد لنسوع السلاح أو كميته .

وهكذا أسقط مشروع الاتفاق المصري السوفييتي كل القيود التي كان يفرضها الغرب على توريد السلاح .

ومع ذلك ظل الاتفاق سرا غير معلن وغير موقع . . . فقد كان جمال عبد الناصر يريد له أن يأخذ مداه كقوة ضغط على الغرب يعفيه من تصادم محتمل معه .

(ظل جمال عبد الناصر متزهدا بأمل تغير يحدث في الساعة الحادية عشرة في موقف الغرب) كما يقول ناتينج .

كان جمال عبد الناصر يعتمد على رأى السفير الأمريكى هنرى بايرود الذى ساند طلبه فى الحصول على معدات عسكرية معتقدا أنه ليس ثمة خطر من استخدام ناصر لهذه الأسلحة ضد المصالح الأمريكية ويتطلع الى افراج الحكومة البريطانية عن توريد ٣٢ دبابة سننطورين ومن مدرعتين خلال الشهور التالية رفع الحظر فى أغسطس ١٩٥٣ .

واستدعى جمال عبد الناصر الملحق الجوى فى سفارة مصر بواشنطن قائد الجناح وأبلغه أن هناك مشروع اتفاق لهما لم يوقع بعد بصفقة أسلحة مع السوفييت وأن عليه ابلاغ المسئولين فى واشنطن باضطرار مصر للحصول عليها اذا ظلت أمريكا فى موقف الرفض .

ولكن كل هذه المحاولات انتهت الى لا شئ .

ولخص الاميرال برا وفورد هذه الحقيقة أمام احدى لجان الكونجرس بقوله (ان المصريين يريدون شراء أنواع من السلاح لا تريد لهم أن يحصلوا عليها) .

ولم يكن هناك بد من توقيع الصفقة والاعلان عنها .

اول من سرب أخبصارها كان صلاح سالم فى لقائه مع الشيوعيين. الأربعة الذين استدعاهم الى مكتبه يوم أول سبتمبر ١٩٥٥ للاتصال بالحزب الشيوعى السودانى وهم يوسف ادريس وفتحى خليل وابراهيم عبد الحليم وزهدى .

وأخبار الصفقة وموضوعها لم يعرض على مجلس الوزراء مطلقا حتى أعلنها جمال عبد الناصر كما روى لى فتحى رضوان .

وصرح جمال سالم فى كلمتنا أثناء زيارة قام بها الى الشرق الأقصى والتي استقال خلالها شقيقه صلاح سالم من مناصبه بقوله (أن مصر ستشتري أسلحة من روسيا اذا تخلت الدول الأوروبية عن تعاقداتها) . كما نشرت الأهرام يوم ٦ سبتمبر ١٩٥٥ .

وسافر أول وفد صحفي الى الاتحاد السوفيتي برئاسة حسين فهمي رئيس تحرير الجمهورية وعضوية علي أمين وأحمد بهاء الدين وأنجي رشدي خلال شهر سبتمبر وهو أول وفد صحفي يزور موسكو في تاريخ العلاقات بين البلدين .

والذي يتابع أخبار الصحف في هذه الفترة التي امتدت من يوم الغارة على غزة في ٢٨ فبراير حتى شهر سبتمبر يجد أن مانشيتات الصحف لم تتوقف خلال هذه المدة عن الاعلان عن اعتداءات اسرائيلية واشتباكات مع الفدائيين وقوات الجيش المصري ، الأمر الذي كان يستهدف الضغط على مصر ، والذي كان يدفعها في نفس الوقت دفعا الى محاولة الحصول على السلاح دفاعا عن أرضها واستقلالها وحيادها أيضا .

ونشرت جريدة الأهرام فجأة يوم ٢٦ سبتمبر (مانشيت رئيسي) يعلن (أمريكا تعرض بيع أسلحة على مصر) وتقول (العرض الروسي بتقديم الأسلحة لمصر يزعم وزارات الخارجية والدفاع في أمريكا - منع الروس من دخول الشرق الأوسط أهم عند الأمريكان من ارضاء اسرائيل) .

ونشرت أيضا (ان قوات اسرائيل المسلحة مزودة بأسلحة أفضل من كل قوات البلاد العربية مجتمعة وذلك لأنها كانت قد ابتاعت في الماضي مقادير كبيرة من الأسلحة من بريطانيا) .

وظهرت الأهرام أيضا في اليوم التالي ٢٧ سبتمبر بمانشيت رئيسي يقول (أمريكا تباعث مصر لتزويدها بالسلاح) وتقول فيه (العرض الأمريكي جاء بعد رفض قبول أسلحة مجانا مقابل انضمامها لميثاق الأمة المتبادل) .

وفي اليوم التالي ٢٨ سبتمبر كان العنوان الرئيسي للأهرام (جمال عبد الناصر يشرح قصة تسليح الجيش المصري) .

وكان جمال عبد الناصر قد اختار أن يعلن النبأ الحاسم من داخل الجيش ، واختار فرصة افتتاح معرض للصور الفوتوغرافية أقامتة الشئون العامة للقوات المسلحة يوم ٢٧ سبتمبر ليعلن على العالم صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية .

روى جمال عبد الناصر قصة الأسلحة منذ بدايتها وقال (ان هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحا للنفوذ الروسي ولا للنفوذ الأجنبي ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكمه فينا وسيطر علينا . . . أن مصر المستقلة مصر الثائرة القوية لن تمكن النفوذ أجنبي في بلادنا) .

وأعلن جمال عبد الناصر أن الاتفاق قد وقع نهائيا منذ أسبوع واحد فقط . . . وهذا يعنى انه وقع به بغير ان يستنفذ كل وسائله مع أمريكا وبريطانيا للحصول على السلاح .

وفى اليوم التالى لاعلان الخبر أرسلت بريطانيا وأمريكا تحذيرا الى الاتحاد السوفييتى .

ووصف دالاس الصفقة بأنها (أخطر اجراء منذ قيام حرب فيتنام) . وكان دالاس قد حاول منع الصفقة فى الدقيقة التاسعة والخمسين وأرسل الى القاهرة كيرميت روزفلت عميل المخابرات المركزية الأمريكية . . . (وتتناقض أقوال محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) مع أقوال مايلز كوبلن فى لعبة الأمم . . . الأول يقول ان عبد الناصر قرر ان يقطع الطريق على كيرميت روزفلت باعلان الخبر قبل مقابلته . . . والثانى يقول ان كيرميت روزفلت قابله قبل اعلان الصفقة فعلا ووجد من الحكمة الا يعترض عليها بعد ان انتهت وانما حاول اقناع عبد الناصر بأن بعضها أسلحة دفاعية وأنه على استعداد لأن يقبل مشاركة الاسرائيليين للقيام بجهد مشترك بغية الوصول الى سلم دائم .

ولكن عبد الناصر لم يعلن شيئا من هذا اما لأنه لم يقابل كيرميت روزفلت قبل الاعلان . . . واما لخدوث خلاف بينه وبين السفير الأمريكى بايروت وفى احدى الجلسات الخاصة ، جعله يرفض الاستجابة لاي طلب أمريكى .

أعلن جمال عبد الناصر فى ٢ أكتوبر أثناء الاحتفال بتخريج دفعة جديدة للكلية الحربية (لقد كانت حادثة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ والاعتداء اليهودى المدبر على غزة الذى وصفه مجلس الأمن بأنه اعتداء وحشى على جنود أمنين . . . كان هذا الاعتداء نقطة تحول) .

ولم يقبل دالاس فى سهولة أن تتخطى مصر نقطة التحول فى طريقها الجديد . . . وبعد أن عجز مندوبه كيرميت روزفلت عن اقناع عبد الناصر بالعدول عن الصفقة ، قرر أن يرسل له انذارا مكتوبا فى رسالة مغلقة مع وكيل وزارة الخارجية الأمريكية جورج ألين ، وقيدت وكالات الانباء الأمريكية هذا الخبر .

وغلث الدماء فى رأس عبد الناصر عندما سمع نبأ الانذار وأخذ عدة خطوات ايجابية حاسمة .

استدعى كيرميت روزفلت وأبلغه أنه اذا جرؤ الين على تقديم الانذار فإنه سيأمر بطرده من مكتبه وسيعلن قطع العلاقات الدبلوماسية مع أمريكا .

اتصل جمال عبد الناصر في نفس الوقت بأوسع دائرة من الضباط الأحرار وأبلغهم أنه سيقاوم الانذار الأمريكى ، حتى ولو اضطر الى الكفاح السرى المسلح ، وقد استخدم تعبير Under ground وهو يبلغ ذلك لى مع أحمد فؤاد ولطفى واكد لتتصل بالشيوعيين استعدادا للمقاومة الشعبية .

طلب من قيادة الجيش توضيح أبعاد صفقة الأسلحة وما تحققه لمصر من كسر الخضوع لاحتكار السلاح وتأكيد الاستقلال الوطنى ، والقدرة على الدفاع عن النفس ضد اسرائيل وحماية الحياد الايجابى وقد أقيمت محاضرات وكلمات وعقدت ندوات فى كافة وحدات الجيش حول هذا الموضوع .

كلف ضباط المخابرات المنبئين فى منطقة القنال بمراقبة تحركات القوات البريطانية التى لم تكن قد انسحبت كلها من القاعدة بعد وأعطى انذارا لقوات لجيش بأن تكون على استعداد وفى حالة طوارئ . .

وقد تصرف بايزود وكريميت روزفلت بمبادرتهم الخاصة واتصلا بجورج الين وهو فى الجو ليطلبوا منه عثم الادلاء بتصريحات للمصحفين عند هبوطه من الطائرة ، وأقنعاه بعد مقابلته بعدم تقديم الانذار المكتوب ، تفاديا لانفجار يحدثه الموقف الشديد التوتر كما ذكر هيكى فى كتابه (عبد الناصر والعالم) . .

واستقبل عبد الناصر جورج الين الذى لم يقدم الانذار واكتفى بأن قال له ان دالاس فى ضيق ، وكان رد عبد الناصر (وليكن ولكن شعبى مهدد) .

وحاول الين للمرة الأخيرة أن يئنيه عن تنفيذ الصفقة بقوله انه فى حالة الغائها فإن الولايات المتحدة تتطلع الى امتداده بالسلاح .

وأجابه عبد الناصر قائلا :

— لقد فات الاوان .

نعم كان الاوان قد فات وعلق موسى شاريت على الصفقة قائلا (انها خطر لا مثيل له ومن المحتمل ان تؤثر تأثيرا بالغا على أمن اسرائيل كما انها غيرت ميزان القوى تغييرا حاسما وضع حدا لتفوق اسرائيل النوعى على مصر انها خطر داهم لم تشهد اسرائيل منذ حرب الاستقلال) .

واستقبل الشعب المصرى أنباء الصفقة استقبالا حماسيا وازداد اسم جمال عبد الناصر لمعانا ، وارتفع نجمه فى سماء الأمة العربية بل وفى العالم الثالث رمزا لقدرة النضال على مواجهة الاستعمار .

وكان اتمام صفقة السلاح بعد ١٦٠ يوما فقط من افتتاح مؤتمر باندونج تأكيدا لاستمرار سنوات الصعود ، وبعثا للثقة في نفوس الجماهير التي شعرت للمرة الاولى انها تملك ارادتها وانها قادرة على تحقيق ما يشبه المعجزات .

يقول جان لاكوتير في كتابه عبد الناصر (نسقت الدعاية الرسمية والحركة اليسارية جهودهما للمرة الاولى واثارتا لدى الجماهير ردات فعل حماسية عارمة) .

والحقيقة القاطعة ان اليسار المصري قد رحب بهذه الخطوة ترحيبا شديدا ، واعتبرها نقطة تحول في مسار السياسة المصرية ، تدفع قرارات باندونج لتطبيق عملي . . . ولكن معظم قيادات الحركة الشيوعية كانوا في السجن ومن هنا أرسلوا برقيات تأييد لجمال عبد الناصر .

وكما لم يشترط الاتحاد السوفييتي أية شروط تتعلق بصفقة الأسلحة من حيث الكمية أو النوع أو طريقة الدفع . . . فانهم لم يشترطوا أيضا ضرورة الافراج عن الشيوعيين المصريين واعتبروا هذا أمرا داخليا لا يجوز التدخل فيه . . . وان مراحل النضال وحدها هي الكفيلة بإبراز الدور الوطني للشيوعيين .

تحطم الاحتكار الغربي للسلاح في سهولة ويسر ، ولم تحدث ردود فعل عنيفة أكثر من محاولة تقديم افذار دالاس . . . وفتحت مصر الباب لمزيد من صفقات الأسلحة بين دول منطقة التحسّر الوطني والاتحاد السوفييتي .

وحضر الى مصر عقب اعلان الصفقة وزير خارجية سوريا صلاح البينطار على رأس وفد سوري للتعرف على أبعاد الصفقة .

وبعد أيام انتهت المباحثات بين مصر وسوريا الى عقد ميثاق عسكري في أكتوبر ١٩٥٥ اعتبر فيه ان أي اعتداء على دولة من الدولتين يعتبر اعتداء على الأخرى وقررت مصر تسجيل هذا اليوم ٢٠ أكتوبر باعتباره (يوم الجيش) تحتفل به كل عام . (ولم تمض عدة شهور حتى تعاقدت سوريا مع الاتحاد السوفييتي على شراء السلاح وتبعتها أفغانستان ولم يمض وقت طويل حتى كانت اليمن هي الدولة الرابعة ، ومن بعدها توالى تعاقدات الدول ، وكانها مسبحة انفرط عقدها من يد الامبريالية العالمية التي كانت تقبض عليها .

كانت نتيجة هذه الصفقات المتتالية نهاية مرحلة كانت الامبريالية العالمية تسيطر فيها على كافة دول العالم غير الشيوعية وتراقب مراكزها

وتحدد قوتها وتسلب منها ارادتها الى جانب ما تستولى عليه من المواد الخام ومن جهد الانسان .

ومن الأمور الرئيسية التي ساعدت على تحقيق هذه الصفقة واحداث تغيير جذري في موازين القوى العالمية حرص العسكريون في مصر على تزويد الجيش بأحدث الأسلحة الممكنة .

طبيعة العسكريين لعبت دورا كبيرا في شق هذا الطريق الذي كان يبدو وعرا يصعب السير فيه ولكنهم أقدموا على خوضه بكل ما يملكون في أنفسهم من اندفاع تلهبه حماسة الشباب ، وكل ما في صدورهم من اصرار على خلق جيش يحمي مصر من العدوان .

والأسلحة التي حصلت عليها مصر كانت حديثة تماما . . . أدخلتها عصر النفاثات في عالم الطيران ، وفرت لها الدبابات الثقيلة وشبكة اتصالات اليكترونية ، ومحطات رادار حديثة ، وقوارب طوربيد . . . وكاسحات الغام . . . وكانت هذه أسلحة يسيل لها لغاب العسكريين .

ووضول مثل هذه الأسلحة الحديثة الى بلد غير شيوعي من الاتحاد السوفييتي ما كان ليتم لولا وفاة ستالين وحدث تغيير في سياسة الحزب الشيوعي السوفييتي ظهرت واضحة في قرارات المؤتمر العشرين الذي عقد في فبراير ١٩٥٦ وقرار الانفتاح على شعوب آسيا وأفريقيا ودعم حركات التحرر الوطني .

ولم يجد الاتحاد السوفييتي في ذلك تعارضا مع سياسة التعايش السلمي التي تبناها لأن مساندة دول التحرر الوطني بالسلاح يخدم استقلالها الوطني . وحيادها ومعاداتها الأحلاف ، وهي الأمور التي تحاصر جموح الامبريالية العالمية ، وتجزئها على قبول مبدأ التعايش السلمي .

وقد فرض هذا الاسلوب السوفييتي في التعاون منح الدول غير الشيوعية اسلوبا جديدا في تعامل أمريكا مع الدول غير المرتبطة معها بأحلاف دفاعية . . . وهو الأمر الذي انتهى الى اقرار مشروع ايزنهاور في ٥ يناير ١٩٥٧ ، مما سيأتي تفصيله فيما بعد ، وامداد الاردن ولبنان وتونس وغيرها بالأسلحة رغم عدم ارتباطها بأحلاف دفاعية .

و هكذا أدت صفقة الأسلحة الى انقسام الموقف في الشرق الاوسط الى دول وطنية متحررة تشتري السلاح من الاتحاد السوفييتي بلا قيود أو شروط ، ودول أخرى تابعة للامبريالية ومرتبطة معها بأحلاف عسكرية أو بقبول ما ورد في مشروع ايزنهاور .

هذا الموقف الجديد لمصر أتاح لها للمرة الأولى منذ ثلاثينيات القرن

الثامن عشر في عهد محمد علي أن تحصل على السلاح الذي تزيده لتحقيق
آمال قادتها العسكريين ومصر لم يحكمها عسكريون مهنة وأصلا منذ عهد
محمد علي وإبراهيم إلا محمد نجيب وجمال عبد الناصر .

استقبلت الأسلحة السوفيتية استقبالا جيدا من جانب ضباط
القوات المسلحة المصرية ، لأنهم وجدوا فيها بديلا عظيما عن الأسلحة
البسيطة التي كان يشتريها الجيش من السويد أو سويسرا فقط .

وسافر الى تشينكو سلوفاكيا ثم الاتحاد السوفييتي ضباط مصريون
للتدريب لأول مرة في التاريخ وكانوا يسافرون بأسماء مستعارة تحاشيا
للأمريكيين .

ووصل الخبراء السوفييات العسكريون في عام ١٩٥٨ بدأوا بإعداد
محدودة على مستوى القيادات العليا فقط ، واشتركوا في إعادة تنظيم
الجيش على أساس توجيه مدارسهم .

كان الجيش حتى ذلك الوقت خليطا من أفكار واتجاهات ومدارس
مختلفة الأسلوب والتنظيم التقليدي البريطاني الذي نظم الجيش على
أساسه منذ الاحتلال عام ١٨٨٢ ، والدراسات الأمريكية المستحدثة من
ذهاب عدد متزايد من الضباط الى دورات تدريبية في أمريكا ، وصلت الى
مستوى قادة السرايا ، واستيراد عدد من الخبراء العسكريين الألمان وعلى
رأسهم الجنرال فون باخر الذين خدموا في عهد النازي وتأثيرهم المتزايد
في الأبحاث والصواريخ والمخابرات وأخيرا وصول الأسلحة السوفيتية
الحديثة .

وتنظيمات الجيش على مختلف المستويات من الجماعة الى الفرقة
تعتمد على التسليح ، بل ترتبط به ولذا كان ضروريا ان يعاد تنظيم
الجيش على أساس العقيدة السوفيتية ، وان تتوحد مدارسهم وقد تم
ذلك على مراحل متدرجة .

وأرسلت الى الاتحاد السوفييتي أيضا فرق لدراسة نظم المخابرات
السوفيتية . حتى يكون هناك تناسق كامل بين أسلوب المعاملات واسلوب
القتال ، وكان من أوائل الذين حصلوا على هذه الفرقة هناك شعراوي
جمعة أمين عام التنظيم بالاتحاد الاشتراكي ووزير الداخلية فيما بعد ،
عندما كان يعمل وكيلًا لإدارة المخابرات العامة .

ويعتبر العسكريون أن أفضل فترات الجيش بعد الثورة كانت هي
فترة استقراره على أسس العقيدة والتنظيمات السوفيتية ، وذلك بعد
الانهيار الذي حدث في (الضبط والربط) العسكري بعد ٢٣ يوليو ،

وارتباط كثير من الضباط بشلل تحيط بأعضاء مجلس القيادة أو ارتباطهم بأعمال خارجية ، وظهور اصطلاح (مندوب القيادة) الذى أحدث خلخلة فى تماسك الجيش .

كان وصول الخبراء السوفييت للقوات المسلحة المصرية بعد خبرتهم العالية فى الحرب العالمية الثانية بداية مرحلة اهتمام جدى بالتدريب لم يعرفها الجيش المصرى من قبل ٠٠٠ وبداية وصول القوات الجوية والقوات البحرية إلى مستوى عال لم يتوفر لها من قبل مما حقق بعضا جديدا للجيش المصرى بعد الضغوط التى تعرض لها عقب معاهدة لندن فى عهد محمد على .

ولم تقف اسرائيل جامدة أمام هذا التغير الجذرى الذى حدث فى صفوف الجيش ، فأنهت مرحلة كان نقص السلاح وقلة الخبرة وضعف القيادة هى عناصر الجيش الرئيسية ٠٠ وكانت فرنسا هى ربيبة اسرائيل فى ذلك الوقت لأنها منذ خرجت من الشرق الأوسط بعد انتهاء الانتداب على سوريا ولبنان عقب الحرب العالمية الثانية ، ومنذ واجهت طلائع الثورة الجزائرية وهى تأخذ موقفا معاديا للعرب ٠٠ فكانت أرض فرنسا هى مكان تدريب الهاجاناه الاسرائيلية فى منتصف الأربعينيات ٠٠٠

وعندما تردد ايزنهاور فى اعطاء اسرائيل طائرات نفثة ودبابات لحفظ رجحان كفتها على مصر ، بادرت فرنسا بامدادها بما تريد ، الأمر الذى دفع جمال عبد الناصر الى عقد صفقة ثانية للسلاح مع الاتحاد السوفييتى رفع مجموعها الى ٢٠٠ مليون دولار وحصل بها على طائرات ميج ١٧ .

وحاولت حكومة الولايات المتحدة احتواء الموقف ، وأرسل دالاس روبرت اندرسون مندوبا له فى نهاية ١٩٥٥ لا يحمل إنذارا مثل جورج ألين ، وإنما يحمل مشروعا لحل المشكلة الفلسطينية وانهاء حالة الحرب بين مصر واسرائيل ٠٠٠ ولكن جمال عبد الناصر - كما يقول محمد حسنين هيكل فى كتابه عبد الناصر والعالم - درج على تسمية هذا المشروع باسم يتصل بنداء الطبيعة لاهتمامه بالفرعيات والشكليات دون تقديم حل سليم ودائم للمشكلة .

وتمت محاولة أخرى لفرض حظر على تصدير الأسلحة الى الشرق الأوسط بدأتها المعارضة العمالية فى انجلترا باقتراح عقد مؤتمر رباعى يضم ممثلين للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا وذلك احراجا لحكومة المحافظين .

ولكن فرنسا لم يجذبها الاقتراح ، وكانت قد رفضت الاشتراك في حلف بغداد من قبل ، ولم يزعجها وصول الأسلحة السوفيتية الى مصر . . . لأنها كانت المصدر الرئيسى لامداد اسرائيل بالسلاح . كما انها كانت مهتمة بموقفها في الجزائر .

وانتهز أنطونى ايدن فرصة زيارة خروشفوف وبولجانين الى لندن في ابريل ١٩٥٦ واقترح عليهما فرض حظر على تصدير السلاح الى الشرق الأوسط ، ورد عليه خروشفوف بأن الاتحاد السوفيتى لا يمانع اذا كان ذلك ضمن خطة شاملة تتم تحت اشراف هيئة الأمم المتحدة .

ولكن التزامات بريطانيا ازاء دول حلف بغداد (تركيا والعراق) أنهت هذا الاقتراح وركنته على الرف كما يقولون .

وعندما بلغ عبد الناصر خبر هذا الاقتراح من السوفييت بادر باتخاذ قرار الاعتراف بحكومة الصين الشعبية فى ١٦ مايو ١٩٥٦ بعد أيام من مغادرة خروشفوف وبولجانين لندن ، وذلك تفاديا لحظر محتمل على الأسلحة ، تستطيع فيه اسرائيل بتسربها الى أماكن النفوذ والسلطة فى بعض الدول ان تحصل على ما تشاء بينما تظل الدول العربية محرومة من السلاح .

وكان الاعتراف بالصين الشعبية مبادرة جريئة من مصر فلم تكن هناك دولة فى الوطن العربى أخذت هذا الموقف فى وقت كانت حكومة الولايات المتحدة فيه كالنمر الهائج ضد كل ما هو صينى . . . حتى ان جوازات سفر الأمريكين كان يصرح لهم فيها بالسفر الى كل دول العالم عدا الصين وكوريا الشمالية .

وخلال هذه الفترة كانت علاقات الصين مع الاتحاد السوفيتى وثيقة ولم تكن قد ظهرت فيها أية خلافات أو تناقضات ، وكان ماوتسى تونج قد حضر المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى فى فبراير ١٩٥٦ وخطب فيه منددا بستانين ومشيديا بدور الاتحاد السوفيتى فى مساعدة حركات التحرير .

أمن جمال عبد الناصر بهذه الخطوة حق مصر فى استيراد السلاح ، حتى لو فرض حظر على المنطقة تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة .

وبعد أيام قليلة فى شهر يونيو ١٩٥٦ حضر الى مصر مرة أخرى شيبيلوف رئيس تحرير البرافدا الذى أصبح وزيرا لخارجية الاتحاد السوفيتى لحضور احتفالات جلاء آخر جندى بريطانى عن مصر .

وهدرت فى شوارع القاهرة يوم العرض العسكرى احتفالا بعيد الجلاء

لمدة أربع ساعات دبابات سنيتالين وقاذفات اللهب ، والمدفعية الخفيفة والثقيلة ، وغطت السماء أسراب طائرات الميج النفاثة وقاذفات القنابل الأليوشن .

وانبهرت الجماهير بما رآته من تسليح حديث ، وزغرذت النساء وتأثر العرب الذين حضروا العرض العسكري مشاركة لمصر في احتفالها التاريخي أرسل الأردن كتيبة من الفيلق العربي وأرسل لبنان مجموعة من جنود التزحلق ، واليمن جماعة من تلاميذ المدارس الحربية ، وليبيا والسعودية وسوريا وحدات نظامية .

كان يوما حافلا بالنشوة والابتهاج ، وبخاصة للعسكريين الذين حققوا هدفا من أعظم أهدافهم ، ولم تعد استعراضاتهم العسكرية هزيلة أو متخلفة .

ولم يدخل السوفييت إلى المنطقة بدعوة العسكريين المصريين لهم للحصول على السلاح فقط ، ولكنهم دخلوا أيضا من باب آخر ، غير باب السلاح .

وكانت حركة ٢٣ يوليو قد ركزت على بعض المشاريع الهامة لتنفيذها منذ البداية ومنها قانون الإصلاح الزراعي ومشروع السد العالي .

تابع المشروعات قائد الجناح جمال سالم الذي عرف بحدة طبعه وذكائه وتصرفاته الراجية أحيانا .

استطاع جمال سالم أن يصدر قانون الإصلاح الزراعي مع وزارة مجيد نجيب الأولى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ .

ولكن مشروع السد العالي لم يكن قانونا يصدر فينفذ ، ولكنه كان مشروعا يحتاج إلى بحث ودراسة وتمويل وصبر أيضا .

فكرة المشروع قديمة عرضها مهندس مصري من أصل يوناني اسمه ادريان دانييوس على بعض حكومات ما قبل الثورة منذ عام ١٩٤٧ ولكنه لم يجد منها قبولا إلى أن التقى مع جمال سالم وعندما درس جمال سالم المشروع فتنه وتبناه أمام أعضاء مجلس القيادة ، وأصبح محور حديثه الدائم ، وموضع اهتمامه ومتابعته ، حتى أن أحدا من أعضاء المجلس لم يبذل جهدا لمعرفة تفاصيل المشروع والقي العبء كله عليه .

وبدأ جمال سالم يقوم بدراسات مصرية للسد العالي ، واعترض عليها بعض كبار المهندسين مثل عثمان محرم وعبد العزيز أحمد ولكنه واصل

أبحاثه مع بعض بيوت الخبرة الأجنبية . . . وأجريت مفاوضات مع مجموعة فرنسية انجليزية أمريكية .

جميع بيوت الخبرة العالمية وافقت على المشروع من الناحية الفنية . . . وما زال يوجد حتى اليوم نموذج كامل للسد العالي في قرية جرينويل بفرنسا عندما تعاونت مصر في مجال البحث مع إحدى الشركات الفرنسية . . . وذلك حسب مشاهدة حسن إبراهيم وروايته تدليلا على سلامة المشروع .

وأعطى جمال سالم باعتباره نائبا لرئيس الوزراء دفعة جديدة للمشروع وقبب الى جانبه فيها المهندس سمير حلمي الذي عين وزيرا للصناعة فيما بعد ، وكانت الوقفة الرئيسية عند اختيار المكان المناسب لبناء الهرم الجديد .

استمر مجلس القيادة متابعاً لموضوع السد العالي من بعيد . . تهتم به كلما عرض عليهم جمال سالم مزيداً من التفاصيل . . . وعندما أبلغهم انه كل الدراسات قد أصبحت جاهزة ، ولم يعد باقياً إلا التمويل ، نبئت أمامهم علامة استفهام كبيرة ، فقد كان الموقف السياسي متوتراً مع الغرب . بعد عقد صفقة الأسلحة المصرية التشيكوسلوفاكية .

ولكن وزارة الخارجية الأمريكية أصدرت تصريحاً في أكتوبر ١٩٥٥ تقول (ان الولايات المتحدة على استعداد للمساهمة في تمويل مشروع السد العالي وفي مشروع وادي الاردن وأن هنباك (مشروع مارشال) أمريكي للشرق الأوسط على نمط المشروع الأوروبي) . . . وطلبت ارسال مسئول مصري لدراسة الموقف مع واشنطن ، بدأ الأمر كما لو ان حكومة الولايات المتحدة لا تريد أن تفقد كل صفقات مصر . . . واستقبل الدكتور عبد المنعم القيسوني وزير الاقتصاد والمعروف بميله الى الغرب في نوفمبر ١٩٥٥ استقبالا حافلا في واشنطن وحمله دالاس رسالة حسب ما ورد في كتاب محمد حسنين هيكل (عبد الناصر والعالم) يقول فيها لعبد الناصر انه اذا كان الاتحاد السوفييتي يساعد مصر بالسلاح وان ذلك يعني الموت ، فان الولايات المتحدة مستعدة الى مساعدة مصر على بناء السد العالي وهذا يعني الحياة .

كان الموقف يدعو الى التفاؤل وجمال سالم يكاد يخلق من الابتهاج . . وخاصة في منتصف ديسمبر ١٩٥٥ عندما أصدرت الحكومتان البريطانية والأمريكية بيانا أعلنتا فيه مساهمتهما في تمويل المرحلة الأولى للسد العالي بما قيمته ٧٠ مليون دولار تدفع منها بريطانيا ١٤ مليون ، ثم تبحث الحكومتان بعدئذ اشتراكتهما في المرحلة الثانية .

• ويتم الاتفاق أيضا على ان يقرض البنك الدولي للانشاء والتعمير مصر ٢٠٠ مليون دولار دفعة أولى بعد مفاوضات استمرت مدة أسبوعين بين جمال عبد الناصر وجمال سالم ورئيس البنك يوجين بلاك ٠٠٠ واعلن الاتفاق يوم ٨ فبراير ١٩٥٦ على أساس اعطاء البنك حق الحصول على معلومات عن الاقتصاد المصرى وحق الاشارة بالخطوات اللازمة ، دون حق الاشراف على الاقتصاد وهو ما كان يطالب به •

وكان البنك الذى انشئ عام ١٩٤٦ بهدف إعادة بناء اقتصاد الدول المنكوبة من العمليات الحربية والذى تملك الولايات المتحدة ٣٢٪ من أصوات مجلس إدارته ولا يعيد رئيسا له الا أمريكى قد حاول أن يفرض على مصر عدم الحصول على قروض خارجية ولا أى اتفاقيات. دفع الا بموافقته الأمر الذى رفضه جمال عبد الناصر تماما ٠٠٠ لان ذلك كان يعنى حظر التعامل أو استيراد السلاح من الاتحاد السوفييتى •

• كان مفروضا أن يمضى مشروع السد العالى فى طريقه الطبيعى بعد ذلك ، ولكن اتضح أن حكومة الولايات المتحدة كانت تهدف الى ربط الاقتصاد المصرى بها طوال مدة بناء السد التى تمتد عشر سنوات وقد تزيد •

كتبت النيويورك تايمز تقول (تربط حكومة الولايات المتحدة بين مقترجاتها بمساعدة مصر مساعدة طويلة المدى لمدة عشر سنوات لبناء السد العالى وتسوية النزاع المصرى الاسرائيلى ، وتعتقد حكومة الولايات المتحدة ان المساعدة الاقتصادية لمصر تستطيع أن تؤدي الى تسوية عامة للموقف فى الشرق الأوسط) •

ووضع هربرت هوفر وكيل الخارجية الأمريكية ومستشار دالاس لشئون الشرق الأوسط ، وهو من رجال شركات البترول الأمريكية ومن أبطال الانقلاب الأيرانى الذى قامت به المخابرات المركزية ضد مصدق وأسقطته مذكرة تقول (السد العالى مقابل الصلح) •

وصارح هوفر السفير أحمد حسين بذلك طالبا اليه أيضا ان تعلن مصر فى بيان رسمى امتناعها عن عقد المزيد من صفقات السلاح مع الاتحاد السوفييتى •

واتضححت خطة حكومة الولايات المتحدة فى محاولة السيطرة على الاقتصاد المصرى واخضاعه لنفوذها بعد أن أفلتت منها فرصة منع مصر من عقد صفقة السلاح مع السوفييت •

يقول أنطونى ايدن فى مذكراته (كان المطلوب أن يعطى المصريون وعدا بأن يجعلوا لمشروع السد العالى الأولوية على غيره من المشروعات

الأخرى وان لا يقوموا بتنفيذ غيره من المشروعات وأن يرفضوا المساعدات التي تعرض عليهم من المصادر الشيوعية) .

وبدأت بوادر تحليل الحكومتين البريطانية والأمريكية من وعودهما تظهر في تصريحات وأحاديث المسئولين ٠٠٠ وتتسرب الى جمال عبد الناصر خلال وزير عراقى سابق أرسل وثائق ما دار في جلسات حلف بغداد في شهر ابريل ١٩٥٦ ومنها تبين أن الحكومة البريطانية كانت قد قررت الانسحاب من ارتباطاتها .

أكد هذه الواقعة ما ورد على لسان أنطوني ايدن أيضا في مذكراته عندما كتب (كانت ثمة نقطة لا يمكن تجاوزها في عملية تمويل السد ذلك أنه كان علينا أن نراعى أيضا مركز حلفائنا ولا سيما العراق ٠٠٠ وكانت له احتياجاته الخاصة ٠٠٠ وكانت الحكومة العراقية قد اشتكت بالفعل في أوائل ذلك العام من ان المصريين استفادوا بمعاداتهم للغرب أكثر دون أن يتعاونوا معه ٠٠٠ وكان العراقيون قد حصلوا على ٣ ملايين جنيه وعدد قليل من الدبابات أما المصريون فقد بدأ انهم سيفوزون بالسد العالي ، فإذا كان لابد من تقديم احسان فان من حق الدول العربية الصديقة أن تسعى للحصول على نصيبها من هذا الاحسان ، ولم يكن من المتوقع من هذه الدول أن تنظر بحماس الى تقديم الغرب مبالغ كبيرة من المال لمشروع مصرى في الوقت الذى تزداد فيه الروابط بين مصر وروسيا السوفييتية) .

وقال فولبرايت في تقرير رسمى أعدته لجنة الشئون الخارجية للكونجرس (تثبت الأدلة أن الحكومة الأمريكية قد بدأت تراجع قرارها للرجوع عنه بعد بضعة أسابيع فقط من تقديمه) .

وظهرت بعض التعليمات الصحفية تقول (طالما لم نستطع شراء الصلح العربى الاسرائيلى مقابل السد فقد مات الحماس) .

وطلب جمال عبد الناصر من حسن ابراهيم أن يجس نبض اديناور مستشار ألمانيا الغربية لبحث امكانية المساهمة في تمويل السد ٠٠٠ وحسن ابراهيم يقول انه رغم اهتمام اديناور الشديد بالمشروع ورغم قائده للشركات الألمانية فإنه لم يعرض المساهمة أبدا ٠٠٠ ورفض البحث فيها ٠٠٠ ربما خشية من حكومة الولايات المتحدة .

كان رفض أعضاء مجلس القيادة الخضوع لطلبات الحكومتين الأمريكية والبريطانية في وقف التعامل والتسليح مع السوفييت وقبول الصلح مع اسرائيل هما حجر الزاوية فيما اتخذ من قرار سحب الحكومتين العرض فيما بعد ٠٠٠ ولم يكن موضوع الاعتراف بالصين الشعبية هو السبب الذى حملهما على الغاء الموافقة ، كما تحاول بعض الجهات المعادية

الاساءة لموقف جمال عبد الناصر ، وتصويره بمظهر المستفز الذى يجبر خصمه على اتخاذ خطوات عنيفة ضده ، ولكنها ربما كانت النقطة التى فاض بعدها الاناء .

اسرائيل ربيبة أمريكا اعترفت بالصين الشعبية عام ١٩٥٠ دون أن يحدث ذلك صدى فى علاقتها مع واشنطن ٠٠٠ وأمريكا لم تسحب موافقتها الا بعد شهرين من اعتراف مصر بالصين .

الأمر غير ذلك تماما فانه عندما حضر السفير المصرى أحمد حسين وأبلغ جمال عبد الناصر أن دالاس محرج أمام الكونغرس الأمريكى لرفض مصر لشروط القرض قال له جمال عبد الناصر الذى كانت قد توفرت له المعلومات واليقين بأن الحكومة الأمريكية قد قررت سحب موافقتها ، أنه يمكن أن يذهب الى دالاس ويبلغه أن مصر قد قبلت كل الشروط ثم يبلغه برد فعله .

ولم تكن مصر قد تعاقدت مع السوفييت كما أشيع بعد زيارة شبيلوف الثانية لمصر لحضور احتفالات الجلاء فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ .
قابل دالاس السفير المصرى فى حضور هربرت هوفر وجورج الين الذى سجل المقابلة هو فى هذه الكلمات .

دخل السفير المصرى الى مكتب دالاس وكان هناك هربرت هوفر وأنا وكان السفير حسين متأمركا جدا وكان يرهق عبد الناصر دائما بمكالماته التليفونية التى يحثه فيها على تأييد أمريكا ، وقال حسين لدالاس أنه قلق من العروض الروسية وما سوف تثيره وأنه لابد وأن تقوم الولايات المتحدة ببناء السد وبأسرع وقت .

رد دالاس بهدوء (اننا بحثنا الأمر جديا ونقدر أهميته ولكن بصراحة أن موقفنا الاقتصادى يجعل من المتعذر على الولايات المتحدة الاشتراك ونحن نسحب العرض الذى قدمناه) .

وفى اللحظة التى دخل فيها السفير أحمد حسين لمكتب دالاس كان المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية يوزع بيانا على المراسلين يعلن فيه سحب العرض الأمريكى كما كتب محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر .. والعالم) .

كان البيان يحاول الوقيعة بين مصر من جهة والسودان وأثيوبيا وأوغندا من جهة أخرى اذ جاء فيه (انتهت الحكومة الأمريكية الى أنه من غير العمل فى الظروف الحاضرة أن تشترك فى المشروع اذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة فى موارد مياه النيل) ويحاول هدم سمعة الاقتصاد

المصرى بقوله (أن مقدرة مصر على تخصيص موارد كافية تضمن نجاح المشروع سارت أكثر التقادا للتوكيد بخلاف ما كانت عليه عند تقديم العرض) .

هل تكون سبعة شهور فقط قد غيرت من حقيقة الوضع في مصر بين يوم اعلان الموافقة ويوم سحبها ؟؟ .

وقد لخص فولبرايت حقيقة الموقف الأمريكى بقوله فى تقرير للجنة الشئون الخارجية بالكونجرس .

(كانت صفقة الأسلحة هى السبب فى الاسراع بعرض المساهمة وكانت هى السبب أيضا فى سحب العرض) .

ويقول التقرير أيضا أن الأسباب التى أعلنت لم تكن من الأسباب الحقيقية بالطبع ولم تجد اللجنة أى دليل على أن الاقتصاد المصرى قد ساءت حالته قبل سحب العرض .

وأعلنت بريطانيا بعد ٢٤ ساعة سحبها للمساعدة التى التزمت بها ويقول انطونى ايدن فى مذكراته (أبلغتنا الحكومة الأمريكية بهذا القرار دون أن تتشاور معنا بشأنه ولهذا لم نتح لنا أية فرصة لانتقاده أو ابداء رأينا فيه قبل ابلاغه الى السفير المصرى وكانت النتيجة أن الغى البنك الدولى أيضا القرض الذى كان سيقدمه لمصر) .

وقد ثار يوجين بلاك عندما شعر أنه أدى دور دمية متحركة فى يد دالاس وايدن وقال (ان دالاس لا يملك الحكم على الاقتصاد المصرى هذه هى مهمة البنك الدولى ، وقد كلفنا أن نجيب على سؤاليين محددين هما : هل المشروع ممكن ؟ وهل يتحمل الاقتصاد المصرى ؟ وأجاب البنك عن السؤاليين بالإيجاب .

وبرر دالاس تراجع ليوجين بلاك بقوله ان الكونجرس لم يصدق على مساعدات خارجية كافية لامداد تيتو فى يوغوسلافيا وعبد الناصر فى مصر وأنه أى دالاس - يفضل أن يقدم مساعدات لتيتو الذى يبتعد عن الكتلة الشيوعية أكثر من عبد الناصر الذى يقترب من هذه الكتلة .

وفى ليلة صدور البيان الأمريكى كان جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادى فى الطائرة مع نهرى عائدين من بربونى بعد لقاء ثلاثى مع تيتو وقدم المرافق الجوى له رسالة لاسلكية بملخص للبيان ، وكان تعليقه على ذلك قوله لرفيقه فى الرحلة عبد اللطيف البغدادى أن هذا ليس سحبا للعرض ، أنه هجوم سافر على النظام الحاكم ودعوة الشعب المصرى الى اسقاطه .

وعندما أطلع عبد الناصر نهرو على البيسان قال الزعيم الهندي (بالصلافة هؤلاء الناس) لم تكن مصر قد اتصلت بالسوفييت اتصالاً رسمياً من أجل تمويل السد العالي ٠٠٠ ولم يكن هناك دراسات سوفيتية للمشروع ٠

وكان جمال عبد الناصر قد قرر تأميم قناة السويس ٠٠٠ وقرر في نفس الوقت أن يبدأ اتصالاً جديداً مع السوفييت لتمويل مشروع السد العالي ٠

وكان سولود السفير الذي تمت في عهده صفقة الأسلحة لا يبدى اهتماماً بمشروعات اقتصادية لا تطلبها مصر ٠٠٠ ولا يحاول الظهور في مظهر الحريص على عقد اتفاقيات خاصة وقد قيل أن سولود قد أبلغ سفير الهند بأن الاتحاد السوفييتي لم يقرر تمويل السد العالي بعد ويبدو أن ذلك مبدأ سوفيتياً يفرض عليهم الحرص على الظهور بمظهر البعيد عن المشاكل الداخلية ، الذي لا يبدى رأياً إلا إذا طلب منه ذلك ٠

كلف جمال عبد الناصر اللواء عبد الحكيم عامر للاتصال بالسفير السوفييتي الجديد كيسيليف لمعرفة رأى الاتحاد السوفييتي في تمويل المشروع ٠

وبعد أسبوع وصل الرد بالموافقة من حيث المبدأ ٠٠٠ وتحرك المشروع من جديد ٠٠٠ ولكن جمال سالم الذي تبنى فكرته لم يكن قد أصبح عضواً في الوزارة ٠٠٠ أثر أن يستقيل بعد انتهاء فترة الانتقال وأصر على موقفه في الحاج ٠٠٠ وصدرت وزارة ٢٩ يونيو ١٩٥٦ أول وزارة يشكلها جمال عبد الناصر بعد انتخابه رئيساً للجمهورية في ٢٥ يونيو ١٩٥٦ ٠ وليس فيها جمال سالم ولا شقيقه صلاح سالم الذي قبلت استقالته من قبل أغسطس ١٩٥٥ وتولى جمال عبد الناصر أعماله في وزارة الدولة للسودان ووزارة الارشاد القومي لمدة شهرين حتى عين فتحى رضوان ٠٠٠

وعلى قدر ما كانت صفقة الأسلحة المصرية التشيكية حدثاً كبيراً مؤثراً في العام الثالث كله ، ومغيراً لموازين القوى العالمية ، على قدر ما كانت دعوة المصريين للسوفييت لبناء أعظم وأخلد أعمال الشعب المصري في العصر الحديث ، بداية تعاون جديد في مجال الاقتصاد والصناعة ٠

وهكذا وصل السوفييت الى المنطقة وكانهم عامل انقاذ من طغيان الامبريالية العالمية التي حاولت فرض الاحتكار على السلاح وفشلت والتي

حاولت احتواء مصر عن طريق تمويل السد العالي باتفاقية تضع مصر تحت اشرافها ثم تراجعتم وانسحبتم ، عندما وجدت ان خطتها لن تعيد حلقة الحصار من جديد .

وصل السوفييت الى المنطقة فكانوا عاملا مساعدا ومشجعما في سنوات الصمود للعسكريين وأصبحوا عنصرا رئيسيا من عناصر الحركة السياسية المؤثرة في المنطقة .

الفصل الرابع

القناة • • والعدوان

(ان رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح
له بان يطبق يده على رقبتنا) .

انطوني ايدن

(ان عبد الناصر يجب ان يلفظ القناة
ولا يبتلعها) .

جون فوستر تالاس

(أنا فى القاهرة سأقاتل معكم ضد أى غزو
الى آخر نقطة دم)

جمال عبد الناصر

من فوق منبر الأزهر

كان سحب الأمريكيين والبريطانيين لعرض تمويل السد العالى ،
واتهام الاقتصاد المصرى بعدم القدرة على انجاز هذا المشروع الكبير ، ضربة
شديدة لجمال عبد الناصر الذى جعل من السد العالى محورا من أهم محاور
التقدم للمجتمع والثورة •

ولم يكن من الطبيعي أن يتلقى هذه الضربة المهيبة في هدوء
ولم يكن عنده حتى هذه اللحظة عرض آخر لتمويل المشروع رغم تصريحه
لصحيفة نيويورك تايمز الذي نشرته الجمهورية يوم ١٣ ابريل ١٩٥٦
بقوله (اذا انقطعت المفاوضات الخاصة بالمساعدة الغربية لتمويل
السد العالي فان مصر ستضطر بكل تأكيد الى الموافقة على العرض
السوفييتى لتمويل هذا المشروع اننا لم نرفض العرض السوفييتى
فقد كان هذا العرض عاما جدا .

ونبتت فكرة تأميم قناة السويس .

لم تكن فكرة طارئة ، أو رد فعل عفوى لسحب عرض التمويل
وانما هي فكرة قديمة تابعتها حركة الجيش منذ بدايتها ، ولكن دون ان
يكون هناك قرار واضح المعالم .

وقناة السويس تمثل مأساة فى حياة الشعب المصرى . . . مات من
ابنائه ١٢٠ ألفا وهم مسخرون فى حفرها . . . بعد ان كانت مشروعا
درسته حملة نابليون ، وأخطأ مهندسو الحملة بقولهم أن هناك فارقا قدره
٩-١٠ أمتار بين مستوى البحر الأحمر والبحر الأبيض مما يجعل شق القناة
مستحيلا . . . ولم تستمر الحملة لتصحيح الخطأ .

وتبنى المشروع بعد ذلك فرنسيون أيضا من اتباع المفكر الاشتراكي
الخيالى (سان سيمون) وحضر زعيمهم (بروسبير انفتان) محاولا
اقناع محمد على بالمشروع ، الذى رفض قائلا انه لا يريد (بوسفور
جديدا) .

ولم تكن مصر تملك شيئا من أموال شركة القناة ، بعد ان باع
الخديوى اسماعيل ١٧٦٠٠٠ سهم الى الحكومة البريطانية عام ١٨٧٥
بمبلغ ٤ ملايين جنيه ، كلفت مصر ١٦ مليون جنيه وأغرقت الشعب المصرى
بديون بلغت ١٠٠ مليون جنيه ، دفعت عنها فوائد بلغت ٣٠٠ مليون جنيه .

وكانت هناك اتفاقية عقدت عام ١٩٤٩ بين الشركة والحكومة
المصرية حصلت بموجبها على ٧٪ من الأرباح ، وتعيين خمس مصريين فى
مجلس الادارة الذى يضم ٢٥ انجليزيا وفرنسيا .

ومنذ الشهور الاولى لحركة الجيش تكون مكتب لقناة السويس كان
مقره مجلس الشيوخ وقابع لرئاسة مجلس الوزراء عمل به الدكتور
مصطفى الحفناوى الذى أثارت الشركة اهتمامه وأحلامه وأصدر مجلة
خاصة باسم (قناة السويس) وكان جمال عبد الناصر قد استدعاه لالقاء
محاضرة يفتتح بها الموسم الثقافى لنادى ضباط الجيش فى نوفمبر ١٩٥٢ -

طالب فيها بالتأميم . . . وكان ذلك عقب لقاء تم بينه وبين عبد الناصر
في أغسطس ١٩٥٢ .

ثم دعم هذا المكتب وصدر به قرار جمهوري في نوفمبر ١٩٥٤ وتوفي
رئيسه الدكتور حلمي بهجت بدوي وضم الدكتور حامد سلطان
ومحمد علي الفتيث ومحسن شفيق وأصبح اختصاصه دراسية شئون
قناة السويس واعداد أبحاث حول احتمال تأميمها .

وعندما حاولت حركة الجيش الحصول على شروط أفضل . . .
تسببت الشركة بعد مدة الامتياز التي كان مقررها ان تنتهي عام ١٩٦٨
في مقابل زيادة نسبة الأرباح وزيادة عدد المصريين . . . ورفضت الشركة
زيادة عدد المرشدين المصريين رغم وجود عجز ٢٠٪ ، وظل الموقف كما هو
. ٤٠ مرشدا مصريا فقط من ٢٠٥ تستخدمهم الشركة .

واهتمت ادارة التعمية العامة للقوات المسلحة بشئون قناة السويس
أيضا بتوجيه من جمال عبد الناصر وأرسلت إليها مندوبين للبحث لاستكمال
المعلومات في مشروع الحصر الصناعي والكفايات الفردية . . . التي كانت
تقوم بها على مستوى الجمهورية ونشرت عدة مقالات في بداية عام ١٩٥٦
في مجلتها الشهرية الهدف التي كتبت رئيسا لتحريرها . . . مقالات تحت
عنوان (هذه القناة ملكنا) .

وكلف جمال عبد الناصر وجمال سالم وعبد الحكيم عامر في جلسة
مشتركة ضابط المخابرات المسئول في منطقة القناة في أغسطس ١٩٥٥
بالحصول على معلومات تثبت تدخل شركة القناة في الشئون الداخلية لمصر
مستغلة الأموال التي تتدفق عليها من عوائك المرور .

وتبين من المعلومات التي حصلوا عليها أن الدخل الحقيقي للشركة
يختلف عن الدخل الذي كانت تخطر به الحكومة المصرية . . . كما أنها
كانت تدفع مصروفات سرية للموظفين المصريين العاملين بها وصلت أحيانا
إلى ٢٠٠ جنيه شهريا .

وكانت الشركة حتى ذلك الوقت تمثل اقطاعية خاصة لا تسمح
لضباط الجيش بارتياذ ناد بها . . . وحدث حادث طريف اذ فكر قائد
المنطقة في طريقة يكسر بها هذا الحاجز ، فأطلق عددا من جنود الجيش
للسباحة في القناة عرايا تماما حتى اقتربوا من النادى الخاص بالشركة ،
وعادوا سباحة . . . فما كان من أحد الموظفين المصريين بالشركة - نجم
الدين شاهين الضابط السابق بالجيش - إلا أن هرع الى قيادة الجيش
يعلن السماح للضباط بالاشتراك في النادى .

واستدعى جمال عبد الناصر الضابط المسئول عن مخبرات القناة مرة أخرى في مايو ١٩٥٦ وطلب منه اعداد دراسات خاصة عن الموقف اذا ما حدث تأمين قناة السويس .

وعندما عين ثروت عكاشة نائبا لمدير المخبرات في مايو عام ١٩٥٦ بدرجة وكيل وزارة ، كلفه جمال عبد الناصر باعداد دراسات خاصة عن تأمين القناة ، دون أن يلمح له بشيء عن الهدف من ذلك .

وكان جمال عبد الناصر يلقي بفكرته عن تأمين شركة قناة السويس أخيانا لتمام بعض خلصائه بطريقة عابرة ليدرس ردود الفعل عندهم .

عندما أبلغ أحمد حسين السفير المصري بواشنطن أثناء أزمة تمويل السيد العالي أصابه الذعر وطلب منه التريث وعدم الاندفاع في هذا التفكير .

وصارح تيتو أيضا أثناء زيارة ليوغوسلافيا بأنه يفكر أخيانا في إعادة قناة السويس للشعب المصري ، ولكن الأمر لم يكن ملحا بما يجعل المناقشة جادة ومركزة .

ويبدو أن بعض هذه الأخبار كان قد تسرب الى الخارج فطلب المستر بيتون النائب المحافظ في مجلس العموم من الحكومة البريطانية أن تتشاور مع الدول الغربية والولايات المتحدة حول مستقبل قناة السويس كمر حائلي دولي .

وكتب أنور السادات في جريدة الجمهورية ردا عليه يقول (أما عن مستقبل قناة السويس فالقناة اذا كان السيد بيتون لا يعلم فهي جزء لا يتجزأ من مصر كما اعترف العالم أجمع) .

كان ذلك دليلا على أن فكرة التأمين لم تكن طارئة ، أو رد فعل فوري وانما كانت تعيش في رأس جمال عبد الناصر امتدادا لنداءات رفعها مصريون من قبل ، وتعبيرا عن مشاعر مكبوتة في نفوس المصريين منذ عشرات السنين .

برنامج الحزب الشيوعي المصري كان يدعو صراحة الى تأمين قناة السويس .

وأحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي بدأ حملة مطالبات بتأمين قناة السويس فورا أثناء حركة الكفاح المسلح في القناة ، خطب مناديا بذلك ، وكتبت مجلة الاشتراكية تدعو لذلك في اعداد كثيرة ، كما نشر في كتابه (الأرض الطيبة) .

وكان محور تفكير وكتابات الدكتور مصطفى الحفناوى فى مجلته
«الدعوة لتأميم الشركة» .

وقد أكد جمال عبد الناصر ذلك فيما بعد بتصريح لمجلة لوك الأمريكية
يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٧ قال فيه (كنا ندرس مسألة تأميم القناة ، ولكننا
لم نكن قد وصلنا الى قرار فجعلتمونا أنتم نستقر على قرار) .

لم يطل الوقت بين سماع جمال عبد الناصر لخبر التمويل مساء ١٩
يوليو وبين اتخاذ قراره بتأميم القناة صباح يوم السبت ٢٠ يوليو .

واعتمد جمال عبد الناصر فى تنفيذ قراره على السرية المطلقة .

لم يطلع ضيفه وصديقه نهرو الذى كان فى ضيافته ، والذى غادر
مصر قبل الموعد المحدد لانتهاؤ الزيارة عندما شعر بأن المشاغل تستهلك
وقت وتفكير جمال عبد الناصر .

ولم يطلع مجلس الوزراء على فكرته كما أكد لى فتحى رضوان .

ولم يبلغ الذين عهد اليهم بالتنفيذ الا يوم ٢٤ يوليو عندما استدعى
المهندس محمود يونس زميله فى التدريس بكلية أركان الحرب وأبلغه
بالخطة فلم يتمالك نفسه من تقبياه فى خده وهو يهنئه .

ولكنه جمع زملاءه أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كان كيانه قد
انتهى بانتهاؤ فترة الانتقال وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية
فى ٢٥ يونيو ١٩٥٦ . . . عقد اجتماعا صغيرا حضره معه عبد الحكيم عامر
وعبد اللطيف بغدادى وزكريا محيى الدين لمناقشة الموضوع . . اقترح
عبد الحكيم عامر الاكتفاء بزيادة الرسوم . . . ولكن جمال عبد الناصر
أوضح له أن ذلك لا يكفى لتمويل السد العالى ، بل ان صافى أرباح
الشركة وهى ٣٢ مليون جنيه فى العام (ودخلها ٩١ مليون) يعتبر
أقل مما يتطلبه هذا المشروع الكبير .

وفى هذه الجلسة تم تكليف عبد الحكيم عامر بالاتصال بالسفير
السوفييتى الجديد كيسنيف لبحث امكانية تمويل السوفييت لمشروع
السد العالى .

وعقد اجتماعات منفردة أخرى مع زملائه أعضاء المجلس . . . ولم
ينس استدعاء جمال سالم وحسن ابراهيم اللذين لم يكن لهما مركز
رسمى فى جهاز الحكم فى هذا الوقت .

وافق الجميع بلا تردد .

يقول زكريا محيى الدين أن أعضاء المجلس الذين اجتمع بهم

جمال عبد الناصر قد ناقشوا المخاطر التي قد تتعرض لها مصر عقب التأميم،
وانه قد استقر الرأي على أن نسبة المخاطر تمثل ٣٠٪ الى ٤٠٪ ، ولذا فقد
استقر الرأي على السير في هذه العملية على اعتبارها (مخاطر محسوبة) .
وكان الاحتمال الاغلب عندهم هو دفع اسرائيل للهجوم وكان هذا
احتمالا مرجحا عن أى غزو بريطاني أو فرنسي .

وبعد هذه الجلسة بدأ اتخاذ الخطوات التنفيذية للتأميم .

كلف جمال عبد الناصر وزير الاقتصاد الدكتور عبد المنعم القيسوني
باعداد مشروع قانون التأميم .

واشترك في وضع القانون محمد علي الغيتيت عضو مكتب هيئة قناة
السويس حيث كان رئيسه الدكتور حلمي بهجت بدوى متغيبا في الخارج،
المستشار بدوى حمودة ممثلا لمجلس الدولة والمستشار حسن نور الدين
مستشار وزارة الداخلية .

اقترح بعض المستشارين وضع الشركة تحت الحراسة مستنديا الى
مخالفات الشركة وتلاعبها ولكن جمال عبد الناصر أصر على التأميم .

واستدعى جمال عبد الناصر الدكتور مصطفى الحفناوى يوم ٢٤ يوليو
من عزبته قريبا من الاسكندرية عن طريق ضابط شرطة لا يعرف سبب
الاستدعاء ثم طيارة حربية الى القاهرة ، وأخيرا الى حديقة منزل
جمال عبد الناصر بمنشية البكرى ، الذى صارحه بأنه سيحقق فكرته ويؤمن
القناة ، وطلب منه المساهمة فى اعداد مشروع التأميم .

ولكن الدكتور مصطفى الحفناوى اصابة الهلع وطلب تأجيل التنفيذ
عدة شهور لتهئية رأى العام قائلا له (انى أكاد أسمع بأذننى أزيز
الطائرات التى ستهجم علينا) .

حتى الذين عاش التأميم حلم حياتهم ، والذين حصلوا على الدكتوراه
عن القناة ، والذين بشروا بهذه الدعوة فى الكتب والندوات وأصدروا مجلة
خاصة لها صدمتهم المفاجأة فى مواجهة الأمر الواقع واهتزت أعصابهم . . .
الا أن جمال عبد الناصر كان قد حسم رأيه وقر قراره .

وطلب من الدكتور مصطفى الحفناوى أن يروى قصة القناة لعدد من
الأشخاص لم يكن يعرفهم . . . استدعاهم جمال عبد الناصر فرواها الى
ما بعد منتصف الليل ، ليزيد الحاضرين وضوحا عن أبعاد المسألة ،
ويضاعف عزمهم على مجابهة هذه الخطوة الجريئة . . وأخيرا طلب منه
جمال عبد الناصر الا يتصل بأحد مطلقا حتى يعد القانون ويحضره له فى

اليوم التالي ، حيث كان اللقاء فى مكتبه بمجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ يوليو
فى العاشرة مساء .

وقال له جمال عبد الناصر أنه يتفادى من هذه الغرفة التى اتخذ فيها
قرار صفقة الأسلحة ، وراجع معه القانون وأجرى عليه بعض التعديلات
ثم تفرغ لكتابة خطبته التى كان مقررا أن يلقاها مساء ٢٦ يوليو فى
الاسكندرية كما اعتاد كل عام ، وهو ذكرى رحيل الملك فاروق من مصر
عن طريق ميناء سراى رأس العين .

كان الخبر كبيرا . . . والدول الكبيرة تتابع خطوات جمال عبد الناصر
لمعرفة رد فعله على قرار سحب التمويل . . . وتارجحت التوقعات وخاصة
بعد خطبته التى هاجم فيها أكاذيب الأمريكان عن موقف الاقتصاد المصرى
وقال لهم موتوا بغيظكم أن مصر ستبنى السد العالى ولو بأظافر أبنائها . .

ماذا كان يدبر ؟ عقد حلف مع الاتحاد السوفييتى ؟ قطع العلاقات
مع الولايات المتحدة ؟ كان الصحفيون كخلية نحل يبحثون عن الخبر المثير
الذى توقعه الجميع فى خطاب المنشية .

ولم يصل أحد الى الحقيقة . . . عندما قال أحد مخبرى السفارة
الفرنسية يوم ٢٣ يوليو باحتمال التأميم قوبل كلامه بسخرية مهذبة كما
يقول جان لاکوتير فى كتابه عن عبد الناصر .

وقبيل خطابه فى ميدان المنشية استندى جمال عبد الناصر أعضاء
الوزارة الى منزله الصيفى أثناء ذلك العام ، وأبلغهم بخبر التأميم الذى
سيعلنه بعد دقائق .

لم يعترض أحد من الوزراء ، ولكن فتحى رضوان اقترح عدم الربط
بين سحب تمويل السد العالى وبين تأميم القناة ، لأن لذلك - حسب
رأيه - عيبين أولهما أنه ينتقص من حق مصر فى التأميم ، والثانى عدم
رغبته فى الربط بينه وبين الاعتداء علينا حتى لا يقال اننا نستغل القناة
كأداة فى الضغط الوطنى .

كان اعتراض فتحى رضوان شكليا لا يتناسب مع حجم الخبر نفسه ،
ولم يؤثر فى مشروع الخطبة التى أعدها جمال عبد الناصر .

كان ميدان المنشية كعادته كل عام يزخر بعشرات الألوف من الناس ،
ولكن مشاعرهم فى هذا العام كانت تختلف عن مشاعرهم فى الأعوام
السابقة . . .

كان جمال عبد الناصر قد حقق عدة انتصارات . . . منها هزيمة
حلف بغداد وقصر دخوله على العراق من الدول العربية ، وعقد صفقة

الأسلحة التشيكوسلوفاكية التي قوبلت بتأييد شعبي جارف وإعلان
الدستور والإفراج عن عدد كبير من المعتقلين السياسيين وبعض الذين
حكمت عليهم محكمة الثورة واحتفال البلاد يوم ١٨ يونيو بجلاء آخر جندي
بريطاني عن أرض مصر .

لم تكن مشاعر الجماهير غاضبة أو سلبية كما كانت عام ١٩٥٤ عندما
استغل الإخوان المسلمون موجة الرفض لاتفاقية الجلاء لما أحاط بها من
شبهة التحالف مع بريطانيا ، وأطلقوا الرصاص على جمال عبد الناصر في
نفس الشرفة التي وقف يخطب فيها اليوم .

كانت خطبة جمال عبد الناصر في ذلك اليوم ، ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قمة
خطبه ، وأعظمها تأثيرا في الجماهير ، وأشدّها إثارة . . . فهو لم يعلن
خبر التأمين دفعة واحدة ، وإنما مهد له بطريقة درامية ، واختار اسم
ديلبسبس إشارة لفريق تنفيذ التأمين برئاسة المهندس محمود ، لكي يبدأ
عمله .

وأثناء القاء الخطبة توجه فريق إلى مبنى الشركة الرئيسي
بجاردن سيتي بالقاهرة وفريق آخر برئاسة محمود يونس إلى مقر الشركة
بالاسماعيلية ، أما محمد رياض محافظ بور سعيد فقد قابل محمود يونس
في الاسماعيلية عصر يوم ٢٦ يوليو وأبلغه بقرار التأمين واستدعى إلى
مكتبه مديري الشركة ، بينما احتل فريق ثالث كل مكاتب الشركة
في بورسعيد .

تمت العملية في هدوء ودقة رغم ضيق الوقت الذي مضى بين الإبلّغ
والتنفيذ . . وارتجت مصر كلها قبل أن تنتهي الخطبة بالتصفيق وهتاف
التأييد وكلمات الحماس . . وارتج العالم الذي هزه الاجراء الكبير .

كان تأمين القناة حلما بل خيالا ، فأصبح حقيقة . . وتشكل أول
مجلس إدارة مصري لإدارة القناة من الدكتور حلمي بهجت بدوي رئيسا
والمهندس محمود يونس نائبا للرئيس والدكتور محمد أحمد سليم
والمهندس محمد القشيري والدكتور مصطفى الحفناوي والمستشار بدوي .
حمودة ومحمد علي الغتيت وبرهان سعيد .

وأثناء القاء جمال عبد الناصر لخطبته في ميدان المنشية ، كان ايدن
يتناول العشاء في داوننج ستريت مع الملك فيصل ونوري السعيد وبلغه
خبر التأمين من أحد سكرتيريه الخصوصيين ، فأبلغ ضيوفه بذلك .
ويقول في مذكراته أنهم (رأوا فيه بوضوح قلبا لكل الاتحاضات
والأفكار والآمال التي كنا نتحدث فيها) وأدركوا على الفور أن الكثير يتوقف
على الهزيمة التي سيقابل بها هذا التحدي .

كان نوري السعيد أكثر الموجودين حماسا لضرب عبد الناصر بينما كان ايدن يتوقع لمصر الفشل فى ادارة القناة .

وانتهى العشاء مبكرا ليجتمع ايدن مع كبار السياسيين والعسكريين فى حكومته ومع السفير الفرنسى والقائم بالاعمال الأمريكى .
وعلق ايدن على سحب عبد الناصر لمبلغ خمسة ملايين جنيه مصرى من أموال الشركة كانت مودعة فى البنك العثمانى بقوله (ان رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا) .

وبدا ايدن حركته نحو استخدام العنف ، فاتصل بايزنهاور برقيا يوم ٢٧ يوليو وأوضح له أن الضغط السياسى والاقتصادى وحدهما قد لا يكفيان لردع جمال عبد الناصر وأنه لابد من وضع احتمال تدخل عسكرى ٠٠٠ وأرسل ايزنهاور روبرت مورفى من وزارة الخارجية الأمريكية الى لندن ، ثم تبعه دالاس الذى كان فى رحلة الى أمريكا اللاتينية يوم التأميم .

وأرسلت الحكومة البريطانية مذكرة احتجاج رسمية الى الحكومة المصرية احتجاجا على الاستيلاء على قناة السويس ٠٠٠ ولكن المذكرة أعيدت الى السفارة البريطانية - كما كتب ايدن فى مذكراته - مشفوعة بقضاضة غير مفضاة مكتوب عليها (تعاد الى السفارة البريطانية) .

وبدا الضغط الاقتصادى على مصر فورا ٠٠٠ جمدت بريطانيا حسابات مصر الجارية من الاسترلينى وفرضت الحماية على أموال وممتلكات شركة قناة السويس فى لندن كما حظر تصدير أية أسلحة أو مواد عسكرية الى مصر . ومنعت أربع مدرعات مصرية كانت فى الموانئ البريطانية من السفر .

كان جملة ما جمدته بريطانيا ١١٢ مليون جنيه استرلينى ، وتبعته أمريكا فجمدت أيضا ٦٠ مليون دولار . كانت لمصر هناك ، ولكنها لم تجمد العمليات الجديدة كما فعلت بريطانيا .

وعقد فى أول أغسطس اجتماع بين وزراء خارجية بريطانيا (سلوين لويد) والولايات المتحدة (جون فوسبتر دالاس) وفرنسا (كريستيان بينو) ٠٠٠ ولخص دالاس موقف أمريكا فيما يلى :

١ - ان بقاء القناة تحت سيطرة دولة واحدة بغير إشراف دولى أمر لا يحتمل .

٢ - يجب اتخاذ معاهدة ١٨٨٨ أساساً للمناقشة لتجنب التعقيدات فيما يتعلق بقناة بنما .

٣ - القوة هي آخر طريقة يلجأ اليها ولكن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام القوة .

٤ - يجب تعبئة الرأي العام العالمى لصالح فكرة وضع القناة تحت ادارة دولية .

٥ - يجب أن نحاول جعل آراء الدول الثلاث مقبولة من أغلبية تتألف على الأقل من ثلثي مؤتمر الدول البحرية المزمع دعوته .

وقال دالاس فى معرض تفسيره لموقف أمريكا (ان عبد الناصر يجب ان يلفظ القناة ولا يبتلعها) .

ولكن السياسة الأمريكية لم تكن تجارى حدة الرغبة الفرنسية او الانجليزية فى الوصف بجمال عبد الناصر ، لاقترب موعد الانتخابات الأمريكية وحرص ايزنهاور على عدم الدخول فى مناورات تعرض موقفه الانتخابى للضعف ، بينما الفرنسيون يخشون من تأثير تأميم القناة مع رفع معنويات الثوار الجزائريين .

كان دالاس يتبنى فكرة ان جمال عبد الناصر كان يفكر فى تأميم القناة منذ وقت طويل بينما كان بينو يرى أن أمريكا هي المسئولة عن القرار لسحبها تمويل السد العالى وانه يجب الا تخفى نفسها من الاهتمام بعواقبه .

وتقرر الدعوة لعقد مؤتمر من الدول البحرية يوم ١٦ أغسطس وتضمن البيان الثلاثى الذى صدر فى ٢ أغسطس تحديد هذه الدول الثماني التى وقعت على معاهدة القسطنطينية ، ست عشرة دولة رئيسية تستخدم القناة (١) .

لم تحضر دولتا مصر واليونان .

لم يذهب جمال عبد الناصر الى المؤتمر رغم نصيحة نهرو وتيتو له بالذهاب . . . لهجوم ايدن عليه قائلا (معركتنا ليست مع مصر ولكنها مع ناصر) . . . وأرسل بدلا منه على صبرى ليكون قريبا من أعضاء الوفود

(١) الدول التى دعيت للمؤتمر من استراليا والدانمرك وأثيوبيا وفرنسا والمانيا الاتحادية ويرانا وايطاليا واليابان وهولندا ونيوزيلندا والنرويج وباكستان والبرتغال واسبانيا والسويد وتركيا وانجلترا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والدونيسيا وسيلان والهند واليونان ومصر .

فى لندن لمناقشتهم وتوضيح الأمور لهم . . . ولم تذهب اليونان لعلاقاتها الخاصة ومصالحها المرتبطة بمصر .

كان واضحاً أن المؤتمر خاضع للنفوذ الغربى . . . فأغلبية الثلثين المطلوبة كانت لدول منضمة الى حلف الأطلسى أو حلف جنوبي شرقى آسيا . . . ولكن فى يوم انعقاده ١٦ أغسطس - أضرِب ٨٠ مليوناً من العرب تأييداً لحق مصر وصدق ايدن عندما قال فى مذكراته أن قنسة السويس أصبحت قناة العرب .

انتهى المؤتمر فى ٢٢ أغسطس الى قرارات تتضمن فى تأكيد مبدأ الاشراف الدولى ، والاعتراف بحق السيادة المصرية مع ضمان دخل عادل مقابل استخدام القناة ، واقترح الدخول فى مفاوضات بشأن عقد اتفاقية جديدة توكل مهمة ادارة القناة الى لجنة تضم مصر وعدداً من الدول تختارها الدول الموقعة على الاتفاقية .

رفض القرار الاتحاد السوفيتى والهند وأندونيسيا وسيلان ، واقترحوا تشكيل هيئة استشارية بحتة ليس لها أى سلطة على ادارة القناة .

وتقرر بناء على بيان الدول الثمانى عشرة ارسال لجنة لعرض الأمر على جمال عبد الناصر يرأسها روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا ومعه وزراء خارجية ايران وأثيوبيا والسويد ولوى هندرسون ممثلاً للولايات المتحدة ويلاحظ انها تمثل دولة واحدة من كل قارة .

ووصلت اللجنة الى القاهرة يوم ٢ سبتمبر . ولكن جمال عبد الناصر رفض قبول فكرة الاشراف الدولى رفضاً باتاً ، وفشلت البعثة فى تحقيق غرضها رغم محاولات روبرت منزيس رئيسها .

وكان ايدن قد أعد خطة متشعبة . . . عرض الأمر على مجلس حلف الأطلسى ، ونجح فى الحصول على موافقته بعدم دفع رسوم القناة . . . وكانت السفن البريطانية والفرنسية تدفع كل عام نحو ٥٥% من هذه الرسوم تليها السفن الأمريكية ثم الايطالية فالهولندية والنرويجية والألمانية . . . وكان الجميع متفقين مع فكرة الحكومتين البريطانية والفرنسية فى عدم دفع الرسوم الا الولايات المتحدة التى أعلن دالاس فى مؤتمر صحفى (أن قناة السويس لا تمثل مركزاً رئيسياً من اهتمام الولايات المتحدة) .

وبدا واضحاً أن تغيراً ما قد حدث فى موقف حكومة الولايات المتحدة عبر عنه ايدن فى مذكراته بقوله ان دالاس قد غير رأيه فجأة يوم ٤ سبتمبر بعد عودته من عطلة نهاية الاسبوع التى قضاها فى جزيرة البطل على بحيرة انتاريو . . . فقد بدأ ينادى بتكوين جمعية للمنتفعين .

وقررت الحكومتان البريطانية والفرنسية الاستجابة الى ذلك قبل عرض القضية على هيئة الأمم المتحدة .

هذا ما كان في لندن وباريس بعد التأميم . . . استعداد وتحفز لسلوك كافة السبل بما فيها الاستعداد للقتال .

أما في مصر ، فان شعبية جمال عبد الناصر ارتفعت الى مستوى لم يحصله زعيم عربي في التاريخ الحديث ، واتخذ موقفا صلبا في مواجهة المؤامرات الاستعمارية . . . رفض فكرة التحويل وأطلق عليها (لفظ) (مؤامرة) . . .

وبذلت الادارة المصرية لقناة السويس جهودا خارقة لادارة القناة في وقت رفض فيه ٦٠ مرشدا كانوا في اجازات بالخارج العودة الى مصر من مجموع ٢٠٥ مرشدين . . . وازداد ضغط الشركة واغراؤها للمرشدين بترك العمل في مصر . . . عرض رئيس الشركة جاك جورج بيكو مرتب ثلاث سنوات مقدما لمن يرفض العمل من المرشدين تحت الادارة المصرية ، ثم هدد بفقدان المرشدين الباقين لمعاشهم .

وكالت النتيجة خروج جميع المرشدين الأجانب عدا ١١ يونانيا رفضت حكومتهم التصريح لهم بمغادرة موقعهم في هيئة قناة السويس . . . وبذا أصبح المجموع ٥١ مرشدا انضم اليهم عدد مناسب من المرشدين السوفييت واليوغوسلاف واليونانيين والأمريكيين أيضا ولم تؤثر الضغوط الاقتصادية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا على مصر حيث كانت تدفع بواخرهم رسومها في لندن ، دون ان تمنعها الادارة المصرية من المرور ، تفاديا لحدوث أزمة ملتهمة .

وكان جمال عبد الناصر قد قدر أن نجاح التأميم وسيطرة مصر على القناة يتأكد اذا مضى شهر دون تدخل البريطانيين . . . قال ذلك للوزراء أثناء اجتماعهم به قبيل خطبته يوم ٢٦ يوليو . وقال أيضا ان البريطانيين حسب المعلومات المتوفرة لديه لن يهاجروا قبل شهرين ، كما استبعد احتمال تدخل اسرائيل وذلك ردا على استفسار أحد الوزراء .

وعندما تتابعت الأحداث ووصلت الى حد الدعوة لانعقاد (نادي المنتفعين) في مؤتمر لندن الثاني يوم ١٩ سبتمبر ، أرسل بولجائين خطابا الى ايدن يقول له فيه ان الاتحاد السوفييتي يطلب تسوية سلمية مع النظر الى مصالح كل الدول التي يهمها الأمر .

وتساءل بولجائين في رسالته (كيف لا يبدى الاتحاد السوفييتي العطف على موقف مصر في الوقت الذي تدافع فيه عن سيادتها وأرضها الوطنية) ؟

تحققت الفكرة الأمريكية وانهقد نادى المنتفعين فى مؤتمر لندن الثانى. . . . ومنه تقرر عرض الأمر على هيئة الأمم المتحدة ، تحقيقا لرغبة بعض الدول التى أرادت أن يساعد موقفها قرار فى الهيئة .

قدمت المذكرة بريطانيا وفرنسا دون أن توقع عليها الولايات المتحدة، وعرضت القضية يوم ٥ أكتوبر على مجلس الأمن الذى عقد جلسات سرية لمدة تسعة أيام ثم حولها الى علمية بعد قرار جماعى قائم على مبادئ ستة هى :

- ١ - أن تكون الملاحة فى القناة حرة ومفتوحة ودون تمييز .
- ٢ - أن تحترم سيادة مصر .
- ٣ - أن تكون ادارة القناة منفصلة عن سياسات أى دولة كانت .
- ٤ - ان تحدد رسوم القناة باتفاق بين مصر والمنتفعين بالقناة .
- ٥ - ان تخصص نسبة عادلة من العائدات لتحسين القناة وتطويرها .
- ٦ - فى حالات النزاع يسوى الأمر بالتحكيم .

واعتبر هذا الاتفاق نصرا لمصر التى أثبتت نجاحها فى ادارة القناة. وقال همرشولد بعد التصويت على المبادئ الستة للدكتور فوزى وزير خارجية مصر (انها نتيجة ممتازة فبعدها أنهى البريطانيون استعداداتهم العسكرية ضدكم ، مر القطار وفات المحطة) .

ولكن القطار لم يكن قد فات المحطة بعد .

كانت بريطانيا وفرنسا قد قدمت توصيتين الأولى تقدم ضمانات للمنتفعين بالقناة هى فى مضمونها ما اقترحته الدول الثماني عشرة والثانية توصى بفتح حركة المرور عبر القناة وفق معاهدة ١٨٨٨ هادفة بذلك السماح لاسرائيل لعبور القناة وكانت مصر تمنع المراكب الاسرائيلية من العبور رغم قرار مجلس الأمن الصادر فى أول سبتمبر ١٩٥١ بصورة رسمية ولو انها سمحت بمرور ٦٠ راكبا فى الفترة من ١٩٥١ الى ١٩٥٤ لمراكب اسرائيلية لا ترفع العلم الاسرائيلى .

استخدام شيبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى الفيتو ضد التوصيات الانجليزية الفرنسية معتبرا ان فيها (قسرا لمصر على سلوك معين) .

وتقرر اجتماع وزراء خارجية انجلترا وفرنسا ومصر فى جنيف يوم ٢٩ أكتوبر لبحث أسلوب تغيير المبادئ الستة .

ولكن ٢٩ أكتوبر كان يوم العملية المدبرة سرا للعدوان الثلاثي على مصر .

لم يكن العدوان مفاجأة ، ولكنه كان مستبعدا في تقدير عبد الناصر .
كل المعلومات كانت تشير الى استعدادات عسكرية تدبر لمهاجمة مصر .

١ - ثروت عكاشة الملحق العسكري بفرنسا وصلته خطة تحركات القوات الفرنسية قبل العدوان بعشرة أيام عن طريق بعض الشيوعيين من المصريين الذين ابعدوا عن مصر وارسلها الى جمال عبد الناصر بخطاب خاص مع الملحق الصحفي عبد الرحمن صادق لتسليمه شخصيا الى جمال عبد الناصر وقد كتبه بخط يده من نسختين فقط ، أرسل واحدة واحتفظ بالأخرى .

٢ - زكريا العادلي أمام الملحق العسكري بتركيا وسفيرنا في الصين والهند بعد ذلك عرف كافة أسرار الحشد العسكري في قبرص وإسرائيل عن طريق بعض المندوبين الأتراك الذين أرسلهم الى هناك ، عقب ملاحظته ان الأتراك قد ألغوا الأجازات وأعلنوا حالة الطوارئ القصوى وأرسل نتيجة معلوماته برقية يوم ٦ أكتوبر تقول (ستوجه انجلترا وفرنسا إنذارا نهائيا الى مصر يعقبه عدوان جماعي بالتعاون مع إسرائيل في منتصف نوفمبر) ثم تبعها ببرقية أخرى تقول (رغم ان المعلومات عندي بأن الهجوم في منتصف نوفمبر الا أن الظواهر تدل على انه سيكون قبل آخر أكتوبر) أرسلها مع الملحق الإداري الذي سافر وعاد فورا ، وردت عليه المخابرات الحربية بأنه الملحق العسكري الوحيد الذي أبلغهم مثل هذه المعلومات ولما استشعر الخطر سافر بنفسه الى القاهرة يوم ١٩ أكتوبر ليبلغ عن أمرين أولهما تدريب إسرائيل لفرد من عائلة الحوت لاغتيال جمال عبد الناصر ، والثاني تأكيد أخبار العدوان وقد التقى زكريا بعبد الحكيم عامر وأبلغه بكل ما يعرفه دون أن يتلقى ردا شافيا ثم غادر القاهرة يوم ٢٧ أكتوبر دون أن تتاح له فرصة مقابلة جمال عبد الناصر رغم اصراره على ذلك .

٣ - عقب عودة صلاح سالم من لندن حيث كان هناك وقت انعقاد المؤتمر الثاني أبلغ جمال عبد الناصر بأن العدوان مؤكد وحتمي .

٤ - سرب الأمريكيون معلومات الى سفيرنا في واشنطن بأن الجنرال كيتلي قد اختير لقيادة غزو مصر وأنه يدرب رجاله في قبرص .

وهكذا لم تكن احتمالات العدوان مجهولة فان تصريحات ايدن أمام مجلس العموم كانت تشير الى ذلك عندما أوضح انه اذا رفضت

الحكومة المصرية تقديم القدر اللازم من التعاون معها فانها ستكون قد خرقت اتفاقية ١٨٨٨ (وفي هذه الحالة سيكون لحكومة جلالة الملكة والأطراف المعنية الأخرى حرية اتخاذ أية خطوات تراها لازمة أما عن طريق الأمم المتحدة أو بوساطة وسائل أخرى لضمان حقوقها) .

وتهديدات روبرت مانزيس بأن مؤتمر لندن الأولي لم يستبعد استعمال القوة قيلت لجمال عبد الناصر شخصيا .

وتصريح أيزنهاور في مؤتمر صحفي عقده يوم ١٩ سبتمبر عندما سئل عما اذا كان سيؤيد بريطانيا وفرنسا اذا اضطرنا لاستخدام القوة فقال . (ان هذه البلاد لا يمكن أن تخوض حربا ما دمت أتولى منصبى هذا الا اذا دعى الكونجرس للانعقاد وأعلن الحرب) دليل على ان احتمال العدوان الانجلو فرنسي كان واردا (وسحب فرنسا لسفيرها بالقاهرة بحجة ضبط سفينة مصرية تحمل أسلحة لشوار الجزائر) .

ولكن جمال عبد الناصر كان له تقدير خاص للموقف ، يوم ٢٢ يوليو أدلى به الى كينيث لوف في حديث صحفي بعد ذلك بثمانى سنوات ، قال فيه انه (استبعد لجوء البريطانيين الى التحالف مع الاسرائيليين لاستعادة القناة بالقوة لأنهم يعرضون مراكزهم ومصالحهم في الشرق الأوسط للخطر أما بالنسبة لفرنسا فكانت غير راضية عن حلف بغداد وكنت أعتقد أنهم منهكون في الجزائر بما لا يسمح لهم بالحملة ضدنا أما الأمريكان فكان انطباعنا انهم لن يلجأوا اطلاقا الى استعمال القوة) .

وتقدير الموقف الذى نشره محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) والمؤلف من ١٤ نقطة يظهر مختلف الاحتمالات ، ولكنه يخلق تناسبا عكسيا بين الزمن واحتمالات العدوان كلما مضى الزمن قل احتمال الغزو وانه اذا مضى شهر على التأميم فانه سيكون فى أمان من الغزو .

ويقول هيكل فى نفس الكتاب انه (لما تمت الموافقة على المبادئ الستة قرر الرئيس عبد الناصر ان نسبة خطر الغزو قد انخفضت الى ١٠ فى المائة بل انه استبعد عمليا احتمال الغزو) .

لم يتحقق استنتاج جمال عبد الناصر من تقدير موقفه وفوجئ يوم ٢٩ أكتوبر بخبر يقول ان الاسرائيليين قد أعلنوا انهم أرسلوا طابورا مدرعا الى سيناء للقضاء على الفدائيين ثم أعلنوا فى نفس الليلة أن قواتهم تقترب من قناة السويس ، وذلك عندما أرسلوا قوات المظلات الى مصر متلا .

واجه أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى اجتمع بهم جمال عبد الناصر الموقف على انه هجوم اسرائيلى فقط. ٠٠٠ لم يشد أحد منهم برأى خاص ، ولم يحاول أن يربط بين ذلك الهجوم واستعدادات انجلترا وفرنسا لغزو منطقة قناة السويس .

ويقول زكريا محيى الدين ان المعلومات عن احتمالات غزو انجليزى فرنسى لم تستبعد تماما ، وانما نظر اليها على انها محاولة خداعية لصرف النظر عن غزو اسرائيلى ولذا فانه عندما بدأ الغزو الاسرائيلى بدأ الأمر كما لو ان تقدير موقفهم كان سليما .

ومع ذلك فان خطة الجيش كانت قد وضعت على أساس عدم استبعاد احتمال الغزو البريطانى الفرنسى نهائيا ، بل ان الخطة الدفاعية قد أعدت على أساس احتمالات انزال فى بورسعيد أو الاسكندرية ٠٠٠ وكان احتمال الاسكندرية أكثر ترجيحاً لقربها من القاهرة مركز الحكم اذا كانت نية الهجوم هى القضاء على النظام .

وهنا يجب ملاحظة أن قوات الجيش المصرى كانت ما زالت فى مرحلة الانتقال من جيش لا تتوفر له الأسلحة الحديثة ، ولا تنظم وحداته على أساس التشكيلات القتالية بل على أساس أسلحة متباعدة غير مترابطة (مدفعية مشاة - مهندسين الخ) كما كان قبل الثورة ٠٠٠ الى جيش بدأت تتدفق عليه الأسلحة السوفيتية الحديثة وما يتبعها من تنظيم جديد وعقيدة قتالية جديدة .

كان الجيش فى رحلة الانتقال غير مستقر على أرض ثابتة من نواحى التسليح والتدريب والتنظيم والعقيدة القتالية أيضا .

وفى هذا الجو صدرت الأوامر للقوات المصرية المسلحة باحتلال ممر متلا بلواء مدرع ومهاجمته جوا ٠٠٠ وتحركت القوات فعلا .

ولكنه مع فجر اليوم التالى اتضحت الصورة الخافية ٠٠٠ ظهرت طائرات الاستطلاع البريطانية ، واستدعى السفيران المصريان فى لندن (سامى أبو الفتوح) وباريس (كمال عبد النبى) لمتابعة المسئولين فى وزارة الخارجية الانجليزية والفرنسية حيث تسلما انذارا جافا يطلب من كل من مصر واسرائيل أن توقف إطلاق النار وتنسحب عشرة أميال بعيدا عن جانب قناة السويس ، مع قبول مصر لقوات أنجلو فرنسية فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس على أن يتم ذلك خلال ١٢ ساعة تنتهى فى الساعة ٦٣٠ من صباح الأربعاء ٣١ أكتوبر والا فان قوات المملكة المتحدة وفرنسا ستتدخل بأية قوة تحتملها الضرورة لتأمين تنفيذ ذلك .

كان التحرك الاسرائيلي والانذار الانجلو فرنسي خيوطا مشتركة في
لسيج واحد ، وخطة مدبرة لغزو مصر والاطاحة بنظامها الذي أخذ خطوات
تقدمية غير منتظرة هزت من ثبات الاستعمار في المنطقة .

نبتت رغبة اسرائيل في العدوان عقب حصول مصر على الأسلحة
السوفيتية ، فقد استدعى بن جوريون موسى ديان في أكتوبر ١٩٥٥ بعد
أيام من اعلان الصفقة واعلان اقامة قيادة عسكرية مشتركة بين مصر
وسوريا في ١٩ أكتوبر ١٩٥٥ وكلفه باعداد خطة الحرب قائلا في صراحة
(لا بد ان يسقط النظام في مصر قبل ان تصل الأسلحة الروسية) .

يقول موسى ديان في مذكراته (اجتمعت مع بن جوريون في حجراته
بفندق هاناس) بالقدس . . . وفي نهاية الحديث أمرني باعتباره وزيرا
للدفاع أن أكون مستعدا لاحتلال مضائق تيران مع شرم الشيخ ورأس
نصراني وجزيرتي تيران - صنافير - بفض تأمين الملاحة الحرة في خليج
العقبة والبحر الأحمر) .

أعد موسى ديان الخطة وعرضت على مجلس الوزراء الاسرائيلي في
ديسمبر ١٩٥٥ وتحدد موعد الهجوم بعد شهر من بدء العام الجديد . . .
ولكن مجلس الوزراء رفض الموعد قائلا انه لا بد من وجود مبرر . . . وقال
ديان (وكان من السهل خلق المبرر) .

وحصلت اسرائيل خلال هذه الفترة على طائرات مستير ٤ التي
تنتجها فرنسا لحلف الأطلنطي وذلك بعد موافقة ايزنهاور ودالاس التي
حملها مبعوثهما الخاص (هربرت هنري) .

وكتب بن زوهار مؤرخ حياة بن جوريون الرسمي يقول (كانت
أزمة السويس بعدئذ طارئة وهي لم تغير في شيء من خطط اسرائيل الذي
كانت ستهجم على أية حال ولكنها سهلت لها أصعب الأمور ، السلاح
والحلفاء وطبعا المبرر) .

وكانت خطة بريطانيا العودة الى منطقة قناة السويس وقاعدتها بأي
ثمن ، وقد ثبت ذلك من تعليمات حصلت عليها المخابرات المصرية في
منطقة القناة مرسلة من رئاسة القوات في لندن الى قيادة القوات في
القناة ، وذلك عام ١٩٥٦ وفيها تشير الى ضرورة عمل مخابىء تحت الأرض
في ٦ معسكرات لتكون مخازن تخزين فيها الأسلحة والدبابات والمدفعية
الباقية في منطقة القناة ولا ترحل . . . وتشير التعليمات الى ضرورة حفظ
علاقات طيبة مع بعض العملاء واحتمال عودة القوات خلال الشهور الستة
الأولى بعد الانسحاب .

وعندما علم جمال عبد الناصر بهذه التعليمات توجه سرا مع ضابطه المخابرات المسئول الى منطقة القناة حيث أمضى الصباح فى منزله ثم نزل ليلا بنفسه ليتفقد المخازن السرية ووجد مدخلها من أحد المكاتب الى دهليز ثم سلم حديد ينزل الى عمق ٥ أمتار ، ثم يمتد بطول نصف كيلو واتساع ١٠ أمتار وهو مليء بالمدافع المشحمة وصناديق الذخيرة .

ومع ذلك كانت ردود الفعل عند جمال عبد الناصر هادئة أوقف عمليات الفدائيين فى غزة تحاشيا لاستفزاز الاسرائيليين وخلق مبرر لهم للهجوم . . كما صرح للخبراء البريطانيين بسحب الذخيرة من قاعدة القناة وارسالها للخارج دون اعتراض وذلك تنفيذا لبنود الاتفاقية وحرصا على عدم التصادم رغم علمه بأنها قد تستخدم فى غزو جديد لمصر .

واجتمع مجلس الوزراء مساء نفس اليوم - ٣٠ أكتوبر - واتخذ قرارا برفض الانذار بعد ان اتفق الرأى على ذلك سوف يكون عودة للاحتلال ، كارثة على مصر واستدعى سير هنرى تيليان وأبلغه رفض مصر .

وتحول جمال عبد الناصر كلية الى مواجهة الموقف العسكرى وتغير تقدير موقفه بعد ان ظهرت كل خيوط المؤامرة ، ووجد ان ارسال قوات الى سيناء يعنى التضحية بها بين القوات الاسرائيلية من الشرق والقوات الانجليزية الفرنسية المشتركة التى تستهدف احتلال القنال فتحصنها من الغرب .

وكان جمال عبد الناصر حتى ذلك الوقت قريب العهد من عمله مدرسا فى كلية أركان الحرب كما كان عنده أيضا الحس الشعبى الذى انفع به من تعاطف الجماهير وتأييدها الجارف ولذا قرر سحب قوات الجيش الى منطقة القناة لتقف مع الشعب فى دفاعه عن حريته وقناته . بدلا من دفعها الى سيناء وهى ١/٨ مساحة مصر كلها والقوات المتيسرة ليست كافية للدفاع عنها فى ظروف تفرض الصحراء فيها متاعب ادارية وفنية كبيرة .

ولم يدرك عبد الحكيم عامر للوهلة الاولى فكرة عبد الناصر من الانسحاب ، وظل فى مناقشة عاصفة معه طوال الليل مما أخر سحب الدبابات قليلا .

وحدث خلاف جديد بين جمال عبد الناصر وبين العسكريين من رجال الجيش الذين تصوروا أن التحام الشعب بالجيش يكون بسحب القوات الى غرب القناة حيث تزيد كثافة السكان ونقلوا مركز الرئاسة الى الزقازيق فعلا . ولكن جمال عبد الناصر أوضح لهم انه لا يجوز ترك القناة

عارية بلا دفاع لأن ذلك يسهل للمهاجمين اقتحامها دون عناء وانهم سيقفون عند حدود ذلك دون رغبة في اقتحام الدلتا أو الوصول الى القاهرة .

لذا كان الانذار البريطانى الفرنسى بمثابة صدمة كهربائية أفاقته كل الحواس وأظهرت الأمر الواقع ، ووضعت جمال عبد الناصر فى مواجهة احتمالات خطيرة .

وثبت فيما بعد ان خطة العدوان قد وضعت اللمسات النهائية فيها خلال اجتماع أحيط بسرية شديدة وتم فى ضاحية سيفر قريبا من باريس فى الفترة من ٢٢ أكتوبر الى ٢٤ بين بن جوريون وموشى ديان وسلوين لويدي وزير الخارجية البريطانية ، وجى موليه رئيس وزراء فرنسا وكريستيان بينو وزير خارجيتها .

تمت اجتماعات سيفر فى الوقت الذى كان أعضاء مجلس الأمن ينهكون فيه أنفسهم ببحث موضوع التأمين وتوصلوا فيه الى النقاط التى اختاروا ٢٩ أكتوبر موعدا لاجتماع جنيف بين وزراء خارجية مصر وفرنسا وبريطانيا ٠٠٠ ولكن اجتماع سيفر اختار هذا التاريخ موعدا للعدوان وليس موعدا لاجتماع من أجل السلام .

وقع الاختيار بعد مناقشة خطة (شال) الفرنسية وخطة (موسكتير) البريطانية التى وضعها جنرال ستوكويل ، على اختيار الخطة البريطانية بعد تعديلات بسيطة أدخلت عليها وسميت (موسكتير الجديدة) .

وكان الهجوم الاسرائيلى فى الموعد المقرر ٠٠ والانذار الفرنسى البريطانى المشترك تبعا للخطة الموضوعة والتوقيت .

الغريب ان بن جوريون صرح بعد اجتماعات سيفر بأنه يسعى للسلام ويود ان يجتمع مع جمال عبد الناصر بشأن عقد تسوية فى الوقت الذى كانت فيه كل خيوط المؤامرة قد نسجت . وذلك تبعا لما ورد فى حديث لعبد الناصر يوم ٢٥ ابريل ١٩٦٠ .

واستقرت الخطة الدفاعية على أساس تفكير جمال عبد الناصر ، وأعدت خطة الدفاع عن القناة ، وبدأ التنسيق بين القوات المسلحة وبين جيش التحرير الشعبى الذى شكل وعين كمال الدين حسين قائدا له فى ٩ أغسطس ١٩٥٦ ، واتخذ من مدينة الاسماعيلية مقرا له ٠٠٠ وعندما بلغ جمال عبد الناصر ان عملية الانسحاب قد تمت قال (شعرت على الفور ساعة أخطرت أن مصر كسبت المعركة حين أحبطت خطة العدو ٠٠٠ ولو ان قرار الانسحاب قد تأخر ٢٤ ساعة فقد كان الأمر كله قد انتهى) .

تباينت في مواجهة العدوان ردود فعل أعضاء مجلس القيادة الذين لم يكن يجمعهم شكل تنظيمي ولكن جمال عبد الناصر كان دائم الاستشارة لهم ، حريصا على الارتباط بهم من موقعه الشرعي رئيسا للجمهورية ... وقد ظهر التباين في أوضح صورة بعد بدء الغارات البريطانية على المطارات الحربية يوم ٣١ أكتوبر .

كان عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة غير مؤهل في شخصيته لتولى هذا المنصب الخطير ، ولكن جمال عبد الناصر عينه فيه خلال أزمة التناقض مع محمد نجيب ليضمن السيطرة على الجيش لثقته من ولاء عبد الحكيم له باعتباره صديق عمره والذي كان يسكن معه في سكن واحد قبل الزواج .

ولذا فان مواجهة عبد الحكيم عامر للعدوان لم تكن ايجابية ولا ديناميكية ... وشخصيته الطيبة المحبوبة لم تكن ذات تأثير نافذ في ظروف المعركة ... كان تحريكه للقوات واعداده للخطط . رغم استعائته حتى ذلك الوقت في مكتبه بعدد من خيرة الضباط أركان الحرب ، لم يكن متناسبا مع خطورة الموقف ... فاصدر أمرا لمحمد رياض محافظ بورسعيد بتولى قيادة القوات المسلحة في بورسعيد وهو مدني متخرج في كلية الحقوق ، كما ان مساعده قائد القوات الجوية محمد صدقي محمود ترك طائراته فريسة للهجوم وهي رابضة على الممرات الجوية دون تحليق ، مما أدى الى تحطيمها فعلا في يوم واحد ، رغم ان خطة المعتدين قد قدرت لذلك يومين .

أما صلاح سالم فقد كان رد الفعل عنده أكثر وضوحا ... صابح جمال عبد الناصر وقنابل البريطانيين تتساقط فوق المطارات ومحطة الاذاعة وبورسعيد بأنه قد أدى دوره وخدم بلده في حدود قدراته ، وان عليه أن يذهب الى السفير البريطاني ويسلم نفسه له لأنهم يطلبونه شخصيا كما قال ايدن .

والنفت جمال عبد الناصر الى زملائه بهدوء وبلا انفعال يسألهم عما اذا كان هناك أحد يتفق مع صلاح في الرأي ... ولكن أحدا لم يكن معه .

وقد برر صلاح سالم هذا الموقف فيما بعد بأنه لم تكن عنده أية فسحة من الأمل في مقاومة عدوان ثلاثي على مصر في وقت لم يكن الجيش فيه قد استكمل معداته أو تدريبه أو تنظيمه ... وانه كان في موقف الاختيار بين جمال عبد الناصر وبين مصر ... فاختر مصر .

لم يتخذ جمال عبد الناصر موقفا فوريا من صلاح سالم الذى ذهب الى القيادة العامة للقوات المسلحة حيث دارت بينه وبين عبد اللطيف وعبد الحكيم عامر مناقشة حول موقفه انتهت الى قيامه ولبسه ملابس جندي المراسلة الذى يقدم القهوة وصدور تعليمات له من عبد الحكيم عامر بالذهاب الى السويس ليكون مسئولا عن المقاومة الشعبية فقام من فوره وسافر اليها دون أن يتوجه الى منزله .

قال جمال عبد الناصر فيما بعد ان أكثر من اثنين من أعضاء مجلس القيادة أظهرنا حماسا وتأييدا لاقتحام المعركة كأنا عبد اللطيف بغدادى وزكريا محيى الدين .

ويقول عبد اللطيف البغدادى انه ظل ملازما جمال عبد الناصر فى كل تحركاته الى الحد الذى جعلهما ينامان فى غرفة واحدة بمبنى مجلس قيادة الثورة طوال مدة العدوان .

وتفرغ زكريا محيى الدين للسيطرة على الموقف الداخلى واعداد المقاومة السرية .

كان جمال عبد الناصر قد قرر أن يقاتل ولا يستسلم . . . أعلن ذلك من منبر الجامع الأزهر المكان الذى خرجت منه المظاهرات الوطنية على مدى التاريخ . . . بصوت متحشج فقد كانت الانفجارات قد داهمته قبل العدوان وسمعه الملايين من العرب يقول (أنا فى القاهرة سأقاتل معكم ضد أى غزو وإلى آخر نقطة دم . . . سأبقى فى القاهرة مع أولادى . . . لن نستسلم ابدا ، سنبنى بلدا وتاريخا ومستقبلا . . . وسننتصر) .

ومع ذلك اجتمع عدد من رجال الأحزاب وقرروا مطالبة جمال عبد الناصر بالتناحي عن منصبه لأن العدوان يستهدفه أكثر مما يستهدف مصر . . . ولكنهم لم يجدوا من يجرؤ على رفع هذا الطلب اليه . . . كانوا كمن يبحث عن يضع الجرس فى رقبة القط .

وصل هذا الخبر الى اجهزة الأمن المصرية عن طريق أحد الذين حضروا الاجتماع والذين كان قد استقر رأيهم على تكليف سليمان حافظ بمقابلة جمال عبد الناصر .

لم تتم المقابلة لأنه صدرت أوامر اعتقال الذين حضروا الاجتماع وهم سليمان حافظ ومحمد صلاح الدين .

واعتقل معهم عدد من السياسيين السابقين مثل فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج حيث بقوا فى المعتقل حتى أفرج عنهم فى منتصف فبراير ١٩٥٧ .

وقد استدعى هذا الموقف من رجال الأحزاب ، موقفا آخر من اللواء محمد نجيب الذى كانت اقامته ما زالت محدودة فى فيلا زينب الوكيل حرم مصطفى النحاس بالمرج ، وكان يعيش حياة قاسية بعد أن انتزع بعض ضباط الشرطة العسكرية أثاث منزله وحرموه من كتبه ومذكراته وأصدقائه .

صدرت الأوامر بنقل محمد نجيب الى طما فى جنوب الصعيد ليكون بعيدا عن القاهرة فى حالة ما اذا حاولت قوات العدوان الاستعانة به اذا انتصرت . . . وكانت الرحلة شاقة وقاسية وعومل فيها معاملة لاتليق بقائده ثورة ورئيس جمهورية وضابط برتبة لواء . . . وكان ذلك بتصرف ذاتى من بعض صغار الضباط الذين لا يرون فى أنفسهم الا أدوات تعذيب وامتهان دون تفكير . . . واستمر محمد نجيب فى هذا المكان القصى فى منزل محام قريب لأحمد أنور مدير الشرطة العسكرية حتى تم الجلاء الثانى ، وعاد الى تحديد الإقامة من جديد فى منزل المرج .

وإذا استثنينا محمد نجيب الذى لم يأخذ موقفا مضادا لقيادة جمال عبد الناصر ولم يصدر منه تصريح مضاد ، ولم يكن فى ظروف تسمح له بالتعبير عن رأيه . . . فائنا نجد ان موقف السياسيين السابقين الذين هرعوا للاجتماع ومطالبة عبد الناصر بالتناحي . . وموقف صلاح سالم فى الوهلة الأولى ، وموقف عبد القادر حاتم الذى كان مسئولا عن مصلحه الاستعلامات ، والذى نبهه جمال عبد الناصر الى ان مسئوليته هى رفع معنوية الجماهير ، وليس التحذير من خطر العدوان لما حادثه فى ذلك كما يرويه انطونى ناتنج فى كتابه (ناصر) .

موقف هؤلاء يدل على عدم سلامة تقديرهم لظروف مصر فى مواجهة العدوان .

كان جمال عبد الناصر خلال الفترة التى اعقبت خروج محمد نجيب قد استطاع أن يؤكد زعامته الوطنية وان يشق طريقا تقديميا للجماهير ، يشبت فيه معالم بارزة مثل قرارات باندونج والانتصار فى معركة الاحلاف . وصفقة الأسلحة وابرار دور القومية العربية وتأميم القناة . . . ومن هنا اكتسبت شخصيته ثقة الناس . . . وتخلى الكثيرون عن ارتباطاتهم الحزبية القديمة ووجدوا فيه بديلا ثوريا معبرا عن ارادة الملايين من أبناء الأمة العربية .

وبذا لم يعد الفصل سهلا أو ممكنا بين شخصية جمال عبد الناصر وبين الشعب . . وسقطت الدعاية الاستعمارية التى حاولت فى ذلك الوقت

ان تظهر في مظهر الديكتاتور . . فهو لم يكن في هذه الفترة قد أصبح حاكما مطلقا بعد ، ولكنه كان قائدا يقود الجماهير في سلم الصعود .

كان قصورا في تفكير هؤلاء الساسة المشتركين في الاجتماع ، وتصورا بأنهم قادرون في مرحلة المد الوطني ان يركبوا الموجة من جديد .
بدأ العدوان الذي استتبعه جمال عبد الناصر احتمال وقوعه اذا تأخر عن التأميم شهرا وقع بعد ثلاثة شهور نتيجة للظروف السياسية التي سبق توضيحها ونتيجة أيضا لبعض المشاكل العسكرية البريطانية ، الأمر الذي اجبرهم على تأجيل الخطة التي وضعت وصدق عليها في أواخر يوليو ١٩٥٦ .

كان هناك نقص في جنود المظلات البريطانيين ونقص في عدد الطائرات التي تحملهم ونقص ثالث في عدد السفن حاملة الجنود ، مما اضطر الانجليز الى الاعتماد على الفرقة الفرنسية العاشرة من جنود المظلات بعد ادماج الالاي ١٦ البريطاني معها كما ان القيادة البريطانية اضطرت الى اتخاذ جزيرة مالطة مركزا للعمليات بدلا من قبرص التي لا تصلح عمق موانئها لاستقبال بواخر الانزال والمسافة بينها وبين بور سعيد ٩٠٠ ميل تستغرق أيام كما ورد في مذكرات ايدن .

بدأت العمليات في ظروف معارضة متزايدة للحكومة البريطانية ، كانت وزارة الظل لحرب العمال قد أعلنت انها لا تبرر استخدام القوة الا بقرار من الأمم المتحدة ومعنى ذلك رفض الموافقة على استخدام القوة كما أن دعوة الاحتياط للجيش أثار تيسارا من المعارضة ظهر على صفحات الصحف ، وقامت المظاهرات ضد ايدن أثناء تحركاته في لندن كما قال في مذكراته يوم هاجمته الجماهير يوم عيد زواجه ولم يساند ايدن حضور تشرشل زعيم حزب المحافظين السابق جلسة مجلس العموم .

كانت خطة الغزو مقسمة الى ثلاث مراحل الأولى ضرب المطارات والطائرات والسفن التي قد تسد القناة والثانية ضرب الأهداف والمنشآت العسكرية بقصد تدمير أي دفاع منظم والثالثة انزال جنود المظلات من قبرص ثم وصول القوات بعد ذلك من مالطة بعد ٢٤ ساعة على ان تستغرق العملية منذ الطلقة الأولى الى احتلال منطقة القناة فترة لا تزيد عن عشرة أيام الى أسبوعين أي من ٧ الى ١١ نوفمبر .

كانت الخطة بطيئة نوعا ما تخشى مفاجأة وجود عدد من الخبراء السوفييت يقودون الطائرات أو المدرعات المصرية ، خاصة وانه كانت هناك معلومات بأن مصر كانت قد تلقت غواصتين سوفييتيتين كما ذكر ايدن في

مذكراته . ويذكر الدكتور مصطفى الحفناوي انه كان قد أرسل خطاباً
يرجو دعم السلاح البحري بغواصتين بعد التأمين لحماية مداخل القناة من
خطر اغراق الاعداء لبعض السفن فيها .

ولكن الظروف هي التي اجبرت مصر على سد القناة عندما تحركت
في منطقة البحيرات المرة ست من سفن الشحن محملة بالاسمنت لاغراقها
في القناة عند بدء الغزو ، وعلم الانجليز بها فأغاروا عليها لمنعها من ذلك ،
ولكن واحدة منها نجحت في سد القناة سداً محكماً ونجحت الأخرى بتشكيل
حاجز جعل العبور في القناة مستحيلاً .

وتشعب أثر العدوان في عدة اتجاهات . . . العمليات العسكرية
والصراع السياسي في هيئة الأمم ومواقف التأييد العربية ، وموقف الاتحاد
السوفييتي ثم موقف الولايات المتحدة ودول علم الانحياز .

وإذا كانت مصر قد تلقت الانذار وحدها فإن ردود الفعل في معظم
انحاء العالم كانت تساندتها وتشدها من أزرها .

في العمليات العسكرية توقف الهجوم الاسرائيلي بعد الانذار الانجلو
فرنسي بعيداً عن القناة تبعاً للخطة المشتركة ، وواصلت الطائرات البريطانية
عملياتها التمهيدية تنفيذاً للخطة التي قادها من قبرص جنرال تشارلس
كفيل مع الاميرال الفرنسي جير بارجو .

وعرضت القضية على مجلس الأمن صباح ٣٠ أكتوبر ، وقدم هنري
كاهوت لودج مندوب أمريكا مشروع قرار بانسحاب اسرائيل الى ما وراء
خطوط الهدنة ، ولكن انجلترا وفرنسا استخدمتا حق الفيتو لأن ايضاً
اعتقد انه (كان هدف أمريكا من هذه الحركة هو أخذ الموضوع في يدها
بدلاً من فرنسا وبريطانيا وجعل النداء الذي وجهناه الى مصر واسرائيل
لا داعي له) .

واستخدم البريطانيون والفرنسيون الفيتو مرة أخرى في مشروع
قرار سوفييتي ، وحاولت يوغوسلافيا والهند نقل الموضوع الى هيئة الأمم
التي كانت تضم ٨٠ دولة في ذلك الوقت ويتسع فيها المجال لادانة
العدوان . .

وصدر فعلاً من الجمعية العامة قرار من ٦٤ دولة بوقف إطلاق النار
وانسحاب القوات الأجنبية ، ولكن لم تكن له قوة التنفيذ والفجر الموقف
في البلاد العربية كما لم يحدث من قبل . . . عندما ضربت محطة اذاعة
القاهرة في أبو زعبل يوم ٢ نوفمبر ، أعلنت عمان ودمشق من محطاتها

(هنا القاهرة) ٠٠٠ واتصل الملك حسين بجمال عبد الناصر قائلا انه سيهاجم اسرائيل ولكن جمال أوضح له ضخامة المؤامرة وطلب منه التريث . وكان الموقف في الأردن موافيا فقد تولى سليمان النابلسي رئاسة الوزارة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦ بعد نجاح القوى الوطنية في الانتخابات وقطعت الأردن والعراق علاقاتها السياسية مع فرنسا كما قطعت السعودية وسوريا علاقاتهما السياسية مع كل من إنجلترا وفرنسا ودمر العقيد عبد الحميد السراج قائد المكتب الثاني السوري (المخابرات) ونائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد انابيب ضيغ البترول التابعة لشركة بترول العراق ٠٠٠ وذهب شكري القوتلي الذي كان قد انتخب رئيسا لجمهورية سوريا في سبتمبر ١٩٥٥ الى موسكو في زيارة معسلة من قبل ، وناقش مع خروشوف وبولجانين والماريشال زوكوف ضرورة التدخل العسكري لنجدة مصر ، ونصحوه هؤلاء بضرورة استنفاد كافة الوسائل القانونية والسياسية المتاحة في هيئة الأمم المتحدة ، حتى يصبح التدخل هو السهم الأخير .

وتحدد موقف مصر في المقاومة دون الاستسلام وقال جمال عبد الناصر (صدرت الأوامر بتوزيع السلاح وعندنا منه الكثير وسنقاتل في معركة مريرة من قرية الى قرية) .

الاتجاه الى الشعب كان تفكير جمال عبد الناصر في وقت الأزمة ، كما حدث عندما اعتقد ان جورج الين وكيل وزارة الخارجية الأمريكية سيقدم له انذارا بعد صفقة السلاح ، وقرر المقاومة السرية .

كان زكريا محيي الدين هو المسئول عن اعداد ترتيبات المقاومة السرية ٠٠٠ وقد بدأ فعلا في اتخاذ الاجراءات الضرورية مؤكدا انه لم يكن هناك خطر على اشتراك أي قوة سياسية في هذه المعركة الوطنية ، وانه لم تتخذ أية اجراءات أمن الا ضد بعض السياسيين القدامى الذين سبق ذكرهم مع محمد نجيب الذين كان يمكن أن يكونوا أوراقا يلغى بها الاستعمار من جديده .

كانت هناك ٤٨ ساعة حاسمة اتخذت فيها كافة ترتيبات المقاومة السرية من اعداد عربات بنمر مدنية ، وأوراق تحقيق شخصية مزيفة ، واجهزة لطبع أي منشورات أو مجلات وحتى جوازات السفر ، وأجبرت بعض الشقق بأسماء مستعارة ، كما كلف بعض الأفراد بتشكيل هيكل للتنظيم السري ، واعدت أجهزة اتصال لاسلكي ، ومخازن سرية للسلاح ، ومعدات وأدوات للتفجير .

كانت الاستعدادات تسير في هذا الاتجاه بجدية شديدة دليلا على الاصرار على القتال وعدم التسليم ، ولكن عندما أجبرت الظروف قوات

المعتدين بوقف اطلاق النار ، تغير التفكير في معالجة الموقف واصبحت المقاومة من موقع السلطة ... ووضعوا جانبا المدافع الرشاشة التي كان كل منهم يتحرك بها .

وينفى زكريا محيي الدين ما ذكره انطوني ناتنج في كتابه من انهم اعدوا حبات من سباتيد البوتاسيوم للانتحار بهما وقت الحاجة ، وقال انه كان هناك اقتراح بذلك ولكنه رفض باعتبار الانتحار ضد الدين الاسلامي ، وانهم طالما يدافعون عن قضية عادلة فعليهم ان يتحركوا والمدافع في ايديهم .

وارسلت مصر في نفس الوقت بيانا لكل الدول تقول فيه :

(في هذه اللحظة الحاسمة تناشد مصر العون من المتطوعين والأسلحة وغير ذلك من كل أولئك الذين ما زالوا يحترمون في جميع أنحاء العالم كرامة الانسان وحكم القانون في العلاقات الدولية ... ان شعب مصر يخوض معركة البقاء والشرف ، وهو لا يقاتل من أجل نفسه وبلده فقط ، بل هو يقاتل من أجل العالم المتحضر كله) .

انتقلت المعركة مع الاستعداد العسكري الى الساحة الشعبية أيضا ... وبدأت حركة المقاومة مع انزال البريطانيين لجنود المظلات في بورسعيد يوم ٥ نوفمبر ، وأسهم فيها الشيوعيون الذين كان قد أفرج عن آخر المعتقلين منهم بعد تأميم القناة ... وبدأت تتكون مجموعات من العسكريين والسياريين معا .

وكانت في بورسعيد من قوات الجيش اللواء ٧ والكتيبة ٤ المشاة الى جانب المدفعية الساحلية والمضادة للطائرات ... ولكن عندما نزلت القوات البريطانية في الجميل تبعثرت القوات العسكرية نتيجة انهيار القيادة المسنولة - قائمقام عبد الرحمن قدرى - وأصدر قائده المحطة - اميرالاي صلاح الموجي - الأوامر بوقف اطلاق النار ثم الغائها بعد ذلك ، وفشل قائد المقاومة الشعبية - صاغ غريب الحسيني - وقائد جيش التحرير الشعبي - صاغ عبد المنعم الحديدي - في اقناع الجماهير بالتحرك معهم لبعدهم عن فهم روح الشعب الحقيقية ثم هربهم بعد ذلك من بورسعيد ... وقد تم فصل هؤلاء الضباط الأربعة من الجيش بعد انتهاء المعركة ...

وعندما تشتتت القوات وغلبت الحيرة صغار الضباط طلب حمدي عبدو ومحمد أبو نار من الضابط منير موافي الذهاب لمقابلة شمس بدران مدير مكتب عبد الحكيم عامر الذي كان يفتش على الحرس الوطني في المنصورة ، وقال له ان الحل الوحيد هو السماح للشيوعيين بالدخول الى

بور سعيد لانهم أقدر من غيرهم على فهم نفسية الجماهير والتعامل معهم
... وقد رجع شمس بلران الى القاهرة ثم وافق على ذلك ، ورفع الحظر
بعدها عن تحركات الشيوعيين .

ويقول محمد أبو ناز ان رجال المباحث العامة خلال القتال كانوا
يراقبون تحركات الشيوعيين في الوقت الذي هرب فيه قائد المباحث العامة
من بور سعيد وسلم البوليس أسلحته كاملة ... ويقول أيضا ان الانجليز
كانوا يقبضون من سجلات البوليس على الشيوعيين والاخوان المسلمين .

طالب الناس بالسلاح منذ أول لحظة في عنوان اسرائيل ، ولكن تعطل
ذلك لكى يتم تحت اشراف المباحث العامة بشكل روتيني ومظهري وغير
فعال ، ورغم الفارات على بور سعيد فان عددا قليلا من السلاح كان قد
تم توزيعه .

ولكن مع هبوط جنود المظلات ووصول قطار محمل بالسلاح والذخيرة
الى محطة بور سعيد بدأ توزيع السلاح على الأهالي دون نظام ... السلاح
في الشحيم والناس غير مدربة أو منظمة تتحرك وراء أى صوت يدعواها
للهجوم على العدو في أى مكان ، الأمر الذى قلل من فاعليتها وعرضها
لبعض الخسائر .

وهكذا تم توزيع السلاح على الشعب في اللحظة الأخيرة وكأنه طوق
نجاة يلقي لغريق .

كان في مقدمة العسكريين كمال رفعت وحندى عبيد ومحمد أبو ناز
ومحمد فايق وسعد غفره ومنير موافى وصالح زعزوع وفي مقدمة الشيوعيين
واليساريين عبد المنعم شتلا وأحمد الرفاعى وسعد رحى ويوسف ادريس
وحسن فؤاد وعلى الشلقانى وحرمة نانا سالم وأحمد عباس صالح ومحسن
لطفى وإبراهيم اجوج وأحمد مجاهد وعبد المنعم القصاص وأمينه شفيق
وغيرهم .

ويقول محمد رياض محافظ المدينة الذى كان يقود بور سعيد اذاريا
من غرفة عمليات خشبية بذائنة غير محصنة انه عندما استقبل الجنرال
ستوكوبل قائد القوات البريطانية رفض تسليم المدينة ، تنفيذًا لتعليمات
زكريا محيى الدين قبل العدوان لأن اتصالاته السلوكية بالقاهرة كانت قد
انقطعت- مع بدء عمليات الانزال . وقد أمضت المدينة أياما قاسية حيث
رفض المحافظ قبول الأكل من الانجليز الذين فتحوا مخازن الترانزيت
وتركوا الأهالي يأخذون منها ما يريدون بينما كاميرات السينما والتليفزيون
تسجل المشهد للحماية في الخارج بينما دعاء القتل لم تكن قد جفت بعد .

كانت المقاومة الشعبية تقاوم في بور سعيد بينما توقف الجيش. عمليا عن القتال بعد انسحابه من سيناء ٠٠٠ واعداده للدفاع عن مدينة الاسماعيلية تحت قيادة كمال الدين حسين الذي استخدم قوات الجيش وقوات الشعب أيضا بالتنسيق مع اللواء على عامر القيادة الشرقية .

وفي السويس كان صلاح سالم قد حول المدينة الى حصن كله خنادق ودشم وجراغل مما يجعل اقتحامها صعبا جدا على الغزاة . وتكلف في ذلك ما يقرب من نصف مليون جنيه صرفت خلال أيام قليلة قبل أن يتوقف إطلاق النار . واعتمد في ذلك على الجماهير بالدرجة الأولى .

وعلى قدر ما كان إصرار جمال عبد الناصر على القتال سببا في الهاب حماس الشعب المصري والأمة العربية والأحرار في كل الدول ٠٠٠ على قدر ما كان قرار ايدن وجي دي موليه سببا في تعرضهما لموجات عنيفة من النقد والمعارضة ووصلت المظاهرات ذروتها في لندن وباريس بعد وصول أخبار الانزال بالمظلات ٠٠٠ وتحول ميدان الطرف الآخر الى كتل من البشر تهتف بسقوط ايدن وقاد الشيوعيون المظاهرات في فرنسا ضد جي موليه .

ووصلت الضجة المعارضة في مجلس العموم الى حد لم تعرفه التقاليد البريطانية من قبل ، وادان الخطباء هذا (العمل البوليسي) الشنيع ، ورفعت الجلسة لتهدأ ثورة الأعضاء .

كانت الحلقة تضيق حول ايدن وجي موليه ٠٠٠ تنفيذ الخطة لا يتم. بالسرعة المطلوبة ٠٠٠ القناة أصبحت مسدودة ٠٠٠ الرأي العام العالمي يسباند مصر ٠٠٠ الشعب البريطاني والفرنسي يثور ضد العدوان ٠٠٠ وزير الدولة انطوني ناتنج يستقيل احتجاجا يوم ٣ نوفمبر ٠٠ الولايات المتحدة تأخذ موقفا معارضا لانجلترا وفرنسا ٠٠٠ انقسم الكومنولث انقساماً يهدد كيانه ٠٠٠ وهيئة الأمم تصدر قرارا بالانسحاب .

ولكن الأمور لم تصل غايتها الا مساء يوم ٥ نوفمبر عندما تبين لقادة الاتحاد السوفييتي انهم قد استنفدوا كل الضغوط السياسية والقانونية، الممكنة في إطار الأمم المتحدة وغيرها ، فارسل المارشال نيكولاى بولجانين رئيس الوزراء خطابا الى ايدن ، قال له فيه (ان الحرب في مصر يمكن أن تتطور الى حرب عالمية ثالثة) ثم تساءل ٠٠٠

(في أي وضع كانت بريطانيا تجد نفسها اذا هاجمتها دولة أقوى منها. تملك كل نوع من أنواع الأسلحة الحديثة المتفجرة ، وهناك اليوم دول لا تحتاج الآن لأن ترسل الأساطيل أو القوات الجوية الى شواطئ بريطانيا ، وانما تستطيع أن تستخدم وسائل أخرى كالصواريخ مثلا ، اننا عاقدون

العزم على استخدام القوة لسحق المعتدين وإعاده السلام الى الشرق ونحن نأمل أن تظهروا الحكمة وتستخلصوا من هذا النتائج المناسبة) .

وأرسل بولجانين خطابا ثالثا الى بن جوريون مختلفا في صيغته اذ قال له في قسوة (اوضحت تصرفات اسرائيل قيمة كل التأكيدات الزائفة عن حب اسرائيل للسلام ورغبتها في التعايش السلمي مع جيرانها العرب ، واسرائيل وهي تعمل لحساب الغير ووفق التعليمات التي تصدر اليها من ساداتها وتلعب لعبا اجراميا وغير مسئول بمصير السلام وبمصير شعبها) .

أثار الانذار السوفييتي فزعا في العالم الغربي كله وكان الاتحاد السوفييتي قد أطلق (سبوتنيك) وظهر تفوقه في عالم الصواريخ على الولايات المتحدة ذاتها . . . ولم يكن متوقعا ان يأخذ قادة الاتحاد السوفييتي هذا الموقف الصلب الحازم في وقت تعرضت فيه المجر لثورة مضادة وطلب الحكومة فيها من القوات السوفيتية الانسحاب من المجر وكانت موجودة بحكم اتفاقيات حلف وارسو

انسحبت القوات السوفيتية فعلا ، وهدل الين دالاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية شقيق دالاس وزير الخارجية وقال (اننا نشهد معجزة وان الثورة الشعبية يمكن ان تقوم وتنجح بالرغم من كل القوات وكل الأسلحة الكبيرة والحديثة) وأضاف (أننا على حافة نصر عظيم عملنا له وانتظروا طويلا) .

وتبين سريعا ان حركة المجر قد استهدفت ضرب الاشتراكية عندما ذهب الكاردينال مندزنتي رئيس الاساقفة والذي أصبح الزعيم الدولي للحركة الى الاذاعة وطالب بالغاء الاصلاح الزراعي وساد التردد والعجز أعضاء الحكومة المجرية الى أن انشق جناح تزعمه (جمانوس كادار) وهو أحد المطالبين بالاصلاح وطالب القوات السوفيتية بالعودة والتدخل لانقاذ المجر الاشتراكية وأوروبا الشرقية عموما .

عادت القوات السوفيتية وقضت على المؤامرة خلال ساعات بثمن باهظ لم يكن هناك من سبيل لتفاديه وعجزت أجهزة دالاس عن الود الا بحرب نووية شاملة لا يجوز على اعلانها عاقل .

عاد الهدوء الى المجر يوم ٤ نوفمبر وفي اليوم التالي مباشرة كانت انذارات بولجانين قد وصلت الى حكام دول الصندوق الثلاثي وهكذا سقطت المؤامرة الأمريكية في المجر وواجهت المؤامرة الثلاثية أعنف رد تعرضت له .

وصل الخطاب الى ايدن وموليه فى مساء يوم ٥ بعد ان كان بولجانين قد أعلن مضمونه قبل وصوله وظهرت الصحف البريطانية والفرنسية تحوى عناوين مفزعة باحتمال ضرب لندن بالصواريخ ٠٠٠ وفى الساعة العاشرة الا ربعا من صباح اليوم التالى ٦ نوفمبر اجتمع مجلس الوزراء البريطانى وقرر وقف القتال وذهب ايدن فى المساء الى مجلس العموم ليعلن قرار وقف اطلاق النار فى منتصف ليلة ٦/٧ نوفمبر بتوقيت جرينتش أى الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت بور سعيد .

ولكن النار لم تتوقف فى الموعد المحدد ، بل واصل البريطانيون انزال قواتهم فى الصباح وأصدرت القيادة العامة المصرية بلاغا بذلك .

ولم تركز المقاومة الشعبية الى الهدوء لأن الايطاليين فرضوا حظر التجول من الخامسة مساء حتى السادسة صباحا ، واستولوا على كثير من المنازل الصالحة لسكن القوات وطردوا السكان منها كما استولوا على المستشفيات ٠٠٠ واستمر القتال بين الشعب وجنود الاحتلال تحت قيادة مجموعة من الضباط الوطنيين وعدد من الشيوعيين تحت علم (الوحدة الوطنية) دون محاولة من الشيوعيين لفرض سيطرتهم على المليشيات الوطنية كما اشار محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) ٠٠٠ بل أن القنصل السوفييتى فى بور سعيد (اتاتولى تشنيكوف) كان ينقل المنشورات والأسلحة ويسهل نخبة أفراد المقاومة بطريقة سرية .

اعترف الجنرال ستوكوبل يوم انسحابه من بور سعيد أن المقاومة السلبية فى المدينة نجحت تماما (ولم تقدم لنا أى مساعدة من أى جهة من الجهات) .

وقال الجنرال كيتلى (قاتلنا ضد شعب جهزته قواته المسلحة بأحدث الأسلحة والطائرات واستمات أفراد فى الدفاع عن بور سعيد باصرار وعناد وحكمة) .

الجنرال ستوكوبل عمل بعد ذلك فى وظيفة كتابية بوزارة الحرب البريطانية واحيل الجنرال كيتلى الى التقاعد .

لم يكن الشيوعيون هم الذين حاولوا فرض سيطرتهم اذا كما ادعى هيكل فى كتابه (عبد الناصر ٠٠٠ والعالم) ولكنهم كانوا من اوائل الذين بادروا للدفاع عن بور سعيد والاشتراك فى المقاومة الشعبية مع سكانها ٠٠ ومع ذلك تعرضوا لموقف معاد من السلطة ظل يلاحقهم طويلا .

بدأت السلطة البوليسية تحارب الشيوعيين وتتعبهم ، والفت نشرة المقاومة الشعبية ولا حققتهم بتقارير كاذبة ٠٠٠

يعلل زكريا محيي الدين هذا الموقف بأنه من الطبيعي اذا اشترك تنظيم سياسي سرى في عملية جماهيرية فانه لا شك سيحاول تقوية صفوفه بتجنيد عناصر جديدة ، وخلق نفوذ له بيد الجماهير ٠٠٠ وانه من الطبيعي أيضا أن تتحرك أجهزة الأمن للتعرف على هذه الاتجاهات .

ولكنه يؤكد ان السلطة لم تتخذ اجراء من شيوعى نتيجة اشتراكه في المقاومة الشعبية كما انه لا يذكر ان صداما قد حدث بين السلطة وبين الشيوعيين في هذه المرحلة .

ولكنه عندما طويت صفحة العدوان الثلاثى ، ووصل التاريخ الى عام ١٩٥٩ وقدم بعض الشيوعيين الى المحاكمة بتهمة انهم عملاء لدولة اجنبية طلب الدفاع عن عبد المنعم شاتيل ١٣ ضابطا في الخطة او على المعاش للشهادة ، ولكن لم يحضر منهم سوى خالد محيي الدين واحمد لطفى واكد عضوا قسم الجيش في حداثو سابقا ، ويقول محبذ ابو نار ان حسن المصيلحي رئيس قسم مكافحة الشيوعية في المباحث العامة قد استدعاه ونصحه بعدم الشهادة ، ثم استدعاه بعد ذلك عباس رضوان وطلب منه عدم الشهادة فاعتذر عنها مرغما .

كانت المقاومة الشعبية في بور سعيد هي الوجه المشرف للشعب المصرى ٠٠٠ بينما لم تؤد القوات المسلحة واجبها على الوجه الاكمل لظروف متعددة سيأتى شرحها فيما بعد ، الامر الذى أدى الى اخراج ٣٠ ضابطا فيما بعد العدوان ، والى شكرى جمال عبدالناصر من كثرة الخسائر بلا مبرر .

وخلال معارك بور سعيد تآثر بعض ضباط الضباط من دور الشيوعيين في المقاومة الشعبية ، وذبلت في نفوسهم الحساسية المزروعة فيها من الدعاية المركزة ضد الشيوعية .

وعندما انتهت المعركة وانسحب جنود الاحتلال ، ذهب عبد اللطيف البغدادي الى بور سعيد لإعادة تعميرها ، وأصدر أوامره بجمع السلاح من الأهالى ٠٠٠ ولم يتردد أفراد الشعب في تسليم أسلحتهم ، وكان يرضيهم فقط ان يحصلوا على شهادة تقبل (فلان كان يعمل في المقاومة الشعبية وادى دوره بأمانة وشرف) .

كان توقف الهجوم العدوانى الذى وصل الى مدينة الكاب جنوب بور سعيد ثمرة لعدة عوامل تفاعلت جميعها بنسب مختلفة وانتهت الى هذه النتيجة ويمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : اصرار القيادة على القتال ورفض الاستسلام .

ثانيا : توزيع السلاح على الجماهير واطلاق المقاومة الشعبية والبداية
في اتخاذ ترتيبات المقاومة السرية .

ثالثا : الانذار السوفييتي العنيف المهدد بضرب لندن وباريس
بالصواريخ اذا لم يوقف اطلاق النار .

رابعا : الموقف الأمريكي المعارض للخطوة البريطانية الفرنسية
لاسباب استراتيجية أمريكية .

خامسا : التضامن العربي والتأييد الايجابي لموقف مصر .

سادسا : قرار هيئة الأمم المتحدة بأغلبية ٦٤ صوتا من ٨٠ وهو قرار
معبر عن الرأي العام العالمي .

سابعا : تمزق الموقف الشعبي في إنجلترا وفرنسا ووجود تيارات
ومظاهرات معادية متزايدة .

هذه هي الأسباب التي تجمعت وانتهت العدوان الثلاثي ولكنه
كانت هناك تناقضات أخرى ثانوية بين القائمين على تنفيذ الخطة من القادة
البريطانيين وحلفائهم الفرنسيين الأمر الذي لم يدفع انطلاقهم الى جنوب
الكاب رغم توافر الظروف المهيئة لذلك أمامهم .

لم يعصف العدوان بجمال عبد الناصر ولم يهزم النظام الذي أقامته
حركة ٢٣ يوليو ، وإنما عصف بأنطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا الذي
أذاع وقواته ما زالت بعد في مصر يوم ٢٠ نوفمبر انه يعاني ازهاقا شديدا ،
وان بيكر حامل اختام الملكة سيراس اجتماعات مجلس الوزراء في غيبته .

وبقي ايدن في جزيرة جاما يكا بالبحر الكاريبي حتى اعتزل منصبه
بالاستقالة يوم ٩ يناير ١٩٥٧ وخلفه وزير مالىته هارولد ماكميلان أحد
المتحمسين للعدوان على مصر .

ولم يذهب ايدن وحده ذهب معه جى موليه فقد سقطت وزارته
أيضا في ٢١ مايو ١٩٥٧ .

وتلكات القوات البريطانية والفرنسية في تنفيذ الجلاء ولكن
المقاومة الشعبية لم تهدأ ، وقررت مصر عدم البدء في تطهير القناة وإعادة
الملاحة فيها قبل انسحاب آخر جندي .

بدا الانسحاب مع شهر ديسمبر ، ورحل آخر فوج من المعتدين يوم
٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ وارتفع العلم المصري فوق بور سعيد حيث كان
البريطانيون ، وفوق بور فؤاد حيث كان الفرنسيون وأصبح يوم ٢٣

ديسمبر يوما تحتفل به مصر كل عام ، واعتاد جمال عبد الناصر أن يزور
المدينة في مثل هذا اليوم ويوجه من هناك خطابا للشعب .

انسحب الانجليز والفرنسيون ، ولكن اسرائيل تحصنت قرارات
الانسحاب ورفضت الانسحاب من غزة ورفع وشم الشيخ وجزيرتي تيران
وصنافير ومنطقة ساحلية طولها ٢٢٠ كيلو مترا وعرضها ٢٨ كيلو مترا
بطول خليج العقبة .

أعلنت وزيرة خارجية اسرائيل انها لن تنسحب بعد ذلك الا اذا أخذت
ضمانات لحرية مرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة وعدم استخدام
غزة قاعدة ضدها ، ورفضت مصر أى شرط للانسحاب .

تدخلت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تتربص الفرصة
المناسبة للنفوذ الى المنطقة ، فأسهمت في اضعاف موقف بريطانيا وفرنسا
للانتهاء من نفوذهما ومصالحهما في المنطقة وضغطت على اسرائيل للانسحاب
وضغطت على مصر لتبقى قوات طوارئ دولية فقط في شرم الشيخ حتى
لا تتاح للقوات المصرية مستقبلا فرصة قفل خليج العقبة ومنع الملاحة فيه .

ولم يشأ جمال عبد الناصر ان يعاند ويواصل تحدى أمريكا ، لانه وجد
في ذلك على حد تعبيره - موقفا غير سياسى - وقبل هذا الشرط مرغما
كما يقول ناتنج .

وكانت المظاهرات لا تتوقف في غزة تطالب بعودة الادارة المصرية .
وتؤرق القوات الاسرائيلية ...

وبدأت اسرائيل الانسحاب بعد تدمير كامل لجميع منشآت سيناء
... من آبار بترول ومناجم وخطوط سكة حديدية وصهاريج مياه ومبانى
... وغادرت قواتها العريش يوم ١٤ يناير ١٩٥٧ ثم رفع وخسان يونس
... وأخيرا انسحبت من غزة يوم ٦ مارس ومن شرم الشيخ يوم ٧ مارس.
بعد ان صرح بن جوريون قبل ذلك بيوم واحد (ان اسرائيل لن تنسحب من
غزة أو شرم الشيخ) .

لم ترسل مصر حاكما عسكريا لغزة كما كانت الأمور من قبل ، وانما
عينت حاكما مدنيا ولم ترسل معه قوات عسكرية ، بل اكتفت بفريق من
الشرطة العسكرية .

وتم تطهير القناة واعيد فتحها يوم ٢٩ مارس ١٩٥٧ وحاولت بريطانيا
وفرنسا مقاطعتها ولكنهم اضطروا للعودة اليها بعد أسابيع بادارتها المصرية
الكاملة .

وانتهت (اتفاقية الجلاء) عمليا مع انتهاء عهدوان عام ١٩٥٦ ، وتمزقت شروطها وتحمرت مصر نهائيا من شبهة التحالف التي وردت ضمن بنودها بعودة القوات البريطانية اليها في حالة الهجوم أو احتمال الهجوم على تركيا ، وثبتت سلامة تقدير موقف جمال عبد الناصر وزملائه أعضاء مجلس القيادة في ان تحقيق الجلاء هو الأساس الرئيسى لانطلاق مصر بعد ذلك في سياستها الوطنية بإرادتها الحرة .

وأصبحت مصر لأول مرة منذ الاحتلال البريطانى متحررة من القوات الأجنبية ، مستقلة استقلالاً كاملاً غير مرتبطة بأية اتفاقيات أو أحلاف .

واستولت مصر على المخلفات البريطانية في القاعدة التي بنت من أجلها المخازن والمستودعات تحت الأرض والتي بلغت قيمتها ٣٠٠ مليون جنيه استرليني .

وقبلت مصر قوات الطوارئ الدولية لتكون حاجزا بينها وبين القوات الاسرائيلية حتى لا تتكرر الاشتباكات المسلحة التي ظلت تحتل العناوين الرئيسية في الصحف على فترات متقاربة منذ غارة غزة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حتى عنوان ١٩٥٦ ..

ووجدت أفكار جمال عبد الناصر التي عبر عنها الى مجلة (الشئون الخارجية) الأمريكية وهي مجلة ربع سنوية ذات قيمة في السياسة الدولية في فبراير ١٩٥٥ قبل تصاعد هذا التوتر فرصتها للتحقيق من جديد فقد قال يومئذ (ليس هناك محل للحرب مع سياستنا الانشائية التي قررناها لتحسين مستوى الشعب) .

الباب الثاني _____

● العسكريون في مركز السلطة

الفصل الخامس

زحف العسكريين .. نحو السلطة

(لا يمكن للقوات المسلحة أن تكون ولم تكن يوماً ولن تكون أبداً محايدة) .
لينين

كان جلاء قوات العدوان الثلاثي عن أرض مصر ، انتصاراً للشعب ، ونقطة ارتكاز لحركة العسكريين ، غيرت طابعها الانقلابي ، وأكدت الفرق المميز بينها وبين كافة الانقلابات العسكرية التي حدثت في الوطن العربي ، أو في دول العالم الثالث عامة .

اكتسب جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية المنتخب وصيдаً شعبياً هائلاً ، جعل النسبة التي حصل عليها وهي ٩٩٫٩٪ في المائة يوم ٢٥ يونيو ١٩٥٦ حقيقة راسخة (عدد الناخبين ٥٥٥٠٤٩٤ر٥ وغير الموافق ٢٦٧٠٥٠) .

كان الانتخاب قد تم بناء على قواعد الدستور ، الذي أعلنه جمال عبد الناصر يوم ١٦ يناير ١٩٥٦ في مؤتمر شعبي كبير عقد بميدان الجمهورية من ١٩٦ مادة ، وجاء في مقدمته أنه صادر عن الشعب المصري (الذي انتزع حقه في الحرية والحياة ، بعد معركة متصلة ضد السيطرة المعتدية من الخارج والسيطرة المستغلة من الداخل) وليس صادراً ممنوحة من الملك مثل دستور ١٩٢٣ .

كان جمال عبد الناصر هو المرشح الوحيد . ولم يسمح لغيره بالترشيح ، وكان طبيعيا ان يحصل على النجاح في الاستفتاء الشعبي .
عقب مواقفه الوطنية في بانديونج ، ضد الاحلاف العسكرية ، وتأكيد الاستقلال الوطني ، وكسر احتكار السلاح ، وبعد جلاء آخر جندي أجنبي عن أرض الوطن .

ولا شك انه كانت هناك أصوات تعارض أسلوب الانتخاب ، وتشير الشكوك في صحة النسبة التي حصل عليها ولكنه بعد تأميم القناة ، ومقاومة العدوان الثلاثي ، والانتصار عليه عمليا باجباره على الانسحاب والجلاء مرة ثانية خلال ستة شهور من جلائه الأول ، أصبح انتخاب جمال عبد الناصر مدشنا بارادة شعبية جارفة .

وصل قائد الضباط الأحرار المنتخب الى منصب رئيس الجمهورية الشرعية ووصلت مجموعة الضباط الأحرار ، التي قامت بحركتها ليلة ٢٣ يوليو بعدد لا يتجاوز المائتين من شعب بلغ ٢٣ مليوناً ، الى قمة انتصاراتها .

ولكنها لم تصل كما بدأت تنظيماً للضباط الأحرار ، وانما وصلت بعد فترة انتقال انتهى معها تشكيل مجلس قيادة الثورة ، ولم يعد له كيان رسمي ، كما سبق ان انتهى تنظيم الضباط الأحرار وتوقف عمله ، واستبدل بتنظيمات شخصية هامشية ، تركزت أخيراً في يد قيادة الجيش الجديدة المؤلفة من القائد الأعلى جمال عبد الناصر والقائد العام عبد الحكيم عامر ومدير مكتب القائد العام الصاغ شمس بدران .

وكان موقف أعضاء المجلس بعد انتهاء المرحلة الانتقالية - ٢٣ يوليو ١٩٥٦ - متبايناً صلاح سالم كانت قد قبلت استقالته في أغسطس ١٩٥٥ .

أما شقيقه جمال سالم فقد كان قد بدأ يتخذ موقفاً معارضاً لانفراد جمال عبد الناصر المتزايد بالسلطة قبل حل المجلس ، بعد أن كان في البداية من أشد المهاجمين لمحمد نجيب المبايعين لجمال عبد الناصر ، الأمر الذي جعله في ٢ نوفمبر ١٩٥٥ نائباً لرئيس الوزراء ، ونائباً لرئيس الجمهورية في غيبته بالخارج .

كان قد حدث تجمع داخل مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٥ من ضباط الطيران الثلاثة . . جمال سالم وعبد اللطيف البغدادي وحسن إبراهيم والضم اليهم صلاح سالم . . وقرروا حسب رواية حسن إبراهيم الا يشتركوا في الحكم بعد انتهاء فترة الانتقال ، والا يستقيلوا قبلها أيضاً .

كانوا يستهدفون بفكرة استقالتهم الجماعية تنبيه الجماهير لانفراد جمال عبد الناصر بالسلطة مما يمثل في نظرهم بحثا لحكم الفرد ولكن التدبير لم ينفذ لاستقالة صلاح سالم المبكرة ولاعتقاد البغدادي انه قادر خلال وجوده رئيسا لمجلس الأمة - حسب ما تم اتفاقهم عليه - على خلق روح وحياة ديموقراطية .

الغريب أن هذا الاتفاق قد تم بين أطراف متناقضين . . . حسن ابراهيم كان قد اشتكى لجمال عبد الناصر من أسلوب العمل داخل مجلس قيادة الثورة ، وشاركه الرأي عبد اللطيف البغدادي لأن المناقشات كانت تدور تحت ضغط التوتر من عصبية جمال سالم المبالغ فيها ، وسخرية صلاح سالم المبالغ فيها أيضا .

كانت عصبية جمال سالم وسخرية صلاح سالم لا تسنحان بالمناقشة العميقة ، وتدفعان الى الجمود ، ويقول حسن ابراهيم انه لا يستبعد وجود صلات جانبية بين عبد الناصر وجمال سالم وصلاح سالم لانهم كانوا يحضرون اجتماعات المجلس كتلة واحدة .

ولكن سرعان ما استنفذ كل من الشقيقتين دورهما وكانا اول الخارجين من المجلس .

ولكن الواقع أن جمال عبد الناصر كان أكثرهم تقدما في طريق الوعي والتطور ، وأشدهم حرصا على تطبيق العدالة الاجتماعية ، إلى جانب تماسك شخصيته القيادية وثباتها .

كان مختلفا على سبيل المثال عن جمال سالم أحد الخارجين على المجلس في أفكاره التي أدلى بها إلى جان لاكوتير ممثل وكالة الأنباء الفرنسية، ونشرتها جريدة المصري يوم ٢٤ يناير ١٩٥٤ .

قال جمال سالم (هناك عائلات من كبار الملاك تتعاون مثل عائلة البدرأوى)

وعندما سأله لاكوتير هل أنت اشتراكي ؟

أجاب (هذا ليس صحيح . . . لست اشتراكيا - وليس هذا لاني أكره انتهاج سياسة التأميم في مصر . بل لاني أؤمن بأن اقتصاديات هذا البلد لن تتقدم الا بالمنافسة الحرة) وفسر أفكاره بقوله (لم نصل إلى المرحلة الاشتراكية لأننا لم نصل إلى الاحتكار الا في الزراعة أما صناعتنا فما زالت مفلتا يحتاج إلى رؤوس الأموال الخاصة)

وهكذا طويت صفحة مجلس قيادة الثورة ، وطويت معه أيضا فرصة المناقشة المحدودة في مركز إصدار القرار وانتهت بنهايته امكانية مراجعة الموقف من وجهات نظر مختلفة وتحول الأمر من سلطة المجلس الى سلطة الفرد .

ربما كانت الآراء تختلف بيننا وبيننا ، وربما كانت الأفكار تتنافر حول القضايا المعروضة ولكن الأمر في نهايته كان يقتضي من القائد أمّا تطويع زملائه لآرائه وأفكاره ، والصبر على مناقشاتهم حتى تتوفر لهم في النهاية وحدة فكرية في القضايا الاستراتيجية الكبيرة وأما التخلص منهم لينفراد برأيه سواء أكان أكثر صوابا أم أكثر دلفاعا .

والواقع أن جمال عبد الناصر طوال فترة وجود مجلس قيادة الثورة كان يحريصا على أن تأخذ المناقشات غايتها وأن تمتد وتطول حتى يصفى كل المواقف والآراء المعارضة له بالحجة والاقناع الأمر الذي جعل معظم قرارات المجلس تصدر بالاجماع كما يؤكد زكريا محيي الدين اذا استثنينا بعض القرارات التي صدرت في عهد ولاية محمد نجيب لرئاسة الجمهورية ووجود يوسف صديق وخالد محيي الدين في المجلس .

كانت الشعبية الجارفة التي رفعت جمال عبد الناصر الى القمة قد جعلته في مركز الواصل من سلامة رأيه وصحة رؤيته .

أول وزارة شكلها جمال عبد الناصر باعتباره رئيسا شرعيا للجمهورية صدرت مراسيمها يوم ٢٦ يونيو باعتبارها القرار الجمهوري رقم ١ وخرج منها جمال سالم نائب رئيس الوزراء ، وخرج منها أيضا حسن إبراهيم وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية ، ودخلها عبد الحكيم عامر وزيرا للخربية ، وثقّض عدد العسكريين فيها من ستة الى خمسة كلهم من أعضاء المجلس ، ويلاحظ انهم أخذوا أسبقية خاصة على الوزراء المدنيين السابقين لهم في التعيين ، مما يعد نوعا من تثبيت وضع خاص لهم بعد حل مجلس القيادة أول الوزراء في القرار الجمهوري كان عبد اللطيف البغدادي يليه زكريا محيي الدين ثم حسين الشافعي فبعد الحكيم عامر وكمال الدين حسين

تحول الوضع الرسمي لأعضاء مجلس قيادة الثورة ، الى أقدم وزراء في المجلس

وانتهت العوازل التي كان يمكن ان تصور حركة ٢٢ يوليو باعتبارها انقلابا عسكريا ، كما صورت يوم وقوعها ، ويوم اجساد الدكتور راشد .

البدر اوى كتابه المعروف (حقيقة الانقلاب الأخير فى مصر) ، فالانقلاب حدث عارض لا يغير نظام الحكم وانما يستبدل شخصية الحكام ولا يقوم على مساندة شعبية ، وانما يعتمد على سطوة القوة العسكرية .

أما حركة ٢٣ يوليو فقد بدأت ولها كل مظاهر الانقلاب الا انها فى مسارها أخذت طابع الثورة .

ومنذ البداية لم تكن انقلاب جنرالات يمالئ نظام الحكم القائم ويحافظ على استمراره . . وانما كانت انقلاب صغار الضباط الذين وقفوا منذ البداية ضد النظام ومع التغيير .

صحيح انها لا تحمل أسلوب ثورة ١٤ يوليو ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) ولا ثورة ٧ نوفمبر ١٩١٧ فى روسيا (الثورة الاشتراكية العظمى) لانها لم تقم بجماهير الشعب ، رغم حصولها على تأييد منذ اللحظة الأولى نتيجة لفساد الحكم الملكى السابق .

سنوات الصدام مع القوى السياسية المختلفة (الوفد والشيوعيين والاخوان المسلمين والعناصر المعارضة فى صفوف الجيش) دفعها الى اتخاذ اجراءات ادارية اعطتها طابعاً عسكرياً قاسياً ، الى جانب انها اقتصررت فى حركتها منذ اللحظة الأولى على حركة القوات المسلحة وتجنبت التفاعل مع الجماهير الشعبية فى حذر .

وكانت أزمة مارس ١٩٥٤ التى أطاحت بمحمد نجيب رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، وحاصرتة رئيسا شكلياً للجمهورية لمدة شهر ثم خرج بقلعة فى ١٧ نوفمبر أثناء الصدام مع الإخوان المسلمين وبدء محاكمتهم بعد محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٥٤ . . أزمة ذات وجهين .

جماهير الشعب خرجت فى فبراير تؤيد محمد نجيب بعد استقالته ، وتجبر مجلس قيادة الثورة على إعادته ، وقبل ان تمضى عدة أسابيع كانت هيئة التحرير وبعض الضباط الموالين للمجلس قد استطاعوا تحريك جانب آخر من الجماهير بمساعدة صاوى أحمد صاوى سكرتير اتحاد عمال النقل حتى وصل الأمر الى حد التظاهر والاضراب . . الأمر الذى سهل لهم انتزاع نجيب من موقعه والرجوع عن قرارات ٥ مارس أى ٢٥ مارس المعروفة (انظر الجزء الأول) .

هذا الحدث فى ذاته ، ورغم دور الجماهير فى دعم وجود المجلس واستمراره ، ترك تأثيراً مباشراً فى جمال عبد الناصر إذ أشعره بأنه يمكن التلاعب بالجماهير وانها أمام القوات المسلحة يصبح دورها مجنوداً . . .

قال جمال عبد الناصر لعدد كبير من أصدقائه ومنهم خالد محيي الدين
ان الخروج من أزمة مارس لم يكلفهم سوى عشرة آلاف من الجنيهات
دفعت للمتظاهرين والمضربين .

وقال لأكرم الحوراني في مناقشة (لا تحدثني عن الشعب فاني أعرف
كيف تتحرك الجماهير) !

ولكن الثورة مع ذلك كانت تكسب تأييد الجماهير بلا ضغط يوما بعد
يوم من خطواتها الوطنية ، حتى ارتبطت مع الشعب تماما في مواجهة
العدوان الثلاثي ، وأصبحت تستحق أن يطلق عليها اسم (الثورة) لأنها
تحولت الى قيادة حقيقية قادرة على تحريك الجماهير ، معبرة عن ارادتهم ،
مناخلة عن أهدافهم ...

وهكذا تحول الانقلاب الى ثورة ، ودخل ٢٣ يوليو في تاريخ ثورات
التحرر الوطني ...

وتأكدت زعامة جمال عبد الناصر وأصبح يتلقى مئات الرسائل في
اليوم الواحد ، وانحسرت محاولات الانقلاب عليه ، وتراجعت في مواجهة
التأييد الشعبي الهائل ... ولم تضبط الا محاولة قام بها القائمقام عاطف
نصار الملحق العسكري بالهند ، متعاوناً مع خمسة مدنيين منهم محمد صلاح
الدين وزير الخارجية وعبد الفتاح حسن وزير الدولة في وزارة الوفد وستة
من ضباط الجيش بالاسكندرية ، وقدمت للمحكمة العسكرية العليا يوم
٢٠ أكتوبر ١٩٥٧ ، وصدر فيها الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدية على عاطف
نصار ، ومحمد صلاح الدين ١٥ سنة وعبد الفتاح حسن ١٢ سنة وعلى
الباقين بأحكام مختلفة وبراءة اثنين .

وضبطت مؤامرة أخرى تولتها ادارة المخابرات البريطانية واشترك
فيها ضابط سابق (حسين خيرى) ، اتصل بأحد ضباط مخابرات الطيران
(عصام خليل) وموله بمبالغ بلغت جملتها ١٦٥ ألف جنيه من أجل إعادة
الملكية لمصر ... وقد نظرت القضية أمام المحكمة العسكرية العليا ، وأصدرت
الحكم يوم ٢٨ ابريل ١٩٥٨ على مرتضى المراغى وزير الداخلية السابق في
وزارة نجيب الهاللى وحسين خيرى بالاشغال الشاقة المؤبدية ، ومحمود
ناموق ١٥ سنة ، وكانت الأحكام غيابية لوجوده خارج القطر ... وقد قبض
بعد ذلك بشهور على محمود ناموق في بغداد عقب ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨
في العراق .

ولكن الموقف في صفوف الجيش كان قد هتدا واستقر ، ولم تعد
المحاولات الانقلابية ، ترتبط بعدد واسع من الضباط ... لم تعد في صورتها.

التي كانت بها قبل تصفية محمد نجيب وثبوت سلطة عبد الحكيم عامر ،
الذي كان مفروضا أن يحاسب عسكريا على موقفه من القوات المسلحة في
عدوان ١٩٥٦ التي ثبت يقينا إنها لم تؤد دورها كما يجب مع تقدير وجودها
في رحلة انتقال في التسليح والتدريب والتنظيم والعقيدة القتالية ، كما
سيأتى شرحه تفصيلا فيما بعد .

كان قانون التجنيد الذي صدر عام ١٩٤٧ قد تغير مرة أخرى عام
١٩٥٥ بصدر القانون رقم ٥٠٥ الذي رفع الحد الأدنى لذوى المؤهلات
ليكونوا من حملة القانون العامة بخدمة سنة ونصف . وخفض مدة الخدمة
لخريجي الجامعات لتكون سنة واحدة يعدون ليكونوا ضباط احتياط ،
وزاد سن تأجيل التجنيد ليصبح ٢٩ سنة ، ٩ شهور .

ولم تكن الفرصة كافية لجنى ثمار هذا القانون اذ صدر قبل عدوان
١٩٥٦ يوم واحد ، تماما كما صدر قانون ١٩٤٧ للتجنيد قبل عام واحد من
حرب فلسطين ٠٠٠ الأمر الذي لم يجعل لهما تأثيرا كبيرا على مستوى الجيش
من ناحية القتال الحديث . ولعل هذا كان عذر المشير عامر .

يقول عبد اللطيف البغدادى وحسن ابراهيم انه تقرر فى ذلك الوقت
عزل قائد القوات الجوية محمد صدقى محمود ، ويقول زكريا محيى الدين
انه كان هناك قرار بعزل قيادة القوات البرية والبحرية والجوية ، ولكن
عبد الحكيم عامر تشبث بهم ورفض اخراجهم .

ووافق جمال عبد الناصر ولم يأخذ موقفا حاسما فى مواجهة الأخطاء
كما أخذ موقفا حاسما فى مواجهة الأعداء .

واذا كان التهاون قد بدأ فى محاسبة العسكريين فى المواقف الوطنية
فانه لا بد وان ينسحب الى التهاون أيضا فى محاسبة الآخرين فى المجالات
المختلفة ، اذا وجدوا من يدافع عنهم ، ليس أمام القضاء ، ولكن أمام
السلطة .

وصعب ان يضع الكاتب نفسه فى مقعد القاضي ، ولكنه أمر معروف
فى كل الجيوش ان القائد المهزوم لا يجوز له ان يواصل القيادة فى موقعه .

كان استثناء عبد الحكيم عامر من المحاسبة والابقاء على قيادة القوات
الثلاث ، راجعا الى الطبيعة الخاصة فى علاقات جمال عبد الناصر بزميل
عمره وموضع ثقته وراجعا أيضا الى ان الظروف التى وضع من أجلها
عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة وهو غير مؤهل لذلك ما زالت

قائمة ... الرغبة في السيطرة على القوات المسلحة بكل تفاصيلها عن طريق أشد زملائه إخلاصا له .

كان جمال عبد الناصر ما زال يعتمد على الجيش كمؤسسته الرئيسية رغم انتصاراته الشعبية ، ورغم انه بدأ يخلع مع زملائه ملابسهم العسكرية بعد انتهاء فترة الانتقال .

وكان في ذلك أكثر ميلا الى الرأي القائل بأن الجيش هو القوة الوطنية (الجامعة والوحيدة) القادرة على تزعم ثورة التحرر الوطني ، وهو الرأي الذي يتعارض تماما مع القول بأن السلطة السياسية الناتجة عن الانقلاب العسكري هي سلطة رجعية وعسكرية .

والواقع ان الرأيين لا يمثلان حقيقة الواقع في مصر في ذلك الوقت ، فالرأي الأول ينفي وجود قوى سياسية أخرى قادرة على تزعم حركة التحرر الوطني وهو أمر غير صحيح ... والرأي الثاني يدين كل حركة عسكرية بأنها رجعية وانقلابية ولا تحصل بدورا وطنية تقدمية ... وهو أمر غير صحيح أيضا .

الجيش كانت تتعايش فيه الأفكار المختلفة الموجودة في المجتمع الأمر الذي دفع أصحاب كل اتجاه الى محاولة السيطرة على الجيش وبالتالي على المجتمع .

والجيش ليس طبقة أو فئة اجتماعية واحدة ، كما انه ليس جهازا معزولا عن عمليات الصراع الطبقي .

ولكن الجنود في الجيش المصري لم يتحركوا كقوة مستقلة ، ولم يدخلوا حركة الصراع الوطني والطبقي مستقلين عن قيادتهم كما حدث مثلا في ثورتى فبراير وأكتوبر ١٩١٧ في روسيا ، عندما تصرف الجنود كفلاحين يحملون السلاح ..

الجنود المصريون كانوا خاضعين تماما لسلطة الضباط .

وكان جمال عبد الناصر واعيا بحركة الصراع داخل الجيش وقد حاول حسمها لصالح مجلس القيادة في السنوات الأولى التي أعقبت الحركة ، واضطر في سبيل ذلك الى اتخاذ إجراءات عنيفة أحيانا .

ولكنه وقد وقف على قمة التأييد الشعبي بدأ يخلع انتصاره الذين استنفدوا أغراضهم ، والذين شوهت صورتهم أمام الجماهير في اندفاعهم الحماسي المحموم ، والذي وقف أفكارهم عند حدود دورهم المرسوم بلا رؤية جديدة ولا ادراك عميق لطبيعة الصراع في المجتمع وأفاق التطور .

وتساقطت فى هذه الفترة اسماء كان الشعب قد فاض به الكيل من كثرة ما سمعه عنها وما لمسسه من تصرفاتها . . . جمال سالم الذى كانت له مع كبار الموظفين والاداريين اعتداءات وتصرفات مثيرة للدهشة البالغة ، وكانت له فى محكمة الثورة أساليب وعبارات فى غاية القسوة . . . أحمد أنور قائد البوليس الحربى الذى اقترن اسمه بالاعتقالات والتعذيب بعد ان وزعت قواته على تشكيلات الجيش المختلفة . . . ابراهيم الطحاوى وأحمد عبد الله طعيمه وهما اللذان أوكل اليهما الاشراف على هيئة التحرير دون خبرة سياسية سابقة مما جعل اسمهما معاً محل تنذر بعض الناس .

بدأت هذه الأسماء تتساقط . . . رغم أدوارها البارزة فى دفع عجلة الثورة للأمام وتأكيد سلطة العسكريين ، وتغليب كفة مجلس القيادة فى أزمة مارس ١٩٥٤ وضرب القوى السياسية المعارضة . . . وظهرت أسماء أخرى من العسكريين أيضاً .

تساقطت هذه الأسماء ومعهما اجهزتها . . . الشرطة العسكرية وهيئة التحرير . وكان هذا من دوافع تحول الانقلاب الى ثورة .

وكانت هذه الأجهزة من معوقات الارتباط بين الشعب والعسكريين فالشرطة العسكرية كانت صورة العذاب والارهاب بعد ان أعطى لضباطها صفة الضبطية القضائية بعد اعتراض المحامين فى كثير من القضايا . . . وهيئة التحرير عجزت عن اكتساب ثقة الجماهير .

ومع بداية تطبيق الدستور وانتخاب جمال عبد الناصر كانت معظم المعتقلات قد صغيت وخرج المعتقلون منها . . . أفرج عن يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة السابق بعد اعتقال استمر ١٣ شهراً فى مايو ١٩٥٥ وأفرج بعدها بأيام عن زوجته أيضاً وكانت عضوة فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) . . . وظلا بعدها فى تحديد الإقامة حتى منتصف عام ١٩٥٦ حيث أفرج عنه .

الوحيد من العسكريين الذى ظلت اقامته محدودة ، غير المحكوم عليهم بالسجن كان اللواء محمد نجيب .

كانت هناك انفراجه نسبية فى موضوع المعتقلين والمعتقلات ، ويذكر انه حتى هذه الفترة وما بعدها لم تخل معسكرات الاعتقال من نزلاء تنفخ الوانهم السياسية تبعاً للظروف .

كان الاعتقال بلا تحقيق ، أمراً ادارياً بسيطاً كاد من تكراره لبعض الشخصيات ان يصبح من روتين حياتهم . . .

واجهزة الأمن منذ ٢٣ يوليو تنمو وتزدهر . . . الذي أوكلت إليه مسئوليتها منذ البداية كان زكريا محيي الدين ، وهو يقول ان ذلك قد تم مصادفة . عندما كان أعضاء المجلس يتولون في البداية وتوزيع المسئوليات فيما بينهم . . . جمال سالم للاقتصاد وعبد اللطيف البغدادي للتعمير والشئون البلدية وصالح سالم للسودان وعبد المنعم أمين لشئون العمال ويوسف صديق للأوقاف ، وخالد محيي الدين للصناعة والصحة وهكذا .

قدم الأمريكيون منذ اللحظة الأولى خبرتهم لتنظيم المخابرات بعد ان كانت في عهد الملك محدودة الأثر محصورة في البوليس السياسي الذي كان يشرف عليه ماجور سانسون الذي أسس جمعية (اخوان الحرية) المتصلة بالمخابرات البريطانية ، والذي أصبح فيما بعد ضابط أمن بالسفارة البريطانية حتى رحل عن مصر فجأة يوم ٣١ يناير ١٩٥٣ كما نشرت الصحف المصرية وعين بعد ذلك في ليبيا وألف كتابا عن حياته في مصر باسم (تجسست على الجواسيس) .

قبل ٢٣ يوليو ، لم يكن هناك جهاز أمن يعرف باسم المخابرات العامة وكان عدد ضباط المخابرات الحزبية في الجيش ١٥ ضابطا فقط ، وعدد ضباط القسم المخصص بالبوليس السياسي ٢٤ ضابطا .

وقد استعان زكريا محيي الدين بعدد من الخبراء الألمان الى جانب تقارير المخابرات المركزية الأمريكية التي كانت تقترح توحيد اجهزة الأمن .

وأعد زكريا محيي الدين مشروع قانون المخابرات على أساس الهيمنة على كافة اجهزة المخابرات في ادارة واحدة منعاً لاذدواج الجهد وكثرة التكاليف . . . وهذا لا يعنى ضمها في جهاز واحد وانما يعنى التنسيق بينها بفكر ورأى واحد . . .

وقد تحقق ذلك فعلا لفترة محدودة . . . وكان زكريا محيي الدين هو المشرف على كافة اجهزة الأمن القائمة في ذلك الوقت (المخابرات العامة - مخابرات الجيش - المباحث العامة بالداخلية) .

ولم يستمر ذلك الأمر طويلا فقد بذات الإرادات المختلفة تتجاذب اجهزة المخابرات وبدأ ذلك بالقوات المسلحة عقب تولي عبد الحكيم عامر القيادة العامة ، فانفصلت مخابرات الجيش عام ١٩٥٥ . . . وتكونت فيما بعد مخابرات أخرى منفصلة للقوات الجوية . . .

وعندما عين زكريا محيي الدين وزيرا للداخلية ترك الإشراف على ادارة المخابرات العامة بعد عدة شهور ، وعين على صبرى نائبا لمديرها . ثم مديرا لها في يونيو ١٩٥٦ .

كان ضباط المخابرات العامة قد تحولوا الى مدنيين فى سبتمبر ١٩٥٥ ،
وانشئ فى نفس العام المعهد الاستراتيجى بجوار برج القاهرة الذى دفعت
المخابرات المركزية الأمريكية ثمن انشائه - ٣ ملايين دولار - كما سبق
ذكره . . . وكانت تدرس فيه محاضرات المخابرات المركزية الأمريكية عن
طريق شركة بوز آلف وهاملتون لضباط المخابرات والمباحث وضباط أمن
الوزارات وبعض أعضاء السلك الدبلوماسى بالخارجية ، وذلك حسب
رواية فريد طولان مدير المعهد فى ذلك الوقت .

كان النموذج الأمريكى هو المثال الذى تهتدى به أجهزة المباحث
والمخابرات فى ذلك الوقت ، وقد تسربت أجهزة المخابرات الأمريكية الى
بعض ضباط هذه الادارات ، كما حدث عندما ذهب البكباشى أحمد حلمى
مدير قسم مكافحة الشيوعية بالمباحث العامة الى أمريكا لعمل غير معروف
دون استئذان أو ابلاغ الجهات المختصة اذ كان قد أبلغ بأنه يمضى أجازته
السنوية فى قبرص وشوهد هناك مصادفة ولما علم زكريا محيى الدين
بذلك أصدر قرارا بأحالة الى الاستبداع حيث بقي لمدة عام ، وانتقل بعد
ذلك الى أجهزة البوليس العادية بغير محاكمة .

حدث التسرب الأمريكى رغم ان وزارة الداخلية لم تحتفظ فى
المباحث العامة سوى بأربعة ضباط فقط من رجال البوليس السيناى
السابقين ، ورغم ان العسكريين فرضوا اشرافهم على وزارة الداخلية منذ
الأيام الأولى ، حيث تبادل هذه المسئولية عدد من ضباط الجيش مثل
البكباشى مصطفى لطفى الذى عين فى الخارجية وتدرج فى مناصبها حتى
أصبح وكيلا للوزارة ثم اليوزباشى محيى الدين أبو العز الذى أشرف على
تكوين المباحث العامة وعين محافظا للقيوم ، وعندما تولى جمال عبد الناصر
وزارة الداخلية عقب اعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ودخول أربعة
من أعضاء المجلس الى الوزارة ، أعطى صلاحيات كبيرة ليوزباشى البوليس
صلاح الدين دسوقى الذى انتهى محافظا للقاهرة .

كان جمال عبد الناصر يعتمد على أجهزة الأمن ولكنه يشك فى سلامة
موقفها واخلاصها للثورة ، كما يشك أيضا فى قدرة أفرادها على متابعة
أفكاره ، ويشك أخيرا فى احتمال وجود صلة بين بعض ضباطها وأجهزة
المخابرات الأجنبية .

كانت هذه الشكوك تعيش فى نفسه ، وتنمو مع الوقت ولعل هذا
الشعور هو الذى دفعه الى الموافقة على تعدد أجهزة الأمن والمخابرات
بقيادات مختلفة ، بحيث تصب كافة معلوماتها فى النهاية عنده وحده . . .
بل انه أنشأ فى مكتبه فيما بعد جهازا خاصا للمخابرات والعمليات
والاتصالات الخاصة ، كان يشرف عليه سكرتيره الخاص للمعلومات سامى

شرف ، دون تبعيته لاي جهاز آخر من أجهزة الأمن ... الأمر الذي يدل على عدم ثقة عبد الناصر الكاملة في هذه الأجهزة والذي خلق ازدواجية متكررة ، وكبد الدولة تكاليف باهظة .

كان جمال عبد الناصر مؤمنا ومعتقدا بأن أجهزة الأمن لا تسير في خط متوافق مع أفكاره ، وكان يقول ساخرا - حسب رواية أحمد أنور وحسين عرفة - (لولا اننى رئيس للجمهورية وقلت الكلام ده ، كانت المباحث حطتنى فى السجن) ومع ذلك لم يبذل جهدا ايجابيا لتسييس أجهزة الأمن ، بل انها نمت واتسع نفوذها بايديولوجيتها الجامدة المتخلفة ، ووسائلها الوحشية ، وأطماعها الذاتية .

وعندما كلف مدير مكتبه أحمد لطفى وأكد بالاتصال بالسوفييت اتصالا سريا قبل باندونج ، حذره من خطر معرفة المباحث والمخابرات لهذه الاتصالات ، واستدعاه مرة الى منزله في حضور عبد الحكيم عامر ليشهده بأنه كلف لطفى وأكد بهذه الاتصالات ، حتى لا يتهم بالاتصال بجهات أجنبية في حالة اذا ما تعرض جمال عبد الناصر نفسه للخطر أو الموت .

ولازمت هذه الحالة جمال عبد الناصر لسنوات طويلة ، حتى انه لما فكر في تطبيق الميثاق عام ١٩٦٣ وتشكيل طليعة الاشتراكيين داخل الاتحاد الاشتراكي ، حرص على أن تكون تنظيما سريا بعيدا عن رؤية المباحث والمخابرات ، رغم انه كان يهدف قيما بعد الى الدمج بينهما بتوحيد شخصية أمين التنظيم ووزير الداخلية في شعراوي جمعه .

وكان هذا موقفا انفصاليا من جمال عبد الناصر ... يعتمد على أجهزة للأمن لا يثق في قيادتها ولكنه يعتمد على تقاريرها ...

وقد أخذ نفوذ أجهزة الأمن المتعددة ينمو ويسنشى وخاصة في الجيش حيث أصبح الضباط مطاردين بعناصر منهم منبثة في صفوفهم . تدفع الجميع الى الحذر والحرص ثم ايثار السلبية والبعد عن السياسة . كان تنظيم الضباط الأحرار قد انتهى تماما كما سبق أن أوضحنا ، ولم يعد هناك أى ارتباط تنظيمى داخل الجيش الا تنظيم أجهزة الأمن والمخابرات .

وانفضت أيضا الرابطة التنظيمية لأعضاء مجلس القيادة ، وانفرطت مسبحة تنظيمهم ، وأصبحوا أفرادا تتنازعهم أفكارهم ومواقفهم الخاصة ... وأصبح جمال عبد الناصر هو القوة الوحيدة القادرة على اعطائهم فرص العمل التى يراها مناسبة لهم سواء فى الوزارة أو خارجها .

أول الذين عهد اليهم بعمل خاص كان صلاح سالم الذى تولى رئاسة مجلس ادارة جريدة (الشعب) الجريدة الثانية للثورة بعد (الجمهورية)

التي رأسها أنور السادات وبعد مجلة (التحرير) التي أصدرتها ورأست تحريرها في ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ .

ولم يبق صلاح سالم طويلا في منصبه فقد أقيل بعد موقفه أثناء فترة العدوان الثلاثي ب خطاب جاء فيه (هناك مواضيع ليس من المصلحة أن تخوض فيها الآن مما يدعو الى الاستغناء عن خدماتك) . وظل في منزله بلا عمل حتى أعيد لميدان الصحافة مرة أخرى رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير للطبع والنشر في ٨ مارس ١٩٥٩ .

وعين جمال عبد الناصر خالد محيي الدين أيضا رئيسا لمجلس إدارة (المساء) التي صدرت يوم ٦ أكتوبر ١٩٥٦ وبذا أصبح للثورة ثلاث جرائد يومية ومجلة اسبوعية وأخرى شهرية باسم (نداء الوطن) أصدرها أمين شاكرا مدير مكتبه فيما بعد .

كان اهتمام جمال عبد الناصر بالسيطرة على أجهزة الاعلام والصحافة أمرا ملحوظا . بل ان تعييناته في مجال الصحافة كانت تعتبر احساسا للتنبؤ بحركته السياسية في المستقبل .

لم يتوقف تعيين جمال عبد الناصر لزملائه أعضاء المجلس عند حدود الصحافة ، بل عينهم في المراكز الدينية أيضا .

عين أنور السادات سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامي ، ولحقه فيه مساعدا له أمين شاكرا ثم حسن التهامي . ووصل الأمر الى تولى عبد الحكيم عامر تنظيم الطرق الصوفية مع الغاء القيود التي كانت مفروضة على تسيير هذه المواكب كما نشرت الأهرام يوم ١٨ مارس ١٩٥٥ .

وحتى نهاية فترة الانتقال كان الضباط الأحرار يحتفظون برتبهم في الجيش الا الذين حوكموا منهم أو أبعدها ، وتحدثت نشرة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ باعتبارها آخر نشرة عسكرية يمكن للضباط الذين يرغبون في الخروج من خدمة الجيش أن يلحقوا بها .

وفضل بعض الضباط أن يخرجوا من صفوف الجيش لممارسة حياة مدنية ، وكان مفروضا ان تغلق أبواب الخروج بعد ذلك .

ولكن نشرة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ أو نهاية فترة الانتقال لم تكن حدا فاصلا ، ولم تكن حاجزا يحول دون تسرب الضباط الى الحياة المدنية .

لم يتوقف زحف الضباط على الحياة المدنية تحت اغراء ما توفره لهم من حرية ومكافأة مادية تزيد عن مرتباتهم المقيدة بقواعد الترقية العسكرية .

وانتشر الضباط فى مختلف المجالات ولكنهم تركزوا أساسا فى عدة جهات . . . أجهزة العمل السياسى والخارجية وشركات التجارة والصناعة .

ولم يكن خروج الضباط من الجيش يتخذ موقفا طبقيا يخلص الجيش من العناصر المضادة أو مقرونا بكفاءتهم وقدرتهم على الانتاج فى الأعمال التى كلفوا بها . . . ولكنه اذا استثنينا الضباط الأحرار الذين كانت صلتهم بالعمل السياسى قد جعلت عودتهم لقيود الجيش عملية صعبة ، كان الخروج يتم تحت تأثير عدة عوامل .

أولا : الرغبة فى تقديم خدمة لبعض الضباط من الأصدقاء المقربين .

ثانيا : الرغبة فى التخلص من بعض العناصر التى لا تفكر فى تدبير انقلاب ولكنها ليست من الانتهازيين والمنافقين مما يجعل لها شخصية بارزة .

ثالثا : تطهير الجيش من بعض العناصر سيئة السلوك والتى لا سند لها .

رابعا : الاستفادة من بعض العناصر التى تولت أعمالا مدنية وأثبتت فيها كفاءة مرضية خلال السنوات الأولى للثورة .

تحت ضغط هذه العوامل الأربعة استمر تيار الخروج متدفقا من الجيش لا يتوقف رغم تصريح أنور السادات لجريدة المصرى يوم ٧ يوليو ١٩٥٣ بأن أحدا من العسكريين لن يعين فى منصب مدنى .

واستمرت قيسادة الضباط للتنظيم السياسى الجديد فعين كمال الدين حسين مشرفا عاما على الاتحاد القومى ، بعد أنور السادات سكرتيره العام الذى عين وكيلًا لمجلس الأمة .

وزع الضباط أيضا فى أول برلمان منتخب بعد ٢٣ يوليو .

وتبعًا لمواد الدستور الجديد وقانون الانتخاب الذى صدر فى ٣ مارس ١٩٥٦ خفض سن الناخب الى ١٨ سنة بعد ان كان ٢١ سنة لانتخاب النواب ، ٢٥ سنة لانتخاب الشيوخ وأعطى للمرأة حق الانتخاب لأول مرة فى تاريخ مصر . . . ومنح العسكريون أيضا حق الانتخاب وصدر قانون عضوية مجلس الأمة فى ١١ يونيو لانتخاب مجلس مؤلف من ٣٥٠ عضوا بدلا عن مجلس للشيوخ والنواب وحدد سن العضو بثلاثين سنة على الأقل مع خفض قيمة تأمين الترشيح من ١٥٠ جنيها الى ٥٠ جنيها ، وتحديد المكافأة الشهرية بمبلغ ٧٥ جنيها .

صدرت التعليمات لعدد من الضباط بترشيح أنفسهم فى دوائر معينة ، حتى فى الدوائر البعيدة مثل الوادى الجديد (محمد أبو نار)

وسيناء (فتحي رزق) ومرسى مطروح (فؤاد المهداوى) . . . وشكلت لجنة خاصة من العسكريين ضمت زكريا محيى الدين وعلى صبرى وعدد من ضباط المخابرات لفرز الترشيحات للمجلس واستبعاد الذين لا يتلاءمون مع ارادة السلطة العسكرية .

وقد استبعد نتيجة لذلك عدد كبير من المرشحين . . . وعلى سبيل المثال شطب حق الترشيح فى دائرة (نكلا العنب) البخيرة من تسعة مرشحين كنت واحدا منهم لتقفل الدائرة على فتحي الشرقاوى المحامى .
لم تكن المسألة هى إدخال الضباط للمجلس . . . وانما إدخال الضباط الموالين والسائرين فى ركب السلطة ، تجنباً للمعارضة . . .

وهكذا قضى منذ البداية على فرصة وجود معارضة بعد ان اعطى الدستور للاتحاد القومى حق الاعتراض على المرشحين . . . وقد اعترض على ١١٨٨ من ٢٥٠٨ مرشحين .

اجريت الانتخابات فى هذا المجلس بحرية نسبية دون تدخل واغلقت كافة الدوائر التى رشح فيها أعضاء مجلس قيادة الثورة تجنباً لاتهامات بالتزوير ومواجهة صريحة للجماهير بالرغبة فى ادخالهم الى مجلس الأمة . . . وأصدر وزير الداخلية زكريا محيى الدين أوامره بالحياد المطلق بين كافة المرشحين . وكان دليل ذلك سقوط والد كمال الدين حسين فى القليوبية وسقوط شقيق زوجة زكريا محيى الدين نفسه فى الشرقية .

عدد الدوائر التى أغلقت كانت ٤٣ دائرة وعدد الضباط من الجيش والبوليس الذين دخلوا مجلس الأمة كانوا ٥٩ ضابطاً وقد انتخب عبد اللطيف البغدادى رئيساً للمجلس وأنور السادات وكيلاً له .

اضفى مجلس الأمة شرعية ديموقراطية على نظام الحكم ، ولكنه ظل فى مضمونه عسكرياً يقبض العسكريون فيه على زمام السلطة التى أصبحت تتركز فى يد جمال عبد الناصر .

أبرز أزمة فجرت تناقضات العسكريين داخل مجلس الأمة كانت أزمة مجدى حسنين ومديرية التحرير . . . وكان هو الذى أنشأها ثم طرد منها يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٧ بعد منعه لقوات البوليس من تنفيذ أمر صادر بإخلاء منطقة معروفة من سكانها وأعاد أثاث المنازل بعد اخراجه بالقوة باعتباره نائباً للمنطقة .

قدم عشرة نواب اقتراحاً بطرد مجدى حسنين من المجلس هو والنواب الدكتور محمود القاضى واسماعيل نجم المحامى والصاغ أحمد شفيق أبو عوف باعتبار ان مجدى حسنين قد أفسدهم بتعيينهم فى مديرية التحرير

... والدستور يعطى لمجلس الأمة حق الموافقة على ميزانية الحكومة ومصرفاتها ، وبذا كان في مقدوره ان يعترض على الحكومة التي يعينها رئيس الجمهورية الذي يعين بوساطة المجلس وتستفتى في شأنه الأمة ومع ذلك فللرئيس سلطة حل مجلس الأمة .

قرر عبد اللطيف البغدادي رئيس المجلس تشكيل لجنة دستورية للتحقيق على أن تنتهي منه خلال ٤٨ ساعة .

كان جمال عبد الناصر قد أظهر تخليه عن مجدى حسنين فتحمس ضده عدد كبير من أعضاء المجلس ... ولكن مراجعته للموقف واستماعه لبعض الضباط جعله يعتقد أن قرار فصل مجدى حسنين من مجلس الأمة سوف يعتبر ادانة لمشروع مديرية التحرير وهو الذى تحمس له عند افشائها باعتباره من مشاريع الثورة الهامة وشكل لها مجلس ادارة على مستوى عال برئاسة الدكتور عبد الرازق صدقي وزير الزراعة وعضوية الوزراء عبد اللطيف البغدادي وكمال حسين وأحمد الشرباصي وعبد الحكيم الرفاعي محافظ البنك الاهلي وأحمد فؤاد ووكيل وزارة الخزانة وعدد من أساتذة الزراعة في مصر ... وكان مجدى حسنين هو العضو المنتدب ووقف ضد رأى جمال سالم الذى كان يعارض اشراف الدولة على الزراعة والذى حمل لواء المعارضة في اجتماع مشترك لمجلس الثورة ومجلس الانتاج ومجموعة من مديرية التحرير دعا اليه عبد الناصر لمناقشة المشروع .

وبعد ان كان قد أبلغ البغدادي موافقته على فصل مجدى عاد فأبلغ بعض النواب العسكريين المقربين منه بعدم موافقته ... وهنا تحول تيار المجلس ، وفترت حماسة المهاجمين لمجدى حسنين وتحول بعضهم الى موقف التأييد نه والنداء عنه .

وعندما شعر عبد اللطيف البغدادي بهذا التحول وهو الذى كان على وشك تنفيذ اجراءات فصل مجدى حسنين ترك منصة الرئاسة وخطب في الأعضاء قائلا ان هناك خلاا دستوريا وتدخل من السلطة التنفيذية في شئون السلطة التشريعية .

طالب الأعضاء بأن تكون الجلسة سرية بعد ان أعلن البغدادي انها ستكون علنية ولذا قرر في نهايتها ان يستقيل معه مجموعة من أعضاء المجلس ... ولكنه فوجيء وهو في طريق عودته ومروره على منزل جمال عبد الناصر ان هؤلاء الأعضاء عنده .

وانتهت الأزمة بجلسة طويلة بين جمال عبد الناصر والبغدادي فسر له فيها جمال رأيه في احتمالات تطور الموقف بما أقنع البغدادي وأعاد الهدوء الى نفسه .

وانتهت أزمة مجلدى حسنين بعد ان عرض التحقيق على المجلس
ووقف بجانب مجلدى ٢٣٠ عضوا من ٣٥٠ هم عدد أعضاء المجلس .

وأسفرت هذه الأزمة عن ظهور التناقضات بين أعضاء مجلس القيادة
الى المجال العلنى بعد ان كانت مطوية فى نطاق السرية .

وقدم كمال الدين حسين الى عبد اللطيف البغدادى استقالته من
عضوية مجلس الأمة احتجاجا على تصرفات مجلدى حسنين ولكنه سحبها
بعد تدخل شخصى من جمال عبد الناصر .

لم تكن هذه أول استقالة لكمال الدين حسين ولكنها كانت الثالثة ...
قدم الأولى فى الشهر الأول من حركة ٢٣ يوليو دون أن يذكر بها أسبابا
معينة ... وقدم الاستقالة الثانية أثناء غياب جمال عبد الناصر فى
باندونج احتجاجا على بعض تصرفات جمال سالم .

أدت هذه المواقف والاستقالات المرفوضة الى زيادة اعتماد جمال
عبد الناصر على عناصر جديدة من العسكريين غير الذين أدوا أدوارهم فى
بداية الحركة ... ولملت أسماء لم تكن فى تنظيم الضباط الأحرار .
زحف العسكريين نحو السلطة ، يأخذ طابعا جديدا .

وفى الوزارة التى شكلت يوم ٦ مارس ١٩٥٨ عين على صبرى وزيرا
لشئون رئاسة الجمهورية . واللواء فتحى رزق نائبا لوزير الحرية وكمال
الدين رفعت نائبا لوزير شؤون رئاسة الجمهورية .

وكان هذا بداية تسرب العسكريين من خارج مجلس قيادة الثورة
الى مراكز السلطة الرئيسية فتح الباب بعده لمزيد من التعيينات . فضمت
الحكومة المركزية التى شكلت فى ٧ أكتوبر من نفس العام ١٩٥٨ حسين
ذو الفقار صبرى نائبا لوزير الخارجية ومحمد عبد القادر حاتم نائبا
لوزير شؤون رئاسة الجمهورية بعد تعيين كمال رفعت وزيرا للدولة .

ودخل المجلس التنفيذى للأقليم المصرى فى نفس التاريخ الوزراء
العسكريون ثروت عكاشة للثقافة والارشاد القومى وعباس رضوان
للدخلى والدكتور محمد محمود نصار للصحة ومحمد توفيق عبد الفتاح
لشئون الاجتماعية وأحمد عبد الله طعيمة للأوقاف .

مثل هذه التعيينات الجديدة خلقت فارقا واسعا بين مركز السلطة
المتمثل فى جمال عبد الناصر وبين الذين عينوا وزراء ... فقد كان بعض
هؤلاء ومن جاء بعدهم أبعد ما يكونون عن السياسة ، ووصلهم الى
المسئولية الوزارية لم يكن عن طريق النضال السياسى وانما عن طريق
الاختيار الشخصى ... وبذا أصبحت تبعيتهم كاملة لشخصية الزعيم

وخاصة فى غيبة التنظيم السياسى الفعال ، حيث بدت تجربة الاتحاد القومى على انقراض هيئة التحرير هشة وغير جذابة للجماهير .

معظم المراكز القيادية والوزارات أخذت تسقط بالتدريج فى يد العسكريين واصبحوا هم الكادرات التى يعتمد عليها النظام . . .

ويقول ماكسيم رودنسون (احتاج الامر الى وقت أطول ليتبين أن الجيش جماعة أنانية متلهفة الى الاستمرار فى السلطة وإلى زيادة امتيازاتها ، وأنها بعيدة عن الطبقات العاملة لم يكن واردا حتى هذه اللحظة . . . وتعبير العسكريين عن أهدافها كان تصورا بعيدا عن الواقع والحقيقة .

بقى الجيش هو السند الرئيسى للنظام . . . وفى سبيل ذلك منح ضباطه كثيرا من الامتيازات .

ارتفعت المرتبات بنسبة أسرع كثيرا من ارتفاع مرتبات خريجي الجامعة :

| الرتبة | المرتب عام ١٩٥٢ | المرتب ١٩٦٢ | المرتب عام ١٩٧٢ |
|-----------|-----------------|-------------|-----------------|
| عسكرى | ٦٩ قرشا شهريا | ٢٥٠ قرشا | ٣٠٠ قرش |
| ملازم ثان | ١٢ جنيها شهريا | ٢٠ جنيها | ٢٥ جنيها |
| لواء | ٩٠ جنيها شهريا | ١١٠ جنيها | ١٢٥ جنيها |

وتقررت للضباط بدلات جديدة مثل بدل التمثيل الذى كان قد قرر للوزراء ووكلائهم ورؤساء مجالس الادارة فى صورة مرتب الاستقبال (فريق ١٣٥٠ جنيها سنويا ، لواء ٧٥٠ جنيها سنويا ، عميد ٣٧٥ جنيها سنويا) للرتب الكبيرة فقط ، وارتفعت قيمة بدل السكن ، وبدل الاقامة فى محافظات أسوان والبحر الأحمر وقنا وسوهاج ، ومنح مرتب امتياز للخدمة برئاسة الجمهورية (يتراوح بين ١٤ جنيها شهريا لرتبة اللواء ، وعشرة جنيها شهريا للملازم والنفيب) .

كما زادت العلاوات عددا وقيمة . . أصبح هناك علاوة تدريس وعلاوة تعليم وعلاوة تشكيل وعلاوة مترجم . . الخ .

كانت هذه العلاوات والبدلات والمكافآت مرضية للضباط أصحاب الرتب الكبيرة ، وكانت تخلق فى نفس الوقت فروقا اجتماعية وطبقية حادة بين الضباط والمجندين ، تماما كما كانت الحال فى الجيش قبل الثورة ، ولكن بصورة أخف قليلا . . مع ضرورة مراعاة ارتفاع مستوى الجنود الاجتماعى بعد قانون تجنيد عام ١٩٥٥ .

وتقرر أيضا رفع سن الاحالة على المعاش (المشير ٦٥ سنة والفريق ٦٣ سنة واللواء ٦٠ سنة) وهكذا تتدرج تنازليا حتى تصل الى سن الخمسين لرتبة الرائد (الصاغ) ، ٤٤ للملازم .

وكانت شخصية عبد الحكيم عامر الذي حصل على رتبة المشير في أول يونيو ١٩٥٨ بعد الوحدة وأصبح نائبا لرئيس الجمهورية مساندة لهذا الاتجاه فهو بحكم تكوينه ودود ، يفتقد على كل من يلجأ اليه من الضباط ، ويهتم بالمسائل الاجتماعية أكثر من اهتمامه بالمسائل العسكرية . والمكتب العسكري الفني للقائد العام الذي ضم عددا من خيرة الضباط مثل حافظ اسماعيل ونور الدين قره ومحسن ادريس وعبد المحسن مرتجى وغيرهم لم تعد له سلطة أمام مكتب شئون الأفراد الذي يديره شمس بدران . . . ونقل معظم الأكفاء من المكتب إلى الوظائف المدنية بعد انفجار التناقضات والخلافات .

وكانت الحاشية التي أحاط المشير نفسه بها قد عرفت فيه هذه الصفحات فتبادت في سلوكها اللاأخلاقي واستغلت أموال الدولة أسوأ استغلال .

كل الذين اقتربوا من رجال مكتبه الذين كان يقودهم الصاغ على شفيق صفوت ، كانت تأخذهم الدهشة من الجموح المكشوف في مجال اللهو والبذخ المبالغ فيه ، الأمر الذي أثر تأثيرا شديدا على قمة القيادة العسكرية وانعكس على بقية مستويات الضباط .

وبقى الجيش هو المصدر الرئيسي لتوريد الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الإدارة ووكلاء البوزارات والسفراء وغيرهم من أصحاب المناصب الرئيسية يزداد ذلك وضوحا كلما مضت الأيام وخاصة في عهد الوحدة مع سوريا حيث ظهرت مناصب جديدة لنواب رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس تنفيذي في مصر وسوريا

وظهرت فئة جديدة من الضباط المؤهلين خريجي الجامعات وخاصة المهندسين الذين تدفقوا على الأعمال المدنية بعد بداية الحركة ثم وصلوا إلى مناصبها الرئيسية مع تعيين القائم مقام محمود يونس نائبا لرئيس هيئة قناة السويس واللواء المهندس عبد الوهاب البشري نائبا لوزير الحربية والصاغ صلاح هدايت خريج كلية العلوم أيضا وزيرا للبحث العلمي .

بدأ هؤلاء الضباط التكنوقراط يمثلون فئة جديدة من فئات السيلطة العليا

كما بدأ الضباط يتولون أعمالا بعيدة عن اختصاصاتهم ولا تدخل في مجال العمل السياسي وإنما تحتاج إلى تخصص وتأهيل فتولى في وزارة ١٨ أكتوبر ١٩٦١ بعد الانفصال كمال رفعت وزارة العمل

وعبد المحسن أبو النور وزارة الاصلاح الزراعى واصلاح الاراضى . . .
وأحمد عبد الله نوابا لرئيس الجمهورية واحتفظوا بأعمال تنفيذية مثل
عبد اللطيف البغدادى وزيرا للخزانة والتخطيط وذكريا محيى الدين
للدخلىة وعبد الحكيم عامر للحربية والقيسادة العامة وحسين الشافعى
للأوقاف والشئون الاجتماعية وكمال الدين حسين وزيرا للادارة المحلية
والاسكان والمرافق .

نقطة تحول

كان هذا هو الاتجاه حتى عين على صبرى رئيسا للمجلس التنفيذى.
فى مصر يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ بعد تشكيل مجلس الرئاسة من جمال
عبد الناصر رئيسا وعبد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر وذكريا محيى
الدين وحسين الشافعى وكمال الدين حسين نوابا لرئيس الجمهورية
وأنور السادات وحسن ابراهيم وعلى صبرى والدكتور نور الدين طراف
والمهندس الزراعى أحمد عبده الشرباصى وكمال الدين رفعت أعضاء .

كان لتعيين على صبرى رئيسا للجهاز التنفيذى بعد تشكيل مجلس
الرئاسة بداية لسحب السلطات التنفيذية والادارية من بين أعضاء مجلس
قيادة الثورة ، واقتصار عملهم على الشئون السياسية وما يعرض عليهم
من أمور فى محاولة شكلية للقيادة الجماعية ، ومحاولة فعلية للإشراف
المباشر على أعمال مجلس الوزراء عن طريق على صبرى . . . واعتبر ذلك
التاريخ نهاية فعلية لسلطات أعضاء المجلس المباشرة ولو فى مناصب وزارية
عدا عبد الحكيم عامر الذى ظل فى موقعه وزيرا للحربية حتى النهاية .
علل جمال عبد الناصر ذلك لذكريا محيى الدين بقوله ان وجودهم
فى المناصب التنفيذية يسبب له حساسيات ويضعف من ارادته فى
التغيير .

كما كان تعيين على صبرى رئيسا للمجلس التنفيذى أول تكليف
لعسكرى من خارج مجلس قيادة الثورة بعمل رئيسى وايدانا بالاستعانة
بعدد من العسكريين الجدد فى مناصب وزارية . . . لم يخرج أحد من
الوزراء العسكريين القدامى وإنما أضيف اليهم البكباشى طلعت خيرى
وزير دولة للشباب وعين عبد العظيم فهمى أول ضابط شرطة وزيرا
للدخلىة كما تم تعيين صدقى سليمان وزيرا للسد العالى فى وزارة ٢٥
مارس ١٩٦٤ ، ومحمود رياض وزيرا للخارجية ثم دخول شعراوى جمعه
وزيرا للدولة فى وزارة ذكريا محيى الدين أول أكتوبر ١٩٦٥ ومعه
عبد الفتاح حسن وزير دولة . . . وأحمد حمدي عبيد وزيرا للادارة
المحلية ، ونور الدين قره وزيرا للتموين والتجارة الدخلىة ، وأمين هويدى
وزيرا للإرشاد .

بلغت نسبة الضباط خلال الفترة التي أعقبت الانفصال أعلى نسبة في تاريخ الحركة .

مجلس الرئاسة ١٠ عسكريين من ١٢ عضوا بنسبة ١/٣ ٨٣٪ .
مجلس الوزراء أثناء رئاسة علي صبري ١٠ وزراء ونواب وزراء من ٢٩ عضوا بنسبة ١/٢ ٣٤٪ .

ثم ارتفعت النسبة في وزارة ٢٥ مارس ١٩٦٤ لتكون ٥٠٪ للعسكريين من بين رئيس الوزراء ونواب رئيس الوزراء رئيس الوزراء واحد عشر نائبا ٠٠ ولتصبح ٢٥٪ من الوزراء ٦ عسكريين ، ١٨ مدنيا .
ارتفعت هذه النسبة في وزارة زكريا محيي الدين لتصبح ١٠ وزراء عسكريين ، ١٦ مدنيا بنسبة ٣٩٪ تقريبا .

كان عدد الوزراء عموما أكثر مما تحمله طاقة مصر ٠٠٠ الوزارة البريطانية بعد الحرب كانت تشكل من ١٨ الى ١٦ وزيرا والوزارة الأمريكية تشكل من ١٢ وزيرا .

واضح من هذا الاعتماد المتدرج على العسكريين ان الجيش كان السند الحقيقي للسلطة وانه لم يكن هناك مصدر رئيسي آخر يعتمد عليه ٠٠٠ وان الوزارات التي ابتعد عنها العسكريون وتولاها مدنيون منذ بداية الحركة لم تتجاوز وزارة العدل والأشغال والاقتصاد فقط ٠٠٠ أما بقية الوزارات فقد مر عليها العسكريون في رحنة أو أخرى .

والعسكريون في عملهم لهم طبيعة خاصة ٠٠٠ وكل مهنة لها مواصفات معينة تجمع المنتمين اليها وتصيغهم بصيغتها .

والحياة العسكرية تنمى في الضباط الروح الفردية والطاعة لأن كل فرد في العسكريين له سلطة اصدار الأوامر على من هم أحدث منه ، وعليه واجب تنفيذ أوامر من هم أقدم منه بلا اعتراض أو مناقشة .

ومثل هذه الحياة تخلق في الضباط ما يسمى (عيوب المهنة) ولكل مهنة عيوبها كما لها فضائلها ٠٠٠ وهي عند الضباط تتمثل في هذا الالتزام الغريب بتنفيذ الأوامر ، وتجنب المناقشة أو عدم القدرة عليها ، والأنعزال عن المجتمع لارتباطهم غالبا بحياة المعسكرات ، ووجود صلات شخصية وثيقة بينهم لتواجدهم الدائم مع بعضهم وخاصة في المناطق الخارجية والنائية ، وعزوفهم عن الثقافة والقراءة الجادة حيث لا تلتزم حياتهم بذلك الا في حدود الشئون العسكرية .

الوجه الآخر للتشكيل المهني للضباط هو اجادتهم وتفوقهم في الأعمال الادارية ، وانضباطهم في تنفيذ التعليمات ٠٠٠ الأمر الذي يجعل

الشركات الصناعية في الخارج تستعين بكفاءة الضباط المتقاعدين في الأعمال الإدارية .

ولذا فإن استعانة مركز السلطة بالعسكريين كان اختيارا للطريق السهل بدلا من اختيار الطريق الصعب في تكوين كادرات من خارج الجيش عن طريق الانفتاح على الجماهير واثاحة الفرصة لظهور العناصر ذات الطاقات والمواهب .

وظاهرة أخرى هامة تشير الى نوعية الضباط المختارين لمنصب السلطة العليا معظمهم كانوا ضباطا في المخابرات العامة أو الحربية (علي صبري وكمال رفعت وطلعت خيري وثروت عكاشة وعبد القادر حاتم وشعراوي جمعه وأمين هويدى وتوفيق عبد الفتاح وعبد المحسن أبو النور) وبذا يمكن القول انه اذا استثنينا التكنوقراطيين مثل صدقي سليمان ومحمود يونس وعبد الوهاب البشري فإن بقية العسكريين كانوا من المدربين في أجهزة المخابرات المتخرجين فيها . . . الأمر الذي انعكس على أسلوبهم في الحكم ، حيث اعتمدوا على السرية والانغلاق والتقارير ولم يفتحوا انفتاحا حقيقيا على الجماهير .

كان مركز السلطة يحتم اهتماما مركزا برؤية ما يدور في المجتمع ليس عن طريق التفاعل الحيوى الطبيعي ، وانما عن طريق الرؤية المحدودة لأجهزة الأمن .

وكانت أجهزة الأمن والمخابرات تزداد في العدد والامكانيات المادية بصفة مستمرة

وكان طريق الوصول للسلطة هو كتابة التقارير . . . فهي معيار الاخلاص وميزان الولاء . . وكان مطلوبا من الجميع في مراكز السلطة ان يسهموا في ذلك كل على قدر طاقته .

وكان هذا دافعا أيضا الى اهتمام أجهزة العمل السياسي على مختلف تشكيلاتها (هيئة التحرير - الاتحاد القومي - الاتحاد الاشتراكي) بكتابة تقارير تسالده أجهزة الأمن في عملها .

ولم يقتصر هذا الأسلوب على العسكريين وحدهم وانما امتد الى المدنيين أيضا . . . عدد من الوزراء المدنيين كانوا يعملون ويتعاونون أصلا في المخابرات .

وكان هذا دافعا أيضا الى اهتمام أجهزة العمل السياسي على مختلف تشكيلاتها (هيئة التحرير - الاتحاد القومي - الاتحاد الاشتراكي) بكتابة تقارير وتعطى لمركز السلطة معلومات قد لا تصل اليها أجهزة الأمن ، أو تبرر لها صورة خافية أو مختلفة .

ويبدو أن ذلك كان قد أصبح قاعدة طبيعية ، وعملا مطلوباً من
الذين يعهد اليهم بأعمال مستولة .

قال جمال عبد الناصر للصاغ لطفى واكد عندما عهد اليه برئاسة
تحرير جريدة الشعب ، انه عندما طلب بعض المعلومات عن عدد من الوزراء
أحضرها له مصطفى أمين فى نصف ساعة ، بينما اقتضى ذلك من المخابرات
أكثر من اسبوع . . . وقال له ان هذا دليل على أن عنده جهاز معلومات
قادرا ونشيطا . . .

بعض المسئولين عن الصحف كانوا يلعبون دور أجهزة الأمن للمعلومات
أيضا .

وطلب من لطفى واكد ان يعد جهازا خاصا فى صحيفته للحصول على
مثل هذه المعلومات .

كانت بعض المؤسسات الصحفية تؤدي هذا الدور أيضا . . . وكانت
هذه التقارير هى سلم الترقى .

وهكذا نمت أجهزة الأمن والمعلومات واتسعت شبكاتها حتى كادت
تستوعب المجتمع كله . . . وفقد الناس الثقة فى بعضهم ، وبذر الخوف
فى قلوبهم ، فانعقدت السنتهم وآثروا الصمت والسلبية والبعد عن
المخاطر .

وفى هذا الجو تغلبت نظرية تغليب الاخلاص على الخبرة . . . ولم
يعد غريبا ظهور عنصر العسكريين وخاصة المرتبطين بأجهزة الأمن فى
مراكز تبعد تماما عن طبيعتهم ومعرفتهم . وكما حدث فى مناصب الوزراء
حدث فى كثير من المناصب الأخرى الحساسة .

أول تطبيق لنظام الإدارة المحلية وتعيين المحافظين صدر فى ١٠
سبتمبر ١٩٦٠ وشمل تعيين ٢١ محافظا منهم ١١ ضابط جيش ،
٥ ضباط شرطة فى مناصب المحافظين . . . وهى مناصب سياسية من درجة
نائب وزير يسقط شاغلوها مع انتهاء مدة رئيس الجمهورية ، والذي يخرج
منها يحال للمعاش دون تولي منصب آخر .

كان من بين المحافظين سبعة فقط من الضباط الأحرار (وحيه أباطة ،
حمدي عبيد ، اسماعيل فريد ، محمد البلتاجى ، محيى الدين أبو العز ،
جهدى عاشور ثم صلاح الدين دسوقي ضابط الشرطة الذى عين محافظا
للقاهرة) ، وكان هناك أيضا بعض الضباط الذين وقفوا الى جانب مجلس
الثورة فى أزمة مارس ١٩٥٤ مثل سعد الدين زايد . . .

ومنذ القرار الأول لتعيين المحافظين ، أصبح الجيش مصدرا رئيسيا من مصادر توريدهم ، واحتفظ الضباط دائما بالأغلبية العددية بين المحافظين .

وكان عدد السفراء العسكريين في وزارة الخارجية يزيد ويتضاعف .

في عام ١٩٥٢ لم يكن هناك سفراء عسكريون سوى اللواء علي نجيب في بيروت واللواء محمد سيف الدين في عمان .

تزايد تدفق الجيش الى الخارجية حتى بلغ عدد الضباط في مناصب وزارة الخارجية الكبرى ٧٢ ضابطا من ١٠٠ عام ١٩٦٢ . وكان جميع سفراء أوروبا خلال ذلك العام من الضباط عدا ٣ من المدنيين .

ولم يقتصر الأمر على المناصب الكبيرة فقط . ولكن طعمت الوزارة أيضا بعدد من الضباط أصحاب الرتب الصغيرة نسبيا في مناصب المستشارين والسكرتيرين ولكن نسبتهم لم تتجاوز ٢٩ ضابطا في المائة منصب الثانية وذلك تبعا لما ورد في كشف أقدمية أعضاء السلكن الديبلوماسي والقنصل الصادر من وزارة الخارجية في أول يناير ١٩٦٤ .

واستولى العسكريون على المناصب القيادية في نطاق الشباب أيضا ، واشترك أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقون في ذلك .

ولم يكتف عبد الحكيم عامر بمنصب القائد العام للقوات المسلحة والمشرف على الطرق الصوفية ، بل أصبح رئيسا لاتحاد كرة القدم اللعبة الشعبية الكبرى في مصر ، وعين حسين الشافعي رئيسا لاتحاد الفروسية ، وعلى صبرى رئيسا لاتحاد السباحة ، ومجدي حسنين رئيسا لاتحاد التنس ، وعلى شفيق مدير مكتب المشير رئيسا لاتحاد الملاكمة . الخ .

لم يكن تدفق الضباط الى هذه المناصب المتعددة شرا كله . وان كان المبدأ في ذاته خاطئا ومدمرا لأنه حطم تقاليد الجيش ، وخلق بين الضباط تطلعات ذاتية وطبقية ، وأغرق بعض الجهات بأفراد أبعد ما يكونون عن الخبرة ، لا يعتمدون الا على صلاتهم الشخصية وملابسهم العسكرية السابقة .

ولا شك انه كانت هناك سلبيات وإيجابيات في أهل الثقة ، كما كانت موجودة أيضا في أهل الخبرة .

لم يبذل مركز السلطة جهدا إيجابيا في كسب ثقة أهل الخبرة بعد ضربات العنف التي وجهها لاعداء الثورة ، وبعد اعتماده الواضح على الجيش كمؤسسة وعلى أجهزة الأمن كمصدر تفريغ للمستولين على كافة المستويات .

ولذا فان أهل الخبرة لم يكن عندهم اقتناع واضح بخطوات الثورة .
ولم يقدرُوا رغبة قيادتها الصادقة فى تطوير المجتمع بعد تأكيد استقلاله
الوطنى ... فظلوا فى عزلتهم يفرزون آراءهم المضادة دون محاولة جادة
للتعرف على ما يدور فى المجتمع من تغيرات اجتماعية .

لم يكن تحقيق التناسق بين أهل الثقة وأهل الخبرة عملية عسيرة
معقدة ، ولكن مركز السلطة لم يفتن الى أنها ضرورة لبناء المجتمع على
أسس علمية سليمة ، وآثر الراحة والاعتماد على خالصاته الأوفياء من
العسكريين الذين جعلوا من أنفسهم حاجزا يعزل أهل الخبرة عن الوصول
الى أماكنهم الطبيعية .

كتب محمد حسنين هيكل ينقد المثقفين فى سلسلة مقالات تحت
عنوان أزمة المثقفين فى صحيفة الأهرام خلال شهر يونيو ١٩٦١ .

أين كان المثقفون ؟

وأين كان دورهم الطليعى ؟

كان بروز القيادة الثورية من الطلائع العتيقة التى تحركت من صفوف
الجيش ونجاحها فى التعبير عن مطالبها تذكيرا دائما لهذه الفئات المثقفة
بعجزها عن أداء دورها الطليعى .

ويلخص هيكل أزمة المثقفين فى ثلاث نقاط .

١ - المطالبة بعودة الجيش الى الثكنات .

٢ - المطالبة بعودة الحياة النيابية والأحزاب السياسية .

٣ - أهل الثقة وأهل الخبرة .

ويخلص هيكل الى القول (أزمة المثقفين هى تعبير عن فشلهم فى
الحياة) .

ودخل صلاح دسوقي فى حملة الحديث عن أزمة المثقفين فى مجلة
البوليس بقوله (ليست هناك أزمة) وهاجم مثقفى الاقطاع والرجعية
والأحزاب السياسية ... واعتبر المثقفين أشد المعارضين للنظام وأقصى
الرافضين لرأى الغير .

كان هذا الموقف دليلا على محاولة العسكريين ادانة المثقفين واتهامهم
بالانطوائية دون محاولة جادة لاجتذابهم الى المشاركة الفعالة فى مجالات
الحركة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وغريب ان تظهر هذه المقالات فى وقت كان فيه خيرة مثقفى مصر
وأكثرهم اخلاصا لها داخل المعتقلات والسجون بتهمة الشيوعية .

ولكنها فيما يبدو كانت تعبيرا عن احساس مركز السلطة بوجود فراغ فكري في المجتمع يعجز العسكريون عن ملئه .

ومع ذلك فان السلطة استمرت للجيش وحده لا تشاركه فيها أية قوة سياسية أو اجتماعية ولم تكن حركته - حتى هذه الفترة - تعبيرا عن طبقة معينة ، وانما كانت منفردة في ذاتها .

لم يكن قد ظهر تحديد قطعي واضح بعد بوجود الجيش في خدمة البرجوازية الكبيرة أو الصغيرة أو الطبقة العاملة .

ويقول لينين (لا يمكن للقوات المسلحة أن تكون ، ولم تكن يوما ، ولن تكون أبدا محايدة) .

ولكنها خلال هذه الفترة كانت في مرحلة تثبيت أقدامها ، واستكمال قدراتها ، وتأكيد نفوذها لتؤدي دورها الطبيعي بعد ذلك في خدمة طبقتها كما سيأتي توضيحه في الفصول القادمة .

ولا يمكن النظر الى العسكريين ككتلة واحدة ... فانه فيما بين الضباط توجد تناقضات ... وفيما بين الضباط والجنود توجد ثغرة واسعة .

وقد ظلت العزلة الاجتماعية والفكرية بين الجنود والضباط هي المظهر المستمر .

الأغلبية الساحقة من الجنود كانوا من القرية أبناء الفلاحين البسطاء ... والضباط من المدينة أبناء البرجوازية الكبيرة والصغيرة ،

والقاعدة التي وضعها الاحتلال البريطاني يمنع ترقية الجنود وصف الضباط الى رتب الضباط كما كان قائما في القرن التاسع عشر ... الأمر الذي أدى الى ترقية أحمد عرابي وزملائه وثورتهم بعد ذلك ضد الخديوي والضباط الشراكسة والتدخل الأجنبي .

هذه القاعدة استمرت قائمة ولم تنفذ الا بطريقة شكلية عندما فتحت أبواب الترقى أمام الميكانيكية والفنيين وخريجي مدارس ضباط الصف عام ١٩٥٣ حيث أصبح مسموحا بترقيتهم الى رتب الضباط حتى رتبة رائد شرف .

ولكن تحديد سن حالتهم الى المعاش بالوصول الى سن الخمسين من العمر .

لم يكن هذا القانون الجديد تحطيم للفروق القائمة بين الضباط وصف الضباط بطريقة تجعل من أبناء الجيش وحدة واحدة ... التفوق فيها للأفضل ...

أعطى بعض الحقوق للجنود ٠٠٠ ولكنه وقف حائلا دون وصولهم الى راتب القيادة العليا مهما بلغت كفاءتهم .

وهكذا استمرت الثغرة بين الجنود والضباط قائمة ٠٠٠ وفي حرب عام ١٩٥٦ عندما أسر الاسرائيليون عشرات الضباط وتم استجوابهم ، صرح لهم بعد ذلك بتقديم أسئلة أو التقدم بطلبات خاصة .

ويقول اليزير بيبرى فى كتابه (ضباط الجيش فى السياسة والمجتمع العربى) ان أغلبية الضباط طالبت بتحسين ظروفهم المعيشية ، وتساهلت عن خط سير المعركة ، وسأل البعض عن عدد من زملائهم الضباط . ولكن أحدا من الضباط لم يسأل عن جنوده .

سواء صح ذلك أم لم يصح فإن حرب ١٩٥٦ لم تغير الواقع العسكرى إلا فى أضيق الحدود ٠٠٠ وغطى النصر السياسى على العيوب التى كشفت ٠٠٠ وبدلا من علاجها آثرت القيادة السياسية تغطيتها حتى لا تشوه صورة النصر .

ثم حدثت بعد ذلك تحولات واضحة فى حياة الضباط أدت الى ارتفاع مركزهم الاجتماعى ، وزيادة ثقتهم الشخصية بأنفسهم ، وظهورهم كقوة سياسية .

وكان ذلك نتيجة للخدمات التى قدمت لهم فى صورة اجتماعات تعاونية لبناء المساكن بالتقسيم فى أفقر أحياء العاصمة ، وفى تقسيط أثمان العربات الخاصة لهم واعطائهم أسبقية خاصة فى الحصول عليها ، وفى رفع البدلات الممنوحة لهم وقرار بدلات جديدة ، وفى تسهيل سفرهم وسفر أسرهم للعلاج فى الخارج ، واعطائهم حق العضوية فى مختلف الأندية طالما هم أعضاء فى نوادى ضباط القوات المسلحة .

وساعدت زيادة الجيش على سرعة الترقيات ووصل الضباط الى الرتب العالية (لواء وعميد) وهم فى بداية الأربعينيات من العمر ، على غير ما كان موجودا قبل الثورة .

محمد نجيب حصل على رتبة عقيد (قائمقام) وهو فى السابعة والأربعين من عمره .

ورغم ان قيادات الملك فاروق قد عزلت وصفيت من الجيش ، إلا ان القيادات الجديدة كانت تنتمى الى نفس المدرسة ، وينهج أغلب أفرادها عدل الثوريين منهم نفس الأسلوب القديم ، فى إحاطة الرتب الكبيرة بمظاهر اجتماعية مشابهة لما قبل الثورة ٠٠٠

١٠٠٠ يصنع القول بأن تغيراً جذرياً قد حدث في الواقع الفكرى والاجتماعى
الضباط الرتب الكبيرة خصوصاً . . .

١٠٠٠ ولذا فإنهم بقوا حيث هم بالنسبة الى المجتمع . . . أكثر تخلفاً من
الناحية الثقافية وأشد انطواء من الناحية السياسية .

كانت طبيعة وجود فئة من العسكريين فى قمة السلطة تفرض ذلك
وتشجعه حتى لا تختبر الانقلابات العسكرية العلوية . . . أى انقلابات
الجنرالات .

الثقافة لم تكن موضع اهتمام للعسكريين ، بل الهـا كانت تمثل
عندهم معاناة وشيئاً ثقيلاً . . .

١٠٠٠ أثناء احتفالات الجيش بعيد الثورة فى بداية الستينيات اقترحت
يصفى مديراً لمؤسسة المسرح تقديم رقصة بورسعيد للفرقة القومية
للفنون الشعبية ، وهى عمل فنى راق ومتكامل ومعبر عن المقاومة الشعبية
عام ١٩٥٦ ، ولكن المشير عبد الحكيم عامر طلب بدلا من ذلك تقديم عمل
هزلى رخيص كان اسمه (دكتور . . . الحقنى) لثلاثى أضواء المسرح .

١٠٠٠ وكان إبعاد الجيش عن السياسة هدفاً من أهداف العسكرية
الحاكمة ، وخاصة بعد تصفية محاولات الانقلاب ، وإخراج العناصر المضادة
لأول ذات الشخصية من الجيش وزيادة نفوذ أجهزة الأمن .

١٠٠٠ والعسكريون فى مصر لم ينبغي دور العسكريين فى بعض البلاد
الأفريقية ، التى كان العسكريون فيها منضمين الى جيوش الدول المستعمرة
وبذا كانوا أكثر ثقافة وتقدماً وانفتاحاً على العالم من جماهير شعوبهم التى
فرض عليها الاستعمار الفقر والتخلف .

الموقف فى مصر كان يختلف عن ذلك تماماً . . . فالاستعمار كان
يفرض على الجيش المصرى كما سبق ان أوضحنا العجز والجمود
والتخلف . . . بينما تقدمت الحياة فى المجالات الأخرى ، ووصل بعض
المثقفين الى مستوى العصر .

١٠٠٠ وهكذا ظل الجيش المصرى متخلفاً فى واقعه عن بعض الجيوش
الأفريقية . . . لأن المجتمع المصرى كان أكثر تقدماً فى العلم والثقافة
والحضارة .

وظلت هذه الطبيعة تلازمه بدرجة أقل بعد الثورة . . . فما لا شك
فيه ان الانفتاح الكبير الذى حدث فى سنوات الثورة الأولى على المجتمع
والسياسة ، قد بعث فى صفوف الجيش حيوية جديدة .

ولكن، تثبتت نفوذ ثورة ٢٣ يوليو وخزنها على إبعاد الجيش عن السياسة، وعدم تسييس الضباط قد عاد وفرض نوعاً من الانطوائية الإجبارية على الجيش ٠٠٠ واقتصرت حياة الضباط على العسكرية دون التفتح الضروري على حياة المجتمع الفكرية والثقافية والسياسية .

وبذا عاد الجيش تدريجياً إلى طبيعته السابقة على الثورة ، ولكن بشكل آخر ٠٠٠ ارتبط كبار قادته بمركز السلطة ، وذبلت الحركات المضادة بين صفوفه/أما اقتناعاً بما يحدث في المجتمع من تطور وفي الجيش من تقوية ، وأما خوفاً من سلطة أجهزة الأمن . .

والاستقرار الذي حدث للنظام العسكري في مصر ليس له نظير في الدول العربية أو البلاد النامية وقد أرجع دمكيجيان ذلك في كتابه (مصر في عهد ناصر) إلى عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلي :

- ١ - الترابط بين مجموعة الضباط الأحرار وزملائهم العسكريين .
- ٢ - التحديد والإبعاد المستمر للطبقات والفئات التي كانت مسيطرة في المجتمع .
- ٣ - الجاذبية والدور البارز الخاص للسلطة الشرعية .
- ٤ - التأثير التضامني الناتج من الوحدة ضد العدوان الخارجي .
- ٥ - اختيار وتطبيق أيديولوجية خاصة .

ولكن لا شك أن تصفية الثورة لأعدائها بطريقة غير دموية جعلتها ثورة بيضاء تتناسب في حركتها مع طبيعة الشعب المصري المسالم . .

كما أن انتصارات جمال عبد الناصر الوطنية قد خلقت منه ليس زعيماً مصرياً فقط بل زعيماً عربياً أيضاً له ثقل ووزن في استقرار وثبات دعائم النظام .

لم تعد تقاس قوة السلطة بعد العدوان بقوة الجيش وحده وإنما بشخصية الزعيم .

وهنا كانت الفرصة متاحة وكاملة أمام جمال عبد الناصر لاختيار الطريق الذي يمضي فيه المجتمع ، وسلوك الأسلوب الذي تستقر عليه القيم الجديدة ، وتنمية الأفكار والأيديولوجية التي يقتنع بها .

كان ممكناً لزعامة جمال عبد الناصر في مصر أن تحقق كل ذلك . لو كانت هناك أيديولوجية واعية مدركة لحركة التاريخ ، مؤمنة بالتفاعل العلمي للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتنظيماً سياسياً .

كانت هذه هي صورة المجتمع ٠٠٠ طيبة في يد الزعامة التي أحاطتها بها المحبة الشعبية رغم أنها كانت عسكرية وفردية .

يختار الطريق الأصوب . . .
مر وتثمر تنظيمات شعبية
وجهده لبعث الحيوية والوعي
اعتمد منذ البداية على العناصر
الفرص والامكانيات للسيطرة

مستمر بطريقة متزايدة . . .
مهنية أو سياسية ظل طامع
: الا من رضى عنه العسكرية

مع الوقت يأخذ طبيعة خاصة
والضباط الأحرار الذين مهما
الوطنية والإقبال على التضحية
ت أخرى من الضباط لا تتجاوز
فى المحدود .

ن ابراهيم مراقبا عاما لها . . .
نا لا يتصلان به فى حركتهما
اليومية ولا يرجعان اليه فى معظم الأمور . . . وعندنا ناقش الأمر مع جمال
عبد الناصر قال له فى بساطة صريحة (انهما يقومان بأعمال غير نظيفة
لا تستطيع انت القيام بها) . . . وغادر حسن ابراهيم موقعه .

كان الاتجاه تنازليا من مجلس قيادة الثورة الى الضباط الأحرار
والى غيرهم .

ورغم ان جمال عبد الناصر كان حريصا على ان يبعد ثورة يوليو عن
مظهرها العسكرى - كما قال يقول زكريا محيى الدين - . . . ورغم ان
الشعب قد تجاوب معه خلال مواقفه الوطنية تجاوبا لم يحصل عليه زعيم
مصرى من قبل . . . الا ان تواجد العسكريين ونموهم أصبح طابع الثورة ،
وكان الانتماء للجيش هو جواز التغلب على المصاعب وتسهيل الأمور
والحصول على المناصب .

وخلال هذه الفترة التى تدعم فيها نفوذ العسكريين فى المجتمع
وشكلوا همما وظيفيا متماسكا ، يمكن القول بأن الجيش كان يعمل
لحساب نفسه كقوة سياسية غير مرتبطة بالتعبير الواضح الصريح عن
طبقة معينة . . . ولو ان اتجاها واضحا للعدالة الاجتماعية كان يظهر فى
قرارات وقوانين الإصلاح الزراعى وخفض اجارات المساكن ، واخضاع

المساكن الجديدة لشروط معينة ، ورفع الحد الأدنى لمرتبات العمال ،
والسماح بالترقية من رتب الصف ضابط الى الضابط ، ومجانية التعليم
فى كافة المراحل وانشاء الوحدات الصحية .

هذه القرارات كانت تعبر عن اتجاه شعبى عند قمة القيادة
العسكرية ، . . . ولكن الجيش لم يكن بعد قد أصبح فى خدمة طبقة
محددة . . . كان فى خدمة نفسه لتثبيت سلطته وتأكيد دوره . . .

لم تكن قد وضحت خلال هذه المرحلة طبيعة الطبقة التى توجه
السلطة . . . ولينين يقول فى المجلد ٢٩ (ان القضية الجوهرية لكل ثورة
هى دون شك قضية السلطة ، فالطبقة التى تقبض على السلطة تقرر
كل شئ) .

ولم تكن فى مصر طبقة واحدة قد استطاعت ان تقبض على
الجيش . . . وتشكل له ايدىولوجيته وتثبت افكاره واهدافه .

كان الجيش خلال مسيرته يقوى من سلطته ، ويضرب فى كل اتجاه
تبعاً للظروف . . . يضرب البرجوازية الكبيرة وفى نفس الوقت يحاول
دعمها . . . يضرب الشيوعيين ويقدم خدمات للطبقة العاملة . . . يحاكم
الاخوان المسلمين وينمى فى نفس الوقت الاتجاهات المحافظة .

كانت حركة الجيش فى مسيرته تمثل تقدماً الى الامام ، ولكن فى
خط متعرج غير مستقيم ، يميل أحياناً الى اليمين وأحياناً الى اليسار .

غياب الايدىولوجية كان يخفى الطريق . . . ويجعل من التجريبية
السبيل الوحيد لمجابهة الأمور .

الحيرة كانت تتجسد كثيراً أمام المشاكل . . . والاختيار كان يبدو
صعباً .

والقوة السياسية الوحيدة المتوقعة . . . كانت قوة العسكريين .

والمجتمع الطيع فى يد القائد والزعيم لم يتشكل سياسياً أو اقتصادياً
بطريقة مستقرة ثابتة .

ويصدق خلال هذه المرحلة قول ابن خلدون (ثمة بلدان لا يعرف
القلق منها سبيلاً الى قلب السلطان لندرة الثورات فيها ففى مصر مثلاً
لا تجد غير السيد المطاع والرعية المطيعة) .

والسيد المطاع سمح بزحف العسكريين الى مراكز السلطة . . وترك
الرعية المطيعة بلا تنظيمات حية تطلق طاقاتها وتعبر عن ارادتها .

السيد المطاع محبوب ، ويزداد الناس له حبا ... ولكن الحيرة التي
تجعل السيادة للتكتيك وليس للاستراتيجية ، تفقد الناس الوضوح ،
وتبذر في النفوس التساؤلات .
وبين الحيرة ... والاختيار ... حديث يطول .

الفصل السادس

الحيرة والاختيار

(لا تبصق فى بئر قد تحتاج الى مياهه)

مثل روسى

خروشيف

فى خطاب الى جمال عبد الناصر

كان العسكريون قد وثبوا الى معظم المراكز الرئيسية فى المجالات المختلفة الوزارة والتنظيم السياسى والمؤسسات والشركات الاقتصادية والصناعية ووزارة الخارجية .

وكان جمال عبد الناصر قد استكان اليهم بحكم طبيعتهم الخاصة ، ومصالحهم المشتركة ، ومعرفته لهم من علاقات العمل السابقة فى وقت حوشر فيه كل الذين عملوا فى ميدان السياسة قبل الثورة غدا افراد معدودين .

وبذا كون الضباط حلقة تحيط بالزعيم وكونوا مع الوقت حاجزا بينه وبين الجماهير .

كانت الفرصة متاحة امام جمال عبد الناصر لتشكيل المجتمع بالصورة التى يراها ، فكل شئ طيع بين يديه ، والشعب متعلق به ، بعد انتصاره فى المارك الوطنية .

ولكن لم تكن هناك ايدولوجية معينة تضىء الطريق . . .

كل ما كانت تملكه حركة ٢٣ يوليو . . . الأهداف الستة التي تعتبر شعارات مجردة تحتاج الى تفسير وبرنامج . . . وخبرتها في مجال الصراع الوطنى مع الاستعمار البريطانى . . . ثم دخولها مع باندونج فى نادى السياسة الدولية الذى أصبح جمال عبد الناصر عضوا بارزا بين أعضائه .

كتاب (فلسفة الثورة) اذا جاز لنا ان نعتبره فلسفة ، يشخص حالة المجتمع بكلمات عبد الناصر (اننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق) .

ثم يتساءل :

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فهو دور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص . . . الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

ولكن

الحراس أصبحوا حكاما .

والايدولوجية غائبة .

(فلسفة الثورة) ليس أكثر من خواطر شاب وطنى ، يحمله الأمل الى آفاق منخلة وعريضة ، ولكنه لا يقدم دليلا للعمل أو نظرية للتجمع .

الكتاب يتحدث عن دوائر عربية وإفريقية وإسلامية كمجال لاهتمام مصر . . . ولكن ولا كلمة عن القومية العربية كتأصيل للفكرة . . . ولا كلمة أيضا عن الاشتراكية .

ومن قبل . . . كان برنامج هيئة التحرير بلا كلمة واحدة عن (القومية العربية) أو الاشتراكية .

والإتحاد القومى . . . التنظيم الجديد يعلن يوم ٢٨ مايو ١٩٥٧ .

ويتولى منصب السكرتير أنور السادات ثم يصدر جمال عبد الناصر قرارا بعد عدة شهور بتعيين كمال الدين حسين مشرفا عاما يمارس أعمال السكرتير العام الذى خرج من دائرة تنظيم وعمل الإتحاد . . . بينما يتولى هو منصب رئيس الإتحاد .

تحرص قيادة الثورة على إبعاد شبهة أن يكون الاتحاد القومى حزبيا
بعد حلها للأحزاب فتعلن أنه ليس حزبيا وأنه ضد الأحزاب .

كلمة الاشتراكية التى ظهرت فى قاموس الثورة بعد باندونج ،
سجلت فى أهداف التنظيم الجديد (الاتحاد القومى ليس حكومة ولكنه
تنظيم يضم الحاكمين والشعب ، ويتيح الفرصة الحقيقية لتعاونهم على
علاج المشاكل المحلية والقضايا العامة فى ظل المجتمع الاشتراكى
الديموقراطى التعاونى وهو سبيلنا الى الديموقراطية السليمة التى تشعر
الشعب أنه يحكم نفسه بنفسه) .

وعندما قال كمال الدين حسين فى مؤتمر الاتحاد القومى (اشتراكيتنا
هى اشتراكية التملك وليست اشتراكية المصادرة) وقف عباس محمود
العقاد فى وسط القاعة مصفقا بحرارة . وهو الذى لم يكتب كلمة واحدة
فى تأييد الثورة وعاتب جمال عبد الناصر بعد ذلك كمال الدين حسين
- حسب قوله - على توصيفه للاشتراكية قائلا له أننا لا نعرف ظروف
المستقبل وما قد تدفعنا اليه لتطبيق قد يقتضى المصادرة .

ويعتبر كمال الدين حسين أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة المتمسكين
بتعاليم الدين الاسلامى المحافظين على ارتباطهم بجماعة الاخوان المسلمين
رغم موقف الثورة العدائى منهم .

أصدر قرارا فى فبراير ١٩٥٤ عند توليه وزارة الشؤون الاجتماعية
يقضى بضرورة بدء كل المكاتبات بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وأن تنتهى
بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كان المشرف على الاتحاد القومى شديد التحفظ فيما يتعلق بأمور
الدين ، يرفض أن يتجاوز التفتح العقلى والاجتماعى عند حدود الشريعة
الاسلامية .

والاسلام عنده وعند كثيرين غيره هو أكثر من دين . . . أنه عقيدة
وقدوة للسلوك . . . وهذا ما جعله فى مصر أكثر تأثيرا فى القرن العشرين
عن مناطق تميزت بالاتجاهات الدينية مثل إيطاليا وغرب ألمانيا وجنوب
أمريكا وبورما . . .

وعلى قدر ما وجد الضباط فى الاسلام حافزا على ثورتهم ضد النظام
الملكى لما فيه من تهتك ، على قدر ما وجدوا فى بعض رجاله ما يمنعهم من
الاندفاع لتغيير المجتمع . . . ولذلك أصدر قرار بتحل جماعة كبار العلماء
بعد صدور قانون اصلاح الزراعى بأثنى عشر يوما ، ثم صدر قانون جديد
للجماعة حدد سن أعضائها من ٤٥ الى ٦٥ عاما وبذا خرج منها ثلاثة من

شيخ الأزهر السابقين عبد المجيد سليم وإبراهيم حمروش ومحمد
الخضر حسين .

ولم يتخذ الضباط موقفا معاديا من الدين مطلقا . . . ولكنهم كانوا
يريدون تغيير المجتمع ونقله الى حضارة العصر بخطوات سريعة لا تتفق
أحيانا مع آراء رجال الدين .

عندما نبتت فكرة تحديد النسل في مصر صرح الشيخ محمد خضر
حسين شيخ الأزهر للصحافة بقوله (الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان
الامة وجريمة في حقها) كما نشرت المصري يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٥٣ .
وقال البابا بيوس (تحديد النسل جريمة في حق الطبيعة واعتراض
على مشيئة الخالق) .

ومع ذلك لم يتردد الضباط مع الوقت من القيام بعملية لتحديد
النسل ، ولم يرفع رجال الدين صوتهم احتجاجا عليها أمام موجات الدعاية
الهائلة التي ربطت بين تخلف المجتمع وزيادة السكان .

ووصلت موجة تحطيم السدود التي وقف خلفها بعض رجال الدين
المحافظين الى حد إلغاء المجالس المحلية والحسبية والمحاكم الشرعية . . .
ويعتبر فتحى رضوان أن التخلص من هذا النوع من المحاكم انجاز من
أعظم انجازات الثورة لمصلحة الجماهير .

ولم يكن يعنى هذا وفقا لتطبيق الشريعة الاسلامية ، ولكنه كان
تطهيرا لها من جمود أحاط بها ، ذلك لأن المحاكم المدنية ظلت تطبق قواعد
الدين الاسلامى والمسيحى فى المنازعات الشخصية .

وامتد الاصلاح الى إلغاء الأوقاف التي حولت الارض الى قطع
صغيرة تتوارثها الأجيال ويسيطر عليها نظار ينهبون ريعها . . . كما وصل
الى الأزهر نفسه فحولته الى جامعة عصرية فى يونيو ١٩٦١ لتضم مختلف
الكليات العملية والعلمية الى جانب كلياته الثلاث القديمة (أصول الدين -
الشريعة - اللغة العربية) .

وكانت الثورة قد أقامت تنظيمات اسلامية جديدة . . . عندما قام
جمال عبد الناصر بالحج والتقى بحاكم باكستان والسعودية فى مكة أصدر
بيانا يدعو فيه الى وحدة الاسلام ضد الغرب . . . وتكون المؤتمر الاسلامى
فى سبتمبر ١٩٥٤ الذى عين أنور السادات سكرتيرا عاما له .

والتقت ارادة رجال الثورة مع علماء المسلمين عندما أصدرت هيئته
كبار العلماء بيانا فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٤ تدين فيه ارهاب الاخوان
المسلمين .

وتكون أيضا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وإنشئت مدينة البعوث الإسلامية للطلبة المغتربين .

كان موقف رجال قيادة الثورة حريصا على الجمع بين عقيدة الدين وإرادة التطور في وقت واحد معا . . . ولكنهم لم يكونوا جميعا بنفس درجة الاقتناع .

البعض منهم لم يكن يهتم بإداء الفرائض أو الظهور في الجوامع . . . والبعض منهم لم يكن يتوزع عن سلوك ما يعتبر منافيا لقيم الدين من ناحية الخمر والنساء وغيرها . . . والبعض منهم كان محافظا على عقيدته شكلا وموضوعا .

هذه التيارات لم تحدث بينهم تصادما . . . أو تناقرا . . . لأنهم جميعا كانوا مع الدين حتى الشيوعيين في مجلس القيادة يوسف صديق وخالد محيي الدين حجوا إلى بيت الله . . . وسبق القول بأن خالد قد اشترك مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وبعض الضباط في جلسات تحضير الأرواح .

لم يسلك أحد من الضباط العسكريين في مصر مسلك اتاتورك الذي أخذ موقفا صريحا معاديا لرجال الدين وتقاليدهم الدين .

ولم يظهر من بينهم من يمتلك الجرأة مثل الحبيب بورقيبة الذي صدرت في عهده (فبراير ١٩٦٠) فقرة تسمح للعمال بالافتطار في شهر رمضان ، وكذلك أجاز شرب البيرة . . . وعندما اعترض عليه بعض رجال الدين طالبهم باتباع فتواه تمسكا بالآية التي جاء فيها (أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم) وهو ولي الأمر في تونس .

ولكن تشكيل مجلس قيادة الثورة من مسلمين فقط وعدم وجود غير ضابط قبضي واحد بين الضباط الأحرار قد أدى إلى تغيير شكلي واضح في التعاون مع الأقباط الذين تتراوح نسبتهم إلى السكان بين ٧,٦٪ أي يوجد قبضي واحد بين كل ١٤ مسلما تقريبا .

كان تقليدا أن يشترك في الوزارات وزيارات قبطيان وأكثر ، ووصل إلى أن أحد الأقباط إلى منصب رئاسة الوزارة (بوغوص نوبار باشا) في عهد الخديوي اسماعيل ثم بطرس غالي باشا . . . وكان مكرم عبید سكرتيرا للوفد أكبر الأحزاب المصرية ثم رئيسا لحزب الكتلة الوفدية . . . وكان أقرب المحيطين بالملك من المسيحيين وخاصة في السنوات الأخيرة . (الياس اندراوس وكريم ثابت وادجار جلاد وانطوان بولي) .

أما بعد الثورة فلم يعد هناك الا وزير قبضى واحد في كل وزارة ،
وشخصيته لم تتغير لسنوات طويلة (كمال رمزي سستينو) الذى كان
وزيرا للتموين .

وظلت تقاليد ابعاد الأقباط عن الرتب العسكرية الكبيرة سارية ،
وامتد ذلك الى تقليص وجودهم فى السلك الدبلوماسى بعد زحف
العسكريين عليه ، حتى لم يعد هناك سفير قبضى واحد .

وليس هذا دليلا على موقف تعصبى طائفى من العسكريين . . . ولكنه
انجراف وراء تيار سياسى نما فى غيبة ايدىولوجية تناقش موقف الوحدة
الوطنية بطريقة علمية ، وتبادر الى اذابة المناقضات قبل تحولها الى
صخور تعوق الطريق .

ولذا فانه عندما أجريت انتخابات مجلس الأمة بعيدا عن الانتماءات
الحزبية لم ينجح فى مجلس ١٩٥٧ ولا قبضى واحد وصدر قرار جمهورى
بتعيين عشرة نواب كان منهم ثمانية من الأقباط ومسلمين فقط هما ثروت
عكاشة وأحمد فؤاد .

ولم يكن فى قيادة الاتحاد القومى أحد من الأقباط أيضا .
وكان حرص كمال الدين حسين على صبغ حركة الاتحاد بالصبغة
الدينية شديدا . . . ولكن جمال عبد الناصر كان يتطلع الى الدين
والدينسما معا .

القومية العربية ظهرت أيضا فى تقديم الاتحاد القومى باعتباره . . .
(منظمة قومية عربية تعمل على تحقيق وحدتنا ووحدة الشعب العربى الذى
جمعته وتجمعه أصول تاريخية وروحية واحدة كما جمعته وتجمعه وحدة
اللغة والعقائد والتقاليد والدم والمصالح المشتركة . . . وحدة هذا الشعب
العربى فى الوطن العربى المتحرر من كل أثر من آثار الاستعمار وأعوان
الاستعمار) . . .

دستور ١٩٥٦ ينص فى المادة ١٩٢ على ان (يتولى الاتحاد القومى
الترشيح لعضوية مجلس الأمة) . . . نصت المادة السابقة على ان (يقوم
الاتحاد القومى بفحص طلبات الترشيح خلال ١٥ يوما من تاريخ اقبال باب
الترشيح) . . . ونصت المادة الثامنة على ان يعد الاتحاد القومى كشفا
بأسماء المرشحين الذين لا اعتراض عليهم فى كل دائرة انتخابية ويكون
قراره فى هذا الشأن نهائيا غير قابل للطعن فيه بأي طريق من الطرق) . . .
فكرة الاتحاد القومى استوردت من البرتغال ، حيث كان سالازار
الديكتاتور الذى حكم ٣٤ عاما حكما مطلقا معتمدا على تنظيمه (الاتحاد
القومى) أيضا . . .

سافر على صبرى لدراسة التنظيمات هناك ، وتأخر إعلان التشكيلات القيادية عدة شهور بعد صدور الدستور ، لظروف العدوان ، والرغبة فى التعرف على طبيعة التنظيم فى مجال العمل اليومي والسياسي .

يقول زكريا محيي الدين ان جمال عبد الناصر كان يريد أن ينزع من الثورة صفتها العسكرية لذا كانت محاولاته لتكوين تنظيم شعبي .

استكمل الاتحاد القومي تكوينه ، وليس تنظيمه ، فهو لم يكن تنظيمًا بالمعنى المعروف ولم تكن له ميزانية خاصة ولا قيادات متفرغة . . . كان يصرف له شيك بمبلغ خمسين ألف جنيه بتوقيع جمال عبد الناصر تستعوض بعد نفاذها . . . وأقصى مبلغ صرف له فى عام واحد كان مائة وخمسين ألفًا من الجنيهات ، كما يؤكد عبد المجيد شديد مدير مكتب كمال الدين حسين فى ذلك الوقت .

منع الشيوعيون والاشخوان المسلمون من دخول الانتخابات ، ومعظم من نشط سياسيًا قبل الثورة ، ظل بعيدا عن المشاركة فى الاتحاد القومي .

لم تشكل للاتحاد لجنة تنفيذية عليا . . . شكلت له فقط لجنة عامة (مركزية) ، ولم يشأ جمال عبد الناصر ان يقيم تنظيمًا قياديًا جديدًا يكون بديلا لمجلس قيادة الثورة ، وأثر ان تكون حركة الاتحاد القومي بين يديه وحده ، دون سلطة أخرى .

عين كمال حسين عددا من مدبرى المكاتب للاتحاد من ١٦ ضابطا و ٨ مدنيين (١) كانوا بمثابة قلب التنظيم ، والحق بمكتبه أيضا مندوبا من كل وزارة تسهيلا للاتصال والعمل أى بمثابة مجلس وزراء محدود .

واعتمد كمال الدين حسين فى حركة الاتحاد على المؤتمرات التى كان يحضرها معه عدد من الوزراء فى محاولة لحل المشاكل المحلية على الطبيعة ، والتى وصلت الذروة بمؤتمر فى الاقليم المصرى ومؤتمر شامل فى ج . ع . م عقد فى يوليو ١٩٦٠ .

(١) عسكريون : عبد المجيد شديد مدير مكتب المشرف العام ، عبد السلام بدوى شئون اقتصادية وحلمى السعيد تخطيط ومحمد البلتاجى مالية وإدارية ويوسف السباعى ثقافة وعبد القادر حاتم مدنى وسعد زايد حكم محلى وخالد فوزى عمال ومختار عمر رقابة ومعلومات وأمين الشربف صناعة وأحمد شبيب تصريحات ، وبمجت رمضان تعاون وضباط اتصال عاطف سعد القاهرة ، وحيدى محمود ، ومحمد أبو نار وفوزى شاش بحرى . مدنيون : سيد يوسف تربية وتعليم ، محمد فهمى السيد شئون قانونية ، حسين خلاف نقابات مهنية فؤاد جلال شئون عربية وأفريقية ، محمد نجيب حشاد جامعات ، حسن عامر اتصال قبلى ، سعيد العريان علاقات عامة ، عبد الرؤوف جبريل الشكاوى .

ومجلس الأمة دخله الأعضاء أيضا من باب الاتحاد القومي . . . اللجنة التي نظرت في أسماء المرشحين كانت تحت إشراف زكريا محيي الدين وضمت عسكريين فقط على صبرى وإبراهيم الطحاوي وأحمد عبد الله طعيمة وعباس رضوان ومجدي حسنين وكمال الحناوي ومصطفى المستكاوي من ضباط الجيش .

ومع ذلك لم يكن المجلس خاضعا تماما لارادة العسكريين . . . صورة المجالس النيابية القديمة وما توفر لها من حرية المعارضة أغرت بعض النواب بتقديم أسئلة تخرج الحكومة . . . وإذا تجاوزنا قضية مجدي حسنين واستقالة كمال الدين حسنين وجدنا أن تيار المعارضة قد وصل إلى بعض العسكريين أنفسهم .

الصاغ محمد أبو الفضل الجيزاوي قدم سؤالا إلى زكريا محيي الدين عن عدد المعتقلين الشيوعيين داخل المعتقلات وعن أسباب اعتقالهم . . . وكان هذا جديدا في حياة المجلس لم تحمله أعصاب القيادة العسكرية ، خاصة بعد أن قدم طلب آخر إلى عبد اللطيف البغدادى رئيس مجلس الأمة يطلب فيه الشاء معارضة داخل المجلس .

كان رد الفعل هو فصل ستة نواب من عضوية الاتحاد القومي مع استمرار عضويتهم في المجلس فابتعدوا بذلك عن فرصة الاتصال بال جماهير وتحاشاهم النواب هم محمد أبو الفضل الجيزاوي ودكتور محمود القاضي واسماعيل نجم وحريم الخمرأوى والثلاثة الآخرون كانوا في قضية مجدي حسنين .

وعندما أعلنت الوحدة مع سوريا لم ينتخب مجلس جديد ، وإنما تم تعيين مجلس الوحدة من النواب السابقين ، وسقطت العضوية عن النواب الذين فصلوا من الاتحاد القومي وعن غير الموالين .

المؤسسات الديمقراطية والتنظيمات الجماهيرية اصطدمت في حركتها مع عقلية المسيطرين على النظام من العسكريين .

والتزيد في عمليات الأمن يتناقض تماما مع الاتجاه إلى الشعب الذي يعتمد على وفاق واسترخاء ضروريين .

وحركة التنظيم حائرة ، تدور بكلمات حماسية تشتعل وتخمد حسب الظروف ، وليست هناك عقيدة أو أيديولوجية واضحة . . . واللجان الأولى للاتحاد القومي اجتازها أعضاء مجلس الأمة بلا انتخاب فكانت من المؤيدين لأعضاء المجلس فقط وانعزل عنها الآخرون حتى قال جمال عبد الناصر عنهم بعد ذلك في المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية جلسة ١٤

يوم ٤ يوليو ١٩٦٢ (بعد ما تكونت اللجان كل واحد نام نوما عميقا . . .
خطوا يافطة وناموا) ولما أجريت الانتخابات بعد ذلك بعام لم تفلح فى
بعث الحيوية فى الجهاز الذى اعتبر الجميع أعضاء فيه بلا كادرات قيادية
أو تنظيمية .

حاول كمال الدين حسين أن يبلور الفكر فى الاتحاد القومى فاستعان
ببعض المثقفين فرادى مثل سليمان حزين ولبيب شقير وحسن عباس زكى
وسعيد العريان . . ولكن هذه المحاولات كانت أضعف من أن تشيد أساسا
فكريا وعقائديا لبناء الاتحاد القومى .

تشكل التنظيم . . . وغابت الايديولوجية .

الاشتراكية الديمقراطية التعاونية . . . ليس لها تفسير سوى
مجموعة أفكار مختلطة بعيدة عن البصيرة العلمية . . . تستهدف تطوير
المجتمع بالكلمات الطيبة وأحيانا بالاجراءات الادارية الحازمة التى تعتمد
على جهاز دولة متخلف وبيروقراطى معادى للديموقراطية والجماهير .
وكان تطبيق نظام الادارة المحلية وتعيين المحافظين بسلطات ادارية
واسعة فى مناصب سياسية عامل من أهم العوامل التى حملت الى الريف
سلبيات وايجابيات كثيرة .

كان المحافظ مطلق السراح فى تنفيذ ما يريد معتمدا على أفكاره
المأصاة وطبيعة شخصيته مع عدم وجود تنسيق كامل لسياسة موحدة
الامر الذى جعل المحافظون يتركون وهم فقدوا الاتجاه البعض منهم يهتم
بالنقااة والبعض يهتم بقضايا تافهة . . البعض يهتم بالدعاية لنفسه
والبعض يركز على مشاكل الجماهير .

لا شك ان تجربة الادارة المحلية قد بعثت حيوية فى الريف ولكنها
لم تنطلق بالقدر اللازم لرفع مستوى المجتمع .

فى مجال الصناعة والاقتصاد

كانت هزيمة العدوان الثلاثى وصدور الامر العسكرى فى ٢ نوفمبر
١٩٥٦ بمنع التعاقد مع الرعايا البريطانيين والفرنسيين وفرض الحراسة
على مؤسساتهم وأموالهم فى مصر ، فرصة نبهت الأذهان الى ضرورة اتخاذ
اجراءات تهدف الى القضاء على بقايا صور الاستغلال والسيطرة الأجنبية .
وفى يناير ١٩٥٧ صدرت قوانين التمصيل للبنوك وشركات التأمين
والوكالات التجارية . . . ونصت على ان تكون جميع الأسهم اسمية ومملوكة
للمصريين ، وجميع أعضاء مجلس ادارتها والمستولين عن الادارة فيها

مصريين ، على أن تكون مزاولة أعمال الوكالات التجارية مقصورة على المصريين أيضا .

الفرصة متاحة تماما لانتعاش البرجوازية المصرية في ظل نظام يحافظ على الأمن ويستهدف التقدم الاقتصادى .

ازدادت الأرباح .

١٤٤ شركة ربحت عام ١٩٥٧/٥٨ مبلغ ٤١٢ مليون جنيه وزاد الربح الى ٤٤٢ في العام التالى . . وهو يشكل نسبة ٣٥٪ من رأس المال ، ٢٣٪ من مجموع ما يملكه المساهمون كما ورد فى كتاب الدكتور أنور عبد الملك (مصر . . نظام جديد يبنية العسكريون) .

٢٣ شركة لها مركز احتكارى يسعى للسيطرة على الاقتصاد المصرى .

أحمد عبود له ١٤٪ من أسهم بنك مصر ، ١٠ أشخاص يملكون ٢٠٪ ، ٥٠ شخصا يملكون ٤٢٪ .

ولكن السلطة لم تكن فى يد البرجوازية الكبيرة . . . وانما كانت فى يد العسكريين . . ولم يعد عبود أو غيره قادرا على الضغط لاسقاط الوزارات بل لم يعد قادرا على تغيير وزير واحد . . ولم تعد الفرصة كاملة أمامه لشراء الصحف وكبار الصحفيين .

يدلل عبد اللطيف بغدادى على ذلك بقوله ان أحمد عبود قد زاره فى مكتبه بعد ان قررت الحكومة خفض طن السهم من ٢٤ جنيها الى ٢١ جنيها بينما كان سعر الطن المستورد لا يتجاوز ١١ جنيها وشكى له أحمد عبود من هذا الاجراء . . وبعد حديث قصير تبين أن أحمد عبود كان يملك فى الشركة ١٦٨٠٠٠ سهم يكسب فيها كوبونات سنويا قيمتها ١٥٠٠٠٠ جنيه (الكوبون يصرف ٩٠ قرشا) هذا غير زيادة رأس المال بارتفاع قيمة الأسهم من ٤ الى ٩ جنيهات .

وعندما طالبه البغدادى بشئ من القناعة بكى أحمد عبود وانهارت الدموع على خديه كما يؤكد البغدادى .

الرأسمالى الكبير كان عبدا لامواله .

ولم تنجح أيضا محاولة البرجوازية المصرية الكبيرة والاستيلاء على الممتلكات والشركات الممصرة . . . قال جمال عبد الناصر (ان الحكومة اذا باعت ما أصبح تحت اشرافها بعد التمهيز فان النتيجة الحتمية لذلك هى مجرد اتاحة الفرصة للذين يملكون فعلا لكى يملكوا مرة أخرى) .

أثبت العسكريون أنهم ليسوا في خدمة البرجوازية الكبيرة .

والنظام الجديد يستهدف تغيير المجتمع ، ويحتفظ في يد الدولة بما تمت مصادرته أو وضع الحراسة عليه .

وتغيرت النظرة الى الشئون الاقتصادية .

كان اتحاد الصناعات قد دعا الى توظيف رؤوس الأموال الوطنية والأجنبية في المشاريع الصناعية معبرا بذلك عن موقف البرجوازية الكبيرة وكانت نسبة المساهمة المصرية الاجبارية التي صدرت في قانون رقم ١٣٨ عام ١٩٤٧ قد عدلت بعد الثورة لتكون ٤٩٪ بدلا من ٥١٪ وكذا استمر التعاون مع النقطة الرابعة وأعلن أيضا دكتور حسن فهمي رئيس مجلس الانتاج بأن كل من يقول بعدم استيراد رأس المال الأجنبي يعتبر خائنا .

والكتاب السنوي لاتحاد الصناعات عام ١٩٥٤ قال صراحة (ان ادخارنا لا يكفي عادة لتلبية احتياجات البلد العادية لذلك طالبنا تشجيع الاستثمارات الخاصة الأجنبية المورد ما أمكن ذلك وقد اعترف المسئولون أخيرا بصحة وجهة نظرنا) .

ولكن رأس المال تردد في المساهمة الصناعية .

الاستثمارات الصناعية كانت ٤٠٥ر٢٠٨ر٢٦ ملايين عام ١٩٥٦ هبطت لتصبح ٤٣٢ر٩٠٧ر١٢ مليونا عام ١٩٥٧ .
يقول الدكتور أنور عبد الملك في كتاب (مصر . . . نظام جديد يبنيه العسكريون)

(ان ما حمل زعماء الجناح الصناعي للبرجوازية المصرية على التردد في توظيف أموالهم رغم كل الدعوات هو ان الجيش مصمم على رسم سياسته بنفسه أي انه مصمم على احتكار السلطة ووضع مصر كلها بما فيها البرجوازية الصناعية تحت وصايته ورهن اشارته) .

العسكريون يحكمون وحدهم والجيش لم يستند بعد الى طبقة معينة والبرجوازية تتردد في التصنيع ٢٨٥ مليون جنيه انفقت على البناء عام ١٩٥٧ بينما استثمر ٧ر٧ مليون جنيه في الصناعة فقط .

١٨ ابريل ١٩٥٧ حولت المصارف الانجليز والفرنسية والتركية الى مصارف مصرية المؤسسة الاقتصادية التي رأسها حسن ابراهيم ضمت ٥ بنوك ، ٦ شركات تأمين .

• الشئون الاقتصادية أصبحت من هموم العسكريين

• وبدأت فكر التخطيط تجذب أفكارهم

أنشئ (مجلس التخطيط الأعلى) برئاسة جمال عبد الناصر ويتولى تحديد الأهداف الاقتصادية والاجتماعية للدولة وإقرار خطط التنمية في مراحلها المختلفة •

(ولجنة التخطيط القومي) ورأسها عبد اللطيف البغدادى وزير الدولة لشئون التخطيط •

وهكذا أصبح التخطيط تحت إشراف أعلى مستوى عسكري فى الدولة •

وأمجج مجلس الانتاج القومي ومجلس الخدمات العامة فى لجنة التخطيط القومي •

وانشئت المؤسسة الاقتصادية لتدير ما أمم من أموال أجنبية بعد عام ١٩٥٦ • • • رأسها حسن ابراهيم وأحيلت اليها المشروعات التى كان يشرف عليها مجلس الانتاج •

يقول حسن ابراهيم أنه كون شركتين عام ١٩٥٨ هما شركة النصر لصناعة الأفلام - أول مرة يستخدم اسسم النصر - وشركة البويات والصناعات الكيماوية • • • وان جمال عبد الناصر أسهم فيها بمساهمة رمزية دليلا على تأييده لفكرة تشجيع البرجوازية المصرية •

المؤسسة الاقتصادية كانت تحاول ان تقوم بما يعجز عنه القطاع الخاص من ناحية المال والخبرة • • • ولكنها لم تنجح الى فرض سيطرة الدولة •

وانشئت ادارة التعبئة التى كان يتولاها عسكري - اللواء أمين أنور الشريف - وتطورت حتى أصبحت الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء • • • وكانت لها لجان فى مختلف الوزارات يمثلها عسكريون أيضا ، ويتدخلون فى كافة المشاريع لربطها باتجاهات القوات المسلحة •

وبعد ذلك تشكلت وزارة الصناعة لأول مرة وتولاها الدكتور عزيز صدقى فى أول وزارة يشكلها جمال عبد الناصر بعد انتخابه رئيسا للجمهورية يونيو ١٩٥٦ •

لم تكن هناك وزارة • • • مكاتب معاونين فى الممرات • • • هكذا يقول عزيز صدقى ثم يتساءل ويبحث عن دور الدولة فى الصناعة •

عزيز صدقي يعد قانون التنظيم الصناعي بعد ٦ شهور ٠٠٠ واتحاد
الصناعات يعد تقريراً من ٣٠ صفحة يعارض فكرة تدخل الدولة ومراقبتها
للانتاج الصناعي .

أول مبلغ يرصده للصناعة ١٢ مليون جنيه في ميزانية عام ١٩٥٨ .
جمال عبد الناصر طلب من عزيز صدقي زيارة يوغوسلافيا ، ووقع
قانون التنظيم الصناعي ليلة سفره الى يوغوسلافيا في سبتمبر ١٩٥٧ .
المؤتمر الصحفي الذي أعلن فيه برنامج الصناعة كان في العيد
الخمسينى لاتحاد الصناعات الذي أخذ موقف المعارضة .

بعض العسكريين لم تأخذهم الحماسة لبرنامج التصنيع ٠٠٠ عارضه
في مجلس الوزراء عبد اللطيف البغدادي ومعه وزير الاقتصاد دكتور
عبد المنعم التيسوني ٠٠٠ ونبتت التناقضات بين العسكريين في المؤسسة
الاقتصادية (حسن ابراهيم وصدقي سليمان) وبين وزارة الصناعة التي
سلبت منها سلطة الاشراف على الشركات .

يقول حسن ابراهيم انه لم يكن موافقاً على بعض الاجراءات غير
المدرسة التي تنفذ من باب الدعاية في مجال الصناعة وقد قدم استقالته
الأولى يوم ٢ مايو ١٩٥٩ عندما صدر قرار لم يخطر به لنقل الاشراف
على البنك الصناعي من المؤسسة الاقتصادية الى وزارة الصناعة ، ولكنه
سحبها بعد لقاء له مع جمال عبد الناصر في استراحة القناطر .

ولكن حسن ابراهيم لم يلبث ان استقال مرة أخرى من المؤسسة
الاقتصادية في ١٨ أكتوبر بخطاب طويل من ٢٢ صفحة . ومن هذا الخطاب
يتضح وجود خلافات بين وجهات النظر منها رغبة حسن ابراهيم في بيع
ما تملكه المؤسسة من أسهم الشركات للجمهور على أساس احتفاظها بنسبة
٣٥٪ فقط ورفض جمال عبد الناصر لهذا الاتجاه .

وزادت المعارضة عند عقد أول اتفاقية لتمويل الصناعة المصرية مع
الاتحاد السوفييتي يوم ٢٩ يناير ١٩٥٨ بمبلغ ٧٠٠ مليون روبل تسدد
على ١٢ سنة .

الدكتور عبد الجليل العمري محافظ البنك الأهلي يحذر في ٢٧ مارس
من الاتجاه الى التجارة مع الاتحاد السوفييتي .

ويدخل العسكريون ميدان الصناعة والاقتصاد ايضاً .

مؤسسة مصر يرأس مجلس ادارتها الصاغ مهندس حلمي السعيد
مدير مكتب جمال عبد الناصر ويضم الضباط المهندسين سمير حلمي وأحمد
توفيق البكري والسيد عويس ثم حسن مرعي ومحمد علي حسن .

ولكن هذا التنظيم لا يستمر طويلا . . . تصدر وزارة الصناعة تنظيم المؤسسات على أساس نوعي وتلقي مؤسسة مصر ونصر والمؤسسة الاقتصادية وذلك عام ١٩٦٠ بعد الاستقالة الثانية لحسن ابراهيم من المؤسسة الاقتصادية في بداية العام .

وتتركز السيطرة في يد الدكتور عزيز صدقي وزير الصناعة .
وقطاع الصناعة كان أقل القطاعات انفتاحا للعسكريين . . . اتخذ الدكتور عزيز صدقي موقف الاختيار للكفاء أولا بصرف النظر عن طبيعته العسكرية أو المدنية .

عندما عمل أول تنظيم للوزارة لم يضع فيها الاميرالاي حسين الحلواني مستشار الصناعة والاميرالاي محمود يونس مستشار البترول . . . وحاول زكريا محيي الدين اقناعه بغير ذلك ولكنه تمسك برأيه .
كما اعتذر عن عدم قبول تعيين الفريق محمد نديم رئيس ادارة الجيش بناء على اقتراح الرئيس عبد الناصر الذي قبل وجهة نظره وحوله الى هيئة النقل البحري .

ولذا كان عدد العسكريين في قطاع الصناعة محدودا . . . ولكنهم في ميدان الاقتصاد كانوا أكثر انتشارا .

قال جمال عبد الناصر في محادثات الوحدة بعد ذلك عام ١٩٦٣ (احنا بدأنا في هذه العمليات من سنة ٥٦ بس لأن طلعتنا في ٥٢ كنا عسكريين لا يعرف الا القطعة ١٨ على حد تعبير الأخ فهد - المقدم السوري فهد الشاعر أحد قادة حزب البعث - وكنا نقعد مع جماعة اقتصاديين من الطراز التقليدي بيعقدوا المشاكل ولا يجدوا لها حل . . . لكن بعد كده مشينا في العملية . . . ودرسنا وحاولنا نتعلم بجد واخلص) .

وأرسل يستشير شركة (آرثر ليتل كومباني في بوسطن) عن احتمالات التقدم الصناعي والاقتصادي في مصر وجاء الرد التالي (حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التي تحتاج اليها في خطتك الخمسية ، وحتى لو نجحت خطتك الخمسية نجاحا كاملا بدون أي تعثر وتوقف ، وحتى لو بذل كل فرد في المجتمع المصري قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الأجنبية فان أفضل ما تستطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تفهقر أكثر الى الوراء) وذلك كما ورد في كتاب مايلز كوبلند (لعبة الأمم) .

صدر قرار جمهوري في ١٠ فبراير ١٩٥٧ باستخدام اللغة العربية في جميع العقود والتسجيلات .

في أغسطس ١٩٥٨ صدر القانون رقم ١١٤ ينص على ان مجالس
الارادة لا تزيد عن سبعة ولا تقل عن ثلاثة . والمجلس لا يجمع بين
مجالس ادارة أكثر من شركتين بعد ان كانت ستة . والعضو المنتدب على
شركة واحدة ٠٠٠ وحدد مكافأة ومرتباً وبدل حضور ومزايا العضو
بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه في السنة فقط .

وكان قد صدر في ١٨ مارس ١٩٥٥ أول قانون للشركات بعد
مناقشات طويلة يقول أحمد فؤاد انها كانت تمتد أحياناً طوال الليل
وانتهت باخراج أعضاء مجالس الادارة الذين تجاوزوا البستين مع استثناء
الأعضاء المنتدبين وأصحاب ال ١٠٪ من الأسهم . وقصر عضوية مجالس
ادارات البنوك على بنك واحد ومنع الجمع بين وظائف الحكومة والشركات .

ولحق ذلك قانون آخر في يناير ١٩٥٩ يلزم الشركات المساهمة
بتجنيب ٥٪ من الأرباح الصافية لشراء سندات حكومية ، تحديد الحد
الأقصى للأرباح عام ١٩٥٨ مضافاً اليه ١٠٪ فقط ثم حدث تراجع عن هذا
البند بعد أن تأثرت بورصة الأوراق المالية وكسب النشاط فيها .

وكانت بعض الشركات الأمريكية ما زالت تربطها بمصر صلات
تعاون ٠٠٠ مثل شركة بوز آلن أند هاميلتون التي تفاقت معها زكريا
محيي الدين لتقديم خدمات لأجهزة المخابرات العامة واعداد دراسات مطلوبة
حسب رواية فريد طولان مدير المعهد الاستراتيجي بالمخابرات العامة
سابقاً .

أحدى هذه الدراسات أشارت بأن الحكومة المصرية لا يجوز ان
تستخدم أكثر من ٢٠٠ ألف موظف .

الشركات الأمريكية تعرض صورة قائمة لاحتمالات تقديم المنتج
صناعياً واقتصادياً ٠٠٠ وتقيم سداً في وجه جريحي المعاهد والجامعات
لزيادة العمالة عن حدودها .

رفض جمال عبد الناصر هذه النظرة المتشائمة التي قدمتها الشركات
الأمريكية ، وأصر على تغيير المجتمع .

في وقت واحد ٠٠٠ البرجوازية الكبيرة تنتعش ٠٠٠ والدولة تزيد
قبضتها في مجالات الصناعة والاقتصاد .

وفي وقت واحد أيضاً ٠٠٠ تنمو العلاقة مع الاتحاد السوفييتي ٠٠٠
ويستجلب تنظيم الاتحاد القومي من البرتغال الدولة الفاشية .

تعايش التناقضات في هذه المرحلة .

والاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، مثل الفيل يراه الأعمى من المنطقة التي يلمسه منها .

فى مجال الثقافة والاعلام :

والعسكريون أيضا يتولون المراكز الحساسة فى توجيه الراى العام ويقتربون من مجال الفكر والثقافة .

حرص جمال عبد الناصر دائما على وضع العسكريين فى رئاسة مجالس ادارات الصحف ورئاسة تحريرها .

مجلة التحرير تولى رئاسة تحريرها ثروت عكاشة بعد اعفائه من العمل فيها فى نوفمبر ١٩٥٢ ، ثم ضمت الى دار الجمهورية حيث كان أنور السادات رئيسا لها بعد اعفاء ثروت عكاشة أيضا .

المساء تولى رئاستها خالد محيى الدين ثم مصطفى المستكاوى .

الشعب تولاها صلاح سالم ثم لطفى واكد ، حتى انضمت الى جريدة الجمهورية .

بناء الوطن المجلة الشهرية رأسها أمين شاكر .

الثورة مجلة أسبوعية أصدرتها منظمات الشباب ورأسها صاغ وحيد الدين جوده رمضان .

وعهد الى باصدار مجلة أسبوعية جديدة تحت اسم (الفجر) عام ١٩٥٦ ، وشكلت لها مجموعة تحرير ضمت محمود أمين العالم ، مسعد لبيب ، عبد المنعم القصاص ، منير حافظ ، صالح موسى ، سامى الليثى ، بهيج نصار ، محمد صدقى ، راجى عنایت ، فهمى حسين ؛ جورج البهجورى ، ولكنها لم تصدر رغم طبع ثلاث أعداد منها للتجربة ولم يكن هناك جواب شاف .

كل الصحف التى صدرت عن الحكومة رأسها عسكريون ولكنها لم تكن جميعا تعبر عن رأى واحد .

جريدة المساء لعبت دورا فى ظهور الفكر اليسارى المتقدم ، ومخاطبة الجماهير بأراء يسارية متحسرة ، واهتمت بالثقافة الجديدة ، وتابعت قضايا المجتمع متابعة موضوعية تميزت بها عن غيرها من الصحف اليومية .

بينما بناء الوطن كانت تدعو الى الاقتصاد الحر والثقافة الغربية .

وجريدة الجمهورية عانت من انقلابات ادارية وفكرية لكثرة تغيير الذين تولوا مسئوليتها بعد أنور السادات الصاغ محسن عبد الخالق

ثم القائمقام عبد الرؤوف نافع ثم صلاح سالم اداريا وحسين فهمي
وأحمد قاسم جودة وجلال الدين الحمامصي وكامل الشناوي ثم صلاح سالم
تحريريا .

الايدولوجية ما زالت غائبة والحيرة طابع التصرفات . . .
والتجربة هي أساس الحركة .

جمال عبد الناصر يفكر في عمل مدرسة كادر يعهد بها الى خالد
محيي الدين في خريف ١٩٥٨ ثم ينتهي المشروع مع حوادث العراق
 وخروج خالد من المساء .

ويقترب العسكريون من مجال الفكر والثقافة ، وتعدد محاولات
الوصول الى الوضوح .

انشئت وزارة الثقافة عام ١٩٥٧ وأتاحت للدولة رعاية جميع صور
التعبير غير الرسمي والثقافة غير الاكاديمية . . . أول وزير لها كان
فتحي رضوان .

وتكونت جمعيات أخرى غير رسمية .

جمعية الخريجين التي رأسها محمد فؤاد جلال الذي تولى وزارة
الارشاد لفترة محدودة بعد استقالة صلاح سالم ثم خرج من الوزارة
لينشط في ميدان العمل السياسي بمحاولة تجميع البرجوازية والمتعلمين
العرب حول ثورة ٢٣ يوليو ، وكان له نشاط واضح في المشرق العربي . .
وفي افريقيا .

كان فؤاد جلال وطنيا مجردا ليهبت له نظرة اجتماعية . . .
وكان نشاطه متناسبا تماما مع المرحلة مرحلة البحث والحيرة .
رابطة اشتراكية عربية يرأسها كمال رفعت وتضم مهدي بن بركة ،
كلوفيس مقصود ، جبران مجدلاوي ، فؤاد الركابي ، محمد عودة ،
أحمد بهاء الدين ، لطفى الخولي . . . وهي رابطة تستهدف مناقشة الفكر
الاشتراكي ومحاولة ربطه بالقومية العربية . . . وهي في مضمونها كانت
تأخذ طريقا آخر غير الماركسية .

ورابطة مصرية للعلوم السياسية يرأسها عبد القادر حاتم ، وهي
رابطة تضم مجموعة من المشتغلين بالعلوم السياسية من أساتذة الجامعة
والمحيطين بهم ، وهي لم تسهم بتقديم جديد للفكر العربي المعاصر .

ورابطة الوعي الوطني يرأسها أمين شاكر وتضم الضابطان محمود
الجوهري والمهندس محسن ادريس ، والدكتور رشاد رشدي والمهندس

صلاح عامر والأطباء أحمد أبو ذكرى والنبوى المهندس • وتميزت هذه
الرابطة بأفكارها الليبرالية المحافظة ، التى جعلتها معزولة عن الواقع
الحى للمجمع •

(ولجنة التربية الوطنية) يرأسها صلاح دسوقي وتضم مراد غالب
والدكاترة ابراهيم حلمى عبد الرحمن وعبد الله العريان ورفعت المحجوب
ونظمى لوقا وسعيد النجار والأساتذة أحمد مختار قطب وسعيد العريان •
وكانت هذه اللجنة تعبرا أيضا عن طبيعة المرحلة حيث لا يتوفر الوضوح
لشئ ، وتغلب الحيرة كل شئ ••• وتختلط الأمور الفرعية مع الرئيسية
•• ويغيب صراع القوى الاجتماعية •

وكون كمال رفعت (رابطة لدرس الاشتراكية المعاصرة على الصعيد
النظرى) تضم مراد غالب ، أحمد بهاء الدين ، صلاح دسوقي ،
وابراهيم حلمى عبد الرحمن ، وهى امتداد مصرى للرابطة العربية السابقة •
وكانت هناك أيضا لجنة قراءة المسرح القومى التى شكلت أئناس
ادارتى له ووجود يحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون وشكلت من الدكاترة
محمد مندور ومحمد القصاص وعلى الراعى وعبد القادر القط •
كل هذه الروابط واللجان كانت ذات نشاط فى مجال المثقفين ولكنه
محدود فلم يكن لها تأثير فى مجال الرأى العام •

ولكن لجنة قراءة المسرح القومى لعبت دورا ايجابيا فى مساعدتى
على وقف زحف التيار الذى كان طاغيا على المسرح ، وهو تقديم المسرحيات
الترجمة أو المقتبسة لكتاب غير معاصرين • كانت ظاهرة غريبة ان كافة
المؤلفين الأجانب كانوا ممن ماتوا فعلا ••• أما المسرح العربى فكان مقصورا
على خمسة فقط من الكتاب هم الذين تكرر تقديم مسرحيات لهم •••
أحمد شوقي وعزيز أباظة ومحمد تيمور وعلى أحمد باكثير وتوفيق الحكيم
وهو الوحيد الذى استمرت صلاته بالمسرح وثيقة حيوية ومتجددة حتى
أصبح المؤسس الحقيقى للدراما المصرية •

ساعدت لجنة القراءة على وقف زحف المسرحيات الجامدة الاسلوب
والفكر معا •• وأتاحت للمسرح القومى تقديم جيل جديد من الكتاب
التقدميين ، حمل لواء المسرح بعد ذلك ومضى به فى طريق التقدم •••
نعمان عاشور ويوسف ادريس وسعد الدين وهبة والفريد فرج ورشاد
رشدى وغيرهم •

وظهر الكتاب التقدميون على خشبة المسرح لأول مرة يكتسبون تأييد
الجماهير والمثقفين معا ، فى مرحلة كان الناس فيها يتطلعون الى كل جديد
يضى لهم الطريق •

كتب دافيد كوان فى كتاب مصر منذ الثورة (المسرح لقي من الثورة دفعة كبيرة جدا وأخذ يصبح قوة جبارة فى الحياة المصرية رغم انه مازال صغيرا فى حجمه) .

وهكذا كانت الجماعات المختلفة تتبنى أفكارا متباينة وأحيانا متناقرة .

وجمال عبد الناصر يترك لها حرية التعبير فى صورة محدودة من عبارة ماوتسى تونج (دع مائة زهرة تفتتح) .

الحرية للجماعات التى يوجد العسكريون فى مركز التوجيه فيها . .
أما المنابر والجماعات الأخرى فالأمر يختلف .

كانت الصحافة ما زالت حتى هذه الفترة ملكا لأصحابها حرة فى تصرفاتها وتوجيهاتها بعد أن ألغيت الرقابة تماما بعد عام ١٩٥٦ .

ولم يكن مرضيا لطبيعة النظام ان تنفرد بعض الصحف باتجاهات لا تساير رغبة قيادة الثورة فى تغييز المجتمع .

وكان الوضع مثيرا للدهشة فعلا كل أجهزة الدولة تعرضت للتطهير مع بداية الثورة حتى الجيش نفسه . . . وخرج الذين أحاطت بهم الشبهات أو الذين اعتبروا فى موقف العداء .

ولكن الصحافة ظلت ملكا لأصحابها قبل الثورة . . . فلم تكن هناك مصادرة أو تأميم خارج نطاق قانون الاصلاح الزراعى . . . كل أنواع الملكية تعايش فى المجتمع .

ولكن قيادة الثورة تريد أن تشق طريقا خاصا وأجهزة الاعلام والصحافة هى مدفعيتها الثقيلة . . . جزء منها تملكه . . . الاذاعة وصوت العرب الذى بدأ برنامجا محدودا مدة ارساله ساعتان الا ربع تابعا للمخابرات العامة عام ١٩٥٣ ، تحول فى عهد ولاية صلاح سالم لوزارة الارشاد وتعيين أحمد سعيد مديرا للبرنامج الى جهاز دعائى مؤثر ارتفعت ساعات ارساله فى العام الأول الى ثمانى ساعات ثم وصلت فى عهد صلاح سالم أيضا الى ٢٢ ساعة هى مدة ارساله اليومى حتى الآن .

شارك صوت العرب فى معارك التحرير العربية . . . أعلن ساعة الصفر لثورة الجزائر فى الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ باذاعة بيان جبهة التحرير عن انفجار ٢٤ قنبلة فى أماكن مختلفة وأعد لها إذاعة سرية خاصة . . . ووجه طعنات حادة لحلف بغداد ، والمحكام المتهاونين مع الاستعمار . . . وكان عاملا مؤثرا ضد الدعاية الاستعمارية .

كانت المبالغة الشديدة والهجوم اللاذع تدمج برامج صوت العرب. أحيانا ، ولكنها فى النهاية أدت دورا متناسقا مع طبيعة الحركة الثورية. فى مصر .

ولكن الصحافة المصرية التى تعتبر من أجهزة الدعاية شديدة التأثير فى العالم العربى فكانت بعيدة عن التجاوب الحقيقى الفعل مع أفكار الثورة المتوهجة ، خاصة وإن الرقابة كانت قد ألغيت تماما عام ١٩٥٦ . وكان ذلك أمرا طبيعيا . . . معظم أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها كانوا من أتباع النظام الملكى المنهار ، المروجين له . . . الصحف الوفدية التى تولت - الى حد ما - معارضة الملك وتجاوبت مع ارادة الجماهير صودرت واختفت . . . المصرى وصوت الأمة والطلبة . . . وكل الجرائد والمجلات اليسارية صودرت أيضا كما سبق ذكره .

صحف أخبار اليوم يملكها التوأمان على أمين ومصطفى أمين ودورها فى تأييد الملك وفى دعم صحافة الاثارة ، والترويج للسياسة الامريكية. معروف .

صحف دار الهلال يملكها الاخوان اميل وشكرى زيدان وحرصهما شديد على ان تظل مجلات الدار كلها بعيدة عن الانفعال الحى مع واقع المجتمع المصرى .

والأهرام كانت ملكا لأسرة جبرائيل تقلا ، وظلت خلال تاريخها الطويل بعيدة عن المساهمة الايجابية مع الادارة الشعبية المصرية مغلبة. الاعتدال والاتزان على كل شئ .

صحف روز اليوسف يملكها احسان عبد القدوس ويشاركه فى صدورهما مجموعة من الشباب ذوى الآراء السياسية المختلفة وهى تحتضن الشيوعيين كما تحتضن الاخوان المسلمين . . . وهم فى آرائها السياسية واسلوبها الصحفى المتميز بالنقد لا يمكن أن تكون تابعة فى سكون .

ولم يتغير أحد من المسئولين عن تحرير هذه الصحف بعد الثورة ولم يؤثر نشر كشف المصاريف السرية عام ١٩٥٤ على موقع أحد فى المسئولية ، ولم يدخل التطهير دارا من دور الصحف .

ولم تكتف الثورة بما أصدرت من صحف يومية واسبوعية. وشهرية .

وتقرر تنظيم الصحافة فى سبتمبر ١٩٦٠ أى تمليكها للاتحاد القومى واعطائه سلطة الاشراف عليها ، وكان ذلك من مؤشرات التأميم والمبكرة.

مثل بنك مصر الذى أمم أيضا مع البنك الاهلى فى ١١ فبراير من نفس العام .

عبر جمال عبد الناصر عن أفكاره بالنسبة لتنظيم الصحافة بقوله فى اجتماع عقده مع رؤساء التحرير انها دأبت على نشر أخبار الطبقة البرجوازية فى نواذى القاهرة وانصرفت عن نشر أخبار الفلاحين والكادحين . . . (بلدنا هى كفر البطيخ . . . الى عاوز يكتب عن بلدنا يروح هناك ويشوف الناس الى لابسين برانيط قش الارز طول النهار علشان يعيشوا . . . كنت أفضل بدل الكلام عن هذا النوع من السيدات أن يكتب عن العاملات مثلا . . . فيه عاملات طلعاوا ياكلوا عيش بعرق جبينهم ويكافحوا بشجاعة وشرف) .

وعندما شكلت مجالس ادارات الصحف الجديدة. كان صلاح سالم فى موقعه رئيسا لدار التحرير ، وعين محمد حسنين هيكل الصحفى المقرب من جمال عبد الناصر رئيسا لمؤسسة الأهرام ودار الهلال بعد ضمها لبعضهما ، وتولى رئاسة مؤسسة أخبار اليوم .

وتولى منصب العضو المنتدب للمؤسسات الصحفية ضباط أيضا . . . القائمقام عبد الرؤوف نافع فى دار الهلال ويوسف السباعى فى روز اليوسف وسيد ابراهيم فى دار التحرير .

وبذا أصبح الجيش وقد وضع يده على المراكز الحساسة فى مجالات الصناعة والاقتصاد والاعلام والثقافة سندا للحكم الوطنى الجديد . . . ليس سندا مسلحا فقط بل سندا اداريا وتوجيهيا أيضا . . وأصبحت معظم الأمور فى المجتمع رهنا بدرجة أمانة ومثانة هذا السند .

يسمى أن تبرز داخل سلك الضباط وجهات نظر مختلفة حول دور الدولة الوطنية وطابعها وآفاق تطورها . . . البعض يتخذ مواقف محافظة ويعادى مشاركة الشعب فى التوجيه ، ويثبت روح الديمقراطية . . . والبعض منهم يستفيد من اختلاطه بالجماهير فى مجالات العمل ، ويتعارض فكريا ، ويسهم بقدراته فى تطوير المجتمع .

لم تصل وجهات النظر المختلفة ، أو الآراء المتنافرة الى درجة الصدام . . . لأن الجميع كانوا ينظرون الى جمال عبد الناصر نظرة الزعيم الذى أصبحت المسافة بينه وبينهم شاسعة .

وكان جمال عبد الناصر يعتمد على تأييد الشعب كما يعتمد على سلطة الجيش .

لم يجد في ذلك تناقضا... قال جيش طيع بين يديه ، والشعب مؤمن به .

كان متاحا لجمال عبد الناصر في هذه المرحلة ان يفتح الطريق امام القوى الوطنية والديموقراطية ، وان يبنى أسس النظام على حريات تؤمن مستقبله... وكان متاحا له أيضا أن يستوعب الطبقات المختلفة في جبهة وطنية بعد الاعتراف بكياناتهم المستقلة ، على غير الأسس الحزبية القديمة .

كان جمال عبد الناصر قادرا خلال هذه المرحلة على تجميع القوى المختلفة الاتجاهات والمواقع السياسية والاجتماعية والطبقية ، وله في ذلك تجربة ناجحة... قيادته لتنظيم الضباط الأحرار وهم من اتجاهات سياسية واجتماعية مختلفة . ولكن جمال عبد الناصر أثر أن يطور المجتمع بأجهزته الخاصة ، وشعبيته الهائلة .

الايدولوجية ما زالت غائبة ، وليس هناك اهتمام خاص بها حتى هذه اللحظة... كان التركيز كله على القضايا الوطنية بصورتها العامة .

قال جمال عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ (لم يكن مطلوبا مني في يوم ٢٣ يوليو أن أطلع ومعنى كتاب مطبوع وأقول أن هذا الكتاب هو نظرية... مستحيل)... ويقارن ذلك بالاسلام فيقول (كان يقدر ينزل مع سيدنا جبريل كتاب مطبوع ومجلد ويقول : هذه هي النظرية ، هذا هو القرآن... ابتداء الاسلام باشهد ان لا اله الا الله وان سيدنا محمدا رسول الله... ابتداء الاسلام بهذا... جملتان... لم يبدأ بكل ما هو موجود في القرآن) .

بعد سبع سنوات من الثورة قال ان ظروف مصر تختلف عن ظروف غيرها ، وان النموذج الذي يجب ان تطبقه هو الاشتراكية الديموقراطية التعاونية .

ويقول دكمجيان في كتابه (مصر في عهد ناصر) (ان طبيعة الحرب الباردة وخبرة مصر مع الاستعمار مرتبطة بالتقدم التجريبي للقادة العسكريين كان لها تأثير كبير في عدم الانحياز الايدولوجي الى الغرب أو الى الاتحاد السوفييتي .

ويبدو انه مع نهاية ١٩٥٥ تبين القادة العسكريون الاضرار والاعطال التي يتعرضون لها في حالة اختيار وتحديد ايدولوجية معينة ، أو اتخاذ موقف واضح الى جانب احدي الكتلتين... كما انهم تبينوا أيضا المكاسب

التي تعود عليهم من الابتعاد عن الاختيار ... وقد أدى هذا الى خلق توجيه ايدولوجي حيادي في السياسة الخارجية ، وعقيدة اشتراكية مستعارة للتغير الداخلي) .

عدم استقرار الموقف السياسي الخارجي كان له ولا شك تأثير كبير في غياب ايدولوجية الثورة ... واختيارها للاسلوب التجريبي الذي مارست به مسيرتها منذ اليوم الاول ..

وصلت القيادة بذلك الى براعة تكتيكية في مواجهة المشاكل والمواقف اليومية ... ولكنها لم تحدد بعد خطا استراتيجيا ... ولم تكتب برنامجا نظريا .

ولا شك ان محصلة تجارب الثورة غني مواجهتها للمشاكل سوف تثرى خبرتها وتوفر لها فرصة الوصول الى ايدولوجية محددة .

واذا كان الموقف في مجالات الصناعة والثقافة والاقتصاد قد سجل تطورا لمصلحة الجماهير عن طريق تدخل الدولة ... فانه لم يسجل تبعية الجيش لطبقة معينة .

البرجوازية الكبيرة تحاصر ، والبرجوازية الصغيرة تنمو ، والطبقة العامة تزيد وتنتشر والفلاحون يتغير واقعهم في بطن شديد ... والجميع بلا تنظيمات تعبر عنهم ... والمثقفون معزولون .

الموقف الداخلي في المجتمع ليس مستقرا بما يفرض ايدولوجية معينة ، والقيادة في حركتها اليومية تختار الطريق البسيط ، ولا تعتبر غياب الايدولوجية قضية رئيسية .

السياسة الخارجية

والسياسة الخارجية أيضا تفرض نفسها على الموقف ... تسهم في خفاق حالة من التردد ... وتأجيل اختيار الطريق .

حكومة الولايات المتحدة اعتبرت أن خروج إنجلترا وفرنسا من مصر سوف يترك فراغا ... ايزنهاور يبادر يوم ٥ يناير ١٩٥٧ بتقديم مشروع الى الكونجرس يخول حكومة الولايات المتحدة تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدول المنطقة نفاديا للتسلسل الشيوعي .

جمال عبد الناصر يرى في المشروع صورة جديدة من حلف بغداد .

وأمركا تريد تطويق مصر لفرض المشروع بتقديمه عن طريق الملك سعود ... وحشد قوات تركية على حدود سوريا ، وإعلان الحكومة

الأمريكية بإقامة جسر جوى لأمداد تركيا ولبنان والاردن والعراق
بالأسلحة .

الملك سعود يتراجع عن موقفه ويعلن تأييده لسوريا ، والأمير فيصل
ولى العهد يزور بيروت ودمشق ومصر ترسل قواتا عسكرية الى
اللاذقية للدفاع عن سوريا ضد أى اعتداء .

فرصة نجاح مشروع ايزنهاور تضيق .

وجمال عبد الناصر ينظر الى أمريكا باعتبارها الدولة التى تنتظر
ورثة مصالح انجلترا وفرنسا بدلا من تمصيرها وهو لا ينسى زفرض
دالاس الافراج عن بعض الارصدة المجمدة فى أمريكا لشراء أدوية ومضادات
حيوية ، بينما لبي السوفييت طلبه فى الحال .

الاعتقاد يميل الى اشتراك أمريكا فى مؤامرة العدوان الثلاثى ،
كشريكه بتمثيل دورها فى البقاء جانبا الى ان يحين موعد تدخلها . . .
ومشروع ايزنهاور هو بداية الدور .

ولكن فرصة نجاحه اقل من فرصة نجاح حلف بغداد ، لأنه يأتى بعد
انتصار مصر على عدوان ١٩٥٦ ، وتأكيد زعامة عبد الناصر فى العالم
العربى . . . وتعلق الجماهير بأذاعة صوت العرب التى كانت تهاجم الملوك
بلا تحسرج .

العسكريون فى مصر يواجهون الغرب . . . وعلاقتهم مع الشرق
تزداد نموا . . .

هذا رغم ان حياة العسكريين فى الجيش قبل الثورة كانت تسير
باسلوب خاضع لنداية تجعل الحياة الغربية محل اعجاب ، وتخلق من
دول الغرب نماذج تحدى .

النموذج الجذاب للعسكريين المصريين كان قائما فى الغرب حيث
درس بعضهم ، وتعامل معظمهم مع ضباط البعثة العسكرية ، وانبهر عدد
منهم بتقاليد الحياة البريطانية .

الخروج من دائرة الغرب ، المطبقة على كل الدول التى كانت محتلة ،
الى آفاق جديدة لم يكن بالرغبة الذاتية ، وانما اضطرارا أمام اختيار صعب
. . . أما الخضوع والتبعية الدائمة للامبريالية او المحافظة على الحرية
والاستقلال الوطنى .

ينمى هذا الاتجاه المؤامرات التى اكتشفت ضد سوريا من المخابرات
المركزية الأمريكية عندما اعتقل دباوماسى أمريكى يحاول تهريب مهاجر

سنورى فى عربته عبر الحدود مع لبنان وكشف الستار عن مؤامرة نورى السعيد لغزو سوريا أثناء العدوان الثلاثى .

المؤامرات الأمريكية يمكن أن تصل الى مصر أيضا . . . وهذا موضع الحذر .

وروح باندونج تعطى ثمرة فى القاهرة . . . مؤتمر الشعوب الآسيوية الافريقية. ينعقد فى القاهرة يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ بقساعة الاجتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . . . حضر ٥٣٧ مندوبا يمثلون ٤٨ شعبا تؤلف فى مجموعها ١٢٥٠٠ مليون شخص . . . أى ٧٠٪ من سكان العالم . .

انتخب المؤتمر أنور السادات رئيسا له . . . هذا مفهوم .

ولكنه انتخب يوسف السباعي سكرتيرا عاما . . . ويوسف ضابط اديب بدأ حياته الصحفية فى مجلة مسامرات الجيب ونشر عددا من القصص والروايات ، وليس له اهتمامات سياسية مطلقا ، ولم يكن من الضباط الأحرار .

كان هذا اختيار جمال عبد الناصر شخصيا . . .

قال لى يوسف السباعي انه أبلغ عبد الناصر عند إبلاغه نبأ التعيين، بأنه بعيد عن السياسة ولا يهتم بها كثيرا . . . وان الأدب يشغل حياته .

وهو اختيار يدل على الرغبة فى تعيين شخص بعيد عن الاهتمام السياسى فى هذا المركز الهام الذى يمكن أن يؤدى دورا أساسيا بارزا فى حياة الشعوب الآسيوية والافريقية .

واذا كان اختيار العسكريين ضروريا فانه كان بينهم من يستطيع بحكم ميوله الذاتية واهتماماته السابقة وخبرته فى الأعوام الماضية ان يؤدى دورا ايجابيا . . . لا يترك مؤتمر التضامن الآسيوى الافريقى فى القاهرة مقرا هامشيا بلا فعالية أو أثر .

ربما كانت الخشية من زحف الأفكار اليسارية ، أو الخوف من تأثير الأفكار التحررية على موقف السكرتير العام وهو فى موقع لا يتبع القيادة فى مصر من الوجهة الرسمية أو القانونية .

الخلاف مع الشيوعيين

كان هذا الاختيار انعكاسا لظروف المرحلة ، حيث اختفت كافة التنظيمات عدا التنظيمات الشيوعية السرية التى مرت فى عدة مراحل تنظيمية .

وكان وجود هذه التنظيمات دافعا الى بروز عدد من الاسماء اللاهعة
في مجالات الفكر والثقافة والصحافة .

موقف الثورة من الشيوعيين يكاد يعتبر في هدنة . . . ولكن النظر
الى تنظيماتهم موضع حذر ، تماما مثل احتمال المؤامرات الامريكية .

وفجرت الوحدة مع سوريا بعض التناقضات ، سكوتير الحزب
الشيوعي خالد بكناش عضو مجلس النواب السوري حضر الى مصر في وفد
برلماني قبل الوحدة وقابل جمال عبد الناصر ، ولكنه عندما أعلنت الوحدة
رحل عن سوريا .

اعتبر الشيوعيون ان الوحدة قد خدعت مصلحة كبار الملاك
والرأسمالين العرب الذين تدفقوا على مصر وخاصة البرجوازية السورية
التي وجدت فيها استقرارا لها ووقفا للتيار الماركسي الذي كان ينمو
وينتشر هناك .

وجهات النظر المتعارضة لا تنبت بين الشيوعيين والسلطة فقط .
ولكن بين الشيوعيين أنفسهم داخل تنظيماتهم المختلفة .
وعودة الى الماضي القريب تفسر هذه الحقيقة .

فجر ٢٣ يوليو كانت الحركة الديمقراطية للتححر الوطني (حدتو)
قد أصدرت منشورا بتأييد الحركة الوطنية للجيش .

أما الحزب الشيوعي المصري فلم يعلم بالحركة الا من الاذاعة والصحف
حيث لم يكن فيه قسم خاص للجيش ويقول الدكتور فؤاد مرسى سكرتيره
العم في ذلك الوقت انه أصدر منشورين أحدهما للجيش والآخر للشعب
يطالب بالافراج عن المسجونين والمعتقلين ومواصلة الكفاح المسلح وعلان
النظام الجمهوري . ضمن تأييد عام للحركة لم يستمر أكثر من ثلاثة أيام
فقط ، عندما تبين ان الحركة قد قررت اخراج الملك دون محاكمة ، وان
ذلك قد دفع الحزب الشيوعي الى سرعة اتخاذ موقف المعارضة ، بعد ثلاثة
أيام فقط ، صنفت فيه الحركة بأنها حركة عسكرية ستسير في اتجاه
فاشي لمصلحة اعداء البلد والاستعمار انجلو أمريكي .

ولم يقبل جمال عبد الناصر التفسيرات التي قدمت له للتمييز بين
الاتجاهين . . اتجاه حدتو واتجاه الحزب الشيوعي . . اذ وجد ان ذلك
أمرا يصعب تفسيره للجماهير . . وانه شخصيا غير مقتنع به وانه يطالب
بموقف موحد للشيوعيين . . . وكان ذلك الحديث في منزل أحمد فؤاد ،
وقد حضرت هذا اللقاء مع عدد من المسئولين في حدتو .

كان موقف الحزب الشيوعي في ذلك الوقت شديد التطرف والتفتت،
فإن خروج الملك في ذاته كان يعتبر خطوة ايجابية ، لا يجوز تعطيلها بدعوى
ضرورة محاكمة النظام الملكي كله ، في وقت لم تكن حركة الجيش فيه
تستند الى تنظيمات شعبية قوية . . ولم يكن مفروضا فيها ان تتصرف كما
لو كانت قيادتها ماركسية .

ظلت وجهات النظر المختلفة الى حركة الجيش مستمرة من جانب
التنظيمات الشيوعية ، ولو ان بعض الأحداث قد ساعدت على رفع شعار
مشترك للمعارضة ضدها عندما اعدم خميس والبقرى وصدرت القوانين
المعادية للديمقراطية بوقف الدستور وحل الأحزاب . . كما ان بعض
الأحداث قد جمعت الشيوعيين مع السلطة الجديدة في جهة واحدة كما
حدث في مقاومة العدوان الثلاثي بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ وفي
تأييد خطوات النضال ضد الاحلاف العسكرية وكسر احتكار السلاح وبداية
خلق علاقات تعاون وصداقة مع الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد
السوفيتي .

وعندما اتحد الشيوعيون عام ١٩٥٨ في الحزب الشيوعي الموحد ظلت
هنالك عدة تيارات رئيسية داخل الحزب . . تيسار يقول بأن النظام هو
ثالث يعتبرهم برجوازية وطنية صغيرة .

حيرة الحركة العسكرية وترددها في الاختيار طريق واضح انعكست
مباشرة على تحليلات التنظيمات الشيوعية .

وساعد على ذلك أيضا ما تم في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي
السوفيتي عام ١٩٥٦ .

كانت إعادة تقييم دور البرجوازية الوطنية في المؤتمر العشرين للحزب
الشيوعي السوفيتي ، وظاهرة التفتح التي ظهرت في كلمات ماوتسي تونج
بالصين دافعا الى حدوث مراجعات فكرية في التنظيمات الشيوعية أدت الى
نبذ أفكار الرفض الكامل والجنوح الى التأييد والتحالف .

يقول جان لاكوتير (ان اتجاه المؤتمر العشرين قد ساعد ناصر على
الا يصبح ديكتاتورا) .

ذلك صحيح لانه جعل الاتحاد السوفييتي يقدم له العون على تطوير
المجتمع ، ولم يدعه يسقط فريسة للامبريالية يعادى بعدها كل الوطنيين
والأحرار .

اصطدم التياران وفصل الحزب ممثلي الاتجاه الثاني شهدي عطية الشافعي وكمال عبد الحليم ومبارك عبده فضل وأحمد رفاعي بعد ٤ شهور فقط من توحيد الحزب .

وحدث لقاء مثير في أكتوبر ١٩٥٨ في منزل أنور السادات بين محمود أمين العالم ممثل المكتب السياسي للحزب الشيوعي الموحد رتب المقابلة الدكتور يوسف ادريس عضو (حدتو) سابقا ، والقريب من أنور السادات في ذلك الوقت .

امتدت المقابلة من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحا كانت جافة وحادة .

دعا أنور السادات الشيوعيين الى دخول الاتحاد القومي كأفراد واطهر العالم استعدادهم للتعاون بشكل تنظيمي داخل الاتحاد القومي على برنامج معين محتفظين بمنبرهم المستغل انتهت المقابلة دون اتفاق

وكانت ردود الفعل مختلفة عند الشيوعيين نظر الدكتور اسماعيل صبري عبده الله الى الموقف على ان الحكومة في حالة ضعف وانما تلجأ للشيوعيين لتستوعبهم ، فتضلل الجماهير وتمادى في تحليله فتوقع ان تدعوهم للمشاركة في الحكم . ولكن لم تكد تمضي على هذه المقابلة عدة أيام حتى بدأت حركة اعتقالات فردية للشيوعيين .

ولم يكن انفجار التناقض في مصر وحدها ولكنه كان في سوريا أيضا بصورة أكثر وضوحا .

عندما حاول اللواء عفيف البزري رئيس أركان الجيش السوري ابداء رأيه في توحيد الجيش ، وكان معروفا بصلاته الوثيقة مع الشيوعيين ، صدر قرار جمال عبد الناصر بخروجه من الجيش ومعه الضباط اليساريون الموالون له في التفكير .

لم يصدر هذا القرار في مصر لسببين أولا ان الضباط الشيوعيين الذين ظهروا كمتعاونين في حركة الضباط الأحرار كانوا اما قد خرجوا من الجيش خلال السنوات السابقة أو ذابوا في صفوف الضباط لم يعرفهم أحد .

وبهذا لم تشن حملة ضد الضباط الشيوعيين في مصر ولم تشن أيضا في سوريا كما حدث في ايران عندما حوكم ٦٥٠ ضابطا بتهمة الانتماء

الى حزب توده وحكم على عشرات منهم بالاعدام فى أواخر ١٩٥٤ . أو كما حدث فى باكستان عندما حوكم عشرة ضباط منهم اللواء أحمد خان واللواء و . أحمد والأمير الإمام لطيف فى مارس ١٩٥٣ بتهمة اعداد مؤامرة شيوعية ضد نظام الحكم .

لم يسلك جمال عبد الناصر سلوك القيادات الرجعية فى معاملة الضباط الشيوعيين لأن سلوك الشيوعيين نحو قيادته كان مختلفا .

كان حرصهم على التعاون معه فى مواقفه الوطنية يزداد وضوحا يوما بعد يوم . . . ولم تكن هناك تناقضات رئيسية بينه وبينهم .

ولكن ثورة العراق فرضت على الموقف أيضا مزيدا من الاضطراب . . . وتناقض جديد بين السلطة العسكرية فى مصر والسلطة العسكرية فى العراق كما سيأتى تفصيلا فيما بعد .

أدت هذه العوامل الى تغيير جاد فى مسلك الثورة من الشيوعيين . . . وبدأ الهجوم عليهم فى خطب جمال عبد الناصر تلميحاً ثم تصريحاً فى خطبته يوم عيد النصر فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩ فى بور سعيد المدينة التى قام فيها الشيوعيون مع العسكريين بدور وطنى بارز فى مقاومة المعتدين . وكانت جريدة المساء هى المنبر الذى يطل منه الشيوعيون على الراى العام . . . وكتب الدكتور عبد العظيم أنيس مقالا بعنوان (الحركة الوطنية العربية) اعتبره جمال عبد الناصر خروجاً على خط القومية العربية ، وطلب من خالد محيى الدين منع الدكتور عبد العظيم أنيس من الكتابة ووقعت المساء فى حيرة شديدة بين اتجاهات القومية العربية ، والاتجاهات اليسارية فى العراق . . . بل انها لم تنشر ما ورد فى خطبة جمال عبد الناصر من هجوم على الشيوعيين يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ فى بور سعيد .

ويقول خالد محيى الدين انهم حرصوا على عدم نشر شئ الا الانباء المؤكدة التى تجمع عليها وكالات الانباء .

وعندما لم تنجح ثورة الشواف فى العراق ، نشرت المساء (مانشيت) رئيسيا بعنوان (انتهت الثورة) واعتبر جمال عبد الناصر ذلك خروجاً على الخط وقرر عزل خالد محيى الدين من رئاسة المساء فأبلغه أنور السادات . بذلك يوم ١٢ مارس ١٩٥٩ .

وتوالى خطب جمال عبد الناصر تتهم الشيوعيين بالعمالة .

وفى يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ وصل يوجين بلاك يحمل عرضاً بقرض من البنك الدولى وفى ليلة رأس السنة هاجم البوليس منازل مئات من الشيوعيين ثم ترحيلهم الى المعتقلات .

صرح زكريا محيي الدين وزير الداخلية لسيمون لاكوتير المحررة في مجلة (فرانس اوبزر فاير) قائلا (في سوريا تشكل الشيوعية خطرا أما في مصر فهي لا تزيد عن كونها مشكلة فهنا نعرف الشيوعيين كلهم) .
وفي اليوم التالي لحركة الاعتقالات ٢ يناير ١٩٥٩ نشرت الصحف صورة برقيتين متبادلتين بين نيكيتا خروشوف وجمال عبد الناصر للتهنئة بمناسبة توقيع اتفاقية السد العالي .

ولكن هذه البرقيات المتبادلة لم تمنع مواصلة اتهامات عبد الناصر للشيوعيين بالعمالة ، ومواصلة نيكيتا خروشوف لمهاجمة عبد الناصر في حفلات الاستقبال وفي المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي .
تفجر الموقف بين قائد حركة التحرير الوطني في مصر وسكرتير الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

ولكن جمال عبد الناصر أعلن في خطابه بميلاد الجمهورية في العيد الأول للوحدة انه أرسل خطابا الى خروشوف وتلقى منه ردا (قويا - على حد تعبيره - من عشر صفحات) قرأ بعض فقراته على الجماهير بعد أن قال ان هناك أحاديث سببت بلبلة للناس مثل القول بوقف السلاح والمعونة والعلاقات الاقتصادية والمشاريع الصناعية بل والسد العالي .

قال خروشوف في رده (اذا نظر الانسان الى الموقف الحالي نظرة عملية لتمكن بسهولة من أن يرى اعداء الصداقة بين الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية المتحدة يريدون في الوقت الحاضر أن يجنوا أرباحا جشعة في الخلافات العقائدية بيننا) . وقال أيضا (أما فيما يتعلق بموقفنا من الشيوعية في الجمهورية العربية المتحدة فان الاتحاد السوفييتي لا يرغب في التدخل في الشؤون الداخلية) .

دخلت العلاقات مع الاتحاد السوفييتي في مرحلة فتور ولكن الخطابات ظلت متبادلة . . . خروشوف يستند الى مثل شعبي أولى يقول (لا تبصق في بشر قد تحتاج الى مياهه) وجمال عبد الناصر يستند الى مثل عربي يقول (يد واحدة لا تصفق) .

جمال عبد الناصر يحرص على عدم هدم العلاقات المصرية السوفيتية التي تقدم له العون في مختلف المجالات . . . ولكنه أيضا يود أن يؤكد سلطته داخل مصر ، فيصدر أوامره باعتقال مئات آخرين من الشيوعيين في شهر ابريل ١٩٥٩ .

كان جمال عبد الناصر يتصرف كرجل دولة في حرصه على العلاقة مع

السوفييت ، وكزعيم له طبيعة عسكرية فى التعامل مع المعارضين له فى
الجبهة الداخلية .

ويقول انطونى ناتنج (فى كتابه ناصر) ان جمال عبد الناصر لم
يفعل ذلك حفاظا على سلطته ، أو حماية للوحدة مع سوريا فقط ولكنه
أراد أن يثبت للعالم عامة وللولايات المتحدة خاصة أن سياساته بعد السويس
ليست مرتبطة بالأيديولوجية الشيوعية كما سبق له أن قال .

وانتهزت حكومة الولايات المتحدة الفرصة وانتعشت آمالها فى العودة
الى مركز النفوذ فى المنطقة من جديد .

واستأنفت مساعدتها الاقتصادية لمصر وأعلن دالاس ذلك فى
١٢ أكتوبر بمساعدة أولية مقدارها ١٣ مليون دولار . وبيع القمح بالثمن
المصرى .

وعادت العلاقات مع بريطانيا أيضا فى ديسمبر ١٩٥٩ بتعيين كرلين
كوو قائما بالأعمال ولكن جمال عبد الناصر لم يقابله أبدا حتى أعيدت
العلاقات الدبلوماسية كاملة مع بريطانيا فى مارس ١٩٦١ بتعيين سير
هارولد بيلي سفيرا فى القاهرة .

أما فرنسا فلم تعد العلاقات معها الى طبيعتها بعد اعتقال مدير بعثتها
مسيو ماتى واتهامه بالتجسس فى نوفمبر ١٩٦١ وعدم الإفراج عنه إلا بعد
خمس شهور عندما قرر ديغول إعلان استقلال الجزائر .

محاولة اسغلال الحكومة الأمريكية للموقف عن طريق عودة المساعدات
(كانت مكشوفة لدرجة أنها لم تفلح) كما يقول انطونى ناتنج .

ولم يحدث تبادل للاتهامات فى الخطاب أو حفلات الاستقبال
وفوجئت يوما بصلاح سالم يحدثنى عن رغبته فى مقابلة خروشوف واجراء
حديث معه .

وكان العرض من الغرابة فى وقت تستعر فيه الحملة ضد الشيوعية
الى الحد الذى تبيننت منه انه محاولة من جمال عبد الناصر لرأيه الصريح
دون ان يصرح صلاح سالم بذلك .

وفى اجتماع حضره صلاح ومستشار القاهرة السوفيتية فاديم
سنيلىكوف وانا تم الاتفاق على ابلاغ موسكو برغبة صلاح سالم وجاء
الرد بعدها بأيام بالموافقة .

سافرت مع صلاح سالم ومعنا الزميل الصحفي اليسارى عبد العزيز
فهمى الى الاتحاد السوفييتى يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٩ واستقبل خروشوف

صلاح سالم في مكتبه بالكرملين وأجرى معه حديثا لجريدة الجمهورية نشر فيها .

١. ولكن الرحلة كانت تمهيدا للاتفاق على تنفيذ المرحلة الثانية من السد العالي وضمن استمرار الامداد بالأسلحة .

٢. وافق خروشوف دون تردد . . . وكانت بعثات الضباط المصريين ما زالت موجودة تواصل دراستها .

٣. وفي هذا اللقاء تحدث خروشوف مرة أخرى عن عدم جدوى اعتقال الشيوعيين وان الوحدة مع سوريا بدأت تتعثر . . . وكان عبد الحكيم عامر وقت المقابلة في دمشق بصفته نائبا لرئيس الجمهورية ، ولم يتورع خروشوف عن القول بأن عامر يعيش في سوريا فوق (خازوق) في مقعده .

٤. أرسل صلاح سالم صورة الحديث لناصر ومعه ملخص بما تم في المقابلة ، على أن يسافر معا إلى المغرب في محاولة لدخول الجزائر من مدينة (أوجوا) ولكنه تلقى إرقية من عبد الناصر بالعودة فورا إلى القاهرة ، وعاد بفردة حذاء وفردة شيشب من آلام النقرس التي كان يعاني منها .

٥. (نشر الحديث في جريدة الجمهورية يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ تحت هذه العناوين الرئيسية على لسان خروشوف (لا صلة بيننا وبين الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية - الموقف في البلاد العربية غير صالح الآن لقيام نظام شيوعي - عواطفنا مع اللاجئين الفلسطينيين ولا نريد أن تكون لنا مصالح مع الصهيونية - الاستعداد لتسليح الجيش والمرحلة الثانية من السد العالي وتنمية الاقتصاد) .

٦. وتحسنت العلاقات الرسمية قليلا وخفت حدة موجة الهجوم على الشيوعية ولكن إذاعة صوفيا ظلت منبرا للشيوعيين العرب ينتقدون فيها النظام الذي كان يهاجمهم من صوت العرب هجوما شديدا .

٧. وحدث أن إذاعة المحطة في أوائل عام ١٩٦٠ خبر اعتقال القائمقام يوسف صديق ووفاته في المعتقل . . . ولم يكن الخبر صحيحا .

٨. وتوجه يوسف صديق بنفسه إلى سفارة بلغاريا في القاهرة وأبلغهم أن إذاعة مثل هذه الأخبار لا تفيد شعب بلغاريا ولا تفيد أيضا شعب الجمهورية العربية المتحدة .

٩. ولكن أخبار إذاعة صوفيا لم تكن كلها غير صحيحة . . . كان الشيوعيون الذين اعتقلوا أولا في الفيوم ثم رحلوا إلى معنقات انشئت في الواحات والوادي الجديد يعانون من المعاملة السيئة والتعذيب والاضطهاد .

وبلغ التعذيب غايته فى سجن أبى زعبل حيث عومل كبار المثقفين المصريين وطلبة العمال والفلاحين معاملة وحشية وتعرضوا لاهانات لا تتفق مع الكرامة الانسانية ، مما جعل سمعة النظام المصرى فى الدول الاشتراكية وبين الأحزاب التقدمية يتعرض الى اساءة بالغة .

وفى يوم كان قد عاد من الاسكندرية عدد من الذين كانوا يحاكمون أمام محكماتها العسكرية ، واستقبلهم بعض رجال السجن بالضرب الشديد ، وسقط المناضل شهيد عطية الشافعى أحد الرواد الأوائل فى الحركة الشيوعية المصرية قتيلا تحت أيدي المجرمين .

كان جمال عبد الناصر أثناء ذلك فى زيارة تيتو فى يوغوسلافيا عندما بلغه النبأ فأصدر أوامره بطرد اللواء اسماعيل راغب همت أحد ضباط الجيش الذين زحفوا أيضا حتى الى مصلحة السجون والتحقيق معه ومع عدد من ضباطه .

ولم يكن المناضل شهيد عطية الشافعى هو الشهيد الوحيد .

توفى ثمانية معتقلين شيوعيين من آثار التعذيب والمعاملة السيئة فى السجن فى الفترة ما بين ١٢ ابريل ١٩٥٩ ، ٢٣ يوليو ١٩٦٠ وهم المناضلون موظف محمد عثمان بطنطا وطالب مصطفى شوقى والدكتور فريد حديد وموظف سيد التركى وعامل على متولى الديب ومرشد محمد رشادى خليل وعامر سيد محمد .

لعمرة التوازن

ومضت أكثر من سنتين لم يقابل فيها جمال عبد الناصر خروشف حتى اتاحت لهما الفرصة فى سبتمبر ١٩٦٠ عند افتتاح الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، بعد ان كان الاتحاد السوفيتى قد رصد لمصر ٩٠٠ مليون روبل فى ٢٨ أغسطس ١٩٦٠ وقال له جمال عبد الناصر انه اذا كان قد حظر الحزب الشيوعى فى مصر فانه فعل ذلك لأن الشيوعيين أخطأوا فى تحليل الطريقة التى يجب تطوير البلاد بها كذلك أبلغه انه لا يشترك فى أى حرب صليبية عامة ضد الشيوعية وانه ليس معادبا للشيوعية . . وذلك كما ذكر محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) .

ولم يقابل جمال عبد الناصر خروشف فقط فى نيويورك وانما التقى مع عدد كبير من زعماء العالم الذين احتشدوا فى هذا الاجتماع التاريخى العاصف . . . والتقى أيضا بايزنهاور رئيس الولايات المتحدة ، وتحدث

معه فى العلاقات ما بين البلدين وفي تطوراتها وفى ضرورة النظر اليها على ضوء جديد يتماشى مع ما نتطلع اليه جميعا من سلام قائم على العدل ... ولكن مدة رئاسة ايزنهاور كانت فى شهورها الاخيرة ومن ثم لم يتسع للمحاولة الجديدة ان توضع موضع الاختبار .

جمال عبد الناصر حريص على وجود علاقة طيبة مع العسكريين ... العلاقات مع الاتحاد السوفييتى تتحسن ... والولايات المتحدة تمد مصر بالمساعدات بأمل محدود فى استعادة مواقعها .

كان المستثمرون الغربيون الذين كان يحتمل ان يوظفوا ثرواتهم فى مصر قد اعتقدوا ان مشاريع ناصر الكبرى ليست سوى نوع من (الاقتصاد الامبراطورى) الذى يهدف الى جعل مصر المركز الصناعى لامبراطورية عربية حديثة كما كتب جيلبر شيلورك فى عدد أكتوبر ٥٨ من مجلة فورتن .

المساعدات الأمريكية لم تكن تلعب دورا كبيرا فى تطوير المجتمع ، ولكنها كانت ذات فائدة فى التمويل وبعض الخدمات ، واسهمت فى بعض مشاريع السنوات الخمس بمبلغ ١٦٢ مليون دولار مقابل ١٧٢ للاتحاد السوفييتى وحصلت هيئة قناة السويس على قرض قيمته ٥٦٥ مليون دولار من البنك الدولى فى ديسمبر ١٩٥٩ بالإضافة الى خمسة ملايين من المصارف الأمريكية لتحسين القناة .

واقتربت ألمانيا الغربية أيضا من مصر ... سافر اليها ٥٠٠٠٠ طالب فى منح وبعثات ، وقدمت مساعدات قيمتها ٤٨٤ مليون دولار فى مشروع السنوات الخمس الأولى .

وانتهز جمال عبد الناصر فرصة انتخاب جون كيندى رئيسا للولايات المتحدة وأرسل له خطابا فى ٢٠ فبراير ١٩٦١ بمناسبة اغتيال الزعيم الكونفولى بارترىس لومومبا .

وبادر الرئيس الأمريكى بالرد على جمال عبد الناصر فى ٢ مارس ١٩٦١ ... وبدأت علاقة مراسلات ودية بين الرئيسين .

وحدث تحول ظاهر فى العلاقات عندما طلب جمال عبد الناصر تحويل طلبة البعثات المصريين فى الاتحاد السوفييتى الى الولايات المتحدة ووافقت الأخيرة على ذلك وانتقل فعلا ٢٤٠ طالبا الى هناك .

واستمرت الخطابات متخطية عقب محاولة الغزو الأمريكى لخليج الخنازير فى كوبا التى وقف عبد الناصر وبتتو فيها موقف التأييد لفيدل

كاسترو ، فى محاولة لاقامة صداقة مصرية أمريكية على أساس عدم التدخل
أو التنازل عن الحرية والاستقلال الوطنى .

هكذا كان جمال عبد الناصر يحاول خلق علاقات طيبة مع الاتحاد
السوفييتى ومع الولايات المتحدة فى وقت واحد لم يتورع عن الدخول
فى مصادمات علنية عندما وجد ان فى ذلك ما يعتبر محاولة للتدخل فى
شئون مصر ، ولكنه لم يلبث أيضا أن غلب مصلحة مصر فوق شحنة عواطفه
المتفجرة .

كان جمال عبد الناصر حريصا على ان يلعب لعبة التوازن بمهارة فى
السياسة الخارجية .

لا يمكن القول بأن جمال عبد الناصر كان مواليا للسوفييت أو مواليا
للأمريكيين ولكنه كان مواليا لمصر فى حدود يقينه واقتناعه وقد برزت
شخصيته فى المجال العالمى نتيجة مواقفه الوطنية وأصبح زعيما له
شهرة عالمية تدفع الناس فى انحاء العالم اذا ما قابلوا مصريا فى بلدهم ان
يقولوا (اوه . . . ناصر) .

ولكن هذا التميز الواضح والوصول الى طليعة زعماء العالم الثالث ،
لم ينعكس تطورا على أسس علمية سليمة فى المجال الداخلى .

اختار جمال عبد الناصر الطريق السهل ، واعتمد على العسكريين
فى اقامة نظامه ، ولم يبذل جهدا حقيقيا فى تكوين كادرات قيادية فى مجال
العمل السياسى ، مع اتخاذه موقفا عازلا بينه وبين العناصر التى مارست
السياسة فى تنظيمات أخرى .

وأدى لمعان شخصيته فى المجال العالمى وانتصاراته فى المجال الوطنى
الى خلق فارق واسع بينه وبين زملائه العسكريين ، فأصبح لهم زعيما
لا ينازع وقائدا لا يتناول الى قمته احد .

وأدى ذلك الى تغييرات حقيقية فى شخصيته وفى أسلوبه ، وخاصة
بعد الوحدة مع سوريا واتساع رقعة البلاد ، وظهور محبة الشعب هناك له
وحملهم لعربيته فوق الاكتاف فى مدينة حلب وغيرها .

أصبح صعبا عليه ان يمارس حياته التى اعتادها يقابل زملاءه
فى بساطة دون تحديد مواعيد ، يستقبلهم احيانا فى غرفة نومه ، يستمع
الى مزاحهم ونكاتهم يحرص على مناقشة آرائهم ويتعرف على أخبارهم .

أصبح ذلك مع الوقت صعبا عليه لأن وجوده فى قمة السلطة جعل

الجميع يتجهون اليه ويحاولون الوصول الى اغراضهم عن طريقه ، ويبعدون وقتهم وأحيانا يشيرون أعصابه .

ولذا دخل الزعيم الذي بدأ حياته رجلا عاديا بسيطا لا يهتم بالمظاهر دائرة حصار من العزلة . . . دخلها بارادته ولم يعد سهلا على أحد ان يقتحم عليه عرينه الا اذا كان مطلوبا أو بناء على موعد سابق .

وأصبحت صلاته الرئيسية بالناس خلال أجهزته وخلال مكتبه . . . فكان يرى صورة المجتمع في أوراق وتقارير تقدم له . . .

ولا يعنى هذا انه فقد حسبه الشعبى . . . خطبه تظهر انه كان يعرف مشاعر الناس واحلامها ومتاعبها . . . والاجراءات التى كان يتخذها كانت تعبيرا عن رغبته فى تخفيف متاعب الناس .

قوانين الخدمات التى توالى صدورها وقفت بانشاء لمجلس الدائم للخدمات العامة ، والوحدات المجمع ، والمساكن الشعبية ، ومجانبة التعليم وزيادة عدد المدارس ، وخفض ايجارات المساكن التى انشئت بعد ١٨ سبتمبر ١٩٥٥ بمقدار ٢٠٪ والحد من السفر للخارج لتوفير ١٠ ملايين جنيه للدولة ، وصدور قانون الجمعيات التعاونية .

كل هذه القوانين كانت تظهر موقف القيادة الواضح فى تخفيف متاعب الناس عموما ودعم البرجوازية الصغيرة خصوصا .

ورغم وضوح هذا الموقف يوما بعد يوم الا أن الاتحاد القومى ظل عاجزا عن استيعاب هذه الأفكار والسير فى هذا الاتجاه . . . لأن قوانينه كانت تحوى عبارات عامة (يعمل على بناء المجتمع العربى الاشتراكى الديموقراطى التعاونى الذى يعمل بجميع منظماته وأفراده على تحمل مسئولية مجتمع تسوده الرفاهية ويتحقق فيه القضاء على الاقطاع والاستغلال وان توجه الملكية الفردية وظيفتها الاجتماعية لمصلحة المجتمع والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم وان يقوم القطاع الاشتراكى فى مجالات الصناعة والتجارة والمرافق العامة بجانب النشاط الخاص) .

عجز التنظيم وتعليق الجماهير بارادة الزعيم اصابت المجتمع بوع من السلبية والتواكل ، انعكست فى النهاية على مسار الثورة فتعثرت فى أزمة الانفصال كما سيأتى تفصيلا فيما بعد .

وكانت هذه هى نهاية الاتحاد القومى كتنظيم سياسى ، حيث تكتشف نواحي العجز والقصور فيه ، وتبين انه لا يصلح تنظيما فى بلد وطنى يحرص على مصلحة طبقة جديدة لم تستكمل نهوضها وهى البرجوازية الصغيرة .

لم يكن الوضع في مصر مشابها للوضع في البرتغال حيث يمكنكم نظام دكتاتوري ادهابى لا يهتم الا بمصلحة الاقطاعيين وكبار الاسكاريين والرأسماليين .

ومارس جمال عبد الناصر النقد الذاتى لأول مرة أمام الجماهير وهو يقول فى مناقشات المؤتمر الوطنى عام ١٩٦٢ (ان الفكر الثورى قد وقع فى الخطأ حين توهم ان الطبقة المحتكرة التى كان لا بد ان تسلبها الثورة امتيازاتها الاستغلالية يمكن لها ان تقبل الوحدة الوطنية) .

ويفسر ذلك فيما بعد بكلمانه البسيطة فيقول فى عيد السد العالى ١٥ يناير عام ١٩٦٧ (الأساس الذى بنى عليه الاتحاد القومى لم يكن بالأساس الساييم ، شىء ضد العقل وضد الطبيعة واحنا كنا طيبين جدا وعاوزين نلم الاقطاعى الى خدنا منه ألف فدان مع الفلاح الى وزعنا عليه خمس أفدنة وكنا بنعتبر انه حينسى ويقول ان احنا بنمشى فى المجتمع الجديد) .

ليس هذا فقط . . . بل ان جمال عبد الناصر يعتبر ان مهادنته للرجعية العربية كانت خطأ . . . ويقول (كنا نرفض المصالحة مع الاستعمار ولكننا وقعنا فى خطأ المصالحة مع الرجعية ، تصورنا انهم أبناء نفس الوطن وشركاء نفس المصير ، ولكن التجربة أثبتت خطأ ما كنا نتوهمه) .

وحدد جمال عبد الناصر طريقة جديد فى خطابه يوم ١٦ أكتوبر ١٩٦١ (من هنا كان أهم ما يواجهنا هو إعادة التنظيم الشعبى ليكون الاتحاد القومى أداة ثورية للجماهير الوطنية وحدها ، صاحبة الحق والمصلحة فى التغيير الثورى) .

اقتنع جمال عبد الناصر بأن بقايا الاقطاع والبرجوازية الكبيرة لا يمكن ان ترتفع فوق مصالحها الانانية الضيقة .

واقنع أيضا بأن محاربة الامبريالية فى الخارج لا تفرق عن محاربة الرجعية المتعاونة مع الاستعمار فى الداخل .

واقنع أخيرا بأن وجود التنظيمات السياسية بغير وثيقة فكرية توجه أفرادها هو أمر يبدد طاقتها فى وجهات نظر متباينة وصراعات فكرية متعددة .

ولم يعد غياب الايديولوجية مقبولا

ولم يعد الاتحاد القومى تنظيما صالحا .

ووضح الاختيار ليقضى على الحيرة .

الباب الثالث

● مجتمع عبد الناصر

الفصل السابع

محاولة ... لنظرية جديدة

(لا بد لنا ان نقاتل الاستعمار فى قصور
الرجعية .. وان نقاتل الرجعية فى احضان
الاستعمار)

جمال عبد الناصر

لم يتغير واقع المجتمع ، ولم يرتفع مستوى المعيشة كثيرا رغم كل
الاجراءات التى اتخذت فى الخمسينيات ... قانون الاصلاح الزراعى
تخفيض ايجار المساكن ، مصادرة اموال الاسرة الملكية ، تأمين القناة ،
تمصير البنوك والشركات البريطانية والفرنسية ، تشجيع رؤوس الاموال
الأجنبية ورفع نسبتها فى الشركات الى ٥١ % .

لم يتطور المجتمع عن طريق التقدم الرأسمالى ... أحجمت
البرجوازية المصرية الكبيرة عن الاسهام الايجابى فى دعم الاقتصاد القومى
... وقدراتها فى ذلك عموما كانت محدودة ... الاستثمار الصناعى عام
١٩٥٢ كان ٢١٠٠٠ ر ٢١٠٠٠ جنيه فقط .

وبذلك أثبتت أن قدراتها فى تحقيق خطط التنمية محدودة .

وحتى فى هذا الوضع أخذت البرجوازية تتذمر وتفكر فى الخلاص من كل رقابة من جانب الدولة خاصة وان قيام الثورة كانت تقترب تدريجيا من التدخل عن طريق قوانين الشركات ، ووضع بعض العسكريين فى مواقع النفوذ ، واستيلاء الدولة (القطاع العام) على الشركات الممصرة .

ونضج التناقض بين مطالب الأمة الديمقراطية العامة وبين مصالح المستثمرين الطبقيية ٠٠٠ ولم تعد (الاشتراكية الديمقراطية التعاونية) صيغة مناسبة لتطوير المجتمع لما أحاط بها من غموض وغلفها فى نوايا طيبة غير واقعية .

الهدف ٠٠٠ رفع مستوى المعيشة لا يتحقق بالصورة المرضية ٠٠٠ ما زال الفلاح فى تخلفه وفقره والعامل فى معاناته ٠٠٠ ولكن الطبقة الوسطى تنمو وتتدعم ، ومع ذلك فالحياة ما زالت تطحنها .

ولم يكن استمرار الوضع على ما هو عليه مقبولا ٠٠ الشوار العسكريون لا يريدون ان يتحولوا الى حكام فقط ٠٠٠ والقادة الوطنيون الذين حصلوا على تأييد شعبى ساحق فى خطواتهم الوطنية لا يرتضون ان يقفوا موقف العجز أمام الشعب فى خطواتهم الاجتماعية .

عندما قرر جمال عبد الناصر تأميم بنك مصر استدعى اليه أحمد فؤاد وقال له انه يشعر بأن السلطة فى يد كبار الرأسماليين .

ولكن تأميم البنك الأهلى وبنك مصر لم يكن كافيا لازالة الشعور بسيطرة كبار الرأسماليين ٠٠٠ ولم يكن عاملا مؤثرا فى القضاء على مشاكل المجتمع .

والاشتراكية هى أكثر الكلمات بريقا واغراء فى مجال التقدم الاجتماعى ٠٠٠ ولكنها استخدمت أحيانا فى غير مجالها ٠٠٠ هتلر أطلق على حكمه النازى اسم (الاشتراكية الوطنية) ٠٠٠ وكلمتا الديمقراطية والتعاونية لم يتحولا الى جناحين تحلق بهما الاشتراكية فى مصر الى آفاق جديدة رغم قول جمال عبد الناصر فى المؤتمر التعاونى بجامعة القاهرة يوم ٥ ديسمبر ١٩٥٧ (اننا نهلف الى اقامة مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى متحرر من الاستغلال السياسى والاستغلال الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى) .

الموقف يزداد صعوبة أمام القيادة الطموحة ٠٠٠ والذين بشروا بالاشتراكية فى مصر من قبل الثورة كانوا معتقلين فى السجون من ليلة رأس السنة لعام ١٩٥٩ ٠٠٠ تلاحقهم الاتهامات انهم شيوعيون وانهم عملاء .

ولكن هذه الحقيقة لم تقف عقبة في وجه جمال عبد الناصر . . .

أبقى الشيوعيين أو الاشتراكيين الحقيقيين في المعتقلات . . . وبدأ
يدبر ثورة جديدة بسرية كاملة . . . بصورة تختلف قليلا عما حدث قبل
٢٣ يوليو .

الثورة الاجتماعية تدبر من السلطة بعيدا عن المناقشة الحرة المفتوحة
. . . والذين اشتركوا في تدبيرها عدد محدود .

يقول زكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادي ان تأميمات ١٩٦١
لم تعرض على أعضاء مجلس القيادة السابقين في جلسات عمل رسمية . . .
وانما اثير الموضوع للمناقشة في جلسة واحدة خاصة بالاسكندرية حضرها
جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي وزكريا محيي
الدين وكمال الدين حسين فقط .

لم تكن هناك صورة واضحة عن المدى الذي كان يراه عبد الناصر في
موضوع التأميم .

كانت هناك آراء بديلة من بعض أعضاء مجلس القيادة السابقين . . .
تحديد ملكية الاسهم في الشركات للفرد والأسرة . . . عدم تأميم أى مشروع
الا اذا كانت هناك قدرة على ادارته ادارة جيدة .

ومع ذلك فلم يعترض أحد من أعضاء مجلس القيادة على مشروع
قوانين التأميمات . . . جميعا وافقوا عليها . . . ولم يبذل أحد منهم جهدا
في دراستها لانها لم تعرض عليهم تفصيلا .

رتب جمال عبد الناصر مشروعات القوانين مع عبد المنعم القيسوني
وحسن عباس زكي وكلاهما غريب عن الاشتراكية ، بعيد عن الاقتناع
بها . . .

وأحمد فؤاد الاشتراكي الذي احتفظ بعلاقته مع عبد الناصر لم
يستشر أيضا ، كما استشير عند تأميم بنك مصر . . . وسمع القوانين من
الاذاعة وقراها في الصحف كما حدث مع الشعب في مصر وسوريا .

وعزيز صدقي وزير الصناعة استبقاه جمال عبد الناصر في استراحة
المعمورة بعد استقبال وفد من نيجيريا ، واطلعه على الدليل الصناعي حيث
كان قد أشر بالقلم الرصاص على أسماء شركات عديدة ثم قال له (الدولة
ليس لها رقابة . . . وأنا أريد تأميم الصناعة) .

وقدم عزيز صدقي مذكرة يقترح فيها تأميم الصناعات الأساسية . . .
الغزل والأسمنت والمناجم .

كانت فكرة التأميم التي استولت على جمال عبد الناصر وليدة رغبته في التغيير الاجتماعي ، ونتيجة طبيعية لحركته التجريبية ، مع توفر الجدية والقدرة على الاستفادة والوصول الى نتائج جديدة . . . تدفعه الى ذلك طبيعته العسكرية التي يعبر عنها زكريا محيي الدين بقوله (ان جمال عبد الناصر لم يكن فيلسوفا ولكنه كان ثوريا جامحا) .

كانت ارادة جمال عبد الناصر في التغيير أقوى من ان تقف عندها حواجز التقاليد القائمة في المجتمع ، وكان أسلوبه السري في التدبير مازال مسيطرا عليه .

لم يكن جمال عبد الناصر من المعتنقين للفكرة الاشتراكية العلمية مثله مثل كل العسكريين الذين أصبحت السلطة كاملة في ايديهم ، ولكنهم جميعا بالتأكيد كانوا يريدون تغيير المجتمع ، ويريدون أيضا ان يتحرروا من أية سلطة لرأس المال ، بعد ان تحرروا من كل القوى والهيئات والتنظيمات السياسية .

ولكن صلات جمال عبد الناصر الخارجية ، وتركيزه على العمل السياسي ، وجديته في مواجهة المشاكل ، كانت تدفعه دفعا الى اعتناق منهج فكري جديد تؤهله له موهبته ورغبته في التعليم وحسن استماعه .

ولم يكن هناك من سبيل الا الاشتراكية بعد بلورتها واخراجها من غموض الفترة السابقة التي اقترنت فيها بالديموقراطية والتعاونية .

أحد الذين أثروا على تفكير جمال عبد الناصر في هذه الفترة كان جوزيف بروز تيتو الذي تعددت اجتماعاته به ومناقشاته معه . . . وكان جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة يواصل تبادل الخطابات مع كيندي . . . ولكن علاقاته مع خروشوف كانت باردة .

وتطور جمال عبد الناصر في هذه المجال كثيرا عن زملائه من الضباط الذين احاطوا به وكانت نظرتهم ثابتة غير متطورة . . . وكان اليساريون او الاشتراكيون الحقيقيون من الضباط اقلية قبل الثورة ، أما بعدها فقد عزلوا أو أصبحوا أقل نفوذا .

لم يكن هناك يساري واحد مقرب من جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة . . . يوسف صديق وخالد محيي الدين في المعاش بالمنزل ، وأحمد فؤاد لم يكن مقربا .

ولكن جمال عبد الناصر كان يريد تحطيم الحصار الذي حاولت البرجوازية المصرية أن تفرضه حوله وتقيده به . . . فانها لم تكتف

بالاستقرار الذي يشهد الحكم العسكري دعائه ، وانما ارادت المشاركة
في السلطة ووقف تدخل الدولة .

ولم يكن هناك من سبيل لتنفيذ ما يبقى سوى السلطة الادارية وحدها
... التنظيم السياسى كان عاجزا عن الحركة وليس فيه كادرات قيادية
واعية ... والاشتراكيون الحقيقيون ما زالوا فى السجون والمعتقلات .

وفجأة ... وبلا أى تمهيد ... ودون حشد للجماهير أو تعبئة
للافكار ... أو محاولة لتحريك التنظيم أخذت وسائل الاعلام من الصحف
واذاعة تصدر بقوانين جديدة .

يخصص ٢٥٪ من أرباح الشركات للموظفين والعمال .

اشراك أربعة أعضاء منتخبين من الموظفين والعمال فى مجالس ادارة
الشركات .

تحديد الحد الأعلى للمرتبات ٥٠٠٠ جنيه فى العام .

اقرار الضريبة التصاعدية لتصبح ٩٠٪ على الدخل التى تزيد عن
١٠٠٠٠ جنيه .

قانون ١١٧ بتأميم ١٤٩ شركة تتحول أسهمها الى سندات اسمية على
الدولة لمدة ١٥ سنة بفائدة ٤ر٥٪ ... وكان منها ٧١ بنكا ، ١٧ شركة
تأمين .

قانون ١١٨ باشارك القطاع العام فى ٩١ شركة بحصة لا تقل عن ٥٠٪
من رأس المال .

قانون ١١٩ بتحديد ملكية الفرد فى الشركات بما لا تزيد قيمته
السوقية عن ١٠ر٠٠٠ جنيه أو ١٠٠ر٠٠٠ ليرة وتؤول الى الدولة ملكية
الأسهم الزائدة .

قانون رقم ١٢٠ تنظيم منشآت تصدير القطن فى الأقاليم الجنوبية
بحيث تأخذ شكل شركة مساهمة عربية لا يقل رأس مالها عن ٢٠٠ر٠٠٠
جنيه وتشترك فيها احدى المؤسسات العامة بحصة لا تقل عن ٥٠٪ من
رأس المال .

قانون رقم ١٢٣ باسقاط التزام استغلال مرفق النقل العام للركاب
بالترام والترولى باس بمدينة القاهرة على أن يؤول الى مؤسسة النقل
العام بعد نقل كل العمل اليها .

وكذلك قانون ١٢٢ باسقاط التزام شركة لينو (الفرنسية) .

قانون بتعديل بعض أحكام قانون الاصلاح الزراعى ليكون الحد الأقصى للملكية الزراعية ١٠٠ فدان والحد الأقصى للإيجار والانتفاع ٥٠ فدانا .

قانون ١٢٨ بتخفيض الديون الى النصف للمنتفعين بقوانين الاصلاح الزراعى .

قانون ١٢٩ بزيادة الضريبة على العقارات المبنية .

وقرار بقانون بمنع تعيين أى شخص فى أكثر من وظيفة واحدة .

خلال أربعة أيام بدأت من ١٩ يوليو وانتهت يوم الاحتفال بعيد الثورة التاسع كانت قد صدرت كل هذه القوانين التى تمت بطريق الصدمة ، وغيرت من واقع المجتمع ، وتلقاها الناس المستولون والبسطاء كمفاجأة سعدت لها الأغلبية وصدمت منها الأقلية .

سميت هذه القوانين باسم القوانين الاشتراكية .

من هم الذين سيقودون المجتمع بعد هذا التغيير ؟

يقول جمال عبد الناصر فى مناقشات اللجنة التحضيرية (من الذى سيقوم بالقيادة ؟ عندما نقول اشتراكية لا بد لها من اشتراكيين ... أنا أريد للاشتراكية اناسا لا هم رجعيون ولا هم رأسماليون مستغلون) . جمال عبد الناصر يريد ان يعزل الرجعيين والرأسماليين ... ولكنه لا يريد التعاون مع الاشتراكيين الحقيقيين ... انه لا يريد للاشتراكية كادرا من الاشتراكيين ، ولكنه يكتفى بالقائمين على السلطة .

الاتحاد القومى ما زال هو التنظيم السياسى ... وكمال الدين حسين ما زال هو المشرف العام المشجع لصدور هذه القوانين والمؤيد لها فى مؤتمرات الاتحاد ، رغم انها لا تتجاوب تماما مع أفكاره ومعتقداته ... وكثيرا ما جاب المحافظات يدافع عنها ويروج لها .

لأشياء يتغير فى الفئة الحاكمة .

كل مسئول فى موضعه ... الوزراء والمحافظون ... وفيض جديد من رؤساء مجالس الادارة والمديرين ... أغلبيتهم العظمى بعيدة تماما عن الفهم الصحيح أو الاقتناع بالاشتراكية ، ونسبة العسكريين فيهم ما زالت واضحة ... فتح مجال هائل للترقية أمام التكنوقراط والبرجوازية الصغيرة .

الاشتراكية يبدأ تطبيقها بالمجموعة الحاكمة المسيطر عليها العسكريون
... والاشتراكيون الحقيقيون في معتقل الوادي الجديد يرسلون برقيات
التأييد لجمال عبد الناصر على خطوته الثورية التقدمية .

معتقدات الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني تعتقد في ان قيادة
عبد الناصر وطنية وفي تحالف مع القوى العاملة .. على غير ما كان ينادى
به البعض من انه يمثل البرجوازية الاحتكارية المتحركة في خدمة
الامبريالية .

وتحول المديرون والمستولون فجأة الى اشتراكيين ... غبروا أفكارهم
كما يغيرون ثيابهم .

وتماذى بعضهم في محاولة الظهور بمظهر اشتراكي عن طريق
التطرف والمغالاة .

والاتحاد القومي ما زال هو التنظيم المساند للتغير الحداثى فى
المجتمع مهتديا بفكرة المصالحة بين الطبقات ... (السلام والتعاون بين
الطبقات قد تحقق لأول مرة فى التاريخ) هكذا قال جمال عبد الناصر فى
يوليو ١٩٦١ .

الصراع الطبقي ما زال مرفوضا .

وهنا يحق لنا ان نتساءل عن العلاقة بين الانقلابات العسكرية فى
الدول النامية وما اذا كانت تستهدف الاستيلاء على ثمار الحركات الشعبية
المتصاعدة لمنع الوصول الى حرب طبقية ... وما اذا كانت القوانين
والاصلاحات الاجتماعية تتم بواسطة السلطة العسكرية لتفادى وصول
الصراع الطبقي الى نقطة الانفجار .

رغم هذه القوانين التى تهدم سلطة البرجوازية الكبيرة ، فان الطبقة
الحاكمة لا تريد تفجير الصراع الطبقي لانها بدأت تعبر فعلا عن واقع
البرجوازية الصغيرة التى أخذت تنمو وتتوسع ... وتفجير الصراع الطبقي
سوف يغلب فرصة الطبقة العاملة النامية والمتعاونة مع الفلاحين فى تحقيق
أهدافهم لمنع الاستغلال نهائيا ، والتعبير عن أنفسهم بالمشاركة فى السلطة
القائمة .

النقد الذاتى .. متاخرا

ولكن السلام والتعاون بين الطبقات لا يسوم ... والذين صودرت
ممتلكاتهم وخفضت أرباحهم تحولوا الى أعداء متربصين .

ولم يطل الأمر بهم كثيرا بعد شهرين فقط من صدور هذه القوانين وبداية تطبيقها في مصر وسوريا ، حدث الانفصال الذي فسر في الجمهورية العربية المتحدة .

رئيس الوزراء الذي تولى الحكم بعد الانفصال . . . مأمون الكزبري كان أميناً للاتحاد القومي في دمشق .

ليس هذا فقط بل انه كان متهما فيما عرف باسم قضية (الدندشي) التي اعترف فيها بمن أخذوا نقودا لتدبير انقلاب قبل الوحدة وفي مقدمتهم مأمون الكزبري وصبري العسلي .

ولكن جمال عبد الناصر الذي كان بريق الوحدة يستهويه ويتصور انه سوف يفتح صفحة جديدة للقومية العربية خالية من التحركات والانقلابات الرجعية ، رفض محاكمة الكزبري والعسلي وأخذ على حد قوله في مناقشات اللجنة التحضيرية بعد ذلك بمبدأ (عفا الله عما سلف) .

كانت القومية تمارس تأثيرا كبيرا على أوساط القيادة العسكرية . . . ولكنها لم تؤخذ كحركة تقدمية تستهدف تغيير المجتمع وتحرير الطبقات المستغلة ، وانما وجدت فيها البرجوازية فرصة لهيمنة نظرياتها الإصلاحية ، وخداع الفئات المتخلفة سياسيا ، ودعم الأوهام القائلة ان السلطة تروى (مصالح الأمة بأسرها) .

واستكان مأمون الكزبري عندما كانت الوحدة توفر للبرجوازية استقرارا مناسباً للنمو ومزيداً من الربح ، ولكن عندما صدرت القوانين الاشتراكية انتهى دور العسكريين المصريين في دعم الفرصة للبرجوازية وتحركت المؤامرة للانفصال ، بمن سبق لهم ان تأمروا للانقلاب قبل الوحدة .

واقعة الانفصال كانت ضياعاً لآمال جمال عبد الناصر الذي عشق سوريا ، وكانت صدمة لأفكاره أيضاً التي خيلت له انه يمكن ان يمضي في مسيرته مهما أصدر من قوانين بالسلام والتعاون بين الطبقات .

القوى الانفصالية في سوريا هاجمت القرارات الاشتراكية وجمال عبد الناصر قال للشباب العرب يوم ٢ أكتوبر ١٩٦١ (أخطانا أولاً في أمنا آمننا الى الرجعية وخلصنا بالرجعية . . . وأخطانا أيضاً في اننا هادنا الرجعية العربية) .

وحدد الأخطاء التي وقع فيها في خطاب عام للشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٦١ .

أولا ٠٠٠ رفض مصالحة الاستعمار مع خطأ المصالحة مع الرجعية .
وتغيرت لهجة الحديث وقال عبد الناصر (لا بد لنا أن نقاتل
الاستعمار في قصور الرجعية) .

ثانيا ٠٠٠ عدم كفاية التنظيم الشعبى .

ثم يتحدث عن (إعادة التنظيم الشعبى ليكون الاتحاد القومى اداة
ثورية للجماهير الوطنية وحدها صاحبة الحق والمصلحة فى التغيير
الثورى) ٠٠٠ ما زال الاتحاد القومى هو التنظيم القائم .

ثالثا ٠٠٠ عدم بذل الجهد الكافى فى توعية الجماهير الواسعة
بحقوقها .

واجاب على القائلين بأن الجيل تحمل مسئوليات فى النضال تنوء بها
اجيال بقوله (اذا توقفت الثورة الشعبىة قبل بلوغ أهدافها فانها لا بد
وان تنتكس) . وكان هذا تطورا فى رأيه بعدما أعلنه فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩
فى بورسعيد عند الحديث عن خلافه مع الشيوعية من القول بأنه لا يريد
ان يتحمل جيلنا كل تضحيات بناء الاشتراكية .

رابعا ٠٠٠ استمرار العمل بنظم ولوائح قديمة مما سلب من الجهاز
الحكومى القدرة الكاملة على أن يكون من أدوات الثورة .

خامسا ٠٠٠ وجود ثغرات كثيرة لتسرب الانتهازيين (لقد كان الثمن
الذى دفعناه غاليا لتسلل بعض العناصر الانتهازية ٠٠٠ فان بعض العناصر
المؤمنة وجدت نفسها مرغمة على اتخاذ موقف سلبى ضد الحركة النضال
الشعبى) .

كانت أفكار عبد الناصر قد تطورت فى مواجهة الواقع بمرونتها
التجريبية .

أصبح التغيير حتميا .

الحركة الانفصالية أثبتت لجمال عبد الناصر ان هناك مسافة طويلة
بينه كئائر وبين أن يصبح حاكما فى نظام مستقر لا تهدده الانقلابات .

وأثبتت له أيضا ان القوانين الاشتراكية كانت بذورا صالحة القيت
فى أرض غير مهيأة ، وليس هناك من يرعاها لتنمو وتثمر .

وبدأت حملة جديدة من الاعتقالات ٠٠٠ فؤاد سراج الدين وابراهيم
فرج و ٩٨ من السياسيين القدامى ظلوا فى سجن القلعة حتى فبراير
١٩٦٢ .

كانت الاعتقالات هي الاجراء الادارى الأسهل لمقاومة الرجعيين دون محاولة جادة للسير فى الطريق الصعب بتصفية الرجعية فكريا واعداد تنظيم قوى قادرة على حماية القوانين الاشتراكية ، خاصة وان ثلثي الاقتصاد المصرى ظل فى يد القطاع الخاص ٧٩ ٠٠٠ ٪ من التجارة ، ٦٧ ٪ من المباني ، ٥٦ ٪ من الصناعة عموما ٠٠٠ وأكثر من نصف عمال مصر يعملون فى القطاع الخاص (٥٧ ٪ فى الزراعة والمباني) .

وفى هذه الفترة تمت بعض الافراجات المحدودة للمعتقلين الشيوعيين ، واليساريين ، دكتور لويس عوض ، سعيد خيال ، لطفى الخولى وغيرهم . ولكن أغلبيتهم العظمى ظلت خلف جدران معتقلات الوادى الجديد .

ديموقراطية ٠٠ فى لجنة

وبعد شهرين تقريبا من الانفصال ، عقد فى ٢٥ نوفمبر الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ٠٠٠ وهى لجنة معينة والبرلمان لم يعد قائما .

تشكلت اللجنة من ٢٦٠ عضوا بينهم ٥٥ من العسكريين ولو انهم فى مراكز مدنية ، الى جانب الوزراء والمحافظين كان هناك ٣٩ من أساتذة الجامعات ، ٢١ من ممثلى العمال ، ١٩ من سكرتيرى الجمعيات التعاونية . للاصلاح الزراعى ممثلين عن قطاع الزراعة وليس بينهم فلاح يعمل بيده ، ٧ من رجال الصحافة والاعلام ، ١١ سيدة .

لم يكن فى اللجنة شيوعى واحد لأنهم كانوا فى المعتقلات ولم يكن فيها أحد من رجال الأحزاب السابقين ، كما لم يكن فيها عضو واحد من الاخوان الذين كانوا ينفذون أحكام السجن الصادرة بحقهم من محاكم الشعب والثورة .

عين أنور السادات أمينا عاما للجنة . وعبد السلام بدوى سكرتيرا . عاما لها ، وهو أحد الضباط أيضا .

وبدأ جمال عبد الناصر يلمس نواحي الضعف فى المجتمع ويصارع بها المجتمعين من أعضاء اللجنة .

تضاعف عدد الذين يربحون أكثر من ١٠ر٠٠٠ جنيه فى العام . مليونير يسدد فى عام واحد مبلغ ٣ مليون جنيه كان مدينا بها للحكومة .

الجامعات تدرس نظرية آدم سميث فى الاقتصاد الحر بينما تصدر القوانين الاشتراكية .

رأس المال الأجنبي الذى دخل مصر للاستثمار من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٦١ ٨٧٠٠٠ ر.٠٠٠ جنيه فقط ٠٠٠ ثم يفسر تفضيله للقروض الأجنبية غير المشروطة فيما عدا الصناعات التى تحتاج الى أبحاث مثل البترول والأدوية .

المعونات ٠٠٠ ثم القروض غير المشروطة ٠٠٠ ثم الاستثمارات الأجنبية .

كانت اجتماعات اللجنة التحضيرية تذاغ على الهواء وشاشة التليفزيون مباشرة ، المناقشات فيها عامرة بالحيوية ٠٠٠ الآراء تعبر عن أصحابها وتظهر الاتجاهات الفكرية العميقة والضحلة ، الصادقة والمنافقة .

صدرت التعليمات بأن ينشر كل شئ على الشعب ٠٠٠ لا تحذف كلمة واحدة مما يقال ، حتى تتبين ردود الفعل كاملة .

الديموقراطية تستهوى الشعب ٠٠ وصدور الناس تريد ان تعبر عما فيها .

خالد محمد خالد يطالب بالديموقراطية ٠٠٠ ومحمد فؤاد جلال يتعرض له مطالباً بعدم اعطاء الحرية لأعداء الشعب قائلا (ربما كان من الأخطاء التى حدثت ان الثورة احتوت جميع العناصر ولم تقص عن محيط العاملين أولئك الذين كان يجب ان يقصوا) .

وخالد يرد (أعلم ان قبل الثورة كان ثمة حياة سياسية تنطوى على كثير من الفساد ، ولكنى أعلم أيضا ان هذه الحياة السياسية كانت تنطوى على كثير من الجد والعمل الطيب ، أنا ابن هذا الشعب وثورة ٢٣ يوليو وليدة هذا الشعب) .

الدكتور عبد الفتاح اسماعيل وكيل وزارة التعليم العالى يقول (اننا كنا شعبا من العبيد) ٠٠٠ وجمال عبد الناصر يصحح له كلمته .

ويرد جمال عبد الناصر أيضا على خالد محمد خالد مظهرا مسئولية رجال الثورة فى حماية الشعب من أعدائه ، دافعا عنها شبهة الظلم .

الحديث صريح عن محاكمات الاخوان ٠٠٠ يتساءل جمال عبد الناصر (هل حاكمناهم افتراء ؟ أم لأنه كان يوجد جيش مسلح للانقضاض على هذا الشعب . ألم يحدث هذا فى سنة ١٩٥٤ ؟ هل بدأنا بالعدوان ؟ وهل تركناهم فى السجون ؟ خرجوا من السجون وأكثرهم أفرج عنه قبل أن تنتهى مدة العقوبة ، وأكثرهم ممن كانوا فى وظائف وفصلوا وضع لهم قانون خاص بأن يعودوا الى وظائفهم ٠٠٠ هذا هو العدل الذى كنا نتبعه ونسير عليه) .

والحديث صريح أيضا عن الموقف من الشيوعيين ، وجمال عبد الناصر يقول (نحن لسنا ضد الماركسية أبدا بأي حال من الأحوال ولا ضد اليسار بل اننا ضد أخذ تعليمات من دول أجنبية ، وأي شخص يأخذ تعليمات من دولة أجنبية خائن لهذا الوطن) ويستطرد (يوجد شيوعيون طلقاء وأنت تعرف ذلك ولكنهم لا يأخذون تعليمات من دول أجنبية ... فالحزب الشيوعي المصري يأخذ تعليمات من صوفيا ، وقيادته موجودة في صوفيا ويأخذ تعليمات من بلغاريا ... قلت هذا الكلام وقلت ان هؤلاء عملاء ولا يمكن ان أترك للعملاء سبيلا لكي يفرروا بالشعب) .

في بداية الثورة قال جمال عبد الناصر (انهم كانوا يتلقون التعليمات من الحزب الشيوعي الايطالي) .

موقف العداء من الشيوعيين ما زال مستمرا والاتهام الظالم بالعمالة ما زال هو السند في أسلوب القهر والابعاد ، رغم ارهاصات الاشتراكية التي ظهرت في كلمات كثير من المتحدثين في اللجنة .

وخالد محمد خالد ما زال يحاور دفاعا عن الديمقراطية ، وجمال عبد الناصر يرفض فكرة تشكيل الأحزاب لأنها تعبير عن مصالح اجتماعية متنافرة لا يريد لها أن تجمع الى اليمين الرجعي أو اليسار الشيوعي .

وبعاود خالد محمد خالد حديثه عن الديمقراطية قائلا انها والاشتراكية شيء واحد لأن الاقتصاد لا ينفصل عن السياسة بل يؤثر فيها ويحركها ... ويبرر قوله بشعار ماوتسي تونج (دعوا الأزهار جميعها تتفتح) ويقول ان هناك أحزابا أخرى غير الحزب الشيوعي في الصين .

ويستمر الحوار مفتوحا ، ولكن يتغيب عن الاجتماعات منذ الجلسة السادسة التي عقدت في ٤ ديسمبر المشير عبد الحكيم عامر وهي نفس الجلسة التي تغيب فيها جمال عبد الناصر أيضا عن الحضور ... ومع الجلسة التاسعة بدأ تغيب أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين جميعا ، وارتفع عدد المعتذرين الى ٦٧ عضوا ، واستمر الحال كذلك حتى انتهت اجتماعات اللجنة بعد ١٨ جلسة انتهت في ٣١ ديسمبر ١٩٦١ .

الآراء المتشعبة التي طرحت في اجتماعات اللجنة كانت بداية لتغيرات جذرية في الحياة السياسية المصرية .

الاتحاد القومي بدأ يعد لاجتماع المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ... المؤتمر له أمينان عامان (سكرتيران) أنور السادات الأمين العام السابق للاتحاد القومي والأمين العام للجنة التحضيرية ... وكمال الدين حسين المشرف على الاتحاد القومي .

وفي الجلسة الاولى التي عقدت يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ جلس أنور السادات على يمين جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين على يساره وكان ترتيب أعضاء مجلس قيادة الثورة قد تحدد بأقدمية الرتب العسكرية السابقة ، ولكن تعيين أنور السادات أمينا أولا كان ايذانا بانتهاء دور كمال الدين حسين في التنظيم السياسي كما حدث مع ابراهيم الطحاوي في هيئة التحرير .

كانت انتخابات أعضاء المؤتمر قد تمت على مراحل تبعا للفئات المختلفة ، بدأت يوم ٥ فبراير ١٩٦٢ وانتهت يوم ٢٤ فبراير ١٩٦٢ .

وتشكل المؤتمر من ١٥٠٠ عضو منهم ٣٧٩ يمثلون الفلاحين ، ٣١٠ يمثلون العمال ، ١٥٠ من الرأسمالية الوطنية ، ٢٩٣ من النقابات المهنية ، ١٣٥ موظفا ، ٢٣ سيدة ، ١٠٥ من أساتذة ومدرسي الجامعات والمعاهد العليا ، ١٠٥ طلاب من القسم الثانوي والجامعات يضاف اليهم أعضاء اللجنة التحضيرية .

تولى مدير هيئة السكرتارية عبد المجيد شديد مدير مكتب المشرف العام كمال حسين .

الميثاق . . والاتحاد الاشتراكي

قدم جمال عبد الناصر الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية وثيقتين الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي العربي .

وكان جمال عبد الناصر قد طلب الى عدد من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين اعداد مشروع للميثاق حسب ما يتصورون واجتهد بعضهم في صياغة أفكاره وتقديمها اليه مثل عبد اللطيف البغدادي كما قل لي .

وقد جمع جمال عبد الناصر هذه المشاريع وأضاف اليها أفكاره ومناقشات اللجنة التحضيرية وعكف على دراستها وتبويبها وعهد الى محمد حسنين هيكل بصياغتها في الصورة التي عرفت باسم (الميثاق) وقدمت للمؤتمر .

كان الميثاق أول دليل عمل مكتوب تستند اليه الفئة الحاكمة في توضيح موقفها السياسي والاجتماعي والمناقشات التي دارت حوله في المؤتمر كانت مطلقة السراح وانتهت الأمور الى تشكيل لجنة من مائة عضو تولت الرد على مشروع الميثاق .

اختارت اللجنة الدكتور حسين خلاف مقررا للجنة صياغة الرد ولكن
كمال الدين حسين تدخل وفرض الدكتور سليمان حزين رئيسا للجنة
الصياغة .

وحرص كمال الدين حسين وصلاح دسوقي على الجلوس مع
مجموعات من أعضاء اللجنة لمناقشتهم عن رد فعل الميثاق في نفوسهم بعد
قراءة عبد الناصر له واستدعى بعض أعضاء اللجنة أيضا الى
استراحة الهرم لمناقشة تقرير اللجنة كما ذكر لي أحمد بهاء الدين .

دارت مناقشات اللجنة في فرعيات مختلفة ، واعترض الدكتور محمد
لبيب شفير والدكتور رمزي استينو عضوا اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد
الاشتراكي فيما بعد على فقرتين هما الاشتراكية العلمية والنقد الذاتي .

وجاء تقرير اللجنة مختلفا عن الميثاق . . . لم يقرن لفظة العلمية
بالاشتراكية التي أطلق عليها اسم (الاشتراكية العربية) رغم عدم ورود
ذلك في الميثاق .

وتفول بعض فقرات التقرير :

(في مجتمعنا الاشتراكي يعتبر العمل أساسا لتقرير مكان الفرد في
المجتمع وما دام الأفراد لا بد وان يتفاوتوا في الاستعداد والنشاط فان
النتيجة المنطقية لذلك أن يتفاوتوا فيما يحققون من نتائج) .

يوحى ذلك باتاحة الفرصة لنشاط الفرد في الاستثمار والربح .

ويقول التقرير أيضا :

(ان تذويب الفوارق بين الطبقات هو البديل السلمي لما نرفض
الأخذ به من الصدام الدموي بين الطبقات) .

وكان ذلك ابتعادا عما ورد في الميثاق من القول بضرورة ازالة الطبقة
المستغلة (ولكن ازالة هذا التصادم بازالة الطبقة التي فرضت الاستغلال
توفر امكانية السعي الى تذويب الفوارق بين الطبقات سلميا) .

وفي كلمات . . جدد التقرير سمات الاشتراكية العربية بهذه الكلمات
(انتهى التطبيق الاشتراكي في بلادنا الى اقامة اشتراكية عربية متميزة
فهي تؤمن بالله وبرسالته وبالقيم الدينية والخلقية) .

المحاولة مستمرة للفصل بين حق الانسان في الاشتراكية وبين حرية
اختياره لرسالة الدينية التي يؤمن بها .

تقرير اللجنة يعرض على المؤتمر ولكنه لا يناقش . . . اقتراح من ٥٥٠ عضوا بقبوله دون مناقشة وكان ذلك ايدانا بقبول الميثاق . . . واعلانا عن وجود خلاف فكري بين جمال عبد الناصر من جهة وكمال الدين حسين الذي احتضن مشروع لجنة المائة من جهة أخرى .
وقف الأمينان العامان والأعضاء جميعا عند قراءة كلمات اعلان الميثاق .

وجاءت الوثيقة الثانية . . . قانون الاتحاد الاشتراكي العربي . . . الاسم الجديد للتنظيم السياسي بدلا من الاتحاد القومي .
فوض المؤتمر جمال عبد الناصر في تشكيل لجنة تنفيذية عليا مؤقتة للاتحاد الاشتراكي تقوم باعداد القرارات واتخاذ الخطوات لتكوين مؤتمرات الاتحاد الاشتراكي ولجانه التنفيذية . . . ولكنه لم يصدر قرار بتشكيلها .

وكان أول قرار هو تشكيل أمانة عامة للاتحاد الاشتراكي العربي من أنور السادات وحسين الشافعي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وعلى صبرى والدكتور نور الدين طراف والمهندس أحمد عبده الشرباصي وكمال الدين رفعت وعباس رضوان والدكتور محمد عبد القادر حاتم ومحمد طلعت خيري وأنور سلامة .

ولكن عقب زيارة جمال عبد الناصر لبور سعيد يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢ جمع اللجنة العامة وقال انه أثناء هذه الزيارة شاهد الشعب كله يخرج مرحبا ، وأثقلت هذه الصورة صدره وجعلته يتساءل عن يختار للاتحاد الاشتراكي وعن يترك .

وقل لهم جمال عبد الناصر (اني أطرح هذه القضية عليكم وأريد سماع رأي كل واحد منكم) .

كان يجبر كل واحد من الحاضرين على الكلام حتى ولو لم يكن عنده رأي جديد .

واستمرت المناقشة ثلاث جنسات متصلة ، وانتهت الى الغاء مبدأ الاختيار للتنظيم والاكتفاء بالاستبعاد .

فتحت الأبواب لدخول التنظيم في أول يناير ١٩٦٣ وبلغ عدد الذين قيدوا انفسهم ٨٨٥٩٣٢ شخصاً في ٢٠ يوماً . . . وكان هذا دافعا الى ترجيح وتأکید الرأي بالاستبعاد دون الاختيار .

وصدرت كشوف الاستبعاد لمن سبق ان اعتقلوا أو حددت اقامتهم أو أممت لهم أموال تزيد على عشرة آلاف جنيه ، أو أدانت التقارير سلوكهم

ثورة يوليو جا ١ - ١٩٧٧

... وكان معنى ذلك استبعاد كل أفراد القوى السياسية القديمة ،
والإخوان المسلمين والشيوعيين ، والاقتصار على الذين بدأت اهتماماتهم
السياسية بعد الثورة .

ثم استتنت اللجنة التنفيذية العليا من هذه الأسماء سبع فئات ...
الضباط الذين اشتركوا في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأعضاء هيئات
التدريس في الجامعات والمعاهد العليا والمدرسين والنظار والصحفيين
والمنتسبين لأجهزة الإعلام وأعضاء مجالس النقابات العمالية والمهنية وأعضاء
اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية وأعضاء المؤتمر ، ومن
طبقت في شأنهم قرارات اشتراكية بما لا يزيد عن ١٠٠٠٠ جنيه .

ولم يعد هناك فارق كبير من الناحية التنظيمية بين الاتحاد الاشتراكي
والاتحاد القومي ... تكوين التنظيم من مركز السلطة دفع الجماهير إلى
الانضمام إليه بالملايين دون تفرقة بين المقتنعين بالتغيير الاجتماعي وأصحاب
المصلحة الحقيقية فيه ، وبين المنضمين إليه تملقا وتقربا من مراكز النفوذ .

وكما كان الاتحاد القومي خاضعا لنفوذ العسكريين كان الاتحاد
الاشتراكي أيضا كما هو واضح في تشكيل الأمانة (٩ ضباط ، ٣ مدنيين) .

ولكن الفرق مع ذلك كان موجودا بين الاتحاد القومي والاتحاد
الاشتراكي ... ففي الاتحاد القومي لم يكن هناك تنظيم هرمي بالمعنى
المعروف ، ولم تكن هناك صلات تنظيمية ثابتة ، وكان الاعتماد سائدا على
كثير من الشخصيات ذات النشاط أو المركز الاجتماعي المرموق ، دون
اهتمام بالتفكير السياسي .

ولكن مع الاتحاد الاشتراكي خلق حد أدنى من الانضباط التنظيمي ،
وصورة هيكل محدود لبناء تنظيمي .

ولا شك أن الميثاق قد أضاف للاتحاد الاشتراكي قوة دافعة فقد
كان هناك مرجع يرجع إليه المسئولون في الاتحاد ، ويلتزم به أعضاء
القيادات المختلفة ، رغم امكانية تباين وجهات النظر في تفسير الميثاق .

ولا شك أيضا أن القيادات التي عينت في الاتحاد الاشتراكي سواء
اللجنة التنفيذية أو الأمانة العامة وفي المحافظات قد استفادت من الاتصال
بالجماهير وخاصة العسكريين الذين استفادوا وتطوروا بالتاكيد من اللقاء
مع الشعب في مواقع العمل والسكن ، وذاب من بعضهم قناعات الجمود
والتزمت .

وتعتبر هذه المحاولة الجادة لوضع وثيقة فكرية وتكوين تنظيم
جماهيري ... خطوة إيجابية هامة تظهر أن ضباط الجيش في مركز السلطة

تحت قيادة رجل توفرت له قدرات وإخلاص عبد الناصر يمكن أن يجعلوا من تدخل الجيش في السياسة حركة تنتهي إلى ثورة فعلا .

لقد وجد ولا يزال يوجد من يقفون موقف الرفض والعداء لأي نوع من أنواع تدخل الجيش في الحياة السياسية ، ويعتبرون أن مثل هذا التدخل من العسكريين عمل رجعي خالص وهم يطلقون على هذا الاتجاه في أمريكا اللاتينية اسم (العقلية المدنية) أي التمسك بالأساليب والمظاهر المدنية في الحكم .

ولكن البروفيسور كوسوك الأستاذ بجامعة كارل ماركس في لايبزج بالمانيا الديمقراطية يقول (يهمل أنصار هذا المذهب من ممثلي الأوساط البرجوازية اليمينية عن قصد الجانب الطبقي لقضية الحكم ، ويجعلون شكل الحكم مسألة مطلقة) .

جمال عبد الناصر في محاولته لتقديم دليل على ثوري جديد ، وإقامة تنظيم جماهيري يؤمن بالتحول الاشتراكي كان يغير تغييرا حقيقيا في طبيعة حكم العسكريين ، ويضرب مثلا بإمكانية تواجد قادة وطنيين تقدميين يستطيعون أن يسايروا رغبات الشعب من صفوف الجيش .

وكان يحاول بهذا التنظيم أيضا خلع الثوب العسكري عن جهاز الحكم حتى يكسب أيضا أصحاب (العقلية المدنية) ويبني مجتمع جمال عبد الناصر على ثياب مدنية .

ومن دلائل اهتمام جمال عبد الناصر بهذا التنظيم الوليد تعيين زكريا محيي الدين مستولا عن محافظة القاهرة وحسن إبراهيم مستولا عن محافظة الاسكندرية وكمال رفعت مستولا عن محافظة الجيزة وهي مراكز التجمع الرئيسية في مصر .

قال لي حسن إبراهيم أنه قد شكل شبكة تنظيمية في الاسكندرية تضم أفضل العناصر - حسب رأيه - وكانوا جميعا من الذين استطاع الميثاق أن يقرب وجهات النظر بينهم وفي ذلك يقول حسن إبراهيم أنه وافق على القرارات الاشتراكية بلا تحفظ عندما عرضها جمال عبد الناصر عليه باعتبارها اجراء تأمينا للثورة .

الجوهر الرئيسي الذي استند اليه جمال عبد الناصر في وثيقته الفكرية هي تحديد القوى الاجتماعية التي يضمها تحالف واحد وهم العمال والفلاحون والمثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية وهي قوى وفئات يمكن بتحالفها فعلا أن تعبر مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية .

وخارج هذا التحالف بقيت العناصر الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة
التي طبقت القرارات الاشتراكية ... وكان هذا الاجراء كفيلا - الى
حد ما - بإبعاد الرجعية عن المشاركة الايجابية في الحياة السياسية ...
ولكنه لم يكن كافيا لأن تلعب الطبقات والفئات المشتركة في التحالف
دورها القيادي الطبيعي .

والدستور المصرى المؤقت الصادر فى ٢٥ مايو ١٩٦٤ نص لأول مرة
فى تاريخ الدساتير المصرية على ان (الجمهورية العربية المتحدة دولة
ديموقراطية تقوم على تحالف قوى الشعب العامل) كما سجلت المادة
التاسعة منه (ان النظام الاقتصادى للدولة هو النظام الاشتراكى) .
وهكذا تحدد اتجاه النظام ... لبناء مجتمع جديد .

الفصل الثامن

في كواليس القيادة

(كانت كواليس القيادة مليئة بالتناقضات
والخلافات الشخصية ، ولكنها كانت محجوبة
عن الجماهير بستر كثيف) .

شكل نظام الحكم تغييرا أيضا بعد صدور الميثاق . . . صدر اعلان
دستورى فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ بتشكيل مجلس رئاسة من جمال
عبد الناصر رئيسا وعضوية عبد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر
وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى وكمال الدين حسين نواب رئيس
الجمهورية وأنور السادات وحسن ابراهيم وعلى صبرى (رئيس المجلس
التنفيذى) والدكتور نور الدين طراف والمهندس أحمد عبده الشرباصى
وكمال الدين رفعت (عشرة عسكريين ومدنيين) .

كانت هذه الخطوة تغييرا واضحا فى أسلوب الحكم ونقطة تحول
بارزة فى اتجاه جمال عبد الناصر فقد تولى رئاسة المجلس التنفيذى أى
مجلس الوزراء على صبرى وهو ضابط من خارج مجلس قيادة الثورة كان
يعمل مديرا لمكتبه لمدة سنوات طويلة بدلا من كمال الدين حسين وكانت
هذه علامة واضحة على رغبته فى تركيز الحكم بين يديه .

عين حسين الشافعى أمينا للانحد الاشتراكى ، وانتهت بنهاية الاتحاد
القومى مسئولية كمال الدين حسين فى التنظيم السياسى أيضا .

وفي بداية هذا العام ٠٠٠ فبراير ١٩٦٢ فقد مجلس قيادة الثورة
عضوا بارزا من أعضائه ٠٠٠ صلاح سالم رئيس مجلس إدارة دار التحرير ،
الذي كان قد اعتنق الأفكار الاشتراكية ، وخاصة بعد زيارته للاتحاد
السوفييتي ومقابلاته لخروشوف في نوفمبر ١٩٥٩ ، وهي الزيارة التي
صحبتة فيها ونشر بعدها حديثه الشهير ٠٠٠

مات صلاح سالم بعد مرض عضال تعذب فيه كثيرا ، وعلى فراش
الموت قال لجمال عبد الناصر الذي كان يواظب على زيارته بمستشفى
القوات الجوية بالعباسية انه قد تأثر بالأفكار الماركسية وذلك حسب
رواية خالد محيي الدين الذي كان قد أنشأ معه هو ومجدي حسنين
- والاثنان كانا قد أصبحا عضوين في المجلس المصري للسلام - علاقة
وثيقة شاركهما فيها بعض كتّاب الجمهورية مثل الدكتور محمد مندور
والدكتور لويس عوض .

كانت جنازة صلاح سالم شعبية لم تشهد لها القاهرة مثيلا حتى
ذلك الوقت واختلط فيها الوزراء والمسؤولون مع بسطاء الناس .

تشكيل مجلس الرئاسة تم من الأعضاء غير المستقلين أو المبعدين
الذين كانوا يمارسون أعمالا إدارية أو تنفيذية - ٨ أعضاء من ١٣ عضوا
هم أصل مجلس القيادة الذين كانوا يمارسون أعمالا إدارية وتنفيذية .

كان مجلس الرئاسة محاولة للقيادة الجماعية بعد انفصال سوريا
على حد تعبير جمال عبد الناصر .

يقول زكريا محيي الدين ان المجلس في جلساته الأولى بدأ البحث
في اختصاصاته ٠٠ وبدأ البحث أيضا في الحد من سلطات المشير
عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة بالنسبة للنواحي العسكرية
بعد تجربة ١٩٥٦ ، وبعد ما حدث في الانفصال عندما كان موجودا في
دمشق ومعه سلطات رئيس الجمهورية ومع ذلك وقع الانفصال من ضباط
في مكتبه ، وهو هناك عاجز عن التصرف أو تغيير دفة الانفصاليين رغم
تطعيمه لمعظم المراكز الحساسة بضباط مصريين من المقربين اليه كما
سيأتي تفصيلا فيما بعد .

ويقول عبد اللطيف البغدادي ان جمال عبد الناصر هو الذي أعد
قرار تحديد اختصاصات المشير عبد الحكيم عامر بما يجعل سلطة تعيين
قادة الوحدات في القوات المسلحة من مسؤولية مجلس الرئاسة وليس
مسئولية المشير .

أعد جمال عبد الناصر المشروع ولكنه لم يحضر الجلسة التي تولى
رئاستها عبد اللطيف البغدادي بحكم منصبه وأقدميته ٠٠٠ وعندما عرض

المشروع طلب المشير عامر تأجيل نظره وأيده في ذلك كمال الدين حسين فقط الذي كان قد بدأ يقترب من دائرة الظل ، ويبتعد عن مناصبه التي شملت في وقت واحد (رئيس المجلس التنفيذي ، والمشرف العام على الاتحاد القومي ، ووزير الادارة المحلية ، ورئيس المجلس الأعلى للعلوم ، ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ورئيس المجلس القومي للبحوث ، ونقيب المعلمين ، ورئيس المجلس الأعلى للجامعات ، ورئيس المعاهد القومية) (تسعة مناصب في وقت واحد) .

الأغلبية وافقت على القرار وأصدرته وخرج المشير عبد الحكيم عامر بغاضبا من الاجتماع كتب استقالته وسافر الى مرسى مطروح دون أن يبلغ أخدا من زملائه .

كانت استقالة المشير عبد الحكيم عامر تطالب بتكوين حزبين مع اعطاء الحرية للصحافة وللجناهير .

وكان مضمون الاستقالة متناقضا مع موافقة المشير الكاملة على الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي وعدم ابدائه أية معارضة أثناء المناقشة بسواء في جلسات عبد الناصر الخاصة أو في الجلسات العامة .

هزت الاستقالة جمال عبد الناصر فلم يكن يتوقع من عبد الحكيم عامر أن يتصرف بمثل هذا التصرف ، خاصة وان قادة القوات البرية والبحرية والجوية وبعض كبار القادة قدموا استقالاتهم أيضا .

وكان جمال عبد الناصر حريصا على تماسك الجيش وعدم حدوث أي اهتزاز فيه فقدّر موقفه بين قبول الاستقالة ومعالجة أمور الجيش على أسس جديدة تماما ، أو رفض الاستقالة والاحتفاظ بعامر مع احتمال ما يسببه ذلك من جفاء مع أعضاء مجلس الرئاسة ، وخاصة عبد اللطيف البغدادي .

واختار جمال عبد الناصر الحل الثاني ، وقرر رفض الاستقالة .

وبعد بحث طويل عنه اتصل به شمس بدران وصالح نصر وعباس رضوان عند محافظ مرسى مطروح فؤاد المهداوي ونزل المشير الى القاهرة استجابة لرغبة جمال عبد الناصر بعد ان وضح له ان استقالة عبد الحكيم عامر قد أهاجت عددا كبيرا من قادة القوات المسلحة المقربين من المشير ، وانهم اجتمعوا في القيادة وأصروا على عودته الى موقعه .

وكان مجلس الرئاسة قد اتخذ قرارا بعزل قائد القوات الجوية الفريق محمد صدقي محمود الذي سبق ان تقرر اخراجه عام ١٩٦١ نتيجة تأخره في ارسال امدادات لقوات اللاذقية التي ظلت تقاوم الانفصال حتى

المغرب . وعندما وصل الفوج الأول كانت المقاومة قد توقفت واعتقل الهابطون بالمظلات .

واعترض المشير على ذلك للمرة الثانية وبدأ أمام قادة القوات المسلحة بمظهر المدافع عنهم .

وقد حدث خلاف أيضا بين عبد الناصر وعامر حول عودة بعض قيادات الجيش في سوريا للعمل في مصر اعترض عبد الناصر على عودة اللواء أنور القاضى رئيس أركان حرب الجيش السورى واللواء أحمد زكى عبد الحميد رئيس هيئة التنظيم والإدارة والعميد أحمد علوى كاتم الأسرار والعقيد محمد استامبولى مدير المخابرات وبقي هؤلاء الضباط عاما كاملا بلا عمل .

وهكذا لم يجد جمال عبد الناصر فرصة لتنفيذ القرار الذى أعده بنفسه ولم يجد مجلس الرئاسة أيضا فرصة لتنفيذ القرار الذى أصدره .

وكان الاتفاق قد تم بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر - حسب رواية البغدادي وحسن إبراهيم - على اخراج قادة القوات البرية والبحرية والجوية من الخدمة على أن يتم ذلك خلال فترة يتم فيها التمهيد لإصدار القرار .

ولكن القرار لم يصدر فقد لحقته ثورة اليمن ، فاعتبر كان لم يكن .

وكان هذا الموقف الذى انتهى الى مصالحة بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بداية انشقاق حقيقى بينهما أدرك عامر انه يستمد سلطته من القوات المسلحة فوثق صلته بقادتها ، وظل يواصل العطاء لكل من يطلب ، ويقرر المنح ويقدم الخدمات وأهلته طبيعته الشخصية لذلك حتى اكتسب حب كل المحيطين به .

وأدرك جمال عبد الناصر ان القوات المسلحة لم تعد طيعة فى يده كما كانت فى الخمسينيات ، وان الصديق الوفى الذى عين قنّدا عاما رغم انه لا يملك من مؤهلات القيادة الا الاخلاص والحب لصديقه جمال عبد الناصر قد تحول مع الزمن الى نذ له يحسب حسابه ، ويخشى بأسه .

كان (الطفل المدلل) - حسب تعبير عبد الناصر لحسن إبراهيم - قد أصبحت له أنياب وأظافر ولم يعد عبد الحكيم القديم .

ولكن عبد الحكيم عامر لم يكن من المؤهلين بحكم شخصيته للقيام بانقلاب عسكري ضد جمال عبد الناصر لانه كان من المدركين ان جمال

هو المخطط والمنفذ لحركة الثورة ، وقد أعفى نفسه من الدخول في مشاكل التفكير والتخطيط وتترك المسئولية له طوال السنوات السابقة ، وكان مدركا أيضا أن شخصية جمال عبد الناصر قد احتلت مكانا مرموقا في نفوس المصريين والعرب وأصبح شخصية تسهم في تحريك السياسة العالمية ويصعب الانقضاء عليها . . . وأخيرا فإنه كان ما زال محتفظا في نفسه بعلاقات الود والصداقة القديمة لا يتصور بحكم التقاليد أنه قادر على تمزيقها .

كائنات خطيرة الانقلاب العسكري محدودة أو معدومة من ناحية عبد الحكيم عامر . . . ولكن جمال عبد الناصر ظل محتفظا بهيئته من القوات المسلحة ، متخذا جانب الحذر في تعامله مع عبد الحكيم عامر ، معتمدا على (الصاغ) شمس بدران مدير مكتب المشير الذي كان قد بدأ يؤدي دورا أكبر من رتبته معتمدا على منصبه وثقة المشير به ، ومعرفته لطبيعته التي تتجنب المشاكل وتتحاشى الدخول في تعقيدات . . إلى جانب دفع جمال عبد الناصر له شخصيا واتصاله به اتصالا مباشرا ، في محاولة لإيجاد نوع من التوازن داخل القوات المسلحة .

كانت هذه هي الحالة داخل القوات المسلحة وفي مركز السلطة أثناء بناء الاتحاد الاشتراكي الأمر الذي خلق تناقضا من البداية بين التنظيم العسكري (القوات المسلحة) وبين التنظيم الجماهيري للاتحاد الاشتراكي . نص الميثاق على (أن دور القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة هو أن تحمي عملية بناء المجتمع ضد الأخطار الخارجية ، كما أنه يتعين عليها أن تكون مستعدة لسحق كل محاولة استعمارية رجعية تريد أن تمنع الشعب من الوصول إلى آماله الكبرى) .

واجب محدد ضد الأخطار الخارجية بالحرب . . . وضد الأخطار الداخلية بالقمع للرجعية .

ويقول الميثاق أيضا (أن فعالية الجيوش الوطنية تكمن في القوة الوطنية الاقتصادية والاجتماعية ، فإن التدمير هو المسودع العظيم الذي يمد أداة القتال باحتياجاتها المادية والبشرية التي تتمكن بها من رد التحدي واحراز النصر وتعزيزه) .

ربط الميثاق بين احتياجات الدفاع واحتياجات التنمية ويحذر من طغيان واحدة على الأخرى ، ويرى ضرورة التنسيق بينهما .

ولذا نص قانون الاتحاد الاشتراكي على عضوية أفراد القوات المسلحة في الاتحاد الاشتراكي كما نص أيضا على عضوية رجال الشرطة ورجال القضاء .

ولكن ذلك لم ينفذ أبدا . . . وظل رجال القوات المسلحة والشرطة والقضاء طالما هم يمارسون العمل بعيدين عن عضوية الاتحاد الاشتراكي .

الضبيعة الملائمة لدخولهم في صفوف التنظيم الجماهيري السياسي الوحيدة لم تتحدد مطلقا . . . والرغبة الكامنة في إبعاد الجيش عن السياسة ظلت سائدة . . . ومحاولة إدخال السياسة الى الجيش طالت تلاقى أبوابا موصدة .

وكان نمو التناقض الخفي بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر سببا في تأجيل هذا الموضوع وعدم اثرته بطريقة جديدة .

كانت القيادة العسكرية ترى ان دخول السياسة الى صفوف الجيش خطر يحسن تفاديه . . . وهي خفيقة عملية طالما لا يوجد كوادر حزبية قادرة على ممارسة دور الموجهين السياسيين في الجيش وطالما لا يوجد حزب سياسي بالمعنى الحقيقي الذي يتيح تفرغ جيل من الشباب المؤمن بأهدافه ، يدخل الى الكلية الحربية فيتخرج ضابطا ملتزما عسكريا وسياسيا أيضا .

غيبة الحزب السياسي كانت عاملا رئيسيا في عدم تنفيذ دخول رجال القوات المسلحة والشرطة والقضاء الى التنظيم الجماهيري .

وأدت التناقضات التي ظهرت بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر - رغم بقائها مغلفة بالسرية وبعيدة عن التأثير في الحياة العامة ، والحديث فيها لا يكاد يتردد الا بين عدد محدود جدا - الى خلق تناقضات جانبية بين القوات المسلحة وبين الاتحاد الاشتراكي رغم ان قيده كانت من العسكريين الذين خلعوا ثيابهم العسكرية .

وبقيت المشكلة الدائمة هي العلاقة بين المجموعة العسكرية الحاكمة وبين الجماهير . . . واستمر التناقض قائما بين الرغبة في استمرار القبضة العسكرية تمارس سطوتها . . . وبين الرغبة في اكتساب تأييد الجماهير .

كان مركز السلطة الحقيقي في الدولة في يد دائرة القيادة التي تسلل اليها العسكريون عن طريق المشير وشمس بدران مرة أخرى ، بينما ضعف موقف العسكريين الآخرين من أعضاء مجلس القيادة يوما بعد آخر حتى تلاشى تماما .

كان دور القوات المسلحة يعاود الظهور بصورة سافرة ، مثاما كانت الحال في سنوات الثورة الاولى ولكن بطريقة مختلفة ، فقد كانت معالم السلطة قد تحددت .

وبعدما كانت المباحث الجنائية العسكرية قد اختفت منذ إبعاد أحمد أنور عن قيادة البوليس الحربى وتتبيع وحداته لتشكيلات الجيش المختلفة ، عادت مرة ثانية الى الظهور لتمارس دورا تأديبيا جديدا .

كانت المباحث الجنائية العسكرية التى يقودها حسين عرفة قد تعرضت بعد ابتعاد أحمد أنور شقيق زوجته الى حصار البوليس الحربى لها بأوامر من شمس بدران الذى كان قد بدأ ينمى قوات الصاعقة ويعمل فى نفس الوقت على تصفية المباحث الجنائية العسكرية .

وكاد يحدث احتكاك مسلح بين القوتين قال فيه حسين عرفة - حسب زوايته - (نحن نخدم جمال عبد الناصر) ورد قائد البوليس الحربى (ونحن ننفذ أوامر المشير) .

صفت المباحث القديمة فعلا .

واذا كان أحمد أنور قد أصدر أمرا باعتقال احسان عبد القدوس رئيس تحرير روز اليوسف فى عام ١٩٥٤ دون ابلاغ جهات عبد الناصر أو عبد الحكيم عامر . فان شمس بدران قد أصدر أوامره باعتقال قائد المباحث العامة فى الاسكندرية عام ١٩٦٣ لانه تجرأ على مساءلة ضابط من ضباط القوات المسلحة دون ابلاغ جمال عبد الناصر أو عبد الحكيم عامر أيضا .

وكان فى هذا الموقف تكرار لاسلوب قديم ، يظهر فيه جموح بعض العسكريين فى السلطة واستهانتهم بالتقاليد والقوانين فى غمرة اندفاعهم وحرصهم على تنفيذ ما يصدر لهم من تعليمات .

وكأنما انفلت الشيطان من عقاله ، فقد بدأت المباحث الجنائية العسكرية تمارس دورها القديم ، بتشكيل يتألف من ٣٠ ضابطا ، ٥٠٠ جندي يلبسون ثيابا مدنية ويؤدون دور المباحث العامة ، ومارس ضباطها سلطة الضبطية القضائية التى سبق ان منحت لهم ، يقودها أحد أتباع شمس بدران الصباغ حسن خليل الذى تولى قيادتها بعد أزمة المشير فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٢ .

بدأ نشاط المباحث الجنائية العسكرية فى مجال الحياة العامة عقب خطبة لجمال عبد الناصر فى مجلس الأمة أعان فيها انه سيوجهها الى المجمعات الاستهلاكية ، وبعد ذلك توالى تدخلها فى قضية حسين توفيق ومحاولته اغتيال عبد الناصر ، واعتقالات الاخوان المسلمين ، والتدخل فى مؤسسات القطاع العام مثل مؤسسة المطاحن وجريدة الجمهورية وشركة سينا للمنجنيز وغيرها ، ثم جادث كمشيش ولجنة تصفية الاقطاع كما سيرد تفصيلا فيما بعد .

سلطة الديكتاتورية ... وثياب الديمقراطية :

ولم يقابل هذا الاجراء بالصمت المطبق ... فقد حدثت مناقشة
حامية في مجلس الأمة .

وكانت عضوية الاتحاد الاشتراكي شرطا للترشيح لمجلس الأمة ...
ولم يكن للاتحاد حق الاعتراض على مرشح طالما هو عضو كما كان الحال
في الاتحاد القومي .

كانت أول انتخابات للاتحاد الاشتراكي قد أجريت بعد عام كامل من
اعلان الميثاق ... ومجلس ١٩٦٤ ترشح له في البداية ٣٥٧٠ مرشحا
في ١٧٥ دائرة لانتخاب ٣٥٠ عضوا . وهو أكبر رقم تقدم للانتخابات
في تاريخ مصر ثم تعددت الانسحابات وتقدم فقط ١٧٤٨ منهم ٥١٢
عاملا ، ٤٨١ فلاحا ٢٨ سيدة .

نبيع في انتخابات المجلس ٣١ ضابطا ... تولى ٥ منهم رئاسة لجان
من لجان المجلس البالغ عددها ١٨ .

وظهرت في صفوف المجلس آراء معارضة ، تماما كما حدث في مجلس
١٩٥٧ عندما طلب الصاغ محمد أبو الفضل الجيزاوي من رئيس المجلس
عبد اللطيف البغدادي تخصيص مكتب للمعارضة ...

كان تدخل المباحث الجنائية العسكرية يزداد وينتشر حتى وصل
الى حد الاشراف على مرفق النقل العام سنة ١٩٦٤ .

واعترض بعض أعضاء مجلس الأمة في جلسة ٢ ديسمبر ١٩٦٤
على تدخل الجيش في الأعمال المدنية ولو تحت شعار اصلاح الفساد .

وتأزمت الأمور ، والقى علي صبرى رئيس الوزراء بيانا يؤيد فيه
نظرية الاستعانة بالجيش في بعض الأعمال المدنية ، وضرب مثلا لذلك
بمشاركة الجيش في تنظيم العمل في منطقة بناء السد العالي . والاسهام
في تنفيذ مشروع الوادي الجديد تحت ظروف معيشية صعبة ، والقيام
بأعمال البناء والتعمير في بعض المدن والقرى ... وقال أيضا ان الجيش
يسهم في تصليح العربات المعطلة في مرفق النقل العام ومنظم حركتها ...
واختار علي صبرى نموذجا بالجيش والبحرية الأمريكية التي تقوم بأعمال
الإنشاء وخاصة في الموانئ .

ولم يقتنع بعض أعضاء المجلس بذلك لأن علي صبرى لم يفسر سبب
استخدامه في الأعمال البوليسية أيضا ... وقال حلمي الخندور انه مع
تقديره لحسم الجيش في اصلاح الخطأ الا انه لا يتصور ان يكون الملجأ

الذى تلجأ اليه كلما واجهنا انحرافا ما ... وتساءل عما يمكن أن نفعله
لو فسد التعليم وهل يقوم بإرسال فرقة من الجيش للتدريس .

دفاع على صبرى عن تدخل الجيش فى أعمال السلطة التنفيذية لم
يكن نابعا من اقتناع بذلك ، وإنما كان تبريرا لأمر واقع لا يسهل منعه
أو تحاشيه ... فلم يكن فى العلاقة بين على صبرى وعبد الحكيم عامر
ما يمكن أن يعتبر حافزا على هذا الدفاع - كان عامر ينظر الى على صبرى
نظرة الى متسلل لمركز السلطة ، وقد شاركه فى هذا الشعور بدرجات
متفاوتة معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وبقى الاتحاد الاشتراكي هيكلا للتنظيم بعيدا عن القدرة على تحريك
الجماهير أو اقناعها بوجوده .

كان العسكريون فى الاتحاد الاشتراكي أقل نفوذا من العسكريين فى
الجيش ... وكانت طبيعتهم ما زالت مهيمنة لا تتفاعل مع الجماهير
فى سهولة ، رغم استفادتهم من هذا الاحتكاك .

وظلت المشكلة الدائمة هى حرص المجموعة العسكرية على امتصاص
النشاط العام أو اسكاته ... وكانت تقع دائما فى تناقض شديد بين
الرغبة فى اكتساب ثقة الجماهير مع اضعفها وشل فعاليتها .

معضلة بلا حل ... الحرص على سلطة الديكتاتورية والرغبة فى
لبس ثياب الديمقراطية .

رصيد جمال عبد الناصر الكبير خلال انتصاراته الوطنية دعم ثقة
الجماهير به ، وخلق بينه وبينها اتصالا مباشرا ، أقوى من صلته بها
خلال التنظيمات .

وخفيت عن الناس فى هذه المرحلة الصراعات والتناقضات النامية
فى مركز السلطة ، والتي لم يعرف الشعب عنها شيئا سوى عودة الملابس
الكاكية للظهور فى غير ما أهدت له .

شخصية المشير عبد الحكيم عامر تنمو ويصبح لها نفوذ خاص
تدعمه قوة الجيش .

وعلى صبرى فى رئاسة الوزارة تسنده قوة جمال عبد الناصر مع
١٠ وزراء عسكريين ، ١٩ مدنيين ، يطبق الخطة الخمسية الأولى ... وهى
الخطة الوحيدة التى طبقت كاملة فى عهد الثورة .

وحسين الشافعى فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي ، يصرح لم
فى حديث نشر فى مجلة روز اليوسف يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٥ قائلا :

(عندما نحمل الاتحاد الاشتراكي مسئوليات كبيرة فى هذه المرحلة فانا نتجاهل بذلك طبيعة تكوين الاتحاد انه يضم تقريبا مجموع الناخبين حوالى ٧ ملايين ٠٠٠ ونحن لا ندعى ان فى استطاعتنا تحقيق وحدة مصلحة وارتباط وفكر على هذا المستوى الضخم) .

ويعلق على الاستثناء الذى أقرته اللجنة التنفيذية بدخول بعض الفئات دون قيد ولا شرط ، وهى الفئات السبعة التى أشرنا اليها سابقا فيقول (كانت النتيجة هى تسرب بعض المعزولين ومن صدرت ضدهم أحكام سابقة بالسجن ٠٠٠ وأصبح من حق هؤلاء أن يقوموا بنشاط سياسى داخل صفوف الاتحاد الاشتراكي) .

الاتحاد الاشتراكي فى عهد حسين الشافعى يكاد يكون صورة للاتحاد القومى ولكن بوثيقة فكرية هى الميثاق ، وبوضوح سافر فى اننا نعبر مرحلة انتقال اجتماعية من الرأسمالية الى الاشتراكية .

أنور السادات يرأس مجلس الأمة .

ومجلس الرئاسة يتحول الى قيادة جماعية شكلية بعد التراجع عن اتخاذ القرار الذى كتبه جمال عبد الناصر للحد من سيطرة المشير عامر .

يقول زكريا محيى الدين ان مجلس الرئاسة كان تشكيلا يستهدف ابعادهم عن السلطة التنفيذية الفعلية ٠٠٠ وانه لم يتحول أبدا الى قيادة جماعية .

استقالة كمال الدين حسين

.. كمال الدين حسين يعتزض على بعض تصرفات حملة اليمن كما سيأتى تفصيلا فيما بعد ٠٠٠ ويقدم استقالته فى عام ١٩٦٢ ثم عام ١٩٦٣ ، ولكن جمال عبد الناصر يقنعه بسحبها .

.. لمح جمال عبد الناصر الى خلافه مع كمال الدين حسين فى محادثات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق فى جلسة ١٤ مارس ١٩٦٣ عندما قال ان كمالا يسأله (لماذا تحمل نفسك وحدك المسئولية ؟) ويجيب عبد الناصر مستطردا (ولكنى لصالح النضال العربى على استعداد لتحمل أى تضحيات) ٠٠٠ وكان كمال الدين حسين حاضرا فى هذه الجلسة .

.. كان موضوع استقالات عامر وكمال الدين حسين يشغل بال عبد الناصر ، وقد دفعه ذلك الى التلميح به فى جلسات محادثات الوحدة أيضا ، محتجا على انسحاب الوزراء السوريين من العمل قائلا فى جلسة ١٩ مارس ١٩٦٣ (يعنى افرض النهاردة عبد الحكيم عاوز يستقيل تسول له نفسه انه يروح يتفق مع كمال حسين ومع بغدادى ومع على صبرى

علشان يستقيلوا ... لا يمكن يحدث هذا أخلاقيا ... اوعى تفكر ان
أى واحد فيهم ما فكرش يستقيل مرة أو اثنين ... استقالوا ، بس
ما حدش أبدا فى هذه العملية حولها الى مناورات سياسية ... يمكن
ما حدش كان يعرف الا منى انا ... كانوا يعرفوا ان فلان استقال منى انا
... ليه احنا النهارده محافظين على وحدتنا ١١ سنة ... لان الحقيقة
التعامل كن على أساس أخلاقى) :

لم يكن أحد قد استقال وغادر موقعه حتى هذه الجلسة ... ولكن
كمال الدين حسين بدأ يمتنع عن الذهاب الى مكتبه منذ أغسطس ١٩٦٣
حتى مارس ١٩٦٤ دون أن يعلن استقالته ودون أن يلتقى بجمال
عبد الناصر أيضا .

وتصادف ان التقى الاثنان يوم ٤ مارس ١٩٦٤ فى جنازة المستشار
القانونى لرئاسة الجمهورية محمد فهمى السيد ، فدعاه جمال الى اجتماع
حضره عبد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر وذكريا محيى الدين وحسين
الشافعى وأنور السادات .

واستمر الاجتماع ثمانية ساعات متصلة من موعد الجنازة الى موعد
الذهاب الى سرادق العزاء ليلا .

ناقش الحاضرون موضوع اليمن ثم انتقل النقاش الى الموقف
السياسى فقال كمال الدين حسين حسب روايته لى ان الميثاق له وجهان
... وجه ماركسى والوجه الآخر اسلامى عربى ... وانه يعترض على
الاندفاع لتطبيق الاشتراكية معلنا ان هذا سقوط فى هوة الشيوعية ...
وطالب بان يكون تقرير لجنة الميثاق جزءا لا يتجزأ من الميثاق .

حاول جمال عبد الناصر ان يوضح لكمال الدين حسين ان الاتجاه
الى الاشتراكية ضرورة حتمية تفرضها مسئولية الثورة لرفع قبضة
الاستغلال عن الجماهير ... ولكن كمال الدين حسين قال فى اصرار انه
ما ورد فى الدين كليل برفع الاستغلال .

وحاول جمال عبد الناصر ان يقنعه بان الاشتراكية العلمية التى
وردت فى الميثاق ليست ضد الاسلام ... وان النبى محمد عليه الصلاة
والسلام كان يقول (الناس شركاء فى ثلاث ... الماء والنار والكلام)
وهى العناصر الرئيسية للحياة فى ذلك الوقت .

وذكره بان عدد المنباجد قبل زاده فى عهد الثورة لحتى اكاد يتضاعف
من ١١ ألف مسجد الى ٢١ ألف مسجد .

كما أظهر انه في انه ليست هناك نية للتراجع عن الميثاق أو التطبيق الاشتراكي . وحتى ولو وصل الأمر الى تأميم المحلات التجارية الصغيرة .

وهنا كانت المناقشة قد بلغت ذروتها من العنف وكان كمال الدين حسين الذي سلبت منه مناصبه المتعددة قد وصل الى موقف الرفض الكامل لكل ما يدور حوله . . . يشعر انه غريب عنه ، ومعتقداته التي ربطته يوما بجماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة ، عادت فسيطرت عليه .

يقول عبد اللطيف البغدادي انه لم يحدث ان بلغت المناقشة هذه الدرجة من العنف بين أعضاء المجلس .

ويقول زكريا محيي الدين ان موقف كمال الدين حسين كان جامدا ، وعاجزا عن اقناع زملائه برأيه .

وقدم كمال الدين حسين استقالته الأخيرة قال فيها (أنا لو بقيت سأفقد نفسي ، وأنا لا أريد أن أفقد نفسي ولا أظن ان من مصلحة وطني أن أفقد نفسي) .

لم يستقل كمال الدين حسين وحده . . . ولم يكن هذا هو التناقض الوحيد .

كان هناك تناقض آخر بين جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي .

خلافات حول الصناعة :

كان البغدادي مشجوعا منذ البداية بالتراجع عن قرار المسير عامر الذي اتفق عليه مع جمال عبد الناصر . . . وبقي البغدادي وعامر عدة سنوات لا يلتقيان من ١٩٦٤ الى ١٩٦٤ .

وعندما عرض جمال عبد الناصر على مجلس الرئاسة مشروع تأميم القطاعين ومضارب الأرض ومجاليح القطن اعترض عبد اللطيف البغدادي بدعوى مخالفة ذلك للميثاق . . . وطالب بعرض القانون على مجلس الأمة قبل صدوره . ولكن عبد اللطيف البغدادي يقول ان القرارات الجمهورية قد صدرت بالتأميم .

كان خلاف وجهات النظر حول الصناعة والتأميم هو أكبر خلاف صادف رجال الثورة في مسيرتهم وتبلورت حوله أفكارهم وتحدثت مواقعهم . . .

كان خلافا حول تشكيل المجتمع ، وليس حول قضية وطنية يواجهون فيها عدوا مشتركا .

كان جمال عبد الناصر مقتنعا بأنه لا سبيل للتقدم الا بمزيد من القوانين الاشتراكية ٠٠٠ يصدر قانون بتحديد ايجار المساكن (١) وقانون بتنظيم اجراءات الترشيح والانتخاب لعضوين من الموظفين والعمال بمجالس ادارة الشركة أو المؤسسة (٢) وتحديد الحد الأدنى لأجر العامل بخمسة وعشرين قرشا في اليوم (٣) وقانون بتحديد الحد الأقصى لمرتب رئيس مجلس الادارة بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه سنويا مع بدل تمثيل لا يتجاوز ١٠٠٪ من الأجر الأصلي ، بينما الحد الأدنى لمرتب الدرجة الثانية عشرة هو ٦٠ جنيه فقط (٤) .

وهل عام ١٩٦٣ بتأميمات جديدة شملت منشآت تصدير القطن ومحاليج القطن (٥) ، يحظر تملك الأجانب للأراضي الزراعية (٦) وتأميم شركة المقاولات والكراكات (أحمد عبود وشركاه (٧) ، واصدار قانون التأمين والمعاشات لموظفي الدولة ومستخدميها وعمالها المدنيين ، ثم صدرت قرارات جمهورية بتأميم المطاحن (٨) وشركات مقاولات ونقل وملاحة ، ١٤ شركة أدوية مع سحب تراخيص ٤٠ (مصنع ومعمل أدوية) .

وصدر قرار بقانون رقم ٧٢ في ٨ أغسطس ١٩٦٣ بتأميم ١٨ شركة كانت تخضع للقانونين ١١٨ ، ١١٩ لعام ١٩٦١ تأميما كاملا وكانت تسهم الدولة فيها بنصيب أقله ٥٠٪ ، ٧ شركات ومصانع كانت تحت الحراسة ، ٣٧ شركة جديدة وكلها تبعت للمؤسسة المصرية العامة للغزل والنسيج . كما أممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية ٢٧ شركة كانت خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ ، ٧ شركات تحت الحراسة ، وشركتى قطاع عام ، ٣٨ شركة جديدة .

وأممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الكيماوية ٢٢ شركة خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ وشركة قطاع عام لم تخضع لقوانين التأمين ، ١١ شركة جديدة .

وأممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الهندسية ١٤ شركة خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ وشركتى قطاع عام لم تخضعا لقوانين التأمين ، ٤ شركات تحت الحراسة ، ١١ شركة جديدة .

-
- (١) قانون ٦٤ في ٣١ يناير ١٩٦٢ .
 - (٢) قانون ٦١٧ في ١٢ فبراير ١٩٦٢ .
 - (٣) قانون ١٠٢ في ٣ يوليو ١٩٦٢ .
 - (٤) قرار جمهورى ٣٥٤٦ في ٢٩ ديسمبر ١٩٦٢ .
 - (٥) قانون رقم ١٥ في ١٤ يناير ١٩٦٣ .
 - (٦) قانون رقم ١٥ في ١٤ يناير ١٩٦٣ .
 - (٧) قرار جمهورى رقم ٣٩ لسنة ١٩٦٣ .
 - (٨) ١٧ مطحنا .

وأمنت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة لمواد البناء والحراريات ٣ شركات تخضع للقانون ١١٨ و ١١٩ وثلاث شركات تحت الحراسة وشركتان جديدتان .

• أما المؤسسة المصرية للتعدين فتبع لها ٨ شركات جديدة مؤمنة .
• ومؤسسة التعاون الانتاجي ١١ شركة جديدة مؤمنة أيضا .

ثم صدر قرار بقانون رقم ٧٣ في ٨ أغسطس ١٩٦٣ يقضى بإنهاء عقود بحث واستغلال المناجم وعقود استغلال بعض المحاجر الممنوحة للقطاع الخاص .

• ثم أمنت ٢٩ شركة نقل برى في ١٢ أغسطس .

• وأمنت ١٤ شركة نقل نهري في نفس اليوم .

وهكذا أمنت معظم شركات القطاع الخاص في مختلف المجالات ...
... واستكملت قوانين ١٩٦٣ ما سبق ان بدأته قوانين يوليو ١٩٦١ ...
... ووضح انه لم يكن هناك شبهة تردد أو تراجع في اتجاه الدولة نحو التأمين .

• لم يكن عبد اللطيف البغدادي في أعماقه متحمسا لهذه التأمينات ...
• ولم يكن من أنصار الاندفاع في طريق التطبيق الاشتراكي بهذه الصورة ...
فهو - رغم موافقته على الميثاق وقوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦١ - لم يتصور ان مزيدا من الاجراءات سوف يتوالى ويحاصر حرية الاستثمار الفردى التى تنمى عند الفرد - حسب قوله - روح الاجادة والمنافسة .

ولم يكن عبد اللطيف البغدادي منفردا برأيه فى ذلك ... كان عدد من زملائه أعضاء المجلس يشاركونه الرأى بصوت خفيض (قال لى حسن ابراهيم انه عارض تأمين محلات بنزاىون وعدس وشملا بعد تأمين محلات عمر أفندى وذلك لاقتناعه بنقص القدرة الكافية فى ادارة هذه المحلات بنجاح) .

قال لى زكريا محيى الدين أيضا انه كان يؤمن بأن الملكية الخاصة ضمان للحرية السياسية وان القطاع العام غير مضمون من نواحي الادارة ، كما انه لا يجوز تأمين شيء الا اذا كان هناك الكادر القادر على ارادته ادارة جيدة .

ويستطرد زكريا محيى الدين موضحا أفكاره بقوله انه كان يفضل تحديد ملكية الاسهم فى الشركات للفرد والأسرة وبذا يضرب سيطرة رأس

المال على الحكم .. وينهى تصويره للموقف بأن جانباً من هذه الاجراءات كان يستهدف سيطرة الحاكم على موارد الرزق أو لقمة العيش - حسب تعبيره .

ويعلل ذكرياً محيي الدين عدم اتخاذ موقف المعارضة المعلن مثل زميله عبد اللطيف البغدادي بقوله انه كان حتى ذلك الوقت على ثقة أكيدة بقيادة جمال عبد الناصر وانه كان يتذكر قوله له دائماً عام ١٩٦٢ بأنه يريد يدا حرة مطلقة يتصرف بعدها بارادته المتكاملة حتى يكون مسئولاً عن تنفيذ برنامجه .

(ثم يقول ذكرياً محيي الدين انه كان مع اعطاء جمال عبد الناصر كامل المسئولية واطلاق يده بحرية كاملة .. على غير ما كان يراه عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين .

وكذلك كان باقى أعضاء مجلس القيادة المشاركين فى الحكم يبلغون أراهم الخاصة غير المتبلورة فى برنامج واضح ، المتأثرة غالباً بالمحيطين بهم من أبناء الطبقات الذابلة ، أو المتطلعين الى حياة البرجوازية الكبيرة الناعمة .

كان موقف جمال عبد الناصر الصلب ورؤيته الخاصة لأفاق المستقبل هى الضمان الاول لاندفاع الثورة فى هذا الطريق .. ويبدو انه كان مدركاً ان زملاءه الذين خطوا معه خطوات الثورة الاولى قد أرهقهم جهد المسيرة فى مواجهة المصاعب .. ولذا كان يزداد اعتماده على عناصر أخرى جديدة يتبناها ويرعاها .

مسئولية الصناعة مثلاً تركزت فى يد الدكتور عزيز صدقى الذى عقد أول اتفاقية لتمويل الصناعة المصرية مع الاتحاد السوفيتى يوم ٢٩ يناير ١٩٥٨ .

كان معظم أعضاء مجلس القيادة يتخذون موقف الجفاء من عزيز صدقى لاختلاف وجهات نظرهم التى كانت لا تشجع المزيد من سيطرة الدولة على الصناعة .

ويلاحظ ان التأميمات قد ضاعفت العبء على وزارة الصناعة ومنحت التكنوقراطيين والفنيين فرصاً هائلة للترقى والوصول الى مناصب المديرين ورؤساء مجالس الإدارة .

جملة الشركات المؤممة عام ١٩٦٣ بلغ ٢٩٣ شركة احتاجت جميعها الى قيادات ادارية وفنية لم تكن مهياة من قبل لتولى هذه المسئوليات فى وقت مبكر .

وللمقارنة نشير الى تقرير اتحاد الصناعات عام ١٩٥١ .

والاستثمار الصناعي كله كان ٢١٠٠٠٠٠٠ جنيه فقط .

عدد المديرين في مختلف الشركات كان ١٤٠٦ منهم ٣٥٪ مصريون
ومن بينهم ١٨٪ يهود ٣٠٪ أوروبيون ، ١١٪ سوريون ، ٨٪ أرمن
ويونانيون .

المصريون أصلا لم يتجاوزوا بذلك ١٧٪ فقط من المشتغلين بالادارة
الصناعية التي كانت رغم كل شيء محدودة .

كان التوسع الهائل في تأميم الشركات واستيلاء الدولة عليها غير
مضمون بتوفر كادر قيادي من الاداريين والفنيين المؤمنين بالاشتراكية
والقادرين على التفاعل مع العاملين وادارة المؤسسات والشركات اذاعة
ديمقراطية .

كان عبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين ومن يفكرون بأسلوبهم
من الاداريين المنتشرين في أجهزة الدولة يرون ان الحل يكون في التخفيض
من مسئولية الدولة وعدم التوسع في القطاع العام . لم يفكر أحد منهم
في ان انجازات الدولة في ميدان الصناعة والاقتصاد لا تكمل الا بتوفير
ادارة ديموقراطية لوسائل الانتاج . وهي لا تتحقق الا باسهام
الاشتراكيين الحقيقيين في جهاز الحكم .

خلال هذا الزحف نحو التأميمات وتشجيع الصناعة ، كان الشيوعيون
ما زال معظمهم في المعتقلات .

يقول لينين (يستحيل التغلب على الرأسمالية دون الاستيلاء على
المصارف ، ودون الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . يستحيل تحقيق
هذه الاجراءات الثورية دون تنظيم ادارة وسائل الانتاج المنتزعة من
البرجوازية وادارتها ادارة ديموقراطية من قبل الشعب كله ، دون اشراك
جمهور الكادحين البروليتاريين منهم وانصاف البروليتاريين وصغار
الفلاحين في تنظيم صفوفهم وقواهم ودولتهم تنظيميا ديموقراطيا) .

كان تحقيق مثل هذه المشاركة الديموقراطية في ادارة وسائل
الانتاج أمرا بعيدا تماما عن أفكار عبد اللطيف البغدادى ومن يفكرون
مثله لأنه كان من أنصار السلطة الفردية في ادارة الانتاج . كما ان
ظروف المجتمع في ذلك الوقت كانت لا تتيح لجمال عبد الناصر فرصة
يخلق ادارة ديموقراطية حقيقية لأسباب سنعرفها تفصيلا في الفصل
القادم .

ومع ذلك يقول الدكتور عزيز صدقي (انه لولا جمال عيـد الناصر ما كانت هناك صناعة) . . كان المساند الوحيد لها في وقت كان أعضاء مجلس قيادة الثورة ضدها ومعهم رجال الاقتصاد أيضا .

وكانت هذه الثغرة الفكرية بين جمال عبد الناصر من جهة . وبين عدد من زملائه من جهة أخرى تعبر عن عبور الثورة لمفترق طرق حاسم . انتقلت التناقضات في مركز القيادة من تناقضات شخصية محدودة قد تمس أسلوب الحكم الى تناقضات اجتماعية تعبر عن خلافات في الانتماء الطبقي . . وجهات نظر متنافرة في بناء المجتمع .

وازدادت هذه الفروق وضوحا عندما تبين ان بناء الصناعة لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق مساعدات الدول الاشتراكية الصناعات التي أممت لم تكن وحدها كافية لبناء قاعدة صناعية متطورة خطة التنمية كانت تستهدف بناء صناعات جديدة .

يقول الدكتور عزيز صدقي (ان جملة الاستثمار الأجنبي عام ١٩٦١ كانت ٦٠٠.٠٠٠ جنيه فقط ، مما جعل فكرة التأميم والاشتراكية ضرورة حتمية للنهوض بمستوى الشعب) .

ويؤكد الدكتور عزيز صدقي بأن رأس المال الخاص المستثمر في الصناعة بعد التأميم قد زاد عما كان عليه قبل التأميم . . وان حركة رأس المال الداخلى مع ذلك لا تتجاوز ٥٠ مليون جنيه . . . وهذا ما يثبت ان قدرات القطاع الخاص مهما بلغت فهي محدودة .

ثم يقول (لولا قروض الدول الاشتراكية ما أمكن اقامة المصانع) . وكان هذا الاتجاه في ذاته محل اعراض عبد اللطيف البغدادي الذي لم يكن من المجندين لسياسة التعاون مع الدول الاشتراكية بقدر متزايد .

لم يدرك ان الدول الاشتراكية تهتدي بقول لينين الذي أعلنه قبل انتصار ثورة أكتوبر (اننا سنبدل قصارى جهدنا للتقارب مع المؤلف والاييرانيين والهنود والمصريين والاندماج بهم ، ونحن نعتقد ان من واجبنا ومصالحنا ان نفعل ذلك ، والا تكون الاشتراكية في أوروبا غير وطيدة ، وسنبدل ما في وسعنا لنقدم لهذه الشعوب المتأخرة والمظلومة أكثر منا (المساعدة الثقافية النزيهة ، أى مساعدتها على الانتقال الى استخدام الماكينات وتسهيل العمل على الانتقال الى الديمقراطية) - العالم الثالث طبعة موسكو ١٩٧١ .

قضية التعاون مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية أصبحت نقطة خلاف رغم الاتفاق على صفقة السلاح وبناء السد العالي .. وذلك بعد تجاوز مرحلة الخلاف بين جمال عبد الناصر وخروشوف عام ١٩٥٩ ، واستقرار الأوضاع بين الدولتين في هدوء على أسس تعاونية جديدة .

استقالة عبد اللطيف البغدادي

ومع ذلك لا يجوز اعطاء الأمور أهمية أكثر مما تستحق ... فمعظم هذه الخلافات ووجهات النظر المتنافرة ، كانت تدور في حدود دائرة ضيقة عند القمة ، ولم تكن الجماهير تعرف عنها شيئا كثيرا .

لم تأخذ الخلافات صورة صراع الأحزاب القديمة التي تتبلور أفكارها من واقع طبقي محدد تفرضه صلتها بفئات معينة من الجماهير .. ولكنها كانت ذات طابع شخصي يتأثر بالصلات الخاصة والأفكار الذاتية لأعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين .

... لم يكن التناقض بين جمال عبد الناصر من جهة وبين عبد اللطيف البغدادي أو كمال الدين حسين من جهة أخرى . يمثل خطرا على تماسك القيادة ، أو يضعف من مركز عبد الناصر في القمة .

لم يكن هناك خطر من وجود هذا التناقض لأن أحدا من الاثنين أو غيرهما من أعضاء مجلس القيادة لم يكن يملك نفوذا في القوات المسلحة منذ تولي عبد الحكيم عامر قيادتها العامة في يونيو ١٩٥٣ ، ولم يكن لأحد منهم تأثير جماهيري في وقت تركزت فيه كل الأنظار على شخصية الزعيم ، وفي وقت اقتنع به الجميع قائدا لهم يدينون له بالولاء .

ولم يكن التناقض بين جمال عبد الناصر وبينهما شبيها بالتناقض بينه وبين عبد الحكيم عامر .. ذلك ان المشير رغم كونه هو وعبد اللطيف البغدادي كانا الوحيدين من أبناء العهد أثرياء الريف نسبيا ، الا انه لم يكن صاحب فكرة نشطة يمكن أن تصطدم مع اتجاهات جمال عبد الناصر .. وكان الخلاف بينهما شخصيا في مضمونه أكثر منه مرتبطا بخلافات ايديولوجية .

اما الخلاف مع كمال الدين حسين فانه كما أوضحت كان صراعا بين اتجاه تقدمي يمثلته جمال عبد الناصر واتجاه محافظ يمثلته كمال الدين حسين ... بدأ منذ الغاء الاتحاد القومي الذي كان كمال يخطب في اجتماعاته قائلا ان عبد الناصر شخصية موهوبة يكاد يوحى لها .. ثم اتخذ موقفه المعارض المعروف الذي أخذ يزداد حدة بعد تركه لمناصبه حتى انتهى به الأمر الى الاستقالة .

كان كمال الدين حسين يقف عند فكرة ثابتة وجامدة يقول بأن كل اتجاه للتحويل الاشتراكي هو ماركسية شيوعية يجب مقاومتها .. وبهذا المفهوم رفع شعار المعارضة لكل ما يتم في مصر ، وحمل معولا يحاول به تحطيم زعامة جمال عبد الناصر التي أسهم في خلقها .

لم يهدأ كمال الدين حسين بعد استقالته ، وإنما حمل لواء المعارضة في الأوساط التي يتحرك فيها ، وكتب خطابا الى جمال عبد الناصر يحتج فيه على اعتقال الاخوان المسلمين الأمر الذي انتهى الى تحديد اقامته يوم ١٥ أكتوبر ٦٥ في احدى الفيللات بمنطقة أهرامات الجيزة ، وظلت اقامته محددة تحت الحراسة حتى توفيت زوجته التي كانت تقيم معه فجأة بعد ثلاثة أشهر وعندما خرج لتشيع جنازتها أطلق سراحه ولم يعد الى مكان تحديد اقامته .

ولكن الخلاف بين جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي كان ذا طبيعة ثالثة .. فعبد اللطيف البغدادي رغم انه من أبناء برجوازية الريف ، ورغم انه كان على صلة تنظيمية مع الاخوان المسلمين وبعض الجماعات الارهابية أو الفاشية قبل الثورة (جماعة اليد السوداء - عبد العزيز علي - وجيش التحرير - فوزى القاوقجي -) الا انه حضاري النزعة يؤمن بالديموقراطية الليبرالية ، وحاول أن يجعل من فترة رئاسة مجلس الأمة محاولة لخلق تجربة ديموقراطية في اطار الثورة .

ولم تكن الخلافات التي نشبت بين البغدادي وعزيز صدقي موقفا منه ضد الصناعة ، ولكنه كان موقفا ضد ما يراه اندفاعا غير مخطط من وجهة نظره .. ولم يكن البغدادي مقتنعا بالتوسع في التأميمات التي تصل المشاريع الخاسرة ، بالاضافة الى رغبته في دعم أجهزة التخطيط التي سبق له ان تولى وزارتها حتى لا تنفرد الصناعة وحدها في مجال العمل .

ولا يعني هذا ان عبد اللطيف البغدادي كان اشتراكيا علميا يختلف فقط في اجراءات التطبيق ولكنه كان من المؤمنين بإمكانية تطور المجتمع في طريق رأسمالي مع اتخاذ بعض اجراءات اشتراكية .. ولكنه لم يعلن عن اتخاذ موقف معارض صريح لمبادئ الميثاق أو لاجراءات التأميم سواء عام ١٩٦١ أو ١٩٦٣ .

تركز الخلاف بينه وبين عبد الناصر حول مشروعية تأميم المطاحن ومضارب الارز ومحالج القطن بقرارات جمهورية دون عرض الأمر على مجلس الأمة كما ذكرت .

ووضّل الأمر غايته وشعر عبد اللطيف البغدادي ان دور مجلس الرئاسة قد أصبح شكليا وانه لا يسهم في صنع سياسة الدولة ولم يجد سبيلا الا بتقديم استقالته .

ولم تكن هذه هي استقالته الأولى ، ولكنها كانت الأخيرة .

سبق ان قدم عبد اللطيف البغدادي استقالة أولى عام ١٩٥٤ خلال أزمة مارس عندما رفض الموافقة على عودة محمد نجيب وكان قد سبق له عدم الموافقة على خروجه أيضا .

وقدم استقالته ثانية في ٢٤ أغسطس ١٩٥٨ عندما تلقى خطابا دوريا من جمال عبد الناصر ينبه أعضاء مجلس الثورة لعدم الدعاية في الصحف . ولكن جمال عبد الناصر أرسل له وفدا من زكريا محيي الدين وكمال الدين حسين وحسين الشافعي وأنور السادات اقنعوه بالعودة حيث عاد يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٨ .

وبعد استقالته الثالثة وقبل نشرها وضع شقيقه سعد البغدادي تحت الحراسة لأفور لو صحت لأساءت اليه . وضاعت في غمرة أخبار وضع شقيقه تحت الحراسة ، تساؤلات الناس عن أسباب الاستقالة .

نقد القطاع العام

ولم يكن موقف جمال عبد الناصر في موضوع التأميمات وبناء الصناعة متحيزا للدول الاشتراكية . بل كان موقفا مصريا تمليه الظروف الموضوعية القائمة .

جمال عبد الناصر وافق على أن تختفى من قوائم التأميم شركات البترول أو صرح بتكوين ثلاث شركات أدوية برأس مال أجنبي غربي ٦٠٪ ورأس مال خاص ٤٠٪ .

ويقول الدكتور عزيز صدقي انه وافق على ذلك تحت ادراك حقيقة ان هاتين الصناعيتين تحتاجان الى أموال هائلة للبحث لا تتوفر في ميزانية الدول النامية . شركة فايزر للأدوية كانت تصرف وقتها ٢٠ مليون جنيه سنويا للأبحاث ، والبترول كان كامنا تحت أرضنا لا يجد من يدفع به الى السطح ، لخشية الشركات العالمية من قوانين التأميم . الى أن توصل الدكتور عزيز صدقي عام ١٩٦٣ الى اتفاقية مع الحكومة الأمريكية تنص على ان (الاستثمار الذي يتم في مصر تضمنه الحكومة الأمريكية) .

عارض جمال عبد الناصر الاتفاقية أولا - كما يقول الدكتور عزيز صدقي - ثم اقتنع بها بعد مناقشة دارت حول أهمية استخراج البترول لبناء اقتصادنا القومي .

• وبريجنيف أيضا سأل الدكتور عزيز صدقى عن سبب اعطاء الامتيازات البترولية لأمريكا ، وهى باب عريض تدخل منه لأرض مصر .
وكان رد الدكتور عزيز صدقى ان ذلك ناتج من عدم توفر رأس المال المصرى للبحث ، ذلك الى جانب وجود شركة وطنية فى أكثر المناطق احتمالا لوجود البترول .

ولم يقتصر اعطاء الامتيازات البترولية للدول الغربية فقط . . .
تعاقدت وزارة الصناعة مع الاتحاد السوفيتى على القيام بعمليات التنقيب عن البترول فى منطقة سيوة بالصحراء الغربية ، بشروط تختلف عن شروط الشركات الأمريكية . . . اذ يتم ذلك فى صورة قروض تصرف على البحث حتى اذا تم العثور على البترول انسحبت الخبرة السوفيتية تماما ولم يعد لها أى نوع من المشاركة فى الانتاج الا بقدر ما دفعته من أموال فى البحث .

أما الشركات الأمريكية فانها تتقاسم مع الحكومة المصرية نصف الاموال التى صرفت فى البحث ثم تستمر فى الحصول على ٢٥٪ من الانتاج الى أن ينضب .

وخلال هذه الفترة التى بدأت فيها مسيرة الصناعة فى مصر ، تعرضت أفكار التخطيط لبعض الأخطاء فأقيمت مصانع فى أماكن لا تتوفر فيها المواد الخام مثل مصانع اللبن . وأقيمت مصانع تعرضت للفشل مثل الترانزستور .

وانبرت مجلة روز اليوسف فى عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ توجه حملات نقد عنيفة لبعض الشركات والمؤسسات .

كنت رئيس تحريرها خلال هذه الفترة ، وكان حرصى شديدا على ان يكون القطاع العام صورة مضيئة للجماهير حتى يكون واجهة طيبة للاشتراكية .

كان النقد ينبعث من موقف الحرص على مساندة القطاع العام . . . وليس من موقف الرغبة فى الهدم والعودة الى الوراء . . . الى سيطرة رأس المال الخاص .

قال جمال عبد الناصر فى مؤتمر المبعوثين بعد ذلك وهو يتحدث عن حرية الصحافة (الجرائد تنقد . . . مثلا روز اليوسف لها نقد مر جدا للقطاع العام ، أى حاجة بتتنشر عن القطاع العام يحصل فيها تحقيق وتنحرى لمعرفة هل هذا صحيح أم لا) .

كان هذا صحيحا فقد اكتشفت المباحث الجنائية العسكرية في حملاتها على القطاع العام صدق ما نشرناه عن تزوير الميزانيات في شركة سينا للمنجنيز وغيرها .

ويخطيء من يتصور أن الصناعة يمكن أن تستقر بغير أخطاء أو بعيدا عن الانحرافات .. حتى مع أحمد عبود تعرضت لذلك ، فقد وضع مبلغ مليون جنيه في منجم كبريت لا يوجد فيه كبريت ، وكان ذلك بناء على نصيحة من شركة أمريكية .

الدولة تقود عملية التنمية .. بعد أن أصبحت معظم الشركات مؤمنة .

الدخل المتولد في الصناعة .. حفر الزاوية في تطوير اقتصادنا القومي ارتفع خلال الخطة الخمسية الأولى من ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥ من حوالي ٢٥٦ مليون إلى ٣٨٥ مليون بنسبة تزيد عن ٥٠٪ بمعدل ارتفاع ١٠٪ سنويا كما وردت في كتاب (سنوات التحول الاشتراكي) لعل صبرى ..

صراع في مراكز القمة

بعد استقالة كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي اتخذ جمال عبد الناصر قرارا بتعيين المشير عبد الحكيم عامر نائبا أول لرئيس الجمهورية وتعيين زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وحسن ابراهيم نوابا لرئيس الجمهورية يوم ٢٥ مارس ١٩٦٤ .. وسقطت أسماء المستقلين بلا تعليق ولم يعد باقيا من مجلس قيادة الثورة إلى جانب عبد الناصر سوى هؤلاء وأنور السادات .. أقلية المجلس ٦ من ١٣ هي التي بقيت بعد ٨ سنوات من العمل المشترك .

.. وصدر قرار جمهوري أيضا في نفس اليوم بتعيين علي صبرى رئيسا للوزراء ووزيرا للتخطيط بدلا من رئاسة المجلس التنفيذي ، وضم إلى وزارته من أعضاء مجلس الرئاسة كلا من الدكتور نور الدين طراف والمهندس أحمد عبده الشرباصي وكمال رفعت نوابا لرئيس الوزراء .

وهكذا انتهت قصة مجلس الرئاسة وقصة القيادة الجماعية .. وارتقى وضع المشير عامر ليصبح الشخصية الثانية من الوجهة العملية والرسمية أيضا .. كما ثبت أيضا وضع علي صبرى في أقوى موقع تنفيذي .

ليس هذا فقط .. بل إن المشير عامر والمحيطين به من قادة القوات المسلحة كانوا يتصرفون أحيانا وكأنهم وحدهم في الساحة لا يقيمون وزنا كبيرا للوزارة .

كثير من التعيينات الكبرى فى الأجهزة الادارية والتنفيذية كانت تتم بترشيح من عامر ٠٠ وكثير من الذين مستهم تحقيقات الرقابة اداريا احتفظوا بمناصبهم لأنهم كانوا مساندين بقوة المشير .

كان عبد الحكيم عامر قد قرر السير فى طريق المتعة الشخصية بعد انتصاره فى العودة بعد الاستقالة ٠٠٠ وكانت المجموعة المحيطة به كفيلة بالاساءة اليه وتهيئة كل وسائل اللهو والانحلال له .

وكان أمرا معروفا ومتداول ما يتم فى هذا الجو من تدخين واتصال ببعض الفنانات وبذخ يصل الى حد السفه ٠٠٠ ولعب الدور الرئيسى فى ذلك سكرتير المشير على شفيق صفوت .

وكان هناك خلاف واضح بين شمس بدران وعلى شفيق حاول المشير ان يمنعه عبثا حتى عين الأول مديرا للشئون العامة والثانى سكرتيرا خاصا ٠٠٠ ولكن ذلك لم يقض على التناقضات المتزايدة .

ولم تلبث أجهزة المباحث الجنائية العسكرية أن اكتشفت أثناء تتبعها لبعض الذين يتاجرون بأجهزة وآلات يحضرونها من اليمن ٠٠ اكتشفت ان اثنين من أعضاء مكتب المشير قد هربا عدة صناديق من دخان التبناك للمتاجرة فيها - حسب رواية الصاغ حسن خليل الذى رفع مذكرة الى الصاغ شمس بدران .

وعندما عرض الأمر على المشير أصدر تعليماته بالتحقيق ٠٠٠ وأثر شمس بدران الابتعاد عن التحقيق الذى قام به الصاغ حسن خليل ، والذى اكتشف فيه ان هناك عصابة فى ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة تصدر أذونات صرف وهمية تستولى عليها ، وانها مرتبطة بعصابة أخرى فى مكتب المشير يرأسها الصاغ عبد المنعم أبو زيد .

وقدم المتهمون للمحكمة ولم يحطهم المشير بحمايته ٠٠ وأصدرت المحكمة العسكرية التى رأسها اللواء محمد أحمد صادق (وزير الحربية فيما بعد) أحكامها بالسجن على عدد من أعضاء المكتب .

وانتهى الأمر بعد كشف هذه الفضائح الى إحالة على شفيق صفوت الى المعاش فى نهاية عام ١٩٦٦ .

الغريب ان المشير تزوج من برلنتى عبد الحميد وعلى شفيق تزوج من مها صبرى ، وعبد المنعم أبو زيد من سهير فخرى وهن جميعا من الفنانات .

والغريب أيضا هو صدور القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٦ الذى قضى بجعل الاختصاص للنياحة والقضاء العسكرى فى كافة الجرائم التى ترتكب

من العسكريين بسبب تأدية وظيفتهم أو حتى في الجرائم الخارجة عن نطاق أعمال وظائفهم اذا انفردوا بالاتهام فيها دون أشخاص مدنيين .

وكان ذلك يعنى وضع الجيش فى وضع خاص فوق الطبقات الأخرى .
وحصر دائرة الاتهام فى يد القيادة .

كان المستهدف من ذلك على حد قول أحد المسئولين فى القضاء
العسكرى عدم نشر الغسيل الوسخ أمام الناس .

أما الحقيقة فكانت اعطاء حقوق شكلية مع سيطرة فعلية من أعلى .
ولكن هذا التسبب والانحلال كان محاطا بجدار من الصمت والعزلة
ولم يؤثر على سمعة المشير أو نفوذه فى القوات المسلحة .

وحرص لذلك جمال عبد الناصر على ألا يناطح عامر فى شئون القوات
المسلحة الداخلية . . . وترك له الأفراد بها معتمدا على وجود شمس بدران
الشخصية التى اختارها لتكون ذات نفوذ وقريبة منه . . . كما حرص
أيضا على إخفاء الخلاف القائم بينه وبين المشير وحصره فى أضيق نطاق
ممكن معتمدا على أن عامر ليست له طاقة جادة على العمل ، وإن نشر هذه
الأخبار يضعف من مركز القيادة فى نظر القوات المسلحة — والجمهور
أيضا .

احتفظ الاثنان من الناحية المظهرية بعلاقاتهما الطيبة . . . ووقف
الاثنان جنبا الى جنب فى نادى ضباط القوات المسلحة بالزمالك صيف عام
١٩٦٥ وهما يستقبلان المدعوين لحفل زفاف شقيق جمال عبد الناصر
وكريمة عبد الحكيم عامر .

ولم تقف التناقضات والخلافات عند حدود قمة مركز السلطة ولكنها
امتدت الى الدائرة الثانية أيضا . . . حيث ظهر خلاف شديد بين على
صبرى والدكتور عزيز صدقى أدى الى خروجه من الوزارة وتعيينه
مستشارا لرئيس الجمهورية واستبداله بالدكتور مصطفى خليل وزير
النقل .

واتسعت دائرة الخلاف حتى وصلت الى حسن ابراهيم الذى كان
مقررا الاستقالة مع كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى فى مارس
١٩٦٤ ، ولكنه كان موجودا فى الخارج . . . وعندما عاد صراح جمال
عبد الناصر بأنه لا يود المشاركة فى المرحلة المقبلة ، ولكن جمال عبد الناصر
أقنعه فى اجتماع ضم زكريا محيى الدين وحسين الشافعى وأنور السادات
بأن يبقى معهم فى الحكم نائبا لرئيس الجمهورية .

وشعر حسن ابراهيم خلال ممارسته العمل بأن على صبرى يوقع بينه وبين عبد الناصر ، فصارحه بذلك قائلا (ان البعض يقدمون لك معلومات غير صحيحة ومنهم على صبرى) . . ويقول حسن ابراهيم ان عبد الناصر قال له (هل تتصور ان على صبرى يقدر يمسينى ؟ انه لا يزيد من سكرتيرى مهما كان فى أى منصب) .

ولكن الأمور لم تمض بالأسلوب الذى يرتضيه حسن ابراهيم فقد شعر انه بعيد عن مركز السلطة معزول عن المشاركة الايجابية الحقيقية فى صنع القرار .

ولم يجد بدا من تقديم استقالته الثالثة والأخيرة فى ١٨ يناير ١٩٦٦ بعد ان طلب مقابلة جمال عبد الناصر يوم ١٣ يناير ومضت خمسة أيام بلا جواب .

وهكذا كانت كواليس القيادة مليئة بالتناقضات والخلافات الشخصية ولكنها كانت محجوبة عن الجماهير بستار كثيف . . وكان التعلق بشخصية جمال عبد الناصر دافعا فى ذاته الى عدم اهتمام الناس بما قد يصل اليهم من همسات اقتناعا منهم بأن كل شىء يمكن اصلاحه وكل خطأ يمكن علاجه طالما جمال عبد الناصر فى قمة جهاز الدولة .

الفصل التاسع

طليعة الاشتراكيين

« ان الحاجة ماسة الى خلق جهاز سياسى جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكى العربى يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات » .
الميثاق

لم يكن صدور الميثاق وتكوين الاتحاد الاشتراكى العربى مفتاحا سحرى يفتح أبواب المجتمع للتحول الجديد . . . ولكنه كان علامة توجيه وخطوة أولى فى الطريق الجديد . . ولكن المسيرة تحتاج الى جهد شاق وطويل .

والتنظيم الجديد يلمس طريقه تحت تأثير الاتحاد القومى . . ومعظم العاملين والاداريين من غير القيادات ظلوا فى مواقعهم لا يكادون يستشعرون فرقا فى التغيير .

وانتقال الاتحاد الاشتراكى الى مبنى محافظة القاهرة الجديدة المثل

على النيل ، لم يكن فى ذاته باعثا على تغيير طبيعة الاتحاد القومى أيام كان فى قصر عابدين وفى ثكنات الحرس الملكى سابقا .

وتعيين حسين الشافعى أمينا للاتحاد الاشتراكى لا يعبر عن تطور فى التنظيم الجديد... فليس هناك فارق فكرى بينه وبين كمال الدين حسين الأمين العام للاتحاد القومى .

والجماهير ما زالت بعيدة عن استشعار ما يدور فى المجتمع ... والطبقة العاملة التى تكونت مع تطور الصناعة ما زالت بعيدة عن التفاعل الحى مع النظام عن طريق الادارة الديمقراطية .. والعسكريون والتكنوقراط ما زالوا سادرين فى سلوبهم الذى لا يطبق المشاركة ويسعو للانفراد .

والاتحاد الاشتراكى خلال هذه الفترة بعيد أيضا عن امكانية التفاعل مع المؤسسات والشركات الصناعية .. العلاقات ليست واضحة .. والحساسيات من جانب المديرين قائمة .. والملاحظات من جانب العاملين فى الاتحاد الاشتراكى مستمرة .

الكتاب السنوى الثانى للاتحاد الاشتراكى لا يحدد دورا لتفاعل تنظيمات الاتحاد مع أجهزة الادارة ... وخطة العمل التى صدرت عام ١٩٦٤ لا تتضمن أكثر من هذه الفترة (أما الوسائل الخاصة بكل صناعة فإن التقاء النقابات العامة وممثلى الادارة مع ممثلى التخطيط قد يكون مجالا مفيدا لتحديد المشاكل العامة التى تتعرض لها الصناعة بذاتها ، ويمكن ان تعود بعض هذه المسائل الى الوحدات الانتاجية فى المصنع لتناقش بوصفها مصدر المعلومات الأساسى) .

ثم تواصل التوضيح قائلة (ولكى يكون العمل الذى يتم فى هذه المؤتمرات مثمرا ومفيدا يجب ان يبتعد عن أى شكل من أشكال السلطة التنفيذية ليكون تعبيرا حقيقيا لا يتصف بالحرص أو المجاملة ، وبذلك تتأكد معانى الديمقراطية كسلوك وممارسة على أساس ان الادارة والتنفيذ تخلع كل منهما عن نفسها ثوب السلطة عند المناقشة) .

خطة الاتحاد الاشتراكى عامة وغامضة ... وبعيدة عن الوصول الى قلب المشكلة .

دور الاتحاد الاشتراكى ليس واضحا ... ما زال يتحرك بروتينية بعيدة عن التأثير فى الجماهير .

ولكن الأمور لا تركز الى جمود ... تشكلت أمانة جديدة فى

١٣ ديسمبر ١٩٦٤ من ٢١ عضواً ٠٠ من بينهم ١٣ ضابطاً وقسمت الى
١٥ أمانة فرعية وضمت الأسماء الآتية :

حسن الشافعى ، د . نور الدين طراف ، أحمد عبده الشرباصى ،
كمال الدين رفعت ، عباس رضوان ، خالد محيى الدين ، سيد مرعى ،
طلعت خيرى ، أنور سلامة ، د . حسين خلاف ، شعراوى جمعه ،
كمال الحناوى ، على السيد على ، حسين ذو الفقار صبرى ، محمد فتحى
الديب ، أحمد عبد الله طعيمة ، عبد الفتاح أبو الفضل ، د . عبد السلام
بدوى ، عبد المجيد شديد - د . ابراهيم سعد الدين ، د . رشدى سعيد .

خرج من الأمانة السابقة أنور السادات رئيس مجلس الأمة ،
وعلى صبرى رئيس الوزراء ، وكمال الدين حسين المستقيل ، وحسن
ابراهيم ، والدكتور محمد عبد القادر حاتم .

جميع الخارجين من الضباط ... والبعض منهم يقترب من دائرة
الظلم .

ودخل اليها للمرة الأولى بعض اليساريين وكان هذا فى ذاته إعطافاً
جديداً فى مسار الثورة ... خالد محيى الدين الذى كان يتولى فى ذلك
الوقت رئاسة مؤسسة أخبار اليوم . لأمانة شئون الصحافة والدكتور
ابراهيم سعد الدين الذى فوجئ بتعيينه عضواً فى الأمانة العامة رغم أنه
كان معزولاً سياسياً ، ولو أنه كان عضواً عاملاً بصفحة الراى فى جريدة
الأهرام .

تولى ابراهيم سعد الدين أمانة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية
التي انفصلت عن أمانة الدعوة والفكر التي كان يتولى شئونها كمال الدين
رفعت والتي كانت تصدر نشرة (الاشتراكي) تضم عدداً من المقالات
والاقتراحات ذات المضمون التقدمي .

ظهرت أسماء جديدة فى مجال العمل السياسى ... شعراوى جمعه
الذى كان محافظاً للسويس واهتم خلال وجوده هناك بالعمل السياسى
والثقافى فأنشأ مركزاً للدراسات الاشتراكية استعان فيه ببعض المثقفين
اليساريين من القاهرة ، كما أنشأ فرقة مسرحية للسويس تولى ادارتها
ماركسى سابق هو يوسف غزولى خريج كلية العلوم والمهندسين بشركات
البتترول فى المدينة .. وكمال الدين الحناوى الذى عاد الى الصحافة رئيساً
لمجلس ادارة دار التحرير .

تغير الأمانة وتقسيمها الى أمانات فرعية كان خطوة الى الامام ...
ولكنها لم تكن خطوة كافية لانطلاق الجهاز الضخم الذى يضم عدة ملايين .
واجتماعات الأمانة تحددت الى نوعين :

ثورة يوليو ج ١ - ١٩٦٩

الأول . . . يحضره جمال عبد الناصر ويعطى فيه توجيهات وللحاضرين حق السؤال . . . وكان منتظما في الحضور والمشاركة .

الثاني . . . اجتماعات تعقد تحت رئاسة حسين الشافعى لتنفيذ توجيهات جمال عبد الناصر وتميزت هذه الاجتماعات حسب رأى الدكتور ابراهيم سعد الدين بأن المناقشات فيها كانت أكثر انفتاحا وان بعض الآراء كانت أحيانا تتعارض أو تتنافر مع رأى عبد الناصر .

الأمانة لم تكن تصدر أى نوع من القرارات .

كانت تثار بعض الأسئلة ، وجمال عبد الناصر يجيب ثم ينفذ الاجتماع .

تخلف عبد الناصر فى أحد الاجتماعات عن الحضور ، وأناوب عنه عبد الحكيم عامر ففتح الاجتماع بقوله (نتكلم فى أى حاجة على ما قسم) .

عدم انضباط الاجتماعات بجدول أعمال ومناقشة مفتوحة وقرارات مكتوبة كان ظاهرة فى أعمال الأمانة ورغم الاكثرية الواضحة من العسكريين المشهورين بالانضباط الا أن اجتماعاتهم كانت مفتوحة وغير منضبطة .

ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على العمل فى الاتحاد الاشتراكي ولكنها كانت موجودة أيضا فى مجلس الوزراء الذى قليلا ما كان يتقيد بجدول أعمال محدد ، وكثيرا ما اختل عقد جلساته فى موعد محدد .

قال حسين الشافعى فى حديث لى معه بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٦٥ (ان تمويل الاتحاد الاشتراكي لنفسه ذاتيا هو علامة صحة وإيجابية) ولكن هذا لم يكن كافيا لانقاذ الاتحاد الاشتراكي من جموده وعدم فعاليته .

نادى ميشيل عفلق سكرتير حزب البعث فى محادثات الوحدة بتعدد الأحزاب قائلا (تعدد الأحزاب القومية الاشتراكية هو ضمانة لحد ما للحرية السياسية) وجمال عبد الناصر يرد عليه (نحن لا نعتبر الاتحاد الاشتراكي حزبا . . . لأن الحزب بالطبيعة تعبير عن مصالح فئة أو طبقة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية) .

ويستطرد جمال عبد الناصر مفسرا مسئولية الاتحاد بقوله فى جلسة ١٩ مارس ١٩٦٣ (الاتحاد الاشتراكي تحالف لقوى الشعب العاملة ويتكون فى داخله جهاز سياسى هو أصلا الكادر ، يعنى الناس ذوى الفعاليات السياسية والقدرة على تحريك التفاعل الثورى) .

بداية طليعة الاشتراكيين

ويفكر جمال عبد الناصر في تطبيق ما ورد بالميثاق حول الجهاز السياسى من القول بأن الحاجة ماسة الى تكوينه داخل اطار الاتحاد الاشتراكي لتجديد العناصر الصالحة للقيادة وتنظيم جهودها .

ويبدأ فى التنفيذ بعد أسابيع من جلسات مباحثات الوحدة ... ويعقد جمال عبد الناصر اجتماعا فى يونيو ١٩٦٣ يدعو اليه على صبرى . ومحمد حسنين هيكل وأحمد فؤاد ، ويحضر سامى شرف سكرتيرا للجلسة .

تحضير الجهاز السياسى للاتحاد الاشتراكي يتم . بعيدا عن جميع أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق ... حتى الامين العام للاتحاد الاشتراكي كان غائبا عن الاجتماع الاول ...

السبب غير مفهوم ... الا اذا وضع فى اطار الثقة الشخصية من جانب جمال عبد الناصر فى ان يكون الحاضرون من المقتنعين بالتحول الاجتماعى عن طريق الاشتراكيين ... واذا كان حكما من جمال عبد الناصر بأن زملاءه السابقين القابلين لمواصلة المسيرة معه انما يفعلون ذلك بدافع الرغبة فى البقاء داخل دائرة السلطة والاستفادة بمزاياها أكثر من ايمانهم بالتحول نحو الاشتراكية .

وكان هذا ايذانا بأن دور البغدادى وكمال الدين حسين قد وصلت به التناقضات الى نهايته عمليا قبل ان يعلن ذلك رسميا .

فكرة الجهاز السياسى داخل الاتحاد الاشتراكي ، تتشابه مع تنظيم رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف داخل الاتحاد الاشتراكي فى يوغوسلافيا وقد أطلق عليها فى مصر اسم (طليعة الاشتراكيين) .

وحى التنظيم انتقل من البرتغال الدولة الفاشية حيث اقتبس نظام الاتحاد القومى الى يوغوسلافيا الدولة الاشتراكية ذات الطابع الخاص وكان جمال عبد الناصر قد أرسل صلاح دسوقي فى بعثة الى يوغوسلافيا لدراسة النظام هناك .

والمجموعة التى اعتمد عليها جمال عبد الناصر كبداية وأساس لتكوين الجهاز السياسى كانت ذات ميول فكرية متباينة ... الوحيد الذى ارتبط منهم خلال ماضيه بحركات سياسية اشتراكية كان أحمد فؤاد عضو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى .

وعندما استفسر أحمد فؤاد من جمال عبد الناصر عن مدى التجانس بين أفراد هذه المجموعة ، قال له ان على صبرى ومحمد حسنين هيكل هما

أكثر الأفراد تأثرا بفكره وانهما رغم أصولهما الفكرية البعيدة عن الاشتراكية الا انهما يعبران مرحلة من مراحل التحول الفكرى الى الاقتناع بها .

وطلب جمال عبد الناصر ان يتصل كل واحد من الحاضرين بمجموعة من الذين يثق فيهم وان يشكل منهم خلايا لا يتجاوز عدد أفراد كل خلية عشرة أفراد فقط .

قال لأحمد فؤاد انه يريد تنظيما منضبطا مثل التنظيمات الشيوعية ، وانه لا يجد خلافا شديدا مع الماركسية فى الوجهات الاجتماعية والاقتصادية .

كما اشترط جمال عبد الناصر ان يكون التنظيم سريا ، والا يقبل الأعضاء فيه الا بعد عرض الأسماء عليه للموافقة عليهم وكان مفهوما انها تفرز بوساطة أجهزة أمن خاصة .

السرية كانت - حسب تصور جمال عبد الناصر - كما قال لأحمد فؤاد وكما أوضحه فى مؤتمر المبعوثين بعد ذلك لمنع تكتل القوى ضد العناصر المختارة ومحاولة الاساءة الى سمعتها أولا ، والنقطة الثانية هى حرصه على الا يستغل أحد وجوده فى الجهاز السياسى ليستفيد من ذلك فى مكان عمله أو فى أى مكان آخر .

وكان جمال عبد الناصر قد أعلن فى مؤتمر المبعوثين فى أغسطس ١٩٦٦ عن وجود طبيعة الاشتراكيين وعن انها تتكون سرا من سنتين .

كانت مجموعة البداية لا تبشر بإمكانية خلق تنظيم كادر مناضل وصالح لتحريك الاتحاد الاشتراكى فلم يكن محتملا ان يخرج أحد هؤلاء الأفراد من دائرة طبقته واتصالاته الطبيعية ليرتبط بعناصر مناضلة حقيقية .

كل فرد منهم بدأ يتصل بأقرب الناس اليه .

لم يكن المشير عبد الحكيم عامر بعيدا عن خطوات تكوين هذا الجهاز السياسى كان هو الوحيد الذى علم بخطوات التكوين من رئيس الجمهورية وقد كلف شمس بدران بتكوين الجهاز داخل القوات المسلحة ، كما اتصل بعباس رضوان الذى شكل مجموعة كان من بين أعضائها شعراوى جمعه محافظ السويس .

رئيس الوزراء على صبرى اتصل بالوزراء عبد المنعم القيسونى وأحمد توفيق البكرى وعبد القادر حاتم وعبد المحسن أبو النور وعبد العزيز السيد وبالعاملين فى رئاسة الجمهورية محمد فايق

وعبد المجيد فريد وسامى شرف وعبد المجيد شديد عضو أمانة الاتحاد الاشتراكي ومحمد أبو نار (٨ ضباط ومدنيان) •

واقترنت اتصالات محمد حسنين هيكل على عدد محدود جدا من العاملين فى جريدة الأهرام • وأمين هويدى الذى اتصل به جمال عبد الناصر شخصيا أثناء وجوده فى القاهرة من بغداد قدم لعبد الناصر بعض الأسماء كان من بينها أسماء بعض العاملين فى المخابرات العامة والقوات المسلحة فرفضها جمال عبد الناصر فورا •

أما أحمد فؤاد فقد اتصل بى وبدأنا تشكيل فرع ليس من بين أعضائه وزير أو محافظ أو سفير أو ضابط سابق ... كل أعضائه من التقدميين الثوريين فى مختلف المجالات ، وشكلنا له لجنة قيادية من أحمد فؤاد والدكتور عبد المعبود الجبيلى وأنا •

التقت هذه اللجنة فى بداية تشكيل الفرع من المشير عبد الحكيم عامر بناء على تعليمات جمال عبد الناصر وتمت المقابلة فى منزله بثكنات الجيش بالحلمية الجديدة ، وكان مفروضا أن يستمر الاتصال به ، ولكن ذلك لم يتكرر بعد مقابلات محدودة ... وتبين لنا أن المشير عامر وهو على قمة السلطة العسكرية لم يكن يجد فى مثل هذا التنظيم شيئا له قيمة •

ونما فرعنا نموا سريعا واستقطب اليه معظم العناصر الناضجة فكريا وسياسيا فى مجالات الثقافة والصحافة ، كما انضم اليه عدد من الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات بعد خمس سنوات كاملة ، وذلك حتى لا يزور خروشوف مصر فى زيارته التى تمت لتحويل مجرى النيل عند السد العالى فى مايو ١٩٦٤ وهناك معتقل شيوعى واحد •

الشيوعيون وطلعة الاشتراكيين

بلغ عدد المنضمين الى فرعنا خلال فترة وجيزة ما يزيد عن ٢٥٠ عضوا معظمهم يصلح كادرا قياديا مؤثرا فى مجال عمله أو سكنه •

كان موضع تساؤلنا عن سر تكليف عبد الناصر للمشير عامر الاتصال بفرعنا الذى يعتبر الفرع اليسارى التقدمى فى التنظيم كله ... ولم نجد لذلك جوابا الا أن يكون رغبة فى ابلاغ المشير بأن القوات المسلحة ليست هى الوحيدة فى ساحة العمل السياسى ... أو انه أراد أن يضعف الحساسية فى نفسه من ناحية الماركسية عن طريق اتصاله ببعض من كانوا أعضاء فى تنظيماتها •

وخلال هذه الاتصالات لم يكن عبد الحكيم عامر نافرا من المناقشة أو غير مستجيب لها ولكنه حسب طبيعته كان لا يريد للأمور أن تصل

الى ابعادها الحقيقية ومع ذلك فقد قدم لفرعنا بعض تسهيلات ادارية مثل شقة واسعة تطل على مبنى السفارة الأمريكية كانت تحت تصرف ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ولكنى رفضت استخدامها لاجتماعات الفرع حرصا على السرية من ناحية وتحاشيا لما يمكن أن يدور حولها من تساؤلات ، فظلت مغلقة عدة شهور ثم سلمتها من جديد الى ادارة الشئون العامة .

... وقد بدأنا الاتصال فورا بالتنظيمين الرئيسيين (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى) و (الحزب الشيوعى المصرى) ، وكان الافراج قد تم عن كافة المعتقلين الذين أمضوا فى المعتقل سنوات طويلة الأمر الذى أدى الى عدم اجتماع اللجنة المركزية لحدثو كاملة من ديسمبر ١٩٥٢ الى مايو ١٩٦٤ لوجود أكثر من نصفها داخل السجن .

ويلاحظ أيضا أنه لم يسبق صدور عفو خاص عن أى قضية شيوعية طوال حكم الثورة الا فى أواخر عام ١٩٦٤ .

مثل (حدثو) فى هذه المقابلات أحمد رفاعى المحامى وزكى مراد المحامى وفؤاد حبشى وتمت موافقتهم على الانضمام الى طليعة الاشتراكيين، وأعدت لذلك خريطة كاملة بأعضاء حدثو وتسكينهم مع أعضاء فرعنا فى أماكنهم التى يعملون بها فى القاهرة والاسكندرية والأقاليم ...

كما جرت عدة لقاءات مع الدكتور فؤاد موسى السكرتير السابق للحزب الشيوعى لم تنته الى قرار واضح .

وعندما حمل أحمد فؤاد الخريطة التى تحمل أسماء فرعنا مضافا اليهم أعضاء (حدثو) أخذت الحاضرين (جمال عبد الناصر وعلى صبرى ومحمد حسنين هيكل وسامى شرف) الدهشة من سرعة التنفيذ .

ووضع الاقتراح الذى تقدم به جمال عبد الناصر شخصيا مع الخريطة التى أعدناها والاقتراحات التى حملها أحمد فؤاد على الرف نهائيا .

كانت هذه هى المرة الأخيرة التى يشير فيها الى موافقته على دخول التنظيمات الشيوعية بصورة جماعية فى اطار طليعة الاشتراكيين دون قيد ولا شرط ... وان كانت عملية دخولهم كأفراد قد استمرت بعد ذلك .

لم يفعل جمال عبد الناصر مثل فيديل كاسترو ... وام يربط جهازه السياسى بتنظيمات الشيوعيين .

ورغم ان الاقتراح قد صدر منه شخصيا ، الا أن رؤيته للظروف التى أحاطت به ، جعلته يتراجع نهائيا عن قراره ... ومضت فرصة

استيعاب مئات من الكادرات السياسيين المؤمنين بالاشتراكية ليعملوا ويتفاعلوا تحت قيادة عبد الناصر التي كانت تكتسب ثقة الجماهير وثقتهم .

كانت بذور الشك والخوف ما زالت موجودة في قلب الطبقة الحاكمة المعبرة عن الطبقة الوسطى من الطبقة العاملة والتنظيمات المعبرة عنها .

وقد أدى دخول بعض أعضاء التنظيمات الشيوعية الى طليعة الاشتراكيين ومنع البعض الآخر أو التلكؤ في قبوله ، الى حدوث خلافات في وجهات النظر ، وقيام مناقشات على نطاق واسع ، وانتهت الى حدث تاريخي لم يحدث في أية دولة من قبل اذ اتخذ التنظيمان الشيوعيان الكبيران قرارا بحل التنظيم بوجهات نظر مختلفة .

وسواء صحت وجهة نظر التنظيمين الكبيرين في قرار الحل أم أخطأت فإن ما تم كان دليلا على توفر حد كبير من الثقة في قيادة جمال عبد الناصر ودوره في توجيه عملية التحول الاجتماعي ودليلا أيضا على مرونة الفكر الشيوعي في مجابهة المواقف المختلفة .

كان صعبا من الوجهة العملية أن تجد التنظيمات الشيوعية فرصة عمل تؤدي فيها دورا مميزا بعيدا عن قيادة عبد الناصر في هذه المرحلة التي كان يتحرك كل شيء فيها نحو التطبيق الاشتراكي ، وكان اختيارا قاسيا لها ان ترفض فرصة الاندماج في التنظيم الرسمي والعلنى الوحيد حيث تتاح فرصة عمل أكبر وسط الجماهير بطريقة قانونية .

ولكن قرار حل التنظيمات مع ذلك كان يعتبر من الوجهة الماركسية خطأ سياسيا كبيرا ، اذ لا يملك حزب الطبقة العاملة ان يحل نفسه وينهى دوره المعبر عن ارادتها وأهدافها لأنه لا يمكن القول بإمكان بناء الاشتراكية بدون الدور القيادي للطبقة العاملة وحزبها الشيوعي .

كان يمكن التوفيق بين الأمرين حل التنظيم وبقاء فكرته أى حله عمليا وبقاء فكرته نظريا دون تصفية .

ولكن الظروف في ذلك الوقت كانت تبشر بتغيرات اجتماعية حقيقية .

أما طليعة الاشتراكيين فقد انتقلت من نظام الفروع الذى يتشعب تحت عدد محدود من المسئولين والذى تتنافر طليعة أعضاء كل فرع مع زيادة التجنيد فرق بين الذين جندهم على صبرى من الوزراء والمحافظين والسفراء وغيرهم من كبار الموظفين وبين الذين جندهم لمرعنا من الكتاب والمثقفين والشباب والمناضلين السابقين .

ليس هذا فقط ... بل أن بعض الفروع كانت تنهو بصورة واضحة
... والبعض توقف عند عدد محدود .

تنظيم حزبي لطليعة الاشتراكيين :

وتقرر ان تأخذ طليعة الاشتراكيين شكلا تنظيميا حزبيا .

وعهد جمال عبد الناصر الى شعراوي جمعة أحد الوزراء الثلاثة
للوحدة مع العراق (مع كمال الحناوي وعلى السيد علي) ... عهد اليه
بمسئولية الأمانة العامة وحدد معه أعضائها .

ويقول أحمد كامل أحد الضباط الأحرار وأمين الشباب ورئيس
المخابرات العامة فيما بعد انه شاهد تأشيرة جمال عبد الناصر وكان وقتها
يعمل في الرئاسة بعد عودته من الرباط ومديره حيث كان يعمل ملحقا
عسكريا .

يقول أحمد كامل أن جمال عبد الناصر قد حدد شعراوي جمعة أمينا
عاما للأمانة وأحمد كامل لثئون التنظيم ومحمد المصري للنشاط
السياسي ، وكاتب هذه السطور للتثقيف .

تشكلت أول أمانة لطليعة الاشتراكيين من شعراوي جمعة
وعبد المجيد شديد والدكتور حسين كامل بهاء الدين وأمين عز الدين
وأحمد شهاب ومحمد المصري وأحمد كامل والدكتور عبد المعبود الجبيل
ويوسف غزولي ومحمد عروق ومنى كاتب هذه السطور وانضم لها بعد
عدة شهور محمود أمين العالم (٦ ضباط ، ٦ مدنيين) .

تولت الأمانة العامة مسئولية توحيد الفروع وتنظيمها على أساس
جغرافي أو مهني ...

أكبر ما صدمنا به خلال هذه المرحلة هو الاصرار على ابقاء العناصر
التي كان معروفا لاغليبيتنا مسبقا انها ليست اشتراكية وليست قادرة على
النضال ، أو مهياة لأي نوع من أنواع التضحية .

بيروقراطية المناصب لعبت دورا رئيسيا في عدم اعطاء التنظيم
فعاليته المطلوبة ، وتركته تحت سيطرة الأسماء المعروفة ، وظهر منذ
البداية صعوبة تحويله الى تنظيم نضالي يستطيع ان يسهم بدور ايجابي
في عملية التحول الاجتماعي .

الظاهرة المميزة لتكوين الأمانة هي عدم وجود حساسية عند أغلبية
أعضائها مع الماركسية كنظرية اجتماعية ، وتواجد عدد من اليساريين
فيها .

وانعكس ذلك أيضا على تكوين لجنة القاهرة الرئيسية لطليعة الاشتراكيين التي شكلت بقيادة على صبرى وعضوية الضباط السابقين حلمى السعيد وشعراوى جمعة وسعد زايد ومحمد فايق وسامى شرف والدكاترة عزت سلامة وليبيب شقير وإبراهيم الشربيني ثم أحمد فؤاد وأحمد بهاء الدين وممثل العمال أحمد فهمي وفتحي فوده (٦ ضباط ، ٧ مدنيين) .

الملاحظ أيضا زيادة نسبة عدد المدنيين وظهور أسماء جديدة فى قمة العمل السياسى ٠٠٠ مع اختفاء أصحاب المناصب القيادية فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى العلنية ٠٠٠ ودخول عدد من التقدميين اليساريين لصفوف هذه التنظيمات بلا حساب .

أمانة طليعة الاشتراكيين لم تضم سوى شعراوى جمعة وعبد المجيد شديد من أمانة الاتحاد الاشتراكى .

بعض العناصر من قيادات الاتحاد الاشتراكى دخلت طليعة الاشتراكيين ولكنها لم تكن فى القيادة المركزية .

طليعة الاشتراكيين تعمل سرا فى مقرها بسرارى الأمير سعيد طوسون بالزمالك (مقر منظمة الشباب فيما بعد) ٠٠٠ ثم فى مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة ، وتصدر نشرات دورية وتكون لجانا للمحافظات .

كان النشاط الشديد هو طابع عمل الأمانة فى ذلك الوقت ٠٠٠ تقارير سياسية يومية ترفع الى جمال عبد الناصر وتعود بتأثيراته فى مساء نفس اليوم لترسل الى الوزراء والمسئولين بتوقيع طليعة الاشتراكيين ٠٠٠ وانتظم صدور النشرة التى أشرف على كتابتها اليساريون من أعضاء الأمانة ، وتناولت عددا من القضايا السياسية الهامة من وجهة نظر اشتراكية متحررة ٠٠٠ وتعددت الاجتماعات بين عدد من أعضاء الأمانة ومسئولى الاتحاد الاشتراكى فى المحافظات ٠٠٠ وكان المحافظون فى معظم الحالات هم المسئولون السياسيون لطليعة الاشتراكيين فوق أمناء الاتحاد الاشتراكى ٠٠

واستمرت دقة النشاط فى الأمانة واضحة حتى حدث احتكاك مع بعض الوزراء الذين كان يسيئهم أن تصل اليهم تأشيريات الرئيس خلال طليعة الاشتراكيين رغم وصولها اليهم فى خطابات مغلقة تحمل هذه الكلمات (سرى للغاية وشخصى ولا يفتح الا بمعرفة سيادته) .

اعترض على أسلوب الخطابات بعض الوزراء مثل الدكتور عزيز صدقي وطلعت خيرى وعندما رفع الأمر الى جمال عبد الناصر طلب من طليعة

الاشتراكيين أن تتوقف عن مخاطبة الوزراء حيث سيكون لهم تشكيل خاص .

وارتفعت عندئذ يد التنظيم عن الوزراء فضعفت قبضته على الجهاز الإداري والتنفيذي إلى حد كبير .

وإذا كان قانون الاتحاد الاشتراكي لم ينفذ بإدخال رجال القوات المسلحة والشرطة والقضاء إلى تنظيمه ، فإنه قد بدأ ينفذ فيما يتصل بتنظيم طليعة الاشتراكيين .

ـ طليعة الاشتراكيين والقوات المسلحة

كانت السرية التي يتم بها تشكيل التنظيم ، والأفضلية النسبية الناتجة من اختيار الأفراد ، عاملا مشجعاً على تكوين تنظيم لطليعة الاشتراكيين داخل الجيش .

كان المسئول عن هذا التنظيم الصاغ شمس بدران الذي كان يستمد قوته الهائلة المؤثرة في الجيش وخاجه من عاملين أولهما الثقة المطلقة غير المحدودة التي منحه إياها كلا من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . وثانيهما منصبه كمدير لمكتب القائد العام لشئون الميزانية والأفراد ، والأمر الذي أتاح له السيطرة على كل شيء في القوات المسلحة ، وسهل له وضع العناصر المرتبطة به شخصياً في المراكز القيادية الحساسة حتى أصبحت تشكل قوة رئيسية خاصة ومؤثرة داخل القوات المسلحة .

ولذا لم يكن تشكيل طليعة الاشتراكيين داخل القوات المسلحة عملية عسيرة أو معقدة . . . بل نفذت دون مصاعب ، وظلت سرا مجهولاً على الكثيرين ، ولو أنه عرف فيما بعد أنها كانت تسير على نظير طليعة الاشتراكيين خارج الجيش فقد ضمت القادة مثل محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ ثم وزير الحربية بعد أمين هويدي ومحمد أحمد صادق رئيس أركان الحرب ثم وزير الحربية بعد مايو ١٩٧١ ، تماماً كما ضمت طليعة الاشتراكيين الوزراء ورؤساء مجالس الإدارة وغيرهم من أصحاب المراكز البعيدين عن الفكر السياسي الاشتراكي الأصلي .

والاتحاد الاشتراكي يحاول الحركة بطليعة الاشتراكيين . . . ولكن تأثيره ما زال محدوداً في المجالات الجماهيرية وفي مواقع الانتاج . . . ودوره ضعيف وغير ملموس في دفع عجلة البناء الاجتماعي الجديد .

وكلمة الاشتراكية تردد على كل لسان ، وتدخل في كل مقال ، وينسب إليها كل انجاز . . . ولكنها همسا وبين البرجوازية غير المقتنعة

بعملية التحول القسرى للمجتمع تصب على هذه الكلمة كل الاثام ...
وتحولها الى مشجب تعلق عليه كل الأخطاء والانحرافات ... انها أصبحت
(الاشتراكية المفترى عليها) كما كتبت فى احدى المقالات بمجلة
روز اليوسف .

وجمال عبد الناصر يحاول تفسير حقيقة الموقف فيقول عام ١٩٦٥
(احنا ما بقيناش دولة اشتراكية ... احنا فى مرحلة انتقال من
الرأسمالية الى الاشتراكية ...) .

ضاعت فرصة تكوين كادر اشتراكي حقيقى داخل الجيش .. كما
ضاعت خارجه .. ولم يسمح للاشتراكيين الحقيقيين أعضاء طليعة
الاشتراكيين بالاتصال بالجيش .

واذا كان الشيوعيون قد احتفظوا بقوتهم فى الجيش التى عبر عنها
لينين بقوله فى المؤلفات الكاملة - المجلد ٣٠ - (ان البلاشفة قد اكتسبوا
فى الجيش قبل نوفمبر ١٩١٧ قوة سياسية (ضاربة) ضمنت لهم التفوق
الساحق فى النقطة الحاسمة واللحظة الحاسمة) فان قيادة ثورة يوليو
لم تحتفظ فى الجيش بالكادر الذى اعتمد عليه ، وانما انتهت وجوده
كتنظيم للضباط الأحرار ، ثم لم تبذل جهدا حقيقيا لخلق تنظيم حزبي
ديموقراطى فى صفوف طليعة الاشتراكيين داخل الجيش .

ويقول تبيتو لوبم عضو اللجنة السياسية للجنة المركزية للحزب
الشيوعى الشيلى كما ورد فى ندوة (دراسات اشتراكية - عدد يوليو
١٩٧٤) ان أراد الشعب أن يكون سيد مصيره لابد له من أن يعمل على
اشاعة الديمقراطية فى القوات المسلحة ، فهذا أمر له أهمية حيوية .

ما لم يتحقق فى شيلى وادى الى اطاحة الجيش بنظام الليندى
الديموقراطى ، لم يتحقق بشكل آخر فى مصر رغم ان القيادة الثورية نبتت
فى صفوف الجيش .

وظل الجيش بعيدا عن الوعى السياسى الديموقراطى معتمدا فى
حركته على ارادة قيادته وسيطرتها فقط .

ولم يطبق ما ورد فى الميثاق او يتحقق .

ورغم ان جهاز السلطة فى مجموعه لم يكن جهازا اشتراكيا ، الا أن
وجود جمال عبد الناصر فى مركز السلطة كان هو الضمان للعناصر
التقدمية والثورية للنضال دون خوف الانقراض عليها .

وخلال هذه المرحلة التى بدأت تنسج فيها خيوط أول تنظيم حزبي
حقيقى تقوم به ثورة ٢٣ يوليو ، كان هناك تقدير أقل لقوة البرجوازية

الموجودة فى السلطة ، وتقدير أكبر فى امكانية قيادة جمال عبد الناصر لعملية التحول الاجتماعى .

ولم يحاول جمال عبد الناصر أن يضعف من قوة البرجوازية التى تعيش فى مواقع السلطة ، وتقبض على المراكز الحاكمة وتلبس على وجهها قناعا اشتراكيا ، وتطعم جعبتها بمصطلحات اشتراكية . . كما لم يحاول أن يعطى فرصة أكبر للعناصر اليسارية ، حتى تدعم التطبيق الاشتراكي .

كان يوجه ضرباته للبرجوازية خارج جهاز الحكم ، ولكنه تهاون مع الذين يتولون المناصب فى أجهزة الدولة . وكثيرا ما قامت الرقابة الادارية بعمل تحقيقات واكتشفت الحرافات ، ولكنها غالبا ما كانت تتحول الى توبيخات فى الارشيف ، وليس كلمة اتهام فى ساحة القضاء .

الفرصة الضائعة

كانت الفرصة متاحة أمام جمال عبد الناصر لتطهير أجهزة الدولة والتنظيم السياسى من العناصر المعروفة بأنها رجعية ومعوقة ، ولكنه كان واثقا دائما ان هذه الشخصيات لا يمكن أن تتحرك حركة مضسادة ضد النظام أو ضده شخصيا وانها تتحرك خلال شريط ضيق محدود .

ولذا فهو لم يشترط بناء طليعة الاشتراكيين من العناصر المناضلة الشريفة وحدها وانما وافق على أن تكون الطليعة صورة مصغرة من الاتحاد الاشتراكي ربما بصورة أفضل قليلا .

كل الظروف كانت مهياة لبناء تنظيم سياسى فعال . . . ليس شرطا ان يكون ماركسيا كما فعل فيديل كاسترو . . . ولكن جمال عبد الناصر كان يخشى حدوث تطور أكثر يسارية مما رسم . . . حتى لا يخرج الأمر من قبضة العسكريين الذين اعتمد عليهم فى معظم مجالات العمل . . . كما انه كان على حذر دائم وبطريقة مبالغ فيها من خشية أية حركة تنبعث من صفوف الجيش ، وخاصة بعد استقالة عبد الحكيم عامر وعودته .

وقد تأثر جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة بمعتقدات تيتو التى زادت فى نفسه روح الحرص على الا يرتبط بايديولوجية محدودة ، حتى يكون أكثر مرونة فى حركته . . . ورغم أن تيتو شيوعى العقيدة ، إلا أنه منظم ومؤسس لفكرة عدم الانحياز ، ومتعاون بدرجات متفاوتة حسب الزمن والظروف مع الدولتين العظميين : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

هذا الى أن التمزق الذى حدث داخل المعسكر الاشتراكي نتيجة الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي قد انعكس أيضا على احتمالات اندفاع جمال عبد الناصر نحو اقتناع أوثق بالفكرة الاشتراكية .

كل هذه العوامل لم تدفع جمال عبد الناصر الى الاصرار على أن تبني طليعة الاشتراكيين على قواعد حزبية سليمة وأصيلية . . وتركها تنمو على الأسس الموجودة فى المجتمع بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات .

وجمال عبد الناصر كان قادرا على ذلك . . . ولكنه لم يكن - فيما يبدو - راغبا فيه ، وبذا أضاع الى الأبد فرصة خلق ظروف سياسية مناسبة تتيح لقيادته النمو والاستمرار بخلق صلة تنظيمية وثيقة بين قيادة الطبقة الوسطى وقيادة الطبقة العاملة .

قال جمال عبد الناصر لأمين هويدى فى إحدى المناقشات (أنا أستطيع أن أبني حزبا حقيقيا لو أردت) .

اذن هو لم يكن يريد . . . فتكوين الحزب على قواعد متينة ومن عناصر مناضلة وغير انتهازية هو أمر يخلق نوعا من المشاركة مع سلطته الفردية الكبيرة ، ويدخل أفكاره فى تعقيدات المناقشة الحزبية الصريحة ، رغم أن هذه كانت الوسيلة الوحيدة لدعم النظام ، وتثبيت أسس البناء الاجتماعى الجديد .

ولم تؤثر الانقلابات الرجعية التى قامت ضد نكروما فى غانا وموديبو كيتا فى مالى وسوكارنو فى أندونيسيا فى اتجاه جمال عبد الناصر . . . كان مستمرا فى انتهاج الأسلوب الذى درج عليه دون محاولة صادقة لدعم المجتمع ببناء سياسى حقيقى .

كان جمال عبد الناصر يهدف الى ازالة نفوذ الطبقة البرجوازية الكبيرة . . . ولكن دون تغليب طبقة العمال .

انه كان يمشى على سياسة منح العمال أو الفلاحين البسطاء ، دون أن يجعل منهم قوة سياسية فعالة مشاركة فى الأرض .

أثناء الاحتفال بعيد أول مايو ١٩٦٤ ، خطب أنور سلامة وكان وزيرا للعمل مطالبا بحقوق جديدة للعمال بعد قانون التأمينات الاجتماعية الذى صدر فى مارس ١٩٦٤ والذى يعتبر قمة القوانين العمالية ، دون أن يتحدث فى ذلك مسبقا مع جمال عبد الناصر ، مما أغضبه غضبا شديدا ، وجعله يرد عليه .

قال جمال عبد الناصر فى خطبته (احنا قلنا الحد الأدنى للعامل يكون ٢٥ قرش ٠٠٠ هل هو ده الأجر اللى يكفى ويخلى العامل يعيش عيشة سعيد ؟ أنا بأقول لا) وضع المكان بالتصفيق والهمتاف .
ولكنه عندما استدرك قائلا (ولكن طبعا الخمسة وعشرين قرشا بالنسبة للماضى تعتبر مكسب) قوبل ذلك بوجوم وصمت تام .
ولم يعد ممكنا أن تنمو طليعة الاشتراكيين الجهاز السياسى للاتحاد الاشتراكى بعيدا عن قيادته العلنية .

وحدث تغيير فى المناصب ٠٠٠ عين زكريا محيى الدين رئيسا للوزراء ، وغادر على صبرى مقعده ليكون أمينا للاتحاد الاشتراكى بدلا من حسين الشافعى .

وتشكلت أمانة جديدة للاتحاد من على صبرى وكمال رفعت وعباس رضوان وأحمد عبد الله طعيمة وشعراوى جمعة وكمال الدين الحناوى وعلى السيد على وحسين ذو الفقار صبرى ، وفتحى الديب ، وعبد الفتاح أبو الفضل ، وعبد المجيد شديد ، والدكتور ابراهيم سعد الدين ، والدكتور حسين كامل بهاء الدين ، وعبد الحميد غازى ، ومحمد أبو نصير وأحمد شهاب (ضابطا و ٥ مدنيين) .

كان محمد حسنين هيكل قد رتب اجتماعا بين على صبرى وكلا من الدكتور ابراهيم سعد الدين وعبد الرازق حسن ومحمد الخفيف وهم من الماركسيين العاملين فى صفحة الراى بالأهرام ٠٠٠ وذلك قبل صدور قرار تعيينه أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى .

دارت المناقشة حول كيفية انشاء التنظيم ، وتبنى الماركسيون فكرة التفرغ للمستولين السياسيين ، وضرورة احياء فكرة الجهاز السياسى الواردة فى الميثاق .

الذين استمروا فى الأمانة من عهد حسين الشافعى الى تولى على صبرى المسئولية سبعة هم الضباط كمال رفعت وشعراوى جمعة وكمال الحناوى وحسين ذو الفقار صبرى وفتحى الديب وعبد المجيد شديد وممثل العمال على السيد على .

واحتفظ شعراوى جمعة بمنصب وزير الدولة لشئون رئاسة الوزراء الى جانب منصبه كأمين للتنظيم وأمين عام طليعة الاشتراكيين .

كان انتقال على صبرى لمنصب الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى ، اتجاها لاعطاء ثقل معين لهذا التنظيم واقامة رابطة بينه وبين طليعة الاشتراكيين ، وبعثا للحياة فيه .

وزارة زكريا محيي الدين

هذا الى جانب ان عودة زكريا محيي الدين الى مركز المسئولية الوزارية الاولى في أكتوبر ١٩٦٥ يعنى تراجعاً عن الاتفاق السابق الذي استقر عليه رأى جمال عبد الناصر عند تكوين مجلس السيادة بعد الانفصال وهو اعفاء أعضاء مجلس « قيادة الثورة السابقين » من تولي منصب رئاسة الوزراء ليرفع عن نفسه الحرج ويتحمل المسئولية وحده كما سبق أن ذكرنا .

ويقول زكريا محيي الدين انه لما راجع جمال عبد الناصر في ذلك عند تولي المنصب ، قال له جمال عبد الناصر ان الظروف قد تغيرت وانه يود أن يبعث الحيوية في الاتحاد الاشتراكي والوزارة معا .

وقد اتفق الاثنان على برنامج الوزارة أثنياء رحلتها بالطائرة الى مؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء .

وكان تعيين زكريا محيي الدين لرئاسة الوزارة قد تم بعد فترة كان مسئولاً فيها عن الجهاز المركزي للمحاسبات ، وتكشف له خلال عمله كثير من الأخطاء والانحرافات في أجهزة الحكومة والقطاع العام . . . وكان الدكتور ابراهيم سعد الدين وقتها وكيلاً للوزارة في الجهاز .

ويقول زكريا محيي الدين انه كان يرفع تقارير الى جمال عبد الناصر ببعض الحقائق التي تثير القلق وتوجب الحيلة ، ولكنها كانت تضيع بلا صدى اذ يتم تحويلها الى رئيس الوزراء على صبرى فيحولها بدوره الى الجهة المسئولة عن الانحراف .

لم يكن للجهاز المركزي للمحاسبات قوة تنفيذية ولم يكن له من تأثير سوى على زكريا محيي الدين نفسه الذي غلب عليه الاقتناع خلال فترة اشرافه عليه بأن ينظر الى الأمور من زاوية الربح والخسارة بعيداً عن أي مؤثرات سياسية أو اجتماعية أخرى .

ولذا عين زكريا في رئاسة الوزارة وهو يتبنى أفكاراً مسبقة وخطاً واضحة في ذهنه . ورداً على سؤال عما اذا كان جمال عبد الناصر قد أعاد تشكيل الوزارة لتحسين الصلة مع الأمريكان والتقارب منهم ، أجاب زكريا محيي الدين بأن جمال عبد الناصر لم يكلفه بهذا الهدف ولم يشر اليه من قريب أو بعيد بأي توجيه في هذا السبيل .

ويستطرد زكريا محيي الدين قائلاً ان جمال عبد الناصر لم يكن من أهدافه التعرض للقوى الأجنبية أو استفزازها دون سبب ولكنه كان يسحب سحباً لهذه التصادمات نتيجة تكوينه الشخصي وردود الفعل السريعة على تصرفات وتصريحات هذه القوى .

وعن الولايات المتحدة بالذات يقول زكريا محيي الدين ان التفكير في مصادقة الأمريكيين هو أمر قريب من المستحيل لأن البناء السياسي لها يؤثر على استراتيجيتها . . . ويدل على ذلك بأنه خلال فترة الصداقة التي قامت بين مصر والولايات المتحدة في السنوات الأولى للثورة استطاعت اسرائيل أن تكون عاملا مؤثرا في زعزعة هذه العلاقة .

ويضيف قائلا خصوصا اذا كنا نستجيب بسرعة للأحداث وتكون الانفعالاتنا هي أساس سياستنا . ورسم زكريا محيي الدين سياسة الوزارة على أساس التهدة بمعنى قبول بعض مخافات السياسة الأمريكية وعدم الرد عليها مؤثرا عدم المجابهة (على حد تعبيره) ويوضح ذلك بقوله أنه يمكن التسليم بحقائق يصعب على الانسان في المرحلة الآتية التغلب عليها فيؤجلها لمرحلة مستقبلية . . ساعيا وراء فائدة البلد على قدر الامكان .

وقد أمكن لزكريا محيي الدين بهذه السياسة ان يمد أجل المعونة الأمريكية لمدة ستة شهور فقط توقف بعدها امداد مصر بمعونة القمح . . . ولم يجد جمال عبد الناصر من سبيل الا مطالبة الاتحاد السوفيتي بالقمح فكان أن حولت بعض المراكب السوفييتية مسارها لترسو في الموانئ المصرية بدلا من الموانئ السوفييتية .

وكانت نظرة زكريا محيي الدين للأمور تركز على تحليل خاص فهو يرى الاهتمام بمصر أولا حتى تصل الى مستوى يساعدها على خلق علاقات سليمة بدول الوطن العربي ويقول أيضا انه مع التأمين كسبيل لتعبئة الموارد لتحقيق مشاريع التنمية . . ولكنه ضد نزع الملكية بالكامل كما انه أيضا ضد الرأسمالية الاحتكارية .

يذكر أن جمال عبد الناصر ناقشه يوما في موضوع النزول بالحد الأقصى للملكية عما كان مقروا في قانون الاصلاح الزراعي فقال له زكريا محيي الدين بأنه لا اعتراض عنده على نزول الحد الأقصى الى أى مساحة حتى ولو كانت ٢٥ فدانا على أساس أن يكون ذلك قرارا نهائيا حتى يتوفر الاستقرار المطلوب للحكم .

ويفسر زكريا محيي الدين وجهة نظره في التأمين المتصاعد بأنه يؤدي الى فقدان الحرية السياسية حيث تتجمع كل الخيوط في يد الدولة التي يسيطر عليها مجموعة أو فرد تبعا للظروف .

ومن هنا يتضح أن زكريا محيي الدين كان يتبنى آراء لا تتطابق تماما مع آراء جمال عبد الناصر . . ولكنه لم يحدث بينهما صدام فكري ولم يشر بينهما أى نوع من أنواع الصراع الواضح .

وعندما بدأت الوزارة تطبيق آراء زكريا محيي الدين ، شعاع بين الناس انها وزارة انكماش وتراجع عن الخطة وتوافق هذا مع آراء الدكتور مصطفى خليل الذى ولى وزارة الصناعة بعد الدكتور عزيز صدقى .

وتأجل تنفيذ عدد من المشروعات مثل بناء مصانع جديدة للسكر .. بل ان زكريا محيي الدين ألغى تعاقدًا كان قد تم الاتفاق عليه مع تشيكوسلوفاكيا .

وهو يبرر ذلك بأن المصانع القائمة لم تكن تعمل بطاقتها الكاملة وأن المتوفر من زراعة القصب لا يكفى احتياجاتها ٠٠٠ ولذا فلم يكن هناك مبرر فى رأيه للتوسع فى هذه الصناعة طالما هناك ظروف تحول دون استخدام المصانع بأقصى طاقتها .

ولكن الأحداث أثبتت فيما بعد أن هذا التوقف قد أدى الى أن تتعطل إمكانية تحويل مصر من دولة مصدرة للسكر الى دولة مستوردة له ، وتصرف فى ذلك عشرات الملايين من الجنيهات بالعملة الصعبة .

وقرر زكريا محيي أن يزيد من دخل مصر عن طريق تصدير الأرز ، وما ان أعلن جمال عبد الناصر ذلك فى إحدى خطبه بالسويس حتى هرع الناس الى المتاجر فوراً ووقفوا أمامها طوابير طويلة لحجز كميات أرز إضافية ٠٠٠ وان ارتفاع السعر قد أدى الى ارتفاع أسعار سلع أخرى مثل الزيت واللبن وبيع التجار للسلع المخددة ٠٠٠ بأسعار أعلى مثل البيرة والكوكاكولا .

ويقول زكريا محيي الدين ان مناقشة دارت بينه وبين عبد الناصر عن ظاهرة الطوابير التى تحتشد أمام الجمعيات وانه قد تم الاتفاق على زيادة سعر الأرز من أربعة قروش الى ثمانية للكيلو الواحد ٠٠٠ وكانت هذه الحادثة من المرات النادرة التى أقدمت فيها الثورة على رفع الأسعار لسلعة ضرورية تمس حياة الجماهير .

ويقول زكريا محيي الدين أنه كان يستهدف زيادة الدخل القومى ، وأن زيادة أسعار الأرز يقابلها ما تتحمله الدولة من فروق سعر القمح ٠٠٠ خاصة وأن أسعار الأرز فى العراق وليبيا كانت أعلى منها فى مصر .

ويقول أيضاً أن العمالة كانت ٦٠٠.٦٠٠ فى عام ٥٩ - ١٩٦٠ ارتفعت الى ٧٣٣٣٤٠٠ تتحمل الدولة أجورهم .

ولكن اتجاهات زكريا محيي الدين وتصرفاته التى استهدف بها سلامة الاقتصاد من وجهة نظره لم تستقبل بالرضى من جمال عبد الناصر الذى كان يحرص دائماً على الاحتفاظ بشعبيته ورصيده عند الجماهير .

ثورة يوليو ج ١ - ٦٢٥

ووصل الأمر بجمال عبد الناصر الى الحد الذي لم يعد يقبل فيه استمرار هذه السياسة التي تؤدي الى انكماش في خطة التنمية وتحميل الجماهير مزيدا من الأعباء الاقتصادية ...

وعندما عرض زكريا محيي الدين وجهة نظره على اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي اتخذ جمال عبد الناصر قراره ... وشعر زكريا محيي الدين أن عمر وزارته قد انتهى .. فطلب مقابله وتأخرت المقابلة عدة أيام ، وفي بدايتها أعلن زكريا رغبته في الاستقالة فظهرت الراحة على قسماط وجه جمال عبد الناصر - كما يقول زكريا محيي الدين - وقال له (لقد أعفيتني من حرج كبير ... فقد كنت مهنوما خلال الأيام الماضية حول ما يجب أن ... أصارك به) .

وأعلنت استقالة زكريا محيي الدين وتعيين صدقي سليمان رئيسا للوزراء وصحب ذلك بعض التغيرات في أعضاء طليعة الاشتراكيين فانتقل شعراوي جمعة من وزارة الدولة ليصبح وزيرا للداخلية ، ونقل أمين هويدي من الإعلام ليصبح وزير دولة لشئون رئاسة الوزراء ، وأصبح محمد فايق وزيرا للإعلام والثلاثة كانوا من أعظم أمانة طليعة الاشتراكيين .

والخبر لفريق صدقي سليمان عودة من جديد الى مبدأ إبعاد أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين عن تولي المناصب التنفيذية العليا مستوا ك رؤساء أو وزراء .

على صبرى في الاتحاد الاشتراكي

وكان انتقال على صبرى من منصب رئيس الوزراء الى منصب الأمين العام للاتحاد الاشتراكي هو بمثابة تغيير في النظرة للعمل السياسي ، وتأكيد على أهمية الجهاز السياسي الجديد ومحاولة لبعث الحياة فيه .

بدأ على صبرى عمله في الاتحاد الاشتراكي باقرار مبدأ التفرغ للعمل السياسي وتكوين المكاتب التنفيذية التي كان معظم أعضائها من طليعة الاشتراكيين ... كما قرر مرتب نائب وزير الأمين في كل محافظة ... مما قللهم نقلة اجتماعية كبيرة ... وجعلهم يدخلون في دائرة المستفيدين من العمل السياسي .

حتى الذين كانوا ينتدبون من وظائفهم للعمل في الاتحاد الاشتراكي تفررت لهم نسبة مئوية اضافية تتراوح بين ١٠٪ وربع مرتب لمرتباتهم ، مما خلق تكالبا على الالتحاق به .

وهنا بدأت ظاهرة جديدة هي اختيار على صبرى لعناصر قيادية فى الاتحاد الاشتراكى من التابعين له شخصيا البعيدين عن رؤية جمال عبد الناصر أو الصلة به . . . وأصبح على صبرى صاحب نفوذ فعلى داخل الاتحاد الاشتراكى . . . نفوذ غير جماهيرى لأن طبيعة شخصيته المنطوية الهادئة كانت تتنافر مع ذلك . . . ولكنه نفوذ شخصى فى هذه العناصر التى كانت تتعلق بفكره المنظم .

وبدأت عجلة العمل فى الاتحاد تدور بسرعة أكبر . . . وظهنت له نفوذ منافس للأجهزة الإدارية والتنفيذية .

وفى كثير من الحالات نجح الاتحاد الاشتراكى فى أداء دور الرقابة الشعبية ، ولكن لم تكن هناك صيغة سليمة لعمله فى مواقع الانتاج ، مما يخلق الديمقراطية المستهدفة لتحقيق التحول الى الاشتراكية بنجاح .

المكاتب التنفيذية شكلت بطريقة لا توفر المضمون الصحيح لتحالف قوى الشعب العاملة . . . التى يزيد فيها العمال والفلاحون بالملايين قن المثقفين والبرجوازية الوطنية ، ومع ذلك فإن الفرضية لم تتج لهم للتعبير عن الوزن الحقيقى لطبقتهم فى قيادات الاتحاد الاشتراكى .

نادرا ما كان الفلاح من زارعى الأرض فى منظمات الاتحاد . . . ونادرا أيضا ما كان العامل من الذين وقفوا وراء الماكينة .

كان تعريف العامل والفلاح مطاطا يسمح بتسرب الفئات الأخرى الى مقاعدهم .

كانت البرجوازية الصغيرة هى المسيطرة . . . وكان الحذر شديدا من وصول الطبقة العاملة الى مراكز السلطة الحقيقية فى التنظيم .

وتشكلت خلال هذه الفترة منظمة الشباب التى جذبت اعدادا كبيرة منهم فى مراكز تدريب أعدت لهم فى مرسى مطروح وحلوان ، وأشرف عليها زكريا محيى الدين خلال فترة وجود حسين الشافعى فى منصب الأمانة العامة . وعاونته فى ذلك الدكتور محمد الخفيف ومن قبله كان طلعت خيري الذى عين وزيرا للشباب مسئولاً عن تكوين جهاز للشباب من مختلف المحافظات فى معسكر اقيم بوادى النطرون .

كان اعداد كوادر الشباب يشم بطريقة منتظمة . . . ويجذب عقول الجيل الجديد الى السياسة .

وقد أسهمت أمانة معهد الدراسات الاشتراكية بقسط كبير فى اعداد المحاضرات والبحوث التى توجه الشباب توجيهاً تقدمياً ملحوظاً .

وزاد التزاوج بين الاتحاد الاشتراكي وطلبة الاشتراكيين عندما
سُخِبَ من أمانتها كل من الدكتور حسين كامل بهاء الدين ليعمل أميناً
للشباب ، وأمين عز الدين ليعمل أميناً مساعداً للقاهرة ، وأحمد شبيب
ليعمل في الأمانة العامة وعبد المجيد شديد .

وعين أحمد كامل محافظاً لأسبوط ، ومحمد المصري أميناً للاتحاد
الاشتراكي بالدقهلية .

وأظهر جمال عبد الناصر مزيداً من الاهتمام بأمانة طلبة الاشتراكيين
فضم إليها بعض الضباط المقربين منه . . . أمين هويدي وزير الاعلام
وحلمي السعيد وزير الكهرباء وعبد المجيد فريد أمين القاهرة وسامي شرف
سكرتيره للمعلومات ومحمد فايق سكرتيره لشئون أفريقيا وعلى السيد على
مثلاً للعمال ، وذلك الى بقية الأعضاء السابقين الذين لم يعينوا في مناصب
أخرى .

أصبحت الأمانة مشكلة من ٧ ضباط خمسة منهم عملوا في المخابرات
وأربعة من المدنيين .

هذه التغييرات التي حدثت في قيادة الاتحاد الاشتراكي وفي جهازه
السياسي عبرت عن اتجاه أكثر يسارية وتقدمية .

كان الضباط الذين أوكلت اليهم مسئوليات العمل السياسي من
المتأثرين بفكر عبد الناصر شخصياً . . الذين انتقاهم من رجال الصف
الثاني ليحملوا رسالته .

وكانت الظاهرة الواضحة أن أحداً من أعضاء مجلس قيادة الثورة
السابقين لم يكن له دور في هذه التنظيمات الجديدة . . .

ورغم حيوية هؤلاء الضباط والمدنيين المختارين . . . ورغم صلاتهم
التنظيمية المتعددة مع الأحزاب الشيوعية والاشتراكية في الخارج . . .
ورغم ذوبان الحساسية تدريجياً مع الأفكار الماركسية ، ورغم اكتشاف
عناصر مبشرة بين الشباب . . . فإن هذه التنظيمات الجديدة لم تستطع
أن تسهم بالقدر الكبير في خلق تنظيم حزبي في الطلبة أو جماهيري في
الاتحاد الاشتراكي . . . نتيجة ترددها في اتخاذ القرار . . . ونتيجة
خشيتها أيضاً من فتح الأبواب للقوى العاملة لتؤدي دورها الحقيقي .

أمانة الاتحاد الاشتراكي لم تجتمع الا مرات معدودة بطريقة دورية
منتظمة . . . ثم توقفت عن الاجتماعات تماماً ، وأصبح على صبري يتصل
بالأمناء شخصياً . . . لوجود وجهات نظر متعارضة بين أعضاء الأمانة كان
يتجنب تصادمها في الاجتماعات . . . وخاصة بينه وبين كمال رفعت أمين

الدعوة والفكر ، الذى حاول أن يخلق نشاطا داخليا خاصة فى الاتحاد الاشتراكي فيما عرف باسم (الدعوة) .. كان الخلاف ظاهرا يتمثل أحيانا فى دعوة اتحادات الطلبة لكمال رفعت ودعوة تنظيمات الشعب فى الجامعة لعلى صبرى لعقد ندوات معهم .

وخلاف آخر مستتر بين على صبرى وعباس رضوان المقرب من عبد الحكيم عامر ... الجيش يطبل بعينه ونفوذه داخل التنظيم ... وخلافات الضباط تنعكس على العمل .

أمانة طليعة الاشتراكيين كانت أكثر انتظاما وانضباطا فى الاجتماعات الاسبوعية ... ولو انه لم يكن هناك جدول أعمال محدد لكل جلسة تتخذ فيه قرارات ملزمة ... المناقشات العامة كانت هى الطابع السائد للاجتماعات ... والعناصر الماركسية لم تعط لها فرصة أو مسئولية الاشراف على تنظيمات المحافظات واقتصر عملها على الناحية الثقيفية وكتابة المنشورات ... وقد حاولت مناقشة ذلك وتغييره ولكن بلا طائل .

ترجع هذه الحالة أساسا الى ان كل هذه المستويات التنظيمية رغم تربعها على قمة العمل السياسى لم تكن تملك سلطة اصدار قرار ... كانت ترفع رأى دائما الى جمال عبد الناصر صاحب القرار ... وقد اءتاد الضباط الذين عهدت اليهم مسئولية العمل السياسى أو التنفيذى على ذلك فلم يغيروا من طبيعتهم التى بدأت من نشأة معظمهم فى صفوف جهاز المخابرات الذى يجعلهم أقل كلاما وأشد حرصا .

ونتيجة لسيادة هذا الجو الذى تتوقع فيه الشخصيات وتضمر الطاقات ، وتعيد فيه التفكير على ارادة السلطة العليا نبتت تناقضات بين المسئولين عن العمل السياسى وبين على صبرى من جهة وشعراوى جمعة وسامى شرف من جهة أخرى رغم خلاف طبيعة الاثنين .

كانت كتابة التقارير لمركز السلطة هى السند الرئيسى للشخصيات المختلفة ولم يكن مهما .. بل لعله كان مطلوبا ان تقدم كل المعلومات والأخبار المتيسرة حتى لو اساءت الى المقربين .

وقد انعكست هذه الحالة داخل كل من الاتحاد الاشتراكي وطليعة الاشتراكيين . وكادت تصبح كتابة التقارير عن اتجاهات رأى العام هى أهم نشاط للأعضاء ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتولى ضباط المخابرات السابقين المسئولية السياسية الجديدة وحجب اليسار عن المشاركة الحقيقية فى العمل لسياسى .

ومع ذلك كان الاتجاه الى اليسار يزداد وضوحا ، ولكن التنظيمات مازالت ورقية غير حديدية ، جبهوية أكثر منها اشتراكية حقيقية ...

وجمال عبد الناصر يحاول أن يعطى للتنظيم دفعة قوية ، فيعلن انه يمارس عمله من مكتبه في الاتحاد الاشتراكي . . .

ولكنه أبدا لم ينفذ .

ومن الصدمات التي تعرض لها العمل السياسي اعتقال ثلاثة من أهم العناصر العاملة في جمل السياسة . . . الدكتور ابراهيم سعد الدين عضو الأمانة العامة والمسئول عن المعهد الاشتراكي ولطفى الخولي رئيس تحرير الطليعة وأمين عز الدين المسئول التنظيمي في أمانة القاهرة ، والتحقيق معهم بوساطة شعراوي جمعة وسامي شرف بتهمة الاتصال بعدد من الشباب الذين اعتقلوا لارتباطهم بتنظيم القوميين العرب .

قليل يومها ان الاعتقال والتحقيق تم على مستوى سياسي . . . ولكن الحقيقة انه كان اعتقالا بوليسيا . . . وان الشباب قد عوملوا معاملة بوليسية وان بعضهم كان في غاية النضج والوعى . . . والاخلال لثورة يوليو وجمال عبد الناصر .

كان المسئول عن هذه المجموعة سمير حمزة الذي كان قد أعد تنظيما من الشباب تابعا للقوميين العرب ولكن سامي شرف اتصل به واستوجب تنظيمه في طليعة الاشتراكيين وضم سمير الى مجموعته ثم عين مسئولا للتحقيق في منظمة الشباب ، حتى قبض عليه وتشكلت معه ومع زملائه لجنة تحقيق من على صبرى وشعراوي جمعة وحسين كامل بهاء الدين .

قليل يومها ان هذه محاسبة سياسية ولكنها كانت في اسلوب تنفيذها بوليسية .

الايخوان المسلمون وزلزال كوشيش

عندما وضع موقف الاتحاد الاشتراكي سياسيا ، وتراجعت عنه قوة الضباط اليمينيين والرجعيين ، وبرز الصف الثاني من الضباط المتأثرين بفكر عبد الناصر شخصيا ، والذين يمكن اجتسابهم على اليسار .

عندما وضع ذلك بدأ تكتل من العناصر الرجعية في المجتمع . . . لم تتحرك قوى الأحزاب السياسية القديمة . . . كانت قد ذابت وتلاشت .

ولكن تحركت عناصر الاخوان المسلمين التي كان قد أفرج عنها ، أو تولدت في موجة عداوة للاشتراكية واكتشفت حركة هذه العناصر أولا في محافظة الدقهلية بوساطة بعض أعضاء طليعة الاشتراكيين .

وأبلغ الأمر إلى جمال عبد الناصر الذي حول المعلومات إلى وزارة الداخلية ، ولكن الوزير عبد العظيم فهمي مدير المباحث العامة السابق أفاد بعدم إمكانية الاستدلال على نشاط جقيقى للاخوان ، وأثار الشكوك حول صحة المعلومات .

وعندما أصر أعضاء طليعة الاشتراكيين على أقوالهم ، أعيد الأمر من جديد إلى وزارة الداخلية . . . وجاء نفس الرد السابق . . . واستمر إصرار أعضاء التنظيم على صدق معلوماتهم .

ولم يجد جمال عبد الناصر بدا من الاستعانة بالمباحث الجنائية العسكرية التي سبق أن ذكرنا بعض جوانب نشاطها التي ظهرت من جديد . . . وأمكن للمباحث أن تضع يدها على تنظيمات وخلايا جديدة للاخوان المسلمين ، قدم أعضاؤها للمحاكمة فيما بعد ، وصيدرت عليهم الأحكام . كانت عودة المباحث الجنائية العسكرية للعمل البوليسى ضرورة فرضها عجز أجهزة البوليس أو تواطؤها مع عناصر البرجعية .

وأراد جمال عبد الناصر أن يوجه الاهتمام إلى جهاز البوليس الذي طالما ندد به واعتبره امتدادا للقديم . . . فعين شعبراوى جمعة أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكي وأمين أمانة طليعة الاشتراكيين وزيرا للداخلية في محاولة لتسييس البوليس .

عدم التركيز على تكامل التنظيمات السياسية وتكوينها على أسس نضالية ، وعدم معاملة طليعة الاشتراكيين كجذب ثورى يحتاج فى بنائه إلى مواصفات خاصة . . . هو ما سمح للأجهزة الادارية وأجهزة الأمن أن تمارس دورها بالأساليب القديمة .

وهو ما دفع جمال عبد الناصر إلى الاستعانة بالجيش عند كل أزمة يتعرض لها النظام . . . من المجمعات الاستهلاكية إلى هيئة النقل إلى اكتشاف خلايا الإخوان . . .

وتفجر حدث عارض كان بمثابة زلزال اجتماعى .

صلاح الفقى أحد أفراد أسرة الفقى الاقطاعية فى قرية كمشيش اتهم بقتل صلاح الدين حسين عضو لجنة الاتحاد الاشتراكي بقرية كمشيش يوم ٤ مايو ١٩٦٦ .

وعائلة الفقى سبق أن نشرت مجلة المصور تحقيقا عن تصرفاتها يوم ١٤ أغسطس ١٩٥٣ وما تفرضه على القرية من ضغط وارهاب وحظر تجول .

وكانت مجلة روز اليوسف قد قامت قبل ذلك بأسابيح بحملة قوية
شملت عدة تحقيقات عن تهريب الأرض أى الاحتفاظ بملكية كزيد عما ورد
فى قانون الاصلاح الزراعى بطرق احتيالية .

وأثار مصرع صلاح حسين غضبا شديدا ، وأصبح حديث المجتمع . .
ووجد فيه البعض اعتداء على تنظيم الثورة .

وشكلت لجنة لتصفية الاقطاع ترأسها المشير عبد الحكيم عامر ، بعد
تحقيق قامت به المباحث الجنائية العسكرية بعد تبليغ من حسين
عبد الناصر شقيق الرئيس الذى كان أول من لفت الأنظار الى الحادث
ومدلوله السياسى كما قال الصاغ حسن خليل .

يقول زكريا محيى الدين انه قبلها انجرافا وراء اظهار السلطة .
خاصة وانه استخدم فيها قوات المباحث الجنائية العسكرية .

ويقول حسن خليل قائد المباحث الجنائية العسكرية أن المشير قد
قبل ذلك لحماية الثورة واحساسا منه بالخطورة التى تهددها .

والواقع أن المشير كان متخما بكثير من المناصب . . . كان رئيسا
للجنة الاقتصادية العليا ورئيسا للجنة السد العالى ، ثم رئيسا للجنة
تصفية الاقطاع الى جانب رئاسة اتحاد كرة القدم .

وظهر عامر والجيش على سطح المجتمع . وطارد فلول الاقطاعيين فى
القرى ، وأصدر الأوامر لهم بمغادرة الباقى من أراضيهم الى المدن . . .
ووضع البعض منهم تحت الحراسة . . . وأشاع بحركته مع قوات الجيش
عند الاقطاعيين شعورا مشابها بما ساد فى الفترة الأولى للثورة بل وأحيانا
أشد قسوة . . . فعند تطبيق قانون الاصلاح الزراعى لم يستخدم الجيش
. . . ولكن لجنة تصفية الاقطاع لجأت اليه .

كانت اجراءات لجنة تصفية الاقطاع فى غاية الحزم . . . تأخذ طابعا
عسكريا لا شك فيه .

نشرت مجلة آخر ساعة تحقيقا صحفيا عن أحد ضحايا الأسر
الاقطاعية فى محافظة المنيا ، ونشرت تفاصيل الجريمة مشيرة الى اتهام
أسرة اقطاعية معروفة .

وحضر الى دار المجلة أحد ضباط المخابرات وهدد بقتل المحرر اذا
جرؤ على الاستمرار فى النشر ولجأ المحرر الى ادارة المباحث الجنائية
العسكرية التى حقق قائدها الصاغ حسن خليل فى الموضوع بسرعة ودقة
شديدين وسأل رئيس التحرير صلاح حافظ ومدير التحرير سعد كامل .

ولم تكن تمضي عدة أيام حتى كان ضابط المخابرات العامة قد نقل من مكانه ، وبدأت النيابة العامة تحقيقاً مع الأسرة الكبيرة .

وكانت التناقضات بين الرئيس والمشير تنعكس أحياناً على أعمال هذه اللجنة . . . ففي ليلة زواج ابنة شعراوي جمعة وزير الدولة وأمين التنظيم في نادي ضباط الجيش بهليو بوليس ، فوجئ حسن خليل بحسب روايته بعبد المجيد فريد يستدعيه لمقابلة المشير بعد توقف جمال عبد الناصر أمامه لحظة مصافحته وفي عينيه نظرة غضب .

وأبلغه المشير أن الرئيس تلقى شكوى من أحد أهالي كمشيش وطلب منه السفر فوراً للتحقيق فقام في منتصف الليل وصاحبه في ذلك الفريق عبد المحسن مرتجى كعنصر محايد ، واللواء عوض الأحول نائب أحكام الجيش ، وحسن طلعت مدير المباحث العامة .

وثبت فعلاً أن شخصاً تعرض لإهانة غير ضرورية وقدم أحمد الصولات للمحكمة وحكم عليه بالسجن ٦ شهور .

ولعل وجود عبد الحكيم عامر على رأس هذه اللجنة يجيب على تساؤل البعض حول حقيقة اتجاهاته الفكرية والاجتماعية . . . فهو رغم كل ما نبت من تناقضات بينه وبين عبد الناصر ، ورغم أصوله الطبقية التي تعتبر متميزة قليلاً عن زملائه فهو وعبد اللطيف البغدادي هبلاً الوحيدان من أبناء العمدة .

رغم ذلك فإن عبد الحكيم عامر كان مخلصاً تماماً لاتجاهات الثورة مؤمناً بتنفيذ خططها . . . لا يبذل جهداً كبيراً في مناقشة ما يتوصل إليه جمال عبد الناصر .

ولعل هذا هو ما دفع الاتحاد السوفييتي عند زيارة خروشوف لمصر قبل سنتين إلى تقديم لقب بطل الاتحاد السوفيتي إليه وإلى جمال عبد الناصر .

أظهرت لجنة تصفية الاقطاع عيوب تطبيق قانون الإصلاح الزراعي وعجز المسئولين عن تطبيقه بما يخدم الاقتصاد القومي ويخدم الفلاح أيضاً .

وكان تأميم الأرض فكرة واردة في هذه المرحلة كخطوة لتنفيذ المزارع الجماعية .

ولكن جمال عبد الناصر لم يفكر في تأميم الأرض

قَالَ (تَامِيمُ الْإِرْضِيِّ فِي مِصْرَ غَيْرِ وَارِدٍ لِأَنَّ الْبُسْتَةَ مِلَايِينَ فِدَانٍ إِلَى عِنْدُنَا لَا تَسْمَحُ بِهَذَا أَبَدًا ٠٠٠ : وَلَمَّا كَلَّ عَيْلَةً تَأْخُذُ ٥ إِلَى ١٠ فِدَانِينَ تَبْقَى سَاعِدَتُ عَلَى الْإِشْتِرَاكِيَّةِ) .

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ التَّنَاقُضَاتُ فِي الْقَرْيَةِ هِيَ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى الصَّرَاحِ وَالطَّبَقِ الَّذِي رَاحَ صِلَاحُ حُسَيْنٍ ضَحِيَّةً لَهُ .

التَّنَاقُضُ نَوْعَانِ ٠٠٠ بَيْنَ الْفَلَاحِيِّينَ وَبَيْنَ الْإِقْطَاعِيِّينَ وَالرَّجْعِيِّينَ وَهُوَ لَا يَنْتَهَى بِصُدُورِ قَوَانِينِ الْإِصْلَاحِ الْزَّرَاعِيِّ ، وَلَكِنْ بِالنُّضْبَالِ ضِدَّ نَفُوذِهِمْ وَأَرَائِهِمُ الَّتِي بَثُّهَا كَادَاةٌ لِلْقَهْرِ طَوَالَ آلَافِ السَّنِينَ ٠٠٠ وَهَذَا مَا لَمْ تَحْقُقْهُ الثَّوْرَةُ لِلْفَلَاحِيِّينَ بِتَنْظِيمِهِمْ فِي رِعَاءِ تَنْظِيمِهِمْ فَيُجَالِ وَقَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ أَرَائِهِمْ وَالِدِفَاعِ عَنْ مَصَالِحِهِمْ .

وَهُنَاكَ تَنَاقُضٌ آخَرُ نَبَتْ فِي الْقَرْيَةِ الْمِصْرِيَّةِ بَيْنَ عَمَالِ التَّرَاحِيلِ (بَرُولِيَتَارِيَا الْفَلَاحِيِّينَ) وَبَيْنَ مَلَائِكِ الْأَرْضِ مَهْمَا كَانَتْ مِسَاحَةُ مَلَائِكَتِهِمْ .

الْفَلَاحُونَ فِي مِصْرَ ٧٠٪ مِنْ السَّكَّانِ ، وَمِسَاحَةُ الْأَرْضِ الْمَنْزَرَعَةِ هِيَ ٤٪ مِنْ مِسَاحَةِ مِصْرَ .

وَتُمَثِّلُ الْفَلَاحِيُّونَ وَالْعَمَالُ بِنِسْبَةِ ٥٠٪ فِي تَنْظِيمَاتِ الْإِتِّحَادِ الْإِشْتِرَاكِيِّ وَفِي مَجْلِسِ الْأُمَّةِ بَرُوزَتْ وَجُوهٌ جَدِيدَةٌ بَيْنَ الْفَلَاحِيِّينَ ٠٠٠ وَلَكِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَمَارِسُ الْفَلَاحَةَ بِيَدِهِ كَمِهْنَةٍ ، وَلَكِنَّهُ دَائِمًا مِنْ مَلَائِكِ الْأَرْضِ أَوْ الْمُنْتَمِينَ لِلْأَسْرِ الْكَبِيرَةِ .

وَعِنْدَمَا يَدْخُلُ مَجْلِسُ الْأُمَّةِ ، أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِخْتِيَارُ عَضُوهَا فِي قِيَادَاتِ الْإِتِّحَادِ الْإِشْتِرَاكِيِّ ، يَتَغَيَّرُ مَوْقِعُهُ الْاجْتِمَاعِيُّ ، وَيَزْدَادُ إِيرَادُهُ ، وَيَصْبِحُ أَقْرَبَ إِلَى التَّهَافُوتِ مَعَ السُّلْطَانَةِ عَلَى حَسَابِ مَصْلَحَةِ طَبَقَتِهِ .

الْفَلَاحُ فِي عَرَفِ الْمُؤْتَمَرِ الْأَوَّلِ لِلْإِتِّحَادِ الْإِشْتِرَاكِيِّ هُوَ مَنْ تَكُونُ الزَّرَاعَةُ حِرْفَتَهُ وَمَصْدَرُ رِزْقِهِ ، وَمَقِيمُهَا أَقَامَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ فِي مَنَاطِقَةِ عَمَلِهِ ، وَلَا يَزِيدُ مَا يَحْرُزُهُ هُوَ وَأُسْرَتُهُ مِلْكًا أَوْ إِيْجَسَارًا (زَوْجٌ وَزَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُ قَبْصَرٍ) عَنْ ٢٥ فِدَانًا ، وَالْأَيُّ يَكُونُ مِنْهُمْ حَدَدَتْ مَلَائِكَتُهُمْ طَبَقًا لِقَوَانِينِ الْإِصْلَاحِ الْزَّرَاعِيِّ ، وَالْأَيُّ يَكُونُ مِنَ الْمُوْطَلَفِينَ أَوْ الْمُسْتَعْدِمِينَ الْعُمُومِيِّينَ .

الْفَلَاحُ الَّذِي يَزْرَعُ بِيَدَيْهِ ٠٠٠ : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا قُوْتَ يَوْمِهِ ٠٠٠ مَا زَالَ أَمَامَهُ سَدٌّ كَبِيرٌ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَشَارَكَةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي قِيَادَاتِ الْأَجْهَازَةِ السِّيَاسِيَّةِ .

التَّغْيِيرَاتُ الَّتِي حَدَثَتْ فِي حَيَاةِ الْفَلَاحِ فِي الْقَرْيَةِ ، هِيَ أَكْبَرُ مِمَّا حَبِثَتْ خِلَالَ ٧٠٠٠ عَامٍ ٠٠ وَلَكِنَّهَا بَعْدَ لَيْسَتْ كَافِيَةً لِتَحْرِيرِ الْفَلَاحِ تَحْرِيرًا كَامِلًا .

الفرصة ما زالت متاحة لمن يملك في حدود ٢٥ فداناً ٠٠٠ وهو في القرية لا شك سيد وقادر وبعيد اجتماعياً عن بقية الفلاحين ٠٠٠ أقرب اليهم من ساكن المدينة أو عضو البرلمان السابق ٠٠٠ ولكنه ليس منهم تماماً .

وحتى اذا كان قريباً منهم ، ويعيش حياتهم ، فإنه مع دخوله مجلس الأمة ، أو قيادات الاتحاد يتعرض لعملية جذب مادية تزيد من الفارق بينه وبين الفلاحين ٠٠٠ مرتب عضبو مجلس الأمة ٧٥ جنيهها وصل بعد ذلك الى ١٢٥ ، وأعطيت لهم تسهيلات في حجز عربات نصر بالتقسيط على سائر المواطنين ، كما أعطيت لهم شقق في مباني الدواية بأسهات خاصة ، هذا الى جانب المرتبات الاضافية التي يحصل عليها المتفرغ للعمل السياسي .

قال كارل ماركس (عندما يصبح يسلطة الدولة في أيدينا لن يكون بالامكان أن ننتزع ملكية الفلاحين الصغير بالعنف بتعويض أو بغير تعويض ٠٠٠ مثلما ستكون مضطرين لأن يفعل بالنسبة لكبير الملاك ٠٠٠ ان مهمتنا ستكون تجاه الفلاح الصغير قبل كل شيء . هي توجيه اتجاهاه الخاصي . وتوجيه ملكيته الخاصة في السبيل التعاوني لا بواسطة العنف ، ولكن عن طريق المثل ، وتقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض ومن المؤكد أنه سيكون لدينا من الوسائل لاقتناع الفلاح بجميع المزايا التي يتسم بها هذا التحول ، والتي لابد من توضيحها له منذ الآن) .

التعاون في مصر لم ينجح ، والجمعيات التعاونية التي انشئت ، لم تستهدف اقامة تعاونيات تجمع أرض الفلاحين تحت ادارة فلاحية واعية ومنظمة وقادرة على اقناع الفلاح بأن ادخال أرضه في التعاونيات هو لمصلحته الذاتية أولاً .

الجمعيات التعاونية التي انشئت تحولت الى ما يشبه دكان بنك التسليف ٠٠٠ ورغم انها تشكل بالانتخابات ، الا أن الفلاح البسيط يعتبر فريسة عندها تنهش من أمواله ما وسعها ، لأنه لا يجد سبيلاً آخر للشركة ، ولا يقتنع بجدوى الشكوى للجهات المسئولة لأنه تاريخياً وخلال آلاف السنين يعرف أن الإدارة هي يد الحاكم التي تقبض على الأعناق ٠٠٠ والشكوى لن ترفع يد الحاكم ٠٠٠ ولذا فهو يفضل أن يخسر بعض أمواله على أن يخسر كل وقتبه ٠٠٠ ويدخل بعد ذلك في متاعب يعجز عن التخلص منها .

التجميع الزراعي الذي بدأ تطبيقه في محافظتي كفر الشيخ وبني سويف كان هدفه في رأي جمال عبد الناصر حسب ما قال في محادثات الوحدة (التجميع الزراعي معناه زراعة تعاونية مش مزارع تعاونية الحقيقة أقصى ما يمكن تطبيقه في مصر) .

أقصى ما يمكن تطبيقه في حدود قدرات البرجوازية الصغيرة الحاكمة
... أو في حدود رغبتها انتظام الفلاحين في تعاونيات يفرض قوتهم
السياسية والاجتماعية ... وهو أمر تحاشته الثورة مع العمال ،
وتتحاشاه مع الفلاحين أيضا .

الدولة تباشر سيطرة غير مباشرة لاحتكارها التسليف والسماح ومواد
الوقاية ؛ والمقاومة وآلات الري ... وشراء القطن .

أبعدت بذلك التاجر الجشع ... لكنها قامت بدوره بصورة أخرى .
تعمل من أجلهم ... وليس بهم ...

حتى عام ١٩٦٤ كانت جملة الأرض التي وزعت على الفلاحين المعدمين
٩٤٤ر٤٥٧ فدانا كما قال جمال عبد الناصر في خطبة افتتاح مجلس
الامة . الذي ضم لأول مرة في حياة مصر ٥٠٪ من أعضائه عمالا وفلاحين
حسب نصوص الميثاق .

ومع ذلك يقول تقرير البنك المركزي انه يوجد ٣ ملايين فلاح معدم
عام ١٩٧١ (انظر الطليعة عدد فبراير ١٩٧١) .

وحادث كمشيش كان زلزالا في المجتمع الزراعي ... ولكن كل
الاجراءات استهدفت ضرب فلول الاقطاعيين واضعاف نفوذهم ، دون
محاولة جادة لاطلاق الحرية لتنمية قوة الفلاحين واطلاق طاقاتهم ليواصلوا
الدفاع عن انفسهم ... بدلا من الدفاع الاداري لأجهزة الدولة .

وهكذا ظل التطبيق الاشتراكي بعيدا عن قاعدته الجماهيرية ...
يصل اليهم من فوق دون تفاعل حي مع الجموع .

ومع ذلك تميزت سنوات ما بعد ١٩٦٤ بأنها كانت أكثر السنوات
وضوحا في مسألة التحول الاجتماعي ... وكانت التغيرات التي تمت في
مجال التنظيم السياسي ، مبشرة بجدية المحاولة .

يقول ماكسيم رودنسون في كتاب (مصر منذ الثورة) لفاتيكيوتس
(لم يعمد أعضاء الطبقات الدنيا في الحزب الى تحدى الدور المسيطر
للنخبة الحديثة والقديمة ... ففي الحياة المصرية يرتضى الفقراء والأميون
مركزهم المتواضع ... وهكذا لم يتبن الحزب عملية التجديد) .

لم تحدث تحديات فعلا داخل الحزب (الاتحاد الاشتراكي) لأن
اختيار معظم العناصر للمراكز القيادية على مختلف المستويات كان يتم
أساسا عن طريق التأكد من ولائهم ، وبأنهم لا يحملون بدورا ثورية تدفع
بهم الى مطالبة النظام بأكثر مما يطيق أو يحتمل ... هذا الى جانب

التغيرات الاجتماعية التي حدثت في حياة العمال والفلاحين ، والتي لم تحررهم تحريرا كاملا من متاعبهم الاجتماعية ، ولم تصل بهم الى مرسى الاشتراكية الا أنها غيرت من واقعهم القديم تغييرا كبيرا ، وجعلت لهم صوتا مسموعا ، وخففت عنهم قبضة الاستغلال .

وبالتأكيد زرعت الأمل في قلوبهم لمستقبل أفضل .

كان جمال عبد الناصر أكثر زملائه العسكريين اهتماما بالطبقات الفقيرة . . . قال لزملائه أكثر من مرة (أنا مش عاوز حد يكلمنى عن واحد بياخد أكثر من ٣٠ جنيه على انه مسكين . . . المساكين اللى بياخدوا أقل من كده) .

المعتقدات الشخصية جعلت منه حليفا للعمال والفلاحين . . . وساعد على ذلك نشأته البسيطة في أسرة متواضعة . . . ولكن هذه المعتقدات لم تتحول الى أيديولوجية ثابتة .

كل ما صدر عن الثورة خلال هذه الفترة حتى الميثاق رغم أهميته وإيجابيته باعتباره أول وثيقة مكتوبة لم تشكل أيديولوجية متكاملة .

لعبة الصحافة

ظلت الاشتراكية رغم كل شيء كجسم الفيل يتلمس العبيان كل يراه حسب موضع يده .

ومع ذلك كانت تحدث تغييرات ايجابية في الأفكار والمعتقدات يوما بعد يوم . . . ساعد على ذلك اهتمام عبد الناصر بأن يتولى أجهزة الصحافة والاعلام عناصر اشتراكية واعية .

الصحافة كانت ترمومترا لا يخطئ ، ينبئ عن اتجاهات جمال عبد الناصر . . . الذين يتولون المسئولية فيها يفسرون احتجالات المستقبل .

كل الذين عهد اليهم بمسئوليات رئاسة الدور الصحفية كانوا من الضباط . . . أنور السادات ، أمين شاذلي ، لطفى واكد ، محسن عبد الخالق ، خالد محيي الدين ، كمال الدين زفت ، كمال الدين الحناوى ويوسف السباعي وكاتب هذه السطور . . . ولكنهم جميعا غيروا مواقعهم ، ولم يبق منهم واحد في ميدان الصحافة أو منتقيا للنقابة سوى خالد الحناوى والسباعي .

لم يكن أغلبهم صحفيين وكتابا بالمهنة . . . وإنما بالمسئولية .

وكان هناك تنافر واضح وشديد بين اتجاه الدولة الى تطبيق يصل.
الا الاشتراكية . . . وبين أفكار بعض المسئولين في دور الصحف .

الأهرام كانت تحت رئاسة محمّد حسنين هيكل المقرب جدا من
عبد الناصر ، والمعبر الى حد بعيد عن اتجاهاته الفكرية ، والصائغ دائما
لخطبه الهامة ومكاتباته الرسمية . . . وهو الذى وافق وأصدر عن الأهرام
مجلة الطليعة التى رأس تحريرها أحمد لطفى الخولى مع مستشارى تحرير
من الذكائز ابراهيم سعد الدين وعبد الرازق حسن وجمال العطيفى.
ولطيفة الزيات ورشدى سعيد ومحمد الخفيف والاستاذ أمين عز الدين .

اربعة من هؤلاء كانوا معتقلين . .

وكان قد سبق صدور مجلة الطليعة ظهور صفحة الرأى فى الأهرام .
وهى صفحة عهد بتحريرها الى هذه المجموعة فنشرت مقالات جادة ،
واسهمت فى اعطاء ثقل فكرى معين لصحافتنا اليومية ، وظهرت فيها بحوث.
ودراسات اشتراكية علمية .

دار الهلال كانت تحت رئاسة أحمد بهاء الدين الكاتب التقدمى.
المعروف ، والمتفهم لطبيعة المرحلة وظروف التغيير .

أما أخبار اليوم فكانت تحت رئاسة الأخوين مصطفى وعلى أمين . . .
المعروفين بهتلاتهما الغريبة الوثيقة ، المدينتين بولائهما ودعائيهما المبالغ
فيها للملك فاروق ، ثم التهمج المبالغ فيه أيضا على علاقاته الشخصية بعد
سقوطه وتجاهل أخطائه السياسية .

وروز اليوسف كانت ما زالت تحت رئاسة هناجها الحسنان
عبد القدوس .

وحدث تغيير مفاجئ فى مواقع المسئولية .

استدعى جمال عبد الناصر اليه كلا من أحمد فؤاد وخالد محيى الدين
فى نوفمبر ١٩٦٤ وصارحهما بوجود ثغرة واسعة بين ما يهدف اليه من
تطبيق اشتراكي وبين ما تنشره الصحف من اثاره ، وقصص جنسية بعيدة
كل البعد عن اهتمامات الجماهير .

وكلف أحمد فؤاد بمسئولية الاشراف على دار أخبار اليوم ، وخالد
محيى الدين برئاسة مؤسسة روز اليوسف . . . ثم حدث تبادل بين
المسئولين عندما أبدى خالد محيى الدين أنه كلف سابقنا بالعمل فى
الصحافة اليومية (المساء) .

وأصدر جمال عبد الناصر قرارا بتعيين رئيسا لتحرير مجلة
روز اليوسف .

يد عبد الناصر تلتقى من جديد مع أيدي الماركسيين . . . بفترة اعتقال امتدت خمس سنين . . . وأتاح هذا التغيير لهم فرصة اللقاء مع الجماهير على صفحات الصحف بحرية أوسع ، وأصبح هذا التيار الفكرى الجديد عاملاً مساعداً هاماً فى عملية التحول الاجتماعى .

واتجه الى الصحافة عدد كبير من الذين كانوا معتقلين خلال السنوات السابقة . . . كانت هذه هى الأماكن الوحيدة التى وضع فى مناصب الرئاسة فيها ماركسيون .

ولم يكن المشير عبد الحكيم عامر غائبا عن هذه التغييرات . . . كان قد فرض قبل ذلك حلمى سلام رئيساً لمجلس إدارة دار التحرير ورئيساً لتحرير جريدة الجمهورية فى أغسطس ١٩٦٤ ومنحه دعماً مالياً قدره ٣٥٠ ألف جنيه رغم تعليمات جمال عبد الناصر بعدم دفع أى إعانات للمؤسسات الصحفية .

وحلمى سلام كاتب قريب من أفكار الحزب الوطنى الجديد وعلى صلة وثيقة ببعض رجاله ولكنه لم يكن عضواً فى طليعة الاشتراكيين . . . وقد بدأ حياته فى المؤسسة بموقف أثار عليه الصحفيون . . . إذ أنه اضطر عند تعيينه تخفيف العمال فى الدار بنقل بعض الصحفيين الى مؤسسات صحفية أخرى . . .

استدعى الدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الاعلام محمد على بشير العضو المنتدب للدار وضابط سابق . . . وأبلغه أن حلمى سلام قد سافر الى بور سعيد وأنه سيعود بعد شهر ليحدد هذه الأسماء . . . وقدم له قائمة بمائة وخمسين اسماً . . . قد نقلوا الى مؤسسات أخرى ، وصدر الأمر فعلاً على أنه تعليمات من الدكتور حاتم وهو الذى أراد أن يتم الأمر سراً منها أثار غضبه .

نقل الصحفيون الى مؤسسات غير صحفية فى إدارات الشؤون العامة . . . وكان من بينهم أسماء معروفة . . . عبد الرحمن الخميسي ونعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى وغيرهم (١٥٠ صحفياً وعاملاً وإدارياً) .

ولم تمض الأمور هادئة فى مؤسسة دار التحرير . . . وظهرت المباحث الجنائية العسكرية فى ميدان الصحافة أيضاً . . . استدعاهما حلمى سلام فى ٤ يناير ١٩٦٤ للتحقيق فيما قيل عن وجود اختلاسات بالمؤسسة . . . وهجم أفراد المباحث على بعض الموظفين فى مكاتبهم وأعتقلوهم للتحقيق معهم . . .

ورابط أفراد المباحث الجنائية العسكرية في دار التحرير لا يغادرونها حتى وصل الأمر بنجمال عبد الناصر الى غايته ، وقرر فصل حلمى سلام بعد نشره محضرا لجلسة سرية عقدها رئيس الجمهورية في مجلس الأمة ودعا اليها عددا محدودا من قادة القوات المسلحة والمحافظين ورؤساء تحرير الصحف يوم ١٧ مايو ١٩٦٥ ودخل ذلك في باب الصراع الخفى بين الرئيس والمشير وتولى رئاسة المؤسسة من بعده مصطفى بهجت بسوى .

وأصبح المسئولون عن الصحف جميعا أعضاء عاملين في طليعة الاشتراكيين محمد حسنين هيكل مع مجموعته بالأهرام وصلاته الخاصة بعبد الناصر خالد محيى الدين ، أحمد فؤاد ، أحمد بهاء الدين ، مصطفى بهجت بسوى ، كاتب هذه السطور .

وقد أدت طليعة الاشتراكيين دورا بارزا في حشد عدد من شباب الكتاب والصحفيين حتى أصبح التيار الوطنى التقدمى سائرا في مجال الاعلام بصورة واضحة .

أزمة الثقافة

وحدث تغيير فى الثقافة أيضا .

وبداية وزارة الثقافة كانت على يد فتحى رضوان أول وزير لها عام ١٩٥٦ . يعاونه الدكتور حسين فوزى وكيل الوزارة ، ويحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون التى كانت تضم نجيب محفوظ وغيره من المثقفين .

بداية هذه الوزارة كانت مبشرة فقد أرست عدة مشروعات هامة مثل انشاء أوركسترا القاهرة السيمفونى ، واقامة مدينة الفنون التى تضم الكونسرفتوار ومعهد الباليه ، ومعهد السينما ، والمعهد العالى للفنون المسرحية ونجح المسرح القومى ثم مؤسسة المسرح فى اقامة نهضة مسرحية لم تشهدها مصر من قبل ، وفتحت الأبواب للكتاب التقدميين الشباب نعمان عاشور ويوسف ادريس وسعد الدين وهبه ، والفريد فرج وغيرهم من الذين واصلوا المسيرة معهم وكان توفيق الحكيم الذى حافظ على حيوية أفكاره واستمر رائدا فى المسرح بلا جدال .

وعندما استقال فتحى رضوان ، عين الدكتور ثروت عكاشة وزيرا يعاونه الكاتب الصحفى عبد المنعم الصاوى وكيل الوزارة وفى عهدهما استمر التيار الثقافى فى تدفقه ، وارتفع صرح الأفكار التى تبناها فتحى رضوان

وأصبحت الثقافة تلعب دورا رئيسيا فى حياة الجماهير . . . الى ان سقطت وزارة الثقافة فى بداية عام ١٩٦٣ فى يد عبد القادر حاتم وزير الارشاد ، فبدأت تفقد كيائها ومضمونها ، واختلطت الأنظمة فيها بطريقة سيخيفة مما جعل المسرح ينضم الى الاذاعة ويتولى مسئوليته الاشرافية مدير الاذاعة . . . والسينما تنضم الى هندسة التلفزيون ويتولى مسئولية الاشراف عليها مهندس بعد أن كانت مؤسسة عامة .

كان سقوط وزارة الثقافة فى يد عبد القادر حاتم ناتجا عن صراع بينه وبين وزير الثقافة السابق ثروت عكاشة ، بدأ عندما انشأ التلفزيون ست فرق مسرحية دفعة واحدة ، تخصصت فى تقديم التفاهات والمسرحيات المبتذلة ، ولم تحتمل أعصاب ثروت عكاشة هذا الموقف فانفجر غاضبا ومهاجما أسلوب عبد القادر حاتم .

كان عبد القادر حاتم من النوع الهادى الخاضع ، وكان ثروت عكاشة من النوع العصبى المعتز باشتراكه فى الضباط الأحرار وحركتهم ليلة ٢٣ يوليو . . . وكان على علاقة شخصية وثيقة مع المشير عامر .

وبدأ التصادم بين الضابطين . . .

ولم يكن عبد القادر حاتم قادرا على تنفيذ أى مشروع دون الحصول على تصديق وموافقة جمال عبد الناصر . . . ولذا كان تصادم ثروت معه تعبيرا حتميا عن تصادمه مع جمال عبد الناصر . . . وبدأ الأمر فى النهاية كما لو انه تصادم بين عامر وصديقه ثروت وبين جمال عبد الناصر ومنفذ توجيهاته عبد القادر حاتم .

وقدم ثروت عكاشة استقالته لانه فوجئ الى جانب خلافاته الفكرية مع حاتم باعتقال اثنين من سكرتيريه بشبهة الاتصال بالملحق العسكرى المصرى فى لبنان (زغلول عبد الرحمن) الذى سلم نفسه الى سوريا والذى تربطه صلة نسب بعيدة مع ثروت عكاشة .

وعين ثروت عكاشة رئيسا للبنك الاهلى ، وانضمت الثقافة الى الارشاد وتولاها عسكرى آخر هو عبد القادر حاتم الذى كان قد أصبح دكتورا أيضا .

المؤسف انه خلال هذه الفترة استطاع حاتم ان يقسم جبهة اليسار باجتذابه لاحمد لطفى الخولى الذى رفضت له لجنة مؤسسة المسرح المشكلة من الدكتور محمد مندور والدكتور محمد القصاص مسرحية تسمى (الأرانب) وكنت فى ذلك الوقت مديرا لمؤسسة المسرح مع رئيسها الدكتور على الزاعى ، فهرع الى عبد القادر حاتم الذى احتضنه واعد له مشروعاً

يصادم به مؤسسة المسرح ، مستغلا اسم الكاتب الكبير توفيق الحكيم
بانشاء ما سمي باسم مسرح الحكيم الذى قدم الارانب فسقطت سقوطا
شديدا ، ثم ظهرت على خشبته مسرحيات مختلفة للدكتور رشاد رشدى
صاحب الأفكار الرجعية واستاذ الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة .

ولم يكن ممكنا فى عهد بناء الاشتراكية ان تبقى الثقافة فى انحدارها
وضياعها . . . فان أجهزة الثقافة يجب ان تتحلل من طغيان التفاهة
والابتذال ، لتمارس دورها المؤثر فى خدمة الجماهير .

كانت مسئوليات عبد القادر حاتم قد تعددت وتشعبت ، فشملت
وزارة الارشاد والثقافة والسياحة أيضا .

كان الانجراف وراء الدعاية قد وصل الى حد الاعلان عن صدور كتاب
كل ٦ ساعات وتقديم مسرحية جديدة كل أسبوع ، وبناء فندق جديد كل
١٥ يوما .

كانت الكتب تتدفق سطحية وملئية بالأخطاء الى جانب سوء اختيارها
وبعدها عن الفكر الاشتراكي الاصيل . . . وكانت الفنادق تبنى على غير
خطة ، فلا تجد بعد اتمامها ساكنا يدخلها لأخطاء فى التصميم أو فى اختيار
المكان ، كما بدأت المسرحيات الهابطة تطرد المسرحيات الجيدة .

ووصل الأمر غايته . . وأصبح أسلوب عبد القادر حاتم مثل
النغمة النشاز فى جو المجتمع المتجه فى جدية لمحاولة تطبيق الاشتراكية
وترسيخ دعائم ثقافة قومية .

القريب فى ذلك الوقت ان طليعة الاشتراكيين كانت تستوعب كلا من
عبد القادر حاتم فى مجموعة على صبرى وثروت عكاشة فى مجموعة المشير
. . . ولكن هذا الانتماء لم يستطع ان يقرب بينهما أو يوحد من أفكارهما
أو يخلق لهما خطة وهدفا مشتركا .

ثم كانت الخطوة التالية هى اقضاء عبد القادر حاتم عن المنصب بعد
تعيين صدقى سليمان رئيسا للوزراء . . . وعاد الدكتور ثروت عكاشة
من جديد .

الكرة يتبادلها العسكريون . . . والمثقفون الحقيقيون متفرجون . . .
عادت وزارة الثقافة فى تنظيم مؤسساتها من جديد . . . تحاول ان
تستعيد أنفاسها وتقدم للناس ما يفيد .

والثقافة هى التى تظن الطريق لتقدم الأفكار الانسانية والاشتراكية .

وثروت عكاشه يستعين في وزارته بالماركسيين أيضا ... سعد كامل
مديرا لادارة الثقافة الجماهيرية ... ومحمود أمين العالم رئيسا لمؤسسة
النشر ثم مؤسسة المسرح ... ويضع على رأس مؤسسة السينما كاتبها
ديموقراطيا تقدميا هو نجيب محفوظ . جميعا كانوا أعضاء في طليعة
الاشتراكيين .

وكان هذا دليلا على ان طليعة الاشتراكيين لم تستطع ان تفرض
ايدولوجيتها وقواعدها التنظيمية على اعطائها فوق مناصبهم الادارية .

كان الاهتمام الرئيسى بالمنصب الوزارى أو الادارى .. ومن بعده
ياتى الانتماء الى طليعة الاشتراكيين كواجب اضافى (ثقيل) يفرضه نظام
الدولة ، ولا يجد استجابة حقيقية فى صدور كبار المسئولين .

ويمكن القول بأن القدرات القيادية فى طليعة الاشتراكيين كانت
اضعف أحيانا من أن تفرض نفسها على بعض الشخصيات الى جانب عدم
توفر ايدولوجية واضحة وقواعد تنظيمية جديدة .
الثقافة والاعلام استقرت فى أيدي أكثر العناصر اقتناعا وقوة على
خطة التطور نحو الاشتراكية .

وساعد ذلك على حسم قضية بقاء التنظيمات الشيوعية أو حلها ...
وأصدرت الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى بيانا بلورت فيه نفسها فى
شخصية سكرتيرها العام كمال عبد الحليم ، الذى بقى رمزا للتنظيم ،
ولكنه فى نفس الوقت أصدر قرارا بحله .

وهنا أشير الى نقد وجه لى شخصيا فى بيان الحل نتيجة مقال كتبه
فى روز النيوسف ونصحت فيه التنظيمات الشيوعية بحل نفسها والاندماج
فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى حتى لا تتعرض لتصادم جديد مع الحكومة .

كنت اكتب من موقع الحرص على الاندماج وعدم تردى الأمور الى
درجة التصادم ... وأخذ حديثى على انه نوع من التهديد ... وهو أمر
لم أكن أملكه ... ولعل أخطاء فى التعبير ... بل لعل أخطاء
فى الحماس لعملية الدمج ذاتها ، دون توفر شروط ضرورية لاستمرار نضال
الطبقة العاملة خلف قيادة حزبها .

وأصدر الحزب الشيوعى المصرى بيانا أيضا يعلن فيه حل الحزب .

الأمور تستقر على قاعدة عريضة من التحالف النسبى بين الطبقات
المختلفة ... ومع ذلك فالخشية موجودة دائما من احتمالات ظهور تنظيمات
سرية يمينية أو يسارية .

هنا لا تعرف السلطة سوى قبضة جهاز الأمن .

عندما حامت الشبهات حول بعض الشباب واتصاله بحركة القوميين العرب ، اعتقل الشباب ، اعتقل أيضا ابراهيم سعد الدين وأمين عز الدين . ولطفى الخولى وحقق معهم شعراوى جمعه وسامى شرف ، كما سبق ان ذكرت .

وعندما حاول بعض أعضاء الحركة الديمقراطية للتححرر الوطنى التجمع مع جديده ، اعتقل كمال عبد الحليم السكرتير السابق ومعه ثلاثة آخرون لمدة خمسة شهور .

الاتجاه الى اليسار لا يندفع بأكثر مما تسمح به السلطة التى كانت تدخل فى تقديرها عدة عوامل منها :

١ - الادراك بتوافر نظرية متكاملة عند الماركسيين تؤثر وتنتشر دون صعوبة بين المشتغلين بالسياسة مما يمكن أن يشكل خطرا عليها .

٢ - غيبة التنظيمات الشيوعية بعد قرار حلها واختفاء علمها من الساحة السياسية .

٣ - الاتجاه الوسطى للقوات المسلحة وعدم الرغبة فى تسييسها ، والحذر الدائم من حركتها .

٤ - تأثير السياسة الخارجية على الموقف الداخلى والحرص على إقامة علاقات متوازنة مع أمريكا وروسيا .

٥ - عدم رغبة جمال عبد الناصر فى استكمال التنظيم الحزبى على أسس نضالية حتى لا يقلل من انفراد المطلق بالسلطة ... ويتضاعف رفضه بالتالى لآى تنظيم خارج على اطار الاتحاد الاشتراكى .

٦ - نشاط الرجعية التى لم تصنف ايدولوجيا ولا ديموقراطيا ، والتى ما زالت بعض عناصرها فى السلطة تنفث سمومها .

ولكن هذا لا ينفى انه كانت هناك حركة شاملة لليسار ، يقودها جمال عبد الناصر من موقعه فى قمة السلطة .

وكما كان يعمل من أجل الفلاحين والعمل ... وليس بهم أو معهم ... فانه يبنى الاشتراكية وحده . وليس بتنظيم أصحاب المصلحة الحقيقية فيها تنظيما جادا ، ليسير معهم الى تحقيق الهدف .

وبقيت صورة الاشتراكية مهزوزة وغير مستقرة ... البعض يطابق عليها اسم (الاشتراكية العربية) والبعض يؤلف كتباً تدرس في الجامعة على أنها كذلك .

وجمال عبد الناصر يقول في مؤتمر المبعوثين انه لا يعرف الا اشتراكية واحدة لها تطبيقات مختلفة .

يحسم القضية في كلمات ... اشتراكية علمية ، وتطبيق مصري أو عربي .

ولكن هذا الاقتناع لا يستقر في عقول الكثيرين ... ليس الذين هم خارج اطار الحكم ، ولكن بعض الذين يشاركون فيه .

ويستقر في النفوس يقين بأن الوصول الى الاشتراكية عن هذا الطريق الذي تمضي فيه الأمور عملية ممكنة ، ولكنها صعبة ومعقدة ، ومرتبطة بشرط هام ... هو بقاء جمال عبد الناصر شخصياً في قمة القيادة بالدولة ، لأنه الضمان الوحيد لعدم انتكاس خطوات المسيرة في طريق التحول الى الاشتراكية .

وتزداد خطوات المسيرة بطئاً وتثاقلاً .

اجهزة الاتحاد الاشتراكي دخلت دائرة البيروقراطية ... خطط على الورق ، واجتماعات ، ومناقشات ، وينفض كل شيء ... والجمهير تفقد اهتمامها وشوقها للجهاز الكبير يوماً بعد يوم .

طليعة الاشتراكيين ترزح تحت عبء الذين فرضوا على بعض اجهزتها القيادية ، فتحولت الى صورة مصغرة من الاتحاد الاشتراكي بلا فارق كبير ... والتزاوج بين أمانة التنظيم ووزارة الداخلية لم يؤد الى تسييس البوليس ، ولم يؤد أيضاً الى رفع قبضته عن الاشتراكيين ... البعض منهم ما زالوا مطاردين ... وقانون اسماعيل صدقي لمقاومة الشيوعية ما زال هو القانون السائد والمنفذ .

الجيش يواصل اهتمامه بلعبة السياسة عن طريق التدخل فيها كلما توافرت الظروف المناسبة ... وعبد الحكيم عامر يواصل توسيع دائرة نفوذه في مجالات العمل الداخلي ، يواصل أيضاً حياته الناعمة اللاهية ... والفكر الاشتراكي الأصلي لا يدخل الجيش رغم ما ورد في الميثاق .

فلول الاقطاعيين والبرجوازية الكبيرة ما زالوا يقاومون الحركة في طريق التحول الاشتراكي ... يضعفون الأخطاء والانحرافات ... ويستغلون مهادة جمال عبد الناصر لهم ، وسكوتهم أيضاً على المنحرفين في

الحكومة والقطاع العام ، ليواصلوا تجميعهم المعارض ، الذى قال عنه جمال عبد الناصر أمام مجلس الأمة (انه حزب رجعى منظم) .

الضغوط الامبريالية الخارجية تواصل دورها فى الضغط على النظام فى محاولة للوصول بالحالة الاقتصادية الى مستوى يتير الجماهير .

كل هذه العوائق تقف فى طريق الاشتراكية التى حاولت المطبقة الوسطى بقيادة عبد الناصر ان تطبقها دون عقيدة شديدة الوضوح ، وفى غيبة تنظيم مناضل وموحد الفكر ، وفى وجود عناصر مضادة فى مختلف الاجهزة الحكومية والسياسية من القمة الى القاع .

• وكان الأمر صعبا وعسيرا .

التطبيق المصرى للاشتراكية . . . يؤتى بعض الثمار ، ولكنه مازال بعيدا عن ان يكون مستقرا أو راسخ الجنود فى المجتمع .

• ومجتمع عبد الناصر لم يستكمل معالمة بعد .

السنوات الأربع الحاسمة

الأمور لم تصل الى نهايتها . . والسياسة لا تعرف الجمود . . ومراحل الانتقال من نظام الى آخر هى أصعب المراحل . . وخاصة اذا اعتمدت على التجريبية ولم تقدر الايديولوجية تقديرا صحيحا .

والميثاق ليس ابديا . . قال جمال عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى مايو ١٩٦٢ (ان الميثاق للجيل . . وأنا كنت حريصا على الا أحدد حاجة فيه لأكثر من ٨ سنين يمكن حددت سنة ١٩٧٠ أو ١٩٧١ لأنه جأيز ييجى ناس بعد كده يحصل عندهم تطور فكرى تقدمى أكثر من هذا الميثاق يضيفوا عليه حاجات جديدة أو يعدلوه) .

تعديل الميثاق أمر مقرر . . وصعوبات المسيرة هى التى تحدده صحة الاتجاه الجديد .

وكتبت فى روز اليوسف بتاريخ ٤ يوليو ١٩٦٦ ست مقالات تحت عنوان (السنوات الأربع الحاسمة) ناقشت فيها الأخطار التى تعرض لها النظام قبل الوصول لتعديل الميثاق وهى الفترة التى يتم فيها اكتمال تنظيم طليعة الاشتراكيين ، وتتم خطة التنمية الثانية ، ويستقر النظام على أسس جديد .

كانت لجنة تصفية الاقطاع قد كشفت ان الرجعية فى الريف ما زالت تختفى كالحرباء ، وان فى مقاومتها للتقدم شراسة وضراوة ، وأثبتت قضايا

الاخوان المسلمين من هذا التنظيم الرجعى لم تتم تصفيته فكريا وايدولوجيا وان تصفيته اداريا لم تكن وحدها كافية ، وتبين ان جيوب البرجوازية فى القطاع العام تحاول ان تحطمه من الداخل بالفساد والاهمال والانحراف .

وظهرت فى جريدة الجمهورية سلسلة من المقالات بقلم على صبرى فى عام ١٩٦٦ وكان تغيرا قد حدث فى ادارتها نزع مصطفى بهجت بدوى من موقعه كرئيس لمجلس الادارة بعد حلمى سلام ، وعين فى مكانه فتحى غانم الذى كان رئيسا لتحرير مجلة صباح الخير ، ثم مديرا لوكالة انباء الشرق الأوسط .

أخنت هذه المقالات وجهة نظر يسارية ، واثار ظهورها علامات استنفهام كثيرة ، وتسائل الناس عما اذا كان فى ذلك محاولة لظهور منبر مناقس لجريدة الأهرام التى كانت دائما محل حظوة واهتمام الرئيس جمال عبد الناصر . . . وحاول البعض معرفة حقيقة الدور الذى يلعبه على صبرى من سطور هذه المقالات .

وكان الأمريكيون يتابعون فى تركيز شديد بوساطة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية كما تبين فى التحقيق فى قضية مصطفى أمين رئيس تحرير الاخبار الذى ضبط فى منزله مع بروس اوديل الديبلوماسى الأمريكى عميل المخابرات . . . يتابعون حركة العناصر اليسارية والشيوعية (وقد صدر الحكم بالمؤبد على مصطفى أمين) .

وبدأت موجات من الدعايد تلاحق على صبرى بعد هذه المقالات بأذه أصبح شيوعى النزعة .

ولكن محمد على بشير الضابط السابق والعضو المنتدب لدار التحرير للطبع والنشر روى لى انه خلال مناقشته مع على صبرى قال له ان القراء فى حالة قلق من مدلول هذه المقالات .

وكانت دهشة بشير شديدة عندما فوجئ بعلى صبرى يقول له (أعمل ايه . . المقالات تحضر لى . . وأنا اوقعها) .

على صبرى لم يكتب هذه المقالات ولم يطالب بكتابتها . . بل ولم يكن حريصا على ذلك . . ومع هذا فقد ظل توقيعه بشكل واجهة يسارية لشخصيته .

ومثل هذا الموقف الذى ارتضاه على صبرى خلق تناقضات بينه وبين المشير عامر وأعضاء مجلس الثورة ، كما سبق توضيحه فى الفصول السابقة . وبدأت خلال هذه الفترة تتأكد معالم رغبته فى ان يكون له نفوذ

وشخصيات تابعة في الاتحاد الاشتراكي ، وفي الصحافة التي كانت تابعة
له من الوجهة النظرية .

وزادت شخصية علي صبري نفوذا بعد تغيير وزارة زكريا محيي
الدين ، وتعيين صدقي سليمان رئيسا للوزراء . . ولكنها في نفس الوقت
بدأت تتعرض لتناقضات مع عناصر الصف الثاني المتطلعين لسلطة ونفوذ
الصف الأول مثل سامي شرف وشعراوي جمعه .

الشخصيات الرئيسية في مجتمع جمال عبد الناصر تتبدل وتتغير
والاستقرار فيه ما زال بعيدا . . والآمال الطموحة للنظام تدخل مرحلة
أربع سنوات حاسمة .

الامبريالية العالمية والأمريكية لا تغمض عينيها . . والنظام يتعرض
لضغط ، بدأت تقطع المعونة الأمريكية .
وكان عام ١٩٦٧ .

الفصل العاشر

مجتمع جمال عبد الناصر

(لن استطيع ان أقف الا اذا انتهى استغلال
الانسان للانسان)

جمال عبد الناصر

ليس من شك في أن جمال عبد الناصر قد استطاع ان يغير وجه
مصر .. وان يشق لها طريقا جديدا ..

وليس من شك أيضا في ان السنوات الأولى لحركة القوات المسلحة
قد استنفدت جهده في مشاكل داخلية وصراع مع القوى السياسية
القديمة ، والعناصر المنافسة داخل القوات المسلحة .

وعندما استقرت الأمور له ، وانتهى دور محمد نجيب وعقدت اتفاقية
الجلاء ، وتمت تصفية القوى المعارضة من اليمين واليسار بوسائل ادارية،
بدأت اتجاهات جمال عبد الناصر الحقيقية في الظهور .

استمرت هي الدافع الأكبر له في حركته .. فكانت معركته الصلبة
ضد الاحلاف العسكرية ، ورفضه الخضوع مطلقا لمطالب الامبريالية
بالانضواء الى معاهدات الدفاع المشترك أو قبول مبدأ ايزنهاور ..

كانت عقيدة عبد الناصر ان يكون مطلق السراح فى حركته الوطنيه بلا اية قيود . . وقد اثر عليه مؤتمر باندونج واهتمام قادة الدول الاسيوية والافريقية به باعتباره قائدا لحركة ثورية ضد النظام ملكى متعفن . . مما أدى الى شعوره بكيان مصر وقدرتها على ان تثبت وجودها وسط المجال الدولى .

وكان اهتمام جمال عبد الناصر وزملائه أعضاء مجلس القيادة كبيرا فى ان يكون لمصر جيش وطنى قوى . . فقد كان هذا هدفا من أبرز أهدافهم، واشدها حساسية ، لأن حركتهم انبثقت أساسا ضد فساد الملك وقيادة الجيش ، وكان اجراؤها الأول هو تطهير الجيش من كافة الضباط فى رتبة اللواء والعقيد علما نفر محمود لا يتجاوز خمسة أشخاص .

ولذا فإن جمال عبد الناصر لم يتردد لحظة فى محاولة الاتصال بحكومة الولايات المتحدة لكسر القيود البريطانية على امداد الجيش . . ولكن حكومة الولايات المتحدة لم تقبل تسليح الجيش المصرى طالما هو غير خاضع لاحلافها العسكرية وموائيقها الدفاعية ، ولم يصب الى مصر من السلاح الأمريكى الا مسدس مطلى بالذهب أرسله ايزنهاور هدية الى محمد نجيب .

ولم يقبل جمال عبد الناصر الخضوع للشروط الأمريكية ، ولم يقبل الجمود أيضا . . وكان الاتصال مع السوفييت من أجل تسليح الجيش ، هو بداية الاتصال بين دولة من دول التحرر الوطنى ودولة اشتراكية .

ولذا كان جمال عبد الناصر رائدا فى هذا المجال ، الذى يتحرك فيه بحرية كاملة دون أى ارتباط سوى مصلحة وطنه كما هو مقتنع بها .

ولم يرتبط جمال عبد الناصر بايدولوجية معينة . . كان يخشى ان يفقد ذلك حركته . . ولكنه فى نفس الوقت لم يكن جامحا فى عداوته للنظريات والمبادئ المختلفة .

كان الوحيد من أعضاء مجلس قيادة الثورة غير الماركسيين الذى يتصل بأفراد من تنظيم قسم الجيش فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حلقو) وهم يعرف هويتهم السياسية ، فى وقت كانت الشيوعية فيه مطاردة بشراسة من جانب أجهزة الأمن فى النظام الملكى .

لم يأخذ جمال عبد الناصر جانب الرفض فى خلق علاقة مع الشيوعيين قبل الثورة ، كما انه لم يكن المسئول الوحيد عن تمزق العلاقات بين الحركة الشيوعية وحركة الجيش بعد الثورة .

وكما كان جمال عبد الناصر منفتحا فى علاقته مع الشيوعيين ، كان منفتحا أيضا على الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وكافة القوى السياسية بدرجات متفاوتة .

كان مقتنعا بأن حركة الجيش يجب أن تتعرف وتتصل بكافة هذه القوى ، وتحاول الارتباط بها . . . ولولا قناعته الشخصية بذلك لما أمكن خلق أى نوع من الحوار بين الشيوعيين والضباط فقد كان الضباط بصفة عامة متأثرين الى حد بعيد بأفكار جماعة الاخوان المسلمين الذين ارتبط معظمهم بها ، أو تغلب عليهم طبيعتهم العسكرية المحافظة غير المنفتحة على واقع الحياة .

كان جمال عبد الناصر ابرز زملائه فى هذا الاتجاه . . . اتجه الاتصال بكافة القوى السياسية ومحاولة تجميعها فى تنظيم جبهوى واحد ، والأمر الذى نجح فيه تماما فى تنظيم الضباط الأحرار .

استطاع بشخصيته ان يكتسب ثقتنا نحن أعضاء قسم الجيش فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ، والتقت أفكاره مع أفكارنا فى السعى لتوحيد كافة القوى والعناصر الوطنية المعادية للاستعمار فى جبهة واحدة .

ولكن جمال عبد الناصر فى هذه الاتصالات كان حريصا على ألا يربط حركة الجيش بأى حزب أو تنظيم سياسى . . . كان يطلب لها استقلالا خاصا متميزا .

ولذا فقد فصل قائد الجناح عبد المنعم عبد الرؤوف من اللجنة القيادية للضباط الأحرار ، لأنه كان مصرا على البقاء فى الاخوان المسلمين وتجنيد الضباط لتنظيمهم . . . ولكنه مع الشيوعيين لم يتخذ هذا الموقف لان تجنيد الضباط لنفس الجيش فى حدتو كان يتم بعد فترة ترشيح يختبر فيها الانضباط خلال حركته فى تنظيم الضباط الأحرار اذا كان عضوا فيه . . . ولذا كان الضباط ، الشيوعيون العاملون فى الضباط الأحرار يتصرفون كأعضاء فيه ولا يتجاوزون حدودهم الا بخطوات سرية لا تهدد الضباط الأحرار وانما تدعمهم .

وانتصار جمال عبد الناصر فى تكوين هذه الجبهة العسكرية التى ضمت ضباطا تفكيرهم متطابق مع الاخوان المسلمين مثل كمال الدين حسين وضباطا ماركسيين مثل يوسف صديق ، وخالد محيى الدين خلق عنده شعورا بإمكانية تحقيق ذلك فى المجتمع بعد نجاح الثورة .

ولكن الموقف كان مختلفا .. وبدأت سنوات الصدام بين السلطة العسكرية الوليدة ، والقوى السياسية القديمة أو التي لعبت دورا في التعاون مع حركة الجيش قبل ٢٣ يوليو .

وتصادمت حركة الجيش مع الوفد والشيوعيين والايخوان المسلمين ، وهي القوى الذي كان يمكن ان تشكل جبهة وطنية معادية للاستعمار .. ولم تستطع الحركة لغياب الايديولوجية من فرز العدو والصديق .

ولذا فقد انفردت هذه القوى بمحاولة تشكيل الجبهة من عناصر وفدية وشيوعية وعناصر متقدمة في جماعة الاخوان المسلمين .. ولكن أجهزة الأمن وصلت اليهم وقسمتهم للمحاكمة عام ١٩٥٣ فيما عرف باسم قضية الجبهة .

انصرفت القوى السياسية عن حركة الجيش تدريجيا ، واكتملت السلبية بعد عزل محمد نجيب ومحاكمات الاخوان المسلمين .

وهنا يبدأ جمال عبد الناصر في تشكيل المجتمع المصري .

المواقف الوطنية التي أخذها جمال عبد الناصر في تتابع وإيقاع سريع جعلت شخصيته تلمع وتصبح أكثر تأثيرا . بعد ان كانت موجات النقد له قد وصلت غايتها ، ثم بدأت تنحسر تدريجيا بعد اطلاق الرصاص عليه في ميدان المنشية بالاسكندرية في أكتوبر ١٩٥٤ من محمود عبد اللطيف عضو الاخوان المسلمين .

الانتصار في معركة الاحلاف ومؤتمر بانلونج وصفقة السلاح وجلاء القوات البريطانية . وأخيرا تأميم القناة ووقف العدوان الثلاثي ثم انسحاب قواته .

كل هذه الخطوات خلفت رصيда شعبيا هائلا لجمال عبد الناصر كزعيم وطني .. ووسعت الفرق بينه وبين زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وأصبح الزعيم في قمة مجده ، يمارس تشكيل المجتمع بأرادته .. مجلس الثورة لم يعد كيانا تنظيميا وأعضاؤه يستمدون وجودهم من علاقتهم به .

ورؤية جمال عبد الناصر للمجتمع خالية من البعد الطبقي .. اعتقد انه قادر على حشد الجماهير من مختلف الطبقات دون تناقض أو صراع .

وغلبت عليه هذه النظرة المثالية ، وشجعه عليها عدة عوامل منها تجربته الناجحة في الجبهة العسكرية للضباط الأحرار ، وعزله للقوى المتصارعة معه المؤمنة بمبادئها عن حلقة العمل السياسي ، ورصيده الهائل من انتصاراته الوطنية .

ولم يدرك جمال عبد الناصر ان الانتصارات الوطنية لا تلغى التناقضات والصراعات الطبقية وان روح الوثام والتسامح لا تخلق بين الطبقات الا على أسس موضوعية . . وان تعلق انجماهير بشخصيته لا يعنى اهمالها لواقعها الاجتماعى والطبقى .

لم يدرك جمال عبد الناصر ذلك رغم انه كان يحمل مسئولية تشكيل المجتمع الجديد دون أن يكون هناك برنامج يسترشد به ، وحركة الضباط الأحرار اعتمدت على النقاط الست باعتبارها أهدافا عامة ، ولم تثبت تصورها فى برنامج مكتوب يوضح موقف أول تنظيم لها وهو (هيئة التحرير) وكتاب فلسفة الثورة الذى حمل اسم جمال عبد الناصر لم يكن أكثر من خواطر شاب وطنى وجد نفسه فى قمة المسئولية .

ان جمال عبد الناصر قد كتب مقدمة لكتاب (حقيقة الشيوعية) الذى كان يروى أفكارا طموحة بعيدة عن أى مضمون اجتماعى - ورغم ان مؤلفه هو مدير مكتبه أمين شاکر - متهجما فى سطحية وبأسلوب الدعاية الاستعمارية على الاشتراكية العلمية ، الا ان ذلك لا يعبر عن محور أصيل فى تفكير جمال عبد الناصر ، اذ انه كثيرا ما كان يقع تحت ضغوط بعض زملائه المعادين اصلا للتقدم والتفتح الفكرى ، وما ورد فى هذه المقدمة ليس أكثر من توقيع على مقدمة كتبت له بطريقة روتينية .

لم يكن جمال عبد الناصر من القادة الذين يبنون مستقبلهم بالهجوم على الشيوعية . . ورغم اعتقاله ومطاردته لأعضاء التنظيمات الشيوعية وتضييقه الخناق على حركتهم السياسية وتركه لقوانين النظام الملكى البالية ، الا انه لم يكن يطعم احاديثه ، وخطبه دائما بمهاجمة اليسار والشيوعية ولم تكن معاداة الشيوعية هى رأس رمح النظام بل انه كثيرا ما تعاون مع الشيوعيين وخاصة فى مراحل المد الوطنى مثل فترة العدوان الثلاثى كما ورد تفصيلا فى الباب الاول .

كان جمال عبد الناصر قد بدأ يتفهم الدور الوطنى الذى يؤديه الشيوعيون . . وكان كسره لستار منع التعامل مع الدول الاشتراكية ولقاؤه بقادتهم وزيارته لموسكو وربط تسليح الجيش المصرى بهم ، ومقاومته الصلبة لضغوط الامبريالية دلالة على طريقه الوطنى . . كل ذلك كان من العوامل التى طورت تفكير جمال عبد الناصر فى هذه السنوات . . سنوات الصمود . وعبد الناصر ، الذى لم تلبث موجته ان انحسرت . . رغم بقاء الشيوعيين فى المعتقلات .

وهكذا كانت هذه الفترة باحداثها وخلافاتها عامل جذب لجمال عبد الناصر ، وابتعدت به عن محاولة وضع برنامج لتنظيمه السياسى الثانى

(الاتحاد القومى) الذى استورد خطوطه الرئيسية من تنظيم سالازار فى البرتغال ، والذى طمع به الى توحيد صفوف الشعب المصرى والشعب السورى على أساس غير طبقى ، تماما كما كانت الحال فى (هيئة التحرير) .

استهدف جمال عبد الناصر من التنظيم أن يكون أداة فى يد جهاز الحكم ، وليس تنظيما سياسيا يعنى قوى الجماهير صاحبة المصلحة فى انطلاق الثورة واستمرارها على أساس واقعها الطبقي .

وكانت الفرصة متاحة دائما أمام جمال عبد الناصر لخلق هذا التنظيم، ولكنه فى غمرة انتصاراته الوطنية وارتفاع مركزه الشعبى والعربى والعالمى، لم يجد فى غيبة التنظيم ما يشكل خطرا على كيان نظامه أو على موقعه فى قمة النظام .

وكانت الأفكار الاصلاحية التى يؤمن بها هى التى دفعته الى اعتبار ما اطلق عليه اسم (الاشتراكية الديموقراطية التعاونية) السبيل الى تطوير المجتمع بالكلمات الطيبة ، وإحيانا بالاجراءات الادارية الجازمة التى تعتمد على جهاز دولة متخلف ويروقراطى معاد للديموقراطية ومعاد للجماهير .

ولم يكن جمال عبد الناصر حتى هذه المرحلة قد اتخذ موقفا اجتماعيا واضحا . . . فالبرجوازية الكبيرة تنمو ، والنسوة الى رؤوس الأموال الأجنبية نشيطة والقوانين تعدل لتصبح نسبة اسهام المصريين ٤٩٪ فقط بدلا من ٥١٪ . . ومع ذلك فقد كانت السلطة الجديدة التى تعتمد على الجيش بطريقة عملية تثير الفزع والخوف عند الرأسمالية المصرية التى تردت واحجمت عن المشاركة فى مشاريع تبنى الاقتصاد القومى .

كانت السلطة الجديدة تدعم مواقعها بعيدا عن الارتباط بطبقة معينة، معتمدة على الجيش ورغم ان جمال عبد الناصر كان معبرا عن مصالح البرجوازية الصغيرة التى أخذت تنمو وتنتشر الا انه ظل حريصا على أن يكون فى موقع متميز ومتفرد داخل المجتمع .

وكما رفض الارتباط بايديولوجية قضية معينة ظل أيضا بعيدا عن الارتباط علنا بطبقة معينة . وخلال هذه الفترة اعتمد جمال عبد الناصر على زملائه من العسكريين ، وفتح لهم الأبواب للوصول الى مراكز قيادية فى ميادين العمل السياسى والثقافى والاقتصادى .

والصورة التى قدمناها فى الفصل الخامس توضح ان العسكريين بعد زحفهم الى مراكز السلطة قد لعبوا دورا كبيرا فى قيادة جهاز الدولة . . وانهم كانوا فى يد الزعيم أكثر طواعية وموضع ثقة كاملة .

هذه الحقيقة الى جانب الأحداث السياسية والخلافات العربية التي حفلت بها هذه الفترة أرشدت اهتمام جمال عبد الناصر بعيدا عن التفكير المركز في وضع برنامج واضح لحركته ، وجعلته يستكين للاعتماد في معظم المواقع المؤثرة على العسكريين .

وهكذا مضت هذه الفترة دون ان تثمر تنظيما سياسيا قادرا على فرز المجتمع الى طبقات يمكن أن تلتحم في جبهة وطنية تقدمية ، وعزل الطبقات المعادية للتقدم .

ومضت الأمور بهذا الاختيار السهل حتى وصلت الى طريق مسدود .

كانت نظرية (التصالح الطبقي) في السياسة الداخلية ، ونظرية (الوسط والتوازن) في السياسة الخارجية هي النظرية السائدة .

لم يعد (التصالح الطبقي) مقبولا من أطراف الصراع . . البرجوازية الكبيرة تهتز سلطتها وأمالها بعد تمصير الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية بعد العدوان . . وبعد صدور قانون الشركات الذي حذد العضوية في مجالس الادارات وسن العضو وتأميم بنوك مصر والبنك الأهلي .

ومن الجانب الآخر كانت الوحدة مع سوريا عاملا من عوامل التعطيل في تطبيق الديمقراطية في السياسة الداخلية . . فاستمرت الدولة بلا برلمان أكثر من سنتين . . وتوقفت اجراءات التقدم الاجتماعي ، وباركت البرجوازية السورية هذا الاتجاه المستقر الذي يحمي نشاطها في مصر وسوريا معا . . وبدأت البطالة تشكل خطرا اجتماعيا من خريجي الجامعات أو العمال .

وقد بدأت سياسة (الوسط والتوازن) تعبر في مضمونها عن تحرك من اليمين الى اليسار اتفقت مصر على إقامة الشركات الغربية (كيما) للسجاد في أسوان (وراك للورق) وفيات (نصر) للسيارات الى غير ذلك من التعاقدات ، الى جانب الاتفاق على سياسة التصنيع مع الدول الاشتراكية التي عقدها الدكتور عزيز صدقي عام ١٩٥٨ .

وبدأ هذا التوازن مقبولا في بدايته . . ولكن انتهاز القوى الامبريالية للخلافات المريعة التي تفجرت بين جمال عبد الناصر والشيوعيين في الشرق العربي عام ١٩٥٩ . . ورجحان كفة ميزان الغرب قد انتهت الى جمود السياسة المصرية وعدم انطلاقها في طريق التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي واشتدت المعارضة ضد اسلوب عبد الناصر الجديد بين القوى التقدمية ،

وخاصة بعد دخول علاقته مع حزب البعث العربى الاشتراكى فى دائرة الخلاف أيضا .

ولكن جمال عبد الناصر القائد الوطنى لم يرضخ لهذا الاتجاه الراكد ، وامكن له بمرونته وحيويته أن يكتشف أن نظرية (التصالح الطبقي) هى نظرية مثالية غير واقعية . . وان القوى البرجوازية والرجعية قد انتهزت فرصة خلافه مع الشيوعيين وحاولت النفوذ الى مركز السلطة والسيطرة عليها . . الأمر الذى دفع جمال عبد الناصر الى القول لأحمد فؤاد عند استدعائه له لمناقشة قضية تأميم بنك مصر (اننى أشعر ان الرأسماليين هم الذين يحكمون وليست الثورة) .

وكانت البنوك الأجنبية قد توقفت عن تمويل محصول القطن بعد تأميم القناة كجزء من مخطط استعمارى يستهدف أحداث انهيار اقتصادى فى البلاد ، وكان طبيعيا لجمال عبد الناصر وهو يحرص على التنمية أن يسيطر على قوات التمويل من بنوك وشركات تأمين وإعادة تأمين لتكون أداة مساندة للاقتصاد الوطنى وخطة التنمية بعيدا عن السعى وراء الربح السريع والمضاربة .

وأصدر جمال عبد الناصر قوانين يوليو ١٦١ الاشتراكية فكانت نهاية مرحلة الحيرة التى سادت بعد العدوان الثلاثى ، وانتهت الى حد بعيد سياسة (التصالح الطبقي) أما سياسة (الوسط والتوازن) فى السياسة الخارجية فقد استمرت معبرة عن رؤية جمال عبد الناصر الوطنية ، وخشيته من الارتباط بأيدىولوجية معينة ، أو تكتلات سياسية عالمية .

وقد أثر صدور هذه القوانين تأثيرا سريعا فى حركة القوى السياسية المختلفة . .

تحولت البرجوازية الكبيرة وبقياء الاقطاعيين الى اعداء مباشرين للثورة ولعبد الناصر ولم يمض وقت قبل ان يتحركوا ضده فى سوريا خلف الانقلاب الذى انتهى الى الانفصال وانتهاء تجربة الوحدة الأولى .

وأدرك جمال عبد الناصر متأخرا أن نظرية (التصالح الطبقي) لاتنزع أنياب البرجوازية الجشعة ، ولا تهدى الفلاحين والعمال عن المطالبة بحقوقهم المشروعة ، ولا تروى عقول المثقفين الثوريين .

وكانت الأيام التى أعقبت الانفصال حافلة بعبارات النقد الذاتى التى أطلقها جمال عبد الناصر واعترف فيها بأن الرجعية من داخل الاتحاد القومى قد انقضت على الثورة فى سوريا . . وأنه يوجد صراع طبقي لا شك فيه .

وتبع هذا الادراك العميق الذى انضجته الخبرة والتجربة تحولا فى
اسلوب الثورة ... صدر الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي العربى ..
التنظيم الثالث للثورة .

وقد عبر جمال عبد الناصر عن ادراكه لأهمية الصراع الطبقي بقوله
فى الميثاق (الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو انكاره
وانما ينبغى أن يكون حله سلميا فى اطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب
الفوارق بين الطبقات) .

وقوله فى الميثاق أيضا (ان ضراوة الصراع الطبقي وديمومته والاضطراب
الهائلة التى يمكن ان تحدث نتيجة لذلك هى فى الواقع من صنع الرجعية
التي لا تريد التنازل عن احتكاراتها وعن مراكزها الممتازة التى توصل
فيها استغلال الجماهير) .

ويؤكد الميثاق أيضا تخلى جمال عبد الناصر عن فكرة (التصالح
مجموع الشعب بحكم احتكاراتها لثروته ولهذا فان سلمية الصراع الطبقي
لا يمكن أن تتحقق الا بتجريد الرجعية أولا وقبل كل شئ من جميع
أسلحتها) .

لم يعد هناك لبس فى وجود صراع طبقي .. ولكن المحاولة فى
محاولة تجنب انفجاره فى شكل دموى .

وأصبح واضحا انه بعد صدور الميثاق وبعد اقرار قانون الاتحاد
الاشتراكي الذى ينص على أن يكون نصف أعضاء مجلس الأمة والمجالس
الشعبية من العمال والفلاحين ... لم يعد هناك من سبيل لتغيير جديده
بل أصبح هذا هو الأساس الذى ينهض عليه المجتمع ..

وقد أثبتت مناقشات اللجنة التحضيرية التى انبثقت الميثاق عن
مؤتمرها القومى ان معظم أعضائها لم يكن عندهم الفهم العميق للحركة
السياسية ، وان أغلبيتهم كانت بعيدة عن معرفة المضمون الصحيح
للاشتراكية العلمية ، وان أبعاد الشيوعيين والمفكرين اليساريين عن
عضويتها قد اضعف من مستوى اللجنة .

ولذا جاء تقرير لجنة المائة التى أشرف عليها كمال الدين حسين
متخلفا عن الميثاق ، متبينا نظرة محافظة .

ولكن طرح شعار الاشتراكية فى المجتمع قد أثر فى الجماهير تأثيرا
كبيرا ، وبدأ يجذب اهتمامها وينمى ميولها الثورية ، ويحفزها الى معرفة
حقيقة ابعادها .

كانت الاشتراكية قد انفردت وحدها كستار للمجتمع ، وتساقطت.
كلمتى (الديمقراطية والتعاونية) ٠٠ وبدأت الكلمة تستخدم فى معظم
المقالات والأحاديث السياسية تماما مثل ملح الطعام ٠٠

وتعدلت أيضا كلمات جمال عبد الناصر وأصبحت أكثر حسما
ووضوحا فى قضية الاصرار على التحول الاشتراكى .

ولم ينحرف جمال عبد الناصر وراء بعض الذين صوروا المجتمع فى
مصر مع بداية ظهور الميثاق بأنه مجتمع اشتراكى ٠٠ ولم يتردد فى الاعلان
بان مصر ما زالت بعيدة عن الاشتراكية وانها تعبر سنوات التحول .

ولم يكن الاعلان عن الاشتراكية كافيا لخلق مجتمع اشتراكى ٠٠ الأمر
لم يكن بهذه البساطة ولن يكون .

خلق المجتمع الاشتراكى يحتاج الى جهد سنوات طوال فى مجالات
العمل والسياسة والثقافة .

ومن الظواهر المثيرة والمعتلة معا ان الشيوعيين الذين تبناوا التبشير
بالاشتراكية من قبل الثورة ، والذين ناضلوا وضحوا فى سبيل ذلك
تضحيات جسيمة ، كانت أغلبيتهم العظمى معتقلين فى جنوب مصر فى
صحراء الوادى الجديد ٠٠٠ أفكارهم الواعية حبيسة الجدران ، وطاقتهم
الكثيرة محاطة بالقضبان ٠٠٠ ومع ذلك فانهم لم يترددوا لحظة فى تأييد
جمال عبد الناصر ٠٠٠ والذين تبناوا أفكارا متطرفة عنه راجعوا تفكيرهم
واستقروا على تأييد الاتجاه الوطنى التقدمى للثورة والتحالف معه من
موقعهم الخاص بهم .

ونمت مع اعلان الميثاق علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفييتى ،
واستقرت سياسة (الوسط والتوازن) الى خلق علاقة وثيقة مع الدول
الاشتراكية التى انضمت فى تصنيع مصر بعد اتفاق الاتحاد السوفييتى
على انشاء السد العالى .

ولكن الظاهرة الملحوظة انه رغم ان العلاقات بين مصر والاتحاد
السوفييتى كانت تتحسن عاما بعد آخر وتلوث فيها الشوائب ٠٠٠ الا ان
جمال عبد الناصر لم يبلور هذه العلاقة فى حدود أكثر من انها علاقات
صداقة ٠٠٠ ولم يفسر مضمونها الحقيقى من ان الاتحاد السوفييتى انما
يقدم هذه المعونات والمساعدات غير المشروطة لأنه دولة اشتراكية عظمى
تهتم بالماركسية اللينينية .

لم يحاول جمال عبد الناصر أن يقضى على الحساسيات من الماركسية ،
بل انه كان كثيرا ما يتحدث عن الفروق بين (التطبيق العربى للاشتراكية) ،

وهو الاصطلاح الذى كان يصر عليه أمام موجات بعض المحرفين والرجعيين الذين كانوا يتحدثون عن (الاشتراكية العربية) .

كان كثيرا ما يردد هذه الفروق ويحسمها فيما قاله من فروق فى الدين وديكتاتورية البروليتاريا وعدم تحميل جيل واحد مسئولية بناء الاشتراكية .

وكان ترديد هذه الكلمات يزداد خلال بعض الأزمات التى كانت تعكر صفاء العلاقات بين البلدين .

ولا شك أن جمال عبد الناصر كان حريصا على وجود حد فاصل بين زعامته وبين الأفكار الماركسية والتنظيمات الشيوعية وأنه إذا كان قد استعان ببعض الماركسيين فى أماكن مسئولة من أجهزته فأنما كان يستعين بهم بصفة شخصية وبعد تأكده من أنهم لا يتبنون آراء معارضة لحركته السياسية أو له شخصيا .

ويذكر أنه قال لمحورى مجلة الطليعة أثناء زيارته للأهرام أنه يطلب منهم أن يكونوا قديسين .

والفروق التى كان يغيرها جمال عبد الناصر لم تكن مطروحة من الشيوعيين فلم يكن هناك تنظيم شيوعى واحد يطلب عصيان الدين أو الخروج عنه ، وهم يعتبرون الاقتناع الدينى من أسس الحرية الاجتماعية التى تدافع عنها الاشتراكية ولم تكن قضية ديكتاتورية البروليتاريا مثارة فقد تغيرت النظرة إليها مع تغير الظروف وتجاوزتها المرحلة أما قضية تحميل جيل واحد عبء بناء الاشتراكية فقد تراجع عنها جمال عبد الناصر فبما بعد عندما أدرك أن هذا العبء يعطى فرصة لاعداء الاشتراكية لتخريب محاولات التطبيق ، حتى تتغير خطط التنمية ويهبط الاقتصاد القومى ، وتصبح الاشتراكية هى مشجب الأخطاء والمبدا .

ووصل اقتناع الشيوعيين بالدور التقدى الذى يؤديه جمال عبد الناصر الى حد اتخاذ قرارات بحل تنظيماتهم بعدما قيل لهم أن هناك فرصة أكيدة للدخول فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى كأعضاء عاملين وكانت هذه أول مرة فى التاريخ تحل الأحزاب الشيوعية فيها لنفسها اختياريا .

وهكذا انتهت الفروق التنظيمية وانهارت سدود العزلة وفتح الاتحاد الاشتراكى أبوابه لبعض الماركسيين ، وتولى مسئولية بعض أجهزة الاعلام ماركسيين أيضا مثل الأخبار (خالد محيى الدين) آخر ساعة (سعد كامل)

· (صلاح حافظ) روز اليوسف (أحمد فؤاد وكاتب هذه السطور) الطبيعة
(لطفى الخولى) ·

ولكن العلاقة لم تقم على أسس وجدانية مستقرة انما قامت على
أسس ذاتية ... فلم تفتح أبواب الاتحاد الاشتراكي لكل الشيوعيين
السابقين .. ولم يعد الجميع الى وظائفهم التى فصلوا منها .. وأصبح
البعض منهم فى مراكز مرموقة يتقاضون مرتبات عالية ، والبعض منهم
محروما من فرصة العمل يكاد يتضور جوعا ·

صحيح أن هذه الحالات كانت تقل شهرا بعد آخر .. ولكنها فى
جماليتها تعبر عن أن رضا أجهزة السلطة كانت فى الغالب هى جواز المرور
للعمل أو المركز أو المسئولية ·

وطبيعى أن يكون ذلك هو المقياس فى وقت يتشكل فيه المجتمع الجديد
لعبد الناصر الذى ظلت كافة الخيوط تتجمع بين يديه ·

واستمر تركيز السلطة فى يد عبد الناصر باعتباره مرجعا رئيسيا فى
كل الأمور سمة مميزة للمجتمع ·

وقد أدى ذلك من جهة الى عدم تطبيق الديمقراطية تطبيقا سليما ..
كما أدى من جهة أخرى الى ضمور الأجهزة التنفيذية وضياع المبادرة منها ·

وكانت الأجهزة الادارية معتزة أيضا عن الوقاية الشعبية الصحيحة
... وكثيرا ما نشأت الخلافات والتناقضات بين تنظيمات الاتحاد الاشتراكي
ومستولية الادارية ·

وقد ساعد على استمرار الاعتماد على قبضة السلطة العنيفة ، عجز
الأجهزة المختلفة عن تحقيق الأهداف الطموحة للقيادة السياسية .. فكانت
الخدمات تتعثر وتفرض نفسها على العمل السياسى الذى يستهدف (حل
مشاكل الجماهير) ·

وكان الاعتماد على أجهزة المباحث الجنائية العسكرية فى مشاكل
المواصلات والتموين واعتقال المخربين فوق انه ظاهرة عجز .. كان دليلا
على تخلف العمل السياسى وضعف القدرة التنظيمية للاتحاد الاشتراكي ·

ولكن هذا لا يلقى كثيرا من الايجابيات فى حركة الاتحاد الاشتراكي
السياسية ، فهو قد لعب قدرا من النشاط لا شك فى مختلف المؤسسات
والصانع والقرى ، واستنبت عناصر جديده تهتم بالعمل السياسى وتعتنق
التطبيق الاشتراكي ·

وعندما وجد جمال عبد الناصر انه يجابه كل صعوبات ومشاكل التطور ، وهو عاجز عن حلها سياسيا أو اداريا .. ومضطر الى الالتجاء للشرطة العسكرية .. حاول ان يدعم بنيان التنظيم السياسى بتطبيق ما ورد فى الميثاق من تكون طليعة الاشتراكيين لتؤدى دور الجهاز الواعى المنشط لهذا البيان التنظيمى الكبير .

ولكن طليعة الاشتراكيين استغرقتها أيضا مشاكل المجتمع وانعكست عليها سلبيات القيادة والاتحاد الاشتراكى .

ولم يتحقق أمل جمال عبد الناصر الذى أعلنه فى خطابه يوم ١٦ مايو ١٩٦٥ (ليس هناك فى الوقت الحاضر طريق آخر لتنظيم تحالف قوى الشعب العامل الا انشاء تنظيم سياسى قوى وكادر داخل الاتحاد الاشتراكى قادر على تجميع القوى المؤمنة بالاشتراكية) .

ولكن طليعة الاشتراكيين لم تملأ الفراغ السياسى الذى كان يورق جمال عبد الناصر .

وهنا يجدر بنا الاشارة الى قوله الذى لم ينفذ من رغبته فى التفرغ للعمل فى الاتحاد الاشتراكى .. ويجدر بنا أيضا القول بأنه لم يعط لتكوين التنظيم السياسى كل ما يستحقه من جهد وتركيز .. ولم يسمح للديموقراطية الداخلية ان تتفاعل فيه لاكتشاف الكادر الثورى القادر على القيادة .

كان ضعف التنظيم المتوخى فيه ان يكون تنظيمًا حزبيًا وغياب الديموقراطية فيه تصورا فى النظرة الى أهمية المشاركة الحقيقية للجماهير فى العمل السياسى .

ولم يكن كافيا العمل فقط من أجل الجماهير .. وإنما كان ضروريا أن يكون العمل مع الجماهير وبها .

وهكذا كان مجتمع جمال عبد الناصر يحاول الدخول الى تطبيق اشتراكى بوسائل يصعب عليها ان تحقق ذلك بطريقة عملية .

ومع ذلك كانت شخصيته القيادية المتطورة وأفكاره التى لا تتوقف أو تجهد أمام الأزمات وإنما تتحول دائما الى اليسار والتقدم .. كانت ضمانة لامكانية التغلب على المشاكل والعقبات التى تعترض الطريق .. وضمائه أيضا لمواصلة من العناصر الرجعية حتى تضعف قدرتها على الحركة وينتهى دورها .. وعنصر جذب للعناصر الماركسية واليسارية للاحتشاد حوله وتأيينه والدفاع عنه رغم ملاحظاتهم الكثيرة على أسلوبه فى الحكم ، ورغم ما لحق بهم من مأسى متعددة .

ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا . . فحياة الشعوب ومستقبلها لا يمكن
مجموعة متميزة عن الطبقة التي تمثلها رغم ارتباطها بها استراتيجيا .

ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا . . فحياة الشعوب ومستقبلها لا يمكن
أن تتجمع وتتبلور في النهاية عند فرد واحد منها تألفت شخصيته وارتقت
زعامته واحشد حوله الناس بثقة وحب .

وهكذا كان جمال عبد الناصر . . . وكان أيضا مجتمع جمال
عبد الناصر .

شكر و عرفان

ما كان لهذا الكتاب أن يظهر لولا هؤلاء السادة الذين تفضلوا
فمنحوني بعض وقتهم للبحث والمناقشة .

ومعذرة اذا كانت الاسماء قد ظهرت بلا ترتيب تقتضيه التقاليد
المرعية فاني قد حرصت على تنوينها تبعا للوقت الذي سجلت فيه .

وكل الشكر والعرفان بالجميل لهم فردا فردا .

١١ - العسكريون

| الاسم | آخر وتبة عسكرية | آخر منصب |
|----------------------|------------------|-----------------------------------|
| محمد نجيب | لواء أركان حرب | رئيس جمهورية مصر |
| عبد اللطيف بغدادى | قائد جناح | نائب رئيس جمهورية |
| زكريا محيى الدين | بكباشى أركان حرب | نائب رئيس جمهورية |
| كمال الدين حسين | بكباشى أركان حرب | نائب رئيس جمهورية |
| حسن ابراهيم | قائد مرب | نائب رئيس جمهورية |
| خالد محيى الدين | صاغ | عضو مجلس الثورة |
| يوسف صديق | قائم مقام | ورئيس ادارة (اخبار اليوم) |
| عبد المنعم أمين | صاغ أركان حرب | عضو مجلس قيادة الثورة |
| كمال رفعت | صاغ | عضو مجلس قيادة الثورة |
| ابراهيم الطحاوى | صاغ | عضو مجلس رئاسة ثم سفير |
| أحمد لطفى واكد | صاغ | رئيس جمعية الشبان المسلمين |
| أحمد أنور | صاغ | رئيس تحرير جريدة (الشعب) |
| حسين فهمى عبد المجيد | بكباشى | سفير بالخارجية |
| حسنى عبد المجيد | صاغ | سفير بالخارجية |
| حسن عرفة | صاغ أركان حرب | لواء بالجيش |
| توفيق عبده اسماعيل | صاغ | مدير المباحث الجنائية العسكرية |
| أحمد المصرى | يوزباشى | مدير عام برئاسة الجمهورية |
| أمال المرصفى | يوزباشى | مؤسسة السينما |
| | يوزباشى | مدير المسرح القومى |

| الاسم | آخر رتبة عسكرية | |
|--------------------|----------------------|-------------------------------|
| توفيق عبد الفتاح | بكباشى أركان حرب | وزير شئون اجتماعية ثم سفير |
| أمين هويدى | صاغ | وزير حربية ووزير دولة |
| ثروت عكاشة | صاغ أركان حرب | مساعد رئيس جمهورية |
| محمد أبو الفضل | صاغ | عضو مجلس أمة |
| الجزاوى | | |
| شوقى فهمى حسين | قائد سرب | وزارة الاسكان |
| محمد رياض | يوزباشى | مندوب حكومة قطر فى مصر |
| سعيد حليم | يوزباشى | وزير مفوض بالخارجية |
| عبد المحسن مرتجى | فريق بالقوات المسلحة | قائد القوات البرية |
| محمد التابعى | بكباشى | سفير بالسودان |
| عبد المنعم النجار | بكباشى | سفير بالعراق |
| فؤاد المهداوى | يوزباشى | محافظ مرسى مطروح |
| محمود الجمزاوى | لواء بالشرطة | مدير ادارة الجوازات |
| حامد محمود | يوزباشى | محافظ الجيزة |
| عبد الرؤوف نافع | قائم مقام | عضو مجلس ادارة منتدب |
| محسن عبد الخالق | صاغ | لدار الهلال |
| محمد البلتاجى | صاغ | سفير باليابان |
| زكريا العادلى امام | عميد | محافظ بالسويس |
| عبد الحميد صبور | بكباشى | سفير بالهند |
| فؤاد هلال | صاغ | سفير بليبيا |
| حسن حافظ فهمى | بكباشى | سفير بقطر |
| صدقى سليمان | قائم مقام مهندس | عضو مجلس أمة |
| طلعت حسين | يوزباشى | رئيس وزراء ثم رئيس |
| حسن الدمنهورى | صاغ | الجهاز المركزى للمحاسبات |
| ابراهيم بغدادى | يوزباشى | رئيس مجلس مدينة الجيزة |
| فريد طولان | صاغ أركان حرب | أعمال حرة الجامعة العربية |
| فؤاد حبشى | صول طيار | (ادارة التداول) |
| أمين شاكى | بكباشى | محافظ القاهرة |
| | | نائب مدير المخابرات العامة |
| | | أعمال حرة |
| | | وزير سياحة |

| الاسم | آخر رتبة عسكرية | آخر منصب |
|----------------------|-----------------|--|
| عبد الفتاح أبو الفضل | صاغ | عضوا للأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي |
| وفاء حجازي | صاغ | سفير في بنجلاديش |
| عبد المجيد نعمان | قائد سرب | المحرر الرياضي لجريدة الأخبار |
| فتح الله رفعت | يوزباشي | رئيس مؤسسة الاقراض الزراعي |
| محمد أبو نزار | يوزباشي | رئيس شركة الأخشاب |
| مجدى حسنين | صاغ | سفير في تشكوسلوفاكيا |
| عبد المجيد شديد | يوزباشي | أمين تنظيم الاتحاد الاشتراكي |
| منير موافي | ملازم أول | مؤسسة روز اليوسف |
| صلاح الحديدي | فريق أول | رئيس المخابرات الحربية |
| محمد علي بشير | صاغ | رئيس مجلس ادارة الشركة الشرقية للبترول |
| ممدوح جبه | صاغ | سفير سوريا |
| عبد الحميد الصغير | لواء جوى | قائد القوات الجوية بسينه |
| حسن خليل | صاغ | قائد المباحث الجنائية العسكرية |
| مصطفى بهجت بدوى | صاغ | رئيس مجلس ادارة دار التحرير |

٢ - السياسيون :

| الاسم | آخر منصب |
|---------------------|----------------------------------|
| أحمد فؤاد | رئيس مجلس إدارة بنك مصر |
| عز العرب عبد الناصر | رئيس مكتب الجمهورية بالاسكندرية |
| محمد رياض | وكيل وزارة الداخلية |
| فتحى رضوان | وزير الثقافة |
| محمد شبطا | عامل |
| فؤاد سراج الدين | وزير داخلية سابق |
| فتحى خليل | صحفى بروز اليوسف |
| محمود أمين العالم | رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم |
| موسى صبرى | رئيس تحرير الأخبار |
| سعد كامل | محرر بالأخبار |
| إبراهيم فرج | وزير دولة |
| زكى مراد | محامى |
| عزيز سادقى | مساعد رئيس جمهورية |
| حسين فهمى | رئيس تحرير الأخبار |
| محمد الفتيت | وكيل بنك الائتمان العقارى |
| مصطفى فرعى | محامى |
| محمود الشريف | وكيل وزارة الاعلام بقطر |
| كمال ناجى | وكيل وزارة التعليم بقطر |
| مراد غالب | وزير خارجية ثم سفير ليونجوسلافيا |
| إبراهيم سعد الدين | عضو أمانة الاتحاد الاشتراكى |
| أحمد بهاء الدين | رئيس تحرير الأهرام |
| عبد المنعم الصاوى | نقيب الصحفيين المصريين |
| أحمد سعيد | مدير صوت العرب |
| دكتور فؤاد موسى | وزير التموين السابق |

المراجع العربية

| المؤلف | الكتاب |
|----------------------|--|
| جمال عبد الناصر | فلسفة الثورة |
| أنور السادات | خطب جمال عبد الناصر |
| حسن عزت | اسرار الثورة المصرية |
| راشد البراوى | اسرار معركة الحرية |
| لورد كرومر | حقيقة الانقلاب الأخير في مصر |
| كمال رفعت | الثورة العربية |
| عبد الله امام | حرب التحرير الوطنية |
| محمد حسنين هيكل | الناصرية |
| محمد حسنين هيكل | ما الذي جرى في سوريا |
| محمد حسنين هيكل | عبد الناصر والعالم |
| الدكتور محمد المعتصم | مذكرات ايسلن |
| س. جوكوف وآخرون | صلاح سالم |
| لوتسكي | العالم الثالث (قضايا وآفاق) |
| محمد التابعى | تاريخ الاقطار العربية الحديث |
| الدكتور محمد | من اسرار السياسة والسياسة |
| مصطفى صفوت | انجلترا وقناة السويس |
| محمد خالد | عبد الناصر والحركة النقابية |
| محمد عودة | ميلاد ثورة |
| فاخرة شيف | السياسة الاستعمارية بعد الحرب |
| عبد الرحمن الرافعى | العالمية الثانية |
| لينين | ثورة ٢٣ يوليو |
| ميلز كوبلند وه. هانت | محاضر محادثات الوحدة |
| أحمد حمروش | المشاكل المعاصرة للتحرير الوطنى |
| موسى صبرى | التورط السوفيتى فى الشرق الأوسط |
| دكتور ثروت بدوى | اسرار معركة بور سعيد |
| على صبرى | قصة ملك واربع وزارات |
| مترجم عن الانجليزية | ثورة ٢٣ يوليو |
| فاتيكوتس | سنوات التحول الاشتراكى |
| | مصر منذ الثورة |
| | بيانات الجهاز المركزى للتصفيه والاحصاء |

المراجع الأجنبية

| | |
|---|--------------------|
| Army Officers in Arab Politics and Society | Eleiger Be'eri |
| Armée Et Politique Au Moyen Orient | Bernard Vernces |
| Egypt Since the Revolution | P.J. Vatikiotis |
| The Modern History Of Egypt | P.J. Vatikiotis |
| Game of Nations | Miles Copeland |
| Socialism and The Middle East | Andrew Grant |
| Nasser | Jean Lacouture |
| Middle East Politics | J.C. Hurcultz |
| The Role of The Military In Underdeveloped Countries | John Johnson |
| The Military in African Politics | W. F. Cutteridge |
| The Role of The Military In the Emerging Countries | H. Deadler |
| Nasser | Anthony Nutting |
| Egypt Under Nasir | R. Hrair Dekmejian |

قصة ثورة ٢٣ يوليو

الجزء الثانى

مجتمع عبد الناصر

الباب الأول

سنوات الصعود

الفصل الأول تحرير مصر ٠٠٠ والسودان

خرج جنود الاحتلال البريطانى من السودان
قبل مصر ، وعندما خرجوا من مصر بعدها
بشهور قال جمال عبد الناصر (والآن يبقى
علينا اعادة بناء بلدنا) •

الفصل الثانى مع الحياء ضد الاحلاف

(ان انتصار مصر فى معركة الاحلاف
انتصار للهند ايضا) •

جواهر لال نهرو
اثناء زيارة القاهرة فبراير ١٩٥٥

الفصل الثالث السوفيت فى المنطقة

(صفقة الاسلحة المصرية السوفيتية اخطر
اجراء منذ قيام حرب فيتنام) •

جون فوستر دالاس
وزير خارجية الولايات المتحدة
(ان هذه الاتفاقية التجارية التى وقعناها

بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحا للنفوذ
الروس ولا النفوذ الأجنبي ولكنها تعتبر
فضاء على النفوذ الطويل الذى تحكم فينا
وسيطر علينا) .

جمال عبد الناصر

الفصل الرابع القنساء والعنوان

(ان رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح
له بان يطبق يده على رقبتنا) .

ايسدن

رئيس وزارة بريطانيا

(ان عبد الناصر يجب ان يلفظ القنساء
ولا يبتلعها) .

جون فوستر دالاس

وزير خارجية الولايات المتحدة

(انا فى القاهرة ساقاتل معكم ضد أى غزو
الى آخر نقطة دم) .

جمال عبد الناصر

من فوق منبر الأزهر

الباب الثانى

العسكريون فى مركز السلطة

الفصل الخامس زحف العسكريين ... نحو السلطة

(لا يمكن للقوات المسلحة ان تكون ولم تكن
يوما ولن تكون ابدا محايدة) .
لينسين

الفصل السادس الحيرة والاختيار

(لم يكن مطلوبا منى يوم ٢٣ يوليو ان اطلع
ومنى كتاب مطبوع وأقول ان هذا الكتاب
هو نظرية ... مستحيل) !

جمال عبد الناصر

٢٥ نوفمبر ١٩٦١

الباب الثالث

مجتمع جمال عبد الناصر

الفصل السابع محاولة لنظرية جديدة

(لا بد لنا أن نقاتل الاستعمار في قصور الرجعية وأن نقاتل الرجعية في احضان الاستعمار) .

جمال عبد الناصر
أكتوبر ١٩٦١

الفصل الثامن في كواليس القيادة

كانت كواليس القيادة مليئة بالتناقضات والخلافات الشخصية ... ولكنها كانت محجوبة عن الجماهير بستار كثيف .

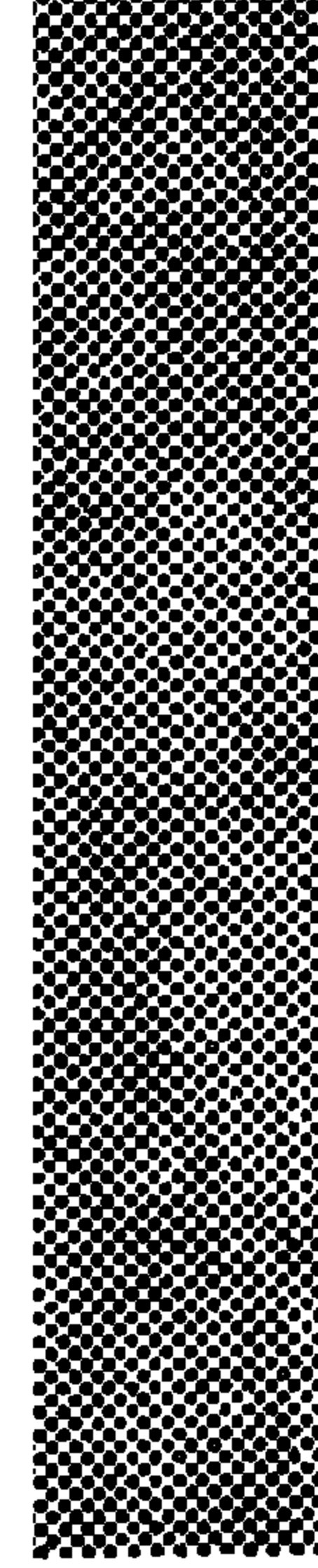
الفصل التاسع طليعة الاشتراكيين

(ان الحاجة ماسة الى خلق جهاز سياسى جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكي العربى يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات) .
الميثاق

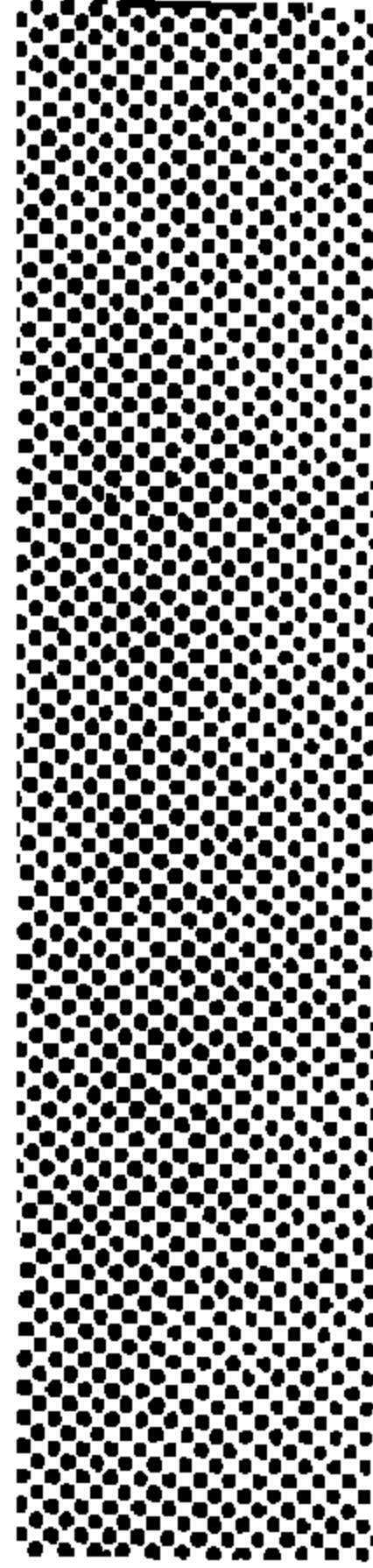
الفصل العاشر مجتمع جمال عبد الناصر

(لن نستطيع ان أقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان) .

جمال عبد الناصر



عَبْدُ النَّاصِرِ وَالْعَرَبِ



_____ اهـءاء

● الى الءيل الءءىء من الامة العربفة

مقدمة

قصة ثورة ٢٣ يوليو لا تكتمل داخل حدود مصر ، وتأثيرها التاريخي لا يقتصر فقط على شعب مصر .

ومنذ يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحركة النضال العربى للتححرر من جنود الاستعمار القديم ، وقيود الاستعمار الجديد ، دائبة لا تهدأ . . . وفى كل مكان تنفجر فيه ثورة عربية نجد أثرا لثورة ٢٣ يوليو .

كان جمال عبد الناصر سريع المبادرة فى تأييد حركات التحرر العربى ، مؤمنا بالقومية العربية ، ساعيا من أجل تحقيق الوحدة العربية .

واذا كانت علاقة القاهرة مع بعض العواصم العربية قد تأرجحت بين الاقبال الشديد والنفور الشديد فان ذلك كان نتيجة للمعارك التى خاضها جمال عبد الناصر ضد الأحلاف العسكرية ، والمشاريع الاستعمارية من ناحية ، وضد التشكيلات الحزبية على اختلاف اتجاهاتها السياسية من ناحية أخرى .

وقصة (جمال عبد الناصر . . . والعرب) طويلة ومتعددة الجوانب . . . وتختلف فيها وجهات النظر . . . ولذا كنت حريصا على ألا أرسدها وأسجلها بوجهة نظر (مصرية) . . . وانما حرصت على أن تكون رؤيتى لها بعين (عربية) .

وكثير من الذين شاركوا وأسهموا فى كتابة تاريخ هذه القصة لم يعودوا بعد فى موقع المسئولية . . . ولكنهم ما زالوا يحتفظون بحرارة الحديث عن هذه الفترة الخصبة .

ولذا سعيت الى أكبر عدد من الزعماء والسياسيين العرب سمحت لى الظروف بمقابلتهم فى بغداد ودمشق وبيروت والقاهرة . . . الى جانب المصريين من المدنيين والعسكريين .

واعترف أن لقاء الجميع كان صعبا ، بل مستحيلا . . . فقد اختطف المولوت بعضهم حاملا أسرارهم ورأيه معه ، والبعض منهم ما زال في موقع السلطة التي لا تسمح بحرية الحديث كاملة ، والبعض لم تمنح الفرصة للقاء معه .

ولكن الحقيقة رغم ذلك تبدو ناصعة . . . وأحداث القصة كاملة .

وقد آثرت أن أنتزع من هذا الجزء فصلا هاما ومثيرا لا تكتمل قصة عبد الناصر والعرب إلا به هو (فلسطين ٠٠ وعبد الناصر) . . . فقد وجدت أن مكانه الطبيعي في الجزء القادم الذي يستعرض مشكلة إسرائيل والشرق الأوسط ، والذي يحمل قمة المأساة ، ويصدر باسم (خريف عبد الناصر) .

أن حركات التحرر على امتداد الوطن العربي ، قدمت للتاريخ نماذج رائعة للبطولة والتضحية ، وأسهمت بدور بارز في مقاومة الإمبريالية ، ونسجت مع القاهرة علاقة نضالية وثيقة .

وكان جمال عبد الناصر موجودا دائما ٠٠ اسما وشخصية وتأثيرا .

أحمد حمروش

الباب الأول

● العسكريون المصريون .. والقومية العربية

* (ليس من حق المصريين أن
يديرُوا ظهورهم للعروبة متمسكين
بصلتهم بالمدنية الفرعونية التي
انقرضت إلى غير رجعة ، فالعروبة
ليست جزءاً من ماضٍ مَحْنَطٌ ..
إنها جزء من حاضر حي) .
ساطع الحصرى

* (إذا كانت مشكلة الاحتلال قد
استنفدت إلى الآن الجزء الأكبر من
جهد المصريين فإنها لم تصرفهم أبداً
عن المشاركة في كل جهد عربي يبذل
من أجل تحرير العرب) .
جمال عبد الناصر
٢٣ يوليو ١٩٥٤

لم تكن القومية العربية بعيدة عن أفكار العسكريين في مصر ، رغم انها لم تذكر في الأهداف الستة لحركة الجيش .

ولم تكن مهمة عندهم رغم أنه لم ترد عنها كلمة واحدة في برنامج هيئة التحرير أول تنظيم سياسى جماهيرى للثورة .

القومية العربية كانت واقعا فى حركتهم ومواقفهم .

قضية فلسطين هى التى جعلت المصريين أكثر اقترابا من العرب . . وقبل ذلك كانت القضية الرئيسية التى تشعلهم هى التحرر من الاستعمار البريطانى .

الحركة القومية العربية التى نشأت قبل الحرب العالمية الأولى لمقاومة الحكم العثمانى وحدت بين عرب المشرق . . ويذكر المؤلف البريطانى C. E. Daun فى كتابه (نشوء العروبة فى سوريا) انه حصر أصول أنشط ١٢٦ شخصية فى اطار الحركة القومية العربية فكانوا ١٨ عراقيا ، ٥١ سوريا ، ٢٠ فلسطينيا ، ٢١ لبنانيا ، ومصريا واحدا فقط .

عدد كبير من هذه الشخصيات كان من العسكريين .

ولكن انشغال مصر بقضيتها الرئيسية لم يجعلها تبتعد تماما عن حركة القومية العربية .

مصر كانت وما زالت مصدر اشعاع رئيسى فى المنطقة العربية . . الجماهير فى كثير من المناطق العربية كانت تتابع حركة الثورة فى مصر وتتحيز لسعد زغلول . . بل ان الناس هناك كانوا يتابعون الرياضة أيضا ، وينحازون للأهلى أو المختلط (الزمالك) .

ويقول الدكتور طارق البشرى فى كتابه (الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢) (أن موقع حزب الوفد على رأس الحركة الوطنية وجهاده ضد الاستعمار يزيده قريبا من حركات التحرر فى البلاد المختلفة وفى العالم العربى خاصة) .

حضر الوفد المؤتمر الاسلامى الأول الذى عقد بالقُدس عام ١٩٣١ ، كما اشترك فى المؤتمر العربى الذى اجتمع بعد المؤتمر الاسلامى . . وتبنى الوفد فى المؤتمر الأول وجهة النظر الاسلامية كما تبنى فى المؤتمر الثانى وجهة النظر القومية .

عبد الرحمن عزام ألقى رسالة مصطفى النحاس الى المؤتمر باسم مصر والوفد ، وكان من أهم القرارات الدعوة الى توحيد البلاد العربية واستنكار تجزئة فلسطين .

كان ذلك موقفا مغايرا تماما لاتجاه أحزاب الأقلية الخاضعة للاستعمار والسراى .

اسماعيل صدقى وزير الداخلية عام ١٩٢٥ أصدر أمرا باعتقال الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد بلفور صاحب الوعد المعروف أثناء مروره بالقاهرة لافتتاح الجامعة العبرية بفلسطين .

ووقفت حكومة محمد محمود عام ١٩٢٩ ضد ثورة شعب فلسطين ، وكتبت جريدتهم (السياسة) تهديد الوطنيين الفلسطينيين فى مصر بالطرد لتهيجهم الرأى العام خوفا من غضب بريطانيا ومن أى عامل يثير الشعب المصرى الكاره لحكمهم ، كما ورد فى كتاب الحركة السياسية للدكتور طارق البشرى .

أما الأحزاب الوطنية الناشئة مثل (مصر الفتاة) فقد وضعت فى برنامجها هدف التحالف مع الدول العربية ، و (الإخوان المسلمون) كان من أهدافهم إقامة روابط عربية اسلامية ، وجمعية (الشبان المسلمين) نشطت لجمع التبرعات لضحايا ثورات شعب فلسطين .

لم يكن ممكنا لمصر أن تقف فى عزلة عن العرب .

واذا كانت جريدة السياسة قد كتبت مقالا لمحمد حسنين هيكل قطب الأحرار الدستوريين فى يونيو ١٩٣٠ وصفته جريدة (اسرائيل) الصهيونية التى كانت تصدر فى مصر بأنه (خير ما كتب الى الآن فى اللغة العربية) .

واذا كان الدكتور طه حسين قد كتب عدة مقالات فى (كوكب الشرق) عام ١٩٣٣ ، ومجلة (المكشوف) اللبنانية ١٩٣٨ قال فيها (ان الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وأنها ستبقى كذلك) ونشر نفس المعانى فى مجلة (زهرة المشرق) اللبنانية عام ١٩٣٩ .

فان ابراهيم عبد القادر المازنى الكاتب المعروف كتب فى أغسطس ١٩٣٥ يقول (فشلت الثورة المصرية لأننا أخطنا قوميتنا بمثل سور الصين ، ذلك لأنى أومن بما أسميه القومية العربية ، وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها غير عابئة بشقباتها) .

ولزكى مبارك كتابات كثيرة أيضا دعا فيها الى القومية العربية والتوحيد العربى .

ومكرم عبيد كتب فى مجلة (الهلال) شهر ابريل عام ١٩٣٩ مقالا تحت عنوان (المصريون عرب) قال لى ابراهيم فرج الوزير الوفدى أنه كتبه بتكليف من النحاس باشا . . وتوافقت فكرة سكرتير الوفد مع معتقدات ساطع الحصرى الذى كتب قائلا (ليس من حق المصريين أن يديروا ظهورهم للعروبة متمسكين بصلتهم بالمدينة الفرعونية التى انقضت الى غير رجعة ، فالعروبة ليست جزءا من ماضى محنط ، انها جزء من حاضر حى) .

وعندما اشتعلت ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ فرضت نفسها على مصر ونما الاتجاه العربى فيها ، ودافع وزير خارجية مصر الوفدى أمام عصبة الأمم عن حقوق شعب فلسطين ، ومنعت حكومة الوفد سفر العمال المصريين الذين طلبتهم السلطات البريطانية ليحلوا محل العمال الفلسطينيين هناك ، كما تكونت جامعة الرابطة العربية عام ١٩٣٦ برئاسة محمود بسيونى أحد زعماء الوفد ورئيس مجلس الشيوخ ، وذلك كما سجل الدكتور طارق البشرى فى كتابه (الحركة السياسية فى مصر) .

وفى أكتوبر ١٩٣٨ انعقد فى القاهرة أيضا المؤتمر النسائى العربى ، الذى دعت اليه السيدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى المصرى .

ولم تكن الرابطة العربية فى محيط السياسة فقط ، ولكنها كانت فى محيط العسكريين أيضا ، وخاصة الذين خدموا فى الجيش العثمانى وحاربوا فى ليبيا ضد الغزو الايطالى مثل عزيز المصرى وصالح حرب وعبد الرحمن عزام .

عندما شبت ثورة رشيد على الكيلانى فى العراق عام ١٩٤١ وهرب الوصى على العرش ونورى السعيد الى شرق الأردن حاول عزيز المصرى الهرب والاتصال برشيد على ولكن محاولته فشلت . . كما فشلت بعد ذلك ثورة رشيد على وهرب هو ومفتى القدس الحاج أمين الحسينى الى ألمانيا النازية .

وقد استلقت محاولة عزيز المصرى أنظار عدد من الضباط المصريين المهتمين بالسياسة والمعجبين ببريق النازية فى بداية الحرب العالمية الثانية ، وخاصة أن الاخوان المسلمين الذين ضم تنظيمهم عددا كبيرا من الضباط كانوا يهتمون بالعروبة كرابطة ووحدة روحية يسرى الاسلام فيها ، فبدأت توثق علاقاتها بالبلاد العربية ، وتقيم فيها فروعا ، وقد لاقت انتشارا فى سوريا والسودان خاصة .

وكانت بريطانيا خلال فترة الحرب قد اكتشفت الروح المعادية لها من الانفجارات التى قامت ضدها ، فأيدت فكرة انشاء الجامعة العربية

كسرا لموجة العداء العربى ، ومحاولة لتوجيه الدول العربية عن طريق
حكامها الرجعيين .

أعلن أنطونى ايدن وزير خارجية بريطانيا فى مايو ١٩٤١ (أن
كثيرين من المفكرين العرب يرغبون فى تحقيق درجة من الوحدة بين
الشعوب العربية (أكثر مما هو قائم الآن) وفى محاولتهم للوصول الى
هذا الغرض تطمح الشعوب العربية فى مساندتها وينغى ألا نقف دون
الاستجابة الى مثل هذا النداء ، ويبدو لى أن تدعيم وتقوية الروابط
الثقافية والاقتصادية بل والسياسية بين البلدان العربية انما هو تصرف
طبيعى وسليم . وحكومة صاحبة الجلالة من جانبها تعطى تأييدها الكامل
لأى مشروع فى هذا المجال يحدث عليه اتفاق) .

ومارست مصر ممثلة فى حكومة الوفد دورا نشطا فى ظهور فكرة
الجامعة العربية ، ولكن البروتوكول الذى وقع فى الاسكندرية يوم
٧ أكتوبر ١٩٤٤ لم يتضمن ادخال فلسطين كدولة عربية وانما تضمن
ملحقا بأن تعمل الدول العربية للحفاظ على عروبة فلسطين فقط .

وبعد أن وقعت حكومة الوفد بروتوكول انشاء الجامعة أقالها الملك
فاروق فى اليوم التالى مباشرة - ٨ أكتوبر - ليتفادى هو والاستعمار
ما استهدفه النحاس من جعل الجامعة العربية منبرا للسياسة والأحزاب
الوطنية العربية ، وأصبحت الجامعة العربية بعد اقالة الحكومة الوفدية
منبرا سلبيا لا يدعم الوحدة العربية ، وانما يجمد التناقضات بين حكامها .

عبرت جريدة الديلى تلجراف عن الهدف البريطانى من تأييد انشاء
الجامعة بقولها (ان ظهور هذه الروح العربية قد يؤدى الى تخفيف حدة
الروح الوطنية المصرية التى بدأت الظواهر تشير الى وصولها لدرجة خطيرة
كما حدث عقب الحرب الماضية) وذلك كما نشرت جريدة المصرى فى
١٣ يناير ١٩٤٦ .

وأكدت المانشستر جارديان هذا المعنى بقولها (اذا أردنا أن نحفظ
بالنفوذ فى هذه الأرجاء فلا يكفى أن نشجع الروح الوطنية العربية التى
قد تصير بسهولة معادية لبريطانيا ، وهى على كل حال ليست مما يعتمد
عليه ، يجب أن نشجع الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية ولو كان ذلك
ضد رغبات أصحاب الأملاك الذين يعدون أصدقاءنا) وقد نشر ذلك فى
جريدة المصرى ٢٣ فبراير ١٩٤٦ .

ظلت الجامعة العربية تدور فى فلك بريطانيا والحكام الرجعيين
قبل الثورة لا تؤدى دورا فى بعث الحركة الشعبية العربية أو تأييدها .
ولكن ... عندما وصلت المشكلة الفلسطينية الى قمة الأزمة بعد
قرارات الأمم المتحدة بالتقسيم واقترب موعد انتهاء الانتداب البريطانى ،

احتشدت الجماهير حول الدعوة للجهاد من أجل فلسطين . . . وبرز في هذا المضمار جماعات الاخوان المسلمين والتنظيمات الدينية الأخرى .

العسكريون المصريون . . والعرب

وتحرك العسكريون أيضا نحو العرب .

كان الملك قد قبل الحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين لاجئا في مصر عند حضوره لها في يوليو ١٩٤٦ بعد اقامته في ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية . . وذلك دون علم اسماعيل صدقي رئيس الوزراء الذي أصدر بيانا يشير فيه الى أهمية الهدوء والنظام في هذه المرحلة الدقيقة ، ويقول فيه (و لا ريب ان سماحته - أي المفتي - مقدر لذلك) .

وبدأت صلات العسكريين المصريين بالقيادات العربية . . . بدأت مع الحاج أمين الحسيني الذي التقى سرا بعدد من الضباط منهم جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وأنور السادات وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم .

وكانت علاقة الحاج أمين الحسيني بالصاغ المتقاعد محمود لبيب المشرف على تنظيم الضباط في جماعة الاخوان المسلمين علاقة قديمة تعود الى فترة وجودهما معا في برلين .

وأتاحت فرصة اتصال العسكريين المصريين بالقيادات العربية خارج مصر عندما قررت قيادة الجيش المصري ارسال أسلحة الى (جيش الانقاذ) في سوريا بقيادة فوزى القاوقجي .

وفوزى القاوقجي ضابط سوري كان أصلا في جيش الشرق متزوج من ألمانية وربطته علاقات وثيقة بضباط ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق . . وقد اشترك في الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ . . . ثم كون جيش الانقاذ عام ١٩٤٨ .

بعض قادة جيش الانقاذ كانوا معارين من الجيش السوري مثل العقلاء أديب الشيشكلي وغسان جديد ومحمد صفا .

والبعض الآخر انضم اليه متطوعا دون اذن سلطات الجيش السوري مثل عبد الحميد السراج وأكرم ديري وجودت أتاسي وجمال صدقي وجادو عز الدين . . وقد حاولت السلطات السورية اعتبارهم فارين من الجيش ، ولكن أمام الضغط الشعبي اضطر وزير الدفاع أحمد الشرباتي الى اعتبارهم منتدبين .

كان سرب النقل الجوي المصري بقيادة عبد اللطيف البغدادي يحمل الأسلحة الى مطار المفرق . . ولم يكن عند سوريا في ذلك الوقت سلاح

للطيران وبالتالي فلم تكن هناك مطارات حربية .. كان هناك مطار المزة ومطار حلب فقط .

وفي احدى الرحلات الى سوريا التقى البغدادي مع القاوقجي ، وقال له أن الحكومة المصرية قد رفضت مبدأ تطوع الضباط ، واقترح عليه أن يهرب الى سوريا مع عدد من زملائه بطائرات مقاتلة ، تشبها بما فعله عزيز المصري .

وحذر القاوقجي الضابط المصري من أخطار هذه العملية وطلب منه أن يكون مستعدا ، ولما سأله البغدادي عن الموعد المناسب لذلك قال له القاوقجي أنه يحتاج اليهم في المعركة الفاصلة .

وبدأت مجموعة ضباط الطيران المصريين يجهزون ١٥ طائرة من نوع Spitfire دون علم القيادة .. كما وافقت وزارة الحربية على انتداب طيار مصري للانضمام لجيش سوريا ، وسافر حسن ابراهيم ومعه فني في التسليح الى سوريا حيث قابلا وزير الدفاع السوري وقاما بإنشاء مطار سرى شرق دمشق بستين كيلو متر .

وكان البغدادي قد طلب من القاوقجي انتداب أحد رجاله الى مصر ليقوم بدور ضابط اتصال .. وفعل حضر خبير مدرب في ألمانيا النازية على أجهزة اللاسلكي اسمه محمود الرفاعي ، وأقام مدة طويلة ينتظر دورا يقوم به .

واستمر جيش الانقاذ السوري يمارس دوره حتى أسقطت منطقة الجليل ، وتحول الجيش الى لواء تابع للجيش السوري .. وعندما قام حسنى الزعيم بانقلابه منع ضباط هذا الجيش ترقية استثنائية .

لم تكن لقاءات العسكريين المصريين مع العسكريين العرب خلال هذه الفترة تتجاوز مرحلة التعاون المشترك في النضال ضد الصهيونية التوسعية والاستعمار .. ولم تكن أهداف اللقاء قد أرسيت على قواعد فكرية أو أسس نظرية .

كان المنطلق المصري الى الفكرة العربية قائما على الوحدة الاسلامية ذات الامتداد التاريخي .. الى جانب النضال المشترك الوليد ضد الاستعمار والصهيونية التوسعية .

وكانت حرب ١٩٤٨ هي بداية الاحتكاك الحقيقي بين المصريين المتطوعين ورجال الجيش وبين عرب فلسطين وغيرهم .

كانت الصلة تزداد وثوقا مع أخطار الحرب وتضحياتها .. وفي هذه المرحلة اكتشف العسكريون المصريون أن ظروفهم التي أدت الى عدم

انتصارهم على القوات الصهيونية ترجع أساسا الى تهتك النظام الملكي القائم فى مصر . .

٢٣ يوليو . . والصلات العربية

وانبثقت فكرة الاهتمام بما يدور فى القاهرة . . وبدأت أفكار الضباط تلتقى حول هدف واحد . . هو التغيير فى مصر .

هذا هو ما جعل أهداف الضباط الأحرار تخلص من الاشارة الى القومية العربية ، وهو أيضا ما جعل برنامجا هيئة التحرير يأتى بلا أية اشارة الى القضايا العربية .

ولكن هذا لم يكن ابتعادا عن عقيدة ، أو انصرافا عن يقين . . بل انه كان نتيجة السرعة التى تمت بها حركة الجيش والاندفاع السريع المفاجئ نحو التحرك ، وتكتل المشكلات أمام الضباط منذ اللحظة الأولى . . مما جعلهم لا يهتمون بميثاق الأمن الجماعى الذى وقعته مصر مع الدول العربية عام ١٩٥٠ فى اطار الجامعة العربية .

ومع هذا فقد بدأ الارتباط العربى يتحقق منذ الأيام الأولى ، عندما وجد الوطنىون العرب فى حركة الجيش واقعا جديدا يستحق الرصد والاهتمام . . وعندما وجدت الأنظمة والحكومات فى الوطن العربى سواء من الملكيين أو الجمهوريين أنه لابد من اقامة صلة مع النظام الجديد .

نشرت جريدة المصرى يوم ٢٥ مايو ١٩٥٣ تقول أن بعض الهيئات العربية فى بغداد ذهبت الى السفارة المصرية تطلب النص فى الدستور على أن تكون مصر دولة عربية .

وكانت لجنة الخمسين لوضع دستور جديد قد شكلت بعد إلغاء دستور ١٩٢٣ .

وعلال الفاسى زعيم حزب الاستقلال المغربى أرسل - كما نشرت جريدة المصرى يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٣ - رسالة الى محمد نجيب يستنجد به لتدبير فرنسا مؤامرة لخلق السلطان محمد الخامس . . وخطب جمال عبد الناصر يوم ٢٦ أغسطس خطبة يقول فيها (ان ما ترويه قصة الاستعمار فى مصر هو ما ترويه فى كل مكان . . والجلوى باع نفسه للشيطان) .

أول رئيس عربى زار مصر بعد الثورة كان أديب الشيشكى رئيس سوريا الذى استقبلته الصحافة بترحيب شديد وصفته جريدة المصرى فى المانشيت الرئيسى باسم (محرر سوريا) .

وعندما عاد الشيشكى الى سوريا جمع عددا من ضباط الجيش فى

نادى الضباط وقال لهم ان جمال عبد الناصر هو الرجل القوى فى مصر وليس محمد نجيب .. وذلك كما قال لى اكرم ديرى .

وصدرت فى مصر يوم ١٢ اكتوبر ١٩٥٣ جريدة القاهرة المسائية بأموال سعودية .

وبدا صلاح سالم جولاته فى البلاد العربية ، كما بدأ بزيارة السودان ، فسافر الى لبنان فى اوائل يوليو ١٩٥٤ ، وبعدها بأسبوع الى اليمن .. ثم قام برحلته الشهيرة التى قابل فيها الملك فيصل وولى العهد الأمير عبد الاله ونورى السعيد فى مصيف سرهنك خلال شهر أغسطس ١٩٥٤ ثم قام برحلة الى السعودية فى نوفمبر من نفس العام .

كل هذه الصلات تمت فى اطار محاولة اقامة علاقات ودية مع الدول العربية .. ولكنها تطورت لتصبح نضالا مصريا ضد محاولة فرض الأحلاف العسكرية على الدول العربية وانتهت الى نزاع سافر مع بغداد .

البوادر الأولى التى أظهرت اتجاه مصر العربى تمثلت فى افتتاح اذاعة صوت العرب يوم ٤ يوليو ١٩٥٣ بكلمات من محمد نجيب وعبد الخالق حسونة أمين الجامعة العربية وأغنية من محمد عبد الوهاب .

بدأت الاذاعة بمدة نصف ساعة فقط ، امتدت مع الوقت لتصبح ساعة فى اليوم .

ووقفت اذاعة صوت العرب مع الثوار العرب فى كل مكان .. مع صالح بن يوسف فى تونس .. مع السلطات محمد الخامس ضد الجلاوى فى المغرب .. مع الوطنيين المعارضين لربط المشرق العربى بالأحلاف العسكرية .

ساعة الصفر لثورة الجزائر فى أول نوفمبر ١٩٥٤ أعلنت من اذاعة صوت العرب ، وكانت ايذانا بتفجير ٢٤ قنبلة فى أماكن مختلفة مع اذاعة بيان جبهة التحرير . وأعدت اذاعة سرية خاصة للجزائر فى نوفمبر ١٩٥٥ حتى أصبح أحمد بن بيللا رئيسا للحكومة ، وهى الاذاعة التى انتقلت اليها اذاعة القاهرة عند عدوان ١٩٥٦ .

وكان أحمد بن بيللا قد حضر الى مصر فى أغسطس ١٩٥٣ بعد الحكم عليه هناك عقب حادث الهجوم على العرب فى وهران ، وهو جاويز هارب من الجيش لا يحمل معه فى جيبه سوى ٢٠٠٠ فرنك .

العلاقات المصرية العربية تزداد وثوقا .. ثم وضوحا بعد انتهاء أزمة العسكريين فى مصر بتنحية محمد نجيب عن السلطة فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٤ .

وأخذ التعاون العربى صورة أكثر ايجابية .

قال جمال عبد الناصر فيما نشره باسم الثورة (وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا) .

ويقول فى العيد الثانى للثورة (مشاكل العرب هى مشاكل المصريين . . . وإذا كانت مشكلة الاحتلال استنفدت الى الآن الجزء الأكبر من جهد المصريين فإنها لم تصرفهم أبدا عن المشاركة فى كل جهد عربى يبذل من أجل تحرير العرب) .

وبدأ التقاء الثورة المصرية مع الثورات العربية . . . كان حلقة الاتصال ضباط المخابرات ، وهى المصدر الذى سبق أن أوضحنا أنه كان معملا لتفريخ المسئولين فى الأجهزة السياسية والادارية .
شارك فى ذلك عدد وافر من الضباط كان أبرزهم كمال الدين رفعت وأحمد لطفى واكد وعزت سليمان وفتحى الديب .

ظل كمال رفعت مسئولا عن الاتصال بالأحزاب العربية فى المشرق العربى خلال الفترة من أواخر ١٩٥٤ حتى ثورة يوليو فى العراق .
بدأ الاتصال ببقايا الفلسطينيين فى سوريا ولبنان والأردن . . .
ويقول كمال رفعت أنه حدث من جانب هؤلاء المجاهدين تجاوب وشك فى نفس الوقت .

تساءلوا عن مبرر حركة المصريين . . . وكانت محاكمات الاخوان المسلمين قد عكست على الثورة المصرية ظلالا قاتمة نتيجة دعايتهم فى بعض البلاد التى انتشروا فيها .

وكان كمال رفعت حريصا على الاتصال بكل القوى الوطنية ومن بينهم الشيوعيون . . . ولكن أكرم الحوراني الذى اتصل به كمال بعد مقتل العقيد عدنان المالكي عام ١٩٥٥ ، أرسل خطابا الى جمال عبد الناصر يشكو فيه من كمال رفعت لأنه اتصل بالشيوعيين ، ويهاجم البعث فى مجالسه .

وأسفرت اتصالات كمال رفعت عن تشكيل أربعة تنظيمات سرية ، واحد منها على الحدود اللبنانية الفلسطينية ، وتنظيمان فى سوريا ، وتنظيم فى الأردن ، وذلك حسب روايته لى .

كانت هذه التنظيمات امتدادا بشكل أو آخر ، لتنظيمات الفدائيين فى القناة الذين اعتمدوا على أسلوب المخابرات السرى .

لم تفتح هذه الاتصالات على التنظيمات الشعبية بطريقة علنية ، لأن مصر كانت تفتقد التنظيم السياسى القادر على التعاون والحركة السياسية . . ولذا ظلت للمخابرات - بأساليبها الخاصة - اليد العليا .

أشرف على هذه التنظيمات ضباط المخابرات ٠٠٠ صلاح مصطفى
الملحق العسكري في الأردن ، وزغلول عبد الرحمن مساعد الملحق العسكري
في دمشق وحسن خليل مساعد الملحق العسكري في بيروت .

وكان زكريا محيي الدين قد تولى مسئولية الاتصالات العربية بعد
استقالة صلاح سالم وتكليف ضباط المخابرات بأعمال سياسية .

وخلال معركة حلف بغداد حدث اتصال بين كمال رفعت وعزيز
شريف عضو الحزب الشيوعي العراقي بهدف إسقاط حكم نوري السعيد
وقد التقى جمال عبد الناصر بعزيز شريف قبل اندلاع ثورة العراق .

وأنشئت في مصر اذاعة كردية لمهاجمة نوري السعيد وحلف بغداد
وكان أكراد العراق يمدونها بالأخبار والتعليقات والاسطوانات أيضا .

لم تعتمد الثورة على المدنيين ٠٠٠ سوى فتحى رضوان الذى أوفده
جمال عبد الناصر الى الملك حسين في أول رحلة تقارب مع الأردن ، والتي
حدث خلالها هجوم الاسرائيليين على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ . وكذلك
محمد فؤاد جلال الذى عين وزيرا للارشاد لفترة محدودة ثم أصبح عنصرا
نشطاً في مجال العمل السياسى العربى .

رغم كل شيء كان لهذه الاتصالات تأثير كبير في انفتاح الثورة
المصرية على الساحة العربية .

ويقول كمال رفعت أن العناصر الفلسطينية قد لعبت دورا كبيرا في
هذه الاتصالات لتغلغلها في مختلف القوى السياسية العربية .

ولم تقتصر صلات القاهرة على هذا الأسلوب السرى ولكنها خلال
الحركة ضد حلف بغداد ، استطاعت أن تعقد اتصالات مع سوريا
والسعودية انتهت الى اتفاق ثلاثى ٠٠٠ وانتهت أيضا الى تشكيل قيادة
عسكرية موحدة أصبح يوم اعلانها ٢٩ أكتوبر ١٩٥٥ يوم للجيش المصرى
وذلك عقب زيارة صلاح سالم .

كانت الدراسات العسكرية لجمال عبد الناصر ذات تأثير في بلورة
افكاره العربية ٠٠ قال للصحفى البريطانى ديزموند ستىوارت في حديث
معه يوم أول ابريل ١٩٥٥ (تبلورت في ذهنى فكرة القومية العربية
كمذهب سياسى عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات
الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط .

واعتماد جمال عبد الناصر على الضباط في عقد صلاته العربية دليل
على استمراره في اختيار الطريق الأسهل الذى يعتمد فيه على العناصر

ثورة يوليو ج ١ - ٦٨٩

الموالية النى هى موضع الثقة والمرتبطة بالثورة ، دون محاولة جادة لخلق تنظيم سياسى تتوافر فيه كوادر قادرة على أداء دور سياسى حقيقى وفعال .
كان انجذاب الثورة العربية للقاهرة أمرا طبيعيا فى فترة المد الوطنى ، وكانت خشية الحكام الرجعيين من الجماهير ظاهرة واقعية .

وعندما عزل الملك حسين الجنرال جلوب من قيادة الجيش الأردنى كان ذلك تعبيرا عن مساييرته للاتجاه الوطنى العام السائد فى المنطقة . . .
ورغم ان القاهرة لم تلعب فى ذلك دورا مباشرا الا ان نشاطها قد لعب دورا غير مباشر فى محاصرة العناصر المتعاونة مع الاستعمار ، وكشف دورها .

وقد قال جمال عبد الناصر لسلوين لويد أثناء زيارته للقاهرة فى مارس ١٩٥٦ ، والتي تصادف خلالها اقالة الجنرال جلوب واعتقاد سلوين لويد بأن عبد الناصر وراء هذه الخطوة : (اذا كنت تظن ان لدى على مكتبى أزرارا أضغطها فتتشبث ثورة فى العراق أو يحدث انقلاب فى بلد كذا أو تنفجر قنبلة هنا أو تقوم مظاهرة هناك فانك تغدق على قوى خارقة لا أملكها . . فلا تبالغ فى أهميتها) .

صحيح أن معظم الثورات انتهت فى الوطن العربى لم تنسج بأيدي ضباط المخابرات المصريين . . ولكن النموذج الذى كانت تقدمه الثورة المصرية . . . والآراء التى كان يلقيها جمال عبد الناصر . . . كانت هى المحرك الرئيسى لمعظم الثورات . . . والتي ما كانت تبدأ حتى تجد من القاهرة كل ما يمكن من التأييد والمعاونة .

خلال هذه المرحلة كانت هيئة التحرير ، وبرنامجها - كما سبق أن أشرنا - كان خاليا تماما من أية كلمة عن العروبة .

ولكن الأفكار العربية تنتشر فى سرعة شديدة ، والاتصالات العربية تصل الى ذروة لم تعرفها قبل الثورة . . . وبذور الاتجاهات الوحدوية تظهر فى أحاديث المسئولين . . . جمال عبد الناصر يقول فى العيد الثانى لثورة - يوليو ١٩٥٤ (ان هدف حكومة الثورة أن يكون العرب أمة متحدة يتعاون أبنائها فى الخير المشترك) .

ويتضمن الدستور المصرى لعام ١٩٥٦ ، مقدمة تقول (نحن الشعب المصرى الذى يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى الكبير ، يقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها) . .

ثم تنص مادته الأولى على أن (مصر دولة عربية ذات سيادة ، وهى جمهورية ديموقراطية والشعب المصرى جزء من الأمة العربية) .

وعندما أعلن على الشعب المصرى تأميم قناة السويس أشار اليها بأنها (قناة العرب) .

وحصل بذلك على تأييد لم يصل اليه مصرى من قبل ٠٠٠ كان العرب يحتاجون الى بطل وزعيم ٠٠٠ وجمال عبد الناصر أصبح وهلا لأداء هذا الدور بمواقفه الوطنية التى لا تتعلق داخل الحدود وانما تمتد وتوسع لتشمل الوطن العربى من المحيط الى الخليج على حد تعبيره .

الصلات مع المغرب العربى توطدت من مساعدة الثوار فى الجزائر وتونس ومن مساعدة سلطان المغرب ٠٠٠ ولم يعد اللقاء قاصرا على زيارات متباعدة لبعض الفرق المسرحية المصرية ، التى كن الناس يهرعون لمشاهدتها باعتبارها تحمل اليهم رياحا عربية تبدد الضغط الذى كانوا يتعرضون له ، قوميا ولغة ، من الاستعمار الفرنسى .

والصلات مع المشرق العربى توطدت من النضال المشترك ضد حلف بغداد ٠٠٠ ومن الصلات التى كانت تنمو بسرعة مع الأحزاب والتنظيمات السياسية وخاصة حزب البعث العربى الاشتراكى ، والأحزاب الشيوعية والوطنية الأخرى .

وكان حزب البعث شديد الاهتمام بالتسرب الى صفوف العسكريين كما كان الاخوان المسلمون فى مصر وان اختلفت المبادئ ووجهات النظر السياسية .

وقف أكرم الحورانى مع انقلاب حسنى الزعيم فى البداية ، وكان له مكتب بجوار مكتبه ، ثم اتخذ منه موقف المعارضة عندما اكتشف أنه تحول الى حكم فردى لم يقدم لهم السلطة .

وبعد انقلاب أديب الشيشكلى تم استقطاب عدد كبير من العناصر الوطنية فى الجيش وعقد أكرم الحورانى معهم صلات وثيقة لأنه هو والشيشكلى من حماه .

ثم انقلب ضباط حزب البعث فى تعاون مع الضباط الوطنيين المنتمين لأحزاب أخرى ضد حكم أديب الشيشكلى .

نصادف عزل أديب الشيشكلى الذى لجأ الى السعودية مع تنحية محمد نجيب فى مارس ١٩٥٤ ، ولذا كان حزب البعث أبرز الأحزاب القومية نشاطا واتصالا بالقاهرة .

كان جمال عبد الناصر قد قابل فى القاهرة كلا من أكرم الحورانى وضلاح البيطار وميشيل عفلق ووثق صلته بهم .

ولكن اتصالات عبد الناصر لم تقتصر على السياسيين فقط .. ان
العسكريين السوريين وغيرهم كانت الأبواب مفتوحة لهم في القاهرة ...
أحمد عبد الكريم المستقل النزعة واليسارى الميول ومساعد الملحق
العسكرى فى القاهرة كان على صلة بجمال عبد الناصر ومجموعة الضباط
المحيطين به فى مكتبه .

العرب مع مصر ... ضد العدوان :

ووصل التعاون العربى ذروته بعد تأميم قناة السويس واقترب
شبح العدوان من مصر .

أضربت الشعوب العربية تضامنا مع مصر يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٦ ،
وهو اليوم الذى افتتح فيه مؤتمر لندن لجمعية المنتفعين من القناة ...
وكان ذلك تعبيرا عن ميلاد ظاهرة جديدة .

وأعلنت اذاعة عمان ودمشق بعد ضرب محطات الارسلال فى
أبى زعبل (هنا القاهرة) .

واتصل الملك حسين أيضا يبلغ جمال عبد الناصر بأنه سيهاجم
إسرائيل ، ولكن عبد الناصر أوضح له ضخامة المؤامرة ، وطلب منه
التبريث .

وعندما وقع العدوان تفجرت طاقات الأمة العربية .

أعلنت الحكومة السورية عزمها على الدخول بجيشها ضد إسرائيل ..
ولكن أبلقت سوريا رغبتها فى عدم اتساع نطاق القتال واصرارها على
مواجهة الموقف وحدها .

ومع ذلك فقد تم تدمير أنابيب البترول التى تمتد من العراق الى
سوريا ولبنان ، وتعطل ورود البترول من كركوك وكل من طرابلس
وبانياس .. وكان ذلك بتدبير عبد الحميد السراج قائد المكتب الثانى
بالجيش السورى .

وأتلف الشعب العراقى بعض أنابيب البترول فى كركوك أيضا .
كما نسفت بعض أنابيب البترول فى السعودية وتوقف تصدير
البترول السعودى الى بريطانيا وفرنسا .. ونسفت أنابيب البترول فى
الأردن .

واجتاحت المظاهرات ليبيا وقطر والبحرين والكويت .

قطع العرب البترول عن الدول الغربية وهو عنصر رئيسى فى
استمرار الحياة عندهم .

كان ذلك مظهرا ايجابيا وجديدا في تضامن العرب ضد الاستعمار والصهيونية التوسعية .

وقال جمال عبد الناصر عند افتتاح مجلس الأمة عام ١٩٥٧ : (ان القومية العربية هي أمضى أسلحتنا في الدفاع عن وطننا ، وسواء في ذلك حدودنا المصرية المحلية أو حدودنا العربية الشاملة) .

وقال أيضا (كان نسف البترول عملا عسكريا) .

وكانت سوريا أكثر الدول العربية اقترابا من مضر لأن القومية العربية فيها كانت منسوجة مع عواطف الجماهير تاريخيا . . . والنور الذي لعبه حزب البعث كان واضحا ورائدا في رفع شعار الوحدة العربية .

عندما حشدت تركيا قواتها على حدود سوريا عام ١٩٥٧ ، وقال دالاس : (ان من حق تركيا أن تتخذ من الاجراءات العسكرية والدفاعية ما تراه كفيلا بحفظ أمنها وسلامتها وأمن وسلامة جاراتها وحليفاتها في المنطقة عندما ترى أن سوريا قد أصبحت في المنطقة كالراديو الذي لا تقف اشعاعاته عند حدود الاناء الذي هو فيه) .

بادرت مصر الى ارسال قوات مسلحة الى سوريا . . . وكان عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقيادة المشتركة .

وأصبح عبد الناصر بعد انسحاب قوات العدوان الثلاثي رمزا لنضال الشعوب وزعيما للجماهير في كل بلد عربي .

كان المرشح للبرلمان الأردني أنور الخطيب يلقي خطابا في المسجد الأقصى وتساءل الحاضرون : (هل ناصر معك ؟) .

وقال أنور الخطيب : (لا أعلم) .

وكانت النتيجة نجاح مرشح مسيحي شيعي في القدس لأنه كان في الجبهة التي يؤيدها جمال عبد الناصر .

جاءت نتيجة الانتخابات ١٠٠٪ لصالح الجبهة المعادية للاستعمار ، والتي ضمت أحزاب البعث والوطني الاشتراكي والشيوعي والمستقلين عدا دوائر البادية وتشكلت وزارة سليمان النابلسي .

ارتبطت مصر ارتباطا وثيقا بالدول العربية وتضمنت توجيهات الاتحاد القومي التنظيم السياسي الذي خلف هيئة التحرير اتجاها عربيا وحدويا قال جمال عبد الناصر في المؤتمر الأول للاتحاد القومي : (انه يشرفنا ان نكون دعاة وحدة عربية شاملة تستمد مقومات وجودها من الطبيعة ذاتها) .

تجاوزت فكرة الوحدة العربية حدود وادى النيل التي ظلت شعارا مرفوعا يربط مصر والسودان فى نضال مشترك ضد الاستعمار البريطانى ، واتسعت لتشمل كثيرا من الدول العربية .

أول ميثاق عربى على طريق الوحدة كان قائما بين مصر وسوريا والسعودية ، ثم انضمت اليه اليمن عام ١٩٥٥ ، للتعاون العسكرى السياسى والاقتصادى .

لم تكن النظرة أو الأهداف الاجتماعية قد أصبحت حائلا بين تعاون هذه الدول التى يدين بعضها بالنظام الملكى والبعض بالنظام الجمهورى .

وفكرة القومية العربية منذ البداية لم تقترن بالتحول الاجتماعى ، وإنما اقترنت بالنضال الوطنى ضد الامبريالية والصهيونية التوسعية .

ورجع العسكريون الى تاريخنا . . . ووقفوا عند صلاح الدين الذى وحده العرب وهزم الصليبيين فاختروا نسرهم شعارا للثورة .

وحركة ثورة ٢٣ يوليو نحو الوحدة العربية كانت متعددة الاتجاهات متشعبة النشاط ، تكاد تطرق أبواب كل بلد عربى .

ودائما هناك قصة لصلة قادة ثورة يوليو بالحركة السياسية فى كل بلد عربى .

قصة نضال . . ووحدة مصير .

الباب الثاني

سوريا :

الوحدة ٠٠ والانفصال

(اذا كان العالم قد عاش من
قبل في عصر النهضة ثم عاش بعد
ذلك في عصر الفضاء ، فأننا نعيش
اليوم في عصر الوحدة العربية)

جمال عبد الناصر

دمشق

٢٥ فبراير ١٩٥٨

الفصل الأول

نحو الوحدة

(أنا لست فاتحا .. أنا كاهن
تقولون بالفرنسية مغنطيس)

جمال عبد الناصر
في حديث مع صحفي فرنسي
يناير عام ١٩٥٨

كانت الدولتان العربيتان الوحيدتان الخاضعتان لسلطة الجيش
هما (سوريا ومصر) .. وكان انقلاب حسنى الزعيم عام ١٩٤٩ هو
بداية الانقلابات العسكرية فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت
حركة الجيش المصرى فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ هى أول انقلاب عسكرى
فى إفريقيا .

العسكريون فى القاهرة ودمشق هم أصحاب الكلمة العليا ،
وسقوط أديب الشيشكل فى مارس ١٩٥٤ وذهابه الى السعودية بعد أن
حكم بصورة مباشرة من نهاية عام ١٩٥١ ، لم يبعد الجيش السورى تماما
عن السلطة السياسية رغم عودة المدنيين الى واجهة الحكم ، ومقعد رئيس
الجمهورية ..

وطبيعة تكوين الجيش السوري تختلف عن طبيعة تكوين الجيش
المصرى . . كما أن دورها التاريخي والنضالي يختلف كل عن الآخر . في
الحرب العالمية الأولى كان عشرات من ضباط الجيش السوري يخدمون
في الجيش العثماني وظلوا عند ولائهم لتركيا حتى هزيمتها . . . وكان
هناك أيضا عدد منهم منضمون الى جمعية (العهد) السرية التي تقاوم
السلطة العثمانية ، وتبني القومية العربية . وفي الفترة من نوفمبر
١٩١٨ الى يوليو ١٩٢٠ خدم عدد من ضباط الجيش السوري تحت
العلم السوري في عهد فيصل بدمشق ، ثم تحول عدد منهم للخدمة في
جيش الانتداب الفرنسي فيما عرف باسم (جيش الشرق) .

أطاح الجنرال جورو بحكم الملك فيصل في سوريا في ٢٤ يوليو
١٩٢٠ واضطره الى الجلاء عن الأراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي .

وعندما هزمت فرنسا من ألمانيا في صيف عام ١٩٤٠ ، ظل مندوبو
حكومة فيشي عملاء النازية يحكمون سوريا الى أن دخلت قوات فرنسا
الحررة مع الجيش البريطاني وهزموا المحور في يونيو ١٩٤١ حيث كان
بعض الضباط السوريين يحاربون جنبا الى جنب مع ضباط حكومة
فيشي .

وبقى الجيش السوري حتى نهاية الحرب خاضعا للحكم البريطاني
حتى اشتعلت الثورة في سوريا عام ١٩٤٥ ، وهنا انضم قسم من ضباط
الجيش مع وحداتهم الى الشرطة التي كانت هي القوات المسلحة الوحيدة
لخاضعة للحكومة الوطنية .

حدث تأمر بريطاني لابقاء الجيش التاسع البريطاني في سوريا
بعد انسحاب الفرنسيين تحت تهديد رغبة الملك عبد الله في اقامة سوريا
الكبرى . . . ولكن الحركة الوطنية رفضت ولم تقبل الجلاء الكامل .

أعلى رتبة وصل اليها الضباط السوريون في جيش الشرق الفرنسي
كانت رتبة رائد . . ومن الضباط الذين انضموا للشعب عفيف البزري
وعدنان المالكى وأديب الشيشكلي ومأمون البيطار ونبيه صباغ وغيرهم .

القوى والأحزاب السياسية كان لها تأثير في موقف هؤلاء
الضباط ، حزب البعث والحزب الشيوعي بدأوا محاولات الاتصال
بالضباط بعد هزيمة قوات فيشي ، وحدث انفتاح على الفكر المتحرر
التقليدي في فرنسا عام ١٩٤١ .

بعض ضباط الجيش السوري الذين خدموا في (جيش الشرق)
الفرنسي ، وخضعوا للفرنسيين نبذتهم الحركة الوطنية ورفضت

استمرارهم في الجيش الوطني الذي بدأ محدود العدد ، لا يتجاوز ٣٠٠٠ ضابط وجندي ٠٠٠ فهاجر بعضهم الى فرنسا حيث احتفظ برتبته العسكرية وحصل على الجنسية الفرنسية .

يقول أمين الحافظ رئيس الجمهورية السورية فيما بعد أنهم كانوا في حلب اذا سمعوا أن فلانا أصبح جنديا في جيش الشرق اعتبروا ذلك كبيرة من الكبائر .

حسنى الزعيم كان واحدا من الضباط الذين أخرجهم الفرنسيون من الجيش ٠٠٠ ثم عاد إليه مع ثورة ١٩٤٥ .

كان الفرنسيون يتولون المناصب الرئيسية والقيادية في الجيش والجندرومة (الشرطة) أيضا ٠٠٠ وكانوا لا يشجعون تجنيد السنيين باعتبارهم أغلبية الشعب السوري ، وإنما اعتمدوا أساسا على تجنيد الاقليات الشركسية والدرزية والعلوية والمسيحية ٠٠ وعينوا بعض الضباط من الأسر الكبيرة لضمان تأييدهم .

كان هذا تقليدا معروفا تلجأ اليه الدول الاستعمارية ٠٠ اعتمد الجيش البريطاني في الهند على السيخ والباتان ٠٠٠ واعتمد الهولنديون في أندونيسيا على المسيحيين ، واعتمد الفرنسيون في المغرب على البربر ٠٠٠ وهكذا .

ولم يكن هذا الأمر معروفا في مصر حيث لا توجد أقليات منعزلة ، فتماسك الشعب ووحدته الوطنية تاريخيا لم تعطى الفرصة للاستعمار البريطاني ، ومحاولات التفرقة بين الأقباط والمسلمين أحبطها سعد زغلول والوفد عام ١٩١٩ .

أما في سوريا فقد لعبت الأقليات دورا منفردا وملحوظا ٠٠ ثورة الدروز التي نشبت في الجبل عام ١٩٢٥ واستمرت سنتين دفعت الفرنسيين الى زيادة جيشها حتى وصل ٤٠.٠٠٠ ثم انحسر بعد نهاية الثورة حتى وصل عدد الضباط عام ١٩٣٠ الى ٣١٩ ضابطا منهم ١٥٧ فرنسيا ، ١٦٢ سوريا ٠٠٠ وفي عام ١٩٣٨ بلغ عدد الضباط ٣٠٦ منهم ٨٨ فرنسيا فقط ، وهم جميعا كما سبق أن ذكرنا لا يتجاوزون رتبة رائد .

عقب استقلال الوطن عام ١٩٤٥ وصل الجيش السوري ٥٠٠٠ جندي والشرطة ٣٥٠٠ جندي ، ١١٤٠ ضابطا ٠٠٠ وارتفع الرقم مع حرب فلسطين ليصبح الجيش ١٢.٠٠٠ والشرطة ٤٥٠٠ ، ثم ارتفع في عهد حسنى الزعيم ليكون ٢٧.٠٠٠ جندي وضابط ، كما ورد في كتاب (ضباط الجيش في السياسة والمجتمع العربى « لاليزير بيدرى ») .

في هذا الجو السياسي تكون الجيش السوري الوطني ٠٠٠ وكانت أول دفعة من الضباط تتخرج في الكلية الحربية بحمص عام ١٩٤٦ يبلغ عددها ٦٣ ضابطا ، بعد أن كانت الدفعة لا تتجاوز العشرين ثم زادت بعد ذلك إلى عدة مئات .

كان هناك فرق كبير بين مصر وسوريا ٠٠٠ ففي مصر حددت قوانين ١٩٢٨ دخول المدرسة الحربية بالبيكالوريا ، ثم تحولت مع معاهدة ١٩٣٩ إلى كلية وقررت لها مصاريف تزيد عن ٦٠ جنيها في العام ، وهي مصاريف باهظة إذا قورنت بمستوى الدخل العام للفقود ، مما حدد المستوى الطبقي للضباط ، وإن كان قد وسع قاعدتهم ، ولم يجعل اختيارهم مفروزا فرزا كاملا وصحيحا تحت ميكروسكوب الاحتلال البريطاني كما كان الحال قبل المعاهدة .

الموقف في سوريا يختلف تماما ٠٠ الفوارق الطبقيّة عموما لم تكن من النوع الحاد كما كانت في مصر ٠٠ وروح التحرر الفرنسية تشربها كثير من المثقفين السوريين ٠٠٠ هذا ما دفع إلى أن تكون الكلية الحربية مجانا تماما ويحصل الطالب فيها على اللبس ، ٢٠ عتبة سجائر ، ٢٠ ليرة مصروف يد شهريا .

الوضع يختلف عن مصر ٠٠ والمنبت الاجتماعي للضباط يختلف أيضا .

قال لي أحمد عبد الكريم الضابط الذي أصبح وزيرا في عهد الوحدة (لو كانت المصاريف جنية ما دخلت الكلية الحربية ، ٩٠ في المائة من الكلية كانوا مثلي أيضا) .

ولم يكن في نظرة الضباط القدامى لطلبة الكلية الحربية الجدد أي نوع من التعالي أو الكبرياء ٠٠ فقد كان المثل الشعبي السائد هو (الفقر ليس عيبا) .

بل إن الدفعة الأولى في الكلية الحربية اتخذت موقفا ثوريا عندما قدم الطلبة استقالاتهم احتجاجا على إرسال رئاسة الجمهورية لاثنتين من الطلبة الراسبين في البكالوريا للانضمام للدفعة وما في ذلك من خرق لشروط القبول .

وبعد حضور وزير الدفاع ورئيس الأركان ومدير المخابرات إلى الكلية واعتبارهم أن ما حدث هو نوع من التظاهر المرفوض والمدان في النظم العسكرية ٠٠ إلا أن السلطة ، وشكوى القوتلي كان رئيسا للجمهورية ، قد تراجعت في محاولتها ، ولم يتكرر بعد ذلك أبدا .

قانون الخدمة الالزامية صدر كذلك بعد الاستقلال مباشرة وأدخل كافة أبناء الشعب السوري للقوات المسلحة .

كانت هناك حريات ديمقراطية يتمتع بها حتى طلبة الكلية الحربية ولكنها أجهضت مع حرب فلسطين وما تبعها من انقلابات عسكرية نبئت من الهزيمة وتبنى الجيش لشعارات الاصلاح وطلب الانتقام من السياسيين . . وهنا دخلت المخططات العربية صفوف الجيش السوري .

استطاع حسنى الزعيم أن يشهد المؤسسة العسكرية خلفه بما فيها عدنان المالكي وأديب الشيشكلي لأنه كان صاحب موقف معروف ، عارض فيه نقل الفرنسيين للذهب من البنك المركزى وهو قائد كتيبة تنفيذ لتعليمات رئيس الوزراء خالد العظم ، رغم أنه كان من ضباط جيش الشرق . . الأمر الذى انتهى به الى البقاء فى قلعة المزة محاضرا لمدة ٣ أيام دون أن يستسلم ، ثم أخرجه الفرنسيون من الجيش ، وذلك حسب رواية أكرم دبرى الضابط السورى والوزير فى عهد الوحدة فى مصر . ثم شارك حسنى الزعيم فى حرب فلسطين بمنطقة سمخ ، وبعد الهزيمة أسندت له قيادة الجيش السورى ، مما دفع ادارة المخابرات المركزية الأمريكية الى التركيز عليه واجتذابه الى صفوفها .

كان عبد الحميد السراج ياورا لحسنى الزعيم ، والاثنان ومعهما أديب الشيشكلي وأكرم الحوراني جميعا من حماء ، ولذا كان أكرم الحوراني مقربا فى البداية من حسنى الزعيم قبل أن يختلف الاثنان لانفراد الزعيم بالحكم وعدم تنسيقه السلطة مع البعث أو سماخة بالمشاركة فيها .

وقال لى أكرم الحوراني « ان مجيء حسنى الزعيم كان اجهاضا لثورة شعبية ناضجة » . وقال لى أمين الحافظ أن سمعته الشخصية كانت سيئة فقد اشتهر وهو ضابط بأنه يقاسم تجار السمن .

ولم يطل عمر حسنى الزعيم فقد انقض عليه سامى الحناوى بمعاونة الأحزاب الوطنية والمخابرات البريطانية . . ثم انتهى الأمر الى أديب الشيشكلي الذى استقطب كل العناصر الوطنية فى الجيش بمساعدة أكرم الحوراني . . . واستمر عبد الحميد السراج ياورا لأديب الشيشكلي فى بداية عهده .

ظل الهيكل الوطنى داخل الجيش السورى سليما تنعكس عليه الوحدة الوطنية . . . وتنعكس عليه أيضا أفكار القومية والوحدة العربية ، ولذا فانه عندما ظهر انحياز أديب الشيشكلي للولايات المتحدة

وتوثقت علاقاته مع مندوب شركة التابلاين الأمريكية ، وكاد يوقع وثيقة دفاع مشترك مع أمريكا ، وبدأ حركة فصل وتسريح لعدد من الضباط الوطنيين ونقل عدد منهم للحدود الشمالية مع تركيا والجزيرة دبر البعثيون محاولتهم الأولى للانقضاض على الحكم بوساطة الجيش في عام ١٩٥٢ .

وحزب البعث العربي الاشتراكي كان في الأصل حزبين : (البعث) يرأسه ميشيل عفلق و (العربي الاشتراكي) يرأسه أكرم الحوراني . واتحد الاثنان في حزب واحد عام ١٩٥١ لاتفاق الأهداف والأفكار .

اكتشفت المحاولة قبل تنفيذها في يناير ١٩٥٣ وفر أكرم الحوراني . وميشيل عفلق وصالح البيطار الى ايطاليا يوم ١٢ يناير واعتقل . العقيد عدنان المالكي المدير العسكري للمحاولة وسجن معه عدد من الضباط .

عاد قادة حزب البعث الثلاثة بعد ذلك الى سوريا في نهاية عام ١٩٥٣ بعد وضع الدستور وانتخاب الشيشكلي رئيسا للجمهورية يوم ١٠ يوليو ١٩٥٣ وتشكيل مجلس نيابي لم يتقدم للترشيح له أحد من حزب البعث رغم أن أكرم الحوراني كان قد انتخب نائبا عن حماه عام ١٩٤٣ .

نظرة حزب البعث لأديب الشيشكلي لم تتغير . . . كان قد استقر الأمر على الإطاحة بحكمه .

البعث والعسكريون :

وهنا نوضح موقف حزب البعث من العسكريين .

يقول أكرم الحوراني أنه لم يكن هناك تنظيم اطلاقا لضباط الجيش في صفوف الحزب . . . لا اجتماعات منظمة أو دفع اشتراكات . أو تحديد مسئوليات معينة . . . ولكن كانت هناك علاقات ارتباط وولاء للحزب من بعض الضباط .

كان ذلك قرارا وموقفا من الحزب لافتقادهم بأن تنظيم الضباط يفسد الحياة العسكرية وانضباطها . . . والمفروض أن يكون ولاء الجيش للحزب فقط .

ومع ذلك كان هناك عدد محدود من الضباط المرتبطين بالحزب ارتباطا كاملا ، ويؤدون دور الأعضاء المنتظمين ، يشكلون مراكز

الاشعاع ومصادر للقوة المحركة ، وهم فى الغالب من الذين انضموا للحزب خلال دراستهم الثانوية مثل العقيد عدنان المالكى واليوزباشى مصطفى حمدون وغيرهما .

وهؤلاء الضباط كانوا من خريجي الكلية الحربية بعد الاستقلال ، ذلك أن حزبي البعث والعربي الاشتراكي لم يندمجا تحت اسم حزب البعث العربي الاشتراكي الا بعد التحرر والاستقلال الوطنى .

لذا كانت محاولة عدنان المالكى مبكرة فى تاريخ الحزب الموحد ومعبرة عن اهتمام الحزب بالحركة داخل الجيش ومؤكدة للاحساس بأن القوات المسلحة لها دور من وجهة نظر الحزب فى الحركة الوطنية .

ولم يقف فشل عدنان المالكى سدا فى سبيل محاولة الحزب للاطاحة بحكم الشيشكلي .

تولى المسئولية هذه المرة اليوزباشى مصطفى حمدون الذى انضم لصفوف الحزب طالبا عام ١٩٤٣ . والذى وصل فى عهد اديب الشيشكلي الى منصب معاون رئيس الشعبة الاولى (عبد الحميد السراج) وكان مسئولا عن قسم الضباط مما أعطاه فرصة تعيين بعض الضباط البعثيين فى أماكن قيادية حساسة .

ولكن أجهزة اديب الشيشكلي كانت ترصد حركته وفاجاه عبد الحميد السراج فى ليلة عيد الميلاد ٢٤ ديسمبر ١٩٥٣ بأن هناك أوامر بنقله خارج دمشق ، ونقل الى حلب فعلا يوم ٢ يناير ١٩٥٤ .

قال لى مصطفى حمدون أنه كان فى حلب مكتب حزبي يشرف على العسكريين ويقوده منصور الأطرش بن سلطان باشا الأطرش قائد ثورة الدروز ضد الاستعمار الفرنسى .

وبدأ الاعداد الفوري لحركة مضادة لحكم الشيشكلي . . وكانت قيادة الحزب قد وافقت على ذلك وتركت التوقيت للعسكريين .

قال لى مصطفى حمدون أنه فاتح عددا من قادة المناطق (حمص والشرقية ومعاون قائد منطقة حلب - عقيد فيصل الاتاسي) وأظهروا استعدادا للتعاون .

وفرضت الظروف توقيت الحركة ، تماما كما حدث فى ٢٣ يوليو . فقد تسربت الأنباء بأن هناك نشرة تتضمن فصل عدد من الضباط ومنهم مصطفى حمدون وكان قد سبق ذلك اعتقال أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصالح البيطار .

وأصبح الموقف سباقا بين خصمين .. السلطة مع الشيشكي في دمشق .. وترتيبات الحركة في حلب .

ولم يكن هناك سبيل للعدول والتراجع .. وقررت حامية حلب المبادرة بالحركة وحدها دون تعطيل تفرضه ضرورة الاتصال بالمناطق الأخرى التي سبق الاتصال بها في حمص والجبل .

كان مفروضا أن تصدر نشرة الفصل يوم السبت أول مارس ١٩٥٤ ولكن الحركة تقسرت ٢٧/٢٨ فبراير وزحفت القوات على حلب في الثالثة بعد منتصف الليل ثم أذيع البيان الأول من إذاعة حلب التي تصل إلى كل سوريا ، وهو بيان قصير من عشرة سطور قدمه مصطفى حمدون بقوله (النقيب مصطفى حمدون يتحدث اليكم) ووقعه بتوقيعات أمر المنطقة الشمالية وأمر المنطقة الغربية وأمر المنطقة الشرقية ولم يذكر المنطقة الوسطى (حمص) حتى تفاجئ قوات الشيشكي فيما لو حاولت التقدم نحو حلب .

كانت الحركة انقلابا عسكريا كاملا توافرت له المفاجأة ولكن لم تتوافر الخبرة السياسية ، فلم يتضمن البيان الأول معنى هاما ، ولم يظهر تأثير حزب البعث على الحركة ، وانطلقت المظاهرات في حلب تجاهم مكاتب منظمة التحرير التي شكلها الشيشكي لتكون تنظيما له على غرار هيئة التحرير ، في مصر .

كان الشيشكي متأثرا من ناحية المظهر بثورة ٢٣ يوليو .. عندما زار القاهرة ظهرت جريدة المصري بمانشيت أحمر رئيسي يصف الشيشكي بأنه (محرر سوريا) الأمر الذي أثار استياء الوطنيين الذين كانت تعبر عنهم الجريدة والذين كانوا في موقف عداء للعسكريين عموما .

عندما عاد الشيشكي لدمشق أعلن لضباط الجيش السوري في نادي الضباط عن شعوره بأن الرجل القوي في مصر هو جمال عبد الناصر ، وليس محمد نجيب ، وذلك حسب رواية أكرم ديري .

سقطت منظمة التحرير في سوريا تحت طرقات المتظاهرين .. كانت تنظيما من ورق ..

أول برقية تأييد وصلت حلب يوم ٢٨ فبراير في الخامسة مساء كانت من أمين الحافظ قائد قوات درعا ، وهو ذو ميول بعثية ولكنسه كمال قال لي لم يكن من المرتبطين عضويا بتنظيم البعث .

وتوالت بركات التأييد على حلب التي التحق بها الطيران السوري أيضا . حاول الشيشكي تشكيل مجموعة من المدرعات والمشاة والمدفعية

من جبل الدروز والمنطقة الجنوبية (دمشق) ولكنه فشل أمام اعتراض
ومقاومة بعض الضباط الشبان .

وعندما أباحه قائد منطقة جبل الدروز بعجزه عن اعداد القوة
شعر بانهياء موقفه وقرر عدم المقاومة .

واتصل شوكت شقير رئيس أركان الحرب بمصطفى حمدون وأبلغه
أن الشيشكلي سيغادر سوريا ويرجوه اغلاق اذاعة حلب فاستجابت قوة
حلب لذلك .

ولكن عددا من الضباط المتعاونين مع الشيشكلي قرروا أو يذهب
هو ولكن يستمر نظامه . . وطلبوا تعيين رئيس مجلس النواب (مأون
الكزبري) ليحل محله رئيسا للجمهورية تبعا للدستور ، وكان من هؤلاء
الضباط عبد الحق شحادة وطعمة العودة الله .

رفضت القيادة في حلب وخاصة بعد أن كان قد أفرج عن أكرم
الخوراني وميشيل علق وصالح البيطار وذهبوا الى حمص حيث عقدوا
اجتماعا مع ممثلي الأحزاب في منزل هاشم الاتاسي اتفقوا فيه على عودة
المجلس النيابي السابق الذي حلته الانقلابات العسكرية للمدة
المتبقية ، وعودة الاتاسي رئيسا للجمهورية ، واجراء انتخابات جديدة في
أغسطس ١٩٥٥ ، وهي الانتخابات التي تمت فعلا في موعدها وعاد فيها
شكري القوتلي رئيسا للجمهورية .

وأعيد فتح اذاعة حلب . . وبدأت اذاعات دمشق وحلب تتبادل
التهجمات والتهديدات . . وانفجرت المظاهرات المضادة للشيشكلي في
دمشق أيضا ، وقتل ٢٧ شخصا عند مبنى الاذاعة القديمة .

ولم يجد المستفيدون من حكم الشيشكلي أنصارا لهم فقرروا
الاستسلام ، وهرب الشيشكلي يوم ٢٦ فبراير الى السعودية بعد أن هبط
في مطار القاهرة في وقت كان أعضاء مجلس الثورة مشغولين فيه بإعلان
استقالة محمد نجيب يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٤ . وعاد هاشم الاتاسي رئيسا
للجمهورية بدلا من مأون الكزبري الذي تولى الرئاسة لمدة ٢٤ ساعة
فقط .

لم يكن انتصار الانقلاب العسكري ايدانا بظهور ضابط جديد في
مركز السلطة . . فقد كان مصطفى حمدون ضابطا بعثيا ملتزما بأوامر
حزبه ، وكان حزب البعث في هذه المرحلة يرى أن الظروف ليست مهيأة
لاستلامه السلطة والانفراد بها . ويقول مصطفى حمدون أنه لم يكن
متفقا مع رأي الحزب في ذلك لأنه كان يعتقد أن سيطرة الحزب على

السلطة بعد الانقلاب كانت أمرا ممكنا وان ذلك كان لابد أن يدفع الوحدة الى الامام .

انقلاب حلب وعدم اصرار الضباط على تولي السلطة يثبت ان حزب البعث لم يكن حتى هذه اللحظة مفرطا في كيانه ووجوده بتسليم مصيره للعسكريين ، وأنه كان مازال ملتزما بموقفه في أن الجيش يجب أن يكون في خدمة الحزب وليس الحزب في خدمة الجيش .

كانت صلة قادة البعث العسكريين في الجيش معبرة عن أهمية وضرورة الاتصال بالضباط وخاصة بعد أن لعبوا أدوارا رئيسية في حكم سوريا بعد انقلاب حسنى الزعيم .

ولكن هذه الصلة التي كانت طبيعية حتى هذه المرحلة لم تستمر كذلك فيما بعد . . . وهي في سوريا كانت غيرها في العراق رغم وحدة الحزب من الوجهة القومية كما سيأتى ذكره تفصيلا فيما بعد .

كان الجيش يفرض نفسه كقوة سياسية رئيسية في المجتمع ، وكانت الأحزاب السورية التقليدية مازالت تؤدي دورا جماهيريا ، كما أن الأحزاب التقدمية مثل حزبي البعث والشيوعي كانت تكسب مزيدا من الانصار والتأثير خارج الجيش وداخل الجيش أيضا .

وعقب الغارة الاسرائيلية على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٤ زار صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الارشاد سوريا في أوائل مارس وخطب في دمشق مبشرا بتكوين الجيش المصرى السورى الموحد فى مواجهة اسرائيل .

وخلال هذه الزيارة قام صلاح سالم بزيارة مقر حزب البعث العربى الاشتراكى ووقع اتفاقا خاصا بانشاء قيادة موحدة .

واجهة مدنية للحكم :

تعهد الجيش ألا يتسلم الحكم واستمر شوكت شقير رئيسا لأركان حرب الجيش رغم أنه درزى ومن لبنان ، لأنه كان يلعب دور مخفف الصدمة فى صراع الاتجاهات المختلفة داخل الجيش .

وحاول معروف الدواليبى من حزب الشعب تصفية عدد من الضباط منهم عبد الحميد السراج وطعمة العودة الله باعتبارهم موالين للشيشكلي ولكن الضباط تكتلوا وأوقفوا تسريح الضباط تحت ضغط التهديد .

كان عدد ضباط الجيش السوري حتى ذلك الوقت مازال محدودا
يسهل التعرف فيه على اتجاهات الضباط السياسية ، ويصعب فيه في
نفس الوقت تغليب اتجاه على آخر ، ولذا توافرت حالة توازن اجباري .

وكان معروف الدواليبي قد حاول أيضا استدراج شوكت شقير
وعدنان المالكي ثم اعتقالهم بوساطة الشرطة ولكن الخبر كان قد تسرب
اليهم فاستنفروا المكتب الثاني والشرطة العسكرية وحاصروا بيت
معروف الدواليبي من مسافة بعيدة مع استعداد القطاعات للتحرك . .
وعندما شعر الدواليبي بذلك حول الجلسة معها الى عتاب شعر بعده أن
دوره في الجيش قد انتهى .

وقد أدى صراع الاتجاهات المختلفة الى اغتيال العميد عدنان المالكي
في ٢٣ ابريل ١٩٥٥ وهو الشخصية البارزة المنتمية لحزب البعث الأمر
الذي دفع الجيش للسيطرة على الدولة سيطرة كاملة واعتقال حوالي
٤٠٠٠ عضو من أعضاء الحزب القومي السوري . . وقد اعتقل عصام
المحابرى داخل منزل الملحق العسكرى الأمريكى وحكم عليه بالسجن
المؤبد ، كما اعتقل فؤاد جديد شقيق صلاح جديد الضابط البعثى العلوى
صاحب الكلمة النافذة فيما بعد ، واغتال المكتب الثانى السوري شقيقه
الآخر غسان جديد فى لبنان بعد هربه عقب حادث الاغتيال .

استطاع شكرى القوتلى فى أواخر عام ١٩٥٥ أن يعزل شوكت شقير
ويعيده الى لبنان معتمدا على عدد من الضباط المستقلين ويعين بدله اللواء
توفيق نظام الدين .

ورغم الحكم المدنى فان الجيش السوري كان صاحب نفوذ قوى فى
الحياة السياسية . . دفعه أسلوب الارهاب الذى انتهجه الحزب
القومى السوري واغتيال عدنان المالكي الى رد فعل مضاد أعاده الى حلبة
السياسة من جديد بطريقة مستترة غير معلنة وتشكلت فى الجيش
مجموعات مختلفة من الضباط لا تضمها جهة واحدة منظمة ، وانما تتربص
ببعضها البعض ، كان عنصر الترجيح معتمدا على الضباط الوطنيين
المستقلين غير المنتمين الى الأحزاب والهيئات السياسية .

وكان هناك تكالب على المراكز القيادية الحساسة فى الجيش مثل
المكتب الثانى الذى تولاه عبد الحميد السراج ، والشرطة العسكرية
(أكرم دبرى) الى جانب قادة الأسلحة والوحدات .

وكانت الأحزاب السورية فى محاولتها لدعم الحكم المدنى قد ألغت
دستور الشيشكلى وشكلت وزارة ائتلافية برئاسة صبرى العسلى فى

١٤ مايو سنة ١٩٥٦ ، تولى صلاح البيطار فيها منصب وزير الخارجية ودخلها تحت شرط حزب البعث فى تكوين اتحاد فيدرالى مع مصر .

وطلب حزب البعث أن يوافق المجلس النيابى على بيان الوزارة الذى جاء فيه (ان حكومتى مصممة على اجراء مفاوضات مع حكومة مصر لاقامة اتحاد فيدرالى بين البلدين) ووافق مجلس النواب على ذلك فعلا . وبينما كانت الحكومة تفكر فى تكوين وفد للمفاوضات حدث العدوان الثلاثى . تحول الموقف الى مساندة الشعب المصرى تحاشيا لحدوث انقسام نتيجة رفض بعض الدول لفكرة الوحدة . ولعب عبد الحميد السراج الذى كان يتولى مسئولية المكتب الثانى (المخابرات) والذى كان قد سبق له مقابلة جمال عبد الناصر فى القاهرة عام ١٩٥٥ فى ظل تنسيق العمل فى القيادة المشتركة ، لعب دورا بارزا فى نفس أنابيب البترول القادمة من العراق الى سوريا حتى البحر فى أول نوفمبر ١٩٥٦ .

وكان ذلك الموقف تعبيرا عن وحدة ارادة الامة العربية فى صراعها ضد الامبريالية . . . وكان استجابة لمظاهرات الغضب التى اجتاحت العالم العربى .

وبعد انسحاب القوات المعتدية على مصر . ووصول بعض القوات المصرية فى أكتوبر ١٩٥٧ الى اللاذقية للوقوف فى وجه الحشود التركية زاد ثقل وزن الضباط المستقلين . . واستقبل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى القاهرة عبد الحميد السراج وبدأت مرحلة تعاون وثيق مع عام ١٩٥٧ .

وحدث تمرد فى معسكر قطنة فى مارس عام ١٩٥٧ عندما حاولت قيادة الجيش نقل الضباطين أمين النافورى ورياض الكيلانى خارج البلاد أو تسريحهم ، وذلك لأنهم استهدفوا ضرب حزب البعث . . وكاد يحدث صدام مسلح بين الضباط والوحدات انتهى بنقل رياض كيلانى ملحقا عسكريا بالقاهرة .

وحدث بعد ذلك ، ما يشبه الانقلاب الصامت عندما عزل اللواء توفيق نظام الدين ، وعين مكانه اللواء عفيف البزرى الوثيق الصلة بالشيوعيين ، وعين أمين النافورى مساعدا له ، ومصطفى حمدون رئيسا للشعبة الاولى (ادارة شئون الافراد والضباط) وأحمد عبد الكريم رئيسا للشعبة الثالثة (العمليات) ، وبقي عبد الحميد السراج رئيسا للشعبة الثانية (المخابرات) .

وتجمع ضباط البعث من جديد ، مصطفى حمدون وأمين الحافظ وبشير صادق وفكروا فى عمل انقلاب كان هدفه كما يقول أمين الحافظ

هو الذهاب للوحدة برأى واحد وتنظيم واحد وهدف واحد .. ولكن انتهى الأمر الى تشكيل مجموعة قيادية من ضباط الجيش شملت مختلف الاتجاهات السياسية ، وأصبح لها كيان شبه تنظيمي. يضم في قيادته حوالى ٢٤ ضابطا أطلق عليه اسم المجلس الثورى .

كان المد الوطنى والوحدوى خلال عام ١٩٥٧ يزداد وضوحا يوما بعد يوم فى صفوف الشعب وفى صفوف الجيش أيضا .

وكان اتصال القاهرة مع سوريا متعدد القنوات .. محمود رياض السفير وهو عسكري سابق كان على اتصال وثيق بالقيادات السياسية المختلفة .. ومجموعة كمال رفعت وضباط المخابرات كانت لهم صلات خاصة أيضا بعدد من السياسيين والضباط وخاصة المنتمين لحزب البعث . واتصال ثالث كان يتم عبر القيادة المشتركة التى كان يمثل مصر فيها الأميرالاي عبد المحسن أبو النور ، وهو مركز أساسا على ضباط الجيش .

كان الاتجاه السائد فى السياسة العربية فى المنطقة خلال هذه الفترة بعيدا عن إثارة الحساسية أو العداء مع الماركسية ، وخاصة فى سوريا ، حيث وصل خالد بكداش سكرتير الحزب الشيوعى السورى الى البرلمان نائبا من نواب دمشق ، كما كانت الوحدة العربية شعارا يرتفع فى الحياة السياسية ويؤثر فيها .

نحو أول وحدة عربية .:

وفى نفس الوقت الذى وصلت فيه القوات المصرية الى اللاذقية قرر مجلس النواب السورى توجيه الدعوة الى مجلس الأمة المصرى لزيارة سوريا العربية لتبادل الرأى فى استعجال الزمن لدفع مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا .

وقام وفد من أربعين نائبا برئاسة أنور السادات وكيل مجلس الأمة بزيارة دمشق فى نوفمبر ١٩٥٧ .. واستقبلهم أكرم الحورانى رئيس المجلس السورى وقال لهم ان السوريين يعتبرون هذا اليوم - ١٦ نوفمبر - عيداً قوميّاً يشبه ذلك اليوم الذى وصل فيه الجيش المصرى الى سوريا .

حضر أعضاء مجلس الأمة المصرى جلسة مجلس النواب السورى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٧ وتناوب أكرم الحورانى وأنور السادات رئاسة جلسة المجلس وأعد قرار بالاتحاد الفيدرالى من لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب السورى ولجنة الشئون العربية بمجلس الأمة المصرى فى جلسة سرية قبل عقد الجلسة العلنية للمجلس .

ووافق النواب بالاجماع على قرار (يدعسو حكومتى مصر وسوريا
للدخول فورا فى مباحثات مشتركة بغية استكمال تنفيذ هذا الاتحاد) .
ووافق مجلس الأمة المصرى على نفس القرار فى نفس اليوم . . ثم
حضر الى مصر وفد من مجلس النواب السورى برئاسة احسان الجابرى
يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٧ كان من أعضائه خالد بكداش ، وحضر جلسة
مجلس الأمة المصرى .

يقول صلاح البيطار أن الوفد السورى قد رجع الى دمشق متشائما
لأن جمال عبد الناصر كان متحفظا من جهة الوحدة ، ولا يفكر بالقيام
بأية مبادرة . . ورغم أن جمال عبد الناصر كان قد أصدر بيانا يستجيب
فيه لموقف مجلس النواب السورى الا أنه ، والحديث لصلاح البيطار ،
كان يخشى قيام انقلاب فى الجيش اذا ما قامت الوحدة ، لأن الجيش
السورى (ميسس واعتاد على قيام الانقلابات) .

قال جمال عبد الناصر لصلاح البيطار (أمضيت خمس سنوات
لأبعاد الجيش المصرى عن السياسة) .

وبدا أكرم الحوراني وصلاح البيطار اتصالات جديدة مع الضباط
السوريين قائلين لهم أن الوحدة قد أصبحت تتوقف عليهم ، وحضر الى
سوريا حافظ اسماعيل مدير مكتب عبد الحكيم عامر فى ذلك الوقت
 واجتمع مع المجلس الثورى فى مكتب عفيف البرزى بحضور الضباط
المصريين عبد المحسن أبو النور وأحمد زكى عبد الحميد . . وحضرت دائرة
المناقشات فى تأثير الوحدة على الضباط من ناحية التنقلات والترقيات
وفقد بعض الامتيازات واحتمال الانتقال الى مناصب مدنية . . ودفعت
الحماسة أمين الحافظ الى القول (نعطيك وعد شرف بأن جمال عبد الناصر
لو أعطانا أمر بنسف حلب سأنفذ الأمر) . واعترض أحمد عبد الكريم
كما قال لى محتجا (. . لن أقصف حلب) ومع ذلك كان أحمد عبد الكريم
وأمين النافورى حسب قول صلاح البيطار ، وهما ليسا من ضباط البعث ،
من أكثر الضباط نشاطا فى الدعاية للوحدة والتمسك بها . وانتهى
الأمر الى اتخاذ قرار بسفر ٢٢ ضابطا من المجلس الثورى برئاسة عفيف
البرزى فى زيارة سرية الى القاهرة دون الاستئذان من رئيس الجمهورية
شكرى القوتلى أو وزير الدفاع خالد العظم .

وصل الضباط الى القاهرة ليلة عيد ميلاد جمال عبد الناصر فى
١٥ يناير واجتمعوا به فى منزله حيث كانت باقات الورد تبعث الشذى فى
أرجاء المنزل ، بعد عودته من الأقصر حيث كان مع ضيفه تيتو ، وظل
عبد الناصر على تحفظه قائلا (الدول سوف تقاوم الوحدة وعلينا أن نعيد
تقييم الموقف) .

واجتمع مجلس الوزراء السوري برئاسة شكري القوتلي الذي أظهر غضبه لسفر مجموعة من الضباط دون اذنه . . ولكن المناقشات انتهت الى أهداف سفرهم النبيلة تغفر لهم أسلوبهم وخاصة أن هذه ليست أول مرة يتدخل فيها الضباط بأسلوب عسكري جامح .

وقرر مجلس الوزراء سفر صلاح البيطار الى القاهرة مفوضا من الحكومة لاجراء مفاوضات بعد أن كان أمين النافوري قد عاد الى دمشق لابلأغ شكري القوتلي بحضورهم بناء على طلب جمال عبد الناصر الذي أراد تحاشي أية حساسيات تنتج عن حركتهم .

يقول صلاح البيطار أنه لم تكن هناك دراسة علمية واقعية لموضوع الوحدة . . وأنه أثناء المباحثات التي دارت في قصر الطاهرة وضع اختلاف الآراء بين الضباط الحزبيين السوريين والمستقلين .

كان الشيوعيون والبعثيون يؤيدون فكرة الاتحاد الفيدرالي . بينما الآخرون يصرون على الوحدة الكاملة .

وفي مواجهة الموقف حدد عبد الله الريساوي عضو القيادة القومية لحزب البعث بالاستقالة من الحزب اعتراضا على الاتحاد الفيدرالي وتمسكا بالوحدة .

وتجاوب مع هذا الاتجاه ، ضباط الجيش السوري الذين لم يناقشوا فكرة الوحدة ولا أبعادها السياسية من قبل ، وانما اندفعوا اليها اندفاعا عاطفيا محموا ، فأصبحوا - على حد تعبير صلاح البيطار مفوض الحكومة - مركز قوة حقيقيا يتساءل عن الفرق بين الاسكندرية ودمشق .

واضطر صلاح البيطار تحت ضغط هذا التيار الى التغلّي عن رأى حزب البعث الذي أقر الاتحاد الفيدرالي ، ووافق على الوحدة الشاملة التي فرضها العسكريون السوريون .

يقول أكرم ديري أن عقلية الضباط تأثرت بالوحدة تاريخيا منذ نضالهم ضد الامبراطورية العثمانية . . ومنذ حفظوا في التعليم الابتدائي هذه الأبيات من الشعر على ظهر قلب .

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن مصر الى يمن الى نجد فتطوان

كان المجلس الثوري السوري قد قدم مذكرة بضرورة اتمام الوحدة وعدم تمييعها .

وجابه جمال عبد الناصر موقفا لم يستطع معه الاستمرار في الرفض أو التردد . . . وانتقل موقفه الى تأييد الوحدة الشاملة وليس الاتحاد الفيدرالي وذلك حتى تتجمع كل خيوط لدولة الجديدة في يده وتحت قيادته .

وصل جمال عبد الناصر الى هذه النتيجة بعد دراسة وافية للتقارير التي رفعت اليه .

« الفروق كبيرة والواقع مختلف ، وقبول الوحدة محفوف بالخطر ، والنصيحة هي التأجيل » هكذا كتب شعراوي جمعة وأمين هويدى وكيلا المخابرات العامة في ذلك الوقت بعد زيارة امتدت شهرا طافا فيها أرجاء سوريا كلها .

ولكن عبد اللطيف البغدادى يقول (اضطررنا للاستجابة تفساديا لنفوذ الشيوعيين المتزايد في سوريا) .

كان تردد جمال عبد الناصر نابعا من :

- عدم وجود حدود مشتركة .
- اختلاف التجارب السياسية والاقتصادية .
- طبيعة الجيش السوري ورسوخ ظاهرة الانقلابات فيه .
- تهديدات الغرب التي لا تقبل قيام دولة وحدة عربية مناهضة للامبريالية .

وكان قبول جمال عبد الناصر نابعا أيضا من :

- التيار الشعبى الشديد المؤيد للوحدة في سوريا .
 - اجماع العسكريين السوريين على الوحدة وقبولهم قيادة جمال عبد الناصر بلا تردد .
 - الخوف من انتشار الشيوعية في سوريا ومصر .
 - الطموح الى ظهور أول تحقيق عملي للقومية العربية ممثلا في أول دولة للوحدة .
- في حديث مع الصحفي الفرنسى بنوا ميشان على احتمال قيام اتحاد بين مصر وسوريا قال جمال عبد الناصر :
- هذا ليس محتملا . . . انه أكيد .

ـ متى ؟

ـ ربما خلال ١٩٥٨ وربما بعدها .. التقرير ليس لي .

ـ كيف لا يعود لك ؟

ـ لأن القضية ليست ضم بلد الى بلد ، انها قضية اندماج والامر لم يتضح بعد .. سننتظر رغبة السوريين .. أنا لست فائحا .. أنا كما تقولون بالفرنسية « مغنطيس » .

كان السوريون قد حضروا فعلا يطلبون الوحدة .

ولكن ..

كان هناك شرطان لجمال عبد الناصر .

الأول : إبعاد الجيش عن السياسة سواء في مصر أو سوريا .

الثاني : تكوين قيادة سياسية واحدة .

ويؤكد صلاح البيطار أن جمال عبد الناصر في البداية كان موافقا على استمرار حزب البعث باعتباره تنظيمًا قائمًا .

ولكن تطورات الأمور انتهت الى ضرورة الغاء كافة الأحزاب والقوى السياسية ، هذا الاتحاد القومي الذي بدأ تشكيله مع الوحدة في سوريا أيضا وذلك نتيجة لمعارضة بعض الضباط والسياسيين السوريين .

وخلال وجود الضباط السوريين وصلاح البيطار تشكلت لجنة لبحث شئون الوحدة من صلاح البيطار وعلى صبرى وعفيف البرزى وعبد الحميد السراج وأكرم ديري وأحمد جنيدي وعبد الغنى قنوت ومحمد فهمى السيد .

عاد الضباط السوريون الى دمشق ، وحضر الى القاهرة شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية ، وصبرى العسلى رئيس الوزراء وأكرم الحوراني رئيس المجلس النيابى السورى ، وعدد من الوزراء حيث عقدوا عدة اجتماعات فى قصر القبة مع جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر وذكريا محي الدين وانتهى الأمر الى توقيع ميثاق فى أول فبراير ينص على توحيد مصر وسوريا فى دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة يتولى السلطة فيها رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ، ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد ، ويكون للجمهورية علم واحد وجيش وشعب يتساوى أبناؤه فى الحقوق والواجبات .

الفصل الثانى

اعلان الوحدة

(تحليل الوضع فى العالم العربى
على أساس الماركسية اللينينية
يؤدى حتما الى اعتناق شعار
الوحدة العربية) •
خالد بكداش

تقرر أن يلقي جمال عبد الناصر وشكري القوتلى بيانين أمام مجلس
الأمة المصرية ومجلس النواب السورى لشرح أسس الوحدة على أن يتم
الاستفتاء عليها خلال ثلاثين يوما •• وقد كتب البيانين صلاح البيطار
وفتحى رضوان وعفيف البزرى •

ولذا أسرع الملك سعود بمحاولة وقف الوحدة قبل اتمامها وهدمها
قبل اعلانها والاستفتاء عليها ، واتصل الملك سعود بعبد الحميد السراج
يغريه بأى مبلغ يطلبه ليمنع الاستفتاء على الوحدة •

ولم يكن هذا هو الاتصال الأول فى محاولة اقامة نظام موال للغرب •

اتصل يوسف يس مستشار الملك سعود بالرئيس شكري القوتلى
يعرض عليه اقامة حلف اسلامى والابتعاد عن الاتحاد السوفيتى • وكان

القوتلى على علاقة طيبة مع السعوديين وخاصة فى فترة ابتغاده عن رئاسة الجمهورية .

لم يستجب القوتلى لذلك فقد كان الأمر أقوى من الرغبة الشخصية .
وتيار التحول الوطنى الجارف كان يلتقى مع الدول الاشتراكية فى مسار واحد . . وسوريا كانت قلبه عقدت - بعد مصر - صفقة من الأسلحة السوفيتية فى ربيع ١٩٥٦ ووقف الاتحاد السوفيتى الى جانبها وقفة . . حازمة أثناء الحشود التركية على حدودها .

وبعد عرض يوسف يس اتضل المالحق العسكرى الأمريكى .
بعبد الحميد السراج وأبلغه أن حكومة الولايات المتحدة قد زهقت من الأحزاب .

وربط السراج هذه الخيوط ببعضها البعض وعندما أبلغ صلاح البيطار بذلك نصحه بمقابلة جمال عبد الناصر فسافر الى مصر فى خريف ١٩٥٥ .

ومع ذلك لم يصدق جمال عبد الناصر فى البداية محاولة الملك سعود الأخيرة والتي علم بها عن طريق تقرير حمله رسول خاص من السراج وصل الى القاهرة يوم توقيع شكرى القوتلى وعبد الناصر على بيان الوحدة .
كان الملك سعود قد كتب شيكا لعبد الحميد السراج رقم ٨٥٩٠٢ مسحوباً على البنك العربى بالرياض بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٥٨ بمبلغ مليون جنيه استرلينى .

وطلب عبد الناصر من السراج صرف المبلغ فعلا فصرفه ووضع فى البنك العربى بدمشق وصرف شيكين آخرين رقم ٨٥٩٠٣ بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه استرلينى ، ٨٥٩٠٤ بمبلغ ٢٠٠ ألف استرلينى . .

وكانت فضيحة للنظام السعودى المتآمر بالمال .

محاولة لم تمنع الاستفتاء . . ولم تمنع الوحدة .

تم الاستفتاء يوم الجمعة ٢١ فبراير ١٩٥٨ على الوحدة وعلى رئيس الجمهورية . . وكانت النتيجة الموافقة بنسبة تتجاوز ٩٨٪ على الوحدة . . وعلى انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا . . وأصبح شكرى القوتلى المواطن الأول .

وزار جمال عبد الناصر سوريا يوم ٢٤ فبراير لأول مرة ، وكان استقباله فيها تعبيرا قويا عن الإزادة الشعبية الجارفة نحو الوحدة . .

ولم يكن خالد بكداش سيكرتير الحزب الشيوعي موجودا بدمشق
عند زيارة عبد لناصر لها .. كان قد غادر سوريا بعد جلسة مجلس النواب
السوري التي عرض فيها مشروع الوحدة ، والذي وجهه الشيوعيون فيه
تنافرا شديدا مع أفكارهم ومعتقداتهم عن الوحدة .

قال لي خالد بكداش ميجيبا على تساؤل عن موقف الحزب الشيوعي
السوري من قضية الوحدة :

— لقد أبدى حزبنا منذ زمن طويل رأيه بأن شعار الوحدة العربية
ليس وليد نشاط أو دعاية حزب من الأحزاب .. بل هو منبثق من اوضاع
الموضوعي للبلدان العربية ، فتحليل الوضع في العالم العربي على اساس
الماركسية اللينينية يؤدي حتما الى اعتناق شعار الوحدة العربية .. فهو
اذن شعار تمليه علينا مبادئنا نفسها .. وكل ادعاء آخر حول موقفنا
نحن الشيوعيين من الوحدة العربية هو كلام باطل .

ويمكن تلخيص رأى الشيوعيين السوريين في قضية الوحدة بما
قاله لي خالد بكداش أيضا :

— لقد دعونا دائما الى أن تؤخذ في كل مشروع أو سعي الى الوحدة
الظروف الموضوعية في كل بلد عربي بعين الاعتبار .. ولا يزال عند رأينا .
فحتى بعد ازالة الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة من الحكم تبقى لكل بلد
ظروفه الموضوعية وان تغير محتواها ، أو طرأ عليه بعض التعديل من
الناحية الاقتصادية والاجتماعية .. وعلى كل حال يجب التمهيد للوحدة
العربية لاقامة علاقات اجتماعية اخوية بين البلدان العربية المتحررة تخلق
جوا من الثقة المتبادلة التي يجب أن تتعاضد خلال التعاون السياسي
والثقافي والاقتصادي .

اتمام الوحدة بين مصر وسوريا تم في عجلة شديدة تحت ضغط
العسكريين السوريين المدفوعين بالروح الوحشية والذين تأثر بعضهم
بمعتقدات حزب البعث والذين اتفقت آراؤهم مع اختلاف وجهات انظارهم
على أن الوحدة فيها تحقيق لهدف تتطلع اليه الجماهير .

وفي فترة الاتفاق على الوحدة كانت مصر وسوريا تعيشان في ظل
النظام الرأسمالي مع فوارق محدودة .

ولم تكن مصر قد تجاوزت مرحلة الحيرة والبحث عن الطريق
الجديد ، ولم تكن قد لجأت الى أية اجراءات تحد من النمو الرأسمالي .
كل الاجراءات التي اتخذت حتى ذلك الوقت كانت تمصير الشركات
الانجليزية والفرنسية والتركية .

كانت الاشتراكية الديمقراطية التعاونية هي الشعار المرفوع ،
وكانت المصالحة الاجتماعية وحشد كل الطبقات في تنظيم الاتحاد القومي
هي الوسيلة السائدة .

ومع ذلك لم توظف البرجوازية المصرية أموالها في التصنيع لما لمسته
من تصميم العسكريين على احتكار السلطة وتوجيهها ووضعها تحت
وصايتهم . . وذلك بعد انشاء وزارة الصناعة ومجلس التخطيط الأعلى
والمؤسسة الاقتصادية ولجنة التخطيط القومي .

كان هناك تهيب فرضته طبيعة السلطة حال دون انطلاق البرجوازية
المصرية في التصنيع والاستثمار .

أما في سوريا فإن فرص البرجوازية كانت متاحة ومطلقة الى أبعد
الحدود . . . والأحزاب الحاكمة (الشعب والوطني) لم يكن التغيير
الاجتماعي واراد في برامجها . . وحزب البعث رغم زيادة نفوذه وتولى
قاداته بعض المراكز الرئيسية في الدولة (رئاسة المجلس النيابي ووزارة
الخارجية) الا أنه كان بعيدا عن النفوذ الحقيقي القادر على توجيه السلطة .

تمت الوحدة في وقت كانت البرجوازية المصرية فيه تميل الى
الانكماش . . بينما البرجوازية السورية لم تعرف بعد أية قيود .

والنظرة الى الواقع الاجتماعي في مصر وسوريا كانت تشير الى
العراق النسبية للبرجوازية المصرية وقدرتها العالية على التصنيع والتي
وصلت مع طلعت حرب وبنك مصر الى مستوى اقتصادي لم تصل اليه
البرجوازية السورية .

الامكانيات المتاحة للبرجوازية المصرية من الأموال والسوق والخبرة
كانت أكثر توافرا ، ولكن البرجوازية السورية وجدت في الوحدة فرصة
للمنشاط في سوق كبير . . حيث أعطيت تسهيلات كبيرة في العمل
بمصر ، وانتهزت فرصة إلغاء الجمارك وتحديد سعر تشجيعي للعملة
« الجنيه المصري » واليرة السورية ، وغزت أسواق القاهرة بمنتجاتها
وزاحمت بذلك البرجوازية المصرية . . والغريب أن مجموعة من أصحاب
المصانع العاملين في مصر قد توجهوا الى الدكتور عبد المنعم القيسوني
مطالبين بتكافؤ الفرص في التعامل والحصول على التسهيلات الممنوحة
للبرجوازية السورية .

وتبين للدكتور عبد المنعم القيسوني أن المعارضين والمطالبين بحقوق
متساوية هم من العائلات السورية التي بدأت نشاطها الصناعي في مصر
قبل الثورة مثل سماقية والشوربجي وقباني .

وأخذ الدكتور القيسوني الموضوع في استخفاف وقال لهم (أنتم
سوريين في بعض) ولكن الواقع أن الفرصة التي أتاحت لنشاط
البرجوازية السورية كانت دافعا لها على التسلل الى مصر بينما لم تتجه
البرجوازية المصرية الى أى نشاط في سوريا .

ومع ذلك فإن مستوى دخل الفرد في سوريا كان مرتفعا عن مستوى
دخله في مصر ، كان مرتب خريج الجامعة في سوريا يصل الى حوالى
ضعف مرتب زميله الخريج في مصر . . . لذلك كانت الفروق الاجتماعية
في سوريا أقل حدة وأقل وضوحا عنها في مصر .

وهجوم السلطة الثورية في مصر من ناحية التغير الاجتماعى كانت
تؤثر في حركتها وفي قراراتها . . بينما لم تكن هذه قد استولت على أحد
بعد في سوريا .

منهاج الوحدة ترك للدستور الذى فوض جمال عبد الناصر لوضعه ،
وكان البعث يرى فى عبد الناصر الزعيم الذى نقل الوحدة العربية من
الفكرة النظرية الى الواقع التطبيقي .

ولذلك قبل حزب البعث أن يحل نفسه تنظيما في سوريا ، وكان
هذا أمرا جديدا في تاريخه . . . اذ لم تكن تمضى سبع سنوات على دمج
وتأسيس الحزب حقق فيها انتصارات وضحة في مجال السياسة الداخلية
حتى جابه موقفا يفرض عليه انتهاء وضعه التنظيمي .

قال لى أكرم الحوراني ردا على سؤال عن الأسباب التي دفعت به الى
التضحية بالكيان التنظيمي لحزب البعث ، أنه وزملاءه قد قبلوا حل
الحزب في سوريا لثقتهم الشديدة بعبد الناصر واقتناعهم بأن خطوة
الوحدة أئمن من أن تنهض أمامها أية عراقيل .

ولم يقبل الحزب الشيوعي السوري مبدأ حل التنظيمات وهو الذي
يتحرك سريريا بواجهة علنية . . وسافر خالد بكداش الى الخارج فور اقرار
الوحدة تحاشيا لصدام مباشر مع السلطة الجديدة وتمسكا بتنظيم الحزب
ودوره .

وكان قد سبق له أن سافر في فترة انقلاب حسنى الزعيم .

الوزارة الجديدة للجمهورية العربية المتحدة التي شكلت يوم
٦ مارس ١٩٥٨ ضمت أربعة نواب لرئيس الجمهورية : مصريان هما
عبد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر وسوريان هما أكرم الحوراني
وصبرى العسلى .

بعض الوزارات كانت واحدة للاقليمين (الشمالي والجنوبي)
أو سوريا ومصر كما اعتاد المسئولون وأجهزة الاعلام أن يلقوا عليها ..
مثل وزارة الداخلية التي تولاهما زكريا محي الدين والخارجية كمال الدين
حسين والارشاد القومي فتحي رضوان والأوقاف أحمد حسن الباقسوري
والخارجية (دكتور محمود فوزي) والصناعة (عزيزي صدقي) .

هذا الى جانب وزارة الحربية التي تولاهما (عبد الحكيم عامر)
وجميعهم من المصريين .

بقية الوزارات وزعت على الاقليمين ودخل الوزارة للمرة الاولى
اربعة من العسكريين السوريين .. عبد الحميد السراج للداخلية تحت
اشراف زكريا محيى الدين ، ومصطفى حمدون للشئون الاجتماعية ،
وأحمد عبد الكريم للشئون البلدية والقروية وأمين النافوري للمواصلات .

كانت وزارة الوحدة بداية لعهد جديد تغيرت فيه سبع وزارات
خلال اربع سنوات بالتحديد منذ خروج الشيشكلي .

وهكذا منذ الوزارة الاولى للوحدة بدأ العسكريون السوريون الذين
كانوا بعيدين عن السلطة التنفيذية وعن مناصب الوزراء حتي ذلك الوقت
يدخلون الى قمة السلطة .

أصبح الموقف في سوريا امتدادا للموقف في مصر .. اختيار
العسكريين لممارسة أعمال سياسية وإدارية ليسوا مؤهلين لها .. وما أظن
أن ضباط الجيش كانوا أقدر من يتولى مسئولية الشئون الاجتماعية
أو الشئون البلدية أو المواصلات أو غيرها .

والضباط الذين دعوا للوحدة وتحمسوا لها من مواقعهم السياسية
المختلفة ، كانوا أشد حرصا على تحقيقها كهدف وطني أكثر من حرصهم
أو تطلعهم الى المناصب الوزارية .

ولكن أسلوب اختيار الطريق الأسهل والاعتماد الرئيسي على
الضباط في تسيير المجتمع هو الذي أدى الى سلوك هذا السبيل .

وعندما يفرغ المجتمع من التنظيمات السياسية وتلقى الأحزاب ،
يصعب تكوين الكادر السياسي القادر على القيادة ، ويصبح الاعتماد على
العسكريين هو الطريق الأسهل . وما دام بعض العسكريين قد وصل الى
منصب الوزارة فلا بد من إرضاء الآخرين .. وأعد عبد الحكيم عامر نشرة
عسكرية يرقى فيها الضباط ، أعضاء المجلس الثوري السوري الذين لم

يعينوا وزراء ، ترقية استثنائية الى رتبة عميد مثل (اكرم ديري وطعمة
العودة الله وأحمد جنيدي، وجادو عز الدين وعبد الغنى قنوت وغيرهم) ..
ولكن الضباط أقنعوا عبد الحكيم عامر بعدم ضرورة ذلك .

وتضمنت النشرة أيضا تسريح ٩٤ ضابطا سوريا .

وهكذا سرت علوى التخلص من الضباط غير الموالين .

والولاء مسألة نسبية تتغير تبعا للظروف وتتحدد تبعا للحركة
السياسية .. كان حزب البعث - كما يقول اكرم ديري - وراء تحديد
أسماء هؤلاء الضباط الذين تقرر تسريحهم . وكان مصطفى حمدون قد
أعده كشفا للتسريحات يتخلص فيه من الضباط غير البعثيين ويقسم
الضباط الى كتل شيوعية وإخوان مسلمين وشوام وحلبين وعلويين .

كانت قد تشكلت لجنة ضباط للجيش الأول (تعبيرا عن الجيش
السوري) من ضباط سوريين ومعهم العميد عبد المحسن أبو النور حيث
كان يعمل معاونا لقائد الجيوش بعد أن كان ملحقا عسكريا لمصر في
سوريا .

وحدث صدام بين عبد الحكيم عامر وعفيف البرزى قائد الجيش
الأول السوري عندما اعترض المشير على نشرة تنقلات للضباط بناء على
تقرير رفعه عبد المحسن أبو النور وقال فيه أن النشرة تضع ٢٠ ضابطا
شيوعيا في أماكن قيادية .

لم يكن الأمر صحيحا على إطلاقه ، فلم يكن هناك ٢٠ ضابطا شيوعيا
في سوريا ممن يمكن أن يعينوا في مراكز قيادية كما كتب محمد حسنين
هيكل في جريدة الأهرام .. ولكن القضية كانت تتلخص في رغبة ضباط
البعث - وهم منتشرون في الجيش - في أهمية التواجد في المراكز القيادية،
وتكمن أيضا في رغبة مندوب القيادة المصرية في أن يكون متواجدا عند
كل قرار ذي دور نافذ في التوجيه .

رفض عفيف البرزى أي تغيير في نشرة التنقلات واحتج على المشير
غاضبا .. ولكنه فوجئ في صباح اليوم التالي بخبر تعيينه. مستنارا في
شئون التخطيط مكتوبا في الصفحات الأولى .. واستقبله عبد الناصر في
محاولة لترضيته ولكن الطعنة كانت أقوى من أن تبرا بكلمات فقد تركت
أثرا في تصرفاته دفعته في النهاية الى الخروج من سوريا والذهاب الى
العراق بعد ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ .

ثورة يوليو جا - ١٩٥٨ - ٧٢٢

أمكن التغلب ، إذن ، على قيادة الجيش ذات الميل اليسارية وأصبح
البعث بحكم كونه التنظيم الوحيد المتواجد داخل صفوف الجيش ،
صاحب تأثير فعال في تحريك الأمور .

وكانت ثورة العراق التي انفجرت بعد خمسة شهور من الوحدة
وأطاحت نهائيا بالعرش الهاشمي ذات تأثير كبير على الموقف في سوريا
ودفعت الى الحذر من نمو الأفكار الاشتراكية الحقيقية ، وخاصة بعد أن
لعب الحزب الشيوعي العراقي دورا علنيا في الحياة السياسية العراقية .

وقد تفاقمت هذه الحساسية ونمت خلال تقارير أجهزة الأمن وانتهت
الى اعتقال الشيوعيين السوريين في خريف ١٩٥٨ .

ولم يقف تأثير الموقف في العراق عند هذا الحد ، ولكنه تجاوزه الى
ما كشفت عنه محاكمات بغداد من أن صبرى العسلي نائب رئيس الجمهورية
العربية المتحدة كان قد تقاضى مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه من حكومة نوري
السعيد .

نشر صبرى العسلي بيانا قال فيه أنه قبض المبلغ عام ١٩٥٤ (وفي
ظروف مقاومة حكم أديب الشيشكلي وتدبير الثورة ضده) وتقدم الى
جمال عبد الناصر يطلب اعفائه من منصبه حتى تنتهى اللجنة التى شكلت
لدراسة وثائق حلف بغداد من مهمتها .

وتشكلت حكومة جديدة ذات ثلاثة مجالس فى أكتوبر ١٩٥٨ .
حكومة مركزية فى القاهرة تضم ٣ نواب لرئيس الجمهورية هم عبد اللطيف
البغدادي وعبد الحكيم عامر وأكرم الحوراني . وعدد الضباط فيها ١٢ من
مجموع أعضائها ٢٤ . ومجلس تنفيذى فى سوريا يرأسه نور الدين
كحالة وهو غير بعثي وتضم ٦ ضباط من مجموع أعضائها ١٤ . ومجلس
تنفيذى فى مصر يرأسه الدكتور نور الدين طراف ويضم ٥ ضباط من
مجموع أعضائها ١٥ .

زاد عدد أعضاء الضباط السوريين فى المناصب الوزارية ، وانتهى
تواجد الأحزاب السورية القديمة ، ولم يقبض البعث على السلطة
الحقيقية .

كان حل الحزب قد تم من الوجهة القانونية والتنظيمية فعلا ولكن
زمانة الماضي كانت تجمع بين الأعضاء السابقين للحزب مما دفع عبد الحميد
السراج وزير الداخلية الى ملاحقتهم ، واشتكى صلاح البيطار الى
جمال عبد الناصر فاستنعى السراج من دمشق وعقدوا اجتماعا ثلاثيا
لتصفية الخلافات والحساسيات .

ولكن الأمور لم تمض كما تخيل قادة حزب البعث عند اعلان الوحدة .

كان هو الحزب الوحيد المؤهل من وجهة نظره للمشاركة الفعليه في السلطة ، فهو صاحب الانقلاب الذى أطاح بالشيشكلي ، وهو صاحب الأغلبية في المجلس الثورى للضباط ، وهو الحزب الذى يرفع الوحدة العربية شعارا يتحمس لها ويعمل من أجلها .

وقد نجح خلال شهور الوحدة الاولى في ازاحة عفيف البزرى من قيادة الجيش وتولى بعض المناصب الوزارية .

المناصب الوزارية لم تكن جديدة على أعضاء الحزب . . . فصالح البيطار مثالا كان وزيرا للخارجية وأكرم الحوراني كان رئيسا لمجلس الشعب .

وجهات نظر . . . وخلافات

ولكن أعضاء الحكومة المركزية الذين كان لهم نظراء في الاقليمين لم تكن لهم سلطة عملية تنفيذية ، وقد اشتكى من ذلك أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية ووزير العدل ، وصالح البيطار وزير الثقافة والارشاد ، وكانت الوزارة المركزية قد احتلت مبنى فندق (هليوبوليس بالاس) الكبير في ضاحية مصر الجديدة بعيدا عن مكاتب العمل للوزارات المختلفة .

وفى لقاء مع جمال عبد الناصر اقترح أكرم الحوراني تشكيل قيادة سياسية للجمهورية العربية المتحدة من ثلاثة سوريين رشح لها ميشيل عفلق وصالح البيطار وهو ، وثلاثة مصريين ويختارهم جمال عبد الناصر على أن تكون قيادة غير معلنة .

كانت هناك لجنة قد شكلت برئاسة عبد اللطيف البغدادى وعضوية زكريا محيى الدين وأكرم الحوراني لقيادة سوريا ، ولكنها ظلت لا تعمل لانها كانت بلا سلطات .

استهدف أكرم الحوراني من ذلك خلق شعور بالمشاركة الفعالة في مركز السلطة واتاحة فرصة عودة النبض لتنظيمات حزب البعث . . . ولكن جمال عبد الناصر الذى كان ينفرد بالحكم والتوجيه في قمة السلطة رفض هذا التشكيل غير المعلن الذى يفرض نوعا من المشاركة غير المرغوب فيها .

وكان حزب البعث نفسه قد أسهم فى إطلاق يد جمال عبد الناصر فى تشكيل مجلس الأمة بناء على التفويض الممنوح له فى المادة ١٣ من الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة الصادر فى أبريل ١٩٥٨ .

ولم يتم تشكيل المجلس خلال الشهور الأولى للوحدة .

رفض اقتراح القيادة السياسية غير المعلنة الذر تقدم به أكرم الحوراني بذور بذور الخلاف المستمر بين القيادة ممثلة فى جمال عبد الناصر وبين حزب البعث . . وتجسدت الخلافات فى عدة نقاط رئيسية :

أولا : عضوية الاتحاد القومى . .

كانت العضوية مفتوحة للجميع . وكان من رأى البعث أن تحرم العضوية على الرجعيين والعملاء .

ثانيا : تعيينات الضباط .

كانت تعيينات الضباط فى المراكز القيادية الحساسة محل اعتراض الضباط البعثيين أو ذوى الميول البعثية . . ومثلا عندما صدر قرار بتعيين المقدم عبد الكريم النحلاوى فى ادارة كاتم أسرار الجيش الأول اعترض على ذلك مصطفى حمدون وكان وزير الاصلاح الزراعى . ولكن عبد المحسن أبو النور قال للمشير عامر أنه ليس حزبيا ، ومتدين . . وكانت هذه هى الصفات التى تعتبر جواز مرور للمراكز القيادية .

ثالثا : تحويل مجرى نهر الأردن .

اختلفت وجهات نظر جمال عبد الناصر وحزب البعث فى هذه القضية اختلافا كبيرا .

كان البعث يرى ضرورة التصدى لاسرائيل ومنعها بقوة السلاح من تحويل مجرى النهر ، وخاصة أن الجيش السورى سبق له أن قام بذلك قبل الوحدة عام ١٩٥٣ ومنع اسرائيل فعلا من عملية التحويل التى تتم على بعد ٦ كيلوا مترا فقط من الحدود فى المنطقة المجردة من السلاح . . . وكان جمال عبد الناصر يخشى أن يتحول الصدام المحدود الى حرب كبيرة ، كان يرى أن قواته المسلحة ليست مهيأة لها .

كان جمال عبد الناصر يفرق بين التصدى لاسرائيل اذا حاولت تحويل مجرى النهر ، وبالنسبة للمنطقة المجردة من السلاح كان الجيش الأول السورى عنده تعليمات صريحة بأن يقاوم بالقوة كل محاولة لتحويل مجرى نهر الأردن من المنطقة المجردة عند جسر بنات يعقوب . وهى

نفس المنطقة التي أطلق عليها الجيش السوري مدافعه عام ١٩٥٣ الأمر الذي جعل كبير المراقبين يتدخل ومجلس الأمن يقرر وقف أعمال التحويل .

أما اذا حاولت اسرائيل تحويل مجرى النهر من داخل أراضيها فان الأمر عندئذ يختلف لأنه سوف يكون بعيدا عن المنطقة المجردة وهي حالة لا تنطبق على اتفاقية الهدنة .

وتشكلت لجنة فرعية لبحث الموضوع وتقديم تقرير بذلك . من البغدادي والهوراني والبيطار وعلى صبرى والشرباصى وأحمد عبد الكريم ومحمود رياض وصلاح الطرزي . وعقد بعد ذلك اجتماع أخير للرئيس ونواب الرئيس والوزراء . وارتفعت فيه حرارة الجدل بين أكرم الهوراني الذي تحدث عن مشروع جونستون ووقوف سوريا ضده حتى رفض نهائيا ، وبين جمال عبد الناصر الذي أراد أن يفرق بين إطلاق النار على المنطقة المجردة وبين القيام بعمليات محدودة غير محسوبة بدقة ، كما طالب الهوراني مؤيدا رأيه بأن مجلس الأمن سوف يتدخل ويمنع التحويل كما حدث في عام ١٩٥٣ .

قال لي صلاح البيطار أن حرارة المناقشات ارتفعت حتى اختلط الحديث وأخذ طابعا اقليميا استفزازيا وخاصة عندما المح جمال عبد الناصر الى احتمال ضرب دمشق بالطائرات ، وانبرى أمين النافورى مؤكدا أن دمشق لم تهب أبدا قصف طائرات العدو وأنها مستعدة لتحمل كل التضحيات . وعندئذ قال عبد الناصر ، وحسب رواية صلاح البيطار (والله يا أخ عبد الحكيم اذا كان البحث يجرى على هذا النحو فلتقم قواتك بالهجوم على اسرائيل منذ الغد) .

انتهت الجلسة بعد مناقشات عاصفة لم يضع أثرها من النفوس .

ولاشك أن وقوع هذا الخلاف في عام ١٩٥٩ وهو العام الذي ساد فيه الخلاف بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الاتحاد السوفيتي . أو بين جمال عبد الناصر وخروشوف شخصيا ، كان عاملا من العوامل الهامة التي أثرت في تقدير جمال عبد الناصر للموقف إذ أنه كان في وقت كانت فيه علاقاته مع الأصدقاء يشوبها التوتر ، وعلاقته مع الأعداء لم تتحسن . .

وتجمعت هذه الخلافات لتظهر في موقف ايجابي اتخذته مصطفى حمدون . الذي كان وزيرا للإصلاح الزراعي ، وكانت له وجهة نظر في أن الملاك لا يجوز لهم تحديد أرضهم المطبق عليها القانون في أكثر من

موقعين، وهي بحد أقصى ٤٠٠٠ دونم سورى ، ويقول مصطفى حمدون أن جمال عبد الناصر كان يؤيد فى الراى بينما كان عامر وزكريا محيى الدين يعارضان رايه .

وأعطى مصطفى حمدون تصريحاً لوكالة أنباء الشرق الأوسط بوجهة نظره . . . واعتبر عامر ذلك تحدياً له ، فسافر الى القاهرة وغاب أسبوعاً ثم عاد الى دمشق لينشر فى جريدة الأيام أن لجنة برئاسة مصطفى حمدون وعضوية ٣ وزراء سوف تناقش مشاكل الإصلاح الزراعى .

اعتبر ذلك حمدون إهانة له ، وأصر على تقديم استقالته ، فقال له المشير عامر ان الاستقالة تعنى مؤامرة على الوحدة .

كان المشير قد عين نائباً وحيداً لرئيس الجمهورية فى سوريا بصلاحيات الرئيس فى أكتوبر ١٩٥٩ .

ولم يستقل مصطفى حمدون وحده . . وإنما استقال عبد الغنى قنوت أيضاً .

واستدعاهما جمال عبد الناصر لمقابلته فى القاهرة .

عندما حضر الاثنان لم يكن فى استقبالهما أحد فى مطار القاهرة .

ويقول مصطفى حمدون أنهما وقفا أمام ضابط الجوازات فى صف الركاب حتى تنبه لأنهما من الوزراء .

وليس معروفا ما اذا كانت القاهرة قد علمت بموعد حضورهما ، وما اذا كان الموقف متعمداً أو غير متعمد . ولكن الحساسية كانت قد تأججت فى النفوس .

وفى صباح يوم وصولهما كان أكرم الحوراني وصلاح البيطار قد أرسلوا أيضاً خطابات استقالتيهما لجمال عبد الناصر ، رغم أنهما كانا معا فى احتفالات الجلاء ببور سعيد ، وتناولوا الغداء معا فى القطار أثناء عودتهم . . . وكانت مفاجأة لعبد الناصر .

وجد أكرم الحوراني وصلاح البيطار أنه يجب اتخاذ موقف التضامن مع الزملاء العسكريين فى الحزب .

ووجد جمال عبد الناصر أمامه استقالة جماعية من أربعة وزراء . . وبعد أن كان مصرأ على رفض استقالة حمدون وقنوت . . . قرر أن يلتقى بالمستقيلين واحداً بعد الآخر . . . ويوما بعد يوم .

ودارت فى المقابلات مناقشات عن الأوضاع ، أساسا حول الخلافات
التي أشرت اليها .

ثم انتهى الأمر بقبول استقالة الوزراء البعثيين الأربعة فى ٣١
ديسمبر ١٩٥٩ .

يقول مصطفى حمدون أن اللقاء الأخير مع عبد الناصر كان جياشا
بالعواف التي دفعتهم الى البكاء .

وعاد الوزراء الى دمشق مواطنين عاديين وكان طلبهم الأخير من
عبد الناصر أن يستدعيهم اليه اذا ما شوهت تقارير أجهزة الأمن
صورتهم لديه .

وهكذا انطوت صحيفة البعث فى حياة الجمهورية العربية المتحدة . .
وتمزق الحلم الذى راود قادته وجماهيره ، فى أداء دور فعال لدعم دولة
الوحدة الأولى .

ويقتضى الموقف تفسير العلاقة بين البعث وبين القادة فى مصر .

ليس من شك فى أن البعث كان حزبا جماهيريا ، فرض نفسه على
الجماهير العربية مع الحرب العالمية الثانية ، عندما قدم أفكارا قومية
 واجتماعية أثارت الانتباه والاهتمام وجذبت طموح الناس الى حياة
أفضل .

وليس من شك أيضا فى أن الحزب كان يمثل تيارا جديدا فى الحياة
السياسية العربية يشق طريقه وسط أحزاب رجعية ثم ديكتاتوريات
عسكرية فى ظروف كانت بالغة الصعوبة أحيانا .

ولكن حزب البعث كان يتبنى عقيدة كونه الحزب الوحيد المؤهل
لقيادة الأمة العربية يرفض الأحزاب والأنظمة الحاكمة لأنها رجعية ،
ويرفض التيارات اليسارية والشيوعية بمنطق أنها تترتوى من نبع غير
عربى وهو منطق لم تثبت الأيام صحته على مدى التجارب التاريخية .

هذه العقيدة جعلته يحاول فرض نفسه بها على الأمة العربية
وحده ولكن فكرته لم تنتشر الا فى المشرق العربى (سوريا والأردن
والعراق ولبنان) وبقيت قيادته القومية بعيدة عن تمثيل شعب
مصر والسودان وشعوب المغرب العربى .

البعث والعسكريون المصريون :

لم يحدث اتصال حقيقى بين البعث وبين الشعب المصرى فقد
كانت هناك أحزاب ودائية تقود النضال الوطنى مثل حزب الوفد ، وأحزاب

أخرى تبشر بأفكار اجتماعية تقدمية مثل الحزب الاشتراكي والوطني الجديد الى جانب التنظيمات الشيوعية التي استقطبت أنصار التقدم الاجتماعي .

لم تكن فرصة البعث سهلة في الوصول الى مصر لأن هذه الأحزاب المصرية سبقت تكوين البعث في أواخر الأربعينات كحزبين أو في أوائل الخمسينات كحزب موحد .

ويبدو أن تركيز قيادة البعث كان قاصرا على المشرق العربي . . . وأن أكرم الحوراني زار مصر للمرة الأولى ضمن الوفد البرلماني السوري الذي مهد للوحدة في ديسمبر ١٩٥٧ . . . ولم يفكر في الاقتراب سياسيا من العسكريين أو السياسيين المصريين الذين التقى بهم .

أول اتصال لأكرم الحوراني مع العسكريين المصريين كان في معسكر قطنة عام ١٩٤٨ مع اللواء صالح حرب الذي ذهب الى هناك لدراسة امكانيات المساهمة في حرب فلسطين .

ويقول أكرم الحوراني أن صالح حرب قد استلقت نظره بتقشفه ونومه على الأرض مثل العساكر في البرد القارس .

والتقى أكرم الحوراني أيضا بأحمد حسين زعيم مصر الفتاة في ذلك الوقت ولكنه لم يتناقش معه في فكرة التعاون السياسي ، ولذا فقد بقي البعث بعيدا في المشرق العربي لم تجذبه أحداث مصر كما جذبت أحداث العراق مثلا عندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني وانضم اليها عدد من السوريين كان في مقدمتهم أكرم الحوراني أيضا والضباط توفيق شانيلا ومحمد صفا الذين سلكوا طريق الصحراء ، واستقبلوا في العراق استقبالا طيبا ، لأنهم كانوا قادرين على استخدام الأسلحة الفرنسية التي أمدتهم بها حكومة فيشي بناء على أوامر من ألمانيا النازية .

وبعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وعودتهم الى سوريا اعتقلتهم القوات الفرنسية في دير الزور مع بعض ضباط الجيش العراقي ثم نقلوا الى حلب حيث اطلق سراحهم بعد انهيار حكومة فيشي واقتربا البريطانيين .

ومضت حرب فلسطين أيضا دون أن تعقد صلة بين البعث ومصر . . . ويقول أكرم الحوراني (ان فرصة العمر قد ضاعت لأننا لم نتصل بالضباط المصريين في الجنوب) وذلك لأن السوريين كانوا في الجليل . الصلة غائبة بين البعث والحركة الشعبية المصرية . . . وقد أيد الحزب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ولكنه عارض خطواتها غير الديمقراطية في

ضرب الأحزاب الوطنية وقسوتها في محاكمات الإخوان ٠٠٠ وكان الحزب ينظر اليها نظرتة الى أديب الشيشكلي ونظامه وخاصة بعد استقباله والترحيب به في القاهرة ٠ وكان أول لقاء بين ثورة يوليو والبعث بمبادرة مصرية من جمال عبد الناصر الذي أرسل كمال رفعت ولطفى وأكد للدول العربية خلال معركته ضد حلف بغداد ٠٠٠ وهناك تم أول لقاء بين قادة البعث ومندوبي قيادة مصر ، وكانوا من العسكريين ٠

بعد زيارة الحوراني الأولى لمصر تكررت زيارته وتعدد معارفه ونشطت محاولاته للتأثير في الحياة السياسية المصرية ٠

وكان الحزب يكسو تفكيره دائما رداء قومي ٠٠٠ ولذا فانهم عندما فكروا في تقديم الاستقالة لم يرغبوا في أن تكون اقليمية الطابع بل أرادوا لها أن تكون قومية المظهر ٠٠٠ فاتصل ميشيل عفلق مع الصاغ داوود عويس من مكتب المشير عامر بمصر (وهو ضابط بدأ صاحب أفكار يسارية من المرشحين لقسم الضباط في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ثم مضى به التيار وحده) وقال داوود عويس لميشيل عفلق انه يمكن اقناع عباس رضوان وتوفيق عبد الفتاح بالاستقالة المشتركة ٠٠٠ ولكن هذا كان جموحا وراء السراب ٠٠٠ فان العسكريين المصريين ما كانوا ليقبلوا من أجل البعث أولا ، وليس من أسلوبهم الاستقالة ثانيا ، فقد كان لهم طبيعة الموظفين أكثر من طبيعة الثوريين ٠

وانتهت المرحلة التي عبر عنها الكاتب محمد عودة ، بقوله « أن هناك حزبا يحتاج الى قائد ، وقائدا يحتاج الى حزب » وكما صدرت نشرات فصل بعض الضباط من الجيش بتهمة الشيوعية ، بدأت تظهر نشرات فصل بتهمة الانتماء لحزب البعث ٠

الضباط المصريون :

العجلة تدور ٠٠٠ والأحزاب مرفوضة ٠٠٠ وسلطة الجيش هي الوحيدة التي تشكل مصدر الخطر ٠

الاتحاد القومي تنظيم من ورق ٠

الضباط المصريون يتولون مناصب قيادية في الجيش السوري ٠٠٠ اللواء أنور القاضي رئيسا لأركان حرب الجيش ، والعميد أحمد علوي كاتم أسرار الجيش ، والعميد أحمد زكي عبد الحميد مسئولاً عن التنظيم والإدارة ٠

لم يكن تعيين الضباط المصريين في الجيش السوري خطأ من ناحية المبدأ فهم مؤهلون لذلك عسكريا ولهم زملاء من الجيش السوري درسوا

معهم فى كلية اركان الحرب بالقاهرة قبل الوحدة مثل مصطفى حمدون
وعبد الغنى قنوت وأحمد عبد الكريم وغيرهم كثيرون .

والمفروض أن تتدرج الوحدة حتى يتم الدمج .

ولكن حركة تنقلات الضباط المصريين أضعفت من ثقة زملائهم
السوريين بهم ، فبعد أن كان الانتداب الى سوريا قاصرا على أصحاب
الكفاءات تجاوز ذلك بعد الوحدة الى الوساطة كمساعدة مادية لظروف
الزواج أو عذر مالى مما جعل بعض الضباط من رتبة الملازم ثان ينقلون
الى سوريا .

وكانت هذه التنقلات سواء من سوريا الى مصر أو من مصر الى
سوريا تكلف الكثير .

قال لى أحمد كامل رئيس المخابرات السابق وقائد وحدة مدفعية
مضادة للطائرات فى حلب عام ١٩٥٩ ان الرائد المصرى فى سوريا كان
يحصل على ١٥٠٠ ليرة شهريا كبديل سفر والرائد السورى فى مصر يحصل
على مرتب ٢٠٠ جنيه شهريا . وبدأ بعض الضباط المصريين يتمركزون فى
مراكز القيادة وتطعم وحداتهم بضباط مصريين عبد المحسن أبو النور
مثلا أصبح نائب قائد الجيش الأول ومطلق الصلاحيات . وزاد من
شعور الجفاء للضباط المصريين وضع علامات خاصة على عربات الضباط
المصريين مما جعل حركتهم مرصودة فى المجتمع .

وكذلك فان افراد عبد الحكيم عامر بالسلطة فى سوريا الى جانب
عمله قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للحربية ، كان يشكل استمرارا
للاسلوب القديم الذى يزداد الاعتماد فيه على الشخص كلما زاد قربيه من
الزعيم ، وتأكلت ثقة الزعيم فى ولائه .

تتعدد مناصب الشخص بما يفوق طاقته ويتجاوز حدود قدراته
دون النظر الى انعكاس ذلك على المصلحة العامة .

طلب أحمد كامل مقابلة المشير غامر فى نوفمبر ١٩٥٩ وشرح الأخطاء
التي تشكل فى مجموعها خطرا يهدد الوحدة واستمع المشير اليه ثم
قال له (يبدو أن أعصابك مرهقة) وأصدر قرارا بتعيينه ملحقا عسكريا
فى باكستان .

وعبد الحكيم عامر بحكم طيبة شخصيته والتجارب التي مر بها
تثبت أنه لم يكن عسكريا من الطراز القادر على أحداث تغيير ثورى فى
صفوف الجيش ، أحاط نفسه بعدد من الضباط الذين استمروا السلطة

والفساد وانتهزوا طبيئته فولغوا فى الأموال العامة بلا حساب ، وانجرفوا نتيجة ذلك الى جانب بعيد عن الحس الشعبى الصحيح ، وقريب من الحياة الناعمة اللاهية التى يسهل توافرها فى سوريا .

كان انفراد عامر بالسلطة امتدادا لأسلوب تعيينه مشرفا على اللجنة الاقتصادية والسد العالى والطرق الصوفية كما حلت يوم ١٨ مارس ١٩٥٥ ، وامتدادا أيضا لتولى كمال الدين حسين فى نفس الفترة مسئولية تسعة مناصب فى وقت واحد .

الاعتماد على العسكريين هو الطريق الأسهل . . . وتركيز المناصب فى شخص واحد أسلوب لم يتغير .

القضية لم تكن فى تواجد الضباط المصريين فى الجيش السورى وإنما كانت فى نوعية هؤلاء الضباط الذين كانت تدفعهم الظروف المحيطة دفعا الى الفساد والانحلال .

ليس هذا موقفا أخلاقيا . . . لأنه كانت له انعكاسات سياسية سهلت لبعض الضباط من ذوى الميول الرجعية والمحافظة فرصة التسرب للمراكز القيادية الحساسة تحت شعار بعدهم عن التنظيمات السياسية وأن بعضهم متدينون كما سبق أن قال عبد المحسن أبو النور للمشير عامر .

مطاردة البعث :

والعلاقة بين القيادة فى مصر وبين البعث لم تنته فى سلام .

تبادل الاتهامات مستمر .

أصبحت العناصر البعثية مطاردة ، تماما كما هو الحال مع العناصر الشيوعية التى مازالت خلف قضبان السجون والمعتقلات منذ خريف ١٩٥٨ .

عبد الحميد السراج وزير داخلية الاقليم السورى ينفرد بسلطة تكاد تكون مطلقة فى أعمال الأمن . . . ويرتكب بعض رجاله جرائم بشعة منكرة . . . أشدها هولاً وإثماً قتل المناضل الشيوعى اللبنانى فرج الله الحلو وإذابة جثته فى الحامض بعد اخراجها من القبر حتى لا تترك عليه أو على رجاله أثرا أو دليلا .

الاعتقالات تلحق بعض البعثيين . . . والموقف الذى اتخذوه فى عدا الحزب الشيوعى ارتد عليهم .

لم يدركوا في هذه المرحلة طبيعة الحلفاء والأعداء . . . ولم يعتقدوا: أن تغيير المجتمع يحتاج الى جبهة تحالف من كل قوى وتنظيمات التقدم التي تمثل البرجوازية الصغيرة والفلاحين والطبقة العاملة . . .

واذا كان عبد الكريم النحلاوي قد وصل الى مركز قيادة الجيش في مكتب المشير عامر . . . فان مأمون الكزبري رئيس مجلس النواب في عهد الشيشكلي ورئيس الجمهورية لمدة ٢٤ ساعة بعد هرب الشيشكلي قد أصبح أميناً عاماً للاتحاد القومي في مدينة دمشق .

عبد الحميد السراج وزير الداخلية كان رجلاً وطنياً بلا نظرة اجتماعية تستهدف تغيير المجتمع الى أفضل . . . وكان قادراً على الاستماع الى ديب النمل كما كان الناس يقولون في سوريا . . . ولكنه لم يستشعر الخطر في الرجعية التي لعبت دور النفاق والمداينة والترهص .

وتغيرت الحكومة بعد خروج البعثيين بالاستقالة . . . تولى نور الدين كحالة رئاسة المجلس التنفيذي في سوريا ، ودخل عدد آخر من الضباط السوريين في مناصب الوزراء (أحمد جنيدي للإصلاح الزراعي، وأكرم ديري للاقتصاد والعمل وجادو عز الدين وزير دولة وجمال الصوفي، وزيرا للتموين) .

القوات المسلحة مازالت مصدراً رئيسياً لتوريد الوزراء .

وبعد خروج البعث ، صدر قرار بتشكيل مجلس الأمة من ٤٠٠ عضو مصري ، ٢٠٠ عضو سوري ، وانتخب أنور السادات رئيساً له. ومحمد فؤاد جلال وكيان مصرياً ، وراتب الحسامي وكيلاً سورياً . . . وعقدت الجلسة الأولى للمجلس عام ١٩٦٠ .

الانتماء للأحزاب غير موجود في المجلس . . . النواب جميعاً أعضاء في الاتحاد القومي الذي تتسع ساحته لكل الاتجاهات .

الشيوعيون والبعثيون لم يعد لهم صوت في مؤسسات الدولة الرسمية . . . والمدافعون عن الوحدة والحريّة والاشتراكية لجأوا الى الاتصالات السرية .

الحزب الشيوعي ظل محتفظاً بقواعده السرية وأسلوب عمله الذي اعتاد عليه في ظل فترات الضغط .

حزب البعث لم يشكل رسمياً من جديد . . . ولكن لم تشرقف الاتصالات . .

عبد الحميد السراج الذي كان ياورا لحسنى الزعيم ومقربا من
«الشيشكلي يقبض على الدولة بيد من حديد ٠٠٠ وعدد المعتقلين يزيد ٠

العسكريون أيضا يسيطرون على الاتحاد القومى ٠ ولجنته العليا
فى سوريا كانت تضم عبد الحميد السراج وأكرم ديرى ٠

وخلت الحياة السياسية فى هذه الفترة من أى تنظيم سياسى قادر
على ملء الفراغ ٠٠٠ ولكن قدرة جمال عبد الناصر على التأثير فى الجماهير
ظلت قائمة ٠٠٠ عن طريق كلماته المباشرة ٠ عندما زار سوريا يوم ١٤
فبراير ١٩٦٠ بعد اقضاء البعث خطب ٢٣ خطبة فى ٢٣ يوما قضاهما هناك
بمعدل خطبة فى اليوم فى اللاذقية والحسكة والقامشلى ودير الزور وحلب
وحمص ودمشق وقطنة والشيخ مسكين ٠

كان جمال عبد الناصر يعرض وجهات نظره على الجماهير مباشرة
ويعتمد على تأثير أجهزة الاعلام أكثر مما يعتمد على تنظيم الأحزاب ٠٠٠
ولذا كانت صلاته بالجماهير لا سلكية وليست سلكية ٠ الجماهير تنفض
بعد الخطب ٠٠٠ ولا أحد يتابع الاتصال بها فى متابعة وإخلاص ٠

القوانين الاشتراكية :

واقترب جمال عبد الناصر بعد ذلك من الفكرة التى شعر فيها
بحصار البرجوازية التى لم تكف بالاستقرار الذى هباه لها الحكم
العسكرى وإنما أرادت المشاركة فى السلطة ووقف تدخل الدولة ٠

واستقر رأى جمال عبد الناصر على إصدار القوانين الاشتراكية
كما أطلق عليها ٠

كان الاشتراكيون الحقيقيون مطاردين وفى السجون والمعتقلات ،
ولكنه استدعى أكرم ديرى باعتباره وزيرا للاقتصاد وناقش معه تأمين
الشركة الخماسية التى يبلغ رأس مالها ٣٠ مليون جنيه وأخذت من البنك
المركزى ١٨ مليون جنيه وتسيطر على خمس الاقتصاد السورى ٠

كانت مفاجأة لأكرم ديرى ٠

الاشتراكية لم تكن مطروحة فى فترة الوحدة بطريقة عملية ، وكان
الحديث لا يتجاوز حدود العدالة الاجتماعية ٠٠٠ أما شعار الاشتراكية
الديموقراطية التعاونية فلم يكن له صدى مؤثر فى سوريا ، وعندما
لمس جمال عبد الناصر أن هناك تساؤلات من الوزراء السوريين ، طلب
الى العسكريين منهم الاجتماع معه ومع المشير عبد الحكيم عامر ، وفى هذه
الجلسة دارت المناقشات حرة ٠

اعترض عبد الحميد السراج على فكرة التأميم أصلا وتسأل البعض عما اذا كانت الظروف الراهنة هي أنسب الظروف لزيادة معسكر المعارضين .

وتسأل آخرون عن السبب في تحديد الحد الأقصى من الدخل صناعيا بمبلغ مليون ليرة سنويا بينما لم يحدد من ناحية الزراعة ، وقال جمال عبد الناصر (أنا كان عندي ١٠ - ١٢ مليونير. أصبحوا حوالي ٣٠٠ - ٤٠٠ والبرجوازية في مصر اتسعت قاعدتها ولا بد من ضربها) .

وعقدت في فندق شبرد بالقاهرة جلسة امتدت ست ساعات بين الوزراء السوريين واستقروا فيها على تعديلات فيما يتعلق بقوانين التأميم صدرت بها دون تغيير .

ومع ذلك حدثت بعض المفارقات ٠٠٠ فقد أعاد البنك المركزي مبلغ ٤ ملايين ليرة للبنك الصناعي بعد تأميمه حيث ثبت أنها أموال المواطنين التي كانت تستثمر بـ ٤ في المائة .

ولم تستقبل البرجوازية السورية قرارات يوليو بالتقوقع والانكماش كما حدث في مصر ٠٠٠ فإنها لم تتعرض لضربات الحنك العسكري كما حدث في ثورة يوليو ٠٠٠ ولم تفتح المعتقلات والسجون لرجال الأحزاب القديمة ، وإنما فتحت لليسار من الشيوعيين ثم البعثيين .

كانت البرجوازية السورية أكثر نشاطا وتشعبا في حياة المجتمع ، وكان الاعتماد على التجار مصدرا رئيسيا من مصادر الرزق ٠٠٠ ونسبة التجارة تفوق نظائرها في مصر .

وخلال فترة الوحدة لم يصل الى سوريا تجار مصريون ولم تستثمر فيها أموال مصرية خاصة ٠٠٠ وعلى العكس من ذلك حدث تماما في مصر ٠٠ فقد هاجرت رموس أموال سورية كثيرة لتستثمر في مصر حيث السوق الاستهلاكي متوافرا ، وفتحت محلات تجارية كثيرة وانشئت شركات ومصانع خاصة .

عندما حاول بعض المصريين الفقراء بيع بعض المنتجات المصرية على الأرصفة في دمشق ثار التجار هناك وابلغوا المشير عامر الذي قرر ترحيلهم لمصر ، فاعتقلوا ووضعوا في السجن حتى تم ترحيلهم على طائرات حربية .

قانون ١١٧ للتأميم لم يؤمم في سوريا سوى ٣ شركات : الخماسية ، وشركة الأخشاب الأسمية ، وشركة الحرير في حلب ، وكان

الفارق كبير جدا بين عدد الشركات التي أممت في مصر ، وعدد الشركات التي أممت في سوريا . ومع ذلك كان التيار المضاد للتأميم قويا في سوريا ، وكانت مشاكل أخرى كثيرة قد بدأت تظهر في طريق الوحدة .

بوادر ذلك ظهرت خلال رحلة عبد الناصر الى سوريا في عيد الوحدة الثالث ٢١ فبراير ١٩٦١ ، خطب في اللاذقية وهاجم الذين يعترضون على قرارات كانت قد صدرت بحظر خروج النقد من سوريا ، وحظر الاستيراد الا بشروط .

كان التيار المضاد لهذه القرارات قويا وواضحا ، فمعظم نشاط الحياة السورية يعتمد على التجار وحظر خروج النقد يتيح الفرصة للتهريب ، وقال جمال عبد الناصر في خطبته أنه يستهدف مضاعفة الدخل القومي في عشر سنوات ، وانه لن يتوقف عن تنفيذ ذلك (أما المضاربون والمهربون فلا دعوة لنا بهم) وكان ذلك بعدا عن الواقع ، فقد زادت المقاومة لهذه العملية وكانت قصة مدير الجمرک السوري الذي تحداه تاجر لبناني في أن يشتري منه ثلاثة في الصباح ليحدها في منزله بدمشق بعد الظهر بلا قيد ولا جمرک قصة حقيقية ومتداولة كما كان تصرف بعض الضباط يؤدي الى الاساءة الى العسكريين بتهريب بعض المواد والأجهزة في طائرة المشير الشخصية مسالة معروفة يتندر بها الجميع في سهراتهم الخاصة .

الحدود بين سوريا ولبنان تجعل تنفيذ هذه القوانين عملية بالغة الصعوبة وخاصة في ظروف تتطاحن فيها أجهزة الأمن ، واعتاد بعض العسكريين في قمة القيادة على الحياة الناعمة البعيدة عن القيم ، وخلال هذه الرحلة التي خطب فيها جمال عبد الناصر ١٠ مرات في ١٢ يوما ، هاجم أنور السادات في اللاذقية الذين أسماهم باسم أعداء الوحدة ، وناشد جمال عبد الناصر بالقضاء عليهم قائلا (اسحقهم يا جمال) .

الفصل الثالث

مأساة الانفصال

(اننى لا اسمح لك أن توجه
خطابا الى ، وفيما يتعلق بى فأنى
اعتبرك متمردا وخائنا ، ولا يمكن
ان تكون لنا أية علاقة الا مع
الحكومة الشرعية للجمهورية العربية
المتحدة)

احمد سيكوتورى

زعيم غينيا

رذا على خطاب الامون الكزبرى

يطلب فيه الاعتراف بالوضع فى

سوريا بعد الانفصال

الموقف فى سوريا ينبىء بحدث ما ... التناقضات تزيد فى كل
اتجاه بين النظام الحاكم والتنظيمات المعارضة من بعثيين وشيوعيين
فتحت لهم المعتقلات ، بين السلطة القائمة والبرجوازية التى زجفت عليها
التأميمات ... بين المشين عامر وعبد الحميد السراج والاثنيان نواب
الرئيس الجمهورية ... بين العسكرين المصريين والعسكريين السوريين ...

ثورة يوليو جا - ٧٣٧

كانت هناك علامات تشير الى أن خطراً حقيقياً يهدد تجربة الوحدة ،
ولكن الاجراءات التي اتخذت لم تكن كافية لازالة التناقضات ٠٠٠ ولم
تتوافر القدرة على وضع حلول جذرية للمشاكل .

كانت الصورة معروفة عند جمال عبد الناصر .

قال لي أمين شاكرا أنه كان في زيارة لسوريا بصفته رئيساً لجمعية
الامن القومي ٠٠٠ وهناك سمع من الدكتور نور الدين حاطوم عن
تصرفات بعض الضباط فأبلغ ذلك للمشير عامر الموجود في دمشق ، فهاج
عليه وهدده بالضرب ، وأخرجته من مكتبه ٠٠٠ فاستدعاه جمال
عبد الناصر وسمع منه ما قاله للمشير ٠٠٠ وكان الصمت هو التعليق
الوحيد .

حسين عرفة مدير المباحث الجنائية العسكرية قال لي انه التقى
بأحد الضباط البعثيين في القاهرة الذي نبه لاحتمال حدوث انقلاب في
سوريا ٠٠٠ وأسرع حسين عرفة فاتصل لاسلكياً بعلي شفيق في دمشق ،
الذي أخذ الموضوع باستخفاف منسكراً قلعة أحد على الحركة ، ومنهيا
حديثه بسؤال حسين عرفة عما اذا كان يطلب شيئاً من دمشق !

كل شيء كان متوافراً عند علي شفيق ٠٠٠ وكان معروفاً أن عربات
رسمية تنقل كل شيء مطلوب وغير مطلوب من بيروت ٠٠٠ وان الطائرات
الحربية غالباً ما كانت تحمل شحنات خاصة من الثلجات والسخانات
وغيرها .

وكانت المخابرات العامة توضح الصورة أيضاً ٠٠٠ وفي هذه
الفترة قلم أمين هويدي أحد نواب مدير المخابرات الثلاثة (طلعت خيري
وشعراوي جمعة وأمين هويدي) استقالته وبقي في منزله ٦ شهور بلا عمل
أو ارتباط بالادارة .

ومكتب الاتصال المصري في دمشق استشعر الخطر قبل وقوعه ،
واتصل بهم ضابط سوري مجهول عن طريق مفتش وحدوى في وزارة
الداخلية السورية وأبلغهم أن هناك خطة مدبرة للانقلاب بتحريك القوات
من معسكر قنطرة واعتقال المشير كرهينة لفرض ارادتهم وتنفيذ أغراضهم .

حمل العقيد محمود الحمزاوي ومعه الرائد أحمد رشدي من المباحث
العامة التقرير الى استراحة المشير حوالي منتصف الليل ٠٠٠ وقابلهما
أحمد علوي وعلي شفيق وهما ضابطان من قيادة المشير وأظهرا استخفافاً
بما ورد في التقرير من معلومات ٠٠٠ وكانت كل رغبتهما كامنة في معرفة
اسم المصدر الذي رفض الحمزاوي أن يفصح عنه .

ودخل التقرير الى المشير وعياد وعليه تاشيرة تقول (من هو المصدر) ١٩

المعلومات تتجمع بأن شيئا ما فى الأفق .

ولكن القدرة على مقاومة العاصفة كانت محدودة .

التناقضات الثانوية بين الأشخاص طغت على التناقض الرئيسى بين الوحدة وأعدائها .

وكان جمال عبد الناصر قد استشعر الخطر . . . وجمع الوزراء السوريين العسكريين فى استراحته بالاسكندرية حيث صارحهم قائلا انه لا يستطيع أن يترك الأحوال فى الاقليم السوري تمضى على ما هى عليه .

وقال لهم فى هذه الجلسة صراحة ان تناقضات دعاة الوحدة وخلافاتهم تسبب له المتاعب أكثر مما يسبب له أعداء الوحدة .

وأعلن أيضا أنه سيعيد تشكيل أجهزة الحكم ليكون له الاشراف الكامل على ما يحدث فى سوريا .

ودخل شكل الحكم تجريبية جديدة يوم ٦ أغسطس ١٩٦١ ، أصبح هناك ٧ نواب لرئيس الجمهورية . . . عبد اللطيف البغدادي للتخطيط وعبد الحكيم عامر للحربية ، ونور الدين كجالة للانتاج ، وذكريا محيي الدين للمؤسسات العامة ، وحسين الشافعى للمؤسسات العامة أيضا . وكمال الدين حسين للإدارة المحلية . وعبد الحميد السراج للداخلية . وشكلت وزارة واحدة مقرها القاهرة حيث يستقر الوزراء جميعا .

نواب الرئيس جميعا من العسكريين عدا نور الدين كجالة .

عبد الحكيم عامر استمر نائبا لرئيس الجمهورية مستثولا عن سوريا . وعبد الحميد السراج غادر مكتبه فى دمشق لأول مرة منذ الوحدة .

ولم يحقق هذا التغيير اثره المطلوب . . . بل بدأت تلاحقه تناقضات جديدة . . . فقد كان الوزراء السوريون عموما والعسكريون خصوصا ضد هذا النوع من الحكم المركزى .

كانت اتجاهات تنفيذ لمجابهة مواقف شخصية . . . دون دراسة موضوعية . . . وكان ذلك نابعا من الاعتماد على عناصر من العسكريين دون الاهتمام بتكوين جهاز دولة وجهاز سياسى سليم .

... السحب تتكاثف والجو يبدو شديد العتامة ... واطفاء التجربة
تكاد تعصف بها ... وأعداء الوحدة يجسمون التناقضات ويبدرون
الخلاقات .

أثاروا الشكوك حول الضباط المصريين في سوريا الذين بلغ عددهم
حوالي ٥٨٠ ضابطاً ... وصوروا ذلك كأنه نوع من الاحتلال ... كما
أثاروا الشكوك في نفس الوقت من وجود عدد من الضباط السوريين في
مصر وقد تجاوز عددهم ٢٠٠ ضابط وصوروا الأمر كأنه إبعاد لهم .

والحقيقة أن الجيش السوري كان يحتاج لعدد من الضباط
المصريين بعد التسريحات التي تمت فيه ... وأن بعض الضباط
السوريين في مصر كانوا يؤدون دوراً هاماً في قيادة القوات المسلحة .

ولكن تصرفات بعض الضباط في المراكز القيادية هي التي أساءت
إلى وضع الضباط عامة ، ومنهم من أمضى وقته كله في الجبهة أمام
إسرائيل ومنهم من أدى دوراً بارزاً في التدريب .

لعبة العسكريين لم تتوقف طوال عهد الوحدة ... كل العناصر التي
برز خطرهما ، أو ظهر انتماءها لتنظيمات سياسية ، أو اتضح اتجاهاؤها
الفكرية سرحت من القوات المسلحة أو أبعدت عنها إلى مناصب مدنية ...
تماماً كما حدث في الجيش المصري خلال السنوات الأولى لثورة يوليو
حيث تجاوز عدد الخارجين من الجيش ١٠٠٠ ضابط .

ولم يعد خافياً على أحد أن هناك حساسيات تنمو وتزيد بين الضباط
السوريين والقيادات التي يسيطر عليها مصريون .

وقد أسرعت التناقضات في الظهور والتجسيم بعد صدور القرارات
الاشتراكية ، وأثارت الرجعية حولها اتهامات بالتسرع .

... ووصل الأمر ذروته بعد نقل الوزارة إلى القاهرة ، وتصياد
عبد الحميد السراج مع المشير عامر .

كانت أجهزة الأمن التابعة للداخلية قد خلقت خلال سنوات الوحدة
جواً من الإرهاب الشديد ... وجة أساساً إلى العناصر الشيوعية ثم
البعثية ... وأخيراً بدأت تحرك عناصر من التجار ضد القرارات
الاشتراكية ، كما روى لي أكرم ديري وزير الاقتصاد والخزانة في آخر
وزارت الوحدة ... وينطبق هذا على موقف السراج من قوانين التأمين
قبل صدورهما .

وكان انتقال عبد الحميد السراج من دمشق الى القاهرة ضربة شديدة موجهة الى نفوذه وسلطته وتحركت بعض العناصر البوليسية السورية ، تقاوم هذا النقل عن طريق اثارة التجار وبعض العناصر السياسية .

وطلب جمال عبد الناصر من عبد الحميد السراج أن ينقل معه هذه العناصر الى القاهرة ، ولكنهم تكتئوا في تنفيذ القرار .

وأدرك جمال عبد الناصر أن قنبلة الخطر التي تهدد الوحدة هي الثورة ضد الارهاب فطلب من المشير عامر أن يحسم هذه المشكلة ، وخاصة أنه قد بدأت في مصر بعض الافراجات عن عدد من الشيوعيين والإخوان المسلمين .

وأصدر المشير عامر قرارا في ١٨ سبتمبر ١٩٦١ نص على (توقيف اعتقال أى شخص الا بمذكرة من النيابة العامة . أى أنه لا يجوز لأى سلطة من سلطات الأمن توقيف أى مواطن الا اذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية ، أى النيابة العامة) .

وفي نفس الوقت أصدر المشير عامر قرارا بتعيين وزير جديد للأمن العام بدلا من العقيد مروان السباعي الذي كان السراج قد عينه وتمسكه سلطات كبيرة تصل الى حد الاعتقال لدواعي الأمن .

ولم يجد عبد الحميد السراج أمامه من سبيل الا الاستقالة التي قبلت يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦١ بعد محاولات متكررة من جمال عبد الناصر لاقناعه بالتراجع عنها وعين بدلا منه في الداخلية عباس رضوان .

كان عبد الحميد السراج يريد أن ينفرد وحده بالإشراف على الأمن في سوريا ، لا يشترك في ذلك أحد معه من مصر سبق له أن طلب ابغاد العميد محمد سيف اليزل خليفة الذي كان يعمل مديرا لمكتب الاتصال المصري في دمشق ومعه خمسة ضباط شرطة مصريين ولكن جمال عبد الناصر رفض ذلك هو وزكريا محيي الدين حتى لا تكون هذه سابقة له يفرض من خلالها رأيه .

... واستخدم السراج أسلوبا جديدا هو مراقبة تحركات واتصالات سيف اليزل حتى حدثت بينهما مشادة انتهت بسفر سيف اليزل للقاهرة وطلبه عدم العودة الى سوريا وافق زكريا على ذلك وأرسل بدلا منه العقيد الحمزاوي في يوليو ١٩٥٩ .

ورغم أن العلاقات بين السراج والحمزاوي لم تكن طيبة ، وأن السراج قد صارحه بأنه لا يرغب في تعدد أجهزة الأمن ولا في وجود

مصريين بشرطة سوريا ولو على هيئة مكتب اتصال ٠٠٠ الا أن مكتب الاتصال المصري نفسه أعد تقريراً عاجلاً خلاصته أن السراج هو الوحيد القادر على السير بسوريا وأنه يجب عودته وعدم قبول استقالته ضماناً لعدم حدوث انقلاب .

وكانت أجهزة الاتحاد القومي تابعة تماماً لسيطرة السراج ، وقد استغلنهما لإخراج المشير عامر قبل سفره للقاهرة بأعداد مظاهرات من العربات يركبها المسئولون في الاتحاد القومي ومعهم وكيل الداخلية اللواء محمد الخجاج لتقديم طلبات للمشير عامر .

التناطح بين المشير والسراج كان قد وصل نقطة اللاعودة ٠٠٠ والخلافات بينهما عبرت عن وجود موقفين متعارضين يضعب الجمع بينهما .

أصبح الموقف مهماً تماماً لحركة مضادة للوحدة متخفية تحت شعار ضرب النفوذ المصري في سوريا ٠٠٠ في وقت كانت الأخطاء فيه قد فرضت على المسئولين أن يتخذوا خطوات العلاج .

مأساة الانفصال :

واعتبر عبد الكريم النحلاوي عودة السراج من القاهرة بعد استقالته تمثل ذلة سوريا أمام مصر ، وأن الوحدة لم تعد شركة تضامنية وإنما أصبحت تحكماً ٠٠٠ وذلك حسب رواية لأكرم ديري بعد الانفصال بستة أشهر ٠٠٠ هذا بينما يؤكد مصطفى حميدون أن هناك علاقة وثيقة كانت تربط بين عبد الحميد السراج وكل من عبد الكريم النحلاوي ومأمون الكزبري .

وبما الانقلاب بفكرة ملحة على بعض الضباط السوريين ٠٠ وتحول إلى حدث متوقع عند الجماهير .

وتجمع بعض الضباط ٠٠٠ عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب المشير عامر وموضح ثقته ٠٠٠ حيدر الكزبري الشاويش السابق في الجيش الفرنسي والذي ترقى ضابطاً من غير طريق الكلية الحربية وعبد الغنى الدهمان وموفق عصاصة من القوات الجوية .

ووصلت أنباء إلى المشير عامر من احتمال حدوث انقلاب ٠٠٠ ولكنه لم يصارح بذلك الوزراء السوريين وإنما حصر مناقشة الأمر في دائرة محدودة من ضباط القيادة ٠٠٠ وطلب من أكرم ديري الذي كان موجوداً في دمشق لحضور مؤتمر النقد الدولي بعد مناقشة صريحة عن اضطراب

الموقف في سوريا . . . طلب منه الاتصال بنقابات العمال بعد أن كان التوتر قد وصل إلى صفوفها على اعتبار أن استقالة السراج كانت تعبيراً عن خلاف عميق بين مصر وسوريا .

أمضى أكرم ديري مع قيادات العمال أربع ساعات حتى الثانية بعد منتصف الليل يوضح لهم أن الخلاف محصور بين السراج وعامر ، وأن الأخير قد بدأ يتخذ خطوات لحماية أمن المواطن ومحاولة إصلاح الأخطاء السابقة .

كان عامر يحاول كسب الرأي العام . . . ولكن الوقت كان متأخراً . . . والمديرون للانقلاب انتهزوا فرصة الخلاف ، وقرروا توجيه ضربتهم .

قوات البادية التي يقودها حيدر الكزبري توجهت ليلة ٢٨/٢٧ سبتمبر ١٩٦١ إلى القيادة تسال عن المشير عامر ، وقال لهم الحارس أنه في بيته فاتجهوا إلى هناك وانطلقت القذائف تدمر المنزل وتوقف دمشق وتقتل الحراس .

ولكن المشير وقتها كان في القيادة العامة في قاعة الأركان مع بعض الضباط السوريين . . . وحول القيادة القوات المتمردة .

كان موجوداً مع المشير جاسم علوان بينما كانت قواته قد تحركت من قطنه بعد مغادرته لها في الثانية بعد منتصف الليل ، وهذا دليل على أن خطة الانقلاب كانت مدبرة من وقت وفئ خفية عن القيادات المتمسكة بالوحدة .

طلب عامر من أكرم ديري الذي كان قد حضر للقيادة بعد اجتماعاته مع العمال أن يقابلوا الضباط المتمردين . . . وذهب أكرم ديري وجاسم علوان وأحمد زكي عبد الحميد فوجدوا عبد الكريم النحلاوي عند ناصية الشارع المقابل لمبنى الأركان .

ودارت مناقشة عنيفة كان مخوراً هو رأي أكرم ديري في أنه ليس من حق هؤلاء الضباط فصل الوحدة بالدبابات . . . ورد المتمردون بأنهم ضد ضغط وتسلط الضباط المصريين .

واستمرت المناقشة نصف ساعة في الشارع ، والمشير عامر ينتظر في مكتبه لا يتوقف عن التدخين ولا عن الحركة كالأسد الجبب .

وتم الاتفاق مع النحلاوي وموفق عصاصة وزهير عقل على الصعود لمقابلة عامر وتقديم مطالبهم على أساس حل المشاكل العسكرية ضمن

الجمهورية العربية ... كانوا فى خوف من الاعتقال أو القتل اذا مادخلوا
القيادة .

وفى نهاية المناقشة وصل حيدر الكزبرى الذى ثار على الاتفاق
وحدثت مشادة اتهمه فيها اكرم دبرى بالخيانة ، فأطلق دفعة من مدفعه
الرشاش جرحت شظاياها رجل اكرم .

ودارت اتصالات تشبه المفاوضات بين المشير وضباط الانقلاب
تعالت خلالها اذاعة البيانات من الاذاعة السورية ... وحاول أنور
القاضى واكم دبرى اعطاء تعليمات بتحريك وحدات من حمص التى كان
يقودها العميد مطاخ صغدى ... ولكن عبد الكريم النحلاوى صارخهم
أنه لن يتحرك أحد .

البيانات تتوالى من الاذاعة السورية ... والخبر يصل الى جمال
عبد الناصر فيهرع بنفسه الى مبنى الاذاعة المصرية لأول مرة منذ الثورة
ويلقى فى التاسعة صباحا بيانا يدين فيه الانفصال ... ويعند فى نفس
الوقت خطة لارسال قوات نجدة الى سوريا .

ودخلت المفاوضات الى نقطة لقاء تشبثت بالوحدة ، وصدر البيان
رقم ٩ يقول (ان القيادة الثورية العربية دفعها الشعور بالخوف على وحدة
الصف العربى وحماستها للقومية العربية وتأييدها لها ودفاعها عن مقوماتها
لتعلن أنها لا تنوى المساس بما أحرزته القومية العربية من انتصارات ولتعلن
أنها لمست عناصر مخربة انتهائية تريد الاساءة لقوميتنا فقامت بحركتها
تلبية لرغبة الشعب ، وانها عرضت قضايا الجيش وأهدافه على سيادة
المشير نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة الذى تفهم
الأمور على حقيقتها ، واتخذ الاجراءات المناسبة لحلها لمصلحة الوحدة ،
وقوة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة ، وقد عادت الأمور
العسكرية الى مجراها الطبيعى استنادا على ثقته بحكمة القائد العام للقوات
المسلحة وقائد الجيش الأول اللذين يحققان أهداف القوات المسلحة
والجمهورية العربية المتحدة .

كان مطلوبا أن يذاع البيان ليعلن انتهاء الأزمة ، ولكن عبد الحكيم
عامر رفض إذاعته بعد اتصاله بجمال عبد الناصر فى القاهرة .

الاتصال بينهما لم ينقطع لحظة .

والسبب فى رفض اذاعة البيان ولو كسبا للوقت ومحاولة لرأب
الصدع عبر عنه عبد الناصر فى خطابه الذى أذاعه فى السابعة مساء نفس

اليوم وهو أن المشير عامر كان تحت الحراسة ، وأن الانفصاليين كانوا يسيطرون على القيادة .

ولا يمكن الآن تحديد النتائج التي كان يمكن أن تبجم عن اذاعة هذا البيان .

وهكذا لم تعد هناك نقطة لقاء وتم الانفصال فعلا .

الجماهير في الخارج مبللة مظاهرات تهتف للوحدة ومظاهرات تهتف لعبد الحميد السراج وتحمل صورته . وغالبا ما كانت من تدبير بقايا أجهزته بينما هو في منزله بعيد ولعل ذلك كان سببا في سرعة اعتقاله بسجن المزة .

رفض المشير لخل المشكلة كما اذيع في البيان رقم ٩ كان نتيجة لتوجيه جمال عبد الناصر الذي اعتبر أن ما حدث كان تعظيما لفكرة الوحدة وانقلابا يصعب معالجته إلا بالقوة ، وخاصة بعد أن كان المشير عامر قد أصدر خلال المفاوضات قرارا بحل لجنة الضباط التي أثارت تصرفاتها اعتراضات المتمردين ، وشكل لجنة جديدة ، كما قرر إعادة الضباط المصريين العاملين في الأركان ، وأعادهم فعلا للقاهرة بالطائرات تحت الحراسة .

المشير عامر أصبح محاصرا وحده تقريبا ، رغم وجود وحدات كثيرة من الجيش المصري وكثير أيضا من الضباط المصريين ولكن الصلة كانت مقطوعة ولا حركة في الجيش دون أمر أو تعليمات ، كما أن وحدات الانقلاب كانت قد تنبعت لذلك فحاصرت بعض الوحدات التي يسيطرون عليها المصريون .

الظاهرة المؤكدة أن أحدا من الضباط أو جنود البعث لم يشهد في الحركة الانفصالية لم يكن لهم تنظيم قائم

الموقف لم يعد يحتمل بقاء المشير وقادة الانقلاب الجديين في مكان واحد وفي الثالثة مساء طلب منهم عبد الكريم الخلالوي أن يغادروا مبنى الأركان

وخرج الوزراء السوريون العسكرون الذين تواجدوا هناك (أكرم ديري وطعمة العودة الله وأحمد جنيدي) وذهبوا إلى مطار دمشق مباشرة حيث وصلوا القاهرة في الخامسة والنصف مساء ووصل عبد الحكيم عامر ومعه على شفيق في السابعة والنصف حيث كان جمال عبد الناصر في انتظارهم بالمطار .

المأساة تبعث على الألسنة ٠٠٠ والكلمات التي قالها خروشوف لصالح
سالم في موسكو يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٩ من أن عبده الحكيم عامر يجلس في
سوريا على خازوق قد تحققت ٠٠٠ وهو يعود اليوم مطرودا بعد أن كان
في قمة السلطة .

وقد نشر محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم)
رسالة كان خروشوف قد بعث بها الى جمال عبد الناصر مع السفير
كسليف في أبريل ١٩٥٩ . جاء فيها :

« تذكرون انكم في احدى محادثاتنا أثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو
أعربتم عن الاستياء من حكومات الأقطار العربية المجاورة وسألتني عما
يجب عمله لتغيير الوضع الداخلي في تلك الأقطار التي تقف موقف العداء
من الجمهورية العربية المتحدة ومن المعونة التي يمكن للاتحاد السوفيتي
أن يقدمها اليكم في هذا الصدد .

وكما تذكرون فقد أعجبتم بأنه يجب اظهار التسامح والامتناع عن
التدخل في شئون البلاد الأخرى ، انما يجب التأثير في تلك الأقطار عن
طريق القنوات الصالحة والمثل الطيب من جانب الجمهورية العربية المتحدة ،
وذلك برفع مستوى اقتصاد شعب جمهوريتكم ومستوى ثقافته ورفاهيته
وانشاء نظام من شأنه تمكين كل القوى الوطنية ضمن الجمهورية من اظهار
مبادئها ، وأشرت عليكم أن تسعوا الى أن تقيموا في الجمهورية العربية
المتحدة ذلك النوع من الكيان الاقتصادي والنظام الحكومي اللذين من
شأنهما أن يستهويا الأقطار العربية الأخرى من أجل الفوز بالخطوة لدى
الشعوب بهذا المدى الإيجابي .

وقد ابتسمتم بعدئذ وقلتم انني غير واقعي في استقرائني للوضع
في الأقطار العربية واضفتم أن الأمر يتطلب تدابير أكثر حزمًا .

وأعجبتم حينئذ قائلا « أن التدخل في شئون الدول العربية هو شيء
خطر جدا وأنه ليس من شأنه أن يؤدي الى الوحدة ، وانما من شأنه على
العكس أن يؤدي الى تفكك جهود الأقطار العربية » .

فشلت الجمهورية العربية المتحدة فعلا في أن تكون نموذجا يجذب
اليه الأقطار العربية الأخرى وتلاشت قوة ثورة يوليو على أن تكون
مفتطيسا خلابا .

في زيارة لسوريا التقيت مع شكري القوتلي (المواطن الأول) فقال
كلمات تحمل نفس المعنى بأن الجمهورية يجب أن تكون واجهة تغري
الناس بالدخول .

هاجمت قوات البادية بقيادة حيدر الكزبري منزل عبد الحميد السراج في الخامسة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر بعد أن كانت بعض المظاهرات قد طافت به تهتف باسمه ٠٠٠ وبعد أن كان الحرس المعين على منزله قد أخذ يرقص ويصفق ٠٠٠ ولكن السراج عاد الى منزله بعد ساعتين عقب مقابلته لقادة الانقلاب ٠

وفي حديث له بعد ذلك في سجن المزة مع العميد ماجد ميمش قائد كلية الضباط الاحتياط في حلب أجاب عن سبب اعتقاله بأنه في دهشة من ذلك لأنه أيد الانقلاب وأبلغ الانفصاليين بأنه كان سيقوم بهذه الحركة إذا لم يكونوا هم قد بادروا بها ٠

كان انعكاس الموقف في دمشق على المناطق السورية متبايناً ٠٠٠ قوات حمص وقفت مع الانفصال ، وقوات قنيطرة كذلك ٠٠٠ أما حلب فقد رفضت بعض الوحدات فيها موقف الانفصاليين وأعلنت اذاعة حلب موقفها في ضرورة التمسك بقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ولعب العميد ماجد ميمش قائد كلية ضباط الاحتياط دورا بارزا في تجميع الضباط وعلان الرفض في صورة بيانات أيدها قوات اللاذقية ودير الزور ٠

عاد المشير الى القاهرة على استحياء ٠

ونخطة الانقاذ مازالت تحت التنفيذ ٠

محاولة لم تتم :

القوات المصرية والسورية المشتركة التي وضعت الخطة لارسالها الى اللاذقية للهبوط جوا تأخرت في الذهاب لبطء اجراءات القوات الجوية ٠٠٠ ويقول عبد اللطيف البغدادي انهم اعتبروا الفريق محمد صدقي محمود مسئولا عن هذا التأخير ٠

اختلفت أفكار أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين في خطة ارسال القوات الى سوريا ٠٠ ولكنها بعد أن تحركت جوا وبحرا وتحرك فيها كمال الدين حسين وعبد المحسن أبو النور ، صدرت اليها التعليمات بالعودة ، من جمال عبد الناصر ، بعد أن تبين أن حربا أهلية لا يمكن أن تفرض الوحدة بالقوة ، وأن مشاعر الكبت والضغط التي تعرضت لها بعض الفئات قد انفجرت مؤثرة في الجماهير ٠

جمال عبد الناصر يذيع بيانا ثانيا في السابعة من نفس اليوم يفسر فيه رفضه لما ورد في البيان رقم ٩ ، موضحا أن المشير عامر وقائد الجيش الأول اللواء جمال فيصل كانا تحت الحراسة المسلحة ٠٠٠ وأنه رفض اذاعة بيان بأن الأمور قد انتهت لأنه لا يقبل المساومة ولا الحلول الوسط ٠

كان جمال عبد الناصر صريحاً . . . أعلن رفضه لهذا المنطق وقال
ان النضال عندما تدخل اليه المساومات يفقده كل قداسته .

المشير يصل الى القاهرة بعد اذاعة البيان الثاني بنصف ساعة . . .
والأوامر تصدر بعودة القوات بعد أن كانت بعض قوات المظلات قد هبطت
في اللاذقية (قوات خمس طائرات) .

هبطت القوات بعد أن كانت قوات الانفصال قد عملت انقلاباً ضد
كباطم زيتونة قائد البحرية واعتقلته في مغرب يوم ٢٨ سبتمبر . . .

وكان الموقف في حلب مازال متارجحاً . . . بعض قوات حلب بقيادة
العقيد جورج محصل استولت على دار الاذاعة في التاسعة مساء وأعلنت
تأييد الانفصال . . . ولكن قوات أخرى هجمت على الاذاعة في الثانية بعد
منتصف الليل وعادت تؤيد الوحدة من جديد .

معارك مسلحة حدثت بين القوات السورية في حلب وسقط حسب
رواية العميد ماجد ميميش حوالي ١٢٠ قتيل ، ٧٠٠ جريح . . . وفي حماة
أيضاً التي قاومت الانفصال حتي هبط الليل سقط حوالي ٤٠ قتيل .

قائد قوات الصاعقة المصري جلال هريدي سلم نفسه لقوات حمص
وتحول الى داعية لها .

واللواء عبد الكريم زهر الدين يتصل بليفونيا أكثر من مرة مع العميد
ماجد ميميش ويطلب منه وقف المذبحة التي قد تقود الى حرب أهلية . . .
ويسلم ماجد القيادة ويغادر حلب التي حاصرتها قوات حمص المدبرة ،
ليصل الى قيادة الأركان في دمشق حيث خرج منها الى سجن المزة وذلك
تنفيذا لوعده اللواء زهر الدين له بضمان سلامته .

ودخل سجن المزة ١٢٠ ضابطاً سورياً من قوات حلب .

وجمال عبد الناصر يلتقي مع الشعب للمرة الثالثة في يومين متتاليين .
عقد مؤتمرًا شعبياً بميدان الجمهورية في اليوم التالي للانفصال ٢٩
سبتمبر . . . وفسر في هذا المؤتمر قرار ارسالة للقوات المصرية السورية
المشتركة . . . ثم قراره الثاني بعد نزول بعضها (١٢٠ جندياً) في اللاذقية
بعدم الاشتباك وتسليم نفسها لقائد البحرية في الميناء .

عادت الطائرات التي اتجهت الى سوريا للتدخل وانتهت مقاومة
الوحدات . . . وحصلت قوات الانفصال على تأييد اذاعة حلب بعد
هجوم عسكري عليها .

لكن الوحدة لم تتحول فورا الى جثة هامدة... عندما تكشف الامور خرجت بعض المظاهرات في حلب ودير الزور واللاذقية وغيرها... ولكن الموقف كان قد تجدد... السلطة العسكرية الجديدة ضد الوحدة... اذاعات سوريا تدين الفترة بأنها كانت فترة طغيان وارهاب... وفتحت المعتقلات للعناصر الوحشية النشطة.

مأمون الكزبري يعين رئيسا لوزراء سوريا... وهو الذي تولى منصب رئاسة الجمهورية لمدة ٢٤ ساعة بعد انقلاب الشيشكلي... وهو الذي كان صديقا لعبد الحميد السراج وأميننا للاتحاد القومي في دمشق.

بدأت عودة الضباط المصريين من سوريا في طائرات حربية يوم أول أكتوبر... البعض منهم كان في ملابس الميدان على جبهة القتال... حوالي ٧٠٠ ضابط مصري أساء اليهم بعض عناصر الفساد في قمة القيادة... وأساء اليهم أيضا ضباط الانفصال المتمردون.

انتهت تجربة الوحدة العربية الاولى في القرن العشرين... وتمزقت الجمهورية العربية المتحدة.

تم ذلك بانقلاب عسكري... كانت طبيعة الحكم والنظام تهيبه... له الظروف المناسبة.

أول محاولة انقلابية ضد الوحدة نجحت... لم تكن هناك محاولات جادة سابقة ولم يحاكم ضابط بهذه التهمة.

لم يكن الأمر كما حدث مع ثورة يوليو التي استطاعت أن تقضى على عدد من الانقلابات في المهد قبل أن تتحرك القوات ويصدر البيان الأول.

الحذر الذي عاشت عليه القيادة العسكرية لثورة يوليو خوفا من انقلابات سوريا، وجعلها تقضى على محاولات الانقلاب في الجيش المصري بوسائل مختلفة، وتفصل من الجيش كل الضباط الذين يمكن أن يشكلوا خطرا على النظام... هذا الحذر لم ينفع عندما تمت الوحدة مع سوريا نفسها.

والشرط الذي اشترطه جمال عبد الناصر بإبعاد الجيش السوري عن السياسة... والخطوات التي اتخذها المشير عامر في سبيل ذلك لم تنفع في القضاء على ثورة الانقلابات العسكرية في سوريا.

الأعوام التي سبقت الانفصال في مصر وما صاحبها من انجازات وانتصارات وطنية وقومية واجتماعية أضعفت فرص تفريخ الانقلابات العسكرية... ولكن أعوام الوحدة في سوريا لم تضعف هذه الفرص رغم

اخراج الضباط الشيوعيين والبعثيين والمهتمين بالسياسة ... لانها تركت الجيش في فراغ كبير ... معظم الضباط أو أغلبيتهم الساحقة من غير المهتمين بالعمل السياسى الذين اختاروا السلبية وغلبوا الاهتمامات الذاتية واستتروا الخوف فى نفوسهم من اعلان الرأى أو القيام بأية حركة ايجابية ... وهذا الموقف له وجه آخر ، هو إعطاء الفرصة لأية أقلية تستطيع التجمع سرا من فرض ارادتها على أغلبية القطيع بطريقة مفاجئة ... كما حدث تماما فى انقلاب الانفصال الذى ركب موجة السخط على الاتجاهات الارهابية .

عدد الضباط الذين أسهموا فى الانقلاب كان ٣٧ ضابطا فقط ... وهي قلة ضئيلة جدا ما كان يمكن لها أن تنجح لو كان فى الجيش ضباط ثوريون من ذوى المبادئ الوحيدة أو المعادين أصلا لأسلوب الانقلابات العسكرية .

القضاء على ثورة الانقلابات العسكرية ثبت أنه لا يكون بوجود حكم عسكرى ... وإنما بتثبيت دعائم نظام يعتمد على تنظيم سياسى له ايدولوجية واضحة وتتوافر له كادرات قيادية صالحة .

فكرة تسييس الجيش أو ربطه بالتنظيم السياسى لم تظهر فى مصر الا عام ١٩٦٢ مع صدور الميثاق ، وتكوين الاتحاد الاشتراكي ... ومع ذلك ظلت كلمات مدونة وغير مطبقة .

وثورة يوليو ظلت رغم الوحدة بعيدة عن اعتناق فكرة التنظيم السياسى ... اقتضرت فى حركتها الوحيدة على الاتحاد القومى وهو كما قلنا تنظيم هش من ورق .

قال جمال عبد الناصر بعد ذلك فى محادثات الوحدة - الاجتماع الاول - ناقلا فكرة حل الأحزاب « فى الحقيقة سنة ١٩٥٨ العملية سارت بسرعة شديدة ، تبين مثلا ، أننا بعد كده بنقول إن عملية حل كل الأحزاب فى سنة ١٩٥٨ ما كانت صيح ... كان لازم اتبعنا أسلوب آخر ، وهو حل الأحزاب التى لا تتفق فى الهدف ثم تجميع الأحزاب الأخرى التى تجمعها وحدة الهدف ... الأحزاب القومية تكون هى الطلائع الثورية فى جبهة قومية ثم تسير على هاتى واحد » .

الفراغ السياسى فى المجتمع أو فى الجيش ، على قدر ما يعطى القيادة فرصة الحكم والسيطرة ، فإنه يحمل بذور الخطر من وجود قلة تستطيع أن تشب الى السلطة عن طريق الانقلاب أو المؤامرة ... بعيدة عن ارادة الشعب .

كان الانفصال أكبر ضربة سياسية وجهت ضد قيادة جمال عبد الناصر وكان تعبيرا عن أن قواعد النظام لم تستقر على أسس ثابتة وتأكيدا بأن الرجعيين الذين عارضوا قرارات يوليو قد نفذوا الاستكانة الى الاستقرار والنمو الذي أتاحه النظام للبرجوازية ، فقرروا أن ينقضوا عليه .

وثبت بعد ذلك أن حيدر الكزبري كان على صلة وثيقة بالنظام الأردني والملك حسين الذي أمده بالمال والتأييد وعندما انكشف ذلك قرر الذين خرجوا معه ليلة الانقلاب أن يعتقلوه وتم ذلك عن طريق خلسة قام بها عبد الكريم النحلاوي اذ قال له أن عبد الحميد السراج يهدد بالانتحار في سجن المزة وأن أحدا لا يستطيع أن يقنعه بغير ذلك سواء ، لما يتهدهدهم لو حدث هذا من خطر ركب الكزبري عربته ودخل سجن المزة ليقنع السراج ولكنه لم يخرج منه أبدا . .

كان الانفصال صدمة للدول العربية عبد الأردن والسعودية وكان صدمة أيضا للدول المتحررة .

عندما أرسل مأمون الكزبري برقية الى غينيا يطلب الاعتراف بالنظام الجديد أرسل اليه سيكوتوري برقية تاريخية قال فيها :

(انني لا أسمح لك أن توجه خطابا الى ، وفيما يتعلق بي فاني أعتبرك متمردا وخائنا ولا يمكن أن تكون لنا أية علاقة الا مع الحكومة الشرعية للجمهورية العربية المتحدة) .

كان هذا موقف سيكوتوري ولكن بعض زعماء البعث لم يتخذوا هذا الموقف بل وقعوا على بيان الانفصال أكرم الجوراني وصباح البيطار وكان هذا خطأ سياسيا جسيما أنهى دورهما الحربي وإن أحدا من العسكريين في الحزب لم يشترك في عملية الانفصال ، وجماهير الحزب كانت تعتنق الفكرة القومية والوحدية .

أنهى جمال عبد الناصر خطبه الخامس في أسبوع الانفصال ببيان أذيع يوم ٥ أكتوبر ١٩٦١ ، وقد ناقش البيان قبل إذاعته الوزراء السوريون الذين اقترح بعضهم رفع عبارات منه تشككا فيما قلعه القيسوني من معلومات ولكن جمال أصر على قراءته وأعلن فيه بقاء الجمهورية العربية المتحدة (رافعة أعلامها مرددة نشيدها مندفعة بكل قواها الى بناء نفسها لتكون سندا لكل كفاح عربي ولكل حق عربي ولكل أمل عربي) وطلب الى الجامعة العربية تشكيل لجنة تحقيق للتأكد من :

أولاً : أن مصر قدمت لسوريا فور الوحدة مبلغ ١٣٥٠ مليون ليرة سورية لمواجهة عجز الميزانية السورية وأنها كانت تقدم ٣ ملايين جنيه سنوياً ٠٠٠ كما قدمت تحويلات نقدية قيمتها ٩ ملايين جنيه استرليني ٠

ثانياً : أن عند المعتقلين لم يتجاوز ٩٥ شخصاً وأنه حجب عن المحاكمة عدد من قضايا التآمر ٠

ثالثاً : التحقق من أن قوات المظلات التي هبطت في اللاذقية مساء يوم الخميس ٢٨ سبتمبر لم يكن معها ملايين الليرات المزيفة وإنما بضعة آلاف فقط من الليرات الصحيحة ٠

رابعاً : أن المصريين الذين ذهبوا إلى سوريا لم يستهدفوا الاستغلال وإنما ليمنهموا في عجلة التطوير وكانت مصر هي التي تتحمل مرتباتهم ٠ واتخذ جمال عبد الناصر موقفاً سياسياً سليماً فوق كل عواطفه وجروحه الشخصية ٠٠٠ إذ نادى بأهمية الوحدة الوطنية في سوريا وأعلن أنه لن يقف مطلقاً في وجه قبول سوريا في هيئة الأمم المتحدة ٠

وذكر جمال عبد الناصر في بيانه أيضاً أن مجموع الاتفاق الفعلي بوساطة النولة في سوريا من يوم اتمام الوحدة إلى نهاية السنة المالية الحالية بلغ ٢٨٦٢ مليون ليرة ٠

كانت سيول الاتهامات قد بدأت تتدفق من إذاعة دمشق وصحافة سوريا ضد تجربة الوحدة ٠

كانت صدمة الوحدة مفاجئة رغم أن المعلومات كانت متوافرة عن احتمالات الخطر ٠٠٠ ولما كان الاتصال قد انطلق من معقل رخب في سوريا فإن وزارة الداخلية في مصر بادرت باعتقال ٤٠ من السياسيين القدامى مثل فؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج وسليمان غنسان ولم يفلح عنهم إلا في فبراير ١٩٦٢ ٠

وأصبح موقف الوزراء السوريين بعد الاتصال وبعد بيان ٥ أكتوبر حرجاً وليس له تبرير ٠٠٠ جمال عبد الناصر قال لهم (أنا مسئول عنكم وعن مستقبلكم السياسي وهذا قران اتخذته وأنا مسئول عنه) وذلك كما روى لي أكرم ديري الذي رفض اليقضاء وزيراً حتى لا يسبب موقفه في سوريا ٠

وقدم الوزراء السوريون جميعاً استقالتهم من الوزارة يوم ١٠ أكتوبر وشكلت وزارة مصرية بخليفة وتولى زكريا محيي الدين وزارة الداخلية من جديده بعد عبد الحميد السراج وعباس رضوان ٠

الاتهامات المتبادلة بين صوت العرب واذاعة دمشق نزداد حدة ...

والندهش أن أقرب الضباط إلى قلب المشير والذي عينه قائدا لفرقة الصاعقة وهو الرائد جلال هريدي، كان أول المتهمين على مصر في الاذاعة السورية ... سجلوا له أحاديث في جلسات خاصة فيها إساءة إلى جمال عبد الناصر شخصيا .

وكانت الاذاعة المصرية تتهم ضباط الانقلاب بأنهم يسيئون معاملة الضباط المصريين ويعذبونهم .. والواقعة غير صحيحة فلم يكن هناك ضرب ولا تعذيب ، وإنما كانت ظروف اعتقال قاسية من ناحية الأكل والنوم والغسيل .

الوحيد الذي جرح كان طيارا مصرية حاول أن يهرع إلى طائرته ويحلق بها فوق الأركان ليضربها من الجو ولكن طلقات بعض الجنود أوقفت العملية وأذاعت له الاذاعة حديثا يشيد فيه بالمعاملة الطيبة في المستشفى وبجواره زوجته .

صورة ما بعد الانفصال :

أحدث الانفصال صدمة شديدة للجماهير في مصر ، وإذا كانت السلطة قد بادرت باعتقال بعض السياسيين السابقين ، فإن الحركة المضادة كانت أيضا في صفوف العسكريين .

التقى العسكريون السابقون ، وحيد الدين جودة رمضان سفير مصر في المجر وأول من أعد وكون منظمات الشباب في بداية الثورة ، وأصدر مجلة الثورة التي شارك بالكتابة فيها الدكتور محمد مندور ، وأحمد لطفى وأكاد مدير مكتب جمال عبد الناصر في السنوات الأولى ، ورئيس تحرير جريدة الشعب حين ضمها لجريدة الجمهورية ، وداود عويس أحد الضباط العاملين في مكتب المشير عامر والذي اتصل به ميشيل عفلق عندما فكر في أن تكون استقالة الحوراني والبيطار ذات طابع قومي باتناع بعض الوزراء المصريين (توفيق عبد الفتاح وعباس رضوان) بالاستقالة .

فكر الثلاثة فور الانفصال في إعداد بيان نقد للنظام يوقع عليه بعض الشخصيات ... وقام بكتابة البيان لطفى وأكاد مهاجما سطوة المخابرات والارهاب واعتقال اليسار وأخلاقيات النظام .. وتولى داود عويس كتابة عدة نسخ منه على ماكينة كتابة بنادى هليوليدو وقام بتوزيعها سرا على مكاتب أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين .

يؤكد لطفى أنه لم يكن لهذه الحركة أى ارتباط بالبعث ٠٠٠ ولم يكن لها من هدف سوى التحذير ٠٠ ولكنهم عندما ضبطوا انتحروا أحد الضباط المشتركين معهم وهو من جهاز المخابرات (عبد الحفيظ الشناوى) وقدم الثلاثة الآخرون للمحاكمة بعد كشف داود عويس والتبض عليه - هو وزملائه - يوم أول نوفمبر ١٩٦١ ٠٠٠ بتهمة التآمر ضد نظام الحكم .

أصدرت المحكمة العسكرية برئاسة اللواء فؤاد الدجوى حكمها بالسجن ١٥ سنة مع الأشغال الشاقة على كل من لطفى وأكد وداود عويس ووحيد الدين جودة رمضان بعد محاكمة بلا محام أو دفاع .

كانت هذه أول محاولة مضادة فى صفوف العسكريين منذ عزل محمد نجيب ومحاولة عاطف نصار الملحق العسكرى بالهند عام ١٩٥٧ .

وقد أدى الانفصال الى اتخاذ عدة اجراءات منها تكوين مجلس الرئاسة وتشكيل مجلس وزراء يرأسه على صبرى ٠٠٠ وقد برر عبد الناصر ذلك لذكريا محيى الدين بقوله أنه عندما يعطى المسئولية لاحد زملائه السابقين فى مجلس الثورة فانه يسيء التصرف ولذا فهو يريد أن يركز السلطة التنفيذية فى يده عن طريق على صبرى .

وحدثت بعد ذلك فى مجلس الرئاسة محاولة تقليص نفوذ عبد الحكيم عامر عن طريق اصدار قانون يجعل المجلس هو المسئول عن التعيينات الكبيرة فى القوات المسلحة ، واستقالة عبد الحكيم عامر ثم ذهابه الى مرسى مطروح وأخيرا رجوعه عن الاستقالة ورجوع المجلس عن محاولة اصدار القرار ، بعد وصول برقيات من بعض القادة تأييدا للمشير مع المطالبة برفض استقالته وبقائه .

كان جمال عبد الناصر مازال على علاقة صداقة وطيدة مع عبد الحكيم عامر رغم هذه التناقضات ، فقد كان مازال معتمدا عليه فى قيادة القوات المسلحة .

وبقى عبد الحكيم عامر بكل صلاحياته ٠٠ ولم يخرج أعوانه أيضا مثل محمد صدقى محمود قائد الطيران الذى كان مجلس الرئاسة قد قرر ابعاده للمرة الثانية بعد ١٩٥٦ ٠٠٠ بل ان صلاحيات وسلطة عبد الحكيم عامر قد زادت وتضاعفت كما جاء بالجزء الثانى من الكتاب (مجتمع جمال عبد الناصر) .

أما عن الموقف فى سوريا فان الصلات بين القاهرة وبعض الضباط السوريين فى دمشق ظلت مستمرة بطريقة سرية ٠٠٠ ولم يكن موقف

الانفصاليين في سوريا قويا بالدرجة التي تبعت على الاستقرار . . . فان تناقضات كثيرة بدأت تظهر بسرعة شديدة . . . وتبين أنه اذا كانت الرجعية قد نجحت في ضرب دولة الوحدة ، فانها لم تنجح في تهديد رصيده الوحدة .

قال لي أمين الحافظ الذي كان موجودا في موسكو أثناء الانفصال وعادة الى سوريا بعد وقوعه بأيام ، ان الضباط الذين قاموا بالانقلاب اذا استثنينا حيدر الكزبري لم يكونوا انفصاليين ولا أعداء للوحدة . . . وهو رأى متسامح فيما اعتقد :

أمين الحافظ المرتبط بالبعث مبعدا في أواخر عهد الوحدة . . . وكان له لقاء مع المشير عامر عندما كان قائدا للمنطقة الشرقية طالب فيه بوجود التعاون مع البعث وعودة الاتصال مع علفق والخوراني والبيطار ، ونقل عبد المحسن أبو النور حتى لا يكون هناك شعور بتسلط الضباط المصريين على السوريين .

ولكنه عندما عاد الى سوريا لم يجد ترحيبا من الانفصاليين . . . بل انه كان مفروضا أن يوضح في قائمة تسريح ٦٣ ضابطا لولا صلة شخصية كانت تربطه برئيس أركان حرب الجيش السوري ناصح كمال اندي استبدل التسريح بالنقل ملحقا عسكريا في الأرجنتين .

وخلال فترة وجوده في سوريا وقبل سفره الى مقر عمله الجديد نشط البعث في الاتصال به .

ميشيل علفق زعيم البعث الذي وقع بيانا ضد الانفصال ولم يؤيده كما فعل الخوراني والبيطار ، اتصل بأمين الحافظ وطلب منه عدم الذهاب للأرجنتين والبقاء في سوريا حيث توجد احتمالات تغيير للوضع القائم .

واتصل به أيضا الضابط السوري رباح شريف المرافق العسكري السابق لجمال عبد الناصر لدراسة احتمالات انقلاب جديد . . . كما اتصل به زميله في البعث محمد عمران موفدا من اللجنة العسكرية التي شكلت من الضباط السوريين الذين كانوا في مصر . . . وبعد تقدير دقيق للموقف تبين لهم أن هذه الفترة الزمنية نوفمبر ١٩٦١ لم تكن مناسبة لتحريك انقلاب جديد . . . ونصح أمين الحافظ بالتريث عدة شهور .

كان موقف أمين الحافظ اجتهادا خاصا متعارضا الى حد ما مع رأى ميشيل علفق في ضرورة بقاءه في سوريا ، ومتنافرا الى حد ما أيضا مع رأى زملائه محمد عمران وبشير صادق الذين كانوا على ثقة أكبر في قدرة الحزب على القيام بانقلاب جديد .

وأما الحافظ ليلة رأس السنة ١٩٦٢ في الأرجنتين .

وبقيت سوريا تحت حكم الانفصاليين الذين ظهرت تناقضات شديدة بينهم وبين مأمون الكزبري فأصدروا أمرا بإقالته وتعيين الدكتور بشير العظمة رئيسا للوزراء .

قادة الانقلاب استخدموا كأداة للرجعية فبدأوا بتحرير أنفسهم عن طريق اقالة وعزل العناصر الواضحة الاتجاهات ، وسافر الى القاهرة في الأسبوع الثاني من يناير ١٩٦٢ وفد عسكري سوري كان قد سبقه قبلها بإسابيع وفد آخر حضر ضمن نشاط الجامعة العربية والتقى أعضاء الوفد الثلاثة ، العقيد زهير عقيل والعقيد محمد منصور والمقدم فايز الرفاعي .

استقبل جمال عبد الناصر الضباط وناقش معهم ظروف الموقف في سوريا وكان حريصا في الاجتماع على أمرين : أولهما تأكيد الوحدة الوطنية في سوريا بين الجيش والشعب وثانيهما : عدم تهاونه مع الرجعية التي انقضت على الوحدة مطلقا .

كانت مبادرات الحكم في سوريا للاتصال مع مصر دليلا على أن الموقف في سوريا لم يكن شديد الاستقرار . ودليلا أيضا على أن أنصار الوحدة قد بدأوا يمثلون ضغطا شعبيا متزايدا .

وحدث تغيير جذري في ٢٨ مارس ١٩٦٢ اذ قامت قيادة الجيش باعتقال بعض السياسيين الذين تولوا السلطة بعد انقلاب ٢٨ سبتمبر وظهروا بمظهر رجعي صريح قال بيان قيادة الجيش في ذلك اليوم ما يلي :

(تمكنت هذه العناصر عن طريق هذا التحكم أن تبتعد بالسلطتين التشريعية والتنفيذية عن مهمتها الأساسية التي تمكنت من تعطيل سلسلة التشريعات والقوانين والأنظمة التي حققت وضمنت مكاسب العمال والفلاحين وبقية فئات الشعب ، فراحت هذه العناصر تصدر التعليمات والأوامر التي تناقض التشريعات والقوانين ، وتعمل على طرد الفلاحين من قراهم وانتزاع أراضيهم منهم وحملهم على تركها والهجرة منها كما راحت هذه العناصر تعمل جاهدة للإبقاء على التشريعات التي تجعل مكاسب العمال صورة ونظرية وغير حقيقية) .

واللواء عبد الكريم زهر الدين يقول يوم ٢٠ مارس في بيان صحفي (يسعدني أن أعلن أمامكم للمواطنين جميعا أنه تقرر إحالة جميع المتآمرين العملاء والذين ارتكبوا جرائم تمس أمن الدولة الداخلي والخارجي الى محكمة الشعب التي سيصدر مرسوم بتشكيلها خلال اليومين القادمين) .

واستجابت قسوات الجيش السورى لذلك فحدثت ثورة فى قسوات حمص يوم ٣١ مارس تلتها ثورة الجيش فى حلب ودير الزور يوم أول ابريل ٠٠ وعقد مؤتمر فى حمص اتخذ قرارات أبرزها العمل على إعادة الوحدة واجراء استفتاء على ذلك .

قيادة جديدة فى سوريا ٠٠٠ عبد الكريم النحلاوى ومهيب هندي أبطال الانفصال يعينون ملحقين عسكريين فى فرنسا وإيطاليا .

واتجاه أكثر تعقلا فى قضية الوحدة .

ومحاولات اتصال مع مصر .

عندما حذرت الاذاعة السورية - يوم ٣ أبريل - الشعب من خطر هجوم اسرائيلي واستنهضت همم (أبناء الشهباء وبنى حمدان وأحفاد خالده بن الوليد ورفاق هاناتو) أصدرت القاهرة بيانا قالت فيه (هناك ما يوحى بأن السلطات السورية تخشى من احتمالات خارجية تهدد أرض سوريا) ثم قال البيان : (والجمهورية العربية المتحدة لا تقبل بأى حال من الأحوال أن تقف مكتوفة الأيدي أمام أى خطر خارجي يهدد حرية الشعب السورى أو يمس سلامة أراضيه) .

الضباط المعتقلون الذين قادوا الانفصال طلبوا فى سجن المزة بلا محاكمة ، انتظارا - فيما يبدو - لما يسفر عنه الموقف ، وخاصة بعد التخلص من الكزبرى وفيصل سري الحسيني ، ونقل عبد الكريم النحلاوى ومهيب هندي .

وفى يوم ٥ ابريل حدثت اتصالات جديدة مع القاهرة عن طريق العسكريين السوريين والحميد طه نور الله والعقيد أكرم الخطيب من ضباط القيادة الموفدين من اللواء عبد الكريم زهر الدين رئيس أركان الحرب ومن عبد الحميد غالب سفير مصر فى لبنان وهو عسكري سابق كان يعمل ملحقا عسكريا فى واشنطن .

دارت الاتصالات حول تأكيد رغبة النظام فى سوريا على اطلاع جمال عبد الناصر على حقيقة الأوضاع الداخلية بهدف اقامة تعاون جديد فى العلاقات ، وخاصة أنه بعد استمرار تحديد اقامة حيدر الكزبرى والقاء القبض على العقيد فيصل سري الحسيني الذى ثبتت صلتة بالأردن والسعودية ووقف التعاون بين الملك حسين والقيادة السورية الجديدة فان حشودا أردنية وتركية بدأت تتجمع على حدود سوريا ٠٠٠ وطلب الوفد السورى وقف حملات صوت العرب حتى لا يعقد ذلك موقفهم ٠٠٠ كما

أوضحوا أن موفق عصاصة قائد سلاح الطيران السوري ليس هو الشخصية التي تستحق هذا التركيز من صوت العرب .

وتم الاتصال الثاني في ٨ ابريل بناء على طلب السفير المصري لتوضيح أن القاهرة تصر على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لسوريا وإنها لا يمكن أن ترسل أية قوات الا في حالة عدوان خارجي وبناء على طلب القيادة السورية ، وأما عن صوت العرب فإن اذاعته سوف تمضي في الدعوة الوطنية السورية .

وفي هذه المقابلة أبلغ العميد طه نور الله رسالة شخصية من اللواء عبد الكريم زهر الدين الى جمال عبد الناصر ملخصها أن الملك حسين قد أبلغ ضباط السلاح الجوي الأردني أن يتأهبوا لعملية ضد سوريا تقف وراءها الولايات المتحدة وأن أموالا سعودية وأردنية تتدفق لشراء رجال القبائل وقد لفتت القيادة السورية نظر السفير السعودي لذلك . . . وأن هناك خشية من وثوب خارجي على النظام في سوريا تتعاون فيه الأردن وتركيا . . .

وتمت مقابلة ثانية يوم ١٣ ابريل حضرها مع الوفد السوري العميد هاشم هاشم أغا رئيس المكتب الثاني (المخابرات السورية) .

كان ناظم القدسي قد عباد الى رئاسة الجمهورية . . . وكان الوفد السوري حريصا على تأكيد أن هدف القيادة السورية هو اقامة وحدة عربية سليمة على أساس نظام اشتراكي . . . وهو قول جديد بعد الانفصال . . .

الاتصالات سرية وتتم بين العسكريين . . . والقيادة السورية ليست منتمية ولا متعاونة مع تنظيمات سياسية سابقة ، والدكتور بشير العظمة رئيس الوزراء يعطى تصريحات يقول فيها (اننا نأمل أننعكس ارادة الشعب في مسائل الوحدة والاشتراكية) ويذيع بيانا يوم ٦ مايو يقول فيه أيضا (ان الحكومة ترى في إعادة البحث في الوحدة مع مصر ضرورة قومية ومطلبيا واقعيا ، ولا بد أن يكون البدء بهذه الوحدة مع مصر كخطوة أولى نحو الوحدة العربية المرجوة) .

وعادت الصحف المصرية لدخول سوريا .

مظاهر التغيير تتضح . . . والحكومة الجديدة تحاول الظهور في مظهر وحدوي تحت ضغط الرأي العام . . . وتصدر بيانا في ٧ يونيو يؤكد موقفها السابق ويعلن في وضوح وصراحة عزمها على مباشرة الاتصال مع مصر للتعرف على وجهة نظرها في اقامة وحدة اتحادية .

وأصدرت الجمهورية العربية المتحدة بياناً أذيع يوم ٢١ يونيو ١٩٦٢ أعلنت فيه رأيها في الوحدة على شكل مشروع .

وكان رد الفعل عند الحكومة السورية هو اعلان الدكتور بشير العظمة رجوع حكومته عن فكرة العمل لاعادة الوحدة تحت حجة أن حكومته لاتمثل الشعب وليس من حقهم اتخاذ أى خطوة لتقرير مصيره .

الأمر لم تصل الى الوفاق المنتظر . . والتربص قائم بين حكومة القاهرة وحكومة دمشق ، والمحاولات لاشك مستمرة لتغيير الوضع القائم في سوريا تغييراً جذرياً يعيد الوحدة الى أصلها .

والصراع كما هو واضح يقوم بين العسكريين سواء من القاهرة أو دمشق . . . ومحاولات الاتصال ببعض الضباط السوريين مازالت جارية من جانب أجهزة المخابرات في القاهرة .

الفصل الرابع

مصر ٠٠ وسوريا بعد الانفصال

(ان حكومة الجمهورية العربية السورية قررت اعتبار الشكوى الواردة في مذكرتها بتاريخ ١٩ اغسطس ١٩٦٢ ضد حكومة مصر كأنها لم تكن ، وترجو حلها من جدول أعمال الدورة الاستثنائية لمجلس جامعة الدول العربية) .

صلاح البيطار

رئيس وزراء سوريا

مارس ١٩٦٣ بعد اجتماع شتورا

معركة شتورا :

حملة اعتقالات بدأت في سوريا شملت الدين اصطلح على تسميتهم الناصريين ، والمحاولات مستمرة لانهاء الوضع في سوريا .
وبدأت محاكمة الضباط السوريين الوجوديين المعتقلين في سجن
المزة .

القنابل تنفجر في كثير من المدن السورية تثير القلق والتوتر .

حكومة سوريا تلجأ الى شكوى مصر لجامعة الدول العربية يوم ١٩ أغسطس ١٩٦٢ تماما كما فعل كميل شمعون عام ١٩٥٨ عندما نظرت الشكوى فى اجتماع الجامعة بينفاذى .

وأمن الجامعة عبد الخالق حسونة يحاول عقد اجتماع ثنائى بين سلطات القاهرة وسلطات دمشق . . ولكن الجهتين تصران على أن يدرس مجلس الجامعة موضوع الشكوى .

وتقرر انعقاد المجلس فى شتورا بلبنان . . . عقدت الجلسة الأولى صباح ٢٢ أغسطس برئاسة أحمد بن عرفة رئيس وفد تونس ، وحضر وفود ١٢ دولة وتخلفت العراق ولم ترسل وفدا .

كانت المفاجأة هى تمثيل مصر بوفد برئاسة أكرم دبرى الوزير السوري السابق فى حكومة الوحدة ومعه جادو عز الدين الوزير السوري السابق أيضا ، والاثنان من العسكريين ومعهما عبد الحميد غالب سفير مصر فى بيروت ، والوزير المفوض طلعت صدقى ، وهو سوزى ثالث ، ومستشاران مصريان

وتشكل الوفد السوري من ١٢ شخصا برئاسة الدكتور جمال الفراء وزير الخارجية والدكتور أسعد محاسن سفير الجمهورية العربية المتحدة السابق فى المغرب وخليل الكلاس أحد وزراء الوحدة .

المناقشات الأولية أوضحت أن ثلاث دول طلبت أن تكون الجلسات علنية هى مصر وسوريا والأردن ، وتسع دول طلبت أن تكون الجلسات سرية . . . وبعد مناقشات استمرت جلستين أخذ قرار بسرية الجلسات لمناقشة الشكوى التالية المقدمة من جمال الفراء :

(أشرف بأن أرجو سيادتكم باسم حكومتى دعوة مجلس جامعة الدول العربية للانعقاد فورا للنظر فى الموقف الناجم عن الأقوال والأفعال التى يقوم بها ويدفع اليها الرئيس جمال عبد الناصر تجاه سوريا والتى تشكل اعتداء صريحا على سيادة الجمهورية العربية السورية وكرامة شعبها ، على أن يكون مكان الانعقاد فى أى بلد عربى غير مصر) .

استند الوفد السوري فى بيانه الأول على خطاب جمال عبد الناصر فى عيد الثورة العاشر الذى قال فيه :

(اننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نرى الشعب السوري يوضع فى السجون ويضرب وتتحكم فيه الرجعية ونقول ان هذا لايعنينا . . . ان شعب سوريا أعلن سنة ١٩٥٨ أنه جزء من الجمهورية العربية المتحدة

واننا نشعر نحوه أيها الاخوة بمسئوليات كبيرة . . . اننا مع شعب سوريا
في كفاحه ضد الرجعية وضد الانتهازية وضد الاستعمار) .

وأعلنت سوريا قائمة اتهامات لمصر :

١ - سفارة مصر في بيروت تحرض على اغتيال ضباط القيادة السورية
في أواخر يونيو ١٩٦٢ .

٢ - ارسال متفجرات لعمشق مع شخص يسمى بديع حجازي يوم
١٧ يوليو عن طريق نجيب جويقل عضو الإخوان المسلمين والهاب
من مصر .

٣ - محاولات فؤاد هلال الضابط السابق والوزير المفوض المصري
ببيروت ، وزغلول عبد الرحمن الملحق المصري ببلبنان ، وخيري حماد
الكاتب الفلسطيني - التجسس على سوريا عن طريق الاتصال ببعض
العملاء .

٤ - ارساله أموالاً للضباط السوريين .

٥ - تحريض لاجئين عراقيين ولاجئين لبنانيين للتآمر على سوريا .

سبع وثائق قدمها الوفد السوري وكلتها تذوّر حول محاولات اتصال
بعناصر معادية لنظام الحكم القائم داخل سوريا . . . وهي في مجموعها
تشكل أساساً استند عليه الوفد السوري في مهاجمة مصر وضرب الوحدة .
انضم أمين الناقوري الضابط ووزير الوحدة السابق إلى الوفد
السوري في الجلسة السادسة ليواجه زملاءه أكرم ديري وجادو عز الدين ،
وشن حملات شديدة على أسلوب معاملة الضباط المصريين للضباط
السوريين . . . واتهم مصر بالتخاذل لقبولها قوات الطوارئ الدولية
مسفها قول المشير بأن هذا يوفر على مصر تكاليف المواجهة إلى أن نستعيد
تماماً لمناطحة اسرائيل .

وانتقل أمين الناقوري إلى موضوع تحويل مجرى نهر الأردن . واتهم
مصر بأنها تساعد اسرائيل بطريق غير مباشر عندما تتقاعس في الهجوم
عليها وتدخل ذلك في حسابات عبر عنها بأنها - غير صحيحة - ودلل على
ذلك بقوله (القذف الجوي بأحسن الشروط وعلى الارتفاعات المتوسطة
لا يحدث تخريباً أكثر من ٥ في المائة في المطارات وفي الأجهزة ، وإذا
ما تدخلت الطائرات المقاتلة انهدمت فعالية القذف الجوي لاعتبارات نفسية
وانسانية تتعلق بالسلامة الشخصية لأفراد القاذفات) . . . ويؤكد أمين
الناقوري رأيه بالقول (وعلى كل حال حسب معلوماتي أن قوات الجمهورية

العربية المتحدة تستطيع سحق إسرائيل حتى ولو دعمت بالمساعدة الفرنسية التي كانت عام ١٩٥٦ وهي فرقة مدرعة خفيفة ولواء جوى) .

وانطلاقاً من هذا المنطق هاجم أسعد محاسن مصر وقال ان (حياذ القاهرة الايجابي بين إسرائيل والعرب فقط) ، وانطلاقاً من المنطق الذي ساد خلال هذه الفترة ونما خلال مقالات وأحاديث بعض وزراء الوحدة المستقلين ، وخاصة أكرم الحوراني الذي وصم جمال عبد الناصر بالتخاذل وتنفيذ المخططات الأمريكية في المنطقة ومساعدة إسرائيل بطريق غير مباشر يتبين أن الخلافات كانت قد وصلت الى درجة من الانفصال يصعب كبح جماحها وتبين أيضاً أن موقف المطالبين بالتعرض الفوري لإسرائيل هو موقف يستند الى الحماس والتطرف اللفظي ولا يستند الى الواقع الموضوعي الذي كان يدركه جمال عبد الناصر في عمق ويتشعب به .

تسهيل موضوع الاندفاع للحرب . . واتهام كل مناقش لهذه الفكرة بأنه متعصباً ومرتد . . . هو أمر يدل على نقص في سلامة التقدير ، واندفاع عفوي غير مدرك خطوات المسيرة ، وقد أثبتت الاحداث بعد ذلك عام ١٩٦٧ أن الحرب ليست عملاً من أعمال الكلام ، ولكنها علم وفن وسلامة تقدير وارتباط بالجماهير .

وانقل هنا بعض ما دار من نقاش بين المشير والناقوري خلال جلسة مناقشة تحويل مجرى نهر الأردن ، كما وردت على لسان الناقوري في البيان الذي أدلى به في الجلسة السادسة بمؤتمر شتورا .

قال المشير : (ان الذي يخشاه ليس إسرائيل . . بل هي القوات الغربية التي تدعم إسرائيل) ونوه بالعدد المتزايد لقوات إسرائيل .

فأجبت - رأى الناقوري - (اننا نصرف قوات إسرائيل معرفة دقيقة ، ونعرف جيداً العدد الصحيح الذي تستطيع تجنيده من النساء والرجال ، ولدينا سجلات عن امكانيات إسرائيل العددية ولا يتجاوز الخطأ فيها نسبة ٥ في المائة وليس هناك ما يقلق أبداً من جهة إسرائيل ، سواء كان من حيث عدد القطعات أو من حيث التجهيز والمعدات) .

تبسيط قضية الصدام بإسرائيل كان طابع المناقشة ومنبع الهجوم .

وذكر أمين الناقوري أنه في اليوم التالي لهذه الجلسة وبينما كان هو وأحمد عبد الكريم زميله في الوزارة بنساذي الجزيرة أقبل عليهما صلاح سالم وأبلغهما أن جمال عبد الناصر قد تحدث معه تليفونيا بعد انتهاء الجلسة مباشرة قائلاً له (ان الوزراء السوريين قد أثاروا قضية تحويل نهر الأردن ، ووضعونا في موقف حرج للغاية وأن مهمتنا في الشرق

الأوسط هي مكافحة الشيوعية ، فإذا ما أثرنا هذه القضية الآن في الصحف يكون الرأي العام في الجمهورية العربية المتحدة وفي العالم العربي ضد التحويل وسوف تنضم روسيا لدعم هذا الموقف ولهذا يجب ألا يذكر شيء في الصحف عن هذا الموضوع) .

وإذا كان صحيحا ما ذكره الناقورى فإن علاقات جمال عبد الناصر مع الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت كانت متردية منذ نهاية العام السابق ١٩٥٨ ، ولكنه كان قد أرسل صلاح سالم الى موسكو فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ وذهبت معه وقتها حيث أجرى حديثا مع خروشوف كان من معالم الرجوع عن الهجوم المتبادل ، وتم الاتفاق خلال الرحلة على تنفيذ المرحلة الثانية من مشروع السد العالى .

كان صلاح سالم خلال هذه الفترة قد بدأ يغير أفكاره التقليدية السابقة ويصبح أكثر اقتناعا بالاشتراكية . . . زيارة الاتحاد السوفييتى ، والاتجاه اليسارى لبعض العناصر فى جريدة الجمهورية رغم وجود الشيوعيين فى المعتقلات ، والمناقشات المتكررة مع خالد محيى الدين ومجدى حسين ومع أعضاء المجلس القومى للسلام والزعامة السابقين فى الجيش . . . كل هذا كان له تأثير كبير فى تطور تفكير صلاح سالم . . . ولعل هذا هو ما دفعه الى القول على لسان عبد الناصر (ان مهمتنا فى الشرق الأوسط هي مكافحة الشيوعية) كنوع من التجسيد والتضخيم لحذر عبد الناصر من اثاره هذا الموضوع اعلاميا . . . وان كانت الحقيقة الموضوعية خلال هذه الفترة هي أن القاهرة كانت تضرب الشيوعيين فعلا وانها كانت تخدم بذلك أطماع الامبريالية بطريق غير مباشر .

ولكن الأمور بالقطع لم تكن تصل الى حد العمالة للسياسة الأمريكية ولا التآمر على القضية الفلسطينية ولا التخاذل المقوت فى المواقف الوطنية كما حاول كثير من الكتاب تصوير موقف مصر ، وخاصة أكرم الحوراني .

وحزب البعث فى سوريا كان قد تشتت مع الوحدة ، ولم يكن تجميعه سهلا بعدها فقد انقسم الى عدة اتجاهات وأحزاب .

أكرم الحوراني عاد الى تشكيل الحزب العربى الاشتراكي وشارك ببعض وزرائه فى حكومة الانفصال ، وكان قاسيا فى أحكامه ضد عبد الناصر والسلطة فى مصر .

أما ميشيل عفلق أمين القيادة القومية فقد أصدر بيانا يدين الانفصال كما سبق أن ذكرت ، وعقد سرا فى حمص مؤتمرا قوميا لقيادة الحزب

من أعضاء غير سوريين كان منهم على نصالح السعدي الذي أصبح نائبا لرئيس مجلس الوزراء العراقي في ثورة فبراير ١٩٦٣ .

ولكن مجموعة من البعثيين رفضت خط القيادة القومية وشكلت قيادة قطرية في سوريا كان سكرتيرها العام رياض المالكي شقيق عدنان المالكي الذي عمل وزيراً للثقافة في سوريا خلال الوحدة . . . وضمت هذه القيادة كلا من يوسف زعين و ابراهيم ماحوس وصلاح جدييد ونور الدين الاتاسي .

وهكذا تعددت قيادات البعثيين في سوريا خلال هذه الفترة . . . وبينما أدان حزب البعث في العراق عملية الانفصال تشبثت الأفراد في سوريا بين موقف القيادة القومية (ميشيل عفلق) وموقف القيادة القطرية المعارضة لها (رياض المالكي) وانتهت وحدة الحزب بعد انفصال الحوراني عنه وإعادة تشكيله للحزب العربي الاشتراكي .

وعندما استشهد الوفد المصري بمقال نشره صلاح البيطار عن تحويل نهر الأردن يوم ١٨ أغسطس ١٩٦٣ في جريدة البعث وروى قصة الاجتماعات كما حدثت وانها بهذا التساؤل :

(من حق الناس أن يسألوني : هل تكون عندك خلال هذه المناقشات ومن خلال الحوادث التي تعاقبت فيما بعد شعور أن عبد الناصر أو المشير أو الحكم في الجمهورية العربية المتحدة يخطط لتصفية القضية الفلسطينية ؟ وجوابي : لا ، وهو ذات الجواب بالنفي الذي كنت أعلنه في عهد الوحدة والذي أعلنته في عهد الانفصال) .

عندما استشهد الوفد المصري بهذا المقال تأكيداً من رجل مسئول بسلامة موقف جمال عبد الناصر وسلطة القاهرة . . . استشهد الوفد السوري ببيان لم ينشر ولم يذع لصالح البيطار نفسه يهاجم فيه النظام الفردي ويصف الحكم في الجمهورية العربية المتحدة بأنه (شأنه شأن أكثر الانقلابات العسكرية جاء عن طريق العنف ويحكم منطق القوة والفسر) .

الاستناد الى بيان غير مداع لا يعطى قوة للحجة السورية ، والحديث عن (معاداة النظام الفردي للشعب ولكن فلسفة أو حركة تؤمن بالشعب وثائق بسلامة تقديره وتعمل على تنظيمه) ، كما كتب البيطار ، هذا أمر لا يتناقض مع اتخاذ موقف وطني في قضية تحويل مجرى نهر الأردن .

ولم يكن تحويل نهر الأردن هو المشكلة الوحيدة التي ركز الهجوم السوري عليها في شتورا . . . وإنما أخذ الجانب السوري موقف النفي

لما سبق أن رواه السفير المصرى فى بيروت من وقائع تتصل بأن أموالاً سعودية وأردنية تتدفق على سوريا ، وأنه سبق للسلطات السورية أن نبهت السفير السعودى لذلك .

كان ذلك دليلاً على أن خطوات التقارب التى تمت بين دمشق والقاهرة خلال شهر ابريل لم تكن مخلصه وأن موقف الحكومة السورية كان ومازال أقرب الى التعاون مع الحكومات الرجعية فى المنطقة .

وفى الجلسة الثامنة التى عقدت يوم ٢٨ أغسطس ألقى أكرم دبرى، بياناً أمام المجتمعين أعلن فيه أن وفد الجمهورية العربية المتحدة قد أجاب على كل الاتهامات والافتراءات وأنه يجد (أن الجامعة العربية بأوضاعها الحالية ليست - شكلاً وموضوعاً - أداة صالحة للوصول بالنضال العربى الى أهدافه ٠٠٠) وأنها مازالت - حتى الآن بكل الاثقال التى تفرضها عليها، النظم الرجعية المتعاونة مع الاستعمار - غير قادرة على شىء الا أن تكرر نفسها بمثل ما حدث فى نكبة ١٩٤٨) ولذا قرر الوفد الانسحاب من الاجتماعات ومن الجامعة العربية أيضاً .

كان الموقف صدمة مفاجئة للحاضرين ٠٠٠ ولكن حدثاً ما هو الذى دفع اليه ، فقد هرب المقدم زغلول عبد الرحمن الملقب بالعسكرى المصرى فى بيروت مساء اليوم السابق ٢٧ أغسطس الى سوريا وأعلنت الحكومة السورية أنه سيجابه الجماهير والصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء فى مؤتمر يعقد فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٨ أغسطس .

كان زغلول عبد الرحمن ضابطاً فى المخابرات المصرية وأحد المسئولين الرئيسيين عن المنطقة ، باشر عمله فيها منذ منتصف الخمسينيات . ورد اسمه فى اتهامات الوفد السورى بمحاولات التجسس والتخريب والتآمر ، وكان مقرباً من المشير عبد الحكيم عامر ٠٠ اذ كان أحد أصفائه من الضباط الذين يستطيعون مقابله بلا موعده .

كان ظهور زغلول عبد الرحمن بهذه الصفة أمام المراسلين العرب والأجانب كفيلاً بتدمير موقف الجمهورية العربية المتحدة فى اجتماعات شتورا ٠٠٠ ولذا صدرت التعليمات من جمال عبد الناصر للوفد بالانسحاب .

وقال خليل الكلاس تعقيباً على انسحاب الوفد المصرى بأن ضابط المخابرات زغلول عبد الرحمن كان سينضم للوفد السورى فى اجتماعات شتورا .

وليس من شك في أن موقف زغلول عبد الرحمن كان ثمرة محتملة لاعطاء بعض العسكريين المقربين من مركز القيادة صلاحيات لا تؤهلهم لها خبرتهم ولا كفاءتهم ولا قيمهم السلوكية التي تنهار حتما أمام الاغراء الذي قدمه مركز القيادة والتساهل الذي يراقب به تصرفات المقربين .

وكان معروفا أن زغلول عبد الرحمن قد أدمن القمار وخسر مبالغ كبيرة عوض بعضها من القاهرة ومن المشير شخصيا ومع ذلك ظل في موقعه مستولا عن أجهزة الأمن مع عدد آخر من العسكريين .

وكان معروفا أيضا أن زغلول عبد الرحمن تربطه صلة نسب وقربة بأحمد أبو الفتح وأحمد فهمي اللذين خرجا من مصر وتعاونوا لفترة طويلة مع أجهزة مخابرات أجنبية وعربية رجعية خلال اذاعة (مصر الحرة) . ومع ذلك لم تحاول الجهات المسئولة معرفة أثر هذه الصلة في حركته وأسلوبه .

كانت العلاقات الشخصية والاقتراب الشديد من مركز السلطة هما المؤهلات التي يعتمد عليها الانسان مدنيا أو عسكريا في تحقيق أغراضه .

وغريب ألا يكون موقف جلال هريدي قائد المظلات والمقرب من المشير بعد اذاعاته المعروفة من دمشق باعثا على مراجعة موقف بعض العسكريين المقربين .

ولكن كانت عودة المشير عامر الى موقعه في الجيش بعد استقالته التي قدمها عندما حاول مجلس الرئاسة استصدار قانون يحد من اختصاصه وتضامن بعض قادة الأسلحة والوحدات معه هي بداية عودة الجيش الى السلطة بصورة مباشرة . وهي بداية الاعتماد على الأصدقاء المقربين من المشير في تنفيذ أغراضه وتأكيد سلطته .

هذا النفر القليل من العسكريين المستفيدين هم الذين أساءوا الى العسكريين عموما وإلى المشير بصفة خاصة وكانوا وصمة في جبين النظام جعلت وفده في شتورا ينسحب بطريقة غير منتظمة تشير الأسى وتشير الى نقاط ضعف كان يجب أن تعالج منذ البداية .

وانتهت اجتماعات شتورا بقرار من ثلاث نقاط يتضمن عدم استطاعة الاستمرار في نظر الشكوى بسبب انسحاب وفده الجمهورية العربية المتحدة ، واستمرار الدورة الاستثنائية مفتوحة مع بذل الدول الأعضاء المساعي اللازمة لدعم كيان الجامعة باحترام ميثاقها ولم شملها كقالة لاستمرار نهوضها برسالتها .

وانتهت الجلسة الأخيرة بعد منتصف ليلة ٣٠/٣١ أغسطس ١٩٦٢ .
اكتسبت الحكومة السورية رصيда من اجتماعات شتورا لدعم
الانفصال . . . ولكن الضباط السوريين الذين عجزوا عن وقف الانفصال
في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وفشلوا في فرض وجودهم بعد حركة الجيش
وقرارات مؤتمر حمص في ابريل ١٩٦٢ ، لم يركنوا الى الاستكانة .

البعث ينتصر :

وعاد ضباط البعث للنشاط من جديد . . . محمد عمران الذي سبق
له أن عرض على أمين المحافظ أن يتحرك معه كان يدبر أمره في سرية دون
ولاية من أحد ، وخاصة بعد حل حزب البعث ، ورغم أنه ضابط بعثي قديم
إلا أن أكرم الحوراني يقول انه لم يكن يعرف شيئا عن تدبيراته ، ربما
لابتعاد أكرم نفسه عن صفوف الحزب . . . وربما لأنه كان صعبا خلال
هذه الفترة القول بأنه كان هناك حزب موحد بعد التناقض السافر بين
القيادة القومية والقيادة القطرية .

ولم تكن الرغبة في ضرب الانفصال قاصرة على ضباط البعث ،
ولكنها شملت الضباط الناصريين أيضا .

وشجع الحركة المعادية للانفصال في سوريا قيام حركة ٨ فبراير
١٩٦٣ في العراق والاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم ، وتعيين عبد السلام
عارف رئيسا للجمهورية ، وأحمد حسن البكر رئيسا للوزراء ، وعلى صالح
السعدي نائبا لرئيس الوزراء . والأخير كان أحد المسئولين بعد مؤتمر
البعث في مايو ١٩٦٢ بحمص في القيادة التي شكلت لسوريا .

نشرت الأهرام يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٣ خبرا يقول ان ناظم القدسي
رئيس الجمهورية قد صدق ليلة عيد الوحدة على أحكام الاعدام التي
أصدرتها محكمة أمن الدولة العسكرية على ضباط حلب . . . وأن برقية
قد خرجت من سجن المزة بتوقيع لؤي الاتاسي ومقدم محمد عمران .

ولم يمض شهر واحد حتى تحركت قوات الجيش السوري . . .
قاد الحركة عميد زياد الحريري وهو ضابط بعيد عن الشبهات ، ليس
بعثيا وليس له ماض سياسي . . . وعين رئيسا لأركان القوات المسلحة .

وخرج لؤي الاتاسي قائد منطقة حلب السابق والذي وضع في
سجن المزة بعد محاولة ابريل ١٩٦٢ ، ليصبح قائدا عاما للقوات المسلحة
برتبة فريق ورئيسا لمجلس قيادة الثورة السوري .

اللواء راشد قطيني عين معاوننا للقائد العام للقوات المسلحة .

ثورة يوليو جا ب ٧٦٩ .

وعين العميد محمد الصوفى وزيرا للدفاع .
وتشكل المجلس الوطنى لقيادة الثورة الذى ضم المقدم فواز محارب.
والمقدم فهد الشاعر .

ومحمد الصوفى أصبح وزيرا للدفاع برتبة فريق .
وتولى صلاح البيطار منصب رئيس الوزراء ، واستدعى أمين الحافظ
من عمله ملحقا عسكريا بالأرجنتين ليصبح وزيرا للداخلية .
ودارت العجلة فى اتجاه معاكس . . . وصدرت نشرة عسكرية.
بتسريح ٦٨ ضابطا ، وعاد الى الخدمة كثير من الضباط البعثيين المسرحين ،
محمد عمران تولى قيادة اللواء مدرع وصلاح جديده تولى منصب كاتم
أسرار .

يقول أمين الحافظ الذى وصل الى دمشق يوم ١٣ مارس بعد خمسة
أيام من الانقلاب أنه كان ضد تسريح ضباط من الجيش وأنه يعتبر ذلك
جريمة . . . ولكنها كانت وقعت قبل حضوره كما يقول .

لم يعد الى الجيش بعض الضباط الذين اشتهروا بأنهم ناصريون .
تغير الموقف فى سوريا جذريا . . . ولجأ خالد العظم رئيس الوزراء
الى سفارة تركيا . وأرسل صلاح البيطار رئيس الوزراء ووزير الخارجية
كتابا الى أمين الجامعة العربية يقول فيه :

(ان حكومة الجمهورية العربية السورية قررت اعتبار الشكوى
الواردة فى مذكرتها بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٦٢ كأنها لم تكن وترجو
حذفها من جدول أعمال الدورة الاستثنائية لمجلس جامعة الدول العربية) .

وأوضح الكتاب أيضا :

(أن حكومة سوريا التى قامت بعد ثورة أطاحت بمزيفى ارادة
الشعب العربى فى هذا البلد المؤمن بوحدة الأمة العربية إيمانه بوجوده
تفتنم الفرصة لتنقل الى جامعة الدول العربية الموقف المعبر عن حقيقة
مشاعر الشعب فى تلك المناسبة الكبرى التى أثارته الفئات الرجعية
والانفصالية والشعوبية فى آخر اجتماع لدول الجامعة العربية فى
شتورا) .

ثم يقول بعد تفصيل (الموقف الشائن الذى صغقت له أبواق الرجعية
وأشادت به دسل الاستعمار واسرائيل) .

• (وهكذا جاءت ثورة الشعب العربى فى سوريا ثارا لمعركة شتورا ولكارثة الانفصال ولعزم هذا الشعب على الانطلاق فى طريق الوحدة على حطام الرجعية والانفصال والشعوبية •• ويعلن فى النهاية استنكار حكومة سوريا لتلك (الشكوى المزعومة) وسحبها شكلا وموضوعا) •

مباحثات الوحدة الثلاثية :

وفى اليوم العاشر للانقلاب بالتحديد •• يوم ٧ ابريل ١٩٦٣ اجتمع فى القاهرة ممثلون عن الحكم فى مصر (١) ، والحكم الجديد فى العراق (٢) والحكم الجديد فى سوريا (٣) •

سنة ونصف فقط بعد الانفصال وممثلون من سوريا والعراق يحضرون الى مصر لمناقشة قضية الوحدة •

كانت سوريا خلال هذه الفترة مسرحا لحركة العسكريين الذين تتابع ظهورهم على مسرح الأحداث ، وتغيرت تبعاً لهم الوزارات التى لم تكن أكثر من واجهة للحكم بلا نفوذ حقيقى •• ولا يمكن القول مطلقاً بأن الحكم كان مستقراً أو قريباً من الاستقرار •

الضباط السوريون الذين قاموا بالحركات العسكرية المتتالية لم يكونوا فى مناصب القيادة العليا مثل حسنى الزعيم وسامى الحناوى وأديب الشيشكلى •• وإنما كانوا من رتب وعمر أصغر •• وكانت التسريعات التى تصحب كل حركة والتى تكررت عدة مرات فى سبتمبر ١٩٦١ وابريل ١٩٦٢ ومارس ١٩٦٣ تضعف من ثورة الجيش السورى وتخرج منه عناصر ذات كفاءة عالية ، البعض منهم درس فى كلية الأركان (فرونز) بالاتحاد السوفيتى ، والبعض كان من الذين دربوا فى القوات الجوية تدريباً استغرق كثيراً من الوقت والجهد والمال •

استنزفت الحركات العسكرية السورية قوة الجيش الى جانب الضحايا الذين تساقطوا من الجنود والضباط برصاص زملائهم وخاصة فى حلب •

(١) الوفد المصرى كان مشكلاً من : جمال عبد الناصر - عبد اللطيف البغدادى - عبد الحكيم عامر - كمال الدين حسين - على صبرى - أمين هويدى - عبد المجيد فريد •

(٢) الوفد العراقى كان مشكلاً من : صالح السنعدى - مهدي صالح صماش - طالب شبيب - دكتور عبد الرحمن البزاز •

(٣) الوفد السورى كان مشكلاً من : نهاد القاسم - عبد الحليم سويدان - عبد الكريم زهور - راشد قطيبي - زياد الحريري - نواز محارب - نهاد الشاعر •

كانت فترة الوحدة من أكثر الفترات استقراراً في سوريا . . أكثر من ثلاث سنوات ونصف والجيش يمارس دوره الوطني بلا هزات تؤثر على مستواه سوى التسريجات وإبعاد بعض العناصر ذات الشخصية والكفاءة من القيادات المناسبة لها .

حركة ٨ مارس ١٩٦٣ كانت انقلاباً عسكرياً مرتبطاً بحزب البعث ، الضباط البعثيون شاركوا فيه مشاركة إيجابية ، ولكنهم لم ينسقوا حركتهم مع الحزب ولم يأتروا بأمر القيادة السياسية فيه ولم ينفردوا وحدهم بالعمل .

وظهر اتجاهان بين الضباط : قوميون يطالبون بعودة الجمهوريات العربية المتحدة فوراً ثم تنضم العراق . . وبعثيون عبر عن رأيهم لصالح البيطار بقوله إن هدفهم كان إسقاط الانفصال وعودة العلاقات الطبيعية الأخوية بين الجمهورية العربية المتحدة وسوريا لإجراء مفاوضات ومباحثات لإقامة وحدة على أسس سليمة ومدروسة .

بدأت مباحثات الوحدة الثلاثية في فترة كان الحكم في مصر قد استقر فيها على أسس جديدة . . صدر الميثاق كأول وثيقة رسمية لثورة يوليو ، وتشكل الاتحاد الاشتراكي على أساس مختلف عن تنظيم الاتحاد القومي . . . وكانت الحركة إلى محاولة التطبيق الاشتراكي أكثر وضوحاً .

ومنذ الجلسة الأولى لمباحثات الوحدة التي عقدت مساء يوم ١٤ مارس ١٩٦٣ في سراي القبة بالقاهرة قال جمال عبد الناصر في صراحة أنه يرفض وحدة مع حزب البعث (إذا كان حزب البعث هو الذي يحكم سوريا وستكون الوحدة معه فأننا على غير استعداد للبحث إطلاقاً) .

الحساسية من قيادة البعث في ذروتها . . . وعلى صالح السعدى نائب رئيس وزراء العراق يقول (أما عن توقيع البيطار لوثيقة الانفصال فإنها كانت جريمة والذي دفعه في ذلك هو الحوزاني ، وقد فاجأه بها كما أن صلاح البيطار بكى كثيراً بعد ذلك على ارتكابه هذا الجرم) .

ودافع السعدى عن علق والبيطار قائلاً إنهما مخلصان في دعوتهما للوحدة وفي حبس نيتهم للعمل من أجلها .

المرارة في قلب عبد الناصر شديدة يعتبر أن موقف العبداء الذي اتخذته البعث والشعارات التي رفعها هي التي مهدت للانفصال .

ويقول جمال عبد الناصر : (أنا شغف من البعث السوري ما لم يره أي إنسان) .

وعندما علم جمال عبد الناصر فى مقابلة خاصة مع عبد الكريم زهور
عضو الوفد السورى ووزير الاقتصاد أن توزيع مقاعد المجلس سيتم على
أساس سبعة من البعث وثلاثة من بقية القيادات القومية والوحدوية شعر
أنه يدخل من جديد الى ميدان المناورات الحزبية .

واقترح على صالح السعدى فى الجلسة الرابعة للمباحثات حضور
قيادة حزب البعث السورى الى القاهرة فى محاولة لتصفية الجو بينها وبين
عبد الناصر . وفى الجلسة الخامسة تقرر ذلك وانتهت المرحلة الأولى
لمباحثات يوم السبت ٦١ مارس ١٩٦٢ ببيان يقول ان المباحثات قد وصلت
الى مرحلة تستوجب رجوع وفدى العراق وسوريا الى بغداد ودمشق ثم
الاجتماع مرة أخرى فى القاهرة .

وبدأت المرحلة الثانية يوم ١٩ مارس بوفد مصرى مشكل من جمال
عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادى وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين
وعلى صبرى ووفد سورى مشكل من صلاح البيطار وميشيل عفلق ولؤى
الاتاسى وفهد الشاعر .

المواجهة أصبحت مباشرة بين عبد الناصر وقادة البعث فى جو تحيط
به أزمة ثقة .

وجمال عبد الناصر يعترف بأن حل الأحزاب السورية على اختلاف
مشاربها سار بسرعة شديدة (وما كانش صبح) على حد تعبيره . . . ويقول
(احنا فى سنة ١٩٥٨ كان لازم اتبعنا أسلوب آخر وهو حل الأحزاب التى
لا تتفق فى الهدف ، ثم جميع الأحزاب الأخرى التى تجمعها وحدة الهدف . .
الأحزاب القومية تكون هى الطلائع الثورية فى جبهة قومية تسير على هدف
واحد) .

غيبة التنظيم السياسى كانت عامل ضعف شعر به عبد الناصر عندما
تهاوت الوحدة ولم تجد أحدا يدافع عنها .

وتثبت المحادثات أن حزب البعث لم يدافع عن فكرة عدم الغاء
الأحزاب ، وقال ميشيل عفلق تبريرا لذلك (باعتقد أنه بدون الحل ما بتكون
تصير وحدة) .

وميشيل عفلق وصلاح البيطار يدينان موقف أكرم الحورانى الذى
اعتبراه اقليميا فى تصرفاته بعد الانفصال ، ويقولان أنهما تصورا أن
الاتحاد القومى كان يمكن أن يؤدي دور الحزب اذا كانت قد استبعدت منه
العناصر الرجعية .

ويتدرج النقاش الى موقف الوحدة من الانقلابات العسكرية وعلاقة
البعث بضباط الجيش ٠٠٠ وجمال عبد الناصر يصرح بأنه رفض عرضا
تقدم به ضابط سوري اسمه فايز الرفاعي من ضباط الانفصال للقيام
بانقلاب يعلن الوحدة قائلا :

(أنا لا أستطيع أن أقبل وحدة بانقلاب ٠٠٠ الوحدة أولا ثقة
كاملة ٠٠ محصنة ضد الغدر) .

الحرص واضح على ابعاد حركة الوحدة عن انقلابات الجيش حتى
لا تنتشر العدوى الى مصر بعد استقرار للثورة زاد عن عشر سنين ٠٠٠
تدخل الجيش أو الرضوخ لحركة الانقلابات أمر مرفوض .

(العملية الى فائت تجربة رائدة وائتتهت ٠٠٠ وأى عملية جديدة
لازم تقوم على أساس سليم) .

هكذا أعلن جمال عبد الناصر .

وقال عبد الحكيم عامر (الانفصال لم يظهر خطورة الرجعية في
سوريا فقط ٠٠ ولكن أظهر خطورة الرجعية في مصر أيضا ٠٠ فهي كلها
تضارب) .

ويدور حديث عن المباحث وبذر العملاء ، ويقول جمال عبد الناصر
أنه أعطى ميشيل عفلق ٧٠٠٠٠ جنيه مساعدة لبعث العراق وأنه لم يطلب
منه أن يكونوا عملاء ٠٠٠ وأيد على صالح السعدي الواقعة وقال ان المبلغ
كان لمساعدة المناضلين .

العتاب والنقد مستمر حول بعض التصرفات الشخصية التي أشعرت
البعثيين أنهم في عزلة وأشعرت عبد الناصر أنهم مستثمرون في المؤامرات
الحزبية ٠٠٠ ومجابهة الموقف الحالي بعد ثورة العراق تضع على مائدة
النقاش فكرة الوحدة الاتحادية ٠٠٠ وفكرة الجبهة أيضا .

الوحدة الاتحادية تحتاج الى قيادة سياسية تضمن استقرارها ٠٠٠
وجمهوريات الاتحاد السوفيتي لها حق الانفصال دستوريا ولكن واحدة
منها لم تنفصل لوجود القيادة السياسية الواحدة ٠٠٠ وهي اذا كانت
شكلية ولدت ميتة مثل اتحاد الجمهوريات العربية مع اليمن .

وجمال عبد الناصر يعلن حذره من وحدة اتحادية يلعب فيها البعث
دور القيادة السياسية في سوريا والعراق ٠٠ ويتساءل عن نتيجة حدوث
خلاف بين مصر واحدى دول الاتحاد واحتمال تطبيق المثل الشعبى (أنا
وأخويا على ابن عمى) .

والجبهة قضية مطروحة ... ولكن مع استبعاد الشيوعيين والايوان المسلمين .

النظرة القديمة لم تتغير ... ونظرة حزب البعث تتفق مع نظرة عبد الناصر .

صلاح البيطار يقول انه لا ينظر في الجبهة للحزب الشيوعي على اساس ان له فلسفة اشتراكية خاصة فقط . . . ويقول جمال عبد الناصر (القومية بالنسبة لهم رجعية) ويعود صلاح البيطار للتأكيد (بالنسبة لنا هم أعداء للوحدة ما هم بس أعداء القومية) . . . ويوافق ميشيل عفلق على ذلك قائلا (لا بالنسبة لنا فقط وانما بالنسبة للجماهير) .

الجبهة في نظر المجتمعين تستبعد الأحزاب الشيوعية . . جمال عبد الناصر يتساءل في خشية عن سبب اعطاء الاخوان المسلمين في سوريا تصريحاً باصدار جريدة . . . ويقول لؤي الاتاسي بأنهم لا يريدون أن يفتحوا حرباً عليهم الآن ولكن لا يفتحون أبواب الجبهة لهم .

الجبهة في سوريا تقتصر على تفكير ميشيل عفلق في تعدد الأحزاب غير المعادية للاشتراكية التي تتنوع خطتها ، حتى يكون في ذلك (ضماناً لحد ما للحرية السياسية) . . . ويقول صراحة (الحزب الواحد مهما كان فيه ديموقراطية يبقى في كونه حزب واحد نوع من القمع . . . نوع من التضييق على الحريات) . . . وينتهي الأمر الى اقرار ثلاثة تنظيمات رئيسية يمكن أن تنضوي تحت لواء الجبهة وهي « البعث » و « القوميون العرب » و « الوندوين الاشتراكيين » .

التصور عند جمال عبد الناصر مازال هو تكوين جبهة - كما اقترح على وفد العراق - (تضم كل القوميين والوندوين حتى يمكن الوقوف أمام الرجعيين والشيوعيين) .

أحزاب الطبقة الوسطى مازالت تريد أن تنفرد وحدها بالسلطة بعيداً عن أحزاب الطبقة العاملة . . . والاتحاد الاشتراكي الذي يضم تحالف قوى الشعب العاملة يضع العمال والفلاحين بثقلهم الحيوي الكبير تحت قيادة الطبقة الوسطى الممثلة في العسكريين والتابعين لهم من المثقفين وأبناء الرأسمالية الوطنية .

ورغم القول بتمثيل العمال والفلاحين بنسبة (٥٠) في المائة في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي ومجلس الأمة ومجلس الادارة . . . ومع ما في ذلك من خطوة ايجابية لمشاركة هذه الطبقات و ظهورها على مسرح

الأحداث السياسية ، إلا أنها تظهر لتؤدي دورا ثانويا (كومبارس) بينما أدوار البطولة تنعقد لأبناء الطبقة الوسطى القابضين على السلطة .

المشاركة تأخذ طابعا شكليا أكثر منها حقيقة موضوعية .

والإصرار على عزل التنظيمات الشيوعية يؤدي في النهاية الى عزل للتيار الفكري التقدمي .

والحوار يدور حول التنسيق بين الاتحاد الاشتراكي وبين الجبهة المقترحة . . . أو المنتظر تشكيلها في كل من العراق وسوريا .

وتنتهي المرحلة الثانية من المحادثات بعد خمس جلسات في ٢٠ مارس ١٩٦٣ ، ولكن الرأي مازال غير موحد وغير متطابق ، وصفحة الحساب القديم لم تطلو لتفتح صفحة جديدة بيضاء . . .

وتبدأ المرحلة الثالثة من المحادثات يوم ٦ ابريل لتستمر عشر جلسات (١) .

الصراع مازال يدور بين جريدة البعث التي تحدثت عن أخطاء الوحدة ، وجريدة الأهرام التي انصرت فيها محمد حسنين هيكل بكتابة مقال تحت عنوان (انى أعترض) أذيع ١٢ مرة في الاذاعة واستهدف كما قال صلاح البيطار (اثارة الناس على حزب البعث وعليه يقصد إسقاط حكومته) .

وتقرر سفر بعثة مصرية للعزاء يرأسها المشير عبد الحكيم عامر وتضم عبد الحميد السراج وأمين هويدى وعبد المجيد فريد . وحدد جمال عبد الناصر موعدا يلتقى فيه بالمشير والسفير السابق بالعراق أمين هويدى الذى أصبح وزيرا للاعلام . . . ولكن المشير لم يحضر في الموعد ، رغم انتظار جمال عبد الناصر وهويدى لمدة تزيد على الساعة .

(١) الوفد المصرى شكل من : جمال عبد الناصر - عبد اللطيف البغدادي - عبد الحكيم عامر - كمال الدين حسين - على صبرى - كمال الدين رفعت - أمين هويدى - عبد المجيد فريد .

والوفد السورى شكل من : الفريق لؤى الأتاسى - صلاح البيطار - نهاد القاسم - الفريق محمود الصوفى - عبد الكريم زهور - هانى الهيندى - سامي صوفان - عبد الجليم سويدان - ميشيل العيسى - سامي الجندى - اللواء راشد قطيبي - العميد درويش الزولى - العميد غسان حداد - العميد كمال هلال - العميد فهد الفاسر - العميد محمد عمران - المقدم فواز محارب .

والوفد العراقى شكل من : أحمد حسن البكر رئيس الوزراء - علي صالح السعدي - صلاح مهدي عماش - طالب حسن شهيب - عبد الستار عبد اللطيف - مخزومة خطاب .

انتهت المقابلة دون حضور المشير وعبد الناصر يردد (أقبل ايه في المشير بتاعكم ده ... حتى المواعيد لا يحترمها) .

كانت هذه ظاهرة من الظواهر التي توضح مناطق المشير للرئيس ودخوله مرحلة عدم الاكتراث وفرض سلطته الذاتية .

سافر الوفد الى العراق بغير خطة منسقة

وكان موضوع خلافة عبد السلام عارف في قائمة الموضوعات المطروحة .

واستقر رأى المشير والسراج على تعيين عارف عبد الرازق رئيساً لجمهورية العراق . . . وأرسل المشير برقية الى القاهرة يطلب ارساله على طائرة خاصة حيث كان يقيم فيها بعد انقلابه الفاشل .

ولم يكن هذا الرأى متفقاً مع تفكير السفير السابق أمين هويدي في بادئ بأرسال برقية الى عبد الناصر يحلو فيها من هذا التعيين ويوضح أخطاره ويطلب عدم ارسال عارف عبد الرازق تفادياً لحدوث كارثة على حد تعبيره .

وافق عبد الناصر على فكرة أمين هويدي التي عرضت عليه بعد نومه في الثانية بعد منتصف الليل . وبعد أن كان سامى شرف قرر إبلاغ عارف عبد الرازق الذي استعد فعلاً للسفر ثم عاد لتراجع عن الإقبال به .

ووافق جمال عبد الناصر أيضاً على تعيين عبد الرحمن عارف في مناصبه شقيقه .

وعندما بلغ المشير عامر ثار وقرر مغادرة بغداد قبل وصول عبد الرحمن عارف من موسكو حيث كان في زيارة لها وعند وصوله العاصمة القاهرة والاسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية .

ومجلس الأمة يتشكل من مجلس نواب مدته ٤ سنوات باقتراع حر مباشر بأعداد تتناسب مع سكان كل قطر ومجلس اتحاد يتكون من عدد متساو من الأعضاء من كل قطر وينتخب انتخاباً حراً مباشراً بالاقتراع السرى العام ومدته ٤ سنوات . ويكون عدد أعضائه ربع مجلس النواب على الأقل أو ثلثه على الأكثر .

يختص مجلس الأمة بنظر طلبات الانضمام للدولة الجديدة والمواقفة بثلاثة أرباع الأصوات .

رئيس الجمهورية ينتخبه ثلثا أعضاء مجلس الأمة ويكون له ٣ نواب واحد من كل قطر ويكون لكل قطر رئيس ومجلس تشريعي منتخب ووزارة لها رئيس ومسئولة أمامه .

ويشكل مجلس رئاسة من عدد متساو من كل قطر يختارونه بوساطة السلطة التشريعية .

كما تكون هناك وزارة اتحادية تضم وزارات الخارجية والدفاع ووزارة الاعلام والثقافة ووزارة التربية والتعليم والتعليم العالي والبحث العلمي ووزارة الخزانة والمالية .

تغير العلم . . . وأضيفت نجمة خضراء ثلاثة لاعلام سوريا والعراق ظلت حتى الآن بعد أكثر من عشر سنوات دون أن يربط ذلك بين الدول الثلاث التي كان مفروضا أن تجري استفتاء على غرار الولايات المتحدة بعد عشرين شهرا . . . ولكن ذلك لم يحدث .

أثبتت مباحثات الوحدة أن تناقضات كثيرة مازالت تسيطر على العلاقات بين القيادات السياسية في الدول الثلاث . . . وأنها ترجع في معظمها الى عدم امكان الوصول الى صيغة مناسبة للتعاون بين نظام الحكم في مصر وبين حزب البعث . . .

فكل منهما كان يعتبر نفسه المؤهل للقيادة ، والأكثر أحقية بالانفراد في السلطة .

وأثبتت أيضا أن العسكريين في سوريا قد وثبوا بملابسهم الرسمية الى الصفوف الأولى بعد انقلاب ٨ مارس الذي انتهى الى تشكيل مجلس وطني لقيادة الثورة معظمه من العسكريين .

وأظهرت المخاضات أيضا أن هناك تناقضات داخل سوريا بين البعثيين وبين غيرهم من القوى الوطنية والتقدمية . . .

وكان ذلك واضحا في المناقشات التي أظهرت بصورة واضحة أن التيار الرئيسي في السياسة السورية كان تيارا بعثيا . . . بل كانت هناك تناقضات أيضا في صفوف البعث .

وعند انقلاب ٨ مارس تحدثت اقامة مصطفى حميدون وعبد الغنى قنوت من ضباط البعث السابقين وهرب أكرم الحوراني .

وبدأ صراع بين الضباط البعثيين وغير البعثيين من الناصريين والقوميين .

لعب لؤي الاتاسي وزياد الحريري دور التعاون مع البعثيين لتصفية القوميين أو الناصريين .

خرج محمد الصوفي وزير الدفاع ورشاد قطيني معاون رئيس الأركان .

وأرسل وفد عسكري الى بغداد يوم ٢٨ ابريل لمناقشة الشئون العسكرية وعند عودته وجد أفرادهم انهم اما قد تعينوا في مناصب خارج الجيش أو حددت اقامتهم .

وشعر الوجدويون أن تناقضات حادة قد بدأت تظهر بينهم وبين البعثيين . . . واستقال من الوزارة نهاد القاسم نائب رئيس الوزراء ، وعبد الوهاب حرمه من الجبهة العربية المتحدة ، وسامي صوفيان من الوجدويين الاشتراكيين وهاني الهندي من القومييين العرب .

التنظيمات القومية متعددة . . وهي تزداد انقساماً وتشرذماً . . . بينما البعث يسعى لتوحيد صفوفه وتماسك تنظيماته .

الشارع في سوريا مازال مع الوحدة . . . والفرصة ليست مهيأة تماماً لانفراد البعث بالحكم . . . ولؤي الأتاسي في القاهرة يوم ٨ مايو ١٩٦٣ في محاولة لتهدئة الأمور . . ويذهب الى بغداد في ٤ يوليو حيث يلتقي ضمن مقابلاته بالسفير المصري أمين هويدي حيث يصارحه بأهمية تعديل الاتفاقية ليكون حزب البعث في مكان الجبهة .

انحاز لؤي الأتاسي للبعث .

وساعدت سيطرة القاهرة الحادة في رفض التعاون مع البعث على إقتراب الموقف من الانفجار .

وخطب جمال عبد الناصر يوم ٢٣ يوليو قائلاً (يعز علي أن يكون العيد هنا والحزن هناك في دمشق) . . . كان خطر التجول في يومه الخامس واعتقالات القومييين مستمرة . . وقال جمال عبد الناصر انها قد تحولت الى معسكر اعتقال كبير .

وحسم عبد الناصر بكلماته قضية الوحدة ، ومزق نتائجها عندما خطب يوم ٢٦ يوليو قائلاً (ج . ع . م ليست مستعدة للوحدة مع حكومة ساحات الاعدام الفاشستية ، ج . ع . م ليست مستعدة للوحدة مع حكومة حظر التجول الفاشستية . وكانت اتفاقية الوحدة مع الشعب السوري ولم تكن أبداً مع حزب البعث الفاشيستي . . شعب سوريا الآن في معسكر اعتقال كبير ، والوحدة هي عملية تقرير مصير ولا يمكن أن تتم عملية تقرير المصير تحت ظلال المشائق ، أو في معسكرات الاعتقال) .

وفي ٢٧ يوليو انتهى دور لؤي الأتاسي وزياد الحريري وحلت تغيير الانقلابي وضع أمين الحافظ رئيساً للدولة واستمر صلاح البيطار رئيساً للوزارة ومحمد عمران الذي استمر قائد اللواء المدرع حتى تحرك به ليفرض ارادته . . . ووزيرا للدفاع . . .

حدث هذا التغيير ووثوب عسكري سوري الى مركز السلطة أبعد فكرة الوحدة ، وجعلها تتراجع الى الخلف وكان في هذا التغيير بداية اضعاف سلطة البعث كحزب سياسي ، وظهور العسكريين في صفوفه كقوة رئيسية محركة .

يقول أمين الحافظ ان ما تعرض له حزب البعث خلال فترة الوحدة من حل وما تعرض له بعدها من تمزق ، خلق وجهة نظر بين البعثيين والعسكريين تقضي بازاحة كبار قادته بطريقة عسكرية أي عن غير طريق لائحة الحزب ودستوره .

وكان وصول العسكريين للسلطة في دمشق تحت واجهة حزب البعث بمثابة النهاية لأحلام الوحدة بين مصر وسوريا .

كان حذر جمال عبد الناصر من الانقلابات العسكرية وخشيته من وصول عدواها الى مصر ، ورفضه أسلوب التعاون معها ، هي العوامل التي جعلت تيار الوحدة العربية مع سوريا ينحسر بل ويجف .

وهكذا بدأت علاقة العسكريين في مصر مع العسكريين في سوريا خلال حكم أديب الشيشكلي وتحققت الوحدة بارادة العسكريين السوريين من مختلف الاتجاهات ثم حلت الانفصال بعودة الجيش السوري الى أسلوب الانقلابات العسكرية التي أنهت الرغبة في عودة الوحدة .

الوحدة والانفصال لعب فيها العسكريون السوريون والمصريون الدور الأول والآخر أيضا .

واستمر حكم أمين الحافظ الى ٢٣ فبراير ١٩٦٦ حيث انتهى بانقلاب عسكري بعثي قال عنه بيان الحزب (ان حركة ٢٣ شباط كانت الوسيلة الوحيدة التي بقيت بين أيدي الرفاق لانقاذ الحزب والثورة ، وهي وان كانت حلا غير نظامي لتقاليد الحزب الديموقراطية الا أنها تأخذ مبرراتها الثورية من تصديها النضالي للمؤامرات الفعلية التي كانت تحاك لسحق الثورة والغاء دور الحزب) .

هذا هو الانقلاب الخامس عشر في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية .

وثبت الانقلابات العسكرية مرة أخرى الى ساحة العمل السياسي في سوريا ، مرتدية ثياب حزب البعث العربي الاشتراكي واتجهت خطوات

قادة هذا الانقلاب - نور الدين الأتاسى رئيس الجمهورية ويوسف زعين
رئيس الوزراء و ابراهيم ماخوس وزير الخارجية - الى التقارب مع مصر ،
الأمر الذى انتهى الى عقد اتفاقية (الدفاع المشترك) •

(اتفاقية الدفاع المشترك) كانت البداية لفترة هامة فى تاريخ مصر
وسوريا ، ترد تفصيلا فى الجزء الرابع من قصة ثورة يوليو (خريف
عبد الناصر) •

الباب الثالث

● القاهرة • • وبغداد

(اذا اتحت القاهرة وبغداد
في المعركة ضد الامبريالية ،
تعاظمت فرص قوى التحرر الوطني
العربي في تحقيق اهدافها القومية
والاجتماعية)

الفصل الأول

الانقلابات العسكرية في العراق

(كان انقلاب بكر صدقي في
أكتوبر ١٩٣٦ فائحة دخول
العسكريين ميدان السياسة في
الوطن العربي)

كان ذهاب بعض الجماهير الى السفارة المصرية في بغداد يوم ٢٢
مايو ١٩٥٣ لمطالبة حكومة الثورة في مصر بأن ينص في الدستور الجديد
على أن مصر دولة عربية ، كما نشرت جريدة المصري في ذلك الوقت ، باعثاً
من بواعث الاهتمام بالقومية العربية لدى قادة ثورة يوليو .

وكانت زيارة نوري السعيد للقاهرة عام ١٩٥٣ ، وعرضه على
المستولين فيها مشروعاً لتوحيد البلاد العربية على الأساس التالي : العراق
وسوريا والأردن وفلسطين في دولة واحدة ومصر والسودان في دولة
ثانية ، والمغرب العربي في دولة ثالثة والسعودية واليمن والخليج في دولة
رابعة بداية اهتمام بموضوع الوحدة ، رغم رفض جمال عبد الناصر
فكرة مناقشة الموضوع وقوات الاحتلال البريطاني مازالت في القاهرة .

وعندما قام صلاح سالم بجولته الأولى في البلاد العربية ، زار العراق
في أغسطس ١٩٥٤ ، واستقبله الوصي على العرش الأمير عبد الله ونوري ،

ثورة يوليو ج١ - ١٩٥٤

السعيد في مصيف سرسنك بشمال العراق ، واحتفى به احتفاء شديدا في محاولة لاجتذابه الى افكاره ، التي اشتهر بها في الوطن العربي زار معه عرسا كرديا ، وعقد معه عدة جلسات ، صرح بعدها صلاح سالم عدة تصريحات لم يرحب بها جمال عبد الناصر .

قال صلاح سالم انه من حق أية دولة عربية أن تنضم الى أخرى في وحدة واحدة ، وكان في ذلك موافقة غير مباشرة على مشروع الهلال الخصيب الذي بذر البريطانيون فكرته وتعهدوا بالنمو نوري السعيد وغيره من السياسة المتعاونين باخلاص مع بريطانيا .

وقال صلاح سالم أيضا أنه يؤيد دعم الجامعة العربية وميثاق الضمان الجماعي ، على أن يتم التشاور مع الولايات المتحدة وبريطانيا في هذا السبيل .

واعتبر جمال عبد الناصر هذه التصريحات سابقة لاوانها ، ومضعفة لموقف المفاوض المصري في مواجهة الاحتلال البريطاني ، ومؤيدة بطريقة غير مباشرة لمشروعات استعمارية مشبوهة ، فاستدعى السفير العراقي في مصر ، وأوضح له أن سياسة مصر لا تتفق مع وضع ميثاق الضمان الجماعي تحت الرعاية الانجلو أمريكية ، ولا تؤيد مشاريع الوحدة قبل اكتمال التحرر الوطني .

كانت مقابلة صلاح سالم مع نوري السعيد هي مقابلة عسكريين من جيلين مختلفين ، فنوري السعيد كان ضابطا سابقا متخرجاً في الأكاديمية العسكرية باستنبول عام ١٩١٠ وعمره ٢١ سنة ، وحارب في صفوف الجيش العثماني في حرب البلقان عام ١٩١٢ ، وانضم لجمعية العهد التي ضمت عددا من الضباط والمدنيين العرب من دول مختلفة دفاعا عن القومية العربية عام ١٩١٤ ، ثم حرب في نفس العام الى مصر ثم البصرة ، حيث اعتقله البريطانيون عند فوزهم لها في نوفمبر من نفس العام ، وأمضى عام ١٩١٥ أسير حرب في الهند ، ثم انتقل في نهاية العام الى مصر حيث حارب في صفوف الحلفاء ، وانتقل عام ١٩١٦ الى الحجاز حيث وصل الى منصب رئيس أركان حرب في جيش الشريف حسين تحت قيادة جعفر العسكري وكان كل من نوري وجعفر متزوجا من شقيقة الآخر .

شارك نوري السعيد في هجوم الحلفاء على دمشق وعاد الى العراق مع الملك فيصل الذي عينه الحلفاء ملكا عليها بعد خروجه من سوريا عام ١٩٢٠ بعد ثورة العراق ضد الاحتلال البريطاني والتي بلغ عدد القتلى والجرحى فيها حوالي ١٢٠٠٠ .

تكون الجيش العراقي لأول مرة في ٦ يناير عام ١٩٢١ ، وكان (اللواء) نوري السعيد أول رئيس أركان حرب لهذا الجيش ، بينما تولى جعفر العسكري منصب وزير الدفاع ٠٠٠ ثم تولاه بعده نوري السعيد من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٢٤ ٠٠٠ وأصبح رئيسا لوزراء العراق عام ١٩٣٠ .

كانت مقابلة صلاح سالم مع نوري السعيد لقاء بين جيلين ٠٠ شاب في الرابعة والثلاثين ، وشيخ في الرابعة والستين ٠٠ عسكري لم يمارس السياسة الا من عامين ٠٠٠ وعسكري شغلته السياسة منذ أربعين عاما .

كان الفرق بعيدا ومتنافرا بين أهداف العسكريين المصريين الذين تحركوا ليلة ٢٣ يوليو ، وبين أهداف العسكري العجوز والسياسي المخضرم .

مقاومة الاحتلال البريطاني والكفاح المسلح ضد قواته أمور لم تكن واردة في رؤية نوري السعيد ، الذي حاول التوسط مع الحكومة الوفدية لوقف الكفاح المسلح في القناة قبل الثورة ٠٠٠ والذي يحاول اليوم ممارسة دوره في احتواء العسكريين المصريين .

كان نوري السعيد معروفا بأنه ربيب البريطانيين والداعية الأكبر لسياستهم في المنطقة والمنفذ لها باخلاص شديد .

اول انقلاب عسكري في الوطن العربي :

لجأ نوري السعيد الى السفارة البريطانية عندما قام اللواء بكر صدقي نائب رئيس أركان حرب بأول انقلاب عسكري شهدته الوطن العربي في القرن العشرين .

انتهز بكر صدقي فرصة ذهاب رئيس أركان الحرب اللواء طه الهاشمي الى تركيا وألقى في الثامنة والنصف من صباح يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٣٦ منشورات موقعة منه ومن الزعيم (الاميرالاي) عبد اللطيف نوري ، تطلب استقالة وزارة يس الهاشمي وهو ضابط أقدم من نوري السعيد الذي كان وزيرا للخارجية في وزارته ، وكان رشيد عالي الكيلاني وزيرا للداخلية .

المنشورات حملت اذارا يقضى بضرورة الاستقالة خلال ثلاث ساعات ، وتعيين وزارة جديدة يرأسها حكمت سليمان .

رفض يس الهاشمي وقرر المقاومة .

لم يكن الانقلاب موجهاً ضد الملك غازي الذي خلف والده الملك
فيصل بعد وفاته في ٨ سبتمبر ١٩٣٢ .

بل قيل انه كان يعلم به ، وشجع عليه ضد طموح يس الهاشمي
ورغبته في اقامة نظام جمهوري بدل النظام الملكي .

وعجز الملك عن اقالته بحكم الدستور مادام حائزاً لثقة البرلمان .
وفي الحادية عشرة والنصف تماماً انطلقت خمس طائرات تلقى
قنابل بجوار مكتب رئيس الوزراء والبرلمان حيث قتل عدد من المارة ،
بينما كانت قوات بكر صدقي تقترب من دخول بغداد .

عقد مجلس الوزراء اجتماعاً برئاسة الملك ، حضر السفير البريطاني
جانبا منه ، وانتهى الأمر بتقديم الاستقالة ، وتعيين حكمت سليمان خريج
حقوق استنبول رئيساً للوزراء وذلك بعد قتل بكر صدقي لوزير
الدفاع جعفر العسكري بمسدسه ، وهو الرجل الذي كان يعتبر أباً للجيش
العراقي ، والذي حاول التدخل لتهديئة الحال .

ودخل بكر صدقي بغداد في الخامسة مساء

نفي يس الهاشمي الى سوريا حيث مات بعد عدة شهور ، ولجأ
نوري السعيد للسفارة البريطانية حيث نقل منها الى مصر ولم يعد الا بعد
تعيين جميل المدفعي .

كان انقلاب بكر صدقي هو فاتحة دخول العسكريين لميدان السياسة
في الوطن العربي ، وقد تشكلت الوزارة الجديدة وفيها بعض العناصر
التقدمية مثل كامل الجادرجي الذي عين وزيراً للاقتصاد ، وكان بكر صدقي
على صلة سابقة بجمعية (الأهالي) اليسارية . ولم يدخل الوزارة سوى
وزير عسكري واحد هو الاميرالاي عبد اللطيف نوري الذي عين وزيراً
للدفاع ، والذي كان يمثل الرجل القوي في الوزارة ، الذي يوجه خطابات
الى رئيس الوزراء بأن يعاملوا الناس بالعدل والعطف ، الى غير ذلك من
التوجيهات

استقبل الشعب العراقي انقلاب بكر صدقي باعتباره حركة معاذية
للاستعمار البريطاني ، وأيدها لما ظن في الوزارة من اتجاهات تقدمية
اشتراكية ولكن بكر صدقي لم يكن اشتراكياً .

ولم يعيش قائد أول انقلاب عسكري مدة طويلة فقد قتله شتاويش
عراقي في الموصل يوم ١١ أغسطس ١٩٣٧ وهو في طريقه الى الحدود
التركية لحضور مناورات عسكرية

القادة العسكريون الجدد :

الذين تأمروا ضد بكر صدقي كانوا سبعة ضباط ٠٠٠ وقد واصلوا تدخل العسكريين في السلطة عندما ثار الضباط ضد محاولة الوزارة محاكمة المتهمين باغتيال بكر صدقي ٠٠٠ واضطر حكمت سليمان للاستقالة يوم ١٧ أغسطس ١٩٣٧ حيث خلفه جميل المدفعي بإرادة الضباط أيضا .

ورسم جميل المدفعي لوزارته هدفين :

أولا : إبعاد الجيش عن السياسة .

ثانيا : اسدال الستار على أحداث الماضي وقتل جعفر العسكري وبكر

صدقي .

نجح المدفعي في الهدف الثاني . أما الهدف الأول فقد عجز عن تحقيقه لأن الإدارة العسكرية أصبحت هي الأقوى وصاحبة اليد العليا في السياسة العراقية .

وتواجه الضباط في ميدان السياسة العراقية ، ووصولهم إلى مناصب الوزارة كان أمرا طبيعيا مقترنا بظروف العراق الخاصة حيث خلت العراق من الكليات التي تخرج المثقفين . واعتمد فيصل في بداية حكمه على العسكريين الذين تعاونوا معه والذين درس أغلبهم في استنبول فكانوا من أكثر الناس ثقافة في العراق ٠٠٠ وكانت الأكاديمية العسكرية تقبل كل عام من ٦٠ إلى ٧١ طالبا من القادرين ماديا .

كانت هناك ٣ مدارس ثانوية في بغداد والموصل والبصرة فقط .

وكانت هناك مدرسة حقوق أنشأها الأتراك ومدة الدراسة فيها ستة أشهر ولم تكن هناك مدارس طب أو هندسة أو زراعة أو علوم .

المدرسة الحربية أنشئت عام ١٩٢٤ ٠٠٠ وكان يدخلها كل من يعرف القراءة والكتابة دون حاجة إلى شهادة مدرسية ٠٠٠ أدخل فيصل إليها أولاد رؤساء العشائر دون تفرقة بين العرب والأكراد والتركمان والأشوريين في محاولة لدمج القوميات المختلفة في وطن واحد . كما أدخل إليها بعض أولاد الضباط وبعض أولاد الأسر الثرية .

كان فيصل مهتما بالجيش ، ويعتبر وحدته هي الأساس لوحدة الوطن الجديد ٠٠٠ سجل نفسه عند إنشاء الجيش باسم الجندي المتطوع فيصل بن حسين وحصل على رقم ١ ، ومعروف أن لكل جندي في الجيش رقما خاصا .

المدرسة الحربية لم تحول الى كلية يدخلها حامل البكالوريا أو الثانوية العامة الا عام ١٩٣٢ وهى السنة التى دخل فيها عبد الكريم قاسم . . وكانت مدة الدراسة سنتين يحصل خلالها الطالب على راتب جندى متطوع دينار ونصف ، راتب الجندى العادى كان ٤٠٠ فلس فى ذلك الوقت .

لم تكن الكلية الحربية مثل نظيرتها فى مصر ، يدفع الطالب اليها مصاريف كبيرة تعجز الكثيرين عن دخولها ، وتحدد الطبقة التى ينتمى اليها الضباط ، المجانية فتحت الأبواب لأبناء الأسر البسيطة ، فعبد الكريم قاسم كان ابن نجار فى بغداد .

ومع هذا فقد كان الجيش يضم عددا كبيرا من أبناء رؤساء العشائر والأسر الثرية لعدم وجود مجال آخر للتعليم أولا ، وثانيا للمركز التاريخى التقليدى للضباط الذين درسوا فى استنبول . . . فكان هناك ضباط من عائلات كبيرة مثل العمرى والسويدى والراوى والداغستانى وغيرها .

وهكذا ظل العراق فترة طويلة يقف الضباط فيه على السطح ، يتولون مناصب المتصرفين - المحافظين - والمناصب الادارية الكبرى بالوزارات أيضا ، حتى بدأت الجامعة العراقية التى أنشأها فيصل عام ١٩٢٤ فى تخريج دفعاتها فى مختلف مجالات الثقافة .

وأدت هذه الظاهرة الى خلق روح عسكرية فى المجتمع ، وبعث روح من الجدية فى صفوف الجيش ، الذى استمر فارضا ارادته وسيطرته رغم مصرع بكر صدقى .

الضباط السبعة هم الذين فرضوا جميل المدفعى ، وهم الذين أجبروه على الاستقالة عندما ترك وزارة الدفاع لاحد ضباط جمعية العهد ، صبيح نجيب الذى استخدم سياسة « فرق تسد » وفكر فى فصل بعض ضباط الجيش .

استقال جميل المدفعى ، وكانت المفاجأة أن الضباط السبعة الذين اجتمعوا على معاداة الاحتلال ، قد فرضوا نورى السعيد ربيب الانجليز رئيسا للوزراء فتعين فى ديسمبر ١٩٣٨ .

ولعل قرارهم ذلك كان يخفى الرغبة فى التخلص من بقايا الضباط المؤيدين لبكر صدقى . . ويضع فى مركز رئاسة الوزراء رجلا معاديا له ، ولصبيح نجيب الذى حاول تمزيق وحدتهم وفصل بعضهم أيضا .

وتدخل الضباط السبعة مرة أخرى بعد فترة لا تزيد عن أربعة أشهر عندما قتل الملك غازى فى حادث سيارة مشبوه داخل القصر يوم ٤ ابريل

١٩٣٩ وأصابه الاتهام كانت تشير للقوات البريطانية التي وجدت فيه شخصية وطنية غير طيبة .

فرض الضباط السبعة الأمير عبد الله خال الملك الجديد فيصل الثاني - سنة ٢٦ - بدلا من الأمير زيد شقيق الملك فيصل وصيا على العرش ، ليكون أكثر طواعية في أيديهم .

وفي أكتوبر ١٩٣٩ وصل الحاج أمين الحسيني الى بغداد بعد شهر من قيام الحرب العالمية ليقوم فيها وعقد صلة وثيقة مع هؤلاء السبعة ، بحيث أصبح منهم في مركز الموجه والمرشد .

أشهر السبعة كان الزعيم صلاح الدين الصباغ مدير العمليات برئاسة الأركان الذي ولد في الموصل عام ١٨٩٩ وأسرتة كانت تنتمي الى دمياط . . وكان ضابطا في الجيش العثماني ثم عمل مع فيصل ، وزملاؤه هم مقدم محمود سليمان وكمال شهاب وفهمي سعيد وعزيز بولكي ومعهم لواء حسين فوزي وأمين العمري قائد الفرقة الأولى .

وفي منتصف فبراير ١٩٤٠ فاجأهم نوري السعيد برغبته في أن يكون وزيرا للخارجية وأن يصبح رشيد عالي الكيلاني رئيسا للوزراء .

كان نوري يستهدف من ذلك دخول رشيد عالي الكيلاني في دائرة الحكم التي تؤيد البريطانيين ، وخاصة بعد اغتيال وزير مالىته رستم حيدر لأسباب شخصية في يناير ومحاولة نوري السعيد تصوير الموقف وكأنه مؤامرة نازية .

انقسم الضباط السبعة أمام هذه المفاجأة الى قسمين . . اقلية من حسين فوزي وأمين العمري وعزيز بولكي توافق على تعيين رشيد عالي وعدم دخول نوري السعيد أو طه الهاشمي الى الوزارة الجديدة . وأغلبية يقودها صلاح الصباغ تطالب باستمرار نوري السعيد .

وبقى نوري في موقعه رئيسا للوزراء ، وأصدر قرارا باخراج الضباط الثلاثة الذين أخذوا منه موقف المعارضة .

واختزل السبعة الى أربعة . البعض كان يطلق عليهم اسم الفرسان الأربعة والبعض اسم المربع الذهبي المتوج .

وبدأ نوري في تنفيذ سياسته حتى أقنع رشيد عالي بقبول رئاسة الوزارة في ٣١ مارس ١٩٤٠ .

وخلال هذه الفترة أمد الانجليز الجيش العراقي بأسلحة حديثة شملت الطائرات والدبابات المتوسطة والخفيفة . . عكس ما حدث في مصر عندما صادروا اعطاء الجيش المصري أسلحة حديثة .

كان للانجليز أصدقاء مخلصون في مركز السلطة النافذة المؤثرة .
وكان للألمان أيضا أصدقاء مخلصون . . . بعد انتصاراتهم المتكررة في أول الحرب زاد عدد المؤيدين لهم .

واقترح نوري السعيد ارسال فرقتين من فرق الجيش الأربع الى ليبيا أو البلقان ، واقترح أن يكون صلاح الدين الصباغ قائدا للحملة .

وكان نوري السعيد يسير في ذلك على نهج القوات السودانية والليبية والهندية وغيرها من التي أسهمت بالحرب مع الحلفاء . . على عكس القوات المصرية التي تعاونت مع الحلفاء تعاوناً محدوداً لخشية الحلفاء من الموقف الوطني الكامن في صفوف الجيش المصري منذ بدء الاحتلال البريطاني .

وعندما بدأت كفة النازية تبدو راجحة ، استبد القلق بالبريطانيين وبدأ رشيد عالي يتعرض لضغوط تطالبه بقطع العلاقات مع إيطاليا واعطاء مزيد من التسهيلات للبريطانيين . . ولاحظ في شهر يناير ١٩٤١ أن أغلبية البرلمان قد أصبحت مهتأة ضده ، فطلب من الوصي حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة .

ولم يقف الضباط الأربعة مع رشيد عالي ، وفضلوا استقالته وتعيين طه الهاشمي رئيساً للوزراء الذي اعتقدوا أنه سوف يكون أكثر مبالاة لهم .
ولكن طه الهاشمي أصدر قراراً بنقل أحد الأربعة ، كامل شبيب ، من قيادة الفرقة الأولى في بغداد الى الفرقة ٤ في الديوانية جنوباً ، وأصبح واضحاً أن الخطر يقترب من صلاح الدين الصباغ .

حركة رشيد عالي الكيلاني :

وبوم ٢ ابريل ١٩٤١ أجبر اللواء أمين زكي وثيس أركان حرب وفهمي السعيد أحد الأربعة ، وقائد القوات المدرعة - طه الهاشمي على الاستقالة بعد ابلاغه أن الجيش يحاصر القصر الملكي وأنه في شوارع بغداد .

هرب الوصي من القصر بمساعدة الأمريكيين الى الحبانية ثم الى البصرة فشرق الأردن وكان معه نوري السعيد .

• وفي يوم ٣ ابريل أعلن رئيس أركان الحرب أن الجيش قد كلف رشيد
عالي بتولي رئاسة الوزارة •

كان هذا هو التدخل السادس من جانب الجيش خلال خمس سنوات
منذ ١٩٣٦ إلى ١٩٤١ •

وجمع رشيد عالي البرلمان الذي أصدر موافقته على تعيين الشريف
شرف وصيا بدلا من عبد الاله •

ورشيد عالي من سلالة عبد القادر الكيلاني أحد الفلاسفة البارزين
في القرن الثاني عشر • قبره في بغداد • وله طريقة معروفة باسمه
(القادرية) • تولى رئاسة الوزارة لأول مرة عام ١٩٣٣ ثم عين رئيسا
للديوان الملكي عام ١٩٣٩ •

وكانت صلة رشيد عالي بالحاج أمين الحسيني وثيقة • ولذا فقد
اثارت حركته اهتمام كثير من الوطنيين في العالم العربي الذين وجدوا
فيها انتفاضة ضد الاستعمار البريطاني • وحاول عزيز المصري (اللاحق)
بها عن طريق الهرب جوا لولا سقوط طائرته واعتقاله • وهرع إلى بغداد
أكرم الحوراني ومعه عدد من ضباط الجيش السوري • وتشكلت لجنة
لقيادة النضال في سوريا وفلسطين والعراق كان فيها شكري القوتلي وممثل
للملك سعود •

واتخذت بريطانيا موقفا معاديا من رشيد عالي • الذي ظهر تأييد
المانيا النازية له في اذاعاتها ، وامداد حكومة فيشي له ببعض الأسلحة من
سوريا •

وفي يوم ٢٨ ابريل أعلن السفير البريطاني عن وصول قوات بريطانية
إلى البصرة ، نزلت فعلا في اليوم التالي رغم معارضة رشيد عالي الذي
أرسل القوات العراقية لمحاصرة قاعدة الحبابية البريطانية •

وبدأت الحرب فعلا بين إنجلترا والعراق • الطائرات البريطانية
تقصف مواقع القوات العراقية • • • • • وصالح المصباح الذي عين قائدا
للجبهة الغربية أعلن عن قدرته مقاومة الزحف البريطاني لمدة ٣ شهور
حتى تصل الامدادات النازية •

ولكن هتلر لم يكن على استعداد لارسال قوات أو أسلحة كثيرة إلى
العراق • • كان يستعد لتنفيذ خطة (بارباروسا) لغزو الاتحاد السوفيتي •
يوم ٢٣ مايو ١٩٤١ • وصلت إلى الموصل ٣٠ طائرة فقط من قوات فيشي
بسوريا •

حاولت تركيا التوسط على أساس بقاء رشيد عالي الكيلاني رئيسا للوزراء وبقاء القوات البريطانية في البصرة . . وكاد رشيد عالي يوافق على ذلك ، ولكن صلاح الدين الصباغ رفض العرض وقرر المقاومة .

وقرر تشرشل ضرورة انهاء النفوذ الألماني في العراق . . وأرسل قوات بحرية من شرق الأردن وطائرات من مصر .

ولم تدم المقاومة العراقية طويلا . . وهرب رشيد عالي الكيلاني والحاج أمين الحسيني والضباط الى إيران يوم ٢٩ مايو ، ودخل الجيش الانجليزي بغداد يوم ٣١ مايو ثم وصل الموصل يوم ٤ يونيو .

بلغت الخسائر العراقية ٤٩٧ قتيل ، ٦٨٩ جريح ، ٥٤٨ مفقودا ، ١٠٠٠ أسير . . كانت الهزيمة أسرع مما توقع العراقيون ، ومما توقع العرب أيضا .

هرب رشيد عالي وأمين الحسيني الى ألمانيا ثم إيطاليا وأخيرا الى السعودية . . أما الضباط فتساقطوا في أيدي القوات البريطانية وحوكموا على مراحل .

• فهمي السعيد ومحمود سليمان أعدما في ٥ مايو ١٩٤٢ .

• أمين زكي رئيس الأركان السابق حكم عليه بالسجن ٥ سنوات .

• كامل شبيب أعدم في ١٦ أغسطس ١٩٤٤ .

صلاح الصباغ هرب من إيران الى تركيا حيث قبض عليه وتسلمه البريطانيون في سوريا في سبتمبر ١٩٤٥ وأعدم في ١٦ أكتوبر من نفس العام في بغداد .

كتب صلاح الدين الصباغ مذكراته أثناء وجوده بالسجن في تركيا وقد نشرت في لبنان عام ١٩٥٦ .

وانتهت بهزيمة ثورة رشيد عالي مرحلة التدخل العسكري في الشؤون السياسية بالعراق . . وضعفت احتمالات القيام بانقلاب عسكري بعد أن عاد الوصي ونوري السعيد وانتصر البريطانيون .

العسكريون المصريون والعراقيون . . وجهها لوجه :

وقد تست مقابلة صلاح سالم مع نوري السعيد في سمرسك بعد هذا التاريخ الحافل الطويل وبعد أن استقرت الأمور في العراق استقرارا كاملا لمدة ١٣ عاما قبل تاريخ اللقاء .

كان شبح الانقلابات العسكرية الذى عاد الى المنطقة فى سوريا عام ١٩٤٩م بانقلاب حسنى الزعيم وما تلاه ، يبعث السلطة العراقية على مزيد من الحذر ، ومزيد من الضغط أيضا .

ولكن حدوث هذا الانقلاب فى بلد ليس تحت الاحتلال البريطانى يبعث على الاطمئنان نوعا ما . . . أما وقد وصلت الانقلابات العسكرية الى مصر ، والقوات البريطانية مازالت فيها ، فان هذا هو الأمر الذى كان يثير القلق فى نفس نورى السعيد .

والثوار العسكريون فى مصر ليسوا من القادة والجنرالات ولكنهم من البكباشية (المقدمين) وصغار الضباط . . وهذا مما يزيد فى قلق نورى السعيد .

والعسكريون فى مصر يجمعون فى العداء مع بريطانيا ، ويكرهون نفس النور الذى لعبته مجموعة صلاح الدين الصباغ فى ظروف زمنية وسياسية مختلفة .

واتفاقية الجلاء التى وقعت بالحروف الأولى قبل الزيارة لم تكن تعنى التسليم بمطالب البريطانيين .

ونورى السعيد يبدو ساحرا فى حديثه ، يستجمع ذكرياته ، ويستعرض تجاربه ، ويؤكد لصلاح سالم أن معاداة إنجلترا هى بمثابة مناجاة الصخر . . وأن من حسن السياسة أن تكون مرنا مع البريطانيين لتكسب منهم الود والتأييد .

ولكن العسكريين فى مصر ، وقادة الثورة فيها ، لم يتجاوزوا الستين من العمر مثل نورى السعيد ، ولم ترتبط حياتهم بمصير الانجليز . . . وهم قد شبوا متأثرين بهتاف الشعب ضد الاستعمار وقوات الاحتلال .

وزيارة صلاح سالم اقترنت بمحاولة تكوين حلف عسكري غربى ، مرتبط بحلف الأطلسي ، ويضم مصر والعراق .

وقال نورى السعيد أن العراق مهدد بخطر تسرب الشيوعية وأن حدوده قريبة من الاتحاد السوفيتي . .

وقال صلاح سالم ان الارتباط مع الغرب يضاعف خطر انتشار الشيوعية . . وأنه من الأفضل أن يتم تعاون عربى وثيق .

عقليتان متنافرتان .

معركة حلف بغداد :

وبعد زيارة صلاح سالم للعراق ، تبين لجمال عبد الناصر أن مشروع الحلف العسكري يقترب ، وأنه أصبح خطرا يهدد مصر .

وانطلقت إذاعة (صوت العرب) تدعو كافة المواطنين العرب الى اتباع نموذج القاهرة ، والتحرر من القوات الأجنبية كما فعلت مصر بعد عامين فقط من ثورة ٢٣ يوليو . وعواطف الجماهير على امتداد الوطن العربي وخاصة في العراق تلتهب مع هذه الاذاعات المثيرة .

واتبع نوري السعيد أسلوبا جديدا في مقاومة هذا الهجوم الاعلامي عندما أعلن وزير خارجيته موسى شهبندر في مؤتمر صحفي أثناء اجتماع لوزراء الخارجية العرب في القاهرة ، بأن العراق لن ينضم لحلف مع تركيا والباكستان ، وإنما سيستبدل ذلك بعقد اتفاقية مع بريطانيا تشابه اتفاقية مصر معها على أن يسمح بعودة القوات البريطانية الى العراق اذا هوجمت ايران وتعرضت لخطر الغزو .

وأكد نوري السعيد أقوال وزير خارجيته أمام البرلمان العراقي يوم أول يناير ١٩٥٥ ، ولكن محاولته لوقف الهجوم على العراق لم تستمر فقد هبط بغداد بعد خمسة أيام فقط من خطبته عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا مع وفد كبير ، أمضى اسبوعا في العراق ، وانتهى الأمر الى صدور بيان ١٢ يناير ١٩٥٥ يفيد بأن اتفاقا قد تم بين الدولتين على توقيع حلف دفاعي مشترك في أقرب وقت ممكن ، وأنهما يتطلعان الى انضمام الدول الأخرى التي تفكر بمثل أسلوبيهما .

وكان هذا الاعلان صدمة حقيقية لجمال عبد الناصر . . . اذ تأكد ارتباط العراق بحلف الاطلنطي عن طريق تركيا التي كانت أول دولة من دول الشرق الأوسط ترتبط بهذا الحلف . . . ليس هذا فقط . . بل ان الدولتين تسعيان لضم دول عربية .

بدأت معركة الأحلاف ، التي دخلها جمال عبد الناصر بكل الثقل السياسي والاعلامي الممكن .

كان حكام العراق يهتزون أمام الحملة الدعائية الواسعة . . . وعندما زار أنطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا مصر في فبراير ١٩٥٥ طلب من جمال عبد الناصر أن يوقف حملات العداء ضد الأسرة الهاشمية ونوري السعيد . . . ولكن الحملات لم تتوقف ، فان حكومة العراق لم تتراجع عن انزلاقها للارتباط بالأحلاف ، ف وقعت مع تركيا وثيقة خلفت عراقا تركيا

مشترك كانت هي خميرة حلف بغداد الذي انضمت اليه بريطانيا بعد مؤتمر باندونج فى شهر ابريل ١٩٥٥ ومعها ايران وباكستان بعد أن أنهت معاهداتها المعقودة مع العراق عام ١٩٣٠ .

العراق ، أول دولة عربية ، بل أول وآخر دولة عربية ترتبط بأحلاف الغرب العسكرى .

قبضة السلطة تشتد على الجماهير العراقية . . ولكن الموقف لا يبعث على اليأس . . وتحت السطح تتوهج الادارة والتنظيمات الشعبية والعسكرية أيضا .

الحزب الشيوعى العراقى الذى تأسس عام ١٩٣٤ كان قد أصبح له نفوذ كبير فى مختلف المجالات الجماهيرية . . ومنها القوات المسلحة .

ووقع العسكريون العراقيون تحت تأثير عدة عوامل جوهرية فى هذه المرحلة التاريخية :

أولا : التأثير بالنضال الشعبى المضاد للاستعمار داخل العراق علنيا أو سريا .

ثانيا : النموذج الحى المائل أمامهم فى انقلابات سوريا المتكررة ، وفى ثورة يوليو التى صعدت بالعسكريين الى قمة السلطة .

ثالثا : تقاليد التدخل العسكرى فى محيط السياسة العراقية والذى استمر خمس سنوات كاملة من ١٩٣٦ حتى ١٩٤١ .

رابعا : حرب فلسطين وما كشفت من ذهاب الجيش العراقى للمعركة وهو غير متأهب لها ، وخصوع قيادة القوات (لواء طاهر الزبيري وزعيم رفيق عارف) لتعليمات الاستعمار ، الأمر الذى انتهى الى تكوين دولة اسرائيل .

خامسا : موجة المد الوطنى والشعبى التى اجتاحت المنطقة بعد تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس ، ومواجهة العدوان الثلاثى ثم انسحاب القوات المعتدية .

الفصل الثانى

ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨

(ان الثورة العراقية نصر عظيم
للقومىة العربية)

جمال عبد الناصر

فى حديث مع الصحفي الهندى كارانجيا
(ثورة العراق هى اول ثورة حقيقية
فى العالم العربى)

مكسيم رودنسون
الكاتب الفرنسى

كل هذه العوامل دفعت الضباط الى محاولة تشكيل تنظيمات
عسكرية متفرقة بدأت على حذر ، ولم ترتبط بالأحزاب السياسية اذا
استثنينا الحزب الشيوعى .

وكان موقف العراق قريبا من السعودية فى ذلك الوقت . . . اجتمع
الملك سعود وفيصل العراق فى مايو ١٩٥٧ وأصدرا بيانا جاء فيه
(ان الاتحاد بين السعوديين والهاشميين قدوة للعالم العربى وكل عدوان
على العراق يعتبر عدوانا على السعودية) .

تعددت تنظيمات الضباط ولم تتح الفرصة لحصرها حصرا كاملا ،
أو التعرف على حقيقة حركتها ، الا من أقوال بعض الضباط مثل اللواء
حميد سيد حسين .

من التنظيمات الأولى تنظيم مقدم مهندس رفعت الحاج سري
(ابن أخت جميل المدفعي رئيس الوزراء السابق) الذي نقل الى ضابط
تجنيد بالجنوب في منطقة العمارة قرب البصرة ، ثم أحيل الى التقاعد
فضعفت حركته .

وتنظيم قام به عقيد شاكر محمود شكرى آمر اللواء ١٤ ، الذي
نقل رئيسا لبعثة العراق العسكرية في ليبيا .

وتنظيم ثالث قام به عقيد عبد الغنى الراوى في البصرة .

وتنظيم رابع للعقيد اسماعيل على في الديوانية .

ولكن أهم هذه التنظيمات وأكثرها قدرة على اجتذاب غيرها ،
كان تنظيم عبد الكريم قاسم الذي ضم رجب عبد المجيد وصباحي عبد الحميد
وعبد السلام عارف وكان مفروضا أن يعين عبد الكريم قاسم أمرا لأحد
الألوية .

ولكن رفيق عارف رئيس إركان حرب الجيش عين شقيقه بدلا منه .
ولم يخضع عبد الكريم قاسم ، وإنما ذهب الى نوري السعيد الذي
أصدر الأوامر بتعيينه ، فصدر قرار تعيينه أمرا للواء ١٩ مشاة الذي ظل
قائدا له حتى ثورة ١٤ يوليو .

واستلطف نوري السعيد شخصية عبد الكريم قاسم فقربه اليه
وكان يدله باسم (كورمي) كما أكد لى زميله اللواء حميد . . ويبدو أن
وصفى طاهر ياور نوري السعيد قد لعب دورا في دعم هذه العلاقة ،
لأنه كان منضما لتنظيم صباحي عبد الحميد ، وقد ساعده منصبه على الحركة
وجمع المعلومات وتضليل أجهزة الأمن أيضا .

وقد أسهم وصفى طاهر في وحدة تنظيم صباحي عبد الحميد مع
تنظيم قاسم تحت قيادة الأخير في نهاية ١٩٥٧ كما جاء في محاضر محكمة
البعث .

واستغل عبد الكريم قاسم علاقته بنوري السعيد في مواصلة نشاطه
السري ، ولكن رفيق عارف كان يرضد حركته وأبلغ نوري السعيد الذي
صارح عبد الكريم قاسم بمعلوماته وشكوكه . . ولكن قاسم قال له انه

يعانى من اضطهاد رفيق عارف لأنه مخسوب على نوري السعيد بعد تعيينه
أمرا للواء ١٩ ، ولذا فهو يريد الايقاع والفرقة بين الرجلين . .

وخلال هذه الفترة اقترح عبد الكريم قاسم ادخال عبد السلام عارف
الى التنظيم الموحد . . ورغم اعتراض البعض فان قاسما أصر على دخوله
وكانت هذه هي بداية العلاقة بين الرجلين . . عبد الكريم قاسم أمر للواء
١٩ مشاة ، عبد السلام عارف أمرا لأحد أفواج اللواء ٢٠ مشاة والاثنيان
تجمعهما الفرقة ١٣ مشاة .

لم تكن هناك منشورات تصدر باسم الضباط الأحرار من باب الحذر
والسرية ، حيث كانت قبضة أجهزة الأمن في السلطة العراقية أشد وأغنف
منها في مصر ، التي كان النظام الملكي قد بلغ فيها جوا من التفسخ يصعب
علاجه ولأن أجهزة أمن حلف بغداد كانت منتشرة في العاصمة التي اختيرت
مقر له .

كانت ظروف العمل داخل الجيش صعبة ومعقدة ، وكانت الشكوك
إذا لاحقت أحدا أبعده فورا عن المناصب القيادية الحساسة أو عن الجيش
كله .

لم تقتصر حركة هذه التنظيمات داخل حدود العراق . .
العسكريون المصريون كانوا يعقدون الصلات مع غيرهم من العسكريين
في المنطقة كلما أتاحت الظروف المناسبة .

جمال عبد الناصر أبلغ خالد محيي الدين أنه على اتصال بالضباط
الأحرار العراقيين ، وذلك في شهر أبريل ١٩٥٨ قبل اشتعال ثورة ١٤
يوليو .

وقال عبد الناصر لخروشنوف في موسكو حسب رواية هيكل ان
(قاسم وعارف) قد اتصلا بعبد الحميد السراج في مدينة (الرقما) على
الحدود وأبلغاه بأنهما في حركة ما .

وكان سفير مصر في السعودية (عبد الحميد صبور) وهو ضابط
على اتصال بعبد الكريم قاسم قائد اللواء ١٩ مشاة وعبد السلام عارف
أثناء وجودهما في منطقة Hg بالأردن عام ١٩٥٦ عقب استدعاء الأردن
لهم بعد الغزو الثلاثي لمصر ، اعرف أن هناك تنظيما عراقيا ، وقد أمدهما
ببعض المتفجرات .

ويقول أمين هويدي انه كان هناك اتصال خاص مع صبحي
عبد الحميد .

وكان سفير مصر في السعودية (عبد الحميد صبور) وهو ضابط سابق على اتصال وثيق بنجيب الربيعي سفير العراق في السعودية أيضا وهو ضابط سابق مثله سبق له أن قدم استقالته أثناء حرب فلسطين احتجاجا على عدم قدرته على حماية قواته ثم سحبها تحت ضغط القائد العام .

كان نجيب الربيعي على اتصال بالضباط العراقيين في تنظيم عبد الكريم قاسم الذي اختار اسم (الضباط الأحرار) أيضا ، ويقول عبد الحميد صبور أنه كان هناك اتصال دائم بينهما محوره الرئيسي حركة الضباط الأحرار في العراق . . . وأنه قد أبلغه أن انقلابا سيتم في العراق يوم ١١ مايو ١٩٥٨ فأسرع بإبلاغ ذلك الى مكتب جمال عبد الناصر ولكنه أبلغه بالتأجيل في آخر لحظة .

ويقول عبد الحميد صبور أيضا ان نجيب الربيعي قد تراجع خلال فترة ما من اتصالاتهما بدعوى أن مصر تأخذ اتجاهات يسارية متطرفة . ولكن الصلة بينهما عادت الى طبيعتها بعد اعلان الجمهورية العربية المتحدة .

يؤكد هذه الحقيقة ما يقوله صبور من أنه عند اعلان ثورة العراق قتل الربيعي السفارة ، ورفع سماعة التليفون ، وأبقى علم فيصل مرفوعا لمدة ٣ أيام حتى حضرت طائرة عراقية خاصة لتجمله الى بغداد رئيسا لمجلس السيادة .

خطة الانقلاب أعدت تحت الاسم الكودي (صقر) . . . وكان التوقيت مناسباً . . . الحرب الأهلية في لبنان تزداد اشتعالاً . . . والأردن والعراق انضما في اتحاد واحد . . . والأمير عبد الاله ونوري السعيد كان قد تحدد سفرهما الى استنبول يوم ١٤ يوليو . . . واللواء ٢٠ الذي يقوده عبد السلام عارف فوجاً (كتيبة) منه كان مقرراً أن يسافر الى الأردن عابراً بغداد . . . أمر اللواء الزعيم (الأميرالاي) أحمد حقي محمد على كان في مقدمة اللواء ، الذي كان توقيت تحركه يقضى بأن يعبر بغداد ليلة ١٣/١٤ يوليو .

وعندما وصلت وحدات اللواء الى القالوجا تولى قيادته عبد السلام عارف وتعاون معه قائد الفوج الثاني عبد اللطيف الدراجي . . . وأمر الفوج الثالث المقدم الركن يس محمد رفض التعاون فضربه عبد السلام عارف ووضعه في الايقاف .

... وكان قائد الفرقة الثالثة اللواء غازي الداغستاني قد استدعى الى بغداد فتولى قيادة الفرقة مكانه الزعيم (الأميرالاي) عبد الكريم قاسم قائلاً

اللواء ١٩ الذي كان هو ورئاسة الفرقة في (بعقوبة) نفس المدينة التي تحرك منها بكر صديقي في زحفه الأول نحو بغداد منذ ٢٣ عاما .

وأمد الزعيم (أميرالاي) ناجي طالب مدير التدريب بالأركان وحدات اللواء ٢٠ بلديرة أكثر مما كانت تسمح به التعليمات التي صدرت عام ١٩٥٥ مع اشتداد الهجمة النعائية ضد حلف بغداد ، وشعور المسئولين بأن حالة من الرفض قد بدأت تتسرب الى صفوف الجيش .

لواء عبده السلام عارف تتوزع أفواجه وسراياه على القصر الملكي والاذاعة ودار نوري السعيد ، ووزارة الدفاع ، واعتقال بعض المسئولين .

واحتشدت الجماهير حول القصر مع الجيش . . وخرج الملك والوصي يستفسران عن الموقف ، فعاجلتهم رصاصات سبع وتدفقت الجماهير داخل القصر وقتلت معظم أفراد الأسرة المالكة .

لم تتم حركة الجيش في معزل كامل عن الشعب . . وكما عرف الشيوعيون والايوان المسلمون في مصر موعد الحركة بالتحديد ، عرف كل من الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي موعد ثورة العراق بصلات خاصة بين أعضائهما الملتزمين الذين تعاونوا مع تنظيم الضباط الأحرار . . تماما كما كان الحال في مصر .

ولكن الحركة عسكرية والقبضة العليا للضباط ، وعبد الكريم قاسم يعلن في مؤتمر صحفي بعد خمسة أيام انهم يعرفون الذين تعاونوا معهم من المدنيين .

جثة الوصي عبد الاله ربطت من الأقدام في عربة سارت به في شوارع بغداد . . ونوري السعيد حاول الهرب عبر دجلة في ثياب امرأة فكشفه صبي ، وانتهت حياته . . وحرقت السفارة البريطانية .

وسحلت في الشوارع جثث بعض المسئولين في العهد الملكي . وخاصة رجال الأمن وسط زغاريد وصيحات ابتهاج ، وقد غلقت الجثث على أعمدة النور .

سقط الحكم الملكي في بغداد واستقبلت الثورة استقبالا عاصفا من تأييد الشعب . . وتشكل يوم ١٤ يوليو مجلس الوزراء برئاسة عبد الكريم قاسم الذي تولى وزارة الدفاع ، وعين عبد السلام عارف نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ، وناجي طالب وزيرا للشئون الاجتماعية . . وعين ١٢ وزيرا مدنيا يمثلون الاتجاهات والتنظيمات السياسية المختلفة التي اجتمعت على معاداة النظام الملكي .

واختلفت ثورة العراق عن ثورة مصر في تقديرها لدور الأحزاب الوطنية المعادية للاستعمار وهي أساسا أربعة : الحزب الشيوعي والوطني الديموقراطي والبعث والاستقلال ، وتعاونها معهم منذ اللحظة الأولى . وكل منها كان له ارتباط ببعض الضباط . . وكان محتملا أن يصل وحده إلى السيادة عن طريق مؤيديه في الجيش .

ولكن ولاء كثير من الضباط المرتبطين بهذه الأحزاب كان تابعا للجيش وحركة الضباط الأحرار . . والذين احتفظوا بالولاء الأول لأحزابهم تمت تصفيتهم عبر مراحل الثورة .

كانت ثورة ١٤ يوليو انفجارا متوينا في الشرق الأوسط اهتزت له أرجاء العالم . وبأدركت القوى المختلفة تراجع حساباتها وتواجه الموقف الجديد الذي نشأ بعد ست سنوات من ثورة مصر المحتملة والمتوقعة وفي أقل من سنتين على العدوان الثلاثي على مصر .

كان وقوع الانفجار في مقر حلف بغداد أكثر مما تختمله أعصاب الامبريالية لأنه كان يعنى بالتأكيد رجحان كفة الحرب الأهلية في لبنان لصالح الوطنيين وانهيار الحكم في الأردن . ولذا نزل الأسطول الأمريكي في بيروت يوم ١٥ يوليو . . وهبطت قوات المظلات البريطانية في الأردن قادمة عبر إسرائيل لتتخذ عرش الملك حسين بعد تمزق الاتحاد بين الأردن والعراق .

وكان جمال عبد الناصر في زيارة ليوغوسلافيا عندما شبت الثورة ووصل الأسطول الأمريكي السادس إلى بيروت . . وبعد مراجعة سريعة للموقف عاد باليخت الحربية إلى يوغوسلافيا بعد أن كانت الباقية في طريقها إلى الاسكندرية ومنها بالطائرة إلى موسكو التي رقت له الرحلة يوم ١٦ يوليو .

كان انهيار النظام الملكي في بغداد ، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ، تصاعدا في انتصارات جمال عبد الناصر الذي هاجم نوري السعيد والعرش العراقي في عنف خلال معركة الأحلاف . . وشعر أن من واجبه ومسئوليته مساندة هذه الثورة التي قادها العسكريون أيضا .

وقبل وصوله إلى موسكو كان قد أعطى تعليمات لاسلكية للمشير عامر في القاهرة بإرسال بعثة عسكرية مصرية يرأسها ضابط عمليات لتعصم ثورة العراق . . ففقد جمال عبد الناصر يخشى تحريك القوات البريطانية العسكرية في مطار الحباية بالعراق . .

كلف المشير عامر البكباشي عبد المجيد فريد بالسفر فورا الى بغداد .
فتحرك اليها من سوريا (الاقليم الشمالى فى ذلك الوقت) ومعه أجهزة
لاسلكية واحد الضباط السوريين وبعض الفنيين حيث سلكوا الطريق
الصحراوى فوصلوا صباح ١٥ يوليو بعد سفر ١٤ ساعة .

حمل عبد المجيد فريد معه تعليمات ابلغها لقادة ثورة ١٤ تموز
وتتلخص فى :

أولاً : استبعاد القوات المسلحة والقوات الجوية العربية للوقوف
بجوار القوات المسلحة العراقية دعما وتأييدا للثورة .

ثانياً : تقديم كل الدعم الاعلامى والمادى الذى يطلبه قادة الثورة
العراقية .

لقد كان الخطر يهدد ثورة ١٤ تموز من قاعدة الجبائية البريطانية
ومن احتمالات تقدم القوات البريطانية التى هبطت بالمظلات فى الأردن
قادمة من قبرص .

وأصدر جمال عبد الناصر بيانا أدان فيه التدخل الأمريكى فى لبنان
واتخذ قراره بالذهاب الى موسكو للتعرف على موقف الكتلة الشرقية .
وصحبه فى الرحلة الدكتور محمود فوزى ومحمد حسنين هيكل رفاقه فى
زيارة يوغوسلافيا .

وطلب عبد الناصر من خروشوف أن يوجه انذارا الى الغرب مثل انذار
١٩٥٦ للتحذير من أى تحركات غربية ضد العراق أو سوريا . . ولكن
خروشوف كان يخشى حماقات دالاس وزير خارجية أمريكا مما قد يفتح
بالعالم الى خطر حرب عالمية ثالثة ، ومع ذلك - وبعد ساعتين من مقابلة
عبد الناصر - ذهب خروشوف الى اجتماع المكتب السياسى حسب رواية
محمد حسنين هيكل .

وتقرر القيام بمناورات عامة على الحدود البلغارية التركية أعلنها
المارشال مالىنوفسكى مصحوبة بدعاية ضخمة ، وأصدر خروشوف بيانا
هاجم فيه الغرب ، وطلب المنسوب السوفيتى فى الأمم المتحدة انسحاب
الجنود الأمريكين والبريطانيين من لبنان والأردن .

وعاد عبد الناصر جوا عبر ايران والعراق الى دمشق يوم ١٨ يوليو
ووقف يخطب فى الجماهير قائلا (ان الاتحاد السوفيتى يدعمنا تدعيمًا
كاملاً . . . ولكننا نطلب السلام من مركز القوة) .

وقدم خروشنوف في نفس الوقت اقتراحا بعقد مؤتمر قمة عالمي من
ذعماء الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا والهند والاتحاد السوفيتي.
لمناقشة أزمة الشرق الاوسط .

ووصل وفد عراقي برئاسة عبد السلام عارف الى دمشق يوم ١٩
يوليو حيث خطب عارف مشيدا بعبد الناصر والقومية العربية . . . ووقعت
اتفاقية صداقة ومساعدة متبادلة بين مصر والعراق .

وعاد عبد الناصر سرا الى القاهرة . . . حذرا مما حدث للطائرة المرافقة
للمشير عبد الحكيم عامر التي سقطت في طريق عودتها من سوريا بعد
العلوان . . . وكان مفروضا أن يكون بين ركابها لولا تغيير حدث في آخر
لحظة .

واكتملت مشقة الرحلة على عبد الناصر عندما وصلت الطائرة
فوجدته مطار القاهرة مغلقا ، فهبطت الطائرة السوفيتية في مطار
أبو جنوير الجربي . حيث غاد الى منزله بعد رحلة شاقة امتدت ما يقرب من
أسبوع .

استقرت الأوضاع العالمية وموازين القوى الجديدة على حماية ثورة
١٤ يوليو . وعلى انقاذ عرش الملك حسين في الأردن والنظام في لبنان . . .
وكان تدخل الاتحاد السوفيتي بالمناوات وبيانات الادانة واقتراح مؤتمر
القمة واثارة القضية في الأمم المتحدة والاعتراف السريع بنظام العراق
والنشاط الدبلوماسي الموسع مع الدول الاشتراكية ودول عدم الانحياز . . .
الى جانب الانتصار الرائع لشعب العراق ، والمبادرة السياسية لجمال
عبد الناصر ، والتأييد الجماعي من جماهير الأمة العربية كل هذا أدى الى
استقرار سريع للموقف ، وعدم حدوث سلسلة من الانفجارات تعقب
ما حدث في بغداد .

كان لرحلة عبد الناصر الى موسكو صدى بعيد في أنحاء العراق .
شعبيته التي اكتسبها في العراق خلال نضاله ضد حلف بغداد ، وموقفه
الجازم في قضية التأميم والعدوان وكسره احتكار السلاح جلبت له رصيدا
هائلا عند الناس هناك ، الذين خرجوا يهتفون لثورة ١٤ يوليو ولعبد الكريم
قاسم ولجمال عبد الناصر أيضا .

وكان جمال عبد الناصر يتطلع قطعا الى نوع من اللقاء والوحدة بين
العراق والجمهورية العربية المتحدة . . . ولكن السلطة الثورية الجديدة
لم تكن منجذبة في هذا الطريق .

يقول عبد المجيد فريد الملحق العسكري الجديد ان عبد الكريم قاسم وزملاءه قد استقبلوا في البداية موقف جمال عبد الناصر بترحيب شديد ، وأنهم أعطوا له مكتباً مجاوراً لمكتب عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع ليكون مقراً له ، وقد بقي به لمدة ثلاثة أشهر .

وخلال هذه الفترة قدمت الجمهورية العربية المتحدة كل مطالب العراق : الرجال والخبراء والسلاح والذخيرة التي توافرت للجيش المصري منذ كان تسليحه بريطانيا .

ويقول عبد المجيد فريد ان صداقة عبد الكريم قاسم وعلاقته به كانت متمسكة منذ البداية بالخطر الشديد ، وذلك حرصاً منه على عدم زيادة النفوذ المصري في العراق ، بينما يقول عبد المجيد أنه شعر منذ البداية أيضاً بتقارب شديد من عبد السلام عارف وزفعت الحاج سري مدير المخابرات .

ولكن عبد المجيد فريد يعترف بأنهم قد أخطأوا في زيادة اتصالهم بعبد السلام عارف الى الحد الذي أثار عبد الكريم قاسم وضاعف الخطر في صدره .

وحضر الى مصر وفد من الساسة العراقيين . رأسه كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي وقال لعبد الناصر ان عنده قدرة التأثير على عبد الكريم قاسم وأن ملاحظته الوحيدة هي تعطيل الحريات السياسية في مصر وطالب بإلغاء الاتحاد القومي وإعادة الأحزاب حتى يمكن قيام اتحاد فيدرالي ، ولكن عبد الناصر رفض الفكرة .

أول مؤتمر صحفي لعبد الكريم قاسم لم يشهده فيه بعبد الناصر كزعيم للعروبة . . وان كان قد تحدث عن دوره الكبير في تأييد ثورة العراق .

عبد الكريم قاسم كان أكبر سناً من جمال عبد الناصر . . ولد في ٢١ ديسمبر ١٩١٤ ، وتخرج في الكلية الحربية عام ١٩٣٤ ودخل كلية أركان حرب عام ١٩٤١ ، واشترك في الحرب ضد الأكراد عام ١٩٤٥ ، وكان في فلسطين خلال فترة الحرب ، ثم ذهب للدراسة في إنجلترا عام ١٩٥٠ ، وحصل على رتبة الزعيم (الأميرالاي) عام ١٩٥٥ .

كان كل من جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم متخرجاً في كلية أركان الحرب . . مستوى الدراسة واحد تقريباً . . ولكن رتبة عبد الكريم قاسم يوم الثورة كانت تفوق عبد الناصر بدرجةتين . . وعمره أيضاً كان يزيد حوالي أربعة أعوام فجمال عبد الناصر ولد في ١٥ يناير ١٩١٨ .

صراعات داخلية :

لم يكن عبد الكريم قاسم مثل عبد السلام عارف مندفعاً الى القومية العربية والناحية الدينية .. ولم يكن مثله أيضاً مرتبطاً من بعيد بحزب البعث الذي يضع الوحدة العربية في مقدمة أهدافه .

رشح عبد السلام عارف صباح المخابرات صالح مهدي عباس المسئول بحزب البعث ليكون مندوباً عن العراق في هيئة الأمم المتحدة بدلاً من اسماعيل عارف أحد قادة الضباط الأحرار .

كانت مشاكل العراق الداخلية تفرض عليهم الاهتمام بها أولاً .. ولكن عبد السلام عارف بدأ في الموقف كما لو كان ممثلاً لاتجاه الوجدية مع مصر .. يخطب كثيراً بما لا يتفق مع رأي زملائه .. الأمر الذي أدى الى إثارة البلبلة في العراق . وخاصة بعد أن عقد الملحق العسكري المصري عبد المجيد فريد صلات خاصة به ، أوجت الى زملائه والى قاسم بأنه أصبح مصدر خطر عليهم وعلى الثورة .

وزاد في تجسيم هذه الحالة وصول رشيد عالي الكيلاني في أول سبتمبر من القاهرة وإعلانه عن معارضته للإصلاح الزراعي .

وفي ١٢ سبتمبر أي قبل مضي شهرين من الثورة أعفى عبد السلام عارف من منصب نائب القائد العام للقوات المسلحة وزاد ذلك من هوة الجفاء والتوتر ، ووصل الأمر غايته في ٣٠ سبتمبر عندما صدر أمر بإعفائه من منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وتعيينه سفيراً للعراق في بون .

رفض عبد السلام عارف تنفيذ الأمر أو السفر متعللاً بعدة حجج شخصية ، وفي ١١ أكتوبر عقد عبد الكريم قاسم اجتماعاً لقادة الضباط الأحرار ومعهم قادة الفرق الأربع بالجيش العراقي في وزارة الدفاع لإقناع عارف بالسفر وتفادي انفجار أزمة بين الزملاء .

وفي هذا اللقاء أخرج عارف مسدسة وحاول الاعتداء على عبد الكريم قاسم الذي عاجله بالقبض على يده وأخذ المسدس منه .. وقال عبد السلام انه كان يحاول الانتحار .. وسأله قاسم عن النمر الكامن وراء تنفيذ هذه الرغبة لو صحت في مكتبه .

عفا عبد الكريم قاسم عن حركة عبد السلام عارف في مقابل سفره في اليوم التالي مباشرة الى بون وودعه في المطار ، ولكن عارف أمضى يوماً واحداً فقط في بون ، وثلاثة أسابيع في جولة بعواصم أوروبا ، عاد

بغداد فبجأة الى بغداد. يوم ٤ نوفمبر ١٩٥٨ حيث اعتقل وقدم للمحاكمة
يوم ٢٧ نوفمبر .

كانت شخصية عبد السلام عارف تدفعه الى تصرفات غير محسوبة
معتمدا على رصيده القومية العربية وجمال عبد الناصر الكبير في العراق .

وكانت صلة القاهرة ببغداد قد بدأت تدخل دائرة الحساسية نتيجة
تصرفات بعض أجهزة الأمن المصرية . . كانت لهفتهم للوحدة معرية للعناصر
التي لم تجد في ثورة ١٤ يوليو متفهمها لتعبيرها .

وكان في حركة هؤلاء الأفراد غير المسئولين تشويه للصورة التي
تصل الى جمال عبد الناصر ، وتشويه أيضا لصورة جمال عبد الناصر في
نظر المسئولين العراقيين .

كانت تجربة الوحدة مع سوريا قد مضت في الطريق عدة شهور ،
وكان مفروضا فيها أن تكون قوة جذب للدول العربية المتحررة . . ولكن
كما أن الثورة لا تصدر فإن الوحدة لا تفرض .

وبدأت صحافة القاهرة ، وخاصة صحف أخبار اليوم ، تلمح الى أن
تيارا شيوعيا قد بدأ يأخذ مجراه في العراق . . ولكن جريدة المساء التي
كان يرأس تحريرها خالد محيي الدين نشرت مقالا للدكتور عبد العظيم
أنيس تحت عنوان (الحركة الوطنية العربية) واتصل جمال عبد الناصر
بخالد محيي الدين غاضبا على ذكر كلمة (الوطنية) بدلا من (القومية) ،
وأصدر تعليماته بمنع الدكتور عبد العظيم أنيس من الكتابة .

واذا كان مكسيم رودنسون قد كتب يقول (أن ثورة العراق هي
أول ثورة حقيقية في العالم العربي) فإنه كان يعنى بذلك أنها حركة
عسكرية منفتحة على الشعب بتنظيماته المختلفة .

ثورة العراق كانت تمضي في طريق يخضم الشعب المتخوف من قبضة
النظام الملكي الرجعي وحلف بغداد . . ولكنها لم تتحرك نحو الوحدة
حركة سريعة أو ملحوظة . . وبدأ الأضر بالنسبة للقوميين كاته نوع من
التردد أو الخيانة .

حركة الشواف . . بين القاهرة وبغداد :

كان الموقف المنفتح على الشعب لشورة العراق دافعا الى ظهور
حساسيات مع القاهرة التي وصلت اليها الصورة كما لو أن العراق قد
أصبح خاضعا تماما للنفوذ الشيوعي ، وخاصة بعد استقالة صديق شمشل
الذي حاول مصادرة جريدة الحزب الشيوعي في فبراير .

• وهي صورة التي تكن دقيقة أو صحيحة • فالحزب الشيوعي كان يمارس نضاله ولكن بطريقة غير قانونية ، وكانت هناك متناقضات بين قياداته وبين السلطة •

صحيح • أن حرية نسبية قد توافرت لحركته ، ولكنها كانت حرية مرصودة •

وبدأت بعد ظهور حملات لقد محدودة في الصحف المصرية ضد العراق • مهاجمة صريحة من جمال عبد الناصر للشيوعيين في خطابه يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ بيور سعيد •

وذهب جمال عبد الناصر الى سوريا في مارس ١٩٥٩ وهو في خطبه يهاجم أعداء القومية العربية تعميما • حتى قامت محاولة المقدم عبد الوهاب الشواف ابن مفتي بغداد يوم ٨ مارس ١٩٥٩ في الموصل •

وكما يقول أنثوني فانتج في كتابه (ناصر) فانه سواء عرف عبد الناصر أو لم يعرف بأسرار هذا التدبير ، فالأمر الذي لا شك فيه أن اختيار الانقلاب المحتمل كانت قد تسربت الى الناس وعلم بها السفير البريطاني هنري تريفلين ، وعلى قدر ما شعر السراج بضمان النجاح ، على قدر ما ضعفت السرية • • • وقلت إجراءات الأمان • • • مما أوقع بعض السوريين بملايسهم العسكرية في الموصل •

ويقول أنثوني فانتج أيضا ان جمال عبد الناصر قد عاتب السراج على تدبيره للانقلاب ، ولكن لم يكن أمامه خيار • • التورط قد حصل والهجوم خير وسائل الدفاع •

وقال لي عبد اللطيف البغدادي ان حوارا دار بين بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة عن احتمالات تدخل مصرى لتأييد ثورة ضد نظام عبد الكريم قاسم اذا ما طلب منهم ذلك • • وأنه قد أثرت احتمالات انتهاز اسرائيل الفرصة لمهاجمة بنوريا ، أو مبادرة الاتحاد السوفيتي لمساندة قاسم ، أو تدخل قوات الحلف المركزي أو الولايات المتحدة • • ومنع ذلك فان عبد الناصر أعلن أنه لن يتردد اذا ما حدث ذلك في افعال كل هذه الاخطار والقيام بواجبه القومي •

ويؤكد الملحق العسكري عبد المجيد فريد أنه لم يكن على علم بحركة الشواف ، ويقول انها دبرت بمعرفة السراج •

كان هناك اجتماع لانصار السلام في المدينة ، واحتشدت الجماهير ومضى الاجتماع هادئا ثم خرجت بعض المظاهرات السلمية ، فأرسل لها

الشواف قواته لتفريقها عنوة معتقدا أن هذه الحشود قد أعلنت للمبادرة بالهجوم عليه ، وبدأت مجزرة دامية لم يكن هناك من سبيل لتفاديها ..
اذ اندفع الشواف في مقاومة للسيطرة على الموقف بعيدا عن بغداد .

لم يكن الشواف قائد اللواء الخامس من الفرقة الثانية وحده ..
وانما كان مرتبطا مع ناظم الطبقجلى قائد الفرقة ورفعت الحاج سري مدير
المخابرات الذي كان يدبر اعتقال عبد الكريم قاسم .

ولم يجد رفعت الحاج سري الموقف مواتيا فأرسل الى الشواف
يطلب التأجيل .. ولكن الاندفاع الأهووج جعله يعلن الانقلاب في ذلك
اليوم الذي احتشد فيه أنصار السلام .

استمرت الحركة يومين .. خاضها الشيوعيون والأكراد
الديموقراطيون دفاعا عن أنفسهم .. واتخذ ضباط الصف المنضمون للحزب
الشيوعي موقف الرفض من حركة الشواف .. واستمرت الحركة في
المدينة يومين .

لم يقدر الشواف أن طائرات بغداد تستطيع الوصول إلى الموصل
و ضرب التجمعات العسكرية فيها ، وهو ما حدث فعلا .

أجهزة الدعاية المصرية والسورية تعلن عن قيام « ثورة الشواف »
وصوت العرب يلهب حماس الناس .. والقنلى يتساقطون .. وبغداد تعلن
عزل الشواف ، وهو يواصل المعركة حتى يسقط جريحا وينقل للمستشفى
فيهجم عليه الناس وتنتهي حياته ومحاولته .. وفي المدينة مئات من
القتلى والجرحى .. وقام بعض الشيوعيين بأعمال غير إنسانية أساءت
اليهم ، وجعلتهم يكتبون عنها نقدا ذاتيا فيما بعد .. ولو أنهم في الحقيقة
قد دفعوا اليها دفعا باستفزاز الشواف لهم عندما اعتقل قادة الحزب
ووضعهم في السجن .

كان عبد الناصر ينتظر أخبار انتصار الثورة التي دبرت مع بعض
أعضاء أجهزة المخابرات . ولكنه بدلا من ذلك سمع أخبار فشلها ومصرع
الشواف .

وأصدر عبد الكريم قاسم قرارا بإبعاد الملحق العسكري عبد المجيد
فريد والمستشار بالسفارة محمد المصري وهو ضابط سابق من رجال
رئاسة الجمهورية ، وليس من موظفي وزارة الخارجية ، واثنين من الموظفين
الإداريين خلال ١٢ ساعة على ألا يخرجوا من باب السفارة حيث ان الدولة
لن تكون مسئولة عن حياتهم .

وضع ذلك يقول عبد المجيد فريد انه تسبل من السفارة ليلا وذهب الى رفعت الحاج سري في مكتبه بوزارة الدفاع وحذره من انكشاف امره ، ويقول عبد المجيد فريد ان رفعت كان مرتبكا .

ويبدو أن هذه الزيارة المتعجلة البعيدة عن قواعد الأمان قد اكدت شكوك قاسم في رفعت الحاج سري فاضلر أمرا باعتقاله بعد ٣ ساعات من خروج عبد المجيد فريد من عنده .

وعندما وصلت اخبار الفشل بدأ جمال عبد الناصر حملة في غاية العنف ضد العراق خلال جولته وخطبه في سوريا منذ يوم ١١ مارس .

عبد الكريم قاسم أصبح قاسم العراق . . الشيوعيون عملاء وملحدون لا يؤمنون بحرية بلدهم . . الحزب الشيوعي السوري يعمل بتعليمات من الخارج . . لن نسمح بقيام حزب شيوعي في مصر . الحزب الشيوعي في مصر يتلقى تعليماته من الحزب الشيوعي ايطالي منذ عام ١٩٥٢ .

الهجوم يشتد ويتضاعف ضد حكومة العراق . . ورد الفعل ضد مصر يزداد عنفا .

وتمزقت العلاقة بعد شهور معدودة بين ثورة ٢٣ يوليو وثورة ١٤ يوليو ، ولم يعد هناك جو مناسب لخلق علاقة صحية مشتركة بين الافكار القومية والافكار الوطنية أو العاطفية .

وبدأت في آخر مارس ١٩٥٩ حملة اعتقالات ثانية ضد الشيوعيين المصريين والسوريين الذين سبق أن وجهت ضدهم حملة اعتقالات شملت المثبات في ليلة رأس السنة ١٩٥٨/١٩٥٩ .

الانفعال واضح في موقف جمال عبد الناصر . . وفي موقف الحكومة العراقية التي جعلت من محكمة المهادي ساحة للقذف والسباب والدعاية وفضح الأسرار .

وكانت محكمة الشعب برئاسة العقيد فاضل المهادي قد بدأت في محاكمة عبد السلام عارف ورشيد عالي الكيلاني ورفعت الحاج سري وغيرهم على امتداد شهور طويلة .

طرد عبد الكريم قاسم بعد ثورة الشواف ٢٠٠ ضابط من الجيش منهم ٧٠ (أميرالاي وقائ مقام) .

وفي يوم ٧ أكتوبر ١٩٥٩ حدثت محاولة اعتداء على حياة عبد الكريم قاسم قام بها بعض البعثيين في شارع الرشيد . . قتل السائق وجرح

عبد الكريم قاسم وتمت حركة اعتقالات كبيرة ، وذلك بعد أن كانت أحكام الإعدام قد نفذت على ناظم الطبقجلى ورفعت الحاج سري ضمن ١٣ ضابطا ، ٤ مدنيين يوم ٢٠ سبتمبر .

هجمة على الشيوعيين :

وعندما نشرت جريدة المساء في مصر أن الثورة قد انتهت ذهب أنور السادات يوم ١٢ مارس ١٩٥٩ الى خاله محيي الدين وأبلغه قرار جمال عبد الناصر بعزله ، وتعيين ضابط مخابرات رئيسا للتحرير بدلا منه هو مصطفى المستكاوي . . كل الجرائد المصرية ظلت تخلق جوا من الاثارة حول ما حدث في الموصل . . وتنشر خطب عبد الناصر الملتهبة في سوريا والتي ظل يواصلها حتى شهر أبريل ١٩٥٩ .

وفي حديث مع الصحفي الهندي كرانجيا يوم ١٧ ابريل قال عبد الناصر :

(ليس بالقومية العربية أي خطأ ، الا أنها معرضة في الوقت الحاضر لهجوم من الحركات الهدامة ، اننا نقاتل معركة دفاعية ضد الشيوعية ومطامعها تماما كما سبق أن قاتلنا ضد الاستعمار الغربي) .

وصرح بأنه طلب مقابلة عبد الكريم قاسم ولكنه اعتذر بحجج واهية لأنه كان أسيرا للشيوعيين .

وفي ختام الحديث قال انه يتوقع كفاحا طويلا بين الشيوعيين والقوميين العرب .

وكان قد سبق لجمال عبد الناصر أن قال لخالد محيي الدين قبل عزله من رئاسة تحرير (المساء) ، ان القومية العربية قد انتهت بقيام ثورة العراق .

كانت الصورة عند عبد الناصر أن قاسما كان أسيرا في يد الشيوعيين يتحرك بأمرهم وينفذ ارادتهم . . ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . . فالشيوعيون في العراق كانوا يصارعون من أجل حقوقهم في الوجود . . والسلطة لم تكن في أيديهم . . وبضالهم الطويل منذ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٣٤ ، واعتقال سكرتير الحزب يوسف سليمان (فهد) وزميله عضوي المكتب السياسي زكي محمد بنسيم وحسين محمد الشبيبي في يناير ١٩٤٧ وصندوق الحكم عليهم بالاعدام في يونيو من نفس العام ثم وقف التنفيذ تحت ضغط الرأي العام العالمي في كل البلاد ، وأخيرا العودة الى اتهامهم بالتآمر من داخل السجن ومحاكمتهم واعدائهم يوم ١٤ فبراير ١٩٤٩ قبل اذاعة النبا .

كان اعدام هؤلاء القادة يمثل عند الشيوعيين العراقيين مأساة عنيفة. وذكرى مؤلمة .. ولذا فانه في التاريخ الاول لاعدائهم بعد الثورة ١٤ فبراير ١٩٥٩ سارت مواكب شعبية حاشدة تحيي ذكرى الشهداء الثلاثة وكانت لجنة العفو عن المسجونين السياسيين قد أصدرت قرارا في ٢٤ يناير باعتبار الاعمال التي حوكموا بسببها من أعمال الكفاح الوطني التي تستأهل التقدير .. واعتبارهم شهداء الشعب .

كان هذا القرار طبيعيا اذ اعدم الثلاثة في مرحلة النضال ضد الاستعمار البريطاني .. ولم يكن قيام المظاهرات دليلا على وثوب الشيوعيين على السلطة .

ولكن الصورة المشوهة التي خرجت من بغداد عن طريق عملاء المخابرات المصرية .. والفكرة العدائية الثابتة ضد الشيوعية والشيوعيين .. والتناقض غير المبرر وغير العلمي بين التنظيمات القومية والشيوعية .. وانحراف بعض الصحف العراقية والمصرية الى الهجوم غير الموضوعي .. وساحة محكمة الشعب التي تحولت الى مسرح اثاره واتهام للقيادة المصرية . كل هذا أدى الى وقوف جمال عبد الناصر موقفا عدائيا من الشيوعيين العراقيين .

ولم تكن الحقيقة أن الحزب الشيوعي كان قد قبض على السلطة . فانه في يوم ٢٩ ابريل أصدر الحزب بيانا يطالب بالمشاركة في الحكم .. وقاسم يجيب بأنه يريد حزبا يقضى على كل الأحزاب .. قائلا أن الشعب هو حزبه .

وفي النصف الثاني من يوليو فصل بعض الضباط الشيوعيين من الجيش .

وفي العيد الأول للثورة ١٤ يوليو ١٩٥٩ أعلن عبد الكريم قاسم أنه منبئ صرخ بتكوين أحزاب خلال ستة أشهر .. وبالتحديد في يوم تأسيس الجيش العراقي أي ٦ يناير ١٩٦٠ .

وشكل عبد الكريم قاسم وزارة جديدة ضمت ٦ من العسكريين ، ١١ مدنيا .. مما أعطى الحكم لونا عسكريا .. رغم دخول دكتورة نزيهة العتومي الى الوزارة وهي ماركسية وتعتبر أول وزيرة تعين في العالم العربي والإسلامي معا .

تكوين الأحزاب كان يعتمد على موافقة وزير الداخلية .. القانون شبهه بقانون الأحزاب الذي سبق أن صدر في مصر عام ١٩٥٢ ونجحت الأحزاب القديمة بموجبه ، على أن تتقدم بطلبات تكوين جديدة .

وفي اليوم المحدد لتقديم الطلبات ، تبين أن حزبا شيوعيا آخر يرأسه انتهازى يسمى داود صايغ يضم مجموعة محدودة من الأعضاء تباركهم الحكومة لقسم الحزب الشيوعي الأصلي - قد تقدم بطلب تكوين أيضا .
ورفضت الحكومة أن تعطى اسم الحزب الشيوعي للتنظيمين .
واكتفت بحزب داود صايغ .

ويادر الحزب الى تغيير اسمه الى (اتحاد الشعب) وهو اسم صحيفته ، ولكن طلبه رفض أيضا يوم ٢٢ يناير ١٩٦٠ . وكان هدف عبد الكريم قاسم من ذلك هو قسم الحزب الشيوعي واجباره على أن يظل سرا لا يمارس نشاطه بصورة علنية .

رغم الشعارات اليسارية والصورة الحمراء التي اكتسبت بها العراق كان عبد الكريم قاسم لايزيد عن كونه ضابطا عسكريا بعيدا عن الطبقة الوسطى ، يريد أن ينفرد بالسلطة في يده ويلعب لعبة التوازن ، ويرفض التعاون المخلص مع الطبقة العاملة لتحقيق وحدة وطنية كاملة في مواجهة أخطار الامبريالية والرجعية .

هكذا هاجم عبد الناصر الشيوعيين في نفس الوقت الذي كانوا يعانون فيه من تصرفات عبد الكريم قاسم .
وهكذا فقد أيضا عبد الكريم قاسم تأييد اليسار المطلق ، ولم يكسب اليمين .

وضاعف جمال عبد الناصر حملته على العراق . . . في السياسة الخارجية بدأ هجومه على الاتحاد السوفيتي وتحسنت العلاقات مع الولايات المتحدة التي أعادت لمصر المعونات ، واستقبلت الجامعات الأمريكية ٢٤٠ طالبا كانوا يدرسون في الاتحاد السوفيتي .

وفي السياسة العربية استقبل عبد الناصر اللواء فؤاد شهاب سيرا ، خلال وجوده في سوريا بعد ثورة الشواف وتم الاتفاق على تأييد لبناني كامل لمصر . . وفي أغسطس عادت العلاقات الدبلوماسية المقطوعة مع الملك حسين ، وفي سبتمبر التقى عبد الناصر مع الملك سعود الذي سبق أن تأمر على حياته وعلى الوحدة .

وخلال عام ١٩٥٩ زادت قبضة العنف في مصر وضممت الممتلكات كل صوت معارض ، وجاءت استقالة وزراء البعث في نهاية العام تكملة لجلقة الضغط ومصادرة الحريات والمعارضة .

ولكن الموقف في العراق مازال بعيدا عن يد جمال عبد الناصر . . .

والأمور هناك تمضي في حملة الهداء ضد القاهرة ، ولكن عبد الكريم قاسم لا يهاجم مصر ولا عبد الناصر . ولكن توجهاته للمستولين جميعا كانت ضد مصر وجمال عبد الناصر .

سلطات العراق تلغى حكم الاعدام على فاضل الجمالي وزير الخارجية في عهد حلف بغداد . . وتواصل رفضها حضور اجتماعات مجلس الجامعة العربية اذا عقد في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة . وعندما ذهب الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية مع عبد الخالق حسونة أمين عام الجامعة العربية الى بغداد في يناير ١٩٦١ غومل الأول معاملة المسافرين العادي بينما دخل عبد الخالق حسونة من باب كبار الزوار .

الأمم ضئيل في تقريب الثغرة بين بغداد والقاهرة أو بين قاسم وعبد الناصر . . وتعيين همفري تريفيان الخبير في الشؤون المصرية والعراقية منذ الأربعينات سفيراً لبريطانيا في بغداد قد لعب كما قال عبد الناصر دوراً في زيادة الثغرة بين الدولتين العربيتين .

ووضع الشقاق والخلاف على المائدة مرة أخرى عندما طالب عبد الكريم قاسم بضم الكويت الى العراق عقب اعلان استقلالها في يونيو ١٩٦١ ، باعتبارها كانت ضمن ولاية البصرة في عهد العثمانيين . . وصاحب اعلان عبد الكريم قاسم حشد للقوات العراقية كما لو كان يريد تنفيذ الأمر بالقوة العسكرية .

واستنجد أمير الكويت ببريطانيا التي أسرعت بإرسال قواتها الى الكويت ، ولم يظهر عبد الناصر أي اعتراض على ذلك عندما أبلغه السفير البريطاني سير هارولد بيل حسب رواية أنطوني ناتنج .

ولكن مجلس الجامعة العربية اعترض على دخول الكويت الى الجامعة العربية مادامت القوات البريطانية تسيطر على أرضها . . فقد كان في ذلك جثث ونموذج يمكن أن يتكرر بواسطة بعض الدول العربية الأخرى مثل الأردن . .

واقترح جمال عبد الناصر أن تطلب الكويت رحيل القوات البريطانية وأن تستبدل بقوات عربية مشتركة . . وعندئذ تفتح أبواب الجامعة العربية للدولة الجديدة .

وبلغات القوات البريطانية في الانسحاب فعلاً يوم ٢٠ يوليو ١٩٦١ ودخلت الكويت الجامعة العربية . . ووصلت قوات عربية مسلحة من مصر والسعودية والأردن وتونس والسودان .

ولكن القوات المصرية لم تبقى طويلا . . قرر جمال عبد الناصر سحبها
للاثر العكسي الذي أحدثه وجودها في الكويت بين الرأي العام العراقي
الذي كان قد أخذ موضوع ضم الكويت مأخذ الجد والاهتمام .

وعندما تمزقت وحدة الجمهورية العربية المتحدة في سبتمبر ١٩٦١
كان في ذلك انحسار لموجة القومية والوحدة العربية التي طغت على المنطقة
مع منتصف الخمسينات . . وانجذب اهتمام جمال عبد الناصر الى ما يدور
في سوريا أكثر مما يدور في العراق .

ولم يؤد الانفصال الى تقارب حقيقي بين سوريا والعراق . . وان
كانت حكومة قاسم قد اتجهت لهذا الحدث الذي أيد وجهة نظرها في
ضرورة التريث قبل اتخاذ قرارات علوية في موضوع الوحدة .

وعند اجتماع مجلس الجامعة العربية في شتورا تغييت حكومة
العراق ولم تشأ أن تنسحب الى النزاع الملتهب بين مصر وسوريا .

وخلال هذه الفترة كان حزب البعث قد انتعش قليلا في سوريا ،
وبدا التفكير في إعادة تنظيمه ، وتشكلت قيادة قومية خاصة في سوريا
من حزبين غير سوريين بقيادة منيف الرزاز وعضوية علي صالح السعدي
من العراق . . في الوقت الذي تكونت فيه قيادة سورية رافضة بقيادة
رياض المالكى .

وبدا الحزب العراقي يتماسك تنظيميا ، ويحاول إعادة تنظيم قواته
في الجيش وخارج الجيش بعد ضربات عنيفة وجهت له في عهد قاسم . .
وتم تدبير انقلاب عسكري جديد . . قبل أن تنقضى خمس سنين
على ثورة ١٤ يوليو .

الفصل الثالث

سقوط عبد الكريم قاسم

(الحمد لله)

مانشيت جريدة الأهرام في عيد
الوحدة ٢١ فبراير ١٩٦٣ وهي
الكلمات التي بدأ بها جمال عبد الناصر
خطبته تعبيراً عن ارتياحه لانتصار
ثورات اليمن والجزائر وسقوط قاسم
بعد مأساة الانفصال .

تم تدبير البعث للخطة على أساس التنسيق بين المدفوعين
والعسكريين :

وكان الهدف هو الاستيلاء على الإذاعة ووزارة الدفاع حيث كان
يقيم قاسم معظم الوقت فيما يشبه حصناً يضم ٣ كتائب مشاة ، ١٨ مدفعية
مضادة للدبابات ، ومدفعية مضادة للطائرات .

نقطة الانطلاق كانت من الحياينة وساعة الصفر كانت التاسعة صباحاً
وهو توقيت يتناسب مع أسلوب عبد الكريم قاسم الذي كان لا ينام الا في
الخامسة صباحاً .

وفى يوم ٨ فبراير الموافق ١٤ رمضان وهو يوم جمعة كان عبد الكريم قاسم قائما فى منزل والدته .

وفى الثامنة والنصف صباحا ، اندفع بعض الضباط الى منزل الزعيم (الاميرالاي) الاوقاتى قائده القوات الجوية وقتلوه أمام أولاده . وفى نفس الوقت تحركت بعض المدرعات الخفيفة حيث احتلت الاذاعة ، وقصفت الطائرات مبنى وزارة الدفاع بالصواريخ .

أعلنت القوات التى احتلت الاذاعة فى التاسعة والأربعين دقيقة صباحا خبر اعدام عبد الكريم قاسم بعد أن شوهد يعبر شوارع بغداد من منزل والدته حيث كان ينام ، الى مبنى وزارة الدفاع والناس تصفق له فى الشارع .

وبدأت معركة بين المعتصمين فى مبنى وزارة الدفاع بقيادة قاسم وبين الزاحفين على بغداد من الخارج . . ولم يقف الى جانب قاسم الا الشيوعيون الذين حاول تمزيق وحدتهم ولم يتعاون معهم فى اخلاص كامل . . وأطلقوا نداءات الى جماهيرهم تقول (الى السلاح للقضاء على مؤامرة الامبريالية والرجعية . . استقلالنا الوطنى ومنجزات ثورتنا فى خطر جسيم . . خذوا السلاح من مراكز الشرطة أو من أى مكان واضربوا المتآمرين عملاء الاستعمار) .

المعركة مستمرة بين قوات الجيش الزاحفة والمدافعة . . ومستمرة أيضا بين مليشيا الشيوعيين وحرس قوى البعثيين وخاصة فى الأحياء الشعبية .

سقوط الاذاعة جعلها تثير الفزع فى نفوس الجماهير اذ تعلن أن المجلس الوطنى لقيادة الثورة يطالب بإبادة الشيوعيين . . والاذاعة المصرية تديع بيانات المجلس الوطنى الجديد فى حماس شديدة .

الحزب الأهلية المحسودة لم تكن كافية لحسم الموقف . . قوات الجيش وحدها هى القادرة . . والقتال يشتد فى الشوارع وفى وزارة الدفاع .

الثوار معهم عبد السلام عارف الذى أفرج عنه عبد الكريم قاسم بعد تخفيف حكم الاعدام الى المؤبد . وكان قبله أمضى ليلة الجمعة فى منزله ثم خرج فى الثامنة صباحا الى معسكر أبو غريب حيث ركب هو وأحمد حسن البكر دبابة فى قيادة الطابور المدرع كما تقول بعض الأخبار التى نشرت ، بينما يقول البعثيون أنه خرج من منزله فى الحادية عشرة صباحا دون أن يكون على علم كامل بما يدور .

وفي المساء اتصل قاسم تليفونيا بعبد السلام عارف وأبلغه استعداداته للتسليم على أن يخرج بملابسه العسكرية من وزارة الدفاع ليغادر العراق . . ولكن عارف طالبه بتسليم غير مشروط .

كان قاسم يريد أن يحتفظ بكرامته العسكرية الى اللحظة الأخيرة . ولكن عارف قال له أنه لن يكون مثل تشومبي ولن تكون العراق مثل الكنفو .

واستمرت المقاومة طوال يوم الجمعة وليلة السبت . . وفي الصباح اتصل عبد الكريم قاسم بعبد السلام عارف وتم الاتفاق بينهما على أن يكون التسليم في مبنى مجلس الشعب الملاصق لوزارة الدفاع .

ووصل قاسم الى الاذاعة في مدزعة ومن خلفه في سيارة مصفحة فاضل المهدي وطه الشيخ أحمد مدير المخابرات وضابط رابع .

وحدثت مواجهة بين عبد الكريم قاسم وزملائه وبين عبد السلام عارف وأعضاء المجلس القومي لقيادة الثورة ، انتهت الى صدور قرار بإعدامه وإطلاق الرصاص على الأربعة في إحدى غرف الاذاعة ، ونقل صورة البث الى المشاهدين في التلفزيون . وعندما وصلت الصور الى القاهرة ظهرت على شاشة التلفزيون أصغر جمال عبد الناصر أمرا بوقف إذاعتها لبعدها عن الانسانية .

المجلس الوطني لقيادة الثورة يستمر في الحكم من الاذاعة لمدة ثلاثة أيام ثم ينتقل الى الجامعة ومنها الى المجلس الوطني .

عين عبد السلام عارف رئيسا للجمهورية ، وأحمد حسن البكر رئيسا للوزراء ، والمقدم مهدي صالح عماد وزير الدفاع وهم جميعا من العسكريين . . وعين على صالح السعدى أحد قادة البعث نائبا لرئيس الوزراء واللواء طاهر يحيى رئيسا لأركان الحرب وعلى رشيد مصلح حاكما عسكريا .

فرض المجلس الوطني الذي لم تكن أسنانه أعضائه منذ البداية حظر التجول من الثالثة مساء حتى الفجر واستمرت الفترة تتناقص حتى ألغى الحظر في أول مارس ١٩٦٣ .

عمليات تصفية واعتقال الشيوعيين مستمرة والاذاعة تطالب بإطلاق النار عليهم في كل مكان . . واعتقل عزيز شريف الحائز لجائزة لينين للثلاثاء عام ١٩٦٠ . . ونشرت برافدا بيانا تهاجم فيه قمع الشيوعيين في العراق ، وثارت المنظمات العالمية والصحافة التقسيمية والأحزاب الشيوعية والاشتراكية ضد ما يدور في العراق .

البعث يحكم العراق :

كان انعكاس الموقف في مصر تأييدا كاملا وسريعا للموقف .. واعترفت سوريا والأردن بعد ذلك ، رغم الشعور بأن نظام الحكم الجديد في العراق يظهر في مظهر متعارض مع نظام الحكم في البلدين وقتئذ .

أول خطاب لعبد الناصر بعد الثورة كان في عيد الوحدة ٢١ فبراير ١٩٦٣ . وظهر مائشيت الأهرام (الحمد لله) بخط أحمر كبير .. فهكذا بدأ جمال عبد الناصر خطبته ، وكسر نفس التعبير وهو يتحدث عن انتصارات ثورة اليمن والجزائر ثم العراق بعد الانفصال .

وحضر من العراق وفد برئاسة علي صالح السعدي وصالح عماش وطالب شبيب وزير الخارجية وفؤاد عارف (كردي) وعقيد خالد مكي الهاشمي معاون رئيس أركان الحرب ومقدم جوي حردان التكريتي .. وحضر أيضا وفد شعبي عراقي برئاسة حسين جميل .

خطب في عيد الوحدة علي صالح السعدي ، ثم سافر الوفد العراقي إلى الجزائر لمدة ليلة واحدة عاد بعدها إلى القاهرة .

وطلب علي صالح السعدي من جمال عبد الناصر أن يناقش منح الأكراد الحاضرين مع الوفد الشعبي مشكلتهم .. وبعد عودته من الجزائر أبلغه عبد الناصر بأنه يرى أن يكون هناك تفكير في نوع ما من الحكم الذاتي .

واعتبر علي صالح السعدي بينه وبين زملائه أن ذلك نوع من التفكير الانتقاصي .

وأهدى عبد الناصر إلى الحرس القومي الذي كان يرأسه علي صالح السعدي ٢٠٠٠٠ مدافع رشاش مصري سافرت فورا إلى العراق لتسليح الحرس القومي بعد أن بدأ يلعب دورا هاما وبارزا في اشاعة الارهاب بين الجباهير .

كان الحرس القومي تنظيما عسكريا بلا ضبط ولا ربط .. تولى قيادته منذر الوندأوي أحد قادة البعث .

وصدر قرار بتعيين أمين هويدي سفير مصر في الرباط سفيرا في العراق . وكان قد سبق له أن عمل نائبا لرئيس المخابرات ثم قدم استقالته لتناقضات في التفكير والاسلوب بينه وبين صلاح نصر ، وبقي في منزله ستة شهور قبل تعيينه سفيرا في المغرب .

وكان تعيين أمين هويدي وهو واحد من الضباط الأحرار الذين وثق بهم عبد الناصر دليلا على الاهتمام بالعراق في مرحلته الجديدة .

المجلس الوطني لقيادة الثورة كان يضم ١١ منهم ٩ بعثيين وعبد السلام عارف وطاهر يحيى . . وكان عارف في البداية يؤدي دورا قريب الشبه من الدور الذي قام به محمد نجيب في ثورة يوليو .

وتشكلت الوزارة من ١١ بعثيا ، ٩ قوميين مستقلين ، ٢ من الأكراد . كان البعث هو العنصر المسيطر في الحركة ، ولكن كانت هناك عناصر أخرى من خارج البعث سبق لها أن ارتبطت بالعمل السياسي .

اللجنة الأولى للحركة كانت مشكلة من الضباط أحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وجردان التكريتي وصباحي عبد الحميد وعبد الستار عبد اللطيف وإبراهيم جاسم وخالد حسن فريد وخالد مكي الهاشمي وعبد الكريم فرحان .

انسحب صباحي عبد الحميد من هذه المجموعة في نهاية عام ١٩٦٢ ليكون تنظيما آخر شكلت قيادته منه ومن عارف عبد الرازق ومحمد مجيد وعبد الكريم فرحان وجاسم الغمراوي وهادي خماس وعرفان وجدي وعدنان أيوب صبري وفاروق صبري . . وحددت آخر رمضان توقيتا للانقلاب .

عين المجلس الوطني لقيادة الثورة صباحي عبد الحميد مديرا للتحركات في الجيش وهو من المناصب الهامة بينما أحبال عارف عبد الرازق الى المعاش رغم ما قدمه من مساعدة بالطيران من قاعدة الحبيانية .

كان انتصار ثورة البعث في العراق باعثا للبعثيين في سوريا على الحركة وضرب الانفصال فكانت حركة ٨ مارس . . وبادرت العراق بارسال وفد برئاسة علي صالح السعدي الى دمشق للتهنئة . . بينما لم ترسل مصر وفدا .

بعد ذلك بدأت مباحثات الوحدة الثانية بالقاهرة يوم ١٧ وانتهت الى البيان المعروف الذي سبق عرضه في الباب السابق . .

كان جمال عبد الناصر يرغب في أن تكون خطوات الوحدة مع جبهة تمثل الشعب كله وليس مع البعث وحده . . وكان قادة العراق يرسمون خططهم على أساس انفراد البعث بالحكم ، ولذا فانهم لم يرتاحوا لاصرار القاهرة على زيادة العناصر القومية في اللجان المختلفة .

عندما حاول فؤاد الركابي العودة الى العراق يوم ٢٣ مارس أعيد من مطار بغداد .

وعندما نشر محمد حسنين هيكل مقالا فى الأهرام بعنوان (انى اعترض) دعى أمين هويدى لمقابلة عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وطالب شبيب فى الواحدة بعد منتصف الليل ، حيث استمر الاجتماع الى الرابعة صباحا ، وكانت الدعوة من أجل الاحتجاج على المقال لنشره هجوما على البعث .

وشعر القوميون بضعف موقفهم فى حركة النظام فأثر بعضهم الاستقالة ، وأعيد تشكيل الوزارة ، وأصبح على صالح السعدى وزيرا للارشاد بدلا من الداخلية ، وتألقت وزارة لشئون الوحدة .

وفى يوم ٢٠ مايو قرر جمال عبد الناصر أن يلقي خطابا يهاجم فيه بعض تصرفات سوريا ، ولما علم عبد السلام عارف بذلك اتصل به تليفونيا ورجاه تأجيل ذلك ، فاستجاب عبد الناصر . . ولكن لم تكد تمضى عدة أيام حتى أعلن عن مؤامرة فى مايو اعتقل فيها كثير من القوميين .

المقاومة للنظام الجديد مستمرة أيضا من جانب الشيوعيين الذين حاول بعضهم يوم ٣ يوليو الاستيلاء على معسكر الرشيد واقتحام السجن رقم (١) للإفراج عن ٣٠٠٠ سجين . . وأثناء المحاولة التى قتل فيها ٢٣ شخصا واعتقل المئات فى النادى الاوليمبى وصل عبد السلام عارف بنفسه حيث انتهت المحاولة .

ويقول أمين هويدى أنه عند الاحتفال بعيد الثورة فى سفارة الجمهورية حضر جميع المدعوين عدا الضباط الذين تنبه عليهم بذلك .

وكان القتال مع الأكراد قد استؤنف فى شهر يونيو وأعلنت الحكومة أن الهدوء يعود الى الشمال فى نهاية الخريف . . ولكن ذلك كان حلما وخيالا . . فقد طلب وزير الدفاع صالح مهدى عماش فى شهر سبتمبر معونة عسكرية من سوريا ، وأعد مشروع لوحدة عسكرية بين البلدين. تعقبها وحدة دستورية بعد شهرين أو ثلاثة . . وعندما عرض المشروع على اجتماع مشترك للمجلس الوطنى لقيادة الثورة ومجلس الوزراء طلب وزير الصناعة ضرورة عرض الأمر على جمال عبد الناصر ، وسافر الى مصر يوم ٢ أكتوبر وفد برئاسة محمود شبيب خطاب وعضوية صبحى عبد الحميد وحر دان التكريتى ، ولكن عبد الناصر كان غاضبا من اصدار البعث لبيان يوم ١٧ سبتمبر يتهم فيه مصر بالانفصالية وهو اليوم الذى كان محمدا لاستفتاء الاتحاد .

كانت اذاعة صوت الجماهير العراقية تتبادل الهجمات مع اذاعة صوت العرب . . واستدعى السفير المصرى الى القاهرة .

ويوم ٨ أكتوبر ١٩٦٣ أعلن عبنة السلام عارف الوحدة العسكرية بين سوريا والعراق وتشكيل مجلس دفاع أعلى مؤلف من القائد العام للجيش الموحد الذي تولى منصبه صالح مهدي عماش ، وثلاثة من كل قطر واتخذت دمشق مقرا للقيادة العامة .

ووصلت الى العراق فعلا قوات سورية محدودة بقيادة المقدم فهد الشاعر .

لم تكن مشكلة الاكراد والحرب معهم هي الهم الوحيد لنظام الحكم في العراق . . . تكاثفت الهموم في التناقضات المتزايدة مع القوميين والمقاومة المستمرة من الشيوعيين ، والخلاف المتزايد وتبادل الحملات الاعلامية مع مصر .

الانقضاخ على البعث :

ولم تكن هذه هي الهموم الوحيدة أيضا . . . نبثت في صفوف البعث نفسه تناقضات حادة تجسمت بين الجيش والحرس القومي .

ونظام الحكم كان يحاول أن يخلق جيشا عقائديا عن طريق الحاق دفعات كاملة من الطلبة البعثيين بالكلية الحربية ، وترقية الضباط البعثيين وتوليتهم المراكز القيادية ، فقد فصل عارف عبد الرازق الذي أسهم في ضرب وزارة الدفاع بالطائرات ، وعين بدلا منه حردان التكريتي لأنه بعثي . . . كينا كانت تمنح الرتب العسكرية لبعض المدنيين .

ولكن الفترة لم تكن كافية لتكوين عقائدي ، وظروف الجيش تختلف عن الحرس ، حيث يسود في الجيش الانضباط والضبط والربط والتفليد العسكرية . . . أما في الحرس القومي الذي أعطيت له مهمتان رئيسيتان هما معاونة القوات المسلحة للدفاع عن الوطن وصيانة الأمن الداخلي فان الامور كانت تمضي بطريقة عفوية ارتجالية تستهدف ارضاب الناس وتجميع عناصر تتسفق في تيار الموالاة للحزب بلا فكر ولا وعي عميق .

وبدأت الخلافات تنمو بين الجيش والحرس القومي حتى أرسل صالح مهدي عماش برقية في ١١ يونيو ١٩٦٣ يمنع فيها مدعا باتا تدخل الحرس القومي في أي قضية اطلاقا مهما كان موضوعها الا اذا طلب منه ذلك . . . وكان ذلك ردا على اجبار الحرس القومي لبعض مديري البلديات على الاستقالة ورفض الوزير لذلك .

وأصدر الحاكم العسكري الزعيم رشيد مصلح بيانا في ١٩ أكتوبر ٦٣ يقول فيه (كثرت الشكايات من جراء التصرفات الالقانونية من قبل التحقيق الخاص للحرس القومي) .

كان هذا تعبيراً عن الانقسام داخل حزب البعث .. على صالح السعدي يعتمد على منذر الوندأوى والحرس القومي .. وحازم جواد يعتمد على الجيش .

وكانت انتخابات القيادة القطرية للبعث تجري يوم ١١ نوفمبر عندما هجم ٢٠ ضابطاً من سرية الانضباط العسكري واقتحموا قاعة الانتخابات مهاجمين على صالح السعدي .

كان هؤلاء الضباط يتحركون بتعليمات من حازم جواد وطالب شبيب وبمعرفة صامتة من عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وطاهر يحيى .

وكانت نتيجة الاقتحام ترحيل علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد وهاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي وعبد المطلب الهاشمي أعضاء القيادة القطرية للحزب الى مدينته .

كانت الظروف تخدم عبد السلام عارف دون جهد .

حزب البعث يهزق نفسه بتناقضاته وصراعاته الداخلية .

عندما علم الحرس القومي بترحيل علي صالح السعدي وزملائه خرج الى الشوارع بأسلحته واحتل الكبارى والجسور ، وحاصر قاعدة الحنانية مصرحاً للقوات بالتحرك منها الى بغداد معترضاً طريق المتحركين الى القاعدة من بغداد .. وتطورت الأمور الى جد قصف وزارة الدفاع والقصر الجمهوري ومعسكر الرشيد وإجراق طائرات ميج ١٩ .

انقلاب على الانقلاب .. والموقف في الجيش لم يعد يحتمل تحركات الحرس القومي .. وعبد السلام عارف يصدر قراراً بمنع التجول في بغداد ويحل الحرس القومي وتجريده من السلاح ونزول الجيش الى الشوارع .

رفض صالح تهدي عماش تنفيذ الأمن طالباً عرضته على أحمد حسن البكر الذي اتصل بقيادة الحزب في بغداد التي أصرت على ابعاد كل من حازم جواد وطالب شبيب كشرط لاعادة الحرس القومي الى مقرة .

وافق عبد السلام عارف وأبعد الاثنين الى بيروت تحت وعده منه بعودتهم بعد أيام .

وهزج الى بغداد يوم ١٣ نوفمبر كل من ميشيل عفلق وأمين الحافظ وصالح جديده ونسيم مجدلاوي وأدانوا حازم جواد وطالب شبيب .

كانت الفرصة متاحة أمام عبد السلام عارف لضرب ضربته وامتلاك السلطة بين يديه ، وإبعاد سيطرة حزب البعث . . فكلف صبحي عبد الحميد مدير التحركات العسكرية بوضع خطة تدخل الجيش تحت اسم كودي - (سلام) وافق عليها طاهر علي وكردان التكريتي وسعيد صليبي آمر الانضباط العسكري .

تم اعتقال صالح مهدي وعماش في مكتبه بوزارة الدفاع بوساطة سعيد صليبي وسكرتيره الخاص . . وعين عارف نفسه رئيسا للمجلس الوطني لقيادة الثورة وقائدا عاما للقوات المسلحة وشكل وزارة برئاسة طاهر يحيى وعين كردان التكريتي نائبا للقائد العام . . وأصدر أمرا بحل الحرس القومي وكافة الانظمة والتعليمات التي أصدرها . . ومصادرة الأسلحة التي كانت في يده والتي صنعت في مصر باسم رشاش بورسعيد . واعتقد حازم جواد وطالب شبيب أن الفرصة قد عادت لهما فرجا من بيروت ولكنهما أعيدا على نفس الطائفة .

وانتهت صفحة في تاريخ ثورة ٨ فبراير ١٩٦٣ .

وانتهت أيضا للمرة الثانية مشاركة حزب البعث في حكم العراق . وتتمت أعضاؤه انقسامات وخلافات . . .

وحزب البعث في حياة المشرق العربي السياسية يشكل المصنذر الذي تفرعت منه التنظيمات المسماة بالقومية . . معظم المنشقين عليه لم يطلقوا السياسة وإنما شكلوا تنظيمات متعددة اعتمدت أساسا على جماهير الحزب . . .

وأصبحت الحياة السياسية منقسمة تقريبا الى ثلاثة أقسام . . . أحزاب تقليدية تأسست على أفكار وطنية بلا مضمون اجتماعي مثل حزب الشعب والحزب الوطني في سوريا وحزب الاستقلال في العراق . . وأحزاب قومية في مقدمتها البعث . . وأخيرا الأحزاب الشيوعية واليسارية . . .

وما كاد الحكم يستقر لعبد السلام عارف رئيسا للمجلس قيادة الثورة حتى سعى الى إنهاء دور البعثيين الذين تعاون معهم . . فاقال كردان التكريتي كوزير للدفاع وعينه سفيراً في السويد . . .

ولم يركن حزب البعث الى السكون . . بدأت محاولات جديدة لتكوين الحزب بعد عشرة شهور في مايو ١٩٦٤ عندما أعيد تكوين القيادة القطرية بعبد الكريم الشينخلي أمينا للسرا وصدام حسين عضوا ومستولا عن الجناح العسكري وحسن العامري عضوا عن فرع بغداد . . .

اتجهت القيادة الجديدة الى الجيش. وركزت عليه بعدة تنظيمات :
مكتب عسكري مركزي ، وتنظيم للضباط ذوي الرتب الكبيرة ، وتنظيم
ثالث للضباط ذوي الرتب الصغيرة ، ثم تنظيم لضباط الاحتياط يضم
الضباط الاحتياط المسرحين وطلبة الكلية العسكرية المطرودين .

اكتشف الحزب أن الطعنة قد وجهت اليه من الجيش الذي مازال
يعيش في ظل النظام والعقلية السابقة . . وأن فرصتهم المتاحة في الحكم
لم تكن كافية لتحويله الى عقائدي لنفور أغلبية الضباط من الالتزام بأي
تنظيم خلاف الجيش . . ولاقتناع معظمهم بأن دورهم الرئيسي في
العسكرية وليس في السياسة ، وأخيرا لما تعرض له الجيش من صدامات
مسلحة بذرت في النفوس نفورا من السبب الذي يدفع الى ذلك .

حكم عبد السلام عارف :

وخلال فترة محاولة البعث إعادة تنظيم قواته ، بدأت التنظيمات
القومية التي طفت على السطح تحاول تشكيل جبهة موحدة ثم انتهى الأمر
الى تشكيل الاتحاد الاشتراكي في اجتماع عقد بقاعة الخلد في بغداد في
الفترة من ١٤ الى ٢٤ يوليو ١٩٦٤ .

تولى الأمانة العامة عسكري هو عبد الكريم فرحان ، وانتخب فؤاد
الركابي أمينا مساعدا . . وصدر له ميثاق يكاد يكون صورة طبق الأصل
من ميثاق مصر .

وبدأ الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق نشاطه بلقاء مع الاتحاد
الاشتراكي في مصر خلال ابريل ١٩٦٥ . . . كان الوفد المصري مشكلا من
أربعة من العسكريين هم كمال رفعت رئيسا وشعراوي جبهة وكمال الحناوي
وفتحى الديب وأربعة من المدنيين هم الدكتور حسين خلاف والدكتور
ابراهيم سعد الدين وعلى السيد على وجميعهم أعضاء في الأمانة العامة ثم
أحمد بهاء الدين عضو أمانة الصحافة .

كان تنظيم الاتحاد الاشتراكي شكليا وغير مؤثر وعاجزا عن توحيد
التنظيمات القومية التي كانت تتشردم وتتضاعف مع مرور الوقت .

كاو عبد السلام عارف يحاول الاعتماد على شخصيته دون الاعتماد
الجدي على تنظيمات مكثفيا بسيطرته على الجيش والشرطة وأجهزة الأمن.
ولو أنه لم يبالغ نسبيا في استخدامها .

كما أن عبد السلام عارف كان يتعثر في خطواته نحو الوحدة وهو
الذي خرج يروج لها في الأيام الأولى من ثورة ١٤ يوليو .

صحيح أنه بدأ تنسيق سياسى بين مصر والعراق يوم ٢٦ مايو ١٩٦٤ بعد زيارة عارف لمصر لحضور احتفال تحويل مجرى النيل عند السد العالى فى أسسوان مع خروشوف وأحمد بن بيللا وهى الزيارة التى تهجم فيها خروشوف على عارف متهما اياه بشنق الشيوعيين ، وما تبع ذلك من حوار طويل عن قضية وحدة الطبقة العاملة والوحدة العربية كلها كما روى محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) .

وصحيح أنه شكل لذلك مجلس رئاسة من جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف كان مقروضا أن يجتمع مرة كل ٣ شهور ٠٠٠٠ وكان الأعضاء من الجانب المصرى هم عبد الحكيم عامر وعلى صبرى والدكتور محمود فوزى ومحمود رياض وأمين هويدى (وهم جميعا عسكريون عدا واحد فقط) ومن الجانب العراقى صبحى عبد الحميد وعبد الرزاق محى الدين وشكرى صالح زكى (وهم جميعا عسكريون) .

كما عين ٣ وزراء للوحدة مع العراق ٠٠٠ من مصر شعراوى جمعة وكمال الحناوى وعلى السيد على ٠٠٠ ومن العراق ناجى طالب وأديب الجادر وعبد الستار الحسين ٠٠ وعين فتحي الديب أمينا عاما للمجلس .

وفى ١٦ أكتوبر انشقت قيادة سياسية موحدة من رئيسى الجمهوريتين .

ولكن ظلت هذه التنظيمات شكلية المظهر محدودة الاثر ٠٠٠ الوحدة الوطنية فى العراق لم تكتمل .

عدم اعتماد نظام الحكم على حزب ثورى ، والتمزق الذى شمل القوميين ، والضعف النسبى لشخصية عبد السلام عارف ، واشتعال العداء ضده من جانب الحزب الشيوعى وحزب البعث ٠٠٠ كل هذه العوامل أخزت تحقيق الوحدة الوطنية ، وكانت بالتالى دافعا الى شكلية اجراءات الوحدة مع مصر .

ولم يقف الخلاف والتناقض بين عبد السلام عارف وأعدائه من جهة والمختلفين معه من جهة أخرى ٠٠٠ وانما امتد الى دائرة السلطة ، تماما كما حدث مع البعث ولكن بصورة أخرى .

كان عبد السلام عارف قد تأخر متعمدا فى تشكيل مجلس قيادة الثورة ، الأمر الذى أثار حفيظة المقربين اليه .

وعندما قرر عبد السلام عارف تعيين شقيقه عبد الرحمن رئيسا للأركان اعترض على ذلك كل من صبحى عبد الحميد وعارف عبد الرزاق

وعبد الكريم فرحان وهادي قماش (رئيس المخابرات) لانه لم يكن مؤهلا
أو لخاصة على شهادة كلية أركان الحرب .

وزادت التناقضات بين الشخصيات الملتفة حول عارف . . . واستقال
وزير الاعلام عبد الكريم فرحان فيما سمي بأزمة الاذاعة عندما رفض مدير
الاذاعة قبل دعاية سافرة لعبد السلام عارف وتضامن معه الوزير .

سافر عبد الكريم فرحان الى مصر يوم ٣٠ يونيو واستقال تضامنا
معه دون وجود أية رابطة تنظيمية كل من صبحي عبد الحميد وزير
الدخلية ، وأديب الجادر وزير الصناعة وفؤاد البركابي وزير الشؤون
البلدية وعزيز الحافظ وزير الاقتصاد وعبد الستار الحسين وزير العدل .
لم يكن هذا التضامن قائما على أسس تنظيمية وإنما كان عفويا
وحساسيا .

وعندما رفض المستقيلون العودة شكل عبد السلام عارف وزارة
جديدة برئاسة طاهر يحيى يوم ١١ يوليو ١٩٦٥ .

ولم يلبث عبد السلام عارف أن كلف عارف عبد الرزاق بتشكيل
وزارة جديدة مستهدفا إبعاده عن قيادة القوات الجوية أولا وعزله عن
القوات القومية ثم تصفيته ثانيا .

رفضت التنظيمات القومية الاشتراك في وزارته .

وكان عارف عبد الرزاق قد قرر القيام بانقلاب ضد عبد السلام
عارف ، ولذا قبل الوزارة واستجاب لطلبات عبد السلام عارف بنقل عدد
من الضباط خارج بغداد وذلك تفاديا للاضطهاد ، وكشف خطة الانقلاب
مبكرا .

ولكن استمرار نقل الضباط كان يعني ابتعاد العناصر التي يمكن
الاعتماد عليها ، ولذا قرر الاسراع بالانقلاب ليكون ليلة ١٤ - ١٥ سبتمبر
١٩٦٥ أثناء وجود عبد السلام عارف في الدار البيضاء بالمغرب بعد أسبوع
واحد من تعيينه .

كانت شخصية عارف عبد الرزاق لا تؤهله لمثل هذا العمل رغم أنه
كان رئيسا للوزراء . . . فهو لم يبلغ صبحي عبد الحميد ، وأفرج عن سعيد
صليبي أمر الانضباط العسكري بعد صدور الأمر باعتقاله . . . الأمر الذي
كفل ضد قوات الانضباط ، وعزله عن أصداقائه الذين انفرد دونهم
بالضبط .

وعندما شعر عارف عبد الرازق بفشل خطته ركب طائرة حربية صباح يوم ١٥ سبتمبر وهرب الى القاهرة .

لم يكن عبد السلام عارف يعترف شيئا عما يدور في بغداد الا بعد ان ابلغه جمال عبد الناصر من القاهرة .

وراتب السفير المصري أمين هويدي اجراءات عودة عبد السلام عارف الى العراق في طائرة حربية . . . ويقول أمين هويدي انه لم يبلغ عبد الرحمن بخير عودة شقيقه الا في المطار عند وصوله عصر يوم ١٦ .

اول قرار لعبد السلام عارف كان تحديد اقامة صبحي عبد الحميد وعبد الكريم فرحان في منزليهما وتكليف الدكتور عبد الرحمن البزاز بتشكيل الوزارة الجديدة .

كانت هذه التغييرات قد اضعفت قدرة النظام في نظر الجماهير ولم تعطله شعبية مطلقا . . التنظيمات القومية مشغولة بخلافاتها الخاصة . . الحزب الشيوعي يحاول استجماع قوته ومواصلة نضاله . . وحزب البعث يعيد تنظيم نفسه وخاصة بعد الضربة التي وجهتها له أجهزة الأمن في سبتمبر ١٩٦٤ ، عندما اكتشفت محاولة إعادة التنظيم الحزب واعتقال عدد كبير من الأعضاء .

كان موقف القاهرة من عبد السلام عارف موقف التأييد المصحوب بالحيرة ، فهو في تصرفاته الداخلية يتناقض مع بقية القوميين ويعطى الفرصة لضعف النظام لاعدائه وأعداء القاهرة .

وحدث انقلاب عسكري في سوريا في فبراير ١٩٦٦ أطاح بأمين الحافظ ، وأصبح نوز الدين الاتاسي رئيسا للجمهورية ويوسف زعين رئيسا للوزراء وأبراهيم ماحوس وزيرا للخارجية وحافظ الأسد وزيرا للدفاع .

وكان الانقلاب في حقيقته انفجارا داخل حزب البعث وتغلبا للاتجاه الحزبي . . . وقد انعكس ذلك على حزب البعث في العراق فاضعف من موقفه ، وخلق له جناحين ، الضعيف منها مرتبط بسوريا وعطل بالتالي فرصة انقضاؤه على النظام الضعيف .

عبد الرحمن . . . بدلا من عبد السلام :

ولم تكد تمضي عدة أسابيع حتى لقي عبد السلام عارف حتفه في حادث سقوط طائرة هليكوبتر في ابريل ١٩٦٦ أثناء جولة فوق منطقة البصرة ، وانتهت حياة الرجل الذي بدأ مع ثورة يوليو نائبا لرئيس مجلس

الثورة ثم أمضى في السجن ثلاث سنين وعشرين يوما بعد تغيير حكم الاعداد
حتى عاد رئيسا للجمهورية مع ثورة ٨ فبراير ١٩٦٣ .

كان اختفاء عبد السلام عارف صدمة مفاجئة لجمال عبد الناصر
وضعت النظام كله في وضع حرج ، وتحملت القاهرة جانبا من مسئولية
استمرار النظام فقد كانت هناك قوات عسكرية مصرية استدعاهما
عبد السلام عارف . وبلغت حوالى ١٢٠ طقما كاملا للدبابات ولواء مشاة
وعندا من الطيارين .

وتقرر سفر بعثة مصرية للعزاء يرأسها المشير عبد الحكيم عامر وتضم
عبد الحميد السراج وأمين هويدى وعبد المجيد فريد . وحدد جمال
عبد الناصر موعدا يلتقى فيه بالمشير والسفير بالعراق أمين هويدى الذى
أصبح وزيرا للاعلام . . . ولكن المشير لم يحضر فى الموعد ، رغم انتظار
جمال عبد الناصر وهويدى لمدة تزيد على الساعة .

انتهت المقابلة دون حضور المشير وعبد الناصر يردد (أعمل ايه فى
المشير بتاعكم ده . . حتى المواعيد لا يحترمها) .

كانت هذه ظاهرة من الظواهر التى توضح مناهضة المشير للرئيس
ودخوله مرحلة عدم الاكتراث وفرض سلطته الذاتية .

سافر الوفد الى العراق بغير خطة منسقة .

وكان موضوع خلافة عبد السلام عارف فى قائمة الموضوعات
المطروحة .

واستقر رأى المشير والسراج على تعيين عارف عبد الرازق رئيسا
لجمهورية العراق . . . وأرسل المشير برقية الى القاهرة يطلب ارساله
على طائرة خاصة حيث كان يقيم فيها بعد انقلابه الفاشل .

ولم يكن هذا رأى متفقا مع تفكير السفير السابق أمين هويدى
لاعتقاده أن عارف عبد الرازق عاجز عن ادارة الدولة الى جانب أنه رجعى
ويمينى بالسليقة . . . فبادر بارسال برقية الى عبد الناصر يحذر فيها من
هذا التعيين ويوضح أخطاره ويطلب عدم ارسال عارف عبد الرازق تفاديا
لحدوث كارثة على حد تعبيره .

وافق عبد الناصر على فكرة أمين هويدى التى عرضت عليه بعد نومه
فى الثانية بعد منتصف الليل . وبعد أن كان سامى شريف قد أبلغ عارف
عبد الرازق الذى استعبد فعلا للسفر جام فتراجع عن الاتصال به .

ووافق جمال عبد الناصر أيضاً على تعيين عبد الرحمن عارف في منصب شقيقه .

وعندما بلغ المشير عامر ثار وقبرر مغادرة بغداد قبل وصول عبد الرحمن عارف من موسكو حيث كان في زيارة لها وعند وصوله الى مطار بغداد أبلغه عبد المجيد فريد عضو بعثة العزاء المصرية أنه مرشح للرئاسة ، فغادر المطار الى القصر الجمهوري فوراً .

وهكذا انتهت صفحة عبد السلام عارف الذي لم تعلن دمشق وتونس الحداد عليه من كل الدول العربية .

وبدأت صفحة جديدة في حياة الجمهورية العراقية كانت أكثر ضعفاً فشخصية عبد الرحمن كانت أقل لمعانا من شخصية شقيقه . دور مصر المؤثر خلال هذه المرحلة على السياسة العراقية كان ناتجا من ضعف رؤساء الجمهورية وعدم اعتمادهم على تأييد شعبي جارف أو تنظيم حزبي صلب ووجود تناقضات وخلافات حادة بين جهاز الحكم وبين الأحزاب والتنظيمات الثورية مثل الحزب الشيوعي وحزب البعث وعدم القدرة على ربط كافة الخيوط في قيادة واحدة متماسكة الأمر الذي اقتضى وجود قوات عسكرية مصرية في العراق ، لم يقبل جمال عبد الناصر أن تشترك في أي عمليات ضد الأكراد في الشمال ، كما أنه أعطى لها تعليمات بالألا تستفز مشاعر المواطنين بالظهور بالملابس الرسمية أو الإقامة في معسكرات داخل بغداد ولكنها في النهاية كانت تحت تصرف رئيس الجمهورية لحمايته .

هكذا كانت العلاقة وثيقة بين السلطة في القاهرة والسلطة في بغداد ، ولكنها كانت تعتمد على جسر عسكري وليس على جسر تنظيم شعبي .

لم يكن سهلاً عقد صلة تنظيمية من أي نوع بين مصر والعراق ، فان شردمة وتمزق التنظيمات القومية كان قد وصل الى حد مذهل اذ بلغت ٢٨ تنظيماً مختلفاً حتى أصبح اختيار الأسماء لها عملية معقدة متشابكة والحساسية من البعث مازالت قائمة والعداء للحزب الشيوعي لم يتغير .

واستمر الموقف كذلك حتى اقتررب عام ١٩٦٧ وهو ما نتحدث عنه في الجزء الرابع (خريف عبد الناصر) .

الباب الرابع

● اليمن السعيد

(عندما زرت الكونغو شامت
جريمة الاستعمار ، ولكن عندما
وصلت الى اليمن آمنت بأن من سوء
الحظ أنها لم تعرف ولو قلدا ضئيلا
من الاستعمار)

والف بانث
الأمين العام المساعد لهيئة الأمم
المتحدة

الفصل الأول

الامامة في اليمن

امتد حكم اليمن ما يقرب من
١١٠٠ عام ، وقتل خلال هذه الفترة
١٨ اماما .

لم يثر خلاف حول موضوع ، مثل الخلاف حول مساعدة ثورة يوليو
المصرية لثورة سبتمبر اليمنية . . وهو خلاف يعبر عن التنافر في وجهات
النظر حول التعاون بين حركات التحرر الوطني في مختلف الدول .
والعلاقة بين مصر واليمن لم تبدأ فجأة يوم الثورة ٢٦ سبتمبر
١٩٦٢ . . . ولم تكن أيضا هي العلاقة الرئيسية الوحيدة مع اليمن .
وعلاقات اليمن مع الدول الأخرى ذات طبيعة فريدة .

عقد الامام يحيى معاهدة صداقة مع إيطاليا عام ١٩٢٦ لمواجهة
انجلترا في جنوب اليمن ، وعقد معاهدة صداقة وتجارة مع الاتحاد
السوفييتي عام ١٩٢٨ وعقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٩٣٤ لم تحدد فيها
حدود اليمن الجنوبية ، وظلت هناك بعثة تجارية سوفيتية في اليمن حتى
عام ١٩٣٨ . . . ووضلت بعثة أمريكية للتفتيش عن البترول عام ١٩٧٢
ولكنها بقيت خمس سنوات بلا اذن حتى انتقلت الى السعودية عام
١٩٣٢ . . . وعقد الامام معاهدة صداقة مع الأمريكيين أيضا عام ١٩٤٦ .

وعقد الامام يحيى أيضا معاهدة صداقة مع العراق عام ١٩٣٦ لتربط بين الحكام الهاشميين في كلتا الدولتين لمواجهة حكام المملكة السعودية .

ولكن لم تكن هناك معاهدات مع مصر . . . فالاحتلال البريطاني لم يكن يشجع حركة مصر في المجال العربي . . . كل ما أرسلته مصر كانت بعثة تعليمية كبيرة أرسلت عام ١٩٤٧ ووقع معظم أعضائها تحت نفوذ الاخوان المسلمين الذين كان ضابط اتصالهم في اليمن جزائريا كان عضوا في مكتب الارشاد هو الفضيل الورثلاني .

وقد اشترك الفضيل الورثلاني في انقلاب دبره الأحرار اليمنيون ضد الامام يحيى حيث قتلوه عام ١٩٤٨ وتولى الحكم عبد الله الوزير باسم (امام الشورى والدستور) .

الذين دبروا الانقلاب كانوا أعضاء في حزب الأحرار اليمنيين الذي تكون بتشجيع البريطانيين عام ١٩٤٤ في عدن . وتغير اسمه عام ١٩٤٦ الى (الجمعية اليمنية الكبرى) عقب احتجاج الامام علي الحزب الذي كان تحت قيادة محمد محمود الزبيري وأحمد محمد النعمان . وهما اللذان دبوا الانقلاب ضد الامام يحيى مع بعض العناصر العسكرية مثل الضابط العراقي جمال جميل أحد المشركين في انقلاب بكر صدقي في العراق . واحد أعضاء البعثة العسكرية العراقية التي حضرت لليمن عام ١٩٣٦ . والضابطان اليمنيان عبد الله السلال وحسن العمري .

ولكن الانقلاب لم يدم أكثر من شهر واحد فقد جمع الامام أحمد قبائلي تعز والحديدة وحجة وحاصر صنعاء بمساعدة السعودية حتى استسلمت فأعدم عبد الله الوزير وجمال جميل واعتقل النعمان والسلال والعمري .

وأصبح أحمد اماما لليمن . . . وضعف حزب الأحرار اليمنيين . وكان الامام أحمد شخصية أسطورية . يعزل بلده تماما عن حضارة العصر ، ويستفيد من الأجانب في حدود مصلحته الذاتية . . . فقط . قال رالف بانثي عقب عودته من اليمن بعد زيارته لها موفدا من الأمم المتحدة كما يروي محمد حسنين هيكل (عندما زرت الكونغو شاهدت جريمة الاستعمار . . ولكن عندما وصلت الى اليمن آمنت بأن من سوء الحظ أنها لم تعرف ولو قدرا ضئيلا من الاستعمار) .

وقال لي الفريق صلاح الحديدي مدير المخابرات الحربية الذي رافق رالف بانثي في رحلته الى اليمن أنه سأله مبتسما بعد وصوله الى المطار . هل أطلقتهم قنبلة ذرية ؟

وضاعت دهشة الحديدى عندما تبين أنه يقصد عواصف التراب
التي تثيرها العربات التي تسير في طريق غير ممهد .
ويروى الحديدى أيضا أن رالف بانس سألته عقب خروجه من
الحمام : هل تشربون الشاي في الحمام ؟
كان هناك أبريق شاي للاغتسال في الحمام .
وقد انعكست عزلة اليمن على مختلف مظاهر الحياة .

الجيش في اليمن :

وكانت مظاهر التخلف واضحة تماما في الجيش اليمني .
عندما خرج الأتراك من اليمن عام ١٩١٨ تركوا وراءهم قوات يمنية
مقسمة الى بلوكات وطواير سرايا وكتائب (٠٠٠ الجنود فيها دائمون
مثل الشرطة لا يخرجون الى الاحتياط ، وعهدة كل جندي بندقية وخمسون
طلقة رصاص ، وسترة وزمزية وحصيرة متران في نصف متر وسجادة
صغيرة من صوف الغنم .

الجندي يحتفظ بعهدته الى أن يموت فتتسلمها الحكومة من الورثة
واذا أراد أحد الجنود ترك الجيش استبدل نفسه برجل آخر يدفع له
مبلغا من المال ليحل محله ٠٠٠ وإذا مات الجندي لا يجند بديل له .

الجندي يحصل على مرتب شهري ٦ ريالات يمنية وأربعة أرغفة
خبز في اليوم دون ادم ٠٠٠ والملابس غير موحدة ٠٠٠ كل يلبس على
مزاجه الا في أيام الأعياد والاستعراضات فقط فيكون هناك حد أدنى من
الوحدة في الملابس .

هذا الجيش التاريخي القديم يطلق عليه اسم (الجيش المظفر أو
الزكي) وهو ما زال موجودا حتى اليوم .

أول تغيير حضارى عرفه الجيش كان عقب المعاهدة مع العراق عام
١٩٣٦ عندما ذهب الضابطان أحمد الثلثيا وحمود الجائفى للدراسة
العسكرية الكاملة ، وذهب عدد آخر لدراسة الاشبارة ومنهم المشير
عبد الله السلال .

وقامت البعثة العسكرية العراقية بقيادة العقيد اسماعيل صفوت
بفتح مدرسة عسكرية وبدأت تعد نوعا جديدا من التنظيم والتجنيد تحت
اسم (الجيش الدفاعي) مدة الخدمة فيه ٤ سنوات ويسير على أسس
موحدة في اللبس والنظام .

كان يدرس في المدرسة الحربية ضباط عراقيون وأتراك ويمنيون .
وعندما انتهت مدة البعثة العسكرية العراقية لم يبق الا الضباط العراقي
جمال جميل الذي اشترك في انقلاب ١٩٤٨ ضد الامام يحيى ، وبعد
انتصار الامام أحمد أغلق المدرسة الحربية . وان كان (الجيش الدفاعي)
الذي كانوا يطلقون عليه اسم (التامونة) ظل قائما .

وكان هناك جيش ثالث الى جانب الجيش المظفر والجيش الدفاعي .
هو (الجيش البراني) الذي يتكون من جنود تابعين للقبائل ، يدفع لهم
الامام مرنبا ربع ريال في اليوم . وكان جنود هذا الجيش في خدمة
المحافظين الذين يعينهم الامام فيرسل الجنود الى الفلاحين ليبقوا معهم في
الأرض يأكلون ويشربون على حسابهم ويضمنون دفع الفلاحين للضرائب
العينية التي يقدرها عليهم (المخمى) وهو رجل يتنبا أو يخمن بالحصولات
الزراعية قبل نضجها .

وأخيرا كان هناك جيش رابع باسم (فوج البدر) كان تابعا للامام
البدر ولي العهد . وكان جيشا نظاميا في ملبسه وتحركاته ويتولى
قيادته العقيد عبد الله السلال بعد خروجه من السجن عام ١٩٥٣ بعد
خمس سنوات قضاها في ظروف معيشية قاسية .

وهكذا اجتمعت في اليمن أربعة أنواع من الجيوش .

الجيش المظفر وكان أميره أو قائده رجلا عجوزا اسمه علي بن ابراهيم
لفت اليه الأنظار عندما حضر ممثلا للجيش اليمني في اجتماعات الجامعة
العربية وهو يلبس العمامة . وقد خلفه قائد آخر من نفس الطابع اسمه
الشريف الضمين . ويقدر عبد الله جزيلان رئيس أركان الجيش اليمني
— فيما بعد — هذا الجيش بحوالي ٣٠.٠٠٠ جندي .

والجيش الدفاعي ويقدر عدده بحوالي ١٥.٠٠٠ جندي .

أما عدد الجيش البراني فيصل الى ٢٠.٠٠٠ جندي .

ووصل فوج البدر الى ما يقرب من ١٠.٠٠٠ جندي .

الوحيد الذي كان يعرف الأرقام بدقة هو الامام أحمد الذي كان
يدفع لها المرتبات ويحتفظ في خزائنه بكشوف الأعداد .

أسلحة هذه الجيوش كانت متنوعة . بنادق تركية قديمة ، ومدفعية
ميدان من الحرب العالمية الأولى ، وأسلحة بريطانية من العراق ، ثم أسلحة
فرنسية من البنادق والرشاشات أهدتها بعثة فرنسية الى الامام عام
١٩٤٧ .

رغم تعدد هذه الجيوش وكثرة عدد أفرادها ، فإنها كانت لا تصلح للقتال الحديث . فالضباط بالكاد يعرفون القراءة والكتابة ، ومعظمهم غير مؤهلين بالدراسة الحديثة ، والظروف المعيشية للجنود قاسية .

عندما حاول الامام غزو اليمن الجنوبية في أواخر ١٩٤٨ قضت الملايا على الجنود بمعدل ٣٠ الى ٤٠ جنديا في اليوم ، وأصبح ذلك موضعا لتندر الأغاني الشعبية .

الله يخليك يا جيش يا نظامي .

القبر مفتوح والكفن مراعى .

بلد ذو طبيعة خاصة تتعدد فيه الجيوش ، وجميعها تتحرك بأصابع الامام الذي يجيد خلق التناقضات بين القبائل واستغلال الثغرات بينها . ومع ذلك لم تكن الامامة بعيدة عن محاولات الانقلاب .

محاولات الانقلاب :

وكان العسكريون موجودين دائما في محاولات الانقلاب على الامام .

انقلاب ١٩٤٨ الذي قتل فيه الامام يحيى وتولى بدلا منه عبد الله الوزير شارك فيه كما ذكرنا الضابط العراقي جمال جميل والضابطان اليمنيان عبد الله السلال وحسن العمري .

واسترداد الامام أحمد للعرش بعد ٢٥ يوما من الانقلاب تم بعمل عسكري حوصرت فيه صنعاء حصارا تاما بعد التجمع في حجة . واعتمد أحمد في ذلك على الجيشين (المظفر والبراني) .

وفي مطلع الخمسينيات بدأت تنشأ تنظيمات حزبية معارضة للاجتلال في جنوب اليمن مثل حزب رابطة أبناء الجنوب والجمعية اليمنية الكبرى وحزب الأمة والحزب الوطني . وهي أحزاب كانت تتطلع الى استقلال ولو شكليا للمحميات ، ويقتصر نشاطها على عدن وحدها .

كما ظهرت فروع لحزب البعث العربي الاشتراكي ، ولحركة القوميين العرب . ثم أطلق فرع البعث على نفسه حزب الطليعة الشعبية .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد فرضت نفسها على الأمة العربية . ووجد الامام أحمد فيها سندا له ضد الوجود البريطاني في الجنوب . فطلب بعثة عسكرية مصرية ، تواصل نشاط البعثة العسكرية العراقية التي انتهت آثارها باغلاق المدرسة الحربية وقتل جمال جميل بعد فشل انقلاب ١٩٤٨ .

ورأس هذه البعثة اليوزباشى أحمد كمال أبو الفتوح الذى كان من قوة المخابرات ثم أصبح محافظا للقليوبية فيما بعد ، وكانت معه بعثة أيضا من ضباط الشرطة المصريين .

لم تحاول هذه البعثة القيام بأى نشاط سياسى ، فلم يكن من أهداف الثورة المصرية فى سنواتها الأولى الاهتمام بواقع الدول العربية اهتماما كبيرا . . كان التركيز على تحقيق الجلاء عن مصر ، ومقاومة الضغوط الاستعمارية لانشاء أحلاف عسكرية فى المنطقة .

ومضت أحوال البعثة هادئة ، ويقول أحمد كمال أبو الفتوح أنهم قد أقاموا علاقات طيبة مع اليمنيين واكتسبوا ثقة الامام نسبيا . وفى مصر دخلت الكلية الحربية أول بعثة يمنية عام ١٩٥٢ من الطلبة الذين حضروا للتعليم منذ عام ١٩٤٨ قبل الثورة . وتخرجت أول دفعة فى الكلية عام ١٩٥٥ .

وعقب توقيع اتفاقية الجلاء وبدء النشاط المصرى فى الدول العربية وزيارة صلاح سالم لسوريا وتوقيع اتفاقية الجيش فى مارس ١٩٥٥ .
زار اليمن . ورقص مع القبائل رقصتها التقليدية كما فعل فى السودان .

وخلال هذه الفترة كانت تتصارع الاتجاهات السياسية وتصطدم المصالح الامبريالية . وبرز دور الولايات المتحدة كقوة عالمية رئيسية . وانتهزت فرصة الحياة الرجعية التى يفرضها الامام أحمد على اليمن فشجعت انقلابا ضده من عناصر من داخل الأسرة المالكة ، فقام الأمير سيف الاسلام عبد الله بمحاولة انقلاب على شقيقه الامام أحمد بالاشتراك مع المقدم أحمد يحيى الثلايا أول ضابط يمنى تخرج فى الكلية الحربية العراقية .

ويقول محمد حسنين هيكل فى كتابه (عبد الناصر والعالم) ان الامام أحمد قد روى لجمال عبد الناصر قصة اجبائه للانقلاب . عندما شاهد وهو محاصر فى قصره حارسا يفتش احدى جواريه فصاح (والله لن تفتش النساء ما دام حيا) وقفز على صهوة حصان وفى يده مدفع رشاش أخذ يطلقه من برج القصر ولما شاهده الناس أخذوا يهتفون (انتصر الامام . . انتصر الامام) .

وفعلا وبعد أن نشرت جريدة الأخبار فى صدر صفحتها الاولى يوم ٣ ابريل ١٩٥٥ مانشيت يقول (تنازل الامام أحمد عن العرش) . . انقلب الحال مرة أخرى وانتصر الامام أحمد وقتل شقيقه عبد الله والعباس ومعهما المقدم أحمد يحيى الثلايا الذى كان منضما لتنظيم اليمنيين الأحرار .

وسافر حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة الى اليمن لتهنئة الامام بنجاته حرصا على بقاء العلاقات الودية بين الدولتين لما اشيع في ذلك الوقت من أن الضباط الثائرين كانوا على صلة بمصر .

ولكن أحمد كمال أبو الفتوح ينفي ذلك ويقول انه كان حريصا أشد الحرص على خلق علاقات ودية مع الجميع دون تشجيع أحد على ثورة أو انقلاب في بلد عاش فيها سنوات ثم خرج منها وهو مازال تائها في علاقات أهلها المتشابكة على حد قوله .

وفي عام ١٩٥٧ ذهبت بعثة عسكرية مصرية برئاسة العقيد حسن فكرى الحسينى مشكلة من خمسة ضباط وبعض ضباط الصف . وكان عملها قاصرا ومحدودا على التدريب العسكرى . فقد كان رئيس البعثة ضابطا ليست له خلفية أو اهتمامات سياسية . بينما كانت مصر موضع انبهار الدول العربية جميعا عقب تأميم قناة السويس . ومقاومة العدوان الثلاثى . واجبار القوات المعتدية على الانسحاب بضغط حسابات سياسية ناجحة . . وكان جمال عبد الناصر قد أصبح شخصية لامعة تجذب الاهتمام واحترام الملايين من أبناء الأمة العربية . . حتى فى اليمن ، حيث كان الناس ما زالوا يعيشون حياة بعيدة عن حضارة العصر .

ولذا فانه ما أن تحققت الوحدة مع سوريا حتى بادر الامام يطلب الانضمام لها وأعلن الاتحاد بين مصر وسوريا واليمن عام ١٩٥٨ .

تطورات فى اليمن :

إقتراب مصر من اليمن حمل اليها بعض مظاهر الحضارة ، وعلى سبيل المثال فإن الضباط اليمنيين الذين دخلوا الكلية الحربية المصرية ؛ درسوا وتدربوا على الأسلحة السوفيتية التي كانت قد بدأت ترد الى القوات المسلحة المصرية بعد صفقة الأسلحة المعروفة باسم التشيكية عام ١٩٥٥ .

وتدارس هؤلاء الضباط فى شئونهم وانتدبوا أحدهم وهو (عبد الله جزيلان) ليعود الى اليمن للاطلاع على ظروفها بعد فترة دراسة طويلة فى لبنان ومصر غاب فيها عن وطنه .

وعندما ذهب جزيلان الى اليمن وجد فى الجيش اليمنى أسلحة لا يعرف عنها شيئا . ووجدهم فى اليمن لا يعرفون شيئا عن الأسلحة التى تدرب عليها فى مصر . واضطر الى الخروج هاربا من اليمن عن طريق عدن ليطلع زملاءه من الضباط على هذه الحقيقة .

ولكن الأمور تطورت . وفى عام ١٩٥٧ أعيد افتتاح المدرسة الحربية وتولى قيادتها العميد حمود الجائفي .

وانتهت الأمور الى اتفاق الامام مع السوفييت عام ١٩٥٧ على توريد أسلحة لليمن وإيفاد بعثة عسكرية سوفيتية للتدريب عليه . . ووصلت البعثة فعلا الى صنعاء . وافتتحت مدرسة للأسلحة بدأ تدريب اليمنيين فيها على أسلحة متطورة مثل الرادار والمدافع وصيانة هذه الأسلحة .

ويقول عبد الله جزيلان أنه عندما حدث النزاع المصرى السوفيتى عام ١٩٥٩ طلب حسن فكرى الحسينى إبعاد السوفييت ولكن جزيلان طالب ببقائهم ، فرفع حسن فكرى تقريراً الى البدر يتهم فيه الضباط اليمنيين بالشيوعية . ولكن البدر لم يأخذ التقرير مأخذ الجد ، لأنه كما يقول جزيلان كان يسخر من المظاهر العسكرية التى كان حسن فكرى يتظاهر بها ويريد أن يفرضها على الضباط اليمنيين . وكثيراً ما تنذر عليه فى مجالسه .

ونبتت منذ ذلك الوقت بعض الخلافات بين البعثة المصرية والضباط اليمنيين ، وصلت الى حد الصدام المكشوف بين حسن فكرى وجزيلان . عندما تكاسل صف ضابط مصرى عن تعظيم ضابط يمنى ، فأمر جزيلان ضباط الصف اليمنيين ألا يعظموا حسن فكرى قائد البعثة المصرية . وحدث عندما ذهب الامام أحمد الى روما للعلاج خلال عام ١٩٥٩ أن قامت حركة تمرد داخلى ومحاولة انقلاب قبلية تستهدف اعلان جمهورية يرأسها فعليا الشيخ حسين بن ناصر الأحمر . وكانت الحركة مساندة من الأحرار اليمنيين .

وتصادف خلال هذه الفترة أن كانت مصر قد أرسلت أعداداً من العسكريين تزيد عن العدد المقرر للبعثة ، وذلك بناء على طلب البدر الذى كانت تربطه علاقة طيبة مع القاهرة ، وذلك لحمايته فى حالة موت الامام . بذر ذلك الشبهات فى صدر الامام أحمد ، ويقال أنه احتج لدى جمال عبد الناصر أثناء مقابله له خلال عودته من روما بحراً فى قناة السويس . وعندما وصل الى الحديدة عامل ابنه البدر بقسوة وأعاد الى مصر كل الدين وصلوا فوق العدد المقرر للبعثة .

ولكن البعثة نفسها لم تبق طويلاً فى اليمن .

ويقول الدكتور عبد الرحمن البيضاوى أن الامام كان قد وصل فى هذه الفترة الى درجة من التوتر جعلته يأمر بإعدام أربعة من جنود الحرس الامامى لأنهم جرموا على المطالبة بمرتباتهم المتأخرة أو السماح لهم بالاستقالة .

وفي السادس من مارس ١٩٦١ قام الملازم عبد الله اللقية والملازم محمد بن عبد الله العلفي بمحاولة اغتيال الامام أحمد في الحديدة .
وأصيب الامام ولم تنجح المحاولة . وكان العميد عبد الله السلال قائدا لميناء الحديدة في ذلك الوقت .

وشكل الامام محكمة لمحكمة الضباط الذين كانوا مثالا للشجاعة والسرية . وصدر الحكم بالاعدام على الضابطين اللذين أعدما علنا بقطع الرأس في ميدان الشهداء .

وهكذا اقتربت الفترة الزمنية بين محاولات الانقلاب أو الاغتيال المتعددة . وتجمعها جميعا ظاهرة واحدة هي أن الذين يقومون بالتدبير والتنفيذ هم العسكريون .

والنقمة على النظام الامامي . وعلى الامام أحمد بالذات تزداد وتشتد . ويلاحظ أن عددا كبيرا من أئمة اليمن على امتداد حكم استمر ما يقرب من ١١٠٠ عام قد ماتوا قتل من جور الظلم والاستبداد . قتل ١٨ اماما منذ القرن الرابع الهجري .

كانت هذه هي الحال في اليمن .

وكانت الأوضاع العربية تتغير أيضا .

العلاقات بين مصر والسعودية تحولت الى جفاء وعداء بعد اكتشاف محاولة الملك سعود لضرب الوحدة عن طريق رشوة عبد الحميد السراج الذي أبلغ جمال عبد الناصر بذلك .

الحكم العسكري في السودان أحاطها بعزلة شديدة عن الدول العربية المتحررة ، وخاصة الجمهورية العربية المتحدة .

الخلافات بين مصر والعراق تزداد يوما بعد يوم . ولم يعد هناك أمل في لقاء جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم .

اتحاد الدول العربية (مصر - سوريا - اليمن) الذي وقع ميثاقه بعدم قيام الجمهورية العربية المتحدة في فبراير ١٩٥٨ تحول الى اتحاد شكلي ليس له مضمون حقيقي .

وبعد الشكوك التي نمت في صدر الامام أحمد أثناء وجوده في روما وحدث المحاولة الانقلابية في اليمن وإبعاد العسكريين المصريين الزائدين الى مصر ، حدث الخلاف المعروف بين العراق والكويت في يونيو ١٩٦١ عندما طالب عبد الكريم قاسم بضم الكويت الى العراق فور إعلان استقلالها باعتبارها كانت ولاية تابعة للعراق في عهد العثمانيين .

ولم يقف الامام احمد مع جمال عبد الناصر في موقفه المضاد لعبد الكريم قاسم ، بل أظهر تعاطفا مع موقف العراق .
وعندما أعلنت القوانين الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة - يوليو ١٩٦١ - زادت حساسية الامام من مصر ، وكتب قصيدة شعرية هزيلة هاجم فيها مصر والاشتراكية .

وقررت مصر سحب بعثتها العسكرية ، فعادت في سبتمبر ١٩٦١ بعد حوالى ثمانى سنوات قضتها هناك . وعاد أيضا الضباط وطلبة الكلية الحربية اليمنية الى بلادهم .

ونحلت محل البعثة المصرية بعثة عسكرية اردنية .

وهدأت الخلافات بين اليمن والسعودية .

ومع ذلك فان البعثة العسكرية السوفيتية التي كانت تشرف على مدرسة الأسلحة موجودة تواصل عملها في هدوء ، ودون محاولة للتدخل في الشؤون الداخلية الغامضة والوعرة معا .

ويقول اللواء صلاح الحديدي مدير المخابرات الحربية في ذلك الوقت ان العلاقات بين مصر واليمن كانت ضامرة تماما خلال هذه المرحلة فلم تعد هناك بعثة عسكرية ، والسفارة فيها عدد محدود من الموظفين في تعز والسفير غائب مسحوب في مصر ، وعدد المصريين في اليمن قليل .

وقد أدى التوتر بين مصر واليمن الى اشتعال رغبة اليمنيين الأحرار في مقاومة نظام الامامة الرجعي المتخلف . وبدأت تتشكل محاولة الانقلاب على استمراره للمحاولات السابقة التي بدأت في الاربعينيات وظلت تكرر بلا توقف . ولكن البيضاني استطاع أن يعقد صلة مع أنور السادات وكان رئيسا لمجلس الأمة في ذلك الوقت ، وكتب أنور السادات مذكرة الى الرئيس جمال عبد الناصر بالتوقعات المحتملة في اليمن ... فأصدر الرئيس قرارا بتكليف أنور السادات بأن يكون مسئولاً سياسياً عني هذه العملية .

واستدعى أنور السادات اليه أمين هويدي وكان وقتها قد عين سفيراً في المغرب وقابله في منزله بالهرم بحضور عبد الرحمن البيضاني ، وطلب منه أن يعد نفسه لتولي المسئولية التنفيذية لعملية اليمن ... واستمر الاجتماع حتى الثالثة بعد منتصف الليل .

ويقول أمين هويدي أنه طلب مقابلة أنور السادات في صباح اليوم التالي ليبلغه أن انشاء جهاز خاص لهذه العملية ، يعتبر نوعاً من الازدواجية حيث يتوافق لدى المخابرات العامة تنظيمات خاصة لمثل هذه العمليات .

والواقع أن علامات استنفهام كثيرة كانت تلاحق عبد الرحمن البيضاني . . . فهو رجل شديد النشاط ، كانت له صلات وثيقة بالطلبة اليمنيين في الخارج خلال الخمسينيات . . درس في مصر وتخرج في الجامعة ثم حصل على الدكتوراه من بون ، وعمل بها وزيرا مفوضا ثم نقل الى الخرطوم بعد أن اعتذر عن عدم العمل مدعيا عاما في محاكمة ثوار ١٩٥٩ ، واستدعاه الامام الى اليمن ، وعندما شعر أن يد القصاص تقترب منه هرب عام ١٩٦٠ على طائرة مصرية .

ويقول الدكتور البيضاني انه انضم لتنظيم الاشرار اليمنيين وعندما تمت الانتخابات أصبح أحمد النعمان رئيسا للاتحاد ومحمد محمود الزبيري والدكتور عبد الرحمن البيضاني نوابا للرئيس . ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهم حول استراتيجية المعارضة ، فهم كانوا قد اتفقوا على السعي لذلك الارتباط بين مصر واليمن المتمثل في الاتحاد ، ثم يتم البحث بعد ذلك في مصير الامامة .

ولكن ما أن أعلن جمال عبد الناصر حل الاتحاد مع اليمن في خطابه ببورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ حتى فرض الخلاف حول مصير الامام نفسه فورا ، وأصدر النعمان قرارا في بداية يناير ١٩٦٢ باقالة البيضاني باعتباره طائفيا خطيرا (يريد أن يعالج وباء في بلد بالقاء قنبلة ذرية عليه) .

ولكن الدكتور البيضاني لم يبتعد عن ميدان السياسة . . . كانت صلاته قد توطدت بانور السادات رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت بعد تعارفهما في بون .

وكانت له صلات قديمة ببعض الثوار أيضا داخل اليمن وخارجها .

وعندما أشيع خبر الانقسام وانتشر خبر اقالة البيضاني ، حضر وفد من حركة الاحرار اليمنيين في عدن . . . والتقى المتخاصمون لنقاش جديد مرة أخرى .

ويقول الدكتور البيضاني أنهم قد اجتمعوا في كازينو النهر بجزيرة الزمالك واتفقوا على جمع الشمل واعادة الوحدة للاتحاد اليمني والغاء قرار اقالة البيضاني ، ووقعوا جميعا وثيقة تتضمن ياسهم من النظام الامامي وضرورة اقامة نظام جمهوري .

أذيعت هذه الوثيقة من صوت العرب . . ولكن مضمونها لم ينفذ طويلا .

كانت القاهرة خلال أنور السادات قد صرحت للدكتور البيضاني بأن يذيع من صوت العرب مساء كل اثنين وخميس مقالات أوصى السادات بأن تظهر في روزاليوسف .

وكانت بداية هذا النشاط محاضرة ألهاها البيضاني في دار نقابة المحامين يوم ٢٠ يناير ١٩٦٢ . وحدثت فيها مشادة بينه وبين محمد أحمد النعمان ابن رئيس الاتحاد اليمني .

كانت مقالات البيضاني في روز اليوسف وإذاعاته في صوت العرب عوامل إثارة حقيقية ضد النظام الامامي . . . وساعد على انتشارها الراديو الترانزستور الذي كان يصل الى اليمنيين في أبعد بقاع الصحراء .
نحو الثورة :

بدأت نخيوط المقاومة تتجمع ضد الامام من المدنيين والعسكريين . .
في الداخل والخارج .

وانتهاء الحساسية من وجود علاقات طيبة بين مصر واليمن أدى الى مضاعفة السير في طريق الثورة .

وكان هناك نوع من الارتباط بين المدنيين والعسكريين . . فقد أسهم على سبيل المثال بعض التجار في التبرع بالأموال سرا والمساعدة في الامداد بالأسلحة . . . وليست هناك فروق حادة واضحة بين المدنيين والعسكريين في اليمن .

وتظاهر الطلبة في يوليو وسبتمبر ١٩٦٢ .

وخلال هذه الفترة كان كثير من العسكريين اليمنيين يصلون الى مصر ويتصلون بالقادة اليمنيين فيها ومنهم طيار الأسرة المالكة عبد الرحيم عبد الله الذي أصبح بعد الثورة سفيرا لليمن في مصر ، ومحمد قائد سيف . . . ولم يكن هناك طيارون عسكريون من اليمن في ذلك الوقت .

وكانت هناك صلة وثيقة قد بدأت بين العسكريين في مصر والقادة اليمنيين . . . كانت المخابرات الحربية في مصر قد أعلنت معسكرا لتدريب اليمنيين على الأسلحة الصغيرة ، وكان من بينهم الدكتور عبد الرحمن البيضاني كما يقول الفريق صلاح الحديدي الذي كان يتسلم الأسلحة أيضا ، ويقوم بترحيلها الى اليمن .

ولم يكن البيضاني هو حلقة الاتصال الوحيدة .

كانت هناك اتصالات أيضا بين العسكريين اليمنيين والمصريين الذي ربطتهم علاقات زمالة أثناء دراستهم في مصر .

وتدفقت الأسلحة المصرية الصغيرة سرا الى اليمن ٠٠٠ ذلك أن الامام كان يحتفظ عنده بمفاتيح مخازن الذخيرة ويترك الأسلحة جامدة في العراق حتى يأكلها الصدا وتعبث بها الفيران ٠٠٠ ويقول عبد الرحيم عبد الله طيار الاسرة المالكة الذي لعب دورا كبيرا في نقل الأسلحة أن السلاح الجوي على سبيل المثال كان مكونا من ١٠ طائرات ياك ٣٥ طائرة اليوشن صغيرة ، ولكنها جميعا غير مصرح لها بالطيران .

وظلت هذه الاتصالات سرية وفي أضيق الحدود ٠٠ لا يعرفها الا جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وصلاح نصر وصلاح الحديدي قائد المخابرات الحربية في ذلك الوقت .

وكان المشير مستولا عن المساعدات العسكرية ومناقشة تنفيذ الخطة ٠٠ وكان أنور السادات مستولا سياسيا .

وبقيت هناك علامة استفهام كبيرة تحيط بموعد الثورة ضد الامام أحمد .

ولكن القدر لحقه فتوفى يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ وخلفه ابنه الامام البدر ولي العهد .

ونتج عن هذه الوفاة المفاجئة انقسام في الرأي .

وكان البدر قد أرسل برقية الى جمال عبد الناصر ينعي فيها والده يوم ٢٠ سبتمبر ، وكانت هذه مبادرة منه تشير الى احتمال تحسن العلاقات بين الدولتين .

واشتد ضغط النعمان والزييري في اتجاه اقناع المسئولين بالسير في طريق التعاون مع البدر الذي تفاض عن قسوة الاذاعات والهجمات التي وجهت لوالده .

وأصدر جمال عبد الناصر قرارا بوقف الاذاعة والنشر ضد الامام البدر أو معه ٠٠ وبلغ ذلك الدكتور عبد الرحمن البيضاني يوم ٢١ سبتمبر .

وكان عبد الله جزيلان قائد الكلية الحربية في صنعاء قد أرسل يطلب وقف اذاعات البيضاني لأنها تهاجم الهاشميين بينما ٨٠ في المائة من ضباط الكلية وطلبتهم المؤهلين للانقلاب كانوا من أتباع هذا المذهب .

وكان أحمد النعمان ومحمد الزييري قد اجتمعا في منزل أمين هويدي بمصر الجديدة ، وكتب النعمان برقية الى البدر .

ثورة يوليو ج١ - ٨٤٩

وقع البرقية أحمد محمد النعمان ورفض التوقيع محمد محمود الزيرى .

وكان ذلك ترجيحاً للرأى القائل باحتمال اصلاح النظام الامامى .

وأسقط فى يد الدكتور البيضانى الذى استمر ثمانية شهور يكتب ويذيع مبشرا بالثورة . . ويقول انه هرع الى أنور السادات يطلب توجيه اذاعة واحدة تكون هى الأخيرة للثوار المتربصين فى اليمن ، حتى لا يتصوروا أن الأمور قد انتهت بعد برقية عبد الناصر فى تعزيزة البدر ، وبعد برقية أحمد النعمان .

واتصل أنور السادات بجمال عبد الناصر الذى صرح باذاعة واحدة تكون هى الأخيرة .

وتصادف ان كان موعد هذه الاذاعة هو يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢ .

الفصل الثانى

ثورة اليمن

(باسم الله وباسم الشعب تعلن
قيادة الجيش سقوط الملكية فى
اليمن وقيام الجمهورية العربية
اليمنية ابتداء من الساعة الخامسة
يوم ٢٦ سبتمبر) •

البيان الأول للثورة ••

وفى ذلك الوقت كانت الأمور فى اليمن تندفع فى سرعة الى مصير
جديد ••• وكانت غيبة الامام أحمد قد فرضت على الثوار وخاصة
العسكريين مسئولية خاصة •

كانت حالة الطوارئ معلنة فى اليمن قبل وفاة الامام أحمد •
وكانت الأسلحة المصرية التى وصلت اليمن تعتبر كافية للحركة
الانقلابية •

وبقى تحديد ساعة الصفر •

يقول عبد الرحيم عبد الله أن ساعة الصفر كانت قد تحددت
لتكون يوم ٢٣ يوليو حتى يعلن جمال عبد الناصر خبر الثورة فى خطبته
للجماهير ••• ولكن الدكتور البيضاى يؤكد أنه لم يتم الاتفاق على ذلك •

ثم يقول عبد الله جزيلان ان برقية وصلت من القاهرة تطلب أن تكون ساعة الصفر هي موت الامام أحمد ... وأنه قد رد على ذلك - حسب قوله - بأن ساعة الصفر لا تحدد الا مرتبطة بالظروف القائمة في اليمن .

وكان تحريك القوات العسكرية للانقلاب يعتمد على الضباط اليمنيين أكثر مما يعتمد على غيرهم ... فقد أدت الاثارة دورها كاملا وبقي التنفيذ .

كان عدد محدود من الضباط قد بدأ يعقد اجتماعات لبحث الموقف والتأهب لاحتمالات المستقبل ، دون أن يأخذ ذلك شكل تنظيم ثابت مثل الضباط الأحرار في مصر .

وكان هناك اتجاهان بين الضباط ... فريق يؤيد البدر ، وفريق يؤيد الحسن ... بينما الثوريون يتأهبون لاقامة نظام جمهوري جديد .

وقد اجتمع الضباط الحاضرون على هذا الاتجاه الثوري .. ونشط المقدم عبد الله جزيلان الذي كان مديرا لكل من الكلية الحربية ومدرسة الأسلحة ... وبدأ يقوم باتصالات مع الأسماء الكبيرة من الضباط لتحبيد هم أو ضمهم .

سافر الى الحديدة سرا خلال الليل ليتصل بالعميد حمود الجائفي الذي كان قائدا لحامية الميناء واتفق معه على الاشتراك معهم وهو اسم معروف لدى اليمنيين اذ كان في ثاني دفعة عسكرية درست في العراق وكان معروفا باطلاعه وله مركز قبلي مرموق .

واتصل أيضا بالسلال الذي كان قائدا لحرس البدر ... ووافق السلال على الاشتراك في قلب النظام الامامي .

وخلال هذه الفترة الحرجة أرسل الامام أحمد قبل أن يموت بأيام قليلة رسولا في طائرته الخاصة من تعز الى صنعاء ليبلغ البدر بأن هناك تدبرا خطيرا ضد الامامة يقوده جزيلان .

واستدعى البدر جزيلان الى قصره ، وقد أعد له كميناً لقتله ، ولكن أمكن لجزيلان خلال الحوار أن يقنع البدر بأن هناك خطرا يتهدهه شخصيا من الأمير الحسن وأحمد الشافعي بالتعاون مع الأمريكين في تعز ... وأن من خيوط الخطة المعادية له تدبير مؤامرة وهمية يتخلص فيها البدر من الضباط المخلصين له ، وكان جزيلان ومجموعة الثائرين يتظاهرون بأنهم من أنصار البدر ثم ينفردون به بعد ذلك وحده .

وعندما بلغ البدر خبر زيارة جزيلان للحديدة هرع في التاسعة صباحا ليتأكد من صحة ذلك بنفسه ٠٠٠ فوجد جزيلان في الكلية يمارس عمله مبكرا في موعده المعتاد مع نوبة صحيان ٠٠ فالرحلة تمت ليلا تحت ظروف طبيعية قاسية ٠٠ ولم يفتح البدر أحدا بشكوكه ٠٠٠ ولكن ما بذره جزيلان في نفسه من خطة مدبرة ضده كاد يصبح يقينا ٠٠٠ إذ اعتقد أن خبر الزيارة كان مكذوبا والمستهدف منه هو التخلص من الضباط المواليين له .

• وخرج البدر من الكلية الحربية مطمئنا .

وتحددت ساعة الصفر ليلة ٢٥ - ٢٦ سبتمبر بعد أن شعر الضباط أن هناك خطرا يتهدهدهم وعيونا شريرة ترصدهم .

كانت الوزارة قد اجتمعت برئاسة البدر ، وحضر القاضي محمد الشامي نائب الامام في صنعاء ومعه كشف بأسماء عدد من الضباط قال للامام أنهم يريدون الانقضاض عليه .

وهكذا أصبحت المسألة سباقا مع الزمن ٠٠٠ تماما كما حدث في حركة ٢٣ يوليو عندما أجبرت الظروف الضباط الأحرار على سرعة التنفيذ ، تجنباً لاعتقال الملك لهم .

ويقول الدكتور عبد الرحمن البيضاني أنه كان قد تلقى معلومات أيضا بخبر اكتشاف البدر للحركة فبادر بإرسال برقية الى المتصلين به يقول لهم فيها ما معناه : اما تنفيذ الخطة أو النجاة بأنفسهم من اليمن .

يقول عبد الله السلال ان البدر بعد أن تولى السلطة احتفظ بجهاز الحكم في عهد والده وخطب الجمعة قائلا أنه سيمضي على طريق والده وأجداده ٠٠٠ الأمر الذي أقنع المترددين في الثورة على الامام بأنه لم يعد أمامهم أمل في اصلاح النظام الامامي .

أبلغ عبد الله جزيلان موعد الحركة لمحمد عبد الواحد القسائم بالأعمال المصري في صنعاء ٠٠٠ وأرسل حسن العمري الخبر عن طريق اللاسلكي الى القاهرة ، فقد كان هو مسئول الاتصالات أو مدير الاشارة في اليمن .

ويقول عبد الرحمن البيضاني أن الاشارة قد وصلت من حسن العمري بتحديد ساعة الصفر ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ .

الخطة كانت تقضى بالاستيلاء على قصر البدر والاذاعة وقصر السلاح واعتقال قادة الحرس .

يقول جزيلان أنهم كانوا يشعرون أنهم مقدمون على مغامرة لا تتجاوز نسبة النجاح فيها ٥ في المائة فقط .

وبدأ التحرك في منتصف الليل ٠٠٠ ولكن الذخيرة لم تكن متوافرة ، كان هناك ٣٠ دانة مدفعية ، ٣٠ طلقة دبابات الى جانب القنابل اليدوية والأسلحة الصغيرة .

ووضعت الخطة على أساس اطلاق دانة مدفعية ودانة دبابات واحدة كل ربع ساعة أى تستمر في الضرب لمدة سبع ساعات ونصف .

أطفئت الأنوار وقطعت الكهرباء ٠٠٠ وبدأ القصف حسب الخطة الموضوعة ٠٠٠ ويقول جزيلان أن البدر دافع عن قصره دفاعا مجيدا . ولكن قصر السلاح لم يستسلم وهو القلعة التى تضم كل الأسلحة والذخيرة والبدر يتصل به تليفونيا لأن خطوط المواصلات لم تقطع ٠٠٠ وبيان الاذاعة لم يعلن .

الأخطار تتهدد الثورة في لحظاتها الأولى .

السلال لم يكن موجودا خلال الليل ٠٠٠ لم يحضر الا فى الثامنة صباحا ، ولكنه فور حضوره أدى دورا كبيرا فى نجاح الثورة .

وعبد الله السلال كان ضابطا من ضباط انقلاب ١٩٤٨ وقد اعتقل فى سجن حجة لمدة تزيد عن سبع سنوات عانى فيها من العذاب ما يسجل صفحات تنضح بالعار والتخلف ، ثم أفرج عنه بعد انقلاب ١٩٥٥ وعين رئيسا لحرس البدر .

ويقول بعض الضباط الذين شاركوا فى الحركة أو السلال قد حضر باعتباره مفوضا للبدر لمعرفة مطالب جزيلان وغيره من الضباط . ويتمادى البعض فى القول بأنه أسهم فى تهريب البدر من منزل مجاور لقصره فى ثياب امرأة .

وسواء صحت هذه المعلومات أم لم تصح ٠٠٠ فان عبد الله السلال وضع نفسه فى خدمة الثورة منذ وصوله الى الكلية الحربية ، وذلك قبل اذاعة بيان الثورة الذى تأخرت اذاعته لتردد الضابط المكلف بذلك . بدعوى أن قصر السلاح لم يسقط . مما دفع جزيلان الى الاتصال به غاضبا .

وبادر السلال بصفته قائدا لحرس البدر الى الاتصال بقصر السلاح ، وطلب من حرسه أن يستسلموا ، فوافقوا على ذلك ٠٠٠ وانهارت قلعة البدر فى صناعاء .

وأذيع البيان في الثامنة والنصف صباحا ٠٠٠ يعلن (باسم الله وباسم الشعب تعلن قيادة الجيش سقوط الملكية في اليمن وقيام الجمهورية اليمنية ابتداء من الساعة الخامسة يوم ٢٦ سبتمبر) .

واعتقل قادة الحرس الذين حاولوا اخراج المدفعية ٠٠٠ ووجد البدر طريقه في الهرب بمساعدة بعض العناصر المترددة التي اتهمها جزيلان بخيانة الثورة ، ويقول أنه ذبح أحد الشيوخ من حمدان ، لأنه نبتت مشاركته في عملية التهريب .

لم تنته الأخطار بتهريب البدر ٠٠٠ بل حاول بعض رجال القبائل الاستيلاء على صنعاء في اليوم الثالث للثورة بعد دخولها تحت ستار التهنئة .

الأخطار تهدد الانقلاب لأنه كان مفروضا أن يدعم منذ اليوم الأول بطائرات مصرية خشية قيام الطائرات السعودية أو البريطانية بهجمات مضادة على مقر القيادة في صنعاء .

وكانت القاهرة قد أعدت طائرة داكوتا في أسوان وفيها محطة إرسال وصواريخ ، على استعداد دائم للتحرك الى اليمن .

وصلت الطائرة المصرية الأولى في اليوم الثالث ، وعلى متنها محمد محمود الزبيرى والدكتور عبد الرحمن البيضاني . والضابط المصرى على عبد الخبير ٠٠ وكان يقودها قائد الجناح أحمد نوح الذى أصبح وزيرا للطيران فيما بعد .

ويقول الدكتور البيضاني ان سبب التأخير هو طلبه من عبد الناصر ٥٠٠ جندي وثلاث طائرات وخبير عسكري أثناء مقابله ليلة ٢٦ سبتمبر ٠٠ والى ان اختير الخبير العسكري في اليوم التالى وصلت الطائرة فجر يوم ٢٨ .

ويقول عبد الله جزيلان انهم قد عينوا البيضاني وزيرا للاقتصاد ، ولكنه عندما وصل وسأله عن موقف مصر من ناحية المساعدة العسكرية ، قال لهم ان شيئا لن يحضر من مصر الا اذا عين نائبا لقائد مجلس الثورة ، وأخرج من جيبه بيانا مكتوبا ومعدا للتوقيع بامضاء كل من السلال وجزيلان .

ويقول جزيلان ان هذا الأمر قد ترك في نفوسهم مرارة شديدة ولكن الرغبة في نجاح الثورة لم تدعهم يتوقفون عند هذه المشكلة المحدودة ٠٠

هذا بينما يقول البيضاني ان تعيين السلال رئيسا لمجلس قيادة الثورة قد دفع بعض أصدقائه الى اشتراط ان يكون نائبا له ولذا فقد عين نائبا لرئيس مجلس القيادة ، ونائبا للقائد العام للقوات المسلحة رغم أنه مدني لا يحمل رتبة عسكرية .

ولكن واقع الحال يشير الى أنه عين في هذه المناصب اعتقادا منهم بأن له صلة مؤثرة ونافذة مع مصر .

عدم وجود تنظيم للضباط الأحرار ، وعدم توافر حد أدنى من العلاقة التنظيمية خلق منذ اليوم الأول حساسيات ذاتية وأظهر خلافات فردية .

ومن أمثلة ذلك ما اذاعه ضابط له ميول بعثية كان موجودا في الاذاعة من تشكيلات لمجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء لم يكن الاتفاق قد تم عليها نهائيا .

والواقع اليمني المتخلف كان يفرض نفسه على طبيعة الحركة ، فلم يكن هناك انضباط يتناسب مع انقلاب عسكري ، والنجاح السريع غير المتوقع فرض على القائمين بالحركة مسئوليات عديدة متشعبة لم تترك لهم فرصة التركيز .

وهكذا تفجرت الخلافات الشخصية الممتدة من واقع قبلي وطاقفي أو غير حضاري منذ الأيام الأولى . . ولكنها لم تطف الى السطح الا بعد حين .

نجحت الثورة بحركة الضباط اليمنيين ، وتعاون الثورة المصرية ببيانها الأول الذي صدر صباح ٢٧ سبتمبر وحذرت فيه من تدخل أي قوات أجنبية . . . وبوصول طائراتها الى مطارات اليمن المغلقة .

ومع ذلك فقد حدث تدخل بريطاني في الأيام الأولى للثورة .

الجيش الخاضع للبريطانيين في عدن دخل من الجنوب واعتقل بعض الضباط الخبراء السوفييت ونقلهم الى لندن .

والحقيقة أنهم كانوا بعيدين تماما عن المشاركة في الثورة . . . بل ان عبد الله جزيلان يقول أنهم عندما حاولوا الاتصال برجال البعثة السوفيتية في مدرسة الأسلحة قوبلوا منهم بحذر شديد وموقف صارم من ناحية عدم الرغبة في التدخل في الشئون الداخلية وخاصة ان علاقتهم بالبحر لم تكن سيئة . . .

وقد أرسل السوفييت برقية بقيادة الثورة بضرورة المحافظة على

حياة الخبراء السوفييت الذين كانوا يقيمون فى منزل خلف قصر الامام
البدر .

هذا ينفى مشاركتهم الايجابية فى الثورة ، كما حاولت أجهزة الدعاية
الغربية وقتها أن تشيع .

وقد تدخلت السعودية أيضا باحتضانها للحسن الذى أعلن نفسه
اماما قبل وصول البدر هاربا من صنعاء .

ارتفعت نسبة النجاح التى قدرها المدبرون للثورة من ٥ فى المائة
الى ١٠٠ فى المائة تدريجيا يوما بعد يوم

ولكن الأخطار قد بدأت تهدد الانتصار .

وكان الموقف فى صنعاء مطمئنا من الناحية الجماهيرية ومن الناحية
العسكرية . . فقد غمر الأهالى شعور شديد بالفرح والغبطة لزوال النظام
الامامى المتخلف ، الذى عبروا عن ارادتهم ضده بمظاهرات الطلبة أثناء
وجود الامام فى روما ١٩٥٩ ، ومرة أخرى فى يوليو ، ١٨ سبتمبر ١٩٦٢ ،
حيث تظاهر الطلبة وأطلق عليهم الجيش الرصاص وتساقط عدد من
الجرحى .

وآثر الثوريون فى الجيش - كما يقول جزيلان - ألا ينتهزوا فرصة
المظاهرات للانقضاض لأن الموقف لم يكن مهيأ تماما ، هذا الى اعتقادهم
ان الدم السائل فى المظاهرات يمكن أن يزيد من ثورة الجماهير ضد
الامامة ، ويكون دافعا وحافزا على مساندة الانقلاب . . . وهو ما حدث
فعلا .

نجح الانقلاب . . . وتحققت الثورة اليمنية . . . وانتهى عهد أسرة
حميد الدين .

وكانت مصر أول دولة تعترف بالنظام الجديد ، ثم سوريا . . . من
الدول العربية .

وكان الاتحاد السوفييتى أول دولة أجنبية تعترف بالجمهورية
اليمنية .

أما العراق فقد طلب سفيرهم فى صنعاء السماح بنزول طائرات
عراقية لاجلاء المواطنين العراقيين ، وقد فسر سفيرهم لجزيلان هذا الموقف
بأنه تصور من عبد الكريم قاسم بأن الثورة تابعة لمصر . . . ولكن جزيلان
أقنعه بأنها ثورة تحررية تؤيدها مصر .

أرسل قادة الثورة اليمنية وفدا الى مصر لطلب المساعدة من جمال عبد الناصر فى الأيام الأولى للثورة ٠٠٠ ووصل أنور السادات الى اليمن فى الاسبوع الثانى من أكتوبر حيث وقع معاهدة دفاع مشترك بين مصر واليمن ، وكانت قد وصلت قبله ٣ طائرات حربية وفوات من الصاعقة المصرية تحركت من السويس يوم ٥ أكتوبر ١٩٦٢ ، وكان أفرادها يلبسون قمصانا بيضاء وبنطلونات رمادية ٠٠ وتشكلت أول قيادة مصرية فى اليمن ٠

لم يكن أمام الحركة الانقلابية فى اليمن من سبيل لدعم موقفها الا باللجوء الى ثورة يوليو وقائدها جمال عبد الناصر ٠

ولم يكن أمام جمال عبد الناصر من سبيل أيضا الا دعم هذه الحركة الثورية التى جاءت فى وقت كانت فيه القوى الامبريالية والظروف الموضوعية قد نجحت فى شق الحركة الثورية العربية بعد الخلاف مع العراق والصلال سوريا ٠

كانت فرصة أمام جمال عبد الناصر لوقف المد الرجعى فى المنطقة ٠ ومنع السعودية من السيطرة على الخليج العربى وتحطيم نظام رجعى متهالك ٠

ليس هذا فقط ، بل ان تغيير طبيعة الحكم فى اليمن وارتباطه بالنظام التقدمى فى مصر يتيح الاقتراب من حدود اليمن الجنوبية لمساعدة العناصر الثورية المناضلة ضد البريطانيين فى عدن ، ويعطى للنظم التحريرية فرصة السيطرة على طرفى البحر من الشمال والجنوب ٠

يقول حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة أن جمال عبد الناصر عندما عرض عليهم القضية قال أن هناك خوفا من تدخل السعودية ضد النظام الجديد ، وانه اذا أرسلت مصر قوات رمزية فان هذا سوف يجعلهم يفكرون مرتين قبل الاقدام على أى تحرك مضاد ٠

ويقول حسن ابراهيم ان جميع أعضاء مجلس القيادة بلا استثناء بما فيهم كمال الدين حسين قد وافقوا على مساعدة الثورة اليمنية ٠

ويؤكد زكريا محيى الدين هذه الحقيقة ، ويقول : انه لم تكن هناك مناقشة مطلقا حول ارسال القوات وانما كان هناك حديث فقط عن بعض محاذير التورط فى الحرب ٠

وقد تحدث عبد اللطيف البغدادى عن تجربته فى اليمن عندما سافر اليها قبل الثورة ٠

تبلورت المشكلة فى مساعدة الحركة الثورية من جانب مصر ،
ومساندة النظام الامامى المتخلف من جانب السعودية .

النظام التحررية التقدمية تواجه النظم الرجعية فوق ارض أكثر
الدول تخلفا .

تفجر الخلافات :

بدأت الثورة اليمنية تدافع عن نفسها .

ألغت فى أكتوبر ترخيص البنك السعودى واستولت عليه بحجة
عدم توافر سيولة نقدية .

وأنشئ أول بنك يمنى فى التاريخ برأس مال قدره عشرة ملايين
ريال تسهم فيه الحكومة بنسبة ٥١ فى المائة ، وارتفع رأس المال أثناء
فترة الاكتتاب الى ٢٠ مليون ريال نتيجة الاقبال الشديد الذى رفع سعر
السهم من عشرة ريالات الى عشرين ريالاً كما يقول الدكتور البيضاى .

وكانت ظاهرة غريبة . . . اقبال الناس على شراء الأسهم رغم الحرب
وأخطارها وتوقعاتها . . . ولكن ذلك أعطى دليلاً على تأييد الجماهير للثورة
وتطلعهم الى حياة أفضل .

وفى المجال العسكرى بدأ تشكيل الحرس الوطنى . وأقبل الناس
على التطوع فيه حتى بلغت أعدادهم ١٥٠ ألفاً ، كان مفروضاً أن يختار
منهم ٣٠.٠٠٠ يكونون نواة لجيش وطنى نظامى جديد .

ولكن تكوين الحرس الوطنى لم يستمر . . . توقف بعد ثلاثة أشهر
نتيجة الخلافات التى كانت قد بدأت تنشأ وتشتد .

كان هناك اتجاهان رئيسيان فى التفكير . . . الأول يدعو الى
الاعتماد المطلق على القوات المسلحة المصرية اقتناعاً منهم بأن هذا هو
السبيل الأفضل والأسرع لنقل اليمن الى عالم الحضارة . . . والثانى كان
يؤمن بأن المساعدة المصرية يحسن أن تقتصر على الطائرات والمدفعية
الثقيلة دون المشاة حتى لا يتورط الجنود المصريون فى معارك مفروض أن
يحاربها اليمنيون ، وخاصة ان الميزانية المصرية تتكلف كثيراً فى نفقات
الجنود وتعويضات القتلى ، وكان هذا الاتجاه هو الذى اتفق عليه الجميع
رغم الخلاف الجذرى فى مجالات أخرى كثيرة .

ويفسر عبد الله السلال ذلك بقوله : ان الاتفاق قد تم مع المصريين
أساساً على المساعدة بالطيران وقوات محدودة من الصاعقة وكان ذلك كافياً
لتأمين الثورة فى حدود طبيعة الموقف داخل اليمن .

وأوضح ان الاستعانة بالقوات المسلحة المصرية منذ البداية كانت ضرورة يستلزمها الموقف لأنه - حسب قوله - لولا مساندة جيش مصر ما كانت ثورة اليمن لتنجح قياسا بالحركات التي سبقتها .

ويؤكد ان مصر ما كانت لترسل قوات اضافية وان اليمنيين ما كانوا ليطالبوا مزيدا من القوات لو ان المشكلة حصرت في اطار الواقع اليمني ، ولكن التدخل والمساعدات الخارجية من البريطانيين والسعوديين والأردنيين هي التي دفعت البلاد الى هذه الحرب الأهلية وأدت الى تطورات غير منتظرة في الموقف .

والى جانب الاتجاهات الفكرية المتباينة كانت هناك عدة قيادات تعمل في غير تناسق ، ويوجد بينها نوع من المنافسة الخفية وذلك مثل رئاسة الجمهورية اليمنية وتجمع المعارضين للرئاسة والسفارة المصرية وقيادة القوات المسلحة وإدارة المخابرات الحربية وإدارة المخابرات مساعدة القبائل .

كان كل جهاز من هذه الأجهزة يتبنى رأيا خاصا . وينظر الى الأمور من وجهة نظر مختلفة .

صحيح ان المعلومات كانت تصب عند القيادة السياسية ، والقيادة العسكرية في القاهرة ، أى عند جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ولكن البعد عن الواقع الحي كان يعطل حل المشاكل في حينها . ولا يساعد على تذويب الفوارق ، وتحقيق تناسب وثيق .

وصحيح أيضا أن القائد العسكري في اليمن كان يعتبر مسئولاً عسكرياً وسياسياً في وقت واحد ولكن القادة الذين عينوا كانوا أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالسياسة أو الارتباط بها وكان بعضهم ممن القيت عليهم مسئولية موقف العسكريين المصريين في سوريا ، وقيل أنهم تصرفوا تصرفات انتهت الى مأساة الانفصال .

والفريق أنور القاضي الذي عين في اليمن مثلاً كان أحد الذين أمضوا سنة كاملة تقريباً بلا عمل بعد انفصال سوريا حتى عادت به الظروف الى اليمن من جديد .

ويقول الدكتور عبد الرحمن البيضاني بأنه فوجيء يوماً بأن بعض مكاتب الوزراء قد نقلت من الغرف الى ساحة القصر واستبدلت بسرير قال عنها الفريق القاضي انها أعدت للطيارين المصريين وكان التصرف في رأيه مجافياً للذوق فوق أنه يتم في قلب المكان الذي يعتبر مظهراً لسيادة الدولة .

وبعد نقاش مع الدكتور البيضاني أصر على نقل المكاتب الى الغرف خلال ٦ ساعات قبل اجتماع مجلس الوزراء .

ويقول الدكتور البيضاني انه فوجيء بحضور المشير عبد الحكيم عامر وأنور السادات في صباح اليوم التالي ٠٠٠ وقال له المشير : (ان الحكومة البريطانية أعطتنا انذارا ١٢ ساعة قبل العدوان الثلاثي ، اما أنت أعطيت الفريق القاضى انذارا بست ساعات فقط) .

وصفى الموضوع بعد مواجهة بين القاضى والبيضاني .

وينفى الفريق القاضى وقوع هذه الحادثة تماما ، وينفى أن القصر الجمهورى كانت فيه مكاتب للوزراء ٠٠٠ بل يؤكد ان مجلس الوزراء فى اليمن لم يأخذ شكل مجالس الوزراء فى الدول الأخرى .

ويروى ناتنج فى كتابه (ناصر) ان جمال عبد الناصر قال لجنون بادو السفير الأمريكى : (أنت لا تتخيل ما يحدث فى اليمن ، نصف الوزراء لا يذهبون الى مكاتبهم ، والنصف الآخر اذا ذهب لا يعرف ماذا يفعل) .

ولم يكن هذا هو الخلاف الوحيد .

لم تكد تمضى عدة أسابيع حتى أصدر الفريق أنور القاضى أمرا بانسحاب القوات المصرية من منطقة بنى هبيرة حيث كان قد قتل أحد كبار الضباط المصريين - العميد سند - الى منطقة رأس جسر العرقوب التى تبعد عنها حوالى ٣٠ كيلو ٠٠٠ وقد وضع تنفيذ هذا الأمر الحكومة اليمنية حسب قول البيضاني فى مأزق تدفق القبائل من المنطقة الى صنعاء ٠٠٠ وعندما عرض الأمر على مجلس الوزراء تقرر ارسال برقية للقاهرة تطلب محاكمة القائد المسئول عن أول انسحاب تقوم به قوة مصرية .

وحضر فى اليوم التالى مباشرة المشير عبد الحكيم عامر وأنور السادات أيضا ، حيث تبين أن البرقية قد كتبت بخط الدكتور البيضاني ، وأن أوامر الانسحاب قد صدرت من القاهرة وليس من القائد المحلى .

خلافات تتجدد ، وليس هناك من سبيل لحلها ما دام مركز اصدار القرارات بعيدا عن أرض المعركة .

ثم وصلت الخلافات الى مجلس الوزراء عندما عاد القاضى عبد الرحمن الايرياني من جولة فى البلاد العربية وكان قد أصبح وزيرا للعدل ، وأعلن للمجلس أن أحمد بن بيللا قد أبلغه أنشاء زيارته للجزائر باستعداده لارسال قوات جزائرية تحارب دفاعا عن الجمهورية ، على أن تتحمل الجمهورية العربية المتحدة نفقات التموين والدخيرة .

: وأعلن أحمد المروني وزير الاعلام بعد عودته من العراق استعداد
عبد الكريم قاسم لارسال ١٠٠٠٠ جندي عراقي بالذخيرة والسلاح
والتموين دفاعا عن الجمهورية .

ودارت مناقشة واسعة انتهى فيها الرأي الى ارسال وفد الى مصر
برئاسة الدكتور عبد الرحمن البيضاني لاطلاع مصر على هذه الأخبار
ومعرفة رأيها في الموضوع . . . وسافر الوفد فعلا يوم ١٣ يناير ١٩٦٣ .

وكان هناك اتجاه لقبول القوات العراقية أو زيادة القوات المصرية .

وقال جمال عبد الناصر للدكتور البيضاني عند مقابلته له أنه قد
أرسل كتيبتي إضافيتين فعلا .

وهكذا كانت المواقف العسكرية والتدخلات السعودية ، تشكل
ظروفا ضاغطة على مصر تجبرها على ارسال مزيد من القوات .

كانت القوات المصرية قد بلغت حتى ذلك الوقت عشرين ألف
جندي تقريبا .

ورغم أن عبد الرحمن البيضاني كان يأخذ جانب المعارضة لوصول
قوات جزائرية أو عراقية الا أنه لم يعد لليمن مرة أخرى . . لحقته برقية
من السلال الى عبد الناصر تطلب عدم عودته وابقائه في مصر بناء على
اجماع مختلف القوى اليمنية التي كانت تحيطه بالشكوك . . . ورضخ
البيضاني لذلك حتى أعلنت استقالته التي كتبها في أواخر يناير ١٩٦٣ ،
وكتب فيها خطابات الى أصدقائه يطلب منهم فيها الاحتشاد حول الجمهورية
وحول السلال .

وهكذا طويت صفحة البيضاني نائب رئيس الجمهورية ونائب
القائد العام للقوات المسلحة بعد فترة عمل لم تتجاوز ثلاثة شهور .

وكان المعروف عن البيضاني أن له علاقات طيبة مع أعضاء
السفارتين الأمريكية والانجليزية في اليمن ، وقد سمح لهما بالبقاء رغم
عدم اعترافهما بالنظام الجديد ، الأمر الذي يشكل سابقة في القانون
الدولي العام . ويبرر البيضاني ذلك بقوله انه كان محتاجا لوسيلة اتصال
مع كنيدي وماكلان .

وقد اعترفت حكومة الولايات المتحدة بالثورة اليمنية في ١٩ ديسمبر ١٩٦٢ ، وكانت ألمانيا الغربية قد اعترفت بها في ٢٢ أكتوبر ، وأوشكت السفارة البريطانية أن تعترف بعد خطوات وصلت الى حد اتفاق البيضاوي مع السفير البريطاني على صيغة الخطابات التي يتم تبادلها بعد الاعتراف . ولكن توقفت هذه الخطوة لفترة بعد استقالة البيضاوي .

وكان جمال عبد الناصر قد هاجم انجلترا في خطبته يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢ بـبور سعيد لمحاولتها التدخل في شئون اليمن .

الفصل الثالث

العسكريون المصريون في اليمن

- (ان عملية الجيش المصرى فى اليمن عملية تاريخية ٠٠٠ هي اللحظة فى مستوى التاريخ)
ميشيل عفلق
- مباحثات الوحدة ١٩ مارس ١٩٦٣
(درب العسكريون المصريون المتطوعين اليمنيين فى تعزيز استعدادات للكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطانى فى عملية سميت باسم (صلاح الدين)
- وقال عبد الفتاح اسماعيل أمين الجبهة القومية فى تقريره امام المؤتمر الخامس فى مارس ١٧٩٢
- (بعد سنة من انتصار ثورة ٢٦ سبتمبر اخلت جماهير الشعب اليمنى فى الشطر الجنوبى تفجير الانفصال المسلح ضد الاستعمار البريطانى وعملائه)
- (ان شعبنا اليمنى باجمعه لن ينسى مدى التاريخ بان ثورته لم تكن لتقف على قدميها اسبوعا واحدا لولا الزعيم الخالد جمال عبد الناصر والشعب المصرى الشقيق)
على ناصر محمد
- عضو المكتب السياسى للجبهة القومية القاهرة - ٢٨ سبتمبر ١٧٩١

كان تدفق القوات العسكرية المصرية مرتبطا بعدة عوامل لم تكن محسوبة او مدروسة .

كانت قيادة ثورة سبتمبر اليمنية لا تجد لها نصيرا الا فى جمال عبد الناصر وثورة يوليو ٠٠٠ وكان جمال عبد الناصر يجد فى هذه الثورة

ثورة يوليو ج ١ - ٨٦٥

الوليدة فرصة لاذكاء الروح الثورة والقومية العربية ، والتغلب على الانحسار الذى نتج عن الانفصال ، ولكن اليمن كانت أرضا غريبة تماما عن المصريين . . . بل غريبة أيضا عن اليمنيين .

لم تكن هناك خرائط طبوغرافية لطبيعة الأرض . . . ولم تكن هناك معلومات يمكن الاسترشاد بها فى حركه القوات . . . ولم تكن هناك مطارات ولا طرق .

والقوات الأولى التى أرسلت الى اليمن كانت من قوات المظلات والصاعقة ، واستقرت فى صنعاء العاصمة .

ولم يكن مفروضا ولا محسوبا أن تستمر القوات المصرية فى التدفق الى اليمن . . بل ان بعض التقارير المصرية التى وصلت من السفارة قد أشارت الى أنه يمكن تأمين الثورة بعدد محدود من الوحدات المقاتلة .

ولكن قدرة بعض قادة الثورة اليمنية فى السيطرة على اليمن كانت محدودة ، ورغبتهم فى الاعتماد على المصريين كانت بلا حدود . . . والأصوات التى نادت بتعاون خاص من بعض الأسلحة المصرية مع استشارة همة اليمنيين تلاحشت أمام الرغبة الجارفة فى الاعتماد على القوات المسلحة المصرية ، أكبر قوة ضاربة فى الوطن العربى .

وقد فسر جمال عبد الناصر للجماهير فى خطابه يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢ حقائق هذا التدفق ، ولغله كان حريصا على مشاركة الشعب معه فى التعرف على طبيعة الأمور .

قال جمال عبد الناصر (يوم ٥ أكتوبر كان لنا مائة صف ضابط وعسكري بس الى بعثناهم ، يوم ٩ أكتوبر بقوا ٥٠٠ ، يوم ١٦ أكتوبر بقوا ألفين ، يوم ١٠ أكتوبر بعثنا أول قوة من سلاح الطيران ٥٠ طيارين ، وقعدنا تقريبا لغاية آخر أكتوبر بنشتغل ومعانا الألفين وهى القوة الى شالوا جزء كبير من المارك) .

وفى هذا الخطاب التاريخى الكبير تحدث جمال عبد الناصر عن خسائر قواتنا فحدها حتى موعد الخطبة بأنها ٢١ ضابطا ، ١١٥ جنديا (كل واحد منهم جزمته أشرف من تاج الملك سعود والملك حسين) على حد تعبيره .

وعندما أوفد اللواء أنور القاضى الى اليمن لم يصدر أمر بتعيينه قائدا للقوات المصرية . . . وانما أوفد للتحقيق فى مشكلة ضياع وحدة من قوات المظلات انسقطت فى صرواح ثم اختفى أثرها تماما واستشهد قائدها الملازم نبيل الوقاد . وكان ذلك بصفته نائبا لرئيس هيئة العمليات الحربية .

وحيث قرر تعيينه قائدا للقوات أثناء زيارة للبشير عامر . . .
وكانت هذه هي بداية تثبيت الوجود العسكري المصري بناء على الحاح
السيلا .

ويقول الفريق القاضي أنه وجد نفسه في فراغ كبير . . . المعلومات
ناقصة والنخراط غير موجودة ومعرفته هو وقادته باليمن معدومة والخطوة
الاستراتيجية غير واضحة ، وتدريب القوات على حرب الجبال لم يكن
واردا .

والغريب أن القيادة المصرية لم تستعن بمعلومات وخبرة قادة البعثات
العسكرية المصرية السابقين في اليمن . . . فعندما وصلت أخبار الثورة
عرض كمال أبو الفتوح الذي كان قد أصبح محافظا للقلوبية خدماته ،
ولكن أحد لم يتصل به رغم أنه أمضى في اليمن ثلاث سنوات في بداية
ثورة يوليو .

ويقول الفريق القاضي أن المرحلة الأولى كانت تتمثل في استقرار
القوات في صنعاء وحمايتها مع مثلث يشملها هي وتعز والحديدة ، ولكن
كل ما هو خارج هذا المثلث كانوا لا يعرفون عنه شيئا . . . تسيطر عليه
القبائل ولا يدرك أحد مدى تأييدها للجمهورية أو معاداتها لها .

ويقول أيضا أنه قد وضع خطته على أساس تأمين ربوع اليمن
لثورة ، وأنه بدأ ينفذ خطته عسكريا بالتعاون مع بعض قادة انقبائل
عبد الله الأحمر وسمان أبو لحوم وغيرهما .

وتطلب تنفيذ هذه الخطة التي صدقت عليها القيادة في مصر ، والتي
كان تنفيذها يعتبر ضرورة هامة لحماية الثورة بسبب تقاعس اليمنيين
أنفسهم عن أداء دورهم الرئيسي في تأمين ثورتهم الى استدعاء وحدات
مقاتلة مصرية تزايد عددها تدريجيا .

ولم يكن من اليسير وقف هذا التدفق بعد انطلاق القوات في
الجبال خارج المدن . . . وهو الخطأ الذي انزلت اليه القيادة العسكرية
دون تفكير عميق .

ويقول الفريق القاضي ان معاناته الرئيسية لم تكن في المعركة
ذاتها ، بل كانت في معرفة العدو من الصديق . . . فالامامة كانت مازالت
لها رهبة في نفوس اليمنيين حيث يسود التخلف والامية والخضوع الأعمى
لبعض المظاهر الدينية التي تفرض رهبة وقدسيتها خاصة على الامامة بصفته
أميرا للمؤمنين .

ويعلق الفريق القاضى على الحادث الذى أشار اليه الدكتور البيضانى عن انسحاب القوات المصرية لأول مرة من منطقة بنى هبيرة بعد مصرع العميد سند ، ويقول أن ذلك كان نتيجة لاشتراك بعض أهالى مدينة (البيضاء) التى ينتمى اليها عبد الرحمن البيضانى فى عملية اغتيال بعض الجنود المصريين .

ولكن هذا لم يكن يعنى فى مضمونه الحقيقى سيطرة كاملة فعلية للبيضانى ولم يعد يطلع أحدا على خطط اقوات المصرية .

ومع ذلك يقول أن المرحلة الأولى قد انتهت فى مايو ١٩٦٣ بوصول القوات المصرية الى الحدود الشمالية والشرقية وسيطرتها على اليمن بصفة عامة .

ويقول أنه اتخذ بعد ذلك جانب الحذر المطلق من الدكتور عبد الرحمن على اليمن . . . لأنها بلد ذات طبيعة جغرافية خاصة . . . ولأن القبائل وجدت فى وجود القوات المسلحة المصرية مصدرا للرزق

كان مشايخ القبائل يحصلون على الأموال والأسلحة من القوات المصرية بهدف مساعدتهم . . . ولكن معظمهم كان يتعامل على وجهين . . إذا اتاحت له فرصة أخذ أموال من الملكيين أخذ وغير موقفه . . . ثم يعود مرة أخرى الى المصريين ويأخذ منهم ليغير موقفه مرة ثانية .

وهكذا أصبح وجود القوات المصرية محل تأييد وحرص من بعض قادة الثورة المتقاعسين عن أداء دورهم الطبيعى فى السيطرة على الجماهير . وأصبح محل حرص القبائل أيضا باعتباره مصدر رزق وفير لها . . . وقد بلغت ميزانية شئون القبائل ما يقرب من ٦٠ مليون جنيه استرلينى .

وعندما انتهت هذه المرحلة الأولى سحبت مصر قواتها فى مايو ١٩٦٣ من اليمن لأول مرة . . . وأعدت لأبنائها العائدين استقبالا حافلا انتظرهم فيه المشير عبد الحكيم عامر فى مدينة السويس وانتظرهم جمال عبد الناصر وضيافته فى ذلك الوقت أحمد بن بللا فى محطة القاهرة ، وحضر استمع أيضا لهم فى ميدان عابدين . . . وحصل اللواء أنور القاضى على رتبة الفريق .

كانت هذه المرحلة من سبتمبر ١٩٦٢ الى مايو ١٩٦٣ من أقصى المراحل على الجنود المصريين ، فلم يكن مصرحا لأحد منهم بمضادة اليمن مطلقا فى أجازات ، ويقول الفريق القاضى أنهم لم يكونوا يحصلون مطلقا على أية علاوة فوق المرتبات التى كانت تصرف لأهلهم فى مصر ، بينما يحصلون فى اليمن على الأكل والشرب والسجاير والرعاية الصحية

والاجتماعية ... ولم يكن هناك جندي يعرف شكل الريال اليمني - على حد تعبير الفريق القاضي .

ولكن الوصول للحدود الشمالية والشرقية وانتهاء هذه المرحلة لم يؤمن بالصورة المرضية .

وكانت عودة بعض الوحدات الى مصر بداية مرحلة جديدة أصبح مصرحا فيها للجنود بالعودة الى مصر في اجازات لمدة شهرين كل سنتين ... وكانت خدمة الجنود تتم في دائرة بين سيناء واليمن ، ثم الاجازة والعودة الى سيناء من جديد وهكذا .

وتقرر أيضا صرف علاوات اضافية للجنود والضباط حيث تميزت هذه المرحلة التي امتدت من مايو الى نوفمبر ١٩٦٣ بواجب تطهير الجيوب المعادية التي كانت تظهر وتختفي تبعا للتمويل .

ويقول الفريق القاضي ان مهمة التطهير كانت تستهدف تثبيت الثورة نهائيا فوق أرض اليمن ..

ويقول أيضا أنه اعتبر بتحقيقه هذا الهدف أن مهمة الجيش المصري قد انتهت في نوفمبر ١٩٦٣ ، وأن ما تم من عمليات عسكرية بعد ذلك يعتبر من وجهة نظره عبئا ثقيلا تحمله الجنود المصريون في صبر شديد ولكنه لم ينفذ عمليا ما قال انه كان عقيدته .

ويقول ان القوات اليمنية التي دربت في مصر وكانت نواة لجيش اليمن الحديث لا تؤدي الدور المطلوب منها اذا عادت ... ويضرب مثلا لذلك بمنطقة (الجوف) المحدودة بالربع الخالي وحضرموت والتي قتل فيها كثير من المصريين بينما لم تشترك القوات اليمنية في عملية التطهير حيث القبائل هناك شديدة المراس .

وكان موقف القادة اليمنيين خلال هاتين المرحلتين غير مستقر تماما .
عبد الله جزيلان العنصر الرئيسي في الثورة كان يتردد كثيرا على مصر ..

وكان عبد الله جزيلان مثاليا في تصرفاته ... زاهدا في المناصب لاتدفعه حوافز السلطة للمشاركة في لعبة السياسة ... وهذا في الوقت الذي ظهر فيه بعض العسكريين اليمنيين وشاركوا في المعركة الدائرة على أرضهم مثل حسن العمري الذي يقول الفريق أنور القاضي أنه حارب بجانب المصريين وساعدهم عسكريا .

وقد لاحقت الشائعات عبد الله جزيلان لانه كان من انصار التركيز على استشارة همم اليمنيين لمساندة الجمهورية : والاقتصار على مساعدات

• مصرية محدودة. ٠٠٠ فقل عنه أنه (قاسم اليمن) تشبيهاً بعبد الكريم قاسم الذى أطلق عليه جمال عبد الناصر اسم (قاسم العراق) .

ولكن موقف جزيلاى بالتاكيد لم يكن فى البداية متناقضاً مع موقف القوات المصرية ولا مع السلال ٠٠٠ وانما كان (يحرى) اذا صبح استخدام الكلمة كلما واجه أمراً لا يرضيه .

والواقع أن القيادة المصرية كانت تتصرف بمبادرتها الخاصة ورؤيتها الذاتية ٠٠٠ ولكنها فى نفس الوقت كانت تبذل جهداً بالغاً فى تنظيم وتدريب وتسليح القوات اليمينية المسلحة على أساس عصرى ٠٠ الأمر الذى جعل هذه القوات السند الحقيقى لجمهورية اليمن رغم كل ما مر عليها من تقلبات بعد ذلك .

ويمكن القول أنه مع نهاية عام ١٩٦٣ كانت القوات المسلحة المصرية قد قامت بدورها الفعال فى تثبيت الجمهورية اليمنية وتركت على أرضها ألوف الشهداء الذين قضوا فى سبيل قضية الحرية والتقدم .

وكان عام ١٩٦٤ الذى وصل فيه الفريق عبد المحسن مرتجى ليحل محل الفريق أنور القاضى بداية مرحلة جديدة هى مرحلة التعمير ونشر مبادئ الثورة .

ولم يكن جمال عبد الناصر راغباً فى دفع القوات المصرية الى اليمن ، بل أنه كان حريصاً على ألا يتحول تأمين الثورة الى نزيف يستنزف جهد مصر الاقتصادى .

أذكر أن جمال عبد الناصر قال لى أثناء مقابلة معه بعد عنوان ١٩٦٧ (لقد أرسلت سرية الى اليمن واضطرت الى تعزيزها بسبعين ألف جندي) .

كانت حركة القوات المسلحة المصرية الى اليمن مرتبطة بمحاولات الملكيين المؤيدين من السعودية للانقضاض على الثورة والجمهورية ، واستنجد القادة اليمينيين بجمال عبد الناصر ، الذى لم يتردد فى اللجوء الى أى سبيل يهدى الحالة فى اليمن ويجعلها تستقر ٠٠٠ بما فى ذلك الاتصال بحكومة الولايات المتحدة .

ولم تكن العلاقات مع الولايات المتحدة سيئة فى بداية الحملة ٠٠٠ بل ان أنطونى ناتنج فى كتابه (ناصر) يقول ان جمال عبد الناصر قد طلب من السفير الأمريكى نجون بادو أية ملفات عن اليمن ، ولم يجد السفير إلا ملفاً قديماً من السفارة الأمريكية فى صنعاء .

وكان ظهور البدر فى السعودية لمحاربة الحكومة الجمهورية بداية
لحرب أهلية ، تهدد النظام الوليد الناشئ .

ويقول عبد الله السلال انه لم يكن ممكنا لقوات الثورة وحدها أن
تنتصر نهائيا على القبائل الموالية للبدر والسعودية .

وأنه كان يؤمن بضرورة الاستعانة المباشرة بقوات مسلحة مصرية .
ويؤكد أيضا أنه لولا التدخل الخارجى من السعودية لأمكن تسوية
الموقف داخل اليمن بقوات محلية .

ولكن السعودية كانت قد اختارت الطريق .

وقد أخذ بعض الضباط الوطنيين فى الجيش السعودى موقفا ايجابيا
ضد العدوان على الحركة الثورية فى اليمن ، فقد هرب ثلاثة من الطيارين
السعوديين بطائراتهم الى مصر طالبين حق اللجوء السياسى فى ٢ أكتوبر
١٩٦٢ ، ومعهم صناديق أمريكية محملة بالسلاح والذخيرة .

ويقول محمد حسنين هيكل أن جمال عبد الناصر قد احتج لدى السفير
الأمريكى قائلا (ان هذه ليست بالطريقة السلمية للمساعدة وان هذا
النوع من المساعدات ينطوى على تقديم الموت على الصداقة) .

وأصدرت الحكومة السعودية أوامرها بعدم طيران القوات الجوية
السعودية ، وخاصة أنه هرب الى مصر أيضا بعد أسبوع واحد ثلاث
طائرات أردنية كانت مرابطة فى جدة ومعها قائد سلاح الجو الملكى
الأردنى .

ولكن السعوديين شجعوا القوات والقبائل الأمامية لاحتلال سبأ
وصعدة فى الشمال وأصبحت تطرق أبواب صنعاء . . . ولم يعد هناك
من أمل لانقاذ الموقف الا بارسال مزيد من الوحدات المحاربة المصرية .

ويقول أنه لم يكن فى خطة المصريين استفزاز السعوديين .

ويقول البيضاوى أن عبد الناصر قد أوصاه قبل سفره بأن يتجنب
اثارة الخلافات المصرية السعودية .

وخلال هذه الفترة كانت هناك رسائل متبادلة بين جمال عبد الناصر
ووجون كيندى الذى كتب رسالة يوم ١٧ نوفمبر ١٩٦٢ الى عبد الناصر
وكتب منها صورتين الى الملك حسين والأمير فيصل كما يقول محمد حسنين
هيكل فى كتابه :

واقترح كيندى العناصر الأساسية الآتية :

- ١ - الاجلاء المرحلى والسريع للقوات الأجنبية عن اليمن .
- ٢ - انتهاء العون الخارجى للملكيين .
- ٣ - الاجلاء المرحلى والسريع للقوات التى أدخلت بعد الثورة فى اليمن ، الى منطقة الحدود السعودية اليمنية .

واقترح أن تصدر الجمهورية العربية اليمنية المتحدة بيانا تعلن فيه استعدادها للقيام بفك اشتباكها على أساس المقابلة بالمثل اذا سحبت القوات السعودية والأردنية من الحدود واذا أوقف العون السعودى والأردنى من الملكيين اليمنيين .

وقد رد عليه جمال عبد الناصر فى نفس اليوم بخطاب جاء فيه أنه يخرج بالخلافات العربية عن نطاقها المحلى لأول مرة . ويشير الى الطائرات الأمريكية التى هربت الى مصر بطيارىها السعوديين ومعها أسلحة وذخائر أمريكية الصنع .

ويقول بالتحديد (ومن ثم كانت الاستجابة الضرورية لطلب حكومة الجمهورية العربية اليمنية ، بوضع بعض قواتنا تحت تصرفها لتشارك معها فى الدفاع ضد الهجمات العنيفة التى تتعرض لها حدودها الشمالية فى منطقة صعدة فى ذلك الوقت والتى اتخذت من منطقة نجران فى السعودية قاعدة لها) .

ويؤكد جمال عبد الناصر فى خطابه انه يمكن فرض انقلاب على شعب آخر من الخارج ، ولكن لا يمكن فرض الثورة لأنها طاقة داخلية تفجرها الشعوب فى أعماقها .

وكان السفير الأمريكى فى مصر بمشاعره مع ثورة اليمن ، وقد قال لجزيلان فى شهر ديسمبر ١٩٦٢ أن أمريكا سوف تعترف بثورتهم وأن فيصل سوف يخلف سعود . . . وكان ذلك ردا على تغطيته لموقف أمريكا من الثورة .

وما لبثت حكومة الولايات المتحدة أن اعترفت بجمهورية اليمن ، بينما رفضت بريطانيا الاعتراف ، وذلك لأن ثورة اليمن كانت فى أبعادها الحقيقية تهدد الاحتلال البريطانى فى عدن ، كما تهدد النظام الرسمى فى السعودية . . . بينما كانت الولايات المتحدة تحاول تثبيت أقدامها فى المنطقة .

واستمرت المراسلات بين كيندى وعبد الناصر حول ثورة اليمن مدة أطول من عام - حسب ما كتب هيكلم فى كتابه - ووصل خلال هذه الفترة الى القاهرة السفير ايلسورث بنكر مندوبا عن كيندى يسعو الى السلام بينما كان هناك ضابط مخابرات أمريكى سابق اسمه (روبرت كورم) يرتب ويقود ما عرف باسم (حرب كورم) التى كان يقود فيها عددا من الجنود المرتزقة لصالح السعوديين والملكيين .

ترك جمال عبد الناصر للرئيس كيندى فرصة تنفيذ خطته بفك الاشتباك ، مع حذره من وقف المعونة العسكرية للثورة اليمنية حتى لا تسقط فريسة التدخل الخارجى . . .

وقد استجاب الى رجاء السفير الأمريكى جون بادو بعدم مهاجمة الأراضى السعودية خاصة أثناء عمل لجنتى الزورت بنكر ورالف بانث منلوب الأمم المتحدة الذى فرضته بعد عرض القضية عليها فى مارس ١٩٦٣ .

ولكن الاطمئنان لم يستقر أبدا فى قلب عبد الناصر من السياسة الأمريكية ، التى أمدت اسرائيل فى ذلك الوقت - ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣ بصواريخ الهوك ، واستخدموا فى ذلك خدعة سياسية اذ طلب السفير الأمريكى جون بادو مقابلته وأبلغه بالصفقة قبل اعلانها ، وعندما أعلنت واحتجت مصر قالت أبواق الدعاية الأمريكية انه لا حق لعبد الناصر فى أن يحتج مادام قد استشير فى أمرها .

وزادت الشكوك فى قلب عبد الناصر عندما طلب منه كيندى التفتيش على المفاعل النووى المقدم لمصر من الاتحاد السوفىيتى ، ورفضت مصر ذلك .

وطويت صفحة الاتصالات الشخصية حول القضية اليمنية بين مصر وأمريكا باغتيال جون كيندى ليلة ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ . . . وبعد أن كان يوثانت قد أعلن فى سبتمبر ١٩٦٣ عجز هيئة الأمم المتحدة عن تقديم حل عملى للمشكلة .

وكان هذا هو الشهر الذى انتهت فيه القوات المصرية من تنفيذ واجبها كما يقول الفريق القاضى وسحبت عددا آخر من القوات الى مصر .

مواقف عربية متنافرة :

كان الأمير فيصل شديد العناد فى موقفه . . . وكان صاحب نفوذ متزايد فى المملكة .

عندما قررت جامعة الدول العربية ارسال بعثة خاصة في أكتوبر ١٩٦٢ لمقابلة الملكيين ، عجزت عن مقابلتهم .

وعندما أرسل يوثانت مندوباً آخر من هيئة الأمم في محاولة أخيرة لحل المشكلة في ديسمبر ١٩٦٣ رفض الأمير فيصل مقابلته .

كان جمال عبد الناصر على استعداد دائماً لفض الاشتباك في اليمن وإعادة القوات المصرية من هناك ، إذا ضمن تماماً عدم وجود احتمال تدخل خارجي ضد الثورة اليمنية . . . ولكن الأمير فيصل لم يعطه الفرصة أبداً بتدخله المستمر لمساعدة الملكيين بالأموال والأسلحة والقواعد .

وكان جمال عبد الناصر مدركاً أنه ينجذب الى ساحة المعركة بأكثر من توقعاته ، ولكنه لم يكن يملك حيلة أخرى لمساندة الثورة اليمنية . . . والسلال كان حريصاً على شدة مصر الى اليمن كما ذكرنا ادراكاً منه للأخطار القبلية والرجعية التي تهدد محاولته نقل اليمن الى حضارة القرن العشرين .

وكان موقف مصر قد طرأ عليه تحسن ملحوظ بعد نجاح ثورة فبراير ١٩٦٣ في العراق ومارس ١٩٦٣ في سوريا وبداه محادثات الوحدة الثلاثية في القاهرة التي كانت في واقعها تعبيراً عن ارادة الجماهير العربية .

أثناء محادثات الوحدة قلب ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث الاشتراكي في جلسة ١٩ مارس ١٩٦٣ بعد أربعة شهور من بدء الوساطة الأمريكية لحل المشكلة اليمنية (الحقيقية) بامسيادة الرئيس ان عملية الجيش المصري في اليمن عملية تاريخية . . . هي اللحظة في مستوى التاريخ) .

وقال له جمال عبد الناصر معقبا لا ان رالف بانس قال انها عملية إنسانية . . . أنا لمست ذلك بعد ما رحلت هناك ولقيتها متأخرة عن أي بلد في أفريقيا) . . . وكان رالف بانس قد غادر مصر في طريق عودته من اليمن قبلها بأيام . وكان التناقض بين مصر والسعودية يظهر في أشكال مختلفة .

السعودية تستضيف بقايا الإخوان المسلمين ، وبعض المصريين المهاجرين المتعاونين مع وكالات المخابرات الغربية . . .

ومصر تستضيف الأمير طلال بن عبد العزيز الذي كان يطالب بحد أدنى من الديمقراطية في السعودية ، وذلك بعد الطيارين اللاجئين الى مصر والذين وصلوا الى اليمن واستقبلهم السلال في المطار يوم ١٩ نوفمبر ١٩٦٢ .

وتصادف في ذلك الوقت وقوع تحالف بين المغرب والجزائر حول الحدود في الصحراء ، وأرسل أحمد بن بيتلا يطلب المساعدة من جمال عبد الناصر ، الذي بادر بإرسال كتيبة من المدرعات الثقيلة وصلت إليه في الوقت المناسب .

وهكذا كانت القوات المسلحة المصرية منتشرة بين الجزائر واليمن وسيناء في وقت واحد .

وكانت السعودية قد أعلنت رفضها قبول المحمل وكسوة الكعبة وهو تقليد مصري قديم محاولة بذلك إثارة المشاعر الدينية ضد جمال عبد الناصر

وكان صوت العرب في هذه الفترة يؤدي دوره المعروف في استشارة الجماهير ضد نظام الحكم السعودي والأردني خاصة بعد لقاء الملك حسين والأمير فيصل في الطائف أثناء اجتماعات شتورا ، وما قيل عن اتفاقهما على تكوين قيادة مشتركة ، وقد وزعت القوات المصرية ما يقرب من ١٠٠٠ راديو جهاز راديو ترانزستور على رجال القبائل وكان هذا الجهاز الصغير قد لعب دورا كبيرا في تهيئة الأذهان للثورة ، وأصبح مطلوباً منه أن يسهم في تأمينها عن طريق اقتناع الناس بما يسمعه من سيئات الحكم الملكي في صوت العرب كان للدعاية دور مثل دور القوات المسلحة .

وكانت بداية عتكم جونسون في الولايات المتحدة تعبر عن تغيير في علاقات مصر ، فقد توقفت المراسلات التي كانت تتم مع كينيدي . . واتخذ جونسون موقفا أكثر صراحة في تأييد السعودية .

وعندما أهل عام ١٩٦٤ كانت اليمن تدخل مرحلة جديدة سياسيا وعسكريا واجتماعيا .

معالم جديدة في طريق الثورة اليمنية :

قال الفريق عبد المحسن مرتجى ان عام ١٩٦٤ قد تميز بالبداية في مرحلة التعمير والتطور الاجتماعي بعد استقرار الوضع العسكري نسبيا .

وكانت معالم الحياة العصرية قد بدأت تلخل اليمن . . . في بداية عام ١٩٦٣ صدر أول قانون للتجنيد والخدمة العسكرية والوطنية ، ونص على أن الخدمة العسكرية شرف لكل يمني من الذكور ابتداء من سن الثامنة عشرة حتى الثلاثين . . . وعرف الجيش اليمني تنظيم الأسلحة لأول مرة في تاريخه .

وصدر دستور مؤقت لليمن في أغسطس ١٩٦٣ تنص مادته الأولى على أن (اليمن دولة إسلامية عربية مستقلة ذات سيادة وهي جمهورية ديموقراطية والشعب اليمني جزء من الأمة العربية) . وتنص مادته التاسعة على أن (الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أنواعها ووظيفتها الاجتماعية) .

وقد صدر الدستور بعد ذلك في يوليو ١٩٦٤ ونص على أن تكون السلطة التشريعية مشكلة من مجلس شورى يختار أعضاؤه ومدته ٣ سنوات من أول اجتماع له وهو الذي يرشح رئيس الجمهورية بتوقيع ثلث الأعضاء ، ويتم الانتخاب بأغلبية الثلثين .

وكان اعلان الثورة عن الغاء الرق والفوارق القبلية والدينية والمساواة بين الطوائف والغاء التفرقة بين الزيود والشوافع ومنع الرق والاستعباد والرهائن ٠٠٠ كان هذا الاعلان خطوة تقدمية كبيرة .

وخلال عام ١٩٦٤ وضعت خطة كبيرة لنشر المدارس والتعليم وتعبيد الطرق والرعاية الصحية ٠٠ وكان الناس قد شاهدوا السينما لأول مرة في حياتهم . ويذكر أن الجماهير قد تظاهرت ضد أول عرض سينمائي باعتبار أن ذلك خارج على الدين .

وكان الفريق عبد المحسن مرتجى القائد الجديد الذي أشرف على هذه التطورات مقتنعا بأن أخطر قرار كان ارسال قواتنا في كل أنحاء اليمن . لأن ذلك كان يدفعها الى التورط في معارك غير متكافئة بين قوات نظامية دربت على تكتيكات الحرب التصادية وبين قوات قليلة بدائية تستقر في قمم الجبال وتسيطر على دروبها ، وتختفي في الكهوف والحفر من قصف الطائرات .

كل القادة يقولون بذلك ولكنهم في الحقيقة يتحملون مسئوليته الفعلية .

ورغم وصول القوات المصرية الى حدود اليمن الشمالية والشرقية . ورغم السيطرة الشكلية العامة على اليمن ٠٠٠ فان الجيوب والقبائل المعادية ظلت عاملا مؤرقا للقوات المسلحة المصرية ٠٠٠ ولكن بدرجة أقل . وقد ثبت اسهام بعض المرتزقة من الاوربيين الذين سبق لهم أن حاربوا في كاتانجا بالكونغو - تحت علم الملكيين .

ويقول الفريق مرتجى أنه كتب تقريراً للقيادة في القاهرة يقول فيه أن مشكلة اليمن لن تحل عسكريا وانما سياسيا .

ووجد هذا التقرير استجابة من عبد الناصر الذى كان أكثر الناس إدراكا لخطورة النزيف المستمر للقوات المسلحة ٠٠٠ التى كانت قد بدأت تعامل معاملة أخرى مختلفة عن الشهور الأولى ٠٠٠ زادت المرتبات والعلاوات ٠٠٠ وقلت العمليات الحربية ٠٠٠ واستكانت معظم الوحدات فى المعسكرات بلا تدريب ٠٠٠ وأصبح الضباط يرغبون فى الذهاب الى اليمن للفوائد المادية التى يحصلون عليها .

وتطورت معاملة الضباط الى حد احضار الطعام لقياداتهم الكبيرة أحيانا من محلات جروبى بالقاهرة ٠٠٠ بينما عامة الجنود تحت ضغط ظروف شديدة القسوة .

وكان مؤتمر القمة الأول الذى عقد فى القاهرة فى ٢٣ يناير ١٩٦٤ قد أخذ توصية بتصفية الجو بين مصر والسعودية ، بعد أن كانت العلاقات قد اقتربت بين القاهرة وعمان قبل المؤتمر ، ولكن مضت الشهور دون أخذ خطوات ايجابية فى هذا السبيل .

وقام جمال عبد الناصر بزيارته الأولى لليمن بعد ثلاثة شهور من انعقاد المؤتمر فى ٢٣ ابريل ١٩٦٤ وصحبه فى هذه الزيارة المشير عامر وذكريا محيى الدين وأنور السادات .

ويقول ذكريا محيى الدين أنه لاحظ أهمية الدور الذى تلعبه القوات المسلحة المصرية فى تأمين الثورة اليمنية ، بما ترك انطبعا عنده بأن انسحاب القوات دفعة واحدة يؤدى الى انهيار الجمهورية .

وكانت علاقاته القاهرة مع بغداد قد وصلت الى حد اعلان الوحدة فى ١٦ مايو ١٩٦٤ وتعيين ثلاثة وزراء مصريين كوزراء وحدة (شعراوى جمعة وعلى السيد وكمال الحناوى) .

الهدوء يسود العلاقات العربية بعد مؤتمر القمة ٠٠٠ وتكوين القيادة العربية المشتركة يغير طبيعة العلاقات بين مصر والأردن أيضا ٠٠ والملك حسين يبلغ المشير عبد الحكيم عامر أثناء زيارته لعمان فى شهر يوليو ١٩٦٤ لمهمة عسكرية بأنه سوف يسحب مساعدته للملكيين ، وكان ذلك عقب تصريح أصدرته الحكومة البريطانية فى نفس الشهر تعلن فيه أن اليمن الجنوبية سوف تحصل على استقلالها ليس متأخرا عن عام ١٩٦٨ ٠٠٠ وجمال عبد الناصر يذهب الى تونس لمشاركة بورقيبة فى احتفالات جلاء آخر جندي فرنسي عن بنزرت .

وبدأ الموقف أمام السعودية يتغير .

كانت هناك خلافات داخلية لا تغلبها السرية المطلقة بين الملك سعود وولي العهد الأمير فيصل ... وقد احتدت هذه الخلافات بينهما إلى درجة كبيرة ، ولعب فيها الأمير فيصل دوره بمهارة سياسية المتمرس على الاحتكاك بالمجالات الدولية ، صاحب العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة .

وقدر الأمير فيصل ضعف السعودية بعد انسحاب الأردن من قضية اليمن ، وعجز الملكيين عن تحقيق انتصار كامل على الجمهوريين ، واستجاب في نفس الوقت إلى روح مؤتمر القمة التي كانت تتعارض مع إرادة الملك سعود ، فأرسل رسالة إلى عبد الناصر في شهر سبتمبر ١٩٦٤ يبدى فيها استعدادة لمناقشة وقف إطلاق النار ...

كان الملك حسين قد قابل جمال عبد الناصر بالاسكندرية في زيارة خاصة خلال أغسطس ١٩٦٤ سبقت مؤتمر القمة الثاني الذي عقد في فندق فلسطين في المنتزه بالاسكندرية لعب فيها دور الوسيط بين القاهرة والرياض لمحاولة تهدئة الموقف وتصفيته ، وهو الأمر الذي انتهى برسالة الأمير فيصل إلى عبد الناصر .

وعندما اجتمع مؤتمر القمة في سبتمبر كان الأمير فيصل هو الذي يرأس وفد السعودية بعد أن كان الملك سعود قد رأس المؤتمر الأول وكان المشير عبد الله السلال هو رئيس الوفد اليمني والتقى الاثنان معا .

وأبلغ الأمير فيصل جمال عبد الناصر بقرب عزل الملك سعود من منصبه ، الأمر الذي نفذ فعلا في ٣ نوفمبر ١٩٦٤ ، وأصبح الأمير فيصل ملكا للسعودية ، وسافر زكريا محيي الدين لتهنئته بمنصبه في محاولة من جمال عبد الناصر لتهدئة الموقف وبعدها بيومين فقط في ٥ نوفمبر أعلن الطرفان قبول وقف إطلاق النار ، بعد أن كانت قد تمت في أركويت بالسودان اجتماعات خلال شهر أكتوبر بين الملكيين والجمهوريين لدراسة اتفاقية هدنة كان قد تم الاتفاق عليها في الاسكندرية .

ولكن الأمر لم يتحقق في سهولة ... فان غلاة الجمهوريين أعلنوا رفضهم الجلوس مع أحد من الأسرة المالكة لجرائمهم السابقة التي ارتكبوها ... والبدر لم يقبل من الجهة الأخرى وقف إطلاق النار .

لهذا فانه لم يكد يمضي شهر واحد حتى خرج على اتفاق وقف إطلاق النار الملكيون من الجبال وهاجموا الجيش المصري في مواقعه التي كان يعسكر فيها قرب الحدود .

وعاد الملكيون للقتال من جديد .

الثورة في جنوب اليمن :

ولكن أيام القتال الصعبة قد مضت بانتهاء عام ١٩٦٣. ولم تعد هناك سوى دوريات قتال تتحرك الى مناطق بعض القبائل التي كانت تعتبر مثل الرمال المتحركة ، مواقفها غير مستقرة ، قد تجدهم جمهوريين في النهار ويتحولون في الليل لمساعدة الملكيين .

كان اتساع مساحة اليمن وانتشار القوات العربية عليها يسمح بتعكير صفو الأمن والسلام عن طريق الكمائن أو التعرض للقوات الغابرة من قمم الجبال .

ومع ذلك يمكن القول اجمالا بأن الموقف العسكري في اليمن لم يكن شديد الالتهاب ولم يكن قتالا مستمرا لا يتوقف وأنه لم يكن هناك من شيء يحول دون تقدم المجتمع اليمني بقوة دفع ثورته إلا تناقضاته وخلافات مشايخ القبائل ورجال السياسة .

ومع اتجاه الموقف للهدوء النسبي ظل الوجود البريطاني في الجنوب يشكل خطرا دائما على الثورة . .

وكان سلاطين يافع والفضل والضالع وبيحان والغزالق العليا والغوازل قد اتفقوا عام ١٩٥٩ على تشكيل (اتحاد المارات الجنوب) على أن يرتبط الاتحاد بمعاهدة حماية وصداقة مع بريطانيا كما تعهدوا ألا يدخلوا في أية علاقات خارجية من أي نوع دون موافقة بريطانيا ، وكان ذلك بعد هروب جيش لحج بأكمله الى اليمن عام ١٩٥٨ وعزل بريطانيا للسلطان علي عبد الكريم وتولية السلطان فضل بن علي مكانه .

وبدأت المقاومة في جنوب اليمن ، ودعا حزب الشعب الاشتراكي (عبد الله الأصم) الى التظاهر احتجاجا على تشكيل المجلس التشريعي بعدن والمطالبة بعقد انتخابات عامة وتكوين حكومة منتخبة في عدن قبل البحث في موقفها من الاتحاد ، وكانت بريطانيا قد أصدرت كتابا أبيض عام ١٩٢٦ جاء فيه (أن تصبح محمية عدن ضمن ولايات الاتحاد ابتداء من مارس ١٩٦٣) .

وكان اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر فرصة فريدة لمساندة النضال الثوري في الجنوب .

وقد أسهمت مصر في ذلك اسهاما كبيرا . . . قال جمال عبد الناصر في خطابه للشعب يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٣ في بور سعيد موجها الحديث الى البريطانيين « هم يروحوا يحتلوا عدن والجنوب والمحميات والخليج

ويعتبروا ده حقهم واحنا لما الثورة اليمنية تطلب منا أن نساندها ضد العدوان يزعلوا قوى الانجليز « ٠٠ ثم يوجه لهم الاتهام بأنهم يساعدون الملك سعود بالسلاح وبعثة عسكرية من ٣٧ ضابطا لتنظيم الجيش وبعد أن كانت العلاقات مقطوعة بينهما تحسنت .

ثم يقول جمال عبد الناصر ان « احتلال بريطانيا لعدن والجنوب المحتل رغم ارادة الشعب » ثم يعلن صراحة « احنا بنؤيد أحرار عدن وأحرار الجنوب المحتل بكل قوتنا ، وأن كل امكانياتنا ستستخدم للتخلص من الاستعمار البريطاني في هذه المنطقة » .

ويقول عزت سليمان وكيل المخابرات العامة وأحد الضباط الذين أسهموا في التعاون مع حركات التحرير في عدد من الدول العربية انهم كانوا قد فتحوا معسكرا في تعز لتدريب المتطوعين واعدادهم للكفاح المسلح في الجنوب ٠٠٠ وانهم أطلقوا على هذه العملية اسم (صلاح الدين) .

وقبل خطاب جمال عبد الناصر بأيام في ديسمبر ١٩٦٣ أقيمت قنبلة يمنية على المنسوب السامي البريطاني وجماعة من قادة الاتحاد كانوا على وشك مغادرة مطار عدن الى لندن لاجراء مباحثات دستورية ٠٠٠ واعتبر هذا الحادث الذي قتل فيه اثنان وجرح خمسون شخصا ذروة اضطرابات عام ١٩٦٣ .

وخلال زيارة جمال عبد الناصر الأولى لليمن قال في المؤتمر الشعبي بصنعاء يوم ٢٣ ابريل ١٩٦٤ « ان بريطانيا لا بد أن تجلو عن عدن . وأن كلا من عدن والجنوب العربي أرض عربية ، وأنه من المستحيل تماما على بريطانيا أن تفرق عربا عن عرب أو يمنيين عن يمنيين ٠٠٠ اننا لن نسمح للاستعمار بأن يبقى في أى جزء من أجزاء الوطن العربي » .

وفي الشهر التالي قام وزير المستعمرات البريطاني بزيارة عدن وأعلن أن مؤتمرا يتم عقده في لندن مع منتصف يونيو لمعرفة وجهة نظر المنظمات السياسية في وضع عدن وعلاقتها مع الاتحاد ٠٠٠ وهو المؤتمر الذي انبثق منه الاعلان بأن الجنوب سوف يحصل على استقلاله ليس متأخرا عن عام ١٩٦٨ .

وكانت الحركة الوطنية في الجنوب غير محتشدة في تنظيم أو جبهة واحدة ٠٠٠

وكان هناك تضارب شديد في وجهات النظر ، وفي أسلوب النضال .

وأطلقت الطلقات الأولى لثورة الجبهة القومية في ردفان يوم ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ وصحب ذلك اعلان أصدرته عن نفسها كمنظمة للكفاح المسلح حتى تتحقق الأهداف الوطنية .

وتعرضت القاهرة نتيجة الخلافات بين القوى الوطنية في اليمن الى مواقف حرجية لم تتعرض لها في الشمال حيث لم تكن هناك تنظيمات سياسية مؤثرة ، وحيث كان التخلف أكثر تأثيرا في الشمال عنه في الجنوب .

والأسلوب الذي انتهجته القاهرة للتعاون مع القوى الثورية كان استمرارا لأسلوبها السابق على ضباط المخابرات المسئولين عن الشؤون العربية ، وهو أسلوب يثير كثيرا من الحرج في معاملة الثوريين ، ورغم نواحيه الايجابية في المساعدة ، الا أنه غالبا ما يكون ضامرا في النواحي السياسية وله تأثير عكسي .

وكانت عقيدة عبد الناصر هي تشكيل جبهة شعبية تضم كل القوى ، ولكن الخلافات كانت أشد عنفا ، الأمر الذي وضع ضباط المخابرات في وضع الاختيار اضطراريا .

وكانت الجبهة القومية قد هددت بالعنف كل من ينوي حضور المؤتمر الذي دعت له بريطانيا ٠٠٠ وأعلن حزب الشعب الاشتراكي مقاطعته أيضا للمؤتمر .

وفي مارس ١٩٦٥ تولى عبد القوى مكاوى الوزارة كأول عربي وبدأ بمطالبة بريطانيا بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة .

وبدأت أيضا محاولة الجامعة العربية لتوحيد جهود المنظمات الوطنية والثورية في الجنوب لتوحيدها في منظمة واحدة ولكن الجهود لم تنجح .

وفي شهر مايو دعا عبد الله الأصنج الى مؤتمر في تعز أعلن فيه قيام منظمة تحرير الجنوب كمنظمة تؤمن بالكفاح المسلح وسيلة لتحقيق الأهداف الوطنية ٠٠٠ وطالب القاهرة بالعون المادي .

وقد أجبرت هذه المواقف بريطانيا على الغاء المؤتمر ، وأعلنت عن ارسال بعثة دستورية للنظر في نوعية الكيان الدستوري للدولة الجديدة ، وأعلن عبد القوى مكاوى أنه سيمنع البعثة من دخول عدن ٠٠٠ وتراجعت بريطانيا مؤقتا عن فكرة البعثة وأرسلت جرينوود وزير المستعمرات في شهر يوليو الذي أعلن تحفظ بريطانيا في سحب قواتها تحت ضغط أعمال العنف والثورة التي تجتاح كل مدن اليمن ٠٠٠ وقد رفض مكاوى فكرة تشكيل حكومة تمثل فيها منظمة التحرير بنسبة ٦٠ في المائة .

وفى سبتمبر وصلت البعثة الدستورية الى اليمن ورفض مكاوى استقبالها . . فأنهى المندوب السامى سلطات الحكومة فى عدن وبدأت حملة اعتقالات واسعة .

وفى يناير ١٩٦٦ اتحدت منظمة التحرير مع الجبهة القومية وكونتا معا (جبهة تحرير اليمن المحتل) .

واستمرت عمليات الكفاح المسلح فى الجنوب تزداد عنفا وضراوة . المصدر الرئيسى لها فى السلاح والتدريب كانت مصر التى اعتمدت خطة سلاح الدين . . . وما كان ذلك ليتحقق لولا ثورة ٢٦ سبتمبر التى حولت أرض الشمال فى اليمن الى ساحة تدريب لثوار الجنوب . . . التى أصبحت سياجا يحمى ظهورهم ويمدهم بكافة ما يحتاجون اليه من أسلحة وامدادات .

الكفاح المسلح الذى قهر الوجود والاستعمار البريطانى فى عدن والجنوب ، كان ثمرة من الثمار الرئيسية العديدة لثورة ٢٦ سبتمبر .

ورغم وجود وبقاء الخلافات بين تنظيمات الجنوب التى لم تنته بالوحدة التى تمت فى (جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل) . . . فان خطوات الكفاح المسلح لم تتوقف حيث انتهت بالنصر النهائى وجلاء الاستعمار عن عدن . قال عبد الفتاح اسماعيل أمين عام الجبهة القومية فى تقريره أمام المؤتمر الخامس فى مارس ١٩٧٢ (بعد سنة من انتظار ثورة ٢٦ سبتمبر أخذت جماهير الشعب اليمنى فى الشطر الجنوبى تفجر النضال المسلح ضد الاستعمار البريطانى وعملائه) .

وقال على ناصر محمد عضو المكتب السياسى للجبهة القومية فى خطابه أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ « ان شعبنا اليمنى بأجمعه لن ينسى مدى التاريخ بأن ثورته لم تكن تقف على قسميها أسبوعا واحدا لولا الزعيم الخالد جمال عبد الناصر والشعب المصرى الشقيق » .

الخلافات أيضا فى الشمال :

واذا كانت الخلافات فى الجنوب قد أخذت هذا الشكل العاد الذى انتهى بصدام بين القوى المختلفة وصل الى حد التصفيات البدنية من الطرفين . . . فانها فى الشمال كانت موجودة وقائمة . . . ولها طابع قبلى وطبقى خاص .

ومنذ قامت ثورة ٢٦ سبتمبر وهدفها الأكبر هو تصفية نظام الامامة ووقف هجمات الملكية المعتمدة على السعودية .

ولكن كافة القوى الداخلية من العسكريين أو رجال القبائل لم تكن متحدة الهدف ٠٠٠ والتنظيمات السياسية على اختلاف اتجاهاتها لم تكن ذات نفوذ واضح قوى يمكن التأثير من خلاله على الجماهير وأفراد القبائل المنتشرين في أرجاء اليمن الواسعة .

وكان وجود السلال في قمة ثورة سبتمبر دافعا لاتخاذ موقف مضاد له من بعض القبائل التي كانت تعيش أسيرة نفوذ وتقاليد بالية ، وتزن الرجال بميزان الأصل والنسب .

وأخذت هذه الاتجاهات المتخلفة تتبلور في شكل جناح عقد عدة مؤتمرات في عمران ١٩٦٣ ، والخمر ١٩٦٥ ، والجند في أواخر نفس العام .

ضمت المؤتمرات العناصر الرجعية المتخلفة التي استترت خلف ستار « تجنيب اليمن ويلات الحرب الأهلية » واتصل بعض أفرادها سرا بالسعوديين والأمريكيين ووقفوا موقف التحفظ من وجود القوات المصرية المسلحة .

كان أبرز أهداف هذه الفئة هو الرغبة في تنحية عبد الله السلال ومحاصرة دور مصر والتشهير بمن يتعاون مع القوات المصرية باعتبارهم عملاء وليسوا وطنيين .

وكانت القاهرة تستقبل هذه الخلافات بضيق شديد ٠٠٠ فظهور العداء في صفوف الجمهوريين كان يشكل خطرا أشد من مجابهة الملكيين ، ولكنها لم تأخذ خطوات سياسية لتصفية المشاكل في مهدها .

كان العمل السياسي يكاد يكون محظورا على اليمنيين وعلى القوات المصرية ، أيضا الأمر الذي أضعف فرصة وجود تفاعل سياسي عميق مع الجماهير المتعطشة الى التحرير من تخلف الامامة بشكل موضوعي فعال .

وكثيرا ما أعيد الى القاهرة بعض الضباط الذين دفعتهم روحهم الوطنية الى اقتحام حديث السياسة ، وأصبح هناك تعبير شائع بأن فلان (اتأنتف) بمعنى أن الطائفة السوفيتية الجبارة حاملة الدبابات والطائرات (الانتينوف) قد عادت به الى مصر .

كانت قبضة المخابرات في اليمن شديدة أيضا ٠٠٠ وكانوا هم العنصر المؤثر في إعطاء الصورة للقيادة السياسية في القاهرة ، والعنصر الرئيسي في تحديد موقف الزعماء اليمنيين .

وعندما بلغت الخلافات السياسية درجة عنيفة عقد جمال عبد الناصر اجتماعا في قصر الأمير عبد المنعم بمصر الجديدة في يناير ١٩٦٥ حضره عبد الله السلالة وحسن العمري وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وأنور القاضي ٠٠٠ وفي هذا الاجتماع تقرر عودة الفريق أنور القاضي لليمن مفوضا سياسيا وعسكريا معا ، لحل المشاكل الداخلية بين الجمهوريين دون انتظار الرجوع الى القاهرة في كل صغيرة وكبيرة .

ولكن هذا الأسلوب الجديد لم يفلح أيضا في حسم الخلافات الداخلية ٠٠ وانحازت معظم الأجهزة المصرية الى مجموعة الأرياني والنعمان وحسن العمري باعتبارهم القوة الرئيسية القادرة على توجيه الأمور وقيادتها ٠٠٠ وكان الزبيدي قد لقي مصرعه بعد مؤتمريهم الأول في عمران .

وخلال هذه الفترة حدثت عدة وساطات للتهديئة بين مصر والسعودية قامت بها الأردن والكويت والجزائر .

وبادر جمال عبد الناصر بالذهاب يوم ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ الى جدة لمقابلة الملك فيصل وصحبه زكريا محيي الدين . ويقول زكريا محيي الدين أن جمال عبد الناصر كان حريصا على عودة السلام الى اليمن ، وأنه لم يتردد مطلقا في الذهاب الى السعودية عندما وجد أن ذلك قد يحقق هدفه الكبير .

ويقول زكريا محيي الدين ان جمال عبد الناصر كان يود أن يذهب الى مؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء الذي كان مقررا عقده بعد ثلاثة أسابيع من الزيارة ، ومشكلة اليمن لا مكان لها في جدول الأعمال ولا في مناقشات المؤتمر الجانبية .

وكانت الزيارة قد تمت بعد نقض الملكيين لاتفاق وقف إطلاق النار السابق المعلن في ٧ نوفمبر ١٩٦٤ ٠٠٠ وانتهت باتفاق جديد للهدنة على أن تسحب مصر جنودها خلال عام ، ويسحب البدر جنوده أيضا ٠٠٠ وتوضع نقطة مراقبة أمام امارة بيجان ٠٠٠ وينعقد مؤتمر في حرض .

وقبل أن ينعقد المؤتمر ونحتي يزيل جمال عبد الناصر أية مصاعب يمكن أن تعترض طريق الاتفاق استندعي السلالة الى القاهرة في أكتوبر ١٩٦٥ ليمنح المجموعة الأخرى فرصة الانفراد بالحكم اختبارا لنواياهم ومحاولة لتقليل الخلافات ورغبة في الوصول الى اتفاق .

واستجاب السلالة لأرادة عبد الناصر ورغبة منه في البرهنة على حسن نيته وعن استعداده لقبول أية توضيحات أو تنازلات تمهد للسلام ، وبقي

فى القاهرة وعين أحمد محمد النعمان رئيسا للحكومة ، ومنح حسن العمرى رتبة الفريق وعين نائبا لرئيس الجمهورية وقائدا عاما للقوات المسلحة ، وأصبح العمرى يمارس كل صلاحيات المشير السلال .

ولم ينعقد مؤتمر حرض الذى مثل مصر فيه الفريق محمد فريد سلامة رئيس هيئة العمليات ، ومثل السبعودية الأمير عبد الله ، لخلافات بين اليمنيين .

وتغير الفريق أنور القاضى القائد العام للقوات المصرية وعين اللواء أركان الحرب طلعت حسن على فى يوليو ١٩٦٦ . وقد استدعاه المشير عامر قبل سفره الى اجتماع حضره حسن صبرى الخولى والسيد أحمد شكرى وعندما تساءل اللواء طلعت عن طبيعة مسئوليته قيل له انها تفويض سياسى وعسكرى يمثل فيه جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ويخضع لتعليماته حسن صبرى الخولى المسئول عن الاعانة فى اليمن وكذلك السفير وكل الأجهزة بما فيها المخابرات العامة .

ويقول اللواء طلعت أنه سرعان ما اكتشف أن المجموعة الحاكمة تتآمر على الوجود المصرى بصلات سرية مع السعوديين والأمريكيين وانها تمثل ردة رجعية عن أهداف الثورة ، ولذا طالب بعودة السلال الذى ما ان عرفت هذه المجموعة أنه فى طريق العودة حتى أخرج حسن العمرى بعض الدبابات اليمنية لمحاولة منع السلال من الحضور ، ولكن اللواء طلعت واجهه صراحة بأنه سيحطم كل دبابة لا تعود الى موقعها خلال ساعتين ، وتراجع العمرى ووصل السلال وحدثت مشادة بينه وبين العمرى فى المطار .

وكان جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات قد قاموا بزيارة السلال فى منزله بالاسكندرية لمناقشة موضوع عودته والاتفاق على الخطوط الرئيسية للمستقبل .

وهنا طلبت هذه المجموعة التى شملت الارياضى والنعمان ومعظم الوزراء تقريبا الذهاب الى القاهرة للمناقشة حول موقفها من السلال ووجود القوات المصرية وتحميل مصر ما يحدث فى اليمن من مشاكل . .

ويقول اللواء طلعت أنهم كانوا قد دبروا أمرهم على الذهاب الى هيئة الأمم المتحدة للمطالبة باخراج القوات المصرية من اليمن ولكنه وضعهم فى طائرة مصرية هبطت فى القاهرة وعندما وصلوا لم يجدوا أحدا من المسئولين فى انتظارهم ، وذهبوا الى شمس بدران مدير مكتب عبد الحكيم

عامر الذى خرجوا من مكتبه الى المعتقل بناء على أوامر عبد الناصر عدا القاضى عبد الرحمن الاريانى الذى ظل طليقا ولم يسمح له بمغادرة مصر .

ولم يكن احتجاز هذه المجموعة فى مصر خارجا على تقاليد اللعبة السياسية فى الوطن العربى .

ويقول عزت سليمان إن جمال الناصر سبق أن استجاب لطلب أحمد بن بيللا فى اعتقال اثنين من الجزائريين وقد أنقذهما ذلك من شر أكبر .

واعتقال هذه المجموعة فى مصر لاشك أنه أنقذها من عسف السلال بعد عودته مؤيدا من القاهرة ومحميا بالقوات المسلحة .

يقول الدكتور محمد على الشهارى مدير مكتب السلال أنه كان ينوى الفتك بهم بعد مشاهدته مع حسن العورى لولا السفير المصرى أحمد شكرى الذى تسخّل لمنع ذلك حتى لا تقع المسؤولية على مصر ، وخاصة بعد أن كانوا قد أصدروا منشورات معادية لمصر وزعت فى بيروت .

ويقول عبد الله السلال أن السفير المصرى أحمد شكرى لم يكن خير مثال لثورية عبد الناصر وأفكاره التقدمية ، وأنه كان يتصرف بطريقة مثيرة ، يفتح أبوابه لمشايخ القبائل ويرتاح للتعامل مع الأقرباء منهم ، وإن ذلك كثيرا ما كان يبعث الضيق فى نفس السلال الذى نبت فى أسرة متواضعة وتشربنت نفسه بروح الثورة منذ انتفاضة عام ١٩٤٨ ، والذى أمضى أيامه فى السجن حائقا على الإمام والمرتبطين به من مشايخ القبائل .

وفى لقاء للسلال مع عبد الحكيم عامر شكّا له تصرفات السفير المصرى وسأله (هل هو ابن باشا) وضحك عامر وأجابته (لا .. ولكنّه متزوج من بنت باشا) .

وأحمد شكرى كان ضابطا فى الجيش ورئيسا لعمليات الفريق القاضى وحصل على ترقية استثنائية برتبة نقيب ثم أصبح سفيرا .

ولم يستمر أحمد شكرى طويلا بعد ذلك فقد تقل بعد توصية من القائد العام الجديد .

وكان أسلوب اللواء طلعت حسن يختلف عن أسلوب القادة السابقين وخاصة بعد استقرار الأمور نسبيا بعد عودة السلال .

من الناحية الداخلية أوقف صرف معونات القبائل التى كانت تشكل نزيلا للمالية المصرية ، واتخذ موقفا حاسما من المتأمرين والمتلاعبين على

امن الثورة فشكل فى أكتوبر ١٩٦٦ أول محكمة عسكرية عليية حاكمت وزير شئون القبائل الدعينى الذى كان يطلق قذائف البازوكا على المواقع المصرية ليلا ويعمل فى النهار وزيرا .

رأس المحكمة وزير الداخلية الضابط السابق محمد الدهنومى وكانت عليية صرح للسفراء بحضورها .

وحاكت أيضا ضابطا يمينيا اسمه هاوى عيسى كان يؤدى دور قاطع طريق يحرسه ٥٠٠ جندي ويرهب الناس بسطوته . يسرق الجمارك . ويقول اللواء طلعت أنه ذبح محافظ تعز ليحل محله ، وقطع لسان شخص جرؤ بالتحدث عن بعض جرائمه .

ويقول اللواء طلعت انه عندما صارح جزيلا أن سيحاكمه تردد قائلا انه يفضل اغتياله سرا ، ولكن طلعت أصر وقدمه للمحكمة نفسها أيضا .

وحكمت المحكمة بعد محاكمة عليية باعدام سبعة متآمرين منهم الوزير والضابط هاوى عيسى .

ولم تكن هذه المحكمة هي المحكمة الوحيدة بل شكلت محاكم عليية أخرى فى مختلف القطاعات .

وانتهى عهد الاخلال بالنظام واستتبع الأمن بعد أن كان الجنود المصريون يتعرضون كثيرا لأعمال الغدر .

ومن الناحية السياسية كون ما سماه (مكاتب سياسية) تتشكل من ضابط صاعقة واثنين من ضباط الصف وتمرجى يعيشون مع القبائل الموالية حياتهم الخاصة بكل تقاليدها ويتناقشون معهم فى مختلف القضايا السياسية والفكرية . . . وكان هذا أول نسيج بين الناحية السياسية والعسكرية .

تكونت هذه المكاتب السياسية فى شتى أنحاء اليمن . . . الجوف وصعدة .

ومن الناحية العسكرية واصل تركيز القوات فى مثلث تعز صنعاء الجديدة . . . بل وبدأ عملية تخفيف للوحدات نزلت بعدد القوات المصرية التى كانت قد بلغت ٧٠.٠٠٠ جندي عام ١٩٦٥ لتصبح حوالى ٢٠.٠٠٠ جندي فقط عند حدوث العدوان على مصر فى يونيو ١٩٦٧ .

ولا شك أن انسحاب القوات المصرية الى هذا المثلث مع استتباب الأمن انما يثبت خطأ الاندفاع منذ البداية لكافة أرجاء اليمن .

ويضرب اللواء طلعت دليلا على ذلك بأنه أمكن تطهير طريق صنعاء
صعدة بعد أن قطعت قوات الملكيين بخمسة آلاف جندي يمني فقط تساعدهم
الطائرات والمدفعية المصرية بلا جنود مصريين مطلقا ، ونتيجة ذلك استولت
القوات على كميات من الأسلحة والذخائر الأمريكية .

ومن ناحية التعمير ألغى استيراد الخضر من مصر وكلف الوحدات
بزراعتها في اليمن ، وبدأ في تكوين شركة مصرية يمنية لاصلاح الأراضي
وزراعتها ، كما حصل من هيئة الأمم على معونة قدرها ٢٠ مليون دولار كان
يحرص على وصولها للقبائل مع قوافل ثقافية تضم الكتب والسينما
والندوات العلمية ، وأنشأ مجلسا اقتصاديا على رأسه جزيلان وكان طلعت
يحضر اجتماعاته للنهوض باليمن .

عنوان ١٩٦٧ :

وخلال هذه الفترة التي عباد فيها السلال الى اليمن ، وعين اللواء
طلعت حسن قائدا للقوات ، وعزلت المجموعة الرجعية الاقطاعية في مصر ،
أصبح الموقف الاجتماعي في اليمن أكثر وضوحا وتحديدا ، والموقف
السياسي في الشمال أكثر استقرارا بينما التهب الموقف في الجنوب
واشتعلت المقاومة المسلحة .

وكانت العلاقات قد تردت الى الغاية بين مصر والسعودية أمام الاصرار
على عدم المساعدة في تسوية نهائية للمشكلة .

وكان الملك سعود قد طلب الحضور الى مصر مع بعض أبنائه . .
وبشهامة العرب فتح جمال عبد الناصر له أبواب مصر وهو الذي سبق له
أن تأمر على حياته الشخصية ، ثم تأمر على وحدة الجمهورية العربية
المتحدة .

وطلب الملك سعود الذهاب الى اليمن ليكفر عن مساعداته للبدر
وليزد لأخيه الملك فيصل مؤامراته عليه .

وصل الملك سعود ومعه المشير عامر وأئور السادات وشمس بدران
الى اليمن يوم ٢٤ ابريل ١٩٦٧ وأعلن فور وصوله الاعتراف بالجمهورية
العربية اليمنية . . . وقال بعد زيارته لمناطق التعمير (الحكم الثوري في
اليمن حقق منجزات ضخمة) ثم أعلن الملك سعود (لا أعترف بفيصل
ملكا للسعودية) . . وقرر أن يترك ابنه خالد ومنصور في صعدة شمال
اليمن قرب حدود السعودية ليؤثرا على الملكيين ويضعفا الموقف الداخلي
في السعودية .

وفى هذه الزيارة خطب عبد الحكيم عامر قائلاً (سنبقى فى اليمن
عشرين عاماً حتى لا يعود الى الورا) .

ولكن الأحداث بدأت تتجمع فى الأفق بالغة من التوتر حدا لم تصل
اليه من قبل .

يقول اللواء طلعت حسن أنهم أعلنوا لدواعى الأمن أن الملك سعود
والمشير عامر والسادات سيصلون الى تعز ٠٠٠ ولكن الطائرة انطلقت
بهم عائدة الى القاهرة .

وفوجيء اللواء طلعت بخبر من تعز يبلغه أن صواريخ قد انطلقت
من معسكر النقطة الرابعة تجاه معسكر كتيبة مظلات مصرية وأنها فجرت
مخزنا للدخيرة ٠٠ وذلك فى الموعد المعلن عنه لوصول طائرة الملك ، وهرع
اللواء طلعت ومعه وزير الداخلية والخارجية اليمنيان وأمر بمحاصرة معسكر
النقطة الرابعة ومنع خروج أحد منه ٠٠٠ وقام بتفتيشه حيث قبض على
ثلاثة من الأمريكيين أرشدت عنهم الكلاب البوليسية .

حاول الأمريكيون اقناعهم بأنهم دبلوماسيون ، ولكن وزير الخارجية
أبلغه أنهم لا يحملون هذه الصفة ٠٠٠ فقرر السلال الغاء النقطة الرابعة
الأمريكية نهائيا وترحيل أفرادها خلال ٤٨ ساعة ٠٠٠ وفتح خزائنهم
الكبيرة فى صنعاء وكانت مليئة بأوراق سرية أرسلت كلها للقاهرة .

وتولى المهندسون المصريون ادارة مشروعات المياه التى تخفى خلف
ستارها عملاء المخابرات المركزية الأمريكية .

وأقيم جسر جوى نقل أفراد ومهمات النقطة الرابعة الى أسمره ،
وتدخلت القاهرة لمنع محاكمة الأمريكيين الثلاثة المعتقلين الذين أفرج عنهم
الى المطار للسفر الى الخارج فورا .

كان الموقف فى اليمن يدخل مرحلة استقرار مبشر بتطور سريع ٠٠
بينما كان الموقف الداخلى فى السعودية قد اهتز بوجود سعود فى اليمن ،
ومشروعات التعمير قد بدأت تؤتى ثمارها .

وأخذت مؤامرات الامبريالية الأمريكية تتجمع محاولة ابعاد الخطر
المصرى التقدمى عن هذه المنطقة الحيوية القابضة على عنق البحر الأحمر
والقريبة من دول الخليج ٠٠ وكان انقلاب اليونان العسكرى قد وافق
حدوثه هذه الفترة الهامة ، ابريل ١٩٦٧ .

وبينما كان الوضع يستقر فى اليمن ويجنح الى الهدوء ، اذا به
يتوتر فى سوريا ٠٠٠ وتعالى اذاعات السعودية فى الحديث عن وجود

قوات الطوارئ بين القوات المصرية والاسرائيلية وفي شرم الشيخ ..
الامر الذي يحاول اظهار جمال عبد ناصر بمظهر التهادن مع الصهيونية .
وبدأت الازمة تدخل مرحلتها الحرجة وليس في اليمن أكثر من
٢٠٠٠ ر ٢٠ جندى كما سبق أن ذكرنا .

ونفطته مؤامرة الامبريالية الأمريكية والصهيونية التوسعية بعدوان
يونيو ١٩٦٧ المباشر بعد أن عجزت عن اسقاط النظام التقدمي في مصر
بكل مؤامرات التخريب والاغتيال أو استنزاف قوة مصر في حرب اليمن .
ولم يعد ممكنا للقوات المصرية المسلحة أن تواصل البقاء في اليمن
بينما قواتها في مصر قد تبعثرت وضاعت الأسلحة بعد الضربة الاسرائيلية
الخاطفة .

وانعقد مؤتمر القمة في الخرطوم خلال أغسطس ١٩٦٧ بعد أن كان
السواء طلعت حسن على قد استندى للعمل مديرا لهيئة العمليات في
القاهرة وحل محله اللواء عبد القادر حسن . . . وهناك استقر الرأي بين
مصر والسعودية على انسحاب القوات المصرية ، وترك الأمور لأبناء اليمن
يرسمون مستقبله .

وتجمعت القوات المصرية في الحديدة بعد مظاهرات تعرضت لها يوم
٣ أكتوبر وهاجم فيها المتظاهرون القيادة المصرية وقتلوا ١٠٠ جندى قبل
أن يستطيعوا تفريق المظاهرات واستتباب الهدوء .

وقد كانت هذه المظاهرات استجابة لدعوة مشتركة من بعض الذين
أرادوا المزايدة برفع شعار اخراج الجنود المصريين . . والذين كان منهم
للأسف بعض الشباب المثقف الذين اجتمع بهم اللواء عبد القادر حسن بعد
ذلك لتوضيح الموقف لهم . ويقول اللواء طلعت حسن أن بوادر هذه
الصورة كانت قد ظهرت خلال وجوده ، وانها وضحت في مجموعة تلتف
حول جزيلاي وتؤثر ضمنا على السلال .

ويقول في ذلك أنه منع اجتماعا كان مفروضا أن يعقد في إحدى دور
السينما لهذه المجموعة .

ولا شك أن غياب العمل السياسي كان عاملا مؤثرا على تنمية
اتجاهات خاطئة حتى بين أصحاب النوايا الطيبة الذين قد تجذبهم عوامل
الاثارة الوقتية دون التعمق في ابعاد الصورة الشاملة .

انسحبت القوات المصرية من اليمن تماما بعد أن تجمعت في ميناء
الحديدة .

وغادر السلال اليمن في زيارة للقاهرة ثم بغداد وبعدها الى موسكو لحضور احتفالات الاتحاد السوفيتي بالعيد الخمسين للثورة الاشتراكية العظمى ٠٠٠ في وقت كانت فيه الأمور غير مستقرة .

وقبل أن يصل السلال الى موسكو وأثناء وجوده في بغداد يوم ٥ نوفمبر ١٩٦٧ تحركت بعض وحدات الجيش اليمني في الساعة الأولى بعد منتصف الليل واحتلت قصر السلال والاذاعة وبعض الأماكن الحيوية وأعلنت سقوط السلال ، وقيام نظام جديد للحكم على قمته مجلس رئاسة يضم القاضي عبد الرحمن الارياني (٦٧ سنة) رئيسا وعضوية أحمد محمد النعمان ومحمد علي عثمان .

وما لبث النعمان أن استقال وحل محله الفريق حسن العمري والاثنان كانا محتجزين في مصر ولم يفرج عنهما الا بعد سقوط السلال . وكما جاء السلال بانقلاب عسكري ذهب أيضا بانقلاب عسكري .

ولكن ذهب السلال وبقي النظام الجمهوري ٠٠٠ فان قوات الملكيين ما ان استشعرت بأن في قدرتها اقتحام صنعاء بعد خروج المصريين وسقوط السلال حتى تجمعت قبائلهم تحاول دخول العاصمة .

ولكن جيش اليمن الحديث ابن ثورة ٢٦ سبتمبر لم يسلم المدينة ويرجع شعبه الى نظام الامامة المتخلف ، بل قاوم قبائل الملكيين الزاحقة لمدة ٧٠ يوما تراجعت بعدها رغم أن القاضي الارياني قد هرب الى تعز وترك الجيش وحده .

وقال جمال عبد الناصر لسفير العراق في القاهرة (لقد أمضيت أياما مليئة بالقلق وأنا أرقب وأتابع الحالة حول صنعاء ٠٠ ولم يعد الهدوء الى نفسى الا بعد أن انتصر جيش اليمن والنظام الجمهوري أيا كانت قيادته) . وكانت مصر قد اعترفت بالنظام الجديد فور سقوط السلال ٠٠٠

ورافق ثبات ثورة اليمن في الشمال انتصار الثورة في الجنوب وخروج البريطانيين وإعلان استقلال جمهورية اليمن الديمقراطية تحت قيادة الجبهة القومية في ٣١ نوفمبر ١٩٦٤ .

خمس سنوات تقريبا غيرت معالم هذه المنطقة التي سادها التخلف أكثر من ألف عام في الشمال ، وسيطر عليها الاستعمار البريطاني ما يقرب من قرن كامل .

واذا أرجعنا الأمر الى أصوله لوجدنا أنه الى جانب الدور الهام والحيوي لأبناء المنطقة فقد كان هناك أيضا الدور الفعال والمؤثر لثورة يوليو المصرية وقواتها المسلحة .

حصار الثورة :

ويحاول البعض تصوير النتيجة النهائية لثورة اليمن بعد انسحاب القوات المصرية المسلحة عقب العدوان بأنه هزيمة لثورة يوليو بعد نزيف شديد تعرضت له في اليمن .

والواقع أن أحدا لم يتصور في البداية أن الموقف يمكن أن يتطور إلى هذا الشكل المعقد .

وجمال عبد الناصر كان حريصا منذ البداية على إبعاد الثورة اليمنية عن التناقضات والخلافات القائمة بين مصر والسعودية . . . وذلك حسب توجيهاته للدكتور عبد الرحمن البيضاني قبل سفره من القاهرة إلى اليمن .

ولكن انفجار الثورة في اليمن كان يهدد النظام الملكي في السعودية بشكل مباشر لأنه يقضي على نظام الإمامة التي استغلت الدين في تجسيد أمير للمؤمنين لا يطبق تعاليم الدين الانسانية السمحة .

ولذا فإن تدخل السعودية الفوري والمباشر لمساندة أمام اليمن المخلوع كان دفاعا عن نظامهم ، ووجدت الامبريالية الأمريكية والبريطانية الفرصة في هذا التناقض لإشغال الموقف وتحويله لتحقيق أهدافها في ضرب النظام التقدمي في مصر .

ولم يقدر حكام السعودية ما قاله السلال أمام مؤتمر القمة الأول من أنهم كان يجب أن يؤخذوا ليس على الثورة ضد الإمام . . . ولكن على التأخر في تنفيذ هذه الثورة ، وذلك بعد أن أوضح لهم صورا من بشاعة الحكم الامامي .

يكفي أن ثورة اليمن قد أطاحت نهائيا وإلى الأبد بنظام حكم رجعي ومتخلف ضغط على الجماهير وقهرها أكثر من ألف عام .

ومع ذلك فإنه يجب القول بأنه كانت هناك أخطاء في التنفيذ . . . وليس في الفكرة . . . أخطاء في شخصية المسئولين وليس في هدف القيادة السياسية .

وكانت مساعدة الثورة اليمنية دون أن تكون هناك معرفة عميقة بتاريخ المنطقة والسبب . . . ودون أن تكون هناك مساعدات من المعلومات الطبوغرافية . . . ودون أن يستغل في تدريب القوات المسلحة حروب الجبال ومقاومة العصابات . . . ودون أن تكون هناك طرق

أو مواصلات برية ... ودون أن تكون هناك مطارات صالحة كافية ...
إلى غير ذلك . كانت مساعدة الثورة اليمنية رغم كل نواحي النقص المذكورة
تعبيرا عن ادراك جمال عبد الناصر ووعيه بأن المشاكل الادارية لا يجوز
أن تقف حائلا دون اتمام المسئوليات الثورية التضامنية بين قوى التحرر
الوطني .

ولم يكن واردا في تفكير جمال عبد الناصر أن بعض المشاكل الادارية
يمكن أن تكون عقبة في سبيل المهمة الثورية التي كلفت بها القوات
المسلحة .

وكل هذه العقبات فعلا رغم أنها سببت مزيدا من الخسائر ولكنها
لم تتجاوز حدود المعقول ولم تعطل القوات المسلحة ولا ثورة يوليو عن
تحقيق أهدافها .

خسرت القوات المصرية في اليمن ما يقرب من ١٠٠٠٠ جندي خلال
معارك استمرت خمس سنوات تقريبا ... بينما خسر محمد علي في حربه
ضد الوهابيين في يناير ١٨١٢ وأثناء حركته من ينبع إلى المدينة حوالي
٨٠٠٠ جندي كما ورد في كتاب لوتسكي (تاريخ الأقطار العربية الحديث)
في وقت لم تكن الأسلحة فيه قد تطورت إلى هذه الدرجة ، وفي عهد كان
سكان مصر فيه ثلاثة ملايين ، بينما سكان مصر خلال ثورة اليمن كانوا
يقربون من ثلاثين مليونا ... وخلال حرب لم تمتد كل هذه السنين ...

خسائر القوات المصرية أثناء أداء دورها البطولي لا تمثل كارثة كما
تحاول بعض الأقلام تصوير الموقف .

وإذا انتقلنا للناحية الاقتصادية لوجدنا أن ثورة اليمن قد كلفت
الاقتصاد المصري كثيرا واستنزفت الملايين ، ولكن ذلك لم يكن أمرا
اختياريا ... فقد كانت هذه هي خطة الامبريالية لحصار النظام في مصر
واجباره على الخضوع .

ولا شك أن أسلوب التعامل مع القبائل ورشوة مشايخها بالمال
قد فتح على مصر بابا لم يغلق ، ورفع ميزانية مساعدتها إلى ما يقرب
من ٦٠ مليون جنيه استرليني سنويا ... وتعرضت هذه الأموال لسرقات
بعض من فقدوا الشرف والضمير .

كما أن ميزانية بدل السفر التي كانت تصرف للجنود كانت تحمل
الميزانية العامة عبئا كبيرا .

كان الجندي يصرف جنيها واحدا في اليوم .

وكان صرف هذه الأموال ضرورة لجنود يعرضون حياتهم للخطر في كل لحظة ٠٠٠ ولو أن ظروف المعركة قد أدت الى بقائهم في أحيان كثيرة ينتظرون المعركة ولا يخوضونها ٠٠٠ ومع ذلك لم يكن سهلا إصدار القرار بانسحابهم أو تخفيضهم وذلك لخطر القوات الملكية المتربصة بالثورة ٠٠٠ والدليل على ذلك ما أشرنا اليه من هجومهم على صنعاء ومحاصرتهم لها سبعة يوما بعد انسحاب الجيش المصري وسقوط السلال ، لولا الجيش اليمني الحديث الذي نشأ في أحضان الجيش المصري .

ومع ذلك فإن زكريا محيي الدين عندما تولى رئاسة الوزارة في أكتوبر ١٩٦٥ ، وخلال معاناته من المشكلة الاقتصادية آثار مشكلة وجود القوات المصرية في اليمن ٠٠٠ وعبر عن أفكاره بقوله انه لتحقيق الهدف المفترض وهو المحافظة على حكومة صنعاء ، فإن الاستنزاف المستمر لموارد مصر يعتبر في النهاية وسيلة لتحقيق أهداف العدو في اضعاف النظام المصري .

ويقول زكريا محيي الدين ان عينه في ذلك الوقت كانت على فيتنام ، حيث تعرضت القوات الأمريكية لظروف تشابه الظروف التي تعرضت لها قواتنا مما أجبرها على اللجوء الى المدن الكبيرة والموانئ فقط .

ولذا طالب بتخفيض القوات المصرية الى أقل عدد ممكن على أن تحتل فقط مثلث تعز صنعاء الجديدة لتخفيض الاعباء حيث لم يكن هناك تصور لنهاية حرب اليمن .

وكان هذا هو الاقتراح الذي أشار اليه الفريق أنور القاضي والذي كان مفروضا في رأيه أن يغلق من نوفمبر ١٩٦٣ ، ولكنه لم يدافع عن وجهة نظره بما يجعلها تنتصر ٠٠٠ بل انه وافق منذ البداية على خطة الوصول الى الحدود الشمالية والشرقية .

ويقول زكريا محيي الدين ان الاقتراح قد رفض وقتها .

ويقول اللواء طلعت حسن انه لم يجد صعوبة في تنزيل وحدات كثيرة الى مصر وتخفيف القوات الى أقل حد ممكن بعد اتخاذ أسلوب حاسم وجاد في محاكمات المتآمرين علانية ، وفي الاعتماد على المكاتب السياسية المبذورة بين القبائل .

والواقع أن هناك فرقا هائلا بين وجود القوات المسلحة المصرية في اليمن ، ووجود القوات الأمريكية في فيتنام . وهو ما صورته ناتنج في كتابه (ناصر) .

القوات المصرية كانت تساند ثورة شعب ضد نظام متعفن ٠٠٠ بينما القوات الأمريكية كانت تقهر ثورة شعب فيتنام ورغبته في التحرر الوطني واختيار طريقه لبناء مستقبله الاجتماعي .

الفرق كبير ، وليس هناك مجال للمقارنة من الوجهة السياسية ولا من الوجهة العسكرية أيضا ٠٠٠ فقبائل اليمن المتارجحة في موقفها كبندول الساعة والمساندة بمرتزقة الكونغو السابقين لا وجه للشبه بينها وبين قوات جبهة التحرير في فيتنام الجنوبية حيث كان الأمريكيون يواجهون أعلى مستوى من الكفاءة القتالية والمهارة والشجاعة الفردية المندفعة الى المعركة بوعي وطني واجتماعي عميق .

ولو كانت القوات المصرية قد مارست عملا سياسيا ناجحا في اليمن لساعد ذلك على تعبئة وحشد الشعب اليمني دفاعا عن ثورته ، وأدى أيضا الى تخفيف أعداد الجنود المقاتلين هناك .

ولكن ما حدث في مصر خلال السنوات الأولى لثورة يوليو حدث في اليمن أيضا ، فقد أخذت السلطة هناك موقفا مضادا معاديا للأحزاب والحزبية ، رغم أنها بالتأكيد كانت تمثل تجمعا تقدميا عن نظام الامامة الرافض أصلا لكل عمل سياسي .

الأحزاب في اليمن كانت تلعب دورا تقدميا ، وكان بعضها امتدادا لأحزاب وحركات سياسية تقدمية في الوطن العربي مثل البعث والقوميين العرب الى جانب ارهاصات لتنظيمات شيوعية .

ولذا كان ضرب هذه الأحزاب وحظر نشاطها خسارة سياسية كبيرة أدت الى ضعف جبهة التماسك حول الثورة .

ولاشك أن من دوافع هذا الموقف الصراع الذي كان موجودا في الساحة العربية بين الناصريين والبعثيين الذين توافر لهم قدر من النشاط السياسي في اليمن كان يمثل محسن العيني .

ورغم أن حركة القوميين العرب قد وقفت مع عبد الناصر ضد البعث إلا أنه حدث انشقاق في مطلع عام ١٩٦٦ عندما فكر عبد الناصر في توحيد قوى النضال في جنوب اليمن في جبهة واحدة ، ومنع قحطان الشعبي وعبد الفتاح اسماعيل من العودة الى اليمن .

ويقول عزت سليمان أن جورج حبش ومحسن إبراهيم كانا يقابلان عبد الناصر وأنها قابلا لمناقشة الموقف معه بعد هذا المنع .

أما الشيوعيون فقد ضربوا أيضا رغم مساندتهم لثورة يوليو وموقفهم من ثورة اليمن .

كل القوى والأحزاب السياسية حظر نشاطها في اليمن ٠٠٠ وتم تقليد تجربة مصر بمحاولة اقامة تنظيم واحد في اليمن اسمه (الاتحاد الشعبي اليمني) وفتحت أبوابه للجميع عدا كل الحزبيين أو الذين اشتغلوا بالسياسة سابقا .

ومع ذلك لم يفلح هذا التنظيم في اقامة الوحدة الوطنية أو ضم قوى الثورة الوطنية ٠٠٠ وانما بقي تنظيما مؤقتا وشكليا مماثلا لتنظيم الاتحاد القومي ، وليس الاشتراكي ، في مصر ٠٠ ولكن بصورة باهتة .

وهكذا اقتصر الوجود المصري في اليمن على المساعدة العسكرية فقط ، دون استشارة طاقات الجماهير وتقويتها في تنظيم سياسي قوى ٠٠٠ ولا نود التطرف في القول بأن فاقه الشيء لا يعطيه ، ولكننا نقول ان العمليات العسكرية قد شغلت اهتمام القيادة في مصر ، وأن القادة الذين أعطتهم المسئولية هناك كانوا من العسكريين الذين لم يكونوا حتى من الضباط الأحرار ، أي لهم حد أدنى من الصلة بالسياسة ، وانما كانوا ضباطا محترفين فقط لا يهتمون بالسياسة أصلا ولا يتابعون أحداثها .

ولذا اقتصر الدور المصري في اليمن على الدور العسكري مع التأثير السياسي على السلطة فقط دون الجماهير ٠٠٠ الأمر الذي أدى الى عدم محاربة الاقطاع أو النظام القبلي حربا مباشرة وانما تحقق ذلك خلال نشر الحضارة والثقافة والتعليم وانشاء الطرق والمواصلات ، واقامة المستشفيات ومختلف أنواع الخدمات .

ومع كل هذه التحفظات فان جانبا كبيرا من شعب اليمن وخاصة الشباب المثقف كان معارضا لخروج الجيش المصري بعد العدوان ، وقد عقد اللواء عبد القادر حسن اجتماعا بعد مؤتمر الخرطوم مع هؤلاء الشباب أوضح لهم فيه الظروف السياسية الضاغطة . ولم تفتت صلة ثورة يوليو المصرية بثورة سبتمبر اليمنية بخروج القوات المسلحة بعد عدوان يوليو الذي تأمرت وخططت لتنفيذه الامبريالية الأمريكية والصهيونية التوسعية ، وانما استمرت هذه الصلة قائمة بنمو القيم والأهداف التي بذرتها الثورة العربية المشتركة .

ان النظام الجمهوري الذي رأسه الارياني بعد سقوط السلالة لم يكن امتدادا لنظام الامامة المنهار ، ولم يكن صورة مطابقة من حيث الجوهر الطبقي والايديولوجية الاجتماعية والنظرة السياسية لنظام الامامة ٠٠ وانما كان جمهورية جديدة قد تكون لها نظرة للأمور أقل تقدمية من نظرة جمهورية السلالة ، ولكنها بالتأكيد ليست صورة مكررة لنظام الامامة ٠٠٠

وهنا في ذاته دليل على أن ثورة سبتمبر لم تطبق صفتها مع سقوط
السلال ، ولم يتوقف تأثيرها بعد خروج القوات المصرية
انتقلت اليمن الى حضارة العصر ويشق اليوم إبنائها الطريق
باسلوهم ونظرتهم الخاصة .

وظهرت الى الوجود جمهورية اليمن الديمقراطية التي يعترف إبنائها
صراحة بدور ثورة ٢٦ سبتمبر ودور جمال عبد الناصر والشعب المصري
وقواته المسلحة في دعم كفاحهم البطولي .

ولاشك أن ظهور هذه الدولة التقدمية الناشئة جنوب جمهورية اليمن
هو حافز في ذاته على توحيد نضال الشعب اليمني في الشمال والجنوب
ضد الامبريالية المتربصة بهذه المنطقة الحيوية الهامة بالثروة البترولية .

وإذا كان عدوان يونيو ١٩٦٧ قد وجه ضربة شديدة الى النظام
المصري ، فان الأحداث قد أثبتت أن سقوط شرم الشيخ في يد الاسرائيليين
لا يمنع حصارهم - مؤقتا والى أن تتحرر - بالسيطرة على مضائق البحر
الأحمر من الجنوب بالتعاون مع جمهورية اليمن الديمقراطية ، وهو
ما تحقق بعد ذلك فعلا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

كلمة انصاف :

وأخيرا فلا بد من كلمة انصاف لدور ثورة يوليو في مساعدة ثورة
سبتمبر .

وقرار جمال عبد الناصر بالاعتراف الفوري والموافقة غير المترددة
في مساعدة الثورة اليمنية بالقوات المسلحة المصرية كان نقطة البداية . . .
وكان في ذلك الرد على محاولات الامبريالية في تطويق الثورة
العربية . ونجاحها في تحطيم الجمهورية العربية المتحدة لم يؤد الى انجساق
دائم ، وإنما ظهر البعث الجديد في أكثر الدول العربية تحلفا ضد أشد
النظم الخطايا .

.. كان رفض المعاونة أمرا غير مقبول ولا وارد سياسيا . . . فليس
من منطلق الثورة ، التقاعس عن مساعدة حركات التحرير الوطني
نتيجة ذلك العزلة التامة عن ساحبة الثورة العربية ، وتسهيل فرصة
الاطاحة بنظام الحكم التقدمي في مصر

وعلى الذين يفصلون بين ستلامة مبدأ المساعدة وأخطاء التطبيق أن
يقدروا فزع الامبريالية من ظهور عبدة الناصر في الجزيرة العربية لينطق .

النظام السعودي ، ويقترب من آبار البترول في الخليج ، ويسيطر على
مفتاح البحر الأحمر من الجنوب ٠٠٠ وما بذلته بعد ذلك من جهود
ومساعدات للدفع نظام الحكم السعودي لمساعدة بقايا النظام الملكي في
اليمن خلف أموال (أمير المؤمنين) البدر .

ورغم جهود جمال عبد الناصر المخلصة لاقرار السلام مع عدم
التفريط في تأمين وسلامة الثورة والجمهورية ، فإن هذه الجهود قد تبذرت
واحدا بعد الآخر أمام تعنت الملكيين مدفوعين بمساعدات الامبريالية
وجنودها المرتزقة .

ولم يكن ممكنا لجمال عبد الناصر أن يقبل انصاف الحلول لما يحمله
ذلك من تعريض الجمهورية للخطر وسط قبائل تعيش في تخلف رهيب ،
وتسيطر عليها معتقدات دينية ليست من صلب الدين ولكنها من صنع
البشر ٠٠٠ ومثال ذلك ما رواه لي الفريق أنور القاضي من أن بعض
الطائرات قد قامت بغارات استكشاف ليلية مستخدمة الأنوار الكاشفة
فأطلق انصار الامام اشاعة بأن أنواره تهل من السماء وأن هذه علامة من
الله ٠٠ وكبر الناس وسجدوا وغيروا مواقعهم لتكون مع الامام .

والتراجع كان يعنى في مضمونه تعطيل تنفيذ حركة الكفاح المسلح
ضد الاستعمار البريطاني في الجنوب ، وهي التي بدأت في تمزق كما
ذكرنا تحت اسم (صلاح الدين) ، واستمرت تشتعل وتزداد اشتعالا
لوجود القوات المصرية في اليمن واستقرار النظام الجمهوري .

وعلى الذين يفصلون بين سلامة مبدأ المساعدة وأخطاء التطبيق أن
يقدرُوا أيضا غموض الموقف في اليمن وطبيعة الحياة المتخلفة ، واختلاف
طبيعة الأرض الى جانب طبيعة الحكم في مصر حيث انفردت زعامة جمال
عبد الناصر بالتأييد الجماهيري المطلق ، وغابت الكيانات التنظيمية
والكادرات السياسية القادرة على التعاون السياسي والتوجيه الفكري
بطريقة نظرية وعملية سليمة ، ولا يمكن مناقشة الأمور قفزا فوق الواقع ،
ولكن يجب مناقشتها في حدود الامكانيات المتاحة ، والأخطار المحتملة .

وما تحقق في اليمن لا يمكن قياسه بخسائر عشرة آلاف بطل فوق
أرض اليمن ، ولا في سقوط عشرات الألوف من اليمنيين في الحرب الأهلية
التي فرضها الملكيون فرضا ٠٠٠ ولا يمكن قياسه أيضا بما صرف من
ملايين الجنيهات على العمليات العسكرية .

كل هذه الأشياء تعتبر صغيرة اذا قيست أو قورنت بالانجاز الأعظم
وهو انقاذ شعب اليمن من أبشع نظام متخلف ، واخرج جنوب الجزيرة
الغربية من حصار طويل الى نور الحضارة العصرية .

ان مجرد دخول الكهرباء والمصانع وتعبئة الطرق وفتح المدارس والمستشفيات في مجاهل هذا البلد يضم ما يقرب من خمسة ملايين ، قد اختصر الزمن الذي كان يمكن أن يعيش فيه الشعب اليمني عشرات أو مئات من السنين في هذا التخلف الشديد .

وعلى الذين ينظرون في بساطة واستخفاف الى واجب التعاون بين حركات التحرر الوطني ، أن ينظروا الى موقف مصر لو أن الاتحاد السوفيتي لم يقدم لها الأسلحة والمساعدات الاقتصادية والصناعية وتركها فريسة في يد الامبريالية العالمية تسيطر عليها وعلى نظام الحكم فيها وتمتص خيراتها وتترك شعبها غارقا في تعاسته .

ان واجب التعاون والمساعدة بين حركات التحرر الوطني هو أمر لا يجوز النظر اليه باقليمية محدودة أو سطحية متعجلة ... فسير التاريخ وحركته تفرض التعاون بين مختلف حركات التحرر الوطني ... فما بالنا وثورة سبتمبر هي حركة تحرر في اطار الوطن العربي .

والقول بأن مساعدة ثورة اليمن قد استنزفت مصر وكبدتها خسائر اقتصادية كبيرة ، هو قول مبالغ فيه كثيرا ... فان مساعدات الأسلحة كانت من الاتحاد السوفيتي ، ووسائل النقل السريع أيضا ، قد اعطيت كلها مجانا ... والأمور لم تصل بمصر الى حد الأزمة ، بل ولم تقترب منها أبدا ... لنمو خطط التنمية .

والذين يثيرون القول بأن ما صرف من أموال في اليمن كان كافيا لرفع مستوى الشعب المصري يعيشون في وهم التصور بأن النظام المصري كان يمكن له أن يواصل عمليات التخطيط والبناء والتنمية وهو مخلق أبوابه على نفسه .

ويقول زكريا محيي الدين أحد دعاة الاهتمام بالأمور الاقتصادية وعدم نسجها بالقضايا السياسية أن صعوبة الموقف الاقتصادي لم تكن كلها كامنة في اليمن ، والسحاب القوات المصرية جميعها لم يكن يحقق في ذاته انفراجا حقيقيا للاقتصاد المصري .

ان ملحمة القوات المسلحة المصرية فوق أرض اليمن ، هي من أعظم أمجاد ثورة يوليو التي حارب جنودها النظام الملكي الاقطاعي حتى انهيار داخل الحدود ، وحاربوا النظام الامامي المتعفن حتى انهيار خارج الحدود .

- كان خروج الجنود المصريين للحرب في اليمن عملاً له دلالة تاريخية عظيمة في وحلة الثورة العربية .
- وليست نتائج هذه الثورة في حاجة الى كلمة انصاف بقدر ما هي في حاجة الى كلمة تقدير .

● مصر والسودان

(ابن السودان كنفاس ، مصر
أنبوتته التي يستنشق منها الهواء ،
فإذا فصل السودان عن مصر انقطع
عنه الهواء فمات مقتنقا)
ونستون تشرشل
رئيس وزراء بريطانيا

الفصل الأول

نضال مشترك ضد الاستعمار البريطاني

(ان الحكومة لتشعر بشعور
الامة لقاء هذه الحوادث المشؤمة ،
وهي ساهرة على معالجتها بما يحفظ
كرامة البلاد ويعنون حقوقها) *

سعد زغلول

في رسالة الى الحاكم العام

٢٢ أغسطس ١٩٤٢

(يجب ان يتم جلاء البريطانيين عن

وادي النيل) *

الملازم اول على عبد اللطيف

مؤسس جمعية (اللواء الأبيض)

علاقة مصر بالسودان تتميز عن علاقتها بأى قطر عربى آخر . . .
ومنذ دخل الجيش المصرى السودان فى أكتوبر ١٨٢٠ خلال عهد محمد
على لم يخرج منه بصفة نهائية الا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . . .

وقد نمت العلاقات بين الشعبين المصرى والسودانى خيالا
نضالهما المشترك ضد السطوة العثمانية والاحتلال البريطانى ، وتوثقت

العلاقة الى الدرجة التي جعلت من وحدة وادي النيل شعارا ترفعه
الجماهير في الشمال وفي الجنوب .

وقد لعب الجيش المصري دورا رئيسيا في العلاقة بين الدولتين ،
منذ اهتمت الادارة المصرية في ايامها الاولى بالسودان بـ تنظيم تجارة
الرقيق باعتباره موردا رئيسيا لتكوين الجيش ، وارسلت الحملات
الحربية الى الجنوب والشرق لاصطياد الرقيق من الرجال وارسالهم الى
مصر ، كما يقول الدكتور زاهر رياض في كتابه (السودان المعاصر) ،
حتى تبين عقم هذه المحاولات فتوقفت نهائيا عام ١٨٣٩ .

منذ ذلك الوقت البعيد الذي تبدلت فيه الظروف أكثر من مرة ...
من تقييم لدور الجيش في عهد محمد علي ، الى تهبط رتبة حكام
السودان في عهد عباس بحيث لا تزيد عن أميرالاي ، واتخاذ منفي
للوطنيين مثل الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي كانت له رتبة في
الجيش أيضا ... ثم استجدامه في عمليات الاستكشاف خلال عهد
اسماعيل ... وكان أول المستكشفين الذين ارتادوا هذا السبيل هو
الكباشي محمد سليم قبطان الذي قاد حملات الكشف عن منابع النيل
الأبيض ومناطق النيل العليا بين سنة ١٨٣٩ و ١٨٤٢ وصحبه في رحلته
علماء فرنسيون وبريطانيون .

وأخيرا جاء حكم الخديوي توفيق الذي واكب ثورة المهدي في
السودان عام ١٨٨١ اذ جاهر المهدي بدعوته في شهر أغسطس وقام
عرايى بمظاهرة الجيش في عابدين يوم ٩ سبتمبر من نفس العام .

وعندما وصلت أخبار دعوة المهدي بأنه نبي الله الى رموف باشا
حكمدار السودان أرسل اليه الضابط محمد بك أبو السعود وكان على
صلة بالتقوى المهدي لمحاولة اقناعه بالتخل عن دعوته ، وحضر الاجتماع
ثلاثة من علماء المسلمين ، ولكن المهدي رفض وأصر على موقفه ؛ فسير
اليه سريتين من المشاة تحت قيادته الى جزيرة آبا حيث قابلهم الأنصار
والحقوا بهم هزيمة وصلت أخبارها الى القاهرة وكانت تحصل أخطار
ثورة المهدي لأول مرة .

ونحادر المهدي جزيرة آبا توقعا منه لحملة ثانية واستقر في جبل
قدير حيث هزم حملة ثانية قادها مدير فاشبودة دون إذن حكام
السودان .

وعندما وصلت أخبار الهزائم قررت الحكومة المصرية ارسال

قوة من الجيش ، ولكن القادة العسكريين اعتبروا أن ذلك محاولة لتشتيت الجيش المصرى وفى فبراير ١٨٨٢ عندما وصل العسكريون الى مراكز السلطة ركزوا اهتمامهم على محاربة الخديوى واعتبروا السودان ميدانا ثانويا لا يستحق ارسال مزيد من القوات واكتفوا بعزل رموف باشا بحكمдар السودان وتعيين عبد القادر حلى الذى وصل فى مايو ١٨٨٢ ، والذى كان من انصار أحمد عرابى .

ولكن ما لبث الموقف أن تعقد فى مصر ، واحتل البريطانيون القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ، وحل الخديوى توفيق الجيش المصرى بمرسوم صدر بعد خمسة أيام فى ١٩ سبتمبر .

وصدر قرار عزل عبد القادر باشا حلى من حكمادارية السودان يوم ١٧ يناير ١٨٨٣ وتعين بعده الجنرال هكس البريطانى الذى فشل فى القضاء على الثورة المهدية ، ودحرت قواته يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣ ، وهنا بدأت بريطانيا عملية ضغط على الحكومة المصرية لاجلاء قواتها عن السودان .

ولكن شريف باشا رفض تنفيذ الاقتراح .

وهنا ارسل اليه اللورد جرانفيل وزير المستعمرات البريطانية برقية شهيرة فى يناير ١٨٨٤ يقول فيها (لا ارى حاجة الى أن أوضح لكم أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملك من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداهة للخديوى فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها من الخطر ويجب على الوزراء والمديرين المضربين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها أن تصر على اتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة) .

واستقال شريف باشا فى ٧ يناير ١٨٨٤ قائلا (اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا) وجاءت وزارة نوبار باشا فى ١٠ يناير خاضعة للاحتلال البريطانى ساجدة لأوامره مصدرة تعليماتها بأخلاء السودان وترحيل الموظفين وسحب الحاميات المصرية التى بلغت ٢٥٠٠٠ جندي . وصدر مرسوم فى ١٥ يناير بالحاق ادارة السودان بوزارة الحرية بدلا من رئاسة الوزراء وعين غوردون حكمادارا عاما للسودان بقرار من مجلس الوزراء البريطانى لاجماع الجنود والموظفين المدنيين والتجار الى مصر .

كان اتخاذ هذا القرار غريبا ودليلا على وجود إلية مبيتة ضد مصر من جانب إنجلترا لأنه لم يكن معقولا أن ينتصر دراويش بالرمح على جنود يملكون المدافع والبنادق .

وحاصر غوردون في الخرطوم التي سقطت في يد المهدي يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ وقتل الجنرال البريطاني على سلاله قصره قبل أن تصله الامدادات العسكرية لانقاذه والتي قادها الجنرال ولسلي الذي استطاع أن يشهد سقوط الخرطوم بمنظاره المعظم ثم يرتد عنها دون محاولة لانقاذها .

وتحيط الشبهات التاريخية بموقف الحكومة البريطانية التي تقاعست في انقاذ غوردون والتي حاولت الاساءة الى الحكومة المصرية وإظهارها بظهر العجز عن معالجة الموقف في السودان .

واستغلت بريطانيا فرصة مصر غوردون وأنهت الادارة المصرية في السودان رغم اصرار حكومة مصر على استمرار العلاقة بين القطرين . واعتبرت السودان قطرا خاليا لا سيد له ودعت الدول الأجنبية الى احتلاله وبادرت هي الى النزول في تغري ذيلة وبربرة نواة الصومال البريطاني فيما بعد ، ونزلت إيطاليا في مصوع حيث عقدت فيها معاهدتان في ١٥ أبريل ١٨٩١ ، ٥ مايو ١٨٩٤ ، وضمت جانبا من السودان (منطقة لادو في أعالي النيل) الى الكونغو البلجيكي بعد معاهدة مع الملك ليوبولد في ١٢ مايو ١٨٩٤ ، وأدت تناقضات القوى الاستعمارية في إفريقيا الى معاهدة أخرى مع ألمانيا في أول يوليو ١٨٩٠ .

استهدفت بريطانيا من ذلك اخراج الجيش المصري من السودان وقطع العلاقة التاريخية بين الشعبين والدولتين ، وأصبحت سياسة حكومة اللورد سالسبري المحافظة في لندن ووزير خارجيتها تشمبرلين ترك دراويش المهدي في السودان حيث يصعب عليهم اقامة سيادة فعلية لأنهم لا يملكون من أسلحة القتال سوى الدروع والحراب كما ذكرنا .

ويحاول بعض المؤرخين الإشارة الى وجود علاقة ما بين البريطانيين والقوات المهدية منذ البداية لاستشعارهم أن يكون قرار انسحاب القوات المصرية مبنيا فعلا على ظروف موضوعية قوية . . . ولاعتقادهم أن بريطانيا كانت تخطط بسياستها على أساس احتلال دائم لمصر والفرادها بحكم السودان . . .

كأنت بريطانيا تريد أن تقيم غازلا زعميا بين مصر والسودان . . . يظل فيه الفراش دافئا في السودان بحكم دراويش المهدي الى أن تعود في اللحظة التي تهيئها الظروف السياسية .

ولكن الأمور في أفريقيا لم تكن تيسير وفق الإرادة البريطانية وحدها . . . فرنسا كانت تزحف على أفريقيا من الغرب ، ولما كان السودان قد أصبح يعتبر بعد عام ١٨٨٥ دولة مستقلة خالية من سيادة دولة أوربية فأنها قررت أن تحتله وزحفت عليه حملة مارشالان حتى وصلت الى حدوده عام ١٨٩٧ .

واضطرت بريطانيا الى تغيير خططها والاستعانة بالجيش المصري للزحف على السودان من جديد ، وذلك لسببين ، أولهما صعوبة التحرك من الجنوب لصعوبات النقل والمواصلات ، وثانيا اظهرا الأمر أمام الفرنسيين كما لو أن مصر هي التي تعود الى السودان . . .

وتمت موافقة سلطان تركيا على الحملة بعد خطاب أرسله اليه الخديوي عباس حلمي تحت ضغط القنصل البريطاني في مصر مبينا فيه أن غرض الحملة هو سحق الحركة المهدية . . .

وتحملت مصر كافة تكاليف الحملة بعد خطاب كتبه الحكومة البريطانية باعتبارها المتصرفة في الشؤون المصرية الى صندوق الدين تعلن فيه الأخطار التي تحدث بمصر اذا لم تتحرك الى السودان ، وقدرت المبلغ بنصف مليون جنيه .

وافقت ألمانيا والنمسا وإيطاليا من الدول الأعضاء في صندوق الدين ، واعترضت فرنسا وعضدتها روسيا . . . وأسرت حكومة مصر فسحبت المبلغ حسب قرار الأغلبية . . . ولكن الدولتين المعترضتين رفعتا الأمر الى المحكمة المختلطة لمنع مصر من سحب المبلغ بدعوى أنها ستدفعه على حملة حربية لا داعي لها . . . وحكمت المحكمة في صالح هذا الرأي في يونيو ١٨٩٦ . . . وأسرت الحكومة البريطانية استعجالا لتنفيذ الحملة خشية دخول قوات فرنسا للسودان فأقرضت مصر ثلاثة أرباع مليون جنيه بفائدة قدرها اثنان وثلاثة أرباع في المائة .

عين اللواء كتشتر سردار الجيش المصري قائدا للحملة التي اشترك فيها الجنود المصريون منخرين وبدأت يوم ٣ مارس ١٨٩٦ وانتهت بدخول أم درمان يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ بعد أن لحقت الكوليرا بالحملة وقتلت أكثر من ألف جندي خلال شهر واحد .

صحب الحملة مد خط للسكة الحديدية من وادي حلفا الى الجنوب .

واذا كانت المعركة قد ألهمت حكم السودانين لأنفسهم فإن هدفها الآخر قد تحقق أيضا وهو منع انتشار النفوذ الفرنسي في وادي النيل وخاصة بعد وصول مارشالان الى فاشسودة في سبتمبر ١٨٩٧ ورفع

العلم الفرنسي عليها، ثم اضطراره الى الانسحاب شرقا في ديسمبر ١٨٩٨
لضغطية مركزه الجري وتباعد اتصاله بالحكومة الفرنسية .

أدى انتخاب مارشان الى تحسين الجو بين إنجلترا وفرنسا وعقد
اتفاق بين الدولتين في مارس ١٨٩٩ لتحديد الحدود انتهى الى حصول
فرنسا على منطقة الصحراء الكبرى حتى السواحل الغربية لأفريقيا ،
وحصول إنجلترا على النفوذ في السودان الذي تشكل فيه أول (احتلال
مشترك) في التاريخ تحت اسم « السودان المصري البريطاني » وصدر
تيلينغ بريطاني يقضي (يرفع العلم البريطاني بجانب العلم المصري في
البحر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يرفع الا العلم
المصري) وذلك لأن القوات المصرية لم تنسحب مطلقا من هذه المدينة .

ووقعت اتفاقية السودان التي كانت تقرر دائما باسم المشيئة
في ١٩ يناير ١٨٩٩ وقع عليها اللورد كرومر عن الجانب البريطاني
وبطرس باشا غالي عن الجانب المصري .

ونصت الاتفاقية على أن يعين الخديوي حاكما عاما بريطانيا
لا يفصل الا بموافقة الحكومة البريطانية ، ويصدر أوامر لها قوة
القانون ، كما نصت الاتفاقية أيضا على عدم سريان القوانين المصرية ،
وعدم تعيين قناصل للدول الأجنبية في السودان ، وكان الوضع في
السودان فريدا بالنسبة للمستعمرات فهو لم يكن تابعا لوزارة المستعمرات
وانما كان تابعا لوزارة الخارجية الأمر الذي جعل الموظفين البريطانيين
لا يتنقلون بين المستعمرات المختلفة وانما يستقرون طوال مدة خدمتهم
أو حياتهم في السودان .

بداية النضال المشترك :

وما إن وقعت هذه الاتفاقية حتي بدأت روح النضال المشترك بين
المصريين والسودانيين تبلور ضد الاحتلال البريطاني .

كانت الوحدات السودانية يقودها ضباط مصريون ويوجد بها
بعض ضباط الصنف من المصريين أيضا ولم تكن فئة الضباط
السودانيين قد ظهرت بعد في ذلك الوقت . . .

قاد الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد المعارضة
السياسية للاتفاقية الأمر الذي أدى الى اغتيال بطرس باشا غالي وزير
الخارجية واستجاب الضباط المصريون لهذه المعارضة ، وأرسل
٣٢ ضابطا من جامبة سواكن برقية تأييد الى مصطفى كامل الذي كان
شقيقه علي فهمي ضابطا في هذه الجامبة ، قالوا فيها (ان قلمك الحق
أمضى من سيوفنا وجججك القوية أمضى من رصاصنا) .

ولكن مصطفى كامل كانت له وجهة نظر خاصة في دور الجيش في العمل الوطني. خلال هذه المرحلة فأرسل لهم رداً قال فيه (من الحكمة ألا تمكن العدو من رقابتنا ، وأنا لا أود أن يدخل ضباط الجيش في حركات سياسية دخولاً ظاهراً لأن هذا يضر بالمسألة ضرراً بليغاً حيث يجد الاحتلال مسوغاً لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم) .

ومع ذلك تحرك الضباط المصريون والقوات السودانية في الأورطة الرابعة عشرة في أم درمان وهجموا على غرفة الحرس حيث استولوا على الذخيرة وطردوا الضباط البريطانيين احتجاجاً على الاتفاقية وما نتج عنها من احتكار البريطانيين لمعظم الوظائف الرئيسية في الإدارة الجديدة ، والاستيلاء على جانب من ذخيرة الجيش المصري وإرسالها إلى الانجليز لمساعدتهم في حرب البوير بجنوب أفريقيا ، وإصدار كيتشنر قراراً بقطع بدل الميدان عن مرتباتهم .

حوكم الضباط وطرد سبعة منهم من خدمة الجيش وأحيل واحد إلى المعاش ، وآخر إلى الاستبداد .

وقررت الحكومة البريطانية نقل كيتشنر ليشارك في حرب البوير ، وتعيين السير ريجنالد وينجت عام ١٩٠٠ وكان مسئولاً عن إدارة المخابرات والتجسس على السودانيين خلال حملة استعادة السودان .

وقد بدأ وينجت عهده بالاستغناء تدريجياً عن العسكريين وتعيين المدنيين في وظائف المديرين ، كما فتح كلية غوردون عام ١٩٠٣ . ومما يذكر أن دفعته الأولى كانت تضم ٩١ طالباً سودانياً ، ٥٨ طالباً مصرياً .

وبدأ أسلوب الحكم البريطاني يواجه مقاومة متزايدة تنسج بين المصريين الذين يعيشون السودانيين في حياتهم الاجتماعية وتربطهم روابط اللغة والدين ضد البريطانيين الذين كانوا يعيشون حياة مرفهة متعالية ومنعزلة عن الجماهير .

قال لي اللواء محمد نجيب أن المصريين في السودان كانوا يقاومون البريطانيين في مختلف المجالات . . . ويذكر أنه تعرض للجلد عشر جلدات عندما أُلقي عليه المدرس البريطاني قطعة إملاء جاء فيها (ان مصر يحكمها البريطانيون) ورفض محمد نجيب الكتابة قائلاً (لا يا سيدي مصر تحتلها بريطانيا دون حق ولكنها دولة مستقلة) ، ويقول محمد نجيب أنه كان متأثراً في ذلك الوقت مثل غيره من الضباط المصريين بكلمات مصطفى كامل التي كانت تهزب إليهم حيث كانت محظورة التداول في السودان .

وتشير ظواهر الأمور الى الدور الحضارى الذى قام به المصريون عامة والجيش المصرى خاصة فى أرجاء السودان ، فقد مهد الجيش المضرى خطوط السكك الحديدية من مصر الى مدن السودان ، وكانت هناك كتيبة عسكرية خاصة لمد السكك الحديدية تحت قيادة اللواء محمد فاضل ، وتحملت مصر أموالا بلغت ٣٥٤ ألف جنيه رغم الأزمة الطاحنة التى كانت تعاني منها .

وكان رجال الجيش المصرى أيضا هم الذين شيدوا ثكنات الجيش وأطلقوا عليها أسماء سعيد واسماعيل وتوفيق وعباس ، وأعادوا بناء قصر الحاكم العام وبناء الإدارات الحكومية وغير ذلك من المباني . ويقول الدكتور زاهر رياض ان المصريين قد أقاموا حواجز لمقاومة فيضيان النيل الأزرق الذى كان يهدد الخرطوم الأمر الذى دفع ثمن المتر من الأرض من مليمين الى جنيهين ونصف فى مدى الخمس سنوات الأولى من الحكم الجديد .

وقد صور لى اللواء محمد نجيب هذه الحالة بقوله ان إبراهيم عرابى صديق والده وابن الزعيم أحمد عرابى وكان مقيما فى السودان أراد أن يشنيه عن رغبتة فى الالتحاق بالمدرسة الحربية قائلا له (يا ابنى . . ان الضابط فى بلد محتل ليس سوى مقاول أعمال أو رئيس فعلة لا يتعدى عمله الحفر والردم) .

ويقول محمد نجيب أنه استرجع هذه الكلمات عندما تخرج فى المدرسة الحربية وعين ضابطا فى السودان ، وأخذوا كتيبتة بعد يومين من وصوله لانشاء خط سكة حديد وانشاء جسور حوله تقيه من فيضان النيل .

قال اللورد كرومر أنهم مدوا ٣٢٥ ميلا من خطوط السكة الحديد خلال ١٠٤ شهرا . . . وقال أحد الضباط المصريين (انه توجد تحت كل شبر منها جثة جندي مصرى) .

ومع ذلك قررت الحكومة البريطانية انقاص الوحدات المصرية البحتة فى السودان وضمت سواكن الى بقية السودان حيث رفع عليها العلم البريطانى أيضا ، وشنت الجيش المصرى فى السودان الى حاميات صغيرة مبعثرة فى المدن البعيدة بينما تمركزت الحامية البريطانية فى الخرطوم .

كما أوقفت الحكومة البريطانية ترقى ضباط الصف الى رتب الضباط فى الجيش المصرى تحاشيا لتكرار ظهور عرابى جديد .

وبدأ النضال ضد الاحتلال البريطاني يتبلور فى صورة حركات سرية استمدت وحيها من ثورة ١٩١٩ التى اجتاحت مصر وظهرت عام ١٩٢٠ فى تنظيم أطلق عليه اسم (الاتحاد السودانى) طالب بجلاء الانجليز عن مصر والسودان ، وقاوم محاولة الحاكم البريطانى سيرى ستاك فى ارسال وفد سودانى من القيادات الدينية والعشائرية والقبلية لتهنئة ملك انجلترا كحركة مواجهة مضادة لحركة سعد زغلول الذى سافر الى فرساي لعرض قضية تحرير مصر والسودان على مؤتمر الصلح المنعقد هناك .

وظهر موازيا لجماعة الاتحاد السودانى السرية انتفاضة عبد الله السجينى فى نيالا عام ١٩٢١ حيث احتل الطابية بعد قتل المفتش البريطانى والبكباشى الطبيب البريطانى .

وفى عام ١٩٢٢ حدث انشقاق فى جمعية (الاتحاد السودانى) حول ارادتين : متطرفون يطالبون بالعمل العلنى ومعتدلون يفضلون السرية ، وظهر فى ذلك الوقت الملازم اول السودانى على عبد اللطيف فى مدنى داعيا لجلاء البريطانيين معبرا عن رأيه بمقال أرسله الى جريدة الأخبار القاهرية التى كان يرأس تحريرها أمين الرافعى تحت عنوان (مطالب الأمة السودانية) .

وعقب نشر المقال حوكم الملازم على عبد اللطيف وصدر الحكم بفصله من الجيش المصرى وسجنه لمدة عام ، وما ان خرج على عبد اللطيف من السجن فى أبريل ١٩٢٣ حتى بدأ فى تكوين جمعية اللواء الأبيض ، بعد شهر واحد من خروجه - فى اجتماع عام لم يحضره مصريون ، وذلك دليل على أن أهداف الجمعية فى الارتباط مع مصر كانت بوحى سودانى . كامل .

اختارت الجمعية علما أبيض رسمت عليه خريطة النيل وفى ركن منها العلم المصرى الأخضر وعلى الارضية البيضاء كلمتى (الى الامام) .

وانتشرت الجمعية فى معظم مدن السودان واتصل بها الضباط من زملاء على عبد اللطيف ، كما قامت بارسال وفد الى مصر مكون من ملازم زين العابدين عبد الدائم بالجيش المصرى ومحمد المهدي التعايشى ولكنه لم ينجح فى الوصول اليها فقد اعتقله البريطانيون فى حلفا وعاد تحت حراسة شديدة الى الخرطوم حيث استقبله فى المحطة حشد كبير من المواطنين على رأسهم على عبد اللطيف .

• وأمام هذا الموقف ناقش البرلمان المصري قضية احتجاز الوفد
السوداني في جلسة عاصفة ، وانتقلت المناقشة أيضا الى مجلس
الوزراء البريطاني في جلسة ٢٥ يوليو ١٩٢٤ مما وضع القضية أمام
الرأى العام العالمى .

ولم تنته جمعية اللواء الأبيض مع الزعماء المصريين باعتقال وفدها
في حلقة وانما استمرت سرا مع بعض أعضاء الحزب الوطنى كما جاء في
كتاب محمود عبد الرحيم (مؤرخ السودان) باسم (الحقيقة عن حوادث
١٩٢٤) ومع حمد الباسل وحمدى سيف النصر رئيس لجنة السودان في
البرلمان المصرى والضابط السابق كما كتب الدكتور محمد أنيس في
الأهرام بتاريخ ٢٩ يوليو ١٩٧٣ ، وكذلك مع حافظ رمضان الذى زار
السودان عام ١٩٢٣ .

وكانت وزارة سعد زغلول الأولى في مصر التى شكلت في عام
١٩٢٣ ترقب هذه الأحداث في قلق ٠٠٠ وأبلغت الحكومة البريطانية
في ٢٥ يوليو ١٩٢٤ عن طريق مفوضها في لندن أن بعض الموظفين
البريطانيين في السودان يشجعون حركة مصطنعة ترمى الى انفصاله
عن مصر وأنهم يقدمون - بقسوة وشدة - المظاهرات التى يقوم بها
المواطنون الموالون لمصر ، وطلب سعد زغلول من رئيس الحكومة
البريطانية أن يساعده في القضاء على تلك الأعمال التى تجرح الشعور
المصرى وتمس حقوقه .

وأرسل سعد زغلول برقية بنفس المعنى الى الحاكم العام ، :
لم يجب الحاكم العام للسودان على البرقية ٠٠٠ أما وزير الخارجية
البريطانية فقد أجاب بأن حكومته تؤيد الحاكم العام للسودان في أخذ
المشاغبين الذين يشيرون الاضطرابات عمدا بالثقة .

وعندما سافر سعد زغلول في ٢٥ يوليو ١٩٢٤ لمفاوضة رمزي
ماكدونالد رئيس حكومة العمال ، بدأ الضباط المصريون في تجميع
توقيعات تأييد له كمن روى في اللواء بمحمد نجيب الذى كلف بجمع
التوقيعات أمام باب نادى الضباط مما أدى الى اغلاق النادى ووضع
بعض الضباط تحت التجفيف حتى أفرج عنهم بضغط زملائهم .

• ولم تنتج مفاوضات سعد - ماكدونالد ، اذ رفضت الحكومة
البريطانية كل تطالبة وخاصة فيما يتعلق بالسودان التى تكلم عنها
اللورد بارمور في البرلمان البريطانى قائلا (ان الحكومة البريطانية لا تتزك
السودان بحال وهى تتخذ التعهدات الواجب تحملها والتى لا يمكن تركها
من غير أن تصاب سمعة بريطانيا بخسارة عظيمة) .

• وانفجر الموقف في السودان •

وتحول النضال المشترك ضد الاحتلال البريطاني من السرية إلى العلانية ، وتجسد في عدة مظاهر منها قيام مظاهرة في أم درمان بعد تشييع جنازة مأمورها المصري عبد الخالق حسن الذي كان محبوبا من السودانيين . ومظاهرة أخرى يوم ٢٣ يوليو ١٩٢٤ في الخرطوم هتفت بخروج الانجليز واصطدم بها رجال الأمن •

ووصفت المظاهرات ذروتها في شكل صدام مسلح يوم ٩ أغسطس ١٩٢٤ عندما تظاهر طلبة المدرسة الحربية بزيهم العسكري وهم يحملون البنادق وخمسين طلقة رصاص ويحملون صور الملك فؤاد وسعد زغلول ومروا بمحطة السكة الحديد ليرى المسافرون إلى الأقاليم أن الخرطوم تتظاهر ضد البريطانيين ، ثم اتجهوا إلى منزل الزعيم علي عبد الطيف وهتفوا بحياته وسقوط الانجليز والحاكم العام ثم مروا أيضا خارج سجن كوبر •

خلع طلبة المدرسة علامات الرتب حتى يتجنب الصف ضباط مسئولية ما يحدث • وصاحبهم في المظاهرة ضباط المدرسة وكان من بينهم اليوزباشي حسن حسني الزيدى الذي أبلغ القائد البريطاني عن المظاهرة ليخلى مسئوليته والذي أصبح مفتشا عاما للجيش المصري بعد معاهدة ١٩٣٦ •

وعقب عودة الطلبة إلى المدرسة حاصرتهم فصيلة بريطانية وطالبتهم بتسليم سلاحهم ولكنهم رفضوا إلا إذا وصلتهم برقية من الملك فؤاد •

وأبلغهم قائد الأورطة الرابعة المصرية أن برقية قد وصلتته من الملك تطالبهم بتسليم السلاح إلى أقرب وحدة مصرية ، فسلموا سلاحهم إليه فعلا ، ولما علم الانجليز بذلك عادوا إلى حصار المدرسة الحربية •

وكان ممكنا حدوث معركة رهيبة إذا حدث اقتحام أو تلاحم ، ولكن البريطانيين تحايّلوا عليهم حتى نقلوهم إلى بواخر في النيل ثم إلى أحد السجون •

ولم يقف الأمر عند حدود الكلية الحربية ، بل إن أورطة السكة الحديد التي أنشئت مع دخول الجيش المصري إلى السودان وقامت بإنشاء طرق عديدة - أسهمت في المظاهرات حتى أطلق عليهم الرصاص بأمر الانجليز من بعض وحدات الفرسان فقتل خمسة جنود وانتهى الأمر إلى إبعادهم إلى أسوان •

ثورة يوليو ج ١ - ١٩٣٠

وحوكم على عبد اللطيف زعيم جمعية اللواء الأبيض وحوكم عليه بالسجن ثلاث سنوات حيث تعرض لمأساة شديدة بعد دخوله سجن كوبر اذ اعتدى عليه أحد المساجين بضربة على رأسه أدت الى ارتجاج فى المخ هز قواه العقلية ٠٠٠ والغالب أن الحادث كان مذبذباً .

عقب هذه الأحداث أرسلت وزارة سعد زغلول خطاباً فى ١٥ أغسطس الى الحكومة البريطانية تقول فيه انها تتابع بمزيد الحزن والأسف الحوادث الاليمة التى تتوالى فى السودان منذ بضعة أسابيع والثى اعتبرتها نتيجة طبيعية لخطأ الموظفين البريطانيين فى السودان .

وأجابت الحكومة البريطانية فى نفس اليوم بأنها (تريد أن تعلن الحكومة المصرية بأنهم الصراحة بأنها تعد نفسها مسئولة عن حفظ النظام فى السودان) .

وأضافت القول بأنها قد اتخذت العدة لتعزيز الحماية البريطانية وأجازت لحكومة السودان أن تبعد فى الحال عن السودان أورطة السكة الحديد وأى وحدة أخرى من الجيش المصرى قد يرى فيها عدم الولاء . كما مهددت بأنها (لن تتردد فى اتخاذ أى تدابير أخرى لحماية الأمن) .

ورد سعد زغلول فى ٢٢ أغسطس : ٠٠٠ رفض ان يكون للحاكم العام حق اتخاذ قرار بإبعاد جنود مصريين أو تعزيز الحاميات الموجودة هناك قبل الرجوع للحكومة المصرية ٠٠٠ وقال احتجاجاً على التصادم المسلح (ان الحكومة لتشعر بشعور الأمة تلقاء هذه الحوادث المشئومة وهى ساهرة على معالجتها بما يحفظ كرامة البلاد ويصون حقوقها) .

مصرع السردار والصدام المسلح :

كانت هذه الكلمات تعبيراً عن موقف الحكومة المصرية الوطنى وتأكيداً لمشاعر النضال المشترك ضد الاستعمار البريطانى .

ولكن ظروف الاحتلال لم تسمح للحكومة المصرية بتوفير مساندة ايجابية للقوات والشخصيات التى أنبرت للنضال .

ومع ذلك فقد وقع حادث تحيظ به الشكوك وهو مصرع سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان سيرى ستاك ظهر يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ أثناء خروجه من منزله .

انتهزت انجلترا الفرصة وقدمت يوم ٢٢ نوفمبر ائذارين الى الحكومة المصرية حملهما اللورد اللنبى الى سعد زغلول فى موكب من ٦٠٠ فارس بريطانى بهدف اشغال التوثر والوصول به الى غاية مذبذب تطالب بالآتى :

أولاً : اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية .

ثانيا : البحث عن الجناة وانزال أشد العقاب بهم .

ثالثا : منع وقمع كل مظاهرات شعبية سياسية .

رابعا : دفع نصف مليون جنيه غرامة للحكومة البريطانية .

خامسا : سحب الجيشى المظتري من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية تكون لغاظة وموالية للحكومة السودانية وحدها .

سادسا : اطلاق يد حكومة السودان فى أرض الجزيرة من ٣٠٠٠٠ فدان الى قدر غير محدوده .

سابعاً : أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية مصالح الأجانب فى مصر ، وإبقاء منصب المستشار المالى والقضائى ، واحترام نظام القسم الأوربى فى وزارة الداخلية .

وهكذا أسفرت الحكومة البريطانية عن كافة أطماعها بعد مقتل السردار ، وانتهزت الحادث فرصة لا تعوض لتحقيق أهدافها ... واستندت بمظاهرة اللورد اللنبى الى اثبات احتمال لجوئها الى القوة العسكرية .

قبل سعد زغلول البنود الأربعة الأولى من الأنداز ، ورفض الباقى فى محاولة منه لعبور الأزمة التى قال عنها (ان جريمة اغتيال السردار قد أصابت مصر وأصابتنى شخصيا) .

ولكن الحكومة البريطانية لم تقبل ذلك ، واستندت الى عدم قبوله الانذار كاملا ، واحتلت القوات البريطانية جمرک اسکندرية ، فقدمت الوزارة الوطنية استقالتها فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ بعد عشرة شهور فقط من توليها الحكم . وجاء زيوار باشا رئيسا للوزراء قابلا للانذار متساهلا فى كل شىء قائلا كلمته المشهورة التى جعل منها أساسا لسياسته (أنقاذ ما يمكن انقاذه) .

أسرعت الحكومة البريطانية فى تنفيذ مخططاتها ، فخاضعت القوات البريطانية القوات المصرية فى الخرطوم ... وأصدرت حكومة زيوار باشا أوامرها للقوات المصرية بعدم المقاومة لأنه (ليس من ورائها سوى سفك الدماء بغير جدوى) .

ووصل الموقف في السودان الى درجة الغليان ، وثارت الكتيبة (الأورطة) الحادية عشرة السودانية بقيادة عبد الفضيل المظ ، وقررت التحرك الى كوبرى الخرطوم الشمالى حيث قررت الاتحاد مع الجيش المصرى بالخرطوم بحرى ، وهنا خرجت قوة بريطانية لمنعها من الوصول . فأصدر عبد الفضيل المظ أمرا بالضرب فى البريطانيين الذين تعرضوا لها واستمر القتال حتى انتهت ذخيرتها عند منتصف الليل ٠٠٠ وهنا هجمت على المستشفى العسكرى البريطانى وقتلت بعض ضباطه ، واحتلوا نادى الضباط المصريين خلال الليل ، ولكن القوات البريطانية حاصرتهم وأطلقت عليهم النيران كما نسفت المستشفى الذى أخذته القوات السودانية حصنا لها .

استمرت مقاومة الأورطة الحادية عشرة حتى صباح ٢٩ نوفمبر واستشهد قائدها عبد الفضيل المظ أثناء القتال ، ثم اضطرت للتسليم حيث أصدرت قوات الاحتلال البريطانية حكما بإعدام ثلاثة ضباط شهداء هم حسن فضل الخولى وسليمان محمد وثابت عبد الرحيم وكان رابعهم على البنا الذى استبدل الحكم عليه الى السجن المؤبد .

واعتبر يوم الاعدام ٢٥ ديسمبر يوم حداد عام فى السودان .

وفصل الاستعمار ١٧ ضابطا رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحاكم العام وفروا الى مصر كما حضر اليها عدد من طلبة المدرسة الحربية حيث عملوا جميعا فى الجيش والبوليس .

ودخلت الثورة سجن كوبر مرة أخرى عندما علم المسجونون السياسيون بالحوادث فقدموا الى المحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، وصدر حكم ثالث بالسجن على على عبد اللطيف لمدة سبع سنوات وانتقل من سجن كوبر الى سجن واو .

وثارت الأورطة العاشرة السودانية فى ديسمبر ١٩٢٤ عقب سماع أحكام الاعدام واستولت على مدينة واو ، وثارت الكتيبة ١٣ فى الأبيض ولكن الاستعمار البريطانى استطاع فى النهاية أن يفرض نفوذه على الموقف ٠٠٠ ومع ذلك قبلت حكومة زيوار باشا أن تشترك فى نفقات القوات العسكرية فى السودان بمبلغ ثلاثة أرباع مليون جنيه سنويا .

وهكذا اكتملت مؤامرة الاستعمار البريطانى ضد الوجود المصرى على السودان ٠٠٠

الجيش بعد نكسة ١٩٢٤ :

خرجت الوحدات المصرية كلها من السودان ، وحولت الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة مسلحة سودانية تابعة للحكومة السودانية وحدها .

وصدر قرار من الحاكم العام السودانى بإنشاء قوة دفاع السودان يوم ١٧ يناير ١٩٢٥ يكون له فيها حق منح العرائض للضباط وتعيينهم وعزلهم مع تحمل حكومة السودان لكل التزامات المرتبات .

ولم يجد زيوار باشا أمام هذا القرار الذى يفصل بين وحدة المصريين والسودانيين فى وحدات الجيش قسرا وبحد السكين الا أن يرسل الى الحاكم العام معلنا (أسف) الحكومة المصرية لهذا الموقف الذى (سبب للحكومة المصرية قلقا حقيقيا كما أحدث انزعاجا عظيما لارأى العام فى مصر) .

وانهى خطابه قائلا : (لا يسعنى بحق الا أن أقرر فى هذا الشأن تحفظات مصر القانونية ، وأن أؤكد فى الوقت نفسه بصفة خاصة أن الحكومة المصرية تعتبر أن الظروف العارضة التى قضت بعودة الجنود المصريين وكذلك الظروف الخاصة بتأليف قوة الدفاع عن الأقاليم السودانية ، كل هذا لا يمكن أن يؤثر فى حل مسألة نظام السودان البنىائى ، تلك المسألة المحتفظ بها للمفاوضات المقبلة كما أنها لا يمكن أن تضعف ما بين مصر والسودان من الروابط التى لا انفصام لها) .

ولكن خطاب زيوار لم يمنع من تنفيذ الخطر قرار فى تاريخ العلاقات بين الدولتين حيث أنهى الصلة الوطيدة التى كانت قائمة بين المصريين والسودانيين فى اطار الجيش .

وأصبح الجيش المصرى لأول مرة من عهد محمد على مكونا من المصريين فقط ولم يعين له سردار بريطانى بعد مقتل سيرلى ستاك . . . وكان سردار الجيش المصرى يعين فى منصب الحاكم العام كما كان الأمر مع كيتشنر ووينجت ولى ستاك .

انفصل المنصبان بتعيين سير جيفرى آرثر حاكما عاما للسودان بدلا من سيرلى ستاك .

وانشئت وظيفة (مفتش عام الجنود المصريين) باعتبارها أكبر منصب عسكرى فى مصر ، يعادل وظيفة السردار التى اقتصرت على السودان . . . وعين اللواء سبنكس باشا فى هذا المنصب فى يناير ١٩٢٥ .

ومع ذلك فقد ظهرت تحت ضغط المعارضة المصرية فكرة تعيين سردار مصرى للجيش . . ولكن الحكومة البريطانية عارضت ذلك بشسدة حتى لا يصبح هناك نفوذ مصرى على الجيش ، واستبدلت ذلك بالإتفاق مع حكومة زيوار باشيا على انشاء مجلس للجيش ولجنة للضباط تكون لها مسئولية برلمانية .

وكان سينكس باشا عضوا فى هذه اللجنة التى أصبح تشكيلها بمثابة عامل اضعاف لنفوذ أى سردار للجيش فى حالة تعيينه . . هذا فى الوقت الذى زاد فيه التركيز على دعم المركز للمفتش العام البريطانى .

وقد أدت عودة الجيش المصرى من السودان الى خفض عدد قواته الى أقل من النصف وزيادة نسبة الضباط فيه وهم الذين كان بعضهم يقوم وحدات سودانية . . كما نشر الدكتور عبد العظيم رمضان فى مجلة السياسة الدولية عدد يناير ١٩٧٥ نقلا عن جريدة المقطم الصادرة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٤ التى نشرت ان عدد الجنود كان ٨٠٠٠ وعدد الضباط يربو على ٥٠٠ منهم ٣٠٢ عائدین من السودان .

وحاولت حكومة زيوار معالجة ذلك بزيادة عدد القوات المصرية ونقل عدد من الضباط الى البوليس والمصالح الاخرى .

أما التسليح فقد انهار وتخلف تنفيذ الخطة البريطانية التى كانت تحتفظ بمسئولية الدفاع عن مصر .

لم يكن هناك سلاح الطيران ولا مدرسة بحرية : وقال اللواء صالح حرب باشا فى مجلس النواب ، جلسة ٢١ يونيو ١٩٢٧ (ان الفرق بين مدافع الطوبجية (المدفعية والاشخاب يسير للغاية) . . ولم يكن عدد المدافع التى يملكها الجيش فى ذلك الوقت يزيد عن ٢٤ مدفعا .

وقال عبد الرحمن عزام الذى سبق له الاشتراك مع العثمانيين فى حرب ليبيا فى جلسة مجلس النواب يوم ١٦ فبراير ١٩٢٧ (لا يمكن أن يوجد فى مملكة واحدة جيشان . الجيش المصرى وجيش الاحتلال ، لأنه مع بقائه يتعذر اصلاح الجيش وتكون كل زيادة فى عدده عبثا) . . ثم يتمادى فى رأيه فيقول : (ورأى أنه اذا تعذر اصلاح الجيش وجب الغاؤه) .

واعترض عبد الحميد سيد عضو الحزب الوطنى وعضو مجلس النواب فى جلسة ٦ سبتمبر ١٩٢٦ على بقاء مبلغ ثلاثة أرباع مليون جنيه ضمن الميزانية كـمـصـروفـات على الجيش فى السودان فى وقت أن (أنشأ حاكم السودان بأمر من الحكومة الانجليزية جيشا منفصلا عن الجيش المصرى تمام الانفصال) .

وكان ابتعاد الجيش المصري عن السودان • وقصر التجنيد فيه على المصريين أمرا جديدا يتم لأول مرة بعد أكثر من قرن كامل اختلط فيه أفراد الشعبين في وحدات عسكرية مشتركة • ونسجت علاقات اجتماعية دينية بين الضباط المصريين والسودانيين •

وعلى سبيل المثال فإن جد محمد نجيب لوالدته ووالده وخاله كانوا جميعا من المصريين الذين عاشوا في السودان وجاربوا ودفنوا هناك •

ولذا كان تصور المصريين بأن ابتعاد الجيش المصري عن السودان هو أمر مؤقت لا يمكن أن يستمر ويدوم • هو الشعور السائد ، وهو مادفع فكري أباطة الى المطالبة في مجلس النواب بالاحتفاظ بالمبلغ المدرج في الميزانية لمصاريف الدفاع عن السودان أو تخفيضه كرمز للعلاقة الوثيقة الجالدة بين الشعبين •

وخلال هذه الفترة لم تستطع قوات الاحتلال أن تقيم سدا عازلا بين مصر والسودان • • فقد ظلت العلاقات حية ومتجددة ، على الصعيد الشعبي والسياسي ، واستمر موضوع السودان نقطة أولى في المفاوضات المتكررة بين الحكومتين المصرية والسودانية وموضوع مناقشة دائمة تحت قبة البرلمان •

وحضر الى مصر الزعيم السوداني علي عبد اللطيف بعد الافراج عنه حيث دخل مستشفى الامراض العقلية متأثرا باصابته في رأسه داخل سجن كوبر • • وظل محل رعاية الحكومة المصرية حتى وافاه الأجل في ٢٩ مايو ١٩٤٨ •

وتدفق عدد من الضباط السودانيين الوطنيين الراضين لمحاولة الاستعمار البريطاني عزل وطنهم عن مصر والانفراد بالسيطرة عليه • ووجد هؤلاء الضباط في مصر ترحيبا وتأييدا من معظم الجهات وخاصة من الوفد •

وفي ذلك يقول محمد عبد الرحيم في كتابه (الصراع المسلح على الوحدة في السودان) انه قابل النحاس باشا رئيس الوفد الذي قال له انه قرأ في الصحف أن فريقا من الضباط السودانيين بلغوا القاهرة عقب نكسة ١٩٢٤ بعد عناء وشقاء ولم تصرف لهم مرتباتهم عدة شهور • • • واتصل بهم النحاس باشا كحاكم وطلب منهم تفويضا له لمطالبة الحكومة بحقوقهم فأجابوه الى ذلك ورفع لهم قضية طلبة فيها لكل ضابط ١٣٠٠٠ جنيه وعندما بلغت الجلسة الأخيرة التي ينطق بالحكم فيها لصالحه كلفه الملك فؤاد بتشكيل وزارته الأولى عام ١٩٢٨ • فكان أول قرار أصدره

بصفته رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية هو الحاق هؤلاء الضباط ببلكات
الخفر وصرف مرتباتهم وعلاواتهم المتأخرة . مع ترقية الذي يستحق
الترقية منهم .

وكان الضابط السوداني على البنا الذي صدر ضده حكم الاعدام في
نوفمبر ١٩٢٤ ثم استبدل بالسجن المؤبد فد أمضى ١٠ سنوات في سجن
واو ، ثم أفرج عنه وسافر فورا الى مصر حيث ساعده الأمير طوسون على
التعيين في وظيفة مدنية الى أن تولى النحاس باشا رئاسة وزارته الثانية
حيث كان حمدي سيف النصر وزيرا للحربية فأعاد على البنا الى الجيش
برتبة اليوزباشي حيث صار يتدرج في سلم الترقيات الى أن أصبح كبيرا
للياوران بعد ثورة ١٩٥٢ في عهد محمد نجيب .

وظلت الأمور على ما هي عليه ١٢ عاما كاملة رغم محاولة حكومة
الوفد اقرار بعض القواعد الاصلاحية للجيش عام ١٩٢٨ فوصلت الى
الاسكندرية ثلاث بوارج حربية بريطانية للتهديد . وخرجت حكومة
الوفد . ورقى سبنكس باشا الى رتبة (فريق) .
وأخيرا وقعت معاهدة ١٩٣٦

الحركة السياسية قبل ثورة يوليو :

نصت معاهدة ١٩٣٦ على عودة الجيش المصري الى السودان بعد
أن انتهت خدمة الضباط البريطانيين في الجيش المصري وتلى رأسهم
المفتش العام واستبدلهم ببعثة عسكرية بريطانية كان مقرها في كوبري
القبة .

واستقبل الجيش السوداني عودة الجيش المصري بترحيب صادق
وغمر جنوده بالورود والهتافات والزغاريد فقد وجد فيه باعثا على حيوية
الكفاح المشترك ضد الاستعمار البريطاني .

عاد الجيش المصري الى السودان بقيادات مصرية غير خاضعة
للبريطانيين ، وموقفها من الحاكم الصام يختلف عن موقفها سابقا حيث
كان سردار الجيش المصري هو الحاكم العام في نفس الوقت .

عاد الجيش المصري بينما لم يزر السودان واحد من رؤساء الأحزاب
المصرية أو كبار السياسيين سوى على ماهر وحافظ رمضان .

وكانت الروح السائدة أن معاهدة ١٩٣٦ هي كما أطلق عليها
مصطفى النحاس (معاهدة الشرف والاستقلال) وأن عودة الجنود
المصريين تشكل انتصارا وطنيا للنضال المشترك ضد الاستعمار
البريطاني .

وانتهز المثقفون السودانيون فرصة عقد معاهدة ١٩٣٦ وعودة العلاقات بين البلدين الى صورة شبه طبيعية وكونوا مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٧ وضموا اليه صغار الموظفين والبرجوازية الوطنية والطلاب ، وعقد المؤتمر الأول في فبراير ١٩٣٨ حضره ١١٠٠ خريج وتكون له مجلس ادارة من ٦٠ عضوا انتخبوا من بينهم ١٥ عضوا لهيئة تنفيذية انتخبوا اسماعيل الأزهرى سكرتيرا عاما له .

ومع ذلك فان الفصل قد تم بطريقة عملية فلم يكن هناك ضباط مصريون في قوة الدفاع السودانية ولم يعد الجيش المصرى مطعما بقوات سودانية اللهم الا الذين هربوا من السودان احتجاجا على أحداث ١٩٢٤ أو سافروا الى مصر بعد الافراج عنهم من السجون السودانية . واقتصر دخول المدرسة الحربية في الخرطوم على السودانيين .

كما أن الجيش المصرى لم يكلف بواجبات دفاعية ولم تكن قد تكونت فيه حتى هذه المرحلة تشكيلات قتالية ، بل كان أسلحة منفصلة يكاد كل منها لا يعرف شيئا عن طبيعة الآخر حيث انعدم التدريب المشترك والمناورات أيضا .

وخلال هذه الفترة تدفق جيل جديد من الضباط لم يخدم في السودان من قبل ولم تتوافر له الصلات التي توافرت للجيل السابق من الضباط . جيل محمد نجيب ومن سبقه .

وانتقل جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ضمن ضباط الكتيبة (الأورطة) الرابعة المشاة الى السودان في ديسمبر ١٩٣٩ حيث بقى هناك سنتين الى ديسمبر ١٩٤١ وهي المدة التي كانت مقرررة لبقاء الكتيبة المصرية في السودان .

وتنوعت واجبات القوات المسلحة خلال الحرب . . . واعتمد البريطانيون على قوة الدفاع السودانية وحدها فتحركت بعض الوحدات الى ساحة القتال في ليبيا وأثيوبيا وشرق أفريقيا . ويقدر عددها بحوالى ٧٠.٠٠٠ جندي ، وكانت بذلك أكبر قوة عسكرية من الجنود الافريقيين اعتمد عليها البريطانيون .

أما الجيش المصرى فلم يضع البريطانيون له دورا أو واجبا في خطة قتالهم الا ضمن خطة الدفاع الجوى عن القاهرة والاسكندرية ومدن القناة فقط . . . وذلك ألهم كانوا يخشون تزويدهم بالأسلحة الحديثة مع وجود خميرة من العناصر الوطنية المعادية للاحتلال البريطانى المتأثر بالحركة السياسية خارج الجيش . وخاصة بعد دخول أبناء البرجوازية الصغيرة الى الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦ .

وقد نجم عن تجميع أعداد كبيرة من السودانيين أزمة شديدة عام ١٩٤٥ عندما انتهت الحرب وقررت الحكومة البريطانية تسريح الجنود بلا مكافأة ، الأمر الذي أدى إلى إعلان قوة الدفاع السودانية للعصيان وكانت هذه أول حركة معادية بعد أحداث ١٩٢٤ .

واضطرت الحكومة البريطانية إلى تسوية الموقف بدفع مكافآت للجنود وتشكيل مجلس استشاري للحاكم العام من رؤساء القبائل والطوائف الدينية .

ولكن مؤتمر الخريجين قاطع المجلس الاستشاري ، بعد رفض الحاكم العام البريطاني للمذكرة التي كان قد تقدم بها مؤتمر الخريجين عام ١٩٤٢ يطالب فيها بحكومة سودانية بعد انتهاء الحرب ، والغاء احتكار الحكومة للتجارة الخارجية .

رفض الحاكم العام البريطاني المذكرة ، ورفض أيضا الاعتراف بالمؤتمر كممثل للشعب السوداني .

وبدأت مع عام ١٩٤٥ ومن مواجهة مؤتمر الخريجين للمجلس الاستشاري فكرة تكوين الأحزاب . فشكل حزب (الأشقاء) برئاسة اسماعيل الأزهرى سكرتير مؤتمر الخريجين . وحزب (وادى النيل) الذى أسسه الدرديرى اسماعيل وحزب (الأحرار الاتحاديين) ، وقد اندمجت جميعا فى الحزب الوطنى الاتحادى عام ١٩٥٢ .

كما تشكل حزب الأمة فى ٢٨ يناير ١٩٤٥ تحت رعاية السيد عبد الرحمن المهدي ويضم نظائر العشائر وشيخه الاقطاعيين ، وبعض المثقفين المرتبطين فكريا وماديا بالثقافة الغربية .

ولم تكن تنتهى الحرب العالمية الثانية حتى تفجر النضال الشعبى فى مصر والسودان ضد الاستعمار البريطانى . . ولم تشهد مصر فترة زلخنة باضرابات ومظاهرات وإعتصامات الجماهير الشعبية من عمال وطلبة ومهنيين مثما شهدت فى هذه الفترة التى برز فيها ٢١ فبراير ١٩٤٦ كيوم من أمجد أيام نضال الشعب المصرى ، عندما تصادمت جماهير الشعب مع قوات الاحتلال القابضة خلف ثكنات قصر النيل فى ميدان الاسماعيليه (التحرير فيما بعد) وسقط ٢٣ قتيلا ، و١٢١ جريحا ، وذلك خلال حكم اسماعيل صدقي الذى خلف وزارة محمود فهمى النقراشى التى ارتكبت جريمة الاعتداء على الطلبة المشهورة بحادث كوبرى عباس يوم ٩ فبراير .

كان الضباط المصريون قد بدأت صلاتهم بتعقد خلال هذه الفترة الباهرة من فترات النضال الوطنى مع التنظيمات السياسية وخاصة

الاخوان المسلمين ، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وهى تنظيم الشيوعيين .

ولم تستطع الأحزاب (الوفد وأحزاب الأقلية) اجتذاب الضباط الي صفوفها لأسباب كثيرة أوضحناها فى الجزء الأول (قصة ثورة ٢٣ يوليو) .

أما فى السودان فالموقف كان يختلف ، كانت هناك صلات قبلية وطائفية وعائلية تربط ضباط الجيش بالأحزاب التى نشأت بعد الحرب العالمية الثانية وذلك انعكاسا لطبيعة المجتمع السودانى البسيط .

والى جانب الأحزاب التى أشربنا اليها والتى انفلقت عن مواجهة مؤتمر الخريجين للمجلس الاستشارى ، ظهر التنظيم الشيوعى (الحركة السودانية للتحرر الوطنى) والذى نبت فى أحضان (الحركة المصرية للتحرر الوطنى) ثم انفصل عنها بعد ان اكتمل نضجه واستوت عناصره .

وكان الخط السياسى للحركة الجديدة الناشئة يدعو الى (الكفاح المشترك للشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار مع حق تقرير المصير للشعب السودانى) .

كان اقتران الهدفين مجا ذا مغزى سياسى هام . لأن الاستعمار البريطانى كان يشجع فكرة (حق تقرير المصير للشعب السودانى) مفرغة من محتواها الوطنى ، اذ أنه كان يود اعطائه هذا الحق فى ظل النفوذ والسيطرة الاستعمارية ، كما أن بعض المصريين تسرعوا فى مهاجمة فكرة تقرير المصير باعتبارها تنفيذا لما يطمح فيه الاستعمار .

هذا بينما كان رفع شعار (الكفاح المشترك) ضربة شديدة موجهة للتخطيط الاستعمارى الذى كان يثير عواطف السودانيين ضد شعار (وحدة وادى النيل) باعتباره محاولة للتسلط فى الشمال على الجنوب .

وبدأت الحركة السودانية للتحرر الوطنى تظهر ايجابيتها عندما قادت الشعب السودانى فى مظاهرات عنيفة يوم ١١ مارس ١٩٤٦ تأييدا لنضال الشعب المصرى ضد الاستعمار ، وفى أعقاب مظاهرات الاسكندرية فى يوم الحداد ٤ مارس ١٩٤٦ .

كانت هذه أول مظاهرات يشهدها السودان بعد ٢٢ عاما منذ أحداث ١٩١٤ .

وكانت الحركة السودانية للتحرر الوطنى التى تكونت فى مطلع ١٩٤٦ من خلية صغيرة من المثقفين وبعض الطلبة وعناصر قبلية من العمال قوة ناشئة ذات أفكار جديدة نابعة من الماركسية اللينينية .

وكان لهذه الحركة نظرة للنضال السابق في السودان كما ورد في كتاب (لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوداني) الطبعة الثانية الذي جاء فيه (إن الشعار الرئيسي للحركة وحدة وادي النيل يعبر عن العجز السياسي والاقتصادي للطبقة الوسطى السودانية أكثر من التعبير عن رغبة الجماهير الشعبية في الانعتاق من عسف الاستعمار البريطاني ، يندفع على هذا أن أقساما كثيرة من جماهير الشعب السوداني كانت ترى - على حق - في الجنود المصريين المسجونين والموظفين المصريين جزءا من القوة التي سحقته استقلال البلاد قبل سنوات ، وقامت بأعمال شائنة ضد المواطنين ، وكذلك كان المأمير المصريون أمام أعينهم ينفذون في قسوة تعاليم الاستعمار وأوامره ، لهذا فإن شعار وحدة وادي النيل كان عاجزا عن تعبئة الجماهير في حركة ضد الاستعمار .

وتتطور نظرة الحركة السودانية لتحرير الوطني في القول بأن ممثلي الطبقة المتوسطة الذين تكون منهم مؤتمر الخريجين ورفعوا شعار وحدة وادي النيل تحت التاج المصري والذين ادعوا أنهم تحت هذا الشعار يضمون تأييد مصر ، ونسوا أن الدوائر الحاكمة المصرية كانت تمنح التأييد لشعب السودان على أمل زحزحة النفوذ البريطاني ونيل مكاسب استقلالية في السودان . . وأن قوة القضية السودانية لا تنبع من تأييد البلاط الملكي المصري بل من عدالة هذه القضية واستعداد شعب السودان للنضال في سبيلها .

وهكذا نشأ اتجاه سياسي جديد في السودان لا يتطابق مع الاتجاهات التي انفلقت عن مؤتمر الخريجين وتركزت في حزب الأمة أو الوطني الاتحادي .

وبعد انتفاضة ١٩٤٦ في مصر ، واضراب الطوائف المختلفة عام ١٩٤٧ وفشل مشروع صدقي بيفن ، وجيرة الأحزاب السودانية في مجابهة الموقف ، حدث خلاف في وجهات النظر داخل الحزب الشيوعي السوداني . نتيجة موقف بعض عناصره القيادية التي رددت شعار (وحدة وادي النيل تحت التاج المصري) ولم تجرؤ على إعلان برنامج الحزب والوثيقة المشتركة التي وضعت مع الشيوعيين المصريين ونادت بالجلال عن مصر والسودان وعق الشعب السوداني في تقرير مصيره ، كما أن البعض منهم قد تمادى لخطب مؤيدا التاج المصري ، حتى أطلق على بعضهم اسم (الشيوعيون الملكيون) .

وحسم هذا الموقف في صيف عام ١٩٤٧ إذ تقرر فصل العناصر المسيطرة على الحزب .

وانطلقت الحركة الجماهيرية بعد ذلك فى مسارها الجديد ووصلت الى الطبقة العاملة التى اتسع نطاق اضراباتها حتى أصبح عام ١٩٤٨ عام تحول فى الحركة الوطنية السودانية ووضع الأساس لاستقلال البلاد فيما بعد .

ولكن الحزب الشيوعى ظل مع ذلك غير بارز كقوة منفردة فى الحياة السياسية واتجه بعض أعضائه للعمل داخل الأحزاب الأخرى .

ودخل الحزب أزمة جديدة فى مطلع عام ١٩٤٩ عندما بدأ المد الجماهيرى ينحسر بعد حرب فلسطين ، ويخرج من صفوف الحزب عشرات من المثقفين ، وعقد أول اجتماع تداولى وأديننت فيه سياسة عوض عبد الرازق سكرتير الحزب وتقرر فصله وانتخاب الشهيد المناضل عبد الخالق محجوب سكرتيرا عاما للحزب .

وانفتح الحزب بعد ذلك على مختلف الطوائف والفئات ، ووصل الشهيد المناضل الشفييع أحمد الشيخ الى مركز سكرتير اتحاد نقابات عمال السودان ، وحاول الاستعمار أن يحل الاتحاد عام ١٩٥١ ولكن تطور الحركة الوطنية فى السودان أدى الى تكوين الجبهة المتحدة لتحرير السودان فى أوائل عام ١٩٥٢ ، وفيها اتحاد النقابات الذى دعا الى الأحزاب فى أبريل ١٩٥٢ ردا على محاولة الاستعمار تعديل قوانين النقابات .

وقد أدى ضعف نظام الحكم الملكى فى مصر بعد حريق القاهرة وسرعة تغيير الوزارات الى تركيز القوى الحزبية السودانية على العمل فى صفوف الجماهير ، ونمو فكرة النضال المشترك ضد الاستعمار فى مصر والسودان .

وكما كانت حركة الجيش تنحصر فى مصر كانت الحركة الجماهيرية فى السودان تزداد اشتعالا .

الفصل الثانى

السودان .. وحركة الجيش المصرى

(ثم أقرأ فى حياتى قبل ٢٣ يوليو
عن السودان مبنى القصر العيسر)
« صلاح سالم »
(أن لحسم أكتفى من نفسى ولكن
هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم
والعسكريون فى مصر ؟)
« اسماعيل الأزهري »

كان انبعاث حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ موقفتك تأييدك شامل من
جماهير الشعب السودانى ، وكان تعيين محمد نجيب قائدا للقوات المسلحة
ثم رئيسا للوزراء رئيسا للجمهورية محل حفاوة وترحيب الكثير
من السياسيين الذين كانت تربطه بهم علاقات شخصية وثيقة .
عندما مر وفد السودان بالقاهرة فى طريقه الى لندن عام ١٩٣٦ لعرض
قضية السودان زار أعضاء الوفد جميعا منزل محمد نجيب ٥٠٠ م وكان
ما يزال ضابطا برتبة اليوزباشى . وكان الوفد يضم محمد عثمان الميرغنى
والصديق المهدى قطبا الطائفية فى السودان : الختمية والانصار .
ومحمد نجيب أمضى طفولته وصباه فى السودان مع والده يوزباشى .
يوسف نجيب الذى خدم ومات هناك حيث دفن مع جد محمد نجيب

لوالدته ، وخاله أيضا ، وعندما ذهب محمد نجيب الى المدرسة الحربية في القاهرة في ابريل ١٩١٧ لم يبق بها سوى شهر عاد بعدها ضابطا في الكتيبة ١٧ مشاة بالسودان في فبراير ١٩١٨ وهي نفس الكتيبة التي كان والده يخدم بها .

وبقى نجيب في الجيش المصري بالسودان حتى ٢٣ ابريل ١٩٢٣ حيث نقل ضابطا في الحرس الملكي بمصر . ولم يمنعه ذلك من الاتصال بالمناضلين السودانيين الذين هربوا من السودان الى مصر ، ولذا نقل من الحرس الملكي في مايو ١٩٢٥ ، وأتاح له ذلك مزيدا من حرية الحركة والاتصال بزملائه الضباط السودانيين ومنهم السيد فزح الذي هرب بعد الحكم عليه بالاعدام وترقى في الجيش المصري حتى أصبح محافظا لمطروح في سلاح الحدود ، واللواء عبد العزيز عبد الحى الذى عين مديرا لأسوان .

لم تكن هناك حساسيات ولا فروق في تعيين السودانيين في المناصب الكبرى حتى في السراى مثل عبد الله النجوى الذى كان ياورا للملك .
لم يعد محمد نجيب للسودان بعد ذلك الا في بعثة كان يرأسها اللواء ابراهيم خيري وكيل وزارة الحربية عام ١٩٣٦ لتنظيم اعادة الجيش بعد توقيع المعاهدة وهناك قام بزيارة أسر الضباط الهاربين الى مصر .

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية وولدت الى الصحراء الغربية وليبيا بعض وحدات قوة الدفاع السوداني وعسكرت في منطقة بنى يوسف بمحافظة الجيزة وكان محمد نجيب كثير التردد عليهم عاقدا لصلات الود معهم ، مستعينا بالأمير عمر طوسون وبنك مصر والجمعية الزراعية لمساعدتهم وتقديم الهدايا لهم .

وعندما بلغ ذلك ادارة المخابرات البريطانية أصدرت أوامرها لضباط القوات السودانية بعدم النزول الى القاهرة أو قبول دعوات المصريين .

وخلال عام ١٩٤٦ لعب محمد نجيب دور الوسيط بين مجموعات من السودانيين فلفت ذلك نظر السفارة البريطانية التي أرسلت خطابا الى محمود فهمى النقراشى تلفت فيه نظره الى (ان القائمقام محمد نجيب قد اعتاد على عقد اجتماعات مع بعض السودانيين بمنزل رقم ٧ شارع سكة الميدانين بسراى القبة للتباحث في الشؤون السياسية) .

ويقول محمد نجيب ان النقراشى باشا قد استدعاه لمناقشته ، وعندها علم منه انه قدم عدة أبحاث ودراسات عن السودان بدأها عام ١٩٤٣ .

بمعنوان (ماذا يجري في السودان) ، (يد الاستعمار على حدود السودان) ،
(اللغة والأدب في جنوب الوادي) ومقالات في مجلة الجيش .

وعندما علم النقراشي باشا بذلك طلب منه بحثا عن قضية السودان
لينحمله معه الى نيويورك أثناء عرض قضية مصر على مجلس الأمن . . .
وانعقدت الصلة بين الرجلين حتى قتل النقراشي ، وخلال حرب فلسطين
كانت هناك فصيلة من المتطوعين السودانيين بالمجدل ضمن وحدات قيادة
نجيب الذي كان قد وصل الى رتبة الأميرالاي « الغميلة » .

هكذا كان محمد نجيب وهو على قمة ثورة يوليو مؤهلا بحكم تاريخه
وعلاقاته لاكتساب ثقة السودانيين ودعم روح التضال المشترك بين
الشعبين ضد الاستعمار البريطاني .

وعندما حل الملك فاروق مجلس إدارة نادي الضباط وعزل محمد
نجيب الرئيس المنتخب لجأ الى محمد أحمد محبوب بصفته محاميا لرفع
الأمر الى القضاء . ويقول محبوب ان ذلك لم يتحقق لسببه بسيط هو
قيام الثورة بعد يومين من الحديث .

ولم يكن محمد نجيب هو صاحب الصلة الشخصية الوحيدة
بالسودان من أعضاء مجلس قيادة الثورة . . كان هناك أيضا الصاغ
صلاح سالم الذي ولد في قرية سناكات عام ١٩٢١ ولكنه كما روى الدكتور
محمد المعتظم في كتابه « صلاح سالم » كان بعيدا عن أية صلة بالسودان
اذ يقول على لسانه (لم أقرأ في حياتي قبل ٢٣ يوليو عن السودان سوى
الجزر اليسير . . لم أقرأ سوى كتابين أحدهما استخفني عنوانه عن الصيد
والغامرات في غابات جنوب السودان لعطا اثنا سيبوهي ، والآخر لتشرشل
بمعنوان (حب النهر) . . ولم يكن لي صديق سوداني واحد يحدثني
وأتحدث معه في شئون بلاده وأهله . . لم أسمع شيئا عن السودان الا من
والدي الذي أمضى زهرة شبابه وحياته في ربوع هذا القطر) .

وقد ارتبط صلاح سالم بقضية السودان بمصادفة وحين غير قصبة
فقد كان مكلفا بشئون الجيش في بداية الثورة الى جانب اللواء محمد
نجيب كل من الصاغ عبد الحكيم عامر مدير مكتبه الصاغ كما الدين
حسين والصاغ صلاح سالم .

وتصادف أن تلقى صلاح سالم مكالمة من اليكباشي عبد الفتاح حسن
الياور المصري للحاكم العام في الخرطوم يبلغه فيها أن بعض الجنود
السودانيين الذين جندوا بعد حريق القاهرة ثم سرحوا وأرسلوا الى السودان

ثورة يوليو ج ١ - ٩٢٩

قد تظاهروا ضد مصر لانهم لم يحصلوا على مكافأة ترك بخدمة ورغم أن القانون لا يسمح بصرف هذه المكافأة فان صلاح سالم أصدر قراره بصرفها باعتباره مكافأة بمسئولية قوات الجيش في السودان .

وفي أغسطس ١٩٥٢ كلف المجلس صلاح سالم بالاشراف على شئون السودان بعد أن كان هناك اتجاه لتكليف خالد محيي الدين بذلك .

وتوافدت على القاهرة وفود الأحزاب السودانية للتعرف على رجال مجلس قيادة الثورة الذين لم يعرفوا منهم الا محمد نجيب .

حضر ممثلو كافة الأحزاب المؤيدة للاتحاد مع مصر ، والمعارضة له أيضا . حضر السيد عبد الرحمن المهدي واعتذر عن عدم الحضور السيد علي الميرغني لمرضه .

وبدأت مفاوضات قادة حركة الجيش مع مندوب الأحزاب بوفد مصري مشكل برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء ، وعلى ماهر وعبد الرازق السنهوري والصابغ صلاح سالم وقائد الجناح حسين ذو الفقار صبرى .

ورغم أن مندوبي هذه الوفود كانوا يلتقون بجمال عبد الناصر الا أنه لم يكرس جانبا كبيرا من وقته لموضوع السودان ، حيث استغرقت المشاكل الداخلية في مصر خارج الجيش وداخله .

ولكن استبان من اللخطة الأولى أن موقف حركة الجيش لم يكن جامدا في مواجهة مشكلة السودان التي تحطمت عليها معظم المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية .

كانت حركة الجيش في مضمونها الحقيقي حركة تحرر وطني لا تستطيع رفض مبدأ تقرير المصير لشعب شقيق .

ويؤكد هذه الحقيقة محمد أحمد محبوب في كتابه (محاكمة الديمقراطية) قائلا أنه قد سمح لهم لأول مرة بالنشر في الجرايد المصرية دفاعا عن فكرتهم الاستقلالية وأنهم وجدوا من حركة الجيش تحولا في النظرة الى مشكلة السودان .

وعبارة (تقرير المصير) كانت محل خلاف شديد . . اذ كان ينادى بها البريطانيون قبل الحركة لثقتهم من قوتهم ونفوذهم على السراي وأحزاب الأقلية في مصر وانفرادهم بحكم السودان حكما غير ديمقراطي .

وقد أيد الاتحاد السوفيتي جلاء الاحتلال البريطاني عن مصر والسودان عند عرض قضية مصر أمام مجلس الأمن كما أيد مبدأ تقرير المصير لشعب السودان بعد جلاء البريطانيين .

وكانت دعوة البريطانيين لذلك تستهدف فصل مصر عن السودان
فصلاً نهائياً ، وقد بادر الحاكم العام في أوائل ١٩٥٢ بعد إلغاء مصطفى
النحاس لمعاهدة ١٩٣٦ واتفاقية ١٨٩٩ بإعلان دستور للحكم الذاتي
للسودان .

ومن الجانب الآخر كانت الأحزاب المصرية ترفض تماماً فكرة تقرير
المصير .

قال لي فؤاد سراج الدين إن محمد صلاح الدين وزير الخارجية
الوفدى فاجأهم قبل سفره الى باريس في يناير ١٩٥٢ بحضور اجتماعات
هيئة الأمم بأنه يريد القاء قنبلة يتحدى بها البريطانيين على أساس
قبول الاستفتاء إذا خرج الموظفون البريطانيون من هناك .

ولكن الحكومة لم توافق لمخالفة ذلك لسياسة الوفد وخشيتهم من
التدحرج لقبول مبدأ الاستفتاء وما قد يصحب ذلك من تمثر الضمانات
المطلوبة لاستفتاء حر سليم .

وقد تراجع محمد صلاح الدين عن رأيه ولكن الوزارة الوفدية
فوجئت بخطابه يوم ٢٣ يناير يكرر ما سبق أن قاله لسراج الدين . . .
 واجتمع مجلس الوزراء فوراً لمناقشة خطاب صلاح الدين وانبرى بعض
الوزراء لمهاجمته وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين الذى تحدث عن (الحياة
الوطنية العظمى) التى ارتكبها وزير الخارجية . . وأمر النحاس باشا
باستدعائه على أول طائرة ولكنه وصل يوم ٢٧ يناير بعد اقالة الحكومة
الوفدية .

التنظيمات الوحيدة التى أيدت (حق تقرير المصير) للسودان قبل
حركة ٢٣ يوليو كانت التنظيمات الشيوعية التى ورد ضمن برنامجها
المنشور في ١٧ ابريل ١٩٥١ بمجلة روزاليوسف (حرية الشعب السودانى
وحق تقرير مصيره بنفسه وتأييد كفاحه من أجل التحرر الكامل وجلاء
جميع القوات الاستعمارية البريطانية والمصرية من أراضيه) .

لم تستمر المفاوضات بين مجلس القيادة ومنادى الأحزاب
السودانية فترة طويلة فسرعان ما تم الاتفاق يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٥٢ على
قبول أمرين :

أولهما توحيد الأحزاب السودانية عدا حزب الأمة عن طريق تفويض
لجنة ثلاثية من الدرديرى أحمد اسماعيل وخضر حمد وميرغنى حمزه
لوضع ميثاق تأليف حزب واحد انتهت الى تشكيل (الحزب الوطنى
الاتحادى) مع اختيار اسماعيل الأزهري رئيساً له ومحمد نور الدين نائباً . .

وثانيهما قبول مبدأ تقرير المصير والخضوع لنتيجة الاستفتاء الذى يتم حوله .

وهكذا أمكن لحركة الجيش مواجهة البريطانيين بأسلوبهم مع ضمان توحيد الأحزاب السودانية فى حزب واحد برأى موحد هو (الاتحاد مع مصر) . مع ضمان موافقة حزب الأمة على نتيجة الاستفتاء أيا كانت .

وهذا مما يفسح الطريق للاتحاد مع مصر حيث كان حزب الأمة يمثل الإقليمية فى رأى مجلس القيادة .

وبعد ما وصلت المفاوضات مع الأحزاب السودانية الى هذه النتيجة فى ٢٨ أكتوبر تشعب النشاط السياسى الى شعبتين .

اتفاقية فبراير ١٩٥٣ :

سافر صلاح سالم الى السودان لأول مرة فى نوفمبر ١٩٥٢ حيث استقبل بترحاب شديد وعقد صلات متعددة مع زعماء الأحزاب هناك وأرسل محمد نجيب مذكرة الى الحكومة البريطانية اقترح فيها:

اولا : تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل .

ثانيا : تهيئة الجوهر المحايد الذى لا بد من توافره لتقرير المصير .

وبدأت المباحثات فى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ وكانت هذه هى التجربة الأولى التى يجلس فيها الضابط المصرى فى مقعد المفاوضات .

ويلاحظ أن الوفد المصرى قد تشكل من الوفد الذىفاوض الأحزاب السودانية بعد استبدال على ماهر وعبد الرزاق السنهورى بالدكتور محمود فوزى والدكتور حامد سلطان وعلى زين العابدين .

ويلاحظ أيضا أن جمال عبد الناصر بقى بعيدا عن مائدة المفاوضات مركزا جهده على الشئون الداخلية للحركة فى تفاعلها مع القوى السياسية المختلفة .

وسافر صلاح سالم الى السودان للمرة الثانية فى ١ يناير ١٩٥٣ حيث اتفق مع ممثلى الأحزاب السودانية (الأمة والوطنى الاتحادى والجمهورى الاشتراكى) على توقيع وثيقة تؤيد نظر المفاوض المصرى فيما يتعلق بموضوعات جنوب السودان واختصاصات الحاكم العام وسفدنة الوظائف وجلاء الجيوش الأجنبية وان تكون هذه الوثيقة هى أساس دستور الحكم الذاتى والا فان الأحزاب تقاطع الاستفتاء .

وعندما وضعت هذه الوثيقة أمام المفاوضين السودانيين أسقط في يدهم وسدته عليهم سبل المناورة ووقعوا اتفاقية السودان في ١٢ فبراير ١٩٥٣ قبل أن يمضى ثلاثة شهور على بدء المفاوضات .

وقع عن الجانب المصرى محمد نجيب وعن الجانب البريطانى السفير سيراىل سبنسون .

وذكر محجوب أن على ماهر قال له (مبروك . . السودان حصل على استقلاله) وكانت وجهة نظره ان الاختيار بين الاستقلال والاتحاد لابد أن يكون فى جانب الاستقلال .

ونصت الاتفاقية على تحديد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات يتم فيها تصفية الادارة الثنائية (الانجلو-مصرية) ، ويكون للحاكم العام أثناء فترة الانتقال السلطة الدستورية العليا وفقا لقانون الحكم الذاتى تجاونه لجنة خماسية مؤلفة من عضوين سودانيين ومصرى وبريطانى وباكستانى . . مثل مصر فيها قائد الجناح حسين ذو الفقار صبرى .

وتقرر أيضا تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على أساس :

أولا : ارتباط السودان بمصر على أية صورة .

ثانيا : الاستقلال التام ، أى الانفصال عن مصر .

وكانت كل الظروف والملايسات تشير الى نجاح الأساس الأول ، فقد كانت العلاقات بين زعماء الأحزاب السودانية وقادة الحركة فى مصر طيبة وليس هناك ما يشوبها ، غير أن بعض ما صاحب الثورة فى شهورها الأولى خلق بعض الحذر فى نفوس السودانيين .

سبق التوقيع على الاتفاقية إلغاء الدستور وحل الأحزاب واعتقال ضباط المدفعية كما سبق توضيحه فى الجزء الأول (قصة ثورة ٢٣ يوليو) وانعكس ذلك فى السودان بتأثيرات مختلفة .

نشر محمد أحمد محجوب قطب حزب الأمة مقالا فى جريدة المصرى اعتبر فيه رأى سليمان حافظ فى تنحية النحاس عن رئاسة الوفد عملا مخالفا للقانون وكان للوفد أعضاء كثيرون فى السودان منذ أيام سعد زغلول وبعد تولى مصطفى النحاس .

وكان اسماعيل الأزهرى مقربا من الوفد ومرتبطا بزعمائه .

وقد حاول صلاح سالم خلال زيارته المتعددة طي صفحة الأحزاب المصرية في السودان ، وساعده على ذلك ثقة السودانيين في محمد نجيب وارتباطهم به واعتباره نصف سوداني .

وقد أحيط بعض ما قام به بسلاية هائلة فعندما قرر زيارة الجنوب لم يحصل على التصريح الخاص الذي اعتاد أبناء الشمال أن يحصلوا عليه إذا أرادوا السفر الى الجنوب .

ويقول يوزباشى محمد أبو نار مدير مكتبه أن مستر كافرى السفير الأمريكى ومستر سوبنى ضابط اتصال السفارة قد ساعدا في عدم حدوث أزمة من زيارة صلاح سالم دون تصريح .

وقد نجحت الرحلة تماما ، وكان للمناقشة العنيفة التي دارت بين صلاح سالم والمحافظ البريطانى حول أسلوب معاملة الناس في الجنوب أثر سحري بين الجماهير التي تعرض فيها المعبود البريطانى أمامهم للنقد والهجوم . . . وكذلك فإن مشاركته لقبائل الدنكا بالرقص معهم (وقصة الحرب) عاريا قد جذبت اليه قلوب الجنوبيين . . وأطلقت عليه الصحافة البريطانية اسم (الصاغ الراقص) .

وحدثت عدة مساجلات بين ايدن وصلاح سالم . . فقد قال ايدن في مجلس العموم في أكتوبر ١٩٥٣ أن صلاح سالم ذهب الى السودان لاقناع السودانيين بتقسيم مقاعد البرلمان ولكنه لم ينجح - حسب تعبير ايدن .

ولم يتردد صلاح سالم في مهاجمة ايدن علنا مؤكدا هزيمة السياسة البريطانية في السودان .

وكانت كل الدلائل تشير الى نجاح التعاون المصرى السودانى . . فقد أجريت أول انتخابات في ظل الاتفاقية . . وفاز الوطنى الاتحادي بأغلبية ساحقة ، وتولى اسماعيل الأزهري رئاسة أول وزارة سودانية يوم ٩ يناير ١٩٥٤ ، وتولى محمد أحمد محبوب زعامة المعارضة في برلمان مكون من ٥١ عضوا للوطنى الاتحادي ، ٢٢ حزب الأمة ، ١١ مستقلين ، ٩ جنوبيين ، ٣ جمهورى اشتراكى ، نائب عن الجبهة المعادية للاستعمار .

انعكاس خلافات مجلس الثورة :

ولكن الأمر لم يمتدح حسب الخطة المرسومة ، ولم يتحقق الهدف المنشود .

كانت الخلافات قد بدأت تتفجر داخل مجلس قيادة الثورة بين

معظم أعضائه من جهة وبين محمد نجيب من جهة أخرى كما شرح تفصيلا
فى الجزء الأول (قصة ثورة ٢٣ يوليو) .

وانعكس هذا الخلاف على نفوس السودانيين الذين وجدوا فى بقاء
نجيب على قمة السلطة ضمانا واطمئنانا على حقوقهم .. والذين تنفّر
نفوسهم من أسلوب الضغط والحكم العسكرى الذى يتنافر مع
ديموقراطيتهم البدائية وبساطتهم القبلية التى ترفض الهالة الصناعية
التي تحيط بمراكز السلطة .

وأضعفت ردود الفعل من هالة النظام المصرى الناشئ الذى كان
فى قوته وتماسكه عاملا من أهم العوامل المؤثرة لنجاح الاتفاقية وانتهائها
الى نوع من الاتحاد أو الوحدة مع مصر .

وتجاوبت هذه الحالة مع تحول فى موقف اسماعيل الأزهري الذى
تولى رئاسة الوزارة فى وقت كانت تتجمع فيه سحب الخلافات والذى
شعر أن أى نوع من الارتباط مع مصر سوف يضعف من سلطته كرئيس
للوزراء ، وهو الذى عاش حياته مناضلا من أجل حرية السودان .

وسافر عبد الحكيم عامر وصلاح سالم الى السودان لتهنئة الأزهري
برئاسة الوزارة فى نفس الشهر ، يناير ١٩٥٤ وصرح قائلا : (ان الاتفاقية
سوف توضع موضع التنفيذ نصا وروحا) .

ولكن تنفيذ الاتفاقية بدأ ينفذ واتجاهات الأزهري السياسية بدأت
تتغير مستغلا فى ذلك فرصة تشابك أعضاء مجلس قيادة الثورة فى
خلافات ومشاكل محلية جانبية .

وصلت المشكلة الى الذروة عندما فوجئت الجماهير السودانية
باستقالة محمد نجيب فى فبراير ١٩٥٤ .

وسافر الى القاهرة فور اعلان الاستقالة وفد سودانى فى محاولة
لرأب الصدع ولكن نجيب كان قد عاد الى موقعه رئيسا لجمهورية
ومجلس قيادة الثورة تحت ضغط المظاهرات فى الشوارع ، وقايد بعض
وحدات الجيش لموقفه .. ونتيجة أيضا لمظاهرات خرجت فى الشوارع فى
الخرطوم تهتف لمحمد نجيب (التفاصيل كاملة فى الجزء الأول) قصة
ثورة ٢٣ يوليو .

وما ان عاد محمد نجيب الى موقعه حتى قرر تلبية دعوة حكومة
السودان لحضور احتفالات افتتاح أول برلمان سودانى فى أول مارس
١٩٥٤ ، وصحبه فى الرحلة صلاح سالم الذى كانت التناقضات بينهما قد

دفعته به الى تسليم نفسه الى أحمد أنور قائد البوليس الحربى قائلا انه يفضل دخول السجن عن التعاون مع نجيب .

ولم يتورع صلاح سالم عن اعلان هذه الحقيقة للصحف فى بساطة شديدة مع اتهامات لنجيب فى محاولة لتقليل دوره فى نجاح حركة ٢٣ يوليو .

وقد أدت الأيام التى مضت بين استقالة نجيب وقبول مجلس الثورة للاستقالة ثم عدوله عنها وعودة نجيب رئيسا للجمهورية - الى حدوث انفجارات سياسية غير متوقعة .

سقطت هيبة النظام فى مصر أمام السودانيين ، وتمزقت علاقات الاخوة والتماسك التى ظهرت بين أعضاء مجلس القيادة . وفتحت الأبواب أمام المؤامرات المعادية لوحدة الشعبين .

وما كاد وفد مصر برئاسة محمد نجيب يصل الى مطار الخرطوم حتى فوجئ بوجود مظاهرات حاشدة أطلقها حزب الأمة الذى خصل على أقلية فى البرلمان لم تسمح له بالمشاركة فى الحكم وهى تهتف (لا مصرى ولا بريطانى . . السودان للسودانى) .

وكان حزب الأمة له رأى عبر عنه محمد أحمد مخجوب فى كتابه بقوله (ربما كان الحكم البريطانى أقل شراً من الحكم المصرى لأنه اذا كانت مصر قد حكمت فإنها ما كانت لترغب فى ترك السودان مطلقاً) .

وحدثت اشتباكات دموية قتل فيها ٣٣ شخصاً وجرح ١٠٧ وتقرر تأجيل افتتاح البرلمان السودانى . وعاد محمد نجيب الى القاهرة فجر اليوم التالى .

وقد أكد لى محمد نجيب أن السيد عبد الرحمن المهدي كان قد أرسل ابنه الصديق لاستقباله فى المطار وإبلاغه تحيات والده وأنه حاول الاتصال بالمهدي سبع مرات من تليفون قصر الحاكم العام ولكن الاتصال لم يتم لقطع الخط بعد تبادل التحية بأمر واضح التدبير .

وجاوب الحاكم العام تجسيد خطر المظاهرات لمحمد نجيب ولكنه أصر على مخاطبتهم من شرفة القصر ولكن ما أن اتجهت الجماهير الى الهدوء حتى فوجئت بهراوات الجنود .

ويقول محمد نجيب أنها كانت فجزة دموية رتبها الحاكم العام ليفشل تنفيذ الاتفاقية ويظهر الأمر كما لو أن العداء قد انفجر ضد مصر فى السودان .

ويقول محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان فيما بعد في كتابه « محاكمة الديمقراطية » أن الانتصار عندما خرجوا للمظاهرة كانوا يؤيدون محمد نجيب ولكنهم لم يستهدفوا العدوان عليه وإنما استفزتهم قوات البوليس عندما حاولت تفرقتهم .

وكان وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد قد وصل الخرطوم أيضا للمشاركة في الاحتفالات ولكنه لم يبرح مكانه حتى حملته الطائرة الى لندن .

ولا شك أن هذه المظاهرات قد صدمت الانتصار الذي حققه محمد نجيب على أعضاء المجلس وأضاعت تأثيره وهزت الى حد ما ثبات موقفه الذي كان يستند في شعبيته الى حب السودانيين له وتمسكهم به .

ولم تكن عودة محمد نجيب من موقعه نهاية . . فسرعان ما تحولت الريح ضده وحدثت أزمة مارس ١٩٥٤ التي حاصرتة في منصب شكلي هو رئيس الجمهورية فقط بينما أصبح جمال عبد الناصر رئيس الوزراء في ١٧ ابريل الى جانب عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة .

وضعت فرصة حركة الجيش بعد ذلك في التعاون المؤثر الوثيق في الحركة السياسية السودانية الأمر الذي دفع اسماعيل الأزهري الى اتخاذ عدة خطوات غير موفقة :

أولاً : أوقف الصحف الاتحادية ففصل أسرة تحرير جريدة العلم وأغلق جريدة الاتحاد .

ثانياً : رفض هدية من الأسلحة عرضتها مصر في أوائل ١٩٥٤ .
ثالثاً : رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب في مصر على تفقيتها وأصر على تدريبهم في بريطانيا .

رابعاً : لم يوافق على رصد مصر لمبلغ ثلاثة أرباع مليون جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية في السودان .

وسافر اسماعيل الأزهري بعد ذلك الى لندن يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٤ حيث استقبلته الملكة اليزابيث وأقام له تشرشل حفل غداء وعقد اجتماعا مع لجنة الشؤون الخارجية لحزب المحافظين .

ولحق ذلك بأيام اقالة محمد نجيب وتحديد اقامته يوم ١٤ نوفمبر وأشارت الصحف الى احتمال محاكمته لارتباطه بالأخوان المسلمين الذين كانوا قد حاولوا الاعتداء على حياة جمال عبد الناصر أثناء القائه خطابا في ميدان المنشية يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ .

وهرع الى مصر وفد سوداني لانتقاد نجيب من المحاكمة ، مشكلا من
نجيب السيد على الميرغنى واسماعيل الازهرى ومحمد نور الدين وعبد
عبد الرحمن ويحيى الفضلى وابراهيم المفتى . واستقبل الوفد جمال
عبد الناصر وصالح سالم وتم الاتفاق بينهما على اصدار هذا البيان الذى
نشر فى الأهرام يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ وجاء فيه :

اطلع وفد الحزب الوطنى الاتحادى على دقائق الأمور ، وكان متتبعا
لسير الحوادث التى قادت الى الظروف الراهبة فى مصر ، وهو مقتنع
تماما بأن اجراء تنحية اللواء محمد نجيب عن منصبه كان اجراء لا مفر
منه روعيت فيه مصلحة البلاد العليا أولا وأخيرا فى تلك المرحلة التى
ما كانت لتحقق خيرا للبلاد لو سارت الأمور على ما كانت عليه . ولقد
تلاقت وجهات النظر مع الحسيب النسيب السيد على الميرغنى ووفد الحزب
الوطنى الاتحادى والمسئولين فى مصر على قفل هذا الموضوع نهائيا بعدم
تقديم اللواء محمد نجيب للمحاكمة حتى لا تعطى الفرصة لأعداء البلاد
الذين يتربصون للنيل من وحدة الصفوف وتدمير أهداف البلاد .

هكذا كان للسودانيين دور فى منع محاكمة محمد نجيب وطى صفحته
من تاريخ مصر سلميا .

المحاولة الأخيرة :

ولكن عزل نجيب من منصب رئاسة الجمهورية كان غلقا لباب الأمل
فى الوصول الى اتحاد مصرى سودانى عن طريق الاستفتاء وهو ما سبق
تفصيله فى الفصل الأول من الجزء الثانى (مجتمع جمال عبد الناصر)
وما ننقل هنا منه صفحات لارتباطه بسرد الحوادث وترابطها .

لم تحسب المسألة بدقة . . والتدهور الذى حدث فى العلاقات بين
نجيب وبين أعضاء المجلس والذى تبادل فيه الطرفان الاتهامات لم تنجح
المحاولات لتصفيته وتفادى أبعاد أخطاره فى الداخل والخارج .

ووجد اسماعيل الازهرى فى عزل نجيب تكأة يستند عليها فى
تغيير موقفه من قضية الوحدة أو الاتحاد . . وساعده على ذلك ما أحيطت
به محاكمات الاخوان المسلمين من قسوة وهم فى السودان كانوا يفرخون
فى أحضان حزب الأمة .

كما أن الشيوعيين السودانيين كانوا قد اتخذوا موقفا معارضا
لحركة الجيش فى اعتقالها للشيوعيين المصريين . . وهم فئة نامية متطورة
فى أوساط العمال والمثقفين السودانيين .

وأسفر اسماعيل الازهرى عن موقفه فى باندونج فابتعد عن مصر

واقترِب من العراق التي كانت تهيب نفسها لدخول حلف بغداد . . .
كما أسفر عن موقفه في السودان عندما شكل لجنة من أعضاء الوطنيين
الاتحادى قررت التخلي عن مسألة الاتحاد عن مصر ووافقت الهيئة العامة
للحزب على ذلك . . .

ولم يكن في تصرف اسماعيل الازهرى من قضية الاتحاد ما يعيب
سوى اقترابه وارتباطه بالسياسة البريطانية التي طالما ناضل ضدها . . .
ذلك أنه اذا وضع أى مواطن سودانى أمام اختيارين هما الاستقلال أو
الاتحاد مع مصر ، فإنه قطعاً وفى هذه الظروف المتفجرة بالخلافات فى مصر
كان سيختار الاستقلال ، لأنه لا يطمئن اطمئناناً كاملاً لفوائد الاتحاد
ومنفعته له وثقته فى قيادته . وخاصة أن هذا الاختيار يتم بعد رحلة
طويلة من الاستعمار لم ينعم فيها الشعب السودانى بحريته ويمارس
فيها حكم نفسه بنفسه .

وانتهى موقف الازهرى الى تناطح حاد بينه وبين صلاح سالم الذى
وجد أن ثمار سياسته قد تحولت الى ماء يتسرب من بين أصابعه .

وكان صلاح سالم قد اتبع فى سياسته بالسودان أسلوباً يخرّب
علاقات القوى السياسية ويمزق صلابة الأفراد ، اذ استخدم الأموال
وسيلة للاقناع واجتذاب زعماء القبائل والطوائف والأحزاب وهى وسيلة
لها بداية وليست لها نهاية .

وهى وسيلة لا تفيد أيضاً اذا استخدمت مع عناصر وطنية مناضلة
ذات مبادئ . . .

ولم يجد صلاح سالم سوى محاولة حصار اسماعيل الازهرى
بتأليب بعض أعوانه ضده ونشر بعض الحقائق القديمة عنه .

وظفت المعركة الى السطوح . . . وخطب اسماعيل الازهرى فى الجماهير
يقول (ان لحم أكتافى من مصر وقد دخلتها لابسا حذاء كلاًوتش . . . ولكن
هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون فى مصر ؟) .

وتصرخ الجماهير بصوت عال (لا . . . لا) .

ونجح صلاح سالم فى إثارة فريق من أعضاء الحزب الوطنى
الاتحادى بزعامة محمد نور الدين ، كما أثار الجنوبيين ضده كقوة
ضغط . . .

وأراد صلاح سالم أن يشدد حصاره على الازهرى وأن يبذل محاولته
الآخيرة فى انجاح الاتفاقية لصالح الاتحاد بين مصر والسودان فقرر
الاتصال بالحزب الشيوعى السودانى وهو الحزب الذى لم يحصل وقتها

على أية أموال من مصر ولم يدخله صلاح سالم فى حساباته رغم نفوذه
الفاشى وذلك لاعتقال الشيوعيين ومطاردتهم فى مصر .

اتصل صلاح سالم بالشهيدى المناضلين عبد الخالق محجوب
سكرتير الحزب الشيوعى السودانى والشفيع أحمد الشيخ سكرتير عام
اتحاد العمال وعضو المكتب السياسى بالحزب . . وعندما علم ان الحزب
الشيوعى السودانى هو نواة انفلتت عن الحركة الديمقراطية للتحرر
الوطنى (حدتو) فى مصر قرر أن يتصل بالشيوعيين المصريين ليساعدوا
فى اقناع زملائهم بالسودان .

وكان موقفا غريباً ومتناقضاً . . الشيوعيون المصريون معتقلون
والبعض منهم قدم الى المحاكمة وصدرت ضدهم أحكام بالسجن ، وأجهزة
بولية تطاردتهم مثل كلاب الصيد .

ومع ذلك لم يتردد صلاح سالم فى معركته الحامية يوم أول سبتمبر
١٩٥٥ فى استدعاء البعض منهم : الدكتور يوسف ادريس من سجن
القناطر والكاتب ابراهيم عبد الحليم والكاتب فتحى خليل والفنان زهدى
وكانوا معتقلين فى سجن أبى زعبل .

وصل الأربعة الى قصر عابدين ، حيث كانت مكاتب وزارة الارشاد
فى ذلك الوقت ، بثياب ممزقة وأجسام هزيلة بعد معاملة بوليسية قاسية
أعقب اضراباً عن الطعام استمر ١٨ يوماً من أجل مطالب انسانية خاصة .

دخل الأربعة على صلاح سالم فى مكتبه ، فاستقبلهم استقبالا حاراً
وأبدى استنكاره لمظهرهم واتصل تليفونيا - حسب رواية فتحى خليل -
بذكرى الدين وزير الداخلية طالبا منه وقف المعاملة الشاذة للمعتقلين
فى سجن أبى زعبل .

وقدم لهم صلاح سالم تحليلاً سياسياً استمر ثلاث ساعات ركز فيه
على النقاط الآتية :

١ - المفهوم العام لقيادة الثورة وتصور خط سيرها مع تحفظ بعض
العناصر على الاتحاد السوفييتى بتأثير دعاية الغرب .

٢ - أرجع غموض موقف الثورة من الشيوعيين الى خشية البعض
من اتهام الحركة بأنها شيوعية .

٣ - أبرز نقط الخلاف مع الولايات المتحدة وخاصة رفضها امداد
مصر بالسلاح .

وخلص صلاح سالم من ذلك الى أن هناك تغييراً فى الخط السياسى
لثورة يتلخص فى :

أولا : فى السياسة الخارجية • استقرار الثورة على توثيق العلاقة مع الاتحاد السوفيتى والصين والدول الاشتراكية •

ثانيا : فى قضية الديمقراطية • وضع دستور جديد واعداد انتخابات عامة وتشكيل برلمان •

وأكد لهم صلاح سالم أن هذين الاتجاهين سوف ينطلقان بأقصى قوتهما فى منتصف عام ١٩٥٦ • ولعله كان يقصد بذلك تحديد موعد جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال •

وفاجأهم صلاح سالم بخبر لم يكن قد أعلن بعد • • وسر لم يعرفه أحد • • وهو تعاقد مصر مع الاتحاد السوفيتى على توريد صفقة سلاح • • كما وعدهم بالإفراج عن جميع الشيوخين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٦ •

وعرض موقفه بعد ذلك فى قضية السودان ، ونقد نفسه نقدا ذاتيا لأخطائه الى السير بأسلوب حكام ما قبل الثورة ، أى دفع البقود للزعماء وتردى الحال بعد ذلك حتى فى صفوف حزب الوطنى الانحاذى ، ومع اسماعيل الأزهرى خاصة •

ثم انتقل الى الحديث عن (الحزب الشيوعى السودانى) • وقال أننا تجلبناهم لموقفنا من الشيوعية فى مصر • • وأنه كان فى التأييد والمعارضة حزبا مبدئيا شريفا • • وأنه على حد تعبيره (حزب حقيقى وجاد وغير ملوث) •

وقال لهم صلاح سالم انه عندما اتصل بالشهيد عبد الخالق والشفيع وعرض عليهما مساعدات فى حدود العمل الوطنى مثل اقامة السراقات أو الامداد ببعض الأموال ، رفضوا بشدة •

وقال صلاح سالم انه تدور فى صفوف الحزب مناقشة حول الموقف فى مصر ويتأرجح الرأى بين التأييد والمعارضة ، وموقف الحكومة المصرية من الشيوعيين المصريين يلعب دورا كبيرا فى ترجيح جانب على آخر • • وأنه لو تحول الموقف داخل قيادة الحزب الى التأييد فان هذا قد يخرج الموقف فى السودان من دائرة اليأس • • ولم يخف صلاح سالم مرارته ويأسه نتيجة تغير موقف الأزهرى •

وصارحهم بأنه استأذن مجلس القيادة فى الاتصال بهم فوافقوا وأنه يطلب منهم اذا اقتنعوا بصدق تخليه السياسى فانهم عندئذ يصبحون مطالبين بالسفر الى السودان لاقتناع قيادة الحزب هناك بتأييد القاهرة وخط الاتحاد مع مصر •

وتداول الأربعة على جانب ووجدوا أنه لابد من شيئين : الاستيثاق من حديث صلاح سالم ، والاتصال بزملائهم الهاربين خارج المعتقل .

واتفق صلاح سالم معهم على الخروج لفترة محدودة مدتها أسبوع يعودون بعدها الى مكتبه .

ولكن الأربعة لم يعودوا الى مكتب صلاح سالم . . لأن الصحف نشرت في اليوم الخامس للمقابلة خبر استقالته واعتكافه في منزله .

ولم تكن استقالة صلاح سالم مفاجأة للقريبيين من مجلس القيادة ، فان سياسة صلاح سالم في السودان كانت موضع خلافات ومناقشات داخل المجلس ، وحدث حريق اشتعل في الجنوب بتدبير من الاستعمار ومطالبة صلاح سالم بأن تطلق يده في العمل بصورة كاملة .

وقد حدث نوع من التحقيق مع صلاح سالم في تدهور العلاقة بين مصر والسودان في مارس ١٩٥٥ ، ولكن صلاح كان عنيقا في مناقشاته وسفه آراء بعض الذين اشتركوا في المناقشة من غير علم كاف . وانتهى حديثه بتقديم استقالته . . ولكن المجلس لم يقبل الاستقالة .

وسافر صلاح سالم ضمن الوفد المصري الى باندونج والخلاف ينقل صدره ، ومعاملة جمال عبد الناصر له يتسرب اليها البرود .

وكان صلاح سالم في وقت من الاوقات وبقوة اندفاعه وحيويته ، وبموقفه كوزير للارشاد ، وبقدرته على تلوين الحديث ، يتطلع الى رئاسة جمهورية الاتحاد . . ولم يكن ينظر الى جمال عبد الناصر كمنافس له وانما كان يخشى منافسة نجيب في الاستفتاء .

ولكن هذه التطلعات سواء كانت حقيقية أو غير حقيقية ، تلاشت وذبلت بعد اقالة محمد نجيب . . وبدأ صلاح سالم نفسه يتعرض لهجمات زملائه . بل وبعض ضباط الصف الثاني ، وهو الذي كان عنيقا في هجومه على محمد نجيب .

وبدأ مجلس القيادة يحاصر صلاح سالم . . وخاصة بعد اتصاله بالشيوخ المصريين :

ذكرى محيى الدين قال ان الفريق الذي يعتمد عليه صلاح سالم ليس هو القوة الأساسية في السودان .

وجمال عبد الناصر انتقد سياسة التعامل مع الزعماء السودانيين بأسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية .

وحسين ذو الفقار صبرى اضطر الى مساهرة حزب الامة لينقذ
ما يمكن انقاذه .

ووصل الخلاف الى ذروته عندما تصادم صلاح سالم مع جمال
عبد الناصر . ولم يستطع صلاح أن يجتذب زملاءه الى صفه لانفراده
بالعمل طوال الفترة الماضية وسخريته من بعضهم وتفوق جمال عبد الناصر
في قدرته على اقناع زملائه برأيه .

وقدم صلاح سالم استقالته للمرة الثانية في سبتمبر ١٩٥٥ متصورا
أنها لن تقبل مثل استقالته السابقة ، ولكن المجلس قبلها فورا ، وكان
شقيقه جمال سالم وقتها في زيارة خارج مصر .

الفصل الثالث

الاستقلال ••• و انقلاب الجنرالان

(أصبح السودان رجل إفريقيا المريفى)
أحمد سيكوتووى

وطويت صفحة صلاح سالم أيضا فى تاريخ علاقات مصر والسودان بعد أن طويت صفحة محمد نجيب •• وتولى زكريا محيى الدين مسئولية السودان •• ونقل محمد أبو نار الى وزارة الخارجية حيث عمل مديرا للإدارة الإفريقية لشئون السودان •

وأصبح واضحا بعد خلع صلاح سالم من موقعه أن الموقف السياسى بين القاهرة والخرطوم قد فقد كثيرا من التسلط وأنه دخل مرحلة جديدة تبدد منها الأمل فى انتهاء فترة الإنتقال الى ظهور الإتحاد بين دولتى وادى النيل القريبتين •

وبعد أن أخذت اجراءات السودنة مداها • وأوشكت ثلاث سنوات الاتفاق على النهاية •• أبلغت الحكومة السودانية برئاسة الأزهرى حكومتى مصر وبريطانيا برغبة الجمعية التأسيسية وطالبت بسحب جيش الإحتلال لاجراء الاستفتاء (فى جوهر محايد) •

وحدثت انتفاضة فى الجنوب ضديد القوات الشمالية هناك فى

١٨ أغسطس ١٩٥٥ قتل فيها ٣٠٠ شخص من الطرفين ، وكانت الحركة نتيجة الدعاية المصاحبة لجلاء القوات البريطانية وخوف الجنوبيين من ذلك .
سحبت بريطانيا جيوشها في أواخر أغسطس وسحبت مصر جيوشها ، وتركت كل الأسلحة الثقيلة التي كانت تخص جيشها في السودان وتم الجلاء فعلا في نوفمبر ١٩٥٥ .

ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الأمر لا يحتاج الى استفتاء بشأن تشكيل الحكم بعد اتفاق كل الأطراف الحاكمة على معارضة الاتحاد . . وأعلنت قيام الجمهورية السودانية في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وتشكيل مجلس سيادة لرئاسة الدولة .

وهكذا تم استقلال السودان وجلاء قوات الاحتلال نهائيا بعد ١٣٤ عاما من حكم أجنبي متصل .

ولم يجد مجلس قيادة الثورة في مصر فرصة للمطالبة باتمام الاستفتاء . . وأعلن استقلال السودان رسميا في أول يناير ١٩٥٦ .
وذهب صلاح سالم الى هناك مدعوا كشخص عادى ، ورفض الأزهري اقتراحا بقبوله أول سفير مصرى هناك .

وكان اعلان الاستقلال ايذانا ببدا صراع جديد داخل السودان ، صراع اجتماعى سياسى .

وكان مجلس قيادة الثورة فى مصر قد اتخذ موقف الحرس على عدم التدخل فى شئون السودان الداخلية . . وتحول جموح صلاح سالم واندفاعه فى ميدان العمل السياسى الى تحفظ من زكريا محيى الدين .

وعين اللواء سيف اليزل خليفة سفيرا فى السودان وهو من الضباط الذين خرجوا من الجيش مع ثورة يوليو ، ولم يكن له ماضى سياسى . . واشتهر عنه حرصه على المجاملة فى المناسبات الاجتماعية الأمر الذى جعله يمارس منصبه بلا حساسيات .

واعتمد زكريا محيى الدين على الملحق العسكرى على خشبة ليكون وسيلته فى الحركة السياسية هناك .

وبدا السودان الاستقلال بحزب ايدىولوجيتها تعبير عن الطبقة البرجوازية التى كونتها من الذين أتاحت لهم فرصة التعليم ، وبذرت فى نفوسهم التطلعات الذاتية .

ولم يستمر الحزب الوطنى الاتحادى منفردا بالحكم فقد تشكلت حكومة ائتلافية من الحزبين المتنافرين أصلا . . الأمة والشعب

الديموقراطي ، في ٥ يوليو ١٩٥٦ برئاسة عبد الله خليل الضابط
السوداني السابق وقطب حزب الأمة .

وقد عاصرت هذه الحكومة أحداثا بارزة في مصر . . فقد أعلن جمال
عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ يوليو ، وفشل العدوان الثلاثي واضطرت
قواته للانسحاب ، وانتصرت حركة الجيش في معركة رفض الأحلاف
العسكرية الغربية ، وعقدت صفقة الأسلحة التي كسرت احتكار السلاح
ورفضت مشروع أيزنهاور عام ١٩٥٧ ملء الفراغ ، وتحسنت العلاقات
الاقتصادية بين مصر والدول الاشتراكية .

سنوات صعود ثابتة نحو التقدم وصلت الذروة بإعلان الوحدة بين
مصر وسوريا في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وظهور الجمهورية العربية المتحدة .

ولم يواكب هذه الانتصارات الوطنية انجازات في السودان ، وكما
عجزت حكومة الوطني الاتحادي عن تحقيق الوحدة الوطنية ، فشلت
الوزارة الائتلافية الثانية في اشعار المواطنين بأهمية الاستقلال ، وفتحت
أبواب السودان للاستعمار الجديد ، وخضعت خضوعا واضحا للتفوذ
الأمريكي المتربص بالمنطقة ، والذي أبدى اهتماما بالسودان من قبل
الثورة ، وأرسل إليها بعثة أمريكية في أوائل عام ١٩٥٢ في وقت لم يكن
يسهلا على أية بعثة أجنبية دخول أرضه بدعوى (بحث مشكلة السودان) .

ولم تكن مصر بعيدة عن هذه الاتجاهات .

وخلال فترة الاستفتاء على الوحدة وقعت أزمة شديدة بين حكومة
مصر وحكومة السودان حول الحدود الفاصلة بين البلدين ، فقد تصادف
أن كان استفتاء الوحدة يوم ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وانتخابات البرلمان
السوداني الجديد يوم ٢٧ فبراير . . وأرسلت مصر لجنة لأخذ رأي
المواطنين في منطقة حلايب تحرسها قوة عسكرية صغيرة ، واحتجبت
حكومة السودان ، ووصل الأمر إلى حد رفع القضية إلى مجلس الأمن يوم
٢٠ فبراير ولكنه لم يتخذ قرارا لأن مسألة الحدود بين الدولتين لم تكن
محل خلاف من قبل ولم يكن الحديث حولها حادا مطلقا .

ولما وجد جمال عبد الناصر أن موقف الحكومة السودانية قد وصل
إلى هذه الدرجة من التردى لم يتجاوب معها في العنف والصدام ، وأثر
أن يسحب اللجنة والقوة العسكرية ويلتزم على الحكومة السودانية هدفها
من اشغال نيران الكراهية ضد مصر في المظاهرات التي أطلقها حزب الأمة
في شوارع الخرطوم .

ونتيجة لهذه الاثارة المتعمدة حصل حزب الأمة المعادي لمصر القريب

من البريطانيين والأمريكيين على ٧١ مقعدا من ١٧٣ بينما حصل الوطني
الاتحادى على ٤٤ مقعدا .

ونتيجة لذلك أيضا فإن حكومة القاهرة عندما أرسلت على خشبة
الملحق العسكرى السابق ليُعمل مستشارا مدنيًا بعد ثقله لوزارة
الخارجية في أول ١٩٥٨ طردته الحكومة السودانية بعد أربعة أيام من
وُضوئه .

ويقول زكريا محيى الدين ان مصر قد مضت الصبر ولم تتخذ
اجراء مضادا يزيد من التهاب الموقف . . وكانت صلة زكريا بالسودان
لهم تنقطع ، ولو أنه يثير تحفظا مضمونه أنه كان يباشر مسئوليته بدافع
التكليف القديم ، وليس نتيجة تنظيم ثابت مستقر . . والواقع أن
استمرار بعض أعضاء مجلس القيادة في مباشرة بعض مسئولياتهم
القيادية دون ربط ذلك فى إطار تنظيم سليم كان يشكل أحيانا ازدواجية
تُعرقل العمل ولا تسمح بتخطيط سليم ، كما كان يضع بعض المهمات
الكبيرة فى يد فرد واحد بعيدا عن المناقشة الجماعية فى حدود المسئولية
الوزارية .

ولذا تضاربت الآراء والاتجاهات . . واعتبر كل من زكريا
محيى الدين وحسين ذو الفقار صبرى أن صلاح سالم كان يلعب على
أحصنة خاسرة ، وخاصة بعد اتصاله بالشيوعيين .

ولكن جمال عبد الناصر الذى تابع موقف زعماء حزب الأمة
تاريخيا ، وبعد الثورة وعقب حادث حلارب لم يكن مستريحا لوجود
وزارة عبد الله خليل الائتلافية فى الحكم ، وكان يعتقد أنه يمكن تشكيل
ائتلاف جديد فى السودان يخلق نوعا من التناسق مع سياسة مصر
التقدمية .

والتقى جمال عبد الناصر فى القاهرة بإسماعيل الأزهري والشيخ
على عبد الرحمن بحضور زكريا محيى الدين فى محاولة لتغيير الائتلاف
لينضم حزب الوطنى الاتحادى مع الشعب الديموقراطى ويعود حزب الأمة
للمعارضة من جديد . . وبلغ يوسف التنى سفير السودان فى القاهرة
وعضو حزب الأمة خبر هذا اللقاء فبادر الى ابلاغ عبد الله خليل رئيس
الوزراء .

ولم يجد عبد الله خليل أمامه سوى تسليم الحكم للعسكريين
حتى لا يضع حزبه فى حصار العزلة ، ويقضى على كل محاولة ديموقراطية
تقلب الشعب ضد اتجاهاته . . ولا شك أنه قد نسق ذلك مع الأمريكين
أصحاب النفوذ المتزايد ، وعبد الله خليل ضابط سابق فى القوات

السودانية بالجيش المصري حارب تحت قيادة الضباط البريطانيين في الحرب العالمية الثانية .

وكانت المعارضة الشعبية لحكومة عبد الله خليل قد زادت إلى الدرجة التي احتشدت فيها الجماهير الثورية خارج البرلمان للضغط على أعضائه من أجل إلغاء المعونة الأمريكية المتسللة بالتفوذ الامبريالي . وخاصة بعد نجاح الإضراب التاريخي الذي دعا إليه اتحاد نقابات العمال يوم ٢١ أكتوبر .

وفجأة . . وفي اليوم المحدد لاجتماع البرلمان السوداني تخلى عبد الله خليل عن الحكم لكبار ضباط الجيش ، بعد أن اكتشف أن عددا من نواب حزب الأمة كانوا قد اقتربوا من الخط الوطني وكانوا سيصوتون ضد حكومته من أجل إقامة حكومة ائتلافية جديدة .

تسلم كبار ضباط الجيش السلطة . . واتخذت العملية صورة انقلاب عسكري ، فقد أصدر رئيس أركان الحرب اللواء إبراهيم عبود أمرا بدخول بعض الوحدات إلى العاصمة يوم ١٦/١٧ نوفمبر واستولت على مباني الوزارات والمنشآت الحيوية ، ووضعت الوزارة في الاعتقال . وأعلن اللواء إبراهيم عبود بيان رقم (١) صباح يوم ١٧ نوفمبر يقول فيه : ان الجيش قد تدخل ليضع حدا لحالة الفوضى التي تجتاح البلاد .

وظهر الأمر في صورة انقلاب عسكري جذري . . وأصدر الحزب بيانا في ١٨ نوفمبر جاء فيه (أحس الاستعماريون والرجعيون بالخطر المحدق بمصالحهم وخشوا أن تسير البلد في خطوات جريئة نحو بناء الديمقراطية وتأسيس نظام برلماني ديمقراطي على أسس سليمة ، وعند هذا سلم عبد الله خليل - بالتعاون مع الاستعماريين الأمريكيين والانجليز - السلطة للقيادة الرجعية في الجيش بهدف المحافظة على كل المصالح الاستعمارية ووقف التطور الديمقراطي في البلاد ، هذا هو انقلاب ١٧ نوفمبر الرجعي)

ولم تلبث الحقيقة أن تكشف . . أعلن عبد الله خليل أنه كان يعرف أخبار الانقلاب . . وأكرر اللواء إبراهيم عبود ذلك محاولا الاحتفاظ للانقلاب بهيبته . . ولكن الرجل الثاني ، اللواء أحمد عبد الوهاب كتب فيما بعد قائلا : (اننا لم نفعل بوحى من أحد ، بجنى عبد الله خليل نفسه فانه لم يكن يعلم بتشكيل حكومة الانقلاب ولم يشترك ختى في الجديوث عنها . . ولكن لما يتمتع به من مكانة واحترام في قلوب أبناء الضباط كان يعلم بالانقلاب وأن الوقت مناسب جدا لقيامه . وكل ما قاله في ريتا يوفقكم)

الانقلاب السوداني كان مثالا على الانقلابات الرجعية التي يلجأ الى قبحضتها العنيفة أى نظام تفسخت أوصاله وتهاوت دعائمه وأصبح معرضا للانحراف فى طوفان ثورة شعبية .. وقد قال اللواء أحمد عبد الوهاب أيضا : (ان ما حدث كان انقلابا لا ثورة لسبب واحد هو أنه لم يكن هناك ما يدعو للثورة) .

رئيس الوزراء يعلم بالانقلاب الذى هو تـمرد على الدستور والسلطة الشرعية ثم لا يفعل شيئا سوى مباركته والدعوة لقادته بالتوفيق .

عملية تسليم وتسليم غيرت شكل المجتمع السودانى فورا بعد قرارات عنيفة صاحبت انتقال السلطة الى المجلس الأعلى للقوات المسلحة :
أولا : حل جميع الأحزاب السياسية .

ثانيا : منع الاجتماعات والتجمعات والمواكب والمظاهرات فى جميع أنحاء السودان .

ثالثا : وقف صدور الصحف الى أن يصدر بذلك أمر من وزير الداخلية .

وفى نفس اليوم صدر ما سمي بالأمر الدستورى رقم (١) الذى يعلن الأحكام العرفية فى البلاد ، ثم الأمر الدستورى رقم (٢) الذى يقضى بإيقاف العمل بدستور السودان وحل البرلمان السودانى اعتبارا من ١٧ نوفمبر .

وتشكلت الوزارة السودانية من ١٢ عضوا ستة منهم من العسكريين أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، ولوحظ أن معظم المدنيين منهم كانوا من الأنصار أو من المقربين اليهم ، كما أن بعض العسكريين من ضباط المجلس الأعلى كانوا قرييين من الوطنى الاتحادى وكانوا أراد عبود بوسادته من الامبرياليين توفير نوع من التوازن السياسى الذى يضمن تهدئة الأحوال فى صفوف القوى الطائفية والسياسية .

وفى الأسبوع الأول للحكم العسكرى صدر قانون دفاع السودان ، ولائحة دفاع السودان .

والوثيقة الأولى تتيح توقيع عقوبة الاعدام والسجن الطويل (لكل من يعمل على تكوين أحزاب أو يدعو الى اضراب أو يعمل على إسقاط الحكومة أو يبت الكراهية ضدها) والوثيقة الثانية تتيح لوزير الداخلية طرض الرقابة على الصحف والبريد والمطبوعات وإعلان حظر التجول ومنع السفر .

وبعد ذلك حلت كافة التنظيمات .. حتى مجالس ادارة الاندية الرياضية .

جو كتيب يزحف على السودان في وقت كانت الحياة فيه تشرق على مصر بانتصارات وطنية وقومية كبيرة .

ولم تجد مصر سبيلا الا الاعتراف بحكومة عبود وابقاء السفير سيف اليزل خليفة في منصبه فهو جنرال مصرى يمكن أن يتفاهم مع الجنرالات السودانيين الذين أعلنوا أن ما حدث بين البلدين كان خطوة خلقها السادة المديون .

ومع ذلك لم تسر الحرارة في اوصال العلاقات بين البلدين .

انقلابات مضادة :

الانقلابات العسكرية في مصر وسوريا والعراق كانت تملك منذ لحظتها الاولى بعض ما يمكن أن تدين به النظام المنهار وتلوث سمعته .. ولكن الأمر في السودان كان يختلف ، فان الشعب السوداني لم يكن قد نسي - خلال أزمة اقتصادية امتدت ثلاث سنوات بعد الاستقلال - نضال الزعماء الذين حصلوا على الاستقلال بعد نضال طويل ... والحكم البرلماني رغم أخطائه وانحرافات بعض المسئولين فيه لم يكن قد قدم حججا كافية يمكن أن تدينه وتجعل منه نظاما معاديا للجماهير .

النظام السابق الذي ورثه الحكم العسكرى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات فقط ، وضباط الجيش لم تجتمع كلمتهم على معسادة أمور واضحة ... ولذا بدأت الخلافات ووجهات النظر المتباينة تظهر مبكرا في صفوف الجيش .. بل وبين أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة .

بعد أيام قليلة من الانقلاب .. وبالتحديد يوم ٢٩ نوفمبر أصدر مجلس الوزراء قرارا جاء فيه أن اللجنة التي كونها المجلس قد رأت بإجماع الآراء (أنه لا يوجد في اتفاقية المعونة الأمريكية ما يحد من استقلال السودان أو يهدش كرامته وانها كانت لسوء الحظ هدفا للمناورات الحزبية في الماضي) .

ويعيب المجلس أيضا على البرلمان المنحل تحديده لمجالات نشاطها فيصدر قراره بعودتها دون تحديد للميادين التي تنشط فيها .

وقد أثر هذا القرار المتعجل وغيره من القرارات التي تكرر الديكتاتورية العسكرية - على عدد من الضباط الوطنيين في الجيش فهبت في ٤ مارس ١٩٥٩ وحدات من الجيش بقيادة الاميرالاي عبد الرحيم محمد

خير شبنان قائد المنطقة الشمالية ، والاميرالاي محيي الدين أحمد عبد الله
قائد المنطقة الشرقية ومعهم الصاغ محمد أبو الذهب والبكباشي حسن
ادريس وتحركت مطالبة بحل المجلس الأعلى الحاكم وإطلاق سراح المسجونين
السياسيين وعودة بعض الضباط المحالين إلى الاستبداد بعد مناصرة بيت
عبود واعتقال ثلاثة من أعضاء المجلس الأعلى .

وانتهت أزمة ٤ مارس إلى خروج اللواء أحمد عبد الوهاب الذي دبر
الانقلاب ، وإعادة تشكيل المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدخال عبد الرحيم
شبنان ومحيي الدين أحمد عبد الله والمقبول الأمين الحاج وإخراج خمسة
آخرين هم عوض عبد الرحمن ومحمد نصر عثمان وحسين علي كرار ومحمد
أحمد الخواص ومحمد أحمد التيجاني .

منحت الحكومة اللواء أحمد عبد الوهاب أرضاً مساحتها ٣٠٠٠ فدان
بعد خروجه من المجلس إلى المعاش .

وتشكلت وزارة جديدة يوم ٩ مارس من ١٥ وزيراً ١٠ عشرة منهم
هم الأعضاء الذين بقى المجلس الأعلى مشكلاً منهم (الوزارة السابقة
كانت ١٢ وزيراً منهم ٦ ضباط فقط) .

استقبل الشعب السوداني انتفاضة ٤ مارس استقبالا طيباً ، ورغم
أنها لم تصل إلى نتائجها المنطقية في توفير حكم وطني في البلاد وإرجاع
حقوق الشعب الديمقراطية إلا أن الطريق قد أصبح مفتوحاً للشعب
السوداني والعناصر الوطنية في الجيش التي غاد بعضها من الاستبداد
الذي لحقت إليه عام ١٩٥٧ .

وحاول الأميرالاي عبد الرحيم شبنان تكلمة ما بدأه في ٤ مارس يوم
٢٢ مايو ولكن محاولته فشلت ، وانتفض عبود وقادة الانقلاب الرجعي
الفرصة فقاموا بعمليات اعتقال واسعة داخل الجيش وخارجه ، وقدموا
عنداً من الضباط إلى المحاكم العسكرية في أول يوليو انتهت إلى أحكام
مدتها ١٥ عاماً على عشرة ضباط ، المؤبد على عضوى المجلس الأعلى
المتضمنين في مارس الأميرالاي عبد الرحيم شبنان والأميرالاي محيي الدين
عبد الله وعلى كل من البكباشي حسن ادريس وعبد الحفيظ شبنان ومحمد
علي السيد والصاغ أحمد أبو الذهب والسجن ١٥ عاماً على اليوزباشي
محمود بابكر سوار ذهب وطرد ١٧ ضابطاً من الجيش ، وسجن المحامي
رشيد طاهر بكر ٥ سنوات .

وخلال هذه المحاكمات ظهرت علامات الشجاعة على الضباط وكشفت
أيضاً بعض الأسرار منها ما قاله الأميرالاي عبد الرحيم شبنان من أن
تدبيره للانقلاب كان نتيجة للقاءه مع خيراء أمريكين يدرسون إقامة قاعدة

أمريكية في منطقة جلايب قريبا من حدود مصر الجنوبية وذلك أثناء قيادته لمنطقة شمال السودان ، وكشف أيضا ما قاله عبد الله خليل بعد انقلاب ١٧ نوفمبر (عندما سلمت الحكم للرئيس عبود كنت مطمئنا إليه) . وعدد البكباشي عبد الحفيظ شنان أخطاء الحكم العسكري واضطهاد السلطات للقوى الشعبية من العمال والمثقفين والمزارعين أثناء دفاعه عن نفسه ، الأمر الذي أوضح وعى هؤلاء الضباط سياسيا وثقافيا .

وانتهز عبود وأعضاء المجلس الأعلى وخاصة حسين بشير قائد الجيش فرصة قتل محاولة ٢٢ مايو فطاعفوا اوحابهم واعتقالهم المواطنين الذي كان قد بدأ في يناير ١٩٥٩ بمحاكمة الشهيد المناضل الشيخ أحمد الشيخ . عسكري اتحاد نقابات عمال السودان وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي بمجلس عسكري وحكم عليه بالسجن خمس سنوات ومعه أيضا عدد من القادة النقابيين .

اعتقل عدد من قادة الحزب الشيوعي السوداني في معسكر (ناجيشوط) وهو على قمة جبل ارتفاعه أكثر من ٦٥٠٠ قدم وجوه شديد الرطوبة وكان من بين المعتقلين الدكتور عز الدين علي عامر وجوزيف جرنجر والمحامي أحمد سليمان وكانوا أعضاء في المكتب السياسي للحزب ولم يفرج عنهم الا بعد اضرابهم عن الطعام في أكتوبر ١٩٥٩ . ولم تحل المحاكمات العسكرية دون نشاط العناصر الوطنية داخل الجيش .

وكان الضباط خلال هذه المرحلة يتجهون الى قادة الحزب الشيوعي سرا لمناقشتهم والتعرف على آرائهم . ذلك أنه كان هو الحزب الوحيد الذي بقي يناضل الحكم العسكري . ويربط بين الشعب والعناصر الوطنية في الجيش ، ويؤيد حركة ٤ مارس ويقاوم محاكمات مايو بالمقالات في مجلاته السرية والمنشورات أيضا .

وفي نوفمبر تجمع عدد من الضباط الثائرين ومعهم عدد من الضباط أصحاب الاتجاهات التقدمية . ودهروا خطة انقلاب بدأت في مدرسة المشاة بأم دومان وقد قال لي المحامي أحمد سليمان عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي في ذلك الوقت أنهم اتصلوا به ليعجزهم عن الاتصال بقيادة الحزب المختلفين ، وأخذوا رأيه فوافقهم في تشرع لا يتناسب مع الفكر الماركسي الذي يعادي الانقلابات العسكرية مهما كان نوعها ويؤيد تسخير الحركة الشعبية الديمقراطية بالعناصر الوطنية التقدمية داخل الجيش حتي يكون فصيلة من فصائل الشعب وليس قوة تفرض عليه وجودها بقوة السلاح من أعلى .

نصيحة المحامي أحمد سليمان المتعجلة أدت الى كارثة فشل المحاولة رغم نجاح خطواتها الأولى وأعدم خمسة من شباب الضباط هم الطيار الصادق محمد والبكباشي يعقوب كبيرة والبكباشي علي حامد والصاغ عبد البديع علي كرار واليوزباشي عبد الحميد عبد الماجد .

وأعدم الضباط شبنقا رغم مخالفة ذلك لتقاليد الجيش خوفا من عصيان الجنود لتنفيذ الأوامر .

وحكم بالسجن المؤبد على الصاغ عبد الرحمن كبيرة والملازم ثاني محمد محبوب عثمان وطرد عدد من ضباط القوات المسلحة .

وبقيت انتفاضة ٤ مارس ، ١٠ نوفمبر موضعا لاحتفال وتقدير الوطنيين في السودان كرمز على مقاومة الديكتاتورية العسكرية .

الرجل العربي في افريقيا :

ورغم أن حكام مصر خلال هذه الفترة كانوا من العسكريين أصلا ، ورغم أن جمال عبد الناصر كان قد جنح الى مهاجمة الشيوعيين واعتقالهم في أول يناير ١٩٥٩ . . . الا أن ذلك لم يخلق بين البلدين علاقات وثيقة .

كان رجال الانقلاب في السودان حريصين على الابتعاد عن النظام المصري وعدم التورط في مشاكل تضعف من كيانهم الداخلي .

عندما بدأت دراسات السد العالي توصل زكريا محيي الدين مع حكومة السودان في نوفمبر ١٩٥٩ الى اتفاقية المياه دون مشاكل تهز محاولتهم للاستقرار الداخلي ، وتعتبر اتفاقية مثالية للاتفاق السلمي على مشاكل معقدة تركها الاستعمار البريطاني بعد اتفاقية مياه ١٩٢٩ التي عقدت بين البلدين بوساطة بريطانيين يمثلون الجانبين .

وافقت حكومة عبود على الحصول على ١٥ مليون جنيه تعويضا عن خسائر طغيان المياه على أرض حلفا بدلا من ٣٥ مليون جنيه كانت تطالب بها حكومة عبد الله خليل . . . ووافقت على أن يكون للسودان ١٨٥ مليار متر مكعب . وكانت سياسة مصر منذ الانقلاب تميل الى التحفظ المطلق واعتبار السودان أرضا بيضاء في الساحة العربية . . . وكادت تخلو الصحف المصرية من أية إشارة هامة الى أبناء السودان .

وكان حكام السودان فيما يبدو سعداء بعزلتهم الشديدة التي تمثلت في عدة مظاهر هامة منها أن السودان لم يكن ممثلا في مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي ، ولا في اتحاد العمال العرب ، واعتذر كثيرا من عدم الاشتراك في المؤتمرات العربية .

كتمت حكومة الجنرالات وجه السودان العربى ، فأخفت حقيقته .
قال طلعت فريد وزير الاعلام السودانى فى مؤتمر صحفى عقد فى فبراير
١٩٥٩ (لا معنى لأن تهاجم صحافتنا فرنسا . . . فكما تقتل فرنسا
الجزائريين ، فان الجزائريين يقتلون الفرنسيين . . . ولذا فان وفود
الحكومة الجزائرية زارت كل الدول العربية عدا السودان عبود) .

ومنعت حكومة عبود الطائرات العربية من النزول فى بورسودان
لمساعدة الثورة اليمنية ، بينما فتحت الميناء للأسطول البريطانى .

ورفضت مرور القوات المصرية الى الكونغو لمساعدة لومومبا كما
رفضت امداده بالأغذية ، حتى اتهم الشعب السودانى أعضاء المجلس الأعلى
بأنهم قتلة لومومبا .

وأكدت صحيفة واشنطن تون بوست الأمريكية ذلك فى عددها ٦ أكتوبر
١٩٦٠ عندما ذكرت أن السودان رفض السماح بحق الطيران فوق شماله
أو الهبوط فى أرضه لشحنات الامدادات السوفيتية .

وأرسل أحمد خير وزير خارجية الانقلاب مذكرة الى السفارة
البلجيكية فى الخرطوم (ان حكومة السودان لا تقر الفوضى وعدم احترام
القانون وستعمل على إعادة الأمور فى نصابها) . . . وكان اللواء حسن
بشير قد أدلى بتصريح فى لندن يشكو فيه حكومة الجمهورية العربية
المتحدة لأنها تضغط على السودان ليسمح لها بإرسال المساعدات .

ويكمل ميتن ويليمز وكيل الخارجية الأمريكية لشئون افريقيا صورة
الأحداث بتصريح فى مطار الخرطوم يوم ١٧ فبراير ١٩٦١ بقوله (ان
حكومة السودان قد بذلت جهدا شاقا لتجول دون عبور الأسلحة الى
الكونغو) .

وقام عبود بزيارة للولايات المتحدة وألمانيا الغربية وبريطانيا . . .
وقال كنيدي وهو يستقبل عبود فى أكتوبر ١٩٦١ بعد أيام قليلة
من انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة : (الرئيس عبود هو
أحد الرجال الأقوياء الذين يظهرون على مسرح السياسة الافريقية) .

وأضاف مادحا موقف السودان فى منع المعونات عن ثوار الكونغو
قائلا (لقد لعب السودان خلال عام ١٩٦١ وخاصة فى الشتاء والربيع
دورا هاما وبارزا فى المحافظة على الحرية فى افريقيا) .

وكان اللواء عبود قد سبق أن أرسل برقية الى ايزنهاور بمناسبة
يوم الجيش الأمريكى عام ١٩٥٩ يقول فيها (ان السودان كجزء من العالم

الحرية، بهذه المناسبة القوات التي تعمل حقيقة من أجل السلام والحرية.

وهكذا توثقت العلاقات بين قادة الحكم العسكري والدول الغربية مما دفعهم إلى اتخاذ مواقف غير وطنية، عندما لم يسمحوا للطائرات المصرية عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ بالهبوط في بورسودان لمساعدة الثوار في جنوب اليمن بينما فتحو ميناء المدينة لقطع من الأسطول البريطاني وسمحوا للطائرات البريطانية بالتزود بالوقود والتموين وهي متجهة لضرب الثوار اليمنيين.

ومع ذلك فإن نظم عبود رغم أنه عسكري ومتعاون مع الدول الغربية فإنه لم يرفع ميزانية الجيش ولم يعمل على تقويته وظل على ما كان عليه قبل الاستقلال بلا تسليح حديث... وبدأ الفرق يزداد ويتسع بشكل واضح بين الجيش المصري بعد التسليح السوفيتي.

كان الجيش السوداني ١٢٠٠٠ جندي عام ١٩٥٨ لم يزد سوى ٣٠٠ خلال فترة الانقلاب... وللمقارنة فإنه رغم أن السودان نصف سكان مصر إلا أن جيشه بعد الانقلاب لم يكن يصل إلى ١٠٪ من عدد الجيش المصري.

لم يكن من أهداف انقلاب الجنرالات تكوين جيش وطني.

ولذا لم يكن غريباً أن يشتهر السودان بين الشعوب الأفريقية بكلمة سيكوتوري زعيم غينيا (الرجل المريض في أفريقيا).

المواجهة الشعبية :

المواقف التي اتخذها الحكم العسكري أدت إلى عزلة السودان، والانهيار الاقتصادي السريع الذي لمس الحياة اليومية للجماهير، وفتح الأبواب بلا حساب للاستعمار الجديد، وإهدار الديمقراطية إهداراً كاملاً، وملاحقة الوطنيين والأحرار.

كل ذلك كان دافعاً لمقاومة هذا النظام والأصرار على إسقاطه من جانب القوى والتنظيمات السياسية، وتشكلت جبهة وطنية ضمت أحزاب الأمة والوطني الاتحادي والشيوعيين، وبدأت خطوات الالتقاء في صلاة عيد الفطر عام ١٩٦٠ وكان تشكيل هذه الجبهة سابقة سياسية هامة في كل بلاد منطقة التحرر الوطني، إذ لم يسبق الاعتراف بالشيوعيين كقوة سياسية في أي بلد عربي... وكان ذلك دليلاً على قدرة الشيوعيين السودانيين في كسب احترام وتأييد القوى الأخرى رغم انتماءاتها القبلية والطائفية.

ويرجع ذلك أساسا الى مقاومتهم للحكم العسكري منذ اليوم الاول وصلابتهم في مهاجمة القوانين والقرارات التي قيدت الجماهير وحرمتهم من حرياتهم الديمقراطية .

عندما انعقد المؤتمر الحادى والعشرون للحزب الشيوعى السوفىيىتى في فبراير ١٩٥٩ وقف ابراهيم زكريا مندوب الحزب الشيوعى السودانى يدين الديكتاتورية العسكرية ، وكان رد الفعل تصرىحا للواء طلعت فريده وزير الاعلام قال فيه (من المؤسف أن يتخذ حزب شيوعى مثل الحزب الشيوعى السوفىيىتى باكذوبة وجود حزب شيوعى سودانى ، فلا يوجد حزب من هذا النوع فى السودان اطلاقا) .

ويلاحظ أن حزب الشعب الديمقراطى المرتبط بالخشية الطائفية القريية من مصر نسبيا لم يكن مشتركا فى الجبهة ، وكان متعاوننا الى حد ما مع الحكم العسكرى وهكذا يوضح موقفه المتأرجح الذى اتصل فيه عن الوطنى الاتحادى ثم ارتبط فى تحالف مع حزب الأمة فى تشكيلة وزارية ، وأخيرا خضع فى هدوء للحكم العسكرى .

ويلاحظ أيضا أن حزب الأمة كان شديد التردد فى الارتباط بالجبهة ، فإنه بعد أن تولى السيد عبد الرحمن المهدي فى ٢٤ مارس ١٩٥٩ وتولى امامة الانصار الصديق المهدي أصدر منشورا بتاريخ ١٨ مايو ١٩٦٠ يقول فيه (لازل السيد الامام سائرا على تأييد الامام الراحل للوضع الحاضر وائسا متعاونون معه على ما يحقق المصلحة العامة للبلاد باذن الله) .

ورغم حظر الأحزاب ومنع صحفها ووضع الصادرة منها تحت الرقابة فقد بدأ نوع من التنسيق العلنى بين أحزاب الجبهة وكان الشيوعيون يتكفلون بإصدار وتوزيع المنشورات فى كل مناسبة دون توقف .

وفى لاسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٦٠ قامت مظاهرات فى حلفا ضد سياسة التهجير الى خشم القرية امتدت الى أنحاء السودان وأظهرت ارادة الجماهير فى مقاومة الحكم العسكرى .

وبعد ذلك بأيام قام جمال عبد الناصر بزيارة السودان بدعوة من ابراهيم عبود ، وكان ذلك موقفا ضروريا بعد عقد اتفاقية المياه مع السودان وهى التى سهلت خطوات بناء السد العالى .

وبدأ جمال عبد الناصر زيارته يوم ١٥ نوفمبر ١٩٦٠ وحاول الحكم العسكرى بوجوده هناك أن يكسب رصيذا حاول به تثبيت قواعد نظامه . . .

ولكن الأمر من الوجهة الأخرى أثار نشاطا سياسيا شديدا بين القوى التقدمية والوطنية ، فقد خطب جمال عبد الناصر معلنا أن الشعب المصري يمارس (ثورة سياسية حفزته وتحفزته دائما الى مقاومة الاستعمار بكل صوره باعتباره خطرا داهما يهدد حياة الشعوب فضلا عن حريتها وكرامتها ... ومن عمق هذا الايمان يشعر شعبنا أن قضية الحرية لا تنجز ، ومن ثم فإن معاركها الكبرى سواء على أرضه أو أراضى غيره من الشعوب هي في صميم الأمر معارك كل الشعوب) .

أراد جمال عبد الناصر أن يستثير قضية العزلة السودانية بقدر ما تسمح به ظروف وتقاليد الضيافة ملمحا الى ثورة الكونغو التي وقف منها قادة الانقلاب موقفا سلبيا لما سبق شرحه قائلا (بهذا القدر شعرنا أن عدوان السويس لم يكن علينا وحدها كما أن العدوان في الكونغو لا يهدد شعب الكونغو وحده) .

وتطرق جمال عبد الناصر بعد ذلك دون تردد الى قضية الثورة الاجتماعية التي قال ان الشعب المصري يمارسها (ذلك لأن حرية الوطن هي لجميع لحرية المواطنين ، ولا يمكن أن تكون حرية المواطن في بلد الا بقيام تكافؤ اجتماعي يمنح الفرصة المتساوية للجميع ويمد خير الأرض الى جميع الأحياء عليها) .

ولم يشأ جمال عبد الناصر أن تنتهي خطبته عند هذه الحدود فقد طعن عزلة السودان طعنة مباشرة بقوله (يمارس شعبنا اليوم ثورة عربية دفعته وتدفعه دائما الى رفع صوته ايمانا بالقومية العربية) واستطرد قائلا (هكذا فان شعبنا في نضاله العنيد من أجل استرجاع حقوق شعب فلسطين انما ناضل من أجل قطعة سلبية من وطنه ، وكذلك يستقر في ضمائر شعبنا نفس المفهوم ... في النضال العنيد من أجل حق شعب الجزائر في وطنه الحر) .

فلسطين والجزائر قضيتان كانتا بعيدتين تماما عن تفكير قادة الانقلاب العسكري ، وتصريحات طلعت فريد التي ذكرتها كانت ما زالت تتردد في أرجاء السودان .

وختم جمال عبد الناصر خطابه بقوله أنه يؤمن بأن شعب الجمهورية العربية المتحدة وشعب السودان سوف يلتقيان في معارك الكفاح من أجل أوطان ترفرف عليها أعلام الحرية ، وفي معركة التطور الاجتماعي الذي يمهده له ويحققه تطوير الزراعة والصناعة والخدمات ... وفي معركة القومية العربية تعبير عن شرف كل وطن عربي واستقلاله ، ودفاع عن كرامة كل وطن عربي وعزته .

قال لى زكريا محيى الدين الذى صاحب جمال عبد الناصر فى رحلته التى حضر فيها احتفالات العيد الاول للثورة وطاف فيها بأرجاء البلاد حتى غادرها يوم ٢٦ نوفمبر أن الشعب السودانى كان يلتهب حماسة لرؤية جمال عبد الناصر وسنماع خطبه .

ورغم ما كان فى كلماته من بعض العبارات التقليدية التى تفرضها واجبات اللياقة الا أن معانيها وأهدافها السياسية كانت تصل الى قلوب المواطنين فترفع عنها قبضة اليأس وتشعل فيها الأمل .

ويؤكد زكريا محيى الدين أن جمال عبد الناصر كان يستهدف من رحلته إثارة المشاعر للجماهير .

وقد تحقق ذلك فعلا فلم تكد تمضى عدة أيام على مغادرته الخرطوم هائدا الى مصر حتى نشطت الجبهة وانتهى الرأى عندها الى اعداد مذكرة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ مرفوعة الى المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وقعاها قادة الأحزاب وعدد من الشخصيات البارزة وطالبوا فيها (مدفوعين بالرغبة الصادقة فى التفاهم والتعاون) بالأسس الآتية :

١ - أن يتفرغ الجيش لمهمته الوطنية الأساسية وهى حماية البلاد .

٢ - تتولى الحكم هيئة قومية انتقالية لتحقيق الآتى :

(أ) تمارس سلطات الحكومة فى فترة الانتقال .

(ب) تضع التخطيط السليم والاسس الواضحة الديمقراطية فى السودان وعلى ضوء تجارب الماضى .

(ج) تضع قانون انتخابات عادل يجرى الانتخابات لايجاد ممثلى الشعب الذين سيتولون الحكم فى صورته النهائية ليضعوا الدستور .

٣ - رفع حالة الطوارئ فورا وكفالة حريات المواطنين وضمان حرية الصحافة ليستطيع الشعب أن يعبر عن ارادته فى حرية ولتستطيع الحكومة القومية تحسس رغباته والتجاوب مع اتجاهاته .

كان نتيجة هذه المذكرة كما يذكر محمد أحمد محجوب فى كتابه (محاكمة الديمقراطية) حرمان اسماعيل الأزهرى وعبد الله خليل من معاشهما البالغ ١٠٠ جنيه شهريا .

هكذا حققت زيارة جمال عبد الناصر خطوة إيجابية فى طريق الوحدة الوطنية والنضال ضد العسكريين .

ولما ذهبت المذكرة الأولى بلا نصدي ونجاة قادة جبهة الأحزاب
المعارضة مذكرة ثانية في يناير ١٩٦١ ، كانت نتيجةها قيام اتصالات
منفردة بين بعض أعضاء المجلس الأعلى (اللواء طلعت فريد وأميرالاي
المقبول الأمين) وبين الصديق المهدي في محاولة للوصول الى نتيجة فيما
يتعلق بمستقبل السودان .

ولكن هذه الاتصالات قد انتهت الى غير نتيجة عندما أصر ممثلو
المجلس الأعلى أنهم قد استولوا على الحكم بالقوة ، ولن يتركوه الا
بالقسوة .

ورد الصديق المهدي على ذلك بمذكرة في ١٢ مارس ١٩٦١ نشرت
في كتاب (ثورة شعب) وجاء فيها أنه (ليس صحيحا أن الجيش قد جاء
الى الحكم بالقوة وان هذه حقيقة تاريخية سافرة لا تقبل الجدل) وانتهى
الى نفس مطالب مذكرة ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ .

بعد فشل الاتصالات بدأ الحكم العسكري في حملة استفزازات
ضد الانصار فحدد في شهر مايو ١٩٦١ اقامة الصنادق المهدي وأحمد
المهدي بعد رحلة الى غرب السودان ومنع الانصار من رفع الاعلام
وترديد الاناشيد .

وارسل الصديق المهدي مذكرة يوم ٢٨ مايو ١٩٦١ الى اللواء إبراهيم
عبود يحتج فيها عن ما حدث ، محملا اياه (مسئولية ما قد يترتب على
تصرفات الحكومة الاستفزازية ضد الانصار من فئات الشعب) .

وفي منتصف يونيو ١٩٦١ حدثت اضراب شامل لعمال السكة الحديد
شكل نقطة انطلاق جديدة في نضال القوى الثورية وأعقب ذلك محاكمة
مناضل شيوعي في الأبيض وتعرضه للتعذيب واعتقال مجاميه .

وبادر زعماء الأحزاب في ١١ يوليو بارسال برقية الى المجلس الأعلى
تدين هذا التصرف وتطالب بتنحي الحكومة وعودة الحياة الديمقراطية .

ووضّح للحكومة أن هناك تحفزا شعبيا عاما وأن الجماهير قد
وصلت الى درجة كبيرة من السخط فأصدرت قرارها باعتقال ١٢ من زعماء
الأحزاب ونفيهم الى جوبا وهم الشهيد المناضل عبد الخالق محجوب
وأنسماعيل الأزهرى وعبد الله خليل ومحمد أحمد المحجوب ومبارك زروق
ومحمد أحمد المرنضى وإبراهيم جويل وأمين التوم وعبد الله عبد الرحمن
نقد الله وعبد الله ميرغني وعبد الرحمن شاخوز وأحمد سليمان .

ويقول محمد أحمد محجوب في كتابه (محاكمة الديمقراطية) أنه
كان ينام في غرفة واحدة مع عبد الخالق محجوب وعبد الرحمن نقد الله

وأحمد سليمان • وهكذا اجتمع ممثلو الأنصار مع الشيوعيين في غرفة شديدة الضيق في جوبا حيث تكاد الأمطار لا تنقطع •

ويقول محمد أحمد محبوب أنه كان قد بدأ يدرس الماركسية ويترجم مع الشهيد المناضل عبد الخالق محبوب كتابا لبليخانوف •

أحدثت هذه الاعتقالات صدى محليا وعالميا واسعا وبادر الشيوعيون في أم درمان والأبيض بتنظيم مظاهرات حوكم فيها عدد من أعضاء الحزب أمام محاكم عسكرية •

وتوالى البيانات والمنشورات من الجبهة الى أن أضرب الزعماء عن الطعام بعد ٢٠١ يوم من الاعتقال حتى يتم الافراج عنهم وفزعت الحكومة لذلك وأصدرت قرارها بالافراج عنهم في اليوم التالي للاضراب عن الطعام مباشرة : ٢٨ يناير ١٩٦٢ •

ارتفعت الروح المعنوية عند الجماهير بعد الافراج عن زعمائهم ، ولكن جبهة الأحزاب المعارضة بدأت تتراجع متأثرة بوفاة الامام الصديق المهدي كما جاء في كتاب الحزب الشيوعي (ثورة شعب) والتي حدثت يوم ٢ أكتوبر ١٩٦١ أثناء وجود الزعماء في معتقل جوبا •

وافقت الجبهة صاغرة لقرار الحكومة بإلغاء احتفالها بعيد الاستقلال في أول يناير ١٩٦٢ ، كما وافقت على إلغاء الاحتفال الذي قررت اقامته بمناسبة الافراج عن زعمائها •• وركنت الأحزاب الأخرى عدا الحزب الشيوعي الى الهدوء والاستكانة ، مما جعل الحزب الشيوعي لا يجد سبيلا للتغلب على سلبيته الا بالخروج من الجبهة بعد رفضهم الدعوة الى الاضراب السياسي العام •

وانسحب الحزب الشيوعي من تجمع المعارضة في نهاية عام ١٩٦٢ معبرا عن رأيه في ضرورة دفع حركة الطبقات الثورية للحد الأقصى عن طريق تجميع كل القوى الوطنية والديموقراطية وتوحيدها في اتحاد موثق •

الفصل الرابع

ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤

(أول ثورة في التاريخ ينتصر فيها
الشعب الأعزل على انقلاب عسكري
مسلح) .

(ثورة أكتوبر ثورة وطنية
مناهضة للاستعمار القديم والحديث ،
ويعتمد مستقبلها على مقبرة القسوى
التي أشعلتها في التعبير عن ارادتها
تعبيراً ديموقراطياً) .

الشهيد المناضل
عبد الخالق معجوب

ثورة ٢١ أكتوبر :

جنحت الأحزاب التقليدية للصمت والاذعان لواقع الحياة ، بينما
واصل الحزب الشيوعي فضاله بين مختلف الفئات والطبقات الثورية بما
فيه من شبكات القوات المسلحة الذين شكل لهم تنظيمًا سرّيًا خاصًا يشرف
عليه سكرتير الحزب الشهيد المناضل عبد الخالق معجوب .

لم يتهاون الحزب الشيوعي مع الديكتاتورية العسكرية مطلقا . .
وعندما قام بريجنيف وكان رئيسا لاتحاد الجمهوريات السوفيتية
الاشتراكية بزيارة السودان ، لم يصدر الحزب انشيوعى بياناً يرحب
بالزيارة ، ولكنه أصدر منشورا يهاجم فيه بعنف الحكومة العسكرية .

وتبنى الحزب الشيوعي السودانى شعار الاضراب السياسى العام
وأصدر مكتبه التنظيمى فى أغسطس ١٩٦١ الخطة التنظيمية التى يسير
عليها الحزب لتنفيذ الشعار .

وأوضح التقرير مضمون هذا الاضراب السياسى العام بهذه الفقرة
(انه توقف الجماهير الثورية عن العمل ويتم تنفيذه عندما تصل الجماهير
الثورية الى وضع لا تحتمل فيه العيش تحت ظل النظام الراهن) .

وترك الحزب توقيت الاضراب (مرهوناً بالحدود التى تصل اليها
الحركة الجماهيرية الصاعدة) . . وعن مكانه قال : (قد تكون البداية
للطبقة العاملة وقد تكون للطلاب أو الزراع ، وقد تكون انبداية فى
الخرطوم أو عطبرة أو بورسودان أو الجزيرة . . ليس المهم أو الأمر
الجوهري تحديد تبعات الاضراب أو فى أى منطقة يبدأ ، وإنما الأهم وانذى
تتطلبه الظروف الراهنة هو الارتقاء بالنضال الجماهيرى وتنظيمه ليصل
الى نقطة التنفيذ الشاملة) .

وخلال فترة الحكم العسكرى كانت هناك بعض العناصر تدعو الى
الاضراب السياسى قبل نضج الظروف المهيئة لذلك . . وعلى سبيل المثال
تقرر عقد مؤتمر النقابات للعمال السودانيين فى أغسطس عام ١٩٦٣
تحت إشراف ضباط الجيش البكباشى محمد عبد الحليم الذى تخرج
فى الكلية الحربية المصرية وتخرج فيها ضابطا بالمدفعية المضادة للطائرات
عام ١٩٤٢ . ثم نقل الى القوات السودانية ، والذى عينه الحكم العسكرى
مديراً لمكتب العمل ، وصاغ قرارات تهاجم الحزب الشيوعى بلا مبرر .

وأصدر الحزب بياناً قال فيه : (ان الاستعمار الأمريكى الذى تشرف
على مؤامراته بالخرطوم السفارة الأمريكية هو صاحب المصلحة الاولى فى
قسم الحركة النقابية . . ان هذا يخدم الأغراض التى من أجلها جاءت
المعونة الأمريكية للسيطرة على اقتصاد البلاد واستغلال الأيدي العاملة ،
وليس البكباشى محمد عبد الحليم الا أداة فى يد القوى الاستعمارية
لتنفيذ المؤامرة) .

وحاول البعض إثارة فكرة الاضراب السياسى ولكن الحزب الشيوعى
عارض ذلك لأنه كان مقدرا له لو تم أن يعود على الحركة بنفس الانتكاسة
التي تسبب فيها اضراب عمال السكة الحديد فى يوليو ١٩٦٠ . .

ونضجت الظروف للاقتراب من الاضراب السياسي عندما ارتفعت
الاسعار ارتفاعا جنونيا ، وبلغ عدد العاطلين المسجلين في مكاتب التوظيف
٦٠ ألفا في مدينة لايزيد سكانها عن ثلث مليون ، وارتفعت الضرائب غير
المباشرة خلال خمس سنوات الى نسب تتراوح بين ٥٠ و ٦٣ في المائة .

وبدأت الإضرابات تتحرك

في صيف ١٩٦٣ أضرب المزارعون في مشروع شمال الجزيرة . . .
وفي بداية ١٩٦٤ تمت الانتخابات بين المزارعين على الأسس التي
وضعتها الحكومة وكانت النتيجة نجاح ١٥٤ عضوا كلهم من المعارضين
لسياسة الحكومة .

وفي صيف ١٩٦٤ وافقت الحكومة تحت ضغط العمال على مبدأ
تكوين اتحاد لنقابات العمال وشهدت من أجل ذلك قبضتها وضاعت
رقابتها ، ولكن ٥٥ نقابة من ٦٣ قررت انتخاب الشهيد المناضل الشفيق
أحمد الشيخ سكرتير عام اتحاد النقابات المساعد الذي أمضى في السجن
خمس سنوات .

وفجأة . . . في يوم ١٢ أغسطس قررت الحكومة منع عقد المؤتمر
الذي كان مقررا أن يعقد بعد ثلاثة أيام ، وذلك بعد وصول أفواج
المدعوين من العمال من مختلف الدول ومنهم ممثلون لاتحاد نقابات
العمال العرب ، واتحاد عمال الجمهورية العربية المتحدة . وصاحب
الغاء حملة اعتقالات شملت مئات النقابيين .

ووصل غضب الجماهير الى الذروة وخرجوا الى الشوارع يتظاهرون
ويهتفون ضد نظام عبود ، وخاصة عندما فكرت الحكومة في تنييع الجامعة
الى وزارة التربية والتعليم فتظاهر الطلبة احتجاجا .
وكانت الشرارة الأولى يوم الأربعاء ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ عندما استقرت
رصاصة في قلب الشهيد أحمد قرشي عضو رابطة الطلبة الشيوعيين
فحمله زملاؤه الى مبنى الجامعة ، وناموا حول جثته لحراستها .

وفي اليوم التالي حمل الجثمان أساتذة الجامعة وهم يلبسون
الأرواب واجتمع أكبر حشد للجماهير في تاريخ السودان ، وأحاطت
الجماهير بالدبابات وعربات الجيش المصفحة وهي تهتف بسقوط الحكم
القائم .

وسرت الشرارة بين الجماهير كاللهب . . . ووقف القضاء يشاركون
الأساتذة الجامعة وطلابها موقفهم وفي مقدمتهم القاضيان بأكبر عوض الله
وعبد المجيد أمام

وبرزته خلال الأحداث الملتهبة المتلاحقة فكرة تجمع يضم نقابات
الأطباء والعمال والمحامين والقضاة وأساتذة الجامعة والمعلمين واتحاد
الطلبة .

الظروف أصبحت ناضجة تماما لتحقيق الفكرة التي تبناها وبلورها
الحزب الشيوعي السوداني وناضل أعضاؤه ببسالة من أجل تحقيقها :
فكرة الاضراب السياسي العام .

وأعلن عابدين اسماعيل نقيب المحامين أمام المحكمة العليا بالخرطوم
تكوين (الجبهة القومية الموحدة) وإعلان الاضراب السياسي العام يوم
٢٤ أكتوبر .

واهتزت السماء بصيحات الشعب وهز يؤيد النداء .. وبدأت
خطوات عملية لتنفيذ الاضراب .

وعاشت الجماهير في شوارع الخرطوم ، وأعلن اللواء حسن البشير
عضو المجلس الأعلى ووزير الدفاع بأنه قرر تشكيل محاكم عسكرية
لمحاكمة أعضاء الجبهة ، والمتظاهرين بالمادة ٤ من قانون الدفاع التي تنص
على الحكم بالاعدام .

وحدثت اقامة القاضيين بابكر عوض الله وعبد المجيد امام وأعلن
قرار بحظر التجول ليلا .. ولكن الجماهير لم تتردد لحظة في الخروج
الى الشوارع والتظاهر والاضراب ، وتم نزول قوات الجيش .
المزارعون في الجزيرة رفعوا أيديهم عن الزراعة .

في مدينة الدويم أطلقت الجماهير سراح المسجونين وكان في السجن
الأميرالاي عبد الرحيم شنان الذي قاد انقلاب مارس ١٩٥٩ ودخل
السجن في مايو من نفس العام .. ولكن الأميرالاي شنان رفض الخروج
منتظرا قرار الإفراج عنه من أعضاء النظام الجديد .

وفي مدني سلم الحاكم العسكري السلطة الى القضاة المدنيين .

وفي عطبرة انسحبت قوات الجيش الى الثكنات .

وفي يوم ٢٦ أكتوبر تحرك عدد من ضباط الجيش التقدميين
والوطنيين الى القصر الجمهوري حاملين عريضة موقعا عليها من حوالي
١٦٠ ضابطا في مقاومة منهم لمنع انفراد اللواء حسن البشير بالسلطة ،
ومنع استخدام الجيش لضرب الشعب .

.. طالبت المذكرة بحل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، ومجلس الوزراء
ووقف المجازر وتطهير الجيش من الفساد .

وفي التاسعة من مساء نفس اليوم أذيع بيان عبود الذي أعلن فيه
تخلي المجلس عن سلطاته وعزله الوزارة ، وحل المجلس الأعلى ..
وانفجرت في الخرطوم عاصفة من التأييد الشعبي الجارف استعدادا
لاستقبال نظام حكم جديد ، انتصرت فيه ارادة الشعب الأعزل على قوة
الديكتاتورية العسكرية المسلحة .

وبدأت المفاوضات من أجل تكوين الوزارة الجديدة مع (الجبهة
القومية الموحدة) التنظيم الوحيد المعلن الذي قاد الجماهير خلال أيام
الثورة .

واستقر الرأي على تعيين سر الختم خليفة رئيسا للوزراء بعد اعتذار
بإبكر عوض الله ، وهو من رجال التعليم وكان وقتها مديرا للمعهد الفني
وليس له صلة بالسياسة .

وتشكلت الوزارة من ممثل واحد لكل حزب من الأحزاب .. محمد
أحمد محبوب عن الأمة وزيرا للخارجية ومبارك زورق عن الوطني الاتحادي
وزيرا للمالية ، وأحمد سليمان عن الشيوعي وزيرا للزراعة ، وبقية
الوزراء من الأسماء الجديدة التي لم تتول مناصب وزارية سابقة ، يمثلون
الثقافات والهيئات التي كانت تتعاون مع الحزب الشيوعي تعاوناً وثيقاً ..
وضمنت الوزارة أيضا الشهيد المناضل الشليخ أحمد الشيخ وزيرا للدولة
للشمال ، كما ضمت ثلاثة وزراء من الجنوبيين .

وكانت هذه هي أول مرة تصل فيها القوى الديمقراطية للسلطة
بعيدا عن الأحزاب التقليدية .

أول قرار للوزارة كان الإفراج عن المعتقلين والمُسجونين السياسيين
وخرج الأميرالاي عبد الرحيم شنان وزملاؤه من سجن النويم .

ولم تكد تمضي عدة أيام على تأليف الوزارة حتى فوجيء الناس
ليلة ٩ نوفمبر ١٩٦٤ بمن يدعوهم من الاذاعة للخروج الى الشوارع
لحماية الثورة من انقلاب عسكري محتمل .

كان المتحدث هو فاروق أبو عيسى المحامي وعضو اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي وسكرتير الجبهة الوطنية للهيئات وهو الاسم الذي
استقرت عليه الجبهة القومية الموحدة .

وفوجئت ليلتها وكنت هناك في الخرطوم بأن الجماهير قد
خرجت الى الشوارع وأقامت المتاريس واحتلت الشوارع مدافعة عن
انتصارها وهي تدق الطبول وتهزج بالأناشيد .

وكان السر وراء هذا الجذر هو اعتقال ثمانية من الضباط الوطنيين منهم الشهيد فاروق عثمان حمد الله والبكباشي جعفر نمري أفرج عنهم قسرا .

وفي هذه الليلة كانت اذاعة القاهرة تردد ما تذييعه اذاعة أم درمان وهي تطالب الشعب بالخروج لحماية مجلس الوزراء ومبنى الاذاعة حتى تستقر الأمور وعاد الهدوء .

وعقدت الوزارة اجتماعا يوم ١٠ نوفمبر قررت فيه اعتقال أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة السابق وترحيلهم يوم ١١ نوفمبر الى زانجي في غرب السودان .

وأصدر سر الختم خليفة بصفته وزيرا للحربية قرارا بتعيينات جديدة في الجيش .

وفي يوم ١٥ نوفمبر أعدت الوزارة بيانا للواء عبود ليذيعه معلنا استقالته باعتباره آخر مظهر من مظاهر الحكم العسكري المنهار .

وذهب أعضاء مجلس الوزراء جميعا إلى القصر الجمهوري لمواجهة بذلك ، وكانت آخر رغباته كما وصفها محمد أحمد مججوب في كتابه (الديموقراطية في الميزان) هي أن تؤخذ له صورة مع مجلس الوزراء ، وقد تم ذلك فعلا ، ثم طلب منهم أن يبقى ابنه مقيما في منزل سفير السودان في لندن حيث يدرس هناك ، وأخيرا طلب معاشا مناسباً له باعتباره رجلا فقيرا لا يملك ما يؤمن حياته ، وقد أجب إلى كافة طلباته .

وهكذا انتهى عهد الحكم العسكري للجنرالات في السودان وطويت صفحة ستة أعوام سوداء بعد أن سجل الشعب السوداني حدثا تاريخيا لا يتكرر كثيرا هو قهر نظام عسكري رجعي تطارده صيحات الجماهير الغاضبة (إلى الثكنات .. يا حشرات) .

وتثبتت الأحداث أن ثورة ٢١ أكتوبر لم تكن وليدة انفجار مرئجل ، ولم تكن بقطة ملاحة .. وإنما كانت ثمرة ناضجة لنضال طويل قادته جبهة المعارضة حتى نهاية ١٩٦٢ ثم الحزب الشيوعي السوداني مع العناصر الوطنية والديموقراطية في مختلف النقابات والهيئات لتحقيق الشعار المرشد لهم وهو الاضراب الشيعاني العام .

ولا شك أن من العوامل الحاسمة في انتصار ثورة ٢١ أكتوبر انحياز بعض الضباط الوطنيين إلى جانب الشعب يوم ٢٦ أكتوبر وتقديم مطالبهم التي تصدرها حل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ونقل مجلس الوزراء .

وكانت القاهرة ترقب أحداث السودان بقلب مشوق لتغيير الوضع هناك ، فانه رغم العلاقات التقليدية الطيبة بين الدولتين ورغم الوصول الى اتفاقية مياه النيل ، فبان بحال عبد الناصر لم يكن سعيدا فعزلة السودان ، ولم يكن راضيا عن تقريب الحكم العسكري للدول الغربية وفتح الابواب للاستعمار الجديد ، في وقت كانت مصر فيه تقاوم مؤامرات الامبريالية الأمريكية وخططها في انفصال سوريا ، ومقاومة الثورة اليمنية من السعودية .

ولذا فانه ما ان وصلت الاخبار الاولى للثورة الى مصر حتى شاع نوع من التأييد الرسمي والشعبي للثورة المتفجرة يوما بعد يوم .

وسافرت في الايام الاولى للثورة مندوبا عن مجلة روز اليوسف التي كنت قد بدأت الكتابة فيها من شهر رغم اني كنت مازلت اعمل مديرا لمؤسسة المسرح التي كان عبد القادر حاتم وزير الارشاد القومي قد اعتلى عليها وحل تنظيمها المتماسك وجعلها تابعة للإذاعة رغم ابتعاد الصلة بين المجالين . . مما خلق تناقضات ومتاعب تصعب العمل وتعرقله .

وكانت ضلتي الوثيقة السابقة بالشهيد المناضل عبد الخالق محبوب منذ كان طالبا في كلية الآداب بجامعة القاهرة ومنتسبا الى الحركة الديمقراطية لتحرير الوطن (جدتو) ، ومقابلتي له فور وصولي هناك - عاملا رئيسيا في رؤيتي لحقيقة الوضع في السودان ، وكتابة عدة تحقيقات عن ذلك في مجلة روز اليوسف خلال شهر نوفمبر ١٩٦٤ .

كان الشهيد عبد الخالق حريصا على نفي الصفة التي أطلقها مندوب لاسوشيتد برس يسمى ماكارتى من قوله بأن ثورة أكتوبر شيوعية (يملك زمام الموقف فيها وجبل خامض . . يسمى عبد الخالق محبوب منسكرير الحزب الشيوعي) .

كما كان الشهيد عبد الخالق واضحا تماما في قوله بأن (ثورة أكتوبر ثورة وطنية مناهضة للاستعمار القديم والحديث . . . ويعتند مستقبلها على مقدرة القوى التي أشعلتها في التعبير عن ارادتها تعبيرا ديموقراطيا) .

وقد سجلت وقتها قوله (ان الظروف التي أحاطت بثورة ٢٩ أكتوبر والعوامل التي أثرت في الشعب السوداني خلال سنوات الحكم الرجعي الست قد فتحت الافاق لطريق واسع لبناء الاشتراكية في السودان . . . ينبغي ان الحزب الشيوعي ظل خلال هذه المدة يدعو للاشتراكية ويؤيد

على أقسام من جماهير الشعب ، ولكن من غير الصحيح اعتبار المطامع الاشتراكية لكل قطاعات الشعب المناضل وقفا عليه وحده . . . وهذه حقيقة لا تلوث على : بال الشيوعيين في السودان لانها موضوعية وذات صلة بالحياة المعاصرة لشعب السودان) .

وقال الشهيد عبد الخالق أيضا (على الرغم من أن الحزب الشيوعي السوداني قد أبرز تنظيمه علنا بعد انتصار ثورة ٢١ أكتوبر إلا أنه لم يعتبر هذا التنظيم وحده معبرا عن الاتجاهات الاشتراكية المختمة في أذهان ثوار ٢١ أكتوبر) .

الاشتراكية برزت كشعار جديد للجماهير . . . ووجد ذلك ترحيبا شديدا من جمال عبد الناصر ، جعله يفتقر فرصة تخريب جسر التعاون بين القاهرة والخرطوم على بعض العناصر الرجعية .

وكان ذلك عندما ثارت الجماهير في السودان على مقالين ، أولهما كتبه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام . والثاني كتبه موسى صبرى وأرسله من الخرطوم حيث أضاف إليه بعض المحررين كلمات تقول بأن الجماهير كانت تهتف لمصر ولجمال عبد الناصر في محاولة ساذجة لتصوير الثورة وكأنها من صنع مصر .

واستغلت بعض العناصر ظهور هذين المقالين ، والحساسية الشديدة عند السودانيين من كل كلمة تنشر عن مصر أمر معروف وشديد الوضوح فوجهت عددا محدودا من المتظاهرين إلى السفارة المصرية حيث اعتدوا عليها وحرقوا العلم المصري .

وأسرع وقتها وزير الخارجية محمد أحمد محبوب وعدد من الوزراء إلى السفارة المصرية يقدمون الاعتذار للسفير الذي حاول أن يجعل منها مشكلة ، ولكن ما أن وصل الأمر إلى جمال عبد الناصر حتى أدرك أن هذا العمل لا يمكن أن يمثل التيار الرئيسي للثورة ولا بد أنه من تدبير بعض العناصر التي هالها وضوح الاتجاه الاشتراكي لثورة أكتوبر ، ونتيجة ذلك الحتمية ارتباط جديد وثيق مع مصر والدول العربية المتحررة .

وطلب جمال عبد الناصر من السفير علم تقديم احتجاج ، وأمره برفع العلم المصري في ميدان .

ولم تلب محاولة تخريب اتجاه الثورة عند هذا الحد ، فقد حدثت يوم ٦ ديسمبر الذي أطلق عليه أسم (الأسبوع الحزين) حادث مروغ اذ كان حشد من أبناء الجنوب ينتظر الوزير الجنوبي كليمنت أمينور في مطار

الخرطوم وتلخسرت الطائرة وسرت بين المبتقلين اشاعة تعرض الوزير للخطر وبدأ القلق والغضب يسرى في صفوفهم ، ولما طالبهم البوليس بالتفرق والعودة رفضوا وحدث اشتباك بين الطرفين ، انتهى الى اشتباك عام بين الشماليين والجنوبيين قتل فيه ١٣ شخصا وجرح كثيرون .

كان جمال عبد الناصر يرقب الموقف في السودان بنظرة الزعيم الوطني المتفتح ، الذي يسانده بحكم ثورته ومبادئه حركات التحرر الوطني في كل موقع .

ولذا يبادر الى عقه صلة مع القوات الثورية السودانية التي كان الحزب الشيوعي يقف منها خلال هذه المرحلة في موقف الطليعة . عندما كتبت تحقيقاتي الصحفية عن ثورة أكتوبر في السودان في مجلة روز اليوسف ، أصدر جمال عبد الناصر قراره بتعييني رئيسا لتحريرها في أول ديسمبر ١٩٦٤ في الوقت الذي كان فيه أحمد فؤاد رئيس مجلس ادارة بنك مصر قد عين رئيسا لمجلس ادارتها وبدأت صلة جديدة بين جمال عبد الناصر وبين الحزب الشيوعي السوداني الذي سبق له أن ساند ثورة يوليو خلال فترة العدوان الثلاثي وأوسل هيدا من المتطوعين ، وناضل تضالا طويلا من أجل تحسين سمعة الحكم في مصر بعد عزله نجيها واستقلال السودان وركوب الأحزاب التقليدية وخاصة حزب الأمة موجة التناقض مع مصر .

وأصبحت الجماهير في السودان تهتف بحياة جمال عبد الناصر وتنظر اليه نظرتها الى بطل مرموق تتطلع اليه وهي يقود مصر في خطواتها التحررية بينما رجال الانقلاب العسكري الرجعي في السودان يقيسون خطوات الشعب بالعزلة والاغلال .

وكان أول مندوب يقابل جمال عبد الناصر من الحزب الشيوعي في هذا الوقت هو محبوب عثمان عضو اللجنة المركزية الذي حضر اليه حاملا رسالة الحزب ، وقد حضرت هذه المقابلة مع أحمد فؤاد وتم الاتفاق فيها على قيام صلة سياسية بين القاهرة والحزب في الخرطوم عبر بعض المسئولين هناك .

ووافق جمال عبد الناصر في هذا اللقاء على طبع كتاب عن تاريخ الحزب ونضاله ضد الانقلاب العسكري باسم (ثورة شعب) .

أصدر جمال عبد الناصر أوامره لخالد محيي الدين رئيس مجلس ادارة أخبار اليوم في ذلك الوقت بطبع الكتاب في المؤسسة على ألا يتحمل الحزب تكاليف الطباعة . . . وعلى الا يوزع الكتاب في مصر .

وعندما صدر الكتاب قامت نخوة مناقشة في الاجتماع العاشر الذي عقده جمال عبد الناصر مع أمانة الاتحاد الاشتراكي العربي يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٦ إذ أثار أحد الأعضاء قضية نشر الكتاب قائلا أن هذا الكتاب يجعل الأحزاب الأخرى تنسأل أن كنا نؤيد وضعاً معيناً في السودان : ونسبها لـ نحن فعلاً نشجع وضعاً معيناً هناك ؟

واستطرد العضو قائلاً : أن كان الأمر كذلك فإنه كان لاداعي لأن يكتب على الكتاب أنه طبع في أخبار اليوم .

وأجاب جمال عبد الناصر في صراحة تامة قائلاً : (لقد وافقت على طبع هذا الكتاب ولو أن الأخ علي حنق فيما قاله . وبالنسبة للوضع في السودان فإن الحزب الشيوعي أفضل لدينا ألف مرة من الأحزاب الرجعية ، والحقيقة أن الحزب الشيوعي في السودان يقف في خط وطني ويتعاون مع حزب الشعب الديمقراطي وجبهة الهيئات والعمال ونحن لانعادي الحزب الشيوعي في السودان) .

هذه الصلة التي بدأت لم تنقطع مطلقاً طوال حياة جمال عبد الناصر ولم تشبهها المحاذير أو الشكوك .

وقامت هناك صلة أخوة نضالية بين عبد الناصر وبين الشهيد المناضل عبد الخالق محجوب الذي لم يحضر مرة إلى القاهرة إلا واستقبله جمال عبد الناصر وعقد معه جلسة مناقشة ودودة وطويلة .

اجهاض ثورة أكتوبر :

كانت الأحداث تلاحق الوزارة الجديدة التي شكلها سر الختم خليفة والتي بدأت تتخذ اجراءات ترفع عن المجتمع قبضة الحكم العسكري وتطهر آثاره .

أصدرت قرارات بمنع الطائرات البريطانية فوق مجالها الجوي .

صادرت أموال رجال المجلس الأعلى السابق وبعض الذين أثروا عن طريق الاتصال المريب منهم .

غيرت في قيادات الجيش وأحالت إلى التقاعد بعض كبار الضباط .

أعادت الحقوق الديمقراطية لتكوين النقابات المهنية والاتحادات العمالية .

وقام سر الختم خليفة بزيارة مصر في يناير ١٩٦٥ حيث استقبله الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان لهذه الزيارة التي صنعها فيها معجزة

أحمد مججوب، وأحمد سليمان وكليمينت إمبورو صدي كبير في تحسين العلاقات بين البلدين .
ولكن الوزارة الجديدة بدأت تصطدم بإصرار الأحزاب التقليدية على إجراء الانتخابات بعد ستة أشهر كما ورد في البيان الأول للوزارة، والذي صدر دون دراسة متأنية شاملة للأوضاع في السودان .
وكان الجنوب مشكلة تفرض نفسها على الموقف . فأصبحت الحكومة قراراً بإطلاق سراح المسجونين السياسيين من أبناء الجنوب والاعتراف بعطلة يوم الأحد والبداية في المفاوضات مع ممثلي أحزاب الجنوب .

ولكن أجزاء الانتخابات عندئذٍ كان يمثل مشكلة . وقدم إرسال اتحاد السودان الوطني الأفريقي ، أو حزب (سانو) ، خطايا مفتوحة إلى رئيس الوزراء يقول له "فيه أن آلاف من اللاجئين من مواطني جنوب السودان موجودون حالياً في بلاد أفريقية مجاورة خاصة في الكونغو وأثيوبيا وجمهورية أفريقيا الوسطى وكينيا ، وهم يمثلون قسماً هاماً من شعب جنوب السودان . منهم الزعماء السياسيين والمهنيون وزعماء القبائل والطلاب ، وقد اضطروا لمغادرة البلاد أثناء الحكم العسكري المتهار .

ولذا طالب زعماء الجنوب بتأجيل إجراء الانتخابات بيناً طالب الصادق المهدي وإسماعيل الأزهرى بإجراء الانتخابات في الموعد المحدد لها : مارس ١٩٦٥ دون نظر إلى مشكلة الجنوب .

وأصبحت الانتخابات هي محور الخلاف بين الجبهة الوطنية للهيئات التي حضرت وقادت الثورة ترفض إجراء كثير الجنوبيين . ويؤدي إلى عزلتهم عن الشمال ، ويساندونها في ذلك الحزب الشيوعي والشعب الديمقراطي . بينما يصر حزب الأمة والوطني الاتحادي على سرعة إجراء الانتخابات مستنديين إلى نفوذهم التقليدي ووجود عناصر موالية لهم في المناصب الإدارية .

وحدثت بعض المصادمات بين أنصار حزب الأمة الذين حضر منهم ٣٠٠٠ لقيعوا في أم درمان ، وبين الجماهير المؤيدة بقيادة الجبهة التي أنقذتهم من الحكم العسكري .

وخلال هذه الفترة حضرت إليزابيث ملكة بريطانيا لزيارة السودان في ٨ فبراير ١٩٦٥ تديدا للعلاقات القديمة بين البلدين .

وبعد ذلك بأيام قام الصادق المهدى واسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب بزيارة رئيس الوزراء سر الختم خليفه في منزله سرا في الثانية بعد منتصف الليل حيث ضغطوا عليه من أجل تقديم استقالة الوزارة رغم انه في نفس الليلة ١٧ فبراير كان هناك اجتماع لمجلس الوزراء تم الاتفاق فيه على استمرار الوزارة في موقعها حتى يتم تهديد الظروف المناسبة لاجراء انتخابات سليمة تحقق وحدة الشمال والجنوب .
وتقدم تعبيرا صحيحا عن ارادة الشعب .

كان موقف سر الختم خليفه غريباً طعن به الثورة التي اختارته رئيساً و خان الجماهير التي منحته ثقته . . وكان في ذلك خاضعا لنفوذ الانصار واصهاره أسرة المهدى .

وقد أسفرت الانتخابات المتعجلة التي تمت في أبريل ١٩٦٥ وقاطعها الجنوبيون وحزب الشعب الديمقراطي عن حصول حزب الأمة على ٧٥ مقعدا من ١٧٣ والوطني الاتحادي على ٥٣ مقعدا ، والحزب الشيوعي على ٨ مقاعد كما أسفرت انتخابات الخريجين على حصول الحزب الشيوعي على ١٣ مقعدا من ١٥ .

كان انقراض حزب الشعب الديمقراطي وحصول الانتخابات عملا غير مبرر ، لقد حرم (الشعب الديمقراطي) الذي ربط بينه وبين الحزب الشيوعي وتنظيمات الجبهة من فرصة الحصول على مقاعد كافية تؤدي الى تكوين معارضة قوية نشطة كما أنه سسهل من حصول حزب الأمة على أغلبية كبيرة .

تولى محمد أحمد محجوب رئاسة وزارة ائتلافية من الأمة والوطني الاتحادي ، وعين اسماعيل الأزهري رئيسا دائما لمجلس الرئاسة ، واجهت الجمعية التأسيسية بلا مشايخ للجنوبيين في ١ يونيو ١٩٦٥ لوضع دستور للبلاد .

وسرعان ما بدأت الخلافات في الظهور ، فقد دعت عناصر الحكومة طالبا في اتحاد المقاعد بام درعان كان متشبها في المناقش للحزب الشيوعي الى التهجم على الدين الاسلامي ، واتخذت من هذا الموقف مشكلة استندت اليها في حل الحزب الشيوعي قانونا وفصل أعضاءه من الجمعية التأسيسية .

ورفع الحزب الشيوعي ذلك القرار الجائر الى المحكمة التي أصدرت حكما بعدم شرعية تعديل الدستور الذي تم بتوجيه حل الحزب الشيوعي وطرد أعضائه من الجمعية التأسيسية .

وأصبحت الحكومة محاصرة بين حكم المحكمة العليا ووزير الداخلية والجمعية التأسيسية لرفضها تنفيذ حكم المحكمة .

ولم يكن هذا هو التناقض الوحيد .

ظهرت تناقضات داخل تحالف الحزبين الحاكمين عندما نشب صراع على منصب رئيس الجمهورية بين اسماعيل الأزهري الذي كان يتولى هذا المنصب بصفته رئيسا لمجلس السيادة وبين الهادي المهدي أمام الانصار الذي كان يتطلع الى المنصب أيضا :

والفك التجميع الاشتراكي الديمقراطي عندما مارس حزب الشعب الديمقراطي لعبته في عقد تحالفات التهازية متناقضة والدمج مع الحزب الوطني الاتحادي في حزب جديد باسم الحزب الاتحادي الديمقراطي ، بعد أن كان متحالفا مع حزب الأمة قبل الحكم العسكري ثم متعاونًا مع الحكم العسكري ثم متحالفا مع الحزب الشيوعي وأخيرا مع الوطني الاتحادي .

ولم تقف التناقضات والخلافات عند حدود الأحزاب بل تسربت الى داخل صفوف حزب الأمة ، اذ قام نزاع بين الصادق المهدي الشاب الطموح بخريج اكسفورد ابن شقيق الإمام الهادي وصهر الدكتور حسن الترابي زعيم الاخوان المسلمين وبين محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء لانه كان يطمح في تولي منصب رئاسة الوزراء رغم عدم بلوغه سن الثلاثين بعد .

كان الهادي المهدي يساعد محمد أحمد محجوب مما أدى الى انقسام حزب الأمة الى كتلتين متنافرتين ووصل الخلاف الى الحد الذي جعل نائبا من الأمة يضرب وزير الصحة وهو من حزبه أيضا حتى نقل الى المستشفى .

وما أن بلغ الصادق المهدي سن الثلاثين وأصبح صالحا دستوريا لمنصب رئيس الوزراء حتى بادى لتنفيذ خطته بالضبط على محمد أحمد محجوب لاجباره على الاستقالة ولكن محجوب رفض ذلك تماما جعلنا أنه انتخب بواسطة الجمعية التأسيسية ، وهنا بدأ اتجاه الصادق لاعضاء الجمعية ولإسماعيل الأزهري الذي أيده ، وهنا لم يجد محجوب بدا من الاستقالة وتولى الصادق المهدي رئاسة الوزراء في ٢٦ يوليو ١٩٦٦ .

وانقسم حزب الأمة انقساما حادا لأول مرة في تاريخه ، ولم تمكن حكومة الصادق المهدي أكثر من شبهة وجود حيث حجبت عنه الجمعية التأسيسية ثقتها في ١٥ مايو ١٩٦٧ بعد خلاف بينه وبين وزرائه :

وعاد محمد أحمد محجوب رئيسا للوزراء يوم ١٨ مايو ١٩٦٧ .

خلال هذه الفترة التي وثبت فيها الأحزاب التقليدية الى مقاعد السلطة وافتعلت الخلافات مع الحزب الشيوعي والقوي التقدمية وحاولت

فرض ما أسمته (الدستور الاسلامي) بعد ان حاولت جامعة إيم.درمان الإسلامية التي كانت تمويلها بعض الدول الأخرى الى مقر لبعث الدعاية المضاد للتقدم والاشتراكية والحريات الديمقراطية واستجلبت لها أساتذة من عتاة الرجعية والتخلف .

والحرية الدينية لم تكن اطلاقاً محل خلاف بين كل الأحزاب بما فيها الحزب الشيوعي الذي اعتاد أن يبدأ اجتماعاته بتلاوة من آيات الذكر الحكيم ، والذي استنكر تصريحات الطالب المدسوس التي أدت الى إلغاء الحزب وفصل أعضائه من الجمعية التأسيسية ، وقد انتهى الأمر بهذا الطالب الى الذهاب في منحة دراسية الى الولايات المتحدة .

والواقع أن محاولات طعن ارادة التقدم والتغيير الاجتماعي لوثائق المجتمع الاشتراكي عن طريق الدين قد وصلت في السودان الى طريق مسدود بعد أن ثبت أن كبار رجسالة الدين والطائفيين لا يثبتهون ولا يترفعون عن المشاكل الشخصية الدنيوية ، وأن الحزب الشيوعي قد حرص في مؤتمره على دعم القيم والفضائل الدينية التي تؤكد العدالة الاجتماعية .

هكذا كانت الحالة في السودان . . . حكومة تهتم بفرض ديكتاتورية مدنية عن طريق ما يسمونه « الدستور الاسلامي » ، وجماعة ضاقت بالعودة الطائفية وكشفت تماماً خديعة كبار الرجال المستغلين للدين .
تجمع لكل القوى التقليدية في موقع السلطة . . . وتجمع لكل قوى التقدم والاشتراكية في موقع المعارضة .

جامعة اسلامية يحيط بها اخوان مسلمون . تتاح لهم فرصة التهجم على الاشتراكية . . . وقوات واتحادات جماهيرية اشتراكية تقدمية تناضل في مواجهة هذا الهجوم وتكسب كل يوم مواقع وانصاراً جديداً .

أجهضت ثورة أكتوبر وضاعت شعاراتها ولكنها لم تذهب ادراج الرياح .

حققت ثورة أكتوبر نهاية الحكم العسكري الدكتاتوري الذي خارب كل القيم الديمقراطية .

كسرت القضبان التي عزلت شعب السودان عن الدول العربية والافريقية .

جعلت الاشتراكية كلمة مباحة يقننها البعض عن ايمان علني وتدرجها الأحزاب في برامجها حتى حزب الأمة لاقرأ وخداع جالب من الجماهير المتطلعة اليها .

نقلت الحزب الشيوعي السوداني من العمل سرا الى الظهور والنضال علنا كحقيقة واقعة .

بدأت التفكير جديا في تكوين جبهة وطنية ديمقراطية .
لم تمض ثورة أكتوبر في حياة السودان بلا أثر ، ولم تكن حراثا في الماء .

العسكريون يستعدون :

كان الضباط الوطنيون الذين احتشدوا حول القصر الجمهوري يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٤ من أكثر الناس ضيقا بتردى الحالة واجهاض أهداف ثورة أكتوبر .

وانكفا الضباط على تنظيماتهم في الجيش يعيدون اليها الحياة ويتأهبون لدور جديد .

وفكرة الضباط الأحرار في مصر كانت عالقة بأذهان الضباط السودانيين وتأثروا بها تأثرا شديدا ، فقد تشكل أول تنظيم للضباط الأحرار السودانيين عام ١٩٥٣ قبل الاستقلال كان من منظميه محمود حسيب الضابط بسلاح الإشارة والذي أصبح وزيرا للمواصلات فيما بعد والذي أوضح أهدافه في حديثه لعبد المنعم الغزالي المنشور في مجلة الطليعة عدد أغسطس ١٩٦٩ « أجس الضباط أن لهم دورا ايجابيا وأنه لابد لهم من أن ينظموا أنفسهم ليكونوا على الأقل صمام أمان في المستقبل اذا انحرف القادة السياسيون عن الطريق القويم وكان المهم أن يشعروا المستعمر الانجليزى أن الجيش لن يستمر مطية يسخرها لأغراضه الخاصة » .

وقد ارتبط بعض أعضاء هذا التنظيم بالملحق العسكرى المصرى على خشبة ، وارتبطت حركتهم بالسياسة المصرية ، ولكن الاتجاه العام السائد في السودان نحو الاستقلال أضعف من قدرات قادة هذا التنظيم على اقناع الضباط السودانيين بحقيقة دورهم .

وفي عام ١٩٥٧ جرت محاولات جديدة لاعادة الحياة الى التنظيم وتقويته ، وكان الصاغ عبد الرحمن كبرى مسئولا عن ذلك في الخرطوم ولكن سرعان ما اكتشف الأمر وجوكم مجموعة من الضباط وإحيل وقتها اليوزباشى جعفر نيمى الى الاستبداع لارتباطه بهذا التنظيم .

ولعل هذه الضربة كانت سببا في تسهيل استيلاء الجنرالات على الحكم دون مقاومة من داخل الجيش .

وبعد انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ بدأ الضباط يتحركون من جديد وكانت محاولات مارس ومايو ونوفمبر ١٩٥٩ التي سبقت الإشارة إليها ، والتي أثبتت أن هؤلاء الضباط الوطنيين لم يكونوا بعيدا عن مجال الاتصالات السياسية مع القوى الحزبية خارج الجيش ، بما فيها الحزب الشيوعي الذي كان يعمل داخل الجيش بأسلوب شديد السرية له نظرة خاصة لتركيب الجيش من ناحيته الطبقية فهو يفرق بين كبار الضباط المماليكين للاستعمار أصحاب الأفكار الجامدة والمحافظة وبين شباب الضباط المثقفين وصف الضباط والجنود أبناء الفلاحين والطبقة العاملة .

وكما بدأت الحركة المصرية للتحرر الوطني ثم الحركة الديمقراطية نشاطها داخل الجيش وسط ضباط صف مدارس الطيران والصيانة وغيرها من المدارس الفنية ، بدأ الحزب الشيوعي نشاطه داخل الجيش أيضا .

وكان الحزب الشيوعي قبل ظهور « صوت القوات المسلحة » لا يتخلف مطلقا عن توجيه المنشورات الى « الضباط الأحرار » مفسرا لهم الأحداث السياسية معلنا موقفه مؤيدا حركاتهم الثورية .

وفي يوم الذكرى الأولى لحركة ٤ مارس وحركة نوفمبر صدر منشور من المكتب السياسي للحزب يقول « في هذا اليوم نخاطب مواطنينا في الجيش من كل الرتب واضعين أمامهم حقيقة هذا العهد المظلم الذي لن يعيش طويلا ولا يملك سبيلا واحدا من أسباب البقاء » .

وفي الذكرى الأولى لحركة نوفمبر صدر منشور آخر يقول « ان ثورة الجيش والشعب الحقيقية هي التي دق ناقوسها اليوم وبدأت تلوح نذرها وبشائرها حاملة معها تراث محمد أحمد المهدي وودحيوة وعلى عبد اللطيف وعلى حامد والصادق وزملائهم الأبطال » .

وفي الذكرى الثانية أيضا صدرت منشورات من الحزب الشيوعي . ويمكن لمزيد من البحث الرجوع الى كتاب ثورة شعب الذي أصدره الحزب عام ١٩٦٥ .

وقد تبلور هذا النشاط في أقصى ظروف الحكم العسكري عام ١٩٦١ عندما صدرت مجلة سرية خاصة بالتنظيم اسمها « صوت القوات المسلحة » استطاعت أن تلعب دورا رئيسيا في تجميع الضباط الوطنيين من مختلف الاتجاهات وجذب أفكارهم الى القضايا الاجتماعية باعتبارها عنصرا رئيسيا لا ينفصل عن القضايا الوطنية .

وفي العدد الثامن من المجلة تفسير لحركة الضباط الأحرار وأهدافها هو ما يلي :

(طالما تردد داخل الجيش وخارجه اسم الضباط الأحرار وتساهل الكثيرون عن أهدافنا وبرامجنا نحن الذين صمدنا في إباء وقوة أمام المحاكم العسكرية أيام الإعدام والسجن المؤبد والتشريد والعذاب نرفع دائما راية التفاؤل ونقدم كل تضحية مهما كلفت في سبيل بلوغ أهدافنا وأهداف شعبنا) .

واليوم وبعد أن انتظم صدور مجلتنا تمكننا من تذليل جميع الصعاب التي كانت تعوق مخاطبتنا لكم في ظروف العمل السرية فأننا نرى أن من واجبنا أن نطرح أهدافنا لكم وندعوكم لوزنها ومناقشتها ونقدها إن أردتم وإضافة أي بنود ترون أن أهدافنا لم تتضمنها .

أننا نود أن نؤكد أننا لسنا هيئة للثروة والقطيعة حول مخازي النظام الراهن وغيوب الضباط الكبار ، بل أننا تنظيم عامل جاد اقتنعنا وقررنا عن رضى وطيب خاطر أن نسخر مجهودنا وأرواحنا وعقولنا لخدمة بلادنا وشعبنا الذى منحنا الحياة والعلم ووضعنا في هذا المكان لنحمي سيادته ونصون حقوقه وندافع عن كيانه واستقلاله من أى عدوان وأى عبث .

اننا لا نعتبر أنفسنا نخبة ممتازة أو أننا مبعوثو العناية الإلهية لتخليص شعبنا من الظلم الذى حاق به ولكننا نعتبر أنفسنا جزءا منكم ومن هذا الشعب ودعوانا هى دعواكم وأهدافنا هى أهدافكم .

انكم تعلمون أن الجيش - أى جيش - يفقد وضعه واحترامه ومكانته فى نفوس المواطنين اذا ما استعمل لخلق الحركات الوطنية ولكبت حريات المواطنين ، ولا نظن أن ذلك يخاف علينا جميعا ، وهذا الطريق هو الذى أرادت العصابة الراهنة أن تسوقنا اليه ونحن الذين تقدمنا عن طواعية للعمل فى القوات المسلحة لتصير درعا واقيا لشعبنا لا يمكن أن نقبل أن نصبح خنجرا تخمده الرجعية والاستعماريون فى صدر شعبنا وتطعن به شرف شعبنا ، كما أننا كضباط وجنود فى القوات المسلحة لا يمكن أن نقبل للجيش أن يتردى فى هذا الفساد والفوضى وضعف التدريب والامكانيات حتى .نصل الى درجة عدم المقدرة فى أداء مهمتنا المقدسة فى الحفاظ على استقلال بلادنا وحماية حدودنا والدود عن كرامة وطننا .

اننا نلخص أهدافنا فى التالى ، وسنوالى مناقشتها متى سمحت الظروف معكم فى هذه المجلة أو مشافهة والعمل على تنظيم الصفوف من أجل

- ١ - الاطاحة بالوضع الحاضر .
- ٢ - تقديم كل من اشترك فى الوضع الراهن أو استفاد منه أو أضر بقضية الشعب والجيش الى محكمة شعبية وعسكرية .
- ٣ - اعادة الحياة النيابية .
- ٤ - وضع دستور جديد يتمشى مع مقتضيات الظروف الاقتصادية والسياسية والجغرافية فى البلاد ويقوم على مبادئ كفالة الحريات العامة للمواطنين وتطهير القضاء واعادة النظر فى وضع القوانين التى فرضها علينا الاستعمار والنظام الرجعى الراهن وتطهير جهاز البوليس والخدمة المدنية من الفاسدين والمفسدين .
- ٥ - تكوين مجلس دفاع وطنى .
- ٦ - اعادة كل الضباط المفصولين والمسجونين للخدمة بنفس اقدميتهم) .

تعمت نشر هذا المقال الذى نشر تحت عنوان (نحن وأهملنا) لأوضح فكرة الضباط المنتمين للحزب الشيوعى والمتعاطفين معه من أنهم لا يناضلون من أجل ديكتاتورية وإنما يناضلون باعتبارهم من الفصائل الشعبية لتحقيق الحرية والديموقراطية .

هذا الموقف الفكرى هام جدا فى أية حركة سياسية داخل الجيش ، حتى لا تغلب لغة السلاح على لغة العقل ، ويسيطر الجيش على ارادة الشعب .

وفى مقال آخر نشرته (صوت القوات المسلحة) فى ٢٥ يوليو ١٩٦٣ (ان بلادنا لا تطلب بديلا غير الديموقراطية والحرية الكاملة وصيانة الاستقلال وهذا ما سيتحقق بانتصارنا مع الشعب فى الاطاحة بهذا الحكم الرجعى) .

وهكذا لم تتحطم القوى الوطنية داخل الجيش ولم تستطع الدكتاتورية تصفيتا ، وأثبتت وجودها يوم ٢٦ أكتوبر عندما حاصرت قوات الضباط الأحرار القصر الجمهورى وأجبر عبود على حل مجلسه الأعلى ومجلس الوزراء .

والضباط الذين اعتقلوا يوم ٨ نوفمبر ١٩٦٤ وجهت اليهم تهمة أنهم فى الفترة بين ٢٢ ، ٣١ أكتوبر لم ينفذوا أوامر اطلاق الرصاص .

وكانت الأوامر قد صدرت فعلا باطلاق الرصاص ولكن الضباط الأحرار اتفقوا على عصيان هذه الأوامر ، كما اتفقوا أيضا على احباط

مؤامرة كبار الضباط الرجعيين الذين حاولوا فى مفاوضات يوم الخميس ٢٩ أكتوبر أن يفرضوا أحدهم وزيرا للدفاع تمهيدا للانتكاس بالثورة ، ولكن الضباط الأحرار حاصروا مبنى رئاسة القوات المسلحة وفرضوا ارادتهم واردة الشعب ، وتعين سر الختم خليفة رئيس الوزراء وزيرا للدفاع .

والواقع أن الضباط الأحرار لم يكونوا جميعا من أنصار العودة للثكنات نهائيا . . . البعض منهم كان من أنصار استبدال حكم ديكتاتورى عسكري رجعى بحكم عسكري جديده وطنى ، ومن هؤلاء جعفر نميرى ، ولكنه فى ذلك الوقت لم يكن وحده يمثل قوة قادرة على فرض رأيه فان تنظيم الضباط الأحرار كان يضم رفاقا شيوعيين ورفاقا وطنيين فى تكوين جبهوى مشابه لتكوين الضباط الأحرار فى مصر .

وعندما اعتقل بعض الضباط الأحرار فى يوم ٨ نوفمبر المشهود ومنهم بكباشى جعفر نميرى ويوزباشى فاروق عثمان حمد الله ويوزباشى رشيد نور الدين ، والذي حررتهم فيه المظاهرات التى اجتاحت شوارع الخرطوم بدعوة فاروق أبو عيسى سكرتير الجبهة الوطنية للهيئات من الاذاعة صدر فى نفس اليوم منشور من الضباط الأحرار يصف فيه هذا العمل بأنه (خطوة فى سبيل تطهير الجيش من العناصر الوطنية التى شاركت فى ثورة الشعب) وبذلك تمهد الأرض للسيطرة الكاملة على الجيش بوساطة العناصر الرجعية .

وتضمن المنشور أيضا (أن الدوائر الرجعية تحاول أن تردد الاتهام للضباط الأحرار المذكورين بأنهم يعملون لحساب مصر ، وهذه محاولة رخيصة لستر الحقيقة ، تقصد من ورائها الرجعية أن تبرر موقفها فى تصفية الجيش من العناصر الوطنية وفرض سيطرة العناصر الرجعية عليه) .

والحقيقة أن أحدا من الضباط الأحرار السودانيين لم تكن تربطهم أية علاقة بمصر على عكس بعض الضباط الذين استند اليهم الحكم العسكري مثل البكباشى محمد عبد الحليم الذى رأس مكتب العمل فى مهدهم ثم عمل موظفا فى بنك مصر فرع الخرطوم بعد ذلك . . . ولكنهم كانوا يؤمنون بضرورة تعاون ثورات التحرر الوطنى وخاصة ثورة يوليو ويشقون فى جمال عبد الناصر باعتباره زعيما عربيا مخلصا .

الصلة الوثيقة كانت بين جمال عبد الناصر وقيادة الحزب الشيوعى .

وقد بدأ الضباط الأحرار يعبرون عن أفكارهم في مجلة الأحرار التي صدرت بدلا من (صوت القوات المسلحة) والتي جاء فيها يوم ٤ يناير ١٩٦٥ :

(نحن ندرك اليوم كما يدرك العمال والمزارعون والمثقفون بأن طريق الرأسمالية الذي سرنا فيه بعد الاستقلال والذي أدى الى انقلاب ١٧ نوفمبر لترسيخه انما هو طريق شقاء لا حدود له بالنسبة للشعب وهو لا يقود الى التقدم بل الى التخلف والتبعية التامة للاستعمار ولفقدان الاستقلال نفسه) .

(ونحن ندرك ذلك فنتلفت حولنا فنرى بلادا عانت من الاستعمار مثلنا بل أشد ولكنها شقت طريقها ونجحت في حماية استقلالها لأنها رفضت الطريق الرأسمالي واتخذت الاشتراكية هدفا لها) .

هكذا أصبحت الاشتراكية هدفا للمواطنين في القوات المسلحة السودانية في طريق نضال سليم من أجل الحرية والديموقراطية والاشتراكية .

ولكن ما أن انتكست ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٤ وعادت الأحزاب التقليدية للحكم بعد ابعاد الجبهة الوطنية للهيئات حتى بدأ الضباط يراجعون موقفهم ويقدرونه تقديرا جديدا ، فقد ظهر اتجاه جديد أدى الى نقل عدد كبير من الضباط الذين كشفت ثورة أكتوبر اتجاهاتهم الوطنية الى الجنوب ووضعهم تحت رقابة شديدة .

وهنا احتج هؤلاء الضباط الوطنيون وتمردوا ضد الأوضاع المتخلفة للقوات المسلحة السودانية من ناحية التسليح والتدريب والاعاشة والمرتبآت التي كان يتأخر صرفها أحيانا عدة شهور .

حدث في مدينة كباله أن استشهد ١٧ صف عسكري أثناء محاولتهم الحصول على المياه وتعذر احضار الجرحى لعدم توافر الوقود وقرر الضباط الأحرار ضرورة مجابهة هذه الأوضاع المتخلفة التي أثارت مشاعر الجنود والضباط عموما ، واستطاعوا تجميع ٨٤ ضابطا من رتب مختلفة في جوبا وقرروا التقدم بمطالب الجيش للقيادة العامة في الخرطوم في نوفمبر ١٩٦٥ ، وذلك بعد مرور القائد العام في جولة بالجنوب في أغسطس وعد فيها بتخفيض مدة الخدمة الى سنة واحدة .

تلخصت المطالب في الآتي :

- ١ - تحسين حالة ضباط الصف والجنود ورعاية أسر الشهداء .
- ٢ - تطهير القوات المسلحة وإعادة تسليحها وتنظيمها .

وانتقل الى هناك وزير الدفاع والقائد العام وبعد مفاوضات أقسم خلالها القائد العام بأن ضررا لن يمس قادة هذه الحركة ، استندى الضباط الى الخرطوم حيث صدر قرار بفصلهم من الجيش وكان في مقدمتهم اليوزباشى الشهيد المناضل فاروق عثمان حمد الله وزير الداخلية فيما بعد الذى عين فى وظيفة مدنية ببلدية أم درمان .

وقد أثرت حادثة جوبا على تفكير الضباط الأحرار وأظهرت لهم أن موقف حكام ما بعد نكسة ثورة أكتوبر ١٩٦٤ لا يختلف كثيرا فى مضمونه عن موقف جنرالات عبود .

ويلاحظ أن الحكم المدنى قد بدأ فى هذه الفترة يهتم بزيادة القوات المسلحة لمقاومة الحركة المضادة فى الجنوب . . . ويقول (هيروتز) فى كتابه (الأبعاد العسكرية لسياسة الشرق الأوسط) ان ميزانية الجيش زادت عام ١٩٦٥/١٩٦٦ بمبلغ ٢١ مليون جنيه أى بزيادة ٤٢ فى المائة عن أيام الانقلاب ، كما زاد عدد القوات الى حوالى ٢٥٠٠٠ جندي .

قال فاروق عثمان نراسل جريدة الموند بعد ثورة مايو (لو كنا قد نسقنا عملنا مع المنظمات الشعبية لما كانت ثورة أكتوبر قد فشلت وذلك لأن التحالف بين المدنيين والعسكريين التقدميين وهو وحده الذى يمكن أن يؤدي الى اصلاحات جديدة ودائمة ومقاومة حملات الرجعية) .

الضربة التى وجهت للضباط الأحرار دفعت بعضهم الى التركيز على أهمية دور القوات المسلحة قفزا فوق دور الشعب . وبدأ هذا التفكير ينمو فى نفوس بعضهم وخاصة جعفر نميرى والشهيد المناضل فاروق عثمان حمد الله الذى كان يتولى سكرتارية التنظيم ، ولكن الضباط المنتمين للحزب الشيوعى كان لهم موقف فكرى ثابت لا تؤثر فيه الأحداث المؤقتة ، وهو اعتبار الجيش فصيلة من فصائل الشعب تعمل بالتنسيق مع القيادة السياسية للجماهير .

ونتيجة لهذه الروح الجديدة التى لم تعد خافية داخل القوات المسلحة ، والتى أصبحت تنذر بالخطر على حكم الأحزاب التقليدية ، بادر محمد أحمد محبوب رئيس الوزراء بالاتصال بالسفير الأمريكى راونترى للحصول على طائرات هليكوبتر وذلك فى بداية عام ١٩٦٦ ، وبعد أن وعده السفير عاد فتراجع عن موقفه قائلا ان الجيش الأمريكى فى حاجة الى كل الطائرات .

ويعلق محبوب فى كتابه (الديمقراطية فى الميزان) ان ذلك كان لحرب فيتنام .

وعرض عليه السفير شراء نوع جديد من الطائرات على أساس تجارى خالص وهو تسديده الثمن خلال سبع سنوات بفائدة سنوية مقدارها ٧ فى المائة ، وعندما وافقه محبوب تبين له أن الأمريكين يقدمون الطائرات بلا تسليح وأن على السودانين أن يبحثوا عن أسلحة للطائرات فى مكان آخر مما دفعه الى صرف النظر عن ذلك .

وهكذا بقي الجيش السودانى فى تخلفه الملحوظ ولم ترفع عنه قبضة الاحتكار الا بعد طلب محبوب من اليكسى كوسسيجين فى يوليو ١٩٦٧ بعد مقابلته مرتين فى هيئة الأمم المتحدة استيراد طائرات ودبابات .

وافق الاتحاد السوفيتى على الطلب وكان العرض - على حد تعبير محبوب - كريما جدا اذ بسدد الثمن على ١٢ سنة بفائدة قدرها ٢٥ فى المائة فقط .

ومضت عمليات التسليح السوفيتى للسودان فى طريقها كما مضت حركة الضباط داخل الجيش السودانى فى نشاطها ، كما سيرد تفصيلا فى الجزء الرابع من الكتاب (خريف عبد الناصر) .

● الجزائر .. عربية

(عرقلت الحكومة الفرنسية كل
محاولة للأمم المتحدة تستهدف وضع
حد للمجازر الاستعمارية في الجزائر،
وراحت هذه الحكومة تتصور أنها
قادرة بالمنافع على أن تغير إرادة الله
الذي جعل الجزائر قطعة من القارة
الأفريقية ، وجعل شعبها جزءا من
الأمة العربية)

جمال عبد الناصر
من خطاب أمام هيئة الأمم المتحدة
٢٧ سبتمبر ١٩٦٠
قبل استقلال الجزائر

الفصل الأول

الجزائر قبل الاستقلال

(أنت تعرف أننا لسنا بالأغبياء
لنعرض أنفسنا لطلعات جيشك ،
وسنحاول انهاكه وتمزيقه وتدميره
قطعة قطعة)

الأمير عبد القادر الجزائري
في رسالة للماريشال الفرنسي عام
١٨٣٩

(أننا نريد ان نخضع الجزائر
عن طريق القاهرة)

وزير الخربة الفرنسية في وزارة
جى مولى - عام ١٩٥٦

في تاريخ الجزائر الحديث ما يختلف عن تاريخ معظم الدول العربية
فالثورة وحروب العصابات والانصار والمقاومة المسلحة للغزاة والمحتلين
نسجت في حياة شعب الجزائر .

وعلاقة مصر بالجزائر في عهد جمال عبد الناصر لم تكن مثل العلاقة
في عهد محمد علي الذي اتفق مع الفرنسيين اخلاص اصدقائه على غزو

الجزائر عام ١٨٢٩ ، ولكن الاتفاق لم ينفذ بسبب ضالة التعويض الذي عرضه الفرنسيون .

وقد تعرضت الجزائر لمؤامرات فرنسا قبل الغزو بوقت طويل اذ اعتبر نابليون الجزائر سوقا خارجية ضرورية لتطوير الصناعة الفرنسية ، وكان يضيفها دائما الى قائمة ممتلكاته المقبلة عندما تثار مسألة تجزئة الامبراطورية العثمانية .

ووجدت فرنسا العذر المنتظر فيما سمي (ضربة المروحة) وذلك عندما اهان القنصل الفرنسي (بيبير ديفال) الذي كان يعتبر حسب تعبير أحد المؤرخين الفرنسيين كما ورد في كتاب لوتسكي (تاريخ الاقطار العربية الحديث) - ذا سمعة مشبوهة ونذلا وسافلا ومدبرا للمكائد .

اهان هذا القنصل (الداى) فى صبيحة يوم قانظ هو ٢٩ أبريل ١٨٢٧ اهانة شديدة ، فضربه الداى بمروحة كان يهوى بها ويترد عن نفسه الذباب للجوج .

واعتبرت فرنسا (ضربة المروحة) مبررا كافيا لغزو الجزائر ، فأصدرت حكومة بوليفياك فى عهد الملك شارل العاشر وأمرها بنزول جيش فرنسي من ٣٧ ألف مقاتل يوم ١٤ يونيو ١٨٣٠ على شاطئ خليج سيدى فرج الواقع على بعد ٢٣ كيلومترا الى غرب الجزائر تحت قيادة الجنرال دى بومون .

كانت المقاومة الجزائرية شديدة الا انها عديمة الجدوى ، وفى ٤ يوليو ١٨٣٠ سقط حصن الامبراطور ووقع (الداى) فى المساء على وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط .

وفى اليوم التالى ٥ يوليو دخل الفرنسيون مدينة الجزائر ، وفى ٢٣ يوليو ١٨٣٠ أقصى (الداى) عن البلاد وغادر الانكشارية الذين فقدوا ١٠٠٠ جندي فى مقاومة الغزو أمام ٤٠٠ فرنسي فقط . غادروا الجزائر الى تركيا . وبدأ الفرنسيون عملية نهب للأرض والخزائن والممتلكات .

وأعلن لويس فيليب الذى خلف شارل العاشر بعد انهيار عرشه ضم الجزائر الى فرنسا عام ١٨٣٤ رغم أنه لم يكن فى حيازة فرنسا الا المدن الساحلية .

ورغم أن القائد الفرنسي دى بومون كان قد أعلن بأنه (ستخضع الينا المملكة خلال ١٥ يوما وبدون طلقة واحدة) الا أنه أخطأ الحساب تماما ، فقد اضطر للهرب الى البرتغسال بعد مقاومة جنوده لمحاولته

انقاذ أسرة البوربون في فرنسا . . . ولم تخضع الجزائر للحكم الفرنسي الا بعد ٤٠ عاما شنت فيها فرنسا حربا دموية متصلة ضد الشعب الجزائري ، وقاد نضال الشعب البطل عبد القادر الذي ولد عام ١٨٠٨ وحج الى مكة وزار مصر وتأثر باصلاحات محمد علي قبل الغزو الفرنسي . واستخدم عبد القادر تكتيك حرب الانصار والارض المحروقة ، الامر الذي كبد القوات الفرنسية خسائر كبيرة ، ودفعتها الى عقد معاهدة (دى ميشيل) في فبراير ١٨٣٤ ، اعترفت فيها بأن كل غرب الجزائر عدا ثلاث مدن ساحلية هي ارض تابعة للدولة العربية الجديدة برئاسة عبد القادر الذي لقب بأمير المؤمنين .

كان الأمير عبد القادر مثالا للقائد العربي البسيط الذي يعيش حياة متواضعة ، ويشارك شعبه آلامه ونضاله ، واستطاع أن يحشد من رجال القبائل المتطوعين ٧٠.٠٠٠ ، وكون جيشا نظاميا من ١٠.٠٠٠ جندي . واستخدم الاساليب الحديثة الى جانب الاساليب التقليدية في قيادة دولته ، وقاوم عسف الإقطاع ، وقسم البلاد الى ٩ مناطق .

ولم يقبل الشيوخ الاقطاعيون في الشرق التعاون مع الأمير عبد القادر أمير المؤمنين حتى لا تلحقهم اصلاحاته ، وفضلوا مقاومة الفرنسيين تحت قيادة (الباي أحمد) .

ونقض الفرنسيون معاهدة دى ميشيل في عام ١٨٣٥ بعد عام واحد . وخاضوا حربا عنيفة ضد الشعب الجزائري انتهت بفشل الفرنسيين وعقد معاهدة ثانية عام ١٨٣٧ اعترفوا فيها بسلطة الأمير عبد القادر في غرب الجزائر وفي وسطها أيضا .

أما في الشرق فقد هاجمت القوات الفرنسية مدينة قسنطينة المنيعه واستطاعوا احتلالها بعد مقاومة شعبية عنيفة في الشوارع والدور ، ولجأ (الباي أحمد) الى الجبال النائية للمقاومة ، ولجأت قبائل شرق الجزائر الى الأمير عبد القادر تعترف به قائدا لها في حربها الشعبية .

وانتهز الفرنسيون هذا الموقف لخرق معاهدة الصلح وأشعلوا حربا جديدة في عام ١٨٣٩ حشدوا لها جيشا من ٧٠.٠٠٠ جندي زادوا الى ٩٠.٠٠٠ عام ١٨٤٤ مسلحين بأسلحة حديثة ، ومع ذلك استطاع جيش الأمير عبد القادر الذي أعلن الجهاد المقدس مقاومة المعتدين بمعنويات الجزائريين المرتفعة ، وقدرته القيادية الهائلة في حرب العصابات والانصار .

ويقول لوتينسكي في كتابه (تاريخ الاقطار العربية الحديث) ان الأمير عبد القادر أرسل الي المارشال الفرنسي يقول (عندما يهجم جيشك

نتراجع ، وعندها يضطر جيشك للتراجع ، وسنعيد الكرة ونقاتل عندما نرى لزوم ذلك ، وأنت تعرف أننا لسنا جبناً ، إلا أننا لسنا بالأغبياء لنعرض أنفسنا لطعنات جيشك ، وسنحاول إنهاكه وتمزيقه وتدميره قطعة قطعة ، وعلى الطقس أن يقوم بالباقي) .

مبادئ عسكرية صحيحة وضعها الأمير عبد القادر لتكتيكات حربه الشعبية التي امتدت سنوات طويلة .

وغير الفرنسيون أسلوبهم . . . استمالوا مشايخ الاقطاع بتوليهم مناصب في أشد مناطق البلاد تأخراً ، وغيروا تكتيكهم العسكري الى ما عرف باسم (الطوابير المتحركة) التي انتهجت أسلوباً أقرب الى (حرب الأنصار) منه الى الحرب النظامية ، واستطاعت أن تستولي على عدد من الحصون والمدن التي كان يستند اليها الأمير عبد القادر ويقيم مصانعه الحربية فيها .

واستخدم الفرنسيون أبشع الوسائل الوحشية لإبادة القبائل الموالية للأمير عبد القادر ، ويقول لوتسكي في كتابه أيضاً أن أحد المعاصرين قد كتب (أن قطع رأس الأسير علانية لتلقين العرب درساً لاحترام السلطة كان أمراً هيناً لدى الفرنسيين) .

وتمكن الفرنسيون بعد أربع سنوات من النضال المرير من إخضاع الأراضي الموالية للأمير عبد القادر الى سلطتهم ولجأوا مع جماعة من زملائه المخلصين الى مراكش التي كانت تساعدهم خلال حربهم مساعدة فعالة .

رفض سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن الدار الجنرال بيجو الفرنسي بتسليم الأمير عبد القادر ، فما كان من الجنرال الفرنسي إلا أن هاجم مراكش في ١٤ أغسطس ١٨٤٤ ودحر جيش السلطان وضرب طنجة والصويرة بقنابل الاسطول .

وهدد الانجليز بالتدخل مما أنقذ مولاي عبد الرحمن الذي عقد معاهدة صلح في طنجة يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ اعتبر فيها الأمير عبد القادر خارجاً على القانون .

ولم يصب اليأس الأمير عبد القادر ، بل اتجه الى بلاده الجزائر يقاوم في ظروف قاسية وصعبة ، ساعدة فيها قيام انتفاضة شعبية ضد استيلاء الفرنسيين على الأرض وتحويلهم الفلاحين أصحاب الأرض الى إقنان في الاقطاعيات الفرنسية الجديدة ، وكذلك مصادرتهم لأراضي الأوقاف الموقوفة على الأعمال الخيرية .

قاد الانتفاضة الراعي أبو معزى الذى استغاث بالأمير عبد القادر وسلمه قيادة النضال الشعبى الذى عم غرب الجزائر ، وأسرع الفرنسيون بتعزيز قواتهم حتى بلغت ١٠٨٠٠٠ جندي قاموا بأبشع أعمال العنف والابادة الجماعية للسكان شيوخا ونساء وأطفالا .

واستمرت مقاومة الأمير عبد القادر حتى عام ١٨٤٧ حيث سقط فى أيدي الفرنسيين أثناء مقاومتهم فى الواحات الصحراوية ، وذلك نتيجة لخيانة مدبرة مع سلطان مراکش .

وبعد خمس سنوات سمحت السلطات الفرنسية للأمير عبد القادر بالذهاب الى المشرق العربى حيث استوطن دمشق وعاش بها حتى فارق الحياة بطلا مرموقا له تاريخ نضالى نابض بالبطولة والشجاعة والعروبة .
ورغم أسر الأمير عبد القادر فقد ظلت روح المقاومة الشعبية تنبض فى الجزائر خلال الخمسينيات فى واحات الصحراء ومناطق القبائل حتى عام ١٨٥٧ .

ويقول لوتسكى فى كتابه « ان الحرب الجزائرية كانت مدرسة لجلادى الطبقة العاملة الفرنسية (خلال كميونة باريس عام ١٨٧٠) حيث برز كافينياك وسانت أرنو ومكماهون ، وطبقوا فيما بعد على البروليتاريا الثورية فى باريس الأساليب التنكيلية الدموية نفسها التى كانوا قد استخدموها فى الجزائر ضد العرب المحبين للحرية ، وظلت القوات الفرنسية تفرض قوانينها الجائرة على القبائل وتستولى على الأرض التى يمتلكها مئات الألوف من الفلاحين لصالح الشركات والرأسمالية الفرنسية ، وتواجه مع كل اجراء انتفاضات شعبية أخسرها عام ١٨٧١ التى قادها الشيخ محمد المقرانى .

أربعون عاما متصلة من النضال الشعبى المسلح قبل أن يتمكن الغزاة الفرنسيون من فرض سيطرتهم على أرض الجزائر .

وبقى هذا التراث الشعبى الأصيل يتوارثه الأبناء جيلا بعد جيل بشكل أساطير شعبية خالدة ، تبعث فى دماء الجماهير روح المقاومة ضد الاحتلال والاستعباد وكل أنواع الاستعمار .

العروبة والاسلام :

طوال هذه الحروب التى استخدم فيها الفرنسيون كل الوسائل الوحشية القذرة التى اعترف بها الجنود الفرنسيون أنفسهم . . . فقد قال الجنرال بيجو عندما تعرض لهجوم بعض الصحف الفرنسية (لقد حرقنا كثيرا وخربنا كثيرا ، ولكن مادمت مقتنعا بأنى فعلت شيئا لبلادى فأننى اعتبر نفسى فوق علامة الصحافة) .

ووصف المؤرخ الفرنسى بوديكور حالة الجنود بعد الحملة الفرنسية ضد بلاد القبائل بقوله (ان جنودنا كانوا خجلين من انفسهم عند عودتهم من الحملة) .

ولم يكن سهلا لمثل هذا الشعب ان يموت نضاله بارادته . . .
ولم يجد الفرنسيون سبيلا الا بمحاولة خلع جذوره من ارضه .

قال الأب شارلس زكولد (مالم ننجح فى تحويل هؤلاء الناس الى فرنسيين فسيطردوننا خارج هذه البلاد ، والطريق الوحيد لجعلهم فرنسيين هو اعتناقهم المسيحية) .

أصبحت محاولة القضاء على الاسلام هدفا شرعيا للفرنسيين . . .
حولوا المساجد الى كنائس ، وأشرفوا على تعيين الأئمة والمؤذنين ، وباشروا بأنفسهم ادارة الشئون الدينية .

وأصدر نابليون الثالث قراره المعروف باسم (سان توركونسلت)
الذى نص على أن الجزائريين رعايا فرنسيون ولكنهم يخضعون لأحكام الشريعة الاسلامية فاذا طلب أحدهم الجنسية الفرنسية فانه يحصل عليها بشرط خضوعه للقانون الفرنسى أى تخليه عن دينه الاسلامى .

والاسلام يقترب أساسا باللغة العربية ، وبدأت الخطة الاستعمارية لاحتلال الفرنسية محل العربية والمكاتبات الرسمية فى الحكومة والبنوك والشركات .

ويقول حسين عبد الرازق فى كتابه (الجزائر) . . . أزمة الطريق الثالث) ان الفرنسيين لم يبذلوا جهدا فى تعليم الجزائريين حتى بالفرنسية (وكانت النتيجة أن الجزائر فقدت لغتها أو كادت ولم تكتسب لغة جديدة فتصل الى عام ١٩٤٨ (بعد ١١٨ سنة من الاستعمار الفرنسى) فتجد أن عدد الجزائريين الذين يستطيعون التكلم بالفرنسية قليلا ١٥ فى المائة بين الرجال ، ٦ فى المائة بين النساء ، أما القادرون على الكتابة بالفرنسية فنسبتهم ٦ فى المائة من الرجال ، ٢ فى المائة من النساء) .

إذا صحت هذه الأرقام فان هذا يعنى أن مؤامرة استعمارية محكمة قد فرضت على شعب الجزائر لابقائه فى حالة من التخلف الذى يعزله عن روح العصر ، بعد محاولة سلبه من رباطه المقدس بدينه ولقته بعد اغتصاب ارضه . . .

ولا شك أن راية الاسلام التى رفعها الأمير عبد القادر فوق الانتفاضات كانت هى الباعث الأصيل على دحر الفرنسيين واصرارهم على اضعاف العامل الدينى .

ويلاحظ في الدول العربية الاسلامية التي خضعت للحكم الفرنسي في شمال افريقيا أن مؤامرة عزلها عن جذورها الدينية والقومية كانت تقاوم بالارتداد الى الدين والتمسك بتقاليده ، والتشبث بالرداء الوطني حتى أصبح الرداء في ذاته يعتبر نوعا من أنواع الاصرار على مقاومة الغزاة الفرنسيين ، واعلانا عن استمرار الصلابة القومية .

وظل الاسلام بكل تقاليده يلعب دورا رئيسيا في حشد الشعب الجزائري طوال سنوات الاحتلال المظلمة ، ولذا كان ضروريا أن يقف أحمد بن بيللا بعد الثورة معلنا (أن الاسلام لا يتناقض مع الاشتراكية العلمية ، فهو جزء من الواقع الجزائري الذي لا يمكن للاشتراكية في الجزائر أن تتجاهله ، فنحن في حاجة لبناء الاشتراكية الثورية متلائمة مع التقاليد العربية والاسلامية) .

نفسو الثورة :

كانت هذه هي كلمات أحد قادة الثورة الحديثة لشعب الجزائر الذين واصلوا نضال (أمير المؤمنين) الأمير عبد القادر الجزائري ، بعد هائة عام تقريبا من استقراره في دمشق .

ولم تكن هذه السنوات الطويلة خالية من الانتفاضات المسلحة المحدودة . . . ولم تكن خالية من روح المقاومة .

رفض أغلب الجزائريين اغراء التجنس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن اللغة والدين ، رغم الميزات التي يحصل عليها الجزائري بهذا الانتقال .

وفشلت سياسة الاندماج أمام تشبث الجزائريين بدينهم وتقاليدهم وقانون الأحوال الشخصية الخاص بهم .

وحاول بعض الجزائريين كسر قيود الاحتلال الفرنسي عن طريق الارتباط بالحزب الشيوعي الفرنسي الذي يناضل ضد الامبريالية بكافة أشكالها ، ونشأت أول حركة جزائرية وطنية في التاريخ الحديث في باريس تحت اسم (نجمة شمال افريقيا) وكان مؤسسها الحاج عبد القادر الذي وصل الى عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ثم خلفه مصالي الحاج الذي انضم أيضا للحزب الشيوعي وحضر اجتماعات الدولية الثالثة في موسكو عام ١٩٣٠ ، وأصدر جريدة (الأمة) ثم انفصل بعد ذلك عن الحزب الشيوعي الذي لقد تصرفاته وآراءه نقدا شديدا .

وظلت مع ذلك رابطة وثيقة بين الحزب الشيوعي الفرنسي وبين عدد من الجزائريين الذين انضموا اليه وناضلوا في صفوفه .

ثورة يوليو ١٩٣٠ - ١٩٣٣

وبعد الحرب العالمية الثانية وما بعثته في العالم من روح تحررية للمستعمرات في حضانة هيئة الأمم المتحدة ، وما نشب في بعض دول منطقة التحرر الوطني من ثورات وطنية ، أخذ الشعب الجزائري يتأمل حياته وواقعه ، وتدرس العناصر الثورية ظروف الوطن العربي والاتجاهات العالمية ، وتحاول الارتباط والاستناد الى القوى الوطنية في البلاد العربية الأخرى .

وافتح في القاهرة عام ١٩٥٠ خلال حكم الوفد (مكتب المغرب العربي) يضم ممثلين لعدد من الأحزاب الوطنية في المغرب العربي . . . حزب الحر الدستوري في تونس ويمثله الحبيب بورقيبة ، وحزب الاستقلال المغربي ويمثله علال الفاسي ، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية التي يقودها مصالي الحاج .

وعندما انتصرت ثورة يوليو ١٩٥٢ دعمت نضال هذه القوى السياسية .

ونشرت الصحف يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٣ أن علال الفاسي قد استنجد بمحمد نجيب لوقف مؤامرة فرنسا التي دبرتها لخلق السلطان محمد الخامس من المغرب ، في نفس اليوم الذي تأمرت فيه القوات الأمريكية في إيران لاعتقال مصدق وأنصاره وقلب حكومته بوساطة الجنرال زاهدي الذي أعاد حسين فاطمي وزير الخارجية .

وبادر محمد نجيب الى اعلان تأييد مصر للسلطان محمد الخامس ، وتأييده أيضا للحكومة مصدق البشيرية معاديا بذلك الانقلاب العسكري الرجعي لزاهدي .

موقف ثورة يوليو منذ اليوم الأول كان واضحا تماما في مساندة حركات التحرر الوطني . . . ولذا هرع اليها زعماء النضال العربي يستظلون بحمايتها ، يأخذون القوة من تشجيعها المادي والأدبي .

وخلال هذه الفترة عام ١٩٥٤ وفد الى مصر مجموعة من الثوريين الجزائريين ، كان من بينهم أحمد بن بيللا الشاويش السابق في الجيش الفرنسي الذي حارب في صفوفه خلال الحرب العالمية الثانية وحصل على أوسمة لشجاعته .

وصل بن بيللا الى القاهرة في البداية مندوبا لمصالي الحاج ، والتقى ببعض ضباط الخبايا المصريين الذين كانوا يتولون مسئولية الاتصالات السياسية العربية ومنهم فتحي الديب وعزت سليمان .

وكانت القوى الجزائرية في ذلك الوقت تجتهد الى النضال السياسي من أجل اقرار حقوق الشعب . . . ولكن هذا الاتجاه الاصلاحي الودييع لم يرض المستعمرين الفرنسيين . . . وما حدث في مايو ١٩٥٤ وخسيع جدا نهائيا لتفكير المقتنعين بأن العمل السياسي وحده يمكن أن يحرر الجزائر ، وحول الاتجاه الى تقاليد الشعب الجزائري العريقة وهي المقاومة المسلحة وحرب الأنصار .

كان الجزائريون في ذلك اليوم من أيام مايو ١٩٥٤ يتظاهرون تأييدا لذكرى انتصار الحلفاء على النازي بمناسبة مرور عشر سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم كانوا يرفعون علم الجزائر وهو من المحرمات . . . وبدأ الصدام بين القوات الفرنسية والشعب الأعزل بصورة شاملة امتدت الى المشرق وخاصة المنطقة المحاصرة بين بوجي وبجاية وستيف وبيت عنابة وسوق الأهراس حيث قتل ٤٥٠٠٠ قتيلا وحرق ألف الدور ، وذلك بناء على اعتراف الحكومة الفرنسية .

كانت هذه المذبحة التي عرفت باسم (مذبحة ستيف) عودة الى أساليب القرن التاسع عشر البربرية وجنوحا الى العنف الشديد في مقاومة الحركة الوطنية الجزائرية ، ونهاية لأفكار الاصلاحيين الذين هالتهم قوة الاستعمار الفرنسي وسطوته فأثروا المعارضة تحت جناحيه بأسلوب قاتل ولا يستفز .

ولكن الثوريين اتخذوا منهجا جديدا كانت بوادره قد ظهرت في جميع وحدات المقاومة في الجبل منذ عام ١٩٤٧ ، تحت زعامة كريم بلقاسم ، ولكنها لم تكن ذات تأثير واضح عند الشعب الجزائري ، كما أنها لم تكن قد وصلت بعد الى حد تشكيل خطر جدي على الوجود الاستعماري الفرنسي .

ولكن براعم المقاومة التي يزغت عام ١٩٤٧ ، سرعان ما التفت بعين (مذبحة ستيف) بإرادة شعبية جماعية تستهدف تحرير الأرض عن طريق النضال المسلح .

وكان أحمد بن بيللا قد وصل الى القاهرة في أغسطس ١٩٥٣ . . . بعد الحكم عليه في حادث بربره وهران .

وتم الاتفاق خلال هذه الفترة بين أحمد بن بيللا وجمال عبد الناصر الذي كان يفتح أبوابه للقاء الثوريين العرب ، على مساندة الحركة الثورية في الجزائر بلا حدود أو شروط .

وكانت قد شكلت في الجزائر (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) من تسعة هم (أحمد بن بيللا ، حسين آية أحمد ، العربي بن مهيدي . .

محمد بوضيبياف ، مصطفى بن بولعيد ، رابح بيطاط ، ديدوش مراد ،
محمد خضير ، كريم بلقاسم) .

وقد أعلن صوت العرب ساعة الصفر في أول نوفمبر ١٩٥٤ ، بإذاعة
بيان جبهة التحرير الجزائرية المصاحب لتفجير ٢٤ قنبلة في أماكن مختلفة
... ويقول أحمد سعيد أن جهاز إذاعته الناشئ كان تابعا لإدارة المخابرات
العامة وأنه كان يتلقى التوجيهات بالنسبة لمعركة الجزائر من عزت
سليمان ، وفتحى الديب ، وأنه عقد صلات مع كثير من المناضلين
الجزائريين .

ويقول أيضا أن جمال عبد الناصر كان يتابع الإذاعة شخصيا ويعطى
بعض التوجيهات والتعليمات .

وصوت العرب بدأ إرساله في البداية عام ١٩٥٣ ، بمدة إرسال
ساعة و ٤٥ دقيقة ، زادت في العام الأول بعد مناقشة دعا إليها صلاح سالم
وزير الإرشاد عقب عودته من رحلة في السودان كلا من حسين ذو الفقار
صبرى وعبد الفتاح حسن المسئولين عن السودان ، وأحمد سعيد زادت
إلى ثماني ساعات في اليوم خلال السنة الأولى ، ثم تضاعفت إلى ٢٢ ساعة
في اليوم في عهد صلاح سالم واستمرت كذلك حتى الآن .

وقد انشئت في نوفمبر ١٩٥٥ إذاعة سرية خاصة للجزائر ظلت
تذيع حتى انتصار الثورة ، ويقول أحمد سعيد أنها الموجة التي انتقلت
إليها موجة الإذاعة المصرية خلال عنوان ١٩٥٦ ، بعد ضرب محطة الإرسال
بغنى أبي زعبل .

الثورة :

ما كادت القنابل الأولى للثورة تنفجر في أول نوفمبر مع بيان جبهة
التحرير حتى وجدت أرضا خصبة وشعبا متعطشا للقتال والتضحية .
ووجدت الأحزاب والقوى السياسية الجزائرية التي تبنت الاتجاه
الإصلاحي أنه لم يعد أمامها من سبيل إلا الارتباط بالعمل الثوري حتى
لا تنعزل وتتخلف عن إرادة الشعب .

وأعلن فرحات عباس عام ١٩٥٥ ، انضمام حزبه (حزب البيان
العربي) إلى جبهة التحرير ، وانضم أيضا المترددون من حزب مصالي
الحاج (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) وهم الذين عارضوا
(اللجنة الثورية للوحدة والعمل) في البداية ... وأخيرا جمعية العلماء
التي حافظت على تراث الشعب الجزائري وتقاليده ، والتي أعلن زعيمها
(بن باديس) عام ١٩٣٩ ، عندما قويت دعوة الارتباط بين الجزائر

وفرنسا ومشاركة الجزائر في الحياة السياسية والثقافية الفرنسية قوله (الشعب الجزائري ليس هو فرنسا ، ولا يرغب في أن يكون فرنسا ، وحتى لو أراد لما استطاع لأنه شعب بعيد جدا عن فرنسا بلغته وعاداته وأصله ودينه) .

ثم حاول الجنرال سوستيل الذي عين حاكما للجزائر عام ١٩٥٥ . الاعتماد على بعض عناصرها لتكوين قوة ثالثة ، ولكن رفض بعض زعمائهم واغتيال الذين قاموا بالاتصالات بين عناصر من الجبهة أوقف محاولته سوستيل وحشد كافة القوى في جبهة التحرير .

لم يكن ممكنا لهذه الأحزاب أن تقف في اتجاه مضاد للتيار الثوري الذي وجد صدى عالميا وعربيا . . . ولم يكن سهلا عليهم الحصول على أنصار بين شعب الجزائر في الوقت الذي كانت تسيل فيه الدماء يوما بعد يوم .

وكانت قرارات مؤتمر الصمام الذي انعقد في ١٨ أغسطس ١٩٥٦ ، هي الأساس الذي قامت عليه أفكار الثورة .

وبدأت ثورة يوليو تؤدي دورها التاريخي في مساندة ثورة الجزائر ، وحرص جمال عبد الناصر على توفير كافة الامكانيات المتاحة للمقاتلين فوق أرض الجزائر .

وكانت الأسلحة تتدفق من مصر الى ثورة الجزائر قبل اعلانها والى الجيش المغربي أيضا بعد عزل السلطان محمد الخامس .

يقول عزت سليمان ضابط المخابرات المسئول عن مساعدة ثورة الجزائر في ذلك الوقت وسفير مصر في إيران حاليا ، إن الأسلحة كانت تأخذ طريقين : البر خلال ليبيا بسماع من الملك السنوسي المولود في تلمسان ، والذي كانت تشجعه الحكومة البريطانية على ذلك لأنه كان من مصلحتها اخراج فرنسا واضعاف نفوذها بعد تصفية معظم المستعمرات البريطانية . . .

وطريق البحر .

ويروي عزت سليمان موقفا تعرضت فيه القوات البحرية المصرية لكشف أمرها . . . عندما أرسلت شحنة على اللش (فخر البحار) ، وحدث خلاف في موعد ونظام لقاء ثوار الجزائر مع اللش ، وخاصة بعد غرق لنشين صغيرين وهما محملان بالأسلحة قبل أول نوفمبر ١٩٥٤ .

واضطر عزت سليمان الى التوجه لميناء برشلونة الاسباني ، حيث وجد (المفاجأة الشديدة) استقبالا رسميا من البحرية الاسبانية ، بعد

أن أبلغهم الملحق العسكري في ذلك الوقت البكباشي عبد المنعم النجار
سفير مصر بالعراق حاليا بأن قطعة بحرية مصرية تتجول في البحر الأبيض
وتزور أسبانيا ضمن جولتها .

امداد مصر لثورة الجزائر بالأسلحة لم يتوقف ، ودعمها ماديا واعلاميا
لم يتوقف أيضا .

وعندما زار كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا مصر في مطلع عام
١٩٥٦ ، طلب من جمال عبد الناصر التوسط لإيجاد حل سلمي ، كما
أعلن جمال عبد الناصر ذلك أمام هيئة الأمم المتحدة في الدورة
الخامسة عشرة يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٠ .

ويقول جمال عبد الناصر : « كان ردي اثنى على استعداد للتوسط
صيانة للحقوق وصيانة للدماء ، وأنه ليس أحب إلينا من عقد سلم شريف
يصون لكل صاحب حق حقه . وأبدت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت
رغبتها في ارسال وفد الى القاهرة ليتولى المفاوضات مع زعماء المقاومة في
الجزائر ، ولقد أرسلت فعلا الى هؤلاء الزعماء أدعوتهم الى القاهرة ليلتقوا
بالوفد الفرنسي حين يجيء لعل المحاولة قد تسفر عن بارقة رجاء . . . ومن
المؤسف ان الوفد الفرنسي وصل الى القاهرة والتقى بالوفد الجزائري ،
ثم سافر هذا الى فرنسا لاجراء مشاورات مع حكومته . . . وظل الوفد
الجزائري في انتظاره في القاهرة ، ولكن الوفد الفرنسي لم يعد حتى هذه
اللحظة الى القاهرة ، بل كان ما هو أكثر مبدعة للأسف ، فظلت فرنسا
تتحين الفرص لهؤلاء الزعماء حتى استطاعت ان ترغم طائرة مدنية كانوا
بين وكابها فوق البحر على النزول في أحد المطارات الخاضعة لسيطرتها
ثم ألقت القبض على هؤلاء الزعماء » .

تمت عملية القرصنة الجوية التي أشار اليها جمال عبد الناصر يوم
٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ ، أثناء سفر الزعماء الخمسة أحمد بن بيللا ومحمد
خضير وحسين آية أحمد ورابع بيطاط ومحمد بوضياف من المغرب في
طائرة فرنسية ، حيث وضعوا بعد ذلك في ثاتو دونوى في جزر الأنتيل .

ويقول أنتوني ناتنج في كتابه (ناصر) أن جمال عبد الناصر طلب
من كريستيان بينو وزير خارجية فرنسا وقف تسليح إسرائيل . وكانت
هذه أكثر الدول امدادا لها بالسلاح في ذلك الوقت ، كما أنها كانت تفتح
معسكرات لتدريب لقوات الهاجاناه . نظير أن يوقف هجومه على الاستعمار
الفرنسي . . . ولكن بينو طلب وقف مساعدة الجزائريين . . . ورفض
ناصر في خضم .

ويقول ناتنج أن بينو وجد في عبد الناصر قائدا وطنيا وليس نظيرا
لهتلر كما حاول جى موليه زعيم الحزب الاشتراكي أن يصوره للناس
خلال البعاية الفرنسية المضادة التي حاولت تصوير عبد الناصر بأنه
المسئول عن ثورة الجزائر .

وجاك سوستيل الحاكم العسكري الفرنسي للجزائر عام ١٩٥٥
صرح بأن (مصر هي رأس الأخطبوط الذي كانت خطاطيفه تخفق لمدة شهور
شمال أفريقيا الفرنسي) .

ولم يتردد جمال عبد الناصر في اجابة كينيث لف في حديث صحفي
بأنه أرسل أسلحة للثورة الجزائرية .

ارتبط مصير ثورة يوليو بثورة الجزائر ، وربطت الحكومة الفرنسية
بين معاناتها فوق أرض الجزائر وبين التأييد الواضح الحاسم لمصر .

وقبضت السلطات الفرنسية عام ١٩٥٦ على السفينة (أتوس) وفيها
شحنة من السلاح المصري فصادرت السفينة وحاكمت طاقمها ٥٠٠ وأعلن
ذلك جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٦٢ أمام أعضاء المؤتمر الوطني للقوى
الشعبية المنعقد بشأن الجزائر .

وكان اعلان جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو
١٩٥٦ مثيرا لحقد الحكومة الفرنسية التي شاركت في تدبير العدوان
الثلاثي على مصر كما ورد تفصيلا في الباب الأول من الجزء الثاني (مجتمع
جمال عبد الناصر) ، بعد أيام قليلة من عملية القرصنة الجوية التي عزلت
زعماء الثورة عن جماهيرها .

أعلن وزير الحربية في وزارة جى موليه (اننا نريد أن نخضع
الجزائر عن طريق القاهرة) ٥٠٠ وفرقة المظلات الفرنسية التي نزلت في
بورفؤاد كان يقودها الجنرال ماسو قائد معسكرات الاعتقال الرهيبة في
الجزائر وقائد المظليين الفرنسيين في الجزائر .

.. كانت المعركة في جوهرها واحدة :

في كواليس الثورة :

ولا شك أن اعتقال زعماء الثورة الجزائرية قد أدى الى بروز المنازعات
الشخصية بين القيادات الأخرى ٥٠٠ فكانت الولايات المتباعدة تحاول
الانفراد بالسلطة وعدم الرضوخ في سهولة لقيادات أعلى .

كما أن اعلان حكومة الجزائر الحرة المؤقتة التي أعلنت من القاهرة
في ١٩ سبتمبر عام ١٩٥٨ والتي قال جمال عبد الناصر عنها في حديث له

مع الصحفي كارانجيا في ٢٩ سبتمبر ١٩٥٨ أن إعلانها في القاهرة .
(هو الدليل الواضح على تأييدنا الكامل لها واننا نشق في أن إعلانها ،
سيكون عاملا يبعث المزيد من القوة والشجاعة في قلوب اخواننا الجزائريين .
الشجعان الذين يحاربون نصف مليون جندي مسلحين بأسلحة
حلف الاطلنطي) .

تشكلت هذه الحكومة برئاسة فرحات عباس رئيس حزب البنيان
العربي السابق وكان لها نائبا رئيس هما كريم بلقاسم الذي كان وزيرا
للدفاع أيضا وأحمد بن بيللا ، ووزراء الدولة حسين آية أحمد ورايح
بيطاط ومحمد بوضياف ومحمد خيضر .

واقتصرت مسئولية هذه الحكومة عند بدء تشكيلها على جمع
الاعانات والمؤن والتزويد بالسلاح ، ولم تبدأ عملها كقيادة مقنعة راسخة
للمقاتلين .

وصحب تكوين الحكومة خلق شائعات وانحرافات أدت الى
جساسيات بين المقاتلين في الداخل وبين مناضلي الخارج . ونبت تناقض
آخر بين الحكومة المؤقتة وجيش التحرير في كل من تونس والمغرب .
كما ظهرت تناقضات ثانوية وجانبية اقليمية وعشائرية وشخصية ،
أدت الى ارتكاب جرائم مأساوية ، ليس هذا الكتاب هو مجال الاقضية
فيها ، وانما نذكر بعضها تدليلا على وجود صراعات رهيبة في حدود
النضال المشترك .

وكانت هذه التناقضات تنتهي غالبا الى الاغتيال والتصفية البدنية .
. وسيادة لغة السلاح على لغة السياسة .

أعلن بعد الاستقلال تغيير في أسماء خمسة من أسماء الشوارع
الرئيسية في الجزائر لتحمل أسماء أبطال الثورة الشهداء بدلا من
الأسماء الفرنسية .

وحملت الشوارع أسماء بن مهدي ، والكولونيل عمروش ،
وبن بولاد وديدوش مراد وعبات رمضان . ولكن الحقائق التي يعرفها
الجميع تشير الى أن الاثنين الأولين فقط هما اللذان قتلوا في معارك
التحرير ، وأن الآخرين قد قتلوا بأيدي رفاقهم في النضال .

ونشب صراع بالسلاح بين أعضاء جبهة التحرير وبين أعضاء
(الحركة الوطنية الجزائرية) الاسم الجديد لحزب مصالي الحاج السابق
(حركة انتصار الحريات الديمقراطية) بلغ من الوحشية والعنف
درجة مذهلة .

وفي ظل هذا الجو استطاعت حكومة فرنسا كما يقول (أرسلان همبراكى) فى كتابه (ثورة فشلت) أنه أمكن تجنب ٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠ جزائري يعملون لحساب مخابراتها وتنفيذ مخططاتها .

قال لى عزت سليمان أن تفاصيل حركات الخيانة والاغتيال والتصفية البدنية ، يمكن أن تملأ مجلدات ... تماما كما تستطيع قصص البطولة والتضحية والفداء لبسطاء الناس أن تملأ مجلدات أخرى .

هذه حقائق يعرفها المناضلون الجزائريون ، ولكنها أبدا لم تقف عائقا دون نمو المد الثورى وحركة الكفاح المسلح .

وفى ذلك قال يومدين فى مؤتمر جبهة التحرير فى أبريل ١٩٦٤ (يطالب البعض بأن يكون الحزب مطهرا لا يضم فى عضويته أيا من هؤلاء الذين تثقل الجرائم ضمائرهم ... ولكن من منا فى هذا المؤتمر يدعى الطهر والنقاء) .

ظاهرة تفشت خلال سنوات الثورة الجزائرية كنتيجة رئيسية لغيبة الزعماء الحقيقيين للثورة ، ولغيبة التنظيم الحزبى الحديدي الذى يعبر عن أيديولوجية ثورية واضحة .

كان تيار الوطنية الجزائرية المتدفق ضد الاحتلال الفرنسى هو الذى يجمع كل المناضلين ... ولكن الوحدة الفكرية والنظرة السياسية والأهداف الاجتماعية لم تكن أبدا محل اتفاق جماعى .

ولم يستطع نفوذ جمال عبد الناصر واحترام شخصيته. التأثير فى الجبهة بحيث تتوافر لها قيادة موحدة متجانسة مسلحة بعقيدة وفكرية ثورية واضحة ... وذلك لسببين : أولهما أن صلات ثورة يوليو مع ثوار الجزائر كانت تنعقد عن طريق ضباط المخابرات الذين سبق توضيح دورهم الرئيسى فى الحركة السياسية العربية ، الذى كان يقوم أساسا على واجبات ومهام تنفيذية. وليست سياسية ... وثانيهما أن مصر حتى ذلك الوقت كانت تعيش فى فترة الاتحاد القومى حيث كانت الحيرة مازالت تغلب الوضوح السياسى الذى نبت مع صدور الميثاق عام ١٩٦٢ . وهكذا كان الاعتماد على ضباط المخابرات وحدهم فى عقد الصلات السياسية ... وغيبة الايديولوجية الثورية فى مصر ، عاملين من أهم العوامل التى لم تؤثر فى ثورة الجزائر التى كانت تربطها بمصر وزعيمها جمال عبد الناصر أوثق الصلات .

وظلت التناقضات الثانوية تنمو بلا حسم فى صفوف الثورة الجزائرية ، وأعيد تشكيل الوزارة برئاسة فرحات عباس فى طرابلس

يوم ١٨ يناير ١٩٦٠ وبقي كل من كريم بالقاسم في منصبه نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للشئون الخارجية بدل الحربية وبقي أيضا أحمد بن بيللا نائبا لرئيس الوزراء وزملاؤه الأربعة المعتقلون وزراء للدولة .

ونقص عدد الوزراء من ١٩ وزيرا في الوزارة الأولى الى ١٢ وزيرا فقط .

واستمر تشكيل الوزارة على ما هي عليه حتى ٢٧ أغسطس ١٩٦١ عندما عين يوسف بن خدة رئيسا للوزراء ومستولا عن المالية ، وكريم بالقاسم نائبا للرئيس ومستولا عن الداخل وأحمد بن بيللا ومحمد بوضياف نواب رئيس أيضا ، وبقي محمد خيضر ورابع بيطاط وزراء دولة .

وتشكلت الوزارة أيضا من ١٢ وزيرا مثل الوزارات السابقة .

ولم يكن يوسف بن خدة يمثل قوة سياسية رئيسية في اتجاه الثورة الجزائرية .

الجزائر مصر فرنسا :

كان جمال عبد الناصر ينظر الى أحمد بن بيللا باعتباره الزعيم الغائب .

عندما سأله محرر مجلة (كل شيء) اللبنانية بتاريخ ١٣ مايو ١٩٦٢ عما اذا كان قد قرأ الحملة المتطرفة التي شنتها مجلة (باري ماقش) على أحمد بن بيللا لانه أعاد الى عبد الناصر الفضل الاول في انتصار ثورة الجزائر ، ولاله قام بزيارة عبد الناصر قبل زيارة أي بلد أو رئيس عربي بعد الإفراج عنه .

قال عبد الناصر (ان علاقتي بالصديق بن بيللا علاقة قديمة تعود الى ما قبل الثورة . . . الى عام ١٩٥٤ عندما كان يقيم في القاهرة كلاجئ سياسي . . . وقد توطدت علاقتي الأخوية به وزملائه زعماء الجزائر وأعضاء حكومتها ، ولم تنقطع الاتصالات بيننا في أي وقت) .

وعندما سأله المحرر (وهل ظلت هذه الصلة قائمة عندما كان بن بيللا في السجن) .

فحكك عبد الناصر وقال (وهو في السجن في باريس . . . كانت الاتصالات مستمرة بيننا ولم تنقطع أبدا) .

ويروي هنري كورييل السكرتير السابق للحركة المصرية للتححر الوطني ثم الحركة الديموقراطية للتححر الوطني ، والذي طرد من مصر

عام ١٩٥٠ نهائيا لموقفه السياسى ، ومع ذلك ظلت تربطه بمصر علاقات وثيقة عن طريق ثروت عكاشة الملحق العسكرى فى باريس .

يقول هنرى كورييل أن هدف جى مولىه كان التخلص من جمال عبد الناصر للتغلب على الثورة الجزائرية ، ولكن الموقف تغير بعد وصول ديجول الى الحكم فى ١٣ مايو ١٩٥٨ لحكمة الحرب الجزائرية .

حدثت اتصالات بين فرنسا ومصر بعد عدوان ١٩٥٦ قام بها بيركوت رئيس الاتحاد التقدمى وأحد وزراء الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ ومن الذين اشتركوا فى الحزب الاهلية الاسبانية ضد الفاشية ومعه أندريه فيليب وزير اشتراكي سابق ، وكان الهدف من ذلك إعادة العلاقات مع مصر .

ولكن جمال عبد الناصر رفض إعادة العلاقات مع استمرار الحرب الجزائرية . ويقول أنطولى لانتج أنه بعد فشل هذه الاتصالات زاد عدد الجنود الفرنسيين فى الجزائر حتى وصل الى ربع مليون جندي .

وبعد اعلان الحكومة الجزائرية المؤقتة تم اتصال سرى آخر فى أواخر عام ١٩٥٨ بين وزير الخارجية الفرنسى كوف دى مور فيل و ثروت عكاشة سفير مصر فى روما .

تمت المقابلة سرا فى سويسرا حيث كان كوف دى مور فيل يمثل فرنسا فى مؤتمر هناك وخلال المقابلة قال ثروت عكاشة ان مصر لا تستطيع إعادة العلاقات مع فرنسا مادام شعب الجزائر يتعرض لطفيان التدخل الفرنسى ، وأحمد بن بيللا ورفاقه محتجزين فى سجون فرنسا .

شارك فى اعداد هذه المقابلات هنرى كورييل ، كما شارك أيضا فى إيجاد صلة مستمرة بين مصر وبين بيللا داخل السجن ساعده فى ذلك عدد من أصدقاء الشعب المصرى التقدميين ، الأمر الذى انتهى باعتقال السلطات الفرنسية لهنرى كورييل فى أكتوبر ١٩٦٠ وادخاله السجن بتهمة مساعدة الثورة الجزائرية وبقي به حتى يوليو ١٩٦٢ .

موقف جمال عبد الناصر فى تأييد ثورة الجزائر لم يعرف التردد أو المساومة ، واقتناعه بزعامة أحمد بن بيللا كان مؤشرا اتجاهه وجركته وعندما مضت على العدوان الثلاثى سنوات ، وبدأت العلاقات تعود تدريجيا الى طبيعتها القديمة كان موقف مصر من انجلترا يختلف عن موقفها من فرنسا .

عادت العلاقات الدبلوماسية مع انجلترا بصورة محدودة فى ديسمبر ١٩٥٩ وعين كولين كرو الذى كان رئيسا للجنة المقتنيات البريطانية

التي نجمت عن تأميم قناة السويس وزيارا مفوضا حتى عادت العلاقات.
كاملة بتعيين سير هارولد بيلي سفيرا في مارس ١٩٦١ .

ورغم أن صلة كولين كرو كرئيس للجنة المقتنيات كانت بعيدة عن
وزارة الخارجية ومرتبطة بوزارة الخزانة ، الا أن جمال عبد الناصر
لم يأخذ موقفا جامدا في ايجاد قنوات للعلاقات مع لندن ، فكلف محمد
حسنين هيكل - كما يقول أنتوني ناتنج - بالاتصال بكولين كرو بصفة
دورية ، الأمر الذي جعله أكثر اطلاعا على مجريات الأمور من كثير من
السفراء كما كتب ناتنج في كتابه (ناصر) .

وظهرت هذه الصلة الطيبة بصورة عملية عند رحيل كولين بعد
تعيين السفير البريطاني ، وكانت هدية عبد الناصر رغم عدم مقابلته له
مطلقا هي الافراج عن الجاسوسين البريطانيين جيمس زارب ، وجيمس
سوينبون بعد الحكم عليهما بعشر سنوات .

الموقف مع فرنسا كان يختلف . . .

لجنة المقتنيات لم تكن لها قنوات موصلة الى جمال عبد الناصر . .
وفي نوفمبر ١٩٦١ اعتقل رئيس اللجنة أندريه ماتي بتهمة التجسس
والتخريب مع أربعة من زملائه أعضاء اللجنة وستة من المصريين المتعاونين
معه . . . وكان جواب فرنسا حظر التعامل التجاري مع مصر .

لم يفرج عن هؤلاء الفرنسيين الا بعد خمسة شهور عقب توقيع
اتفاقية افيان في ١٨ مارس ١٩٦٢ وإعلان ديجول لاستقلال الجزائر .

طوال سنوات الثورة الجزائرية وجمال عبد الناصر يحمل لواء
الدفاع عنها في كل مكان . . . في رشيد يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٩ أثناء
الاحتفال بمرور ١٥٠ سنة على طرد الانجليز قال عبد الناصر (ان فرنسا
بعد خمس سنوات تثن من شعب الجزائر الاعزل أكثر مما يثن شعب الجزائر
الذي فقد مليوناً من الشهداء في هذه الحرب المقدسة) .

وأمام برلمان الهند في ٣٠ مارس ١٩٦٠ بلور هموم الأمة العربية في
حالة شعب فلسطين الذي شرد من دياره ، وحالة شعب الجزائر الذي
يحمل السلاح مرغما للدفاع عن حقه في الوجود على أرض بلاده .

ومن فوق منبر الأمم المتحدة في ١٧ سبتمبر ١٩٦٠ . . . وفي احتفال
الاتحاد القومي بيوم الجزائر في نوفمبر ١٩٦٠ .

في كل هذه المواقع وغيرها . . . وفي كل أحاديثه الصحفية . . . كان
جمال عبد الناصر المدافع الصلب عن حرية الشعب الجزائري وحقه
في النضال .

وأنقل هنا نص حديث دار بين جمال عبد الناصر وبعض الصحفيين الأجانب في ٢٥ أبريل ١٩٦٠ عقب أزمة الباكسة كنيوباترة التي رفض عمال الشحن في أمريكا تفرغها تأييدا لإسرائيل .

سأل أحد الصحفيين عبد الناصر هذا السؤال :

على ذكر مسألة التسليح الشيوعي بالشرق الأوسط ، فإن هناك مظهرا آخر أود أن أعرضه على سيادتكم ذلك أن حكومة الجزائر الحرة طلبت متطوعين لينضموا الى جيشها كما تعلمون فهل سيكون لحكومتكم موقف معين حيال أي متطوعين من الصين الشعبية يريدون المجيء الى الشرق الأوسط لينضموا الى الجيش الجزائري ؟

وأجاب عبد الناصر (من رأيي أنه يجب أن يتمتع الشعب الجزائري بالاستقلال ولن نعترض على الطريقة التي يتبعها في سبيل الظفر بهذا الاستقلال) .

وأعاد الصحفي السؤال قائلا : (أنا لا أثير ياسيدي الرئيس مسألة استقلال الجزائر وإنما أثير مسألة مجيء الصينيين كمطوعين واشتراكهم في حركة الاستقلال الجزائرية ؟) .

وقال عبد الناصر (أرجو أن تنظر الى الجيش الفرنسي فإنه يضم جنودا من ألمانيا ومن دول أخرى كثيرة ، فلماذا تعترض على حق الجزائريين في أن يضم جيشهم متطوعين من كل الدول بما فيها الصين أني لا أرى سببا يدعو الى الاعتراض) .

وألح الصحفي في سؤال ثالث : ألا ترى يامسيادة الرئيس أن في ذلك ما يدعو الشرق الأوسط الى القلق بشأن هذه المسألة ؟

وكان الجواب : اني متأكد أنه لن تتمكن أي عناصر شيوعية من التأثير مهما حدث على القومية العربية في البلاد العربية بما فيها الجزائر . بل العكس ، أعتقد عن يقين أن أفكار القومية العربية هي التي ستسود في النهاية وستظل دائما سائدة .

ويلاحظ أن جمال عبد الناصر كان يجيب على هذه الأسئلة في فترة وجود الشيوعيين المصريين داخل المعتقلات بعد أزمة أول يناير ١٩٥٩ .

وواصل الصحفي الحاحه في السؤال قائلا : ألا ترون يامسيادة الرئيس أن هذه تعتبر محاولة تسليح عسكري شيوعي قوامه متطوعون للجزائر من الصين الشعبية أو من الاتحاد السوفيتي فهل مثل هذا التسليح الشيوعي العسكري ينطوي على خطر على العالم الغربي ؟

وكان جواب عبد الناصر : أنظر الى مشكلة الجزائر باعتبارها بلاد
الجزائر وشعب الجزائر . لقد قتل من هذا الشعب مليون شخص من
نشبت الثورة الجزائرية ، أى أن عشر الشعب الجزائري قد لقي حتفه .
لهذا أظن أنه لو تلقى الشعب الجزائري مساعدة من أى جهة فإن هذه
المساعدة ستقتل مليوناً من أبناء هذا الشعب من الهلاك وأما فيما
يتعلق برأى فى مسألة التسليح الشيوعى فأنى أرجو أن تنظر مثلاً الى
مصر وسوريا . أين هو ذلك التسليح الشيوعى ؟ لقد نشرت الصحف
الأمريكية لفترة طويلة أننا نخضع للنفوذ الشيوعى وراحت تعيد وتزيد
فى أننا نواجه التسليح الشيوعى بسبب صفقات الأسلحة التى عقدها
مع الدول الشيوعية ، وبسبب علاقاتنا الاقتصادية مع هذه الدول . ولكن
هل كان ما نشرته الصحف الأمريكية عن هذه المسألة حقيقياً ؟

هكذا حاول الصحفيون الغربيون حصار جمال عبد الناصر وبذر
بذور التناقض أو الخلاف بينه وبين الثورة الجزائرية فى وقت كانت
علاقته فيه مع الاتحاد السوفيتى ليصمت أفضل حالاتها وفى وقت
كانت الثورة الجزائرية فيه تعتمد على مصر أساساً . وبشخصيته تلعب
دورا رئيسيا فى هذا المجال ولكن جمال عبد الناصر بكلماته الواضحة
حطم كل محاولات التسليح الغربى الى صفوف الثورة العربية المصرية كانت
أم جزائرية وحسم قضية التعاون المطلق الوثيق بينهما .

ولذا لم يكن غريباً أن يعلن أحمد بن بيللا فور الافراج عنه بأن
جمال عبد الناصر صاحب دور رئيسى فى انتصار الثورة ، وأن يتجه مع
زملائه الى القاهرة ليكون أول لقاء لهم معه قبل بقية الدول والزعماء
العرب الذين ساندوا ثورة الجزائر .

وقد أعدت خطة وصول بن بيللا وزفاقه الى مصر فى القاهرة حيث
كانوا قد وصلوا الى السويس وترحبهمهم عيون رجال المستوطنين
الفرنسيين فى الجزائر الذين كان يقودهم الجنرال سالان ، تبغى قتلهم
فى أى مكان . ولكن فتى الديب سبيلهم مصر فى برن أخفاهم عن العيون
تسماً .

كان رجال الجنرال سالان منتشرين فى مطارات السويس ليل نهار
للقيام باغتيال الزعماء الجزائريين فى محاولة انتحارية ، ولذا قامت من
القاهرة طائرة مصرية يقودها الكابتن شمس على أنها فى طريقها الى
لندن وليس فيها إلا راكب نواخذ هو عبد المجيد فريد سكرتير رئاسة
الجهنوية فى ذلك الوقت . ويقول عبد المجيد فريد أنه طلب من الكابتن
شمس السماح للطائرة بالتزول اضطرارياً فى مطار زيورخ ، فسمح لها
وهبطت فعلاً فى أول المدرج الجوى قرب منتصف الليل .

كان فتحى الديب سفير مصر الذى دبرت الخطة معه ينتظر هبوط الطائرة المصرية فى الأرض الزراعية خارج المطار ومعه الزعماء الخمسة وأحد رجال المخابرات السويسرية الذين استطاع فتحى الديب أن يستميلهم اليه .

أعطى عبد المجيد فريد اشارات ضوئية من سلم الطائرة فأسرعت عربتان مرسيديس بالدخول الى الطائرة مباشرة تحمّلان زعماء الجزائر وسفير مصر .

أديرت محركات الطائرة بعد أن ركبها الزعماء الجزائريون وعادت الى القاهرة ، ورجع السفير المصرى الى برن ، ولم تستغرق العملية أكثر من ربع ساعة .

وصلت الطائرة الأجواء المصرية فى الخامسة صباحا ، ولما كان جمال عبد الناصر يريد أن يستقبلهم استقبالا شعبيا فقد هبطت الطائرة فى مطار أنشاس حيث استراح الزعماء وحلقوا ذقونهم وتناولوا الفطور مع ضباط القوات الجوية المصرية .

وبدأت الاذاعة منذ نشرة الساعة صباحا تذيع نبأ وصولهم وتعلن عن استقبال عبد الناصر لهم فى المطار وخط سير موكبهم .

هبطت الطائرة فى الماطة فى الواحدة ظهرا وبدأ الموكب الشعبى مع عبد الناصر فى عربة مكشوفة الى ميدان العتبة خلال شارع الجيش ثم العودة الى سراى القبة خلال شارع رمسيس ، ومصر والسودان .

وأفرج بعد ذلك عن هنرى كورييل ورفاقه فى يونيو ١٩٦٢ ، وخلت سجون فرنسا بعد ذلك من المناضلين الجزائريين .

وتم الاستفتاء فى أول يوليو ١٩٦٢ على تقرير المصير ، وأصيب التمرد الذى دبره المقيمون الفرنسيون وبقايا الجيش الفرنسى بالشلل عشية نفس اليوم ، وتشتت الفرنسيون هاربين .

وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ الجزائر ... صفحة التحرير والاستقلال الوطنى .

الفصل الثاني

الجزائر .. بعد الاستقلال

(لقد انتهى الجهاد الأصغر ،
وبدا الجهاد الأكبر : جهاد النفس)
جمال عبد الناصر
الى يوسف بن خدة
الداير البيضاء - يونيو ١٩٦٢

أثمرت ثورة الجزائر ، وتضحيات الشعب المناضل ، وحياة مليون
شهيد ، وطننا حرا مستقلا ، تغنى الشعراء ببطولة شهدائه وأبنائه .
وعبر الشعب عن فرحته بالانتصار في مظاهرات غمرت شوارع المدن
الجزائرية .. واعتبرت الأمة العربية هذا الحدث عيدا لها .
ولكن التناقضات التي ظهرت في كواليس القيادة الجزائرية بدأت
تفرض نفسها على الموقف ، وتظهر في العلن ما كان يدور سرا طوال
سنوات الثورة .
كان أحمد بن بيللا يعتبر نفسه الشخص المؤهل تاريخيا لزعامة
الثورة بعد الاستقلال ، وأن مكانه في القمة لابد أن يكون محجوزا بعد
الافراج عنه من سجون فرنسا .
ولكن الحكومة المؤقتة التي يرأسها يوسف بن خدة كان لها
رأي آخر .

ثورة يوليو ج ١ - ١٩٥٩

ولم يكن الخلاف شخصيا في مضمونه وإنما كان خلافا بين اتجاه ثوري له طابع وميول اشتراكية وأصالة عربية يمثلها أحمد بن بيللا واتجاه يطلب استقرار الأحوال على ما كانت عليه من علاقات مع فرنسا بعد الاستقلال دون جموح ثوري أو تطلع اشتراكي .
• وظهر الخلاف مبكرا .

وكان جمال عبد الناصر يدرك أن الأمور قد تنتهي إلى خلاف ولكنه حاول بكل ما في وسعه أن يتفادى التدخل في شئون الجزائر فأرسل برقية إلى زعماء الجزائر الخمسة بمناسبة توقيع اتفاقية أفيان ووقف إطلاق النار يوم ١٩ مارس قال فيها (اننى أبعث اليكم بتقدير شعبنا كله لتضحياتكم في مرحلة من النضال سبقت ، وأجدد تأييده في مراحل من النضال قاسية) .

وبعث في نفس اليوم إلى يوسف بن خده برقية أخرى جاء فيها (ان النصر الأول الذى أحرزه كفاحكم بأرغام الاستعمار على الاعتراف باستقلال الجزائر ووحدة ترابها لم يحول أنظاركم عن المراحل الصعبة القادمة من استكمال الحرية) .

الموقف لم يتحدد بعد والسلطة لم تتفق على اليد التى تقبض عليها وعبد الناصر ينظر بعينه إلى المستقبل والمراحل الجديدة القادمة .

رحل الفرنسيون سياسيا في يوليو بعد استفتاء تقرير المصير خرج حوالى ٨٥٠.٠٠٠ فرنسى يشكلون ٩٠ فى المائة من الخبرة الادارية والفنية العاملة فى الجزائر وتوقفت معظم البنوك والمصانع والمزارع التى كانت تعتمد عليهم وبدأ الأمر فى صورة مؤامرة على الحكومة الجديدة التى تسلمت بلدا حطم الاستعمار قنارات أبنائه الفنية والادارية خلال ١٣٢ سنة طويلة من سنوات القهر .

المشاكل التى تجابه الحكومة حادة وكثيرة .

الفراغ الذى تركته الهجرة الجماعية الفرنسية زحفت اليه عناصر من البرجوازية الجزائرية التى تعاونت مع الفرنسيين خلال الحرب وقال عنهم أحمد بن بيللا فى إحدى خطبه (جمع عدد من الجزائريين خلال الحرب ثروات فاحشة عن طريق المضاربة ، واشترى آخرون بأسعار زهيدة من الفرنسيين الراحلين أملاكا وفنادق ومطاعم ودور سينما ، وكانوا يستعدون ليعيشوا عيشة الاقطاعيين فى الجزائر المستقلة) .

وكانت جبهة التحرير قد عقدت مؤتمرها فى طرابلس بعينها عن تونس ونفوذ بورقيبة المعتدل خلال شهر مايو ١٩٦٢ .

حضر المؤتمر ٧٠ مندوبا نصفهم من المقاتلين العسكريين .

برنامج طرابلس هو الذى تسلمت به الجبهة لمواجهة الاستقلال ،
والذى نص على (توحيد نشاط جميع المنظمات القومية داخل جبهة
التحرر الوطنى) .

المنطق الذى صاغ هذه الفقرة من برنامج طرابلس ، قريب الشبه
من منطق الميثاق المصرى الذى صدر فى نفس الشهر ، والذى نص على
تحالف قوى الشعب العاملة (العمال والفلاحين والجنود والرأسمالية
الوطنية والمثقفين) باعتبار وحدتهم فى الصراع ضد سيطرة الرأسمالية
الأجنبية والبرجوازية المحلية المرتبطة بها أقوى من بواعث الصراع الطبقي
داخل صفوفهم .

كان أحمد بن بيللا وكثير من زعماء الجبهة شديدي التأثير بتفكير
جمال عبد الناصر .

ويقول هنرى كورييل صديق بن بيللا الشخصى والمتعاون معه الى
حد دخول السجن أنه كان يكتسب رهيدا كبيرا لشخصيته من ارتباطه
بعبد الناصر .

وقد بدأ الخلاف عقب اعلان برنامج طرابلس بعد اصرار اتحاد
نقابات العمال الجزائرى على أن يبقى خارج الجبهة تشبها بواقع الدول
الرأسمالية الغربية وقد استغلت فرنسا هذا الموقف لشق الصفوف
وكان برنامج طرابلس قد أشار الى (ان الحكومة الفرنسية لن تعتمد فقط
على قوتها المسلحة وعلى الاقلية الفرنسية لتحويل اتجاه تطور الجزائر ،
فهى تستغل قبل كل شئ التناقضات السياسية والاجتماعية لجبهة التحرير
الوطنى) .

وفى أول يوليو ١٩٦٢ تلقى عبد الناصر رسالة من الرئيس بن خدة
ورسالة أخرى من أحمد بن بيللا ورسائل أخرى من زعماء الثورة
الجزائرية .

وأعلن جمال عبد الناصر هذا الخبر أمام المؤتمر الوطنى للقوى
الشعبية بشأن الجزائر المنعقد يوم ٢ يوليو ثم علق عليه قائلا (لقد
واجهت قرارات كثيرة فى حياتى السياسية برغم الأخطار وبرغم المواقف
الصعبة التى كانت تستلغى هذه القرارات ، فقد كان من السهل على
دائما أن أنزع عواطفى بعيدا عنى وأتخذ من القرارات ما أومن أنه
الواجب وأمس لأول مرة واجهت أزمة الحيرة عندما علمت بهذه

الخلافات ... انى واثق فى وعلى الحكومة الجزائرية وفى مقدرتها على مواجهة مسئولياتها) .

وبعد أن أشار عبد الناصر الى معرفته الوثيقة لبن خده وابن بيللا وتقديره لهما قال (لست أريد أن أدخل ولا أريد أن تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى هذا الخلاف طرفا فيه ، ولكن من هنا وأظنكم معى ، نكون دخل حدودنا تماما اذا توجهنا اليهم كلهم برجاء حار وصادق صبادر من أعماق القلب ليفعلوا شيئا مهما كلفهم كاشخصاخص ، حتى يحتفظوا بوحدة الثورة الجزائرية) .

وروى جمال عبد الناصر أنه التقى بين خده قبل ذلك بأيام فى مؤتمر القمة الثانى بالدار البيضاء وقال له (لقد انتهى الجهاد الأصغر ، وبدأ الجهاد الأكبر ، جهاد النفس) .

وكان جمال عبد الناصر قد قام بمحاولة جادة لتخفيف حدة الخلاف بين بن خده من جهة وابن بيللا وبومدين من جهة أخرى .

تشكل وفد من على محبرى ومحمد حسنين هيكمل وعبد المجيد فريد وفتحى الديب حيث ذهب بطائرة خاصة لمقابلة بن خده فى مقر الحكومة المؤقتة فى (الصخرة السوداء - روشيه نوار) .

وكان هذا الوفد يضم أول مصريين ينزلون فى أرض الجزائر بعد الاستقلال .

تم الاجتماع مع بن خده ثم طاروا الى تونس لمقابلة بومدين حيث كان هناك فى ذلك الوقت ، ثم عادوا مرة أخرى لبن خده ، ونزلوا فى طرابلس لمقابلة بعض القادة الجزائريين .

استمرت الرحلة ٢٤ ساعة متصلة ولكنها لم تنجح فى مساعيها .

وكان الخلاف قد وصل بين الحكومة والزعماء المعتقلين الى الحد الذى أصدرت فيه الحكومة المؤقتة قرارا بعزل رئاسة أركان حرب الجيش الخارجى يوم ٣٠ يوليو ١٩٦٢ لنشاطات إجرامية على حد تعبيرهم .

ولكن أحمد بن بيللا رفض هذا الإجراء رفضا كاملا ، كما رفض تكوين المكتب السياسى الذى تشكل تحت رئاسة بن خده عقب مقررات طرابلس وطالب بتشكيل مكتب سياسى جديد يضم المعتقلين الخمسة . يقول هارويتز فى كتابه (الإبعاد العسكرية فى سياسة الشرق الأوسط) أن أحمد بن بيللا منذ لحظة الإفراج عنه رفض التعاون مع السياسيين الموالين إلا اذا جلس فى مقعد السائق .

الجيش يدخل الحركة :

كان رفض بن بيللا لقرار الحكومة المؤقتة بعزل رئاسة أركان حرب الجيش في الخارج معتمدا على رفض القادة العسكريين في الجيش للقرار ، ونابعا من أصوله العسكرية التي بدأت في الجيش الفرنسي .

وأحمد بن بيللا لم يبلور زعامته في صفوف الجيش ، ولا في صفوف الحكومة المؤقتة وإنما بلورها في السجن .

كان قائد الجيش هواري بومدين طالبا للعلم في الأزهر الشريف بالقاهرة ولم يسبق له أن كان جنديا محترفا ، كما سبق له أن خدم في الجيش الفرنسي مثل أحمد بن بيللا .

كان الجيش الجزائري قد تكون أساسا من الانصار المتطوعين ، وعدد قليل من الجنود الوطنيين الذين سبق لهم الخدمة في الفرقة الأجنبية أو الجيش الفرنسي وكان موزعا في ثلاث جبهات رئيسية وصل عدده حسب ما سجله هرويتز تسعين ألفا يشكلون جيش الداخل في الولايات ، ٢٥٠٠٠ في تونس ، ١٥٠٠٠ في أوجدا بالمغرب ومن الجميع شكل جيش التحرير الجزائري .

خلال سنوات الثورة التحق بعض الجزائريين بالكليات والمدارس العسكرية في مصر ، ودرسوا وتدرّبوا على أحدث الأسلحة التي أمدتهم بها مصر .

وقد أسهمت قوات الانصار في الداخل ، وقوات الجيش النظامية في الخارج بدور كبير في الكفاح المسلح المستمر ضد المستعمرين الفرنسيين ولكن الصلة التنظيمية بين قادة الولايات لم تكن سهلة ، فكان هناك شبه افراد ذاتي بالحركة في كل ولاية ، ومحاولة من جانب كل قائد ولاية لدعم سلطته ونفوذه ، في غيبة تنسيق سليم بفرض ارادته والسبب في ذلك صعوبة المواصلات أساسا .

وكان يوم ١٩ مارس يوم اعلان اتفاقية افيان ووقف اطلاق النار يوما فاصلا عبرت عنه مجلة الجندى الجزائري بحديثها عن الذين هرعوا للانضمام الى صفوف جيش التحرير وقولها « انهم من العناصر التي تعاونت مع الاستعمار ولم تعر أي اهتمام لثورة ١٩٥٤ ، وراحت تتعاون مع الاجنبي على حساب شعب كامل ولم تهتم بسمعة الوطن المضرج بالدماء ، ولم ترحم أرملة ولم تعطف على يتيم » .

كان الاندفاع المبالغ فيه للانضمام للجيش تعبيرا عن رغبة بعض القادة في دعم تفوذهم الفردي ، حتى أنه بعد ١٩ مارس مثلاً قفز عدد قوات ولاية الجزائر من ٨٠٠٠ الى ٣٥٠٠٠ ٠٠٠ ولعب (جنود ١٩ مارس) وهو الاسم الذي اشتهروا به دورا كاد يؤدي الى اشتعال حرب أهلية بين المكتب السياسي وقيادة الولاية الرابعة في مدينة الجزائر .

وكان قرار ٣٠ يونيو الذي أصدرته الحكومة المؤقتة بعزل رئاسة أركان الجيش في الخارج ، ورفض بن بيللا وبومدين له ، أقصى صورة وصل اليها الخلاف ، وهي التي تضمنتها البرقيات التي وصلت الى جمال عبد الناصر في اليوم التالي مباشرة . وبدأت احتمالات الصدام بين الثوار تقترب .

وكان واضحا أن كفة الجيش هي الراجحة ٠٠٠ فان هواري بومدين استطاع خلال سنوات طويلة من الجهد الشاق أن يحول جيش الخارج الى قوة منظمة لها طابع وتقاليد عسكرية وانضباط تنظيمي ٠٠٠ ونشر فيه محو الأمية والتوعية السياسية ، وأسهمت بعض وحداته في العمل الاجتماعي متعاونة مع الفلاحين في المناطق المحررة حيث طبقت الى حد ما تجربة المزارع الجماعية التي يشرف عليها الجيش .

ولذا كان طموح بومدين في جعل جيش الخارج نواة الجيش الجزائري طموحا طبيعيا ولو أنه كان يمضي في طريق صعب مليء بتناقضات قوات الأنصار في بعض الولايات ، الذين تحدثوا عن تكوين (جيش شعبي) .

وقد بدأت العلاقات السياسية تربط بين أحمد بن بيللا وهواري بومدين بصورة عملية عندما أعلن بن خدة قبل استفتاء تقرير المصير بعدة أيام تشكيل مكتب سياسي لجبهة التحرير وتحت قيادته ، ورفض بن بيللا هذا القرار بمساندة بومدين وقيادة جيش الخارج ، الأمر الذي انتهى الى قرار ابن خدة في ٣٠ يونيو الذي سبق أن أشرنا اليه ، ورفضه بومدين أيضا .

وكان هذا الموقف الصدامي هو نقطة تحول في الموقف السياسي ٠٠٠ غاما أن ينتصر بن بيللا بمساندة الجماهير وقوات الجيش ٠٠٠ وأما ان تنتصر الحكومة المؤقتة التي اعتمدت على القوات المحلية للولايات وخاصة الولاية الرابعة (الجزائر) والولاية الثالثة (القبائل) وجزء من الولاية الثانية (قسنطينة) الذين أعلنوا ولائهم للحكومة المؤقتة .

وفى مواجهة ذلك دخل بن بيللا الجزائر دخول البطل الغائب حيث استقر فى تلمسان ، وجذب بومدين الى جانبه بقية الولايات التى تحرك فيها جيش الخارج .

وفى ٢٢ يوليو أعلن بن بيللا من تلمسان تشكيل مكتب سياسى جديد برئاسته ، يضم الزعماء المعتقلين ، ولكن بوضياف وحسين آية أحمد رفضا العمل فى هذا المكتب واختفيا ، الى أن اعتقل بوضياف يو ٣٠ يوليو حيث قبل العمل فى المكتب السياسى بشرط أن تنشأ إدارة محددة الواجبات ، وأن تتفق قوات الجزائر وتلمسان .

وقبلت الحكومة المؤقتة الخروج من العاصمة يوم ٣ أغسطس لتصبح السلطة فى يد المكتب السياسى .

ولكن تفادى الصدام المسلح كان أمرا صعبا أمام الطموح الى السلطة . . . ولذا فانه عندما خرج بن بيللا من العاصمة يوم ٢٥ أغسطس بدأ صدام بين أنصار المكتب السياسى وأنصار قادة الولايات كاد يهدد بقيام حرب أهلية ، لولا قرار وقف اطلاق النار وبداة المفاوضات يوم ٤ سبتمبر بين محمد خيضر وقائد الولاية الثالثة ، وهى المفاوضات التى أنهت مقاومة الحكومة المؤقتة .

وهكذا انتصر العسكريون على المدنيين . . . واقتحم الجيش الجزائرى ميدان السلطة وفرض ارادته بقوة السلاح . . . ودخل بومدين الجزائر العاصمة يوم ٩ سبتمبر ومعه ٤٠٠٠ عسكري من جيش الخارج الموالى للمكتب السياسى . وتحدد موعد انتخاب المجلس الوطنى يوم ٢٠ سبتمبر حيث أصبح أحمد بن بيللا رئيسا للوزراء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦٢ بأغلبية ١٣٩ ضد ٢٣ وعين هوارى بومدين وزيرا للدفاع وقائدا لجيش التحرير الجزائرى .

وبلدا أصبح بن بيللا رئيسا وسكرتيرا للجبهة وقالدا أعلى .

وأصبح الجيش هو القوة السياسية الأكثر تنظيما ووحدة فى الجزائر ، فى وقت كان ضعف جهات الدولة فيه ملموسا لغلبة الخبرة والخبراء ، وضعف التكوين والانضباط الحزبى ملموسا أيضا لغلبة الايديولوجية وتصادم التناقضات الطبقية والشخصية . وقد ساعد على ذلك بدء حملة تطهير للجيش من (جنود ١٩ مارس) ومن بعض الانتهازيين الذين حاولوا التسلق فوق صفوف الجيش .

واعتبر الجيش من ذلك الوقت دعامة هامة من دعائم الحكم ، رغم

التأييد الشعبي الجارف الذي أحاط بحكومة بن بيللا . . . ويمكن القول بأن تحالفا مدنيا عسكريا قد أرسى دعائم حكمه في الجزائر .

بن بيللا في موقع المسؤولية :

تحول أحمد بن بيللا من ثائر تقيده قنطينان السجن ، الى زعيم جماهيري ورئيس للحكومة .

وقبل جمال عبد الناصر دعوة بن بيللا لزيارة الجزائر في ٤ مايو ١٩٦٣ ولم تكن تمضي عدة شهور على استقرار بن بيللا في موقعه . . . وقد استقبل جمال استقبالا شعبيا حافلا لم تشهد الجزائر له مثيلا .

ومع ذلك لم يكن الطريق سهلا أمام بن بيللا للانطلاق الى تحقيق افكاره السياسية الطموحة ولكنه اندفع فيه بكل طاقته وحيويته .

واستطاع في بداية حكمه ، ورغم فسراغ البلاد بعد انسحاب الفرنسيين من الكادر الفني الخبير الى زيادة الانتاج الزراعي عن سنوات الثورة ، وفتح ابواب المدارس للتعليم والتدريب معا فزاد عدد الطلبة زيادة ملحوظة ، وبدأ في تكوين جهاز للدولة .

وقد استطاع أن يكسب تأييد الاتحاد العام لعمال الجزائر الى المكتب السياسي لجهة التحرير (والمشاركة النشطة الفعلية في تحقيق الاشتراكية) .

كما بدأ في تأميم بعض الشركات واتخاذ اجراءات تؤدي الى التطبيق الاشتراكي مثل التسيير الذاتي

وأصبحت لبن بيللا شهرة تقديمية جذبت الى الجزائر عندما من الماركسيين المصريين مثل لطف الله سليمان وعلى الشلقاني ، كما أعادت الى التعاون معه بعض العناصر اليسارية التي اتخذت منه موقفا معارضا في البداية ، وعين محمد حربي مستشارا لشئون القطاع الاشتراكي في مكتبه .

وقد عرض بن بيللا خلال هذه الفترة على هنري كورييل التجنس بالجنسية الجزائرية ولكنه آثر الاحتفاظ بجنسيته المصرية التي كان قد فقدتها بعد اخراجه من مصر قبل الثورة . . . وكان بن بيللا قد أبلغ هنري كورييل عقب زيارته لمصر بعد الافراج عنه أنه التقى بجمال عبد الناصر الذي وعده بالافراج عن الشيوعيين المصريين الذين ضمتهم المعتقلات منذ ليلة رأس السنة عام ١٩٥٩ ، وطلب بن بيللا ارسال المحامية الفرنسية مدام بوفيلار الى مصر حتى يتم الافراج عنهم . . . ولكن ذلك لم يتحقق في هذه الفترة .

ودعت لجنة السلام الجزائرية لعقد مؤتمر خاص لتجريد منطقة البحر الأبيض المتوسط من القنابل والأسلحة الذرية وجعلها نظيفة خالية من الانفجارات والاشعاعات . . . وكان المؤتمر في مقصده هجوما على التواجد البحري الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط .

اندفاع بن بيللا الى التطبيق الاشتراكي ومساعدة حركات التحرر الأفريقية ، في وقت افتقرت فيه الجزائر الى الكادر السياسي الواعي القيادي . وافتقرت أيضا الى التنظيم الحديدي الملائم لاكمال عملية تحول اجتماعي بلا أخطار .

كل هذا أدى - رغم شعبية بن بيللا - الى أن تتكشف المصاعب والتناقضات . . . بل وتنفجر .

حسين آية أحمد ومحمد ولد الحاج يقودان تمردا ضد الحكومة في منطقة القبائل معلنين معارضتهم لتركيز السلطة في يد بن بيللا ، ومقاومتهم لتفضيل جيش الخارج عن جيش الداخل ، وتجاهل النتائج الايجابية لتجربة الولايات أثناء القتال .

وكان حسين آية أحمد قد أدى بتصريحات جاء فيها (اننا نحارب بن بيللا لأنه أخلف كلمته مع فرنسا ، ونظامه أفلس لأنه خان الكلمة ، ونحن لا يمكننا التفاهم مع أعضاء المجلس الوطني لأنهم أجلاف . . . انهم عبارة عن جماعة من ماسحي الإلحادية) .

وكان بن بيللا قد أصدر بعض القرارات بالتأميم متجاوزا اتفاقية افيان التي نصت على أن التأميمات يجب أن تكون نتيجة مفاوضات مع فرنسا .

وأعلن بن بيللا (لا يمكنني التفاوض مع آية أحمد الذي ظهر بموقفه العدائي الذي اتخذه ضد الوحدة الوطنية . . . انه رجل مغامر قاذفه أغراضه الشخصية الى عدد من التناقضات) .

وكان السفير المصري على خشبة من أنصار فكرة أن بن بيللا قد تجاوز حدوده في الاندفاع السياسي والشخصي وأنه يجب بذل كافة الجهود لحشد كل الطاقات الثورية .

ومع ذلك كانت مصر تساند بن بيللا بكل ما تملكه من طاقات سياسية وثقافية .

أثناء احتفالات أول يوليو ١٩٦٣ توجهت الى الجزائر بعثة فنية كبيرة تضم ٤٥٠ فنانا وفنانة كلفت برئاستها وضمت المسرح القومي

واحدى فرق التليفزيون والفرقة القومية للفنسون الشعبية وموسيقىات
الجيش العسكرية ٠٠٠ وخصصت لنا المركب (الجزائر) التي امتلأت
على سعتها بأعضاء البعثة .

وهناك التقى مع البعثة حشد من المطربين والمطربات أذكر منهم
عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة وأعد برنامج حافل تناوبت فيه الفرق
تقديم عروضها في مختلف مدن الجزائر .

كان مهرجانا ثقافيا لم تشهده له الجزائر قبلا من مثيل ، ولم تسهم
بمثله مصر في الاحتفال بعيد دولة عربية أخرى .

وأشترك في العيد الأول أيضا المشير عبد الحكيم عامر .

وكان واضحا من المظهر أن بن بيللا يحرز شعبية جارفة وأن
الأمور تستقر على أساس ثوري وسوري معا ، ولكن الواقع أنه كانت
هناك عدة اتجاهات للمعارضة الى جانب حسين آية أحمد .

كان هناك بعض العناصر البرجوازية والاقطاعيين الجزائريين مثل
فرحات عباس ٠٠٠ وكان هناك أيضا بعض رجال الحكومة المؤقتة
السابقين ومنهم بوصوف وزير التسليح الذي تمركز في المغرب وتعاون
مع كل أعداء بن بيللا حتى المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات
الفرنسية .

ورغم ميول بن بيللا التقدمية فإن الحزب الشيوعي أيضا لم يقبل
الاندماج الكامل في حزب الجبهة ، وفضل أن يكون حزبا مستقلا في اطار
جبهة ٠٠٠ وكان بن بيللا قد أصدر قرارا بحله تنفيذا لبرنامج طرابلس .

وهكذا بدأ بن بيللا خطواته الأولى في الحكم وسط تيار معارض
متعدد الأهداف متشعب الاتجاهات ، عاجز عن تكوين معارضة واضحة
قادرة على إسقاط نظام تحالف المدنيين والعسكريين : بن بيللا رئيسا
وهواري بومدين أصبح نائبا للرئيس .

وفي وسط هذا الجو تعرضت الجزائر لمشكلة خارجية ٠٠٠ هي
مشكلة الصحراء التي ضمتها فرنسا الى الجزائر ومطالبة الملك الحسن بها
وتصادم القوات المغربية والجزائرية صداما مسلحا في أكتوبر ١٩٦٣ .

كانت أنظمة الحكم في المغرب وتونس تخشى اشعاعات الثورة
الجزائرية ، فتكررت التوترات مع تونس ، ووصل الأمر في المغرب الى
الصدام المسلح الذي تعرض فيه الجيش الجزائري لقوة نظامية حسنة
التدريب والتسليح بينما لم تكن معالم الجيش النظامي تسليحا وتدريباً

قد توافرت بعد للجيش الجزائري ، الأمر الذي دفع بن بيللا الى مطالبة جمال عبد الناصر بارسال مدرعات مصرية آلية في وقت كانت فيه حرب اليمن ما زالت مشتعلة ، ولم يتردد جمال عبد الناصر لحظة ، بل أسرع بارسال عدة كتائب مدرعة على باخرة مصرية ، وخلال عملية منضبطة اداريا أمكن للمدرعات المصرية الوصول الى الحدود الجزائرية في الوقت المناسب لحمايتها .

وسحبت المغرب سفيرها من القاهرة .

وخلال أزمة التصادم الخارجي أسفر بعض قادة الثورة عن وجههم المعارض لبن بيللا ، فعندما طلب بن بيللا من محمد خيضر الاتصال بحسين آية أحمد لاقتناعه بالكف عن موقفه الذي يعرض الجزائر كلها لخطر الأزمات الداخلية . . . عقد محمد خيضر مؤتمرا صحفيا وجه فيه نقدا مباشرا لكثير من الأوضاع . . . وانتهى الأمر بعزل خيضر وبیطاط وخروجهما من الجزائر ومع الأول أموال جبهة التحرير التي كان سكرتيرا لها .

وعقد أول مؤتمر عام لحزب جبهة التحرير الوطني الجزائري في الفترة من ١٦ الى ٢٦ أبريل ١٩٦٤ وتقرر فيه إعادة تكوين الحزب خلال شهرين على أن تكون العضوية لمن شارك في حرب التحرير الجزائرية أو دخل السجن أثناء حكم الاستعمار وكان ذلك شرطا ضروريا في هذه المرحلة .

والميثاق الجزائري هو مجموع النصوص التي صدق عليها المؤتمر وقد جاء فيها (ان ثورتنا كانت عند ميلادها ديموقراطية وشعبية بأوسع معانى الكلمة . ان فلاحى وعمال بلدنا باحتلالهم للأراضى والمعامل الشاغرة قد خلقوا القواعد الموضوعية للاشتراكية في الجزائر) .

ووجه ميثاق الجزائر وجهها الى المشرق العربى الذى فرض الاستعمار الفرنسى عزلتها عنه اذ جاء فيه (ان تطور حركة التحرير لم يجر فى دائرة مغلقة فنظريات التجديد الاسلامى التى نادى بها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وفكرة الوحدة العربية التى حملها شكيب أرسلان ، والأفكار الاشتراكية كانت لها أصداء بعيدة فى الجزائر) .

وخلال الاحتفال بالعيد الأول للاستقلال خطب بن بيللا قائلا (التعريب أساس الاشتراكية) .

ووضعت العلاقة بين الحزب والجيش على مائدة البحث فى المؤتمر .

كانت المناقشات التي دارت حول طبيعة الجيش الجزائري وتكوينه في ذلك الوقت تنبئ عن وجود خلافات داخل كواليس المؤتمر .

وبرزت تناقضات جديدة داخل جهاز القيادة إذ أخذ بعض اليساريين الغربيين من بن بيللا موقف التشكيك في أسلوب بومدين الذي نهج - على حد تعبيرهم - إلى تحويل جيش التحرير إلى جيش من المحترفين البعيدين عن التكوين الثوري والالتزام السياسي بعيدا في صورته عما كان عليه خلال الثورة يأخذ كثيرا من المراكز القيادية فيه ضباط نشأوا في الجيش الفرنسي وانطبعوا بالروح العسكرية الاستعمارية ويأخذ منه الجنود والضباط مرتبات عالية إذا قورنت بمستوى دخل الفلاح أو العامل الجزائري .

وفي إيجاز كان أنصار هذا الاتجاه يعتقدون أن الجيش لا يؤدي دورة الثوري وإنما يجمد في حدود كلاسنيكية تحوله مع الوقت إلى قوة بوليسية في يد النظام .

وفي مواجهة هذا الاتجاه كان يقف حوارى بومدين وقادة الجيش الذين يؤمنون بأن الجيش هو الثورة الوحيدة التي حافظت على بقائها الثوري بعد تطهيرها من جنود ١٩ مارس ومن الانتهازيين والمغامرين ، وبعده توحيد جيوش الداخل والخارج .

قال بومدين (لقد منحني الثورة مسئولية إعادة بناء الجيش وحققت ذلك بأكثر الناس قدرة على هذا العمل ، ومن الطبيعي أن أفضل العمل مع جزائريين مهما كان التحاقهم بالثورة متأخرا عن العمل مع خبراء أجانب) .

وانتهى هذا الحوار الجاف إلى تضاعف الاحتاساس بعدم الثقة بين الجانبين .

وزاد هذا الاحتاساس عندما تقرر إنشاء (مليشيا شعبية) بجانب الجيش ولا تتبع قيادته وإنما تتبع الحزب .

وكان هذا سوء تقدير من بن بيللا الذي أراد أن يدخل الجيش طرفا في لعبة التوازن السياسي ، وهو ما يتنافر تماما مع طبيعة الجيش المسلح .

وانتهى المؤتمر إلى اقرار تسييس الجيش وتحويله إلى منظمة سياسية ثورية ، وهو ما يتناسب نظريا وينبع من واقع الجيش الجزائري وأسس تكوينه وارتباط حركته بالنضال الثوري في حرب التحرير .

وشكلت في الجيش دائرة سياسية ، كما ضمت اللجنة المركزية وزير الدفاع ورئيس الأركان وعددا من القادة .

وخطت الثورة الجزائرية بذلك خطوة أكثر تقدمية من مصر . . إذ أنه رغم أن الميثاق المصري قد نص على ادخال الجيش والشرطة والقضاء داخل التنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكي العربي) الا أن ذلك لم ينفذ مطلقا . . وظل الجيش المصري في عزله سندا وحصنا لقيادة الثورة وبعيدا عن حيوية التفاعل السياسي وما قد يحمله من اهتزازات أو أخطار (انظر الجزء الثاني) - مجتمع جمال عبد الناصر - الباب الثاني .

وحاول بن بيللا أن يعيد الهدوء في الجزائر بتعيين الكولونيل محمد شعبان عضوا في المكتب السياسي وعضوا في رئاسة الأركان رغم عدم موافقة بومدين ، ولكن شعبان رفض مغادرة الأوراس وواصل المقاومة حتى اعتقل في يوليو وأعدم في سبتمبر ١٩٦٤ .

والى جانب هذا التبايض الرئيسي في علاقة بن بيللا مع الجيش ، كانت هناك تناقضات فرعية أخرى قد نشأت بينه وبين بعض اليساريين الذين تعرضوا لهجوم بعض المقربين شخصيا من بن بيللا مثل عبد الرحمن الشريف وزير الدولة وبوريسه الصافي وزير العمل . . الأمر الذي دفع حسين زهران عضو المكتب السياسي الى رفض مقابلة وفد الاتحاد الاشتراكي العراقي في القاهرة ، رغم اتصال على خشبة سفير مصر في الجزائر مع بن بيللا وأبلاغه الأزمة التي نشبت في القاهرة ، ومنعت المحادثات من أن تكون ثلاثية بين مصر والجزائر والعراق واستمرت المحادثات ثنائية فقط بين مصر والجزائر .

ومع ذلك كانت الجزائر تستعد في يونيو ١٩٦٥ لاستقبال المؤتمر الثاني لتضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية امتدادا لمؤتمر باندونج الذي عقد في ١٨ أبريل ١٩٥٥ .

كانت دول مؤتمر باندونج ٢٩ دولة منها ٦ فقط من أفريقيا ، أما دول مؤتمر الجزائر فكان مفروضا أن تصل الى ٦٠ دولة حصلت على استقلالها خلال السنوات العشر السابقة .

ولكن تغييرات هامة كانت قد حدثت في الجانب المقابل أيضا ، إذ دبت المنازعات بين دول كولمبو الخمس التي دعت الى باندونج وهي الهند وباكستان واندونيسيا وسيلان وبورما . . ودبت بينها المنازعات خاصة حول كشمير .

وظهرت دول عدم الانحياز كقوة مترابطة تعمل من أجل السلام وهي الدول التي لا ترتبط بأحلاف مع الغرب أو الشرق والتي تشكل ركيزة كبرى في مؤتمر التضامن .. التي تعرض بعضها لنكسات رجعية مثل سيلان ، وعانى البعض الآخر من خلافات حادة مثل الهند والصين ، وتعرض البعض الثالث لضغوط مؤامرات استعمارية مثل اندونيسيا التي انسحبت من الأمم المتحدة واقتربت من الصين واعترضت على حضور ماليزيا للمؤتمر مهددة بالانسحاب منه .

وفوق ذلك كان يخيم على جو المؤتمر المرتقب النزاع الصيني السوفيتي الذي كان يتسرب في ذلك الوقت الى كافة الاجتماعات ومختلف المنابر المفتوحة أو القاعات المغلقة .

واقترب موعد انعقاد المؤتمر .. ووصل شوان لاي الى القاهرة في محادثات تمهيدية مع جمال عبده الناصر الذي قام بإجراء عدد كبير من الاتصالات لانجاح المؤتمر الذي كان مقررا أن ينعقد يوم ٢٤ يونيو ١٩٦٥ .

وتدفق ١٢٠٠ صحفي من مختلف أنحاء العالم الى الجزائر ليشهدوا المؤتمر الذي يضم ممثلين عن أكثر من نصف سكان العالم ، والذي يشكل أكبر تجمع تاريخي كان مفروضا أن يسانه قضايا التحرر والتقدم الاجتماعي .

وفجأة حدث في الجزائر شيء مثير ، أدى الى تأجيل المؤتمر الكبير الى ٥ نوفمبر ١٩٦٥ .

سقوط بن بيللا :

كانت الساعة الثانية والنصف من صباح السبت ١٩ يونيو ١٩٦٥ عندما هجمت مجموعة مكونة من العقيد طاهر الزبيري والكونونيل سليمان هوفمان وأحمد داريا على رئيس الدولة أحمد بن بيللا في منزله المواجه لقصر الشعب في فيللا جولي حيث استقبلني مع ناصر الدين النشاشيبي في يوليو ١٩٦٣ وجلسنا نجرى معه الحديث .

تحرك الجيش الجزائري في هذه الليلة ليفرض ارادته بانقلاب عسكري .

المقاومة كانت محبودة تماما .. بضع طلقات من الرصاص .. واستسلام سريع لاحد أقسام شرطة العاصمة .. والاشيد عسكري في الاذاعة .. ثم البيان رقم ١ في حوالى الساعة والنصف صباحا .

هواري بومدين رئيسا لمجلس قيادة الثورة .. وتشكيل جديد لمجلس القيادة ومجلس الوزراء .

اعتقل مع بن بيللا مجموعة من أقرب أصدقائه .. وخلت الجزائر من أية معارضة واضحة للانقلاب .. والحزب (جبهة التحرير) لم يتحرك لاعتقال سكرتيه العام .. مظاهرات طلابية قليلة ثم انتهى الأمر .

وصلت التناقضات بين بن بيللا والعسكريين الى ذروتها .. واخفقت فكرة ادخال الجيش طرفا في لعبة التوازن .

وكان بن بيللا قد أعلن قبل اعتقاله بأيام قليلة في خطاب بوهران انه قد (جرت اتصالات فعلا وقررت العناصر التي تسمى نفسها جبهة القوات الاشتراكية أن تكف عن كل نشاط) .. وكان هذا في مضمونه يعني مزيدا من التعاون والارتباط العناصر اليسارية والاتجاه التقدمي داخل حزب جبهة التحرير .

كما أن بيللا كان قد أسفر عن موقفه في مواجهة مجموعة الضباط المقربين من نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع هواري بومدين .. وانتهاز فرصة وجود بومدين في موسكو لعقد صفقة أسلحة وعين طاهر الزبيري رئيسا للأركان .. ولكن بومدين استطاع بشخصيته ونفوذه أن يجعل كل المسئوليات للآخرين ضامرة .

وقال بومدين أن بن بيللا كان يحاول تشويه وجه الجيش عندما طلب من بومدين محاصرة حسين آية أحمد وقتله مثل الكلب .

ولكن بومدين الذي تمكنت قواته من تنفيذ ذلك رفض قتل حسين آية أحمد وحمله الى بن بيللا ثم فوجئ به يعفى عنه .. وكأنما القتل للجيش والعفو للرئيس وحده .

وكان بن بيللا يسعى الى قص أجنحة بومدين بعزل أنصاره ، فأقال صديقه ضابط الجيش السابق أحمد مدعزي من وزارة الداخلية في يوليو ١٩٦٤ ، كما أقال قائد أحمد من وزارة السياحة وهو زميل بومدين في الجيش منذ البداية ، ويقول هارويتز في كتابه (ابعاد العسكرية لسياسة الشرق الاوسط) ان بن بيللا حاول اخراج عبد العزيز بوتفليقة من وزارة الخارجية في ربيع ١٩٦٥ وهو ضابط سابق في الجيش أيضا ولكن بومدين وقادة الجيش اعترضوا ورضخ بن بيللا .

عندما هرعت الى الجزائر بعد الحركة العسكرية يوم ١٩ يونيو علمت من علي كافي سفير الجزائر السابق في القاهرة وقائد ولاية قسنطينة أثناء

حرب التحرير، أن عبد العزيز بوتفليقة كان قد دعا سفراء الجزائر في الخارج في شهر مايو استعدادا لمؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي وطلب من بن بيللا حضور حفل افتتاح المؤتمر ولكن بن بيللا اعتذر عن عدم الحضور لارتباطه برحلة الى عناية .

وتحدد يوم ٢٤ مايو موعدا لانتهاؤ المؤتمر وطلب بوتفليقة من بن بيللا حضور الاجتماع الأخير للسفراء الذي قرر عقده في نادي الضباط بضاحية مدارك على مسافة ١٤ كيلو من الجزائر ، ثم يتناولون العشاء . . وتجمع ٤٢ سفيراً ولكن بن بيللا يحضر وطلب منهم الحضور لتناول العشاء في قصر الشعب .

ويقول علي كافي أن بوتفليقة شعر أن ذلك اهانة شخصية توجه له باعتباره وزيراً للخارجية ، ويقول أيضا أنهم عندما ذهبوا الى قصر الشعب رفض بن بيللا مصافحته شخصيا قائلا له (اننى لم أدعك . . لقد دعوت السفراء فقط . . وانت لست سفيراً) .

وانسحب علي كافي من غرفة المائدة ، وخرج من قصر الشعب دون أن يودعه أحد من الحاضرين كما يقول .

وفي الليل كان يزوره هواري بومدين وعبد العزيز بوتفليقة وآخرون . . ويقول أنهم أبدوا أسفهم لما حدث دون أي إضافة . . وأعلن على كافي أنه مستقيل من منصبه سفيراً بلبنان .

وهكذا كانت حوادث الصدام بين بن بيللا ومجموعة العسكريين قد تجاوزت حدود الجدران المغلقة ، وأصبحت حديث المجلس .

ولم يعد هناك من سبيل أمام بومدين ورفاقه الا الاطاحة بأحمد بن بيللا المدني الذي حاول أن يدخل الجيش طرفاً في لعبة التوازن السياسية ، دون أن يركز اعتماده عليه كاملاً كما فعل جمال عبد الناصر .

حقيقة الانقلاب :

لا شك أن ظواهر الأمر كانت تدفع الى احاطة انقلاب ١٩ يونيو بضباب من الشبهات . . فلم تكن أبعاد الخلافات ودرجة عمقها معروفة تماماً لدى الكثيرين .

وتأجيل مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي الى أجل بعيد كان في ذاته يعطي مؤشراً سلبياً للانقلاب .

كما أن المجموعة التي بزغت فوق السطح لم تكن معروفة بالحماس الشديد للاشتراكية والتقدم الاجتماعي مثل قايد أحمد وشريف بلقاسم ، وأحمد مدعزي .

وجرست أثناء وجودي في الجزائر خلال الأيام الأولى بعد حركة ١٩ يونيو أن أتبين حقيقة الموقف ، وأتعرّف على الطريق الجديد . وقال لي بومدين ردا على ما أثير من اتهام العهد الجديد بأنه عسكري ورجعي (أنهم ينعنون بذلك أناسا ربما كانت جريمتهم الوحيدة أنهم رفعوا السلاح ... ورفعوه في وقت كان فيه الناس لا يؤمنون بمستقبل هذا الشعب وبمصير هذه الأمة ... وأن الجزائر ليست بلده الانقلابات ، هناك أناس يقولون أنها عسكرية ... ونحن نقول أنها حركة مناضلين ... ليس ثمة عسكريون ... ولا مناضل عسكري ومناضل فقط ... بل هناك مناضلون يؤمنون بعقيدة ثورية وبمصير ومستقبل بلادهم الاشتراكي) .

وكلمات بومدين تفسر فعلا التكوين الخاص لجيش الجزائر الذي لم يبدأ من طريق الاحتراف خلال قانون خاص للتجنيد ولم يتخرج معظم قادته في مدارس عسكرية ... ولكن لمعظمهم مهن أخرى ، حتى بومدين تخرج في الأزهر الشريف .

ولكن هنا الجيش بدأ مع النضال الثوري وخلال معركة التحرير ورتب القادة منحت لهم خلال القتال ... الأمن الذي فرض على صفوفه نوعا من الحركة السياسية التي تنسج بين وجوده وأهدافه ...

ورغم أن حركة ١٩ يونيو قد تمت من الوجهة الظاهرية بأسلوب الانقلابات العسكرية إلا أنها لا تمثل انتقاضا على النظام لهدمه ، ولا تمثل امتدادا للتقديم بكل مظاهره .

... وإذا كان اتجاه بن بيللا إلى الاشتراكية كان طموحا ومنتفعا فإن بومدين لا يتخلل لحظة عن محاولة التطبيق الاشتراكي ولكنه يعترض على بعض هؤلاء اليساريين الذين هرعوا إلى الجزائر وأحاطوا بن بيللا ويقول عنهم « دخل في بلادنا أناس أرادوا أن يضربوا أنفسهم في مكانة المرشدين ... فشلوا في بلاد أخرى ، وأرادوا أن يقوموا بتجارب جديدة في بلادنا ... وابتداء الجزائر ليسوا في حاجة إلى مرشدين أجانب ليعطوا دروسا عن كيفية بناء الاشتراكية أو بناء المجتمع الجديد » . وغادر الجزائر لطف الله سليمان إلى باريس ليستقر هناك ، وعاد على الشلقاني إلى القاهرة .

ثورة يوليو ج ١ - ١٠٢٥

ويؤكد بومدين عمق جذور الفكر الاشتراكي في الجزائر فيقول
« القصد من إثارة الحديث عن معاداة الاشتراكية هو فصل الثورة عن
ماضيها لأن ثورتنا لم تخلق بعد الاستقلال .. هذا الخط الاشتراكي ،
وهذه الثورة جاءت نتيجة لتضحيات جبارة » .

ويتأكد اتجاه بومدين منذ اليوم الأول عندما يقول لرجال الدرك
(الشرطة) « يجب أن تكونوا في خدمة الشعب وحده .. ودائما في
خدمة الثورة الاشتراكية والثورة الاشتراكية وحدها » .

وتبقى الحقيقة التي فجرتها حركة ١٩ يوليو ١٩٦٥ وهي أن حزب
جبهة التحرير الجزائري كان حزبا من ورق ، لا تصدق عليه كلمات
اللافتة الكبيرة التي ارتفعت على النفق الكبير في شارع محمد الخامس
وتقول : (حزب جبهة التحرير هو قائد الشعب) .

التنافس بين الحزب والجيش أصبح موضوعا رئيسيا .

وميثاق الجزائر يقول : (الجيش الوطني الشعبي هو أحد أدوات
الدفاع عن الثورة ، ومكاسبها لا يمكن الدفاع عنها إذا لم توجد قوة قادرة
على ذلك .. ان الجيش الوطني هو أداة في خدمة الشعب وورثه اشارة
الحكومة وهو قبل كل شيء مدرسة المواطن والمناضل .. والحزب مسئول
عن التوعية السياسية للجيش) .

القيادة اذا للحزب .. ورئيس الحزب هو رئيس الدولة ، والتوعية
السياسية للجيش مسئول عنها الحزب .. والمكتب السياسي للحزب
يراقب العمل السياسي داخل الجيش .

الملائمة واضحة :

ولكن الجيش في اقضاء بن بيللا انفراد بالخذ الاجراء .. ووضع
الجميع امام الامر الواقع .

ومع ذلك لم تكن هناك معارضة واضحة للاجراء كما ذكرت ..
الغلبية المكتب السياسي كانت تؤيد بومدين ، وأقلية طالبت بعرض
الموضوع من جديد على قيادات الحزب .. وكان ذلك طبيعيا فتشكيل
المكتب السياسي كان من ٨ وزراء وتسعة من الجيش .

ولكنه لم يكن ممكنا للجيش أن يغود بحركته العسكرية خطوة
الى الوراء .

وبومدين أعلن في بيانه الذي أذيع يوم عيد الاستقلال أول مايو
أن مجلس الثورة أصبح السلطة العليا في البلاد .

بعد السقوط :

كانت حركة ١٩ يونيو مفاجأة غير سعيدة لجمال عبد الناصر ، فقد أصبح صديقه الوفى أحمد بن بيللا معتقلا مرة أخرى بعد أن كان زعيما مرموقا .

لم يكن جمال عبد الناصر متوقعا هذا الاجراء الخشن رغم علمه باخطاء صديقه من تقارير السفير على خشبة .. ولذا بادر بإيفاد المشير عبد الحكيم عامر الى الجزائر فى اليوم الاول ومعه محمد حسنين هيكل لمقابلة هواري بومدين .

وأسرع هواري بومدين من جهته بإيفاد عبد العزيز بوتفليقة الى القاهرة لتوضيح الموقف .

وكانت قد صاحبت الحركة العسكرية بعض الاجراءات التى دفعت الى توتر الموقف بين القاهرة والجزائر .. فبعد تعرضت سيارة وزير الخارجية محمود رياض والسفير المصرى الى التفتيش أثناء مرورها فى شوارع العاصمة .

وطيرت وكالات الانباء الغربية الخبر مستهدفة اثاره الخلاف والتناقض عندما روت أنهما تعرضا للاعتقال والاستجواب .. ثم تبين أن الأمر لم يكن يتعدى اجراء روتينيا قام به جندي صغير .. وأن الوزير المصرى لم يقدم احتجاجا رسميا لأنه لم يعتقل كما نشرت وكالات الانباء ولم يستجوب .. وان مثل هذا الاجراء قد اتخذ مع عدد من وزراء الخارجية وسفراء الدول المختلفة الذين اجتمعوا فى الجزائر للتحضير لمؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الافريقية .

وانفجرت قنبلة فى نادي الصنوبر ، حيث كان مقررا أن ينعقد مؤتمر التضامن .

وكان رد الفعل السريع ، هو اعتقال عدد من المهندسين المصريين الذين يعملون فى مقر المؤتمر .. وبعد التحقيق ثبت أن الكافتيريا التى تم فيها الانفجار قد انتهى العمل فيها ، وسلمت للسلطات الجزائرية ، ولم يعد يدخلها المصريون .

وأصدر هواري بومدين قرارا بالإفراج عن المهندسين المصريين بعد ساعات من صدور أمر الاعتقال .

وسرت اشاعة بأن الحسك الجديد متحفظ من جهة المصريين .. وأعلن جمال عبد الناصر استعداده الفوري لاستدعاء كل المصريين اذا

طلبت السلطات الجزائرية ذلك .. ولكن هواري بومدين أعلن تمسكه ببقاء المصريين في مواقع عملهم .

وساعد على اشتغال الحساسية ما كتبه محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام عقب عودته مع المشير عامر .

ويشابه هذا الموقف ما سبق أن حدث في السودان وسبق شرحه بعد ثورة ٢٨ أكتوبر كرد فعل على مقال محمد حسنين هيكل .

ولكن الأمور لم تتطور إلى الأسوأ حرصاً من جمال عبد الناصر وهواري بومدين على العلاقة الطيبة بين البلدين .

وهواري بومدين أحد رواد توثيق العلاقة مع المشرق العربي منذ كان في بيت المغرب في مصر ، وسافر إلى الجزائر مناضلاً في صفوف الجيش ، ومستقبلاً لأسلحة مصر .

وقد لعب عبد المجيد فريد سكرتير رئاسة الجمهورية في مصر دوراً ملموساً في عدم تدهور الموقف .. إذ تصادف وجوده في الجزائر موفداً لترتيب واعداد قصر الأمم لاستقبال وفود مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي وذلك لخبرة مصر السابقة في عقد المؤتمرات وفوجئ بحركة ١٩ يونيو .

أسرع عبد المجيد فريد في الصباح الباكر فور علمه إلى بعض الذين تربطهم به علاقات صداقة من الوزراء وقادة حزب جبهة التحرير ، ولكنه لم يجيد عند أحد منهم أية مبادرة للمقاومة ، وثبت لديه أن الحزب كان تنظيماً شكلياً من ورق ..

وبادر بارسنال بترقية إلى جمال عبد الناصر يبلغه فيها بحقيقة الموقف ويثبت له بأن الانقلاب قد أصبح واقعة لا سبيل لتغييرها .

وجاء الرد من عبد الناصر يطالبه بأن يبلغ ذلك للمشير عبد الحكيم عامر قبل مقابلاته لهواري بومدين .

وصعد عبد المجيد قرية إلى الطائفة حيث أبلغ المشير بما عنده من معلومات وأوضح له صورة الموقف .. الأمر الذي جعل اللقاء بين عامر وبومدين ودياً وهادئاً .

وقد حاولت كل من الحكومة التونسية والحكومة السودانية في ذلك الوقت رغم اختلاف ميولهما الايقاع بين القاهرة والجزائر ، وحاولوا تصوير الموقف كما لو أن سقوط بن بيللا هو سقوط لسياسة القاهرة ، متجاهلين الظروف الموضوعية لثورة الجزائر ، وطبيعة القادة الجدد .

وإذا كان قد أمكن تفادي تفجر الخلاف بين البلدين ، فإن حملة حارقة ضد الشيوعية قد أخذت اندفاعها نتيجة معارضة اتجاهات بن بيللا وتعاونه مع بعض العناصر الشيوعية .

واعتقل في سبتمبر ١٩٦٥ بشير الحاج على سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري وعدد من رفاقه أثناء زيارة (قايد أحمد) للولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت حكومتها تقرب من الجزائر بعد موقفها المعارض لأحمد بن بيللا نتيجة زيارته لكوبا عام ١٩٦٤ ، وتأييده القوى لجمهورية فيتنام الديمقراطية وجبهة جنوب فيتنام ، الأمر الذي ظهر في تأييد أمريكا للمغرب أثناء حوادث الحدود ، واحكامها عن تقديم مساعدات اقتصادية .

وتعرضت حركات التحرر الإفريقية التي تجمعت في الجزائر خلال عهد بن بيللا ومنجبت كل التأييد والتشجيع المادي والأدبي ، إلى بعض المضايقات .

وانعكس ذلك في موقف بعض الدول الإفريقية المتحررة (غانا وغينيا وتنزانيا ومالي) التي دافعت عن بن بيللا ، وهاجمت النظام الجديد .

واستنكر نكروما وسيكوتوري أثناء مقابلتهما لعبد العزيز بوتفليقة عندما زار البلدين في يوليو ١٩٦٥ أسلوب الإطاحة بأحمد بن بيللا وزاد توتر العلاقات مع غانا نتيجة الخلاف على موعد عقد مؤتمر أكرا للدول الإفريقية واحساس الجزائر بتعارض الموعد الجديد مع موعد عقد مؤتمر تضامن الدول الإفريقية والآسيوية بالجزائر .

وعندما أسقط الانقلاب العسكري في غانا نظام نكروما أثناء زيارته للضنن ، ولجأه بعد ذلك إلى غينيا صرح بومدين قائلا (في هذه الظروف الدقيقة التي تعيشها إفريقيا ، وفي هذا الجو السياسي المضطرب ، وفي هذه المرحلة التي نشاهد فيها الاستعمار قائما بهجوم كبير ، يسرفي أن أعرب لكم عن فرحنا وسرورنا من أن قلب الثورة الإفريقية - وليس هذا من باب الانفتخار لثورتنا وإنما هي حقيقة تاريخية - يواصل نبضاته أكثر من ذي قبل ونستطيع كذلك أن نفتخر بأن نقول بأننا لم نخطئ في تحليلنا التاريخي لحركة التاسع عشر من يونيو الذي وضعنا فيه حدا لربط مضير الثورة الجزائرية بشخص ، وقد جاءت الأحداث الدولية مؤكدة صحة ما قلناه ، ومؤكدة كذلك التحليل الذي قدمناه في ١٩ يونيو الذي اعتبره من وجهة نظرنا ووجهة نظر مجلس الثورة رجوعا إلى أصل الثورة الشعبية التي لا تربط مصيرها بمصير شخص ، فالثورة الشعبية

لابد أن تثق بطاقتها النضالية ، وبوعي أطاراتها وإيمان جماهيرها الكادحة ، وهذا على عكس الثورات السطحية التي بنيت على أشخاص ، والتي لم تتجاوز في أبعادها حدود السفارات وخطب المهرجانات ، والتهريج والتدجيل ، ولنا مثال مؤلم على ذلك هو غانا ، فقد كانت غانا بالأمس القريب فقط تعد من الدول الثورية ، ومن الدول التقدمية والتحررية ، وإذا بكل ما قيل منذ سنوات طويلة عن غانا يتبخر بين عشية وضحاها ، وأصبحت الصحافة الدولية وإذاعات العالم تردّد نهاية الثورة ، ونهاية النظام الاشتراكي في غانا ... لهذا انتهت الثورة بنهاية نكروما) .

هكذا كان بومدين يدافع عن حركته ضد بن بيللا ، مفسرا أنها حركة نابعة من ضمير شعب الجزائر ، منجبرة عن قورته ، مستهدفة تحقيق الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي ... دون ارتباط كل خيوط المصير بيد فرد واحد مهما كانت شخصيته .

كان هجوم بومدين على نكروما صورة من صور زدود الفصل التي نتجت عن موقف بعض الدول الأفريقية ضد حركته في تسرع ودون دراسة عميقة واعية لظروف الجزائر في ذلك الوقت .

كان جمال عبد الناصر أكثر ادراكا ووعيا بحركة التاريخ وتفهمها لطبيعة حوار بومدين وطبيعة الثورة الجزائرية عن غيره من زعماء أفريقيا . واستطاع أن يكبت عواطفه تجاه صديقه أحمد بن بيللا الذي ضمن وعدا من بومدين بالمحافظة على حياته ، وأن يرتفع بموقفه السياسي الى مستوى الواقع والحقيقة فوق العواطف .

وأثبتت الأحداث والمواقف بعد ذلك أن حركة ١٩ يونيو كانت استمرارا لثورة الجزائر وأنها تفجرت ضد أفراد بن بيللا بالسلطة وأسلوبه الشخصي في السيطرة عليها .

وجه جديد :

تشكل مجلس لقيادة الثورة من ٢٦ عضوا برئاسة حوار بومدين ضم عددا من القادة العسكريين للجيش والولايات سابقا يمثلون جميع المناطق الجغرافية في الجزائر .

وتشكل مجلس الوزراء من ٢٠ عضوا برئاسة حوار بومدين أيضا ، وعاد أحمد مدغزي الذي عزل بن بيللا وزيرا للداخلية .

كان الجميع تجمعهم رغبة الاطاحة بأحمد بن بيللا . . . أما بينهم فكانت توجد تناقضات أخرى نابعة من طبيعة الثورة ، وتبلورت الخلافات في ظهور مجموعتين ، الأولى عرفت باسم مجموعة (أوجدا) البلدة المغربية التي احتشد فيها جيش التحرير الجزائري وتضم عبد العزيز بوتفليقة . شريف بلقاسم ، قايد أحمد ، أحمد مدعزي ، وعبد السلام بولعيد وغيرهم ، وهم من الذين كانوا يهدقون الى دعم سلطة الضباط عموما ، ومحاولة دفع الضباط الذين خدموا في الجيش الفرنسي بحجة الخبرة ، مع الوقوف في وجه محاولات بناء وتنشيط الحزب ، وسحب الجزائر الى المغرب العربي فقط ، واتخاذ مواقف محافظة بالنسبة لحركات التحرر الافريقية والدول الاشتراكية ، مع السعي لتحسين العلاقات مع المغرب .

أما المجموعة الثانية فكانت تعرف باسم مجموعة الشرق أو الاوراس وتضم العقيد طاهر الزبيري وسعيد عبيد وصوت العرب وعبد العزيز تدرداني وغيرهم من الضباط الذين نشأوا ن طبقة الفلاحين وناضلوا في الداخل ، وكانت نظرتهم أكثر تقدمية من المجموعة السابقة .

وكان بومدين أقرب فكريا واتجاها الى المجموعة الثانية رغم أنه كان قائدا على المجموعة الأولى . . . ولكن هذا التصنيف لم يدفع بومدين الى تصفية أحد الاتجاهين حرصا منه على عدم تكرار أخطاء بن بيللا ، ورغبته في دفع الأمور الى غايتها بوسائل طبيعية .

ووقف بومدين صلبا في وجه محاولات الهجوم على الاشتراكية .

قال بومدين (كثرت في الأشهر الأخيرة الدعايات التي كانت تهدف الى خلق البلبلة في النفوس ، لقد ادعى مروجو تلك الحملات بأن السلطة ستتوقف عن السير في الطريق الاشتراكي ، وأن الاملاك ستعود الى أصحابها - وأنا أقول بايجاز ، في هذا البلد سوف تتحقق العدالة المطلقة ، وسنتصر في هذه المرحلة الثورية الجديدة من مراحل بناء الاشتراكية) .

وواصل بومدين تفسيره قائلا (نبشت الفكرة الاشتراكية أثناء الكفاح ومن أجلها قدمت الجزائر مليوناً ونصف مليون شهيد . . . ان الجزائر لم تقدم هذا الثمن الباهظ من أجل الهتاف باسم شخص ، ولا من أجل أن يرتفع العلم فقط ، لقد تجاوزت فكرة الكفاح من أجل الاستقلال عند العامل والفلاح الى فكرة الكفاح من أجل الاشتراكية) .

وحسم بومدين قضية استمرار التسيير الذاتي قائلا (ان نظام التسيير الذاتي ملك للشعب والشهداء بوصفه الطريق الذي اخترناه

لتحقيق الهدف الاجتماعي من الكفاح المسلح والذي يتمثل في الاستيلاء على ثروات البلاد .

وأعلن في أغسطس ١٩٦٦ مشروعا للإصلاح الزراعي يصل بالثورة الى أعماق البلاد بعيدا عن الشريط الساحلي .

وأصدر مجلس الثورة قرارا بتأميم الثروة المنجمية للجزائر وتلاها بتأميم شركات التأمين كلها ، كما بدأ في إعداد خطط للتنمية ، وإعلان الحرب على السرقات والاختلاسات وسيادة قيم وتطلعات البرجوازية في قيادات الدولة والحزب ، وقرن في ٢١ يونيو ١٩٦٦ تكوين محاكم خاصة للجرائم الاقتصادية .

واسترجعت الجزائر موقعها التقدمي في الوطن العربي فتصدت للحلف الاسلامي وشاركت بدور بارز في الخطوات الرامية لتحقيق وحدة القوى الوطنية والتقدمية في الوطن العربي .

وذهبا هواري بومدين الى ندوة الاشتراكيين العرب في مايو ١٩٦٧ والتي حضرها لأول مرة ممثلون لمختلف الاحزاب والتنظيمات السياسية التي تعتنق الاشتراكية .

واجتمع في نادي الصنوبر بالجزائر ممثلون للاتحاد الاشتراكي العربي بمصر وحزب البعث في سوريا والاحزاب القومية بالعراق والاحزاب التقدمية في لبنان والاحزاب الشيوعية في السودان ولبنان والأردن الى جانب ممثلي القوى والاحزاب الاشتراكية في مختلف الدول العربية ، وعدد من الشخصيات .

مثل مصر في هذه الندوة كمال الدين رفعت والدكتور لبيب شقير ولطفي الخولي والدكتور عبد العزيز الأهواني وكامل زهيري وكاتب هذه السطور .

ومثل الحزب الشيوعي السوداني الشهيد المناضل عبد الخالق مجحوب ومحمد ابراهيم نقد ودكتور عز الدين علي عامر وفاروق أبو عيسى وطاهر عبد الباسط ومثل القومي الاشتراكي أمين الشبلي ومحمد سليمان . وحضر فؤاد نصار سكرتير الحزب الشيوعي الأردني وممثل الحزب الشيوعي اللبناني فيقولا شاوي .

ونجحت الندوة التي افتتحها هواري بومدين ورأسها عبد العزيز بوتفليقة الذي لعب دورا نشطا في تقريب وجهات النظر التي استقرت على أن تكون هذه الندوة بداية ونقطة انطلاق لندوات ومؤتمرات أخرى .

وفى مجال العلاقات الافريقية ، فتحت الجزائر أبوابها لحركات التحرر الافريقية وساعدتها مساعدات هائلة ، وأعادت علاقاتها مع حكومة غينيا وحزبها الحاكم ، وسافر وفد جزائرى الى غينيا حيث قابل سيكوتورى ، وزار نكروما وكان فى ذلك طى لصفحة الخلاف التى بدأت بعد ١٩ يونيو ، وأشير الى ذلك بوضوح فى البيان الصادر عقب انتهاء الزيارة .

وعادت العلاقات الطبيعية بين الجزائر والبلاد الاشتراكية ، وزار هوارى بومدين الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا ، وتجددت العلاقات بين جبهة التحرير ، وأحزاب الدول الاشتراكية . واستقرت العلاقات بين مصر والجزائر خلال هذه الفترة على أسس راسخة من التعاون الوثيق ، تماما كما كانت الحال فى الماضى منذ أطلقت الرصاصة الأولى ضد المستعمرين الفرنسيين فى فاتح نوفمبر ١٩٥٤ .

وأخيرا ٠٠٠ كان العدوان على مصر فى ٥ يونيو ١٩٦٧ بمسء أيام قليلة من انعقاد ندوة الاشتراكيين العرب فى الجزائر . وأدت الجزائر دورا مجيدا فى التعاون العربى يظهر على صفحات الجزء الرابع (خريف عبد الناصر) .

الباب السابع

● الأردن ...

(الموقف مليء بالاحتمالات ،
ولكن هناك احتمالا بالذات
لا نستطيع ان نسكت عليه اذا
حدث ، هذا الاحتمال هو ان يتعرض
الأردن للعدوان من اسرائيل ...
في هذه الحالة لن نتردد في التدخل
بكل امكانياتنا) •

جمال عبد الناصر
في حديث للصحفي الهندي كارنجيا
٢٩ سبتمبر ١٩٥٨

علاقة الأردن بمصر علاقة فريدة ، وصلت أحيانا الى درجة ملحوظة من الصداقة والتعاون ... وتنافرت أحيانا أخرى الى درجة العداء واستباحة السماء .

وقد تداخلت في هذه العلاقة عدة عوامل ، منها الصلة العنصرية التي كانت تربط الأردن ببريطانيا منذ عهد الأمير - الملك عبد الله - ، وصلة القرابة بين الملك حسين ، وملك العراق فيصل ، والمنافسة التقليدية بين الأسرة المالكة السعودية في الحجاز وبين الأسرة المالكة الهاشمية في العراق والأردن ، وطبيعة الدولة التي جمعت بين الفلسطينيين المهاجرين والبدو ، ومحاولات الاستعمار المتكررة لفرض الأحلاف العسكرية في المنطقة .

حرص جمال عبد الناصر أثناء دخوله المعركة ضد محاولات تكوين حلف بغداد على عقد صلات مع الملوك والقادة العرب الذين قد يضيفهم الاستعمار الى حلفه المرتقب .

يقول فتحي رضوان سكرتير الحزب الوطني الجديد قبل الثورة :
وأول وزير للثقافة بعد الثورة ابن جمال عبد الناصر قد أوفده الى الأردن مندوبا عنه لمقابلة الملك حسين ، وتصادف أثناء وجوده هناك أن قام الإسرائيليون بغارتهم الشهيرة على غزة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ .

وكانت هذه الغارة قد أعقبت زيارة أنطوني إيدن لمصر بيومين وهو في طريقه من لندن كوزير للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء تشرشل الى بانكوك عاصمة تايلاند لحضور مؤتمر منظمة حلف جنوب شرق آسيا (سياتو) .

وانعكست هذه الغارة على تفكير عبد الناصر وقرر محاربة إسرائيل بحرب عصابات من داخلها ، على أن تكون الجيوش العربية بعيدة عن هذه العمليات مع ضرورة استعدادها لأي اشتباك .

وتسلل الفدائيون داخل إسرائيل من الأردن وغزة ... وردت إسرائيل على ذلك بإرسال طرود متفجرة الى الملحق العسكري المصري في عمان البكباشي صلاح مصطفى ، والصاغ مصطفى حافظ ضابط مخبرات غزة ... ولقي الشهيدان مصرعهما في يوم واحد .

وضاعف ذلك من حركة الفدائيين ، وظلت الصحف المصرية تكرر المانشيت الذى يشير الى (استمرار القتال على طول قطاع غزة) معظم أيام شهر سبتمبر ١٩٥٥ .

ويقول هارويتز فى كتاب (الأبعاد العسكرية والسياسية فى الشرق الأوسط) أن جمال عبد الناصر قد عقد اجتماعا فى أكتوبر مع الملك سعود وشكرى القوتلى وأقنعهما بمساعدة الأردن ماليا ، واعطائه تذكرة لدخول القيادة السورية المصرية المشتركة .

وكانت السعودية فى ذلك الوقت مرتبطة بمصر وسوريا ، وكان الملك سعود يأخذ موقفا جافا من الأردن التى كان يسيطر عليها الضباط البريطانيون لخلافه مع بريطانيا حول واحة البوريمى .

كان جمال عبد الناصر حريصا على انقاذ الأردن من براثن الاحتلال والسيطرة البريطانية ، وكان يقدر صعوبة موقفها المادى وأهمية ارتباطها العربى .

كلف جمال عبد الناصر اثنين من أقرب الضباط الاحرار اليه حيث كانا يعملان فى مكتبه ، وهما كمال رفعت وأحمد لطفى واكد بالتوجه الى الأردن فى محاولة للاتصال ببقايا المحاربين والمجاهدين خلال حرب ١٩٤٨ ، وتجميعهم من أجل وحدة النضال العربى .

لم يذهب الاثنان بشخصياتهما كضباط فى الجيش المصرى ، وانما ذهبا متخفين بأسماء جركية . . كمال رفعت يحمل اسم (عثمان) ، وأحمد لطفى يحمل اسم (أحمد حسن يوح) .

ويقول الاثنان أنهما عندما وصلتا الى الأردن فى بداية ١٩٥٦ كانت المظاهرات قد تفجرت ضد زيارة تمبلر وكيل الخارجية البريطانية دون أن يكون لهما دور فى ذلك ، وإنما كان الدور الرئيسى للشعب الأردن .

وبدأت الصلة تنعقد بينهما وبين بعض السياسيين من مختلف الاتجاهات .

ويقول كمال رفعت أن هناك تساؤلات كان يصحبه فى معظم المقابلات يقال علنا أو همسا : لماذا يتحرك المصريون الآن ؟

وكانت محاكمات الاخوان المسلمين فى مصر تترك انعكاسات فى بعض القوى السياسية بالوطن العربى .

ولكن مواقف جمال عبد الناصر الوطنية التى بدأت مع باندونج وعلان صفقة الأبلجة ومعاداة الاجلاف العسكرية قد مهدت الطريق لعلاقات وثيقة مع القوى الوطنية وخاصة البعث والشيوعيين حيث

تم أول لقاء مع ميشسيل عفلق وأكرم الحوراني من قيادة البعث وفؤاد نصار سكرتير الحزب الشيوعي الأردني ، والدكتور مصطفى أمين من سوريا ، وعزيز شريف من العراق .

ونمت الحركة الثورية داخل الأردن نمواً سريعاً بعد المظاهرات التي قامت ضد وكيل الخارجية البريطانية تمبلر .

وحدثت مفاجأة إخراج الملك حسين للجنترال جلوب من قيادة الجيش الأردني في مارس ١٩٥٦ أثناء زيارة وزير الدولة البريطاني سلوين لويده للقاهرة .

كان الخبر مفاجأة لعبد الناصر . . . ولكن سلوين لويده اعتقد أن عبد الناصر كان يعرفه ويخفيه عنه أثناء اجتماعهما على مأدعة العشاء ، كما يروي محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .
كان الضباط الأردنيون يشكلون قوة ضاغطة على الملك من أجل إخراج جلوب .

وتكونت القيادة العسكرية المشتركة بين مصر وسوريا والسعودية والأردن تحت رئاسة اللواء عبد الحكيم عامر في ٢٣ أبريل ١٩٥٦ - لم يكن عامر قد حصل بعد على رتبة المشير .

وصدر قرار بتعيين علي أبو نوار قائداً للجيش الأردني في ٢٤ مايو ١٩٥٦ ، وكان أول تصريح له بعد تعيينه هو (سنرد على اعتداءات إسرائيل بالسلاح) .

ويقول فؤاد هلال الملحق العسكري المصري الذي خلف الشهيد صلاح مصطفى أن اللواء عامر قام بزيارة الأردن في أكتوبر ١٩٥٦ كتنفيذ للقيادة المشتركة ، وأنهم وقفوا على تبة شاهدوا منها البحر الأبيض المتوسط .

وغادر اللواء عامر عمان إلى دمشق حيث تعرضت إحدى الطائرات التي رافقته إلى هجوم إسرائيلي أسقطها في البحر إلى الأبد .

يقول الملحق العسكري المصري أن طائرة المشير كانت هي المقصودة بالاعتداء ، نتيجة وجود خط تليفوني مباشر بين القاهرة ودمشق كان الضباط من مرافقي اللواء عامر يتحدثون فيه مع أسرهم عن موعد عودتهم .

ويقول أيضاً أنه كان مفروضاً أن تظهر طائرة اللواء عامر أولاً لولا أن بعض الزوار قد عطلوه في المطار فطلبت من الطائرة الأخبري القيام على أن يلحق بها ، فكان في ذلك كارثتها ونجا عبد الحكيم عامر .

وقد أدى هذا الحادث الى اتخاذ جانب السرية المطلقة بعد ذلك في تحرك القيادات بين القاهرة ودمشق ، حتى أنه بعد رحلة عبد الناصر الى موسكو عام ١٩٥٨ وعودته الى دمشق أعلن عن بقاءه عدة أيام في سوريا ، وعاد هيكل وحده في الطائرة العادية الى القاهرة .

وأخيرا قامت الطائرة السوفيتية التي كانت تقل عبد الناصر في موعد مفاجئ الى القاهرة حيث هبطت في مطار أبو صوير لتعذر استقبال مطار القاهرة لها ، وعاد عبد الناصر الى منزله بدون استقبال رسمي ، وبدون أن يعرف حرس باب منزله أنه هو الشخص الذي يدخل المنزل في سيارة عادية لأحد الضباط ركبها من مطار أبو صوير .

وكانت زيارة اللواء عامر للقيادة المشتركة في الأردن قد أعقبت هجوما إسرائيليا شديدا على قلقيلية يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٦ ويقوّر (هاروتز) في كتابه السابق ، إن الملك حسين طلب جنودا من مصر ولكن جمال عبد الناصر اعتذر عن عدم امكانية تحقيق ذلك لتوقعه هجوما بريطانيا فرنسيا بعد تأميم القناة .

وقع هذا الهجوم خلال فترة الانتخابات التي ذهب فيها كمال رفعت وأحمد لطفى وأكد لمساعدة العناصر الوطنية .

ويقول لطفى وأكد أن جمال عبد الناصر قد استدعاه الى قصر الطاهرة يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٦ حيث كان يقيم مؤقتا ، وبدأ الحديث معه بالشكوى من سكن القصور الكبيرة التي يشعر فيها بأن حركته غير طبيعية . . . ثم تحدث معه في موضوع الانتخابات الأردنية قائلا وأنه فوجئ بسماع أخبار تقول أن هناك معركة بين المخابرات المصرية التي تعمل على توحيد القوى المعادية للغرب ، وبين المخابرات البريطانية التي تحاول توحيد القوى المؤيدة للغرب .

وعلق جمال عبد الناصر على ذلك قائلا (أيا لا عبيد مخابرات ولا عملت هناك . . . ولكن المعركة أصبحت متسوبة لنا) .

ثم طلب من كمال رفعت ولطفى وأكد السفر للأردن حيث امضيا أسبوعا قبل الانتخابات .

ويقول جمال رفعت ولطفى وأكد أن اسم جمال عبد الناصر كان له تأثير كبير على الناخبين . . . ويذكر أن المرشح أنور الخطيب ألقى خطابا في المسجد الأقصى قسطنج أصوتا يسأله (هل عبد الناصر معك ؟) وكان جوابه المرشح (ما أفرقت) وكانت النتيجة هي سقوطه ، ونجاح مرشح مسيحي يستأري .

وكان الاتصال بالشيوعيين في ذلك الوقت يثير حساسيات شديدة
... ويذكر أن أكرم الحوراني قد أرسل يشكو لعبد الناصر من اتصالهما
ببعض العناصر الشيوعية السورية ، كما أن عبد الله الريماوي قد حضر
اليهما معلنا رفضه للتعاون مع الشيوعيين ... وكان الاثنان قد عقدا
اجتماعا سريا مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأردني استغرق
٧ ساعات .

ويذكر لطفى واكد أنه في أثناء تواجدهما في إحدى المرات بعمان ،
طلب مقابلة عبد الحكيم عامر وكان يقوم بزيارة للأردن ، ولكنه طلب منه
الابتعاد لأنه يقوم بعمل سري لا يجوز أن يرتبط به .

أجريت الانتخابات وفاز التجمع الوطني في كل الدوائر عدا البادية ،
وتشكلت وزارة سليمان النابلسي في ١٧ أكتوبر ١٩٥٦ .

يقول الملحق العسكري المصري فؤاد هلال أن علاقة القاهرة
بالوزارة الجديدة في ذلك الوقت كانت وثيقة تماما ، وإن كثيرا من الوزراء
كانوا يترددون على منزل السفير المصري والملحق العسكري يتابعون أخبار
العدوان لحظة بلحظة .

وقطعت الحكومة الأردنية علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا ولكنها
لم تقطعها مع بريطانيا نظروفا الخاصة التي لم يستطع سليمان النابلسي
أن يتحرر منها .

ويبدو أن السفير المصري خلال هذه الفترة كان متشبثا ومعتقدا
أو مصر قد أصبحت بعد العدوان الثلاثي في موقف لا يسمح لها بالقتال ،
وقال لبعض الوزراء الأردنيين أن عبد الناصر وفاء منه لمصر سيستسلم
حتى لا تتعرض مصر لكارثة ... وأعلن رأيه في ضرورة تسليم الثورة
لجلى ماهر .

وهرع الوزراء الأردنيون إلى الملحق العسكري مذعورين ... وكانت
النتيجة هي استدعاء السفير المصري وإحالة إلى المعاش .

وفي يناير ١٩٥٧ قبل سليمان النابلسي مساعدة مصرية سورية
سعودية بدلا من المعونة البريطانية .

ولم يلبث أن أعلن سليمان النابلسي في مارس ١٩٥٧ نهاية المعاهدة
البريطانية وطلب من الجايسات البريطانية مغادرة الأردن خلال ستة
شهور ، كما تخوف من المساعدة الأمريكية التي تستهدف عزل القاهرة
عن العرب ... وألح على الملك حسين في إنشاء علاقات دبلوماسية

ثورة يوليو ج ١ - ١٩٥٦

للأردن مع الاتحاد السوفيتي مع اعلان استعداده لقبول المساعدة
السوفيتية .

الجيش الأردني والانقلابات العسكرية :

سرعان ما انحسر هذا المد السياسي التقدمي في الأردن ، وعادت
الأمور الى وضعها القديم ، عندما أعلن الملك حسين في ابريل ١٩٥٧ عن
محاولة انقلاب كان يديرها اللواء علي أبو نوار .

واستقال سليمان النابلسي وشكلت وزارة جديدة برئاسة برئاسة سمير
الرفاعي .

وأعلن ايزنهاور ووزير خارجيته في نفس الوقت موافقتهم على رأي
الملك حسين من أن الشيوعية العالمية تهدد استقلال ووجود الأردن .

وتحرك الأسطول الأمريكي السادس نحو شرق البحر الأبيض
المتوسط وأعلنت أمريكا أن استقلال الأردن وكيانه أمر حيوي لأمريكا .

لم تكن هناك مقدمات لهذا التغيير المفاجيء الذي عرف بأزمة ابريل
١٩٥٧ .

ولم يكن ضباط الجيش الأردني قد أعدوا أنفسهم في تنظيم يتيح
لهم عمل انقلاب عسكري وقصة عزل علي أبو نوار تحيط بها
علامات الاستفهام .

أكد لي كمال رفعت أن اتصالهم ببعض الضباط الأردنيين كان يتم
على أساس الصداقة والتقارب الفكري فقط دون أي تدبير لانقلاب
مفتعل . . . وقال لي أن علي أبو نوار كان يتحدث عن تشكيل يسمى
الضباط الأحرار ولكنه في الغالب كان تنظيماً وهمياً أو صورياً لا يصدر
منشورات وليس له تأثير واضح .

وحكومة الأردن منذ تكوينها عام ١٩٤٩ لم تسمح بوجود معارضة
قانونية ، ولذا اتجهت قوات المعارضة للتآمر ضد نظام الحكم .

ورغم وقوف بعض الضباط الوطنيين موقف التأييد للحركة الثورية
العربية ، إلا أن حادث اغتيال الملك عبد الله عام ١٩٥١ أثبت عدم وجود
أية صلة لضباط الفيلق العربي به .

ولم تصل عدوى الانقلابات السورية الى الأردن رغم تعاقبها ، ولم
تنعقد صلة مؤثرة بين الضباط الوطنيين في البلدين .

ورغم نشاط حزب البعث في الشرق العربي . . . وتوافر عبده من

الضباط في صفوفه ، الا انه يبدو ان صلاته مع الضباط الاردنيين لم تصل الى درجة القدرة على القيام بانقلاب عسكري .

ولا شك ان اسباب عدم نجاح الانقلابات العسكرية في الاردن رغم وجود جيش كبير نسبيا كان يبلغ اربعة اضعاف الجيش اللبناني في الخمسينات مع ان سكان الاردن اقل عددا من سكان لبنان .

من اسباب عدم نجاح الانقلابات تواجد الضباط البريطانيين في مراكز القيادة وحرصهم على عدم تعيين اي ضابط عربي الا من مصفاة بريطانية ذات ثقب ضيقة .

ويلاحظ ان الجيوش في مختلف دول العالم الثالث لم تتحرك للقيام بانقلابات عسكرية طوال خضوع دولها للاستعمار والاحتلال الاجنبي ، وان ظاهرة الانقلابات كانت تقترون دائما بخروج قوات الاحتلال ، هذا اذا استثنينا حركة القوات المسلحة المصرية في ٢٣ يوليو اذ كانت القوات البريطانية قد ابتعدت تماما عن الجيش المصري بعد معاهدة ١٩٣٦ التي قررت خروج البعثة البريطانية ، واقتصرت وجود قوات الاحتلال على شرعية منطقة القناة فقط ، وانقلاب بكر صدقي في العراق الذي تم تحت شرعية النظام الملكي واستمراره .

يضاف الى ذلك التركيبة الخاصة للجيش الاردني جعلت نصفه تقريبا من رجال البادية البعيدين عن الحضارة ، والذين يدينون بولاء خاص للأسرة الهاشمية الحاكمة ، والذين يضعون عليهم انطوائا القول بان الضباط هم (مثقفون في ملابس رسمية) .

والحركات المضادة للنظام الملكي في الاردن تستحق اكثر من علامة استفهام ، سواء عبد الله التل للضباط الذين تستقر أسرته في اردن والذي كن مندوبا للملك عبد الله في مفاوضاته مع الاسرائيليين ثم حاكما عاما للقدس ، والذي كانت له اتصالات متعددة مع بعض البعثيين الاردنيين ، والوطنيين الفلسطينيين ، وحسنى الزعيم الذي زاره في اليوم التالي لانقلابه مباشرة حاملا رسالة من الملك عبد الله ، وعاقدا لصلة خاصة به ، ثم اتصاله بالحناوي الذي ما ان اكتشف انه على علاقة طيبة بأسرة الهاشمية حتى غادر الاردن هو وأسرته الى دمشق ثم القاهرة يوم ٥ أكتوبر ١٩٤٩ وذلك بعد ان كان قد استقال في ٧ يونيو من آخر مناصبه كملحق عسكري في لندن حيث أراد الملك عبد الله ان يبعده عن الاردن حيث عاش في القاهرة ١٥ عاما .

وظلت علامات الاستفهام تلاحق عبد الله التل ، حتى أعلن الملك حسين عن انقلاب على أبو نوار في ابريل ١٩٥٧ .

وعلى أبو نوار أردني من مدينة السلط اشترك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، ثم أصبح عضوا في لجنة الهدنة برودسن ، وحصل على شهادة الأركان حرب من لندن ، ثم عمل ملحقا عسكريا في باريس فياورا. للملك حسين ١٩٥٥ .

ويقال انه كان له تأثير على الملك في طرد الجنرال جلوب والضباط البريطانيين في مارس ١٩٥٦ ثم أصبح رئيسا لأركان الحرب بعد ثلاثة شهور في مايو وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن رقى من رتبة صاغ الى رتبة لواء خلال عام واحد .

وافتح الملك حسين خلافا مع وزارة سليمان النابلسي التي كان يؤيدها اليساريون والقوميون معا ، وبدأ يغلبه شعور جازق بأن النفوذ يتسرب من يديه الى العناصر المعادية للغرب والمتأثرة بشخصية جمال عبد الناصر الصاعدة والتي أجبرت قوات العدوان الثلاثي على الانسحاب من مصر .

وفي يوم ٧ ابريل تحركت نحو عمان وحدة سيارات مبرعة من الزرقا التي تبعد عنها ١٧ ميلا ، وعندما سئل رئيس الوزراء ووزير الدفاع عن سر التحرك نفيا علمهما به ، وعندما سئل على أبو نوار أجاب بأنها تحركات تديريية فقط .

وأصدر الملك حسين أوامره لهذه الوحدة بالعودة الى معسكرها في الزرقا .

وفي يوم ١٠ ابريل تقدمت الوزارة بطلب ابعاد ٢٠ ضابط من المعروفين بولائهم للملك ، وبجدا من الاستجابة للطلب ، أصدر الملك قراره بإقالة الوزارة وتعيين وزارة جديدة برئاسة سمير الرفاعي .

وقول الملحق العسكري المصري أنه سبق هذا القرار بعض الأحداث إذ كانت السلطات الأردنية تراقب الضابط المصري المندوب في القيادة المشتركة وسرقت منه مفتاح الشفرة . . . وقد أبلغ سليمان النابلسي الملحق العسكري بذلك .

كما أنه حدث بعد الاعتداء على قليلية وزيارة اللواء عامر للأردن أن استدعى على أبو نوار رئيس الأركان الأردني الملحق العسكري المصري وطالبه بوقف الأعمال الفدائية الا عن طريق الملك أو السلطة الأردنية ، وذلك حتى لا تتخذ السلطات الاسرائيلية اجراء ضدهم وحتى لا يعتقلهم السلطات الأردنية أثناء عودتهم . .

ويقول فؤاد أن علي أبو نوار هدد باعتقال ومحاكمة الفدائيين قائلا
(لا يمكن أن نقبل أن تكون الأردن حقل تجارب للمصريين) .

وقال له فؤاد هلال أنه سيرسل برقية بهذا المعنى للقاهرة فورا ،
ثم فوجئ بحضور علي أبو نوار الى مكتبه ومطالبته بتأجيل الارسال
ساعتين ، ثم عاود الاتصال به وطالبه بارسال البرقية فإرسالها .

يبدو أن علي أبو نوار كان يحاول التأثير على الملك للتراجع عن
موقفه .

وجاء رد القاهرة مطالبا المندوب المصري في القيادة المشتركة بمنع
ارسال برقيات شفرية ، ووقف العمليات الفدائية مؤقتا ، وطلب اللواء
عامر استدعاء علي أبو نوار لمقابلته في القاهرة .

ولكن علي أبو نوار اعتذر عن عدم الذهاب .

ومع ذلك كانت هناك صلة سياسية بين علي أبو نوار وبين وزراء
وزارة سليمان النابلسي .

وما ان أعلنت استقالة النابلسي حتى انفجرت المظاهرات في الأردن
واحتشدت في عمان يوم ١٣ ابريل ١٩٥٧ هاتفة ضد الأمريكان ومشروع
ايزنهاور .

وتجددت محاولة التحرك من الزرقا بقيادة المقدم معن أبو نوار
ابن عزم علي أبو نوار رئيس الأركان ولكن احدى كتائب البشو
حاصرت معسكره وهرع الملك في منتصف الليل ومعه علي أبو نوار في
سيارته الى الزرقا حيث استقبله البشو هاتفين بحياته مطالبين برأس
علي أبو نوار .

وحدثت مواجهة بين علي أبو نوار وبعض الضباط أمام الملك تبين
بها أنه كانت هناك تحرك وانقلاب ضد الملك وطلب علي أبو نوار
العفو والسماح له بمغادرة البلاد

عزل الملك أبو نوار وسمح له بالخروج الى سوريا حيث غادرها بعد
ذلك الى القاهرة .

وعين علي الحيازي خلفا لعللي أبو نوار رئيسا للأركان ، ولكنه لم
يبقى في منصبه سوى أيام لا تتجاوز الأسبوع . ثم هرب هو الآخر الى
سوريا .

كانت المسئولية التي ألقيت على علي الحيارى لي كبر من أن يتحملها
اذ رفض أن تكون السيادة لضباط البدو ، كما رفض اتخاذ اجراءات
عنيفة ضد الضباط الآخرين .

هرب الحيارى الى سوريا حيث أعلن في دمشق (أنه لو كان هناك
انقلاب فإن الذي دبره هو الملك الذي أراد مبررا لتغيير سياسته) .
وبعد ذلك لجأ علي الحيارى الى مصر أيضا . . . وعين بدلا منه حابس
المجالي الذي استمر في منصبه حتى عام ١٩٥٦ .

وهكذا فشلت محاولة الانقلاب الذي تحيط به علامات الاستفهام
والذي يقول البعض بأن علي أبو نوار قد لعب فيه دورا مرسوما من الملك ،
لأنه لم يكن معقولا أن يسمح له بالخروج من الأردن اذا كان متآمرا حقيقيا
عليه ، بينما حاكم عددا من الضباط مثل شاهر أبو شاحوط الذي حكم
عليه بالاعدام ثم خفف الى المؤبد وأحمد زعرور وأحمد الطراولة .

كان الهدف تغيير سياسة الأردن وحفظها في قالبها الرجعي القديم .
واتجهت السياسة المضادة بعد ذلك الى افساد العلاقة مع مصر عن
طريق الموجودين في الأردن من المسئولين المصريين .

وبدأت التحركات الايجابية في ذلك عندما تقرر زيارة الملك سعود
للأردن في ٨ يونيو ١٩٥٧ وطرده على خشبة الوزير المفوض المصري في
السعودية يوم ٧ يونيو ، عندما وصل الملك سعود كان الملحق العسكري
فؤاد هلال في دمشق وعند عودته أثناء الزيارة حدثت قصة مثيرة . .
ذهب الى مكتبه ضابط أردني من المتعاونين معه سابقا ، وأبلغه ان
هناك خطة مدبرة لاختيال الملك حسين وبهجت التلهوني وسمير الرفاعي .

وأخذ الملحق العسكري المصري الحذر المفاجئة بحضور الضابط الى
مكتبه في وقت فرضت عليه الرقابة فيه ، وارتفع الشك في نفسه عندما
وجد أن تصرفاته تتميز بعصبية لم يعهدها فيه . . . وعرف أنه أمام
مؤامرة دبرتها المخابرات الأردنية وأصر على تفتيشه فرفض وأخرج مسدسه
ولكن الملحق العسكري المصري استطاع أن يسحبه منه وأن يفتشه ويجد
معه جهاز التسجيل . . . وقرر احتجازه وكتابة تقرير الى القاهرة .

وفي ذلك الوقت حوشر مكتب الملحق العسكري بالمدركات والمشاة
ووصل مدير الأمن العام حكمت مهباز في التاسعة مساء سائلا عن الضابط
الأردني ، فأكرر فؤاد وجوده منتظرا التعليمات من القاهرة .

• وعند الفجر وصل والد الضابط وبدأ يلقي الحجارة على منزل الملحق العسكري ٠٠٠ واتصل الملحق برئيس الوزراء طالباً وقف القاء الطوب ورفع الحصار عن المنزل •

وكان رد القاهرة قد وصل بتسليم الضابط ، فقام الملحق العسكري بتسليمه اليهم بطريقة قانونية بعد استحضار أطباء للكشف عليه بحضور مدير الأمن العام ووالده أيضا •

وبعد نصف ساعة اتصل به رئيس الوزراء مدير الرفاعي وطلب منه مغادرة البلاد خلال ٤٨ ساعة •

وصدر نفس الأمر أيضا الى محمد محمود عبد العزيز قنصل مصر في القدس وهو ضابط سابق في مدفعية السواحل المصرية •

ولما وصل الخبر الى مصر أصدر جمال عبد الناصر قرارا بطرد السفير الأردني عبد المنعم الرفاعي على ألا يغادر مصر قبل وصول الملحق العسكري المصري سالما •

وهكذا طويت صفحة الوفاق والعلاقات الطيبة بين مصر والأردن بحادث مفتعل •

صفحة الخلافات :

وبدأت صفحة الخلافات بين الدولتين •

أعلن الملك الأحكام العرفية • • وحدد اقامة سليمان النابلسي • • وأعلن محاكمة غيايبية لعلی أبو نوار وعلى الحيارى • • وان كان قد عاد وعفا عنهما وعين الأول سفيرا في باريس والثاني سفيرا في القاهرة بعد ذلك بسنوات ، الأمر الذي يجسم علامات الاستفهام حول طبيعة الانقلاب الذي الصقت تهمته بعلی أبو نوار •

وطردت الحكومة الأردنية مساعد القنصل المصري في القدس محب السمرة ، وهو ضابط سابق في الجيش نقل الى الخارجية •

وأعلن الملك حسين أن مؤامرات تدبر ضده في مصر وسوريا • • وانطلق صوت العرب يهاجم الملك حسين •

ووصلت الاتهامات المتبادلة الى ذروتها خلال خمسة شهور امتدت الى أغسطس ١٩٥٧ ، واتهم الملك حسين عبد الناصر بعمالة الشيوعية وبأنه لم يوف بالتزاماته المادية هو وسوريا قبل الأردن ، كما استمرت السعودية بتقديم مساعداتها •

ووجه صوت العرب والصحف المصرية اتهامات الى الملك حسين بخيانة قضية فلسطين والتفاوض السري مع اسرائيل .

وحدثت في صيف ذلك العام التجمعات التركية على حدود سوريا وبادر الملك سعود الى تأييد موقف سوريا على عكس حكومات العراق والأردن ولبنان التي اتخذت موقفا ضد الحكومة السورية باعتبارها أداة في يد الحكومة السوفيتية التي وقفت موقفا واضحا ضد أى محاولات للاعتداء على استقلال سوريا وسلامتها . . وكان جمال عبد الناصر قد أسرع بإرسال قوات مصرية الى اللاذقية ، بعد زيارة الملك سعود لدمشق بثلاثة أسابيع فقط .

كان موقف الملك سعود نابعا من رغبته في عدم الانعزال عن الصف العربي وتحاشي هجمات النظام في مصر ، ومحاولة تجنب نفوذ شخصية عبد الناصر ، الى جانب أنه لم تكن له حدود مباشرة مع سوريا بحيث يهدد موقفها ثبات واستقرار الحكومة مثلما كان الحال في العراق والأردن ولبنان .

وحدث أيضا أن ضبطت مؤامرة دبرتها المخابرات المركزية الأمريكية ضد سوريا ، عندما عثر على رجل سوري في الحقيبة الخلفية لسيارة دبلوماسي أمريكي قادم من بيروت . . . وكان هذا دليلا على أن سلسلة مؤامرات الامبريالية الأمريكية لم تتوقف .

ويقول انتوني ناتنج أن حملات الهجوم المتبادلة بين مصر والأردن قد توقفت بعد هذا الصيف الساخن الملى بالأحداث في شهر نوفمبر ١٩٥٧ عقب تقارير تلقاها عبد الناصر من ادارة المخابرات تشير الى أن هجمات الدعاية المصرية قد أثرت على موقف الملك حسين ، وأنه أصبح معرضا لهجوم شعبي من اللاجئين الفلسطينيين على قصره .

.. ويعلق انتوني ناتنج على هذه الواقعة التي ذكرها بقوله أن الملك حسين لم يكن موقفه ثابتا كما كان في هذه الفترة ، وإن تقارير المخابرات المصرية لم تكن صحيحة .

ومع ذلك فقد أصدر جمال عبد الناصر قرارا بوقف الحملات المتبادلة بعد ثلاثة أيام من طلب مشترك من الملكين فيصل وسعود ملك السعودية قوجه الى القاهرة ودمشق لوقف الحملات الاعلامية .

.. كان جمال عبد الناصر مدركا أن هناك حدودا فاصلة بين الهجوم على حسين وبين التماهى في ذلك الى درجة تهديد عرشه بالسقوط مما قد

يدفع القوات الاسرائيلية أو البريطانية الى التدخل في وقت لم تكن القوات المصرية أو السورية فيه مهياة تماما لمساندة موقف جديد .

وهكذا توقفت الحملات الاذاعية في نوفمبر ١٩٥٧ . ويقول أحمد سعيد مدير صوت العرب انه فوجئ بالقرار في وقت كانت فيه الحملة قد وصلت ذروتها .

ولاشك أن جمال عبد الناصر كان واثقا من أن انتصاره في معركة حلف بغداد الضارية ، قد دعم مركزه ، وجعل انتصاره في رفض مشروع ايزنهاور أكثر يقينا وخاصة بعد انتصاره في معركة العدوان الثلاثي . ولعل هذا ما دفعه الى وقف هذه الحملة الاعلامية وبخاصة بعد موقف الملك سعود الذي أشرنا اليه ، والذي دفعه الى مساندة سوريا بدلا من الهجوم عليها .

تأثير الوحدة :

لم يتردد الملك حسين طويلا في إقامة اتحاد مع العراق رغم نفوره من سياسة توري السعيد ، وذلك حتى لا يقف معزولا بعد وحدة مصر وسوريا في الجمهورية العربية المتحدة ، وبعد ابلاغ الملك سعود للأردن في يناير ١٩٥٨ بأنه لن يدفع الملايين الخمسة التي كان يتفعلها بعد قطع المعونة البريطانية الأمر الذي كان يهدد الأردن بالانفلاس .

كان انضمام الأردن الى العراق في اتحاد واحد يعني انضمام الأردن الى حلف بغداد بصورة غير مباشرة ، رغم أن شروط الاتحاد كانت تنص على عدم الارتباط بأية موافيق ترتبط بها الدولة الأخرى .

ولكن قيام سياسة دفاعية ومالية وخارجية واحدة كانت تتضمن هذا الانضمام غير المباشر لحلف بغداد .

وقد ترك هذا الاتحاد العراقي الأردني أثرا معاكسا على السعودية التي وجدت في اتحاد الأسرة الهاشمية عملا لا تسعد به .

ولكن عمر الاتحاد لم يدم طويلا فقد انفجرت ثورة ١٤ يوليو في العراق وتمزق الاتحاد وتصور الجميع أن نظام الحكم في الأردن سيهوى يتهاوى بعد سقوط حكم الأسرة الهاشمية في بغداد .

أعلن عبد الكريم قاسم حل الاتحاد في الوقت الذي أعلن فيه الملك حسين نفسه رئيسا لدولة الاتحاد .

ولكن حركة الامبريالية كانت سريعة فقد نزلت القوات البريطانية في الأردن قادمة من قبرص ، بينما تحرك الأسطول السادس الأمريكي الى لبنان .

قال جمال عبد الناصر ردا على الصحفي الهندي (كزانجيا) في حديث بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٥٨ عندما سأله قائلا (يبدو أن الأردن التي احتلتها القوات البريطانية هي في الحقيقة الضحية الكبرى للغرب ، فما هو حل هذه المشكلة) .

أجاب جمال عبد الناصر قائلا :

من الصعب العثور على اجابة محددة لهذا السؤال ، ولكن المؤكد أن الشعب الأردني هو الذي يستطيع بوطنيته وحكمته أن يرسم الطريق ، ولكن الأمر الذي اتضح ويزيد كل يوم وضوحا هو أن الحديث من عملاء عبد الناصر أو هيئات أو منظمات تعمل لحساب عبد الناصر ، أو الحديث عن عدوان مباشر ، أو عدوان غير مباشر من جانب الجمهورية العربية المتحدة قد أصبح أكثوبة لا يكاد يصدقها حتى الذين اخترعوها أنفسهم ، بل لعل العالم كله يرى الآن من الذي يستخدم العملاء ، ومن الذي يدبر الأموال في الأردن .

ان ملك الأردن تسلم من الولايات المتحدة سبعين مليونا من الدولارات منذ قام بانقلابه المشهور على الحكم الوطني منذ أكثر من عام فان هذا الملك الآن في حاجة الى رجال المظلات البريطانيين لكي يحموه من شعبه .

وأجاب عبد الناصر على سؤال آخر (الى متى تستمر هذه الاوضاع) بقوله :

ان الموقف مليء بالاحتمالات ولكن هناك احتمالات بالذات لا نستطيع أن نسكت عليه اذا حدث ، هذا الاحتمال هو أن يتعرض الأردن للعدوان من اسرائيل ، في هذه الحالة لن نتردد في التدخل بكل امكانياتنا .

وخلال هذا اللقاء الصحفي أيضا ، وقف الحديث عند زيارة همرشولد سكرتير الأمم المتحدة لملك حسين لتبصيره بالأمور . وعلق جمال عبد الناصر على ذلك بقوله :

وماذا يستطيع همرشولد أن يفعل . . . أن المشكلة ليست بين حسين والجمهورية العربية المتحدة . . . انما المشاكل الحقيقية هي ما بين حسين وشعبه أولا ثم هي احتلال بريطانيا للأردن ثانيا ، ونتيجة لخوف

المملك من شعبه واستنجاهه بجنود المظلات البريطانيين لذلك قلت لك • ماذا يستطيع هم شولذ أن يفعل ؟ هل يستطيع أن يتوسط بين القصر والشعب ؟

وظلت الخلافات قائمة بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة حتى أغسطس ١٩٥٩ بعد توتر الموقف مع العراق حيث تحسنت العلاقات نسبيا •

يعبر عن ذلك سؤال وجهه أحد الصحفيين الأجانب الى جمال عبد الناصر أثناء مؤتمر صحفي عقد في ٢٥ ابريل ١٩٦٠ وقال فيه (هل تظن أن للملك حسين ملك الأردن أي مستقبل ؟) •

وكان جواب عبد الناصر هو (اننى فى الحقيقة لا أستطيع أن أنظر الى الأمور بهذه الكيفية فثمة فرق بين التفكير الصحفى وبين تفكير رئيس دولة مسئول عن تصريحاته بشأن المسائل الدولية ••• اننا طبعا نتعامل مع الملك حسين بصفته ملكا للأردن ، ونحن نحاول أن تكون علاقتنا به طيبة) •

ولكن الهدوء لم يستمر طويلا ، فلم يكف يقتل هزاع المجالى فى أغسطس ١٩٦٠ ، وهو أحد الذين دافعوا عن دخول الأردن خلف بغداد فى عام ١٩٥٥ حتى توترت العلاقات من جديد ، وبدأت الأردن تشن هجمات على الجمهورية العربية المتحدة •

وكان جمال عبد الناصر قد قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايران فى يوليو ١٩٦٠ عقب قرار الشاه الاعتراف باسرائيل مع عدم اقامة علاقات دبلوماسية معها ••• وايران والأردن تربطهما علاقات وثيقة ••• وقد أدى هذا القطع الى احراج لحكومة عمان •

وبدأت حملة عمان جديدة أطلقت فيها اذاعة عمان على جمال عبد الناصر ألفاظ (مجنون - عميل - أحمر - فاروق الصغير - ديكتاتور متعطر للدماء متآمر) •

وصحب ذلك اعتراف الملك حسين بنظام عبد الكريم قاسم فى ١٩٦٠ وهكذا يتبين أن الأردن كانت تلعب دورا ايجابيا نشطا فى الهجوم على مصر وعلى جمال عبد الناصر •

ولم يقابل جمال عبد الناصر هذه الحملة بالصمت ، شن هجوما على الملك حسين فى دمشق بتاريخ ١٧ أكتوبر قال فيه (باع الملك عبد الله العرب وفلسطين للصهيونية واسرائيل) وقال أيضا (ان الاستعمار حينما

يسيطر على بلد انما يعتمد على أعوانه الخونة ، والمثل جنبنا بجوارنا في الأردن ، يعتمد الاستعمار على الملك الأجير ويعتمد على حفنة قليلة من العملاء الذين يستغلون الشعب ويجمعون الأموال) .

ولكن موقف الملك حسين كان يزداد رسوخا في الأردن في وقت كانت تتعرض فيه الجمهورية العربية المتحدة لأخطار التمزق والتناقضات .

أفرج الملك حسين عن سليمان النابلسي رئيس الوزراء السابق بعد اعتقاله استمر أربع سنوات تقريبا .

وذاعت أقاويل عن أن بعض السوريين قد لجأوا الى الملك حسين يطلبون منه التدخل في سوريا ، وعلق جمال عبد الناصر على ذلك في خطبته السنوية يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٠ (فين النهاردة الاتحاد العربي ؟) - يقصد اتحاد العراق والأردن قبل ثورة ١٤ يوليو - يروحوا للملك حسين ويقولوا له ده الشعب السوري مستنيك بس اركب حصان وعدى الحدود ياريتة يسمع الكلام ويركب جحش ويعدى الحدود ، أنا مش راح أعجل له حاجة ولا الجيش الأول ويقولوا له تعال عليك الأمان بس تفضل تعالي ورينا) .

ولكن تقدير جمال عبد الناصر للملك حسين كان أقل مما يجب ، فقد وقع الانفصال في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وتبين أن بعض الضباط الذين قاموا به كانوا على صلة بالأردن كما هو واضح في الباب الأول من هذا الجزء .

وسرعان ما أعلن الملك حسين اعترافه بحكومة الانفصال بعد ٤٨ ساعة من وقوعه .

من الانفصال الى العدوان (اليمن - القيادة المشتركة) :

وعادت العلاقات الى التوتر من جديد ، وخاصة بعد ثورة اليمن ، حيث أخذت الأردن والسعودية موقف التأييد للملكيين . وعندما عرض جمال عبد الناصر فكرة الانسحاب المصري من اليمن في ديسمبر ١٩٦٢ على أن يكون ذلك مقترنا بموقف السعودية والأردن تأييدهما ومساعدتهما للملكيين ، لم يقبل الأمير فيصل ذلك فلم يكن أقل تفتحا من شقيقه الملك سعود ، رغم اعتقاد عبد الناصر في مرونته والقاء كثير من الآمال عليه . كما يقول المطوئي ناتنج في كتابه (ناصر) .

الأمير فيصل كان رئيسا للحكومة التي منعت المحمل المصري ، وهو الذي ضيق الخناق على المصريين العاملين بالسعودية ، وأصر على أن يدفع الحجاج المصريون الأموال المقررة عليهم بالعملة الصعبة .

ووصل الأمر بالملك حسين أيضا الى حد المطالبة بتغيير مقر الجامعة العربية من القاهرة ، ورفض وقف مساعدة الملكيين .

وخلال هذه الفترة هرب عدد من الطيارين الأردنيين الى القاهرة لاجئين بعدد من الطيارين السعوديين .

ولكن اعتراف حكومة كينيدي الأمريكية بجمهورية السلال أحدث صدمة للملك سعود والملك حسين . . . ولكنه لم يدفعهما الى وقف تأييد الملكيين .

واستمرت الأمور كذلك حتى دعا جمال عبد الناصر الى مؤتمر القمة العربي الأول واجتمع ١٢ ملكا ورئيسا في ١٣ يناير ١٩٦٤ بالقاهرة .

وقبل افتتاح المؤتمر حرص جمال عبد الناصر على مقابلة الملك حسين مقابلة خاصة لمناقشة قضية فلسطين معه باعتباره حاكما لدولة من دول المواجهة . . . وإعادة العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين التي قطعت عقب اعتراف الأردن بحكومة الانفصال السورية .

كانت هذه الحركة السياسية من عبد الناصر بداية لفك ارتباط الملوك وبداية لبحث قضية القيادة العسكرية العربية الموجودة لمجابهة اسرائيل تحت قيادة اللواء علي عامر ، كما كانت نقطة تحول أيضا في مساعدات الأردن للملكيين .

وبعد شهور من مؤتمر القمة في يوليو ١٩٦٤ أعلنت الحكومة البريطانية انها ستعطى عدن ومحميات الجنوب استقلالها ليس متأخرا عن عام ١٩٦٨ ، ورطب هذا الاعلان العلاقات بين مصر وبريطانيا الى حد كبير ، ثم أعقبه اعلان الملك حسين بعد محادثات مع المشير عامر في عمان وقف المساعدات للملكيين في اليمن والاعتراف بحكومة السلال .

وهكذا عادت العلاقات في ظل مؤتمرات القمة بين مصر والأردن الى حالة طبيعية بعيدة عن التوتر والهجمات الاذاعية .

ولكن الأمور عادت مرة أخرى الى التوتر والهجوم المتبادل في شهور ما قبل العدوان كما سيأتي تفصيلا في الجزء الرابع (خريف عبد الناصر) .

الباب الثامن

● لبنان

(اننى لست الشخص الذى
انتخبه اللبنانيون ، ولكنى أمثل
رفضهم لانتخاب شخص آخر)
فؤاد شهاب

كانت لبنان هي الدولة العربية الوحيدة التي لم تقطع علاقاتها
الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام
١٩٥٦.

كانت حجة المسئولين في ذلك أن بريطانيا صاحبة فضل على لبنان
فمن تحقيق الجلاء ، وأن فرنسا تربطها بلبنان علاقات صداقة تقليدية
عريقة .

كان رئيس الجمهورية في ذلك الوقت هو كميل شمعون .

وكانت لبنان طرفا في معركة الأحلاف ... حاول عدنان مندريس
رئيس وزراء تركيا ضمها الى الحلف فزار بيروت بعد بغداد في يناير
١٩٥٥ عند اعلان الوثيقة الأولى للحلف وهو في طريقه الى القرية .

ولكن انضمام لبنان للحلف لم يكن أمرا يسيرا في وقت تصاعدت
فيه معارضة سوريا له ، وهي دولة ذات تأثير كبير على لبنان ، وفي وقت
برز فيه دور جمال عبد الناصر الوطني والتقدمي .

واصل جمال عبد الناصر بالحياة السياسية في لبنان بدأت مبكرة
بعد ثورة يوليو ، اذ وجدت فيه جماهير لبنان - وخاصة المسلمين بحكم
الواقع الطائفي - قائدا عربيا يهتم بالقومية العربية ، ويواصل دور
ابراهيم باشا بن محمد على الذي أعلن أنه سيواصل فتوحاته الى آخر
بلد ينطق العربية ، رغم اختلاف الظروف التاريخية ، وأهداف كل من
القائدين .

ولبنان هو البلد العربي الوحيد الذي تحكم فيه الطائفية ، وتفرض
نفسها على مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والادارية ...
حتى الجيش يخضع للتقاليد الطائفية ...

والجيش اللبناني صغير العدد محدود العدد لم يكن يتجاوز ٥٠٠٠
ضابط وجندي عام ١٩٥٠ ، وكان يقوده الجنرال فؤاد شهاب خريج
مدرسة سان سير الحربية الفرنسية ، والرجل الذي كان موضع احترام
الجميع ...

رفض فؤاد شهاب اطلاق الرصاص على المواطنين أثناء أزمة الشيخ
بشارة الخوري رئيس الجمهورية الذي قدم استقالته في ١٨ سبتمبر
١٩٥٢ وعين شهاب ليقود الدولة كرئيس للوزراء ووزير للداخلية والدفاع
حتى انتخب المجلس كميل شمعون رئيسا للجمهورية في ٢٣ سبتمبر بعد
رفض شهاب ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، فعاد الى منصبه

ثورة يوليو ١٩٥٧ - ٥٧

العسكري في هدوء ، بعد وساطته المؤثرة مع كمال جنبلاط في المختارة -
ورشيد كرامي في طرابلس لتهدئة الموقف .

كان الجيش اللبناني يشكل قوة مسلحة تقف من المشاكل الداخلية
فيما يشبه الحياد . . . ولم يكن لها صوت مسموع أو مؤثر في معاداة
القوات المعتدية على مصر ، كما كان الحال في سوريا عندما قطع
عبد الحميد السراج أنابيب البترول المارة بالأراضي السورية .

وضعف الجيش والجندرية اللبنانية هو السبب في اجراء الانتخابات
على أربعة أسابيع متتالية يوم الأحد حتى يمكن المحافظة على الأمن والنظام
في كل منطقة .

ولم يكن فؤاد شهاب جانحا في سفور الى الغرب مثلما كان كميل
شمعون رئيس الجمهورية ووزير خارجيته شارل مالك الذي تميز بمعاداته
لمصر منذ كان يعمل صحفيا في القاهرة وهو من طائفة اليونانيين
الارثوذكس .

وحاول شمعون أن يفتح فؤاد شهاب بما سمعه من عدنان مندريس
عن امكانيات تركيا الواسعة في مساعدة لبنان عسكريا واقتصاديا حيث
قال لهم مندريس ان تركيا يمكن ان تساعد العرب ضد اسرائيل بجيشها
الذي يضم عشر فرق ، ويمكنها أيضا ان تدعم الزراعة في الدول العربية
حيث تمتلك ٥٠.٠٠٠ جرار تعمل في الأرض .

ولكن فؤاد شهاب لم يجذبه هذا الحديث . . وآثر أن يحتفظ لبنان
بجيش صغير لا ينضوي تحت جناح تركيا ومن خلفها الغرب ، حفاظا على
روح الرابطة العربية التاريخية .

وفي بداية ١٩٥٧ ومشروع ايزنهاور يحاول أن يفرض نفسه كملء
الفراغ في المنطقة - حسب تعبير المسئولين الأمريكيين - كانت لبنان هي
الدولة الوحيدة التي قبلت مساعدات المشروع للدفاع عن لبنان ضد
ما أسنمته (الشيوعية العالمية والعربية العالمية) أيضا وذلك كما ورد في
كتاب أنطوني ناتنج (ناصر) .

أذكر في هذه الفترة أن المسرح القومي أثناء كنت مديرا له قام
بزيارة الى بيروت لأول مرة بعد ثورة يوليو ليقيم أسبوعا على مسرح
اليونيسكو في فبراير ١٩٥٧ .

وأذكر أن بعض المعادين لمصر قد وضعوا سرا في صالة المسرح
أنابيب تحوي (ثاني كبريتور الكربون) ذي الرائحة المزعجة ، في محاولة
لإبعاد الجماهير عن المسرح ، كما استقبلت بعض الصحف الدائرة في

فلك رئيس الجمهورية هذه الفرقة بالهجوم والنقد غير الفني ، الأمر الذي دفعني إلى مواصلة الرحلة إلى دمشق حيث استقبلت الفرقة استقبالا حماسيا منقطع النظير وامتلات مقاعد الصالة كلها أسبوعا كاملا ، وواظب على الحضور سفيرنا في دمشق محمود رياض أمين الجامعة العربية حاليا ، وكبار المسئولين السوريين .

كان هناك فرق شديد الوضوح بين معاملة السلطات اللبنانية والسلطات السورية لفرقة فنية مصرية .

وخلال هذه الفترة كان كمال رفعت ينشط في المنطقة العربية بتشكيل تنظيمات مرتبطة بثورة يوليو كان يشرف عليها الملحون العسكريون صلاح مصطفى في الأردن ، وحسن خليل في بيروت .

نشاط سياسي في دائرة المخابرات الى جانب نشاط سياسي يتم عن طريق اتصال بعض السياسيين اللبنانيين بجمال عبد الناصر شخصيا .

ومع ذلك ظلت العلاقات بين مصر ولبنان بعيدة عن الهجمات المتبادلة الى أن أعلنت الوحدة بين سوريا ومصر في الجمهورية العربية المتحدة ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ، وتدفقت جماهير الشعب اللبناني الى دمشق كلما زارها جمال عبد الناصر لتنتظر ظهوره أمامها في شرفة بيت الضيافة ، ولو طال بها الزمن ساعات طويلة من الليل أو النهار .

شجع كميل شمعون أن دائرة الحصار تضيق حوله وتكاد تخنقه ولم يجد من سبيل لدفعها سوى السعي لتجديد فترة رئاسته فقام بزيارة الى الولايات المتحدة قابل فيها دالاس بعد زيارة جمال عبد الناصر التي تمت في أبريل ١٩٥٨ وأزعجت كميل شمعون ازعاجا شديدا .

ولكن عملية تجديد الانتخاب بما تحمله من مخالفة لروح الدستور قوبلت بمعارضة شديدة من جانب المسلمين ومن جانب البطريرك المعوشي الذي ينتمي شمعون لطائفته أيضا ، رغم ما بذله شارل مالك من محاولات مشتهرة لنهيئة الأذهان لتجديد مدة رئاسة كميل شمعون .

وتماذى شارل مالك في سياسته الى درجة توجيه الاتهام للجمهورية العربية المتحدة أمام مجلس الأمن بالتدخل في شئون لبنان الداخلية وارسال الأسلحة للتخريب داخل لبنان .

وأرسلت هيئة الأمم المتحدة لجنة من الهند والنرويج والاكوادور أبلغت همرسولد انها لم تكتشف تدفقا من السلاح على لبنان .

وزار همرشولد لبنان في منتصف يونيو ١٩٥٨ ووصف اتهامات شارل مالك بأنها مبالغ فيها ، كما حاولت أمريكا تهدئة مالك ولم توافق على ارسال قوات أمريكية لمساعدته .

وكان صائب سلام رئيس الوزراء السننى قد استقال فى نوفمبر ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثى ، وتولى منصبه سامى الصلح رئيس الوزراء المتهاذب .

ولكن التناظر فى وجهات النظر ، والجنوح السافر للقوى الامبريالية من جانب شمعون ووزير خارجيته ، وتصميم شمعون على اعادة تجديد ميثاقه ، واستقالة صائب سلام أدى الى مصادمات مسلحة ، يمكن القول بأنها كانت نوعاً من الحرب الأهلية بين شمعون وأعوان الامبريالية من جانب والأجملهير القومية والتقدمية من جانب آخر .

وكانت الأسلحة تتدفق على لبنان أساساً من جانب عبد الحميد السراج وزير داخلية الاقليم السوري فى الجمهورية العربية المتحدة .

وقد استنزفت هذه العملية كثيراً من الجهد والمال ، وظهرت فيها ألوان من الاستغلال والاستفادة التى لا تتناسب مع المبادئ المحركة لصراع ديموى .

وأصبح تسليح الطوائف والفئات والأفراد هو الطابع الرئيسى السائد فى لبنان .

ووقفت شهاب والجيش موقف الحياد الدقيق مع محاولة الحفاظ على الأمن فى حدود الممكن .

ووجد شمعون أن تيار الحرب الأهلية لا يمضى فى صالحه ، وخاصة بعد تقرير لجنة الأمم المتحدة ، وتصريح همرشولد بعد زيارته فأعلن فى ٣٠ يونيو ١٩٥٨ قراره بعدم اعادة ترشيح نفسه .

ووجه ذلك تجاوباً من جمال عبد الناصر والقوى القومية التى قررت التركون الى الهدوء فى انتظار ترشيح جديد لرئاسة الجمهورية ، ولكن ثورة ١٤ يوليو العراقية فرضت نفسها على الموقف فى الشرق الأوسط عامة ، وفى لبنان خاصة ، فقد استدعى شمعون السفير الأمريكى بعد ٣ ساعات فقط من اعلان أخبار الانقلاب العسكرية فى بغداد ، وطلب منه المساعدة خشية انهيار الوضع فى لبنان .

وأسرعت قوات الاسطول السادس الأمريكى للنزول فى بيروت فى منتصف يوليو ١٩٥٨ ، وانفجرت الاذاعات المعادية لشمعون فى القاهرة

ودمشق وبغداد ٠٠٠ وتوتر الموقف في المنطقة وقام جمال عبد الناصر برجلته السرية المفاجئة المشهورة إلى بغداد ، لمساندة الثورة العراقية .

وأرسل خروشوف خطابا شديدا للهبة إلى ايزنهاور في أغسطس ١٩٥٨ يدين فيه تدخله في لبنان ولا يعطيه الحق في ذلك .

وأعلن ايزنهاور أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٣ أغسطس ١٩٥٨ استعدادة لسحب القوات الأمريكية إذا طلبت ذلك منه الحكومة الدستورية ، كما أعلنت الحكومة البريطانية استعدادها أيضا لسحب قواتها من الأردن إذا طلبت ذلك منها السلطة الشرعية .

وشكل ذلك قوة ضاغطة على شمعون الذي كانت مدة رئاسته تقترب من نهايتها ٠٠٠ والذي واجه تأييدا جارفا لتأييد ترشيح اللواء فؤاد شهاب الشخصية التي حظيت بتقدير واحترام القوميين .

أعلن فؤاد شهاب عن رغبته في خروج القوات الأجنبية فور انتخابه رئيسا للجمهورية .

وتحدد بذلك موقف القوات الأمريكية في لبنان ، فخرجت بعد انتخاب شهاب ولم تكد تمضي أربعة شهور فقط منذ يوم نزولها بعد ثورة العراق .

وبدأ لبنان صفحة جديدة في حياته السياسية ، وفي علاقته مع جيرانه العرب .

رفض فؤاد شهاب أن يكون دكتاتوريا عسكريا ، وأصر على أن يواصل نظام الحكم الدستوري البرلماني ، فعين رشيد كرامي رئيسا للوزراء ، وأخرج بعض الضباط من الجيش لارتباطهم بالعمل السياسي خلال فترة رئاسة شمعون ، وخلق علاقات صداقة مع قادة الدول العربية واكتسب ثقة جماهير الشعب اللبناني بمختلف طوائفه إلى حد بعيد .

قال شهاب عقب انتخابه (انني لست الشخص الذي انتخبه اللبنانيون ، ولكني أمثل رفضهم لانتخاب شخص آخر) .

وكان هذا التعبير بداية وضوح زهدة في أن يكون ديكتاتوريا ، وهو أمر ما كان يفكر فيه أو يقدر عليه في وقت واحد ٠٠٠ فمحافظته على وحدة الجيش وتماسكه خلال الحرب الأهلية كان عملا من أعمال الحكمة وبعد النظر ، لأنه لو كان قد طالب الوحدات بالتدخل لتمزقت وتناثرت بدافع الطائفية ، وانتهت وحدة الجيش بصورة شبه نهائية .

ومرة أخرى ظهر زهد شهاب في فرض القبضة العسكرية بعد انتهاء
مدة رئاسته عام ١٩٦٤ ، ورفضه التجديد رغم امكانية حصوله بسهولة
على ثلثي أصوات البرلمان اللبناني .

وفي ١٨ أغسطس انتخب شارل حلو رئيسا للجمهورية حيث أقسم
اليمن في ٢٣ سبتمبر ١٩٦٤ وغادر شهاب موقعه .

وهكذا خرج أول ضابط متخرج في سان سير من مقعد السلطة
بظريقة ديموقراطية . . . خرج محترما من شعبه ومن قادة الدول العربية
والخارجية أيضا .

ولكن فترة رئاسة شهاب لم تكن هادئة على خط مستقبله ، فقد
اجتاحت الحزب القومي السوري الرغبة في القيام بانقلاب عسكري في
لبنان من أجل الشاء (سوريا الكبرى) التي تضم سوريا ولبنان والأردن
والعراق ، دولة تعادى الاقطاع والطائفية والشيوعية والمصريين أيضا كما
ورد في موائيق حزبيهم .

وقد بدأت محاولة الانقلاب عقب انفصال سوريا عن الجمهورية
العربية المتحدة في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وذلك بعد لقاء تم بين رئيس
الحزب منذ ١٩٦٠ الدكتور عبد الله سعادة والنقيب شوقي خير الله .
كان الانقلابيون يعرفون الأشياء التي يعادونها أكثر من معرفتهم
للأشياء التي يريدونها .

وتحددت ليلة ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ موعدا للقيام بالانقلاب وهو توقيت
مرتبط بتواجد معظم الضباط في بيوتهم استعدادا للاحتفال بليلة رأس
السبلة .

وفي التاسعة مساء هذا اليوم تحرك النقيب فؤاد عوض بسريته
المكونة من ٩٠ جنديا ، ١٣ مدرعة ، ٩ عربات جيش من الطائرة الى بيروت
حيث وصلوا في الثانية بعد منتصف الليل ، وانضم اليهم النقيب خير الله
ومعه ٢٠ عضوا مسلحا من أعضاء الحزب ، ثم اتجهوا الى وزارة الدفاع
حيث احتلوا الدور الأول منها ، ولكن مقاومة الضباط في الدور الأعلى
أجبرتهم على انتهاء المعركة بعد تبادل طلقات الرصاص والهروب من بيروت
في الرابعة صباحا .

وكما فشلت محاولة الاستيلاء على وزارة الدفاع فشلت أيضا محاولة
الاستيلاء على بعض النقاط الاستراتيجية ، وانسحب الانقلابيون الى
منطقة المتني . . . الى منزل أسد الأشقر أحد زعماء الحزب حيث كان
المخزن الرئيسي للسلاح .

وبعد مقاومة متعشرة سلم الانقلابيون أنفسهم بعد محاصرة المنطقة وقصف المنزل بالمدفعية وبقيت بعض قواتهم تقاوم حتى الصباح ٣ يناير ١٩٢٦ . وان كانت الحكومة اللبنانية قد أعانت صباح أول يناير حل الحزب القومي السوري .

ودلت الاحصائيات على أن عدد القتلى قد بلغ ٢٧ كما بلغ عدد المعتقلين ٢٤٠٠ شخص . وحكم بالاعدام في نوفمبر ١٩٦٣ على ٨ أفراد منهم فؤاد عوض وخير الله ولكن الحكم استبدل بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومن ظواهر هذه المحاولة الانقلابية ارتباط عدد من الضباط برجال تنظيم حزبي له آراء معينة تجذب له الأعضاء سواء عن صواب أو خطأ . ومن ظواهره أيضا أن ٢١ مدنيا قتلوا ليس منهم لبناني واحد بل كلهم من السوريين والفلسطينيين الأمر الذي يفسر عقيدتهم في الايمان بسوريا الكبرى .

وهكذا مضت محاولة الانقلاب العسكري في تاريخ لبنان ، والتي انفجرت خلال حكم عسكري آثر أن يكون ديموقراطيا ودستوريا ، ورفض أن يكون ديكتاتوريا عسكريا .

ومضت الأمور بعد ذلك في صورة هادئة سواء في داخل لبنان أو في علاقاته الخارجية وخاصة مع مصر .

الـباب التاسع

● جمال عبد الناصر .. والعرب

بدء جمال عبد الناصر طريق النضال ضابطا مصريا ، وانتهى زعيما
عربيا .

شاعت له الظروف عام ١٩٤٨ أن يؤدي دورا ايجابيا في حرب
فلسطين ، يكتشف خلاله أن سر المأساة يكمن في قصور القاهرة ، حيث
يعيش الملك والسفير البريطاني والأعوان من رجال الخاشية وأحزاب
الأقلية .

وعندما وصلت حركة الجيش الى السلطة ، كشفت عن اتجاهاتها
التحررية في موقفها من قضية السودان . . . فلم تنهج أسلوب النظام
الملكي المنهار ، الذي تبلورت استراتيجيته في سيادة مصر على السودان ،
وتجسيد نضاله في أن يكون فاروق ملكا لمصر والسودان .

هذا الموقف التحرري للبكر يؤكد الطابع التقدمي لحركة الجيش ،
ويثبت سلامة الاتجاه الوطني لأول انقلاب عسكري في أفريقيا .

وعقد اتفاقية فبراير ١٩٥٣ هو مقياس لا يخطئ ، إذ يظهر أن
ضباط حركة الجيش وقائدهم المنتخب البكباشي جمال عبد الناصر ، لم
يكونوا دعاة سيطرة واستعمار ، وإنما كانوا أنصارا لحقوق الشعوب في
الحرية وتقرير المصير .

ولذلك أن أسلوب معالجة قضية السودان قد اتسم بأخطاء عديدة ،
إذ إلى قيام حكم مستقل في الخرطوم ، بعيد عن العواطف الحارة مع
القاهرة وضاعت فرصة الاتحاد مع مصر في موقف مشترك ضد الاستعمار
البريطاني ، إلا أن ذلك لم ينعكس نفورا على ضباط الحركة من مواصلة
السير في طريق التحرر الوطني ودعم حركاته في مختلف الدول العربية .

وساعدت التحركات الامبريالية على ذلك ، في محاولاتها الدؤوبة
لربط الدول العربية بأحلاف عسكرية ، سبق للشعب المصري أن رفضها
وأعلن موقفه المعادي منها قبل حركة الجيش .

واستل جمال عبد الناصر التعبير عن ارادة الشعب المصري في
مكافحة الأحلاف ، ليس في مصر وحدها ، وإنما في سائر أرجاء الوطن
العربي .

وكان هذا أمرا جديدا .

لم يتعود الزعماء المصريون أن يركزوا نضالهم ضد الاستعمار وخارج الحدود أيضا . . . كانت دائرة نضالهم حدود مصر والسودان .

ولكن جمال عبد الناصر أدرك بحسه الوطني والقومي أن ساحة الأرض العربية هي ميدان واحد للمعركة ، وإن انتصار الاستعمار في بلد عربي يقوى مركزه ويدعم سيطرته ، ويحاصر حركات التحرر الوطني وخاصة في القاهرة .

... ولذا بدأت صلاته مع الدول العربية مبكرة .
... بدأت مع قادة الأحزاب والتنظيمات السياسية الوطنية والقومية ،
كما بدأت مع الحكام أيضا .

لم يفتعل جمال عبد الناصر معارك مع الملوك والحكام ، كما يحاول خصومه أن يشوهوا صورته . . بل كان حريصا على أن يشارك في لعبة السياسة بمهارة فائقة ، يجتذب اليه كل حاكم أو ملك يقف معه في نضاله ضد الاستعمار .

وثبت ذلك في اتفاقية الدفاع المشترك التي عقدت مع سوريا (شكري المقتول) والسعودية (الملك سعود) عام ١٩٥٥ ثم انضمت إليها اليمن (الامام أحمد) .

ولم يبادر جمال عبد الناصر حكام العراق (الملك فيصل ونوري السعيد) أنصار حلف بغداد بالعداء . . . بل حاول اجتذائهم إلى الصف العربي الوطني . . . وسافر اليهم صلاح سالم .

ولكن الموقف كان لا يسمح لهم بالمناورة ، سقطوا بارادتهم في شبكة الاستعمار ، وجعلوا من عاصمة الرشيد مقرا للحلف الاستعماري البغيض .

وتبينت الأمور وظهرت الفواصل يوما بعد يوم عندما احتدمت معركة الأخلاق .

اختار جمال عبد الناصر موقعه بثبات .

اختار جانب الشعب في معركته ضد الاستعمار .

وكان مؤتمر باندونج للشعوب الآسيوية الأفريقية المتحررة من الاستعمار ، بداية لتوسيع آفاق رؤيته ، وتعميق احساسه بنضال الشعوب ، وتوضيح صورة المستقبل له .

تجاوب جمال عبد الناصر مع قادة التحرر الوطنى فى القسارتين
الكبيرتين . . . ولم يتردد فى عقد صلات ودية طيبة مع الزعيم الشيوعى
المرموق فى ذلك الوقت شوان لاي رئيس وزراء جمهورية الصين الشعبية .
وبدا نسيج جديد بين حركة التحرر العربية ، وحركة التحرر
العالمية ، ولعب جمال عبد الناصر فى ذلك دورا بارزا .

هذه الفترة التاريخية الهامة ، منتصف الخمسينيات ، كانت فترة
من فترات المجد الخالدة لجمال عبد الناصر ، الذى أدرك مسار حركة
التاريخ ، ولمس احتشاد القوى الوطنية (برجوازية أو عمالية) حول
قيادته سواء فى مصر أو الوطن العربى ، فأقدم على اجرائه الشجاع ،
بتأميم قناة السويس ، وإعادة حق الشعب المصرى لأبنائه .

وكانت هذه الخطوة الباسلة ، نقطة تحول فى مسار حركة التحرر
الوطنى ، وخاصة بعد فشل قوات العدوان الثلاثى (انجلترا وفرنسا
وإسرائيل) فى تحقيق أهدافها ، واضطرابها الى الانسحاب ، تحت ضغط
الانذار السوفيتى الذى قدمه بولجانين ، وموقف ايزنهاور المتربص
لورثة المصالح البريطانية والفرنسية فى المنطقة ، وقرارات هيئة الأمم
المتحدة . . .

كان جمال عبد الناصر قد اتخذ موقفا متلبا بعيدا عن التردد عبر
به عن ارادة الشعب المصرى ، عندما أعلن اننا (سنحارب) من فوق مبنى
الجامع الأزهر .

وعلى الصيحة فى أرجاء الوطن العربى ، وظهر التضامن العربى
فى أروع صورته عندما اجتاحت مظاهرات التأييد لمصر كل البلاد العربية ،
وحطمت أنابيب البترول التى تحمل الوقود لبريطانيا وفرنسا فى سوريا .

انصهرت الارادة العربية فى بوتقة القتال ، وتجلت روح القومية
العربية فى صورة ايجابية وارتفعت زعامة عبد الناصر الى قمة عالية .

وأسفرت هذه الحرب عن ظاهرة هامة ، هى التعاون الوثيق بين حركة
التحرر الوطنى العربية وبين الحركة الاشتراكية . . . فقد كان موقف
التأييد الحاسم الذى اتخذته الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية .
موضع تقدير عميق فى نفوس جماهير الأمة العربية .

وأصبح التعاون بين حركات التحرر الوطنى ، والدول الاشتراكية
طابعا هاما للحركة السياسية فى العالم ، تدخل فى حسابات القوى
الاستعمارية ، كما تدخل فى حسابات القوى الشعبية المناهضة من أجل
التحرر والاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى .

ونجم عن انسحاب قوات العدوان بعد هزيمتها السياسية التي أدت إلى شلها العسكري ، مد ثوري في حركات التحرر في الدول النامية .

وكانت مصر قد أسهمت منذ أول نوفمبر ١٩٥٤ في مساعدة الشعب الجزائري في ثورته ، التي هددت الوجود الفرنسي في دولة عربية حاول الاستعمار أن يضمها إلى أرضه ، وينطق أبناؤها بلغة غير لغتهم .

وكانت الحكومة الفرنسية قد أرادت ضرب ثورة الجزائر عن طريق القاذورة ، وعنقها فشلت وانسحبت ، ارتفعت معنويات ثوار الجزائر ، وهددوا من هجمهم على قوات الاحتلال الفرنسية .

كان جمال عبد الناصر يساعد ثورة الجزائر بالمال والسلاح قبل أن تجلو قوات الاحتلال البريطانية عن أرض مصر في ١٨ يوليو ١٩٥٦ . وظل يواصل مساعدتها ، بعد أن جلت قوات العدوان للمرة الثانية في عام ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ .

تحولت خلال هذه الفترة المجيدة ، القومية العربية من كلمات نظرية وأصول تاريخية وارتباطات عرقية إلى حركة نضالية ترتوي بالدماء .

ولم تكن تنحصر ثورة يوليو في معركة القتال حتى توالت الانتصارات العربية تحققت وحدة الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ، والفجرت في العراق ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ وطنية تقدمية نزعحت حلف بغداد من أرضها وغيّرت اسمه ليصبح (الحلف المركزي) ، وتأثرت الأردن أيضا فسادها حكم وطني خلال ١٩٥٧ حتى انتكس الظروف سبق توضيحها في الباب السابع .

وكانت شخصية جمال عبد الناصر تلعب دورا رئيسيا في جذب القوى الوطنية والتقدمية خلال هذه المرحلة الصاعدة من مراحل النضال القومي .

وهنا لابد من القول أن الاعتماد المطلق على شخصية الزعيم المحبوب ليست أمرًا كافيًا إذ أن ذلك يتأثر بالعواطف والأهواء الشخصية .

لم تكن حركة الجيش حتى هذه الفترة قد استقرت على تنظيم سياسي ذي أيديولوجية واضحة وقادرة على استيعاب طاقات الجماهير ، واعتمدت على (الاتحاد القومي) بعد انتهاء دور (هيئة التحرير) .

ولم يكن الاتحاد القومي أكثر من تجمع شعبي ليست له لوائح تنظيمية أو ديموقراطية تسيطر عليه الجهات الإدارية وأجهزة الأمن ، ونظامه كان مقتبسا من البرتغال على عهد الفاشية أثناء حكم سالازار ، كما سبق توضيحه في الجزء الثاني (مجمع جمال عبد الناصر) .

٣. ضربت حركة الجيش للأحزاب السياسية على اختلاف مواقفها دون تمييز بين الأحزاب التقليدية الرجعية والأحزاب الناشئة التقدمية. عزل عن الحركة السياسية في مصر معظم العناصر التي كانت تهتم بالعمل السياسي بعيدا عن اغراء التبعية ، مؤمنة بمبادئ مختلفة هذا الموقف المضاد للحزبية في مصر انعكس أيضا على علاقات مصر بالدول العربية .

كان جمال عبد الناصر مقتنعا بأن تعدد الأحزاب يؤدي إلى تمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة خلافات مصطنعة ، إلى جانب تصوره بأن بعض الأحزاب يمكن أن تمتد جذورها إلى خارج الحدود . . . وهو موقف جديد لعبد الناصر ، فقد كان قبل حركة الجيش من المدافعين عن الوفد كحزب شعبي ، ومن المرتبطين بعدة أحزاب مختلفة (الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والحركة الديموقراطية للتحرر الوطني) . . . ولكن التطور حركة الجيش كان خافزا لها على ضرب الأحزاب لتنفرد وحدها بالسلطة ، التي يقف هو في قممتها .

وكما كانت الحال قبل الثورة اتصل عبد الناصر بالأحزاب العربية الوطنية والتقدمية في الدول العربية خلال أبعاده من الضباط الأحرار الذين ارتبط أغلبهم بأجهزة المخابرات تحت إشراف زكريا محيي الدين . . . اتصل هؤلاء الضباط أساسا بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ، والأحزاب الشيوعية في العراق والأردن وسوريا . . . والحزب الوطني الاشتراكي (سليمان النابلسي) في الأردن والحزب الوطني الديموقراطي (كامل الجادرجي) في العراق

٤. الأحزاب البرجوازية القديمة كانت قد تلاشت تدريجيا أمام الانقلابات العسكرية

٥. الحزب الوطني وحزب الشعب في سوريا ، وحزب الاستقلال في العراق وغيرها من الأحزاب ذبلت ولم يحاول جمال عبد الناصر أن يخلق معها صلة سياسية وطنية

وكان لهذه الأحزاب المنتشرة في الوطن العربي رأى في الأسلوب الذي اتبعه جمال عبد الناصر في مصر عماديا به فكرة تكوين الأحزاب أصتلا

حضر إلى مصر وفد من الساسة العراقيين بعد انتصار ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق وعلى رأسه كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديموقراطي الذي قال لعبد الناصر ان عنده قدرة التأثير على عبد الكريم قاسم ، وأن ملاحظته الوحيدة هي تعطيل الحريات السياسية في مصر .

طلب كامل الجادرجي من عبد الناصر إلغاء الاتحاد القومي وإعادة الأحزاب، حتى يمكن إقامة اتحاد فيدرالي .

كانت الأحزاب الوطنية التقدمية في العراق تخشى أن يسلك قاسم سلوك عبد الناصر في تثبيت سيطرة عسكرية على الحياة السياسية .

ولكن قاسم انتهج سبيلا آخر . . . سمح بتكوين أحزاب يقرها قانون أصدره ، توافرت له خلال مواده القدرة على التدخل وفرض إرادته على تشكيلاتها . .

رفض جمال عبد الناصر اقتراح كامل الجادرجي ، فازادته كانت قد استقرت على رفض الأحزاب ، واستكانت إلى تنظيمه الشكلي (الاتحاد القومي) .

وتبلور موقف عبد الناصر في رفض الأحزاب أيضا عندما تمت وحدة سوريا مع مصر ، وكان حزب البعث العربي الاشتراكي قد لعب دورا رئيسيا في تحقيقها خلال ضباطه المنبئين في الجيش ، وبتأثير نوابه في مجلس الشعب الذي كان يرأسه أحد زعماء الحزب أكرم الحوراني .

أصر جمال عبد الناصر على ضرورة حل جميع الأحزاب في سوريا مع توقيع بيان الوحدة بحرة، قلم ، ورضخ لذلك قادة حزب البعث كما قال لي أكرم الحوراني نتيجة للعوامل الآتية :

١ - الثقة الكبيرة في شخصية جمال عبد الناصر وحسبها القومي الواضح .

٢ - الرغبة الملحة في تحقيق أول انتصار للقضية الوحدة العربية .

٣ - ترجيح كافة الوحدة وظهور الجمهورية العربية المتحدة على كافة وجود الحزب إذا كان الإصرار على وجوده يمكن أن يشكل عائقا .

هذه هي العوامل التي أبرزها أكرم الحوراني ويمكن أن نضيف إليها أنه حظرت نشاط الأحزاب كان موجهها أساسا إلى الحزب الشيوعي السوري الذي كان نشاطه خلال هذه الفترة قد بلغ الذروة داخل الجيش وخارجه .

وعندما تمت الوحدة غادر خالد بكداش سكرتير العام سوريا ، بينما تولى أكرم الحوراني منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

وهنا يجب الإشارة إلى أن فرع الحزب في العراق قد رفض قرار الحزب ، وحافظ على تنظيمه ، لأن العراق لم يكن قد ارتبط بعد بالوحدة ، فلم يكن هناك مبرر يدفعه إلى الحل دون مقابل .

وكان أمرا طبيعيا أن يندفع الأمر بين الزعيم المحبوب وبين قادة الحزب المنحل إلى صدام ... فقد اعتاد الزعيم نوعا معيناً من القيادة وأسلوباً خاصاً في التعامل ، لم يستطع قادة البعث أن يدربوا أنفسهم على قبوله :

وكان الصدام أمراً محتوماً .

وخرج زعماء البعث من الحكم مستقيلين وحدهم بعد محاولة إظهار الاستقالة في طابع قومي يشترك فيه المصريون والسوريون ... ولكن قادة البعث لم يدركوا أن اختيار عبد الناصر للوزراء المتعاونين معه كان يمر خلال رؤية خاصة تؤكد له خضوعهم وتبعيةهم وعدم وجود رأى خاص لهم قادر على الأفراد بموقف شخصي مثل الاستقالة .

كانت المجموعة الحاكمة في مصر ، وخاصة من غير أعضاء مجلس قيادة الثورة مثل ذرات الحديد المنجذبة إلى مغنطيس شديد القوة ... بينما كان القادمون من سوريا قد اعتادوا على أسلوب الحياة الحزبية ، وتوافر حد أدنى من الديمقراطية .

وعقب مأساة الانفصال التي تورط بعض قادة البعث في تأييدها (أكرم الحوراني وصالح البيطار الذي تراجع عن موقفه) ، عاد الحزب محاولاً إعادة تشكيل تنظيماته .

وهرة أخرى يعتمد جمال عبد الناصر في صلاته العربية مع أحزاب أخرى في بلاد عربية مثل القوميين العرب ، والأحزاب السودانية (الوطنية الاتحادية والشعب الديمقراطي والشيوعي) وجبهة التحرير الجزائرية .

كان جمال عبد الناصر حريصاً على أن تعتمد صلاته مع الأحزاب المختلفة ليكون له من بين أعضائها أنصار ، ولينسق سياسته معها .

وكان قادة هذه الأحزاب العربية يجدون فيه زعيماً واسع الأفق ، عميق الاخلاص يخرجون من اجتماعاتهم معه وقد ازدادوا إعجاباً به وتقديراً له ... ولكنهم عند التعامل كانوا يصطدمون كثيراً بتصرفات فردية صغيرة من بعض ضباط المخابرات الذين كانوا يباشرون الاتصالات السياسية دون وعي سياسي ناضج أو حس شعبي عميق .

وليس في هذا الكلام نوع من التعميم ، ولكنه كان يشكل ظاهرة يشكو منها أغلب القادة العرب الذين تعاملوا مع ثورة يوليو من موقع مسئوليتهم الثورية بعيداً عن الارتباطات الخاصة التي يمكن أن تشوه علاقتهم وتلصق بهم شبهة العمالة .

ثورة يوليو ١٩٧٣ - ١٩٧٣

لم يحدث في تاريخ علاقات القاهرة مع حركات التحرر الوطني العربية وتنظيماتها المتعددة أن عقدت اجتماعات تنظيمية مع وفود من هذه الأحزاب ، مثل الاجتماعات التي كانت تعقد أحيانا بين وفد من الاتحاد الاشتراكي العربي ، وفود الأحزاب الاشتراكية أو الشيوعية في دول أوروبا الشرقية أو الغربية .

كانت محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ أكثر تمثيلا للحكومات منهيا للتنظيمات ، وهي على أية حال استثناء لم يتكرر ، فلم تعقد اجتماعات تنظيمية بين ممثلي حزب البعث العربي الاشتراكي والاتحاد الاشتراكي بعد ذلك .

والاجتماعات التي عقدت بين الاتحاد الاشتراكي وممثلي جبهة التحرير الجزائرية وغيرها من الأحزاب العربية لم تكن ذات طابع مستمر يمكن أن يسفر حقا عن تبادل الخبرة الحزبية أو دعم الصلات النضالية . أو تأكيد وحدة القوى التقدمية والثورية ، وهو الشعار الذي رفعه جمال عبد الناصر ونادى به ولكنه لم يتحقق أبدا بالصورة المرجوة .

الخطوة العملية الأولى في هذا المضمار ، كانت ندوة الاشتراكيين العرب التي دعا إليها هوارى بومدين وعقدت في الجزائر في مايو ١٩٦٧ قبل أيام محدودة من العدوان الاسرائيلي في ٥ يونيو .

وجرف العدوان الاسرائيلي أحلام الاشتراكيين العرب الذين التقت مدارسهم المختلفة في الجزائر لأول مرة ، فكان هناك الى جانب ممثلي جبهة التحرير الجزائرية ممثلون للاتحاد الاشتراكي العربي (مصر) وحزب البعث العربي الاشتراكي ، والأحزاب الشيوعية في السودان والأردن ولبنان وسوريا والحركات القومية (خلال هذه الفترة) في العراق .

جرف العدوان الاسرائيلي أحلام الاشتراكية في عقد صلات تنظيمية بينهم ، تذيب الحساسية بين مدارسهم المختلفة وتوحد أفكارهم وأهدافهم النضالية .

ولكن بقي عبد الناصر رمزا لوجود القدرة الشعبية على استيعاب الهزيمة وتجاوز آثارها والنضال من أجل تحويلها الى نصر ، وبقي أيضا رمزا للنضال العربي المشترك .

عندما قامت حركة الجيش السوداني في ٢٥ مايو ١٩٦٩ وأوفدني جمال عبد الناصر مع أحمد فسؤاذ الى قادة الثورة مندوبين عنه قال (أبلغوهم أنني على استعداد لوقف حرب الاستنزاف في منطقة القناة ومساعدتهم لانتصار الحركة اذا دعت الحال الى ذلك) .

كانت نظرة جمال عبد الناصر لا تقف عند حدود مصر مطلقا ، بل تتجاوزها الى الساحة العربية ، وتمتد أيضا الى أرجاء العالم ، تتعرفه على نبض حركات التحرر الوطني والمبادرة لمساعدتها .

لم يتردد جمال عبد الناصر في مساعدة لومومبا وثوار الكونغو ، وجعل من القاهرة مقرا لحركات التحرر الافريقية ، ولعب محمد فايق وزير الاعلام السابق دورا تاريخيا في حشد هذه القوات وربطها بالثورة المصرية ، وأرسل مساعدات لمسن باندرايكا في سيلان ، ووقف في صلابة الى جانب النضال البطولي الخارق لشعب فيتنام .

وأدان في كل هذه المواقف ، وفي جراحة وبسالة ، محاولات الامبريالية الأمريكية ومؤامرات مخابراتها المركزية .

وتحول جمال عبد الناصر مع الوقت الى صرح شامخ تلجأ اليه حركات التحرر الوطني وتعتمد عليه الى حد كبير في نضالها .

ويمكن تشبيه موقف القاهرة من حركات التحرر الوطني العربية في عهد عبد الناصر (اذا تجاوزنا عن الفروق والظروف المختلفة) بموقف موسكو من حركات التحرر الوطني في أرجاء العالم .

الموقف المبدئي للدولتين كان يدفعهما الى مساعدة الحركات الثورية بلا تردد ، وتقديم المعونات لها حتى ولو على حساب الشعوب التي تنتج أيضا من أجل الآخرين .

وكثيرا ما التقت العاهمتان في أسلوب مشترك لمساعدة الحركات الثورية كما حدث في اليمن عندما قدم الاتحاد السوفيتي طائراته الصلابة لتنقل القوات المصرية ، وقدم أيضا كافة الأسلحة المستخدمة مجانا وبلا حساب .

وقال لي وزير حربية مصرى أن الاتحاد السوفيتي لم يتقاضى مليدا واحدا عن ثمن كافة الأسلحة التي قدمت لمصر منذ عقد صفقة الأسلحة عام ١٩٥٥ الى وفاة جمال عبد الناصر ، وأنه كان يتنازل عن قيمة الاقساط عند حلولها ، تقديرا من الاتحاد السوفيتي للدور الكبير الذي كان يقوم به جمال عبد الناصر في محاربة الامبريالية والصهيونية التوسعية ، وتخفيفا للعبء عن الشعب المصري في كفاحه من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي نحو الاشتراكية .

وهكذا كانت مصر أيضا ، تبادر بتقديم المساعدات للحركات الثورية والدول العربية الفقيرة ، دون تردد ، أو تراجع لغرضه الأرقام أحيانا .

ثورة يوليو ١٩٥٢

وليس صحيحاً. ما يحاول البعض إثباته من القول بأن مساعدات مصر للدول العربية قد أثرت على دخل الشعب المصري وخفضت مستوى حياته ... وأنه كان أولى بأمواله أن تصرف على الخدمات بدلاً من صرفها على ثوان الجزائر. واليمن الشمالية واليمن الديمقراطية ، والسودان وغيرها .

قيمة هذه المساعدات مقارنة بدخل مصر لا تمثل نسبة كبيرة ، ولا تحقق أرغافاً مالياً شديداً ...

يقول محمد حسنين هيكل أن المساعدات التي قدمت لثورة الجزائر لم تتجاوز ٦٠ مليوناً من الجنيهات ، ويقدر أن ما صرف على ثورة اليمن هو مائة مليون جنيه سنوياً وهي مبالغ لا تحل مشاكل مصر ، ولم تصرف جميعها على غير أبناء مصر ، وهي نهايتها قد ساءت حركة التحرر العربي .

كان موقف جمال عبد الناصر في دعمه للنضال العربي في أي موقع موقفاً مبدئياً لا يتزعزع وهو يعبر بذلك عن ارادة الأمة العربية التي تدرك أن المستقبل هو في تحررها الكامل من السيطرة الامبريالية . ومحاصرة الصهيونية التوسعية داخل حدودها حتى تتمزق بتناقضاتها وهزلتها عن المنطقة .

وأخيراً ...

قد يكون الحديث عن (جمال عبد الناصر ... والعرب) حديثاً له بداية ، ولكن ليست له نهاية .

وسوف تثبت الأيام أن هذا الرجل العتاق ، الذي نبث في أرض مصر ، قد استطاع خلال سنوات حكمه المحدودة - وبكل ما كان فيها من مواقف وإجراءات تستحق النقد والمراجعة - أن يجعل من القومية العربية حقيقة تؤمن بها الجماهير ، وأن يتجرأ أول تجربة للوحدة العربية في القرن العشرين ، وأن يضع الأمة العربية على بداية طريق تعاون طويل ... طويل

أحمد حمروش

المراجع

العربية

الكتاب

- فلسفة الثورة .. جمال عبد الناصر
- خطب جمال عبد الناصر
- الناصرية .. عبد الله
- ما الذي جرى في سوريا .. محمد حسنين هيكل
- عبد الناصر والعالم .. محمد حسنين هيكل
- صلاح بن سالم .. الدكتور محمد العتصم
- العالم الثالث (قضايا وآفاق) .. س . جوكوف وآخرين
- تاريخ الاقطار العربية الحديث .. لوتسيكي
- السياسة الاستعمارية بعد .. فاخروشيف
- الحرب العالمية الثانية ..
- محاضرات محادثات الوحدة ..
- التقرير السياسي للمؤتمر ..
- القطري الثامن لحزب البعث في العراق يناير ١٩٧٤ ..
- المشاكل المباشرة للثوار الوطني لبنين
- مصر: ميد الثورة .. فاليكوبوتس

الاجنبية :

Army Officers in Arab,
Politics and Society,
Armée Et Politique Au Moyen,
Orient
Miles Copeland,
Nasser,
Middle East Politics,
Nasser,
Egypt Under Nasir,

Eleizer Be'eri.

Bernard Vernces.

Game of Nations,
Jean Lacoutur.

J. C. Hurwitz

Anthony Nutting.

R. Hrair Dekmejian.

شكر وعرفان لشخصيات عربية جديدة

اضيف الى اسماء السادة الذين تفضلوا بمنحوني بعض وقتهم للبحث والمناقشة والذين ظهرت اسمائهم في الجزء الأول والثاني من (قصة ثورة ٢٣ يوليو) اسماء السادة العرب الذين ساعدوني مساعدا قيما في معرفة الحقيقة وظهور هذا الجزء الثالث (جمال عبد الناصر .. والعرب) مرتبة بالحروف الأبجدية .

ولهم في عنق دين من الشكر والعرفان الى الأبد .

| | | |
|---------------------|--------|---|
| أحمد عبد الكريم | سوريا | وزير في عهد الوحدة وسفير سوريا في فرنسا حاليا . |
| أكرم الحوراني | سوريا | نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة |
| أكرم دوى | سوريا | وزير في عهد الوحدة ومدير مكتب الجامعة العربية في جنيف حاليا . |
| السيد حميد | العراق | لواء بالجيش العراقي سابقا . |
| أمين الحافظ | سوريا | رئيس جمهورية سوريا السابق . |
| أنور القاضي | مصر | فريق أول قائد القوات المصرية باليمن سابقا . |
| صلاح البيطار | سوريا | وزير في عهد الوحدة . |
| جمال حسين | العراق | رئيس وزراء سوريا السابق . |
| طارق عزيز | العراق | نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية العراقية . |
| جلست حسين | مصر | وزير الاعلام ورئيس تحرير (الثورة) العراقية . |
| عبد الرحمن البيطار | اليمن | لواء قائد القوات المصرية باليمن سابقا وعضو القيادة العربية المشتركة حاليا . |
| عبد الرحيم عبد الله | اليمن | نائب رئيس جمهورية ميانمار . |
| عبد الله السيلالي | اليمن | سفير اليمن السابق بالقاهرة . |
| عبد الله جزيلا | اليمن | رئيس جمهورية اليمن السابق . |
| عبد المجيد فريد | مصر | قائد القوات المسلحة اليمنية . |
| | | الملحق العسكري المصري بالعراق سابقا وسكرتير رئاسة الجمهورية وأمين الاتحاد الاشتراكي سابقا . |

| | | |
|---------------------------------|----------------|--|
| عبد المحسن مرتجى | مصر | فريق قائد القوات المصرية باليمن سابقا . |
| محمد علي الشهاري مصطفى حمدون | اليمن سوريا | مدير مكتب الرئيس السلالة سابقا . وزير في عهد الوحدة ونائب وزير الاصلاح الزراعي العراقي حاليا . |

الفهرس

| الموضوع | صفحة |
|---|------|
| ● مصر والعسكريون | |
| الاهداء | ٥ |
| مقدمة | ٧ |
| الباب الأول | ١١ |
| الفصل الأول : محمد على واليا وابو خليل قائدا للجنود | ١٣ |
| الفصل الثاني : الاميرالاي عرابى ثائرا وقائدا | ٤٣ |
| الفصل الثالث : الجيش المصرى تحت الاحتلال البريطانى | ٦٣ |
| الباب الثانى : الجيش والحركة السياسية فى مصر قبل الثورة | ٨٧ |
| الفصل الرابع : نضال الشعب وموقف الجيش بعد معاهدة | |
| ١٩٣٦ | ٨٩ |
| الفصل الخامس : حرب فلسطين ١٩٤٨ | ١٢٧ |
| الفصل السادس : الضباط الاحرار | ١٤٣ |
| الباب الثالث : الجيش فى السلطة | ١٧٥ |
| الفصل السابع : حركة ٢٣ يوليو | ١٧٧ |
| الفصل الثامن : الواقع الاجتماعى والطبقى للضباط | |
| الاحرار | ٢٠٦ |
| الفصل التاسع : سقوط الملك | ٢٢١ |

| الموضوع | صفحة |
|--|------|
| الفصل العاشر : الضباط في السلطة لأول مرة . . | ٢٣٥ |
| الباب الرابع : سنوات الصدام | ٢٥١ |
| الفصل الحادي عشر : سنوات الصدام | ٢٥٣ |
| الفصل الثاني عشر : إلغاء الدستور وحل الأحزاب | ٢٦٥ |
| الفصل الثالث عشر : اعتقال الشيوعيين | ٢٨٩ |
| الفصل الرابع عشر : حل الإخوان المسلمين | ٣٠٣ |
| الفصل الخامس عشر : صدام الضباط | ٣١٣ |
| الفصل السادس عشر : الصدام الأخير | ٣٣١ |

● مجتمع جمال عبد الناصر

| | |
|---|-----|
| اهداء | ٣٦٩ |
| مقدمة | ٣٧١ |
| الباب الأول : سنوات الصعود | ٣٧٥ |
| الفصل الأول : تحرير مصر والعردان | ٣٧٧ |
| الفصل الثاني : مع الحياة . . ضد الأحلاف | ٤٠٥ |
| الفصل الثالث : السوفيت في المنطقة | ٤٢٥ |
| الفصل الرابع : القناه والعدوان | ٤٥٥ |
| الباب الثاني : العسكريون في مركز السلطة | ٤٨٩ |
| الفصل الخامس : زحف العسكريين نحو السلطة | ٤٩١ |
| الفصل السادس : الحيرة والاختيار | ٥٢٣ |
| الباب الثالث : مجتمع عبد الناصر | ٥٦١ |
| الفصل السابع : محاولة لثورية جديدة | ٥٦٣ |

| الموضوع | الصفحة |
|--------------------------------------|--------|
| الفصل الثامن : في كواليس القيادة | ٢١ |
| الفصل التاسع : طليعة الاشتراكيين | ٥٧ |
| الفصل العاشر : مجتمع جمال عبد الناصر | ١٤٩ |
| شكر وعرفان | ٦٦٣ |
| المراجع العربية | ٦٦٧ |
| المراجع الأجنبية | ٦٦٨ |

● عبد الناصر والعرب

| | |
|---|-----|
| امضاء | ٦٧٦ |
| مقدمة | ٦٧٧ |
| الباب الأول : العسكريون والمصريون | ٦٧٩ |
| الباب الثاني : سوريا الوحدة والانفصال | ٦٩٦ |
| الفصل الأول | ٦٩٧ |
| الفصل الثاني : اعلان الوحدة | ٧١٥ |
| الفصل الثالث : مأساة الانفصال | ٧٣٧ |
| الفصل الرابع : مصر وسوريا بعد الانفصال | ٧٦١ |
| الباب الثالث : القاهرة وبغداد | ٧٨٣ |
| الفصل الأول : الانقلابات العسكرية في العراق | ٧٨٥ |
| الفصل الثاني : ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ | ٧٩٩ |
| الفصل الثالث : سقوط عبد الكريم قاسم | ٨١٩ |
| الباب الرابع : اليمن السعيد | ٨٣٥ |
| الفصل الأول : الإمامة في اليمن | ٨٣٧ |

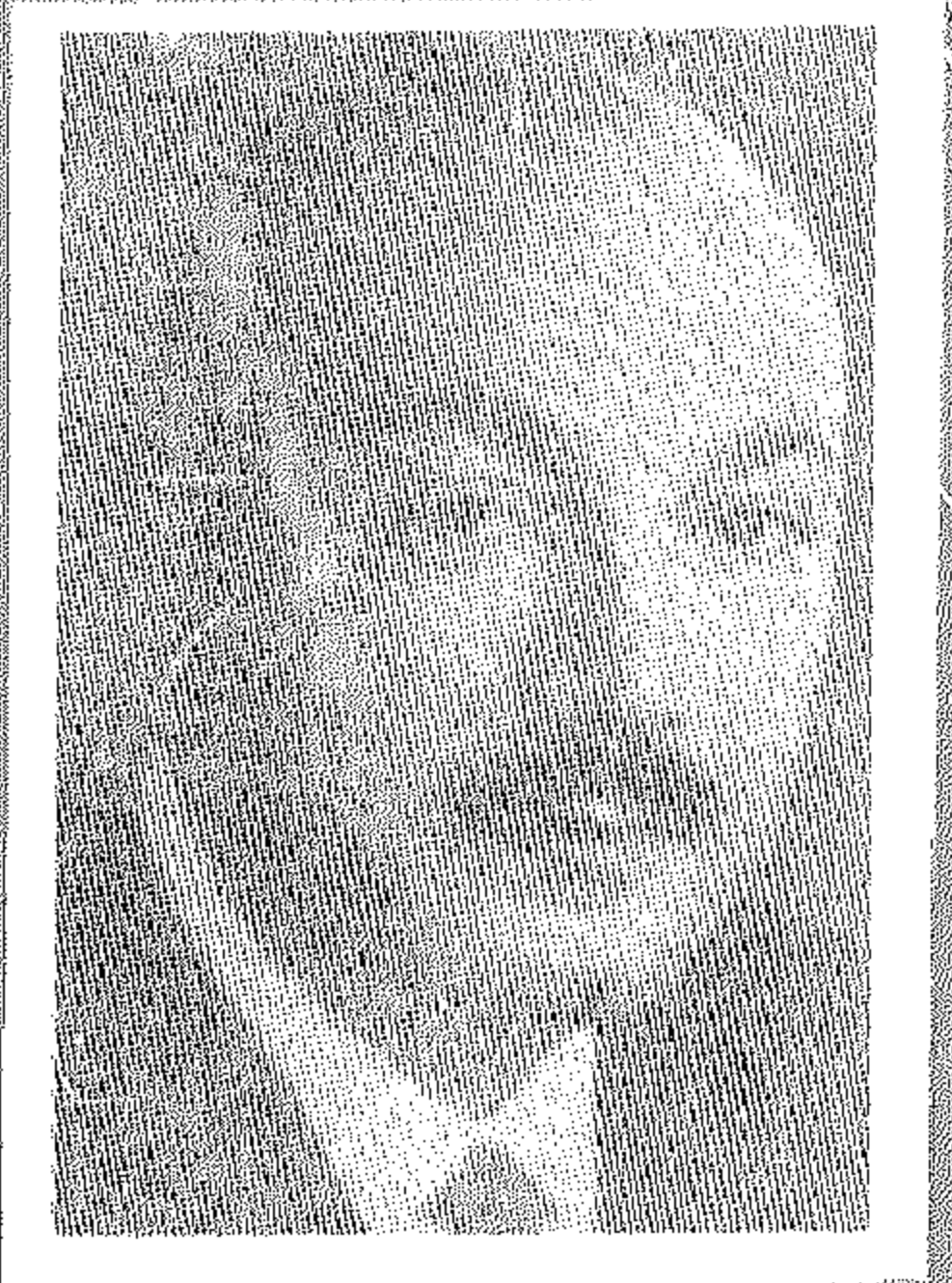
| الموضوع | صفحة |
|---|------|
| الفصل الثاني : ثورة اليمن | ٨٥١ |
| الفصل الثالث : العسكريون المصريون في اليمن | ٨٦٥ |
| الباب الخامس : مصر والسودان | ٩٠١ |
| الفصل الأول : نضال مشترك ضد الاستعمار البريطاني | ٩٠٣ |
| الفصل الثاني : السودان .. وحركة الجيش المصري | ٩٢٧ |
| الفصل الثالث : الاستقلال .. وانقلاب الجنرالات | ٩٤٥ |
| الفصل الرابع : ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ | ٩٦٣ |
| الباب السادس : الجزائر .. عربية | ٩٨٥ |
| الفصل الأول : الجزائر قبل الاستقلال | ٩٨٧ |
| الفصل الثاني : الجزائر .. بعد الاستقلال | ١٠٠٩ |
| الباب السابع : الأردن | ١٠٣٥ |
| الباب الثامن : لبنان | ١٠٥٥ |
| الباب التاسع : جمال عبد الناصر .. والعرب | ١٠٦٥ |
| المراجع | ١٠٧٧ |
| شكر وعرفان | ١٠٨٧ |

General Organization of the Alexan-
dria Library (G.O.A.L.)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع يدار الكتب ١٩٩٢/١٥٤٥

ISBN — 977 — 01 — 2941 — 0



مؤلف هذا الكتاب الأستاذ أحمد حمروش أحد الضباط
الأحرار الذين شاركوا في صنع ثورة ٢٣ يوليو تحت قيادة جمال
عبد الناصر .

وكان يعمل بالكتابة وهو ضابط في المدفعية بالجيش
المصرى ... فكتب مقالات في جريدة الأهرام والفصول .. وأصدر
ورأس تحرير مجلة (التحرير) أول مجلة لحركة الجيش
صدرت في ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ ، ومن بعدها أصدر ورأس تحرير
مجلة الهدف عام ١٩٥٥ ، والكتاب عام ١٩٦١ ، وروزاليوسف
عام ١٩٦٤ ، وأصدر ١٥ كتابا في السياسة والقصة والمسرح
وأدب الرجال .

تعد دراسته عن ثورة ٢٣ يوليو التي تصدر في ثمانية أجزاء
أكبر أعماله حيث تتميز برؤيته كأحد جنود ثورة يوليو ، وهي
حصيلة جلسات حوار طويلة مع زملائه الذين شاركوا في صنع
الثورة ، وتحملوا مسئولية مسيرتها ، ومع السياسيين الذين
عايشوا أحداثها الكبرى .

والجزء الأول الذي يصدر عن هيئة الكتاب يضم ثلاثة أجزاء
هي مصر والعسكريون ، ومجتمع جمال عبد الناصر ،
وعبد الناصر والعرب ... ويعقبه جزآن آخران الثانى يضم
خريف عبد الناصر ، وغروب يوليو ... والثالث يضم قصة
٢٣ يوليو مع الديمقراطية والاشتراكية .

٢١٠٠ قرش